مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجَلَّدُ الخَامِسُ والثَّلاثونَ

سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63

موسوعة التفسير البلاغي

Government of Sharjah حكومة الشارقة
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

مَوْسُوعَة التَّفْسِيرِ البَلَاغِي

المُجَلَّدُ الخَامِسُ والثَّلاثونَ

سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63

نُخْبَةٌ مِنْ عُلَمَاءِ مَجْمَعِ القُرْآنِ الكَرِيمِ بِالشَّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2024

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخامس والثلاثون،
سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م

الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 35 ، 804 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-77-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 35 : المجلد الخامس والثلاثون، سورة الحَجّ من الآية 51 إلى سورة المؤمنون الآية 63.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-77-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7984898 بتاريخ 2024/11/14م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ السَّابِعَ عشَرَ

سُورَةُ الحَجّ

﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ٥١﴾

[الحج: 51]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ حال أهل الكفر ومآلِهم بعدَ ذِكْرِ حالِ أهل الإيمان وجزائهم

لمّا ذَكَرَ الله حالَ أهل الإيمان والعمل الصّالح أتبعه بذِكْر حال أهل الكفر والعمل الطّالح، الذين لم يستمعوا لهذا النَّذير المبين، ولم يَستضيئوا بالنّور الَّذي معه؛ بل تصدَّوا لهذا النُّور، وأرادوا أنْ يُطفئوه بأفواههم، وبما يخرجُ منها من أكاذيبَ وأضاليل، فهؤلاء هم أصحاب الجحيم، وليس لهم من صاحب إلّا جهنم وما تُمدّهم به من عذابٍ أليم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَعَوۡاْ﴾: السَّعْيُ أَصْلُهُ المَشْيُ السَّريع، وهو دونَ العَدْوِ[2]، يُقال: سعى؛ إذا مَشى، وسعى إذا عدا، وسعى إذا عَمِل، وسعى إذا قصَد[3]، وقالَ الزَّجّاجُ: أصلُ السَّعْيِ في كَلامِ العَرَبِ التَّصرُّفُ في كُلِّ عَمَلٍ؛ ومِنْهُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿وَأَن لَّيۡسَ لِلۡإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ٣٩﴾ [النجم: 39]؛ مَعْناهُ إلّا ما عَمِلَ، وكلُّ عملٍ من خَيْرٍ أو شَرٍّ سَعْيٌ، والفِعلُ كالفِعْلِ[4]، فالسَّعْي المَشْيُ الشَّديدُ، ويُطْلَقُ على شِدَّةِ الحِرْصِ في العَمَلِ تَشْبيهًا لِلْعامِلِ الحَريصِ بالماشي الشَّديد المَشْيِ في كَوْنِهِ يَكِدُّ للوُصولِ إلى غاية[5].

ويُطْلَقُ السَّعْيُ على العملِ في الأمرِ لإفسادِه وإصلاحِه، ومن

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ للقرآن: 9/ 1059، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 235.
(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سعى).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سعى).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سعى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 295.

استعمالِه في الإفسادِ قولُه تعالَى هنا: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾، ومِنْ إطلاقِ السَّعيِ في العملِ للإصلاحِ قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ وَكَانَ سَعۡيُكُم مَّشۡكُورًا ٢٢﴾ [الإنسان: 22]، ومِن إطلاقِ السَّعيِ على الخيرِ والشَّرِّ مَعًا قولُه تعالَى: ﴿إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾ [الليل: 4][1]، والسَّعيُ المُراد هُنا سعيُ المشركين واجتهادهم المجادلة والتعجيز في الآيات، وهو سعيٌ للباطل والضَّلال[2].

2) ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾: (عجز) أصلٌ يَدُلُّ على الضَّعْفِ، يُقال: عَجِز عن الشَّيْءِ يَعْجَزُ عَجْزًا، فهوَ عاجِزٌ؛ أيْ: ضَعيفٌ، ويُقالُ: أَعْجَزَني فُلانٌ، إذا عَجِزْتُ عن طَلَبِهِ وإدراكِهِ[3]، والمُعاجِز: الطَّريقُ؛ لأنَّه يُعيي صاحبَه لطولِ السُّرَى فيهِ[4]، والإعجاز: الفَوْت والسَّبق، يُقال: أعجزني فلانٌ؛ أيْ: فاتَني، وقيل: إذا عَجزتَ عن طلبه وإدراكه[5]، ويُقال: فلانٌ يُعاجِزُ عن الحَقِّ إلى الباطِل؛ أيْ: يَلْجأُ إليْهِ[6]، والمقصود بالمُعاجِزِ في الآية: المُسابِقُ الطّالِبُ عَجْزَ مُسايِرِهِ عن الوُصولِ إلى غايَتِهِ وعن اللِّحاقِ به[7].

3) ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾: (جحم) أصلٌ يدلُّ على الحَرارَةِ وشِدَّتِها، فالجاحِمُ هو المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ[8]، والجَحيمُ: اسمٌ من أسماء النّار، وكلُّ نارٍ عظيمةٍ في مَهْواةٍ فهي جَحيمٌ[9]، والمُراد بها في الآية: النّار المُؤَجَّجة، وتُطْلَقُ عَلَمًا على جَهَنَّمَ دارِ عَذاب الآخِرَة[10].

المَعْنى الإجماليُّ:

يُخبر الحقُّ تعالى عن سوء عاقبة المُصِرّين على كفرهم فيقول: والذينَ سَعَوْا بكلِّ ما أوتوا من قوّةٍ في إبطالِ آياتِ القُرآنِ ورَدِّها مُعانِدينَ ومُشاقّينَ لله وظانّينَ أنَّهم يُعجِزونَ اللهَ فلا يَقدِرُ عليهم، أو يَغلِبونَ أولياءَه فلا يَنصُرُهم؛ فهؤلاءِ هم أصحاب الجحيم

(1) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 283.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 524، والخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1059.
(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عجز).
(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عجز).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (عجز).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 295.
(8) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (جحم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جحم).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 350.

العذابُ والرِّجزُ الألـيـم جـزاءُ المجرمين

المُلازِمون للنّار الشَّديدة التأجُّجِ والإحراق، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ٢١﴾ [يوسف: 21][1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة وصْل هذه الآية بسابقتها تقديمًا وتأخيرًا:

المُـقـابـلـةُ بين عـاقـبـة الأبــرار والفُجّار بتفصيل حاليهما

يَحسُن الوصلُ بين الجُمَل المترابطة لفظًا ومعنًى؛ فكلتا الآيتَيْن تتحدّثان عن عاقبة الفريقَيْن، إذْ أُريد بقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾ الفريقُ المُقابل للذين آمنوا؛ ومعناه: والذين استمرّوا على الكفر وثبَّطوا النّاس عن مُتابعة النَّبي ﷺ ظَنًّا منهم أنَّهم يُعجزوننا وأنَّهم لا يبعثون؛ فأولئك هم المُقيمون في النّار المُصاحبون لها، وذلك حال المشركين المُتحدَّث عنهم[2]؛ فهو تفصيلٌ لحال فريق المُشركين بعد تفصيل حالِ فريق المؤمنين، حيث بَشَّر المؤمنين أوَّلاً وأنذر الكافرين ثانيًا، ومن عادة القرآن إذا ذُكر فريق الإيمان أنْ يُعقبه بذِكْر فريق الكُفران، والعكس صحيح، وإنَّما قدَّم ﷻ ذِكْرَ الفريق الأول تنبيهًا على تفضيل أهل الإيمان، وأنَّهم المُقدَّمون المنصورون؛ نظرًا إلى قوله في السِّباق البعيد: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: 25] الآية، وقوله فيه: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [الحج: 38] الآية، وقوله فيه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ﴾ [الحج: 39] الآية، وقوله فيه: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم﴾ [الحج: 40] الآية، وتبشيرًا لنبيِّنا ﷺ باستجابة أكثرِ أهل الكفر من قومه لدعوته، ودُخولِهم في دين اللّه أفواجًا، وقد كان.

إيثارُ فعل (السَّعي) ماضيًا، مجموعًا:

إنَّ قـلـيـلاً من الصَّدِّ عن سبيل الـلـه يستوجب الجحيم

لَمّا كان سياقُ الآية الكريمة في الإنذار؛ فقد قال اللّه تعالى مُعبِّرًا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 601، 602، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 128، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 441.

(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 126، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 295.

بالماضي زيادةً في التَّخويف: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾؛ أيْ: أوقَعوا السَّعي ولو مرَّةً واحدةً بشُبهةٍ من الشُّبَه[1]، وأسند الفعل إلى واو الجماعة؛ دالًّا على كثرتهم وتكاتفهم في باطلهم؛ لبيان أنَّ قوّتَهم وقدرتهم مهما عظُمت سوف تكون هباءً منثورًا حين يدخلون الجحيم.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليّةِ في التَّعبير عن تَفَنُّنهم في التَّكذيب بالسَّعي:

يسعى المجادل في آيات الله في طريق نهايتها هلاكه

السَّعيُ في الأصل هو المشيُ الشَّديد، ويُطلَقُ على شِدَّة الحرص في العمل تشبيهًا للعامل الحريص بالماشي الشَّديد المشي في كونه يَكِدُّ للوصول إلى غاية، وعبَّر عن استمرار الكافر على الكفر ومحاربة الآيات بالسَّعي في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ﴾؛ والكلام تمثيلٌ شُبِّهت هيئة تفنُّنهم في التَّكذيب بالقرآن، وتَطَلُّبِهم المعاذيرَ لنقض دلائله حيث يسعَون في إعجاز آيات الله وغَلَبتها وصَرْفها عن طريقها، حيث طعنوا فيها فسمَّوها سحرًا وشعرًا وأساطيرَ الأولين، وثبَّطوا النّاس عن الإيمان بها[2]، وتعرُّضِهم بالمجادلات والمُناقضات للنَّبي ﷺ بهيئة السّاعي في طريق يُسابق غيره ليفوزَ بالوصول[3]، ثمَّ حُذف المُشبَّه وأُبقي المُشبَّه به على سبيل الاستعارة التّمثيليّة ليكون تجسيدًا لحال الكافرين وتشخيصًا لصورتهم العقليّة بهيئة حسيّة.

والكلام على هذا المعنى مبنيٌّ على الاستعارة المَكنيَّة، كأنَّ الآيات طريقٌ يسيرون فيه سَيْرًا حثيثًا ليُعجزوا اللّهَ، فشبَّه الآيات المُضافة للّه تعالى بالطَّريق الذي يسعى فيه الإنسان، وحذَفَ المُشبَّه به وذَكَرَ صفةً من صفاته وهو وقوع السَّعي فيه، وهذا يُبيِّن شِدَّة فسادهم وإفسادهم؛ فهم يعدون في هذا الطريق إفسادًا للدّين ومناقضةً لسبيله المُبين.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 68.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 524، والخطيب، التّفسير القرآنيّ: 9/ 1059.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 295.

نكتة تعدية الفعل ﴿سَعَوۡاْ﴾ بـ ﴿فِيٓ﴾:

بيان انغماسهم في الكيد وإيغالهم في التّلبيس

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ سَعَوۡاْ فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أيْ: عملوا في حُججنا ردًّا وإبطالًا، فصدّوا عن اتّباع رُسولنا والإقرار بكتابنا الذي أنزلناه، وقال: ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾ تعديةً للسَّعي بـ ﴿فِيٓ﴾ كما يُقال: سعى فلانٌ في أمر فلانٍ[1]، ففي تعدية الفعل بحرف الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الذي يُفيد الظّرفيّة إشارةٌ إلى أنَّهم يدخلون في آيات اللّه، ويُلبِّسون الحقَّ بالباطل، إذ يُحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويُلْقون فيه بالهَذْر من القول، والسَّخف من الكلام، كما حكى القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ ٢٦﴾ [فُصِّلت: 26][2]، فالظّرفيّة مجازيّة أُريد بها التّغلغل داخل الآيات للرّدّ والإبطال والتّكذيب حرصًا منهم على شدَّة المحاولة المناسبة للسّعي معاجزين ومغالبين للفوز به.

سِرُّ التّعبير بـ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ جمعًا:

في كلِّ آيةٍ حُجّةٌ عليهم

قوله تعالى ﴿فِيٓ ءَايَٰتِنَا﴾؛ أيْ: براهيننا وحُججنا التي نصبناها للدَّلالة علينا مرئيّةً أو مسموعةً[3]؛ فالآيات إمّا كونية كالشَّمس والقمر، وإمّا معجزات، وإمّا آيات الأحكام، وسَعَوْا فيها يعني: قالوا فيها قوْلًا باطلًا غير حقٍّ، كما يسعى الواشي بالباطل بين النّاس، فهؤلاء إنْ نظروا في آيات الكون قالوا إنَّها من صُنع الطَّبيعة، وإنْ شاهدوا مُعجزةً على يد نبيٍّ قالوا: سِحرٌ وأساطيرُ الأولين، وإنْ سمعوا آياتِ الأحكام تُتْلى قالوا: شعرٌ، وهم بذلك كُلِّه يُريدون أنْ يُفسِدوا على أهل الإيمان إيمانَهم، ويصدّوا عن سبيل اللّه[4].

سِرُّ إضافة الآيات إلى ضمير التَّعظيم:

كيف يُعدَل عن العظيم؟!

في إضافة (الآيات) إلى ضمير العظمة والكبرياء دليلٌ على

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 130.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1059.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 68.
(4) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 16/ 9871.

عظمة شأن هذه الآيات؛ لأنَّها صادرةٌ عن العظيم ﷻ وتقدَّست أسماؤه، وفي هذه الإضافة من التّعظيم والتَّشريف ما فيها مما يدعو الإنسان إلى الإيمان بها وتصديقها، وفي هذه الإضافة كلُّ ذمٍّ للذين سعوا بالرّدّ والإبطال؛ كيف تجاهلوا تلك العظمة الإلهيّة في تلك الآيات على تعدُّدها وكثرتها وتنوُّعها؟! وكأنّ الإضافة أفادت تعليلَ ذلك السَّعيّ الشّديد بأنّها منسوبةٌ إلى اللّه تعالى، ولو كانت تلك الآياتُ منسوبةً لغيره ما حاربوها ولا ناصبوها العَداء.

دلالة التَّعبير بصيغة المفاعلة ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

إنَّما ألجأهم إلى التَّكلُّف وبذل الجهد في الفعل عظمةُ الآيات

لفظ ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ جمع اسم الفاعل (معاجِز)؛ وهي من (عاجَزَ) وليس من (عجز) عن كذا؛ يعني: لم يقدر عليه، يُقال: عاجَزَ فلانٌ فلانًا يعني: باراه أيُّهما يَعجَزُ قبل الآخر، فعاجزَهُ مثل باراهُ وغالبَهُ ليُثبتَ أنَّه الأفضل، إذن: فالمعاجزةُ مفاعلةٌ ومشاركةٌ دالَّةٌ على التَّكلُّف وبذل الجهد المُضني في المُشاقَّة والمُخاصمة[1]، وهذه الصّيغة مُؤسَّسةٌ على دلالة إضافة الآيات إلى صيغة العَظَمَة في قوله: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ فمَن يسعى في تلك الآيات العظيمة بالباطل ردًّا ونقضًا لابدّ أن يكون مُعاجِزًا بهذه الصّيغة، باذلاً جهدًا قويًّا ليتمكَّن واهمًا من الرَّدِّ والإبطال.

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبير عن المُشاقَّة بالمُعاجَزة:

بيان تكرار المُحاولة والمجادلة من الكفّار

المُعاجزة مُستعارةٌ للمُشاقَّة مع المؤمنين ومُعارضتهم من قبيل الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعية، وتصوّرُ محاولة أهل الكفر واجتهادَهم في مجادلة أهل الإيمان بكلِّ إصرارٍ وقوة للفوز عليهم في المُحاجَجَة والخصومة، وكأنَّهم في حَلَبَة سباقٍ يتسابقونَ في الرَّدِّ والإنكار على المؤمنين والآيات، فكُلَّما طلب المؤمنون إظهار الحقِّ

(1) الشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 16/ 9871.

طلب هؤلاء إبطالَه كما يُقال: (جاراه في كذا)[1]، والمرمى من هذا المجاز أنَّ هؤلاء المشركين يبذلونَ الجهدَ الشّديدَ، ويتبارونَ فيما بينهم متنافسينَ للخوض في آيات اللّه تعالى؛ لكي يفوزوا بأكبر ردٍّ أو نقضٍ لها وهمًا منهم.

توجيهُ القراءتَيْن في قوله: ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾:

جَمْعُ أهل الكُفْرِ بَيْنَ ضَلالهم في أنفسهم وإضلالِهم غيرهم

قرأ الجمهور ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ بألف بعد العين، بينما قرأها ابن كثير وأبو عمرٍو البصريُّ ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بفتح العين وتضعيف الجيم[2]، وعلى قراءة الجمهور ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ يكون معنى: مُسابقين مشاقّين للسّاعين فيها بالقبول والتَّحقيق، مِن: (عاجَزَهُ فأعجزه): إذا سابقه فسبقه؛ لأنَّ كلاًّ من المتسابقينَ يطلب إعجازَ الآخر عن اللُّحوق به[3]؛ فالمعنى: مُعاندين، وقيل: معناه: ظانّين أنَّهم يغلبونَ الرَّسول وأتباعَه، وقيل معناه: يحسبونَ أنَّهم يفوتوننا لإنكارهم البعث والثَّواب والعقاب، فلا نقدر على إعادتهم ومُعاقبتهم[4].

وعلى قراءة ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ بتشديد الجيم يكون المعنى: مُبطِّئين مُثبِّطين؛ أيْ: يُثبِّطون النّاس عن اتِّباع الحقّ، وقيل معناه: ينسبون المؤمنين إلى العجْز[5]؛ فهما قراءتان مشهورتان مُتقاربتا المعنى؛ وذلك أنَّ من عجَّز المؤمنين عن آيات اللّه، فقد عاجزَهم وغالبهم وفاز عليهم، وكان من صفة القوم الذين أنزل اللّه هذه الآيات فيهم أنَّهم كانوا يُبطِّئون النّاس عن الإيمان باللّه واتباع رسوله، ويُغالبون رسول اللّه ﷺ يحسبون أنَّهم يُعجِزونه ويغلبونه، وقد ضَمِنَ اللّه له نصرَهُ عليهم، فكان ذلك مُعاجزتهم اللّه[6].

(1) القاسميّ، محاسن التَّأويل: 7/ 253.
(2) ابن الجَزَريّ، النَّشر: 2/ 327.
(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 75.
(4) ابن خالَوَيه، الحجّة، ص: 254، والأزهريّ، معاني القراءات: 2/ 185، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 284.
(5) ابن زَنْجَلَة، حُجَّة القراءات، ص: 481.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 602.

ومِن بلاغة القراءتَيْن تعاضدهما وتكاملهما في تصوير مشهد أهل الكفر وهم يصدّون عن سبيل اللّه؛ فقراءةُ: ﴿مُعَجِّزِينَ﴾ تُقرِّر حالهم وهم يُعاجزون في آيات اللّه العظيم.

دلالةُ اسم الإشارة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الصّادّون عن سبيل الله هم خطر هذا الكون

الإشارةُ إلى السّاعين في الآيات معاجزين باسم الإشارة المُفيد للبُعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ المُشارَ إليهم هم المُتّصفون بما سبق ذِكرُهُ من الصّفات، وهي الكُفرُ باللّه والتّكذيب بآياته، والسَّعي في محاربة اللّه وأوليائه وهم الحقيقون بهذا البُعد من رحمة اللّه، وهم الأحرى بهذا الجزاء الذي كتبه اللّه الدّيّانُ الحسيبُ لهم.

والتّصدير باسم الإشارة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ للتَّنبيه على أنَّ هؤلاء البُعَداء المُخبَر عنهم، جديرونَ بما سَيَرِدُ بعد اسم الإشارة من الحكم لأجل ما ذُكِرَ قبله من الأوصاف؛ أيْ: (هم أصحاب الجحيم؛ لأنَّهم سعَوا في آياتنا مُعاجِزين)[1]؛ ففي تمييزهم باسم الإشارة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ لما قبله من السَّعْي المذكور؛ لَمّا كان سببًا قويًّا في استحقاقهم الجحيم.

سرُّ التَّعبير بالصُّحبة:

الإصرار على الكفر مصاحبةٌ للجحيم

عُبِّر بالصُّحبة في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ للتّنبيه على معنى المُلازَمة للجحيم؛ والمعنى: أنّ أولئك أهل النّار الموقَدة المُتأجِّجة المُلازمون لها، المصاحبونَ لها في كلّ أوقاتهم، المُستحقّون دخولها، الماكثون فيها أبدًا لا يُحوَّلون عنها، فلا يُخفَّفُ عنهم من عذابها ولا يَفتَرّ عنهم لحظةً من أليم عقابها[2]، فلا يزالون في ذلك بسبب كفرهم وإنكارهم البعث وتكذيبهم الرَّسول وسعيهم، فلمّا كانت الصُّحبة تقتضي المُلازَمَة، صرَّح بها، وإنَّما لزِموا الجحيم؛

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 69، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 296.
(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 638، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 325.

للزومهم الكفر والضَّلال والإضلال؛ بسبب سعيهم في آيات اللّه مُعاجِزين وصادّين عنها.

نكتة التَّعبير بلفظة ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ اسمًا لا فعلًا:

الـدَّلالـة على الاســتـقـرار والمُلازَمَة الثّابتة الدّائمة

استعمل لفظ ﴿أَصۡحَٰبُ﴾ المجموع من الوصف (صاحب) مُرادًا به الاسم الجامد، لدلالته على الذّات الثّابتة؛ لذلك جاءتْ مُشتقّاتُها في القرآن الكريم اسميّةً أكثرَ منْ مجيئها فعليّةً؛ لأنَّ الصُّحبة أمرٌ إذا حصل فإنّه يستمرُّ ويستقرُّ ويدومُ، والصّاحبُ مَن لازمَ أبدًا[1]، فالاسميّة أليقُ بهذا اللَّفظ؛ لذلك جاءَ هذا المعنى في أغلبِ مواطنِ وُروده في آيات القرآن بهيئة الاسميّة، ومنْه هذه الآية، دلالةً على ثبات حال الموصوفين بها، وفي ذلك من التَّرهيبِ لَمن أصرَّ على كفره وغيِّه ما لا يخفى؛ فإنَّ الصُّحبةَ في هذا السّياقِ لها دلالتان: دلالةُ المآلِ، ودلالة الحال؛ فإنَّ إطلاقَ الصُّحبةِ للجحيم على الكافرين المُصرّين يُصوِّرُهم على أقبحِ صورةٍ في الدُّنيا، ممّا يجعل الآخرينَ ينفِرون منهم ويُخبِرُ بمآلِهم في الآخرةِ؛ فيكون المعنى أنَّهم مُلازِمون للجحيم على سبيل الثُّبوت والاستقرار وعدم التَّغيُّر.

بلاغة المجاز في وصفهم بأنَّهم أصحاب الجحيم:

بـيـان شِـــدَّة المُـلازمـة لها وعدم مُفارقتهم إيّاها

قوله تعالى: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾؛ أيّ: مُلازموها ومُلابسوها بحيث لا يُفارقونها حسب ملازمتهم في الدُّنيا لما يَسۡتَوۡجِبُها من الأسباب، فعبَّر النَّظم الكريم عن هذه المُلازمة بـ(الصُّحبة) بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة الأصليّة، ومعنى الصُّحبة في الأصل: الاقترانُ بالشَّيء، والغالب في العُرف أنْ تُطلقَ على الملازمة؛ ففي الصُّحبة معنى الوصل، فسُمّوا أصحابها لاتصالهم بها وبقائهم فيها، فكأنَّهم ملكوها فصاروا أصحابها؛ والمُراد أنَّهم يدومون فيها؛

(1) الرّاغب، المُفردات: (صحب).

فقد شبَّههم من حيث الدَّوام بالصّاحب[1] وفيها من الإشارة أيضًا أنّه لا أهليَّة لهم للجنَّة، وفيه أنّهم أَلِفوا الكُفر والضَّلال في الدّنيا؛ بدليل السَّعي المذكور؛ فاستحقوا صحبة الجحيم في الآخرة.

إيثار لفظ ﴿ٱلۡجَحِيمِ﴾ دون (النار) وغيرها:

آثر النَّظم الكريم التَّعبيرَ عن (النّار) باسم من أسمائها يدلُّ على شِدَّة تَوَهُّجها وحَرِّها، زيادةً في التَّرهيب منها وتحذيرًا من السُّبل الموصِلة إليها، ومبالغةً في تهديد أصحابها؛ فهي النّار الحارَّة الموجِعةُ الشِّديدُ عذابُها ونَكالُها[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصّاحِب والصَّديق:

في الصُّحبة ملازمةٌ، وفي الصَّداقة صدقٌ ومودّةٌ

(الصّاحب) من الصُّحبة في الزَّمان والمكان، وقد تكون صحبتُه مُؤقّتةً في الطّريق؛ مثل العبد الصّالح مع موسى: ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ﴾ [الكَهۡفُ 76]، أوَ في المكانِ؛ مثلُ يوسفَ مع صاحبيه في السِّجن: ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٣٩﴾ [يوسُفَ: 39]، وقد تكون الصُّحبةُ مؤبَّدةً مثلُ الوالدَين؛ قال تَعالى: ﴿وَصَاحِبۡهُمَا فِي ٱلدُّنۡيَا مَعۡرُوفٗاۖ﴾ [لُقمَانَ: 15]، ومثل الزّوجة التي تصحبُ الزّوجَ طيلةَ عمُره غالبًا، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ ٣٤ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ٣٥ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ٣٦﴾ [عَبَسَ: 34 - 36]، أمّا الصَّديقُ فمنَ الصَّداقة؛ وهي اتفاقُ الضّمائر وصدقُ الاعتقاد على المودَّة[3]، وفي التَّنزيل جوازُ الأكل من بيت الصَّديق واعتباره ضمنَ الأقارب، قال تَعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ﴾ [النّورُ: 61]، وقال تعالى يصفُ حالَ المشركين وهم في النّار يَصطَرِخون ويتحسَّرون على فقد

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 235.
(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 387.
(3) الرّاغب، المُفردات: (صدق)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.

الأصدقاء: ﴿فَمَا لَنَا مِن شَٰفِعِينَ ۝١٠٠ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٖ ۝١٠١﴾ [الشُّعَراءُ: 100 - 101]، فمصطلحُ (الصّاحب) أعمُّ من (الصَّديق)، والصّداقةُ من درجات الصُّحبة العالية؛ لأنَّ في الصُّحبة ملازمةً، وفي الصّداقة صدقًا ومودّةً.

السَّعير والحريق والجحيم وجهنَّم:

السَّعيرُ إلهابُ النّار، والحريقُ توقُّدها، والجحيمُ شِدَّةُ الإحراق، وجهنَّمُ بُعْدُ قعرِها

(السَّعيرُ) هوَ النّار الملتهبة الحرّاقة، وتُسمَّى حريقًا في حال إحراقها؛ وهوَ النّار الملتهبة يُقال: في العود نارٌ، وفي الحجر نارٌ؛ ولا يُقال: فيه سعيرٌ، و(الحريقُ): النّار الملتهبة في شيءٍ وإهلاكُها لَهُ؛ ولِهَذا يُقال: وقع الحَريق في مَوضِع كَذا، ولا يُقال: وقع السَّعير؛ فلا يَقْتَضي قَوْلك السَّعير ما يَقْتَضيهِ الحَريق، ولِهَذا يُقال فلانٌ مُسَعِّرُ حَرْبٍ كَأنَّهُ يُشعلُها ويلهبها ولا يُقال: مُحرِّق[1].

والجحيم: اسمٌ من أسماء النّار، وأصلُ الجحيم: الحرارةُ وشدّتُها، وجَحَمْتُ النّارَ: أضرمْتَها وزِدْتَ في توقُّدِها، والجاحمُ: المكانُ الشَّديدُ الحَرِّ[2]، والجحيمُ: شِدَّةُ تَوَقُّدِ النّار وإضرامُها[3]، ويُقال لكُلِّ نارٍ عظيمة في مهواةٍ جحيمًا[4]، والجحيمُ نارٌ على نارٍ وجَمْرٍ، وجاحمُهُ شدَّةُ تلهُّبه، وجاحِمُ الحَرْب أشدُّ مَوضِع فيها، ويُقال لعين الأسد جَحْمةٌ لشدَّة توقُّدها، وأمّا (جَهَنَّم) فيُفيد بُعْدَ القعْر مِن قَوْلك: بِئْرٌ جهنامٌ إذا كانَت بعيدَةَ القَعْرِ[5].

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جحم).
(3) السَّمين، عمدة الحُفّاظ: (جحم).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (جحم).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 311.

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢﴾ [الحجّ: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

تسليةُ النَّبيِّ ﷺ بذكرِ حالِ الأنبياءِ السّابقين مع أقوامهم

بعدَ أنِ استعجلوا العذاب؛ أمر الله تعالى نبيَّه بأن يُنادي النّاس ويُخبرهم أنَّه نذيرٌ لهم، وبيَّن مآلَ مَن استجاب للنّذارة ومَن أعرضَ عنها؛ ذكر تعالى هُنا مَسلاةً ثانيةً باعتبار مَن مضى من الرُّسل والأنبياء، وهي أنَّهم كانوا حريصين على إيمان قومهم مُتمنّينَ لذلك مُثابرينَ عليه[1]؛ فبيَّن أنَّ له أسوةً بالأنبياء السّالفة والرُّسل السّابقة في كلِّ ما يأتي ويذر فقال: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾، ﴿أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾: (مني) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على تَقْدير شَيءٍ ونفاذِ القَضاءِ به؛ ومنه قولهم: مَنَى له الماني؛ أيْ: قَدَّرَ المُقَدِّرُ[3]، والتَّمَنّي تَشَهّي حُصولِ الأمرِ المَرْغوب فيه، وحديثُ النَّفْس بما يَكونُ وما لا يكون[4]، وهي أيضًا: طَلَبُ الشَّيْءِ العَسيرِ حُصولُهُ، والأُمْنِيَّةُ: الشَّيْءُ المُتَمَنَّى[5]، وأيضًا: الصّورة الحاصلة في النَّفْس من تَمَنّي الشَّيء[6]، وتَمَنَّى بمعنى: قَرأ، يُقالُ: تَمَنَّى الكتابَ: قَرأَهُ، وهو ذلكَ المعنَى؛ لأنَّ القِراءَةَ تَقديرٌ ووَضْعُ كلِّ آيَةٍ مَوْضِعَها، وحقيقةُ التَّمَنّي في الآية: القراءةُ.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 524.
(2) النَّيسابوريّ، غرائبُ القرآن: 5/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مني).
(4) ابن الأثير، النهاية، وابن منظور، لسان العرب: (مني).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 297.
(6) الرّاغب، المُفردات: (منى).

2) ﴿أَلْقَى﴾: (لقي) أصلٌ يَدلُّ على طَرْحِ شَيْءٍ، واللَّقى: الشَّيْءُ المُلْقى المَنْبوذ[1]، والإلْقاءُ: طَرْحُ الشَّيءِ حيث تلقاه؛ أيْ: تراه، ثمَّ صارَ في التَّعارف اسمًا لكلِّ طَرْحٍ[2]، ويُطلَقُ على الإفْضاءِ بالكلامِ ﴿يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ﴾ [الشُّعراء: 223]، وعلى حُصولِ الشَّيءِ في النَّفْسِ كأنَّ مُلقيًا ألقاهُ؛ أيْ: من غير سَبْقِ تهيُّؤ: ﴿وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ﴾ [المائدة: 64][3]، ومعنى الإلقاءِ في الآية الكريمة: الوسوسة.

3) ﴿فَيَنسَخُ﴾: (نسخ) أصلٌ واحِدٌ، والنَّسْخ: رَفْعُ شَيْءٍ وإثْباتُ غَيْرِهِ مَكانَهُ، يُقالُ: نَسَخَ الشَّيءَ يَنْسَخُهُ نَسْخًا فهو ناسِخٌ إذا رَفَعَهُ وثَبَتَ مَكانَهُ، وكلُّ شَيءٍ خَلَفَ شَيْئًا فقَد نَسَخَهُ وانْتَسَخَهُ، ويأتي النَّسْخُ بمعنى: تَحويلِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[4]، ونَسْخُ العَسَلِ: تَحْويلُه مِنْ خَليَّةٍ إلَى أُخْرَى، والنسخُ أيضًا: الإزالَةُ، تقولُ: نَسَخَتِ الرّيحُ الأثَرَ؛ أيْ: أزالَتْهُ، ونَسَخَ اللّهُ الآيَةَ إذا أزالَ حُكمَها[5]، ويُطْلَقُ النَّسْخُ بمعنى: النَّقْل؛ كقولِكَ: نَسَخْتُ الكتابَ إذا نَقَلْتَهُ حَرفًا بحرفٍ، والنُّسْخَةُ: الكِتابُ المَنقولُ، والتَّناسُخُ: الانتقالُ، والاستنساخُ: طَلَبُ النَّسْخِ[6] والمُراد بالنَّسْخِ في الآية: الإزالَةُ؛ أيْ: يُزيلُ ويمحو آثارَ ما يُلْقي الشَّيطانُ.

4) ﴿يُحْكِمُ﴾: (حكم) أَصْلٌ واحِدٌ؛ وهو المَنْعُ، وأوَّلُ ذلكَ الحُكْمُ، وهو المَنْعُ من الظُّلْم، وكُلُّ شَيْءٍ مَنَعْتَهُ من الفَسادِ فقد حَكَمْتَهُ وأحْكَمْتَهُ[7]، والحُكمُ أيضًا: القَضاءُ والفَصْلُ، تَقولُ: حَكَمْتُ بَيْنَهُما إذا قَضَيْتَ، ويأْتي بِمَعْنى: الشّيْءِ الحَسَنِ المُتْقَنِ، والجَمْعُ: أَحْكامٌ، والإحْكامُ: الحُسْنُ والإتْقانُ والتَّثبيت، يُقال: أَحْكَمْتُ صُنْعَ الشَّيءِ؛ أيْ: أتْقَنْتَهُ، والحَكيمُ: المُتْقِنُ للأُمورِ[8]، والمُراد بالإحكام في الآية: التَّثبيتُ[9].

---

(1) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (لقي).
(2) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (لقى).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 123.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سِيدَه، المُحْكم، وابن منظور، لسان العرب: (نسخ).
(5) المَناويّ، التّوقيف، ص: 697.
(6) الرّاغب، المُفردات: (نسخ).
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (حكم).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حكم).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.

المَعنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى لرسوله مُحمَّد ﷺ: وما أرسَلْنا مِن قَبْلِك يا مُحمَّدُ من رَسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا قرأ، ألقى الشَّيطان على سامعيه وهو يتلو الوحي الذي أُنزل إليه شبهاتٍ فيما يقرأ، فيقول قوم: إنَّه سِحْرٌ، ويقول آخرون: إنَّه نقله عن بعض الأوّلين، وهكذا من الأباطيل والتُّرّهات التي يتقوّلونها، فيُذهِبُ اللّهُ ويُزيلُ ما يُلقيه الشَّيطانُ من الباطِلِ في قراءةِ نَبيِّه، ولا يتأثَّرُ بباطِلِه المُؤمنونَ، ثمَّ يُخَلِّصُ اللّهُ آياتِ كِتابه من الباطِلِ الَّذي ألقاه الشَّيطانُ، ويَحفَظُها ويُبَيِّنُها، ويُظهِرُ أنَّها وحيٌ مُنَزَّلٌ منه بحَقٍّ، واللّهُ عَليمٌ بكُلِّ شَيءٍ، فيَعلَمُ ما يكونُ من الأمورِ، وما يَحدُثُ في خَلْقِه، ومن جملةِ ذلك عِلمُه بما يوحيه إلى نبيِّه، وبقَصدِ الشَّيطانِ؛ حَكيمٌ في كُلِّ ما يفعَلُه، يضَعُ كُلَّ شَيءٍ في مَوضِعِه الصَّحيحِ اللّائِقِ به، ومن جُملةِ ذلك حِكمَتُه في تمكينِ الشَّيطانِ من إلقاءِ الباطِلِ، ومن حِكمَتِه أنَّه لا يَدَعُه حتى يَكشِفَه ويُزيلَه[1]، ولا يخفى حينئذٍ بيانُ المعنى الإجمالي على تفسير ابن عاشور للأُمنيَّة.

الـرَّسـولُ ﷺ بَشَرٌ صانَه الله وعصَمه

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ العطفِ في الجملةِ الكريمةِ:

جملة ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ معطوفة على جملة ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ﴾؛ لأنَّه لّما أفضى الكلام السّابق إلى تثبيت النَّبيّ ﷺ وتأنيسِ نفسه فيما يلقاه من قومه من التَّكذيب بأنَّ تلك شنشنة الأمم الظّالمة من قبلهم فيما جاء عقب قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ أَمۡلَيۡتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٞ﴾، وأنَّه مقصور على النِّذارة؛ فمَنْ آمن فقد نجا، ومَنْ كفر فقد هلك؛ أُريد الانتقال من

من شأن نفسه الشَّريفة ﷺ التَّحسُّر على أهل النّار من أُمّته

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 611، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 445، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 545، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 128، والسَّعديُّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 542.

ذلك إلى تفصيل تسليته وتثبيته بأنَّه لقي ما لقيه سَلَفُه من الرُّسل والأنبياء عليهم السلام، وأنَّه لم يسلم أحدٌ منهم من محاولة الشَّيطان أن يُفسد بعض ما يحاولونه من هدي الأمم، وأنَّهم لقوا من أقوامهم مُكذِّبين ومُصدِّقين سُنَّة اللّه في رسله عليهم السلام[1]، فالجُملة مسوقةٌ للشُّروع في تسليةٍ ثانيةٍ للنَّبيِّ ﷺ[2].

إيثار قوله ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ دون (بعثنا):

لفظُ الإرسالِ أنسبُ لمقامِ التِّلاوة وعلى مَن يحملُ رسالةَ البشارةِ والنِّذارة

آثَرَ النَّظم الكريم استعمالَ لفظِ الإرسالِ دون البعثِ في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾؛ فلم يَقُلْ: (وما بعثنا) مع أنَّ لفظَي (الإرسال والبعث) مُتقاربان في المعنى؛ إذ قد يُعبَّر بأحدهما عن الآخر[3]؛ إلّا أنّه آثرَ لفظ الإرسالِ؛ لكونِه أكثرَ مُناسبةً للسّياقِ؛ فالإرسالُ يتميَّز بملمحِ الرِّفقِ والتُّؤدة والسُّهولة؛ ومنه الرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[4]، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدةُ، ومنه: الرَّسولُ[5]، بخلاف البعث الذي يتميَّز بملمح الإثارة والدَّفع[6]؛ فالإرسالُ أنسبُ مع تمنّي الرَّسول هدايةَ قومه رِفقًا بهم، وكذلك الرِّسالة التي يحملها الرَّسول، وهي رسالة البشارة والنِّذارة وقد سبق ذِكْر النَّذارة والبشارة في الآيات السّابقة، والإرْسال يكونُ برسالةٍ وما يجْري مَجْراها[7].

سرُّ إضافة فعل الإرسال الى ضمير العظمة والكبرياء:

تعظيمُ شأن الارسال الدّالّ على عَظَمَة المُرسِل

قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾؛ أيّ: بعظمتنا[8]؛ فجاء بصيغةِ التَّعْظيم للمُتكلِّم المُرسِل جَرْيًا على سَنَنِ الكُبَراءِ؛ فهَذا التَّعْبيرُ يَسْتَدعي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 297.
(2) الدَّرويش، إعراب القرآن الكريم: 6/ 449.
(3) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 244.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(5) الرّاغب، المُفردات: (رسل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(8) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 70.

العَظَمَةَ والوَقارَ؛ وهوَ يُناسِبُ المَقامَ، حَيْثُ إنَّ إرْسالَ الرِّسالَةِ شَأْنٌ عَظيمٌ يَسْتَدْعي أنْ يَكونَ الخِطابُ مُتَضَمِّنًا أساليبَ التَّعْظيم؛ ومِنْها الخِطابُ بصيغَةِ جَمْعِ المتكلّم، وفي ذلك كلُّ تعظيمٍ لنبيِّنا ﷺ من ربِّه؛ وهذا من شأنه تسليتُه والتَّسريةُ عنه.

دلالةُ تكرارِ حرف الجرِّ ﴿مِن﴾:

انقطاعُ التَّحسُّر بعموم البلاء

وردت ﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ﴾ مُكرَّرة مرتيْن، لكن لكلٍّ واحدة منها دلالة؛ فـ﴿مِن﴾ الأولى ابتدائيَّة لتحديد جميع الأزمنة السّابقة على زمن رسالته ﷺ فتُفيد الشُّمول الزَّمنيَّ، والثّانية مزيدةٌ مؤكِّدةٌ لاستغراق الجنس[1]، وزائدة لتأكيد النَّفي[2]، وتأكيدُ عموم القبليّة في الأمم المُتقدِّمة[3]، والتَّصريح بالاستغراق، بحيث لا يبقى وجهٌ واحتمال[4]، ويشترك هذان العمومان في الزَّمان والأشخاص مع توكيد النَّفي لإظهار إرادة كمال التَّسلية للنَّبي ﷺ فينقطع تحسُّره على ضلال بعض أُمَّته.

سرُّ التَّنكيرِ لفظتي ﴿رَّسُولٍ﴾ و﴿نَبِيٍّ﴾:

عـمـومُ الـبـلاءِ يُخفِّف الهموم

قوله: ﴿مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ نصٌّ في العُموم والكثرة لنكارتهما، ولِما تُنبئ عنه (لا) الزّائدة لتوكيد النّفي؛ فأفاد أنَّ ذلك لم يَعْدُ أحدًا من الأنبياء والرُّسل[5]؛ وهو خبرٌ يتضمَّنُ حكمًا عامًّا، لا انفكاك منه يقعُ على رسل اللّٰه وأنبيائه جميعًا، وهذا الحُكْم هو أنَّه ما من رسولٍ من رسلِ اللّٰه ولا نبيٍّ من أنبيائه إلّا والشَّيطان راصدٌ له، وأنَّه كُلَّما تمنَّى ألقى الشَّيطان في أُمنيِّته! وهذا صريح ما تنطق به كلمات اللّٰه في وضوح وجلاءٍ[6]، وأفاد التَّنكير الشُّمول والاستغراق لكي يَخفَّ الألم ويتسلَّى بما جرى للرُّسل والأنبياء السّابقين.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 164.
(2) القِنَّوْجيّ، فتح البيان: 4/ 484.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 193.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 70.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 297.
(6) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1061.

دلالةُ عطفِ النَّبيِّ على الرَّسولِ:

بيان التَّغاير في المعنى بين اللَّفظيْن من جهة العموم والخصوص

عَطْفُ ﴿نَبِيٍّ﴾ على ﴿رَّسُولٍ﴾ دالٌّ على أنَّ للنَّبيِّ معنًى غير معنى الرَّسول؛ فالرَّسولُ هو الرَّجل المبعوث من الله إلى النّاس بشريعة مُجدَّدة يدعو النّاس إليها، والنَّبيُّ مَن أوحى الله إليه بإصلاحِ أمرِ قومٍ بحملهم على شريعة سابقة، أوْ بإرشادهم إلى ما هو مُستقرٌّ في الشَّرائع كُلِّها؛ فالنَّبيُّ أعمُّ من الرَّسول عمومًا مُطلقًا[1]، إذ كلُّ رسولٍ نبيٌّ وليس كلُّ نبيٍّ رسولًا، وأفاد عطفُ العامِّ على الخاصِّ العمومَ والشّمولَ، يتضافر مع باقي أدوات العموم الواردة سابقًا في إفادة التّسرية للهموم.

تقديمُ ذِكْرِ الرَّسول:

مُناسبةُ الإرسالِ المذكورِ أوَّلًا في السّياق أبلغُ في تسليته ﷺ

خَصَّص النَّظم الكريم ذِكْرَ الرَّسول أوَّلًا، ثم عَمَّم بذِكْر النَّبيِّ فقدَّم الرَّسول لمُناسبة قوله ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾، وأخَّر النَّبيَّ لتحصيل العموم؛ لأنَّه لو اقتصر على ﴿رَّسُولٍ﴾ لم يدخل في ذلك مَنْ كان نبيًّا غير رسول[2]، وسيدنا مُحمَّدٌ ﷺ رسولٌ ونبيٌّ، وقد بدأ بالخاصِّ لشرفه، ولأنَّه أنسبُ بحال المخاطَبِ وهو رسولنا الكريم.

دلالةُ الاستثناءِ بـ ﴿إِلَّآ﴾:

بيانُ كونه واقعًا من عموم أحوالٍ تابعةٍ لعموم أصحابها

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ الاستثناءُ من عموم أحوالٍ تابعةٍ لعموم أصحابها، وهو ﴿مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾؛ أيْ: ما أرسلناهم في حالٍ من الأحوال إلّا في حال إذا تَمَنَّى أحدهم أمنيَّةً ألقى الشَّيطان فيها إلخ؛ أيْ: في حال حصول الإلقاء عند حصول التَّمنّي؛ لأنَّ أماني الأنبياء خَيْرٌ مَحْضٌ، والشَّيطان دأبُه الإفساد وتعطيلُ الخير[3]؛ وهذا عمومٌ آخر يُضاف للعمومات السّابقة مفيدٌ لكمال التّسلية للنّبيِّ ﷺ وتخفيف آلامه.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 297.

(2) ابن جُزَيّ، التّسهيل لعلوم التَّنزيل: 2/ 43، والنَّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 90.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 298.

توجيه القراءات الواردة في لفظ ﴿نَبِيٍّ﴾:

تغاير الألفاظ يثري المعاني

قرأ نافع وحده بالهمز ﴿نَبِيٓءٍ﴾، وقرأ الباقون بترك الهمز[1]، فالحجّة لمن همز: أنه أخذه من قوله: (أنبأ بالحق)، إذا أخبر به، ومنه: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ [البقرة: 31]، فهو من (النبأ) الذي هو الخبر؛ لأنّ النّبيّ مخبر عن الله، جلّ ذكره، فهي تبنى على (فَعِيل) بمعنى (فاعِل)، أي: (منبيءٌ عن الله).

ويُوجّه ترك الهمز على عدّة أوجه **منها**: أنّ الهمز مستثقل؛ ولأنّ قريشًا لا تهمز، فأجراه على التخفيف فهو على نفس معنى القراءة بالهمز، **والثاني**: أنه مأخوذ من (النّبْوَة) وهي: (ما ارتفع من الأرض وعلا)؛ لأنّه أخبر عن العالم العلوي، وأتى به عن الله تعالى[2]، فالقراءاتان دَلّتا على وصف ثابت للأنبياء صلى الله عليهم وسلم: الإخبار بالحق، والارتفاع - بالوحي - عن الخلق، والوصفان مهمان في هذه الآية التي تتعرض لأمر شرعي من الأهمية بمكان، وهو النّسخ.

بلاغة القصر بالنَّفي والاستثناء في الجُملة الكريمة:

بيانُ شِدَّة كيدِ الشَّيطانِ ومَكرِهِ

القصر مُستفاد من النَّفي والاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ وهو قصرٌ موصوفٌ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ؛ أيْ: لا نرسلُ أحدًا منهم في حال الخُلوِّ من إلقاء الشَّيطان ومَكْرِه[3].

إيثار فعل (التَّمنّي) ودلالته:

مـن سَـمْـتِ الأنبياء والرُّسل محبةُ أقوامهم

التَّمني كلمة حقيقتها طلبُ الشّيءِ العسيرِ حصولُه، والأُمنيَّة هي الشّيءِ المُتمنَّى، وإنّما يتمنّى الرُّسل والأنبياءُ أن يكون قومُهم كُلُّهُمْ

(1) ابن الجزري، النشر: 1/ 406.
(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 80، ومكّي، الكشف: 1/ 244.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 298.

صالِحينَ مُهْتَدينَ(1)، وأُمنيَّةُ كلّ رسول ورغيبة كلّ نبيٍّ هي أن يرى قومَه على الهُدى الذي يدعوهم إليه، وأن يُصبحوا جميعًا في عِداد المؤمنين بالله؛ فتلك هي رسالته في النّاس يعيش لها، ويعمل من أجل تحقيقها، وأنَّ سعادته كلَّها هي أن يرى نجاحَ مسعاه وثمرة جهاده في هذه الأعداد التي استجابت له واتّبَعَتْه، وأنَّه كُلَّما كثرت هذه الأعداد، تضاعفَتْ سعادتُه، وعظُمت غِبطتُه(2)؛ فعبَّر بالتَّمنّي دلالةً على عظيم رغبة كلِّ نبيٍّ ورسولٍ في المذكور.

سرُّ مجيء الفعل ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ مُفردًا:

جهاتُ الوحدة في الأنبياء والرُّسل كثيرة

ورد الفعل في قوله تعالى: ﴿إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾ مُفردَ الضَّمير وإنْ تقدَّمه شيئان معطوف أحدهما على الآخر بالواو؛ لأنَّ في الكلام حذفًا تقديره: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا إذا تَمَنَّى ولا نبي إلّا إذا تمنى)؛ كقوله: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾ [التَّوبة: 62]؛ فحُذف من الأوَّل لدلالة الثّاني عليه(3)، وفي الإفراد دلالةٌ على استوائهم في هذا المعنى؛ ودليلٌ على وحدة الخير فيهم، وأنّ أُمنيَّتهم واحدةٌ، وموقفهم إزاء هداية قومهم واحدٌ.

بلاغة الاستعارة في لفظ (الإلقاء):

اشتدت عداوته وعظمت؛ فكانت وسوسته إلقاءً

معنى إلقاء الشَّيطان في أُمنيَّةِ النَّبيِّ والرَّسول في قوله تعالى: ﴿أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ إلقاءُ ما يُضادُّ تلك الأُمنيَّة؛ وهو ما يوسوس به للسُّفهاء والحمقى والجهلاء من القوم، ليقفوا في وجه الدَّعوة التي يدعون إليها، وليُرهقوا رُسلهم وأنبياءهم(4)، وصريح الآية إلقاءُ الشيطان ما يُضادُّ تلك الأمنية الطَّيبة في نفس النَّبي والرّسول ليُثبِّطه عن مواصلة الدَّعوة، والإلقاء حقيقته رميُ الشَّيء من اليد،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 297.
(2) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1063.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 527، والقُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 92.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1064.

واستُعير هُنا للوسوسة وتسويل الفَساد؛ تشبيها للتَّسويل بإلقاء شيءٍ من اليد بين النّاس بطريق الاستعارة التَّصريحيّة التَّبعيَّة، ومن الحقيقة قوله تعالى: ﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِيُّ ۝٨٧﴾ [طه: 87] لقوله تعالى: ﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا﴾ [طه: 96]، ومن المجاز قولُه: ﴿فَأَلْقَوْاْ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾ [النَّحل: 86][1].

تصوير حقيقة عداوة الشَّيطان

وفي هذه الاستعارة تصوير حقيقة عداوة الشيطان؛ فهو العدو المبين كما قال القرآن العظيم؛ إذ تحولت الوسوسة إلى جسم يُلقى للدَّلالة على شدّة مَكرِه وعداوته، وممّا يُرشّح هذه الاستعارة تحديدُ المُلقى فيه وهو الأُمنيَّة بالحرف ﴿فِيٓ﴾، وكأنّ الأمنيَّة صارت مكانًا لإلقاء الوسوسة فيه؛ فتتشخّص الأُمنيَّة وتتجسَّد أيضًا.

نكتة حذف مُتعلّق التَّمنّي والإلقاء:

في الحذف كمالُ نفي التّسوية بينهما

مفعولا ﴿تَمَنَّىٰٓ﴾ و﴿أَلْقَى﴾ في قوله تعالى: ﴿تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِيٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾ محذوفان دلَّ عليهما المقام والإسناد؛ لأنَّ الشَّيطان إنَّما يُلقي الشَّرَّ والفساد والضَّلال، والأنبياء إنَّما تتمنَّى الهُدى والصَّلاح والخير، والتَّقدير: (أدخلَ الشَّيطانُ في نفوس الأقوام ضلالاتٍ تُفسدُ ما قاله الأنبياءُ من الإرشاد)[2]، أو (ألقى الشَّيطان تثبيطًا في نفوس الأنبياء يصدُّهم عن رغبة الدَّعوة ونشدان الهداية)، وحذف المفعول مع هذيْن الفعليْن يُصوِّر حقيقة أصل كلٍّ من الأنبياء والرُّسل والشَّيطان؛ فالأنبياء والرُّسل الأصل فيهم محبة الخير لغيرهم، والأصلُ في الشَّيطان العداوة لغيره، قال تعالى: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾ [ص: 82 - 83].

دلالة إظهار لفظ ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾:

الإيذان بأنَّ الشُّرور من شأنه وعمله

إظهار الشَّيطان للإيذان بأنَّ الشُّرور من شأن الشَّيْطَنَةِ، وفي

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 298.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 298.

إظهاره كمالُ التَّحذير من عداوته الشَّديدة الكاملة في بابها، ولبيان أنّ كلًّا من الأنبياء والرُّسل في جانب، والشَّيطان وأتباعه في جانبٍ آخر، وعلى جميع المُكلَّفينَ أن يُدركوا أنَّ الشُّرور في نفوسهم من تسويل الشَّيطان، وأنَّ الخيرَ والنّورَ في قلوبهم من ثمرات اتباعهم للرُّسُل والأنبياء.

دلالة التَّعقيب بالفاء في الجملة الكريمة:

بيانُ ماتَسَبَّب عن إلقاء الشَّيطان ووسوسته

دلّتِ (الفاء) في قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ﴾ على التَّعقيب السَّريع مع إفادة معنى التّسبُّب عن إلقائه، بأنَّه يُنْسَخُ ويزالُ ويصيرُ أثرًا بعد عينٍ مباشرةً من دون إبطاءٍ؛ عصمةً للأنبياء وحمايةً للمُرسلين في تبليغ الدَّعوة والشَّرائع تامَّةً من غير نقصان[1].

بديعُ الالتفاتُ في الجُملة الكريمة:

سبحان القاهر فوق مخلوقاته

جاء الالتفات في قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ بصيغة الغيبة، بعد قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ التي وردت بصيغة التَّكلُّم، وكان مُقتضى الظّاهر أن يُقال: (فنسخْنا - ثمّ أحكمنا آياتنا) أو (فَننسخ - ثُمَّ نُحكم آياتنا) ليتوافق مع السّياقِ السّابق في قوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ ويكون جميع السّياق بصيغة التَّكلُّم، لكنّ السّياق القرآنيَّ عدل عن هذا بطريق الالتفات عن التَّكلُّم إلى أسلوب الغيبة لِسِرٍّ بلاغيّ، وهو زيادة تقرير الآية لبيان حكمة اللّٰه وقُدرته على نسخ ما يُلقيه الشَّيطان، فكأنَّ دلالة التَّكلُّم دلالة حِفْظٍ ورعاية وعناية تُبطل ما ذهبوا إليه من القول بأنَّ الشَّيطان أدخلَ في قوله ما ليس منه، وفي الالتفات إلى الغائب دلالةٌ على الهيمنة الإلهيَّة بالنَّسخ والتَّبديل وغيره ممّا يُشَرِّع بحفظ الشَّرع من الزّيادة أو النُّقصان فيه.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 71.

إيثار مضارعة أفعال ﴿فَيَنسَخُ﴾ و﴿يُلْقِي﴾ و﴿يُحْكِمُ﴾:

يتجدَّد الإلقاءُ فيتجدد النَّسخُ والإحكامُ

صيغة المُضارع في الأفعال من قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ للدّلالة على الاستمرار التَّجدُّدي[1]؛ لأنَّ الشَّيطان لا ينفكُّ عن إلقاء الوسوسة عند تجدُّد التَّمني مُستمرًّا عليها كُلَّ وقتٍ وحينٍ، والله تعالى بهديه وبيانه ينسخُ ما يُلقي الشَّيطان؛ أيْ: يُزيل الوساوس والمُثبِّطاتُ التي يُلقيها، ويزيد آيات دعوة رسله بيانًا، وذلك هو إحكام آياته؛ أيْ: تحقيقها وتثبيت مدلولها وتوضيحها بما لا شبهة بعده إلّا لَمَن رين على قلبه[2].

إيثارُ العطفِ بأداة التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾:

بيان علوِّ رُتبة الإحكام الحاصل

لمّا كان إبطاله سُبحانه للشُّبه إبطالًا مُحكمًا، لا تتطرَّق إليه - لعلوّ رُتبة بيانه - شُبهةٌ أصلاً؛ عبَّر بأداة التَّراخي فقال: ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾[3]؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّرتيب الرُّتبيّ، لأنَّ إحكام الآيات وتقريرها بنسخ ما يُلقي الشَّيطان؛ فيتَّضح الهُدى ويزداد ما يُلقيه الشَّيطان نسخًا[4]؛ فهي للتَّراخي في الرُّتبة لا في الزَّمان[5].

دلالةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ:

زيادةُ التَّقرير وإيذانٌ بأنَّ الألوهيَّة من موجبات الإحكام

في قوله تعالى: ﴿يُحْكِمُ ٱللَّهُ﴾ إظهارٌ لاسم الجلالة في موقع الإضمار؛ لزيادة التَّقرير، والإيذان بأنَّ الألوهيّة من موجباتِ إحكام آياته الباهرة[6]، وللإشارة إلى ضعف كيد الشيَّطان أمام جلال اللّه وجماله وكماله؛ فهذا الإظهار يواجه إظهارَ الشّيطانِ ويقابله.

دلالةُ لفظ الآيات مجموعًا:

الإشارةُ إلى كثرة الآيات والمُعجزات الدّالّة على الحقائق

المُراد بـ (الآيات) في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾؛ أيِ: الدّالَّة؛ فليس

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 113.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 299، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 128.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 71.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 300.
(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 92.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 113.

المُراد بها آيات القُرآن؛ بل المُراد الأدلة الدّالّة على الحَقيقَة وإزالة الشُّبَه، وهذا على أنَّ معنى الأُمنيّة على أصله[1]؛ وفي هذا إشارة إلى كثرة الآيات الدّالّة على الحقائق؛ لأنّها مضافةٌ إلى اللّه الحكيم الذي له سبحانه في كلّ شيء آيةٌ وبُرهان.

بلاغةُ حذفِ المُضافِ مع فعلي النَّسخِ والإحكامِ:

اختصارُ الكلامِ للعلم بـه من دلالة السّياق

النَّسخ: الإزالة، والإحكام: التَّثبيت؛ وفي كلتا الجملتيْن من قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾ حذفُ مضافٍ اختصارًا؛ أيْ: ينسخ اللّه آثارَ ما يُلقي الشّيطان، ويُحكِمُ آثارَ آياته[2]، وفي الحذف إبلاغٌ يُصوِّرُ قوّةَ حصول الفِعْلَيْن وعظمتهما؛ لكونهما مُستنديْن إلى الذي له كمال، وينتفي عنه كلُّ نقصان.

بلاغة التَّذييل بالجُملة الاعتراضيَّة:

تعليلٌ لإبطال شبـهـات الـشَّـيـطـان ووسـوسـاتـه، وإحـكـامِ براهين القرآن وآياته

جُمْلَةُ ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ جملةٌ مُعْتَرِضَةٌ[3]، جيء بها إثباتًا لكبريائه تعالى وتأكيدًا على أنَّ الأمر كلَّه راجعٌ له، فهو الذي مَكَّنَ من الإلقاء، وهو الذي أحكم الآيات لِعِلَّةٍ وحكمةٍ أرادها؛ فجاءت الجملة عِلَّةً في المعنى لما قبلها من إبطالٍ لشبهات الشَّيطان ووسوساته وإحكام براهين القرآن وآياته؛ فاللّه عليمٌ بكلِّ شيءٍ، له الحكمة التّامَّة والحُجَّة البالغة، فيجازي المُفتري بافترائه، ويُظهر الحقَّ للمؤمنين[4]، ونلمح تناسبًا بين العلم والنَّسخ والحكمة والإحكام، فهو عليم بالنَّسخ حكيمٌ في إحكام الآيات؛ فيكون الوصفان المُذيَّل بهما الكلام بمثابة الدَّليل على النَّسْخ والإحكام.

دلالةُ صيغة (فعيل) في الاسميْن الأحسنيْن:

الكمال في الذّات والأفعال

قوله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾؛ أيْ: مبالِغٌ في العلمِ بكلِّ ما مِن شأنِه أنْ يُعلم

---

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 92.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 300.

(4) شحاتة، تفسير القرآن الكريم: 17/ 3400.

عِلْمًا عظيمًا بكلّ شيءٍ و﴿حَكِيمٌ﴾ في كلّ ما يفعلُ، له الحكمة البالغة في كلِّ شيءٍ[1]؛ فتُصوِّر صيغة المبالغة كمالَ علمِه وحِكْمته ﷻ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الرَّسْل والبَعْث:

الـرّسـلُ توجيهٌ بـرفـقٍ وتُـؤدةٍ، والبعثُ توجيهٌ بـإثـارةٍ ودفـعٍ وإيقاظٍ

يتقاربُ لفظا (الرّسل) و(البعث) إذ يشتركان في معنًى لُغويٍّ عامٍّ هو: التَّوجيه، كما أنَّه قد يُستعمل كُلٌّ منهما بمعنى الآخر[2]؛ إذ أحدُ معاني الإرسال هو البعث[3]، وأحدُ معاني البعث هو الإرسال، إلّا أنَّهما يفترقان ببعض الملامح المُميّزة لكلٍّ منهما، ومن هذه الفروق ما ذكره العسكريُّ فقال: "الفرقُ بين البَعْث والإرسال أنَّه يجوز أنْ يبْعَث الرَّجلُ إلى الآخرِ لحاجةٍ تخصُّه دونك ودون المبعوث إليه؛ كالصَّبيِّ تبعثهُ إلى المكتبِ فتقول: بعثتُه، ولا تقول: أرْسلتُهُ؛ لأنَّ الإرْسال لا يكونُ إلّا برسالةٍ وما يجْري مجْراها"[4].

كما أنَّ الإرسالَ يتميَّزُ بملمحِ الرِّفقِ والتُّؤدةِ والسُّهولة؛ إذ إنَّ أصل (رسل) يدلُّ على الانْبعاثِ والامْتِدادِ، والرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ[5]، والرِّسْل: الرِّفْق والتُّؤَدة، والإرْسالُ: الإطْلاقُ، والإهمال، والتَّخْليَةُ، والتَّوجيه[6]، والإرْسال: في المَحْبوس: إطْلاقه، وفي المُطلق: بَعثه[7]، في حين يتميَّزُ البعثُ بملمحِ الإثارةِ والاندفاعِ والإيقاظِ، إذ إنَّ أصلَ (بعث) يدلُّ على الإثارة[8]، ويختلفُ البعثُ بحسب اختلافِ ما عُلِّق به، فبَعَثْتُ البعير: أثرتُهُ وسيّرتُه، وبعثَ اللّهُ الموتى: أخرجَهم

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 113.
(2) الكفويّ، الكُلّيّات، ص: 244.
(3) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النَّواظر، ص: 151.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 289.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (رسل).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديّ، تاج العروس: (رسل).
(7) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 152.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (بعث).

وسيَّرهم إلى القيامة، وبعثَ رسولًا: أرسله ووجّهه[1]، وانْبعثَ الشَّيءُ: اندفعَ، وبعثَهَ من نومه: أيقظهُ وأهَبَّه، والبَعْثُ: النُّشور[2].

النَّسخ والإزالة:

النَّسخُ إزالةٌ مخصوصةٌ تَعْقُب الشَّيءَ مباشرةً، وفيها معنى إثبات غيره

أصل (زولَ) يدلّ على تنحّي الشَّيء عن مكانه، يُقال: أزال الشَّيءَ عن وظيفته: نحّاه عنها، وأبعدَهُ، وعزَلَه[3]، والنَّسخُ: "إزالةُ شيءٍ بشيءٍ يتعقّبهُ، كنَسخِ الشّمسِ الظِّلَّ، ونَسْخِ الظِّلِّ الشَّمْسَ، ونَسْخِ الشَّيبِ الشَّبابَ، فتارةً يُفهمُ منهُ الإزالةُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الإثباتُ، وتارةً يُفهمُ منهُ الأمرانِ، ونَسْخُ الكتابِ: إزالةُ الحُكْمِ بحُكْمٍ يتعقَّبُه"[4].

(1) الرّاغب، المُفردات، ص: 132.
(2) ابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن منظور، لسان العرب: (بعث).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (زول)، والمصطفويّ، التَّحقيق: 4/ 366.
(4) الرّاغب، المُفردات: (نسخ).

﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣﴾ [الحج: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذَكَرَ اللّه تعالى أنَّه ما أرسلَ من رسولٍ ولا نبيٍّ إلّا إذا قرأ ما أُرسل به حاول الشَّيطان إغواءه وإلقاء الشُّكوك والوساوس في قراءته حتّى يصدَّ النّاس عن هذا الوحي الإلهيّ، وبعدما ذَكَرَ أنَّ اللّه تعالى يُبطل هذه الوساوس الشّيطانيّة ويُثبت آياته البيِّنات؛ ولَمّا ذكرَ اللّهُ سُبحانَه ما حكَمَ به من تمكينِ الشَّيطانِ من هذا الإلقاءِ؛ ذكرَ العِلَّةَ في ذلك؛ فقال: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾[1]، فهذه الآية من تمام ما قبلها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فِتۡنَةٗ﴾: (فتن) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ابْتِلاءٍ واخْتِبارٍ، والفِتْنَة من الفَتْنِ، وهو الإحْراقُ[2]، يُقالُ: فتَنْتُ الذَّهَبَ؛ أيْ: أحْرَقْتَهُ بالنّارِ؛ لِتَمْييزِ الجَيِّدِ من الرَديءِ، ويُسَمَّى الصّائِغُ: الفَتّانُ، وكَذلِك الشَّيْطانُ[3]، والفِتنَةُ: الكُفر[4]، والعَذابُ، والبَلاءُ، والابتلاء[5]، والاختبار[6]، وما يَقَعُ بَيْنَ النّاسِ من الحُروبِ[7]، والمُرادُ بالفِتنةِ في الآية: اختلالُ الأحوالِ المُفضي إلى ما فيهِ مَضَرَّةٌ[8].

2) ﴿مَّرَضٞ﴾: (مرض) أصْلٌ يدلُّ على الفَسادِ والخُروجِ عن الاعْتِدالِ؛ ومنه سُمّيَ السَّقَمُ مَرَضًا؛ لأنَّهُ حالَةٌ خارِجَةٌ عن الطَّبْعِ مُفْسِدَةٌ لِلبَدَنِ، والمَرَضُ نَوعانِ: جِسْميٌّ، وروحانيٌّ، ومنه سُمّيَ الكَذِبُ والخِداعُ والخيانَةُ وغيرُ ذلك أمْراضًا[9]، ومِن أسْماءِ المَرَضِ:

(1) البقاعيّ، نَظْمُ الدُّرر: 13/ 72.
(2) الخليل، العين: (فتن).
(3) ابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فتن).
(4) ابن سِيدَه، المُحْكم: (فتن).
(5) الخليل، العين: (فتن).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فتن).
(7) ابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: (فتن).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 174.
(9) الرّاغب، المُفردات: (مرض).

الدّاءُ والعِلّةُ، ويأْتي بِمعنى: النُّقْصانِ والضَّعْفِ، فيُقال: بَدَنٌ مَريضٌ؛ أيْ: ضَعيفٌ ناقِصُ القوَّة[1]، والمُراد بالّذينَ في قُلوبِهِم مَرَضٌ هنا: هُمُ المُتَردِّدونَ في قَبولِ الإيمانِ[2].

3) ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ﴾: (قسي) يَدُلُّ عَلَى شِدَّةٍ وصَلابَةٍ، وأصلُ القَسْوَةِ: الصَّلابَةُ في الشَّيءِ، يُقالُ: قَسا الجِسْمُ يَقْسو قَسْوًا وقَساوَةً؛ أيْ: صَلُبَ؛ مِنْ ذلكَ الحَجَرُ القاسي؛ أيْ: الصُّلْبُ[3]، والقَسوةُ: الشِّدَّةُ والغِلْظَةُ، تَقولُ: قَسا القَلْبُ يَقْسو قَسْوَةً وقَساوَةً وقَساءً إذا غَلُظَ وذَهَبَتْ رِقَّتُه، وضِدُّ القَسْوَةِ: اللّينُ والرِّقَّةُ، فالقَسوةُ والقَساوَةُ توصَفُ بِها الأجسامُ وتوصفُ بها النُّفوسُ المُعَبَّرُ عنها بالقلوبِ؛ فالمعنى الجامعُ للوَصفَيْنِ هو عَدَمُ قَبولِ التَّحوُّلِ عن الحالةِ الموجودةِ إلى حالةٍ تُخالفُها[4]، وتأْتي بِمعنى: اليُبْسِ، وأرْضٌ قاسيَةٌ: يابِسَةٌ لا تُنْبِتُ شَيْئًا[5]، والمُرادُ بالقاسيةِ الشَّديدة الغليظة.

4) ﴿شِقَاقِۭ﴾: (شقّ) أَصْلٌ واحِدٌ صحيحٌ يَدُلُّ على انصِداعٍ في الشَّيءِ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ ويُشتَقُّ منه على معنى الاستِعارَةِ، تَقولُ: شَقَقْتُ الشَّيْءَ أَشُقُّهُ شَقًّا، إذا صَدَعْتَهُ، وبيَدِهِ شُقوقٌ، وبالدّابَّةِ شُقاقٌ، والأصلُ واحدٌ، والشِّقَّةُ: شَظيَّةٌ تُشظَّى مِنْ لَوْحٍ أوْ خَشَبَةٍ[6]، والشِّقاقُ: الخِلافُ والعَداوةُ بينَ فريقَيْنِ، يُقالُ: شاقَّه، مُشاقَّةً وشِقاقًا: إذا خالفَهُ[7]؛ لأنَّ كلَّ فريقٍ مِن فرقتي العداوة قصدَ شِقًّا؛ أيْ: ناحية غير شِقِّ صاحبه، كأنَّ كلَّ فريقٍ يحرصُ على ما يشُقُّ على الآخر[8]، والمقصودُ بالشِّقاق في الآيةِ: الخِلافُ والمُنازعة.

5) ﴿بَعِيدٖ﴾: (بعد) أَصْلانِ، وهو خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُدَ يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُبُ قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[9]، ويكونُ ذلكَ في المحسوسِ وهو الأكثر، والمعقول نحو: ﴿وَٱلضَّلَٰلِ ٱلۡبَعِيدِ ٨﴾ [سبأ: 8]، وبَعِدَ بالكسر يبعَد بالفتح: هلكَ، قال تعالى: ﴿كَمَا

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (مرض).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قسو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 562.
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قسو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شقّ).
(7) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (شقّ).
(8) ابن منظور، لسان العرب: (شقق).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).

﴿بَعِدَتۡ ثَمُودُ ٩٥﴾ [هود: 95][1]، والبعيدُ في الآية مُستعملٌ في معنى: البالِغ حدًّا قويًّا في حقيقتهِ؛ تَشبيهًا لانتشارِ الحقيقةِ فيهِ بانتشارِ المسافةِ في المكان البعيدِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

القلبُ الذي فيه مـرَضٌ والقلـبُ الـقـاسي قَلبانِ مفتونان شَقيّانِ مُعَذَّبانِ

من كَمالِ حِكمَةِ اللهِ تعالى أنْ مكَّن الشَّيطانَ من الإلقاءِ المَذكورِ؛ ليَجعَلَ إلقاءَه فِتنةً للذينَ في قُلوبِهم شَكٌّ ونفاقٌ، ولأصحابِ القُلوبِ القاسيةِ التي لا تَلينُ للحقِّ، ولا تَرْجِعُ إلى الصَّوابِ، وهم المشركونَ، وإنَّ هذيْن الصِّنفيْن من الضَّلال لفي عداوةٍ لأمرِ اللهِ، وبُعدٍ عن الرَّشاد والسَّداد، بما لا مطمَعَ لهما معه في النَّجاة والفَوز برضا اللهِ[3].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ افتتاح الجُملة بلامِ التَّعليل:

بيانُ عِلَّة تَمكينِ الـشَّـيـطـانِ من الإلْقاءِ وعاقبَتِه

قولُه تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ يُشير إلى أنَّ حكمةَ ما ألقاه الشَّيطان في أُمنيَّة الرَّسول أوِ النَّبيِّ هي فتنةٌ للَّذين كفروا من أهل الكتاب، وللقاسيةِ قلوبُهم من هؤلاء المُشركين من قريش[4]، فهو بيانٌ لأثرِ تلك الوسوسة، حيث أوضح سُبحانه أثرَها والحكمةَ منها في حقِّ الكفّار أوَّلًا، ثُمَّ في حَقِّ المُؤمنين ثانيًا[5]، فالجُملةُ عِلَّةٌ لتَمكينِ الشَّيطانِ مِن الإلْقاءِ، وذلك يدُلُّ على أنَّ المُلقى أمْرٌ ظاهِرٌ عرَفَه المُحِقُّ والمُبْطِلُ[6]، واللّامُ في قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ لامُ العلّة والحكمة،

(1) الرّاغب، المُفردات، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (بعد).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.
(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 86، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 446، والبقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 72، 73، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 130.
(4) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1068.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 241.
(6) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 76، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 114، والهَرريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 374.

وقيل: هي لامُ العاقِبةِ[1]؛ والمعنى: لتكون نتيجة ترك الشَّيطان مُسلَّطًا على النّاس يأتيهم من قبل أمانيِّهم؛ أيْ: يجعل سُبحانه ما يُلقيه الشَّيطان من وسوسةٍ وإغواءٍ بمسايرتهم فيما يتمنَّونه حتَّى يصلوا إلى ما يُرديهم فِتْنَةً[2].

مرجعُ تَعَلُّقِ اللّامِ:

صلاحيَّةُ تَعَلُّقها بالإلقاء من الشَّيطان والنَّسخ من الله معًا

الأظهر في اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ أنَّها متعلِّقةٌ، بـ﴿أَلۡقَى﴾؛ أيْ: ألقى الشَّيطانُ في أُمنيَّة الرَّسل والأنبياء، ليجعلَ اللّه ذلك الإلقاء فتنةً للَّذين في قلوبهم مرض[3]، وقد تكون اللّام مُتعلِّقةً بالفعل ﴿فَيَنسَخُ﴾؛ فإنَّ النَّسخ يقتضي منسوخًا، وفي ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ ضميرٌ عائدٌ إلى اللّه في قوله: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾؛ فالمعنى: أنَّ اللّه مكَّن الشَّيطان من ذلك الفعل بأصل فطرته من يومَ خلقَ فيه داعيةَ الإضلال، ونسخ ما يُلقيه الشَّيطانُ بواسطة رُسُلِهِ وآياته؛ ليكونَ من ذلك النّسخ فتنةٌ: ضلالُ كفرٍ وهديُ إيمانٍ بحسب اختلاف القابليّات؛ فهذا كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ٤٠﴾... [الحِجْر: 39 - 40][4]، وتعلُّقُها بـ﴿فَيَنسَخُ﴾ أرجح لفظًا ومعنًى.

استعارةُ حرفِ اللّامِ لمعنى حرف الفاء:

تصويرُ سرعة حصول افتتانهم وانصرافهم عن التَّأمُّل في أدلَّة نسخ ما يُلقيه الشَّيطان

حرف (اللّام) في قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ موضوعٌ للتَّعليل، لكنَّه هنا مُستعارٌ لمعنى التَّرتُّب والعاقبة، مثلُ اللّام في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا﴾ [القصص: 8]، وهي مُستعارةٌ لمعنى التَّعقيب الذي حقُّه أن يكون بحرف (الفاء)، بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة؛ أيْ: تَحَصَّلَتْ عَقِبَ النَّسخ الذي فعله

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 527، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.
(2) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5006.
(3) الشِّنقيطيّ، أضواء البيان: 5/ 289.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.

اللّه فتنةٌ مَن افتتنَ من المُشركين بانصرافهم عن التَّأمل في أدلَّة نسخ ما يُلقيه الشَّيطان، وعن استماع ما أحكمَ اللّه به آياته، فيستمرُّ كفرهم ويقوى[1]، وهذا التَّوجيه مبنيٌّ على أنَّ (اللّام) ليست للتّعليل والحكمة، وعلى أنّها مُتعلِّقةٌ بالفعل ﴿فَيَنسَخُ﴾ دون الفعل ﴿أَلْقَى﴾.

معنى (الجَعْل) في الجملة الكريمة:

الجعل في قوله تعالى: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ﴾ جَعْلُ نظام ترتُّبِ المُسبَّبات على أسبابها، وتكوين تفاوت المدارك ومراتب درجاتها[2].

نكتة التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَا﴾:

تفخيمُ الابتلاء تعيينٌ لسبب السُّقوط في حبائل الشَّيطان

ورد معمولُ الجَعْل اسمًا موصولًا في قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةً﴾ بلفظ ﴿مَا﴾ الدّالَّة على الإبهام والعموم، فيفيد التّهويلَ والتّفخيم لما يُلقيه الشّيطان في أُمنيَّة الرُّسل والأنبياء حتى يؤولَ ذلك إلى فتنةٍ عظيمةٍ وشرٍّ مُستطيرٍ.

سِرُّ انتخابِ لفظِ الفِتنةِ ومجيئِه مُنَكَّرًا:

بيانُ شِدَّة الابتلاء وعِظَمِ الاختبار بما ألقاه الشَّيطان

يراد بلفظ (الفتنة) في القرآن الكريم الامتحانُ الذي يحصلُ معه افتتانٌ؛ وهي نوعان: فتنة الشُّبهات؛ وهي أعظم الفتنتيْن، وفتنة الشَّهوات، وفتنة الشُّبهات من ضعف البصيرة، وقِلَّة العلْم، ولا سيما إذا اقترن بذلك فسادُ القَصْد وحصولُ الهوى، فهنالك الفتنة العظمى، والمصيبة الكبرى، فقُلْ ما شئتَ في ضَلال سيِّئ القصد الحاكم عليه الهوى لا الهدى مع ضعف بصيرته وقلَّة علمه بما بَعَثَ اللّه به رسوله[3]؛ ومرضى القلوب من المُنافقين هم المقصودون بهذه الفتنة في هذا الموضع، وفي مجيء اللَّفظ مُنَكَّرًا دليلٌ على شدَّة خَطَرِها وعِظَم أمرها، وللدّلالة على أنّها نوعٌ خاصٌّ من الفتنة لا يُدرك إلا بالتّأمُّل والتّفكُّر.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.
(3) ابن القيّم، إغاثةُ اللهفان: 2/ 165.

تحقيرُ شأنِ المُنافقين وبيانُ سفولِ مرتبتِهم

سِرُّ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

جيء بالموصول (الّذين) في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ لبيان سفول تلك القلوب عن حدِّ الاعتدال وفسادها، وهي قلوبُ أهل النِّفاق المُتلقِّفون للشُّبَهِ المُلقون لها[1]، فالتَّعريف بالموصول هُنا تحقيرٌ لشأن هؤلاء المُنافقين؛ وهذا مؤسَّسٌ على أنَّ معنى أنَّ في قلوبهم مرضًا تعريفٌ لهم، وبيانٌ لحقيقتهم؛ شأنُ صلة الموصول.

كونُ القلوبِ مصدرَ كفرهم وفسادِهم الخَفيِّ

نُكتة إسناد الثُّبوت في القلوب للمرض:

قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أيْ: شَكٌّ ونفاقٌ؛ وهو المُناسب لقوله تعالى في المنافقين: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ [البقرة: 10]، وتخصيص القلب بالأمراض كما يدلُّ عليه التَّقديم مُؤيِّدٌ له؛ لعدم إظهار كُفرهم بخلاف الكافر المُجاهر[2]، وكذلك القسوةُ؛ محلُّها القلب؛ وفي إضافة المرض إلى قلوبهم في المعنى وإسناد القسوة إليها دلالةٌ على تمكُّن المرض والقسوة منهم ورسوخِهما فيهم.

بيانُ النوعيَّة وتعظيم هذا المرض وتهويله

معنى المرض المذكور ووجه تنكيره:

قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شكٌّ وشبهةٌ وهم أهل النِّفاق[3]، فيكون التَّنكير في لفظ ﴿مَّرَضٌ﴾ لِبَيان النَّوعيَّةِ؛ والمعنى على هذا: (في قُلوبِهِم نَوْعٌ مِنَ الأمْراضِ غَيْرَ المتعارَفِ عليهِ مِنَ الأمراض؛ وهو مرضُ النِّفاقِ والشَّكِّ)، وفي هذا التَّنكير أيضًا دليلٌ على التَّعظيمِ والتَّهويل؛ أيْ: مرضٌ عظيمٌ له أضرارٌ لا حصر لها.

دلالة إتباع وصف القسوة بعد وصف المرض:

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ عطفٌ على ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، ويُراد بـ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ المشركونَ الجافيةُ قلوبُهم عن

(1) البقاعيُّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 72.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 166.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 241.

قبول الحقِّ؛ ليزدادوا شبهةً ومريةً فيه وشكًّا ورَيْبًا فيمَن أنزل عليه، وكفرًا وجحودًا بمَن أنزله(1)؛ فعطف أهلُ الكفر الجَليِّ على أهل الكفر الخفيِّ من باب التَّرقّي.

سِرُّ التَّعبير بالصِّلة الوصفيَّة ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ﴾ دون الصِّلة الاسميَّة:

الكُفرُ كُفران؛ كفرٌ صلبٌ، وكفرٌ مُتلوّنٌ مُتغيّرٌ

تقدير الكلام: (فتنةٌ للَّذين قسَتْ قلوبُهم)(2)، كما قيل: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ ليتشاكلَ التّعبيران؛ وإنّما عَدَلَ النَّظم القرآنيُّ عن التَّعبير بالموصول الاسمي وصلته الاسمية فلم يَقُل: (للذين في قلوبهم قسوةٌ) إلى التَّعبير بالموصول الاسمي وصلته الوصفيَّة للدَّلالة على رسوخ الوصف في قلوب الكافرين، الّتي يُنبئُ عنها اسم الفاعل؛ فإنَّ قلوبهم قاسية طبعًا لكنَّها ليست مريضةً، فقد تلين لقبول الحقِّ، وترجع إلى الصَّواب، وترعوي عمّا هي فيه من الغيّ، وأمّا قلوب أهل النِّفاق فإنَّها تمتازُ عن قلوب الكافرين باللّين الذي يُمكِّنهم من التَّلوُّن والنِّفاق؛ فظهر الفرق بينهما، لكنّ قسوةَ القلب الطَّبعيَّة قابلةٌ للزَّوال بخلاف ثبوت المرض في القلوب، كما تُنبئُ عنه الجملة الاسميَّة الدّالّة على الثُّبوت.

بلاغة التَّوكيد بـ(إنَّ) واللّام والجُملة الاسميَّة:

قد يكون تأكيد الخبر ناظرًا إلى غيره

برز في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ﴾ تأكيدٌ على أنَّ الخارجين المُتجاوزين عن مُقتضى العقل والشَّرع باتِّخاذهم الجمادات التي قد نحتوها بأيديهم شُركاء شُفعاء عنده لَفي شِقاقٍ بعيد(3)، فأكّد النَّظم الكريم هذا الخبرَ بثلاثة زيادةً في تقرير الخبر وتقوية الحُكم المُترتِّب على أثر إلقاء الشَّيطان في نفوسهم المريضة وقلوبهم القاسية؛ ووراء هذا التّأكيد من المعنى تهويلُ شأن

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.
(2) ابن الأنباريّ، البيان في غريب إعراب القرآن: 2/ 178.
(3) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيَّة: 1/ 558.

تلك الفتنة وتفخيمه؛ وكذلك ما تسبَّبَ عنه الجَعْلُ المذكور في قوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي﴾، الآية.

بلاغة إظهار لفظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ في مقام الإضمار:

التّسجيل عليهم بالظُّلم مع ما وصفوا به من مَرض القلوب وقسوتها

يريد بـ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ هؤلاء المُنافقين والمُشركين، وأصله (وإنّهم)؛ فوضع الظّاهر موضعَ ضميرهم تسجيلًا عليهم بالظُّلم مع ما وصفوا به من مَرض القلوب وقسوتها[1]؛ فسوَّى تعالى بينهم في صفة الظُّلم بعد أن فرَّق بينهم في قوله: ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ﴾ ﴿وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ﴾، وللإشارةِ إلى أنَّ عِلَّةَ كَونِهم في شِقاقٍ بعيدٍ هي ظُلْمُهم[2].

إيثارُ صفة الظُّلم دون غيرها:

دلالــةُ لفظ (الظالمين) على صنوف الكفر وأنواعه

عبّر السّياق القرآنيّ عن الذين في قلوبهم مرض من المنافقين وعن القاسية قلوبهم من الكافرين بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ بلفظ (الظُّلم) الدّالِّ على أنَّ الفريقيْن قد مارسوا صفة الظُّلم بأنفسهم والمؤمنين والآيات، وتجاوزوا الحدود كلَّها في نفاقهم وكفرهم؛ فهي صفةٌ تجمع الفريقيْن وتشتمل عليهما، وتشعر بنهايةٍ مقيتةٍ ومرتعٍ وخيم؛ فقد تركوا العدل في الحُكم والإنصاف في اتخاذ القرار المناسب.

سِرُّ انتخاب حرف الظَّرف (في):

إفادة المبالغة في انغماسهم في الشِّقاق وإحاطته بهم

مجيءُ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾ يُفيد المُبالغة[3]، فهم في هذا الشِّقاق لا ينفكّون عنه وهو مُحيط بهم، وهذه المبالغة تصويرٌ لحقيقة حالِهم، ولا علاقة لها بزيادة المعنى، ودلَّت الظَّرفيَّة على استعارة مَكْنيَّة؛ فكأنّ الشِّقاق قد شُبِّه بمكانٍ دخلوه وعاشوا تحت أسواره لا يستطيعون منه تخلُّصًا وفكاكًا.

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 527، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 166.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 166، والبيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 76، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 527.
(3) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 97.

إيثار لفظ ﴿شِقَاقٍ﴾، والتَّعبير عنه بالمصدر:

الإشارة إلى كمال البينيّة والمُفارقة بينهم وبين الحقّ والرَّشاد

الشِّقاق: البُعدُ عن الخير، والكونُ في شقّ غير شقٍّ يُقابله[1]، وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ بيَّن مُجانفة هذيْن الفريقيْن للحقِّ وبُعدَهما عن الرُّشد لا إلى غاية؛ فهذان الصِّنفان من الضَّلال والعداوة لأمر الله، والبُعد عن الرَّشاد والسَّداد، بما لا مَطمع لهُما معه في النَّجاة والفوز برضا الله[2]، فكلُّ فريق منهم في شِقٍّ يُفارقُ الآخر؛ فالمشركون في شقٍّ، واليهود في شِقٍّ، والمُنافقون في شِقٍّ، كما أنَّ النِّفاق ضروبٌ مُختلفة، وكلُّ شِقٍّ بينه وبين الآخر مسافةٌ بعيدةٌ[3].

وفي التَّعبير بـ ﴿شِقَاقٍ﴾ مادةً وصيغةً كمالُ نفي المساواة بين المُحدَّث عنهم وبين مقابليهم مِن المؤمنين؛ وهذه الآية تحدَّرت من سياق التّفرقة بين الفريقيْن ونفي التّسوية الضّمنيّة بينهما من قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، الآية.

سِرُّ وصف الشِّقاق بالبعيد:

المُبالغة في الدَّلالة على البون الشّاسع والفرق الواسع

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ وصف القرآن الكريم الشِّقاق بالبُعد مع أنَّ الموصوف به حقيقةً هو معروضه من الأقوال والأفكار؛ وذلك للمُبالغة في انتهائه، وبيان أنَّهم غير مَرْجوّةٍ رجعتُهم منه[4].

نكتة تنكير ﴿بَعِيدٍ﴾:

جاء التَّنوين في لفظ ﴿بَعِيدٍ﴾ للتَّعظيم في بابه[5]؛ أيْ: تعظيم شأن هذا البون.

(1) الثَّعالبيّ، الجواهر الحِسان: 4/ 133.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 130.
(3) البيضاويّ، أنوار التَّنزيل: 4/ 76، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5007.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 527، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 166.
(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 97.

بلاغة استعارة لفظ ﴿بَعِيدِۭ﴾ في معنى المُبالغة:

عـظُـمـت استجابتُهم للشَّيطان فكانوا في شقٍّ بعيد

البعيدُ هُنا مُستعملٌ في معنى البالغ حدًّا قويًّا في حقيقته؛ وهي استعارةٌ تصريحيَّة جاءت تشبيهًا لانتشار الحقيقة فيه بانتشار المسافة في المكان البعيد؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٖ ٥١﴾ [فُصِّلت: 51]؛ بمعنى دُعاءٍ كَثيرٍ مُلحٍّ[1]؛ فالأصل: في شقاقٍ مُنتشرِ الآراء والتّصوُّرات انتشارًا مُتباعدًا لا تقاربَ بينها ولا تجانس، وشُبِّهت بالتّباعد المكانيّ بين الأشياء.

دلالةُ تذييلِ الآيةِ بالجُملة الاعتراضيَّة:

تأكيدُ مضمون ما قبلها من الكلام

جملة ﴿وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ﴾ جملة مُعترضة بين المُتعاطفات، وهو اعتراضٌ تذييليٌّ مُقرِّرٌ ومُؤكِّد لَمضمونِ ما قبْلَه[2]، فهؤلاء الذين ألقى بهم الشَّيطان في طريق الدَّعوة التي يدعو بها الرَّسولُ أو النَّبيُّ هم مُتلبِّسون بظُلْمٍ عظيم، لما هُم عليه من شقاقٍ بعيدٍ عن مواطن الحقِّ، ومن خلافٍ قائمٍ على الجُرأة والتَّجرُّد من الحياء في إنكار البديهيّات، وفي عدم التَّسليم بها والانقياد لها[3].

۞ الفروقُ المُعجميَّة:

(الفتنة)، و(الابتلاء)، و(الاختبار):

الفتنة الاختبار الشَّديد، والابتلاء تحمّل المكاره، والاختبار يكون بذلك وبفعل المحبوب

الفتنة أشدُّ الاختبار وأبلغُه، ويكون في الخير والشَّرِّ؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞۚ﴾ [التّغابن: 15] وقوله تعالى: ﴿لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦ لِّنَفۡتِنَهُمۡ فِيهِۚ﴾ [الجن: 16 - 17]؛ فجعلَ النِّعمة فتنةً؛ لأنَّه قُصد بها المبالغة في اختبار المُنعَم عليه بها، كالذهب إذا أُريد المبالغة في تعرُّف حاله أُدخل النّار، واللّٰه تعالى لا يختبر العبد لتغيير حاله في الخير والشَّرّ، وإنَّما المُراد بذلك شدّةُ التَّكليف[4].

(1) أبو حيّان: 7/ 527، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 114.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 114، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1068.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 217.

أمّا الابتلاء فعادةً لا يكون إلّا بتحميل المكاره والمشاقّ[1]، بينما يكون الاختبار بذلك وبفعل المحبوب؛ يُقال: اختبَرَه بالإنعام عليه، ولا يُقال ابتلاه بذلك ولا هو مُبتلًى بالنِّعمة، كما قد يُقال إنّه مُختَبَرٌ بها، ويجوز أن يُقال: إنَّ الابتلاء يقتضي استخراجَ ما عند المُبتلى من الطّاعة والمعصية[2]، والاختبار يقتضي وقوعَ الخَبر بحاله في ذلك، والخبرُ العلمُ الذي يقع بكُنه الشَّيء وحقيقته والفرق بينهما بيّنٌ، والفتنة تأتي أيضًا بمعنى الابتلاء،؛ كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾ [العنكبوت: 1 - 3][3].

(الشِّقاق) و(الخِلاف):

فــي الـشِّـقـاق معنى المُـضـادّة والمُقابلة، ولَيْسَ كـلُّ مخْـتَـلـفَـيْنِ ضدَّيْنِ

فَسَّرَ بَعضُ المفَسّرينَ الشِّقاقَ بأنَّهُ الخِلافُ: ﴿لَفِي شِقَاقٍ﴾؛ أيْ: خِلافٍ[4]، ولكنْ بَينَهما فرقٌ: فـ"أصْلُ الشِّقاقِ العَداوَةُ والمُخاصَمَةُ؛ لِأنَّ كُلّ واحِدٍ يَكونُ شِقًّا؛ أيْ ناحيةً غَيْرَ شقِّ الآخرِ"[5]، فكَأنَّهُمُ انْقَسَموا إلى شِقَّيْنِ مُتَباعِدَيْنِ، والاخْتِلافُ والمُخالَفَةُ: أن يَأخُذَ كُلُّ واحِدٍ طريقًا غَيْرَ طريقِ الآخَرِ في حالِهِ أَوْ قَولِه، والخِلافُ أعمُّ من الضِّدِّ، لأنَّ كُلَّ ضِدّيْنِ مختلفانِ، وليسَ كلُّ مختلفَينِ ضدَّيْنِ"[6]؛ فالشِّقاقُ أدلُّ على المُعاداةِ والتَّباغُضِ والتَّنافُرِ من الاخْتلافِ؛ فليْسَ الخلافُ والاختلافُ قَطْعيًّا في المُعاداةِ.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (بلا)، والكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 216.
(3) مجموعة مؤلّفين، نضرة النَّعيم: 1/ 8.
(4) العُليميّ، فتح الرّحمن في تفسير القرآن: 1/ 244.
(5) السّمين، عُمدة الحُفّاظ: (شقق).
(6) الرّاغب، المُفردات: (خلف).

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤﴾ [الحجّ: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ذِكْرُ حالِ أهلِ العلمِ مع الإلقاءِ الشَّيطانيِّ بعد ذِكْرِ حالِ أهلِ الكفر

لمّا ذكر اللّه ﷻ الحكمة ممّا فعله الشَّيطان من إلقاء الشُّبه والوساوس في قلوب أهل الكفر والنِّفاق اختبارًا من اللّه ﷻ لهؤلاء؛ بيَّن سُبحانه حكمةً أُخرى تتعلَّقُ بحال أهل العلم والإيمان مع ذلك الإلقاء[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَتُخۡبِتَ﴾: (خبت) أصلُ الكلمةِ من الخَبْتِ، وهو: المكانُ المنخفِض والواسع؛ ومنه سُمّي التَّواضع إخباتًا؛ لأنَّ المُتواضع أخفضَ نفسَه ولم يرفعْها[2]، والإخبات: الخشوعُ والسُّكون، يُقالُ: أخبَتَ يُخبت إخباتًا: إذا خشعَ للّه تعالى، ورَجُلٌ مُخبتٌ؛ أيْ: خاشِعٌ ساكِنٌ[3]، والخَبيت: الحقيرُ من الأشياءِ[4]، ويأتي الإخبات بمعنى اللّين والتَّواضُع، يُقالُ: فيه خِبتَةٌ؛ أيْ: تواضُعٌ[5]، ومن معانيه أيضًا: الاطمئنانُ والخُشوعُ؛ وهو المُراد في الآية.

2) ﴿لَهَادِ﴾: (هدي) أصلُها الرَّشادُ، والبَيانُ، والدَّلالةُ بلُطْفٍ إلى ما يوصِلُ إلى المَطْلوب، يُؤَنَّثُ ويُذَكَّرُ، وهو لازِمٌ ومُتَعَدٍّ، يُقالُ: هَداهُ، هُدًى، وهَدْيًا، وهِدايَةً، وهِدْيَةً، وهَداهُ للدّين وإلى الدّين؛ أيْ: أرْشَدَهُ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 4/ 424، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 329.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خبت).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خبت).
(4) الخليل، العين، وابن سِيدَه، المُحكَم، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).
(5) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خبت).

إليه وبَيَّنَهُ له، وعَرَّفَهُ به، وضِدُّه: الضَّلالُ[1]، والهادي: الدَّليلُ؛ لأنَّه يتقدَّمُ القوْمَ ويَتْبَعونَه، أوْ لكوْنِه يَهْديهم الطَّريقَ[2]، والهِدايَةُ: الإرْشادُ على المَقْصِدِ النّافِعِ والدَّلالةُ عليه[3]، والمُرادُ بالهُدى في الآية: عنايةُ اللّهِ وتَيسيرُه وتوفيقُه.

3) ﴿صِرَٰطِ﴾: هو الطَّريقُ الواضِحُ المُسْتَقيمُ، وسُمّي صِراطًا؛ لأنَّ النّاسَ يَسلُكونَهُ بِسُرعَةٍ لِكونِهِ واسِعًا مُستقيمًا، والجَمْعُ: صُرُطٌ، أو مِنْ سَرِطتَ الشَّيْءَ: إذا ابْتَلَعْتَهُ؛ لِأنَّهُ - أي الطَّريق - يَبْتَلِعُ المارَّةَ لِكَثْرَةِ سُلوكِهِم لهُ[4]، والصِّراط لُغَةٌ في السِّراطِ، والصّادِ أعلى لِمَكانِ المُضارَعة وإن كانَتِ السّينُ هيَ الأصل[5]، والمقصود بالصِّراط في الآية: الطَّريقُ البَيِّنُ القَويم.

4) ﴿مُّسْتَقِيمٍ﴾: (قوم) أصْلانِ صَحيحانِ، وأصلُ الاستقامة يدلُّ على اعْتِدال الشَّيْءِ واستوائِه[6]، تُقالُ في الطَّريق الذي يكونُ على خطٍّ مُستوٍ، وبه شُبِّه طريقُ المحقّ[7]، والمُستقيمُ: السَّويُّ، مُشْتَقٌّ من القَوامِ - بِفَتْحِ القافِ - وهو اعتدالُ الذّاتِ، اسْمُ فاعِلِ استقامَ، وهو الَّذي لا عِوَجَ فيهِ ولا تعاريجَ، وأحسنُ الطُّرقِ الَّذي يكونُ مُسْتَقيمًا وهو الجادَّةُ؛ لِأنَّهُ باسْتِقامَتِهِ يكونُ أقْرَبَ إلى المكانِ المقصودِ من غيره فلا يَضِلُّ فيه سالكهُ ولا يتردَّدُ ولا يتحيَّرُ، وحقيقةُ المُستقيمِ في الآية: السّالِمُ مِنَ العِوَجِ.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

(وليَعلَمَ الّذين آتاهم اللّهُ العِلمَ النّافِعَ الذي يُفَرِّقونَ به بينَ الحَقِّ والباطِلِ أنَّ ما أنزَلَه اللّهُ هو الحَقُّ لا غيرُه مِمّا ألقاه الشَّيطانُ، فيُؤمِنوا بالقُرآنِ ويَعمَلوا به ويَزدادوا هُدًى؛ فتَخضَعَ وتَلينَ قلوبُهم للحَقِّ الذي جاء من عند اللّهِ وتَطمَئِنَّ به وتُذعِنَ إليه وتقِرَّ، وإنَّ اللّه لَمُرشِد المؤمنينَ باللّه ورسوله إلى طريقٍ قويمٍ في الدُّنيا والآخرة؛ أمّا في الدُّنيا فيُرشدهم إلى الحقِّ واتِّباعه، ويوفّقُهم لمخالفة الباطل واجتنابه بتأويلٍ سليمٍ للمُتشابه في الدّين، وتفصيلٍ

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدي).
(2) ابن سِيدَه، المُحْكم، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (هدي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 101.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سِيدَه، المُحْكَم، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سرط - صرط).
(6) الأزهريُّ، تهذيب اللُّغة: (قوم).
(7) الرّاغب، المُفردات: (قوم).

واضحٍ للمُجمل منه، وأمّا في الآخرة فيَهديهم الطَّريقَ الصَّحيح الموصِل إلى درجات الجِنان، ويَصرِفُهم عن دَرَكات النّيران)[1].

مِن شأن الله تعالى أن يهديَ الذين آمنوا إلى الطَّريق الأقوم

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو وفائدتُه:

إتباع ذِكْرِ حالِ المُؤمنين بِذِكرِ حالِ الظّالمين على سبيل المُقابلة والمُقارنة

قوله تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ عَطۡفٌ على ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾؛ حيث ذَكَرَ حالَ الظّالمين في الآية السّابقة، ثُمَّ ذَكَرَ حالَ المؤمنين في هذه الآية، وذلك من باب المُقابلة والمُقارنة بين حال الفريقَيْن[2].

ويُلاحَظُ أن الحديث عن حال المؤمنين هنا مُؤَخَّرٌ عن ذِكْرِ حال الكافرين؛ لأنَّ السّياق في الأصل لبيان التّحذير من الشّيطان والاستجابة له.

معنى اللّام في ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾:

إفادةُ كونِها عِلَّةً لفعل الإتيان بالآيات مُحكمةً

لام ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾ على أصل معنى التَّعليل والغرض؛ أيۡ: ينسخ اللّٰه ما يُلقي الشَّيطان ويُحكمُ اللّٰه آياته لإرادة أنۡ يعلمَ المؤمنون أنَّه الحقُّ برسوخ ما تمنّاه الرَّسول والأنبياء لهم من الهُدى، كما يحصل لهم بما يُحكِمُ اللّٰهُ من آياته ازديادُ الهُدى في قلوبهم[3]؛ أيۡ: لكي يعلمَ أهلُ العلم باللّٰه أنَّ الذي أنزله اللّٰه من آياته التي أحكمها، ونسخ ما ألقى الشَّيطان أنَّه الحقُّ من ربِّهم، فيُصدّقوا به وتخضع له قلوبهم وتُذعِنَ للإقرار به نفوسُهم[4]؛ فهي عِلَّةٌ لفعل الإتيان بالآيات مُحكمةً، ويجوز أن تكون الإشارةُ إلى التَّمكين المفهوم ممّا تقدَّم من النَّسخ والإحكام معًا، وقوله: ﴿لِّيَجۡعَلَ﴾ عِلَّةٌ لفعل التَّمكين وما بعده عِلَّةٌ لما بعد[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 613، وابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 129، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 542.

(2) الدُّرَّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 189.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 301.

(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 130.

(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 166.

دلالةُ ذِكْرِ الموصول وفائدةُ إبهامه في الجُملة الكريمة:

المقصود من قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ هم المؤمنون بقرينة مقابلته بـ﴿لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، وبقرينة قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾(1)، وتكمنُ فائدةُ إبهام الاسم الموصول في تشريفهم بالوصفِ الكاملِ وهو اتِّصافهم بالعلم والعمل به؛ لأنّ الصلة تعريفٌ وبيانٌ للموصول، وفي الموصول إشارةٌ إلى عمومِ مَنْ أوتي العلمَ؛ لأنَّ لفظ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظِ العموم، مع ما فيه من لفتِ الانتباهِ بالإبهام؛ ليقعَ بعده التَّفصيلُ فيتمكَّنَ معناه من الذِّهن، ولم يُعبَّر عنهم بالمؤمنين؛ بل آثر السّياقُ الاسمَ الموصول للدلالة على أنّ المؤمنين هم أهلُ العلم، وأنَّ تمييز الشُّبُهات من اختصاصهم.

تـشـريـفُـهـم بـالـوصـفِ الكاملِ، ولفتُ الانـتـبـاهِ في الإبـهـام إلى التَّفصيل الذي يليه

نكتةُ جمعِ الاسم الموصولِ:

في إيرادِ الاسم الموصول جمعًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ إشارةٌ إلى أنَّهم جماعة المؤمنين، وفريق الصّالحين الذين آتاهم اللّه العِلْمَ وتمييز الشُّبهات، وكُلَّما تُليَ عليهم القُرآن ازدادوا علمًا، وكُلَّما ازدادوا عِلْمًا ازدادوا إيمانًا، واستمر إخباتهم، وفي الجمع معنى تعظيمهم؛ وإن كانوا قلّةً في جنب المقابلين من أهل الكفر والنِّفاق.

كـم مـن فـئـةٍ قـلـيـلـةٍ أشـرف من فئةٍ كثيرةٍ؛ بالإيمان والعلم

دلالة الفعل ﴿أُوتُواْ﴾ مبنيًّا للمفعول:

بُنِيَ فعل ﴿أُوتُواْ﴾ للمفعول تعظيمًا لثمرته في حَدِّ ذاته(2)، وللعلم بمَن آتاهم وتَفَضَّل عليهم بهذا الشَّرف العظيم؛ فإيتاء العلم مِنَّةٌ من اللّه على خُلَّص عِباده وصفوة خلقه، وفي حذف الفاعل دلالةٌ على قوّة علْمِ أهل الإيمان به، وعظيمِ قُربهم منه.

تـعـظـيـم ثـمـرة الـعـلـم في حَدِّ ذاته

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 73.

وجهُ التعريف باسم الموصول:

الإيماءُ إلى وجهِ استحقاقهم للثّناء من الله سُبحانه

عُرّف المُسندُ إليه بالاسم الموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقهم للثّناء من اللّه سُبحانه، وهو العلمُ الذي أوتوه، والذي كان سببَ إيمانهم وخضوعهم وخشيتهم عند سماع كلام اللّه تعالى، وهذا مبنيٌّ على أن الصّلة تعريفٌ وبيانٌ للموصول، وهذا ثناءٌ على أصحاب الرسل بأنهم أوتوا العلم[1].

سرُّ التّوكيد بـ (أنّ)، والمصدر ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

التّأكيدُ على فضيلة العلم الدّالِّ على الحقِّ والمُفرِّق بَيْنَ الرُّشد والغيِّ

(أنَّ) واسمها وخبرها سدَّتْ مسدَّ مفعولي ﴿وَلِيَعۡلَمَ﴾[2]، وقد جاء تأكيدُ الجملة بحرف التَّوكيد واسميّة الجُملة تأكيدًا على أنَّ اللّه منحهم من العلم، ما به يعرفونَ الحَقَّ من الباطل، والرُّشدَ من الغيِّ، فيُفرِّقون بين الأمرَيْن: الحَقّ المستقرُّ الذي يحكمه اللّه، والباطل العارض الذي ينسخه اللّه، بما على كلٍّ منهما من الشَّواهد، وليعلموا أنَّ اللّه حكيم يُقيِّض بعض أنواع الابتلاء، ليظهر بذلك كمائنَ النُّفوس الخَيِّرة والشِّريرة[3].

دلالةُ عود الضَّمير في ﴿أَنَّهُ﴾:

العلم طريق الهدى والوحي

الضَميرُ في ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ عائدٌ إلى العِلْم الَّذي أوتوه؛ أيْ: ليَزدادوا يَقينًا بأنَّ الوحيَ الَّذي أوتوه هو الحقُّ لا غيرُه[4]، وهذا الوجه أبرُّ بالسّياق، وقد يكون الضَّمير في ﴿أَنَّهُ﴾ عائدًا على القرآن[5]، أو عائدًا على عموم الشَّيء الذي تلوتُهُ أَوْ حدّثتُ به[6]، ويَجوزُ أنْ يكونَ ضَميرُ ﴿أَنَّهُ﴾ عائدًا إلى ما تَقدَّمَ من قولِه: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ﴾ إلى قولِه: ﴿ثُمَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.
(2) الدّعّاس، إعراب القرآن الكريم: 2/ 316.
(3) السَّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 639.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 303.
(5) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 129.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 73.

﴿يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ﴾؛ أيْ: إنَّ المذكورَ هو الحقُّ[1]، وفي هذه التَّقادير دلالةٌ على التَّوسُّع في المعنى المُفضي الى تنوُّعِه.

بلاغة القصر بتعريف الجُزئيْن:

الدّلالة القاطعة على أنَّ القرآن الكريم هو الحقُّ الذي لا مريةَ فيه

القَصرُ في الجملة الكريمة مُستفادٌ مِن تَعريفِ الجُزأيْنِ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾ وهو قَصرٌ إضافيٌّ[2]، وفي تعريف الطَّرفيْن دلالةٌ على أنَّ القرآن الكريم هو الحقُّ، فليس حديثًا يُفترى ولا أساطير الأوَّلين[3]، والمحدّث عنهم إنّما علِموا هذا المعنى بهذه الصِّفة من التَّحقيق والتَّوكيد.

نكتة التَّعبير بالاسم ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ دون الفِعْلِ:

الدَّلالة على الثَّبات والاستقرار

قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ﴾؛ أي: الصَّريح والصّدق البالغ المنزَّل عليك يا سيّدَ الرُّسل[4]، ومجيءُ اللَّفظ اسمًا يدلُّ على ثباتِه واستقراره؛ فهو الحقُّ الثّابت الذي لا يمكنُ زوالُه[5]؛ فالتَّشاكل بين اللَّفظ ومعناه جدُّ ظاهرٌ، كما أنّ الجملة بأكملها اسميّةٌ تفيدُ الثُّبوت والاستقرار.

إيثار لفظ الرُّبوبيَّة مضافاً إلى كاف الخطاب النَّبويّ:

الدَّلالة على التَّربية والإحسان والتَّشريف بالامتنان بالقرآن

قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أيْ: من عند ربِّك يا محمَّد[6]؛ فالحقُّ الثّابت الصَّحيح نازلٌ من عنده وهو الذي أنزله بعلمِه وحفظه، وصانه أن يختلط به غيره[7]؛ ففي التَّعبير بـ(الرّب) مُضافًا إلى (كاف الخطاب) المقصود به سيّدُنا محمّد ﷺ إشارةٌ إلى أنّ وفق هؤلاء للهدى والعلْم بالحقِّ؛ إحسانًا إلى نبيِّه ﷺ، وفي ذلك أيضًا: بيانٌ لعظيم إحسانه ﷺ على نبيِّه؛ والمعنى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾؛ أي: المُحسن

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 303.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 303.
(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5007.
(4) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.
(5) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 73.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 134.
(7) المُظهريّ، التَّفسير المُظهريّ: 6/ 341.

إليك بتعليمك إيّاه؛ فهو الذي ربّاك وشَرَّفك في هذه الرِّسالة، وهذا القرآن العظيم(1).

وفي هذه الإضافةِ تشريفٌ للنّبيّ ﷺ مع بيان كمال عنايته ﷻ بنبيّه الكريم، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى قوَّة هذا الحقّ، فكُلَّما جودل أهلُه ظهرت حُجَجُهُ وأسفرت وجوهه، ووضحت براهينه وغُمرت لججُه(2)، ونلمح في الجارّ والمجرور ما يُفيد التَّعليل لكونه الحقّ؛ وهو أنَّه نازلٌ من ﴿رَّبِّكَ﴾.

كُلَّما جودل أهلُ الحقّ ظهرت حُجَجُهُ ووضحت براهينه وغُمرت لججُه

معنى الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ﴾: للسَّببيَّة، أي بسبب علمهم أنّه الحقُّ النازلُ من ربِّك يؤمنون به(3)، وتسبُّبُ الإيمان عن العلم بالحقيقة الناصعة دليلٌ على أنَّ إيمانهم لم يكن ناشئاً عن تقليد وضعف بصيرة بالآيات، بل عن فهم وإدراك ونباهة وبحث، ولذا استحقوا المدح والتنويه بالإيمان الناشئ عن البصيرة.

ما أعظم الإيمان الذي هو وليد العلم والإدراك

دلالة المُضارع ﴿فَيُؤۡمِنُواْ﴾ في فعل الإيمان:

المُرادُ من قوله تعالى: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾ الإيمانُ بالوحي؛ أيّ: القرآن؛ أيّ: يثبتوا على الإيمان به(4)، وكلَّما تجدَّد لهم علمٌ به تجدَّد بذلك لهم ثباتٌ على الإيمان واستمرارٌ على الالتزام، وازدادوا إيمانًا مع إيمانهم(5).

تجدُّد ثباتهم على الإيمان وزيادته بتجدُّد علمهم بالقرآن

معنى العطف بالفاء في ﴿فَتُخۡبِتَ﴾:

قوله: ﴿فَتُخۡبِتَ﴾ عطفٌ على: ﴿فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾، والفاء فيها للسَّببيَّة، أو عاطفة على العلم الذي أوتوا؛ والمعنى: فتخشعَ قلوبُهم

الدَّلالة على أنَّ الإيمانَ سَبَبٌ لخشوع القلب وسُكونه وانقياده

---

(1) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 73.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5007.
(4) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/ 487.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 166.

وتسكنَ وتنقادَ[1]، وتخضعَ للقرآن عَقِبَ التَّصديق به والإقرار بما فيه[2]؛ فصدقُ الإيمان وحقيقتُه يورِّث الإخباتَ في القلب، وهو الرِّقةُ والخشيةُ والخشوعُ في القلب وطولُ التَّفكُّر، وهذا من نتائج الإيمان وثمراتِه[3]، بخلاف المشركين الذين قيل فيهم: ﴿وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْۗ﴾[4].

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير عن التَّواضع بالإخبات:

الـدّلالـة على كـمـال تـهـيّـؤ قلوبهم للإيمان

قوله تعالى: ﴿فَتُخْبِتَ﴾ معناه: تتواضعَ وتخضعَ، وهو مأخوذ من الخبت؛ وهو المُطمئِنُّ من الأرض[5] ضِدُّ المُصعِدِ، فاسْتُعيرَ هذا المعنى هُنا للمُتَواضع، قال الرّاغب: "الخبتُ المُطمئنُّ من الأرض، وأخبتَ الرَّجل قَصَدَ الخبتَ أوْ نَزَلَهُ نحو أسهل وأنجد، ثُمَّ استُعمل الإخبات استعمال اللّين والتَّواضع"[6]؛ والمعنى: تواضعت قُلوب المؤمنين، ولم تُمار في الحقِّ قلوبُهم؛ بل أخبتتْ وسَكَنَتْ إلى الحَقِّ[7]؛ فهي استعارةٌ تصريحيَّةٌ تبعيَّةٌ، شُبِّه فيها تواضعُ أهل العلم والإيمان وخُشوعُهم لسماع ما يُتلى عليهم من الآيات - بما تطامنَ منَ الأرض؛ تدليلًا على رُسوخ إيمانهم واستقراره وكمال اطمئنانهم، وأفادَ إسنادُ الإخبات للقلوب إلى إخبات كافَّة الجوارح؛ لأنَّ أصلها تواضعُ القلب لعظمة الله وآياته.

دلالةُ العطف ومعنى الواو:

من أجلِّ العطايا الـثَّـبـاتُ على الإيمان والتّرقّي فيه

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ﴾ هذا إخبارٌ منه تعالى عن فعلِه مع أوليائه المؤمنين به المتقينَ له، وأنَّه هاديهم في حياتهم وفي كُلِّ أحوالهم إلى صراط مُستقيم يُفضي بهم إلى رضاه وجنَّته، وذلك

(1) القِنّوجيّ، فتح البيان: 4/ 487.
(2) مكّيّ بن أبي طالب، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4918.
(3) التّستريّ، تفسير التّستريّ، ص: 108.
(4) الواحديّ، الوسيط: 3/ 277.
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 129.
(6) الرّاغب، المُفردات: (خبت).
(7) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5007.

بحمايتهم من الشَّيطان وتوفيقهم وإعانتهم على طاعة ربِّهم[1]، وعُطفت هذه الجُملة الكريمة على ما سبق؛ إشعارًا بأنَّ مضمون هذه الجملة كالجزاء لأهل الإيمان؛ كما يرِد الجزاءُ بعد ذِكْر الأعمال؛ فإنّ المقصود بقوله: ﴿لَهَادِ﴾: لمثبِّتُهم في مقام الهداية إلى الصِّراط المستقيم بقرينة قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ إذ لا معنى لهداية المؤمن إلّا هذا المعنى؛ وهذا كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: 69]، وفي الجملة الاسميّة دلالةٌ أيضًا على أنَّ هذا الإيمان والإخبات كان بفضل اللّه وتوفيقه، فتفيد الامتنان على المؤمنين، وتنبيههم إلى فضيلة الشُّكر إزاء نعمة الهداية والعلم.

سِرُّ تذييل الآية الكريمة بِذِكْرِ هداية الله لأهل الإيمان:

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ الجُملةُ اعتراضٌ مُقرِّرٌ لما قَبْلَه[2]؛ ببيان حُسن مآل أهل الإيمان بهدايتهم وفوزهم بسعادة العقبى[3].

بلاغة التَّوكيد بـ (إنَّ)، و(اللّام) واسميَّة الجُملة:

رسـخَ الإيـمـانُ فــي قـلـوبـهـم فـأهـداهـم الله الثَّبات عليه

أُكِّدتِ الجُملة الكريمة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ﴾؛ بحرف التَّوكيد ولام التَّوكيد المُزحلقة واسميَّة الجُملة تقويةً للخبر وتوثيقًا لحُكمه وترسيخًا له في نفوس السّامعين، وفي التَّوكيد عظيم تأنيس لأهل الإيمان ولفتٌ إلى عَظَمَة المعنى في بابه؛ فالثَّبات على الإيمان والتَّرقّي في مقاماته نعمةٌ جليلة؛ والجملة كنايةٌ عن رضا اللّه على هؤلاء المُحدَّث عنهم.

سِرُّ التَّعبير باسم الجلالة:

التَّـنـبـيـه على سـبـب الـعـلـم ومصدر التَّوفيق

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أيْ: بجلاله وعظمته لهاديهم، وعبَّر بالاسم الجليل ﴿ٱلۡعِلۡمَ﴾ تنبيهًا على سبب العِلْم وهو هداية اللّه

(1) الجزائريّ، أيسر التَّفاسير: 3/ 488.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 114، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 307.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 17/ 130.

تعالى وتوفيقه لهم[1]، وفي التَّعبير به إشعار بأنَّ اللّه يفيض عليهم من جلاله وجماله وكماله؛ بما يُثبِّتهم على الإيمان، ويُرقّيهم في مقاماته، وفيه إشارةٌ إلى علَّة حصول الهداية للصِّراط المستقيم؛ لأنَّ الموفِّق إليها هو اللّه.

دلالة اختيار الاسم دون الفعل في لفظ ﴿لَهَادِ﴾:

ثبوتُ هَدْيه ﷺ واستقراره في نفوس أوليائه قديمًا وحديثًا حالًا ومآلًا

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ﴾ دليلٌ على ثبوت هديه ﷻ واستقراره في نفوس أوليائه حالًا ومآلًا، فيُثبِّتُ اللّه الذين آمنوا، بالقول الثّابت في الحياة الدُّنيا وفي الآخرة، وهذا النَّوع من تثبيت اللّه لعبده، وهذه الآيات فيها بيان أنَّ للرَّسول ﷺ أسوةً بإخوانه المُرسلين[2]، وفي الاسم إنباء ببشرى جليلة؛ وهي استقرارهم في دوحة الإيمان ودوامُ ترقّيهم في مقامات الإيمان.

إيثار التَّعريف بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾:

قَصْدُ مدحهم بالوصف الشّريف

إظهارُ لفظِ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ في مَقامِ ضَميرِ ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾؛ لِقَصْدِ مَدْحِهم بوَصفِ الإيمانِ، والإيماءِ إلى أنَّ إيمانَهم هو سبَبُ هَدْيهم[3]؛ لأنَّه إيمانٌ ناتج عن علم؛ فهو إيمانٌ قويٌّ ثابتٌ صلبٌ لا يتزعزع أبدًا.

بلاغةُ الاستعارة في التَّعبير عن الحَقِّ بالصِّراط:

قد يُجازَى العبد بتقريبه من سيده معرفةً وعلمًا

الصِّراطُ المُستَقيمُ مُستعار للإيمان والحقِّ، لأنَّ الصِّراطُ يُطلق في الأصل على الطَّريق الحِسّيِّ المخصوص، فاستعمالُهُ هُنا لطريق الإسلام استعارة تَصريحيَّة أصليَّة؛ حيث شُبِّه دينُ الإسلام بالطَّريق المخصوص الحِسّيِّ، والجامع بينهما أنَّ كُلًّا مِنْهُما موَصِّل للمقصودِ[4]، مع الاستقامة في كلٍّ منهما؛ فصُرِّحَ باسم المُشَبَّه به

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 73.

(2) السَّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 639.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 307.

(4) الهَرَريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 1/ 92.

وطويَ ذِكْرُ المُشبَّه، على طريقة الاستعارة التَّصريحيَّة، وفائدةُ الاستعارة ههنا التَّنْبيه على وضوحِ الطَّريقِ وعَدَمُ اشتباهِهِ؛ إذِ الحِسّيّاتُ أظْهَرُ في التَّصوُّرِ من العقليّاتِ، وهذه الاستعارة تدلُّ على أنَّ اللّه سيُكافئهم بمزيد بيانٍ لأمور الدّين أصولِه وفروعِه؛ فيزدادون استقامةً وتقوًى وإيمانًا؛ وهذا رجوعٌ ظاهرٌ إلى ﴿ٱلْعِلْمَ﴾ الذي تنكشفُ به الأشياء في صدر الآية.

نكتة تنكير لفظ ﴿صِرَٰطٍ﴾:

تفخيم شأن هذا الصِّراط وكونه شاملًا لطريق الحَقِّ في الدُّنيا وصراط النَّجاة في الآخرة

في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ جاء لفظ الصِّراط - بالإضافة إلى وصفه بالاستقامة كذلك - مُنكَّرًا للتَّفخيم؛ تناسبًا مع سياق المكافأة والمجازاة؛ كأنَّه قيل: صراطٌ واضحٌ مستقيمٌ لا حدودَ له في وضوحه؛ ففي الدُّنيا يرشدُهم ربُّهم إلى الحقِّ واتّباعه، ويوفّقُهم لمخالفة الباطل واجتنابه، وفي الآخرة يهديهم الصِّراطَ المستقيم الموصلَ إلى درجات الجنّات، ويُزحزحهم عن العذاب الأليم ودركات الجحيم(1).

نكتةُ وصف الصراط بالاستقامة في قوله تعالى ﴿إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾:

بيان كونه أحسنَ طريقٍ موصِلٍ إلى المقصود وأقربَه

المستقيم: هو الَّذي لا عِوَجَ فيه ولا تعاريج، فأحسنُ الطُّرق ما كان مستقيمًا؛ لأنَّه باستقامته يكون أقربَ إلى المكان المقصود من غيره، فلا يَضِلُّ سالكُه ولا يتردَّد ولا يتحيَّر ولا يتعثّر، فهو العدلُ السَّويُّ الذي لا يميلون إلى غيره ولا ينحرفونَ عنه(2)، وفي وصف الصِّراط بـ(الاستقامة) ردٌّ على ما يدَّعيه أهل الكفر من العِوَجِ، وذكر هذا الوصف يدل على أنَّ من مكافأتهم أنْ يكون الصراطُ مستقيمًا.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 390.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ٥٥﴾ [الحجّ: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

شرحُ حال الكافرين مَرَّة أُخرى بعد ذِكْرِهِمْ سابقًا

لَمّا بيَّن اللّهُ سُبحانَه حالَ الكافِرينَ أوَّلًا، ثمَّ حالَ المؤمنين ثانيًا؛ عاد إلى شرْحِ حالِ الكافرينَ مرَّةً أخرى فقال: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾(1)، فلمّا حكى عن الَّذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةِ قلوبهم أنَّ ما يُلقيه لهم الشَّيطانُ من إبطالِ ما جاءت بهِ الرّسلُ يكون عليهم فتنةً، خصّ في هذه الآية الكافرينَ بالقرآن بعد أن عمَّهم معَ جملة الكافرين بالرُّسل(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مِرۡيَةٖ﴾: (مري) أصْلانِ صَحيحانِ يَدُلُّ أحدُهما عَلَى مَسْحِ شَيْءٍ واستِدرارٍ، والآخَرُ عَلَى صَلابَةٍ في شَيْءٍ، والـمَرْي من: مَرَيْتُ النّاقةَ إذا مَسَحْتُ ضرعَها للحَلَب(3)، والمِرْيَةُ: التَّردُّد في الأمْر؛ وهو أخصُّ مِن الشَّكِّ(4)، والامتِراءُ: الشَّكُّ والتَّرَدُّدُ في الأمْرِ، وهو المُحاجَّة فيما فيه مريةٌ، قال تعالى: ﴿قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ٣٤﴾ [مريم: 34]، والمِراءُ: الجِدالُ، والمُماراةُ: المُجادَلَةُ على مَذْهبِ الشَّكِّ والرّيبة، ويُقالُ للمُناظَرَةِ مُماراةٌ؛ لأنَّ كل واحِدٍ يَسْتَخْرِجُ ما عنْدَ صاحِبه ويَمْتَريه كما يَمْتَري الحالِبُ من الضَّرْعِ(5)، والمقصود بـ﴿مِرۡيَةٖ﴾ في الآية: الشَّكُّ والتَّردُّدُ.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 242.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 307.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (مري).
(4) الرّاغب، المُفردات: (مرى).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (مري).

2) ﴿بَغْتَةً﴾: (بغت) أَصْلٌ واحِدٌ لا يُقاسُ عليه[1]، ومنه البَغْتُ: مفاجأة الشَّيء من حيثُ لا يُحتسبُ[2]، والبَغْتَةُ فَعْلَةٌ من البَغْتِ، والمُباغَتَةُ: المفاجأة[3]، ويُقال: لستُ آمَنُ من بَغَتاتِ العَدوِّ؛ أيْ: فجَآته[4]، والمُراد بـ﴿بَغْتَةً﴾ في الآية الكريمة: وقوع الأمر فجأة على غير ترقُّبٍ.

3) ﴿عَقِيمٍ﴾: (عقم) أصلُ العُقْم اليَبسُ المانعُ من قبول الأثر، يُقالُ: عَقُمَتْ مفاصلُه، وداءٌ عُقامٌ: لا يقبل البُرْءَ، والعَقيمُ من النّساء: التي لا تقبلُ ماءَ الفحل[5]، وريحٌ عَقيمٌ: يصحّ أن يكون بمعنى الفاعل، وهي التي لا تُلَقِّحُ سَحابًا ولا شَجَرًا، ويصحُّ أن يكون بمعنى المفعول كالعجوز العَقيم، وهي التي لا تقبل أثر الخير، وإذا لم تقبل ولم تتأثّر لم تعطِ ولم تُؤثّر، قال تعالى: ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝٤١﴾ [الذاريات: 41]، و﴿يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾: لا فرحَ فيه[6]، ويوم القيامة يومٌ عَقيمٌ، لأنَّه لا يومَ بعدَه[7]، والمُراد بالعقيم في الآية: الذي لا خَيْرَ فيه للكافرينَ، والمقصود به يومُ بدرٍ[8].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

استمرارُ الكُفّار على الشّكّ من القرآن حتى يأتيهم عذابُ يومٍ عقيمٍ

(ولا يزال الكافرون في شَكٍّ ورَيبٍ من القُرآنِ؛ لإعراضِهم وعنادِهم، وهم مُستَمِرّونَ على تلك الحالِ إلى أن يأتيَهم يومُ القيامةِ فجأةً، أو يأتيَهم عذابُ يَومٍ عقيمٍ لا مثلَ له في هوله وشدَّة عذابه ولا يومَ بعده، إذ كلُّ يوم يلدُ ما بعدَه من الأيام إلّا هذا اليوم وهو يوم القيامة؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(2) الرّاغب، المُفردات: (بغت).
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: (بغت).
(4) الزّبيديّ، تاج العروس: (بغت).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (عقم).
(6) الرّاغب، المُفردات: (عقم).
(7) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عقم).
(8) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 308.

فإنَّه لا يومَ بعده)، قال مجاهد: قال أُبَيُّ بنُ كعب: هو يوم بدر، وكذا قال عكرمةُ وسعيد بنُ جُبَير وقَتادةُ وغيرُ واحد، واختاره ابنُ جرير[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالة عطف الجُملة على سابقتها:

إتْباع حال أهل الإيمان بذِكْر حال أهل الكفران تقويةٌ لجانب الخوف والرَّجاء

هذه الآية معطوفة بـ(الواو) على ما بعد الواو في قوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ الآية؛ فلَمّا ذكرَ ﷺ أهلَ الإيمانِ وثوابَهم؛ ذكَرَ حال أهل الكفر مرَّة أُخرى؛ لأنَّ القُرآنَ مَثانٍ، تُثَنَّى فيه الأمورُ والمعاني؛ ولهذا تجدُ القُرآنَ الكريمَ في الغالبِ إذا ذكَرَ اللّهُ الجنَّةَ ذكَرَ النّارَ، وإذا ذكَرَ أولياءَ اللّهِ ذكَرَ أعداءَ اللّهِ، والحِكمةُ من ذلك ألّا يَمَلَّ الإنسانُ؛ لأنَّه كُلَّما تنقَّل المعنى إلى معنًى آخَرَ نَشِطَ الإنسانُ، وحِكمةٌ أُخرى: أن يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى اللّه مُتعَبِّدًا بين الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا مَرَّت به صفاتُ المؤمنينَ قَوِيَ جانِبُ الرَّجاءِ، وإذا ذُكِرَت أحوالُ الكافِرينَ غَلَب جانِبُ الخَوفِ[2].

علة التعبير بنفي زوال مِرْيتهم:

نفي الزَّوال في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ معناه الاستمرار، وإنَّما عُبِّر به لبيان أنّه كانَ يُتوقَّعُ بتوالي الأدلّة وتضافر الإثباتات أن يزولَ رَيبُهم؛ لكنَّه لم يزُل بل استمرّ[3].

سِرُّ التَّعبير بالمُضارع ﴿يَزَالُ﴾:

الدّلالة على استمرار رَيْبهم وتجدُّدِه

قَولُ اللّه تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ يدُلُّ على أنَّ الأعصارَ إلى قيامِ السّاعةِ لا تخلو ممَّن هذا وصْفُه[4]، فصيغةُ المُضارعة تَدُلُّ على استمرار ذلك في المُستقبل وتجدُّده[5].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 615، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 446، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 542، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 9/ 331 - 332.

(2) ابن عُثيمين، تفسير الحُجُرات - الحديد، ص: 401.

(3) محمَّد أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 9/ 5008.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 242.

(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 308.

إيثار التَّعريف بالموصول ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ دونَ (الكافرين):

الإشعارُ بإهانتهم وتحقيرهم بالوصفِ الذَّميم

عرَّف النَّظمُ الكريم ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالموصول دون إيراده اسمًا ظاهرًا مُعرَّفًا باللّام (الكافرين)؛ لإهانتهم وتحقيرهم بِذِكْرِ الوصفِ الذَّميم، وهو اتِّصافهم بالكُفر المُفضي إلى رَيْبِهم وشَكِّهم تأسيسًا على أنَّ الصِّلةَ مناطُ بيانٍ وتعريفٍ للموصول الغامضِ المُبهَم؛ ولبيان علّة بقاءِ المِرْية والرَّيب في قلوبهم؛ إذ تشير الصّلة الماضية إلى أنَّ العِلَّة هو الكفر والجحود المُتحقِّق الواقع بدلالة الفعل الماضي.

دلالةُ الإظهار بدل الإضمار:

التَّسجيلُ عليهم بالكُفْرِ والإيماءِ لِعلَّةِ مريتهم وشَكِّهِمْ

قولُه: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ فيه وضْعُ المُظْهَرِ مَوضِعَ المُضْمَرِ؛ فلم يَقُلْ: (ولا يزالونَ)، وفائدته التَّسجيلُ عليهم بالكُفر معَ ما وُصفوا به من مَرض القلوب وقسوتها؛ أيْ: لا يَزالونَ في مِرْيةٍ، وهم الشّاكّون الَّذين في قُلوبهم مَرضٌ[1]، وللإشارةِ إلى أنَّ عِلَّةَ كَونهم في مرية وشَكٍّ هو كفرهم وجحودهم بالآيات الظّاهرة البيِّنة.

دلالة ﴿فِي﴾ على الظَّرفيَّة المجازيَّة:

الظَّرفيّةُ إبلاغٌ وتمكُّنٌ

﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾ للظَّرفيَّة المجازيَّة المُستعارة للدّلالة على التَّمكُّن في الشّكّ؛ تشبيهًا لتمَكُّن الصِّفة بتمكُّن الظَّرف من المَظروف من جهة الإحاطة بطريق الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة في الحرف، وهي من بليغ البيان.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿مِرۡيَةٖ﴾ دون (الشَّكّ):

الدَّلالة على تَردُّد الشُّكوك في صدورهم وتلجلُج الشُّبه على ألسنتهم

قوله تعالى: ﴿فِي مِرۡيَةٖ﴾؛ أيْ: في شكٍّ من القرآن، وقيل: من الدّين الذي هو صراطٌ مستقيمٌ، والمرية: التَّردُّد في الأمر والشَّكُّ والجدال فيه، وأصلُها من قولهم: مَرَيْتُ النّاقة؛ أيْ: مسحت ضَرْعَها لتستخرجَ ما فيه، فالمِرْيَة كأنَّها استخراجٌ للشُّبَه المُشكِلة[2]، وهي

---

(1) الطيبي، حاشيته على الكشّاف: 10/ 514.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مرى).

أخصُّ من الشَّكِّ[1]؛ وإنَّما عُبر بالمِرْية؛ لأنَّ أهل الكفر يسعَونَ في آيات اللّه مُعاجِزين؛ فكانَ من شأنهم أنْ يمتروا ويجادلوا لا أنْ يَشُكّوا فحسب.

دلالة تنكير لفظ ﴿مِرۡيَةٖ﴾:

مَجيء لفظ ﴿مِرۡيَةٖ﴾ مُنكرًا في قوله تعالى: ﴿فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ دليلٌ على شمول رَيبهم وعمومِ وجوهِ شَكِّهم فيه وفي مَن جاءهم به، ورَيبٍ مِنْ إنزاله ومُنزِله[2].

فائدة شِبه الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾، وعود الضَّمير فيه:

تقويةُ العموم المُستفاد من تنكير لفظ (مرية)

قال جمعٌ من المُفسِّرين: إنَّ الضَّمير في قوله: ﴿فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ﴾ عائدٌ إلى (القرآن) المفهوم من المقام، وإن لم يجر له ذِكْرٌ فيما سبق، فهو مذكورٌ كأصلٍ أصيلٍ للحقِّ الذي يُجادل فيه الذين في قلوبهم مرضٌ والقاسيةُ قلوبهم، فإنَّهم لن يتحوَّلوا عن حالهم مع القرآن؛ بل سيظلّون على امترائهم وجدالهم فيه، وهذا شأنهم أبدًا حتى تأتيَهم السّاعة، بل إنَّ كثيرًا منهم يظلّ على امترائه حتَّى يرى عذابَ اللّه في هذا اليوم العظيم[3]؛ والأظهرُ أنَّ الضَّمير عائدٌ إلى ما عاد عليه ضمير: ﴿أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ﴾[4]، فيكون من الدّين الذي يدلُّ عليه ذِكْرُ الصِّراط المُستقيم، وقيل: من الرَّسول، وقيل: من إلقاء الشَّيطان، فيقولون ما بالُه ذَكَرَ الأصنام بخير، ثم رجع عن ذلك؟[5].

وقد أفادت (شبه الجملة) توصيفَ المِرْية وتخصيصها؛ إذْ كانوا في شكٍّ مُتحقّق في الدين والقرآن؛ لينبع منهما ويستمرَّ ويصلَ أثره إلى كلِّ مفاصل الدّين ومُقوِّماته العظيمة.

(1) الخازن، لباب التَّأويل: 3/ 262.
(2) ملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.
(3) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1070.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 308.
(5) القِنَّوجيّ، فتح البيان: 4/ 488.

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ وموقعها في الجملة الكريمة:

بيـانُ غـايـة استمرار مِرْيَتِهم ومُنتهاه

﴿حَتَّىٰ﴾ غايةٌ لاستمرار مريتهم، فالمعنى: إلى أنْ تأتيَهم السّاعة أو عذابُ يومٍ عقيم، فتزولُ مِرْيتهم ويُشاهدون الأمرَ عيانًا[1]، وأريد بهذه الغاية تأبيدٌ حال رَيْبِهم وجدالهم للدّين وآياته؛ لأنه عُلِّق على غاية أبديّة وهي قيام الساعة.

وجه تعريف ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ بـ(أل) ودلالتها:

إفادة العهد مع المعنى الأصليّ للسّاعة

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾؛ أي: القيامةُ نفسُها؛ لأنَّ ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ علَمٌ بالغلبة على يوم القيامة في اصطلاح القرآن[2]، كما يُؤذِن به قوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً﴾؛ أيْ: فجأةً؛ فإنَّها الموصوفة بالإتيان كذلك، فهو على ظاهره لأنَّه يتبيّن فيه زوالُ المرية لكلِّ أحدٍ، وقيل: أشراطُها على حذف المُضاف أوْ على التَّجوُّز، وقيل: الموت، على أنَّ التَّعريف في اَلسّاعَةِ للعهد؛ فإنَّه من طلائعها ضرورة؛ لأنَّ منهم مَن لا يبقى إلى قيام السّاعة؛ بل تزول مِرْيتُه بالموت[3].

والظّاهر أنَّ التوقيت بالسّاعة والقيامة للدّلالة على أنَّ حالة الجدال مع الدّين والشَّكِّ في الآيات مُستمرٌّ مع توالي الأجيال حتى يرثَ اللّه الأرضَ ومَن عليها، وفي التَّعبير عن القيامة بـ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾ دلالةٌ على قِصَر زمنِها، وقُربِ حصولها حالُها حالُ السّاعات المستقبليّة الآتية بلا ريبٍ ولا شكٍّ في حصولها.

إيثار لفظ ﴿بَغۡتَةً﴾ مصدرًا مُنكَّرًا:

تـهـويـل صفة مجيء السّاعة وتعظيمه

قوله تعالى: ﴿بَغۡتَةً﴾؛ أي: فجأةً لا تُمهلهم طرفةَ عين؛ ليتمكَّنوا من الرُّجوع عن كُفرهم وشكِّهم، يُقال: بغتَ القومَ أمرُ اللّه وما أخذَ اللّهُ قومًا قط إلّا عند سَكْرتهم وغِرَّتهم ونعمتهم[4]؛ وفي تنكير

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 528.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 308.
(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 535.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 390، وملا حويش، تفسير القرآن العظيم: 6/ 183.

هذا اللَّفظ ما فيه من التّهويل والتّعظيم لهذا الإتيان، ولفظ: ﴿بَغۡتَةً﴾ مصدرٌ مُؤوَّلٌ بمُشتقٍّ منصوبٌ على أنّها حالٌ من السّاعة؛ أيْ: تأتيهم السّاعة مباغتةً، وفي المصدر تصويرٌ لقوّة هذه البغتة وعظمتها في نفسها؛ وذلك لأنّهم كانوا في غاية الغفلة؛ لَمّا كانوا في مرية من القرآن.

نكتةُ المجازِ العقليّ في إسناد فعل الإتيان إلى العذاب:

الإشـعـارُ بـأنَّ الـعـذاب سيُفاجئهم بـحـصـولـه ووقوعه بهم

إتيانُ العذاب كنايةٌ عن حلوله وحصوله، فهو مجازٌ عقليٌّ لأنَّ حقيقة الإتيان المجيءُ من مكانٍ إلى مكانٍ آخر، وهو الانتقال من موضعٍ بعيدٍ إلى الموضعِ الذي استقرَّ فيه مفعول الإتيان، فيُطلق مجازًا على حصول شيء لم يكن حاصلًا، وأُسندَ فعلُ ﴿يَأۡتِيَهُمۡ﴾ إلى العذاب ومن قبل إلى ﴿ٱلسَّاعَةُ﴾؛ لأنَّ الإتيان مُشعِرٌ بأنّه يُفاجئهم كما يأتي الطّارق بغتةً وفجأةً.

سِرُّ الإظهار بدل الإضمار في ذِكْر (اليوم العقيم):

مزيد التّهويل والتّعظيم لذلك اليوم

أريد بـ(اليوم العقيم) الوارد في قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ السّاعةُ؛ كأنَّه قيل: أو يأتيهم عَذابُها، فوُضِعَ ذلك مَوضِعَ ضَميرِها لَمزيدِ التَّهويل[1]، وهذه الإشارة مبنيَّةٌ على أنَّ المُراد باليوم العقيم الساعةُ والقيامة، ويحتمل إرادة عذاب الدنيا العاجل بالقتل والإفناء؛ فيكون الإظهار واقعًا في مركزة لإرادة الشّمول للمُعذَّبين؛ إمّا بعذاب القتل في الدّنيا أوْ بعذاب يوم القيامة في الآخرة.

نكتة وصف لفظ ﴿يَوۡمٍ﴾ بالعقيم:

الإشارة إلى أنَّه لا يـومَ بـعـدَه تـصـلـح فـيـه أحوالُ النّاس

قال جمعٌ من المُفسِّرين إنَّ اليوم العقيم هو يومُ بدر، ووُصف يومُ الحرب بالعقيم لوجوه ذكرها أهل التفسير[2].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 115.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 242، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 93، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 130.

الأرجح أنّ المُراد باليوم العقيم هو يوم القيامة

وقال بعض المُحقِّقين إنَّه يوم القيامة، وإنَّما وُصف بـ(العقيم) لوجوه؛ **أحدُها**: أنَّهم لا يرون فيه خيرًا، **وثانيها**: أنّه لا ليلَ فيه فيستمرّ كاستمرار المرأة على تعطُّل الولادة، **وثالثها**: أنَّ كلَّ ذات حَمْل تضع حَمْلها في ذلك اليوم، فكيف يحصل الحمل فيه؟.

وفي وصف هذا اليوم بأنَّه عقيم أيضًا، إشارةٌ إلى أنه لا يوم بعده، حتَّى يُمكن أن تتحوّلَ فيه أحوال النّاس، ويُصلحُ المفسدُ منهم ما أفسدَ، إنَّه يوم عقيم لا يلد يومًا بعده، كما تلد أيامُ الدُّنيا أيامًا بعدها[1].

بلاغة الاستعارة في لفظ ﴿يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾:

تصوير حال ذلك اليوم العظيم في كونه لا يُنتج خيرًا للهالكين فيه

سُمّي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيمًا لأنَّه لا يومَ بعده كما أسلفنا؛ والأيام كأنَّها نتائج لمجيء واحد إثرَ واحد، فكأنَّ آخرَ يوم قد عقِم، وهذه استعارةٌ تصريحيَّة أصليَّة[2]؛ فشَبَّه ذلك اليوم بالمرأة العقيم لأنَّه لا يُنتج خيرًا[3]، فهو يومٌ لا مثل له في هوله وشدَّة عذابه، فلا فرح فيه ولا راحة ولا رحمة ولا رأفة[4]؛ ووجه أبلغيَّة هذه الاستعارة الدَّلالة على أنَّ ذلك اليومَ لا خير بعدَه للمُعذَّبين؛ فالعقيم لا يُنتظرُ منها نَسلٌ، وانعدامُ النَّسل منها أمرٌ معلوم كأنَّه من المُسلّمات وممّا يُدْرَكُ بالبديهة، وفي: ﴿عَقِيمٍ﴾ إشارةٌ إلى عُقم قلوبهم التي لم تقبل الإيمانَ بحالٍ.

❁ الفُروقُ المُعْجميّة:

المِرْية، والشَّكّ، والرّيبة:

الشَّكُّ استواء الاحتمالَيْن، والرَّيب شَكٌّ مع خوفٍ وكراهة، والمِرْية شَكٌّ مع عنادٍ

الشَّكُّ خلافُ اليقين؛ وهو ألّا يترجَّح أحدُ الاحتمالَيْن؛ وسُمِّي بذلك لأنَّ الشّاكَّ كأنَّما شُكَّ له الأمران في مَشَكٍّ واحدٍ وهو لا

(1) الخطيب، التَّفسير القرآنيّ: 9/ 1070.
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 130.
(3) الرُّمانيّ، النُّكت في إعجاز القرآن، ص: 89.
(4) السّمرقنديّ، بحر العلوم: 2/ 466.

يتيقَّن واحدًا منهما، وكُلُّ شيءٍ أدخلْتَه في شيءٍ فقد شككتَه[1]، والرَّيْبُ: شكٌّ يُصاحبه خوفٌ وكراهةٌ[2]، وحقيقة الرّيبَة: قَلَقُ النَّفسِ واضطرابها[3]، والمِرْيَة: التَّردُّد في الأمر والشَّكُّ والجدالُ فيه، والمِرْيَة كأنّها استخراجٌ للشُّبَه المشكلة[4]، فبينَ هذه الألفاظ تقاربٌ؛ حيث تشترك جميعُها في ملمح عامٍّ مشترك، هو: انتفاء العلم اليقيني، وتفترق كلٌّ منها بملمح دلالىٍّ مُميَّز؛ فالرَّيب يتميز بالخوف والكراهة، وأنّه يُستعمل بمعنًى آخر هو الحَدَث والنّائبة، والشّكّ: أعمّ هذه الألفاظ، وهو استواء الطّرفيْن أو الاحتماليْن دون ترجيحٍ لأحدهما، والمِرية تتميَّز بملمح الجدال والعناد[5].

المجيء والإتْيان والحُلول:

المَجيءُ: إتْيانٌ مُحَقَّقٌ، والإتيان: مجيءٌ بسهولة، والحلول: إتيانٌ بقصد الإقامة

الإتيان: مَجيءٌ بِسُهولَةٍ، وهوَ بدايَةُ اَلمَجيءِ[6]، فإذا اكْتَمَلَ وبُلِغَ مَقْصِدُهُ من مَكانٍ أوْ زَمانٍ أوْ شَخْصٍ أصْبَحَ مَجيئًا؛ فالمَجيءُ هوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ بَعيدٌ عَنْ عَوامِلِ اَلنَّقْصِ، قالَ تَعالَى: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: 129]، فالإتيانُ بدايَةُ اَلمَجيءِ زَمانيًّا أوْ مَكانيًّا، وقدْ لا يَتِمُّ فلا يكونُ مَجيئًا، أمّا اَلمَجيءُ فهوَ إتْيانٌ مُحَقَّقٌ قَريبٌ زَمانيًّا ومَكانيًّا[7]، وأمّا الحلول فهو ضِدُّ الرَّحيل، ويُفيد النُّزول والاتيان من أعلى إلى مكان بقصد الإقامة، يُقال: حلَّ بالمكان؛ أيْ: نَزَلَ ليُقيمَ به[8].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شكك)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 303.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ريب).
(3) الزَّمخشري، الكشّاف: 1/ 34.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (مرى).
(5) محمد داود، معجم الفروق الدّلاليّة، ص: 275.
(6) الرّاغِبُ، المُفرداتُ، ص: 283.
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: 1/ 264.
(8) ابن عبّاد، المُحيط في اللُّغة: 1/ 158، والكَفَويّ، الكُلّيّات، ص: 827، والشَّعراويّ، تفسير الشَّعراويّ: 11/ 6468.

﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦﴾ [الحجُّ: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

حالُ الفريقَيْنِ مِنَ المؤمنينَ والكافرين بينَ الدُّنيا والآخرة

بعدَ أنْ بيَّن اللّه ﷻ حالَ الفريقَيْنِ في الدُّنيا، مِن المؤمنينَ بصدقِ ما جاءَ به الرسولُ ﷺ والخاضعينَ له، والكافرين المصرّينَ على ضلالهم؛ أرشَدَ إلى حالِهم في الآخرةِ، وما أعدَّ اللّهُ للمؤمنين من وعدٍ، وللكافرين من وعيدٍ، فقال: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾: (ملك) أَصْلٌ يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أَمْلَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ وشَدَّهُ، والأَصْلُ هذا، ثُمَّ قيلَ: مَلَكَ الإنسانُ الشَّيءَ يَمْلِكُهُ مَلْكًا، والاسمُ: المِلْكُ؛ لأَنَّ يَدَهُ فيهِ قَوِيَّةٌ صَحيحَةٌ[2]، والمِلْكُ ضَربان: مُلْكٌ هوَ التَّمَلُّكُ والتَّوَلّي، ومُلْكٌ هو القوَّةُ على ذلك، تَوَلَّى أم لَمْ يَتَوَلَّ، والمُلْكُ: ضَبطُ الشَّيْءِ المُتَصَرَّفِ فيه بالحُكْمِ، والمَلِكُ: هو المُتصَرِّفُ بالأَمْرِ والنَّهي في الجُمْهورِ، وذلك يَخْتَصُّ بسياسَةِ الناطِقينَ[3]، والمراد بقوله: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، أيِ: السلطانُ القاهرُ والتَّصرُّفُ الكاملُ يومئذٍ للّه[4].

2) ﴿يَحۡكُمُ﴾: (حكم) أصلُ الحُكمِ هو المنعُ، وأوَّلُ ذلك الحُكم هو المنعُ من الظلم ومن الفسادِ، وسُمّيتِ الحكمةُ حِكْمَةً؛ لأنَّها تمنعُ من الجهل[5]، وحَكَمَ: منعَ مَنْعًا لإصلاح، والحُكْمُ بالشيء: أنْ تقضي

(1) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 131.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(3) الراغب، المفردات: (ملك).
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 332.
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

بأنَّه كذا، أو ليس بكذا، سواءٌ ألزمتَ ذلك غيركَ أم لم تلزمه[1]، ومن معاني الحُكْم: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ والقوَّة[2]، ومعنى ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾: يقضي، ويفصلُ بين خلقه[3].

3) ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾: (نعم) أصلٌ يدلُّ على تَرَفُّهٍ وطيبِ عَيْشٍ وصَلاحٍ، ومِنْهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللهُ تعالى على عَبْدِهِ به من مالٍ وعَيْشٍ، والنِّعْمَةُ: المِنَّةُ والمَسَرَّةُ[4]، والنَّعيمُ والنَّعْماء والنُّعْمى: الخَفْض والدَّعة والمالُ، وهو ضِدُّ البَأساء والبُؤْسى، ونَعيمُ اللهِ تعالى: عَطيَّتُه الكَثيرَةُ الوافِرَة[5]، والنَّعيمُ: النِّعْمَةُ الكثيرةُ[6]، ومعنى ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، أيْ: ذاتُ التَّنعُّم، فهي جناتٌ ليس فيها إلّا التَّنعُّمُ الخالصُ عن شائبةِ ما يُنغِّصهُ من الكُدوراتِ وخوفِ الزوالِ[7]، فلهم النعيمُ المقيمُ الذي لا يحولُ، ولا يزولُ، ولا يبيد[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

المُلْكُ المُطلقُ والحُكمُ الفصلُ يومَ تقومُ القيامةُ للهِ وحده

المُلكُ والسُّلطانُ يومَ القيامةِ للهِ وحدَه، وهو سُبحانَه يقضي، ويفصلُ بين المُؤمِنينَ والكافرينَ، فالذين آمَنوا باللهِ ورَسولِه بهذا القرآنِ وما جاءَ به مِنْ عندِ اللهِ تعالى، وعَمِلوا الأعمالَ الصّالِحةَ؛ لهم النَّعيمُ الدّائمُ في الجَنّاتِ، يَتنَعَّمونَ فيها بأرواحِهم وأبدانِهم[9].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

استئنافٌ يُبيِّنُ أنَّ يومَ القيامةِ لِلَّهِ من غيرِ منازعٍ ولا مُدَّعٍ

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ عن

(1) الرّاغب، المُفردات: (حكم).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 673، والنَّسَفي، مدارك التنزيل: 2/ 449.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (نعم).
(6) الراغب، المُفردات: (نعم).
(7) النَّسفي، مدارك التنزيل: 3/ 523، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 9/ 17.
(8) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 283.
(9) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 673.

التي قبلها، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لِما بينَ الجملتيْن من شبهِ كمالِ اتِّصالٍ، فقد آذَنَت الغايةُ الَّتي في قولِه: ﴿حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ [الحج: 55] أنَّ ذلك وقْتُ زَوالِ مِرْيةِ الَّذين كَفَروا، فكان ذلك مَنشَأَ سُؤالِ سائلٍ عن صورةِ زَوالِ المِرْيَةِ، وعن ماذا يَلْقَونه عندَ زَوالِها؟ فكان المَقامُ أنْ يُجابَ السُّؤالُ بجُملة: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ إلى آخِرِ ما فيها من التَّفصيلِ[1].

الـسّـورةُ مبنيَّةٌ عـلى التَّشـديد فـيـمـا يـتـعـلَّق بالسّاعة

أو أنَّ ما سبَق مِن بيانِ حالِ الفريقَيْن يُحرِّكُ السامعينَ إلى مزيد بيانِ حكم اللّٰه تعالى فيهم خصوصًا في الدار الآخرة - وإن كان قد سبَق بيانُ ذلك إجمالًا أيضًا - لأنَّ السّورةَ مبنيَّةٌ على التَّشديد فيما يتعلَّق بالسّاعة؛ لأنَّ اللّٰه قال فيها في مطلع السّورة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: 1]، أو أنَّ قولَه تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: 55] - والذي يُقتل فيه جميعُ أبنائهم منهم، ولا يكون لهم فيه شيءٌ مِمّا يترجَّونه من نصرٍ أو غيره، كما سعوا بجدلهم وإلقاءِ الضلالات في إعقام الآيات - يُحرِّكُ النَّفسَ اليقظى لأن تسألَ؛ لاستحضارها ما كانوا فيه مِن الكثرة والقوة بمكانٍ: كيف يُغلبون؟ فكانت هذه الآيةُ جوابًا[2].

معنى اللّام في ﴿ٱلْمُلْكُ﴾:

لا مُلْكَ لغيرِ اللهِ يوم القيامة

لامُ التعريف في ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ - جنسيَّةٌ، فتكون الآيةُ دالَّةً على أنَّ ماهيَّةَ المُلْكِ مَقصورةٌ يَومَئذٍ على الكونِ مُلْكًا للّٰهِ، أيْ: لا مُلْكَ لغيرِه يومَئذٍ[3]، وهذا موجَّهٌ بسياق الألوهيَّةِ، فمِن شأنها أن تُحمل اللّام على هذا المعنى.

دلالةُ التّنوين في ﴿يَوْمَئِذٍ﴾:

تنوينُ (يومئذٍ) يـنـبـئُ عـن محذوفٍ يناسبُ المقام

تنوينُ ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ ينبئُ عن

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 309.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 166.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 309.

مضافٍ إليه يناسبُ المقام، وتقديره: (الملكُ يومَ يؤمنون، أو يوم تزولُ مريتهم بحلولِ الساعةِ وظهورِ أنَّ ما وعدهم اللّهُ هو الحقُّ)؛ لقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الحج: 55]، أو (يومَ إذ تأتيهم الساعة بغتة)[1]، أو (يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامة)[2]، وقيل: يحتملُ أنْ تكونَ الإشارةُ بـ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ ليوم بدر، وقد حكمَ فيه بإهلاكِ الكافرِ وسعادةِ المؤمنِ[3]، وقد حرَّر أبو السعود هذه المسألة، فانتهى إلى أنَّ التَّنوين ليس "نائبًا عمّا تدلُّ عليه الغايةُ مِن زوال مريتهم كما قيل، ولا عمّا يستلزمه ذلك مِن إيمانهم، كما قيل... وإنَّما الذي يدورُ عليه ما ذُكِر: (إتيانُ الساعة) التي هي مُنتهَى تصرُّفات الخَلْق، ومبدأُ ظهور أحكام المَلِك الحقِّ ﷻ، فإذًا هو نائبٌ عن الجملة نفس الواقعةِ غايةً لمريتهم، فالمعنى: الملكُ يوم إذْ تأتيهم السّاعةُ أو عذابُها للّه تعالى"[4].

غرضُ إضافة (يوم) إلى ما أفاده تنوينُ العوضِ:

إضافةٌ تنبئُ عن تبشيرٍ للمؤمنين وتخويفٍ للكافرين بملاقاةِ اللهِ ومواجهةِ نتيجةِ أعمالهم

تقديرُ مضافِ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ الذي عوَّض عنه التَّنوين في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ هو: (إتيانُ الساعة التي هي مُنتهَى تصرُّفات الخَلْق، ومبدأُ ظهور أحكام المَلِك الحق ﷻ)، وهو الذي سبقَ في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ ۝٥٥﴾ [الحج: 55][5]، أو يومَ يأتيهم العذابُ يومَ القيامة[6]، وغرضُ هذه الإضافةِ: بيانُ أنَّ المُلْكَ المُطْلَق يومَ تقومُ القيامةُ، ويُنصبُ الميزان، ويكون الحسابُ ومن بعدِه الثوابُ والعقابُ، هو للّهِ وحده، وفي ذلك تبشيرٌ وإنذارٌ شديدَيْن بأنَّ

(1) الزَّمخشريُّ، الكشّاف: 3/ 166، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 309.
(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1245.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 88.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 36.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 309.
(6) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1245.

المؤمنين ومخالفيهم يُلاقونَ ربَّهم، ويواجهون أعمالهم، ويفصلُ بينهم سبحانهُ بالحقِّ والقسطاسِ المستقيم[1].

معنى اللّام في ﴿لِّلَّهِ﴾:

لا مُـلكَ ولا تـصـرُّفَ يـوم القيامةِ إلّا للهِ وحده

لامُ ﴿لِّلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾ للاختصاص، أي: إنَّ السُّلطانَ القاهرَ والاستيلاءَ التّامَّ والتَّصرُّفَ على الإطلاقِ يومَ القيامة للّهِ وحدَه بلا شريكٍ أصلًا، بحيث لا يكونُ فيه لأحدٍ تصرُّفٌ من التَّصرُّفاتِ في أمرٍ من الأمورِ لا حقيقةً ولا مجازًا، ولا صورةً ولا معنًى كما في الدُّنيا، فإنَّ للبعضِ فيها تصرُّفًا صوريًّا في الجملة[2].

نكتةُ تقديمِ الظَّرفيَّةِ على الخبر:

فـي التـقـديـم اهـتـمـامٌ بـذِكْـرِ الـيـومِ وإعـلامٌ بـعـظـمـةِ ملكِ الله فيه وإشارةٌ إلـى ضـرورةِ العناية به

قدَّمَ البيانُ الإلهيُّ الظَّرفيَّة ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ على الخبر ﴿لِّلَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، ولم يَقُلْ: الملكُ للّهِ يومئذٍ؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وهو يومُ القيامة، وإعلامًا بعظمةِ مُلكِه سبحانه في هذا اليوم الذي ليس لأحدٍ فيه تصرُّفٌ من التَّصرُّفاتِ لا حقيقةً ولا مجازًا، ولا صورةً ولا معنًى إلّا للّهِ سبحانه، ووجهُ التَّعظيم تهويلُ المُلْك وتفخيمه بذِكْر ذلك اليوم: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ من قبل ذِكْر المَلِك والمالك ﷻ.

المُـلـكُ المُطلقُ ليس لأحدٍ إلّا لله ﷻ

ومِن شأن أن ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ﴾ يدلُّ على اللّه، أيْ: يدلُّ على أُلوهيَّته، ويوصِّلُ إليها، أيْ: تظهرُ ألوهيَّتُه ظهورًا في غاية الكمال في ذلك اليوم، لِمَن غفَل عن دلائل ألوهيَّته في الدار الدنيا، وقُدِّم: ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ بعد: ﴿ٱلۡمُلۡكُ﴾؛ لينطق المُتلقّي - وخصوصًا غير المؤمن - بأنَّه ليس إلّا للّه ﷻ؛ إذ ذلك ليس إلّا من شأنه تعالى، وللتشويق إلى المؤخَّر، وهو كينونة المُلْكِ للّهِ وحده، بما يقتضي زيادةَ العنايةِ بهذا اليومِ والاستعداد له بالإيمان والعملِ الصالح.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5010.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 115.

غرضُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾:

في الاسميَّةِ تأكيدُ ثباتِ المُلكِ المُطلقِ والسلطانِ القاهرِ للهِ وحده

عبَّر القرآنُ الكريم بالجملة الاسميَّة دون الفعليَّة: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾؛ لإفادةِ ثباتِ الحُكْمِ الذي تضمَّنته، وهو أنَّ السُّلطانَ القاهرَ والتَّصرُّف الكاملَ للّه وحده يوم القيامة، فهذا المعنى أزليٌّ قديمٌ، فليس له من ثوبِ النَّظمِ إلّا صورةُ الاسميَّةِ.

نكتةُ فصل قوله: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

استئنافٌ يُبيِّنُ حكمةَ اختصاصِ اللهِ بالملكِ المطلقِ يومَ القيامة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ عن التي قبلها: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بين الجملتَيْن من شبهِ كمالِ اتِّصالٍ؛ إذ إنَّها جملةٌ مُستأنَفةٌ وقعَتْ جَوابًا عن سُؤالٍ نشَأ من الإخبارِ بكَونِ المُلْك يَومئذٍ للّه، كأنَّه قيل: فماذا يُصنَعُ بهم حينئذٍ؟ فقيل: يَحكُمُ بين فريقي المؤمنينَ به والمُمارينَ فيه بالمُجازاة[1]، أو قيل: ما معنى اختصاصِه به، وكلُّ الأيامِ له؟ قيل: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، أيْ: بين المؤمنين والكافرين بالأمرِ الفيصل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يَحۡكُمُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

حُكمُ مَنْ له المُلْكُ والسلطانُ والقوَّةُ والعلمُ المحيطُ حُكمٌ عدلٌ وقضاءٌ فصلٌ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بمُفردة ﴿يَحۡكُمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، لاتِّساعِ دلالتها، ومناسبتها للسياق؛ إذ مادَّةُ (حكم) تدلُّ في أصلها على المَنْع، وأوَّلُ ذلك الحُكْم هو المنعُ من الظُّلم ومن الفساد[3]، ومن معاني الحُكْم: العِلْمُ والفِقْهُ والقَضاءُ بِالعَدْلِ والقوَّة[4]، وكلُّ هذه المعاني تتناسبُ مع سياقِ المُلْكِ والتَّصرُّفِ والقوَّة، فمَنْ له الملكُ والسُّلطانُ والتَّصرُّفُ؛ يكون له المنعُ والقضاءُ، فكان التَّعبيرُ بـ﴿يَحۡكُمُ﴾ لتأكيدِ أنَّ المُلْكَ يومَ القيامةِ للّهِ وحده حيثُ لا ظلمَ وقتها، بل يقضي بين عبادِهِ بالعدلِ

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 115، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1245.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 75.

(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيديُّ، تاج العروس: (حكم).

بناءً على علمهِ الواسعِ بكلِّ شيءٍ، وهذا فيه مزيدُ تطمينٍ للمؤمنين وتهديدٍ وتخويفٍ للكافرين.

وقد جاءتْ ﴿يَحۡكُمُ﴾ بصيغةِ المضارعِ الذي يفيدُ التصويرَ؛ لإفادةِ تفخيم هذا الحكمِ وتعظيمه، ويدلُّ على استمرارِ حكم اللّهِ تعالى في عباده، والتَّجدُّدُ فيه يُصوِّر حركيَّةَ الحساب والعقاب والثواب.

غرضُ حذفِ مُتعلّقِ الحُكمِ في ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾:

المُـلكُ المُطلقُ والحُكمُ للهِ وحدَه لا يكونُ إلّا يومَ القيامة

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّقَ الحُكم في قوله تعالى: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ وهو: (يوم القيامة)، والتقديرُ: (يحكم يوم القيامةِ بينهم)؛ اختصارًا لدلالة لفظ ﴿يَوۡمَئِذٖ﴾ عليه، ولأنَّه مفهومٌ من السياق؛ إذ المُلكُ والسُّلطانُ المطلقُ للّهِ وحدَه لا يكونُ إلّا يومَ القيامةِ، وكذلك الحكمُ العدلُ والقضاءُ الفصلُ للّهِ وحدَه لا يكون إلّا في ذلك اليوم، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ تُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۚ لَا ظُلۡمَ ٱلۡيَوۡمَۚ﴾ [غافر: 17]، ففيه يحكمُ اللّهُ، ويقضي، ويفصلُ بين المُؤمنينَ والكافرينَ بالحقِّ والقسطاسِ المستقيم[1]، وبحُكمه العدل، وقضائه الفصل[2]، فهذه الجملةُ ناشئةٌ عن سؤالٍ أثارَته الجملة السابقة، فكأنَّها هي من تمامها، فأغْنَى ذلك عن ذِكرِ يوم القيامة مُتعلِّقًا لقوله: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾.

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَٱلَّذِينَ﴾:

مِـن أهـوال القيامة: الحسمُ والفصل والشِّدَّة

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ تفصيلٌ للحُكم المذكور وتفسيرٌ له، أيْ: فالذين آمنوا بالقرآنِ الكريم، ولم يُماروا فيه، وعملوا الصالحات؛ مُستقرّون في جناتِ النَّعيم[3]، ويمكن أنْ تكونَ الفاءُ للإفصاحِ عن شرطٍ مُقدَّرٍ، والمعنى: إذا كان اللّهُ تعالى هو الحَكَمُ وحدَهُ؛ فالذين آمنوا، وعملوا الصالحاتِ في جَنّاتِ النَّعيم[4]،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5010.
(2) السَّعدي، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 543.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 115.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5010.

وفي ترتيب ما بعد الفاءِ على مجموع ما قبلَها من الآية معنى الحسم والفصل في سرعةٍ وشدَّةٍ وقوَّةٍ باهرةٍ في شأن الفريقَيْن وأفرادهم، فالفاءُ تُصوِّر شيئًا مِن حقائق يوم القيامة، وهي آنَسُ وألصقُ بمعنى الحُكم في قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، فهو يحكمُ بينهما حكمًا فاصلًا حاسمًا، والفاء فيها تلك المعاني.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلتهِ:

كلُّ شيءٍ تكون به النَّجاةُ مِن النّارِ عظيمٌ

أخبرَ البيانُ القرآنيُّ عن الذين حَكَمَ اللّهُ باستقرارهم في جنّاتِ النَّعيمِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بالاسم الموصولِ (الذين) دون الاسمِ الظاهر، ولم يَقُلْ سبحانه: (فالمؤمنون والعاملون للصالحات)؛ للإيماءِ إلى وجهِ استحقاقهم لحُكم اللّهِ لهم بدخولِ جنّاتِ النَّعيم، وهو إيمانُهم باللّهِ ورسوله، وعملُهم الصالحاتِ من عباداتٍ وطاعاتٍ للأوامرِ والنواهي وعملٍ صالحٍ نافعٍ للنّاسِ، لا يقصدونَ به إلّا وجهَ اللّه، ولقَصْدِ الإبهام أوّلًا - الذي من أسرارهِ التشويقُ للمُبيَّن - والبيانِ ثانيًا، وهو الإيمانُ والعملُ الصالح، فكون صلة الموصول علّةً للنَّجاة مِن النار والدخولِ في نعيم الجنان يوم القيامة؛ يعني: عظمةَ معنى هذه الصِّلة وفخامتها، فكان الأبَرُّ بذلك من صور المعنى صورةَ الإبهام ثم البيانِ؛ لغرضِ التشويق إلى ما هو مناط الحكم: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وللتركيزِ عليه لا على شخوصِ المؤمنين، وللتَّنبيهِ على التَّعميم، أيْ: كلُّ الذين يؤمنون باللّهِ وسولهِ ويعملونَ الصالحاتِ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ.

غرضُ حذف متعلّق الإيمان:

في يوم القيامة لا يُسْمَعُ إلّا الهمس

حذفَ البيانُ القرآنيُّ متعلِّقَ الإيمانِ في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، والتقديرُ: (فالذينَ آمنوا باللّهِ ورسوله)؛ اختصارًا لشهرتهِ وظهورهِ حتى يكونَ ذِكْرُهُ وحذفُه سواءً، فاحترزَ عن التصريح به؛ إذ لا يكونُ الإيمانُ الصحيحُ إلّا باللّهِ ورسوله، وتقليلُ الكلام وإيجازه في

هذا السياق أدلُّ على ما في يوم القيامة من الأهوال وشدَّة الأحداث والصَّمت العامِّ المُرْعِبِ؛ لرعب الأحداث والأحوال ومجرياتها، فسِرُّ الحذفِ هو الإيجازُ، وهو علّةٌ بلاغيَّةٌ معنويَّةٌ مُرجِّحة - أيْ: نِهائية - لأنَّها تُصوِّر شيئًا من عموم مقاصد السّياق، وهو ينظر إلى مطلع السّورة: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ١﴾ [الحج: 1].

غرضُ عطفِ عمل الصّالحات على الإيمان:

لا يستحقُّ الجنَّة إلّا مَن جمَعَ بينَ الإيمانِ والعملِ الصالحِ

العملُ الصالحُ مبنيٌّ على الإيمانِ، فعملٌ بلا إيمانٍ لا فائدةَ منه، فالمنافقون يَعملون، ويَذْكرون اللّه، ويُصَلّون، ويتصدَّقون، ولكن ليس عندَهم إيمانٌ، فلا ينفعُهم، ولهذا يُقدِّمُ اللّهُ ﷻ الإيمانَ على العملِ الصالح، وكذلك الإيمانُ وحْدَه لا يكفي، بل لا بدَّ مِن عملٍ صالح، فلا يستحقُّ الجنَّةَ إلّا مَن جمَع بينَ الإيمانِ والعملِ الصالح، فالإيمانُ كالجوهر والأم، والعمل الصالح صورتُه، فلهذا تقدَّم ذِكْرُ الإيمان على ذِكرِ عمل الصالحات، ثمَّ لهذه الأعمال الصالحات حضورٌ قويٌّ في السّورة، فإنَّ السّورة مؤسَّسة على الآية الأولى منها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]، والتَّقوى لا تكون بالإيمان وحدَهُ، بل به وبالأعمال الصالحات أيضًا، ثم الحُكمُ في قولِه: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يقتضي عملًا ظاهرًا وعملًا باطنًا، فكان مِن البلاغة والتناسب شَفْعُ الإيمان بعمل الصالحات.

معنى (أل) في ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

في إرادةِ العمومِ مبالغةٌ في إثباتِ طاعةِ المؤمنين لربِّهم

لام تعريف ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ، تُفيدُ العمومَ، أيْ: تشمل كلَّ عملٍ صالحٍ أمرهم به اللّهُ ﷻ في قرآنه الكريم والسُّنَّةِ المطهّرة لنبيِّه المُكرَّم ﷺ.

نكتةُ جمعِ القِلَّة ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ جمع القِلَّة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرةِ أعمالِ المؤمنين الصالحة وتنوُّعها؛

لأنَّ الجمعَ يدلُّ على الكثرةِ، وعلى مدى صلاحِ المؤمنين الذين التزموا بجميعِ أوامرِ اللّه سبحانه، والقِلَّةُ فيه ترمزُ إلى عظمة هذه الأعمال وفخامتها في ذلك اليوم؛ لعظيم تميُّزِها، حيث تكون سببًا قويًّا في نجاة عامليها من النّار، وفوزِهم بالجنان؛ حثًّا على التَّقوى في قوله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: 1].

كثرةُ أعمالِهم الصالحةِ جعلتهم أهلًا لاستحقاقِ جنّاتِ النَّعيم

دلالةُ حذفِ موصوف لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾:

حذفَ البيانُ القرآنيُّ موصوفَ لفظ ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ إذ التقديرُ: (وعَمِلوا الأعمالَ الصّالِحات)؛ لكونه مفهومًا من السياق، فقوله: ﴿وَعَمِلُواْ﴾ يدلُّ على أنَّها أعمالٌ، وهي عادةٌ غالبةٌ في القرآن؛ إذ يحذفُ الموصوفَ (الأعمال)، ويذكرُ الصِّفةَ (الصّالحات)، إلّا إذا تعلَّقَ بذلك غرضٌ أو فائدةٌ تتعلَّق بالسّياق، كما في قوله تعالى: ﴿فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾ [الكهف: 110]، وكذلك للاهتمام والتَّركيز على الصِّفةِ والتَّرغيب بها، وهي كونها صالحةً، وأنَّ العملَ لا ينفعُ صاحبَهُ إلّا إذا كان صالحًا، ويمكن أنْ تكون ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ صفةً جرَتْ مجرى الأسماءِ، وخرجَتْ عن كونها صفةً[1]، وفي الإيجاز بحذفها ما في الإيجاز بحذف مُتعلَّق الإيمان، وقد سبق بيانُه.

سبحانَ مَن يوفِّقُ عبادَه إلى الصالحات!

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة:

في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ عبَّرَ البيانُ الإلهيُّ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾؛ للإشارةِ إلى تمكُّنِ المؤمنين واستقرارِهم في جنّاتِ النَّعيم التي أعدَّها اللّهُ لهم في الدُّنيا والآخرة، فقد كانوا مُتمكِّنين من نعيم الدنيا ولذَّةِ مناجاةِ المولى سبحانه، واستشعارِ القربِ منه، فتمكَّنوا من نعيم الجنَّةِ والرضوان، وفي هذا دلالةٌ على كمالِ هذا النَّعيم.

من كمالِ النَّعيمِ في جنّاتِ النَّعيم التَّمكينُ منه والاستقرارُ فيه

نكتةُ إضافةِ الجنّات إلى النَّعيم:

إضافةُ ﴿جَنَّٰتِ﴾ إلى ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 352.

مِن كمال النَّعيمِ دوامُهُ

﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ إضافةٌ بيانيةٌ، جاءتْ بيانًا لهذه الجنّاتِ التي أعدَّها اللّٰهُ للمؤمنين، وتعظيمًا لشأنها؛ فهي جناتُ نعيم دائم خالدٍ مُقيم[1]، وفي هذا بيانٌ لكمالِ فضلِ اللّهِ تعالى على عبادهِ المؤمنين، والإضافة في: ﴿جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ أبلغُ في إثبات النَّعيم لهذه الجنّات مِن جعل النَّعيم صفةً للجنّات (الجنّات النَّعيم)؛ لأنَّ الجنّاتِ من النَّعيم، فوصفُها به ظاهرٌ، قد لا يُفيد أكثر مِن الإفصاح بأنَّها نعيمٌ، وليس في ذلك معنى القطع بأنَّ النَّعيم لا ينفكُّ عنها، وأنَّه راسخٌ دائمٌ مُتمكِّنٌ فيها؛ لأنَّه مُختصٌّ بها، كما تُفيدُ الإضافةُ ذلك المعنى.

معنى (أل) في ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾:

كمالُ نعيم الجنانِ بشموله لكلِّ تنعُّم دليلٌ على كمالِ تفضُّلِ اللهِ على عبادهِ

اللّامُ في لفظ ﴿ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ جنسيَّةٌ شملَتْ كلَّ أنواعِ النَّعيم، فتشملُ نعيمَ الدُّنيا ونعيمَ الآخرة، أي: تشملُ كلَّ ما يدلُّ على التَّنعُّم والخيرِ الذي يحصلُ عليه المؤمن في الدُّنيا والآخرة، والمعنى: أنَّهم في جنّاتِ النَّعيم في الدُّنيا مجازًا - لمآلهم إليهم مع ما يجدونه من لذَّةِ المناجاةِ واستشعارِ القربِ، ولأنَّ العملَ الصالح هو جنَّة الدُّنيا - وفي الآخرةِ حقيقةً بما رحمهم اللّٰهُ بهِ من توفيقهم للأعمالِ الصالحة[2]، وهذا العمومُ يدلُّ على كمالِ نعيم اللّهِ سبحانه لعباده المؤمنين وتفضُّله عليهم، فهو نعيمٌ لا يستطيعُ العقلُ حصرَهُ.

الموقع النَّحويُّ لقوله: ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

إخبارٌ يُبيِّنُ حُكمَ اللهِ في الذين آمنوا بأنَّهم في جنّاتِ النَّعيم

جملة ﴿فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ في محلِّ رفع خبر للمبتدأ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، أو متعلّق بالخبر المحذوف، فهو مِن تمامه، أي: كائنون أو

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5010.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 468، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 390.

مُستقرّون في جنات النَّعيم، أو الخبر جميعُ ذلك، وفائدةُ هذا الخبرِ هو بيانُ حكمِ اللّه تعالى في الآخرة عند ما يحكمُ بين العباد، وأنَّه يحكمُ في الذين آمنوا أنَّهم في جنّاتِ النَّعيم.

توجيهُ المتُشابه اللَّفظيِّ:

بين قولِه تعالى في هذه الآية: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وقوله في آية سابقة: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [الحجّ: 50] تشابهٌ لفظيٌّ، ففي الأسبق وعدَ اللّهُ الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرةِ والرزقِ الكريم، ووعدهم في الثانية بجناتِ النَّعيم.

لمّــا اخـتـلـفَ المُـقـتـضـيـان؛ اخـتـلـفَ المقتضَيان، فذُكِرَ كـلُّ واحـدٍ في المكانِ اللّائق به

وقد خصَّ البيانُ القرآنيُّ كلًّا من اللَّفظَيْن بمكانه؛ لاختلافِ المُقتضي لذلك بما يُحقّقُ مناسبةَ كلٍّ منهما لسياقه، فأمّا قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ فهو خبرٌ عن الحالِ في الآخرةِ لقوله تعالى في صدر الآيةِ: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾، أيّ: يومَ القيامة يكونون في دارِ الثَّواب، فهو بيانٌ لحُكْم اللّهِ فيهم يوم القيامة، وليس كذلك قولُه تعالى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ ٥٠﴾ [الحج: 50]، فهو خبرٌ عن حالِ القوم في الدُّنيا؛ لقوله تعالى في الآية التي قبلها: ﴿قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمۡ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ٤٩﴾ [الحج: 49]، فوُعدوا بالغفران والرِّزقِ الكريم، ولم يَجزْ هنا أنْ يُقال: (هم في جنات النعيم)، إلّا على ضربٍ من المجاز أنَّهم مُستحقّون لها، فكأنَّهم فيها، فلمّا اختلفَ المُقتضيان؛ اختلفَ المقتضَيان، فذُكرَ كلُّ واحدٍ في المكانِ اللائق به(1).

الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

المُلك والحُكم والأمر:

تتقاربُ ألفاظ (الملك، والحكم، والأمر) في دلالتها اللُّغويَّة.

(1) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 928.

تتقاربُ الألفاظُ في الـدلالـة اللغوية، ولكلٍّ منها ما يُميّزها

وكثيرًا ما يُستعملُ بعضها بمعنى الآخر، يقول الفراهي: "وأمّا الحُكمُ بمعنى الأمرِ؛ فكثيرٌ"[1]، وكثيرًا ما يأتي الأمرُ بمعنى الحُكم[2]، ولكن مع هذا التقارب هناك ملامحُ دلاليَّةٌ تُميّز كلَّ لفظٍ منها، وذلك على النَّحو الآتي:

المُلْكُ: أصله يَدُلُّ على قوَّةٍ في الشَّيْءِ وصِحَّةٍ[3]، والمُلْكُ: ضَبطُ الشَّيْءِ المُتَصَرَّفِ فيه بالحُكْم، والمَلِكُ: هو المُتَصَرِّفُ بالأمْرِ والنَّهي في الجُمْهورِ، وذلك يَخْتَصُّ بسياسَةِ الناطِقينَ، والمُلْكُ ضَربان: مُلْكٌ هو التَّمَلُّكُ والتَّوَلّي، ومُلْكٌ هو القوَّةُ على ذلك، تَوَلَّى أم لَمْ يَتَوَلَّ[4].

والحُكمُ: أصلُهُ المَنْعُ، وأوَّلُ ذلك الحُكْم هو المنعُ من الظُّلم ومن الفسادِ، وسُمّيتِ الحكمةُ حكمةً؛ لأنَّها تمنعُ من الجهل[5]، وحَكَمَ: منعَ منعًا لإصلاح، والحُكْمُ بالشَّيء: أنْ تقضي بأنّه كذا، أو ليس بكذا، سواء ألزمتَ ذلك غيرَكَ أم لم تُلزمه[6]، ومن معاني الحُكْمِ: العِلْمُ، والفقه، والقضاء بالعدل، والقوَّة[7].

والأمْرُ: الواحِدُ من الأُمورِ، ويأتي بمعنى الحادثةِ، والشأنِ، والحالِ، والقضاءِ والقَدَر، والأمْرُ: ضدُّ النَّهي من قولك: افعلْ كذا، أي: الأمْرُ مصدر من الفعل (أمر)[8]، وأمَرْتُه؛ إذا كلَّفتَهُ أنْ يفعل شيئًا[9].

وبناءً على ما تقدَّم؛ يتميَّزُ لفظُ المُلْك بمعنى القوَّةِ والصِّحَّةِ

(1) الفراهي، مفردات القرآن، ص: 180.
(2) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 41 - 42.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملك).
(4) الراغب، المفردات: (ملك).
(5) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (حكم).
(6) الراغب، المفردات: (حكم).
(7) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حكم).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمر).
(9) الراغب، المفردات: (أمر)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 39.

والضَّبطِ، ويتميَّزُ لفظُ الحُكم بمعنى المنع للإصلاحِ والقضاءِ بالعدلِ، بينما يتميَّزُ لفظُ الأمرِ بأنَّه ضدُّ النَّهي، فهو طلَبُ الفعلِ والتَّكليف به، ويأتي بمعنى الشَّأنِ والحال، وعمومًا فإنَّ المَلِكَ هو المتَّصَرِّفُ بالأمْرِ والنَّهي، أي: مَنْ له الحُكمُ والأمرُ، وكأنَّ المُلكَ هو الأصلُ، ويترتَّب على مَنْ مَلَك أنْ يكون له الحُكمُ والأمرُ.

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ٥٧﴾

[الحجُّ: 57]

القُرآنُ مَثانٍ تُثَنَّى فيه الأمورُ والمعاني

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا ذكَرَ سبحانه أنَّ حُكمَهُ في المُؤمِنينَ العامِلينَ للصّالحاتِ - حينما يُلاقون ربَّهم - أنَّ لهم جنّات النعيم؛ ثَنَّى بذِكرِ مَن يُقابِلُهم من الذين كفروا من المشركينَ وأهلِ الكتاب، وكذّبوا بآياتِ اللهِ بأنَّ لهم عذابًا مهينًا، فقال ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُّهِينٞ﴾: (مهن) أصلٌ يَدُلُّ على احْتِقارٍ وحَقارَةٍ في الشَّيْءِ، ومَهينٌ: حَقيرٌ[2]، والمَهينُ أيضًا: الصَّغيرُ، والضَّعيفُ، والقَليلُ[3]، ومُهين: اسمُ فاعلٍ من الفعل (أهان) يهينُ إهانةً، فهو مُهين، والمفعول مُهانٌ، وأهانَ الشَّخصَ: أذلَّه، واحتقره، واستخفَّ به[4]، ومعنى ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، أي: المُذِلُّ، أيْ: لهم عذابٌ مُشتمِلٌ على ما فيه مَذَلَّتُهم، كالضَّرْبِ بالمقامعِ ونحوهِ[5].

العـذابُ المُهين جـزاءُ الكـيـدِ لـديـنِ اللـهِ والتَّكذيبِ بآياته والاستكبارِ عن طاعته

المَعنى الإجْماليُّ:

الذينَ كَفَروا باللّهِ تعالى وبرسولِه الكريم، وكذَّبوا بآياتِ كتابه وتنزيله، وبآياته الكونيَّة الظاهرة الباهرة، أو المعجزاتِ الَّتي أُرسلتْ إلى رسلهم، فأولئك لهم يَومَ القيامةِ عَذابٌ مُخزٍ ومُذِلٌّ في جَهنَّمَ؛ جزاءً لهم على استِكبارِهم على الحَقِّ واستِهانتِهم بآياتِ اللهِ ورُسُلِه[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5010.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مهن).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس: (مهن).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (هون).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 310.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 673.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملةُ ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾؛ لما بينهما من التوسُّط بين الكمالَيْن، أيْ: جمعَ بين أهلِ الإيمانِ وثوابهم، وأصحابِ الشِّمالِ وعقابهم، وهذا هو الغالبُ في القرآنِ، إذا ذكَرَ اللّهُ الجنَّةَ؛ ذكَرَ النّارَ، وإذا ذكَرَ أولياءَ اللّهِ؛ ذكَرَ أعداءَ اللّه، والحِكمةُ من ذلك بيانُ سلطانِ اللّهِ المطلقِ على جميعِ خلقه من المؤمنين والكافرين، وفيه إشارةٌ إلى أنْ يكونَ الإنسانُ سائرًا إلى اللّه، أي: مُتعَبِّدًا إلى اللّهِ بين الخَوفِ والرَّجاءِ؛ لأنَّه إذا مَرَّت به صفاتُ المؤمنينَ؛ قَوِيَ جانِبُ الرَّجاءِ، وإذا ذُكِرَت أحوالُ الكافِرينَ؛ غَلَب جانِبُ الخَوف.

في العطفِ بيانٌ لسلطانِ اللهِ المُطلَقِ على جميعِ خلقه من المؤمنين والكافرين

والقرنُ بين ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ومعنى: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ في آية مستقلَّةٍ بيانٌ لعظيم رفعة درجة أهلِ التقوى، أهلِ الإيمان وعملِ الصالحات؛ وكأنَّهم بجوارِ المَلِك الحاكم العادل المُتفضِّل ﷻ، وفي ذلك بيانُ عظيم رضوان اللّه عليهم وكرمه لهم؛ مجازاةً لما قوبلوا به من إهانة أهل الإساءة والكفران في الدّار الدُّنيا.

بيانٌ لعظيم رفعة درجة أهل التقوى

وفيه توكيدٌ وتحقيقٌ لمضمون أنَّ المُلك والحُكم يومئذٍ ليس إلّا للّه سبحانه وبحمده، وكأنَّ الكافرين مُبْعَدون مطرودون غايةَ البُعدِ وغايةَ الطَّرد، ولهذا جاء ذِكْرُهم في آيةٍ مُستقلَّة، مِمّا يكون إبلاغًا في كمال نفي التَّسوية بين الفريقَيْن حالًا ومآلًا.

توكيدُ إفرادِ اللهِ بالمُلك والحُكم يوم القيامة

نكتةُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الذين حكمَ اللّهُ عليهم بالعذابِ المُهين بالاسمِ الموصول (الذين) دون الاسم الظّاهر في قوله تعالى:

تشابَهَ بيانُهم؛ واختلفَ حالُهم

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ولم يَقلْ سبحانه: (والكافرون والمكذِّبون)؛ للإيذانِ بأنَّ سببَ استحقاقهم هذا الجزاءَ هو كُفرُهم بالرسالةِ وتكذيبهم بالآياتِ القرآنية والكونيَّة[1]، وإجراءُ الكفر والتَّكذيب مجرى العلَّة للحُكم ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ كنايةٌ عن عظيم قبحهما وسوئهما؛ إبلاغًا في التَّرهيب والتَّنفير منهما، وحثًّا على التَّقوى المأمور بها كلُّ النّاس في مطلع السّورة، والتَّشابهُ بين بيان الفريقَيْن في نظم صدر الحُكم بيانٌ لعدله تعالى في حُكْمِه، وهو مِن وجوه التَّماسك والتَّرابط بين الآيتَيْن.

في الاسميَّة حَسْمٌ وفَصْلٌ وشِدَّةٌ

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

جملة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ جملةٌ اسميَّة، مبتدؤها: (الذين)، وخبرها: جملة ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ﴾[2]، وهي تفيدُ ثبوتَ الحُكم الإلهيِّ ودوامَهُ، وهو استحقاقُ الكافرين المُكذِّبين بآياتِ اللهِ للعذابِ المُهين.

المُكذِّبون هم المُزَلْزَلون بالسّاعة

غرضُ عطفِ التَّكذيب على الكفر:

عطفَ البيانُ القرآنيُّ التَّكذيبَ على الكُفرِ، وهو نَوعٌ منه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ لأنَّه أشَدُّ، فالذي يَكفُرُ - ولم يُكَذِّبْ - أهوَنُ مِن الذي يَكفُرُ، ويُكَذِّبُ، فهو من بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ، وفي هذا دلالةٌ على عِظم موجبِ خلودهم في النّارِ واستحقاقهم للعذاب المهين، وهو أنَّهم جمعوا بين أمرَيْن، كلُّ واحدٍ منهما موجِبٌ للخُلودِ في النّار؛ فإذا اجتَمَعا جميعًا؛ صار ذلك أشَدَّ وأعظَمَ، وهم قد جمعوا بين الكفرِ والتَّكذيب، فلم يُؤمنوا، ولم يُصدِّقوا بآياتِ اللهِ القُرآنيَّة أو الكونيَّة، أو المُعجزاتِ الَّتي أُرسلتْ إلى رسلهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5011.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 468.

ثم إنَّ التَّكذيبَ سبيلٌ عظيمٌ إلى الكُفر، فقُدِّم الكُفرُ عليه؛ لبيان موقعِ التَّكذيبِ منه، والتكذيبُ من الأعمال السيئة، والحُكمُ في قوله: ﴿يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ يقتضي عملًا؛ فلهذا ذُكِرَ، وفي مقابلة عملِ الصالحات بالتكذيب معنى أنَّ التَّكذيب مِن أُمَّهاتِ السَّيِّئات، وفي هذا كلُّ تنفيرٍ وترهيبٍ منه، فلَمّا كان كذلك؛ كان ألصقَ بأهوال السّاعة الفخمة العظيمة: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1].

تقدَّم الكُفرُ على التَّكذيب؛ إذِ الأخيرُ سبيلٌ إلى الأوَّل

معنى الباء في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ للإلصاق، أيْ: تكذيبُهم لآياتِ اللّه القرآنيَّة والكونيَّة ملتصقٌ بها، وملابسٌ لها ملابسةً لا تنفكُّ عنها، وهذه مبالغةٌ في بيانِ شدَّةِ تكذيبهم واستكبارهم عن الطاعةِ للّه والتَّسليم له، كما أنَّ في تعديةِ فعل التَّكذيب بالباءِ - وهو فعل مُتعَدٍّ بنفسه - تأكيدَ لُصوقِ معنى الفعل، وهو التكذيبُ بمفعوله، وهي الآيات، بما يدلُّ على معنى الإنكارِ، أي: التكذيب القويُّ(1).

المُكذِّبُ بآياتِ العظيمِ نادرُ الوجودِ

وفي مجيءِ الباء - وفعلُ التكذيبِ يتعدَّى بنفسه أصلًا - تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ مِثْلَ هذه الآيات لا يتسلَّط عليها التكذيبُ ونحوُه؛ لوجود سيما عظمة الأُلوهيَّة فيها، على ما تُفهِمُهُ إضافةُ الآيات إلى صيغة العظمةِ: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، ففي التَّعدّي بالباء إنكارُ تكذيبهم، وتعجُّبٌ عظيم منه.

مِثْلُ هذه الآياتِ لا يتسلَّط عليها التَّكذيبُ ونحوُه

فائدةُ التَّعبيرِ بالآيات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بـ (الآياتِ) دون (الكتاب) أو (القرآن) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ للدَّلالةِ على شمولِ تكذيبهم للآياتِ القرآنيَّةِ والكونيَّةِ، وللإشارةِ إلى إعجازِ الآيات؛ إذِ الآيةُ في اللغة: العلامةُ، ومن معانيها: البرهانُ والمعجزة، ولإقامة الحُجَّة عليهم

سبحان مَن عدَّد آياتِه إحسانًا إلى عباده!

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 191.

في سياق الحُكْم عليهم؛ بيانًا لعظيم عدله تعالى في شأنهم، فقد كذَّبوا كلَّ الآياتِ على كثرتها وتعدُّدها وتغايُرها، فربَّما يكون مقبولًا أن تخفَى عليهم بعضُ الآيات جدلًا، لكن لا يُقبل أن تكون قد خفيت عليهم كلُّها وجميعها، ثم إنَّ الحقَّ أنَّ بعض هذه الآيات يوصِّلُ إلى اللّه معرفةً، فلم ينتفعوا بأيٍّ منها.

نكتةُ إضافة الآياتِ إلى ضمير العظمة:

بيانٌ لشرفِ هذه الآياتِ وعظيم افترائهم عليها

أضافَ ﷻ (الآيات) إلى ذاتهِ العَليَّةِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾؛ تشريفًا للآياتِ القرآنيَّة والكونيَّة، واستعظامًا للإقدام على تكذيبها، وبيانًا لعظيم افترائهم، وأنَّهم فعلوا ذلك استعلاءً واستكبارًا[1]، ولهذا استحقّوا العذابَ المُهين؛ لاستعلائهم على الحقِّ وآياتِ اللّه[2]، ولبيان عظمةِ دلالتِها على المقاصد المرجوَّة منها، وكمالِ ظهور ذلك؛ تمهيدًا لِعظَم عقاب المُكذِّب بها، تأسيسًا على قوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1].

بلاغةُ الالتفات في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾:

تأكيدُ الوعيدِ وتشديدُ التهديدِ للكافرين المكذِّبين

عدلَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ عن ضمير الغائبِ المفرد في: ﴿ٱلۡمُلۡكُ يَوۡمَئِذٖ لِّلَّهِ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ إلى صيغةِ الضميرِ المُتكلِّم الجمع، فلم يَقُلْ: (بآيات اللّه)؛ لتأكيدِ الوعيدِ وتشديدِ التهديدِ للكافرين المكذِّبين بآياتِ اللّهِ ببيانِ عظيم ما يكفرون، ويكذِّبون به، وهي آياتُ اللّهِ العظيم سبحانه، ولإثارةِ انتباههم لقُبح ما يفعلونه، وفيه معنى كمال ظهورِ العظمة الإلهية في الآيات، كأنَّها تُكلِّمهم، وتخاطبهم، ومعنى إقباله تعالى عليهم وتودُّده إليهم؛ إذ كان يمكن تركُهم وحالَهم في الكون؛ ليصلوا مِن خلاله إليه، ولكنَّه أنزل إليهم القرآن العظيم؛ ليرشدهم إلى الصواب.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5011.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5011.

لا يستوي أصحابُ النّارِ وأصحاب الجنّة

معنى الفاءِ في قوله: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

فاءُ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ تحتملُ أنْ تكونَ للتوكيد، أيْ: لتوكيدِ الخبرِ، بما فيها مِن معنى استحقاقِهم العذابَ المُهين[1]، أو أنْ تكونَ من معنى حَرفِ التَّفصيلِ - وهو (أمّا) - لأنَّه لمّا تقدَّمَ ثوابُ الَّذين آمَنوا؛ كان المَقامُ مُثيرًا لسُؤالِ مَن يَترقَّبُ مُقابَلَةَ ثَوابِ المُؤمنين بعِقابِ الكافرينَ.

وربَّما تكون فاءُ ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ سببيَّةً، وتَصديرُ الخبرِ بها؛ للدَّلالةِ على أنَّ تَعذيبَ الكُفّارِ بسبَبِ أعمالِهم السَّيِّئة[2]، كما أنَّ تجريدَ خبرِ الموصول الأوَّلِ عنها للإيذانِ بأنَّ إثابةَ المؤمنينَ بطريقِ التَّفضُّلِ لا لإيجابِ الأعمال الصّالحةِ إيّاها[3]، أو يحتملُ أنْ تكونَ رابطةً لِما في الموصول من رائحةِ الشَّرط[4]، وفي تعرية الخبرِ الأوَّل: ﴿فِي جَنَّـٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ من الفاء، الدّالِّ على أنَّ إثابتَهُ تعالى لأهل طاعته تفضُّلٌ منه، وفي قَرْنِ الخبر الثاني: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بالفاء الدّالَّة على أنَّه مُسبَّب عن معنى الصِّلة[5] بيانُ كمالِ نفي التَّسوية بين الفريقَيْن.

عدلُهُ ﷻ هو العدلُ المطلقُ

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة البعيد:

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ الخبرَ عن الذين كفروا باسم الإشارة (أولئك) في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ للتَّنبيه على كمال استحقاقهم العذابَ المُهينَ، لأجْلِ ما تقدَّمَ من صِفَتِهم بالكُفْرِ والتَّكذيبِ بالآياتِ[6]؛ لأنَّ معنى أصل الاستحقاقِ حاصلٌ بالفاء،

(1) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 17/ 169.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 76، والطيبي، فتوح الغيب: 10/ 516، والبقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 76، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 116.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 76، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 468.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 167.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 310.

فكان في التَّعبير باسم الإشارة زيادةٌ في معنى الاستحقاق، كأنَّ فيه أن كلًّا من الكفر والتَّكذيب أحاط بهم، ورسخَ فيهم، وتمكَّن منهم، فكأنَّهما صفتان قامتا بهم، وداخلتهم، وانتشرتا فيهم حتى صارتا من مُكوِّناتهم، فلهذا استحضرَ القرآنُ ذواتهم؛ للحكم عليها بالعذابِ المُهين، ويؤذنُ معنى البُعدِ في اسمِ الإشارةِ ببُعْدِ مَنزِلَتِهم في الشَّرِّ والفسادِ واستغراقهم في الاستبعاد[1]، وبُعدهم عن رحمةِ اللّهِ تعالى[2]، "أي: البعداء عن أسبابِ الكرمِ"[3].

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾:

ثبوتُ استحقاقِ العذابِ المُهينِ للكافرين المكذّبين ودوامُهُ

جملةُ ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ جملةٌ اسميَّة، مُبتدؤها: أولَئِكَ، وخبرها: جملة: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، والتي هي مكونة من مبتدَأٍ هو: ﴿عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، وخبرٍ هو: ﴿لَهُمۡ﴾، والجملة الاسميةُ تفيدُ ثبوتَ استحقاقِ الكافرين المكذِّبين بآياتِ اللّه للعذابِ المُهين ودوامَهُ.

معنى اللّام في ﴿لَهُمۡ﴾:

لامُ ﴿لَهُمۡ﴾ في قوله ﷻ: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ هي لامُ الاختصاص والاستحقاق، أيْ: أولئك الذين كفروا باللّهِ، وكذَّبوا بآياتهِ يستحقّون العذابَ المهين، ويختصّون بهِ دونَ غيرهم.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

في التخصيص كمالُ عناية بعذابهم

قدَّم البيانُ القرآنيُّ الجارَّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على المُسندِ إليه ﴿عَذَابٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ ليُفيدَ معنى تخصيصِ العذابِ المُهينِ لهذا الصِّنف، وهو صنفُ الكافرين المُكذِّبين بآياتِ اللّه، وفيه إمعانٌ في تقرير استحقاقهم العذابَ المهين، وإضفاء معنى العَظَمَة والفخامة والشِّدَّة على العذاب المُهين.

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(2) الهلال، تفسير القرآن الثري الجامع: 17/ 169.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

نكتةُ تنكير ﴿عَذَابٌ﴾:

عـذابُ المُكذِّب بآيات العظيم، أيُّ عذابٍ هو؟

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظة ﴿عَذَابٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ لإفادةِ التَّهويل[1]، وذلك في نور سياق قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فهو عذابٌ لا يُحَدُّ حدُّهُ، ولا يُقدَّر قدرُه، ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذنٌ سَمِعَتْ، ولا خَطرَ على قلبِ بَشَرٍ، وفي هذا تخويفٌ لهم؛ لينزجروا عن كفرهم، ويعودوا عن غَيِّهم، وحرصًا على نجاتهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مُّهِينٞ﴾ مادَّةً وصيغةً:

لمّا كذَّبوا بآياتِ اللهِ استهانةً واستكبارًا؛ استحقّوا عذابًا لا ينقطعُ فيه ذُلُّهم

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بمُفردة ﴿مُّهِينٞ﴾ واصفًا بها العذابَ الذي أعدَّه اللّه للكافرين المُكذِّبين في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ دون غيرها من الألفاظ، فلم يَقُلْ مثلًا: (لهم عذاب عظيم أو أليم)؛ لكون معناها أنسبَ هنا مع السّياقِ الذي ذُكِر فيه النَّعيمُ للمؤمنين: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهذا النَّعيم دالٌّ على غاية الإكرام؛ لتأسيسه على الفضلِ بغياب ما يُؤذِن بالسَّببية في نَظْمِه كالفاء.

الإهانةُ مناسبةٌ لحال هؤلاء؛ فالجزاءُ من جنس العمل

لقد ناسبَ أنْ يُذكر العذابُ الذي فيه إهانةٌ واحتقارٌ لِمَن جمعَ بين الكفرِ والتَّكذيب؛ إذ أصلُ (مُهين) يَدُلُّ على احْتِقارٍ وحَقارَةٍ في الشَّيْءِ[2]، والمُهينُ: المُذِلُّ، فكلُّ ما فيه مذلَّتُهمُ وإهانتهم يشملُه هذا العذاب، ولكونه أنسبَ مع حالِ الكافرين، أي: إنَّهم لمّا كفروا، وكذَّبوا بآياتِ اللّه استهانةً بها مريدين إعزازَ أنفسهم بمغالبتها والتكبُّر على اتِّباعها[3]؛ استحقّوا العذابَ الذي يُذلُّهم، ويحتقرهم، فكان الجزاءُ من جنسِ العمل.

المبالغةُ في بيانِ الإهانةِ والإذلالِ الذي يحملُه هذا العذابُ لهم

والتَّعبيرُ بصيغةِ اسم فاعل ﴿مُّهِينٞ﴾ من الفعل (أهان) يهينُ إهانةً فهو مُهين؛ للدَّلالة على ثبوتِ هذا العذابِ المهين ودوامِه، أيْ:

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مهن).

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

ثابتٌ لهم خالدين مُخلَّدين فيه، ثمَّ إنَّ الآياتِ مضافةٌ إلى صيغة العظمة ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، فكانت عظمةُ ذي الجلال والإكرام كامنةً ظاهرة فيها، فكان المُكذِّبُ بها مستحقًّا غايةَ الإهانة، فلهذا وُصِف العذابُ بـ﴿مُّهِينٌ﴾، وكان الوصفُ اسمًا - كما ترى - ومجيءُ هذه الصفةِ نكرةً أفادَ المبالغةَ في بيانِ الإهانةِ والإذلالِ الذي يحملهُ هذا العذابُ لهم[1].

بلاغةُ المقابلةِ بين: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ و﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾:

بالتَّقابلِ يُتدبَّرُ حالُ الشَّيءِ في نورِ مُقابِلِه

قابَلَ البيانُ القرآنيُّ النَّعيمَ للمؤمنين في قوله: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ بالعذابِ المُهين للكافرين في قوله: ﴿لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ مُبالَغةً في إظهارِ استحقاقِ النَّعيم للمؤمنين، واستحقاقِ العذابِ المُهين للكافرين، والتَّشويق والثُّبوت على الأوَّل، وهو العملُ على استحقاقِ النَّعيم، كما قيل: وبضدِّها تتميَّز الأشياءُ[2].

الغرضُ من تقديم وعدِ المؤمنين على وعيد الكافرين:

مَـنِ اتـقـى الله ﷻ؛ عامله الله بفضله

قدَّم البيانُ القرآنيُّ وعدَ المؤمنين على وعيدِ الكافرين في قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٥٦ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾؛ تَشْريفًا لشأنِ المؤمنين وللنَّعيم الذي أكرمهم اللهُ به من جنّاتِ النَّعيم، وإظهارًا لتفرُّده سبحانه بالحُكم بإكرام مَنْ كانوا قاطعين بهوانِهم في الدّارَيْن، كما أنَّ تقديمهم أوفقُ لمقصودِ السورة[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 528، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 116.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 528.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ ٥٩﴾ [الحج: 58 - 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبلَهُما:

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلها وجهان:

الأوّل: لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى أنَّ المُلْكَ له يومَ القيامةِ، وأنّه يَحكُمُ بين العباد، ويُدخِلُ المُؤمنينَ الجَنّاتِ؛ أتبَعَهُ بذِكرِ وعْدِهِ الكريم للمُهاجِرينَ، مُفرِدًا لهم بالذِّكرِ تفخيمًا لشأنهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]، **والثاني:** لمّا كان المشركون يمنعونَ بهذه الشُّبَهِ - التي يوحيها إليهم أولياؤهم من الشياطين - كثيرًا من الناسِ عن الإيمان، وكانوا لا يتمكَّنون بها إلّا ممَّن يخالطُهم؛ رغَّبَ سبحانه المؤمنين في الهجرةِ حرصًا عليهم، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[2].

اخــتــصــاصُ اللـهِ المهاجرين بـالـذِّكـرِ تفخيمٌ لشأنِهم وترغيبٌ في الهجرة

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَاجَرُواْ﴾: (هجر) أصلٌ يدلُّ على قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، والهَجْرُ: ضِدُّ الوَصْلِ، وهاجَرَ القَوْمُ مِنْ دارٍ إلى دارٍ: تَرَكوا الأولَى لِلثّانيَةِ، كما فعَلَ المُهاجِرونَ حينَ هاجَروا مِنْ مَكَّةَ إلى المَدينَةِ[3]، والاسمُ: الهِجرة (بالكَسْرِ والضَّمِّ): الخروجُ من أرضٍ إلَى أُخْرَى، وفي قَوْلِه تَعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ الخروجُ من دارِ الكُفرِ إلى دارِ الإيمان[4]، وهو المعنى المُراد في الآية الكريمة.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 243.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (هجر).

2) ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ﴾: (رزق) أصلٌ يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليه غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُه[1]، والرِّزْقُ: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ بِهِ مِنْ مالٍ ونَحْوِه، والجَمْعُ: أَرْزاقٌ[2]، والرَّزْقَةُ: المَرَّةُ الواحدةُ[3]، والرَّزْقُ بفتحِ الرّاءِ: العَطاءُ الدّائمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أَعْطَى ووَهَبَ، والرّازِقُ: المُعْطي، وهوَ اللّهُ[4]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلَى الجَوْفِ، ويُتَغَذَّى بِهِ؛ فهوَ رِزْقٌ، ومِنْ معاني الرِّزْقِ أَيْضًا: الكَسْبُ، الهِبَةُ، الصَّدَقَةُ[5]، ومعنى ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ﴾: موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أيْ: "ليُجرِيَنَّ عليهم من فضْلِه ورَزْقه من الجنَّةِ ما تقرُّ به أعينهم[6].

3) ﴿مُّدۡخَلٗا﴾: (دخل) أصلٌ مطَّرد منقاسٌ هو الوُلوجُ[7]، دَخَلَ يدخلُ دُخولًا، والمَدْخَل: الدُّخول ومَوْضِعُ الدُّخول أيضًا، تَقولُ: دَخَلْتُ مَدْخَلًا حَسَنًا، ودَخَلْتُ مَدْخَلَ صِدْقٍ، والمُدْخَل (بِضَمِّ الميم): الإدْخال، والمَفْعولُ مِنْ أَدْخَلَه، تَقولُ: أَدْخَلْتُه مُدْخَلَ صِدْقٍ[8]، والدُّخولُ: نَقيضُ الخُروجِ، ويُستعملُ ذلك في المكانِ والزمانِ والأعمال[9]، ومعنى ﴿مُّدۡخَلٗا﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللغوي، أيِ: اسمُ مكانٍ أُريدَ به الجَنَّةُ[10].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

وعْــــدُ الـلـهِ لـلـمـهـاجـريـن بـالـرزقِ الحسن والمدخلِ المرضيّ عوضًا عمّا تركوه

الذين فارَقوا ديارَهم وأهليهم طلبًا لرِضا اللّهِ وطاعَتِه، ثُمَّ قُتِلوا، أو ماتوا دونَ قَتلٍ، فإنَّ اللّهَ سيُثيبُهم رزقًا كَريمًا حَسَنًا، وإنَّ اللّهَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(3) ابن عباد، المحيط في اللغة: (رزق).
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رزق).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 283.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دخل).
(8) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (دخل).
(9) الراغب، المفردات: (دخل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 7.
(10) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 549، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.

لَهو أفضَلُ مَن يَرزُقُ عِبادَه، ويُعطيهم مِن فضْلِه؛ وسيُدخلهم الجنَّةَ، فيَرضَونَ بذلك، ولا يَبغونَ بها بَدَلًا؛ جزاءً لهم على خُروجِهم مِن ديارِهم وأوطانِهم في سَبيلِه، وإنَّ اللّهَ لَعليمٌ بمَن يَخرُجُ في سَبيلِه، ومَن يَخرُجُ طَلَبًا للدُّنيا، حَليمٌ بمَنْ عصاه، فلا يُعاجِلُهم بالعُقوبة، بل يواصِلُ لهم مِن رِزْقِه، ويَمنَحُهم مِن فضْلِه(1).

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾:

في عطفِ الخاصِّ على العامِّ تفخيمٌ لشأنِ الهجرةِ والمهاجرين

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾، وهو من بابِ عَطفِ الخاصِّ على العامِّ؛ إذ المهاجرون من زمرةِ المُؤْمنينَ، وغرضُ العطفِ تفخيمُ شأنهم(2)، وإظهارُ شرافتهم وقُربهم من اللّهِ تعالى، وإنعامهم بأنواعِ الكراماتِ ممتازين عن سائرِ المُسْلمينَ والمسلمات(3)، وكذلك التَّنويهُ بشأْنِ الهجرة(4)، ويُحتملُ أنْ تكون الواو استئنافيَّةً، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ ابتداءُ معنًى آخر(5).

وفي الآيةِ ردُّ العجُزِ على الصَّدر

والصَّدُّ عن سبيل اللّه قد يتسبَّبُ عنه هجرة الضُّعفاء من أهل الإسلام والإيمان، فهذه الآية مُتَّصلةٌ بالآية الخامسة والعشرين في السِّباق البعيد؛ إذْ هي معطوفةٌ عليها من باب ردِّ العَجُزِ على الصَّدر، كما رجَع إليها آية: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْۗ﴾ [الحج: 38] من بعد الحديث عن الحجِّ وبعض أحكامه ومعانيه، وممّا حسَّن ذِكْرَها في السّورةِ ذِكْرُ الحجِّ فيها، فإنَّ الحَجَّ فيه معنى الهجرة.

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 674.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 243.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 102.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 309.
(5) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 130.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسم الموصول وصلته:

مَن عُرِفَ بالهجرة في سبيل الله؛ كان معروفًا في حضرته

في التعبيرِ بالاسمِ الموصولِ (الذين) وصلته في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، دونَ التعبيرِ بالاسم الظاهر (والمهاجرون) إيماءٌ إلى سببِ استحقاقِ المهاجرينَ في سبيلِ اللّهِ لهذا الخيرِ الكبيرِ من الرِّزقِ الحَسَنِ والمُدخل الكريم، واستوائهما في هذا الفضلِ، وهو خروجهم في سبيلِ اللّه، وقصدهم نصرَ دينه، فقُتِلوا، أو ماتوا، وفي هذا حثٌّ على تجميعِ المؤمنين في لواءٍ واحدٍ، وكلُّ مؤمنٍ مدعوٌّ للهجرةِ حتى لا يكونَ المؤمنون مبعثرينَ في الأرض... فليس لمؤمنٍ أنْ يعيشَ ذليلًا للاستضعافِ في أرضِ عدوٍّ لا يستطيع أنْ يُقيمَ شعائره الإسلاميَّة فيها[1].

الموقع النَّحويُّ للاسم الموصول:

يوم القيامة يُحتفل بالطّائعين من عباد الله

الاسم الموصول (الذين) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ، وخبرُه جملة ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾[2]، والابتداءُ بالاسمِ الموصولِ (الذين) - والمقصود به الذين هاجروا في سبيلِ اللّه - إشارةٌ إلى تقديمهم والاهتمام بهم ورفعة شأنهم.

فائدةُ الحديث عن الوعدِ للمهاجرين بعد وعيد المُكذِّبين:

الهجرة مِن أمهات الصالحات

أتْبَعَ البيانُ الإلهيُّ حديثَهُ عن المُكذِّبين وما توعَّدهم به من عذابٍ مُهينٍ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾ بالحديثِ عن المهاجرين، وما أعدَّه اللّه لهم من رزقٍ حسنٍ ومُدخلٍ يرضونه عِوضًا عمّا تركوا من ديارٍ وأموال؛ تنويهًا بشأنِ الهجرة وحثًّا وتصبيرًا عليها رغم ما تحمله من صعوبات؛ لأنَّها كانتِ الحصنَ الرئيسَ في دفعِ الظُّلم عن أنفسهم، وحمايتهم من الافتتانِ في دينهم تحت وطأةِ ما يلاقونه من التَّعذيب، والإغراءاتِ الدُّنيويَّة،

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5011.

(2) الصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1245، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 549، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 391.

والشُّبَه التي يروِّجها كفّارُ قريش، ولأنَّها كانت كذلك الأساسَ الأوَّلَ لبناءِ دولةٍ موَحِّدَةٍ في المدينةِ تواجهُ دولةَ الكفر والإشراك.

بضدِّها تتميَّزُ الأشياءُ

وفي وعدِ المهاجرين بعد وعيدِ المكذِّبين إظهارٌ للبونِ الشاسعِ بينهما، وتصويرٌ لأعلى درجاتِ التَّضادِّ بين الفريقَيْن: فريقِ الكافرين المُكذِّبين بآياتِ اللهِ الذي حملهم استكبارُهم وعُتوُّهم على التَّكذيبِ وعدمِ الطّاعة والتَّسليم؛ فاستحقّوا الوعيدَ بالعذابِ المهين، وفريقِ المهاجرين الذين تجرّدوا من كلِّ شيء، ومن كلِّ ما تعتزُّ به النَّفسُ، وتحرصُ عليه من الأهلِ والديارِ والأوطان، وآثروا العقيدةَ على هذا كلِّه طاعةً للّهِ وتسليمًا له، وابتغاءَ رضوانه، فاستحقّوا الوعدَ بهذا الإكرام.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

المهاجرُ مَن أبصر سبيل الله

أفادَ حرفُ الجرِّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة، والتَّعبيرُ بها إيذانٌ بكمال صدقهم وإخلاصهم في تركهم الدّيارَ والأموالَ، فإنَّهم جعلوا طريقَ ذي الجلالِ والإكرام التي شرعها ظرفًا لمهاجرتهم، فلم يكنْ لهم بها غرضٌ آخر[1]، فهم في هجرتهم مظروفين للدّينِ مراعينَ له لا يخرجونَ عنه بوجهٍ ما مهما اشتدَّت بهم الأحوال، وفي جعل سبيل اللّه ظرفًا للهجرة معنى إحاطة المهاجرين بمعنى الظَّرْف، فقد فقهت بصائرُهم حقيقةَ سبيلِ اللّه، فهم يسيرون في أنوارهِ وهداياتهِ، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهم وثناءٍ عليهم.

فائدةُ التقييد بشبه الجملة: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

الهجرةُ الحَقَّةُ قرائنُها جليَّةٌ

قيَّدَ البيانُ الإلهيُّ الهجرةَ بكونها في سبيلِ اللّه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ لبيانِ أحدِ أهمِّ شروطِ الهجرةِ، وهي أنْ تكونَ في سبيلِ اللّه، لا من أجلِ دنيا يُصيبها، أو امرأة ينكحها،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

ولإفادةِ أنَّ الهجرة جهادٌ في ذاته، فالذين هاجروا في سبيلِ اللّهِ تعالى - ليجتمعوا مع المؤمنينَ، ويجاهدوا معهم - لهم جزاءُ الرزقِ الحسنِ والمُدخل الكريم[1].

غرضُ الالتفاتِ في قوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾:

غابت عنهم ذاتُه، وحضرت فيهم أسماؤه وصفاته

عَدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن ضميرِ المُتكلِّم الجمعِ ﴿بِـَٔايَٰتِنَا﴾، في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ إلى صيغةِ الضميرِ الغائبِ المُفرد ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾، فلم يَقُلْ: (في سبيلنا) لاختلافِ المقتضى؛ إذ إنَّه في الآية الأولى لَمّا كانتْ تتحدَّثُ عن وعيدِ الكافرين بالعذابِ المُهينِ؛ عبَّر بضميرِ المُتكلِّم الجمع الدّالِّ على عظمةِ اللّه وعظمةِ فضله في إنزالِ الآيات بما يدلُّ على عظيم قبحِ فعلِ الكافرين، واستحقاقهم هذا العذابَ المهينَ، أيّ: كفروا، وكذَّبوا بالآياتِ رغم عظمتها وعظمةِ مُنزلها، ولكنَّه لَمّا انتقلَ للحديثِ عن المهاجرينَ، وما أعدَّه لهم من العطاءِ؛ عدلَ إلى التَّعبيرِ بضميرِ الغائبِ المُفرد؛ ليُشيرَ إلى فضلِ المؤمنين المهاجرين.

المهاجرون اتَّخذوا الهجرةَ مَسلكًا يتعرَّفون به على الله

وفي العدول إلى ما عليه التَّنزيلُ بيانُ أنَّ المهاجرين اتَّخذوا الهجرة مسلكًا يتعرَّفون به على اللّه، ويترقَّون به في سُلَّم مقامات الإيمان، وقد أدركوا معاني أسمائه وصفاته التي أخبر بها القرآن عنه ﷻ، وأخبرت بها السُّنَّة المُطهَّرة.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾:

قد تجمع (ثم) بين التراخي الحقيقي والمجازي

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾؛ حرفُ عطْفٍ يدلُّ على التراخي في موضعه؛ لأنَّ قتلهم ليس عَقِبَ الهجرة، ولا موتهم كذلك، بل إنَّهم يعيشون مقيمينَ مع المؤمنينَ ما شاء اللّهُ أنْ يقيموا مجاهدين حتى يستشهدوا في قتالٍ، أو

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5011.

يموتوا حتْفَ أنوفهم[1]، ففي هذا التراخي إشارةٌ إلى طولِ العمرِ، وفيه أيضًا علوُّ الرُّتبةِ بسببِ الهجرةِ[2]، فجمَعَ الحرفُ: ﴿ثُمَّ﴾ بين التَّراخي الحقيقيِّ والتراخي المجازيِّ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعل المبني للمفعول ﴿قُتِلُوٓاْ﴾:

قاتلُ الشَّريف حقيرٌ، ولو كان مَلِكًا

آثرَ البيانُ الإلهيُّ التعبيرَ بالمبني للمفعول ﴿قُتِلُوٓاْ﴾ في قوله: ﴿هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾، ولم يأتِ بالمبني للفاعل، فلم يَقلْ: (ثمّ قتلهم المشركون أو الكافرون أو أعداؤهم)؛ للتركيزِ على الحدثِ، وهو القتلُ، أي: الشهادةُ في سبيلِ اللّه، وحصرِ الوعي فيه، وللدَّلالةِ على العموم والإبهامِ في القاتل، ولئلّا يُعكِّر صفوَ الحديث عنهم ومدحهم بذكر أولئك الأعداء.

بلاغةُ توجيهِ القراءات في: ﴿قُتِلُوٓاْ﴾:

سبحانَ مَن ألقَى في قلوب أصفيائه محبَّةَ القتلِ في سبيله

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ قُتِلُوٓاْ﴾ قراءتان متواترتان، قرأ ابن عامر بتشديد التاء ﴿قُتِّلُوٓاْ﴾، والباقون بتخفيفها[3]، وقراءةُ التَّشديد تفيدُ معنى التَّكثير[4]، أيْ: تُفيدُ المبالغةَ وكثرةَ القتل، بينما قراءة التَّخفيف لا تُفيدُ التَّكثيرَ والمبالغة، وفي اختلافِ القراءتَيْن إشارةٌ إلى تنوُّع أحوال المهاجرين وما يُصيبهم من شدائد بين قتلٍ وتقتيل، وفي الجمع بين القراءتَيْن جمعٌ لأحوالِ المهاجرين الذين قُتلوا في سبيلِ اللّه، فهم في جميع أحوالهم وعدهم اللّهُ بالرِّزقِ الحسن والمدخلِ المرضي.

وفي قراءة التَّشديد إشارةٌ إلى صعوبة القتل على النَّفس؛ لأنَّها قُتِلَت، وهي غريبة، وفي قراءة التَّخفيف إشارةٌ إلى حُبِّ المُحدَّث عنهم للقتل، حيث هو وسيلةٌ جليلة إلى غاية أجلَّ منها، حيث لقاءُ الأحبَّةِ محمَّدٍ ﷺ وصحبِه، في الدرجات العلا في جنات الخلد.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5012.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 77.
(3) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 255، وابن الجزري، النَّشر: 2/ 243.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 89.

معنى ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ مَاتُواْ﴾:

لا حرجَ على فضل الله ﷻ

بالتَّعبير بحرف ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ سوَّى القرآنُ في الوعدِ بين من قُتِلَ في الجهادِ، ومن ماتَ حتفَ أنفه، مِن الذين هاجروا؛ لاستوائهما في القصدِ وأصلِ العملِ، فيُعطي من ماتَ منهم مثلَ ما يُعطي من قُتِلَ فضلًا منه وإحسانًا، وقد رويَ في سبب نزول الآية أنَّ بعضَ الصحابةِ رضي اللّه تعالى عنهم قالوا: يا نبيَّ اللّه هؤلاء الذين قُتلوا قد علمنا ما أعطاهم اللّهُ تعالى من الخيرِ، ونحنُ نجاهدُ معك كما جاهدوا؛ فما لنا إنْ متنا؟ فنزلت الآية[1].

الغرضُ من تقديم القتلِ على الموت:

المقيسُ عليه أصلٌ للمقيس

في تقديمِ القتلِ على الموت في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ﴾ رغمَ استوائهم في وعدِ اللّهِ بالرزقِ الحسنِ والمُدخل المرضيِّ لهم؛ متّسقٌ مع محور السورة المتعلّق بجانب رفع الشعائر الدينية والتمكين للمؤمنين.

معنى اللّام في قوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ﴾:

في لامِ القَسَمِ توكيدٌ لوعدِ اللهِ للمهاجرين بالرِّزقِ الحَسَنِ

لام ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ موطِّئةٌ للقسم، والجملةُ الفعليَّةُ جوابٌ لقسم محذوف، تقديره: (وعزَّتي لَيَرزُقَنَّ اللّهُ الذين خَرَجوا مِن ديارِهم طَلَبًا لِرضا اللّهِ ونُصرةً لدينِه، ثم قُتِلوا أو ماتوا رزقًا كريمًا حَسَنًا)، والجملةُ القسميَّةُ وجوابُها خبرٌ للمبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾، ومن منعَ ذلك يُضمرُ قولًا هو الخبرُ، والجملةُ محكيَّةٌ به[2]، والقَسَمُ يُفيدُ التَّوكيدَ، أيْ: توكيد وعدِ اللّهِ للمهاجرين بالرِّزقِ الحسنِ إكرامًا وتطمينًا لهم.

---

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 76، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 529.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.

عـمـومُ الـجـزاءِ كــنـــايـــةٌ عـن عظمته وفخامته

نكتةُ توالي المؤكّدات في: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾:

أكَّد البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ بعدَّة مُؤكِّدات، هي: اللّامُ الموطِّئة للقَسَم، ونون التَّوكيد الثَّقيلة، والمصدر ﴿رِزۡقًا﴾، ووصفُ الرِّزق بالحَسَن، وهو الرِّزقُ الدّائم الذي لا ينقطع، وهذه المُؤكِّدات تُفيدُ المبالغةَ في عَظَمةِ هذا الرِّزق، وأنَّه لا ينقطعُ، ولا يزولُ، وهو خيرُ رزقٍ وأطيبه وأوسعه[1]، سواءٌ أكان المقصودُ به رزقَ الشهداءِ عند ربهم في البرزخِ، أم في الجنَّة[2]، وهذه المُؤكّدات تُبيِّنُ أنَّ في هذا الرِّزق شيئًا أو أشياء عجيبة وغريبة، ممّا يحتاج المُتلقّي معها إلى توكيد وتحقيق.

العـطـاءُ بقدرِ المُعطي

نكتةُ تنكير ﴿رِزۡقًا﴾:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿رِزۡقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، لإفادةِ معنى التَّكثيرِ والتَّفخيم والتَّعظيم لشأنِ هذا الرِّزق، فرِزْقُ اللّهِ العظيم عظيمٌ، فهو رزقٌ حسنٌ لا ينقطع؛ إذ هو خالدٌ بإخلادِ اللّه له، وكلمة ﴿رِزۡقًا﴾ إمّا مفعولٌ ثانٍ؛ أيْ: مَرزوقًا حسنًا، أو مصدرٌ مُؤكِّدٌ لإكرامِ اللّهِ عباده المؤمنين بالرِّزقِ الحَسَنِ الذي لا ينقطع[3].

تميَّزوا بالهجرة، وتفوَّقوا بحُسْن ثوابها

فائدة وصف الرِّزق بالحسن:

الرِّزق الحَسَن هو الرِّزق الدّائم الَّذي لا ينقطع، وقيل: هو الجنَّة، وقيل: هو قوله ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾، وفي وصفِ هذا الرِّزق بالحُسْنِ بيانُ أنَّ اللّهَ يُرْضيهم بحيث لا يَتطلَّبون غيرَه؛ لأنَّه لا أحسَنَ منه[4]، وهذا الوصفُ ناظرٌ إلى آثار الهجرةِ من الغربة وغيرها، فهو رزقٌ يُعوِّضهم اللّه به عمّا فقدوه من تلك الأمور، فلذلك كانوا مُميَّزين في ثوابهم عن غيرهم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 549.
(2) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 130.
(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 116، والشَّوكانيُّ، فتح القدير: 3/ 549.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 310.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

تمكينُ الوعد بالرِّزق الحَسَن رزقٌ حسَنٌ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ اعتراضيَّةٌ، والجملةُ بعدها معترضةٌ بين البَدَلِ ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾ والمُبدلِ منه ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۗ﴾؛ تقويةً للكلام الذي اعترضتْ بين أجزائه وتوكيدًا لمعناه؛ إذِ الاعتراضُ جارٍ عند العرب مجرى التَّأكيد، أيْ: مبالغةً في بيانِ أهميَّةِ ما أعدَّه اللّهُ للمهاجرين في سبيلِه من الرِّزقِ الحَسَنِ، وتوكيدًا لوقوعه، بما يُعدُّ إشارةً إلى الحثِّ على الهجرةِ في سبيلِ اللّهِ والجهادِ والاستشهادِ لنصرةِ دينِ اللّهِ سبحانه، وإضفاءُ الاعتراض من معناه على الجملتَيْن الأخرتَيْن أبلغُ من إضفائه عليهما، وهو مؤخَّرٌ في موقعه، فهو مُمسِكٌ بالجملتَيْن، ومضمونُه جارٍ في جميع عروقهما.

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

التَّوكيدُ صورةٌ لمغايرة رزقه لهم لرزقه غيرَهم

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ جملة ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بعدَّةِ مؤكِّدات؛ بكونها جملةً اسميَّة تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام، وبحرفِ التوكيدِ (إنّ)، واللّامِ المُزحلَقة، ومجيءِ الخبرِ ﴿لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ جملةً اسميَّة أيضًا، حيث أفادتْ هذه المؤكّداتُ المبالغةَ في تصويرِ عَظَمةِ رِزْقِ اللّهِ تعالى[1]؛ لأنَّه لَمّا كان مضمونُ الجملةِ حقيقةً عظيمةً؛ كان من حقِّها أنْ يُعبِّرَ عنها بأسلوبٍ عظيم، وما هذه المُؤكِّدات إلّا علامةٌ قويَّة على عجيب هذا الرِّزق الإلهيِّ وغريبه، ومن ذلك عمومُهُ الشَّديد، ومغايرتُه لما يألفه المخلوقون وغيرُ ذلك، وقد ازداد ذلك حُسْنًا وبراعةً بإجمال المعنى.

نكتةُ حذْفِ متعلّق ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

إيجازٌ حكيمٌ غرضُهُ بيانُ فضلِ اللهِ على العالمين

أوجز البيانُ القرآنيُّ بعدم ذكر مُتعلّق ﴿خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ لإفادةِ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.

عمومِ المُتعلِّق، فهو خيرُ الرازقين لعبادِه من الإنسِ والجنِّ وجميعِ مخلوقاته، فكان في الحذف دلالةٌ على الألوهية، فإذا كان رازقًا بتلك الصِّفة؛ فكيف يكون رزقُهُ لهؤلاء.

دلالةُ تكرارِ لفظة الرِّزق في الآية:

في العمل الصالح بذرةُ حقيقة ثوابه

في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ تكرَّر ذِكرُ الرِّزقِ في الآية ثلاثَ مرّاتٍ وبعدَّةِ صيغٍ، وهي: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ﴾ بصيغة المضارع، و﴿رِزۡقًا﴾ بالمصدر، و﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بصيغة اسم الفاعل المجموع، وذلك تحسينٌ للكلامِ وإحكامٌ له، وتأكيدٌ لتحقيقِ وعدِ اللّه للمهاجرين بالرِّزق بما يُطمئن قلوبهم، وتنويهٌ على أهميَّة رزق اللّه تعالى وعظمته وكثرته، وهذا التَّكرارُ لمعنى جزء من معاني آية الثَّواب صورةٌ لبالغ الصُّعوبة والمَشَقَّة التي لاقاها الذين هاجروا، ثم قُتِلوا، أو ماتوا.

بلاغةُ القصرِ ونوعه في فاصلة الآية:

تفرَّدَ الله ﷻ بالرِّزق فأبدع فيه

ضميرُ الفصل (هو) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، يُفيدُ القصرَ، وهو قَصرٌ حَقيقيٌّ، يؤكِّدُ أنَّ اللّهَ هو وحده الرّازقُ على الحقيقة، ورزقهُ لا يقدِرُ عليه أحدٌ غيرُه، وفي التوكيد بالقصرِ تصويرٌ لعَظَمةِ رِزْقِ اللّهِ تعالى[1].

دلالةُ ﴿خَيۡرُ﴾ على أفعل التَّفضيل:

ليس كمثل رزقِهِ رزقٌ؛ لأنَّه الرّازقُ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بأفعل التَّفضيل ﴿خَيۡرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ مع العلم بأنَّ كلَّ الرِّزقِ من عنده سبحانه؛ للإشارةِ إلى أنَّه تعالى مُختصٌّ بأنْ يرزقَ بما لا يقدرُ عليه غيره تعالى، وبأنَّه الأصلُ في الرِّزق، وغيرُه إنَّما يرزق بما له من الرِّزقِ من جهةِ اللّه، وينقلُ الرِّزقَ من يده إلى يدِ غيره، لا أنَّه يفعلُ نفسَ الرِّزقِ،

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 116، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 322.

وأنَّ غيره إذا رَزَقَ؛ فإنَّما يرزقُ لانتفاعهِ به، إمّا لأجلِ أنْ يخرجَ عن الواجب، وإمّا لأجلِ أنْ يستحقَّ به حمدًا أو ثناءً، أمّا الحقُّ سبحانه؛ فإنَّ الرِّزقَ الصادرَ منه لمحضِ الإحسان والتفضُّل؛ لأنَّ كماله صفةٌ ذاتيَّةٌ له، فلا يستفيد من شيءٍ كمالًا زائدًا، ولولا أنَّ اللّه تعالى أعطى ذلك الإنسان أنواعَ الحواسِّ، وأعطاه السلامةَ والصِّحَّةَ والقدرةَ على الانتفاعِ بذلك الرِّزقِ؛ لَما أمكنه الانتفاعَ به، ورزقُ الآخر لا بدَّ وأنْ يكون مسبوقًا برزقِ اللّهِ وملحوقًا به حتى يحصلَ الانتفاع، وأمّا رزقُ اللّه؛ فإنَّه لا حاجةَ به إلى رزقِ غيره، بالإضافة إلى أنَّ المرزوقَ يكون تحت مِنَّةِ الرّازق، ومِنَّةُ اللّه أسهلُ تحمُّلًا من مِنَّةِ الآخرين[1]، وهذه المعاني السّابقة تُؤكِّدُ عظيمَ تفضُّلِ وعطاءِ اللّه، وعظيمَ رزقِه تعالى، فلا رزقَ كرزقِهِ سبحانه، الذي هو خيرُ الأرزاقِ لصدورِه من خيرِ الرازقين[2].

نكتةُ جمع ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾:

التَّعبيرُ بالجمعِ في (الـرازقـين) أبلغُ في الثَّناءِ على اللهِ ورزقه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بصيغةِ الجمع ﴿ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾، ولم يقل: (لهو خيرُ رازقٍ)؛ للمبالغةِ في بيانِ أنَّ رزقَ اللّهِ هو خيرُ الأرزاقِ لصدورِه من خيرِ الرّازقين؛ أي: إنَّه رغمَ اجتماعِ كلِّ الرّازقين - فرضًا وجدلًا - فإنَّهم لا يستطيعون أنْ يدانوا رزقَ اللّهِ لعباده؛ لأنَّه الرّازقُ على الحقيقة، ولا بدَّ لأيِّ رزقٍ من غيره أنْ يكونَ مسبوقًا برزقِ اللّهِ ومُلحقًا به، إذًا فالتَّعبيرُ بالجمعِ أبلغُ في الثَّناءِ على اللّهِ وعلى رزقه سبحانه.

وفي الجمع تنبيهٌ على تعدُّد أنواع رزقِه تعالى لهؤلاءِ، فمِن جزاء هؤلاء ما لا يقوم به إلّا الحقُّ نفسُه جَلَّ وتقدَّس، كما في قوله: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]، ومنه ما يقوم به بعضُ ملائكته بأمرٍ منه سُبحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 243.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 311.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾:

مظهرٌ آخر لتكريم اللهِ لمَنْ خرجوا من ديارهم وأموالهم في سبيله

فَصَل البيانُ الإلهيُّ بين هذه الآية ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾، والتي قبلها ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ﴾، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بين الجملتَيْن من كمالِ اتِّصالٍ، أي: اتِّحادٍ تامٍّ في المعنى؛ بسببِ كونِ هذه الآية بدلَ اشتمالٍ مِن قولِه: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّ كَرامةَ المَنزِلِ مِن جُملةِ الإحسانِ في العطاءِ، بل هي أبهَجُ لَدى أهلِ الهِمَمِ؛ ولذلك وُصِفَ المَدْخَلُ بـ﴿يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾[1]، أو هي استئنافٌ مُقرِّرٌ لَمضمونِه؛ أنَّه لَمّا كان الرِّزقُ لا يَتِمُّ إلّا بحُسنِ الدّارِ، وكان ذلك من أفضَلِ الرِّزقِ؛ قال دالًّا على خِتامِ التي قَبلُ[2].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم﴾:

القَسَمُ توكيدٌ يُطمئنُ المؤمنين ويحثُّهم على الهجرة ويُعرّضُ بالمتقاعسين

لامُ ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا﴾ موطِّئةٌ للقَسَم، والجملةُ الفعليَّة جوابٌ لقَسَم محذوفٍ، تقديره: (وعزَّتي وجلالي ليدخلنَّ اللّهُ المهاجرين في سبيله إدخالًا كريمًا أو مُدخلًا كريمًا، وهو الجنَّة)، وفي هذا توكيدٌ لوعدِ اللّهِ لهم بالمدخلِ المرضيِّ تبشيرًا وإكرامًا لهم، وحثًّا على الثَّباتِ في الهجرةِ والجهادِ في سبيلِ اللّه، وتعريضًا من تقاعسٍ عن الهجرة، أو مَن يهاجر لدُنيا يصيبها أو امرأةٍ ينكحها.

نكتةُ إضمارِ الفاعل مع الإدخال دونَ الرِّزق:

الرِّزقُ الحَسَنُ والمُدخل المرضيُّ للمهاجرين في سبيل الله لا يكونُ إلّا منه سبحانه

أضمرَ البيانُ القرآنيُّ فاعلَ ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا﴾، ولم يَقُلْ: (ليدخلنّهم اللّه) اختصارًا؛ لأنَّه سَبَقَ ما يدلُّ عليه، وهو فاعلُ ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا﴾، وخاصَّة أنَّ قوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا﴾ بدل من قوله: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمۡ﴾، ولكون فعلِ إدخالِهم الجنَّة لا يصلحُ إلّا للّهِ سبحانه، فلا ينصرفُ الذِّهنُ فيه إلّا له سبحانه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 77.

أرضوهُ بالهجرة في الدنيا، فأرضاهم في الآخرة

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾:

تضمَّن قولُهُ تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ عدَّة مُؤكِّدات من البدليَّة في ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم﴾، التي قرَّرتِ الرِّزقَ الحسنَ وهو الجنَّة، واللّامِ الموطِّئة للقَسَم، والقَسَم، ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة، والمصدر الميمي ﴿مُّدۡخَلٗا﴾ الذي أُكِّد به فعلُهُ[1]؛ إذِ التقدير: (ليدخلنَّهم إدخالًا كريمًا)، بما يفيدُ المبالغةَ في عِظَم هذا المُدخل الذي وعدَ اللّهُ به المهاجرين في سبيله، فقد خرجوا مخرجًا يُرضي اللّه، فتعهَّد لهم اللّه بأنْ يُدخلهم مُدخلًا يرضونه.

المدخلُ العظيم من ربٍّ عظيم

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُّدۡخَلٗا﴾:

نَكَّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿مُّدۡخَلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ في سياقِ الامتنان؛ لإفادةِ معنى التَّفخيم والتَّعظيم في الإكرامِ الإلهيِّ للمهاجرين، فهو إدخالٌ عظيمٌ من ربٍّ عظيم، أو مكانٌ عظيمٌ من ربٍّ كريم، لا يُحَدُّ حَدُّهُ، ولا يُقدَّرُ قَدْرُه، أيْ: ما لا عينٌ رأتْ، ولا أُذُنٌ سمعتْ، ولا خطرَ على قلبِ بَشَرٍ.

مَن فقهِ حركةَ المعنى؛ فقِهَ سِرَّ حركة المبنى

توجيهُ القراءاتِ المتواترة في ﴿مُّدۡخَلٗا﴾ وبلاغتها:

في قوله تعالى: ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ قراءتان مُتواترتان للفظ ﴿مُّدۡخَلٗا﴾[2]؛ إذ قرأها الجمهور بضمِّ الميم من (أدخلَ) المزيد، فهو محمولٌ على الفعلِ المذكور ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم﴾، تَقول: أدخلَ يدْخِلُ إدخالًا ومُدخلًا، وهو اسْمُ مَكانٍ، أُريد به الجنَّة، فهو مفعولٌ ثانٍ للإدخالِ، أو مصدرٌ ميميٌّ أُكِّدَ به فعلُهُ.

وقرأ نافع وأبو جعفر ﴿مَّدۡخَلٗا﴾ بفتحِ الميم على أنَّه مصدرٌ واسمُ مَكانٍ، تَقول: دخل يدْخُل مَدخلًا، وهذا مدخلنا، وكلُّ ما كانَ على وزن فعَلَ يَفْعُلُ؛ فالمصدرُ واسمُ المَكان على مفعَل، ودلَّ قَوْله تَعالَى:

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.

(2) ابن مجاهد، السبعة في القراءات، ص: 439، وابن الجزري، النشر: 2/249.

﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ على المصدرِ؛ لأنَّهم إذا أُدخلوا دُخولًا؛ فكأنَّهُ قالَ: ليُدخلنَّهم، فيدْخلونَ مَدْخلًا[1]، وعلى هذه القراءةِ يكون في اختلافِ المصدرِ زيادةُ تأكيدٍ.

ونرى أنَّ كلتا القراءتَيْن تُفيدُ التَّوكيد مع زيادته في قراءةِ الفتحِ، والحملُ على مُتغايرَيْنِ هو الأعلى؛ لأنَّ الجملةَ الواردةَ فيها هاتان القراءتان تفصيلٌ للرِّزق الحَسَن، وأنَّ اللّٰه خيرُ الرّازقين، فذلك أدلُّ على الحُسْنِ والخيريَّةِ.

نكتةُ تركِ وصفِ المُدخل بالحَسَنِ، كما وُصف الرِّزق:

المدخلُ الموعودُ فيه من الكرامةِ ما يحقِّقُ كمالَ رضاهم

تركَ البيانُ القرآنيُّ وصفَ المُدخل بالحَسَنِ في قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾، فلم يصفهُ كما وصفَ الرِّزق، فلم يَقُلْ: (ليُدخلنّهم مُدخلا كريمًا أو حسنًا)، وإنَّما وصفه بـ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾ اختصارًا؛ إذ قد سبقَ ذِكْره، وخاصَّةً أنَّ قوله: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم﴾ بدلُ اشتمالٍ من قوله: ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾، وللمبالغةِ في بيانِ عِظَم هذا المُدخل، فهو ليس حسنًا فحسبُ؛ بل فيه من الكرامةِ ما يحقِّقُ كمالَ رضاهم الذي لا ينقطع؛ لأنَّ كَرامةَ المَنزِلِ مِن جُملةِ الإحسانِ في العطاءِ، بل هي أبهَجُ لَدى أَهْلِ الهِمَمِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾:

جــدَّدوا اســتعذابَ الهجرة في سبيله؛ فجدَّدَ لهم كمال الإحساس بنعيمه

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بالمضارع ﴿يَرْضَوْنَهُۥ﴾، في قوله تعالى: ﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ﴾ لِما في المضارع من دلالةٍ على عِظَم هذا المُدخَل، وهو الجنَّةُ التي تجري من تحتها الأنهار؛ إذ إنَّ استطابتهم لنعيمها مستمرٌّ، وتفكُّههم بخيرها مُتجدِّدٌ، وهذا فيه إشارةٌ إلى مزيدِ عطائه لعبادهِ المؤمنين يومَ القيامةِ ومزيدِ تكريمه

(1) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 481، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 130، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.

وتشريفهِ لهم؛ إذ إنَّه يعدُّهم وكأنَّهم ضيوفه يوم القيامةِ، ويحرصُ على دوامِ رضاهم واستمرارِه[1]، كما أنَّ التَّعبير بالمضارع يفيدُ تصويرَ حالهم، وهم في كمالِ رضاهم.

سعوا في إرضاءِ اللهِ ﷻ فأرضاهم

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾:

﴿يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾ صفةٌ للإدخال أو للجنَّة، وهو وصفٌ لهما بكلِّ جميلٍ؛ لأنَّ ما وقعَ موقعَ الرِّضا، فقد كَمُلَ[2]، ولأنَّهما يرضى بهما كلُّ طبعٍ وعقلٍ[3]، ولأنَّ إدخالهم يكون من غيرِ مشقَّةٍ تنالهم، بل براحةٍ واحترام[4]، وإنَّه لمظهرٌ لتكريمِ اللّهِ لهم بأنْ يتوخّى ما يرضونه، فيحقَّقَهُ لهم، وهم عباده، وهو خالقهم سبحانه، كما أنَّ هذا الوصفَ بـ(يرضونه) دليلٌ على اشتمالِ الجنَّة على أقصى ما يريده الإنسانُ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا مَا يَشَآءُونَۚ﴾ [النَّحل: 31].

في العطفِ جمعٌ بين علمِ الله وحلمِه فيما يخصُّ المؤمنين أو أعدائهم

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٞ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه إمّا جملةُ ﴿لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ﴾، والمعنى: أنَّه عليمٌ بما يُرضيهم، فيعطيهم إيّاه، وحليمٌ على ما قد يبدرُ منهم من هفواتٍ، فلا يُنقص من أجرهم، أو جملةُ ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾، والمعنى: أنَّه عليمٌ بأحوالهم وأحوالِ أعدائهم، وبما يستحقّونه، فيفعله بهم، ويزيدهم، وأمّا الحليمُ؛ فالمُرادُ أنَّه لحلمه لا يعجلُ بالعقوبةِ فيمَن يقدمُ على المعصيةِ والكيدِ لأهلِ الحقِّ، بل يمهلُه لتقعَ منه التَّوبةُ، فيستحقُّ منه الجنةَ[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5012.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 10/ 528.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 435.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 180.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 244، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 180.

فائدةُ تتابعِ المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

تفردوا بالهجرة، فتفرَّدوا بعظيم آثار علمه وحلمه

تتابعتِ المُؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ من (إنَّ) التي تفيدُ التَّوكيدَ، والجملةِ الاسميَّة التي تفيدُ الثُّبوتَ والدوامَ، واللام في ﴿لَعَلِيمٌ﴾، وصيغةِ مبالغة (عليمٌ) من: عالم، أي: كثيرُ العلم بكلِّ أحوالِ خلقهِ وكونه، وهو حليمٌ على ما قد يبْدرُ منهم من هفواتٍ، فلا يجعلها تُنقصُ من رزقهم الحَسَنِ، ومن الرِّضا الذي يجدونه في المدخلِ الذي خصَّهم اللّهُ به، وقد أفادَ هذا التَّتابعُ للمُؤكِّداتِ المبالغةَ في تأكيدِ علمه وحلمه سبحانه بما يُدخلُ الطمأنينةَ على قلوبهم.

نكتةُ تذييلِ الآية بـ ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

فائدةُ تقديم صفةِ العلم على الحلم:

ترتيبُ صفاتِ الله قد يُنظر إلى ترتيب آثارها في الواقع

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ العِلم على صفة الحِلْم في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ مناسبةً للسياقِ الذي هو بالعلم أوْلَى، فهو يتحدَّثُ عن الجهادِ وثوابِ المجاهدين مَن قُتل منهم أو من مات دون قتلٍ، ونيَّةُ هؤلاء لا يعلمها إلّا العليمُ سبحانه، كما أنَّ البغيَ الذي تعرَّضوا له لا بدَّ له من علم؛ لكي يُحاسبوا عليه، وكذا الرضا الذي وعدَهم اللّهُ به لا بدَّ له من علمٍ بما يحقِّقُه عندهم، وللإشارة كذلك إلى أنَّه سبحانه يحلُمُ مع كمالِ علمهِ، بخلافِ المخلوقِ الذي يحلُم عن جهلٍ.

في التَّعبير بالحِلم تناسبٌ مع الآية التالية

كذلك تأخَّرَ اسمُ اللّه ﴿حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّه يفتح البابَ لمجيء الآية التالية، وهي قوله تعالى: ﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ إذ إنَّها تتحدَّثُ عن حقِّ ردِّ العقوبة، لكنْ مع تلويحٍ بالعفوِ والصَّفحِ الذي لا يكون إلّا مع حِلم.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾:

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ

ليس كمثل علمِهِ وحِلْمه علمٌ غيره وحلمه

﴿ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ في سياقِ بيانِ عظيمِ قدرةِ اللّهِ وتأكيدها بعدَّةِ مؤكِّدات؛ لإفادةِ معنى التفخيم والتعظيم لعلم اللّهِ وحلمه، فهو عليمٌ بدرجاتِ العاملين ومراتبِ استحقاقهم، علمًا لا يُحَدُّ حدُّه، ولا يُقادر قدْرُه، ولا يعلم أحدٌ شأوه، وقيل: ﴿لَعَلِيمٌ﴾ بأحوالِ مَن قضى نحبَهُ مجاهدًا، وآمال مَن مات، وهو ينتظرُ معاهدًا، ﴿حَلِيمٌ﴾ عن تفريطِ المفرطين منهم بإمهالِ من قاتلهم معاندًا لا يُعاجلهم بالعقوبة[1].

دلالةُ إظهارِ الاسم الجليل (الله) وتكراره:

كمالُ حضور جلالهِ وجمالهِ في نفوسهم

أظهرَ البيانُ القرآنيُّ اسمَ الجلالة (اللّه)، وكرَّره في الجملِ السابقة؛ لأمرين: **الأول**: أنَّه أدخلُ في التَّعظيم، وأقوى في التَّفخيم من الإضمارِ، وفيه تربيةُ المهابةِ في النُّفوس، بما يزيدُ الثِّقةَ بتحقيق الموعود، **والثاني**: استقلالُ هذه الجمل، فإنَّ الأولى: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ بيانٌ بأنَّه تعالى ليرزقنَّهم، والثانية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ بيانٌ بأنَّه خيرُ الرّازقين، والثالثة: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ بيانٌ بأنه عليمٌ وحليمٌ، والتكرارُ في جملٍ متواليةٍ مستقلَّةٍ مستحسنٌ لاسيَّما إذا كانت مسوقةً للتَّعظيم، بخلافِ التكرار في جملة واحدة، فإنَّه غيرُ مستحسن[2]، ولمّا كان لجلاله وجماله تعالى حضورٌ حيٌّ دائمٌ قويٌّ في قلوبهم ونفوسهم وعقولهم؛ كان لذلك حضورٌ في الحديث عنهم، وذِكْرُه في الثالثة أليقُ بكونها تذييلًا.

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الهجرة والذهاب:

الهجرةُ أخصُّ من الذهاب

يتقاربُ لفظا (الهجرة والذهاب)، وقد استعملهما القرآن في آيتَيْن مُتشابهتَيْن في قصَّةِ إبراهيم عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهۡدِينِ ٩٩﴾ [الصّافات: 99]، وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي

(1) القِنّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 74.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 102.

﴿مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت: 26]، ومع هذا التقارب فإنَّ أهلَ اللُّغة فرَّقوا بين الهجرة والذهاب، وإيضاحُ ذلك:

أصلُ الهجرة يدلُّ على قَطيعَةٍ وقَطْعٍ، والهَجْرُ: ضِدُّ الوَصْلِ، وهاجَرَ القَوْمُ من دارٍ إلى دارٍ: تَرَكوا الأولى للثّانيةِ، كما فعَلَ المُهاجِرونَ حينَ هاجَروا من مَكَّةَ إلى المَدينَةِ[1]، والاسمُ الهِجرةُ (بالكسر والضَّمِّ): الخروجُ من أرضٍ إلى أُخْرَى، والخروجُ من دارِ الكُفر إلى دارِ الإيمان[2].

وأصلُ الذَّهاب: المُضيُّ والمرورُ والسَّير[3]، والذَّهابُ: الانتقالُ من مكانٍ إلى آخر[4]، وذهبَ الشَّخصُ: انصرفَ، وغادرَ المكان، وسارَ، ومضى، وذهبَ الطَّيِّبون: ماتوا، وذهبَ الأثر: زال[5].

والحاصل: يتميَّز لفظُ الهجرة بمعنى القطيعة والمفارقة، والخروجُ من دارِ الكُفر إلَى دارِ الإيمان، بينما يتميَّزُ لفظُ الذهابِ بمعنى المُضي والسَّيرِ والمرورِ، والانصرافِ والمغادرةِ والانتقالِ والزوال، وبالتالي: فإنَّ الهجرةَ أخصُّ من الذهاب؛ إذ الذهابُ هو مجرَّدُ الانتقالِ من مكانٍ إلى آخر، بينما الهجرةُ هي الخروجُ من دارِ الكُفر إلى دارِ الإيمان.

الرِّزق والعطاء:

الـــرِّزقُ يشملُ الـنِّـعـمَ المـاديَّـة والمـعــنـويَّـة؛ والعطاءُ يختصُّ بالأشياءِ الماديَّة

يتقارب لفظا الرِّزقِ والعطاء في دلالتهما اللُّغويَّة، وقد يُستعملُ أحدهما موضعَ الآخر، كما أنَّ الرِّزقَ يُعرَّفُ بالعطاءِ، ومع هذا التَّقارب فقد فرَّق أهلُ اللغة بينهما، وإيضاحُ ذلك من خلال المعنى اللُّغوي والاستعمال القرآني لكلٍّ منهما:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هجر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (هجر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم: (ذهب).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ذهب).
(5) المعجم الوسيط، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (طلق).

الرِّزْقُ في أصله يَدُلُّ على عَطاءٍ لِوَقْتٍ، ثُمَّ يُحمَلُ عليهِ غَيرُ المَوْقوتِ، فالرِّزْقُ: عَطاءُ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ[1]، والرِّزْقُ: كُلُّ ما يُنْتَفَعُ به مِنْ مالٍ ونَحْوِهِ، والرَّزْقُ بفتح الرّاءِ: العَطاءُ الدّائِمُ، يُقالُ: رَزَقَ يَرْزُقُ رَزْقًا، أيْ: أعْطَى، ووَهَبَ[2]، وكُلُّ ما يَصِلُ إلى الجَوْفِ، ويُتَغَذّى به؛ فهو رِزْقٌ، وقد يُسمَّى المطرُ رِزْقًا، ومِنْ مَعاني الرِّزْقِ أيْضًا: الكَسْبُ، والهِبَةُ، والصَّدَقَةُ[3]، والرِّزْقُ يكون دنيويًّا وأُخرويًّا، ويُطلقُ تارةً على العطاءِ الجاري، نحو: رَزَقَ السلطانُ جُندَه، وتارةً على النَّصيب، كقوله تعالى: ﴿وَمَن رَّزَقْنَٰهُ مِنَّا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنْهُ﴾ [النَّحل: 75]، ويُطلقُ على كلِّ خيرٍ وصلَ إلى صاحبه، نحو: رُزِقَ فلانٌ علمًا، ويُطلقُ على المرزوق، كقوله تعالى: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾ [النَّحل: 71]، ويُطلقُ على الشَّكِّ، كقوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [الواقعة: 82]، أيْ: عكستم القضيَّةَ، فجعلتم مكانَ الشُّكرِ التكذيبَ، والرّازِقُ: خالقُ الرِّزق، ومعطيه، والمسبِّب له، وهو اللّهُ تعالى، وقد يُقال للإنسانِ الذي تسبَّبَ في إيصالِ الرِّزقِ لمرزوقٍ، وأمّا الرَّزّاقُ؛ فلا يُطلقُ على غيرِ الباري سبحانه لِما فيه من المبالغةِ[4].

والعطاءُ أصلُهُ يدلُّ على أخذٍ ومناولةٍ، والعَطْوُ: التناولُ باليد، والمُعاطاةُ: المُناولةُ، والتَّعاطي: تناوُلُ ما ليس لهُ بحقٍّ، يُقال: فلانٌ يتعاطى ظلمَ فلانٍ[5]، والعَطاءُ والعَطيَّة: اسمٌ لِما يُعْطَى، وعاطَى الصَّبيُّ أهْلَه؛ إذا عَمِلَ لهم، وناوَلَهُمْ ما أرادوه[6].

والحاصل أنَّ الرِّزقَ أعمُّ من العطاء، فالرِّزقُ يُطلقُ على كلِّ نعمِ اللّهِ تعالى الماديَّة والمعنويَّة، الظّاهرة والباطنة، الدنيويَّة والأخرويَّة؛ إذ أصله يدلُّ على عطاءٍ دائمٍ أو لوقتٍ، وكلُّ ما يُنْتَفَعُ به يُسمَّى رزقًا، بينما العطاءُ يختصُّ بالأشياءِ المادّيَّة؛ إذ أصلهُ يدلُّ على أخذٍ ومناولةٍ باليد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رزق).
(2) ابن دريد، جمهرة اللغة، والجوهري، الصحاح: (رزق).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رزق).
(4) الراغب، المفردات: (رزق)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 2/ 87 - 88.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عطو).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (عطو).

﴿۞ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ٦٠﴾ [الحَجُّ: 60]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثباتُ الحقِّ للمهاجرين في ردِّ العقوبةِ ونصرُهم على مَن بغَى عليهم

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلها وجهان، **الأوَّل**: لَمّا ذكرَ اللّهُ تعالى ثوابَ مَن هاجَرَ، وقُتِلَ، أو ماتَ في سَبيلِ اللّهِ، وما أعدَّهُ لهم من عِوَضٍ، ومن رزقٍ حسنٍ ومُدخلٍ مَرضيٍّ؛ أخبَرَ أنَّه لا يَدَعُ نُصرَتَهم في الدُّنيا على مَن بغَى عليهم، فهو تعالى القدير(1)، **والثّاني**: لَمّا ختمَ البيانُ القرآنيُّ الآياتِ السابقةَ - التي تضمَّنتِ الإذنَ للمظلومين في قتالِ الظّالمين - بصفةِ الحِلم، فكان ذلك مخيلةً لوجوبِ العفوِ عن حقوقِ العبادِ، كما في شريعةِ عيسى عليه السلام؛ نفى ذلك بقوله: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ إذنًا للمهاجرين فيمَنْ أخرجهم من ديارهم أنْ يخرجوهُ من دياره، ويذيقوهُ بعضَ ما توعَّده اللّهُ به من العذابِ المُهين، أيْ: بإثباتِ الحقِّ في ردِّ العقوبة(2).

تقريبُ اللهِ تعالى للمهاجرين والإقبال عليهم والإحسان إليهم

وإنَّما أفرد تعالى مضمونَ هذه الآية بالذِّكر مِن بعد ذِكرِ ما أعدَّ للذين هاجروا في سبيل اللّه، ثم قُتلوا، أو ماتوا؛ تشديدًا في عقاب مَن يجور عليهم مِن أعدائهم؛ تناغيًا مع التَّشديد في الحديث عن الدار الآخرة التي يظهر فيها ذلك العقاب، في قوله: ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج: 1]، وإحسانًا إلى هؤلاء المهاجرين وإلى أعدائهم، حيث يُقرِّبُهم اللّه تعالى منه، ويُقبل عليهم، كأنَّه ذكَر ما يشفي صدورَ المهاجرين مِن الثواب: ﴿لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلٗا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ

(1) أبو حيان، البحر المحيط في التفسير: 7/ 530.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 78.

حَلِيمٌ﴾ مِن قبل ذِكْرِ: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ ... الآية؛ لتتهيَّأ نفوسُ المهاجرين للحِلْم والعفو عن أعدائهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿عَاقَبَ﴾: (عقب) له أصْلان صَحيحان، أحدُهُما: يدلُّ على تَأْخيرِ شيءٍ وإتْيانه بعد غيرِه، والآخَرُ: يدلُّ على ارْتِفاعٍ وشِدَّةٍ وصُعوبَةٍ، ومنه: عاقَبْتُ الرَّجُلَ مُعاقَبَةً وعُقوبةً وعِقابًا، وسُمّيَتْ عُقوبَةً؛ لِأنَّها تَكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْبِ، والمُعاقِبُ الَّذي أدْرَكَ ثَأْرَهُ[2]، والعقابُ والعقوبةُ والمعاقبةُ تختصُّ بالعذاب[3]، وعاقَبَهُ على ذَنْبِه: جزاهُ سوءًا بما صَنَعَ[4]، ومعنى ﴿عَاقَبَ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أيْ: جازَى الظّالمَ بمثلِ ما ظَلَمَهُ[5].

2) ﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾: (بغي) أصلان، أحدهما: طلبُ الشَّيء، والثاني: جنسٌ من الفَسادِ، فمن الأوَّل: بغى الرَّجلُ الخيرَ أو الشَّرَّ، أيْ: طَلَبَهُ، ومن الثّاني قولُهُم: بَغَى الجرح؛ إذا تَرامى إلى فساد[6]، والبَغْيُ: قَصْدُ الفَساد، وتجاوزُ الحقِّ إلى الباطلِ، والبغيُ: الظُّلمُ، وقيل: كلُّ مجاوزةٍ وإفراطٍ على المقدارِ - الذي هو حدُّ الشَّيء - بَغْيٌ[7]، ومعنى ﴿بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾: ظُلِم[8].

3) ﴿لَعَفُوٌّ﴾: (عفو) أصلٌ يدلُّ على تَرْكِ الشَّيْءِ، ومعنى عَفْوِ اللّهِ تعالى عنْ خَلْقِه: تَرْكُهُ إيّاهُمْ، فلا يُعاقِبُهُمْ فضلًا منْهُ، وكُلُّ مَنِ اسْتَحَقَّ عُقوبَةً، فتَرَكْتَهُ، فقد عَفَوْتَ عَنْهُ[9]، والعَفْوُ: الصَّفْحُ عن الجاني وتَرْكُ عُقوبَةِ المُسْتَحِقِّ، وقيل: العَفْوُ: المَحْوُ، ومنه: عَفا اللّهُ عنْكَ، أيْ: مَحا، مِن عَفَتِ الرّياحُ الأثَرَ، أيْ: دَرَسَتْهُ ومَحَتْهُ[10]، والمقصود بـ﴿لَعَفُوٌّ﴾ في الآية: اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، وهوَ (فَعولٌ) من العَفْوِ، وهو التَّجاوزُ عن الذَّنْبِ وتَرْكُ العِقابِ عليه، وأصلُه: المَحْوُ والطَّمْس[11].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) الراغب، المفردات: (عقب).
(4) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 349.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغي).
(7) ابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (بغي).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 3/ 349.
(9) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (عفو).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (عفو).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (عفا).

4) ﴿غَفُورٌ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ، والغُفْرانُ والغَفْرُ: السَّتْرُ، يُقالُ: غَفَرَ اللّهُ ذَنْبَهُ غَفْرًا ومَغْفِرَةً وغُفْرانًا[1]، والمَغْفِرَةُ من اللّهِ: أنْ يصونَ العبدَ من أنْ يمسَّهُ العذاب[2]، والغَفورُ والغَفّارُ من أسماءِ اللّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ، وهما من أبنيةِ المُبالَغَةِ، ومَعْناهُما السّاتِرُ لذُنوبِ عِبادِهِ المُتَجاوِزُ عن خَطاياهُم وذُنوبِهِم[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

وعْدُ اللهِ لعباده المهاجرين الذين قُتلوا أو ماتوا بأن ينصرَهم

يَعِدُ اللّهُ الذين هاجروا في سبيلِ اللّهِ، ثم قُتلوا، أو ماتوا - مع ما أعدَّ لهم من الرِّزقِ الحَسَنِ والمُدخلِ الكريم - بأنَّ لهم النَّصرَ على المشركين الذين بغوا عليهم، فأخرجوهم من ديارهم[4]، في صورةِ حُكمٍ عامّ عمَّن يقعُ عليهم الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، ثم يقعُ عليهم البغيُ والعدوان، فيَعِدُهُم اللّهُ بنصره، إنَّ اللّهَ كَثيرُ العَفوِ والغُفرانِ لعِبادِه المُؤمنينَ.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتها:

للمعاني محطاتٌ يجب الوقوفُ عندها في التَّلقّي والتَّدبُّر

فَصلَ البيانُ الإلهيُّ قولَهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنۡ عَاقَبَ﴾ عن قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ لأنَّ ﴿ذَٰلِكَۖ﴾ إشارةٌ إلى تقريرِ الكَلامِ السّابقِ الدّالِّ على ما وعده اللّهُ سبحانه لِمَن هاجرَ في سبيله وقُتِلَ في سبيلِ اللّهِ، أو ماتَ من النَّصرِ والتَّمكينِ في صورةِ حكمٍ عامّ عمَّن يقعُ عليهمُ الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، وهو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ، أي: الأمرُ ذلك،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(2) الراغب، المفردات: (غفر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 675.

وهذه الجملةُ المُقرَّرة لما قبلها تُنبِّهُ على أنَّ ما بعدها كلامٌ مُستأنَفٌ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة وإيثار ما يدلُّ على البُعد:

قد تُمسِكُ كلمةٌ بما قبلها وبما بعدها

جاء اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ بعد إتمامِ المعنى والبدءِ في معنى آخر[2]، أيْ: هو يأتي للفصلِ بين الكلامَيْن؛ لأنَّ ما بعده غيرُ صالحٍ لأنْ يكونَ خبرًا عن اسم الإشارة، هذه الطريقة في النَّظم: ﴿ذَٰلِكَ﴾، ذات احتفالٍ عظيم بالمضمون الذي سيُتْلى قريبًا، كأنَّهُ بيانٌ مستقل عمّا قبله، والحالُ أنَّه ليس مُستقلًّا[3]، فالغرضُ من هذا الفصلِ باسمِ الإشارة لَفْتُ أذهانِ السّامعينَ إلى ما سيَجيءُ من الكَلامِ المهمِّ لكي يهتمّوا به[4]، وأوثرَ في اسمِ الإشارة ما يدلُّ على البُعدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ للدَّلالة على بُعْدِ المنزلةِ كنايةً عن تعظيمِ مضمونِ ما قبله، وهو وعدُ اللّهِ الوثيقُ بتكريمِ وإرضاءِ عباده المظلومينَ[5].

معنى الواو في قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾:

الـجـمـعُ بين الـوعـدِ بالنَّصرِ والـوَعْـدِ بالرِّزقِ الحَسَنِ والمُدخلِ المُرْضيِّ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[6]؛ لما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ بجامعِ أنَّ كلًّا من المعطوفِ والمعطوفِ عليه يتضمَّنُ وعدًا من اللّهِ تعالى للمهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم، وجاهدوا في سبيلِ اللّهِ، إلّا أنَّ الثّاني وعْدٌ لهم بالنَّصرِ، والأوَّل وعْدٌ بالرزقِ الحسنِ والمُدخل المرضيِّ، وفي هذا العطفِ استمرارٌ للحضِّ على الجهادِ والتهيئةِ له، واستمرارٌ للوعدِ بالنَّصرِ الذي أشارتْ إليه الآياتُ السابقة[7].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 116.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 311.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 251.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 311.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 311.

معنى (مَنْ) وفائدة التَّعبير بها:

تحتمل (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾ أَنْ تكونَ موصولةً في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، ونهايةُ صلتها: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، والخبرُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾، وتفيدُ العمومَ لقوله سبحانه فيما سلفَ: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٣٩﴾ [الحج: 39]، وفي التَّعبيرِ عن هذا المعنى بأسلوبِ الجمعِ هناك وأسلوبِ المفردِ هنا الذي يدلُّ على العموم دلالة على كونِه قاعدةً كليَّةً لسُنَّةٍ من سُنَنِ اللهِ تعالى في الأمم، ولَمّا أتى في الصِّلةِ هنا بفعلِ ﴿عَاقَبَ﴾ مع قصدِ شمولِ عمومِ الصِّلةِ للذين أُذن لهم بأنَّهم ظُلموا؛ عَلِمَ السّامعُ أنَّ القتالَ المأذونَ لهم به قتالُ جزاءٍ على ظُلم سابق[1].

إمّا موصوليَّةٌ تفيدُ العمومَ، وإمّا شرطيَّةٌ تفيدُ النَّصرَ عندَ عدمِ التَّجاوز

ويُحتملُ أَنْ تكونَ شرطيَّةً قدْ سدَّ جوابُ القَسَم جوابَ الشَّرط[2]، أيْ: جعلَ شرطَ هذا النَّصرِ أَنْ يكونَ العقابُ قصاصًا على اعتداءٍ لا عدوانًا ولا تبطُّرًا، وألّا يتجاوز العقابُ مثلَ ما وقعَ من العدوانِ دون مغالاةٍ.

الموقعُ النَّحويُّ لـ(من) في قوله: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ﴾:

(مَن) في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَۖ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ في موضعِ رفعٍ بالابتداءِ، سواء كانتِ اسمَ موصولٍ بمعنى الذي - ونهايةُ صلتها: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ﴾، والخبرُ ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُ﴾[3] - أم كانتِ اسمَ شرطٍ جازم سَدَّ جوابُ القَسَم مسدَّ جوابِ الشَّرطِ، أيْ: مَنْ عاقبَ بمثلِ ما عوقِبَ به ينصرهُ اللهُ[4]؛ لأنَّ (مَن) لا يصلحُ أنْ تأتي خبرًا عن اسمِ الإشارة (ذلك)، وإنَّما يتعيَّنُ تقديرُ خبرٍ لاسمِ الإشارةِ في معنى (ذلك بيان)[5]، لتكون (مَن) ابتداءً لتقريرِ قاعدةٍ وحُكم عامٍّ للقضاءِ الدُّنيويِّ بين النّاسِ بقانونِ عقابٍ يحقِّقُ العدلَ، ويقطعُ دابرَ الفساد.

(مَــن) ابـتـداءٌ لتقريرِ حُكمٍ عامٍّ للقضاءِ الدُّنيويِّ بـمـا يُـحـقِّـقُ الـعـدلَ ويقطعُ دابرَ الفساد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 312.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 308.
(3) المنتجب الهمداني، الكتاب الفريد: 4/ 572.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 548، ودعاس، إعراب القرآن: 2/ 318.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 251.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عَاقَبَ﴾ مادَّة وصيغة:

في العقاب عدلٌ وزجرٌ وإحسانٌ

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الفعلِ الذي هو جزاءٌ على الاعتداءِ بمُسمَّى العقابِ، فقال: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، ولم يُعبِّر بمُفرداتٍ مُتقاربةٍ كالعذابِ أو الجزاءِ أو المؤاخذة؛ لكون معاني العقابِ في اللُّغةِ أنسبَ لسياقِ الآية هنا الذي يتحدَّث عن العقوبةِ بمعنى القصاصِ، وضرورةِ تحقُّقِ المِثْليَّةِ والعدلِ في القصاص؛ إذ إنَّ العقابَ من العَقِب، وهو أنْ يعقبَ الفعلَ الأوَّل[1]، أيْ: يدلُّ على تَأخيرِ شيءٍ وإتيانِهِ بعد غيرِه، ولذا سُمّيَت العُقوبة بهذا الاسم؛ لأنَّها تكون آخِرًا وثانيَ الذَّنبِ؛ ولأنَّ المُعاقِبَ هو الَّذي أدرَكَ ثَأْرَهُ[2]، كما أنَّ العقابَ يُنبئُ عن اسْتِحْقاقٍ؛ لأنَّ الفاعِل يسْتَحِقُّهُ عَقيبَ فعله[3].

لا بُدَّ للمعاقِب أنْ يرجو في أخذِ حقِّه وأنْ يتحرَّى حسنَ العاقبةِ

وفي التَّعبير بالعقوبةِ إشارةٌ إلى ضرورةِ سرعةِ إقامةِ القصاصِ تحقيقًا للعدلِ وقطعًا لدابرِ الظُّلم والفساد، قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِي ٱلۡقِصَاصِ حَيَوٰةٞ﴾ [البقرة: 179]، ويشيرُ كذلك إلى أنَّه لا بدَّ للمُعاقِب أنْ يرجو في أخذِ حقِّه، وأنْ يتحرَّى حُسنَ العاقبةِ بأن يكون ﴿بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ﴾، أيْ: عولِجَ علاجَ مَنْ يطلبُ حسنَ العاقبة[4].

في التَّعبيرِ بالماضي تأكيدٌ لتحقُّقِ وقوعِ الفعل

ومجيءُ قوله: ﴿عَاقَبَ﴾ بصيغةِ الماضي الذي يدلُّ على تحقُّقِ وقوعِ الفعلِ في سياقِ جملةٍ شرطيَّةٍ، كان فعلها ﴿عَاقَبَ﴾ يشيرُ إلى وجوبِ معاقبةِ الظّالم والمُعتدي والأخذ على يديه؛ لأنَّ القرآن علَّق الوعدَ بالنَّصرِ على تحقُّقِ وقوعِ العقوبةِ على مَن اعتدى، ثم بُغي على المُعاقب، وخاصَّةً أنَّ الآيةَ جاءتْ حُكمًا عامًّا في التَّعاملِ الدُّنيويِّ، أيْ: جعلَ شرطَ النَّصرِ أنْ يكون العقابُ قصاصًا على اعتداءٍ لا عدوانًا ولا تبطُّرًا، وألّا يتجاوز العقابُ مثلَ ما وقعَ من العدوانِ دون مغالاة.

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 517.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 239.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 79.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِمِثْلِ﴾:

لحرفِ المعنى أكثرُ مِن معنى

الباء في ﴿بِمِثْلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ سببيَّةٌ، والمعنى: عاقبَ بسببِ مماثلٍ لِما وقعَ عليه من اعتداءٍ[1]، أيْ: شرعَ اللّهُ القصاصَ من المعتدي، وفي هذا بيانٌ لعدلِ اللّهِ بين عباده، وإشارةٌ إلى استمرارِ شريعته على الأرض؛ إذ بالعدلِ تقومُ الحياةُ وتستمرُّ، وتحتملُ أنْ تكونَ للآلة[2]، والتَّقدير: (عاقبَ بآلةٍ مماثلةٍ لِما عوقب به).

لا بدَّ أن يكون المُعاقِبُ مقسطًا

وقد تكون الباءُ للتوكيد، أيْ: لتوكيدِ تحقيقِ التطابق في إيقاعِ العقوبةِ على المُعتدي؛ لأنَّها لو حُذِفَتْ؛ لصحَّ المعنى (ومن عاقبَ مثلَ ما عوقب به)، وفي الباءِ إرشادٌ إلى ضرورة أن يكون المُعاقِبُ واقفًا عند المطابقة لا يتجاوزُها قيد أُنملة، فلمّا كان مظنَّةُ التَّجاوزِ لنقصٍ أكيدٍ في البشر، لكنَّه ليس بمُتعمَّدٍ، جاءت جملة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾[3].

فائدةُ التَّعبيرِ بالمِثليَّة ﴿بِمِثْلِ﴾:

لا يُحقِّقُ المِثليَّةَ إلّا التَّقيُّ

المِثْل في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ بمعنى الشَّبيه، وفي إعطاءِ حقِّ رَدِّ العقوبة بمثلها دون تجاوزٍ إلى ظُلم تنفيسٌ عن النَّفسِ ممّا تحمله من الغيظِ، فخالقُ النَّفسِ البشريةِ هو أعلمُ بنوازعها وخَلَجاتها، وقد أباحَ لها إنِ اعتُدِيَ عليها أنْ تردَّ الاعتداءَ بمثله، حتى لا يختمرَ الغضبُ فيها، وينتج عنه ما هو أشدُّ وأبلغُ في ردِّ العقوبة، وحتى تنتهي المسألةُ عند هذا الحدِّ، ولا تتفاقم[4]، وهذا ما عناه البقاعيُّ بقوله: " أيْ: عولجَ علاجَ مَن يطلبُ حُسنَ العاقبة"[5]، ففي التَّعبيرِ بالمثليَّةِ تحقيقٌ للعدلِ.

---

(1) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 946.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 296، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 103.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.

(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9904.

(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 13/ 79.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ﴾:

الإحساسُ بالظُّلم قد يُبعد المظلومَ عن العدل في أخذ حقِّهِ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ اسمُ موصولٍ، بمعنى: (الذي)، وقد عبَّرَ به البيانُ القرآنيُّ؛ تشويقًا لمعرفةِ صلته، وهي الاعتداءُ الواقع على المُعاقِب، لِما يتضمَّنه الاسم الموصول من الإبهام، وكذلك بقصدِ التَّعميم؛ لكون ﴿مَا﴾ من ألفاظِ العموم، أي: إنَّ تَحقُّقَ المِثليَّةِ في العقاب يجبُ أنْ يشملَ كلَّ أنواعِ الاعتداءِ وصورِه، وكذلك للإيماءِ إلى وجهِ امتلاكِ المعاقِبِ حقَّ إيقاعِ العقوبةِ بغيره، وهو ما وقعَ عليه من الاعتداء، والإبهامُ في: ﴿مَا﴾ مع مدِّ ألفها يتَّسع ليستوعب كلَّ وجوهِ الاعتداء، ويشير إلى خفاء المِثليَّةِ؛ لخفاء ما عوقب به للإحساس بالظُّلم، الذي يورِثُ المظلوم غضبًا وهيجانًا[1].

فائدةُ إضافةِ المِثليَّةِ إلى الاسم الموصول:

الزيادةُ في الاقتصاص خارجةٌ عن العدل

إضافةُ المِثْليَّة ﴿بِمِثْلِ﴾ إلى الاسم الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ إضافةٌ بيانيَّة؛ للتَّنبيهِ على وجوبِ تحقيقِ المثليَّةِ في معاقبةِ المعتدي بحيث تكون من جنسِ الاعتداءِ ومساويةً لمقدارِه بالعدلِ دون زيادةٍ أو نقصان، فلا يزيدُ في الاقتصاصِ، ولإفادة عموم ما يقع عليه التماثل من جميع أنواع العقوبات، منعًا لكلّ تدخّل نفسي في زيادة عقوبة أو نقصانها بما يخالف الشريعة.

نكتةُ بناء ﴿عُوقِبَ﴾ لما لم يُسمَّ فاعله:

القصاصُ من المعتدي لا يتعلَّقُ بشخصهِ؛ وإنَّما باعتدائهِ وظُلْمه

لم يأتِ البيانُ القرآنيُّ بفاعل ﴿عُوقِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾، أيْ: عبَّر بصيغةِ المبني للمفعولِ؛ لغرضين: أحدهما لفظيٌّ: هو الإيجاز[2]؛ إذ لو عبَّر بقوله: (بمثل ما اعتَدَى عليه المعتدي)؛ لكان في الكلامِ إطالةٌ تذهبُ بجماله، والثاني معنويٌّ: وهو التركيزُ على الحدثِ، وهو الاعتداء، أيْ: إنَّ

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 39.
(2) ابن عقيل، المساعد على تسهيل الفوائد: 1/ 397.

القصاصَ من المعتدي لا يتعلَّقُ بشخصِه، وإنَّما باعتدائِه وظُلمِه من أيِّ مُعتَدٍ كان، وخاصَّةً أنَّ المقصودَ من الآيةِ إعطاءُ صورةَ حُكم عامّ عمَّن يقعُ عليهم الاعتداءُ، فيردّون بمثله بالعَدلِ دونَ زيادةٍ، ثم يقعُ عليهم البَغيُ والعدوان، فيَعِدُهم اللّهُ بنصره.

وفي حذف الفاعل: (المعتدي) إرشادٌ إلى ضرورةِ أن تكون القضيةُ قضيَّةَ عدلٍ وظلم، فلا ينتقم المُعْتَدَى عليه لشخصه وذاته، وحينئذٍ يتحقَّق السِّلْمُ والسَّلامُ والأمنُ والأمانُ للفرد والمجتمع، وإلّا كان عكس ذلك[1].

العــــدلُ هو الأســاسُ مهما كـــان داعـــي القَصاص

نكتةُ تسميةِ الاعتداء عقوبة: ﴿بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾:

سمّى البيانُ الإلهيُّ الاعتداءَ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عقوبةً، رغم أنَّ ابتداءَ الفعلِ بالاعتداءِ لا يُسمَّى عقابًا؛ لاستواءِ الفعلَيْن - الفعل الذي هو عقوبةٌ، والفعل الذي هو اعتداءٌ - في جنسِ المكروه[2]، من بابِ كونه كنايةً عن المعاملةِ بالمثْل، أو لملابسةِ الجزاءِ به له من حيث إنَّه سببٌ، وذاك مُسبَّبٌ عنه، كما يحملون النَّظيرَ على النَّظيرِ والنَّقيضَ على النَّقيضِ للملابسة[3]، أو لأنَّ الذي دفعَ المعتدينَ إلى الاعتداءِ قصدُ العقابِ على خروجهم عن دينِ الشِّركِ ونبذِ عبادةِ أصنامهم[4]، وخاصةً أنَّ القرآنَ قد صرَّحَ فيما مضى في السورةِ بأنَّ هذا العقابَ ظلمٌ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾ [الحجّ: 40].

في تسـميةِ القصاصِ عقابًا إشـارةٌ خفيَّةٌ إلى العفوِ وأنَّه أفضلُ وأكرم

كما أنَّ في تسميةِ القصاصِ من المُعتدي عقابًا إشارةً من طرفٍ خفيّ إلى العفو، وذلك أنَّ المُعتَدَى عليه إذا أخذَ بحقِّه، لا فضلَ له على المُعتدي، فقد تساويا بعد ردِّ الاعتداءِ، وقد كان العفو أفضل وأكرم[5].

المُعــتـدي والمُعتدَى عليه متساويان بعد القصاص

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 435.
(3) الزمخشري، الكشّاف: 3/ 167.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 312.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1086.

بلاغةُ الجناسِ في الآية:

بين اللَّفظَيْن: ﴿عَاقَبَ﴾ و﴿عُوقِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ جناسُ اشتقاقٍ؛ إذ يرجعُ اللَّفظان إلى جذرٍ لغويٍّ واحدٍ هو (عقب)؛ إلّا أنَّ ﴿عَاقَبَ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المَبنيِّ للفاعل، و﴿عُوقِبَ﴾ أتى فعلًا بصيغةِ المَبنيِّ للمفعول، ممّا يُعطي جماليَّةً في السَّمعِ، ويُحقِّقُ عذوبةً وترنُّمًا بما يحملُ السّامعَ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وضوحًا، ويُساعدُ على ترسُّخهِ في الذِّهن، ويُؤكِّدُ على تمام العدل؛ إذ سَمَّى القصاصَ عقوبةً، ليدلَّ على تمام المعاملةِ بالمثلِ، ففي الجناس تمكينٌ لمعنى المِثليَّة المذكورة، وهي أن يكون الجزاءُ على قدر المَظلَمَة، لا يزيد عليها، كما لا يقِلُّ عنها[1].

كلُّ أسلوبٍ إمّا مُؤسِّسٌ، أو مُمكِّنٌ أو هما معًا

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِهِۦ﴾:

باء ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ للإلصاق، أي: الاعتداءُ واقعٌ من المُعتدي ومُلتصقٌ بالمُعتدَى عليه، وهم المؤمنون الذين ما انفكَّتْ قريش تعتدي عليهم، ويحتملُ أنْ تكون للسَّببيَّة[2]، والتقديرُ: (بمثل ما اعتُدي عليه بسببِ إيمانه)، ويُحتملُ أيضًا أنْ تكونَ للآلة[3]، والحملُ على الإلصاق أقربُ إلى سياق العفو والمغفرة؛ لأنَّها تعني أنَّ الاعتداء التصق به، أيِّ: كأنَّ المقصودَ حصولُ التَّأثير القوي الشَّديد النّاتج عن الاعتداء، وكأنَّ الاعتداءَ إذا لم يكن شديدًا؛ فعلى المُعتدَى عليه أن يعفو، ويغفر[4].

اعتداءُ الكافرين على المؤمنين مُلتصقٌ بهم بسببِ إيمانهم

عودُ الضَّمير في ﴿بِهِۦ﴾:

ضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ عائدٌ إلى العقاب الذي يقومُ به المعاقِب وهو ذاته الذي وقعَ على المُعتدي، والمعنى:

في عودِ الضَّميرِ مبالغةٌ في تحقيقِ المِثليَّةِ في العقاب

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 103، والصاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 1246.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 180.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

ومَن عاقبَ بمثلِ فعلِ الاعتداءِ الواقع عليه، و"لم يزدْ في القصاصِ على ما فُعل به"[1]، والمقصودُ أنْ تتحقَّقَ المماثلة في العقابِ سواءٌ في جنسِهِ أو مقداره، فيكون في عودِ الضَّميرِ مبالغةٌ في تحقيقِ المثليةِ في العقاب، "فإنَّ المشركين آذوا المسلمينَ، وأرغموهم على مغادرةِ موطنهم، فيكون عقابُهم على ذلك بإخراجِ مَن يمكنهم أنْ يُخرجوه من ذلك الوطن، ولا يستطيعون ذلك إلّا بالجهادِ؛ لأنَّ المشركين كانوا أهلَ كثرةٍ، وكانوا مُستعصمينَ ببلدهم"[2].

معنى ﴿ثُمَّ﴾:

البـغـيُ بعد العدلِ فجورٌ

﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ﴾ عَطۡفٌ على جُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾؛ فـ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخي الرُّتبيِّ لا الزَّمنيِّ؛ لأنَّ البَغۡيَ عليه أهَمُّ من كَونِه عاقَبَ بمِثۡلِ ما عوقِبَ به؛ إذ كان مَبۡدوءًا بالظُّلۡم، فكان المشركون محقوقينَ بأنۡ يُعاقبوا؛ لأنَّهم بَغَوا على المسلمين[3]، ولأنَّ تفسيرها بالتَّراخي الزَّمنيِّ يُفسدُ الكلام؛ إذ يجعلُ العقابَ على الاعتداءِ غيرَ البَغي، أيِ: التَّراخي الرُّتبي يفيدُ تقييدَ العقابِ الأوَّل بكونه بغيًا.

استبعادُ وقوعِ الـبَـغـيِ بعد حصول المِثۡليَّة أو ما يُقاربها

وفي معنى التَّراخي كذلك إشارةٌ إلى بُعدِ ما بينَ مرتبةِ القصاصِ العادلِ والبغيِ الظّالم، وإنَّ الله تعالى ينصرُ العادلَ على الباغي[4]، وفي: ﴿ثُمَّ﴾ معنى استبعادِ وقوع البَغي مِن بعد حصول المِثۡليَّة أو ما يقاربها، فهو مِن شأنه ألّا يكونَ، ومع الاستبعاد التَّعجُّب[5].

دلالةُ التَّعبير بـ﴿بُغِيَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

أهلُ البَغيِ أهلُ فتنةٍ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بمفردةِ ﴿بُغِيَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ بُغِيَ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: 3/ 548.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5014.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

﴿عَلَيۡهِ﴾؛ لاتِّساع دلالتها، فمادَّةُ البغي تعني: الخروجَ عن الجادَّةِ وسلوكَ طريقِ الفساد، والبغيُ: هو الفسادُ والشِّدَّةُ، ثم أُطلقَ على التعدّي ومجاوزةِ الحدِّ بغيرِ حقٍّ، وعلى الظُّلم(1)، بل إنَّ البغيَ يعني التَّرقّي في الفسادِ والانتشارِ من قولهم: بغى الجرحُ؛ إذا ترقَّى، وترامى في الفساد(2)، فالتَّعبيرُ بالبغي يشملُ كلَّ اعتداءٍ وتجاوزٍ وظلم تعرَّض له المُعتدَى عليه، وهذا يدلُّ على شمولِ نصرِ اللّهِ لكلِّ مَنْ بُغي عليه بأيِّ نوعٍ من أنواع البغي، بما يُدخلُ الطُّمأنينةَ إلى قلوب المؤمنين بوعد النَّصر.

وأمّا بناءُ ﴿بُغِيَ﴾ للمفعول؛ فللدَّلالة على تحقُّقِ وقوعِ هذا البغي، بغضِّ النَّظرِ عن الباغي؛ إذ التركيزُ على الحدث، وهو وقوعُ الظُّلمِ(3)، وفيه بيانُ عِظَمِ جُرْمِ ذلك البغيِ في نفسه(4).

معنى اللّام في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾:

القسَم طمأنَةٌ وشفاءٌ وإحسانٌ

لام ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ موطِّئةٌ للقَسَم، والجملةُ الفعليَّةُ جوابٌ لقَسَمٍ محذوفٍ، تقديره: (وعزَّتي وجلالي لينصرنَّ اللّهُ المظلومَ على الظّالمِ في الحالِ أو المآل)(5)، وغرضُ القَسَمِ هو تأكيدُ نُصرةِ اللّهِ لعبادهِ المظلومين الذين بُغيَ عليهم، وإظهارهم على الظّالمين الباغين وتأييدهم عليهم في القتالِ، ودفعِ أيِّ شكٍّ في عدمِ نُصرتهم، وتأكيدِ تشريعِ حُكمٍ للمظلومِ، وما وقعَ عليه من وصمةِ الظُّلم والبَغْي.

فائدةُ تتابُع المؤكّدات في ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾:

مِن مقامات التَّوكيدِ الوعدُ والوعيدُ

في تتابعِ المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾ مِن القَسَم،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغى).

(2) السمين الحلبي، الدرّ المصون: 6/ 174.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/ 135.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.

(5) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 334.

و(لام) القَسَم، و(نون) التَّوكيد الثَّقيلةِ مبالغةٌ في التَّأكيدِ على نُصرةِ اللَّه تعالى للمُعاقِبِ المُقتصِّ الذي بُغِيَ عليه[1]، وفيه أيضًا لفتٌ إلى ما سيراه المُعتدَى عليه من عجائب في نصر اللَّه له[2].

نكتةُ اصطفاءِ اسم الجلالة في: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾:

مَـن كـان الله معَه فمَن ذا يكون عليه؟

في اصطفاء اسم الجلالة: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ إشارةٌ إلى كمالِ هذا النَّصر المذكورِ في قوله: ﴿لَيَنصُرَنَّهُ﴾ وعظمته وفخامته، فهو نصرٌ يظهرُ في المعتدي الباغي، وفي المُعتدَى عليه، فلا تكون في نفْسِ المُعتدَى عليه أيَّة شائبةِ إحساسٍ بالظُّلم والبغي من بعد حصولِ ذلك النَّصر، ومِن أنواع هذا النَّصر زيادةٌ في الإيمان والتَّوحيد تَحْصُلُ للمُعتدَى عليه؛ إذا رأى نصْرَ اللَّه ببصره وبصيرته، ولو عُبِّر بغير هذا الاسم؛ لما كان ذلك[3].

نكتةُ فصل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

عفوُ الله ومغفرتُه لخلقهِ قضيا بحكمته ألّا يأذنَ إلّا بمماثلة العقابِ

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ عن الجملةِ التي قبلها، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَيْن من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ جاء تَعليلًا للاقتصارِ على الإذنِ في العِقابِ بالمُماثلةِ في ﴿وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾ دونَ الزّيادةِ في الانتقام، مع أنَّ البادئَ أظلمُ، فعفوُ اللّهِ ومغفرته لخلقه قَضَيا بحكمته ألّا يأذنَ إلّا بمماثلةِ العقابِ للذَّنب؛ لأنَّ ذلك أوفقُ بالحقِّ.

صورٌ أخرى محتمَلةٌ للتعليل

ويَجوزُ أنْ يكونَ تَعليلًا للوعْدِ بجَزاءِ المُهاجرينَ ﴿لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ﴾ و﴿لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا﴾؛ اتِّباعًا للتَّعليلِ في ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾؛ لأنَّ الكلامَ مُستمِرٌّ في شأنِهم[4]، أو أنْ يكون تعليلًا لعدم مؤاخذة المعاقِبِ على تركه العفوَ الذي ندَبَهُ اللّهُ إليه[5]، على اعتبارِ أنَّ في

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5014.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 313.
(5) الزَّمخشري، الكشاف: 3/ 167.

الكلام تقديمًا وتأخيرًا، تقديرُهُ: (مَن عاقبَ بمثلِ ما عوقبَ بهِ إنَّ اللّهَ لعفوٌّ غفورٌ)، أيْ: لا يلومه على تركِ الأفضل، ثم إذا بُغي عليه، أيْ: على المظلوم المُعاقِبِ في الكَرَّةِ الثّانية لينصرنَّه اللّهُ على الظّالم[1]، أو تعليلًا لعدمِ مؤاخذتهم على قتالهم في الشهرِ الحرام؛ لَمّا بغى عليهم المشركون فيه[2].

يحتملُ أن يكون تكميلًا لمضمونِ الكلام قبله

ويُحتمل أن يكونَ قد جاء تكميلًا لمضمونِ الكلام قبله؛ إذ إنَّه - بعدَ أنْ شرعَ لهم القتالَ والانتقامَ - أشارَ إليهم بالعفوِ والمغفرةِ في موقفِ القصاص، وهذه الجملةُ عند البقاعيِّ استئنافٌ بيانيٌّ، هذا ما يُفهمه قوله: "ولمّا قيَّد ذلك بالمِثليَّةِ، وكان ذلك أمرًا خفيًّا، لا يكاد يوقَف عليه، فكان ربَّما وقعت المجاوزة خطأً، فظنَّ عدم النُّصرة؛ لذلك: أفْهَمَ تعالى أنَّ المؤاخذة إنَّما هي بالعَمْد"[3].

فائدةُ تتابُعِ المُؤكِّدات في فاصلة الآية:

من النُّدرة عند النّاس عفوُ القادرِ على العقابِ

تتابعتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾: من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّةِ التي تفيدُ الثبوتَ والدَّوام، واللّامِ التي جاءت في ﴿لَعَفُوٌّ﴾ للتَّوكيد، وصيغةُ المبالغة في ﴿لَعَفُوٌّ﴾ (فعولٌ) من العفو، أيْ: إنَّه تعالى كثيرُ العفو، وهذه صفةٌ من صفاته، أو اسمٌ من أسمائه، وصيغةُ المبالغة في ﴿غَفُورٌ﴾ من (غفر)، أيْ: كثيرُ الغفران.

وهذا الحشدُ لكلِّ هذه المؤكِّدات يُفيدُ المبالغةَ في توكيدِ اتِّصافِ اللّهِ بالعفو والغفران، بما يُعدُّ تعريضًا بحَثِّ المؤمنين على التَّأسّي بصفاتِه سبحانه من العفو والصفحِ والمغفرةِ، فإنَّه تعالى مع كمالِ قدرته وعظيم شأنه لَمّا كان يعفو، ويغفرُ، فغيرهُ بذلك أوْلى، كما يفيدُ التَّنبيهَ على أنَّه تعالى قادرٌ على العقوبة؛ إذ لا يوصفُ بالعفوِ إلّا

(1) الطِّيبي، فتوح الغيب: 10/ 518.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 90.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 168.

القادرُ على ضدِّه[1]، وكونُه تعالى عَفوًّا غفورًا - مع كمال اقتداره على أخْذ مَن يريد أخْذَه - خُلُقٌ غيرُ معهودٍ للنّاسِ، فأُكِّد بأكثر من مؤكِّدٍ؛ للدَّلالة على عجَبِهِ وبراعته وكماله.

نكتةُ التَّذييلِ بـ ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

حربُ الإسلامِ حربُ عدلٍ وصفحٍ لا حرب انتقامٍ

في تذييل الآيةِ الكريمة بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾ تكميلٌ لمضمونِ الكلامِ قبله؛ إذ إنَّه لمّا شرعَ اللّهُ لهم القتالَ والانتقامَ، ووعدهم بالنَّصرِ والتَّأييد؛ أشارَ إليهم بالعفو والمغفرةِ في موقفِ القصاصِ، واستحضارِ عفو اللّهِ ومغفرته في تلكَ الحال، الأمرُ الذي تنحلُّ به عزيمةُ الانتقام، وتذهب معه حميَّة النِّقمةِ، وخاصَّةً أنَّ العفو هنا، إنَّما هو من قادرٍ يملكُ الانتقام، ومن هنا لا يكون للمعتدي سبيلٌ إلى التَّمادي في اعتدائه، وفي إذلالِ مَن اعتدى عليه[2].

فائدةُ الترتيب في ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

مـن شـأنـه ﷻ العُلوُّ في الإحسان

قَدَّمَ البيانُ القرآنيُّ صفةَ (العَفوّ) على صفةِ (الغفور) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾؛ لأنَّ العفوَ ينبئُ عن المحوِ والإزالة، والمغفرةَ تنبئُ عن السَّترِ والتَّغطيةِ، وإزالةُ الذَّنبِ ومحوه أبلغُ من ستره وتغطيته، وهذا أنسبُ للمقام الذي يرسِّخُ حُكمًا عامًّا للقضاءِ الدُّنيويِّ بين الناس يرسمُ سبحانه من خلاله معالمَ العفوِ والصَّفح عند المؤمنين عند المقدرةِ، وفي التَّقديم أيضًا إسراعٌ بذِكْر ما يُحبِّبُ النّاسَ في ربِّهم؛ فالتَّبشيرُ بأنَّه عَفوٌّ أعلى من التَّبشير بأنَّه غفورٌ، على ما سبق من بيان الفرق بينهما، فذِكْرُ هذيْن الوصفين هنا إحسانٌ، والمبادرةُ بذِكْر أعلاهما إحسانٌ آخَرُ فوقه.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَعَفُوٌّ غَفُورٌ﴾:

كلُّ أحدٍ يشهد بكمال صفاته إنْ طوعًا وإنْ كرهًا

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 77.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1087.

غَفُورٌ﴾؛ للدَّلالةِ على تفخيم عفوِ اللّهِ وغفرانه بما لا يمكنُ أنْ تدركه بعقلك، بمعنى: أنَّه خارجُ حدودِ المعرفةِ لا تستطيعُ أن تتبيَّنه، فهو شيءٌ فخيمٌ عظيمٌ، لا يُحَدُّ حَدُّه، ولا يُقادرُ قَدرُهُ، ولا يبلغُ العقلُ شأوه، وخاصَّةً أن صيغتهما من صيغ المبالغة، وأنَّهما جاءا في سياقِ تكرارِ ذِكْرِ الاسم الجليلِ (اللّه) الذي يجمعُ جميعَ صفاتِ الكمالِ المُطلَق، وفي تعظيم هذَيْن الاسمَيْن إشارةٌ إلى تعظيمِ معناهما، وحثٌّ للمؤمنين على التَّأسّي بهما.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المعاقبة والمؤاخذة:

المــؤاخــذةُ قد تـقـتـصـرُ على المُعـاتَبةِ، وهي أخـــفُّ مـن المعاقبةِ

يتقاربُ لفظا (المعاقبة) و(المؤاخذة) في معناهما؛ إذ يشتركان في أنَّ الفاعلَ استحقَّهما على ما صدرَ منه من ذنبٍ أو خطأ، ولكنَّ لكلٍّ منهما ملامحَ دلاليَّةً تُميِّزه عن الآخر، وإيضاحُ ذلك:

المعاقبةُ من (عقب)؛ وأصلهُ يدلُّ على ارْتِفاع وشِدَّة وصُعوبَة، وسُمّيَتْ عُقوبَةً؛ لأنَّها تكونُ آخِرًا وثانيَ الذَّنْب، والمُعاقِبُ الَّذي أدْرَكَ ثَأْرَهُ[1]، والعقابُ والعقوبةُ والمعاقبةُ تختصُّ بالعذابِ[2]، وعاقبَه على ذنبه: جزاه سوءًا بما صنع[3].

والمؤاخذةُ: العقابُ، يُقال: آخَذَه بِذَنْبِه مُؤاخذةً: عاقَبَهُ، وأُخِذَ فلانٌ بِذَنْبِهِ؛ أيْ: حُبِسَ، وجوزيَ عليه، وعوقِب بِه[4]، وآخذَ الرَّجلَ مُؤاخذةً: عاتَبَه، ولامَه، وعابَه، ولا تؤاخذني: كلمةُ اعتذار[5].

والحاصل: أنَّ المؤاخذة أخفُّ من المعاقبة، فالمؤاخذةُ قد تقتصرُ على المعاتبةِ أو اللومِ، وقد تكونُ اعتذارًا، أمّا العقابُ؛ فهو أشدُّ ومختصٌّ بالعذابِ، وهو مجازاةُ فاعله سوءًا بما صنع.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عقب).
(2) الراغب، المُفردات: (عقب).
(3) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (عقب).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (أخذ).
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أخذ).

البَغْيُ والجَوْر والظُّلْم والعُتو والاعتداء والعُدوان والطُّغيان:

ألفاظ تتقاربُ في دلالاتها اللُّغوية، ولكلٍّ منها ما يُميِّزها

تتداخلُ معاني هذه الألفاظ في اللُّغةِ، وتتقاربُ في دلالتها، وجميعها فيها معنى مجاوزة الحدِّ، وبيانُ ذلك:

البغيُ: الفسادُ والشِّدَّةُ، ثم أُطلِقَ على التَّعدّي ومجاوزة الحدِّ بغيرِ حقٍّ والظُّلم(1).

والجَوْرُ: العدولُ عن كلِّ حقٍّ، فهو عبارةٌ عن كلِّ مَيْلٍ عن الحقِّ والعدل(2).

والظُّلمُ: وضعُ الشَّيءِ في غيرِ موضعه تعدّيًا، وهو أيضًا: تجاوزٌ عن المُستَحقِّ بمنعه وانتقاصه(3).

والعُتوُّ: الاستكبارُ والتَّجبُّر والعصيانُ، ومبالغةٌ في كبرٍ أو فسادٍ أو كفر(4).

والاعتداءُ والعدوان: تجاوزُ ما ينبغي أنْ يُقتصر عليه، وهو الظُّلمُ الصُّراح(5).

والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحَدِّ في كلِّ شيءٍ، ويُطلقُ على مجاوزةِ الحَدِّ في المكروه مع غلبةٍ وقهرٍ، ومجاوزةِ الحدِّ في الظُّلم(6).

ولا تسعفنا المعاجم اللُّغوية بفروقٍ واضحة بين هذه الألفاظ، ولكن عند إمعانِ النَّظر في معانيها يمكنُ ملاحظة بعض الفروق الدلالية بينها، وهي:

البغيُ: شدَّةُ الطَّلبِ لِما ليس بحقٍّ بالتَّغليب، وهو بذلك يتضمَّن كلَّ أنواع الظُّلم والتَّعدّي والكبر معًا(7).

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (بغى).
(2) الراغب، المفردات، ص: 211، والسمين الحلبي، عمدة الحُفّاظ: 1/ 358.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ظلم).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (عتو).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومجمل اللغة: (دعو).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (طغى).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 232.

والجَوْرُ: الميلُ عن الطَّريق[1]، وهو نَقيضُ العَدْلِ، وضِدُّ القَصْدِ، أو المَيلُ عَنهُ، والجَوْرُ: الظُّلم[2]، وهو عبارةٌ عن كلِّ ميلٍ عن الحقِّ والعدل[3].

والظُّلمُ: هو الميلُ عن القصدِ، والتَّعدّي سواءٌ كان صغيرًا أم كبيرًا، حيث يتراوحُ الظلُّمُ ما بين أكبرِ الكبائرِ، وهو الشِّركُ باللّه تعالى، وبين ارتكابِ أصغرِ الذُّنوب[4].

والعُتوُّ: المبالغةُ في المكروهِ، كالكبرِ أو الفسادِ أو الكفرِ، لكنَّهُ لا يبلغُ مبلغَ البَغْيِ والطُّغيان[5].

والاعتداءُ: تجاوزٌ في الشَّيء، وتقدُّمٌ لما ينبغي أن يُقتصر عليه، والعدوانُ: التَّعدّي في حدودِ اللّه، والظُّلم الصُّراحِ، وهو أسوأ الاعتداء[6].

والطُّغيانُ: تجاوزُ الحَدِّ في المكروهِ مع غَلَبَةٍ وقهرٍ، والغُلُوُّ في ذلك، ويشملُ الإفراطَ في المعصيةِ والكِبْرِ والكفرِ، فالطَّواغيتُ هم رؤوسُ الضَّلالةِ؛ إذ أمروا النّاسَ أنْ يعبدوهم من دونِ اللّه، وفي ذلك غايةُ مجاوزةِ الحدِّ، وهو بذلك أشدُّ من البغي، وأشدُّ من العُتوِّ[7].

والحاصلُ أنَّ أشدَّ هذه الألفاظ هو الطُّغيان؛ لاشتماله على غايةِ الإفراطِ في المعصيةِ والكفرِ، ومجاوزةِ الحدِّ في المكروه، وفي الظلم والعُتوِّ، ويليه في الشِّدَّةِ: البغيُ؛ لاشتماله على التَّعدّي والفسادِ والظُّلم، ثم العُتوُّ؛ لأنَّه مبالغةٌ في المكروهِ من كِبْرٍ أو فسادٍ أو كفرٍ، ثم يليه الاعتداءُ والعدوان؛ لأنَّه تَعدٍّ على حدودِ اللّه، وظُلم صُراح، ثمَّ يليه الجورُ؛ إذ هو الميلُ عن الحقِّ والعدلِ، ثم يأتي الظُّلم، وهو أدناها، وتتفاوتُ درجاتُهُ من صغائرِ الذُّنوبِ إلى كبائرها وصولاً إلى الشِّركِ باللّهِ تعالى[8].

العفو والصفح والمغفرة:

تتقاربُ معاني هذه الألفاظ: (العَفْو) و(الصَّفح) و(الغُفْران)، فجميعها تشتركُ في تركِ العقابِ على الذَّنبِ وعدمِ المؤاخذة عليه، وقدِ اجتمعتْ هذه الألفاظ في آيةٍ واحدة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جور).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (جور).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 1/ 358.
(4) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 147.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.
(6) ابن فارس، مقاييس، ومجمل اللغة: (دعو).
(7) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 230.
(8) محمد داود، معجم الفروق الدلالية، ص: 143 - 148.

العفوُ محوٌ للذَّنْبِ، والصفحُ إعراضٌ عنه، والمغفرةُ سترٌ له

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَـٰدِكُمْ عَدُوًّا لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ ۚ وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾ [التّغابن: 14]، ممّا يدلُّ على أنَّ هناك فرقًا بين هذه الألفاظ، وقد فرَّق بينها العلماءُ في أصلِ اللغة وفي الاستعمال.

وقد فرَّق العسكريُّ بين الغفران والعفو والصَّفح، فذكر أنَّ الغُفرانَ يقْتَضي إسقاطَ العقابِ، وإسْقاطُ العقاب هو إيجابُ الثَّواب، فلا يسْتَحقُّ الغفرانَ إلّا المُؤمن المُسْتَحق للثَّواب، ولهذا لا يُسْتَعْملُ إلّا في اللّه، فيُقال: غفرَ اللّه لَكَ، ولا يُقال: غفرَ زيدٌ لَكَ إلّا شاذًّا، والعَفو يَقْتَضي إسْقاط اللَّوم والذَّمِّ، ولا يَقْتَضي إيجابَ الثَّواب، ولهذا يُسْتَعْمل في العَبْد، فيُقال: عَفا زيدٌ عن عَمْرو، وإذا عَفا عَنهُ؛ لم يجبْ عليه إثابته.

والصفحُ هو التَّجاوزُ عن الذَّنب، من قَوْلك: صفحتُ الورَقةَ؛ إذا تجاوزتَها، وقيل: هو تركُ مُؤاخذَةِ المذنبِ، وأنْ تُبديَ لَهُ صفحةً جميلَةً[1]، والحقُّ أنَّ المغفرةَ تُقال في حقِّ العبد؛ لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَغْفِرُواْ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [الجاثية: 14].

والحاصل أنَّ لفظَ العفوِ يتميَّز بمعنى التَّرْكِ ومحوِ الذنب فضلًا ممَّن يعفو، ويتميَّز لفظُ الصَّفحِ بمعنى الإعراضِ عن الذَّنْبِ وتركِ التَّثريب، وإبداء صفحةٍ جميلةٍ، ويتميَّز لفظُ المغفرةِ بمعنى سترِ الذنب وتغطيته، فأبلغُ هذه الألفاظ الصفحُ، ثم يأتي بعده العفو، ثم المغفرة.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 235 - 236.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٦١﴾ [الحجُّ: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

دلائلُ قدرةِ اللهِ في الكون تشهدُ بصدقِ تحقيقِ وعْدِه بنُصْرة المظلوم

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلها وجوهٌ، منها: بعد أنْ ذكر سبحانه وعدَهُ بنُصْرته للمظلوم؛ أتبعَ ذلك باستعراضِ دلائلِ قُدرته البالغة على كلِّ شيء، والتي تضمنُ تحقيقَ ذلك الوعدِ الوثيق، ومنها ما يتجلَّى في صفحاتِ الكون ونواميسِ الوجودِ من كَونِه سبحانه خالِقًا للَّيلِ والنَّهارِ، ومُتصَرِّفًا فيهما، قادِرًا عالِمًا بما يَجري فيهما، فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾[1].

ومنها: بعد أنْ وعدَ اللّهُ المؤمنينَ بالنَّصرِ على مَنْ بغى عليهم؛ بيَّن لهم أنَّه سُبحانَه مع ذلك النَّصرِ يُنعِمُ في الدُّنيا بما يَفعَلُهُ من تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهارِ، وولوجِ أحَدِهما في الآخَرِ[2].

ومنها: بعد أنْ ذَكَرَ دفْعَ الباطلِ بالحقِّ، ونصرةَ اللّهِ للمؤمنين الذين بُغِي عليهم؛ صوَّر ذلك الدفعَ للباطلِ بإيلاجِ الليلِ في النهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ، فيُزاد هذا تارةً، وينقصُ أخرى، لكونِ النَّصرِ والهزيمةِ والقتالِ والقوَّةِ والضَّعفِ له دولةٌ بين الناسِ، فقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُولِجُ﴾: (ولج) أصلٌ يدلُّ على دُخولِ شَيْءٍ، يُقالُ: ولَجَ في مَنْزِلِه، ووَلَجَ البَيْتَ يَلِجُ وُلوجًا، والوَليجةُ: البِطانَةُ والدُّخَلاءُ[4]،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 53.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23245.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5015.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولج).

والوُلوجُ: الدُّخولُ، والمَوْلَجُ: المَدْخَلُ، والولاجُ: البابُ، والوِلاجُ: الغامِضُ من الأرض والوادي، كلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيه - ولَيْسَ مِنْهُ - فهوَ وليجَة[1]، والوُلوجُ: الدُّخول في مضيقٍ[2]، ومعنى ﴿يُولِجُ﴾ في الآية موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أيْ: يُدخِلُ.

2) ﴿سَمِيعٌ﴾: (سمع) أصلٌ واحدٌ، وهو إيناسُ الشَّيءِ بالأُذُنِ مِنَ النّاسِ وكُلِّ ذي أُذُنٍ، والسَّمْعُ: الذِّكرُ الجميل، يُقالُ: قَدْ ذَهَبَ سمْعُهُ في النّاسِ، أيْ: صيتُهُ[3]، والسَّمْعُ: قوَّةٌ في الأُذن بها تُدرَكُ الأصواتُ، وفِعلُهُ يُقالُ له: السَّمْعُ أيضًا، ويُعبَّر تارة بالسمع عن الأُذن، وتارةً عن فعله كالسَّماع، وتارةً عن الفهم، وتارةً عن الطاعة[4]، والمَسْمَع: المَوضع الَّذي يُسمع مِنْهُ، من قولهم: هو منّي بمرأى ومَسْمَع، أيْ: حَيْثُ أراهُ، وأسمع كَلامه[5]، و﴿سَمِيعٌ﴾ اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى على وزنِ (فعيل)، وهو من أبنيةِ المبالغة، وهو لا يَعْزُبُ عن إدْراكه مَسْموعٌ وإنْ خَفيَ، فهو يَسْمعُ بغير جارِحَةٍ[6].

3) ﴿بَصِيرٌ﴾: (بصر) أصْلانِ؛ أحَدُهُما بُصْرُ الشَّيْءِ غِلَظُهُ، الآخَرُ العلمُ بالشَّيْءِ، ومنه البصيرةُ: البرهانُ، وأصلُ ذلك كلِّه وُضوحُ الشَّيْءِ، ويُقالُ: بَصُرْتُ بالشَّيْءِ؛ إذا صِرْتَ بِهِ بَصيرًا عالمًا، وأبْصَرْتُهُ؛ إذا رَأيْتَهُ[7]، فالبَصَرُ: العينُ، وقيلَ: البَصَرُ حاسَّةُ الرُّؤْيةِ، والبَصيرَةُ: العِبْرَةُ والحُجَّةُ والاسْتِبْصارُ في الشَّيْءِ[8]، والبَصَرُ يُقالُ للجارحةِ الناظرةِ، وللقوَّة التي فيها، ويُقالُ لقوَّةِ القلب المدركة: بصيرة وبصَر[9]، و﴿بَصِيرٌ﴾ اسمٌ من أسماءِ اللّه تعالى، ومعناه: الذي يُشاهِدُ الأشياء كُلَّها ظاهِرَها وخافيَها بغير جارِحةٍ، والبَصَرُ في حَقّهِ عبارةٌ عن الصِّفةِ التي يَنْكَشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَراتِ[10].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(2) الراغب، المفردات: (ولج).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمع).
(4) الراغب، المفردات: (سمع)، والسمين، عمدة الحفاظ: 2/ 221.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (سمع).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (سمع).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).
(8) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (بصر).
(9) الراغب، المفردات: (بصر).
(10) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

نصرُ السَّميعِ البصيرِ للمظلومين سُنَّةٌ كونيَّةٌ ترتبطُ بنواميسِ الوجودِ الكبرى

يقولُ تعالى: ذلك النَّصرُ المَذكورُ - لِمَن بُغيَ عليه من النَّبي ﷺ وأصحابه والمؤمنين، فأُخرجوا من ديارهم وأموالهم - نصرٌ كائنٌ بسَبَبِ أنَّ لله كمالَ القدرةِ، فإنَّه قادرٌ على ما يشاء، ولا يَعجزُ عن نُصرةِ مَن شاء، ومِنْ قُدرتِهِ أنَّه يُدخِلُ اللّيلَ في النَّهارِ، ويُدخِلُ النَّهارَ في اللَّيلِ، فيَزيدُ في أحَدِهما ما يَنقُصُه مِنَ الآخَرِ، وبالعَكسِ، وأنَّ له كذلك كمالَ العلم، فإنَّه سبحانه سَميعٌ لكُلِّ صَوتٍ، بصيرٌ بكُلِّ فعلٍ، لا يخفى عليه شَيءٌ، وهو الحافظُ لكلِّ ذلك، حتى يُجازيهم على ما عملوا من قولٍ وفعلٍ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

بيانٌ لضمانِ اللهِ بتحقيقِ وعدِهِ الوثيقِ بنصرةِ المظلومِ

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ﴾، عن قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيۡهِ لَيَنصُرَنَّهُ ٱللَّهُۚ﴾، ولم يأتِ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بينهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ لكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إلى الكَلامِ السّابقِ الدّالِّ على تكفُّلِ النَّصرِ، فإنَّ النَّصرَ يَقْتضي تَغليبَ أحَدِ الضِّدَّيْنِ على ضِدِّهِ، فضَرَبَ له مثَلًا بتَغليبِ مُدَّةِ النَّهارِ على مُدَّةِ اللَّيلِ في بَعْضِ السَّنةِ، وتَغليبِ مُدَّةِ اللَّيلِ على مُدَّةِ النَّهارِ في بَعضِها؛ لِما تقرَّرَ من اشتهارِ التَّضادِّ بينَ اللَّيلِ والنَّهارِ، والتقديرُ: (ذلك النَّصرُ بأنَّ اللّٰه يولج الليل في النَّهار إلى آخره).

وقد يكونُ اسمُ الإشارةِ تَكريرًا لشَبيهِه السّابقِ لقَصرِ تَوكيدِه؛ لأنَّه مُتَّصِلٌ به، ولأنَّ جُملةَ ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، مُرتبطةٌ بجُملةِ ﴿وَمَنۡ عَاقَبَ بِمِثۡلِ مَا عُوقِبَ بِهِۦ﴾[2].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 675.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.

فائدةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للبعيد:

ما يكونُ مِن العظيمِ عظيمٌ

﴿ذَٰلِكَ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ - اسمُ إشارةٍ للبعيد، تُستعملُ بعد إتمامِ المعنى والبَدْء والخوضِ في معنى جديد، أيْ: ذلك نصرُ اللّه لعبادِه المظلومين، وهو آيةٌ من آياتِ قدرته وعظمته، والإشارةُ إليه بما يدلُّ على البُعدِ؛ لعدمِ ذِكْرِ المُشارِ إليه صريحًا، وللإيذانِ بعلوِّ رتبةِ هذا النَّصر الكائنِ من اللّهِ الذي له كمالُ علمٍ وكمالُ قدرةٍ(1).

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

كمالُ قدرتِهِ سبحانه في توازنِ نواميسِ الكونِ عِلَّةُ إقامةِ العدلِ بين عبادِه

الباءُ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ سببيَّةٌ، والسَّببُ ما دلَّ عليه ما بعدُ بطريقِ اللُّزوم، أيْ: ذلك النَّصرُ الموعودُ به المسلمون على الكافرين مع قلَّةِ المسلمينَ كائنٌ بسببِ أنَّ اللّه تعالى قادرٌ على تغليبِ بعضِ مخلوقاتِه على بعضٍ، والمداولةِ بين الأشياءِ المتضادَّةِ، وبذلك هو قادرٌ على تغليبِ الضَّعيفِ على القويِّ(2)، أو كائنٌ بسببِ أنَّه تعالى خالقُ الليلِ والنَّهارِ ومُصرِّفُهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عبادِه من الخيرِ والشَّرِّ والبغيِ والانتصارِ، ولا يَبعدُ أنْ يكونَ المعنى: ذلك النَّصرُ كائنٌ بسببِ تعاقبِ الليلِ والنَّهار، وتناوبِ الأزمان والأدوار إلى أنْ يجيءَ الوقتُ الذي قدَّرَهُ الملكُ الجبّارُ لانتصارِ المظلوم وغلبته(3).

والإلصاقُ في الباءِ يُفْهِمُ قوَّةَ دلالة ما بعدها على ما قبل هذه الآية، فالاستدلالُ بمضمون هذه الآية - وما جرى في فلكها في اللِّحاق على ما هو مُستدلٌّ عليه في السِّباق القريب - عظيمٌ دقيقٌ بَيِّنٌ، ووراء هذا مِن المعنى إيناسُ المُتلقّين بمعاني المُستدَلِّ عليه في السباق.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.

مظاهره ﷻ الكونيّة نِعَمٌ عليَّة

غرضُ تتابع المؤكّدات في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

تتابعتِ المُؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ مِن (أنَّ) التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّة التي تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام، وتكرارِ فعْل الإيلاج ﴿يُولِجُ﴾ الذي يفيدُ التَّنبيهَ على دلالة كلٍّ منهما عَلَى كمالِ قدرةِ اللّهِ[1]، وهذه المؤكِّداتُ تفيدُ المبالغةَ في تمامِ قدرةِ اللّهِ تعالى في إيلاج اللَّيلِ في النَّهارِ والعكس[2]، وفي هذه المبالغةِ تبشيرٌ قويٌّ للمؤمنين بنصرِ اللّهِ لهم على ما يتعرَّضون له من بغي وظلم، وهذه المؤكّدات تُنبِّهُ المُتلقّين على ما في تلك الظّاهرة الكونيَّة مِن الإبداع والعجبِ والبراعةِ والغرابةِ؛ مِمّا يحتاجون معه إلى تثبيتٍ وتحقيقٍ وتوكيدٍ.

معنى (أنَّ) في قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ﴾:

كلُّ عظيمٍ في الكون يلفت بنفسه إليه

(أنَّ) - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ - حرفُ توكيدٍ، أكّدَ قدرَةَ اللّهِ على إيلاجِ اللّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ بكونها دليلًا على قدرةِ اللّه في نصرةِ أهلِ الإيمانِ الذين بُغي عليهم، أو بكونِها دليلًا على اتِّصافِ اللّهِ بصفتَي العفوِّ الغفورِ، فهو يتفضَّلُ على جميعِ الخلائقِ المُحسِنِ منهم والمُسيءِ بتعاقبِ الليلِ والنَّهار[3]، وغرضُ هذا التَّوكيدِ توجيهُ النَّظرِ إلى تلكَ الظّاهرةِ الكونيَّةِ المكرورةِ التي يمرُّ عليها النّاسُ غافلين؛ ليفتحَ بصائرَهم ومشاعرهم على يدِ القدرةِ الإلهيَّةِ وعلى حلمِ اللّهِ وعفوهِ ومغفرتهِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿يُولِجُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

سبحان مَن جَلَّت صَنعتُه ودقَّتْ

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظِ ﴿يُولِجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾ دون (يُدخِلُ)؛ لأنَّ في الإيلاج زيادةَ معنًى عن مجرَّدِ

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 105.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 81.

الدخول؛ إذ الولوجُ هو الدُّخولُ في مَضيق[1]، والدُّخولُ شيئًا فشيئًا، وما يؤدّي هذا الولوجُ بين شيئَيْن متضادَّيْن إلى غموضٍ في الزيادة في أحدهما، لا تُدركُ في أوَّلها، فلا يعرفها إلّا العلماءُ[2]، فالوِلاجُ: الغامِضُ من الأرض والوادي، وكلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيه - وليس منه - فهو وليجَة[3]، بما يُبرزُ بشكلٍ أكبر تمامَ قدرةِ اللّهِ سبحانه وبديعَ صنعِه في اختلافِ الليلِ والنَّهار وتعاقبِهما.

استـمـرارُ هـذا الـخَـلْـقِ الإلهـيِّ وتكرُّرِه كلَّ يومٍ

وأمّا التَّعبيرُ بصيغةِ المضارع؛ فهو يُنظر إلى مدلول مادَّته، وهذا ظاهر، وهو من تطابق المادَّة والصّيغة، وهو أيضًا يُفيد استمرار هذا الخَلْقِ الإلهيِّ وتكرُّرِه كلَّ يوم إلى أنْ يأذنَ اللّهُ بقيام السّاعة، في دقَّةٍ عجيبةٍ لا تختلُّ، وفي اطِّرادٍ عجيبٍ لا يتخلَّفُ، بما يؤكِّدُ تمامَ قدرةِ اللّه في خلقه، وأنَّ نصرَهُ كذلك لمن يقعُ عليه البغيُ، وهو يدفعُ عن نفسه العدوانَ سُنَّةٌ مُطَّردة كسُنَّة إيلاجِ الليل في النَّهار وإيلاجِ النهار في الليل، ولإفادةِ التَّصوير لهذه العمليَّة الكونية التي يراها الإنسان كلَّ يوم.

بلاغةُ الاستعارةِ ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾:

إنَّ فـي عناصر الكونِ لعبرةً لمَنْ يخشى

مثَّلَ البيانُ القرآنيُّ اختفاءَ ظلامِ اللَّيلِ عند ظهورِ نورِ النَّهار وعكسه بالإيلاجِ، وهو الإدخالُ؛ تشبيهًا لذلك التَّصيير بإدخالِ جسمٍ في جسمٍ آخر، فإيلاجُ الليلِ في النَّهارِ غشَيانُ ضوءِ النَّهار على ظلمةِ الليلِ، وإيلاجُ النَّهارِ في الليلِ غشَيانُ ظلمةِ الليلِ على ما كان من ضوءِ النَّهارِ، والمولَج هو المختَفي، فإيلاجُ الليل انقضاؤه، ولذلك فإنَّ استعارةَ الإيلاجِ هي استعارةٌ بديعةٌ؛ لأنَّ تقلُّصَ ظلمةِ الليلِ يحصلُ تدريجًا، وكذلك تقلُّصُ ضوءِ النَّهارِ يحصلُ تدريجًا، فأشبهَ ذلك إيلاجَ شيءٍ في شيءٍ، إذ يبدو داخلًا فيه شيئًا فشيئًا[4].

---

(1) الراغب، المفردات: (ولج).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 3/ 214.
(3) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.

اللــــهُ يــزوي ســــلــــطــــانَ المُــتــجــبِّريــنَ وينشرُ سلطانَ العـادلينَ شيئًا فشيئًا

وفي هذه الاستعارة - التي جاءتْ في سياقِ الاستدلالِ بقدرةِ اللّهِ على تعاقبِ اللَّيل والنَّهارِ على نصرةِ المظلومين - إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ ﷻ يزوي بقوَّته وقدرته - التي ليس كمثلها شيء - سلطانَ المُتجبِّرينَ، وينشرُ سلطانَ العادلينَ شيئًا فشيئًا، فهي سُنَّةٌ كونيَّةٌ كتلك السُّنَّة، يمرُّ عليها النّاسُ غافلين، كما يمرّونَ على دلائلِ القدرةِ في صفحةِ الكونِ، وهم لا يشعرون.

معنى (أل) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

في اطِّراد نعمهِ اطِّرادُ إحسانه

(أل) التعريف في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ جنسيَّةٌ، تفيدُ العمومَ، أي: يشملُ الإيلاجُ جِنْسَ اللَّيلِ والنَّهارِ، أيْ: كلَّ ليلٍ ونهار، ولا يقتصرُ على ليلٍ معهودٍ دون ليلٍ، أو نهارٍ معهودٍ دون نهار، وهذا يدلُّ على تمام قدرته في سُنَّةِ تعاقبِ الليلِ والنَّهار، وفي سُنَّةِ انزواءِ سلطان المُتَجبِّرين وانتشارِ سلطان العادلين في كلِّ زمانٍ ومكان، لا في زمانٍ دون زمانٍ ولا في مكانٍ دونَ مكان.

بلاغةُ عطفِ إيلاجِ النَّهارِ في اللَّيل:

من أجلِّ أسرارِ الكونِ تفاعلُهُ

عطفَ البيانُ القرآنيُّ إيلاجَ النَّهارِ في اللَّيلِ على إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾؛ لتكتمل الصّورة المُرادة؛ للدَّلالة على المقصود المُستدَلِّ عليه؛ لإظهارِ كمالِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ[1] الّتي يتحقّقُ بها العدلُ في الدنيا، وللإشارةِ إلى أنَّها سُنَّةٌ كونيَّةٌ يتغلَّبُ فيها الظَّلامُ على النّورِ حينًا، ويتغلَّبُ النّورُ على الظلامِ حينًا آخر، وكذلك تعاقُبُ الحقِّ والباطلِ سنَّةٌ كونيَّةٌ ينتصرُ الباطلُ على الحقِّ حينًا، وينتصرُ الحقُّ على الباطلِ حينًا آخر؛ إذِ الدُّنيا دارُ امتحانٍ واختبارٍ، وذلك مستمرٌّ إلى أنْ تقومَ السّاعة ليتحقَّقَ العدلُ المطلقُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.

نكتةُ العدولِ عن إيلاجِ أحدِ الملَوَيْن في الآخر:

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن إيلاجِ أحد المَلَوَين (اللَّيل والنَّهار) في الآخرِ - رغم أنَّه أخْصَرُ - وأطنبَ بذكرِ إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ وإيلاجِ النهارِ في الليلِ؛ للدَّلالةِ على استقلالِ كلٍّ منهما في الدَّلالةِ على كمالِ قدرتِه سبحانه[1]، وفي هذا إحاطة الدليل بالمستدَلِّ عليه، وهذا يوفِّر للمتلقّي إقناعًا جليلًا وترغيبًا وترهيبًا شديدَيْن.

سبحانه لم يقطع إحسانه حتى عن مُخالِفِه!

بلاغةُ تقديمِ إيلاجِ اللَّيلِ على إيلاجِ النّهار:

ابتدأ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بإيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، أيْ: دُخولِ ظُلمةِ اللَّيلِ تحْتَ ضَوءِ النَّهارِ؛ للإشارة إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أيْ: ظُهورُ الدّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراكِ[2]، وفي هذا تبشيرٌ للنَّبيِّ ﷺ وللمؤمنين بنصرةِ الدّينِ الحقِّ وظهوره، وتبكيتٌ للكافرينَ بأنَّ شركَهم زائلٌ أمامَ نورِ الإيمانِ والتوحيد.

سبحان مَن أفْهَمَ بالكونِ مُرادَه!

بلاغةُ الطِّباق بين لفظتَي اللَّيل والنَّهار:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ بين لفظَيْن متقابلَيْنِ في المعنى هما: الليل والنَّهار، بما يزيدُ الكلامَ حُسنًا، ويبرز كمال القدرةِ الإلهيَّة التي تشملُ الأشياءَ كلَّها، وتتعلَّقُ بالأفعالِ المتضادَّة، ولا تلزمُ طريقةً واحدةً كقدرة الصُّنّاعِ من البشر[3]، فهو القادرُ على جمعِ الضِّدَّيْن ووضع أحدهما مكانَ الآخر، وهذه القدرةُ الشّاملةُ التي دلَّتْ عليها المقابلةُ بين إيلاج الليلِ في النَّهار، وإيلاجِ النَّهار في الليلِ تشيرُ إلى مراعاةِ اللهِ لمصالحِ العباد، إذ لو طالَ اللَّيلُ؛ لتعطَّلتْ مصالحُ العبادِ فيه، وكذلك الأمرُ بالنسبةِ للنهار[4].

في القَرْنِ بينَ الأشياءِ يكمل ظهور الحقائق

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 309.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.

(4) البقاعي، نظمُ الدُّرر: 13/ 80.

قد يصيرُ المغلوبُ غالبًا، ويصيرُ الغالبُ مغلوبًا

كما أنَّ في هذا الجمعِ والمقابلةِ إيماءً إلى تقلُّبِ أحوالِ الزَّمان، فقد يصيرُ المغلوبُ غالبًا، ويصيرُ ذلك الغالبُ مغلوبًا، وإدماجُ التَّنبيهِ بأنَّ العذابَ الذي استبطأه المشركون منوطٌ بحلولِ أجله، وما الأجلُ إلّا إيلاجُ ليلٍ في نهارٍ ونهارٍ في ليل[1].

أثرُ الجمعِ بين المتضادّاتِ والمُتقابلاتِ

كما أنَّ في الجمع بين المتضادّات والمتقابلات ما يُحرِّك المُتلقّي إلى تأمُّل كلِّ طرَفٍ في نور مقابِلِه، ومن شأن ذلك تمكينُ معاني السياق في النَّفس، وذلك إحسانٌ إلى المعنى والمتلقّي جميعًا.

معنى ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في الآية:

تفاعلُ عناصر الكون عليٌّ عظيمٌ

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ ظرفيَّةٌ زمانيَّةٌ، تدلُّ على تغلغلِ إيلاجِ كلٍّ من الليلِ والنهارِ في الآخر، أيّ: يُدخلُ هذا في هذا مرَّةً، فيأخذُ منه، وهذا في هذا مرَّةً أخرى، فيأخذُ منه، فيزيدُ كلٌّ منهما في الآخَر[2]، والنَّتيجةُ تحصيلُ ظلمةِ هذا في مكانِ ضياءِ ذاك وبالعكس[3]، وهذا التَّمكينُ الذي تفيدهُ الظَّرفيَّة يَزيد بِهِ مِنْ بيانِ أَثَرِ قُدْرَتِهِ تَعالَى الَّتي بِها النَّصرُ[4].

بلاغةُ الإدماجِ في تشبيهِ الكفرِ باللَّيلِ والإسلامِ بالنَّهار:

مِن خيرِ الكلامِ ما كان سخيًّا عامرًا بالمعاني

في ذِكْرِ اللَّيلِ والنَّهارِ في مقام الحديثِ عن العلاقةِ المتبادلةِ بينَ المؤمنين والكافرين، ووعْدِ اللّه بنصرِ المؤمنين على بغي الكافرين إدماجُ تَشبيهِ الكُفْرِ باللَّيلِ، والإسلام بالنَّهارِ؛ لأنَّ الكُفْرَ ضَلالةُ اعتقادٍ، فصاحِبُه مِثْلُ الَّذي يَمْشي في ظُلمةٍ، ولأنَّ الإيمانَ نورٌ يَتجلَّى به الحقُّ والاعتقادُ الصَّحيحُ، فصاحِبُه كالَّذي يَمْشي في النَّهارِ، وفي هذا الإدماجِ إيماءٌ إلى أنَّ الإيلاجَ المقصودَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ولج).
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 480.
(4) المحلي والسيوطي، تفسير الجلالين، ص: 442.

هو ظُهورُ النَّهارِ بعْدَ ظُلمةِ اللَّيلِ، أي: ظُهورُ الدّينِ الحقِّ بعْدَ ظُلمةِ الإشراك[1].

معنى الواوِ في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾ ونكتة ذِكْرِها خلافًا للأصل:

كيف يَخاف مَن معه الله يسمع ويبصرُ؟

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ عاطفةٌ ما بعدها على السَّبَبِ، وهو جملة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾[2] بجامعِ أنَّ قدرتَه على نواميسِ الكونِ، وعلمَهُ بما فيه كلاهما علَّةٌ لِنُصرةِ عباده المظلومين، أي: إنَّ العطفَ يشيرُ إلى عِلمِ اللّهِ بالأحوالِ كُلِّها مع قدرتِهِ عليها، فهو كما يَقدِرُ على ما لا يَقدِرُ عليه غَيرُهُ، فكذلك يُدرِكُ المَسموعَ والمُبصَرَ، ولا يخفى عنه شيء، وبذلك فهو يَنصُرُ مَن يَنصُرُه بعِلمِه وحِكمَتِه، ويَعِدُ بالنَّصرِ مَن عَلِمَ أنَّه ناصِرُه لا محالة، فلا يَصدُرُ منه شَيءٌ إلّا عن حِكمةٍ[3].

نكتةُ إدخالِ فاصلةِ الآيةِ في حيِّزِ السَّببيَّة:

أيُّ إحسانٍ في جعلِ نفسه دليلًا يطمئن؟

دخولُ فاصلةِ الآية ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ في حيِّزِ السَّببيَّةِ من خلالِ عطفها على ما قبلها، وهي إمّا أنْ تكونَ من بابِ التَّكميلِ وتتمَّةِ الحُكم؛ إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسببِ أنَّه قادرٌ؛ إذ لا بدَّ للنّاصرِ من القدرةِ على نصرةِ المظلوم ومن العلم بأنَّه كذلك، بكونه سميعًا بكلِّ المسموعاتِ التي من جملتها ما يقولُ المعاقِب، بَصيرٌ بكلِّ المبصراتِ التي من جملتها ما يقعُ منه من الأفعال، أو أنْ تكونَ مِن بابِ التَّتميم والتأكيد؛ إذا كان المعنى: ذلك النَّصرُ بسبَبِ أنَّه خالِقُ اللَّيلِ والنَّهارِ ومُصرِّفهما، فلا يخفى عليه ما يجري فيهما على أيدي عباده من الخيرِ والشَّرِّ والبغيِ والإنصافِ، وأنَّه ﴿سَمِيعُۢ﴾ لِما يقولون ﴿بَصِيرٞ﴾ بما يفعلون[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 315 - 316.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5015.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 520، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 181.

فائدةُ تتابع المؤكّدات في فاصلة الآية:

أكّدَ السّياقُ القرآنيُّ جملة ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ بعدَّةِ مؤكّدات، هي حرفُ التوكيد (أنَّ)، والجملةُ الاسميَّة التي تفيدُ الثبوتَ والدوام، وصيغةُ المبالغةِ في الاسمَيْنِ الجليلَيْنِ اللَّذَيْن جاءا على وزن (فعيل)، وتكرار خبر الجملة الاسميَّة؛ إذ إنَّ ﴿بَصِيرٌ﴾ خبرٌ ثانٍ لـ (أنَّ)، ودخولُ فاصلة الآية في حيِّزِ السَّببيَّةِ والتَّعليلِ لنصرِ اللّه، وفي تلك المُؤكّدات لفتٌ إلى أنَّ كونه سميعًا بصيرًا ليس كمثلِه كونُ غيره سميعًا بصيرًا، فيتأكّد هذا المعنى في النَّفس، ويقوى، ويشتدُّ، فاللّهُ يعلمُ ما لا يعلمه غيره، فهو يدركُ المسموعَ والمُبْصَر، ولا تخفى عليه من المشركين خافية في أحوالهم وحركاتهم[1].

سبحانه لا يشغله سمعٌ عن سمعٍ، ولا يستترُ عنه شيءٌ بشيء

نكتةُ التَّذييل بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

ناسَبَ التَّذييلُ بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ بالاسمَيْن الجليلَيْن (السميع) و(البصير) مضمونَ الآية، حيث إنَّ لفظَ السَّمع يتناسبُ مع لفظةِ اللَّيل، ولفظَ البصرِ مع لفظةِ النهار، وفي هذا دليلٌ على قدرةِ اللّه؛ لأنَّ الإنسانَ أحوجُ ما يكون إلى سكونِ اللَّيلِ ليسمعَ، ولضياءِ النهارِ ليبصرَ، ولو جعلَ اللّهُ أحدهما سرمدًا؛ لتعطَّلت مصالح الإنسان، ولكنَّ اللّهَ سميعٌ لِما يمكنُ أنْ يُسمعَ، مُبصرٌ عالمٌ لِما يمكن أنْ يُبصَرَ، دائمُ الاتّصافِ بذلك، فهو غيرُ محتاج إلى سكونِ الليلِ ليَسمعَ، ولا لضياءِ النهارِ ليُبصرَ؛ لأنَّه منُزَّهٌ عن الأعراض، وهو لتمامِ قدرته وعلمه لا يفوتُهُ أمرٌ في الليلِ والنَّهار[2].

دلَّ على الوجودِ؛ فدلَّ عليه الوجودُ

فائدةُ التَّرتيبِ ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

قدَّم القرآنُ صفةَ السَّميعِ على البصيرِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لكونه أكثرَ مناسبةً مع ما تُقرِّره الآيةُ من قدرةِ اللّهِ

سبحان مَن يُؤْنِسُ عبادَه؛ ولو كانوا عاصين له

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.

وعلمه سبحانه في صفحاتِ الكون، فهو لتمامِ قدرته وعلمه لا يخافُ في عفوهِ غائلة؛ إذِ التقدير: (ذلك النَّصرُ والعفو بأنَّه قادرٌ، وبأنَّه عالمٌ)[1]، فالسَّمعُ أشرفُ نعمًا وأعظمُ نفعًا من البصر[2].

كما أنَّ تقديمَهُ أنسبُ كذلك في نظمِ الكلامِ مع تقديمِ لفظِ الليل المناسبِ له، وتأخيرُ لفظِ البصرِ أنسبُ مع تأخيرِ لفظِ النَّهارِ المناسبِ له، وأنسبُ موافقةً لما جرى عليه اصطلاحُ القرآن من تقديمِ السَّمعِ على البصر[3]، وعملُ السَّمعِ عند البشر أسبقُ وأقوى من عمل البصرِ، أمّا كونه أسبقَ؛ فهذا ظاهرٌ، وأمّا كونه أقوى؛ فلأنَّ التفاوت في السَّمع قليلٌ ودقيقٌ جدًّا؛ فكأنَّه لا تفاوت، وأمّا التَّفاوت في البصر؛ فقويٌّ وكثيرٌ.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْنِ الجليلَيْنِ ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

سبحانَ مَن تعرَّفَ إلينا في كلِّ شيءٍ

نكَّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظَ الاسمَيْنِ الجليلَيْنِ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾؛ لإفادةِ تعظيم هاتَيْنِ الصفتَيْنِ وعموم أثرهما، لا سيَّما وقد صيغتا بصيغة مبالغةٍ؛ فهو سبحانه سميعٌ لكلِّ المسموعاتِ، بصيرٌ بكلِّ المبصرات، لا يخفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السماءِ من قولٍ أو نجوى، أو سرٍّ أو أخفى من السِّرِّ، أو فعلٍ ظاهرٍ أو باطنٍ.

دلالةُ المبالغةِ بالاسمَيْنِ الجليلَيْنِ ﴿سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾:

صيغةُ المبالغة صورةٌ مُقرِّبة لحقيقة الصِّفة

﴿سَمِيعُۢ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ اسمانِ من أسماءِ اللّه تعالى، وكلاهما على وزن (فعيل) وهو من أبنيةِ المبالغة، فالسَّميعُ هو مَنْ لا يَعْزُبُ عن إدْراكه مَسْموعٌ، وإن خَفيَ، فهو يَسْمعُ بغير جارِحَة[4]، والبصيرُ هو مَن يُشاهِدُ الأشياءَ كُلَّها ظاهِرَها وخافيَها بغير جارِحةٍ، والبَصَرُ في حَقِّه عبارةٌ عن الصِّفةِ التي يَنْكَشِفُ بها كمالُ نُعوتِ المُبْصَرات[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 9/ 451.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 184.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (سمع).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بصر).

وهذه المبالغةُ تدلُّ على سعةِ علمِهِ المحيط سبحانه بما يُدخلُ الطُّمأنينةَ على قلوبِ المظلومين بأنَّه يعلمُ بحالهم، ويدخلُ التهديدَ والخوفَ على قلوبِ الظالمين بأنَّهم لا يخفون عنه.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدُّخول والوُلوج:

الـدُّخـولُ أعـمُّ من الوُلوج؛ إذِ الوُلوجُ يكون مع المادّيِّ فحسب

يتقاربُ لفظا الدُّخولِ والولوج إلى درجةِ الترادف، ولا تكادُ تسعفنا المعاجم اللغويَّة بفروقٍ واضحةٍ بينهما؛ إذ يُعرَّفُ الولوجُ بالدخول، والدخولُ بالولوج[1]، إلا أنَّنا إذا أمعنا النَّظر في معانيهما واستعمالِ القرآن لهما؛ نلحظُ بعضَ الفروقِ الدقيقة، وإيضاح ذلك:

أصلُ الدُّخولِ هو الولوجُ، والدُّخول: نَقيضُ الخُروجِ[2].

وأصلُ الولوج يدلُّ على دُخولِ شَيْءٍ[3]، والوُلوجُ: الدُّخولُ، وكلُّ شَيْءٍ أولَجْته فيهِ - ولَيْسَ مِنْهُ - فهوَ وليجَة[4]، والوُلوجُ: الدُّخول في مضيق[5].

وقد ورد الدخول في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، ومنها آياتُ دخولِ الجنَّةِ والنّار، ودخولِ البيتِ والقريةِ والأرضِ المقدَّسة، والدخولِ في رحمةِ اللّه، وغيرها من الآيات، وكلُّها فيها معنى اللَّبْث والمكوث، وورَدَ الولوجُ في القرآن الكريم مع اللَّيلِ والنَّهارِ قال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾ [الحجّ: 61]، وورد في قوله: ﴿حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلۡجَمَلُ فِي سَمِّ ٱلۡخِيَاطِۚ﴾ [الأعراف: 40]، والولوج هنا ليس فيه معنى المكوث واللَّبث، بل المُرادُ الاستمرارُ في الوُلوج، ولهذا لم يستعمل هنا لفظَ الدخول، وعندما استعمل الولوجَ مع

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (دخل)، و(ولج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (دخل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (ولج).
(5) الراغب، المُفردات: (ولج).

الأرضِ في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا﴾ [سبأ: 2]؛ قَرَنَهُ بفعلِ الخروج بعدها[1].

والحاصل أنَّ الدخولَ أعمُّ من الولوج؛ إذ يُستعملُ الدخولُ في الشَّيء المادي والمعنوي، والولوجُ يكون مع المادي فقط، والولوجُ يكون في مضيق، بينما الدُّخولُ يكونُ في الواسع وفي الضيق، كما أنَّ الولوجَ يكون دخولًا من مكانٍ، وخروجًا من مكانٍ آخر، بينما الدخول قد يكون من نفسِ المكان، وكذلك معنى الدُّخول يوحي معنى المكوثِ في المكانِ أو الشيء الذي يدخلُ فيه، بينما الولوجُ ليس فيه معنى المكوثِ، بل يبقى مُستمرًّا حتى يخرجَ من الجهة الأخرى.

(1) عبد الجبّار زيدان، الفروق اللُّغويَّة في القرآن الكريم، ص: 522 - 523.

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٦٢﴾ [الحج: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الحقُّ مَن كَمُلَتْ قدرتُه وتمَّ علمُه، وكلُّ ما دونه باطلٌ يختلُّ ويتخلَّف

ذلك الوَصفُ الَّذي تَقدَّمَ ذِكرُه من كمال القدرةِ على إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ، ومن تمام العِلْم المحيط، إنَّما حَصَل لأجْلِ أنَّ اللَّه ﷻ هو الحقُّ الذي لا مرية فيه، فلا جَرَمَ أتَى بالوَعْدِ والوعيدِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَقُّ﴾: (حقّ) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصحَّته، فالحقُّ: نقيضُ الباطل[2]، وأصلُ الحقِّ: المطابقةُ والموافقةُ، وجمعه: حُقوق وحِقاق، وحَقَّ الأمر: وجَبَ، ومن معاني الحقِّ: الصِّدقُ، والعدلُ، والإسلامُ، وأمْرُ النَّبي ﷺ وما أتى به من القرآن[3]، أيْ: كلُّ ما طابقَ ووافقَ تعاليمَ الإسلام، و﴿ٱلۡحَقُّ﴾ في الآية: المُطابِقُ للواقعِ، أي: الصِّدق، والمعنى: أنَّه سبحانه هو الحَقُّ في الإلهيَّةِ[4].

2) ﴿يَدۡعُونَ﴾: (دعو) أصلٌ واحِدٌ، وأصلُ الدُّعاءِ هو أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إليكَ بِصَوْتٍ وكلامٍ يكونُ منكَ[5]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشَّيءِ أو محاولةُ ضمِّهِ إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوقِ إلى الأمير، ومنه الدُّعاءُ بمعنى التَّضرُّعِ إلى اللّه ﷻ في طلبِ أمر، والرَّغبةِ إلى اللّهِ تعالى فيما عنْدَه مِنَ الخيرِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(3) الزَّبيديُّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّل: (حق).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).

والابْتِهال إليهِ بالسُّؤالِ، والدُّعاءُ: العبادة؛ لأنَّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به[1]، ومعنى ﴿يَدۡعُونَ﴾ في الآية: يعبدون[2].

3) ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾: (بطل) أصلٌ واحدٌ، هو ذَهابُ الشَّيْءِ وقِلَّةُ مُكْثِهِ ولُبْثِه، وسُمّيَ الشَّيْطانُ الباطِلَ؛ لِأَنَّهُ لا حَقيقةَ لأفْعالِهِ[3]، وبَطَل الشيءُ يَبْطُل بُطْلًا وبُطولًا وبُطْلانًا: ذَهَبَ ضَياعًا وخُسْرًا، فهوَ باطِل، والباطِل: نَقيضُ الحَقِّ، وهو ما لا ثَباتَ لَهُ عندَ الفَحْصِ عَنهُ، وأَبْطَلَ فُلانٌ: جاءَ بِكَذِبٍ، وادَّعى باطِلًا، والإبْطالُ: يُقال في إفْساد الشَّيْءِ وإزالَتِه، حَقًّا كان ذلك الشَّيْءِ أو باطِلًا[4]، ومعنى ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في الآية: الأصنامُ والأندادُ والأوثان، وكلُّ ما عُبد من دونه تعالى؛ فهو باطلٌ[5].

4) ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾: (علو) أصلٌ يدلُّ على السُّموِّ والِارْتِفاعِ، والعَلاءُ: الرِّفْعَةُ، والعُلُوُّ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّرُ، ويُقالُ لِكُلِّ شَيْءٍ يَعْلو: عَلا يَعْلو، فإنْ كانَ في الرِّفْعَةِ والشَّرَفِ؛ قيل: عَلِيَ يَعْلَى[6]، والعُلُوُّ: ضدُّ السُّفْل، والعَلِيُّ من أسماء اللّه: الشَّريفُ، وهو بِمَعْنَى العالي، وهو الَّذي ليس فوْقَهُ شَيْءٌ[7]، والعَلِيُّ: هو الرَّفيعُ القَدْرِ من عَلِيَ، وإذا وُصفَ اللّهُ تعالى به في القرآن؛ فمعناه: يَعلو أنْ يحيطَ به وصفُ الواصفينَ، بل علمُ العارفين[8]، فهو المتعالي عن مداركِ العقولِ، وعن سماتِ الحدوثِ، أو المرتفعِ على كلِّ شيءٍ بقهريته، أو المتعالي عن الأندادِ والأشباه[9].

5) ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾: (كبر) أصلٌ يدلُّ على خِلافِ الصِّغَر، يُقالُ: هو كَبيرٌ، وكُبارٌ، وكُبّارٌ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ[10]، والكِبْرُ: الرِّفْعَة والشَّرَفُ، والكِبْرُ: العَظَمَةُ والتَّجَبُّر، كالكِبْرياء، ومعنى الكَبير في أسْماءِ اللّه تعالى: العَظيمُ الجَليلُ، والمُتَكَبِّر الَّذي تَكَبَّر عَنْ ظُلْمِ عِبادِهِ، وقيل

(1) الزبيدي، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّل: (دعو).
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 17/ 136.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطل).
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (بطل).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 284.
(6) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علو).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (علا).
(8) الراغب، المفردات: (علا).
(9) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كبر).

الكَبيرُ: العَظيمُ ذو الكِبْرياءِ، وقيلَ: المُتَعالي عَنْ صِفاتِ الخَلْق، وقيلَ: المُتَكَبِّرُ عَلَى عُتاةِ خَلْقه[1]، والكبيرُ شأنًا وعظمةً وكبرياءً؛ إذ كلُّ شيءٍ يصغرُ دون كبريائه، فلا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا؛ لأنَّ له الوجودَ المطلق[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّعريفُ به ﷺ أخذ سمةَ التَّدريج

ذلك الفِعلُ مِن إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في اللَّيلِ واتِّصافِ اللّه سبحانَه بكمالِ القدرةِ وتمامِ العلمِ؛ لأنَّ اللّهَ هو الإلهُ الحَقُّ الذي لا مثلَ له ولا شريكَ ولا ندَّ، ولا تنبغي العبادةُ إلّا له، وأنَّ ما يدعوه المُشرِكونَ إلهًا مِن دونِه مِنَ الأصنامِ والأندادِ هو الباطِلُ الذي لا يَنفَعُ، ولا يَضُرُّ، ولا يقدرُ على صنع شيء، بل هو المصنوع، وأنَّ اللّهَ ذو العلوِّ على كلِّ شيء، وهو فوق كلِّ شيء، وكلُّ شيءٍ دونه، العظيمُ الذي كلُّ شيءٍ دونه، ولا شيءَ أعظم منه[3]، فهذه الآيةُ من تمام ما قبلها، والكلُّ يجري في سِلْكِ التَّعريفِ به سبحانه وبحمده.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

تعليلٌ كافٍ وضمانٌ شافٍ لانتصارِ الحقِّ وهزيمةِ الباطِل

فَصَلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ عن الآية قبلها ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، ولم يربطْ بينهما بعاطفٍ؛ لِما بين الجملتَيْن من كمالِ الاتِّصال؛ لأنَّ اسمَ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ هو تكريرٌ لاسمِ الإشارة الذي سبقَهُ، وقد أخبرَ عنه بسببٍ آخرَ لنصرِ المؤمنين على المشركين بأنَّ اللّهَ هو الرَّبُّ الحقُّ الذي إذا أرادَ؛ فعلَ، وقدرَ، فهو ينصرُ أولياءَه، وأنَّ ما يدعونه من دون اللّهِ هو الباطلُ، فلا يستطيعون نصرهم، ولا أنفسهم ينصرون[4]، وتكرارُ

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (كبر).
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.

الإشارةِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾ بعد أن ذُكِر مرَّتَيْنِ جعَل لآيات هذا السّياق سَمْتًا خاصًّا بها، وأظهر وجهًا من وجوه تماسكِ عناصرها وترابطها.

دلالةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة وإيثار ما دلَّ على البُعد:

سبحانَ العليِّ في ذاته القريب من عباده

اسمُ الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يشيرُ إلى القدرةِ على إيلاجِ الليلِ في النَّهارِ وإيلاج النَّهارِ في الليلِ، وإلى العلمِ المحيطِ بكلِّ ما في الكون، والبدءِ والخوضِ في معنًى جديدٍ بعد إتمامِ المعنى السّابق، وهو إثباتُ حقّيَّةِ اللّهِ بالعبادةِ، وبطلانِ ما يدعونَ من دونه، أيْ: ذلك الاتِّصافُ بتمام القدرة وشمول العلم، وإيثارُ الإشارة التي تدلُّ على البُعدِ؛ للإيذانِ بعُلوِّ رُتْبَةِ قدرةِ اللّهِ وعِلْمِه[1]، بما يُؤكِّدُ انتصارَ الحقِّ وهزيمة البغي، ودلالةٌ على توحيدِه بصنعِه[2]، فلا يليق بمرجعِ الإشارة إلّا الدالُّ على البُعْد؛ لا سيَّما في سياق الاستدلال، والتَّعريف به ﷻ.

معنى الباءِ في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾:

إذا قَوِيَ الدَّليلُ؛ صارت النَّتيجةُ دليلًا

تحتملُ الباء في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ أنْ تكونَ للتَّوكيد، أي: توكيدِ أحقيَّةِ اللّه بالألوهيَّةِ دون أصنامهم؛ إذ يصحُّ أنْ يُقال: (ذلك أنَّ اللّهَ هو الحقُّ) أو للسَّببيَّة، والمعنى: ذلك الوصفُ بخلقِ اللَّيلِ والنَّهارِ والإحاطةِ بما يجري فيهما، وإدراك كلِّ قولٍ وفعلٍ، بسَبَبِ أنَّ اللّهَ هو الإلهُ الحَقُّ الثّابتُ في الإلهيَّةِ، الذي يَستحِقُّ العِبادةَ وحدَه دونَ ما سِواه، وأنَّ كلَّ ما يُدعى إلهًا دونه باطلُ الدَّعوة، وأنَّه لا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا[3].

احتمالُ أن تكونَ الباء للإلصاق أو بمعنى اللام

ويُحتمل أن تكون الباءُ للإلصاق[4]، ويكون في الآيةِ حذفٌ، والتَّقديرُ: ذلك دليلٌ واضحٌ مُلابِسٌ لحقيَّةِ إلهيَّةِ اللّه، وهذه

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 6/ 117، والبقاعي، نظم الدُّرر: 5/ 169.
(2) تفسير مُقاتل بن سليمان: 3/ 116.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.
(4) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 182.

الملابسةُ ملابسةُ الدليلِ لمدلوله، وهذا أرشقُ من حملِ الباءِ على معنى السببيَّة[1]، أو أنْ تكونَ الباءُ بمعنى اللّام، كما ذكرَ أبو حفص النَّسفيُّ، أيْ: لأنَّ اللّهَ هو الحقُّ[2].

فائدةُ تتابعِ المُؤكِّدات في ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾:

النَّفْسُ المُتشبِّعةُ بأنَّ اللّه هو الحقُّ لا ترتاب في وعده

أكَّد البيانُ القرآنيُّ أحقيَّةَ اللّهِ بالألوهيَّة دون أصنامهم الباطلة في قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ بعدَّة مؤكِّدات من (أنَّ) التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّة التي تفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾ الذي يفيدُ القصرَ؛ لإفادةِ المبالغةِ في ضمانِ اطِّرادِ سُنَنِ الكونِ وثباتها، وعدمِ تخلخلها أو تخلُّفها، ومن هذه السُّنَنِ انتصارُ الحقِّ والعدل، وهزيمةُ الباطلِ والبغي، وأنَّ اللّهَ لن يدَعَ البغيَ يستعلي، والظُّلمَ يستطيلُ، ومعنى كونِه تعالى هو الحقَّ هو معنًى مِن شأنه أن يُروِّعَ النَّفس الإنسانية، ويلفتها، ويهُزَّها مِن داخلِها، فإذا داخَلَها؛ تمكَّن فيها، ورسخ، وانتشر في جميع أجزائها، فصار كالدم فيها وكالرّوح.

بلاغةُ القصرِ بضميرِ الفصلِ:

بالقصرِ يتَّسِعُ المعنى في النفس ويرسخ

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ يفيدُ القصرَ، وهو قَصرٌ حَقيقيٌّ[3]، أي: هو وحده الحقُّ، أي: الواجبُ الوجود[4]، فلا حقَّ غير اللّه، فكلُّ ما عداه باطل؛ لأنَّه إلى فناءٍ[5]، وفيه دلالةٌ على أنَّ الحقَّ مِن أسماءِ اللّهِ الحُسنى، وهناك من عدَّ هذا الضميرَ توكيدًا؛ إذ يصحُّ الكلام: ذلك بأنَّ اللّهَ الحقُّ، ومنهم من عدَّه مبتدأً[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 204.
(2) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 2/ 171.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(6) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡحَقُّ﴾:

هـو الـحـقُّ، والحقُّ هو

لامُ تعريف ﴿ٱلۡحَقُّ﴾ - في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ - جنسيَّةٌ[1]، أيّ: جنسُ الحقِّ، وهو المطابقُ للواقعِ، أيِ: الصدق، وهو مأخوذٌ من حقَّ الشيءُ؛ إذا ثبتَ، والمعنى: أنَّه الحقُّ في الإلهيَّة[2]، فلا مثلَ له ولا شريكَ ولا ندَّ، أيّ: إنَّ اللّهَ هو الموجودُ الواجبُ لذاته الذي يمتنعُ عليه التَّغيُّرُ والزوالُ[3]، فالحقُّ هو الوجود.

معنى الواو في: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

مِن كمال ظهور الـحـقِّ كـمـالُ ظهورِ الباطل

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه هو المجرور بالباء ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والمعنى: ذلك الدَّليلُ ملابِسٌ لكونِ اللّهِ إلهًا حقًّا، ولكونِ ما تدعونَ من دونه باطلَ الإلهيَّةِ، ولكونِ اللّهِ هو العليَّ الكبير، هذا باعتبارِ أن الباء في قوله: ﴿بِأَنَّ﴾ للملابسة، وتكون جملةُ ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ إلى آخرها في موقعِ النَّتيجةِ وضوحًا، وأمّا إذا اعتُبرتِ الباءُ سببيَّةً؛ فيكون المعطوفُ عليه هو الخبر، وهو مجموعُ قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، والتقدير: (ذلك لأنَّ اللّهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما تدعونَ من دونه الباطل)[4].

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾:

دلائـلُ إثـبـاتِ الـحـقِّ دلائـلُ لإثبات الباطل

أكَّد البيانُ القرآنيُّ الخبرَ - وهو بطلانُ ما يعبدون من دونِ اللّهِ من الأوثانِ وغيرها - بعدَّةِ مؤكِّداتٍ: حرفِ التوكيد ﴿أَنَّ﴾، والجملةِ الاسميَّةِ التي تفيدُ الثبوتَ والدَّوام، وضميرِ الفصل ﴿هُوَ﴾ المفيدِ للقصرِ الادِّعائيِّ، وضميرِ التَّوكيد ﴿هُوَ﴾ على قولِ العُكبُري[5]،

(1) ابن عاشور، التحرير: 21/ 187.
(2) ابن عاشور، التحرير: 17/ 316.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 188.
(5) العُكبُري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947.

وذلك تصويرٌ لكمال ظهور بطلانِ استحقاقِ آلهتهم للعبادةِ؛ لكونها معدومةً في حدِّ ذاتها، واستمرارِ عجزها وتغيُّرها وزوالها، وعدم قدرتها على النَّفعِ والضُّرِّ في الدنيا والآخرة، وأنَّ هذا الباطل ﴿لَيْسَ لَهُۥ دَعْوَةٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَلَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [غافر: 43]، وأنَّه بلغَ الغايةَ في كمالِ بطلانه، وشموله لكلِّ ما يدعونَ إليه من دون اللّه.

تمكينُ المعنى من الإحسان إلى المعنى والمتلقّي

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾:

﴿مَا﴾ لغير العاقل، قد عبَّرَ اللّهُ بها عنِ الآلهة التي يعبدها المشركون من دون اللّه تعالى، وهذا توصيفٌ لحالها، وإشارةٌ إلى سوءِ حالهم؛ إذ هم العقلاءُ، ويدعونَ ما لا يعقلُ، يقول الآلوسي: "وأمرُ التَّعْبيرِ عَنها بـ﴿مَا﴾، ثُمَّ إرجاعُ ضَميرِ العُقَلاءِ - وهو الواو في يدعون - إلَيها ظاهِرٌ، فلا تَغْفُلْ"[1]، وهي اسمٌ موصول بمعنى (الذين)، عُبِّرَ به؛ لقصدِ الإبهام الذي من أسراره التَّشويقُ للمبيَّن، وهو ما يدعونه من دونِ اللّه، ولقصدِ التَّعميم، ليشملَ كلَّ مدْعوٍّ دونَ اللّهِ سبحانه من الأصنام والشياطين وغيرها[2]، أي: بيانٌ لعموم بطلانِ ما يدعونَ من دونِ اللّه، ولو عبَّرَ بالاسم الظاهر؛ لاقتصرَ عليه.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿مَا يَدْعُونَ﴾:

الاسمُ الموصولُ ﴿مَا﴾ وصلته ﴿يَدْعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ في محلِّ نصبِ اسم (أنَّ)؛ والتقديرُ: (وأنَّ الذي يدعونه هو الباطل)[3].

تجاهلُ الأدلَّةِ الحقَّة شذوذٌ في العقل والقلب والنفس

فائدةُ التَّعبيرِ بالمضارع في قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾:

التَّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ للدَّلالة على استمرارِ عبادةِ المشركين للآلهةِ المزعومةِ التي لا تسمعُ، ولا تعقلُ،

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 406.
(3) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 199.

ولا تنفعُ، ولا تضرُّ، ولا تقدرُ على شيء، بما يدلُّ على إصرارهم على شِركهم ومكابرتهم، وقُبحِ حالهم وحُمقهم؛ إذ إنَّ طولَ الزَّمنِ من شأنه أنْ يُظهرَ حقائقَ الأشياء، وللدَّلالة كذلك على تصويرِ خضوعهم لمن لا ينفعُهم، ولا استطاعةَ له على ذلك؛ ليحملهم هذا التَّصويرُ على النُّفورِ من الباطل، والرُّجوع إلى عبادةِ الحقِّ سبحانه الذي هو العليُّ الكبير.

إفـادةٌ لـتجدُّدِ تجاهلهم الأدلَّةَ الكونيَّةَ على أنَّ الله هو الحقُّ

وفي هذا التَّجدُّدِ أيضًا إفادةٌ لتجدُّدِ تجاهلهم ما هو معروضٌ عليهم ليل نهار من أدلَّةٍ كونيَّةٍ على أنَّ اللّٰه هو الحقُّ، وأنَّ ما يعبدون من دونه هو الباطل، فإنَّهم تتجدَّدُ لهم رؤيةُ ولوجِ الليل في النَّهار، وولوجِ النَّهار في اللَّيل، ومع ذلك يتجدَّد دعاؤهم وعبادتهم لآلهتهم من دون اللّٰه، وفي هذا كلُّ تقبيحٍ وذمٍّ لهم وتعجُّب منهم وتشهير بهم وما جرى في هذا الطريق من المعنى.

عودُ الضَّميرِ في ﴿يَدۡعُونَ﴾:

مَن عبدَ حقيرًا؛ صار حقيرًا

يعودُ الضَّميرُ (الواو) في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ إلى الكفّارِ الذين جمعوا بين الكفرِ باللّٰهِ والتَّكذيبِ بآياته القرآنيَّة والكونيَّة، والذين مَرَّ ذِكرُهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾، وذكرهم القرآنُ بالضمير، ولم يذكرهم بوصف الكُفْرِ أو نحوِه؛ لتحقيرهم بإبهامهم؛ اتِّساقًا مع تحقيره ما يدعون من دون اللّٰه.

نكتةُ حذفِ مفعول ﴿يَدۡعُونَ﴾:

مَــن بــان لـه الـحـقُّ؛ وجب صَــرْفُ الباطل من نفسه

حذَفَ البيانُ الإلهيُّ مفعولَ ﴿يَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، والتَّقديرُ: (يدعونَ من دونه إلهًا)[1]، وذلك اختصارٌ؛ لأنَّه معلومٌ من السّياق؛ إذ معنى قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾: الثّابتُ في الإلهيَّةِ، ويكون معنى هذه الآية: وأنَّ ما

(1) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 4/ 77.

يعبدون من آلهةٍ غيره باطلةٌ[1]، وكذلك لتحقير شأنِ هذا المعبودِ من دونِ اللّهِ من أنْ يُذكرَ بمُسمَّى الآلهة، وأنَّه لا يكون المدعو من دونِ اللّه إلّا باطلًا، وفي الحذف إشعارٌ بكمال نفي التَّسوية بين الإلهِ الحقِّ والآلهة الباطلة.

فاز المُستجيبُ لله، وخسر المُعرِضُ عنه

بلاغةُ توجيهِ القراءات القرآنيَّة في ﴿يَدۡعُونَ﴾ وبلاغتها:

في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ﴾ قراءتان متواترتان؛ إذ قرأ نافعٌ وابنُ عامر وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفرٍ: ﴿تَدۡعُونَ﴾ بالتّاءِ الفوقيَّة على الالتفاتِ إلى خطابِ المُشركين؛ لأنَّ الكلامَ السّابق الذي جرَتْ عليهم فيه ضمائرُ الغيبةِ مقصودٌ منه إسماعُهم والتَّعريض باقترابِ الانتصارِ عليهم، والمعنى: وأنَّ الذين تدعونهم آلهةً - وهي الأصنامُ - هو الباطلُ الذي لا ثبوتَ له[2]، وفي الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ تنبيهٌ شديدٌ وتهديدٌ بالمواجهةِ والتصدّي لبيانِ شرِّهم؛ إذِ التَّنبيهُ والتَّهديدُ بالمواجهة أشدُّ من التَّهديدِ بالغَيبة، وأكثرُ توبيخًا، وللإيماءِ بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه، وقرأ البقيَّةُ بالتَّحتيَّة ﴿يَدۡعُونَ﴾ على طريقةِ الكلام السّابق، وهي الإخبارُ عنهم بالغيبة[3].

السّورة مؤسَّسَةٌ على الأمر بالخوف من المُحسِن ﷻ

ويصحُّ أن يكون في الخطاب تقريبٌ لهم، وإقبال عليهم؛ ليدخلوا في زمرة العابدين للّه الذي هو الحقُّ؛ لأنَّ السورة مؤسَّسَةٌ على الأمر بالخوف من المُحسِن المُنعِم المُربي ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: 1].

من أهل الكفرِ مَن سيكون من أهل الخطابِ في الآية

ومجموعُ القراءتَيْن يشيرُ إلى أنَّ أهل الكفر منهم مَن سيكون، أو سوف يكون من أهل الخطاب، حيثُ يستجيب لنداء الحقِّ، ومنهم مَن سيظلُّ في مستنقع الضَّلال والكفر، فيظلُّ غَيْبًا يُحكَى عنه، أو يُدْعَى إلى الحقِّ والإيمان.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.

(2) الهروي، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 18/ 406.

(3) ابن الجزري، النشر: 2/327، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 317.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

دواءُ الغافلِ التَّنبيهُ والإيقاظُ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ بيانيَّةٌ؛ إذ بيَّنَتْ ما أُبهم في ﴿مَا﴾[1]، وهو الذي يدعونه دعاءَ عبادةٍ بأنَّه غيرُ اللّه سبحانه، وإنَّما هي أصنامٌ من دونِ اللّه، ليس لها في ذاتها ونفعها إلّا العدم، ويمكن أنْ تكونَ للتَّأكيد، إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: وأنَّ ما يدعون غيرَ اللّهِ هو الباطل.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾:

من الإحسانِ إلى الغافلِ تمكينُ المعنى في نفسه

استعملَ البيانُ القرآنيُّ مع المدعو من دونِ اللّه تعبيرَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ الذي يفيدُ الدّونيَّة والاحتقارَ، وأضافها إلى الضَّميرِ العائدِ إلى اللّه؛ تحقيرًا لمَنْ يدعون الباطلَ من هذه الأصنام وغيرها، ويتركون عبادةَ مَنْ هو فوقَ كلِّ شيءٍ بقهره وسلطانه، وكلُّ ما سواه سافلٌ حقير تحت قهره وأمره[2]، وتحقيرًا لما يدعون من الباطلِ الذي ليسَ له في ذاته إلّا العدم، وبالمقابلِ هو بيانٌ لعلوِّ اللّهِ وعظمةِ قهره وسلطانه، ومدحٌ لمَنْ يدعونه سبحانه، ولذلك ذيَّل الآية بقوله: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

بلاغةُ القَصْرِ بضمير الفصْلِ وتعريف الخبَر:

عُلوُّ التَّوكيدِ لسَفالة الغَفْلَةِ

ضميرُ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ يفيدُ القصرَ، وهو قَصرٌ ادِّعائيٌّ؛ لعدَم الاعتدادِ بباطِلٍ غَيرِه، حتَّى كأنَّه ليس من الباطِلِ، وهذه مُبالَغةٌ في تَحقيرِ أصنامِهم[3]، أو أنَّ جَميعَ ما يَدعونَ من دونِه هو الباطِلُ لا بَعْضُه دونَ بَعْضٍ، أو باعتبارِ كمالِ بطلانِ ما يدعونَ من دونِ اللّه[4]، والقصرُ بهذه الاعتباراتِ يدلُّ على توكيدِ أنَّ ما هم عليه هو الباطل؛ لزيادةِ

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 199.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 316.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.

تثبيتِ المؤمنين؛ لأنَّ الكافرينَ هنا كانوا ساعينَ مُعاجزين، ونتجَ عن ذلك هجرةُ المؤمنين أو قتلهم، فاحتاجَ الأمرُ إلى هذا التوكيد[1]، أو أنَّه قد جيءَ به للمشاكلةِ مع ما وردَ في الآية ذاتها[2].

ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطل

معنى (أل) في ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

لامُ التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلۡبَٰطِلُ﴾ في قوله جلَّ ذِكْره: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ جنسيَّةٌ تُفيدُ العموم[3]، فتشملُ كلَّ ما لا وجودَ له حقيقةً، فتعني الشِّرك، والكذب، كقوله: ﴿لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ﴾ [البقرة: 264]، ويشملُ كذلك الظُّلم، وما فسَّرَ به بعضُ المُفسِّرين بأنَّه الشَّيطان، أو ما أشركوا باللّه تعالى من الأصنام والأوثان[4].

وجهُ الوقوفِ على الحقيقة أن تتأمَّل

بلاغةُ الطِّباق بين الحقِّ والباطل:

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظَيْن مُتقابلَيْن في المعنى، هما الحقُّ والباطل زيادةً في بيانِ معنى الحقِّ والباطل، أيْ: حقّيَّةُ إلهيَّة اللّهِ سبحانه الذي يقدِرُ على كلِّ شيء، وبطلانُ دعوتهم لآلهةٍ مزعومةٍ لا تقدرُ على شيءٍ، بل هي في حُكمِ العدم؛ لأنَّ الضِّدَّ يُظهرُ حقيقة الضِّدِّ؛ فإنْ قلنا: إنَّ اللّهَ هو الحقُّ حقيقةً، فما سواهُ باطلٌ، وإنْ قلنا: إنَّ الحقَّ هو الحسنُ شرعًا، فالباطلُ هو القبيحُ شرعًا[5]، والقَرْنُ بين متقابلَيْن يُحرِّك النَّفس؛ لأن تبحثَ في كلِّ طرف في نور مقابله، فيبلغ ظهورُ المعنى لها مبلغًا عظيمًا، فيتمكَّن المعنى فيها تمكُّنًا، ففي ذلك إحسانٌ إلى المعنى والمتلقي جميعًا.

أيُّ إحسانٍ في إثباتِ حقارةِ ما دون الله وبطلانه؟

(1) السّامرائيّ، معاني النحو: 1/ 53.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 182.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.
(4) الماوردي، النُّكت والعيون: 4/ 346.
(5) ابن العربي، أحكام القرآن: 3/ 8.

معنى الواو في ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، والمعطوفُ عليه معطوفٌ على ما عُطف هو عليه، وهو قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، وكلاهما ينتجُ مضمون: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾، فكان الظاهرُ غيابَ الواو لما بينهما مِن كمال الاتِّصال، وقد رمَى النَّظْمُ الكريم إلى أن تتنبَّهَ نفوسُ الكافرين خاصَّةً لهذا المعنى، وتعتني بالنَّظر والبحث، كما اعتنى هو به بتصديره بالواو وإدخالها عليه، وهذا المعطوف يُقرِّر، ويُحقِّق المعطوف عليه المباشر له؛ لأنَّه يشرحُ كونه باطلًا بإثبات معنى الاسمَيْن: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ لله، وهذا الإثباتُ يُفْهِم نفيه عمّا يدعون مِن دونه مِن الباطل، فبينهما كمالُ اتصالٍ خفي.

قد يكون المُسبِّب سببًا؛ إذا قويت السَّببيَّة

نكتةُ إدخالِ فاصلة الآية في حيِّز السَّببيَّةِ:

دخولُ فاصلة الآية: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ في حيِّزِ السَّببيَّةِ من خلالِ عطفها على الخبرِ، وهو جملة ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾، جعلها مِن تمام ما قبلها وتوكيدًا له، أي: ذلك المذكورُ من قدرةِ اللّٰهِ الباهرةِ على إيلاجِ الليل في النَّهارِ، وإيلاجِ النَّهارِ في الليلِ بسببِ أحقيَّته سبحانه للألوهيَّة، وبطلانِ ما يعبدونه، وبسبب كونه تعالى وحده مستعليًا على جميعِ الأشياء متسلِّطًا عليها مُتنزِّهًا عن أنْ يكون له سبحانه شريكٌ، أو يتَّصفُ بنقصٍ ﷻ، أي: إنَّ ذلك يستلزمُ كونه تعالى وحده واجبَ الوجود في ذاتِه الموجِد لسائرِ المصنوعات البديعةِ الشأنِ، فيدلُّ على كمالِ قدرته ﷻ[1]، وجعلُها سببًا صورةٌ لكمال ما قام من الدَّليل عليها من قبلُ، أيْ: أن تلقي مِثْل هذا المعنى بعد الاستدلال عليه، من شأنه أن يصرف ما بقي في قلوبهم من

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 102.

كفرٍ وشركٍ وتوابعهما، وهذه مراقبةٌ نفسيَّةٌ دقيقةٌ لا تكون إلّا من اللطيف الخبير.

ينبِّههم الله تعالى للحقِّ وهو مُستغنٍ عنهم

فائدةُ تتابعِ المُؤكّدات في فاصلة الآية:

أكَّدَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ بعِدَّة مؤكِّدات، هي: حرفُ التوكيد (أنَّ)، والجملةُ الاسميَّةُ التي تُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوام، وصيغةُ المبالغة في الاسمَيْن ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ اللَّذيْن جاءا على وزن (فعيل)، وتكرارُ خبرِ الجملة الاسمية؛ إذ إنَّ ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ خبرٌ ثانٍ، على اعتبارِ ﴿هُوَ﴾ مبتدأ لا ضمير فصلٍ، وأيضًا التوكيدُ بضميرِ الفصلِ ﴿هُوَ﴾؛ إنِ اعتبرَ كذلك، وبتعريفِ طرفي الجملة اللَّذيْن يدلّان على قصرِ العلاء والكبرياء في ذاته سبحانه.

التَّنبيهُ على كمال ظهورِ أنَّ الله هو العليُّ الكبير والمبالغة في تأكيد تعظيم نفسِه

وفي تتابع التأكيدِ تنبيهٌ على كمال ظهور أنَّ اللّه هو العلي الكبير للمُتلقّين، أفلا يعملون بمقتضى ذلك مِن اعتقاد الإيمان، والدخول في جماعة المؤمنين؟ وهذه المؤكِّدات مجتمعةً تفيدُ أيضًا المبالغةَ في تأكيدِ تعظيمِ نفسه، وأنَّه المتعالي عن مداركِ العقول، وسماتِ الحدوث، والمرتفعُ على كلِّ شيء بقهريته، والمتعالي على الأندادِ والأشباه، والكبيرُ شأنًا وعظمةً وكبرياءً؛ إذ كلُّ شيءٍ يصغرُ دون كبريائه، فلا شيءَ أعلى منه شأنًا وأكبرُ سلطانًا؛ لأنَّ له الوجود المطلق[1]، وهذه المبالغةُ في تعظيم العليِّ الكبيرِ تطمينٌ للمؤمنين بأنَّه سبحانه لنْ يدعَ البغيَ يستعلي، والظلمَ يستطيلُ.

كلُّ عُلوٍّ وكبرٍ عند غير العليِّ الكبيرِ كالعدم

بلاغةُ القصرِ بضمير الفصل وتعريف الخبر:

اجتلبَ البيانُ القرآنيُّ ضميرَ الفصل ﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وعرَّف طرفيِ الجملة؛ للدَّلالة على القَصْرِ،

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 549.

فكان العلاءُ والكبرياءُ مقصورَيْن عليه وحده؛ إذ كلُّ مخلوقٍ سِواهُ مُستمِدٌّ وجودَهُ منه، ووجودُه غيرُ باقٍ، فهو سبحانه الباقي وحده، وهو وحده واجبُ الوجودِ، أيْ: دلَّ على الاختصاصِ وانحصارِ العلاء والكبر بذاتِهِ وصفاته فيه وحده[1]، وسلْبِ العُلوِّ والعَظَمَة عن أصنامهم[2]، وهذا هو الأصلُ الذي ينتهي إليه المتلقي من أهل الكُفْر والشِّرْك خصوصًا بعد الاستدلال في السِّباق عليه، وبعد الاستدلال في اللّحاقِ عليه أيضًا، ويقوم في نفسه، ويرسخ فيها.

مِن شأن (العلي الكبير) أن يعودَ على جميع ما في السّياق بالتَّوكيد

نكتةُ التَّذييل بـ ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾:

ناسَبَ التَّذييلُ بقولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مضمونَ الآية، حيث يدورُ سياقُها حولَ تحقيرِ المعبودينَ من دونِ اللّه، وتنزيهِ اللّهِ عن مثلِ هذه الشِّركيّات، إضافةً إلى أنَّها عبَّرتْ عن اللّهِ بلفظِ ﴿ٱلۡحَقُّ﴾، وهو الثّابت الَّذي لا يتغيَّر، واستعملتْ مع المدْعوِّ غير اللّه تعبيرَ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ المفيدَ للدونيَّة والاحتقار، ولذا خُتِمَتِ الآية بالاسمين الجليلين ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ اللَّذيْن يُفيدان ترفُّعَ اللّهِ وعُلوَّه عن مثل هذه الصِّفات، وتأكيدَ حقيقةِ "أنَّ ما سوى اللّه سافلٌ حقيرٌ تحتَ قهرهِ وأمره"[3].

التـذييـلُ بهما واقـــعٌ مـوقـعَ الفذلكة

كما أنَّ التذييلَ بهما واقعٌ موقعَ الفذلكةِ؛ لأنَّه إذا استقرَّ أنَّ ما ذُكرَ من إيلاجِ الليلِ والنهارِ دالٌّ على أنَّ اللّهَ هو الحقُّ بالإلهيَّة، ودالٌّ على أنَّ ما يدعونه باطلٌ، ثبتَ أنَّه العليُّ الكبير دون أصنامهم[4].

تفخيمٌ وتعظيمٌ للمقصودِ إثباتُهُ من أنَّ الله هو الحقُّ

وفي تذييل الآية بهما تفخيمٌ وتعظيمٌ للمقصودِ إثباتُه من أنَّ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 187.

مَن قام في نفسه معنى (العلي الكبير)؛ علا عن عبادة الباطل وعظُم بذلك

اللّه هو الحقُّ؛ وتشديد وزيادة في إثباته؛ لأنَّ هول السّاعة وزلزلتها شيءٌ عظيمٌ.

فائدةُ تقديم ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾:

اقترنَ اسمُ اللّهِ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ باسم اللّه ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ في أربعةِ مواضع في القرآن الكريم[1]، واقترنَ باسم اللّه (العظيم) في موضعَيْن[2]، وقد تقدَّم فيها كلِّها اسمُ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾، أي: إنَّ تقدُّمَه عادةٌ قرآنيَّةٌ، وأيضًا في تقدُّمه في هذه الآية ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مناسبةٌ لِما وردَ في سياقها من ذِكرِ لفظِ الدّونيَّةِ عند الحديثِ عن المعبودين من دونِ اللّه، ولأنَّ العَليَّ من صفاتِ السلوبِ، فهو المُنزَّهُ عن صفاتِ الحوادث، والكبيرُ: هو المُتَّصفُ بالعَظَمَةِ والكبرياء، فتقديمُ ﴿ٱلۡعَلِيُّ﴾ من بابِ تقديمِ التَّخليةِ على التَّحليةِ.

(العليُّ) دليلٌ موصلٌ إلى (الكبير)، وفي التَّرتيب مراعاةٌ للفاصلة

ويصحُّ أن يكون ترتيبهما ناظرًا إلى جعل أولهما دليلًا موصِّلًا إلى الثّاني، فهو العَليُّ على جميع الأشياء، وكان من شأنه أن يكون كبيرًا عن أن يكون له شريكٌ يُعبد من دونه، وكذلك في تأخيرِ اسم اللّهِ الكبيرِ في الآية مناسبةٌ للفاصلةِ القرآنيَّة القريبة منها ﴿غَفُورٌ﴾ و﴿بَصِيرٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾.

كلُّ ما ثبت في حقِّه ﷻ انتفى عن غيره

نكتةُ تعريفِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾:

جاءتِ الصِّفتان في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ مُعرَّفتَيْن؛ للدَّلالةِ على الكمالِ في الوصفِ، فهو سبحانه العليُّ الكاملُ في عُلاه على كلِّ شيءٍ بقدرتهِ وذاته، المُتقدِّسُ عن الأشباهِ والأندادِ، وهو الكبيرُ الكاملُ في كِبَرِه، ذو الكبرياءِ الذي يصغرُ كلُّ شيءٍ سواه، وفي بيانِ كمال عُلوِّه وكِبَره سبحانه نعيٌ الكافرين؛ إذ يُعرضون عن عبادةِ الكاملِ في علوِّهِ وعظمته؛ ليعبدوا من دونه أصنامًا في حكمِ

---

(1) الحج، الآية: 62، لقمان، الآية: 30، سبأ، الآية: 23، غافر، الآية: 12.

(2) البقرة، الآية: 255، والشورى، الآية: 4.

العدم[1]، وإنَّما عُرِّف هذانِ لاقترانهما بـ ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾؛ إذ القصدُ بيانُ كمال حقارة الباطل وضعفه وبطلانه، وأنَّه لا شيء يُذكَرُ بالنِّسبة إلى الله تعالى، فهو نكرةٌ، أو عدم.

توجيهُ المتشابه اللفظي:

أقام سبحانه في كلامه ما يدعو إلى تأمُّلِه كما في كونه

وذلك بين قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾، وقوله في سورة لقمان ﴿وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ﴾:

إنَّ الاختلافَ بين قوله تعالى في هذه الآية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ وقوله تعالى في سورة لقمان: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ ٣٠﴾ [لقمان: 30]: إنَّما هو إضافة ضمير الفصل في ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾ الذي يفيدُ التَّوكيدَ في سورةِ الحجِّ دونَ آية لقمان، وهذا إمّا لأنَّ ما في سورةِ الحجِّ قد وقَع بعْدَ عشْرِ آياتٍ، كلُّ آيةٍ مُؤكَّدةٌ مرَّةً أو مرَّتيْنِ، فناسبَ ذلك ذِكْرَ ضميرِ الفصل، وليس كذلك ما جاء في سورة لقمان؛ لأنَّه لم تتقدَّمه التَّوكيدات التي تستتبعُ أمثالها، كما تقدَّمت في الأولى[2].

أو أنَّه لَمّا تقدَّمَ في هذه السّورة ذِكْرُ اللهِ سُبحانَه وذِكْرُ الشَّيطانِ؛ أكَّدَهما، فإنَّه خبَرٌ وقعَ بين خبرَيْنِ، ولم يَتقدَّمْ في لُقمانَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، فأكَّدَ ذِكْرُ اللهِ تعالى، وأَهْمَلَ ذِكْرُ الشَّيطانِ، وهذه دَقيقةٌ[3].

أو أنَّه لم يتقدَّمْ في آيةِ الحجِّ من الدَّليلِ على بُطلانِ الأوثانِ مِثْلُ ما ذَكَرَه في لُقمانَ؛ ولذا استدعى الحالُ في آيةِ الحجِّ التَّأكيدَ بضَميرِ الفَصلِ، فقال ﴿هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ﴾[4].

(1) القِنَّوجي، فتح البيان في مقاصد القرآن: 9/ 74.
(2) الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، ص: 930، 931.
(3) الكرماني أسرار التكرار في القرآن، ص: 183.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 80.

أو لأنَّ السّياقَ في سورة الحَجِّ في الهجرةِ والقتلِ والموتِ والتَّكذيبِ بالآياتِ، وصراعِ أهلِ الباطل، أمّا السّياقُ في سورة لقمان؛ فهو في اتِّباعِ ما أنزلَ اللّهُ تعالى، أو اتِّباعِ الشَّيطان، وليس سياقَ جدالٍ لإظهارِ الحقِّ من الباطل، فهو أقلُّ شدَّةً وقوَّةً، ولذلك أكَّدَ في آية الحجِّ بإضافةِ ﴿هُوَ﴾، ولم يُؤكِّدْ في آيةِ لقمان.

العـــبـــادةُ إظـهـارُ الطاعةِ والـخـضـوع، والـدعـاءُ أعـمُّ وأوســـــع، فيشملُ العبادةَ وغيرها

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(يدعون) و(يعبدون):

يتقاربُ لفظا (يدعون)، و(يعبدون)، وقد يُستعملُ كلٌّ منهما موضعَ الآخر، ومع هذا التَّقاربِ فإنَّ لكلِّ لفظٍ ما يُميِّزه، وذلك على النحو الآتي:

الدُّعاءُ أصلُهُ أنْ تُميلَ الشَّيْءَ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يَكونُ مِنْكَ[1]، ومعناه المحوريُّ: جذبُ الشيءِ، أو محاولةُ ضمِّه إلى حيِّزٍ أو أمرٍ، كجذبِ النّاس إلى الوليمةِ والاجتماع، والسَّوق إلى الأمير، ومنه الدُّعاءُ بمعنى التَّضرُّعِ إلى اللّهِ ﷻ في طلبِ أمرٍ، والرَّغْبَةُ إلى اللّهِ تعالى فيما عنْدَه من الخيْرِ والابْتِهال إليه بالسُّؤالِ، والدُّعاءُ: العبادةُ؛ لأنَّ العبادةَ تَقرُّبٌ إلى المعبودِ واعتزاءٌ إليه واستكفاءٌ به، فهي من الجذبِ والانجذابِ، ويأتي بمعنى النِّداء استلفاتًا أو استحضارًا أو استنهاضًا، والدُّعاءُ: النِّداءُ والتَّسميةُ، يُقال: دعوتُه زيدًا، ودعوته بزيدٍ؛ إذا سمَّيته به[2].

وأمّا العبادة؛ فأصلُها يَدُلُّ على لينٍ وذُلٍّ، ومنه طريقٌ مُعبَّدٌ، وهو المَسْلوكُ المُذَلَّلُ[3]، ومعنى العبادةِ في اللُّغةِ: الطاعةُ مع الخُضوعِ، والعَبْدُ: الإنسانُ، حُرًّا كانَ أو رَقيقًا[4]، وأصلُ العُبوديَّةِ: الخضوعُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دعو).
(2) الزبيدي، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (دعو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(4) ابن منظور، لسان العرب: (عبد).

والذلُّ، والعِبادة: الطاعةُ، والتَعَبُّدُ: التَّنَسُّكُ[1]، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّلِ، ولا يستحقُّها إلّا مَن له غايةُ الإفضال[2].

والحاصل: يتميَّز لفظُ الدُّعاءِ بمعنى إرادةِ جذبِ الشَّيء وميله إليه، ويأتي بمعنى العبادةِ والتَّضرُّعِ، وأيضًا بمعنى النِّداءِ والتَّسميةِ والسُّؤالِ والاستعانةِ، ويتميَّزُ لفظُ العبادةِ بمعنى اللّينِ والطّاعةِ والخضوعِ والتَّذلُّل، فالدُّعاءُ أعمُّ وأوسعُ دلالةً من العبادةِ؛ لأنَّ الدُّعاءَ يشملُ معنى العبادة وغيرها، كالاستغاثةِ والنِّداءِ والسُّؤالِ والاستعانةِ والتسميةِ، بخلافِ العبادةِ التي معناها إظهارُ الطاعةِ والخضوعِ والتذلُّلِ للّه.

(1) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (عبد).

(2) الراغب، المفردات: (عبد).

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٞ ٦٣﴾ [الحجُّ: 63]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

استمرارٌ في عرضِ دلائلِ قدرةِ العليِّ الكبيرِ بعد الوعدِ بالرِّزقِ والنَّصرِ للمؤمنين

في مناسبةِ هذه الآيةِ لِما قبلها وجهان؛ **أوَّلُهما**: أنَّه لَمّا ذكَرَ اللهُ تعالى ما دَلَّ على قُدرتِه الباهرةِ من إيلاجِ اللَّيلِ في النَّهارِ والنَّهارِ في اللَّيلِ، وهما أمْرانِ مُشاهَدانِ: مجيءُ الظُّلمةِ والنّورِ؛ ذكَرَ أيضًا ما هو مُشاهَدٌ من العالَمِ العُلويِّ والعالَمِ السُّفليِّ؛ وهو إنزالُ المطرِ واخضرارُ الأرضِ، فهما مَرئيّانِ[1]، **وثانيهما**: أنَّه لَمّا دلَّ ما تضمَّنَهُ رزقُه سبحانه للميِّتِ في سبيله بقتلٍ أو غيرِه على إحيائِه له، ودلَّ سبحانه على ذلك وعلى أنَّه خيرُ الرّازقين بما له من العَظَمَة، وختمَ بوصفَي ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾؛ أتبعه دليلًا آخرَ على ذلك كلِّه بآيةٍ مُشاهَدةٍ جامعةٍ بين العالم العُلويِّ والسُّفليِّ قاضيةٍ بعُلوِّه وكِبَرِه، فقال: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡضَرَّةًۚ﴾: (خضر) أَصْلٌ واحِدٌ مُسْتَقيمٌ، ومَحْمولٌ عليه، والخُضْرَةُ من الألْوانِ مَعْروفَةٌ، والخَضْراءُ: السَّماءُ، لِلَوْنِها، والخضرة بين السَّوادِ والبياضِ، ولكنَّها إلى السَّوادِ أقرب، ولذلك يُسَمَّى الأَسْوَدُ أَخْضَرَ، قالَ تعالى في صِفَةِ الجَنَّتَيْنِ: ﴿مُدۡهَآمَّتَانِ ٦٤﴾ [الرَّحمن: 64]، أيْ: سَوْداوانِ، وهذا من الخُضْرَةِ، وذلك أنَّ النَّباتَ النّاعِمَ الرَّيّانَ يُرَى لِشِدَّةِ خُضْرَتِهِ من بُعْدٍ أسود[3]، ومعنى ﴿مُخۡضَرَّةًۚ﴾ في الآية: موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ، أي: ذاتَ خُضْرَةٍ بما ينبتُ فيها من النَّباتِ[4].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 531.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضر).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 551.

2) ﴿لَطِيفٌ﴾: (لطف) أصلٌ يدلُّ على رِفْقٍ وعلى صِغَرٍ في الشَّيْءِ، فاللُّطْفُ: الرِّفْقُ في العَمَلِ، يُقالُ: هو لطيفٌ بِعِبادِهِ، أيْ: رَؤوفٌ رَفيقٌ[1]، واللُّطْف واللَّطَف: البِرُّ والتَّكْرِمة والتَّحَفّي، وقيل: اللُّطفُ مِنَ اللّهِ تَعالَى: التَّوْفيقُ والعِصمة، واللَّطيفُ اسمٌ من أسماءِ اللّه، وقيل: معناه: الَّذي اجْتَمَعَ لَهُ الرِّفقُ في الفِعْلِ والعلمُ بِدَقائِقِ المَصالِحِ، وإيصالُها إلى مَنْ قَدَّرَها له من خَلْقِهِ[2]، وقيل: الرفيقُ بعبادهِ حيثُ لمْ يُكلِّفهم إلّا ما يطيقون[3].

3) ﴿خَبِيرٌ﴾: (خبر) أصلٌ يدلُّ على العلم، والخُبْرُ: العِلْمُ بالشَّيْءِ، تَقولُ: لي بِفُلانٍ خِبْرَةٌ وخُبْرٌ، واللّهُ تعالى الخَبيرُ، أي: العالِمُ بكلِّ شيْءٍ[4]، وخَبَرْتُ الأمرَ أَخْبُرُهُ؛ إذا عَرَفْتَهُ على حَقيقَتِه، وقيل: الخُبْر بالضَّمِّ: العِلْمُ بالباطِنِ الخَفيِّ؛ لاحْتياج العِلْم به للاخْتبار، والخِبْرَةُ: العِلْمُ بالظّاهرِ والباطنِ، وقيلَ: بالخَفايا الباطنة، ويَلْزَمُها مَعْرِفَةُ الأُمورِ الظّاهرة، والخَبيرُ مِنْ أسماءِ اللّهِ ﷻ: العالِمُ بما كانَ وما يكونُ، وقيل: العَليمُ بِبَواطِنِ الأَشْياءِ[5].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

تجديدُ الاستدلالِ إحسانٌ أيُّ إحسانٍ

يقول تعالى: لقد رأيتَ بِبَصَرِك، وعَلِمْتَ بِبَصيرتِك - أيُّها المُخاطَبُ - أنَّ اللّهَ أنزلَ من السَّماءِ مَطَرًا، فتُصبِحُ الأرضُ مُخضَرَّةً بما يَنبُتُ فيها من النَّباتِ، فإنَّ اللّهَ لَطيفٌ بعبادِه، ومن لطفِه استخراجُ النَّباتِ من الأرضِ بذلك الماءِ، وغير ذلك من ابتداعِ ما شاءَ أنْ يبتدعه، خَبيرٌ، ومن خبرتِه أنَّه لا تخفَى عليه الحَبَّةُ التي في باطِنِ الأرض، فيَسوقُ إليها الماءَ لتنبُتَ، وخبيرٌ بما يحدثُ عن ذلك النَّبتِ من الحَبِّ[6].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لطف).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: 4/ 24.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خبر).
(5) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خبر).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

كـلُّ شـيءٍ في الـكَـوْنِ يـدلُّ عليهِ، ويُعرِّفُ بنِعَمِه

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ جملةَ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ عن الَّتي قبلَها؛ لكونها جاءتِ استئنافًا ابتدائيًّا؛ إذ هي انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللّهِ تعالى على النّاسِ بمناسبةِ ما جرى من قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللّهِ على نِعَمِه، وألّا يَعْبُدوا غيرَه، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَمِ بـ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [الحجّ: 66]، أي: الإنسان المشرك[1].

ومضمون هذه الآية دليلٌ على إثبات قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ ونظيرِه من قبلُ، فهذا الدليل يُنْتِجُ هذه الأوصاف والأسماء ثابتة للّه ﷻ، وهذه الأوصافُ في هذه الآيةِ بعضُ آثارِها ولوزامها، فلهذا غابت الواو؛ لما بين هذه الآية وما قبلها من كمال الاتِّصال، بغض النَّظر عن كون ما قبلَها خبرًا وكونِ صدرِها إنشاءً: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ الآية؛ إذْ ذلك لا ينظر إلى المعاني وحركتها وأنسابها، ولم يكنْ باب الفَصْل والوَصْل غامضًا دقيقًا إلّا مِن أجل أنَّ مدارَه على ذلك.

بلاغةُ الاستفهام ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ ونوعه وغرضه:

يُنَبِّهُ ليُراجعوا أنـفـسـهـم، فيرجعوا

الاستفهامُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ إمّا للتنبيه، ثمَّ يبتدِئُ بما بعده، كَأنَّهُ قالَ: أترى؟ ينزلُ اللّهُ المَطَرَ، فتُصْبِحِ الأرْضُ مُخضرَّةً، فلهَذا رفع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾[2]، أيْ: هو استفهام حقيقيٌّ، أو هو استفهامٌ إنكاريٌّ للنفي، أي: الدّالُّ على نفيِ الوقوع؛ إذ نَزَلَتْ غفلةُ كثيرٍ من النّاس

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.

(2) مكي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4925، والسمعاني، تفسير القرآن: 1/ 31، والسيوطي، الإتقان: 3/ 272.

عن الاعتبارِ بهذه النِّعمةِ والاعتدادِ بها منزلةَ عدمِ العلم بها، فأنكرَ ذلك العدم على النّاس الذين أهملوا الشُّكرَ والاعتبار[1].

كون المُنزِل هو اللّه تعالى، وإنْ لم يكن مُبصَرًا، لكنَّه لكمالِ ظُهوُرِه كالمحسوسِ

أو استفهامٌ تَقريريٌّ للمَنْفيِّ، كما يُفصحُ عنه الرفعُ[2]؛ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ دخلَ على (لم) النّافية، ونفيُ النَّفي إثباتٌ، فأفادَ التقريرَ، والمعنى: لقد رأيتَ بنظرِكَ وعلمكَ أنَّ اللّه أنزلَ ماءً من السَّماءِ، فتَخْضرُّ الأرض[3]، أيْ: هو أمرٌ مُتقرِّرٌ ماضٍ، لا يُدَّعى جَهْلُه[4]، أيْ: إنكارٌ للنَّفي مع تقريرٍ للمَنْفي، والمعنى: ألم تعلم؟ أو: ألم تُبصر؟ فإنَّ كون المُنزِل هو اللّه تعالى، وإنْ لم يكن مُبصَرًا، لكن لكمالِ ظهوره كالمحسوس[5]، وفي هذا إيضاحٌ لحُجَجِهِ سبحانه وإنارةٌ لبراهينه[6]، وحثٌّ منه تعالى، وترغيبٌ للنَّظرِ في آياته الدّالّاتِ على وحدانيَّته وكماله[7].

لا تعارضَ بين حَمْلِ الاستفهام على كلِّ هاتيك المعاني

ويرى بعضُ العلماء أنَّ ﴿أَلَمْ﴾ حرفُ تعجيبٍ، يعجِّبُ رسولَ اللّه ﷺ جميعَ ما يكون من أفعالِه سبحانه[8]، كأنَّهُ قيل: تنبَّه لإنزالنا الماء لتتعجَّب منه على هذه الحالةِ البديعةِ والقدرةِ الباهرةِ، فيكون لكَ تبصرةً وذكرى للإنابةِ والخضوعِ، وأنَّ اللّهَ يبعثُ مَنْ في القبور[9]، ولا تعارض بين حَمْلِ الاستفهام على كلِّ هاتيك المعاني.

معنى (لم) في ﴿أَلَمْ تَرَ﴾:

رؤيةُ إنزالِ الماءِ واخضرارِ الأرضِ والعلمِ به أمرٌ مُتقرِّرٌ ماضٍ لا يُدَّعى جَهْلُه

(لم) في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ نافيةٌ، وقد دخلَتْ على الفعل المضارع ﴿تَرَ﴾ لتُخلِّصَهُ إلى المُضيِّ، وقد حُكيَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 77، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 117.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5017.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 437.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.
(8) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 437.
(9) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 522.

مُتعلَّقُهُ - وهو الإنزالُ - بصيغَةِ الماضي ﴿أَنزَلَ﴾، ولم يُراعَ فيهما معنى تَجدُّدِ ذلك؛ لأنَّ مَوقِعَ إنكارِ عدَمِ العِلمِ بذلك الذي أفاده الاستفهامُ الإنكاريُّ هو كونُه أمرًا مُتقرِّرًا ماضيًا لا يُدَّعى جَهْلُه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بفعل الرُّؤية مادَّةً وصيغةً:

تجدُّدُ المشاهدةِ يَصْرِفُ المُعانَدَةَ

عبَّرَ القرآنُ بالفعل ﴿تَرَ﴾ في آية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ دون قوله: (ألم تعلم)؛ وذلك لاتِّساع دلالةِ لفظ الرُّؤيةِ؛ إذ (رأى) تدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعين أو القلبِ، ورأى إذا تعدّى إلى مفعولَيْن؛ اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيِّ بحاسَّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقلِ[2]، فكان التَّعبيرُ بالرؤية أوسعَ دلالةً؛ لأنَّه يشملُ الإبصارَ والمشاهدةَ بالعين، ويشملُ الاعتبارَ بالقلب، بينما تركيب (ألم تعلم) يدلُّ على الإدراكِ والمعرفة.

ويمكن أنْ تُرادَ بـ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ الرؤيةُ الحقيقيَّة؛ لأنَّ الماءَ النّازل من السَّماء يُرى بالعين، أو أنَّ المُراد بالرؤيةِ: العِلمُ لا الرؤية الحقيقية[3]، وقد عبَّر بالرُّؤية؛ ليبيِّن للنَّبيِّ ﷺ أو لأيِّ سامع لهذا الكلام "أنَّ الذي يُعَلِّمُك اللهُ بِهِ أوثقُ ممّا تهديك إليه عينُك"[4].

يصحُّ أن يكونَ الخطاب هنا لكلِّ مَنْ تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المَرْئيَّ مشهور

وكذلك عبَّرَ بالرؤية للإشارةِ إلى أنَّ هذا الأمرَ - وهو إنزالُ الماءِ من السَّماءِ وإنباتُ النباتِ - أمرٌ يراهُ كلُّ أحدٍ من الخلقِ، وعليه فالحجَّةُ به على المنكرين أكبرُ؛ إذ الخطابُ في الآيةِ يصحُّ أن يكون لكلِّ مَنْ تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المَرْئيَّ مشهورٌ[5].

كما أنَّ التعبيرَ بالرؤيةِ أبلغُ من التَّعبيرِ بألفاظ متقاربة في المعنى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى)، والعسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 94، والراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (رأى).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.

(4) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9909.

(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.

مثل: (ألم تنظر؟) أو: (تبصر؟) رغم اشتراكها في معنى الإدراك، ولكنَّ لكلٍّ منها درجةً في الإدراك، فأعلاها: الرؤيةُ التي تتميَّز بالعلم، وأمّا البصرُ؛ فيتميَّز بالوضوح، وأدناها النَّظرُ الذي يكون بمعاينةِ الشيء دون رؤيته، وقد يكون بتأمُّله والتَّفكُّر فيه مع رؤيته.

التَّعبيرُ بالرؤيةِ أبلغُ من التَّعبيرِ بألفاظ متقاربةٍ في المعنى

وأمّا التعبيرُ بصيغة المضارع ﴿تَرَ﴾ الذي يفيدُ التجدُّدَ والاستمرارَ والتصويرَ، للتناسُبِ مع تجدُّد صورةِ نزولِ المطرِ واخضرارِ الأرض والبدءِ في عرضِ مشاهدهِ أمامَ العيون، فتتجدَّد الدعوةُ للرؤيةِ والاعتبار؛ كلَّما تجدَّد مشهدُ إنزالِ المطر، وللتَّناسُبِ مع السياق، حيثُ عُبِّرَ بصيغةِ المضارع في ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ في تصويرِ حدثِ إنزالِ الماء من السَّماء واخضرارِ الأرضِ، ويشتركُ مع الإطنابِ بذكرِ السماءِ رغمَ أنَّ إنزالَ الماءِ لا يكونُ إلّا مِنَ السماء[1].

تـتـجـدَّدُ الدعوةُ للرُّؤيةِ والاعتبار؛ كلَّما تجدَّد مشهدُ إنزالِ المطر

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير عن العلم بالرُّؤية:

اختار البيانُ القرآني لفظَ ﴿تَرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، وأرادَ العلم، والمعنى: ألم تعلم أنَّ اللّهَ أنزلَ من السَّماء ماءً، أيْ: إنَّ المرادَ هنا ليس هو الرؤيةَ الحقيقيَّة، وإنَّما الرؤية المجازيَّة بإطلاقِ الرُّؤية وإرادةِ العلم، لأنَّ إنزالَ المطر، وإنْ كان مُشاهدًا بالبصرِ، فكون اللّهِ هو الذي أنزله إنَّما يُدرَكُ بالعلم لا بالبصرِ، فالرُّؤيةُ هنا علميَّة على التَّحقيق[2]، ولأنَّ الرؤيةَ إذا لم يقترن بها العلمُ؛ كانت كأنَّها لم تحصل، وهو ما رجَّحه الرازي في تفسيره[3].

رُبَّ مَجازٍ هو الحقيقة السياقيةُ

والمجازُ هنا مرسلٌ، علاقتهُ سببيَّة؛ إذ السَّببُ هو الرؤيةُ، والمسَبَّبُ هو العلم؛ لأنَّ الرُّؤيةَ طريقٌ إلى العلم، وفي هذا كنايةٌ عن وضوحِ هذا الأمر، وهو إنزال اللّهِ للماءِ من السَّماء، وتسبُّبه في اخضرار

مع المجاز اتِّساعُ المعنى: (الرُّؤية والعلم)، ومع الحقيقة: (العلم) معنى واحدٌ

(1) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 223.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 807.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 246.

الأرض؛ إذ يراه كلُّ أحدٍ من الخلقِ، ويستطيعُ إدراكه، وعليه فالحُجَّةُ به على المُنكرين أكبرُ، فمع المجازِ اتِّساع المعنى: (الرؤية والعلم)، ومع الحقيقة: (العلم) معنًى واحدٌ، والأقوى منهما هو الأبلغُ؛ تناسبًا مع معنى الكمال المُفاد بالتعريف بـ(أل) في الفاصلة السابقة على هذه الآية: ﴿ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾.

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

كلُّ دليلٍ نعمةٌ، وكلُّ نعمةٍ دليلٌ

الآيةُ هي انتقالٌ إلى التَّذكيرِ بنِعَمِ اللّهِ تعالى على الناس بمناسبة ما جرى من قوله: ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ﴾، والمقصودُ: التَّعريضُ بشُكْرِ اللّهِ على نِعَمِه، وألّا يَعْبُدوا غيرَهُ، كما دَلَّ عليه التَّذييلُ عَقِبَ تَعدادِ هذه النِّعَم بـ ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ ۝٦٦﴾ [الحجّ: 66]، أي: الإنسانُ المشركُ، وفي ذلك كلِّه إدماجُ الاستدلالِ على انفرادِه بالخَلقِ والتَّدبيرِ، فهو الرَّبُّ الحقُّ المُستحِقُّ للعِبادةِ، والمناسبةُ هي ما جرى من أنَّ اللّهَ هو الحقُّ، وأنَّ ما يدعونه هو الباطل(1).

المُرادُ بالمخاطَبِ في الآية:

ليس كمِثْلِ نبيِّنا نبيٌّ يُحبُّ أمته

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لكلِّ مَن تصلحُ منه الرُّؤية؛ لأنَّ المرئيَّ مشهور(2)، والمعنى: ألم تبصر - أيُّها الرائي - أنَّ اللّهَ يُنزِلُ من السماءِ مطرًا؟(3) وفي هذا إشارةٌ إلى وضوحِ الحجَّة وقوَّتها، وهذا لا يُعارِضُ مَنْ فسَّرها بكون الخطاب للنَّبيِّ ﷺ كالطَّبريِّ الذي، قال: "أَلَمْ تَرَ - يا محمد - أنَّ اللّهَ أَنْزَلَ من السَّماءِ ماءً"(4)؛ لأنَّه ﷺ هو المخاطَبُ الأوَّل الذي سيُبلِّغُ القرآنَ عن اللّهِ سبحانه، وخطابه هو خطابٌ لأمَّته.

لماذا لا تنتفعون بالقرآن كما تنتفعون بالماءِ؟

وإذا حُمِلَ الخطابُ على أنَّه للنَّبي ﷺ؛ كان فيه معنى أنَّه (أي:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 317.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 17/ 136.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 676.

النبي) يُحبُّ، ويرجو أن ينظرَ هؤلاء الكفار في تلك الأدلة الظاهرة، فيُفلحوا، ويَفوزوا، وفيه إيماءٌ إلى أنَّ إنزالَ القرآن كإنزال الماء، كلاهما مِن السَّماء، وأنَّ معاني القرآن كالماء، كلاهما يؤثِّر، وينفع؛ فلماذا لا تنتفعون بالقرآنِ كما تنتفعونَ بالماءِ؟ وإذا صحَّ حمْلُ الخطابِ على هذا النَّحو؛ رأيتَ الوجهَ الآخَرَ الذي يُحْمَلُ فيه الخطابُ على كلِّ أحدٍ داخلًا في هذا الوجه، وحاضرًا فيه، فالحَمْلُ على أنَّ الخطاب له ﷺ هو الأعلى.

نكتةُ توالي المُؤكِّدات في قوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ﴾:

قد تكون الأُلْفة شرًّا

أكَّد البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ بعِدَّة مُؤكِّدات، **أوَّلُها:** حرفُ التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ الذي يُؤكِّد إنزالَ اللّه المحيطِ قدرةً وعلمًا الماءَ من السماء، **وثانيها**: الجملةُ الاسميَّةُ ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ التي تدلُّ على الثَّباتِ والاستمرارِ وقوَّة الحُكم وبقائه، فإنزالُ الماءِ من السَّماءِ سُنَّةٌ إلهيَّةٌ ثابتةٌ جعلها اللّه سببًا لإحياءِ الأرضِ بعد موتها، ووراء التَّوكيد كلُّ تعجُّب مِمَّن يُشاهد ذلك، ولا يعمل بموجِبه ومقتضاه، فمَنِ انصرف عن العمل بذلك؛ كان كمَنْ أنكره؛ لأنَّه لم يُشاهده.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾:

المفعوليَّة تأكيدٌ على أنَّ الرؤية علميَّةٌ

﴿أَنَّ﴾ وما في حيّزها في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ سدَّتْ مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ لأنَّ الرؤيةَ في الآية علميَّةٌ[1]، والتَّقدير: "ألم تعلمْ أنَّ اللّهَ مُنزلٌ من السماء ماءً، فتصبحُ الأرضُ مُخضرَّةً"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

سبحان مَن لم يقطع إحسانه عن عباده

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الماء من السَّماء بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾، ولم

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 470.

(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 807.

يراعِ فيه معنى تجدُّدِ الإنزال؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ وقوعِ إنزالِ الماء، فهم قد عاينوه، ويتقلَّبون في آثاره من اخضرارِ الأرض، ولأنَّ موقعَ إنكارِ عدمِ العلمِ بذلك هو كونُه أمرًا مُتَقَرِّرًا ماضيًا لا يُدّعى جَهله[1]، ولمناسبةِ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ التي تعني: (ألم تعلم)، أو: (ألم تُخبَر)، والإعلامُ والإخبارُ يكون عن شيءٍ حدثَ، وانقضى.

تنبيهٌ على نعمة إنـزالِ المـاء من السَّماء

وفي التَّعبير بالماضي تنبيهٌ على نعمة إنزال الماءِ من السَّماء؛ حيث إنَّها لم تنقطع عنهم أبدًا، وفي كلِّ مكان، فالسَّماء إن لم تُمطِر هنا؛ أمطرت هناك؛ ففي الماضي امتنانٌ من شأنه أن يجُرَّ العبدَ إلى الإيمان.

معنى ﴿مِنَ﴾ في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ابـتـداءُ نـزولِ الماءِ من السَّماءِ دلالـةٌ عـلى أنَّ اللـه هـو العـليُّ الكبير

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ لأنَّ ماء المطرِ يتكوَّنُ في طبقاتِ الجوِّ العليا الزمهريريَّة عند تصاعدِ البخارِ الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البخارُ كثيفًا، وهو السحابُ، ثم يستحيلُ ماءً، وفي كونِ هذا الماءِ نازلًا من السَّماءِ إشارةٌ إلى طهارته؛ إذ هو ليس كماءِ الأرضِ الذي ربَّما خالطته النَّجاسات، وإشارةٌ إلى مكانته؛ إذ هو نازلٌ من السَّماءِ التي لها مكانةٌ ومهابةٌ وتعظيمٌ في قلوبِ النّاس، كما أنَّه لا تأثيرَ لكسبِ العبدِ فيه بزيادةٍ أو نقصٍ، بخلافِ ماءِ الأرضِ، فيُنال بالآلاتِ، وإلى أنَّ السماءَ هي مبدأُ الماءِ، فأصلُ ماءِ الأرضِ هو من ماءِ السَّماء.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

يعهدون نزولَهُ من السَّماء؛ ولا يؤمنون بمَن بيده إمساكُه؛ إذا شاء

(أل) في كلمة ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ - في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ - عهديَّةٌ، والعهدُ فيها ذهنيٌّ، أيِ: السَّماء المعهودة، وهي السَّماء التي ينزلُ منها المطر، وهي ما علا الإنسان، فليستْ هي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.

أجرامَ السماءِ من شمسٍ وقمرٍ وكواكبٍ في أبراجها وتماسكها، إنَّما المطرُ ينزلُ من سحابٍ قريب دانٍ أو بعيد قاصٍ، وذلك بيَّنه قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا﴾ [النور: 43][1] الآية، والغرضُ من هذا التعريفِ أنْ يستحضروا صورةَ السَّماءِ التي ينزلُ منها المطر، بما يقيمُ عليهم كمالَ الحُجَّةِ في بيانِ عظمةِ قدرةِ اللّٰهِ، فيعملوا بمقتضَى ذلك من اعتقاد التوحيد، وترك الشِّرك.

نكتةُ تنكير ﴿مَآءٗ﴾:

تفخيمٌ لشأن الماء؛ إذْ هو سببُ الحياةِ ودوامها

نكَّر البيان القرآنيُّ لفظَ ﴿مَآءٗ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ في سياقِ الامتنانِ والاستدلالِ على قدرةِ اللّٰه؛ لإفادةِ معنى التَّكثيرِ والتَّفخيم لشأنِ الماءِ النّازلِ من السَّماء، فهو سببُ الحياةِ ودوامها، أيْ: أنزلَ من السَّماء ماءً كثيرًا فخيمًا.

معنى الفاء في قوله ﴿فَتُصۡبِحُ﴾:

في التعقيب إيذانٌ بسرعةِ قدرةِ الخالقِ سبحانه

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ عاطفةٌ، وتُفيد التَّعقيب والفوريَّة بالنظر إلى المبدأ، فتعقيبُ كلِّ شيءٍ بحسَبِه[2]، كما في قولِه تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ﴾ [المؤمنون: 14]، وكذلك ابتداءُ الاخضرارِ عقيبَ الإنزالِ، وإنْ كانَ منتهاه بزمانٍ طويل؛ لأنَّ النَّباتَ يَخرُجُ بعدَ نُزولِ المطرِ بمُدَّةٍ، وفي هذا إشارةٌ إلى سرعةِ ظهورِ النَّباتِ عقبَ نزولِ المطر، واستمرارِه كذلِك عادَة[3]، وتنبيهٌ إلى عجائبِ اللّٰهِ في الخلقِ والتكوين، إذ يكونُ من التلاقح بين الماءِ والأرضِ اليابسة نباتٌ مخضرٌّ تزدانُ به الأرض، وتكونُ ذاتَ منظرٍ بهيج[4]، بما يؤذنُ بعظمةِ قدرةِ الخالق سبحانه وسرعتها.

قد تفيدُ الفاء التراخي، وكذلك معنى السَّببيَّة

ويمكن ألّا تكونَ الفاءُ للتعقيبِ، وإنَّما للتراخي كـ(ثمَّ)، بأنْ تكونَ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 450، والسيوطي، الإتقان: 2/ 247.

(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.

﴿فَتُصۡبِحُ﴾ هنا بمعنى تصير؛ لأنَّ (كان) تُستعملُ بمعنى: صار، والعرب تقول: فلانٌ أصبحَ غنيًّا، أيْ: صار غنيًّا[1]، وثَمَّة جُمَلٌ مَحذوفةٌ عُطِفت عليها ﴿فَتُصۡبِحُ﴾، والتَّقديرُ: (فتَهتزُّ، وتَرْبو، فتُصبِحُ)؛ ويُبيِّنُ ذلك قولُه تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡ وَأَنۢبَتَتۡ﴾ [الحج: 5][2]، أو التقدير: (أتَيْنا بِهِ، فطالَ النَّبْتُ، فتُصبِحُ)[3]، وفيها كذلك معنى السببيَّة؛ لأنَّ اخضرارَ الأرْضِ مُستقبَلٌ بالنسبةِ إلى الإنْزالِ مُسبَّبٌ عنه[4].

إطلاعُ الإنسانِ على كمال عجزهِ عن إنبات شيءٍ

ويمكن أن يتوجَّه معنى التَّعقيب بأنَّ عمليَّة تسبُّبِ اخضرار الأرض عن إنزال الماء من السماء في الأرض أو عليها: شيءٌ يغيبُ عن إدراك الإنسان؛ ولهذا قال في الفاصلة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾، وإنَّما الذي يشاهدُه هو مآل تلك العمليَّةِ، مِنَ الاخضرار المذكور، والغرضُ من إطلاع الإنسان على كمال عجزهِ عن أن يُنبت شيئًا، وعلى كمال قدرةِ اللّه وامتنانه على عبادِه، فهو الذي أنزلَ من السَّماء ماءً، وهو الذي يجعل الأرض مُخضرَّةً، أفلا يشكرون؟ فيوحِّدونه سبحانه، ويُفردونه بالعبادة والدعاء.

نكتةُ التَّعبير عن مصير الأرض بالفعلِ المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾:

الإشعارُ بتجدُّدِ أثـرِ الإنـزالِ واستمرارِه واستحضارِ صورةِ الاخضرارِ

التَّعبيرُ عن مَصيرِ الأرضِ بصيغةِ المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ - مع أنَّ ذلك مُفرَّعٌ على فِعْلِ ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ الَّذي هو بصيغةِ الماضي، أيْ: عَدَلَ عن لفظِ الماضي، ولم يَقُلْ، فـ (أصبحت)؛ لأنَّه قُصِدَ من المُضارِعِ التَّعجيبُ[5]، وكذلك تصويرُ الحالِ واستحضارُ تلك الصّورةِ العجيبةِ الحَسَنةِ من الاخضرارِ

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 4/ 295.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107، وعضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 227.
(5) السيوطي، معترك الأقران: 3/ 308.

في ذهن السامع[1]، كأنَّها لم تزلْ واقعةً مُشاهدَةً، وصيغةُ الماضي لا تُفيدُ ذلك؛ لأنَّ الفعلَ الماضي يفيدُ انقطاعَ الشَّيء[2]، ولإفادةِ بَقاءِ أَثرِ إنزالِ المطَرِ الذي يتخزَّن في الأرضِ زمانًا بعْدَ زَمانٍ، وتجدُّده واستمراره؛ كلَّما سُقيتْ به الأرضُ الميتة[3]، فإنزالُ الماءِ مضى وجوده، واخضرارُ الأرضِ باقٍ لم يمضِ[4].

مَـنْ قـدرَ على إحـيـاءِ الأرض بعد موتها قادرٌ عـلى الـبـعـثِ والإحياء

وفي التعبير بصيغةِ المضارع ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ تنبيهٌ على عظمةِ النِّعمةِ بطولِ زمانِ أثرِ المطر وتجدُّدِ نفعه[5]، ولأنَّ اخضرارَ الأَرْض مستقبَلٌ بالنَّسبةِ إِلَى الإِنْزال، مسبَّبٌ عنه[6]، وفي هذا كلِّه قصدٌ لِلْمُبالَغَة في تَحقيقِ اخضِرارِ الأَرْضِ لِأَهَمّيَّتِه؛ إِذْ هو المقصودُ بالإِنْزالِ[7]، وبالتالي المبالغةُ في الاستدلالِ على مُنكري البعثِ بأنَّه مَنْ قدرَ على استمرارِ إحياءِ الأرض بعد موتها ويبسها لقادرٌ على البعثِ والإحياء.

نكتةُ رفعِ الفعل ﴿فَتُصۡبِحُ﴾:

سببُ اخـضِـرارِ الأرضِ إنزالُ الماءِ لا رؤيةُ إنزالِه

رَفَعَ البيانُ القرآنيُّ الفعلَ ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ رغم أنَّه سُبِقَ باستفهام؛ لأمور: أحدهما: أنَّه استفهامٌ تقريريٌّ بمعنى الخبر، أيْ: قد رأيتَ، فلا يكونُ له جواب، والثاني: أنَّ ما بعدَ الفاءِ ينتصبُ؛ إذا كان المستفْهَمُ عنه سببًا له، ورؤيته لإنزالِ الماءِ لا يتسبَّبُ عنها اخضرارُ الأرض، وإنَّما اخضرارها يكون بسببِ نزولِ المطر، فالسببيَّةُ هنا غيرُ مُتحقِّقةٍ[8]، والثالث: أنَّه لو نصبَ؛ لأعطى عكسَ ما هو الغرض؛ لأنَّ معناه إثباتُ الاخضرارِ،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 117، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/ 208.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 2/ 148.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(6) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 107.
(7) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 374.
(8) العكبري، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 947، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، والشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 295.

فينقلبُ بالنَّصبِ إلى نفيِ الاخضرار، مثالُهُ: أنْ تقولَ لصاحبك: ألم ترَ أنّي أنعمتُ عليك، فتشكرُ، وإنْ نصبتَهُ؛ فأنت نافٍ لشُكرِهِ شاكٍّ لتفريطه، وإنْ رفعتَهُ، فأنت مُثبِتٌ للشُّكر[1].

يمكنُ أنْ يكون (فَتُصْبِحُ) بمعنى: أصبحتْ

ويجوزُ أنْ يكون ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ بمعنى: أصبحَتْ، وهو معطوفٌ على ﴿أَنزَلَ﴾، أيْ: مُفرَّعٌ عليه، فهو مثبتٌ في المعنى، وليس مُفرَّعًا على النَّفي ولا على الاستفهام؛ لأنَّه لم يُقصَدْ بالفاء جوابٌ للنَّفي؛ إذ ليس المعنى: ألم ترَ، فتصبحَ الأرض؛ فلذلك فلا موضعَ للنَّصبِ إذًا[2].

إنزالُ الماءِ مِن السَّماء نعمةٌ، وجعْلُ الأرض مُخضرَّةً نعمةٌ أخرى

وفي نظمِه مرفوعًا - غير ما سبقَ ذكره، وغير متعارض معه - تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ إنزال الماء مِن السَّماء نعمةٌ، وجعْلُ الأرض مُخضرَّةً نعمةٌ أخرى، فهما يجريان في فلك صورة واحدة ومعنى واحد، ولكنَّ كلًّا منهما يدلُّ على الله، ويُحقِّقُ المقصود للسياق.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ دون بقية الأوقاتِ:

رُؤيةُ الخُضرةِ في الصَّباح تُجدِّدُ الإيمان

خُصَّ الفعل ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ دون سائرِ أوقاتِ النَّهار؛ لأنَّ رُؤيةَ الأشياءِ المحبوبةِ أوَّلَ النَّهارِ أبهَجُ وأسَرُّ للرّائي[3]؛ ولأنَّ رؤيةَ الخضرةِ بالنَّهارِ أوضحُ منه بالليل، ولأنَّ رؤيةَ الخُضْرة في كلِّ وقتٍ تُبهج، فكيف تكون بهجة رؤيتها صباحًا، والإنسان في مطلع سعيه وفكره؟ وكأنَّ في اصطفاء ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ إرشادًا إلى خير الأوقات لرؤية اخضرار الأرض، والتأمُّل فيه، والمعنى: أنَّ الأرضَ صارت على هذا باللَّيل والنهار[4]، أو لأنَّ ﴿فَتُصۡبِحُ﴾ هنا بمعنى تصير، والعرب تقول: فلان أصبح غنيًّا، أيْ: صار غنيًّا.

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.

(2) العكبري، التبيان: 2/ 947، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 336، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533.

(4) مكي، الهداية إلى بلوغ الغاية: 7/ 4926.

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

(أل) في كلمة ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾ جنسيَّةٌ، أيْ: جنسُ الأرضِ الصالحةِ للإنباتِ؛ إذ ليس كلُّ الأرضِ لها أهليَّةُ الإنبات، والمعنى: تصبحُ كلُّ أرضٍ صالحةٍ للإنباتِ مُخضرَّةً، والغرضُ من هذا التعريفِ الدَّلالةُ على عظيم قدرةِ اللّٰهِ في كلِّ أرضٍ صالحةٍ للإنباتِ ينزلُ عليها الماءُ، فتصبحُ مخضرَّةً، وأيُّ ماء يسقي كلَّ أفرادِ هذا الجنس؟.

عمومُ النِّعمة آيةُ كمالِ القُدرة

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مُخۡضَرَّةً﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبَّرَ البيانُ القرآنيُّ عن النَّباتِ - الَّذي هو مُقْتضى الشُّكرِ؛ لما فيه من إقامةِ أقواتِ النّاسِ والبهائم - بذِكْرِ لَونِه الأخضرِ، فقال: ﴿فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾؛ لأنَّ ذلك اللَّونَ مُمتِعٌ للأبصار، فهو أيضًا موجِبُ شُكْرٍ على ما خلَقَ اللّٰهُ من جَمالِ المصنوعاتِ في المَرْأى، كما قال تعالى: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسۡرَحُونَ ٦﴾ [النَّحل: 6][1]، ولأنَّ في التعبيرِ بالخضرةِ إشارةً إلى أنَّ الأرضَ أصبحتْ حيَّةً يانعةً مهتزَّةً ناميةً، بعد أنْ كانت مسودةً يابسةً ميِّتةً هامدةً[2]، وأصبحت كسوةً باهرةً بالنَّباتِ النّاعم الرَّيّانِ الذي يُرى لشدَّةِ خُضرتِهِ مِنْ بُعْدٍ كأنَّهُ أَسْوَدُ[3]، ويُحسِّن هذا أنَّ كثيرًا مِن أنواع النَّبات فيه اللون الأخضر.

في كلِّ شيء جمالٌ، وإنَّما العيبُ في الناظر

و﴿مُخۡضَرَّةً﴾ خبر ﴿فَتُصۡبِحُ﴾، والخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبه، وهي اسمُ فاعل للفعلِ (أخضر) على وزن (أفعل)، وهو ممّا يُصاغ للاتِّصاف بالألوان، ومجيئُها بصيغةِ اسم الفاعل الذي يُفيدُ الثُّبوتَ والدَّوامَ واللُّزوم؛ للإيذانِ بثبوت خُضرتها ولزومه، فالأرضُ

رؤيةُ الأرضِ مُخضرَّةً بين عشيةٍ وصباحٍ تدلُّ على قدرة اللهِ على البعثِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 328.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 82.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خضر).

لخضرتها اختفتْ طينتها، ولم تظهر إلّا خضرةُ زرعها، والاخضرارُ للزَّرعِ لا للأرضِ، ولكن وُصفت بالاخضرارِ؛ لأنَّه صارت للأرض كسوةٌ باهرةٌ زاهرةٌ[1]، وللإشارةِ إلى أنَّ رؤيةَ الأرضِ بعد نزولِ الماءِ من السَّماءِ مُخضرَّةً بين عشيَّةٍ وصباحٍ ظاهرةٌ واقعةٌ مكرورةٌ تدلُّ على قدرةِ اللهِ على الإحياءِ والبعثِ يوم القيامة.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

ما أسهلَ توصيلَ الإنزال والاخضرار إلى الله!

فَصَلَ القرآنُ جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ عمّا قبلها ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ لما بين الجملتَيْن من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ الجملة الثانية ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ جاءَتْ مُستأنفةً تُفيد إمّا تعليلَ إنزالِ الماءِ من السَّماءِ المُتفرِّع عليه الاخْضِرارُ؛ لِأنَّهُ رحيمٌ رَفيقٌ بِمَخْلوقاتِهِ، عَليمٌ علمًا دقيقًا بتَرْتيب المُسَبَّباتِ على أسْبابِها[2]، وعليمٌ بما ينفعهم، ويقومُ به عيشهم؛ لأنَّ الأرضَ إذا أصبَحَتْ مُخضرَّةً، والسَّماءَ إذا أمطَرَتْ؛ كان ذلك سببًا لعَيشِ الحيواناتِ على اختلافها أجمع[3]، أو تعليلًا لإنتاجِ الأشياءِ من أضدادها؛ إذ إنَّ كلًّا من الماءِ في رقَّته وميوعته، والتراب في كثافته وجموده في غايةِ البعدِ عن النباتِ في تنوُّعه وخُضرته ونُموِّه وبهجته[4]، فما قبلَ الفاصلة بعضُ لوازم معناها.

فائدةُ تتابعِ المؤكِّدات في فاصلة الآية:

لا يُستبعدُ عمَّن اتَّصف باللُّطفِ والعلمِ البعثُ والإحسانُ في الرِّزق

تتابعَتِ المؤكِّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ من ﴿إِنَّ﴾ التي تفيدُ التَّوكيد، والجملةِ الاسميَّةِ المفيدةِ الثُّبوتَ والدَّوامَ، وصيغةِ المبالغة في الاسمَيْن ﴿لَطِيفٌ﴾ و﴿خَبِيرٌ﴾ اللَّذيْن جاءا على وزن (فعيل)، وكذلك تكرارُ خبرِ الجملةِ الاسمية - إذ إنّ ﴿خَبِيرٌ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 319.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.

خبرٌ ثانٍ - والاستئنافُ الذي يقتضي تأكيدَ الحُكم؛ إذ جاءتِ الجملةُ تعليلًا لإنزالِ الماءِ، أو إنتاجِ الأشياءِ من أضدادها، وتوالي هذه المُؤكِّداتِ يفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ لطفهِ سبحانه وعلمه، ممّا جعلَ المُفسِّرين يذكرون للوصفَيْن في الفاصلة المعانيَ الكثيرة التي تصلحُ كلُّها، بما يدلُّ على كمال لطفه وعلمِه، فمن هذه المعاني: هو الذي له تمامُ العزِّ وكمالُ العلم لطيفٌ يُسبِّبُ الأشياء عن أضدادها، خبيرٌ مطَّلعٌ على السرائرِ، وإنْ دقَّتْ[1]، وهو اللطيفُ بأرزاقِ عِبادِه، الخَبيرُ بما في قُلوبِهم من القُنوطِ، وهو اللَّطيفُ في أفعاله، الخبيرُ بأعمالِ خَلْقِه، وهو اللَّطيفُ باستخراجِ النَّبتِ، الخَبيرُ بكيفيَّةِ خَلْقِه[2]، وهذه المعاني كلُّها تفيدُ التَّنبيهَ على أنَّ مَنْ كان هذا وصفُهُ؛ لا يُستبعدُ عليه إحياءُ مَنْ أرادَ بعد موته، والإحسانُ في رزقه[3]، ووراء هذا التَّأكيدِ التَّنبيهُ على أنَّ في الكون كثيرًا ممّا لو تأمَّلَهُ العبد؛ لتوصَّلَ إلى اللَّطيف الخبير، وعرَفَهُ، وقام وصفُه بذلك في نفسه.

نكتةُ تذييلِ الآية بـ ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

حِبالُ الوصل بين صفاته وآثارها لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى

ذيَّلَ البيانُ القرآنيُّ الآيةَ الكريمةَ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ لمطابقتهما ما سبقَ من معنى الآية ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَتُصْبِحُ ٱلْأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ التي تضمَّنت ذِكْرَ الرَّحمة للخَلْقِ بإنزالِ الغيث، فكان لطيفًا بهم بإيصالِ منافعهم، وخبيرًا بنفعهم وبمقادير مصالحهم، فيفعلُ على قدرِ ذلك من دونِ زيادةٍ ونقصان[4]، أيْ: يلطفُ عن خبرةٍ وعن حكمةٍ بالمقاديرِ التي يفعلها، أو التي تضمَّنتِ الإشارةَ إلى لطفِ ذلك الماءِ النازلِ الذي يمتزجُ بالتُّربةِ، ولا يُفسدها، والذي يحملُ الرحمات... ولتأتي الخبرةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 76.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 5/ 170.
(4) ابن الأثير، المثل السائر: 3/ 164، والعلويّ، الطِّراز: 2/ 204.

الإلهيَّة تُدبِّرُ الأمرَ في إنزالِ الماءِ بقدرٍ في الوقتِ المناسبِ وبالقدْرِ المطلوب، وفي امتزاجِ الماءِ بالتربةِ، وبخلايا النباتِ الحيَّةِ المتطلِّعةِ إلى الانطلاقِ والنّور؛ لتنشأ الحياة بعد الموت[1].

لطيفٌ واصلٌ علمُهُ واسعٌ فضلُهُ، خَبيرٌ بمصالحِ الخلقِ ومنافعهم

بعد تنبيهه ﷻ على إنزالِ الماء واخضرارِ الأرضِ الدّالَّيْن على القدرةِ الباهرة والمستوجبَيْن للإنابةِ والخضوعِ لله، وأنَّه يبعثُ مَن في القبور؛ ذيَّل ذلك بما يُعدُّ تتميمًا لإرادةِ الإنابة إليه والإيمانِ بالبعث بأنَّه ﴿لَطِيفٌ﴾ واصلٌ علمه أو فضله إلى كلِّ شيءٍ ﴿خَبِيرٌ﴾ بمصالحِ الخلقِ ومنافعهم[2]، كما أنَّ: (اللطيف) يناسب حالَ العناصر السابقة بعضِها ببعضٍ، فأين النَّباتُ المتنوِّعِ الأخضرُ من الترابِ الكثيف الجامد؟ وأين ذلك كلُّه من الماء في رقَّته وميوعه؟ ثم إنَّ في ذلك من الأسرار الدقيقة الخفيَّةِ ما فيه، ولا يخبر بشيء منها إلّا الخبيرُ بها، ألا يعلمُ ما خلقَ، وهو اللَّطيف الخبير به؟

فائدةُ تقديم صفةِ لطيف على خبير:

من لُطْفِهِ تعالى تقديرُ أرزاقِ عبادِهِ حسبَ علمِهِ لا حسبَ مُراداتِهم

وردَ اسمُ اللّه اللطيف مقرونًا باسم اللّه الخبير في خمسة مواضع، وقد تقدَّم اسمُ اللَّطيفِ على الخبير في هذه المواضع، وهو ما يُعدُّ عادةً قرآنيَّة، كما أنَّ اسمَ اللطيفِ الذي من معانيه الرِّفقُ والرَّأفةُ والرَّحمةُ[3] يتناسبُ مع مضمونِ الآيةِ التي تتحدَّثُ عن رحمةِ اللّه بإنزال الغيث، ورحمة اللّه بإنباتِ النَّبات، ولأنَّ رحمته وسعَتْ كلَّ شيء، فتتقدَّمُ، ولأنَّ من لطفِ اللّهِ بعباده ورحمته بهم أنَّه يُقدِّرُ أرزاقهم بحسب علمه بمصلحتهم لا بحسبِ مُراداتِهم، فقد يريدون شيئًا، وغيرُه أصلحُ، فيقدِّرُ لهم الأصلحَ، وإنْ كرهوه لطفًا بهم وبرًّا وإحسانًا[4].

يصحُّ أن يُقالَ: إنَّ ترتيبهما ناظرٌ إلى جعل الثاني من تمام الأوَّل؛

(1) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 16/ 9909.

(2) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 523.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لطف).

(4) نوال العيد، موسوعة شرح أسماء الله الحسنى: 2/ 290.

زيادة في الإحسان بتمكين المعنى المقصودِ في النَّفس؛ فهو لطيفٌ، وهو خبيرٌ؛ لأنَّه عليم بدقائق الأشياء ومواضعها الصالحة بها، وهو أيضًا عليمٌ بكلِّ شيء كان، وبكل شيء يكون، وبكل شيءٍ كائنٍ، وما لم يكن لو كان كيف يكون.

نكتةُ تنكيرِ الاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

لطفُهُ وخبرتُهُ سبحانه عظيمان لا يُحَدُّ حدُّهما ولا يُقادرُ قدْرُهما

نكَّرَ البيانُ الإلهيُّ الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ في سياقِ التَّنبيهِ على كمالِ قدرةِ اللّهِ الباهرةِ في إنزالِ الماءِ واخضرارِ الأرض والتَّعجيبِ منها، وجاء التَّأكيدُ لفاصلةِ الآية بعدَّة مؤكِّدات؛ لإفادةِ معنى التفخيم والتعظيم للُطفِ اللّهِ بخلقه، فقد وصل علمُهُ ولطفه إلى كلِّ جليلٍ ودقيقٍ، فلا يصعبُ عليه شيء، وهو الرحيمُ الرؤوفُ البارُّ بهم، والعالمُ ببواطنِ أحوالهم، وهو مع ذلك كلِّهِ مُحكِمٌ للأمورِ برفق، والتفخيمُ والتعظيمُ لعلم اللّه بما ينفعُ عباده، ويصلحهم، فهو الخبيرُ بالتدابير، وبما ظهرَ، وبطن[1]، وهذا اللُّطفُ والعلمُ لا يُحَدُّ حدُّهُ، ولا يُقادرُ قَدْرُهُ، ولا يعلمُ أحدٌ شأوَهُ، وهذه العظمةُ تفرغُ الطمأنينة على قلبِ النَّبيِّ ﷺ والمؤمنين.

دلالةُ المبالغةِ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾:

مَن عمي عن الحقيقة العظيمة؛ غاب عنه أصلُ معناها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن الاسمَيْن الجليلَيْن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ بصيغةٍ على وزن فعيل، وهو من أبنيةِ المبالغة، ولذا فُسِّرَ اللَّطيفُ بأنَّه الَّذي اجتمعَ لَهُ الرِّفقُ في الفِعلِ، والعلمُ بِدَقائقِ المَصالحِ وإيصالُها إلَى مَنْ قَدَّرَها لَهُ مِنْ خَلْقِه[2]، وفُسِّرَ الخبيرُ بأنَّه العالمُ بما كانَ وما يكونُ، وخاصَّةً بَواطِنَ الأَشْياءِ[3]، وغرضُ المبالغة هو أَنْ يحرِّكَ المشاعرَ والأحاسيسَ لتنفضَ عنها غبارَ الألفةِ لمشاهدِ

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السُّنَّة: 7/ 437، وأبو حفص النَّسَفي، التيسير في التفسير: 10/ 530، والإيجي، جامع البيان في تفسير القرآن: 3/ 68، ومجير الدين المقدسي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 4/ 445.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (لطف).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خبر).

إحياءِ اللّهِ الأرضَ بعد موتها، والتي تراها ظاهرةً واقعةً مكرورةً، بما يغرسُ في قلوبِ المؤمنين الثِّقةَ برحمتِه سبحانه، وبتدبيره وبنصرهِ - فهو لا يخفى عليه شيءٌ - وفي قلوبِ الكافرين عدمَ عبادةِ غيره، والإيمانَ بجماله وجلاله وبقدرته على البعثِ والنشورِ.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ألم تعلم) و(ألم تر):

في قولِه: (ألم تر) معانٍ زائدةٌ على قوله: (ألم تعلم)

يوجد تقاربٌ كبير بين التركيبَيْن (ألم تعلم) و(ألم تر)؛ إذ يُفسِّر قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ في المواضع التي ورد فيها بـ(ألم تعلم)، ولأنَّه لا ترادفَ في القرآن الكريمِ، فإنَّ هناك فرقًا بين التَّعبيرَيْن، وذلك على النحو الآتي:

(ألم تر): أصلها من (رأى)، وتدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعين أو القلب[1]، ورأى إذا تعدّى إلى مفعولَيْن؛ اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ إدراكُ المرئيِّ بحاسَّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقل[2].

و(ألم تعلم): أصلها من (علم)، ويدلُّ على المعرفةِ والإدراكِ، عَلِمه يَعْلَمُهُ عِلْمًا: عَرَفَهُ حَقَّ المعرفة، والعِلْمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقته[3]، والعِلْمُ هو الاعْتِقادُ الجازِمُ الثّابِتُ المُطابِقُ للواقِعِ[4].

وفي مواضعَ كثيرةٍ خاطبَ سبحانه نبيَّهُ ﷺ بقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ [البقرة: 243] عن أشياءَ لا يمكنُ رؤيتها بالعينِ، كما في قوله تعالى مثلًا: ﴿۞أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ﴾ [البقرة: 243]، وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۖ﴾ [المجادلة: 7]، و﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦﴾ [الفجر: 6]، و ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١﴾ [الفيل: 1]، والرُّؤيةُ تكونُ بمعنى رؤيةِ العيان، وتكون بمعنى رؤية

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(2) الراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116.
(3) الراغب، المفردات: (علم)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 4/ 88.
(4) المناوي، التوقيف، ص: 246.

القلب، وذلك راجعٌ إلى العلمِ، والمعنى هنا في هذه الآيات: ألم تعلم؟ وإنَّما جازَ إطلاقُ لفظِ الرؤية على غير المعاينة؛ لأنَّ النَّبيَّ ﷺ صار يُصدِّقُ إخبارَ اللّهِ تعالى إيّاه كالناظرِ عيانًا، والمعنى: ألم تعلم علمًا يقينًا متاخمًا للمشاهدة[1]؟ أيْ: ألم تعلم علمَ اليقين، وكأنَّك قد رأيتَ ما يُخبركَ به اللّه، وكأنَّ العلمَ بالنسبة لخبرِ اللّهِ يجبُ أنْ يكونَ أصدقَ ممّا تراه العين؛ لأنَّ العينَ قد تكذبهُ، والبصرَ قد يخدعه، ولم يخاطبه ربُّه بألم تعلم؛ ليدلَّك على أنَّ ما يخبركَ اللّهُ به غيبًا عنكَ أوثقُ ممّا تخبركَ به عينُك مُشاهَدًا لك[2]، فتركيب (ألم ترَ إلى كذا) إذا جاءَ فعلُ الرؤية فيه متعدّيًا إلى ما ليس من شأنِ السامعِ أنْ يكون قد رآه؛ كان كلامًا مقصودًا منه التحريضُ على علمِ ما عُدّي إليه فعلُ الرؤية[3]، كما أنَّ التعبيرَ بـ (ألم ترَ) فيه معنى التعجيب والتعظيم[4].

والحاصل أنَّ في التعبير بتركيبِ (ألم تر) معانيَ زائدةً على قوله: (ألم تعلم)؛ إذ يشملُ الإبصارَ والمشاهدةَ بالعين، كما يشملُ الاعتبارَ بالقلب والتفكُّر بالعقل، بينما تركيب (ألم تعلم) يدلُّ على الإدراكِ والمعرفةِ، ولا يدلُّ على الرؤية البصرية، وكأنَّ (ألم ترَ) هي عبارة عن جملتَيْن: (ألم تعلم كذا، وتنظر إليه)، بالإضافة إلى أنَّ (ألم تر) فيه تحريضٌ على علمِ ما عُدي إليه فعلُ الرؤية مع التعجيبِ والتعظيمِ.

(1) الواحدي، البسيط: 4/ 307، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 8/ 218.

(2) الشعراوي، تفسير الشّعراوي: 2/ 1122، 4/ 2304، 17/ 10288.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 476.

(4) الواحدي، البسيط: 4/ 307.

﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ٦٤﴾ [الحجّ: 64]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

ما إنـزالُ المطرِ وإنباتُ النباتِ إلّا بعضٌ ممّا يملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها ثلاثةُ أوجهٍ:

الأوّل: بعد أنْ أخبرَ سبحانه في الآيةِ السابقةِ بأنَّه لطيفٌ خبيرٌ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾؛ أتبعَ بخبرٍ ثالثٍ عن اسم الجلالة؛ تنبيهًا على اختصاصه بالملكِ الحقِّ، فيعلم المشركون أنَّه المختصُّ، وليست الأصنام الَّتي جعلوها شركاءَ في الإلهيَّة، فقال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]، وإنَّما نُظِمَ في آية مستقلَّةٍ، لمغايرته للخبرَيْن الأوَّلَيْن، فهما صفتان واسمان للّه تعالى، وهو كالتأسيسِ لهما، فالذي له ما في السماوات وما في الأرض هو اللَّطيف الخبير لا محالة، ثمَّ فيه من التفصيل ما ليس فيهما.

والثاني: لَمّا ذكرَ سبحانه في الآيةِ السّابقة إنزالَ المطرِ وإنباتَ النَّبات - وما هذا المذكور إلّا بعضٌ ممّا يملكه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - أتبعَ بقوله سبحانه: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[2]، وهذا يُشْبِهُ مجيءَ العامِّ بعد الخاصِّ؛ للفْتِ النظر إلى أنَّ مَن عمي عليه دليل؛ لم يغبْ عنه دليلٌ آخَرُ، فبابُ الاستدلال على الحق والحقيقة وسيع جدًّا.

والثالث: لَما تحدَّثَ عن إنزالِ الماءِ من السماءِ وإنباتِ النَّبات؛ أتبعَ بذكر ملكِهِ وتصرُّفه في السَّماءِ والأرضِ، أيْ: له ما في السّماوات التي أنزلَ منها الماء، وما في الأرض التي أخرجَ منها النبات، وعلى هذا فهذه الآيةُ استطرادٌ، والحملُ على غيره إن أمكن سياقًا أوْلَى، وهو هنا كذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْغَنِيُّ﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكِفايَةِ، ومنه الغِنَى في المالِ[1]، والغِنَى: ضِدُّ الفَقْرِ، وهو على ضَرْبَيْنِ: أَحَدُهما: ارتِفاعُ الحاجاتِ، وليسَ ذلك إلّا للّهِ تعالى، والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ، وهو المُشارُ إليه بقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ۝٨﴾ [الضحى: 8][2]، والغَنيُّ في أسماءِ اللّهِ ﷻ: هو الذي لا يَحْتاجُ إلى أحدٍ في شيءٍ، وكلُّ أحَدٍ مُحْتاجٌ إليه، وهذا هوَ الغِنى المُطْلَق، ولا يُشارِك اللّهَ تَعالَى فيهِ غيرُهُ[3].

2) ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾: (حمد) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الذَّمِّ، يُقالُ: حَمِدْتُ فُلانًا أَحْمَدُهُ، ورَجُلٌ مَحْمودٌ ومُحَمَّدٌ؛ إذا كَثُرَتْ خِصالُهُ المحمودةُ غيرُ المذمومةِ[4]، والحمدُ: الثناءُ بجميلِ الأوصافِ، وقيل: الرضا، حمدته، أيْ: رضيته، وقيل: الحمدُ هو الشُّكرُ[5]، فحَمْدُ اللّه: الثَّناءُ عليه، ويكونُ شُكْرًا لِنِعَمِهِ الّتي شَمِلَتِ الكُلَّ، والحَميدُ من صفاتِ اللّهِ تعالى بمعنى المَحْمودِ على كُلِّ حالٍ، وهو من الأسماءِ الحُسْنَى[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللـــهُ المالكُ الخـالـقُ غنـيٌّ عنْ خلقِهِ وغيرُه مفتقِرٌ إليهِ

يقولُ اللّه تعالى ذِكْرُه: إنَّ للّهِ مُلكَ ما في السّماواتِ وما في الأرض، هم عبيدُه ومماليكُه وخلقُه، فلا شريكَ له في ذلك، ولا في شيءٍ منه، وإنَّ اللّهَ هو الغنيُّ عن كلِّ ما في السّماواتِ وما في الأرض من خلقِه، وهمُ المحتاجون إليه، الحميدُ عندَ عبادِه في إفضالِه عليهم وأياديه عندهم[7].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غني).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (غني).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (غنا).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حمد).
(5) السَّمين الحلبي، عُمدة الحُفّاظ: 1/ 450.
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (حمد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 677.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتها:

خيرُ البيان ما كانت معانيه حاضرةً بعضُها في بعض

فصلَ القرآنُ قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ عن الآيةِ الَّتي قبلها، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةً﴾، ولم يعطفهما مع اتِّحادهما في الغرضِ، لِما بينهما من كمالِ اتِّصال؛ إذ إنَّ الآيةَ الثانيةَ تُنَزَّل منزلةَ التَّعليلِ لِما قبلها، أي: إنَّ اللّه ينزِّل من السَّماء ماءً، فتصبحُ الأرضُ اليابسةُ مخضرَّةً؛ لأنَّه سبحانه لَهُ ما في السَّماواتِ وما في الأرْضِ، وهو غنيٌّ عن عباده، وهم محتاجون إليه[1]، فالآيةُ السابقة بعض لوازم هذه الآية التي تُحقِّق، وتُؤكِّد ما قبلها، ولأنَّها تتنزَّلُ كذلك منزلةَ التَّذييلِ بالعموم الشّاملِ لِما تضمَّنته الجملةُ التي قبلها، ولأنَّها لا تتضمَّن تذكيرًا بنعمةٍ حتى تُعطفَ على ما قبلها من النِّعَم[2]، وعلى أنَّ هذه الآيةَ خبرٌ ثالث بعد الخبرَيْن: ﴿لَطِيفٌ خَبِيرٞ﴾ غابت الواو؛ لأنَّ نظم صفات اللّه في الغالب يكون من غير عاطفٍ بينها؛ لدلالتها على ذات اللّه الأحدِ الواحد.

معنى اللّام في ﴿لَّهُۥ﴾:

مَـن اختَصَّ بشيءٍ عُرِفَ به

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ للملكيَّة، فاللّهُ تعالى مالكٌ لِما في السّماوات والأرض وما فيهما؛ لأنَّه خالقُها سبحانه[3]، فله وحده الملكُ والخلقُ والتصرُّفُ؛ لا يخرجُ شيءٌ عن سلطانه، ولا يُعجزه شيءٌ من الأشياءِ[4]، وهذا التَّنبيهُ على اختصاصِه بالملكِ الحقِّ ليُعلمَ من ذلك أنَّه المُختصُّ بالمعبوديَّة، فيردُّ زعمَ المشركين أنَّ الأصنامَ شركاءُ له في الإلهيَّةِ، وصرفَ عبادتهم إلى أصنامهم[5].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5018.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5019.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1251.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 319.

غرضُ تقديم شبه الجملة الخبريَّة:

كيف يشاركهُ غيرُه؛ وهو ليس مِثْلَه ذاتًا ولا صفةً؟

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿لَّهُۥ﴾ - وهي خبرٌ - على المبتدأ ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾[1]؛ إذِ التقديرُ: (ما في السّماوات كائنٌ له)؛ وذلك للدَّلالةِ على القَصْرِ والحَصْرِ، أيْ: للّهِ ما في السّماوات والأرض خَلْقًا ومُلْكًا وتصرُّفًا لا لغيرِه من أصنامكم على تأويلِ أنَّ القصرَ إضافيٌّ، وإنْ جعلنا القصرَ ادِّعائيًّا، فيكون المعنى أنَّ المُلْكَ الحقيقيَّ الَّذي يُعتدُّ به هو مُلكُ اللّهِ، ولا يُنظَرُ إلى مُلكِ غيرِه ولا إلى ما يُنسَبُ إلى المخلوقِ ظاهرًا، فهم أدعياءُ ملك، وملكهم ناقصٌ زائلٌ[2].

معنى ﴿مَا﴾ وموقعها الإعرابيُّ:

في الموصوليَّة عمومٌ يدلُّ على سَعَةِ مُلْكِ الله وعظمته

﴿مَا﴾ في قولِه: ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ اسمٌ موصول يفيدُ عمومَ كلِّ ما ثبتَتْ له صلةُ الموصول من الموجوداتِ الظّاهرة والخفيَّة، أيْ: للّه كلُّ ما وُجِد فيهما داخلًا في حقيقتهما، أو خارجًا عنهما مُتمكِّنًا فيهما، وهذا العموم يدلُّ على سَعةِ ملكِ اللّه وعظمتِه، وينكرُ على المشركين عبادة غيره، ويفيد أيضًا التشويقَ لمعرفة صلتِه، لِما يتضمَّنُهُ الاسم الموصول من الإبهام، وأمّا موقع ﴿مَا﴾ الإعرابي؛ فقد جاءَتْ في محلِّ رفع مبتدأ مؤخَّر.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة:

الدَّلالةُ على تمكُّنِ مُلْكِ اللهِ وإحاطتِه بالسَّماوات والأرضِ وما فيهما

عبَّر البيان القرآنيُّ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ للإشارةِ إلى تغلغلِ مُلكه وسلطانه وتمكُّنه وانتشاره في كلِّ السّماوات والأرض، فأحاطَ ملكُهُ السّماوات والأرض إحاطةَ الظَّرف بالمظروف، فله وحدهُ الملكُ كلُّه بكلِّ أجزائه وجُزيئاته، ولحرفِ الظَّرفيَّة هنا موقعٌ بليغٌ؛ إذ جاء بعد ﴿مَا﴾ التي أفادتِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

العمومَ ليزيد العمومَ عمومًا، والشُّمولَ شمولًا، فعمَّ كلَّ شيءٍ في ظاهرِ السّماوات والأرضِ وباطنهما(1)، وفي التَّعبيرِ بـ: ﴿فِي﴾ تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ ما ظهر في الكون لنا سماعًا أو مشاهدة ونحوَ ذلك؛ ليس هو كلَّ ما للّه في السَّماوات والأرض، فلله خزائنُ فيهما لا تنفد، ولا تنكشف كلُّها، وجميعها لبني آدم.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

سبحان الموجِد للأشياء بكُلّيّاتِها من غير شريكٍ

(أل) التَّعريف في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ جنسيَّةٌ استغراقيَّةٌ تُفيدُ العمومَ؛ لتشملَ جنسَ السّماوات السبعِ وما يتبعُ لها، وتشملُ الأرضَ كلَّها، وكلَّ ما فيها، فملكُ اللّهِ تعالى محيطٌ وشاملٌ لكلِّ ما في السماوات وما في الأرض وما بينهما وما وراءهما، فكانت الأرضُ مُفردةً في اللَّفظ، جمعًا في المعنى، والأصلُ ألّا يُعطَفَ المفردُ على الجمع، لكنْ هنا صحَّ عطفُ الأرضِ على السّماوات، مع أنَّ السّماوات جمعٌ، والأرضَ مفردٌ؛ لأنَّ المُراد بهما جنسُهما، فعُطِفَ جنسٌ على جنسٍ، والأرضُ فيها معنى الجمع أيضًا، وفائدةُ العمومِ الدَّلالةُ على عظيم ملكه سبحانه، وعلى استحقاقه المعبوديَّةَ لا غيره من الأصنام الأوثان التي لا تملكُ شيئًا، ولا تقدرُ على شيء؛ إذ هي مصنوعةٌ من ماءِ السماءِ وترابِ الأرض.

معنى الواوِ في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ﴾:

في الواواتِ أسرارُ البيانِ كلّه

جاءَ حرفُ الواو في قوله: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ ليعطيَ واحدًا من المَعنيَيْن: إمّا العطفُ على الجملةِ التي قبلَها: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾(2)، والمعنى الجامعُ بينهما: أنَّ كلاهما إثباتُ صفةِ كمالٍ للّه، ولكنَّ الأولى صفةُ الملكِ لِما في السّماوات وما في الأرضِ، فهم خلقُهُ وعبيدُهُ، والثانية صفةُ الغني، أي: الغنيُّ عن كلِّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/ 197.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

ما في السّماوات وما في الأرض من خلقهِ، والحميدُ عند عبادهِ في إفضالهِ عليهم، أو أنَّها عُطِفت عليها؛ لأنَّها مِن تمامها، فلمّا كان من المألوف عند البشر أنَّ المالِكَ فقير إلى ما في يده، مذمومٌ على إمساكه بالتّقتير، وعلى بذله بالتبذير؛ بيَّن القرآنُ أنَّ اللّه خلاف ذلك بهذه الفاصلة.

أو أنَّها استئنافيَّةٌ، والمعنى: أنَّ اللّهَ لطيفٌ خبيرٌ له ما في السّماوات وما في الأرض، ثمَّ استأنفَ القرآنُ الكلامَ[1]، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾.

ويجوز أن تكونَ الواوُ احتفالًا بمضمون ما دخلت عليه؛ لأنَّه نتيجةٌ لما قبله، وهو الاسم والصفة التي تظلُّ في ذهن المُتلقّي؛ لأنَّ الشاعرَ - ولله المثل الأعلى - لا يُذكر بأنَّه الإنسان الذي يقول كلامًا صفتُه كيت وكيت؛ وإنَّما يُذكر بأنَّه الشاعر، وقد تُضاف إلى ذلك صفة أخرى، كالفَحْلِ أو المطبوعِ أو البديعي، أي: الذي يُكْثِرُ من استعمال فنون البديع بمفهومهِ عند المتأخِّرين، فكان الظاهرُ غيابَ الواو التي لا يبرحُها معنى المُغايَرة، ولأجل هذا المعنى فيها جيء بها؛ لتشعر باستقلال ما دخلت عليه؛ ليحرصَ المُتلقّون على قيام معناها في أنفسهم، فتحدُثَ عمليَّةُ التأمُّل فيه، ومراجعته، فتراجع النفس حالها؛ فإذا أنصفت نفسَها؛ رجعَت عن الباطل إلى الحقِّ، وتمسَّكَتْ به.

ثم إنَّ معنى هذه الفاصلة لو وضعتَهُ بإزاء كثير من معاني السباق الأقرب والقريب؛ لكان نتيجةً لكل معنًى تضعُهُ بإزائه، فأشبه المعنى الأُمَّ، وشأنُ المعاني الأمَّهات أن يُحتفَلَ بهنَّ؛ ليكونَ ذلك رمزًا إلى طبيعتها وسمتِها؛ فلهذا جيءَ بالواو.

فائدةُ تتابع المؤكّدات في فاصلة الآية:

جاءتْ فاصلةُ هذه الآية: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ بمؤكِّداتٍ عدَّة، وهي تأكيدُ حصرِ الغنى والمحموديَّةِ في اللّهِ لا في أصنامهم بحرفِ التَّأكيد (إنَّ) وبلامِ الابتداء؛ تحقيقًا لنسبةِ القصرِ إلى المقصور[2]، وتأكيدُ ثباتِ هذا الحُكم وقوَّتِهِ وبقائهِ بالجملةِ الاسميَّةِ، ومجيءُ ضمير الفصل (هو)، وتعريفُ طرفَي الجملةِ الاسميَّةِ اللَّذين يدُلّان

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 6/ 201، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

أسماؤهُ وصفاتهُ ﷻ مراكز المعاني

على القصرِ والاختصاص، فاللّهُ وحده هو الغنيُّ، وجميعُ الوجودِ محتاجٌ إليه سبحانه[1]، وكذلك تكرارُ الخبرِ؛ إذ إنَّ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ خبرٌ ثانٍ، ومجيءُ هذه المُؤكِّدات لتنزيل تحقُّقهم باختصاصه بالغِنَى أو المحمودية منزلةَ الشَّكِّ أو الإنكار؛ لأنَّهم لم يجروا على موجبِ علمهم حين عبدوا غيره[2].

المبالغةُ في تأكيدِ أنَّ الله غنيٌّ عن كلِّ ما في السّماوات والأرض

وهذا الاجتماعُ لكلِّ هذه المؤكّداتِ - مع ما تضمَّنته مفرداتُ الآيةِ من حصرِ نسبةِ المُلك للّه وتعظيمه واستيعابه وشمولهِ - أفادَ أيضًا المبالغةَ في تأكيدِ أنَّ اللّهَ غنيٌّ عن كلِّ ما في السّماوات وما في الأرض من خلقه، وأنَّهم هم المحتاجون إليه، وأنَّه الحميدُ عند عباده في إفضالهِ عليهم وأياديهِ عندهم[3]، وأنَّ كلَّ الوجودِ يحتاجُ إليه سبحانه، وهو لا يحتاجُ لشيءٍ في الوجود[4].

وكونُه تعالى هو الغنيَّ الحميدَ - الذي ليس كمِثْلِه شيءٌ - فيهما معنًى من شأنه أن يَروعَ، ويَلْفِتَ، ويُعْجِبَ، حتى كأنَّ النَّفس تُنكِرُه وتأباه، وترفضُه، ولا ترضاهُ؛ لكمال عُلوِّه وكمالِ شرفِه، والتأكيدُ يرمزُ إلى هذا، حتى إذا نظرتْ في آثاره ومُتعلِّقاته وتجليّاته؛ آمَنَتْ بوجوده، وامتلأتْ به؛ فاتَّقته، ورغبت في إحسانه، وخافتْ من انتقامهِ.

بلاغةُ القصرِ بضمير الفَصْل وبتعريف الخبر:

أيُّ شيءٍ يدلُّ على مشاركتِه تعالى في صفةٍ أو ذاتٍ؟

كلٌّ من ضميرِ الفصلِ وتعريفِ الخبر ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ يفيد القصرَ والاختصاصَ، وهذه الإفادةُ لا تتوقَّف عليهما جميعًا، فاللّهُ هو الغنيُّ المُختصُّ بوصفِ الغنى دونَ الأصنام، ولا غنيَّ سواه، وجميعُ الوجودِ محتاجٌ

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5019.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 677.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5019.

إليه سبحانه، وهو المختصُّ بالمحموديَّة المُستحقّ وحده لأنْ يُحمد، ولا يحمدُ في الوجودِ سواه[1].

نكتةُ التَّذييل بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾:

ما أكثرَ ما يوصِّلُ إلى معرفةِ صفاتِه! ولكنْ أين المنصفون؟

ذيَّلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ بالاسمَيْن الجليلَيْن ﴿ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾، فقال: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ مَن لهُ الملكُ والخلقُ والتَّصرُّفُ المطلقُ في السّماوات والأرضِ لا يفتقرُ إلى غيرِهِ في ذاتِه وصفاته، فلا يفتقرُ إلى محلٍّ ولا إلى مخصَّصٍ بالوجود، وغيره يفتقرُ إلى ذلك، ولا يفتقرُ إلى حمدِ الحامدين أيضًا؛ تنبيهًا على أنَّ افتقارَ الأصنامِ إلى مَن يصنعها، ومن ينقلها من مكانٍ إلى آخرَ، ومَن ينفضُ عنها القَتامَ والقَذرَ دليلٌ على انتفاءِ الإلهيَّة عنها[2].

سبحانَه حميدٌ كثيرُ المحامِدِ الموجِبةِ تنزيهَهُ عن سائرِ النقائض

وفي التَّذييلِ بالاسمَيْن تنبيهٌ آخرُ على أنَّ ملكَهُ لما في السّماوات والأرض ليس لفقرٍ وحاجةٍ، بل هو غنيٌّ عنهما، جوادٌ بهما؛ لأنَّه ليس غنيٌّ ينفعهُ غناه إلّا إذا جادَ به، وإذا جادَ وأنعمَ؛ استحقَّ الحمدَ، فحمده المنعَمُ عليه؛ ولذا فهو حميدٌ كثيرُ المحامد الموجبةِ تنزيهَهُ عن الحاجةِ والبخلِ وسائرِ النقائض[3].

وفي الجمع بين هذَيْن الاسمَيْن في ذيلِ الآيةِ إشارةٌ إلى أنَّ مَن له الملكُ والخلقُ والتَّصرُّفُ المُطلقُ - في السّماوات التي أنزلَ منها نعمة الماء، وفي الأرضِ التي أخرجَ منها نعمةَ النبات، وهي نِعَمٌ تستحقُّ الشُّكرَ - هو الغنيُّ المفيضُ على الناسِ نِعَمَهُ، فهم يحمدونه[4].

فائدةُ تقديم صفةِ الغنيِّ على الحميد:

ما أبرزَهُ السّياقُ من كونِه؛ مِن شأنِهِ أنْ يُؤدّيَ إلى حمدِه

قدَّم القرآنُ صفةَ ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ على ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5019.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 1/ 81.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 320.

﴿ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾؛ لكونها أكثرَ مناسبةً مع قوله: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾، فإنَّ ذِكْرَ المُلك المُطلق للّهِ سبحانه يناسبهُ ذِكْرُ الغِنى الكاملِ له ﷻ، وللإشارةِ بلفظِ الغني المعرَّف بعد إثباتِ المُلك له أنَّ غناه الكاملَ ليس لحاجة، بل هو غنيٌّ عمّا في السّماوات والأرض، وإنَّما خلقهما لحاجةِ المكلَّفين إليهما، ولأنَّ الغنى أصلٌ، والحمدُ فرعٌ عنه، فالمحمودُ إنَّما يكون غنيًّا مُتفضِّلًا على غيره بكرمِهِ وإحسانه، فكان الحمدُ أثرًا ونتيجةً لهذا الغنى، ومن هنا فلا يصحُّ أنْ يُبدَأ بالحميدِ قبلَ الغني(1).

ولأنَّ في إتْباعِ صفة ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ بـ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ تكميلًا، فهو احتراسٌ لدفعِ توهُّمِهم أنَّه لمّا كان غنيًّا عنهم، وهم لا يضرّونه، ولا ينفعونه، فهم معذورون في ألّا يدعوه ويعبدوه؛ فنبَّه على أنَّه موصوفٌ بالحمدِ لِمَنْ عبده، واستجابَ لدعوته(2).

أجَلُّ صورِ حمْدِه توحيدُه سبحانه تعالى

كما أنَّ في تأخيرِ صفةِ ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ مناسبةً للفاصلةِ القرآنيَّة القريبة منها: ﴿بَصِيرٌ﴾، ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾، ﴿خَبِيرٌ﴾، ولو قُدِّم: ﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ على: ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ لربَّما أفْهَمَ أنَّ الثاني علّةٌ للأوَّلِ، والحقُّ أنَّ اللّه تعالى يُحمد لكونِهِ غنيًّا، ولغير ذلك من الصِّفات؛ فاحتُرِسَ عن ذلك بالتقديم الذي عليه التنزيل الحكيم، ثم إنَّ ترتيبهما ناظرٌ إلى أنَّ الأوَّل كالسبب والمقدمة، وأنَّ الثاني كالمسبِّب والنتيجة؛ ففي السِّباق واللِّحاق ما يتجلَّى به كونُه تعالى الغنيَّ، ومن أغراضِ ذلك حمدُهُ تعالى، وأجلُّ صورِ حمْدِهِ توحيدُهُ.

نكتةُ تعريفِ الاسمَيْن الجليلَيْن بـ(أل):

قد يُنظَر في تعريف بعض صفاتِه إلى حالِ لبعضِ عبادِه

جاءتِ الصِّفتان ﴿ٱلۡغَنِيُّ﴾ و﴿ٱلۡحَمِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ مُعرَّفتَيْن؛ للدَّلالةِ على الكمالِ في الوصفِ، فهو

(1) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 96.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 286.

سبحانه الغنيُّ الكاملُ في الغنى، وكلُّ غنيٍّ سواه مُفتقرٌ إليه، وهو الحميدُ سبحانهُ، الكاملُ في حمده لعباده وفي استحقاقه للحمدِ، فإنْ وُجدَ في الكونِ غنيٌّ؛ فهو ظاهريٌّ زائفٌ، وليس حقيقيًّا، وإن وُجِدَ في الكونِ محمودٌ؛ فهو يُحمدُ لما مَنَّ اللّٰهُ عليه، فالحمدُ لموجدِ النِّعمةِ ومنشئها، وإنْ بَدَتْ في ظاهرها أنَّها من مخلوقٍ، وفي بيانِ كمالِ غناهُ سبحانه وكمالِ استحقاقهِ للحمدِ نعيٌ على الكافرين الذين يُعرضون عن عبادةِ الغنيِّ الحميدِ، ويعبدون أصنامًا مفتقرةً إلى مَن يصنعها، ومَن ينقلها من مكانٍ إلى آخر، ومَن ينفضُ عنها القَتامَ والقذَرَ.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ٦٥﴾ [الحج: 65]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

مظاهر قدرته شاهدة بجزيل منّته وناطقة بعظيم رحمته

لمّا ذكر الله تعالى عظيم قدرته على تحقيق النَّصر للمؤمنين، أتى بأنواع من دلائل قدرته، ومظاهر رحمته في العالَمَيْن العلويِّ والسفليِّ، ولمّا أخبر سبحانه أنَّ بيده ملكوت السّماوات والأرض؛ بيَّن أنَّه سبحانه سخَّر ما فيهما لمنفعة ابن آدم ولإقامة مصلحته، ولمّا كان سير السفن برفق وتؤدة في البحر العجاج المتلاطم بالأمواج أمرًا عجيبًا يبعث على الإيمان التامِّ، والتسليم الكامل؛ بيَّن سبحانه أنَّ إمساك السماء على متن الهواء بغير عمد أشدُّ عجبًا وأكثر إبهارًا؛ رأفة منه بعباده ورحمة؛ ليدفع سبحانه عباده إلى شكر آلائه، وحمده على عظيم نعمائه(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَخَّرَ﴾: (سخر): التَّسخير: التَّذليل والتَّهيئة، وهو: سياقة الشيء إلى الغرض المختصِّ به قهرًا، والمُسَخِّر هو المُقَيِّض للفعل(2)، وأصل (سخر) يدل على احتقار واستذلال، ومن ذلك قولنا: سخَّر اللّهُ تعالى الشَّيءَ وذلك إذا ذَلَّلَهُ لأمره وإرادته(3).

وسخَّره تسخيرا: كلَّفه عملًا بلا أجرة(4)، وسَخَّرَهُ يُسَخِّرُه سِخريًّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 533، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 450، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 84، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 118.

(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سخر).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).

(4) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).

وسُخْريًّا، وسَخَرَهُ: كلَّفه ما لا يريد وقَهَرَهُ، وكلُّ مقهورٍ مُدبَّرٍ لا يملك لنفسه ما يخلِّصه من القهر، فهو مسَخَّرٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [لقمان: 20][1].

2) ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾: (فلك) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ[2]، والفُلْك: السَّفينة، ويُستعمل في الواحد والجمع، وفي المذكَّر والمؤنَّث[3].

والفَلَك: مَجْرَى الكواكب وواحد أفلاك النُّجوم، وهو موج مكفور تجري فيه الشَّمس والقمر والكواكب، وسُمّي بذلك لكونه كالفُلْك لاستدارته كالفلكة، قال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40][4].

والفَلَك: موج البحر إذا ماج في البحر، فاضطَّرب وجاء وذهب[5]، وفَلَكُ كلِّ شيء: مُستَدارُه ومُعظَمُه[6]، والفَلْكَة: قطعة الأرض المستديرة المرتفعة على ما حولها في غِلَظٍ وسهولةٍ، وهي كالرَّحَى[7].

3) ﴿وَيُمْسِكُ﴾: (مسك) أصلٌ يدلُّ على ضبط الشَّيء وحَبْسِه حبسًا قويًّا أو تَحَبُّسُه[8]، وإمساكُ الشَّيء: التعلُّقُ به وحِفْظُه، قال تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يحفظها[9]، واستمسكتُ بالشَّيء: إذا تحرَّيتَ الإمساك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ﴾ [الزخرف: 43][10].

ويقال: أمسكتُ به، وتَمسَّكتُ به، ومَسَكتُ به واسْتَمْسَكتُ به ومَسَّكتُ به، كله بمعنى: اعتصمتُ به واحْتَبَسْتُ[11].

(1) ابن منظور، لسان العرب: (سخر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(3) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فلك).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات: (فلك).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(10) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).

وأمْسكتُ عن الكلام: سكتُّ[1]، وأمسكتُ عنه كذا، أي: منعتُه، قال تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الزمر: 38][2].

4) ﴿لَرَءُوفٌ﴾: (رأف) أصلٌ يدلُّ على الرِّقَّة والرَّحمة[3]، والرَّأفة: أشدُّ الرَّحمة، وقد رؤُفْتُ بالرَّجل أرْؤُف به رَأْفةً ورَآفَةً، ورَأفْتُ به أرْأف، ورئفت به رأفًا، فهو رؤوف ورَئِف نحو يَقِظ وحَذِر[4].

والرَّأفة أخصُّ من الرَّحمة وأرقُّ[5]، ومن صفات الله ﷻ الرَّؤوف، وهو الرَّحيم لعباده، العطوف عليهم بألطافه[6].

وفيه لغتان قُرِئَ بهما: رَؤوفٌ على وزن فعول، ورَؤُفٌ على وزن فعُل[7].

5) ﴿رَّحِيمٌ﴾: (رحم) أصلٌ يدلُّ على اتِّساع في الشَّيء مع رقَّة وعطف ورأفة[8]، الرَّحمة: رقَّة وتعطُّف يقتضي الإحسان[9].

والرَّحمة أيضًا: المغفرة؛ لأنَّها من مقتضيات الإحسان[10]، والرَّحمة في قول نوح عليه السلام: ﴿وَءَاتَىٰنِي رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِهِۦ﴾ [هود: 28]؛ يعني: النُّبوَّة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [البقرة: 105]؛ أي: بنبوَّته[11].

ومن أسمائه سبحانه وتعالى الرَّحمن الرَّحيم، وكلاهما معناه ذو الرَّحمة، لكن الرَّحمن لا يُطلق على غير الله، والرَّحيم قد يُطلق على غير الله، والرَّحيم أيضًا هو الذي كَثُرَتْ رحمتُه، والرَّحمن الذي وسِعَتْ رحمتُه كلَّ شيء[12].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (مسك).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (مسك).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأف).
(4) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (رأف).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رحم).
(9) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (رحم).
(11) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (رحم)، والبيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل: 3/ 133، والآلوسي، روح المعاني: 6/ 239.
(12) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات: (رحم).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يذكِّرنا المولى ﷻ في هذا البيان القرآنيِّ، والاستفهام التقريريِّ ببعض نعمه وفضائله سبحانه علينا فيقول: ألم تعلم أيُّها المخاطب العاقل أنَّ اللّه سبحانه قد ذلَّل لكم أيُّها النّاس بقدرته جميع ما في الأرض من الدَّوابِّ والبهائم والزُّروع والثِّمار، وكلِّ ما تحتاجونه في قضاء معاشكم وشؤون حياتكم، والسُّفنَ تجري في البحر بتسخيره وتيسيره، ويمسك سبحانه السَّماء بقدرته أنْ تسقط على الأرض إلا بمشيئته وإرادته، إنَّ اللّه بالنّاس لذو رأفة عظيمة ورحمة واسعة بهم رغم ظلمهم وابتعادهم[1].

فضائل الله على عـبـاده كـثـيرة، ونعـمه عليهم وفيرة، ورحمته بهم كبيرة

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

جاءت هذه الآية الكريمة في نسق التَّذكير بنعم اللّه واقعة موقع قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَتُصۡبِحُ ٱلۡأَرۡضُ مُخۡضَرَّةًۚ﴾ [الحج: 63].

آلاء الله عظيمة متكاثرة، وهباته جليلة وافرة

فهي من عداد الامتنان والاستدلال، فكانت كالتَّكرير للغرض؛ ولذلك فُصِلت ولم تُعطَف.

وهذا تذكير بنعمة تسخير الحيوان وغيره بعد التَّذكير بنعمة إنزال الماء وإنبات النَّبات[2].

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ للتَّقرير[3]؛ إذ الآية: امتنان بتعداد النِّعم، ففيها سؤال ينطوي على معنى التَّقرير ولفت النَّظر عمّا إذا كان الرّائي لا يرى آثار قدرة اللّه تعالى في كونه ويقنع بقدرته على تحقيق ما يعد[4].

اللـه يـمـتنُّ على عباده بالنِّعم، ويـصـرف عنهم عديد النِّقم

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 624، والهرري، الحدائق: 18/ 409 - 410.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 201، ومحمد دروزة، التفسير الحديث: 6/ 71، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471.
(4) محمد دروزة، التفسير الحديث: 6/ 71.

ومعناه: انتبه يا ابن آدم من غفلتك وإعراضك، واعلم أنَّ اللّه تعالى هو الذي وهبك ما ترى[1]، وإنَّما سيقت الآية على صورة الاستفهام لأجل لفت الانتباه، والتَّشويق لمضمون السُّؤال، ولتكون الإجابة إقرارًا من المجيب على نفسه، فلا تكون له حجَّة على ربِّه ﷻ.

وقيل: الاستفهام هنا للإنكار بمعنى نفي الوقوع، وهو داخل على (لم) النّافية، ونفي النَّفي إثبات، فهو بيان لأنَّ اللّه سخَّر ما في الأرض، والمعنى: قد سخَّر اللّه لكم ما في الأرض، وكأنَّ الاستفهام هنا مع النَّفي تنبيه؛ لأنَّ اللّه تعالى ذلَّل ما في الأرض لكم، فكيف تغفلون عنه أو تعرضون[2]؟

فنُزِّلَتْ غفلةُ كثير من النّاس عن الاعتبار بهذه النِّعمة والاعتداد بها منزلةَ عدمِ العلم بها، فأُنكر ذلك العدم على النّاس الذين أهملوا الشُّكر والاعتبار[3].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿تَرَ﴾ مادّة وصيغة:

الأصل في الرُّؤية أنَّها لَحْظُ العينِ الشَّيءَ حال اتِّجاهها إليه، فتُطلق على إدراك المرئيِّ، إمّا بالحاسَّة، وهي الرُّؤية البصريَّة، وإمّا بما يجري مجرى الحاسَّة؛ كالتَّفكُّر والتَّخيُّل والعقل، وهي الرُّؤية القلبيَّة، أو العلميَّة[4].

نعمة الله سابغة، وأياديه واسعة، وآلاؤه كثيرة، لا تراها إلّا عين البصيرة

والرُّؤية هنا في هذه الآية رؤية قلبيَّة وعلميَّة وبصريَّة؛ أي: ألم ينتهِ علمك أو تفكُّرك[5]؟ ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربِّك السّابغة، وأياديَه الواسعة[6]؟ فالمقصود من رؤية البصر: التَّفكُّر بالبصيرة، وحصول العلم المؤدّي إلى اليقين بربِّ العالمين.

(1) بهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 343.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020، وثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 6/ 344.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 318.
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (رأى).
(5) الهلال، الثري الجامع: 7/ 345.
(6) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.

بلاغة الإدماج في الاستدلال على انفراده بالتّسخير:

لمّا كان التَّسخيرُ تسهيلَ الانتفاع - بدون مانع - بما فيه إرادة التَّمنُّع، وكانت الآية الكريمة مسوقة لبيان أنَّ اللّه تعالى قد سخَّر للنّاس جميع ما في الأرض، وسخَّر لهم الفُلْك الجارية بيُسرٍ في البحر الخضمِّ، وأمسك السَّماء بقدرته سبحانه كيلا تسقط على الأرض - لمّا كان ذلك كذلك فقد دلَّ ذلك على أنَّ الذي سخَّر كلَّ هذا إنَّما هو اللّه الذي خلقها وأوجدها.

في الامـتـنـان بالتَّسخير دليل على انفراد الله العليِّ الكبير

ولمّا كانت هذه المخلوقات لا يخرج شيء منها من دائرة التَّسخير - كبر أو صغر - فقد دلَّ ذلك على انفراد اللّه تعالى بالخلق والإنشاء والتَّسخير إذ لم يكن له منازع ولا شريك.

ففي الامتنان بالتَّسخير دليل على انفراد اللّه العليِّ الكبير، فهو إدماج، والتَّقديرُ: (فهو الرَّبُّ الحقُّ)[1].

وتظهر بلاغةُ الإدماج في أنّه لا يظهر منه إلّا إحدى الفكرتين، أو أحدُ الغرضين، أو أحد الوجهين، فإذا تأمَّل المتفكِّر ظهر له المُدْمَجَ وسَرَّه هذا الإدماج.

بيان المُخاطب في الآية:

يخاطب الله مِن العبيد مَن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ صالح لكلِّ ذي نظر وعقل، حيث يرى فضل اللّه تعالى في هذه الكائنات التي سخَّرها اللّه للإنسان، وجعلها مستجيبة له، إذا هو تجاوَبَ معها، ووجَّه قواه إلى الإفادة منها، وذلك بالتَّعرُّف على الطَّريق الذي يوصله إليها، ويضع يده على موضع الخير منها[2].

فالخطاب يشمل كلَّ مخاطَب وعاقل من بني آدم[3]؛ أي: لقد

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1090 - 1091.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 201.

علمت أيُّها العاقل أنَّ اللّه تعالى سخَّر لكم يا بني آدم ما في الأرض من دوابَّ وشجر وأنهار، وغير ذلك ممّا تحتاجونه لحياتكم، وسخَّر لمنفعتكم السُّفن التي تجري في البحر بتقديره وإرادته وإذنه[1].

فائدة تتابع المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾:

لم تترك الآيات حجَّة للمنكرين، ولا شبهة للمعترضين

في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ جملة من المؤكِّدات تتمثَّل في الحرف المشبَّه بالفعل: ﴿أَنَّ﴾، وهو مفيد للتَّوكيد، وفي تقديم المسند إليه (وهو لفظ الجلالة) على المسند الفعليِّ ﴿سَخَّرَ﴾ المتضمِّن ضميرًا يعود على المسند إليه، فأفاد تكرير الإسناد تقوية الحكم، وفي التَّعبير بالماضي المفيد لتحقُّق الوقوع، وفي وقوع الجملة موقع مفعولي فعل الرُّؤية المسبوق بهمزة الاستفهام التَّقريريَّة، والتَّقرير ضرب من ضروب التَّوكيد.

وهذا الحشد من المؤكِّدات في هذه الجملة السّامية قليلة المباني يدلُّ على أهميَّة ما سيقت الجملة لأجل الدَّلالة عليه، وهو تفرُّد اللّه تعالى بالخلق والتَّقدير، والتَّذليل والتَّسخير.

ولمّا كانت هذه الحقائق ممّا قد ينازع فيها الملحدون فينكرونها فقد حسن أن يؤكَّد الكلام بأكثر من مؤكِّد، فضلًا عن أنَّ كثيرًا من النّاس عن تدبُّرها غافلون، فنُزِّلوا منزلة المنكِر لتغافلهم خروجًا بالخبر عن مقتضى الظّاهر[2].

نكتة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾:

لولا الله القدير لما كان خلق ولا تسخير

قُدِّم المسند إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المسند الفعليِّ ﴿سَخَّرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ لإفادة تقوية الحكم وتقريره لدى السّامع، ذلك أنَّ الفعل ﴿سَخَّرَ﴾ مسند إلى لفظ الجلالة، وهو يحوي ضميرًا مستترًا تقديره (هو) يعود - أيضًا - على لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، فكأنَّه قد أُعيد الإسناد مرَّتين[3].

(1) طنطاوي، الوسيط: 9/ 337.
(2) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 59، وعبد العزيز عتيق، علم المعاني، ص: 60.
(3) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.

بيان مَفْعولَيِ الرّؤية العلميّة:

الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ يحتمل أن تكون الرُّؤية العلميَّة، وهي تتطلَّب مفعولين، وقد سدَّت مسدَّهما هاهنا الجملةُ الاسميَّة ﴿أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ فـ﴿أَنَّ﴾ وما في حيِّزها سدَّت مسدَّ مفعولي ﴿تَرَ﴾؛ لأنَّها علميَّة[1].

مَن لم يرَ بعين البصيرة عرَج إيمانُه بأقدام كسيرة

دلالة التّعبير بـ﴿سَخَّرَ﴾ مادّة وصيغة:

التَّسخير: تسهيل الانتفاع بدون مانع، وهو يُؤْذِنُ بصعوبة الانتفاع لولا ذلك التَّسخير، "وأصلُه: تسهيل الانتفاع بما فيه إرادة التَّمنُّع مثل تسخير الخادم وتسهيل استخدام الحيوان الدّاجن من الخيل، والإبل، والبقر، والغنم ونحوها بأن جعل اللّه فيها طبع الخوف من الإنسان مع تهيئتها للإلف بالإنسان، ثمَّ أُطلق على تسهيل الانتفاع بما في طبعه أو في حاله ما يُعَذِّر الانتفاعَ به لولا ما ألهم اللّه إليه الإنسان من وسائل التَّغلب عليها بتعرُّف نواميسه وأحواله وحركاته وأوقات ظهوره، وبالاحتيال على تملُّكه مثل صيد الوحش ومغاصات اللُّؤلؤ والمرجان، ومثل آلات الحفر والنَّقر للمعادن، ومثل التَّشكيل في صنع الفُلك والعَجَل، ومثل التَّركيب والتَّصهير في صنع البواخر والمزجيّات والصّياغة، ومثل الإرشاد إلى ضبط أحوال المخلوقات العظيمة من الشَّمس والقمر والكواكب والأنهار والأودية والأنواء واللَّيل والنَّهار، باعتبار كون تلك الأحوال تظهر على وجه الأرض، وما لا يحصى ممّا ينتفع به الإنسان ممّا على الأرض، فكلُّ ذلك داخل في معنى التَّسخير"[2].

لولا تسهيلُ اللهِ للإنسانِ الانتفاعَ بدون ما يمنع لما كان يستقيمُ شيء له أو يخضع

بلاغة المجاز في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ﴾:

قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ﴾ أُريدَ به تسخير الانتفاع بها، فما كان للخلق

ذلَّل الله تعالى للخلق الانتفاع، ويسَّر لهم الاستمتاع بما وهبهم من أبصار وأسماع

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 470، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 319.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 321.

به انتفاعٌ وكان ميسَّرًا له في الاستمتاع به فهو كالمسخَّر له على معنى تمكينه منه[1].

فهو مجاز في الانتفاع؛ أي: ذلَّل لكم ما في الأرض، فلا أصلبَ من الحَجَر، ولا أحدَّ من الحديد، ولا أكثر هيبة من النّار، وقد سخَّرها لكم وسخَّر الحيوانات أيضًا حتَّى ينتفع بها من حيث الأكل والرُّكوب والحمل عليها والانتفاع بالنَّظر إليها، فلولا أن سخَّر اللّه تعالى الإبل والبقر مع قوَّتهما حتَّى يذلِّلهما الضَّعيف مِن النّاس ويتمكَّن منهما لما كان ذلك نعمة[2].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَكُم﴾:

في الاختصاص بالتَّسخير دليل منَّة، وبرهان نعمة

اللّام في قوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُم﴾ للاختصاص، وهو أصل معانيها[3]؛ أي: أنَّ اللّه تعالى قد ذلَّل لعباده ما في الأرض لينتفعوا به، فاختصَّهم بهذه المنَّة.

ويجوز أن تكون للتَّعليل؛ أي: فعل ذلك لأجلكم، وعلى أيٍّ من التَّأويلين فهو دليل منَّة، وبرهان نعمة.

غرض تقديم شبه الجملة ﴿لَكُم﴾:

في التَّقديم معنى الاهتمام، ليبتهل في شكر النِّعم الأنام

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَكُم﴾ على المفعول الصَّريح للاهتمام بالمقدَّم؛ لأجل تعجيل المسرَّة والتَّشويق إلى المؤخَّر[4]، ولبيان أنَّ التَّسخير من اللّه تعالى إنَّما هو ﴿لَكُم﴾، ليذلِّل كلَّ ما فيها لإرادتكم ورغباتكم، ومعاشكم، فكلُّ ما فيها ظاهرًا فوق أرضها من زروع وثمار، وغابات، وجبال ووهاد، وما في باطنها من معادن وكنوز، وفي بحارها من لآلئ، ولحم طريٍّ، كلُّ هذا سخَّره اللّه تعالى وذلَّله لكم أنتم، فهي نعم تنادي مَن أُنعِم عليه بها بشكرها[5].

(1) القشيري، لطائف الإشارات: 2/ 558.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 247.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 183.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020.

معنى ﴿مَّا﴾:

سخَّر الله تعالى كلَّ ما في الأرض للنّاس مذلَّلًا، رحمةً منه وتفضُّلًا

﴿مَّا﴾: موصول مبهَم يقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل[1]، وهي هنا تشمل كلَّ شيء ممّا في الأرض في ظاهرها وفي باطنها من حيوان وجماد وزروع وثمار وطاقة ومعادن وبترول وكنوز ... إلخ؛ للانتفاع بها وللدَّلالة على رحمة الله تعالى بالنّاس وقدرته وعظمته سبحانه وبحمده[2].

فجميع ما في الأرض مسخَّر لبني آدم: حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها[3].

ومن المراكب جارية في البحر، وغير ذلك من سائر المسخَّرات[4]، فذلك كلُّه للإنسان يصرِّفه فيما أراد من حوائجه[5].

غرض التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

مَن أُحيط به وبما يحويه كيف يُعجز الله أو يعاديه

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[6]، هذا هو الأصل في معناها.

وقول الله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ يشمل ما كان على ظهر الأرض وما كان في باطنها، وما كان بعضه في باطنها وبعضه على ظاهرها كالجبال والأشجار والنخيل، فجذورها ضاربة في الأرض، وفروعها سامقة باسقة؛ فالتَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ جعل الأرض محيطة وحاوية لما على ظهرها إحاطة الوعاء أو الظَّرف بما فيه.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(2) الهلال، الثري الجامع: 7/ 345.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 544.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 168.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 677، وابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 450.
(6) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

وفي ذلك إشارة لطيفة إلى أنَّ المخاطَبين بهذا الخطاب والمنتفعين بما سخَّر الله لهم إنَّما هم محاطون بالأرض تحويهم وتشملهم كأنَّها وعاء لهم ... فأنَّى يُعجزون اللّهَ الذي خلقهم وخلق ما يحويهم ويشملهم؟!

معنى (أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾:

(أل) في ﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾ هي التي لبيان الجنس؛ أي: سخَّر لكم ما في الأرض كلِّها، وهذا مناسب لمقام الامتنان، فلم يجعل اللّه تعالى بعض الأرض مسخَّرًا وبعضها غير مسخَّر.

دلالة العطف في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾:

كأنَّ الفلك قُريَّة تحملها المياه، رحمة ومنَّة من الله، فتمَّت نعمته في البحر والبرِّ

دلَّ عطف الفلك على تسخير ما في الأرض على عظيم نعمة اللّه تعالى في البرِّ والبحر، فكما جعل اللّه تعالى الأرض مذلَّلة للنّاس وسلك لهم فيها فجاجًا سبلًا، وسخَّر لهم فيها مِن جبال وسهول ووديان وأشجار وثمار ومعادن ودوابَّ وبهائم وغيرها، فكذلك سخَّر لهم البحر لتجري فيه الفُلك بأمره؛ ذلك أنَّ الإنسان يستطيع أن يحيا على الأرض بلا واسطة، ولا يستطيع البقاء في الماء إلا بواسطة، فكانت الفُلك كأنَّها قُرَيَّة صغيرة تحملها المياه رحمة من اللّه تعالى، فشملت نعمته ما في البرِّ والبحر.

فائدة عطف الفلك مع أنّه داخل في حيّز الأرض:

خُصَّت الفلك بالذِّكر لظهور النِّعمة بها والامتنان، وتذكير الإنسان بفضل المنّان

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾ على ﴿مَّا﴾ في قوله سبحانه: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ من باب عطف الخاصِّ على العامِّ[1]، وإنَّما أفردها بالذِّكر، وإن اندرجت بطريق العموم تحت ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لظهور الامتنان بها، ووضوح النِّعمة فيها من قِبَل كثرة منافعها، ولعجيب تسخيرها دون سائر

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 183.

المسخَّرات[1]؛ ذلك أنَّ تسخير السُّلوك في البحر وحمل البضائع الثَّقيلة في سفينة تجري على ظهر الماء تحرِّكها الرّياح أو المحرِّكات التي سُخِّرت فيها قوانين الكيمياء والفيزياء، وقطعها الأميال وشقِّها الأمواج - كلُّ هذا من أعجب العجب[2]، وأيضًا لأنَّها هي الموجودة ساعة نزول القرآن.

أمّا اليوم فهناك الطّائرات، والغوّاصات، والسيّارات، ووسائل الاتِّصال والتَّواصل[3]، وكلُّ هذا من عظيم نعمة اللّه تعالى على عباده، ولكنَّ أكثر النّاس لا يشكرون!

معنى (أل) في ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ﴾ هي الجنسيَّة؛ لصحَّة وضع لفظ (كلّ) مكانها، فليس ثمَّة فلك جارية في البحر وأخرى غير جارية، فنعمة اللّه تعالى على الجميع سارية.

ليس ثَمَّ فُلك في البحر غير جارية، فنعمة الله على الجميع سارية

نكتة التّعبير بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾:

عُبِّر بالفعل المضارع ﴿تَجۡرِي﴾ للدَّلالة على تجدُّد الفعل واستمراره، وليفيد بقاءها كذلك مدَّة، فالفُلك تمضي في البحر أيّامًا وربَّما شهورًا، وما من يوم إلّا وفيه فُلك في البحر جاريات، وستبقى النِّعمة إلى ما شاء ربُّ البريّات.

في البحر العجاج، وتلاطم الأمواج، تجري الفلك بأهلها بريح طيِّبة، ورفق وتؤدة

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿تَجۡرِي﴾:

جملة: ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾ في موضع الحال من ﴿وَٱلۡفُلۡكَ﴾؛ أي: وسخَّر لكم الفلك في حال جريها[4]، وإنَّما خصَّ هذا بالذِّكر لأنَّ ذلك الجري في البحر هو مظهر التَّسخير إذ لولا الإلهام إلى صنعها

جريُ الفلك في البحر هو مظهر التَّسخير، وظهور فضل الله العليّ الكبير

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، والسمين، الدر المصون: 8/ 302، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020، والهرري، الحدائق: 18/ 409.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 84.

(3) محمود حجازي، التفسير الواضح: 2/ 603.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.

على الصِّفة المعلومة لكان حظُّها من البحرِ الغرقَ[1]، فكانت هذه الحال مبيِّنة لمعنى تسخير الفلك[2].

دلالة التّعبير بـ﴿فِي﴾ الظّرفيّة المجازيّة:

الحرف ﴿فِي﴾ موضوع للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة كانت هذه الظَّرفيَّة أم زمانيَّة، حقيقيَّة أم مجازيَّة[3]، هذا هو الأصل في معناه.

تجري الفلك في أمواج كالجبال، ولا يحفظها إلّا الكبير المتعال

و﴿فِي﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ﴾ مستعمَل في معنى الظَّرفيَّة المجازيَّة؛ إذ الفُلْك إنَّما تجري على ظهر الماء، ولا تغوص فيه، ولكنَّ التَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة أفاد أنَّ الفلك تشقُّ لها طريقًا داخل الماء وهي تجري على ظهره، فكأنَّه حواها وصار ظرفًا لها، ودلَّ كذلك على أنَّ أمواج البحر كأنَّها جبال تكاد تبتلع الفُلك لولا رحمة اللّه تعالى بإمساكها وحفظها، وفي ذلك ما فيه من تعديد المِنن، والتَّذكير بالنِّعم.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْبَحْرِ﴾:

تجري الفلك في كلِّ البحار، بتسخير من الله الواحد القهّار

(أل) في البحر هي التي لبيان الجنس؛ لصحَّة نيابة (كلّ) عنها؛ أي: تجري الفلك في كلِّ البحار، فلم يمنع اللّه تعالى بحرًا أن تسير الفلك فيه، بل كلُّ البحار مسخَّرة لجري الفلك فيها، وهذا من تمام نعمة اللّه تعالى على النّاس.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِأَمْرِهِۦ﴾:

لولا أمر الله لغرقت الفلك في البحار، فاعتبروا يا أولي الأبصار

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان هذا الإلصاق أم مجازيًّا[4]، هذا هو الأصل في معناها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.

(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 564.

(3) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

(4) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

وقوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ من هذا الإلصاق المجازيِّ؛ إذ جعل أمرَ اللّٰه تعالى كأنَّه حبل نجاة، أو شيء عظيم التصقت به الفلك في جريها في البحر، ولولا التصاقها به لغرقت، ففيها كذلك معنى "السَّببيَّة"[1].

فائدة التّعبير بالأمر وإضافتها إليه تعالى:

المراد بالأمر في قوله تعالى: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾: التَّيسير والمشيئة[2]، فالأمر هو أمر التَّكوين؛ إذ جعل البحر صالحًا لحملها[3]، وسخَّر لها الماء والرِّياح، ولولا ذلك ما جرت[4]، فمعنى ﴿تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ أي: بتقديره[5].

لولا تقدير الله ما جرت في البحر سفينة، ولا استقرَّت على البرِّ مدينة

وإنَّما قال: ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾؛ لأنَّه سبحانه لمّا كان المُجري لها بالرِّياح نسب ذلك إلى أمره توسُّعًا؛ لأنَّ ذلك يفيد تعظيمه بأكثر ممّا يفيد لو أضافه إلى فعله بناء على عادة الملوك في مثل هذه اللَّفظة[6]، فذكر أنَّها ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ مع أنَّ كلَّ شيء بأمره، وذلك لأنَّها في مرأى تسير في البحر ماخراتٍ عُبابَه، لا يسيِّرها شيء إلّا الهواء، فإنَّ التَّعبير ﴿بِأَمۡرِهِۦ﴾ في هذا مسايرة لمرأى العين ومجرى الرِّيح، وهي آية من آيات اللّٰه تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِ ٱلۡجَوَارِ فِي ٱلۡبَحۡرِ كَٱلۡأَعۡلَٰمِ ٣٢﴾ [الشورى: 32]، وهي تجري في البحر ناقلةً ما تحمل من خيرات الأرض إلى أقاليم أخرى؛ ولذا قال سبحانه في آية أخرى: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164]، فهي تصل النّاس بعضهم ببعض بالمتاجر، والرَّحلات، والتَّعارف والاتِّصال الدّائم بينهم[7].

---

(1) السمين، الدر المصون: 8/ 302.
(2) البروسوي، روح البيان: 6/ 56.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(4) الخازن، لباب التأويل: 3/ 263.
(5) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 551.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(7) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5020.

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ﴾:

تتعدَّد نعم الله تعالى إلى ما لا يُحصَى، فكيف يُجحَد فضلُه أو يُنسَى

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ عاطفة[1]، حيث عطفت جملتها على جملة: ﴿سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، من باب تعداد النِّعم.

وقيل: الواو استئنافيَّة، وجملة: ﴿وَيُمۡسِكُ﴾ لا محلَّ لها استئنافيَّة[2]، ومناسبة الابتداء هو الانتقال من بيان نعمته سبحانه في الأرض برًّا وبحرًا بتسخير ما فيها، إلى بيان عظيم منَّته ﷻ في السَّماء بإمساكها كيلا تسقط على الأرض.

لطيفة عطف نعمة الله تعالى بإمساك السَّماء على نعمته بتسخير ما في الأرض:

أتمَّ الله تعالى على عباده النِّعم بأن صرف عنهم كثير النِّقم

لمّا كان إمساك الفلك على وجه الماء - مع لطافته - عن الغرق أمرًا غريبًا كإمساك السَّماء على متن الهواء عن الوقوع، أتبعه قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ ثم فسَّر ذلك بقوله مبدلًا: ﴿أَن تَقَعَ﴾؛ أي: مع علوِّها وعظمها وكونها بغير عماد ﴿عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ التي هي تحتها[3].

"ومناسبة عطف إمساك السَّماوات على تسخير ما في الأرض وتسخير الفلك أنَّ إمساك السَّماء عن أن تقع على الأرض ضربٌ من التَّسخير لما في عظمة المخلوقات السَّماوية من مقتضيات تغلُّبها على المخلوقات الأرضيَّة وحَطْمِها إيّاها لولا ما قدَّر اللّه تعالى لكلِّ نوع منها من سنن ونُظم تمنع من تسلُّط بعضها على بعض، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ۝٤٠﴾ [يس: 40]، فكما سخَّر اللّه للنّاس ما ظهر على وجه الأرض من موجودات مع ما في طبع كثير منها من مقتضيات إتلاف الإنسان، وكما سخَّر لهم الأحوال التي تبدو للنّاس

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 344.
(2) محمود صافي، الجدول: 9/ 142.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 84.

من مظاهر الأفق مع كثرتها وسعتها وتباعدها، ومع ما في تلك الأحوال من مقتضيات تعذُّر الضَّبط - كذلك سخَّر لمصلحة النّاس ما في السَّماوات من الموجودات بالإمساك المنظَّم المنوط بما قدَّره الله كما أشار إليه قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾؛ أي: تقديره"[1]؛ لأنَّ النِّعم المتقدِّمة لا تكمل إلّا به، والسَّماء جِرْمٌ ثقيل، وما كان كذلك لا بدَّ له من السُّقوط لولا مانع يمنع منه، وهو القدرة، فأمسكها الله سبحانه وبحمده بقدرته لئلّا تسقط، فتبطل النِّعم التي امتنَّ بها علينا[2].

دلالة التّعبير بفعل الإمساك مادّة وصيغة:

اللـه يمسك السَّماء بقدرته، ويمنعها عن الوقوع على الأرض برحمته

تدور معاني الإمساك حول التَّعلُّق والحفظ والحبس القويِّ للشَّيء عن التَّسيُّب[3]، وقوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ أي: ويمنع وقوعَ السَّماء على الأرض[4]، فيحبسها سبحانه بيد القدرة عن أن تقع على الأرض فتهلك مَن فيها[5]، وأنَّه سبحانه لو شاء لأذن للسَّماء فسقطت على الأرض فأهلكت مَن عليها[6]، فهذه نعمة تمَّت، ورحمة عمَّت.

والتَّعبير بالمضارع لإفادة الاستمرار التَّجدُّدي؛ أي: يمسكها آنًا فآنًا من الوقوع[7].

المعاني والدّلالات المحتملة لإمساك السّماء:

جعل اللـه الأرضَ للخلق قرارًا من غير أن تميد، وجعل السَّماء بناءً من غير وقوع

تدور معاني الإمساك في القرآن الكريم حول: المراجعة، والحبس، والبخل، والحفظ، والمنع، والإبقاء[8].

والإمساك بمعنى اللُّزوم يتعدَّى بالباء، وبمعنى الكفِّ يتعدَّى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322 - 323.
(2) القنوجي، فتح البيان: 9/ 78.
(3) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (مسك).
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533.
(5) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 149.
(6) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 811.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 184.
(8) عبد الرحمن فودة، الجامع للوجوه والنظائر في القرآن الكريم: (مسك).

بـ(عن)، وكذا بمعنى الحفظ والبخل، وبمعنى المنع، يقال: أمسكت عنه كذا؛ أي: منعته قال تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ [الزمر: 38] وكنَّى عن البخل بالإمساك.

والمراد بإمساك السَّماء عن الوقوع على الأرض: حفظ تماسكها بقدرته تعالى، وأنَّها ثقيلة محفوظة عن الوقوع بمحض إرادته سبحانه وقدرته التي لا يتعاصاها شيء لا لاستمساكها بذاتها[1].

بلاغة التّضمين في الإمساك:

في التَّضمين بيان وإيجاز، وبلاغة متوشِّحة بالإعجاز

من معاني الإمساك: الحفظ، والمنع، والحبس، والشَّدُّ، وهو ضدُّ الإلقاء، وقد ضُمِّن معنى المنع هنا وفي قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41] فيُقدَّر حرف جرٍّ لتعدية فعل الإمساك بعد هذا التَّضمين، فيُقدَّر (عن) أو (مِن)[2].

وهذا التَّضمين ضرب من ضروب الإيجاز من حيث التَّعبير عن معنيين أو أكثر بلفظ واحد يشملهما.

نكتة تقديم تسخير ما في الأرض والفلك على إمساك السّماء:

الانتفاع بالأرضيّات لا يتأتَّى إلّا بعد أمن وقوع السّماوات

قُدِّم ذِكر النِّعمة بتسخير ما في الأرض على إمساك السَّماء؛ ذلك أنَّ النِّعم المتقدِّمة لا تكمل إلا بهذه؛ لأنَّ السَّماء مسكن الملائكة فوجب أن يكون صلبًا، ووجب أن يكون ثقيلًا، وما كان كذلك فلا بدَّ من الهويِّ لولا مانع يمنع منه، وهذه الحجَّة مبنيَّة على ظاهر الأوهام[3].

ولا ريب أنَّ الانتفاع بالأرضيّات لا يتأتَّى إلّا بعد الأمن من وقوع السَّماء على الأرض، فمنَّ الله تعالى على المكلَّفين بأن حفظها كيلا تقع أو كراهة أن تقع على الأرض، وذلك بمحض الاقتدار[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 184.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(4) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 99.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ هي التي لبيان الجنس، فتشمل كلَّ ما علا الأرضَ، فالمراد بالسَّماء هنا: جنسها الشّامل للسَّماوات السَّبع[1]، فاللّه تعالى يمسك السَّماوات كلَّها عن الوقوع.

بلاغة الطّباق في ذكر السّماء والأرض:

نعمة الله تعالى تمَّت، ورحمته وسعت وعمَّت

في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ طباق إيجاب بين ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾، و﴿ٱلۡأَرۡضِ﴾، يفيد تقوية المعنى وتوضيحه، وبيان أنَّ نعمة اللّه تعالى على النّاس قد شملت ما فوقهم وما تحت أرجلهم.

أثر معاني الآية في تنوّع دلالات ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

اللّه تعالى يحفظ السَّماء وما تحويه عن الوقوع، فحُقَّ للعباد أن يذعنوا له في خضوع

"لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ يجوز أن يكون بمعنى: ما قابل الأرضَ في اصطلاح النّاس، فيكون كُلًّا شاملًا للعوالم العلويَّة كلِّها التي لا نحيط بها علمًا كالكواكب السَّيّارة وما اللّه أعلم به وما يكشفه للنّاس في متعاقب الأزمان، ويكون وقوعها على الأرض بمعنى الخرور والسُّقوط فيكون المعنى: أنَّ اللّه بتدبير علمه وقدرته جعل للسَّماء نظامًا يمنعها من الخرور على الأرض، فيكون قوله: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾ امتنانًا على النّاس بالسَّلامة ممّا يفسد حياتهم"[2].

وَجْهٌ على معنى الغيث والموجودات العلويّة من باب المجاز، علاقته المكانية أو الظرفية

ويجوز أن يكون لفظ السماء بمعنى المطر، "فيكون معنى الآية أنَّ اللّه بتقديره جعل لنزول المطر على الأرض مقادير قدَّر أسبابها، وأنَّه لو استمرَّ نزول المطر على الأرض لتضرَّر النّاس فكان في إمساك نزوله باطِّراد مِنَّةٌ على النّاس، وكان في تقدير نزوله عند تكوين اللّه إيّاه مِنَّة أيضًا، فيكون هذا مشتملًا على ذكر نعمتين: نعمة الغيث، ونعمة السَّلامة من طغيان المياه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323 - 324.

ويجوز أن يكون لفظ السَّماء قد أُطلق على جميع الموجودات العلويَّة التي يشملها لفظ السَّماء الذي هو ما علا الأرض فأُطلق على ما يحويه، كما أُطلق لفظ الأرض على سُكّانها في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ [الرعد: 41]، فاللّه يمسك ما في السَّماوات من الشُّهب ومن كريّات الأثير والزَّمهرير عن اختراق كرة الهواء، ويمسك ما فيها من القوى كالمطر والبَرَد والثَّلج والصَّواعق من الوقوع على الأرض والتَّحكُّك بها إلّا بإذن اللّه فيما اعتاد النّاس إذنه به من وقوع المطر والثَّلج والصَّواعق والشُّهب وما لم يعتادوه من تساقط الكواكب"(1).

نكتة إفراد لفظ ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾:

يمنُّ الله على عباده بحفظهم، وتدبير أرزاقهم

أُفرِد لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾؛ لأنَّه مرادٌ بها جنسُها، فلا يراد العدد فحسب، ولا يراد معنى الجمع للتَّكثير؛ بل ليشمل كلَّ ما علا الأرضَ ممّا تصحُّ تسميته بالسَّماء، مِن سُحُب وشُهُب ونيازك وكواكب سيّارة، وغيرها.

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَن تَقَعَ﴾ فيه ثلاثة أوجه:

يحفظ الله السَّماء مِن أن تقع على الأرض فتهلك الخَلق؛ رحمةً مِن الله المَلِك الحقّ

أحدها: أنَّها في محلِّ نصب أو جرٍّ لأنَّها على حذف حرف الجرِّ تقديره: (من أن تقع).

والثّاني: أنَّها في محلِّ نصب فقط؛ لأنَّها بدل من ﴿ٱلسَّمَآءَ﴾ بدل اشتمال؛ أي: (ويمسك وقوعها يمنعه).

والثّالث: أنَّها في محلِّ نصب على المفعول من أجله، فالبصريّون يقدِّرون: (كراهة أن تقع)، والكوفيّون: (لئلّا تقع)(2).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323 - 324.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، والسمين، الدر المصون: 8/ 302.

دلالة التّعبير بالوقوع مادّة وصيغة:

تدور معاني الوقوع حول الهويِّ والسُّقوط، غير أنَّه هويٌّ مع صدم أو غِلَظ وشِدَّة، فلذلك لا تقال الواقعة إلّا في الشِّدَّة والمكروه، وأكثر ما جاء في القرآن من لفظ (وَقَعَ) جاء في العذاب والشَّدائد[1].

في الوقوع عذاب أليم، ومكروه عظيم

ولمّا كان سقوط السَّماء على الأرض فيه صدمٌ كبير، وشدَّة بالغة، ومكروه عظيم؛ عُبِّر عنه بالوقوع لأجل ذلك.

معنى الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾؛ أي: إلّا بإذن اللّه لها بالوقوع، فتقع بإذنه، أي بإرادته وتخليته[2]؛ أي: لو شاء اللّه تعالى لأذِن للسَّماء فسقطت على الأرض، فهلك مَن فيها، ولكن مِن لطفه ورحمته وقدرته سبحانه يمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه[3]، فما يمسكها ويحفظها إلّا ذلك، رحمةً بكم، فاشكروا آلاءه وحده[4].

ما يمسك السَّماءَ إلّا الذي بغير عمَدٍ رفعَها، وأنزل للمخلوقات منها رزقَها

وهذا الاستثناء مفرَّغ مِن أعمِّ الأسباب والأحوال، ولا يقع في موجَب، ولكنَّه وقع فيه هاهنا لصحَّة إرادة العموم، ولأنَّه لمّا كان الكلام قبله في قوَّة النَّفي ساغ ذلك، فإنَّ قوله تعالى: ﴿وَيُمۡسِكُ﴾ فيه معنى النَّفي؛ إذ التَّقدير: (لا يتركها تقع في حالة من الأحوال، ولا يتركها تقع بسببٍ مِن الأسباب؛ كمزيدِ مرور الدُّهور عليها، وكثقلها بما فيها إلّا بسبب مشيئته وقوعَها)، فـ﴿إِلَّا﴾ أداة حصر[5].

فمعنى الآية: لا تقع السَّماء على الأرض بغير إذنه، ولا يقتضي ذلك الإذنَ بالوقوع في وقت من الأوقات ولا عدم وقوعها[6].

---

(1) ابن فارس، المقاييس، والرّاغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (وقع).
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 93.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 272.
(5) السمين، الدر المصون: 8/ 303، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 184، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 471، ومحمود صافي، الجدول: 9/ 141.
(6) ثناء الله المظهري، التفسير المظهري: 6/ 345.

لا يقع شيء في ملَكوت الله تعالى إلّا ملابسًا لإذنه ومشيئته، فأعظِم بقدرته

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِهِۦٓ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الملابسة والإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1].

وهذا الأخير هو المراد هنا، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ في معنى الحال؛ أي: لا تقع السَّماء على الأرض إلّا ملتبسة بأمره[2]، فالباء للملابسة[3]؛ أي: يمنع ما في السَّماء من الوقوع على الأرض في جميع أحواله إلّا وقوعًا ملابسًا لإذنٍ من اللّه[4].

جُمِعَ بين الامتنان والتَّخويف؛ ليستزيد النّاس من شكر النِّعم، وليخافوا غضب ربِّهم

بلاغة الاحتراس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ إشارة إلى أنَّ هذه السَّماء المرفوعة المحفوظة بقدرة اللّه، هي خاضعة لإرادة اللّه، وأنَّه من الممكن أن يأذن اللّه لها بأن تسقط على الأرض[5]!

فهو احتراس جمعًا بين الامتنان والتَّخويف، ليكون النّاس شاكرين مستزيدين من النِّعم خائفين من غضب ربِّهم أن يأذن لبعض السَّماء بالوقوع على الأرض[6].

أُدمِج بين الأمن والخوف؛ ليكون النّاس في نزول المطر راغبين، ولنزول الكِسَف راهبين

بلاغة الإدماج في قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾:

الإذن حقيقته: قول يُطلَب به فعل شيء، واستُعير هنا للمشيئة والتَّكوين، وهما متعلَّق الإرادة والقدرة[7].

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓ﴾ إدماج بين الامتنان والتَّخويف: فإنَّ من الإذن بالوقوع على الأرض ما هو مرغوب للنّاس، ومنه ما هو مكروه، وهذا أنسب بالإعجاز[8].

---

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) السمين، الدر المصون: 8/ 303.
(3) القنوجي، فتح البيان: 9/ 79.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 323.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 324.

دلالة الاستثناء على المحذوف:

لو أذن الله للسَّماء لسقطت كِسْفًا، ولنَسفَتْ جميعَ ما على الأرض نَسْفًا

قوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأنَّ طيَّ السَّماء ونقض هذه الهيئة كوقوعها، ويحتمل أن يريد بذلك: الوعيدَ لهم في أنَّه إن أذِن في سقوطٍ لكَسَفَها عليهم سقطت، كما في قولهم: ﴿أَوۡ تُسۡقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمۡتَ عَلَيۡنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: 92] وقوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ متعلّق بأن تقع؛ أي: إلّا بإذنه فتقع.

ويحتمل أن يعود قوله: ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ على الإمساك؛ لأنَّ الكلام يقتضي (بغير عَمَد) ونحوه، فكأنَّه أراد: (إلّا بإذنه فيه يمسكها)[1]؛ أي: يدلُّ بدلالة الاقتضاء على تقدير هذا المتعلَّق أخذًا من قوله تعالى: ﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: 2] ونحوه فكأنَّه أراد: (إلّا بإذنه فيمسكها)[2].

غرض جمع مظاهر قدرة الله تعالى في البرّ والبحر والجوّ:

ينبِّه الله عباده لشكر نعمته، وتعظيمه وعبادته، والحذر من نقمته

امتنَّ اللّه تعالى على عباده بذكر عظيم نعمته عليهم في البرِّ بتسخير ما فيه ممّا يحتاجون إليه من الدَّوابِّ والشَّجر والأنهار[3]، وفي البحر بتسيير السُّفن فيه كالأعلام، وفي السَّماء برفعها وحفظها من الوقوع على الأرض ذكر نعمة أخرى، فأخبر أنه سخَّر لعباده، فاستوعبت الآية العوالم الثَّلاثة: البرَّ، والبحر، والجوَّ[4].

والغرض من ذلك إيقاظ لمشاعر الإنسان ومدركاته؛ ليمدَّ بصره إلى ما فوق هذه الأرض بعد أن يثبِّت قدمه عليها، فينظر في ملكوت السَّماء، وعندئذ يرى أنَّ هذا السَّقف المرفوع فوقه تمسكه قدرة اللّه، وأنَّه لولا هذه القدرة لسقط على الأرض، وأهلك كلَّ حيٍّ فيها[5].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 131، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 534.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 92.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾:

الله بعباده رؤوف رحيم؛ حيث فتح لهم باب العلوم، وهيّأ لهم أسباب الفُهوم

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ استئناف بيانيٌّ[1] ناشئ عن سؤال مقدَّر بعد قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾؛ فكأنَّه سُئِل عن سبب ذلك، فجاء الجواب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، فهي جملة تعليليَّة لما في ضمن قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ﴾ من الامتنان[2]؛ أي: لو شاء لأذِن للسَّماء فسقطت على الأرض، فهلك مَن فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ أي: مع ظلمهم[3]، فوقع التَّذييل موقع التَّعليل للتَّسخير والإمساك باعتبار الاستثناء؛ لأنَّ في جميع ذلك رأفةً بالنّاس بتيسير منافعهم الذي في ضمنه دفع الضُّرِّ عنهم[4].

فائدة توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

جاء التَّوكيد لترسيخ المعنى في النُّفوس وتقريره، لتعظيم الله تعالى وتوقيره

لقد أكَّد سبحانه رأفته ورحمته بالنّاس بعدَّة مؤكِّدات، **أوَّلها:** ﴿إِنَّ﴾، **وثانيها:** تقديم ﴿بِٱلنَّاسِ﴾، **وثالثها** بـ(اللّام)، **ورابعها** بالتَّعبير بالصِّفة المشبَّهة، وقد حسن التَّوكيد هنا لأنَّ هذه الجملة السّامية جاءت في مقام التَّعليل لما سبق من تصرف اللّٰه سبحانه في الكون[5]، فحسن أن تؤكَّد ليتقرَّر المعنى في النُّفوس؛ فإنَّ منهم المنكر، والشّاكَّ، والمتردِّد.

نكتة إظهار لفظ الجلالة في موضع الإضمار:

في إظهار لفظ الجلال توكيد وتقرير لجمع صفات الكمال

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ خروج عن مقتضى الظّاهر إذ عُدِل عن الإضمار (إنَّه) للإظهار ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾

---

(1) محمود صافي، الجدول: 9/ 142.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5021.

لنكتة بلاغيَّة هي زيادة تمكين ما استُخدِم للدَّلالة عليه الاسم الظّاهر بدل الضَّمير، فاللّه سبحانه وحده هو مَن سخَّر ما في الأرض وما في البحر، وهو وحده الذي رفع السَّماء فأمسكها كيلا تقع على الأرض، ففيه مزيد مِن التَّقرير، وفيه كذلك ما فيه مِن إدخال الرَّوعة والمهابة من قِبَل أنَّ لفظ الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ علَم على الذّات العليَّة، فهو جامع لكلِّ صفات الكمال والجلال.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

رأفة الله تعالى لابست النّاس كالشِّعار، والرَّحمة فوقها كالدِّثار

(الباء) حرف موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ للإلصاق المجازيِّ، فكأنَّ رحمة اللّه تعالى ورأفته قد لابست النّاس كالدِّثار أو الشِّعار، ولولا رحمته سبحانه ورأفته لما شعر أحد بالأمن والاستقرار[2].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

عمَّت رحمة الله تعالى كلَّ الخلائق، وشملت العظائم والدَّقائق

(أل) في قوله تعالى: ﴿بِٱلنَّاسِ﴾ هي التي لبيان الجنس، فيصلح مكانها لفظ (كلّ)؛ فرحمة اللّه تعالى عمَّت جميع الخلائق في الدُّنيا بتسخير ما في الأرض، وتسيير الفُلك، وتدبير الأرزاق، يستوي في هذا المؤمن والكافر، أمّا الآخرة فهي للمتَّقين، ولن يرحم اللّه تعالى فيها الكافرين.

الغرض من تقديم شبه الجملة ﴿بِٱلنَّاسِ﴾:

في التَّقديم اهتمام وتكريم

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ للاهتمام به[3]؛ لأنَّه المقصود لبيان رحمته[4]، ولمّا كان الجماد كلُّه متاعًا للحيوان اقتضى تقديم النّاس[5].

---

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) الهلال، الثري الجامع: 7/ 346.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(4) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 85.

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ هي المزحلَقة الواقعة في خبر ﴿إِنَّ﴾، والمقصود منها: التّوكيد: توكيد الرّأفة والرّحمة[1].

توجيه القراءات في قوله تعالى: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ وبلاغتها:

اللـه تعالى رؤوف بعباده إذ أعطاهم ما يحتاجون، وصرف عنهم ما يحذرون

قرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائيُّ، ويعقوب، وخلف العاشر بقصر همز ﴿لَرَءُوفٌ﴾ من غير واو على وزن (نَدُسٍ)[2]، هكذا: ﴿لَرَؤُفٌ﴾، وقرأ ابن كثير ونافع وحفص عن عاصم وابن عامر: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ بالمدِّ كـ: (عَطُوف)[3].

ووجه قراءة من قرأ: ﴿لَرَءُوفٌ﴾ أنَّ فعولًا بناء أكثر في كلامهم من فعُل، فإنَّ باب ضروب وشكور أكثر مِن باب حذر، وحدث، ويقظ، وإذا كان أكثر على ألسنتهم كان أولى ممّا هو بغير هذه الصفة، ومن قرأ: ﴿لَرَؤُفٌ﴾ فقد زعموا أنَّ ذلك الغالب على أهل الحجاز[4].

فائدة تذييل الآية بهذيْن الاسميْن الجليليْن:

عدَّد آلاءه مقرونة بأسمائه؛ ليشكروه على آلائه ويذكروه بأسمائه

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ بمعنى: أنَّه بهم لذو رأفة ورحمة، فمن رأفته بهم ورحمته لهم أمسك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه، وسخَّر لهم ما وصف في هذه الآية تفضُّلًا منه عليهم بذلك[5].

يعني: أنَّه أنعم بهذه النِّعم الجامعة بمنافع الدُّنيا والدّين وقد بلغ الغاية في الإنعام والإحسان فهو إذن رؤوف رحيم بعباده[6].

والجمع بين هاتين الصِّفتين يفيد ما تختصُّ به كلُّ صفة منهما

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه وبيانه: 6/ 202.
(2) وَرَجُلٌ نَدْسٌ ونَدُسٌ ونَدِسٌ: أَي فَهِمٌ سَرِيعُ السَّمْعِ فَطِن، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب: 6/ 229.
(3) الفارسي، الحجة: 2/ 229، وابن الجزري، النشر: 2/223، والبنا، الإتحاف، ص: 194، و401.
(4) الفارسي، الحجة: 2/ 229.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 678، وابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 248، وابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.
(6) الخازن، لباب التأويل: 3/ 263.

ويؤكّد ما تجتمعان عليه[1]، وفيه تطمين للنّاس بأنَّ السَّماء لن تقع عليهم، وذلك لرحمته ﷻ ورأفته بعباده.

ومع هذا كلِّه فإنَّ كثيرًا من عباده يجحدون نعمة الله، ويكفرون به، ويعبدون غيره، من أحجار، وحيوان، وإنسان[2].

الغرض من تقديم صفة الرّأفة على الرّحمة:

الرَّأفة أبلغ من الرَّحمة، وهي أنسب لدرء المضرَّة، وتلك مِن نقيضتها أولى

الرَّأفة: ما تقتضي درء المضارِّ، والرَّحمة: ما تقتضي جلب المصالح، ولكون درء المضرَّة أهمَّ من جلب المصلحة قُدِّم رؤوف على رحيم[3]، وأيضًا لأنَّ الرَّؤوف أبلغ من الرَّحيم، وفي التَّقديم محافظة على الفاصلة[4].

أو لأنَّ الرَّأفة تناسب تسخير ما في الأرض، وتسيير الفلك على الماء، والرَّحمة تناسب إمساك السَّماء لئلّا تقع على الأرض[5]، ولمّا كان ذكر تسخير ما في الأرض مقدَّمًا على ذِكر إمساك السَّماء ناسَبَ أن يُقدَّم ﴿لَرَءُوفٌ﴾ على ﴿رَّحِيمٌ﴾.

نكتة تنكير الاسميْن الجليليْن:

في التَّنكير إجلال وتعظيم، وإفادة للشُّمول والتَّعميم

جاء الاسمان الجليلان في خاتمة الآية الكريمة نكرتين لإرادة التَّعظيم، وإفادة التَّعميم، فرحمته سبحانه شاملة، ورأفته تعالى كاملة، فقد عمَّتا كلَّ شيء، ونال منهما كلُّ فرد من أفراد جنس النّاس نصيبه وافرًا.

فائدة المبالغة في هذيْن الاسميْن الجليليْن:

الله العظيم بالغُ الإنعام والإحسان، عظيم الرَّأفة والرَّحمة والامتنان

جاء الاسمان الجليلان في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ على صيغة المبالغة لإفادة كثرة متعلَّقات هاتين الصِّفتين

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 325.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1091.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(4) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 150.
(5) سعيد حوى، الأساس في التفسير: 7/ 3584.

الحسنيين، ولتوكيدهما عن طريق المبالغة فيهما، والمبالغةُ في حقِّ اللّه تعالى لا تعني زيادةَ الفعلِ، بل تعني: تعدُّدَ المفعولاتِ وكثرةَ المتعلِّقات[1]، ولتنزيههما عن كلِّ ما يُتوهَّم من الشَّبَهِ بهما، فالمعنى أنَّ المنعِم بهذه النِّعم الجامعة لمنافع الدُّنيا والدّين قد بلغ الغاية في الإحسان والإنعام، فهو إذن ﴿لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ألم تر) و(ألم تعلم):

التعبير بـ(ألم تعلم) أعمّ

الفرق بينهما أنَّ التعبير بـ(ألم ترَ) يتحقَّق العلمُ فيه بنظر العين والقلب والتفكّر والاعتبار، والرؤية في هذا التعبير يقترن بها العلم؛ لأنَّه إذا لم يقترن بها كانت كأنّها لم تحصل[3]، أمّا التعبير بـ(ألم تَعلم) فهو أعمّ؛ لأنَّ العلمَ يتحقَّق فيه بما سبق وبغيره، بالسَّماع أو الرؤية أو بهما معًا؛ ولا يقال لِمَن سمع الشيءَ فتحقَّق لديه العلمُ بالسَّماع فقط: (ألم ترَ)، وهذا يدلُّ على أنَّ العلمَ لا يشترط فيه أن تقترن به الرؤية البصَريّة.

إمساك السّماء ورفعها:

الإمساكُ مَنع، ورفـع السماء خلقها مرتفعة

الرَّفع: ضدُّ الوضع والخَفض[4]، والمعنى المحوريّ للجذر: جذب الشيء أو دفعه مسافة إلى أعلى بقوَّة[5]، ورفعُ السماء في قول اللّه ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيۡرِ عَمَدٖ تَرَوۡنَهَاۖ﴾ [الرعد: 2] يعني: أنَّ اللّه ﷻ خلقَ السماءَ مرتفعةً، كما يقال: وسِّعْ طَوقَ الجُبَّة وضيِّقْ كُمَّها، لا يُراد وسِّعه بعد أن كان ضيِّقًا ولا ضيِّقه بعد أن كان واسعًا، وإنَّما يُراد اجعله واسعًا واجعله ضيِّقًا، فليس المراد أنَّ اللّه ﷻ رفعَها بعد أن كانت منخفضة[6].

(1) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 2/ 507.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 531، وابن عادل، اللباب: 14/ 136.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس: (رفع).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (رفع).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 13/ 80.

أمّا الإمساك فأصله يدلُّ على الحَبس[1]، والمعنى المحوريّ لجذره: ضبط الشيء أو حَبسه حبسًا قويًّا في حيِّز فلا يتسيَّب[2]، كالمَسْك (بالفتح): الجِلد[3]؛ فهو يَحبِس ويضبط ما بداخله من الجسم[4].

والإمساكُ في قول اللّه ﷻ: ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦٓۚ﴾ بمعنى المَنع؛ أي: ويمنع وقوع السماء على الأرض[5]، وهو بمعنى المنع أيضًا في قول اللّه ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ﴾ [فاطر: 41]، أي: إنَّ اللّه يمنع السماوات والأرض أن تزولا[6].

السُّقوط والوقوع:

الوقوعُ أشدُّ من السُّقوط

الفرق بينهما أنَّ الهويَّ في السّقوط يكون بعد انقطاع أو انفصالٍ من حيِّز[7]؛ فيُعبَّر بالسُّقوط عن هويّ الجزء الذي كان متَّصِلًا بالكلّ، قال اللّه ﷻ: ﴿وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا﴾ [الأنعام: 59]؛ والورقة جزء من الشجرة، وهنا ملحظٌ آخر، وهو أنَّ الوقوع فيه معنى الشِّدة؛ فلمّا كان هويّ الورقة على الأرض ليس فيه شِدَّة الاصطدام وكانت الورقةُ جزءًا من الشجرة، أوثِرَ في الآية السقوط دون الوقوع.

وقال اللّه ﷻ: ﴿وَإِن يَرَوۡاْ كِسۡفٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطٗا يَقُولُواْ سَحَابٞ مَّرۡكُومٞ ٤٤﴾ [الطور: 44]، الكِسْف: القِطعة[8]؛ فلمّا كان الهويُّ هويَّ قطعةٍ من السماء، أي: جزء منها، أوثِرَ في الآية لفظ السقوط دون الوقوع.

(1) ابن فارس، المقاييس: (مسك).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (مسك).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 533، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 617، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 14/ 356، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 322.
(7) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سقط).
(8) الزمخشري، الكشاف: 4/ 415، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 156.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ ٦٦﴾ [الحج: 66]

الإيجاد والإفناء باعثان على التسليم والارعواء

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا بيَّن سبحانه جملةً مِن أُسس الدين، وأتبعها بذكر ولايته ونصرته لعباده الصالحين؛ بعثًا على التمسُّك بالحقِّ المبين، وترغيبًا في منابذة المعاندين، ولمّا بيَّن ما له من تمام القدرة والتصرُّف في خلق السماوات والأرضين؛ إنعامًا منه سبحانه وتفضُّلًا لنفع الآدميين؛ نبَّه سبحانه إلى أنَّه المنعم بالإيجاد في هذا الوجود، القادر على الإفناء المقرِّب للموعود؛ المحيي بعد ذلك؛ إيذانًا بالبعث والخلود، ولمّا كان الإنسان كثير الكفران والجحود؛ حذَّره سبحانه منه ليتجنَّبه ويسلك سبيل الهداية ليبلغ الغاية ويحقِّق المقصود(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَكَفُورٞ﴾: (كفر) أصلٌ يدلُّ على السَّتر والتَّغطية(2)، والكُفر في اللُّغة: سَتر الشَّيء، ووصف اللَّيل بالكافر لستره الأشياء بظلامه(3)، وكُفَر النِّعمة وكُفرانُها: سَترُها وجَحدُها بترك أداء شكرها، وهو ضدُّ الشُّكر، قال اللّه تعالى: ﴿فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ﴾ [الأنبياء: 94](4)، وكَفَر نِعمَةَ اللّه يكفُرُها كُفورًا وكُفرانًا(5).

وأعظم الكفر: جحود الوحدانيَّة أو الشَّريعة أو النُّبوة(6)، وسُمّي

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 452، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 534، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 86، والمراغي، تفسير القرآن: 17/ 138.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كفر).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفر).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(5) الجوهري، صحاح اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (كفر).
(6) الراغب، المفردات: (كفر).

الكافر كافرًا؛ لأنَّه ستر نعمة اللّه وغطّاها لما أبى وردَّ التَّوحيدَ الذي دعاه إليه، فكان بذلك ساترًا ومغطّيًا لهذه النِّعمة بإبائه الحق[1]، والكُفران ضدُّ الإيمان، والكَفور والكَفّار: المبالغ في كفران النِّعمة[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من مظاهر قدرة الله القاهرة إحياؤه النّاس للجزاء والحساب في الدّار الآخرة

يمتنُّ اللّه تعالى على عباده في هذه الآية الكريمة فيقول سبحانه مذكِّرًا إيّاهم بنعمه الظّاهرة، ودلائل وحدانيِّته الباهرة: وهو الَّذي أنشأكم أيُّها النّاس مِنْ عدم دون أنْ تكونوا شيئًا، ثم يتوفّاكم بقدرته عند انقضاء آجالكم وأعماركم، ثم يحييكم يوم القيامة للثَّواب والعقاب، إنَّ الإنسان لَجَحودٌ لِنِعَم اللّه عليه، مُنكِرٌ لدلائل فضله وإحسانه إليه[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾:

أتمَّ الله نعمته على خلقه، ولم يقم أكثرهم بواجبه وحقِّه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ هي العاطفة، فقد عطفت جملة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ على جملة ﴿وَيُمۡسِكُ ٱلسَّمَآءَ﴾[4]؛ لأنَّ صدر هذه من جملة النِّعم فناسب أن تعطف على سابقتها المتضمِّنة امتنانًا واستدلالًا كذلك[5].

وقد حسَّن الوصلَ هنا ما بين الجملتين الكريمتين من التَّلاؤم والتَّناسب؛ إذ المعنى: أنَّ اللّه الذي أنعم عليكم هذه النِّعم من إنزال الماء من السَّماء فتصبح الأرض مخضرَّة بعد أن كانت يابسة، وتسخير ما في الأرض للإنسان، وتسخير الفُلك لخدمته ومنفعته، وإمساك السَّماء أن تقع على الأرض إلّا بمشيئته تعالى، هو الذي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (كفر).
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 398، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تفسير المنتخب، ص: 498.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5021.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 326.

جعل لكم أجسامًا أحياء بحياةٍ أحدثها فيكم، ولم تكونوا شيئًا، ثمَّ هو يميتكم من بعد حياتكم فيفنيكم عند مجيء آجالكم، ثمَّ يحييكم بعد مماتكم عند بعثكم لقيام السّاعة[1]، فقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾؛ أي: عن الجماديَّة بعد أن أوجدكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا، منَّة منه عليكم مستقلَّة، لزم منها المنَّة بما تقدَّم ذكره من المنافع الدُّنيويَّة لتستمرَّ حياتُكم أوَّلًا، الدّينيَّة لتنتفعوا بالبقاء ثانيًا[2]؛ أي أوجدكم من العدم لتسعدوا أو تشقوا، فكلٌّ من الإحياء الأوَّل والثّاني، إمّا نعمة أو نقمة[3].

غرض التّعبير بالضّمير (هو) عن لفظ الجلالة بعد أن تقدّم إظهاره:

اللہ الذي أسبغ النِّعم هو الذي أحيا من العدم

عُبِّر بالضَّمير المنفصل (هوَ) العائد على لفظ الجلالة بعد إظهاره في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾؛ جريًا على الأصل؛ إذ الأصل أن يأتي الظّاهر أوَّلًا ثمَّ المضمر.

وقد حقَّق هذا نكتة بديعة، وهي أنَّ الإضمار في هذا الموضع أفاد معنى أنَّ الله الذي سخَّر لكم ما في الأرض، وسخَّر لكم الفُلك هو نفسه الذي أحياكم بعد أن لم تكونوا شيئًا لتنعموا بهذه النِّعم، فكيف تنعمون بخيره وتعبدون غيره؟! وكيف تُقِرّون بالرُّبوبيَّة وتكفرون بالألوهيَّة والرَّب هو نفسه الإله الحقُّ؟! ألا ساء ما تحكمون!

فائدة التّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ وصلته:

التَّعريف في سياق المدح يفيد التَّعظيم

في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاكُمْ﴾ عُبِّر باسم الموصول ﴿ٱلَّذِىٓ﴾ لإفادة معنى التَّعظيم؛ إذ هو تعريف في سياق المدح، كما أنَّ اتِّصافه بما تضمَّنته صلته من وصفٍ عظيم يدلُّ على أنَّه عظيم،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 678، وطنطاوي، الوسيط: 9/ 337.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 86.
(3) الصاوي، حاشية على الجلالين: 3/ 109.

وأيضًا لقَصر مدلول الصِّلة عليه؛ إذ لا أحد يُحيي ويميت إلّا اللّه الحيُّ الذي لا يموت[1].

ومعنى الكلام: كيف تجعلون مع اللّه أندادًا وتعبدون معه غيره، وهو المستقلُّ بالخلق والرِّزق والتَّصرُّف، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾؛ أي: خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئًا يُذكر، فأوجدكم ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾؛ أي: يوم القيامة[2].

غرض التّعبير بالجملة الاسميّة ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾:

ثبوت صفة الإحياء لله، فلا يحيي الموتى أحد سواه

يفيد التَّعبير بالجملة الاسميَّة معنى الثُّبوت والاستقرار، وهذا مناسب تمام المناسبة في هذا السّياق، إذ الغرض منه تأكيد قدرة اللّه تعالى على الخَلْق والإحياء والإماتة، وشمول رحمته بخلقه بَرِّهم وفاجرهم، والمناسب في المقامات التي تتطلَّب تأكيدًا التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة[3]؛ إذ إنَّها تفيد الثُّبوت بأصل وضعها[4].

فقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ قضيَّة قالها الخالق ﷻ ولم يدَّعها أحد لنفسه مع كثرة الكفّار والملاحدة والأفّاقين في كلِّ زمان ومكان، لم نسمع مَن ادَّعى مسألة الخَلْق، وهذه قضيَّة يجب أن نقف عندها وأن نبحث: لماذا لم يظهر مَنْ يدَّعي ذلك؟ وإذا لم يَدَّعِ الخَلْق أحدٌ، ولم يدَّعِ الإحياء أحد، فمَنْ - إذن - صاحب الخَلْق والإحياء والإماتة؟ إنَّه اللّه، ولا أحد غير اللّه[5].

فائدة تعريف طرفي الإسناد:

لا يقدر على إحياء الأموات وبعثهم إلّا الذي من التُّراب خلقهم

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ تعريف لطرفي الإسناد: المبتدأ بالإضمار: ﴿وَهُوَ﴾، والخبر بالموصوليَّة: ﴿ٱلَّذِىٓ﴾، ويُستفاد

(1) أبو موسى، خصائص التراكيب، ص: 305، وحسن، بلاغة اللغة: 1/ 433.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 451.

(3) جامعة المدينة، البلاغة، المعاني: 1/ 305.

(4) الهاشمي، جواهر البلاغة، ص: 67.

(5) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9918.

مِن تعريف الطَّرفين معنى القَصر مع إفادته تقوية الإسناد وتوكيده، والقصر هنا قصر حقيقيٌّ، فلا أحد يحيي ويميت إلّا اللّه سبحانه، وهذا من جملة المؤكِّدات التي زخرت بها الآية الكريمة.

بلاغة الإدماج في الاستدلال على البعث:

لـــولا الآخـــرة نـعـمـة عظيمة لـكـانـت الدنيا نقمة ذميمة

في هذه الآية تذكير للنّاس بتلك النِّعمة الكبرى، نعمة الحياة، فقد كان النّاس عدمًا، أو ترابًا في هذا التُّراب، ثمَّ إذا هُم هذا الخلق السَّويُّ العاقل، المدبِّر، الصّانع! ثمَّ إذا هُم تراب مرَّة أخرى، ثمَّ إذا هُم يلبسون حياة لا موت بعدها، وبهذه الحياة تتمُّ النِّعمة: نعمة الحياة.

ذلك أنَّه لو كانت الحياة الدُّنيا هي كلَّ حياة الإنسان لكانت نعمةً ناقصة، بل إنَّها تكون نقمة لما فيها من معاناة، وأعباء، وشدائد، يلتقي بها الإنسان في مسيرة الحياة الدُّنيا، من المولد إلى الممات[1].

والمعنى أنَّ مَن سخَّر لكم هذه الأمور، وأنعم عليكم بها فهو الذي أحياكم فنبَّه بالإحياء الأوَّل على إنعام الدُّنيا علينا بكلِّ ما تقدَّم، ونبَّه بالإماتة والإحياء الثّاني على نعم الدّين علينا، فإنَّه ﷻ خلق الدُّنيا بسائر أحوالها للآخرة، وإلّا لم يكن للنِّعم على هذا الوجه معنى.

يبيِّن ذلك أنَّه لولا أمر الآخرة لم يكن للزِّراعات وتكلُّفها ولا لركوب الحيوانات وذبحها إلى غير ذلك معنى، بل كان تعالى يخلقه ابتداء من غير تكلُّف الزَّرع والسَّقي، وإنَّما أجرى اللّه العادة بذلك ليعتبر به في باب الدّين[2].

فالحاصل أنَّ هذه الآية الكريمة وإن كانت للاستدلال على البعث وإثبات قدرة اللّه سبحانه على التَّصرُّف التّام ففيها إدماج

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1091.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.

للامتنان ضمن الاستدلال، فلولا الآخرة لما كانت الدُّنيا، ولو لم تكن آخرةٌ لكانت نِعم الدُّنيا ناقصة! فلله الحمد سبحانه.

معنى ﴿ثُمَّ﴾ في المرّتيْن:

﴿ثُمَّ﴾ حرف عطف يفيد التَّرتيب والتَّراخي، ومعنى التَّراخي: المهلة[1]، وقد استُخدِمت في هذا السّياق للمعنى نفسه، ففترة ما بين الحياة والموت ليست قصيرة يعمل فيها ما يحاسب عليه بالعقاب أو الثَّواب، وكذلك الفترة بين الموت والحياة الثّانية[2]، فكلُّ مرحلة من تلك المراحل تترتَّب على سابقتها بتراخٍ ومهلة.

أنظر الله عباده ليؤمنوا ويتوبوا، وأنذرهم ليرعَووا ويثوبوا

نكتة العدول عن الماضي إلى المضارع في الآية:

في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ أوثر الفعل الماضي بعد الفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ لدَلالة الماضي على التَّمام والحدوث؛ إذ إنَّ الكلام موجَّه إلى أحياء يعقلونه، فقضيَّة إحيائهم إلى حين بلوغهم لحظة توجيه الخطاب إليهم أمرٌ قد تمَّ وانتهى[3]، أمّا في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ فقد أوثِر استخدام المضارع الدّال على التَّجدُّد والتَّكرير، ففي كلِّ لحظة تموت نفس، ويشيِّعها المخاطَبون، فهُم يرون ذلك أمامهم متجدِّدًا ومتكرِّرًا[4].

تمَّت نعمة الله على النّاس بالإحياء؛ لينعموا بما أُعِدَّ لهم من الآلاء

ومن هنا "يلاحظ اختيار الصّيغ المناسبة للتَّعبير، فهو أوَّلًا عبَّر بالماضي لأنَّه تمَّ وحدث، ثمَّ أشار إلى المرحلة المرتقبة وهو الموت، ثمَّ الحياة الجديدة في عالم الآخرة".

ولمّا كان الخطاب مسوقًا في مقام الامتنان والتَّذكير بالنِّعم، وكان قد سَبق هذه الآيةَ كلامٌ سامٍ بليغٌ عن تسخير الله تعالى ما في

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/ 13، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 237.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5022.
(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5022.

الأرض والفُلك وإمساك السَّماء وغير ذلك من المنن العظام والنِّعم الجسام ناسب أن يكون التَّعبير بالماضي مبالغة في الامتنان، فالمعنى أنَّ اللّه تعالى هو الذي قد منَّ عليكم بالحياة لتنعموا بما سخَّر لكم، فتمَّت نعمة اللّه عليكم بالإحياء لتنعموا بما أُعِدَّ لكم من الآلاء.

فائدة التّرتيب في ذكر مراحل الحياة والموت:

لا اختيار للإنسان في بعثه ولا إيجاده، وهو سائر قهرًا إلى ميعاده

قوله تعالى: ﴿أَحۡيَاكُمۡ﴾؛ أي: أوجدكم بعد العدم، وعبِّر عن ذلك بالحياة؛ لأنَّ الإنسان قبل ذلك تراب، فهو جماد بلا روح، ثمَّ أحياه بنفخ الرّوح، ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾؛ يعني: الموت المعروف ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾؛ يعني: البعث[1]، فالإحياء الأوَّل هو الإنشاء، والإحياء الثّاني هو البعث من القبور[2].

والحاصل أنَّ اللّه سبحانه قد ذكر فضله تعالى، وهو المنشئ المنعم في ثلاثة أدوار:

الدَّور الأوَّل: أنَّه هو الذي أمدَّنا بالحياة ذاتها فأخرجنا من التُّراب، ثم من نطفة، إلى أن جعلنا في أحسن تقويم، وأمدَّنا بما يبقي حياتنا من نبات وثمار، وحيوان يأكل ممّا تنبت الأرض، وعبَّر سبحانه بقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاكُمۡ﴾ وقد أشار ﷻ إلى عناصر الحياة التي تمدُّها بالبقاء بإرادته في آيات أخر.

الدَّور الثّاني: الموت، بعد أجل مسمًّى من ابتداء الحياة، وهذا محسوس مرئيٌّ يحدث كلَّ يوم، ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ﴾ وقد عبَّر بالمضارع؛ لأنَّه مستمرٌّ متجدِّد يُرى كلَّ يوم، ولا يرتاب فيه مرتاب، لأنَّه مرئيٌّ بالعيان.

الدَّور الثّالث: الحياة بعد الموت، وهو البعث والنُّشور، وقد عبَّر ﷻ عن ذلك الدَّور بقوله: ﴿ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡۗ﴾ وعبَّر بالمضارع؛ لأنَّه واقع

---

(1) ابن جزي، التسهيل: 2/ 45.

(2) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 453.

في المستقبل يؤمن به مَن يؤمن بالغيب، ومَن يعلم أنَّ الإنسان لم يُخلق عبثًا[1].

نكتة الفصل في: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾؛ أي: إنَّ ابن آدم لَجَحود لنعم اللّه عليه، إذ يعبد غير من أنعم عليه بهذه النِّعم المذكورة وبغيرها[2].

قطع وصل الجمل بالفصل فيه تنبيه لبني الإنسان لإدراك مدى شناعة الكفران

والجملة استئناف ابتدائيٌّ لتصوير مدى جُحود الإنسان وإعراضه عن شكر ربِّه وتوحيده، فخيرُ اللّه إلى الإنسان نازل، وشرُّ الإنسان إلى السَّماء صاعد، وقطعُ وصل الجمل بالفصل فيه تنبيه للسّامعين ليدركوا مدى شناعة الكفران!

فائدة تذييل الآية بوصف ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ بأنّه ﴿لَكَفُورٞ﴾:

لا يعرف الإنسان نعمة الإنشاء المبدئ للوجود، ولا الإفناء المقرِّب إلى الموعود

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ تذييل يجمع المقصد من تعداد نعم المُنعم بجلائل النِّعم المقتضية انفرادَه باستحقاق الشُّكر واعتراف الخلق له بوحدانيَّة الرُّبوبيَّة[3].

ففي تعقيب النِّعم بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ تنديدٌ بجحود الإنسان وكفره وتعاميه عن آثار عظمة اللّه سبحانه، وشكِّه في قدرته ومطلق تصرُّفه ﷻ أمام ساطع الآيات وباهر البراهين، ذلك أنَّه لم يؤدِّ مطلوب اللّه منه في هذه الحياة الدُّنيا، الموصولة بالحياة الآخرة[4]، ولم يوجِّه همَّه إلى كلِّ هذه الآلاء التي يتقلَّب فيها ليلَ نهار، بل جحدها وجحد خالقها على وضوح أمرها، وعبد غيره، وجعل له الأنداد من الأصنام والأوثان[5]، ففي هذا زجر عن الكفران بطريق التَّوبيخ[6].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5022.
(2) مكي، الهداية: 7/ 4928.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 326.
(4) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1092، ودروزة، التفسير الحديث: 6/ 71.
(5) المراغي، تفسير القرآن: 17/ 138.
(6) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 99.

فائدة تتابع المؤكّدات في فاصلة الآية:

إنَّ الإنسان لجَحود لما أفاض ربُّه عليه من ضروب النِّعم ودفع عنه من صنوف النِّقم

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَكَفُورٞ﴾ عدد من المؤكِّدات، وهي: حرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وهو يقوم مقام تكرير الجملة مرَّتين، واللّام المزحلقة الدّاخلة على الخبر: ﴿لَكَفُورٞ﴾، والجملة الاسميَّة المفيدة الثُّبوت، وهو ضرب من التَّوكيد.

ولمّا كان المشركون - وهم كثيرون - لم يؤمنوا بالبعث وكفروا به؛ أكّد الله كفرهم؛ لأنَّهم لا يؤمنون إلّا بالأمر المحسوس، وإنَّما ذلك أمر مغيب، والفرق بين الكافر والمؤمن أنَّ المؤمن يؤمن بالغيب، والكافر لا يؤمن إلّا بالحسِّ، وقد أكَّد سبحانه كفر الكافر بالغيب أوَّلًا بـ﴿إِنَّ﴾، وثانيًا بـ(اللّام)، وثالثًا بالصِّفة المشبَّهة: ﴿لَكَفُورٞ﴾[1]، أو أنَّ هذا التَّوكيد لتنزيلهم منزلة المنكر أنَّهم كفّار[2].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

وصفُ الجنس بأغلب الأفراد لا ينافي خروج بعضهم عن المراد

التَّعريف في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ تعريف الاستغراق العرفيِّ المؤْذِن بأكثر أفراد الجنس من باب قولهم: جمع الأمير الصّاغة؛ أي: صاغة بلده، وقوله تعالى: ﴿فَجُمِعَ ٱلسَّحَرَةُ لِمِيقَٰتِ يَوۡمٖ مَّعۡلُومٖ ٣٨﴾ [الشعراء: 38]؛ أي: سحرة البلدة.

وقد كان أكثر العرب يومئذ منكرين للبعث، أو أريد بالإنسان خصوص المشرك كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ [مريم: 66][3]، وهو الذي لا يؤمن بالغيب[4].

فالحاصل أنَّه إمّا أن يكون هذا التَّعريف لوصف الجنس بوصف بعضِ أفرادِه، ولا ينافي هذا خروج بعض الأفراد عن هذا الجحد؛ لأنَّ المراد وصف جميع الجنس بوصف مَن يوجد فيه ذلك

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5022.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 326.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 326.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5022.

مِن أفراده مبالغة؛ لأنَّ الغالب على الإنسان كُفر النِّعم، كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾ [سبأ: 13]، وإمّا أن يكون ذلك لخصوص الكافر بالقرينة(1).

دلالة التّعبير بـ﴿لَكَفُورٌ﴾ مادّة وصيغة:

الإنسان بليغ في الكفر، كثير الجَحد قليل الشُّكر

الكفور: مبالغة في الكافر؛ لأنَّ كفرهم كان عن تعنُّت ومكابرة، ويجوز كون الكفور مأخوذًا من كُفر النِّعمة، ويكون معنى ﴿لَكَفُورٌ﴾؛ أي: لبليغ الكفر حيث لم يشكر على هذه النِّعم المحيطة به فيوحد اللّه تعالى، وتكون المبالغةُ باعتبار آثار الغفلة عن الشُّكر، وحينئذ يكون الاستغراق حقيقيًّا(2).

الفروقُ المُعْجَميَّة:

الظّلم والكفر:

مَن وضع شيئًا في غير موضعه فقد ظَلم، وأصلُ الكُفر السّتر والتغطية

أصل الظُّلم وضعُ الشيء في غير موضعه تعدّيًا(3)، والمعنى المحوريّ لجذره: حَجب ما ينبغي أو ما يُستحَقّ أي منعه أو انتقاصه؛ والظُّلم من ذلك.

فالجَور على حقوق النّاس هو منع لهم من حقوقهم(4).

والمعنى في قول اللّه ﷻ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ۝٣٤﴾ [إبراهيم: 34] أنَّ الإنسان يظلم النِّعمة بإغفال شكرها، أو بوضعه إياها في غير موضعها، أو يظلم نفسَه بأن يُعرِّضها للحرمان(5)، أو ظلوم: شاكرٌ غيرَ مَن أنعم عليه؛ فهو بذلك واضعٌ الشكرَ في غير موضعه، وذلك أنَّ اللّه ﷻ هو

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 93، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والبروسوي، روح البيان: 6/ 57، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 551، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 326، والخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 564.
(3) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (ظلم).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 3/ 200، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 50.

الذي أنعمَ عليه بما أنعم، واستحقَّ عليه إخلاص العبادة له، فعبد غيره وجعل له أندادًا ليضلَّ عن سبيله[1].

أمّا الكُفْر فأصله: السّتر والتغطية، ووُصِف الليل بالكافر لستره الأشخاص، والزارع لستره البذر بالتراب[2]، ومن ذلك الأصل الكافر بالله ﷻ؛ لأنه غطَّى في نفسه بعماه شواهدَ وجود الله وعظمته الظاهرة والباطنة، أو تغطَّى عنها[3]، والكُفر نقيض الإيمان[4]، وسُمّي بذلك لأنه تغطيةُ الحقّ[5]، والكُفر أيضًا: جُحود النّعمة، وهو نقيض الشُّكر[6]، وكُفْرُ النِّعمة وكُفْرانها: سترُها بعدم أداء شكرها؛ لأنَّه إذا ذكرها نوّه بذكرها فأظهرها، وإذا كتمها ولم يشكرها فقد سترها وغطّاها[7].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 16، والواحدي، البسيط: 12/ 483، والبغوي، معالم التنزيل: 4/ 354.

(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفر).

(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (كفر).

(4) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (كفر).

(5) ابن فارس، المقاييس: (كفر).

(6) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح: (كفر).

(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كفر).

﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ ٦٧﴾ [الحج: 67]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

من رام النّجاة؛ ركب مركبها، وسلك مسالكها

لّما عدَّد اللّه تعالى نعمه، وأبان للعباد منَّته عليهم وفضله، وأنَّه سبحانه الرؤوف ذو الرحمة، بيَّن أنَّ من مظاهر قدرته ودلائل رحمته سبحانه أن جعل لكلِّ قرنٍ من القرون السالفة منهجًا في العبادة وطريقة؛ فليس لأولئك الكارهين للإسلام أن يُشَكِّكوا في شيءٍ منه؛ فهو أظهر من أن يقبل نزاعًا على الحقيقة؛ وهم بين جاهل ومعاند ولّما يفهموا جلَّه ولا دقيقه؛ ولّما كان نهيه ﷺ عن منازعتهم يحمل معنى الإعراض عنهم بالكلّية؛ أمره سبحانه بإكمال مسيرة الدعوة، وتبيين الحقِّ للخلق؛ فهو الطريق إلى الهداية والاستقامة[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّةٖ﴾: (أمم) أصلٌ يدلُّ على القصد، مِن أمَمْتُ إلى الشَّيء إذا قَصَدْتَه[2]، يقال: لكلِّ ما كان أصلًا لوجود شيء أو تربيته أو إصلاحه أو مبدئه أمٌّ[3]، وكلُّ شيءٍ يُضَمُّ إليه سائر ما يليه يُسَمَّى أُمًّا، مثل أمّ الرَّأس، وأمّ القرى، وأمّ الكتاب[4].

والأمَّة: الجماعة[5]، وكلُّ من يجمعهم أمرٌ ما إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 88 - 90.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (أمم).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (أمم).

اختيارًا، وجمعها: أُمَم[1]، وممّا هو بمعنى الجماعة يجمعهم دين واحد قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾؛ أي: لكلِّ جماعة أهل دين[2].

والأمَّة: القَرْنُ مِنَ النّاس، فيقال: قد مَضَتْ أُممٌ؛ أي: قُرونٌ، وأمَّة كلِّ نبيٍّ: مَنْ أُرسِل إليهم من كافر ومؤمن[3]، وكلُّ جنس من الحيوان أمَّة[4].

والأمَّة أيضًا: القائم مقام جماعة في عبادة اللّٰه، والرَّجل الذي لا نظير له، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: 120][5].

2) ﴿مَنسَكًا﴾: (نسك) أصلٌ يدلُّ على العبادة مُطْلَقًا من حجّ وغيره، وكلُّ تَقَرُّب إلى اللّٰه[6]، ونَسَكْتُ الشَّيءَ: غسلتُه بالماء وطهَّرتُه، فهو منسوك[7]، النُّسُك والنُّسْك: العبادة والطّاعة وكلُّ ما يُتَقرَّب به إلى اللّٰه، ورجل ناسِك: عابد؛ لأنَّه خلَّص نفسه وصفّاها من دنس الآثام، كالسَّبيكة المخَلَّصة من الخَبَث، وقد نَسَك وتنسَّك؛ أي: تعبَّد[8]، والمناسك: مواقفُ النُّسُك والحجِّ وأعمالها، ومنه قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[9].

والنَّسيكة: الذَّبيحة، والجمع: نُسُكٌ ونَسائك، ومنه تقول: نَسَكَ للّٰه يَنْسُك نَسْكًا ونِسْكًا[10].

والمَنْسِك والمَنْسَك: الموضع الذي تُذبَح فيه النَّسائك، وقُرِئَ بهما قولُه تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾[11]؛ أي: مُتعبَّدًا وشريعةً يتعبَّدون بها[12].

3) ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾: (نزع) أصلٌ يدلُّ على قلع الشَّيء وجَذْبه من مَقَرِّه بقوَّة[13]، نَزَعَ الشَّيءَ: جَذَبه من مَقَرِّه كنَزْع القوس عن كَبِده، ونَزعتُ الشَّيءَ من مكانه أنزِعُه نَزْعًا:

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78.
(3) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(4) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (أمم).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نسك).
(7) الجوهري، الصحاح: (نسك).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نسك).
(9) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نسك).
(10) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نسك).
(11) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح: (نسك).
(12) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78.
(13) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).

قلعته، وانتزعه فانتزع: اقتلعه، ويستعمل كذلك في الأعراض والمعاني، كما يقال: نَزْعُ العداوةِ والمحبَّةِ من القلب[1]، ومنه التَّنازع والمنازعة: المجاذَبَة في الأعيان والمعاني، ويعبَّر بهما عن المخاصمة والمجادلة، يقال: نازَعْتُه منازعة ونِزاعًا: جاذبته الحُجَجَ في الخصومة، وبينهم نِزاعَة؛ أي: خصومة في حقٍّ[2]، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، المنازعة: المجادلة؛ لأنَّ كلًّا مِنَ المُتَجادِلَين يَنزع صاحبَه عن غرضه[3]، ومنه النَّزع عن الشَّيء: الكفُّ عنه، يقال: نَزَعَ عن الأمر نُزوعًا ونَزْعًا: انتهى عنه[4].

والنُّزوع: الاشتياق الشَّديد، وذلك هو المعبَّر عنه بارتحال النَّفس مع الحبيب، يقال: نَزَع فلانٌ إلى أهله يَنزِع نِزاعًا؛ أي: اشتاق إلى أهله[5].

4) ﴿ٱلۡأَمۡرِ﴾: (أمر) أصلٌ يدلُّ على نفاذ مع علوٍّ دونه جمع بشدَّة، فمن العُلوِّ مع النَّفاذ جاء الأمر الذي هو ضدُّ النَّهي، والذي بمعنى الحال والشأن صورة من صور الجريان المأخوذ من النَّفاذ[6]، يقال: أَمْرُ فلانٍ مستقيمٌ وأموره مستقيمة، والأمر: الحادثة، والجمع أمور، لا يكسَّرُ على غير ذلك[7]، والأمر: الشأن والحال، وجمعه أمور؛ وكذلك مصدر أَمَرْتُه؛ أي: كلَّفته أن يفعل شيئًا، وهو نقيض النَّهي، وجمعه: أوامر[8].

والمراد بالأمر في الآية: فلا ينازِعُنَّك أحدٌ منهم فيما شرع الله لأمَّتك، من أمر الذَّبائح أو أي أمر من أمور الدِّين والنَّسائك؛ لأنَّهم إمّا جُهّال أو أهل عناد[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرنا المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة أنَّه قد جعل لكلِّ أمَّة مِنَ الأمم الماضية شريعة خاصَّة بها، وموضعًا لعبادتها، وأداء مناسكها فيقول: لكلِّ أمَّة وجماعة قد خَلَتْ مِنْ قبلك

(1) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(2) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نزع).
(4) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(5) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نزع).
(6) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (أمر).
(7) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (أمر).
(8) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمر).
(9) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 398، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 93، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78.

يا محمد جعلنا شريعة لهم هم عاملون بها، وموضعًا للعبادة وأداء الفرائض هم لازموه؛ فلا يخاصمنَّك في أمر الذَّبائح وأداء المناسك والعبادات مشركو قومك، وادْعُ إلى الإيمان بربِّك وإلى توحيده وإخلاص العبادة له؛ إنَّك لَعَلى دينٍ وطريقٍ مستقيمٍ لا اعوجاجَ فيه[1].

لكلِّ أمَّة شرع قويم، وموضع لعبادة المولى الرَّحيم، فاثبت على الطَّريق المستقيم

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ كلام مستأنَف جيء به لزجر معاصري النَّبيِّ ﷺ من أهل الأديان السَّماويَّة عن منازعته ﷺ ببيان حال ما تمسَّكوا به من الشَّرائع وإظهار خطئهم في النَّظر[2].

جعل الله لكلِّ فريق شِرعة هم واردوها، ولكلِّ جماعة طريقة هم سالكوها

وفُصِل عن سابقه لعدم اتِّصاله به، فهذا استدلال على توحيد اللّٰه تعالى بما سبق من الشَّرائع لقصد إبطال تعدُّد الآلهة، بأنَّ اللّٰه ما جعل لأهل كلِّ ملَّة سبقت إلا منسكًا واحدًا يتقرَّبون فيه إلى اللّٰه لأنَّ المتقرَّب إليه واحد[3].

معنى اللّام في قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ﴾:

الأصل في معنى (اللّام) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الاختصاص[4]، وهذا هو المراد هنا، فقد خصَّ اللّٰه تعالى كلَّ قوم بمنسك لا يشاركهم فيه أحد، بما يناسب شرعهم وظرفهم ووقتهم، وهذا مِن البدائع في إحكام الشَّرائع.

تخصيص كلِّ قوم بمنسك هو من البدائع في إحكام الشَّرائع

فائدة تقديم شبه الجملة ﴿لِّكُلِّ﴾:

تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لِّكُلِّ﴾ على الفعل للقَصر؛ أي: لكلِّ أمَّة بخصوصها قصرًا عليها، لا لأمَّة أخرى منهم، والكلام نظير قولك:

جعل الله لكلِّ مقام سكّانه، ولكلِّ محلٍّ قُطّانه، فربط كلًّا بما هو أهل له

---

(1) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 398 - 399، ومجمع الملك فهد، التفسير الميسر، ص: 1/ 340.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 327.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

لكلٍّ من فاطمة وزينب وهند وحفصة أعطيتُ ثوبًا خاصًّا إذا كنت أعطيتَ فاطمة ثوبًا أحمر وزينب ثوبًا أصفر وهندًا ثوبًا أسود وحفصة ثوبًا أبيض؛ فإنَّه بمعنى: لفاطمة أعطيتُ ثوبًا أحمر لا لأخرى من أخواتها، ولزينب أعطيتُ ثوبًا أصفر لا لأخرى منهنَّ وهكذا.

فحاصل المعنى هنا: عيَّنّا كلَّ شريعة لأمَّة معيَّنة من الأمم بحيث لا تتخطَّى أمَّة منهم شريعتها المعيَّنة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالًا ولا اشتراكًا[1].

نكتة التّعبير بـ(كلٍّ):

لم يَخلُ قَرْنٌ من وحي منير، ولا أُمَّةٌ من نذير

التَّعبير بـ(كُلٍّ) يفيد العموم والشُّمول، وهذا في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۚ وَإِن مِّنۡ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٞ ٢٤﴾ [فاطر: 24]، وقوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: 36].

فمِن رحمة الله تعالى أنَّه لم يخلق الخلق عبثًا، ولم يتركهم سدى، بل بيَّن لهم ما يتَّقون، وأرسل لهم الرُّسل يحذِّرون ويبشِّرون، وآتى كلَّ رسول برهانًا ودليلًا، وقال سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾ [الإسراء: 15].

الغرض من تنكير ﴿أُمَّةٖ﴾:

خصَّ الله كلَّ أمَّة برسولٍ منهم ليكون بهم أرفق، وعليهم أشفق

التَّنكير في ﴿أُمَّةٖ﴾ يفيد التّعميم؛ أي: لكلِّ أمَّة معيَّنة من الأمم الخالية والباقية[2]، فخصَّ الله تعالى كلَّ أمَّة برسولٍ منهم ابتعثه فيهم، يعلمون أصله ونسبه وخُلُقه؛ ليكون بهم أرفق، وعليهم أشفق، وليكونوا به أخبر، وعلى التَّأسّي به أقدر؛ ولذلك سمَّى الله تعالى رسله المبعوثين لأممهم إخوة لأقوامهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.

فائدة التّعبير بفعل الجَعْل:

الجعل دالٌّ على العلم بالعواقب، والاقتدار التّام على شرع المذاهب

(جَعَلَ): لفظ عامٌّ في الأفعال كلِّها، وهو أعمُّ مِن (فَعَلَ)، و(صَنَعَ) وسائر أخواتها، وأصله: إيجاد الشَّيء أو تحويله إلى وضعٍ أو هيئة معيَّنة[1].

وقوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾؛ أي: وضعنا وعيَّنّا[2]، فقد مكَّن الله تعالى لكلِّ قوم ما هُم فيه من المناسك التي بها انتظام الحياة[3].

والتَّعبير بالجَعل أفاد أنَّ المقصود بالأُمَّة والمنسك: مَن لهم ملَّة وشَرعٌ - وإن نُسِخ - من الأقوام السّابقين أو المعاصرين لنزول الوحي، دون المشركين[4]؛ لأنَّ الله تعالى لم يشرع لهم ما افتروه عليه، ودليل ذلك قوله سبحانه: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٖ وَلَا سَآئِبَةٖ وَلَا وَصِيلَةٖ وَلَا حَامٖ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ ١٠٣﴾ [المائدة: 103]، فعبَّر بالجعل كذلك.

نكتة إسناد فعل الجعل لنون العظَمَة:

شرعُ العظيم عظيم، ومنهجه قويم، وصراطه مستقيم

أُسند فعل الجعل لنون العظمة في قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا﴾ لإفادة معنى التَّعظيم؛ أي: جعلنا بما لنا من العَظَمة[5].

وهذا التَّعظيم فيه دليل على عظمة الوحي والشَّرائع، وأنَّها أجدر أن يُتَّبع هديُها، وتُعَظَّم تعاليمُها، ويُقدَّس مُنزِلُها، وأنَّها إذا تضمَّنت بشارةً بشريعة تالية لها فحَقيقٌ أن تُصدَّق بشارتها.

نكتة تنكير ﴿مَنسَكًا﴾:

من حكمة الحكيم، ورحمة الرَّحيم، أن جعل لكلِّ أُمَّة منهاجًا وشِرعة

قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾؛ أي: شريعة خاصَّة لكلِّ أمَّة، لا لأمَّة أخرى منهم، على معنى: عيَّنّا كلَّ شريعة لأمَّة معيَّنة من الأمم بحيث لا

---

(1) الراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جعل).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 88.
(4) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 88.

تتخطَّى أمَّة منهم شريعتها المعيَّنة لها إلى شريعة أخرى لا استقلالًا ولا اشتراكًا[1]، فالتنكير للتَّخصيص والتَّعيين.

وذلك رحمة من الله سبحانه بعباده؛ إذ لو أخذهم الله جميعًا بشريعة واحدة منذ بدء الخليقة، لكان في ذلك إعْنَاتٌ لهم، وتضييق عليهم[2].

توجيه القراءات القرآنيَّة المتواترة في قوله تعالى: ﴿مَنسَكًا﴾ وبلاغتها:

مناسك التَّقرُّب موطوءة بأقدام العابدين، ومشاهد الاجتهاد معمورة بالسَّبّاقين

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا﴾ قرأه حمزة والكسائيُّ بكسر السّين: ﴿مَنسِكًا﴾، وقرأ الباقون بفتحها: ﴿مَنسَكًا﴾، فالمنسِك بالكسر مَوضِع النُّسُك، كالمجلس مَوضِع الجلوس، وأمّا المنسَك بالفتح فهو على المصدر للنُّسك[3]، وقيل: هما لغتان، (مَنْسِك) بكسر السّين وفتح الميم، وذلك من لغة أهل الحجاز، و(مَنْسَك) بفتح الميم والسّين جميعًا، وذلك من لغة أسد، وقد قرئ باللُّغتين جميعًا[4]، ومن بلاغة القراءات هنا جمعها بين المكان والبيان؛ فكلّ أمّة كان لها مكان تعبدِّها، وطريقة تعبدها.

بلاغة المشاكلة في لفظ المنسك على شريعة النَّبيِّ ﷺ وعلى اختلاق المشركين:

لا شرع إلّا بوحي، ولا وحي إلّا برسول أو نبيّ

هذه الآية مقدّمة نهي النَّبيِّ ﷺ عمّا يوجب نزاع القوم؛ تسليةً له وتعظيمًا لأمره حيث جعل أمره منسكًا ودينًا، يعني: شأنك وشأن أمثالك من الأنبياء والمرسَلين ﷺ ترك المنازعة مع الجُهّال وتمكينهم من المناظرة المؤدّية إلى النِّزاع وملازمة الدَّعوة إلى التَّوحيد، أو لكلِّ أمَّة من الأمم الخالية المعاندة جعلنا طريقًا ودينًا هم ناسكوه فلا ينازعنَّك هؤلاء المجادِلة.

وقد سُمّي دأبهم نُسُكًا لإيجابهم ذلك على أنفسهم واستمرارهم عليه؛ تهكُّمًا بهم، ومَسلاةً لرسوله ﷺ ممّا كان يلقى منهم[5].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1093.
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 454، والهلال، الثري الجامع: 7/ 347.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 679، وابن الجزري، النشر: 2/ 326.
(5) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 526.

ولا يكون هذا إلّا على معنى أنَّ اللّه تعالى جعل لكلِّ أُمَّة نبيٍّ من الأنبياء شرعًا يتعبَّدون به، فمَن التزم به زاده اللّه هداية، وذلك كما قال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾ [محمد: 17]، وأمّا مَن أعرض عن شرع اللّه تعالى مختلقًا لنفسه شرعًا مبتدَعًا لم يُنزل اللّه تعالى به سلطانًا فقد أمدَّ اللّه له في غوايته، كما قال سبحانه: ﴿قُلۡ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلۡيَمۡدُدۡ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ [مريم: 75].

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾:

شرع الله لكلِّ أُمَّة ما يناسبها، وتــلـك حكمة بالغة، ورحمة سابغة

جملة ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ صفة لـ﴿مَنسَكًا﴾ مؤكِّدة للقَصر المستفاد من تقديم الجارِّ والمجرور على الفعل(1)، وفيه دليل على أنَّ اللّه تعالى شرع لكلِّ أُمَّة ما يناسبها، فلم يكلِّف اللّه تعالى نفسًا إلّا ما آتاها، فهذه حكمة بالغة، ورحمة سابغة.

عود الضّمائر في قوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾:

شرعَ اللهُ دينه مفصَّلًا محدَّدًا، وجعل لكلِّ أهل ملَّة متعبَّدًا

ضمير الرَّفع في قوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ لكلِّ أمَّة باعتبار خصوصها، أي: (تلك الأمَّة المعيَّنة ناسكون به وعاملون، لا أمَّة أخرى)، فالأمَّة التي كانت مِن مبعث موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام منسكهم ما في التَّوراة هم عاملون به لا غيرهم، والتي مِن مبعث عيسى عليه السلام إلى مبعث نبيِّنا ﷺ منسكهم ما في الإنجيل هم عاملون به لا غيرهم، وأمّا الأمَّة الموجودة عند مبعث النبي ﷺ ومَن بعدَهم مِن الموجودين إلى يوم القيامة فهُم أمَّة واحدة منسكهم ما في القرآن ليس إلّا(2).

وأمّا ضمير النَّصب فيعود على النُّسك، و﴿نَاسِكُوهُۖ﴾؛ أي: سالكون طريق العبادة الذي سُنَّ فيه(3).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 552، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185، والهرري، الحدائق: 18/ 412.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5023.

فائدة العدول عن قوله: (لينسكوه) إلى النّظم الحاليّ:

شرعُ الله ملتَزَم مِن المؤمنين، مهجور من الكافرين، مشغَّب عليه من المجادلين

التَّعبير بالاسم في قوله: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ للإشارة إلى أنَّ المراد به الحال[1]، وهذا لأنَّ الاسم يفيد الثَّبات والاستقرار، فحالة كلِّ أُمَّة أنَّهم ثابتون مستقرّون على شرعهم الذي شرع الله تعالى لهم، والضَّمير المنفصل ﴿هُمۡ﴾ يفيد التَّوكيد[2].

ولو كان التَّعبير (لينسكوه) لكان المعنى أنَّ هذا الشَّرع شُرِع لهذه الأُمَّة المعيَّنة لينسكوه، دون التفات إلى مَن التزموه منهم ومَن تركوه وراءهم ظهريًّا.

أمّا قوله تعالى: ﴿هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾ فقد أفاد التَّعبير عن حالتهم وصفتهم، وهذا ما لا يؤدّيه إلّا النَّظم المتلوُّ.

توجيه المتشابه اللّفظيّ:

قوله تعالى: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكًا هُمۡ نَاسِكُوهُۖ﴾، مع قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٖ جَعَلۡنَا مَنسَكٗا لِّيَذۡكُرُواْ﴾ [الحجّ: 34].

الشَّرائع تُتَّبع ولا تُبتَدَع

إنَّما حذف الواوَ في قوله: ﴿لِّكُلِّ أُمَّةٖ﴾؛ لأنَّه لا تعلُّقَ لهذا الكلام بما قبله، فلا جَرَمَ حذَفَ العاطِفَ[3]، أمّا الآية السّابقة فقد وقعت مع ما يدانيها ويناسبها من الآي الواردة في أمر النَّسائك، فعطفت على أخواتها[4].

فقصارى ذلك أنَّ الآية الأولى عُطفت على سابقتها لتعلُّقها بها، وخُتِمَت بما يناسبها من التَّوحيد وعدم الإشراك في التَّسمية على الذَّبائح، وعدم الابتداع في اختلاق الشَّرائع والأحكام.

أمّا الآية الثّانية ففُصِلَت عن سابقتها لعدم تعلُّقها بها، وخُتِمت بما يناسب معناها؛ إذ إنَّ المعنى المقصود منها بيان أنَّ الله تعالى

(1) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.
(2) الهلال، الثري الجامع: 7/ 347.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 248.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 196.

قد جعل لكلِّ قوم منسكًا هُم عاملون به؛ أي: شريعة ومتعبَّدًا، ومنهاجًا صالحًا يتلاءم مع مقتضيات الزَّمان والمكان، ومع سُنَّة التَّدرُّج، وإذا كان هذا هو الشَّأن في الشَّرائع، فلا ينبغي لمعاصريك أيُّها الرَّسول الكريم الخاتم أن ينازعوك في أمر الدّين، فلكلِّ أُمَّة شريعة خاصَّة تناسب الزَّمان الذي جاءت فيه، ثمَّ جاء هذا القرآن ناسخًا تلك الشَّرائع التي لم تعُد صالحة للعمل بها، وأدَّت دورها، وكانت مقصورة على أتباعها المتقدِّمين، فلا تتأثَّر أيُّها الرَّسول الكريم بمنازعتهم لك، ولا يصرفنَّك ذلك عمّا أنت عليه من الحقِّ، واثبُت على دينك ثباتًا لا يتزعزع ولا يلين.

والمراد بذلك تهييج حمية الرَّسول ﷺ، والمبالغة في تثبيته على دينه، فخُتِمَت الآية بما يناسبها من أمر الرَّسول ﷺ بالدَّعوة إلى ربِّه.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾:

الشَّريعة المحمَّديَّة راسخة ولما سبقها من الشَّرائع ناسخة

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ فاء الفصيحة؛ لأنَّها أفصحت عن شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفت أيُّها الرَّسول الكريم أنّا جعلنا لكلِّ أُمَّة منسكًا، وأردتَ بيان ما هو اللّازم لمعاصريك، فأقول لك: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾؛ أي: لا يخاصمنَّك مَن يعاصرك مِن أهل المِلَل؛ فإنَّ منازعتَهم لك فيما جئت به من عند ربِّك، يدلُّ على جهلهم وسوء تفكيرهم؛ لأنَّ ما جئت به من عند ربِّك مصدِّق لشريعتهم، ومهيمن عليها، وناسخ لها[1].

وقد أفادت هذه الفاء ترتيب النَّهي على ما قبله؛ أي: إذا كان لكلِّ أُمَّة دين، ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾[2]؛ فإنَّ تعيينه تعالى لكل أمَّة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5023، والهرري، الحدائق: 18/ 412، وطنطاوي، الوسيط: 9/ 339.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 553، والقنوجي، فتح البيان: 9/ 80.

من الأمم التي من جملتها أمَّته ﷺ شريعة مستقلَّة بحيث لا تتخطَّى أمَّة منهم ما عيِّن لها موجِب لطاعة هؤلاء له ﷺ وعدم منازعتهم إيّاه في أمر الدّين زعمًا منهم أنَّ شريعتهم ما عيِّن لآبائهم ممّا في التَّوراة والإنجيل فإنَّ ذلك شريعة لَمن مضى قبل انتساخه وهؤلاء أمَّة مستقلَّة شريعتهم ما في القرآن فحسب[1].

دلالة النّهي في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ﴾:

شـرائـع الـلـه أوضـح مـن أن تُـجـادَل، فلا يُلتَفَت فيها إلى منازِع أو مجادِل

النَّهي في قوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ إمّا أن يكون نهيًا لرسول اللّه ﷺ؛ أي: (لا تلتفت إلى قولهم، ولا تمكِّنهم مِن المناظَرة المؤدّية إلى نزاعهم، فإنَّها إنَّما تنفع طالبَ الحقِّ، وهؤلاء أهلُ مِراء، فلا تبدأهم بمنازعتك، أو لا تنازِعْهم فينازعوك)، وهذا جائز في أفعال المغالَبة للتَّلازُم؛ لأنَّ المنازَعة والمجادَلة والمخاصَمة لا تتمُّ إلّا باثنين، فإذا قلتَ: لا يُنازِعَنَّك فلانٌ، فهو بمنزلة: لا تُنازِعنَّه، فحذف الأوَّل لدلالة الثّاني عليه، ولا يجوز هذا في قولك: لا يضرِبَنَّكَ فلانٌ، وأنت تريد: لا تضرِبْه، ولكن لو قلتَ: لا يُضارِبنَّكَ فلانٌ لكان كقولك: لا تُضارِبَنَّ فلانًا[2].

فالنَّهي ظاهرُه موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لأنَّ ما أُعطيَه من الحُجَج كافٍ في قطع منازعة معارضيه، فالمعارِضون هم المقصودون بالنَّهي، ولكن لمّا كان سبب نهيهم هو ما عند الرَّسول ﷺ من الحجج وُجِّه إليه النَّهي عن منازعتهم إيّاه، كأنَّه قيل: فلا تترك لهم ما ينازعونك به، وهو من باب قول العرب: لا أعرفنَّك تفعل كذا؛ أي: لا تفعل فأعرفك، ولا أرينَّكَ هاهنا؛ أي: لا تكن هنا فأراك، فجعل المتكلِّم النَّهي موجَّهًا إلى نفسه، والمراد نهي السّامع عن أسبابه، وهو نهيٌ للغير بطريق الكناية[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 118، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 185.

(2) الزجاج، معاني القرآن وإعرابه: 3/ 437، والزمخشري، الكشاف: 3/ 196، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 453.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 328.

وإمّا أن يكون النَّهي زجرًا لهم عن التَّعرُّض لرسول اللّه ﷺ بالمنازعة في الدّين وهم جُهّال لا علم عندهم، ففيها معنى احتقار الفاعل، وأنَّه أقلُّ من أن يفاعَل(1).

نكتة التّوكيد في قوله تعالى: ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾:

الإسـلام أظهر مِـن أن يقبل الـنِّـزاع، فأدلَّته تـبـهـر الأبـصـار والأسماع

في التوكيد بنون التّوكيد الثّقيلة في الفعل ﴿يُنَٰزِعُنَّكَ﴾ الذي هو نهي للنَّبيِّ ﷺ عن تمكينهم من منازعته، أو لأهل الكتاب عن المنازعة في حضور النَّبيِّ ﷺ ومخاطبته، أمران:

أوَّلهما: تيئيس أهل الكتاب من أن يكون لهم شأن في هذا الأمر، وأنَّهم إذا أرادوا أن يكون لهم شأن فيه، فلْيسلِموا له، ولْيأخذوا بما جاء به، ولْيجعلوا ما بين أيديهم مِن شرعٍ تبعًا لهذا الأمر أو الشَّرع.

وثانيهما: عزل النَّبيِّ الكريم ﷺ عن جدل أهل الكتاب، وعن الاستماع إلى مقولاتهم، والنَّظر إلى ما عندهم؛ إذ إنَّ عنده الأمر كلَّه، ومن كان عنده الأصل، فلا ينظر إلى الفرع(2).

دلالة التّعبير بـ﴿فِي﴾ الظّرفيّة:

ولـج المجادلون في دقـائق الأمر ليُشكِّكوا، ولو طلـبـوا الـهُـدَى لصدَّقوا

التَّعبير بـ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ يفيد أنَّ القوم لم يقفوا على ظاهر الأمر في جدالهم، وإنَّما ولجوا في دقائقه وتفاصيله بغية أن يضربوا بعضها ببعض، فيشكِّكوا المسلمين في دينهم، ويصدّوا النّاس عن سبيل ربِّهم، فنهى اللّه رسوله ﷺ عن منازعتهم؛ كي لا يجعل لهم موطئ قدم في بلاط الإسلام القدسيِّ.

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَمۡرِۚ﴾:

في أمر الدّين كثُر جدال المبطلين

التَّعريف في ﴿ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ للعهد(3)؛ أي: فلا ينازعنَّك هؤلاء المشركون باللّه أيُّها الرَّسول في ذبحك ومنسكك بقولهم: أتأكلون ما قتلتم، ولا

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 196، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 132.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1094.
(3) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 311.

تأكلون الميتة التي قتلها الله؟ فإنَّك أولى بالحقِّ منهم؛ لأنَّك محقٌّ وهم مبطلون[1]، ولا ينازعنَّك أهل الكتاب في أمر دينك زعمًا منهم أنَّ شريعتهم ما عيِّن لآبائهم الأوَّلين من التَّوراة والإنجيل فإنَّهما شريعتان لَمن مضى مِن الأمم قبل انتساخها، وهؤلاء أُمَّة مستقلَّة، منسكهم القرآن المجيد فحسب[2]، فلا أمْرَ ولا شرْعَ بعد هذا، وهذا هو السِّرُّ في تعريف الأمر[3].

فائدة عطف قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾:

المكابَرَة تُجافي الاقتناع، والاستمرار في الدَّعوة أولَى بالاتِّباع

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾ معطوف على قوله سبحانه: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، حيث عُطف على انتهاء المنازعة في الدّين الأمرُ بالدَّوام على الدَّعوة وعدم الاكتفاء بظهور الحُجَّة؛ لأنَّ المكابرة تجافي الاقتناع، ولأنَّ في الدَّوام على الدَّعوة فوائد للنّاس أجمعين[4].

دلالة الأمر في قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ﴾:

الثَّبات على شرعة الإسلام فهي الطَّريق القويم، والمنهاج المستقيم

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: دُم على الدُّعاء إلى الله، والتَّمسُّك بدينه القويم[5]، واثبت على دينك ثباتًا لا يطمعون أن يخدعوك عنه، أو معناه: ثابر على الدَّعوة إلى ما أُمرت به، فلا تضرُّك منازعتهم، وعلى الكلِّ اتِّباعك وعدم مخالفتك، لاستقرار الأمر على شرعتك؛ لأنَّها الطَّريق القويم[6]، فالأمر للإرشاد.

نكتة حذف مفعول ﴿وَٱدۡعُ﴾:

في الحذف إيذان بالتَّعميم؛ ليُدعَى الجميع إلى الصِّراط المستقيم

في حذف مفعول ﴿وَٱدۡعُ﴾ إيذان بالتَّعميم[7]؛ أي: وادع هؤلاء

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 679.
(2) الهرري، الحدائق: 18/ 412.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1094.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 329.
(5) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 552.
(6) القاسمي، محاسن التأويل: 7/ 273.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 329.

المنازِعين، أو ادع النّاس على العموم[1]؛ أي: لا تخصَّ بالدُّعاء أمَّة دون أمَّة فكلُّهم أُمَّتك فادْعُهم إلى شريعتك فإنَّك على هُدًى مستقيم[2].

فائدة التّعبير بلفظ الرّبوبيّة مضافًا إلى ضميره ﷺ:

في الرُّبوبيَّة معاني الرِّعاية، وأوثِرت بعد الأمر للتَّثبيت والعناية

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾؛ أي: المحسن إليك بإرسالك[3]، فالتَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة لما في الرُّبوبيَّة من معاني العناية والرِّعاية والتَّربية والإحسان، وفي هذا من اللُّطف ما فيه؛ فإنَّ اللّه تعالى أمر نبيَّه ﷺ أن يدعو النّاس إلى دينه وشرعه، ولمّا كان النّاس منهم المعرِض، ومنهم المعاند، ومنهم المحارب، وكان ذلك ربَّما أحزن النَّبيَّ الكريم ﷺ وأقلقه، جاء لفظ الرُّبوبيَّة كأنَّما يثلج صدر النَّبيِّ ﷺ، ويربِّت على كتفه، ويقول له في حنوٍّ بالغ: إنَّ ربَّك معك، ولن يتركك، وهو مؤيِّدك وناصرك ومانعك، فسِر في طريقِك وانشُر دعوتك في الأرض، فإنَّ معك السَّماء.

بلاغة الإيجاز بحذف المضاف في: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾:

في الحذف دلالة على التَّعميم، وفي ذكر المضاف إليه تفخيم وتعظيم

قوله تعالى: ﴿وَٱدۡعُ إِلَىٰ رَبِّكَۖ﴾؛ أي: ادعُ منازعيك من المشركين وأهل الكتاب إلى توحيد ربِّك والإيمان به[4]، وادعهم إلى هذا الدّين فإنَّك من حيث الدِّلالة على طريقة واضحة[5].

ففي حذف المضاف دلالة على العموم، فكأنَّ الدَّعوة شاملة لكلِّ ما يتَّصل باللّه ﷻ، فهو حريٌّ بأن يُحفَد إليه، ويُفرَّ إليه، ويُقرَّ لديه، كيف لا وهو ربُّ العالمين!

(1) القنوجي، فتح البيان: 9/ 80.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 249.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 89.
(4) مكي، الهداية: 7/ 4930، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 94.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 249.

نكتة فصل في خاتمة الآية:

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ جملة استئنافيَّة في موضوع التَّعليل، للدَّوام على الدَّعوة وأنَّها قائمة مقام فاء التَّعليل لا لردِّ الشَّكِّ[1].

الغرض من تتابع المؤكّدات في: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾:

عند دعوة المجادلين في أمور الدّين يحسن توكيد الخطاب لتعضيد الجواب

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ عدد من المؤكِّدات يتمثَّل في الحرف المشبَّه بالفعل (إنَّ)، وهو يقوم مقام تكرير الجملة مرَّتين، وفي اللّام المزحلَقَة الدّاخلة على خبر إنَّ، وهو قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ﴾، وكذلك في الجملة الاسميَّة المفيدة معنى الثُّبوت والاستقرار، وكذلك كمن خلال وصف الهدى بالاستقامة تأكيدًا لمضمونه.

وهذا الجمع من المؤكِّدات جاء مناسبًا لما عند المنازعين المجادلين في أمر الدّين من الإنكار، فلذلك جاء الكلام مؤكَّدًا بأكثر من مؤكِّد[2].

معنى اللّام في: ﴿لَعَلَىٰ﴾:

يحتاج الدّاعية إلى تثبيت، والمُنْكِرُ إلى توكيد أو تبكيت

اللّام في قوله تعالى: ﴿لَعَلَىٰ﴾ هي اللّام المزحلَقَة الدّاخلة على خبر (إنَّ) لإفادة معنى التَّوكيد[3]؛ تثبيتًا لقلب النَّبيِّ ﷺ لأنَّه سيواجه في دعوته معرضين ومنكرين ومجادلين، وهذا ممّا يحتاج تثبيتًا لقلبه الشَّريف ﷺ، ولكون الكلام إذا وُجِّه إلى منكِرينَ فيَحْسُن تدعيمُه إزالةً لإنكارهم؛ فلذلك أُكِّد الكلام باللّام.

بلاغة الاستعارة في التّعبير بـ﴿لَعَلَىٰ هُدًى﴾:

استمكن النَّبيُّ ﷺ من الهدى وارتضاه لتثبيت الله تعالى إيّاه

في التَّعبير بالحرف (على) في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستعارة للتَّمكُّن من الهدى[4]؛ أي: وإنَّك في نسكك

(1) والآلوسي، روح المعاني: 9/ 188، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 90.
(3) الهلال، الثري الجامع: 7/ 348.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.

وشريعتك لمُتمكِّن من هدايتك المستقيمة تمكُّنَ مَن كان فوق الهداية مستمكنًا منها كالقائم عليها والجالس عليها، ووصف سبحانه الهدى الذي استمكن منه ﷺ واقتعده بالاستقامة، والاستقامة وصف للحقِّ، ولكلِّ هداية[1].

نكتة تنكير ﴿هُدًى﴾:

جاء لفظ ﴿هُدًى﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ نكرة لإفادة التَّعظيم بقرينة وصفه بالاستقامة، ووقوعه في سياق المدح، وكلُّ هدًى من الله عظيم.

بلاغة الاستعارة في وصف الهدى بالاستقامة:

الهدى واضحة معالمه فهو مستبين، كالطَّريق ثابت تحت أقدام السّالكين

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى﴾؛ أي: طريق موصل إلى الحقِّ، ووصفه بالمستقيم استعارة مكنيَّة، حيث شبَّه الهدى بالطَّريق الموصل إلى المطلوب، ورمز إليه بالمستقيم؛ لأنَّ المستقيم أسرع إيصالًا، فدين الإسلام أيسر الشَّرائع في الإيصال إلى الكمال النَّفساني الذي هو غاية الأديان[2]، أو فيه استعارة تخييليَّة في (على)، أو أحدهما تخييل والآخر ترشيح، ثمَّ المراد بهذا الطَّريق إمّا الدّين والشَّريعة أو أدلَّتها[3].

فائدة وصف الهدى بالاستقامة:

استقامة طريق الهُدى تقرِّب إلى الجنَّة السَّبيل، وترشد السّالِكَ بالبرهان والدَّليل

أفاد وصف الهدى بالاستقامة أنَّه إرشاد بوجود قريب؛ لأنَّ المستقيم هو أقرب إيصالًا للمطلوب من غيره من الطُّرق الملتفَّة أو الملتوية[4]، وفيه إشارة أيضًا إلى أنَّ ما في أيدي أهل الكتاب من شريعةٍ غيرُ مستقيمة، وذلك بما أدخلوا عليها من زيف وضلال[5].

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5023.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 187.
(4) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 198.
(5) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1094.

أمّا شريعة النَّبيِّ ﷺ فموصوفة بالاستقامة؛ لأنَّها هدى من اللّه شرعه لخلقه[1].

بلاغة الإدماج في تذييل الآية:

المؤمنون على الصِّراط المستقيم سائرون والمعاندون عنه ناكبون

قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾؛ أي: إنَّك لعلى طريق مستقيم غير زائل عن محجَّة الحقِّ والصَّواب في نسكك الذي جعله ربُّك لك ولأُمَّتك، أمّا منازعوك فهُم الضُّلّال عن قصد السَّبيل؛ وذلك لمخالفتهم أمرَ اللّه سبحانه في ذبائحهم وعبادتهم الآلهةَ، وإعراضهم عن اتِّباع شرعك القويم[2].

ففيه إدماج بالتَّعريض بخطأ المشركين وأهل الكتاب وضلالهم وأنَّهم على صراط معوجٍّ مع أنَّ في قوله: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدٗى مُّسۡتَقِيمٖ﴾ إرشادًا لأجوبة المعترضين على جزئيّات الشَّرع بالعقل الصَّحيح، فإنَّ الهدى وصفٌ لكلِّ ما جاء به الرَّسول الكريم ﷺ، والهدى: ما تحصل به الهداية من مسائل الأصول والفروع، وهي المسائل التي يُعرف حُسنُها وعدلُها وحكمتُها بالعقل والفطرة السَّليمة، وهذا يُعرف بتدبُّر تفاصيل المأمورات والمنهيّات[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الشّعيرة والمنسك:

الشعيرة من الإعلام، والمَنسك من العبادة

النّون والسّين والكاف أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على عبادة وتقرُّب إلى اللّه تعالى[4].

والنُّسُك: العبادة والطاعة وكلُّ ما تُقُرِّب به إلى اللّه تعالى، والناسك: العابد[5]، واختُصَّ بأعمال الحجِّ[6]، والمناسك: عباداتُ

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9922.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 680.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 545.

(4) ابن فارس، المقاييس: (نسك).

(5) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، اللسان: (نسك).

(6) الراغب، المفردات: (نسك).

الحجِّ وأماكنُها[1]، والنَّسيكة: الذَّبيحة التي يُتقرَّب بها إلى اللّه ﷻ، والمنسَك: الموضع الذي يُذبَح فيه النَّسائك، ولا يكون ذلك إلا في القربان[2].

أمّا الشعيرة فمِمّا يدلُّ عليه جذرها العِلم والعَلَم[3]، والشَّعيرة في الأصل: العلامة، فسمّيتْ مواضعُ الحجِّ وأفعاله شعائرَ؛ لأنَّها علامات، واشتقاقها من الشعور وهو العِلم[4]، أو من الإشعار وهو الإعلام على الشيء[5]، ولهذا تُسمَّى البَدَنة التي تُهدَى: شعيرةً؛ لأنَّها تُشعَر بغرز حديدة في سنامها من جانبها الأيمن حتّى يخرج الدم؛ فيُعلَم أنَّها هَدْي[6]، وعند ذَبحها تقرُّبًا للّه ﷻ تُسمَّى: نسيكةً، ويحتمل أن يكون اشتقاق الشعائر من الإعلام بالشيء، قال اللّه ﷻ: ﴿۞إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلۡمَرۡوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ﴾ [البقرة: 158]؛ أي: مِن الخبر الذي أخبركم عنه، كأنَّه إعلام من اللّه تعالى عبادَه أمرَ الصَّفا والمروة[7].

وشعائر اللّه يُعنَى بها جميع متعبَّدات اللّه التي أشعرَها اللّه، أي: جعلها أعلامًا لنا، مِن الموقف والسَّعي والنَّحر[8].

والشعيرة: كلُّ ما جُعِل عَلَمًا لطاعة اللّه تعالى[9]، وكلُّ ما كان مَعلمًا لقربان يُتقرَّب به إلى اللّه ﷻ من صلاة ودعاء وذبيحة فهو شعيرة[10]، والطَّواف يُسمَّى شعيرة؛ لأنَّ الناسَ علموه طوافًا بالطريقة التي يؤدَّى بها، وهو دوران الحاجّ أو المعتمر حول الكعبة سبع دورات من الحَجر الأسود إلى أن ينتهي إليه، ويكون البيت الحرام على يساره، ويُسمَّى أيضًا نُسكًا؛ لأنَّ القيامَ بهذا العمل مع النيَّة يُتمّان تأدية ركن من أركان الحجّ، وهذا هو حال مواضع الحجّ وأعماله وأركانه؛ فإذا قُصِد منها الإعلام سُمّيت: شعائر، وإذا قُصِد منها معنى العبادة سُمّيت: مناسك[11].

---

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نسك).
(2) ابن فارس، المقاييس: (نسك).
(3) ابن فارس، المقاييس: (شعر).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شعر).
(5) الواحدي، التفسير البسيط: 3/ 436.
(6) الواحدي، التفسير البسيط: 3/ 436، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 180، والخليل، العين، والأزهري، التهذيب، والجوهري، الصحاح، وابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (شعر).
(7) الواحدي، التفسير البسيط: 3/ 436.
(8) الأزهري، التهذيب: (شعر)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 2/ 180.
(9) الجوهري، الصحاح: (شعر).
(10) البغوي، معالم التنزيل: 1/ 172.
(11) عبد الجبار فتحي زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 756.

المنازعة والخصومة والاختلاف:

المنازعة مجاذَبةٌ لاقتلاع، والخصومة تعلُّقٌ بجانب، والاختلاف تَنحيةٌ وإقامة

النّون والزّاء والعين أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قَلعِ شيءٍ(1)، والمعنى المحوريّ لهذا الجذر: اقتلاعٌ بجذب قويّ للشيء(2)، والمنازعة: المجاذَبة في الخصومة(3)، وكلٌّ فيها يريد أن يقتلعَ أمرًا من الآخر(4).

أمّا الخصومة فأصلها من خُصْم الآخر وغيره وهو ناحيتُه وجانِبُه، وذلك أنَّ كلًّا من المتخاصمَيْنِ يأخذ في جانبٍ غير الذي أخذ به الآخر(5)، وقيل للخَصْمين: خَصْمان؛ لأَخْذِ كلٍّ واحدٍ منهما في شِقٍّ من الحِجاج والدَّعوَى(6).

وأمّا الاختلاف فمِمّا يدلُّ عليه جذره أن يجيء شيءٌ بعد شيءٍ يقومُ مقامَه، والاختلاف من هذا الباب؛ لأنَّ كلَّ واحدٍ من المختلفَيْن يُنَحّي قولَ الآخر، ويُقيم نفسَه مقام الذي نحّاه(7)، والاختلاف: ذهاب كلٍّ إلى خلافِ ما ذهب إليه الآخر(8)، وهو عدم الاجتماع على رأي أو موقف أو حكم إلخ، وكأنَّ كلًّا يذهب إلى ما جعله الآخر خَلْفه(9).

(1) ابن فارس، المقاييس: (نزع).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزع).
(3) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (نزع).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نزع).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خصم).
(6) الأزهري، التهذيب، وابن منظور، اللسان: (خصم).
(7) ابن فارس، المقاييس: (خلف).
(8) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 188، والراغب، المفردات: (خلف).
(9) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).

﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ ٦٨ ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٦٩﴾ [الحج: 68 - 69]

مُناسَبَةُ الآيَتينِ لِما قَبْلَهما:

ينصر الله عباده المخلصين ولو بعد حين

لمّا أمر اللّه سبحانه نبيَّه ﷺ بالإقبال على أموره العظام، والإعراض عن منازعة أعداء منهج الإسلام، وكانت عادتهم الإصرار على موقفهم، والجدال عن باطلهم، أخبر سبحانه نبيَّه ﷺ بإجابتهم إن أبوا إلّا الجدال بعد البيان لهم وظهور الحجَّة عليهم، ولمّا كانت النفس تتشوَّف دائمًا إلى الانتصار؛ أخبر سبحانه أنَّه سيقضي يوم القيامة بحكمه بين المؤمنين والكفّار؛ ففريق بعدها إلى الجنَّة وفريق إلى النّار(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿جَٰدَلُوكَ﴾: (جدل) أصلٌ يدلُّ على استحكام الشَّيء في استرسال يكون فيه، وامتداد الخصومة ومراجعة الكلام(2)، والجَدْلُ: شدَّة الفَتْل، يقال: جَدَلتُ الحبلَ أجدُلُه جَدْلًا إذا شَدَدْتَّ فتْلَه، وفَتَلْتَه فتْلًا مُحْكَمًا، ومنه قيل لزِمام الناقة: الجَديلُ(3)، وجَدَلْتُ البناء: أحكمتُه(4)، ومنه الجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة.

والاسم منه الجَدَل، وهو شدَّة الخصومة واللَّدَدُ فيها والقدرة عليها(5)، والجَدَلُ: مقابَلَةُ الحُجَّةِ بالحُجَّة، والمُجادَلَةُ: المناظَرةُ والمخاصَمَةُ(6)، والمجادلةُ مذمومةٌ في الأمور الظاهرة التي لا تَحْتَمِلُ الجدالَ(7).

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 90 - 91.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جدل).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(4) الراغب، المفردات: (جدل).
(5) الأزهري، تهذيب اللّغة، والجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (جدل).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).

والجِدالُ سُمّي جِدالًا؛ لأنَّ المتجادِلَين كأنّهما يَفْتِلُ كلُّ واحد منهما الآخر عن رأيه بتقوية قول نفسه، وتضعيف قول خصمه[1]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾.

2) ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾: (خلف) أصلٌ يدلُّ على كون أو بقيَّة بعد ذاهب أو وراءه في ظهره[2]، والخَلْف: ظرفُ مكان مثلُ وراء، وهو ضدُّ القُدّام، وخَلَف ضِدُّ تقدَّم وسَلَفَ، والمتأخِّر لقصور منزلته يقال له: خَلْفٌ، والخَلْف: الظَّهْر[3]، والاختلاف والمخالفة: أن يأخذ كلُّ واحد من الخصمَيْن طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله أو فعله، والخِلافُ: أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين[4]، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اللـه العليم بحالهم وكثرة جدالهم وهو المجازي لهم على أعمالهم

يبيِّن المولى ﷻ في هاتين الآيتين للرَّسول الكريم ﷺ ما سيفعله إذا استمرَّ هؤلاء المشركون على جدالهم وتعنُّتهم بالباطل فيقول: وإن جادلك يا محمد هؤلاء المشركون باللّه في نُسُكِك وعِبادَتِكَ بعد ظهور الحقِّ وإلزام الحجَّة، فقل على سبيل التَّهديد والوعيد: اللّه أعلم بما تعملونه من الكفر والتَّكذيب، وهو سبحانه الَّذي سيقضي بينكم يوم القيامة فيما كنتم تختلفون فيه مِنْ أمر الدّين، وستعلمون حينئذ أيُّها المشركون مَنِ المُحِقُّ مِنَ المُبْطِل[6].

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(3) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خلف).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خلف).
(5) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 398.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 628 - 629، والهرري، الحدائق: 18/ 414.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾:

المعاندون قوالبٌ خاوية، وأشباحٌ عن المعاني خالية

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾ هي العاطفة[1]، حيث عطفت هذه الجملة الكريمة على جملة ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾، والمعنى: إن تبيَّن عدمُ اقتناعهم بالأدلَّة التي تقطع المنازعة، وأبَوْا إلّا دوام المجادلة تشغيبًا واستهزاء ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[2].

فهو تأكيد للأمر الذي أُمر به النَّبيِّ بالدعوة إلى ربِّه بالكتاب المستقيم الذي معه، دون التفات إلى ما في أيدي أهل الكتاب، ودون استماع لما يلقون إليه من مسائل يريدون بها إثارة الجدل وبعث الشُّكوك عند المنافقين ومَن في قلوبهم مرض، فهذه الآية الكريمة تدعو النَّبيِّ ﷺ إلى أن يمضي في طريقه، وأن يدع أهل الكتاب وما يجادلون فيه، وحسبُه أن يلقاهم بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3].

بلاغة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

علَّم الله رسولَه ﷺ مواجهة المِراء، والرَّدَّ على أهل الأهواء

التَّعبير بالجملة الشَّرطية يفيد نوعَ توكيد؛ ذلك أنَّها ترتِّب النَّتائج على المقدِّمات، فمتى وقعت المقدِّمة فالنَّتيجة تابعة لها، آتية في إثرها؛ لشدَّة ارتباطها بها.

وهذا يدلُّ على تهيئة النَّبيِّ ﷺ لتوقُّع حدوث المجادلة منهم بالباطل، فليُعِدَّ الرَّدَّ الذي علَّمه اللّه إيّاه قبل أن يتفوَّه الكافرون المعاندون بحرف من شنيع قيلهم.

والمعنى: وإن أبَوْا لِلجاجهم إلّا المجادَلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع، فادفعهم بأنَّ اللّه أعلم بأعمالكم وبقبحها وبما

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1094.

تستحقّون عليها من الجزاء، فهو مجازيكم به، وهذا وعيد وإنذار، ولكن برفق ولين[1].

نكتة التّعبير بـ(إن) دون (إذا):

من شأن الهُدَى أن يقطع النِّزاع لوضوح البرهان، فكيف يحصل بعده كُفران

الأصل في استعمال (إذا)، أن تكون لزمان من أزمنة المستقبل، مختصٍّ من بينها بوقوع حدثٍ فيه مقطوعٍ به، والدَّليل عليه: استعمال (إذا) في الأغلب الأكثر في هذا المعنى؛ ولهذا كثر في الكتاب العزيز استعماله، لقطع علّام الغيوب سبحانه بالأمور المتوقَّعة[2].

ولا يستعمل (إنْ) إلّا في المعاني المحتملة المشكوك في كونها؛ ولذلك قبُح (إن طلعت الشَّمس آتِك) إلّا في اليوم المغيم[3].

وهذه هي النُّكتة هنا؛ فإنَّ قوله تعالى قبلُ: ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ من شأنه أن يقطع كلّ جدل، وذلك لوضوح الدَّلالة وسطوع البرهان، فكيف يأتي بعد ذلك إعراض أو كفران؟!

ولكن لمّا كان الهوى المتَّبع من الآفات المهلكات، وكان لا يخلو منها قلبُ جاحدٍ ونفسُ مُنكرٍ كانت المجادلَة متوقَّعة دون جزم بها، ومع ذلك هيَّأ اللّهُ تعالى رسولَه الكريم ﷺ لمجابهتها والرَّدِّ عليها.

دلالة التّعبير بـ﴿جَدَلُوكَ﴾ مادّة وصيغة:

دلَّ الجدال على أنَّ القوم لا يريدون هداية، بل صدًّا واتِّباعًا للغواية

الجِدال: المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة، وأصله من: جَدَلْتُ الحبل؛ أي: أحكمت فتله، فكأنَّ المتجادلَيْن يفتل كلُّ واحد الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصل في الجِدال: الصِّراع وإسقاط الإنسانِ صاحبَه على الجَدالَة، وهي الأرض الصَّلبة[4].

والمادَّة تدور حول معاني الإحكام والشِّدَّة والامتداد[5].

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 169.
(2) الرضي، شرح الكافية: 3/ 185.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 440.
(4) الراغب، المفردات: (جدل)، والبروسوي، روح البيان: 6/ 58.
(5) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (جدل).

فالجدل: إحكام البناء، والجدال في مسائل الحقِّ والباطل: إحكامُ كلِّ مجادلٍ قولَه ليستطيع أن يزيِّف الحقَّ، أو أن يزيِّف كلام خصمه، وهذا مأخوذ أيضًا من جدل الحبل؛ لأنَّ أجزاء الحبلين المجدولين تتداخل فيكون ذلك أقوى، فالجدل من تمتين الشَّيء وتقويته، وكذلك الجدال؛ فهو محاولة تقوية الحُجَّة أمام الخصم، وإنَّه شاع في قول الباطل، والمجادلة في الحقِّ، وهذا النَّوع من الجدال من شأنه أن يبعثر الحقَّ، ويشكِّك فيه(1).

فقوله تعالى: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾ يدلُّ على أنَّ القوم لا يريدون هداية، بل يريدون صدًّا عن سبيل الله وكفرًا به سبحانه، نعوذ بالله من الخذلان!

نكتة حذف متعلّق الفعل ﴿جَٰدَلُوكَ﴾:

الحــــذف للعموم، وهو غـرض بلاغيٌّ مأموم

قوله تعالى: ﴿جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي في شيء من دينك بشيء ممّا تقدَّم من أقوالهم السَّفسافة أو بغيره(2)، فالحذف لإفادة التَّعميم، ليصدق الرَّدُّ على كلِّ مجادلة، فوقت الدَّعوة أثمن من أن تأكله المجادلة بالباطل؛ إذ ليس مِن ورائها طائل، فلا ينبغي صبُّ الماء في أرض أجادب، والأرضُ الطَّيِّبة له ظمأى.

معنى الفاء في: ﴿فَقُلِ﴾:

اقـطَعْ عليهم سبيلَ كيدهم، وأمِـتْـهـم بغيظهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَقُلِ ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ هي الفاء الرّابطة، وتوحي بسرعة ترتيب الجزاء على الشَّرط؛ أي: لا تتمهَّل في إجابتهم بما علَّمك الله، ولا تمهلهم وقتًا يتمكَّنون فيه من منازعتك، بل اقطع عليهم سبيل كيدهم، وأمِتْهُم بغيظهم، وأفشل مخطَّطهم(3).

دلالة الأمر بقوله تعالى: ﴿فَقُلِ﴾:

أرشد الله نبيَّه ﷺ لمواجهة المِراء، وصَلَف السُّفهاء

الأمر في الآية على حقيقته؛ إذ إنَّه صادر من الأعلى، وهو هنا

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5024، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9923.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 90.
(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.

مسوق لغرض النُّصح والإرشاد، إذ يرشد ربُّ العالمين رسولَه الأمين ﷺ إلى ما يواجه به المِراء، وصلف السُّفهاء.

ففي هذه الآية أدبٌ حسَن علَّمه الله عبادَه في الرَّدِّ على من جادل تعنُّتًا ومراءً ألّا يجاب ولا يناظَر، ويُدفع بهذا القول الذي علَّمه الله لنبيِّه ﷺ[1].

غرض تقديم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

تقديم العظيم دالٌّ على التَّفخيم والتَّعظيم

قُدِّم المسند إليه في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾ اتِّباعًا للأصل في بناء الجملة الاسميَّة، ولإفادة نكتة بلاغيَّة بديعة، وهي إرادة التَّفخيم والتَّعظيم الحاصل بتقديم لفظ الجلال بما يحويه من معاني الجمال والكمال، وبما يحدثه في القلوب المُحِبَّة من تقديس وإجلال، وفي القلوب المعرضة من تخويف من النَّكال.

كما أفاد معنى التَّخصيص، فإنَّ الله وحده الذي أحاط علمه بكلِّ شيء، وكلُّ هذا مستفاد من البدء بالاسم الجليل.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

كِلْهم إلينا عند ما راموا من الجدال

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ تفويض أمرهم إلى الله تعالى، وهو كناية عن قطع المجادَلة معهم[2]؛ أي: فلا تجادلهم، وادفعهم بهذا القول[3]؛ فإنَّ الجدَل يُجدي مع القلوب المستعدَّة للهدى، لا مع القلوب التي تصرُّ على الضَّلال، فلا ضرورة لإضاعة الوقت والجهد معهم، فاختصِرِ الجدَلَ معهم، لأنَّهم لا يسعَوْنَ إلى الاستيضاح والتَّعلُّم، وإنَّما يجادلونك تَعَنُّتًا[4].

نكتة الإدماج في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ﴾:

في تأكيد علم العليم المجيد تهديد شديد، ووعيد أكيد

في قوله: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ إدماج بتعريض بالوعيد

---

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 94.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 453.
(4) القطان، تيسير التفسير: 2/ 468.

والإنذار بكلام موجَّه صالح لما يتظاهرون به مِن تطلُّب الحجَّة، ولما في نفوسهم من إبطال العناد كقوله تعالى: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَٱنتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ۝٣٠﴾ [السجدة: 30][1].

أي ليس لي أن أحاسبكم على افترائِكُمُ الكذبَ على اللّه، فإنَّ اللّه سبحانه هو أعلمُ بما أنتم عليه ظاهرًا وباطنًا، وهو سبحانه الذي يتولَّى حسابكم وجزاءكم[2].

فائدة التّعبير بصيغة التّفضيل: ﴿أَعْلَمُ﴾:

أفعل التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ﴾ ليس على بابه، فلا مفاضلةَ في علم اللّه تعالى، إنَّما المعنى أنَّ اللّه يعلم بما تعملون عِلمًا ليس فوقه عِلم، وإنَّ عِلم اللّه بأعمالكم سيبيِّنه يوم القيامة[3].

فالقصد من ذلك المبالغة، وهذا مناسب للخطاب الموجَّه إلى منكِرين أو متردِّدين.

لا مفاضلَة في علم اللّه، ولا يحيط بأعمال العباد أحد سواه

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّها موضوعة للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[4]، وهذا هو معناها هنا، فكأنَّ علم اللّه تعالى قد التصق بكلِّ عمل عملوه ويعملونه، فلم يفارقهم، ولم يغيبوا عنه، وهذا من كمال علم اللّه تعالى الذي أحاط بكلِّ شيء علمًا، وفي هذا من التَّرهيب ما فيه؛ فإنَّ المحاسبة ستشمل كلَّ عمل.

ليس بعد إيضاح الأدلَّة وبيانها إلّا التَّحذير من كُفرانها

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة، والمصدريَّة: فعلى الأوَّلَيْن، مبنيَّةٌ على السُّكون في محل جرٍّ

لا تخفى على اللّه خافية، وسواءٌ في علمه كلُّ ماضية وآتية

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 330.
(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1095.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5024.
(4) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

بالباء، والجملة بعدها صِلتُها، أو صِفتُها، والعائد أو الرّابط محذوف؛ إذ التَّقدير: اللّه أعلم بالذي تعملونه، أو: اللّه أعلم بشيء تعملونه.

وعلى اعتبارها مصدريَّة تؤوَّل مع الفعل بعدها بمصدر في محلِّ جرٍّ بالباء، والتَّقدير: اللّه عالم بعملكم(1).

والفرق بين هذه التَّأويلات الثَّلاثة: أنَّ المصدريَّة فيها معنى التَّعميم؛ أي عالم بجميع أعمالكم، ومنها مجادلتكم بالباطل؛ أي: وإن أبَوْا لِلجاجهم إلّا المجادلة بعد اجتهادك أن لا يكون بينك وبينهم تنازع؛ فادفَعْهُم بأنَّ اللّه أعلم بأعمالِكم وبِقُبْحِها وبما تستحقّون عليها من الجزاء(2).

أمّا الموصولة: ففيها معنى التَّخصيص؛ أي: اللّه عالم بجدالكم هذا ومجازيكم عليه، وأمّا الموصوفة: فالتَّنكير فيها للتَّعظيم؛ أي: أنَّ جدالكم بالباطل الذي كنتم تتَّخذونه لعبةً وتسليةً وحسبتُموه هيِّنًا هو شيء عند اللّه عظيم، وسيجازيكم به العقاب الأليم.

نكتة التّعبير بالمضارع: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

في التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، واستحضار الموقف والحال

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، وحصول الشَّيء مرَّة بعد مرَّة، وهذا يعين على استحضار الصّورة، فكأنَّ الحدث يقع الآن ويراه القارئ بعينه، وهذا هو المقصود هنا، فالمعنى: مهما تعملوا من عمل فاللّه تعالى به عليم.

وفي هذا دليل على أنَّ جدال أهل الباطل مستمرٌّ إلى قيام السّاعة، لن يفتروا عنه، فلا ينبغي لأهل العلم أن يناموا عن هؤلاء، ولا أن يتركوا المسلمين فريسة لأهواء السُّفهاء.

غرض حذف مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الحذف لإفادة التَّعميم، فالله بكلِّ شيء عليم

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾؛ أي: من الأباطيلِ التي مِن جُملتها المجادلةُ، فمجازيكم عليها(3).

(1) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 205.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 535.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 119، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 188.

فالحذف لإفادة التَّعميم، فاللّه سبحانه بكلِّ شيء عليم، ولا يعزب عنه من شيء دقَّ أو جلَّ، وفي هذا ما فيه من التَّهديد والتَّرعيب.

بلاغة الإيجاز بالحذف في الآية:

حذف ما يُعلَمُ بليغ فصيح، وتغني الإشارة إليه عن التّصريح

في الآية محذوف حُذِف لدلالة الباقي عليه، والمعنى: اللّه أعلم بما تعملون وما نعمل، وأيضًا يحكم بيننا وبينكم؛ يعني: أنَّه عالم بأعمالنا فهو يحكم بيننا وبينكم يوم القيامة[1].

وفي إيثار ذِكْرِ عملِ القوم المجادِلينَ دون عمل خصومهم؛ إشارةٌ إلى أنَّ المؤمنين موقنون بأنَّ اللّه تعالى يعلم ما يعملون؛ فهم يخافون اللّه ويتَّقون، وإن عصى المجادلون اللّهَ فيهم فالمؤمنون يراعون اللّهَ فيهم ويطيعون.

أمّا المجادلون فقد ظنّوا أنَّ اللّه لا يعلم كثيرًا ممّا يعملون، وهذا ظنٌّ كافرٌ أرداهم فأصبحوا خاسرين.

فنصَّت الآية على أنَّ اللّه تعالى عالم بأعمال هؤلاء المجادلين لتنزيلهم منزلة المنكِرين.

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ﴾:

اللّه تعالى يحكم بين المختلفين أجمعين، وإن الجحيم مأوى الكافرين

لمّا أمر اللّه تعالى رسوله الكريم ﷺ بالإعراض عنهم، وكان ذلك شديدًا على النَّفس لتشوُّقها إلى النُّصرة؛ رجّاه في ذلك بقوله تعالى مستأنفًا تحذيرًا لهم: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[2].

فهو كلام مستأنَف ليس من المقول، فهو خطاب للنَّبيِّ ﷺ، وليس خطابًا للمشركين بقرينة قوله: ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾، والمقصود: تأييد الرَّسول ﷺ والمؤمنين[3]، وتسلية النَّبيِّ ﷺ ممّا كان يلقى[4]، وتأكيد هذا التَّهديد للمشركين والإعراض عن مجادلتهم[5].

(1) الواحدي، البسيط: 15/ 492.
(2) الخطيب الشربيني، السراج المنير: 2/ 564.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.
(5) طنطاوي، الوسيط: 9/ 340.

دلالة تقديم المسند إليه على المسند الفعليّ:

أفاد تقديم المسند إليه على المسند الفعليِّ في قول اللّه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ التَّخصيص وتقوية الحكم، أمّا التَّخصيص فإنَّ الفصل بين الخلائق ليس لأحد إلّا للّه الحَكَم العدل سبحانه.

مَن وافق الصراط المستقيم فهو من أهل النعيم، ومن زاغ فهو من أهل الجحيم

وأمّا تقوية الحكم فإنَّها حاصلة من إعادة الإسناد؛ ذلك أنَّ الفعل ﴿يَحۡكُمُ﴾ يتضمَّن ضميرًا مستترًا يعود على المسند إليه، فكأنَّ الإسناد قد أُعيد مرَّتين، وهذا للتَّوكيد وتقوية الحكم[1].

دلالة التّعبير بـ﴿يَحۡكُمُ﴾ مادّة وصيغة:

أصل الحكم: المنع لأجل الإصلاح، ومنه سُمّيتِ اللِّجامُ: حَكَمَةَ الدّابَّة؛ لأنَّها تمنعها من النُّشوز أو الفرار أو التَّصرُّف على غير مراد صاحبها.

الحُكم منعٌ لأجل الإصلاح ومنع الأخطاء، ويأتي بمعنى الفصل والقضاء

والحِكمة هذا قياسها؛ لأنَّها تمنع من الجهلِ، والحُكمُ، وهو المنع من الظُّلم[2].

فالحاصل أنَّ معنى الجذر يدور حول الضَّبْط الذي يمنع التَّسيُّب ويمَكِّن مِن جَعْل الشَّيء - أو جريانه - على ما ينبغي ويُراد.

ومنه جاء الحُكم بمعنى: القضاء؛ لأنَّ القاضي يَضْبط أمر كلٍّ مَن الفريقين ويفْصِل، مانعًا أن يدخل أيٌّ منهما على الآخر في حقِّه[3].

وهذا هو المراد هنا، فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: يقضي بينكم، فالحكم هنا يعني القضاء، وليس الفصل؛ لأنَّ الحكم يستعمل بين أفراد الأُمَّة الواحدة، كما هو الحال في هذه الآية، والفصل يكون بين الأمم المختلفة أو بين الأنبياء والأمم، والفصل: يعني الحكم بأن يذهب فريق إلى الجنَّة وفريق إلى السَّعير[4].

---

(1) حسن طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (حكم).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (حكم).
(4) الهلال، الثري الجامع: 7/ 349.

في الفصل بين المتجادلين إبعاد للكفّار وإدناء للمؤمنين

فائدة التّعبير بالظّرفيّة ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ وتقديمها:

أفاد التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿بَيۡنَكُمۡ﴾ معنى الفصل والإبعاد، فيكون المحكوم بينهم يوم القيامة على فريقين: فريق في الجنَّة وفريق في السَّعير، فكما أعرض المجادلون المنازعون عن سلوك سبيل هذا الدّين، واتَّبَعوا غيرَ سبيل المؤمنين، وأنكروا كلَّ ما أُقيمَ عليه دليلًا، واتَّخذوا سبيل الغيِّ سبيلًا - كان جزاؤهم مِن جنس أعمالهم، حيث يُضرَب بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة بما يَفْصِلُ بينهم مفرِّقًا ومميِّزًا، بِسورٍ له بابٌ، باطنُه فيه الرَّحمة وظاهره مِن قِبَلِه العذاب، ويقال للبُعَداء: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾ [يس: 59]، فيمضي كلٌّ منهم إلى غاية سبيله التي سلكَ في الدُّنيا، فيُحشَر المتَّقون إلى الرَّحمن وفدًا، ويُساق المجرمون إلى جهنَّم وِردًا.

اتَّبع المجادلون أهواءهم فتفرَّقوا، وجادلوا بالباطل فتزندقوا

نكتة العدول عن (بيننا وبينكم) إلى النَّظم المتلوّ:

يلاحظ أنَّ الحقَّ سبحانه لم يقل: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾ كما يقتضي المعنى؛ لأنَّهما طرفان يتجادلان، وكأنَّ الحق ﷻ يقول لرسوله ﷺ: اتركهم فسوف يختلفون هم فيما بينهم، ولن يدوم خلافهم معك، بل سينقلبون على أنفسهم، يخالف بعضهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا؛ لأنَّ الخلاف في شيء واحد ينشأ عن هوى النَّفس، وهوى النَّفس ينشأ من الحرص على السُّلطة الزَّمنيَّة، يعني: أرح نفسك، فربُّك سيحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون[1].

يترتَّب على الحُكم في الآخرة إمّا ثواب وإمّا عقاب، وفي هذا ذكرى لأولي الألباب

فائدة ذكر الظّرفيّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يفيد التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ معنى تفويض الحكم لله تعالى، كأنَّه قيل للنَّبيِّ ﷺ: لن يؤمن ممَّن ينازعك إلّا مَن قد آمَن، وما أنتَ عليهم بحفيظ؛ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون، ولا تلتفت لما

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9923.

فيه يجادلون، وكأنَّه قيل للكافرين: اعملوا ما شئتم - تهديدًا - فمهما عملتم من عمل فإنَّكم عنه مسؤولون، وبه مجزيّون.

وفي هذا إدماج بالتَّأكيد على أنَّ القيامة حقٌّ لا مراء فيها، فيكون هذا ردًّا على الكافرين المنكرين للبعث، وفيه أيضًا إثبات للثَّواب والعقاب؛ إذ لا معنى للحُكم إلّا ما يترتَّب عليه من إثابة المؤمنين وعقوبة الكافرين؛ "يعني: ما اختلف فيه المؤمنون والكافرون، فيكون حكمه أن يُدخِلَ المؤمنين الجنَّة، ويُدخِلَ الكافرين النّار"[1].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِ﴾:

(أل) في القيامة للعهد الذِّهنيِّ، فالمخاطَبون على علمٍ بها، أمّا المؤمنون، وأهل الكتاب فهم يؤمنون بها، وأمّا المشركون - وإن كانوا ينكرونها - فقد قَرَعَ ذكرُها أسماعهم مرّات ومرّات، ولكنَّهم كانوا عنها في سُبات! واستكبر المجادلون عن الإيمان بالقيامة استكبارًا.

نكتة التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا﴾:

الحُكم في الآخرة موكولٌ إلى الله، ولن يفصل بين العباد أحدٌ سواه

أفاد التَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمۡ﴾ معنى أنَّ حكم الله تعالى وقضاءه بين الخصوم سيكون في نهاية الفصل، وغاية العدل، فسوف يجازي كلًّا بما عمل، دون أن تزر وازرةٌ وزرَ أُخرى.

فكأنَّ هذا القضاء حدٌّ قاطع، وسيف ماضٍ، أو كأنَّه إمامٌ عادل دخل بين الخصوم في تنازعهم، فجلس وسطهم، ففصل بينهم في هذا الأمر الذي اختلفوا في تفاصيله، فآمَن به المؤمنون ظاهرًا وباطنًا، وخاض الكافرون فيه بغير علم، فحَكَم حُكمَه وفَصَلَ بينهم، وأعطى كلًّا جزاءه!

فما أحْكَمَهُ من قضاءٍ، وما أعْدَلَهُ من جزاءٍ، وما أرْحَمَهُ من إلهٍ وسِعَتْ رحمتُه الأرض والسَّماء!

(1) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن: 3/ 189.

اختلف منازعو النَّبيِّ ﷺ في أمرٍ ظنّوه هيِّنًا، وهو عند الله عظيم

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

(ما) في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ تحتمل الموصولة، والموصوفة[1]: فإنْ كانت الموصولةَ فهي بمعنى (الذي)، غير أنَّها أعمُّ من (الذي) وأشمل، والذي كانوا فيه يختلفون هو ما عبِّر عنه بالأمر في قوله: ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلۡأَمۡرِۚ﴾ [الحج: 67][2].

وتخصيصه بأنَّه هو الذي سيُحكَم فيه بين المختلفين كونه سببَ خلافِهم، ولبيان أهمّيَّته وخطره، وعلى هذا التَّأويل تكون جملة: ﴿كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ لا محلَّ لها صلة الموصول (ما)، وجملة: ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ في محلِّ نصب خبر ﴿كُنتُمۡ﴾[3].

وإن كانت الموصوفة فهي نكرة بمعنى (شيء)؛ أي: يحكم الله بينكم في شيءٍ كنتم فيه تختلفون، وقد يفيد هذا التَّنكيرُ التَّعظيمَ؛ أي: كنتم تختلفون في شيء تحسبونه هيِّنًا، وهو عند الله عظيم، وفيه تسلية للنَّبيِّ ﷺ، وتهديد شديد ووعيد أكيد للكافرين، وعلى هذا التَّأويل تكون الجملة بعدها في محلِّ جرٍّ صفة لـ(ما) الواقعة في محلِّ جرٍّ بـ(في).

مَن امتزج بالكفر قلبُه، عمي عن سبيل الهدى لبُّه

نكتة دخول (كان):

التَّعبير بالكون الماضي في قوله تعالى: ﴿فِيمَا كُنتُمۡ﴾ يفيد أنَّ اختلافهم هذا ليس طارئًا عليهم، بل هو ممزوج بأنفسهم حتَّى صار كالجِبِلَّة فيهم[4].

وفي هذا تسلية للرَّسول الكريم ﷺ حتَّى لا يهلك نفسه حزنًا على آثارهم، فهؤلاء لو علِم الله فيهم خيرًا لأسمعهم، ولكنهم مَرَدوا على الكفرِ والمِراء، فما تغني الآيات والنُّذُر عن قوم لا يؤمنون!

(1) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 205.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(3) محمود صافي، الجدول: 9/ 144.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.

دلالة التّعبير بالظّرفيّة المجازيّة في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾:

أفاد التَّعبير بالظَّرفيَّة المجازيَّة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ تصوير الأمر المختَلَف فيه كالوعاء المحيط بما فيه، ودلَّ هذا على أنَّ الذين خالفوا الدّين واختلفوا فيما بينهم لم يكتفوا بالوقوف على الظَّواهر كحال مَن يقف على شاطئ البحر يتهيَّب النُّزول فيه، بل إنَّهم ولَجوا في بواطن الأمر بغرض التَّشكيك فيه، ولو أنَّهم ابۡتَغَوا الهدى لَشَرَح اللّه صدورهم للإسلام، ولكنَّهم أعرضوا فطبع اللّه على قلوبهم وجعل على أبصارهم غشاوة، فمَن يهديهم مِن بعد اللّه؟!

وَلَجَ المجادِلون في بواطن الأمر لتشكيك المسلمين، وصدِّ النّاس عن دين ربِّ العالمين

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿فِيهِ﴾ على الخبر:

في قوله تعالى: ﴿كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ قُدِّم شبه الجملة على خبر النّاسخ لإفادة التَّخصيص؛ أي: ما كنتم تختلفون فيه خاصَّة[1].

وفي هذا دليل على أنَّ الاختلاف إنَّما نشأ بسبب هذا الدّين، فمَن أعرض عنه مِن المجادلين والمنازعين لعدم موافقته أهواءهم الفاسدة قد اختلفوا مع مَن آمن به واتَّبعه، كونهم على سبيل غير سبيلهم الضّالَّة، ثمَّ إنَّ المجادلين قد اختلفوا فيما بينهم بسبب تنوُّع أهوائهم وتناقضها وتضاربها؛ فلذلك قُدِّم شبه الجملة لإفادة هذا الغرض.

إنَّما نشأ الخلاف بسبب بغض المشركين للشَّرع القويم، فخُصَّ السَّبب بالتَّقديم

نكتة التّعبير بـ﴿تَخۡتَلِفُونَ﴾ مادّة وصيغة:

الخَلۡفُ: ضدُّ القُدّام، هذا هو الأصل في معناه، ومنه تتفرَّع مشتقّاته، وعليه تدور معانيها، فمنه: الاختلاف، وهو: عدم الاجتماع على رأي أو موقف أو حُكم أو غيره، كأنَّ كلًّا يذهب إلى ما جعله الآخر خَلۡفه، فيأخذ كلُّ واحدٍ طريقًا غير طريق الآخر في حاله أو قوله[2].

خلَّف المجادلون دين الله وراء ظهورهم، وامتلأت بالحقد عليه بواطن صدورهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.
(2) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (خلف).

والخِلاف أعمُّ من الضِّدِّ؛ لأنَّ كلَّ ضدَّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدَّين، ولمّا كان الاختلاف بين النّاس في القول قد يقتضي التَّنازع استُعير ذلك للمنازَعة والمجادَلة، حيث يذهب كلُّ واحد من الخصمين إلى خلاف ما ذهب إليه الآخر تنازُعًا وجدالًا[1].

فالتَّعبير بهذه المادَّة خصوصًا يصوِّر مدى إعراض القوم عن الدّين، وأنَّهم قد تركوه وراءهم ظهريًّا بعد أن جادلوا فيه وفي دلائله وبيِّناته، وأنَّهم ليسوا على قلب رجل واحد، وإنَّما يخالف بعضُهم بعضًا، ويلعن بعضهم بعضًا، وأنَّ اتِّفاقهم في معارضة الدّين لا يعني اتِّفاقهم في أصل الأمر، بل إنَّهم يرتضون أيَّ شيء بشرط أن يكون مخالفًا لهذا الدّين خصوصًا.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الجِدال والحوار:

الحِوارُ أعمُّ من الجِدال

الجيم والدال واللام أصلٌ واحدٌ، وهو من باب استحكام الشيء في استرسالٍ يكون فيه، وامتدادِ الخصومةِ ومراجعةِ الكلام[2]، والجِدال: المفاوضة على سبيل المنازَعة والمغالبَة، وأصله مِن: جَدلتُ الحَبْلَ، أي: أحكمتُ فتْلَه؛ فكأنَّ كلًّا من المتجادلَيْن يَفْتِلُ الآخرَ عن رأْيِه[3].

والجِدال محمودٌ إذا كان للوقوف على الحقِّ وإلا فمذموم[4]؛ فقد يُراد بالجِدال مطلَقُ المخاصمة[5]، والمجادلة مذمومة في الأشياء الظاهرة غير المحتملة للجدال، كقول الله ﷻ: ﴿مَا يُجَٰدِلُ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [غافر: 4][6]، ومِن الجِدال المحمود قول الله ﷻ:

(1) الراغب، المفردات: (خلف)، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 399.
(2) ابن فارس، المقاييس: (جدل).
(3) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (جدل).
(4) الفيومي، المصباح المنير: (جدل).
(5) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 158.
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جدل).

﴿وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ [النحل: 125]؛ أي: افتِلْهم عمّا هم عليه، غير فظّ ولا غليظ القلب في ذلك(1).

أمّا الحِوار: فهو المراجعة والمرادّة في الكلام(2)، والمحاورة: المجاوَبة(3)، ومراجعة المنطق والكلام في المخاطبة(4)، وقال اللّه ﷻ: ﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾ [الكهف: 34]؛ أي: يراجعه في الكلام ويجاوبه(5)، ويقال: كلَّمْتُه فما أحارَ إليَّ جوابًا، وما رجع حَويرًا ولا حَويرةً ولا مَحورةً ولا حِوارًا، أي: ما ردَّ جوابًا(6).

ويتبيَّن ممّا سَبق أنَّ الحوارَ أعمُّ من الجدال؛ فإنَّ الجِدال هو الحِوار الذي يصرف فيه كلُّ واحدٍ الآخرَ عن رأيه، وأمّا الحوار فلا يُشترَط فيه أن يكونَ على سبيل المنازعة والمغالبة، وصرفِ الآخر عن رأيه.

العمل والفعل والصُّنع:

الفعلُ أعمُّ من العملِ والصُّنع

الفِعلُ عامٌّ لِما كان بإجادة وبدونها، ولِما كان بعلم أو بغير علم، وقَصْدٍ أو بغيرِ قَصْدٍ، ولِما كان من الإنسان والحيوان والجماد(7)، والعملُ: كلُّ فعل يكون من الحيوان بقصد؛ فهو أخصّ من الفعل(8)، لأنَّه يُقال لِما كان من الحيوان دون ما كان من الجماد ولِما كان بقصد وعلم دون ما لم يكن عن قصد وعلم(9)، والصُّنع: إجادة الفعل، فكلُّ صُنعٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ صُنعًا، ولا يُنسب الصُّنعُ إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفِعل(10).

(1) الواحدي، التفسير البسيط: 13/ 232.
(2) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (حور).
(3) الجوهري، الصحاح: (حور).
(4) ابن منظور، اللسان، والزبيدي، تاج العروس: (حور).
(5) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 403.
(6) الجوهري، الصحاح: (حور)، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 10/ 403.
(7) الراغب، المفردات: (فعل).
(8) الراغب، المفردات: (عمل).
(9) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 322.
(10) الراغب، المفردات: (صنع).

ويتبيَّن ممّا سبقَ أنَّ الصُّنعَ أخصُّ المعاني الثلاثة[1]، والفعلَ أعمُّها، والعملَ أوسطُها؛ فكلُّ صُنعٍ عمل، وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعل، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[2].

(1) الراغب، المفردات: (فعل).

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 323.

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِۚ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝٧٠﴾ [الحج: 70]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إحاطته سبحانه بالخفيّات والمعلنات؛ تفضُّل وإنعام منه على جميع الكائنات

لمّا ذكر سبحانه أنَّه يحكم بين عباده يوم القيامة ويجازي كلًّا من المسيء والمحسن بما هو له أهل؛ أعقب هذا ببيان أنَّه العليم بما يستحقُّه كلٌّ منهم، فيقع حكمه بينهم بالعدل(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كِتَٰبٍۚ﴾: (كتب) أصلٌ يدلُّ على جمع شيء إلى شيء(2)، الكَتْبُ: الجمعُ وضمُّ أديم إلى أديم بالخياطة، يقال: كتبتُ السِّقاء، وكتبتُ البغلةَ أكْتُب وأكتِب كَتْبًا: جمعتُ بين شُفرَيْها بحَلْقة(3)، ومعناه في العرف: ضمُّ الحروف بعضها إلى بعض بالخطِّ، وقد يقال ذلك للمضموم بعضها إلى بعض باللَّفظ، فالأصل في الكتابة: النَّظمُ بالخطِّ لكن يُستعار كلٌّ واحد للآخر، ولهذا سُمّي كلامُ اللّه كتابًا، وإن لم يُكْتَب(4).

والكِتاب في الأصل مصدر، ثم سُمّي المكتوب فيه كتابًا، ويُعَبَّر بالكتاب عن اللَّوح المحفوظ، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾(5).

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 535، وابن عادل، اللّباب: 14/ 145، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 91 - 92، والمراغي، تفسير القرآن: 17/ 141، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 400.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كتب).

(3) الأزهري، تهذيب اللغة، والجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (كتب).

(4) الأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كتب).

(5) الراغب، المفردات: (كتب)، والبغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 78، والخازن، لباب التأويل: 3/ 264.

2) ﴿يَسِيرٌ﴾: (يسر) أَصْلانِ يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى انْفِتاحِ شَيْءٍ وخِفَّتِهِ، والآخَرُ عَلَى عُضْوٍ مِنَ الأعْضاءِ[1]، وتيسَّر كذا واسْتَيْسَر: تسهَّل وتهيَّأ[2]، اليُسْرُ: اللّين والانقياد، وهو ضِدُّ العُسْرِ والمَشَقَّةِ[3]، والتَّيسيرُ: التَّسْهيلُ، يكون في الخير والشر، يُقال: يَسَّرَ الأَمْرَ: إذا سَهَّلَهُ ولَمْ يُعَسِّرْهُ، وهو مَأْخوذٌ مِن اليُسْرِ، أي: السَّهل، ومَعناه: اللّينُ والانقيادُ.

واليسير: القليل، وشيء يسير؛ أي: هيِّن[4]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: هيِّن، وهو خطاب لهم على ما يتعارفونه من عسر الأمور وسهولتها[5].

المَعْنى الإِجْماليُّ:

علم الله شامل لكلِّ خفيٍّ وجليٍّ وصغيرٍ وكبيرٍ في السَّماوات وفي الأرض

استأنف البيان القرآنيُّ جملةً جديدةً غرضُها الاستفهام التَّقريريُّ؛ لإثبات حقيقة العلم والقضاء بين النّاس المذكورَين سابقًا فقال على سبيل التَّأكيد والتَّقرير: ألم تعلم أيُّها الرَّسول الكريم أنَّ اللّه سبحانه محيط بعلمه جميعَ ما في السَّماوات والأرض، ولا يَعْزُبُ عنه شيء في الأرض ولا في السَّماء، وهو الحاكم بين خلقه يوم القيامة؛ لِعلْمِه بجميع ما عملوه في الدُّنيا، إنَّ ذلك كلَّه كائن وثابت في اللوح المحفوظ؛ لأنَّه سهل يسير على اللّه تعالى[6].

الإِيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

اللّه العليم الذي لا يغيب عنه شيء في الكون، إنَّ ذلك كلَّه في كتاب مكنون

فُصِلت هذه الآية الكريمة عن سابقتها؛ لأنَّها مستأنَفة مقرِّرة لمضمون ما قبلها، حيث "أخبر تعالى في الآية التي قبلها أنَّه يحكم

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (يسر).
(2) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (يسر).
(3) الراغب، المفردات: (يسر).
(4) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (يسر).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (يسر)، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 364.
(6) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 395 - 396، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 552.

بين النّاس يوم القيامة فيما اختلفوا فيه، فأتبع ذلك الخبر بأنَّ عنده عِلْمَ كلِّ شيء ليقع الحكم في معلوم، فخرجت العبارة على طريق التَّنبيه على علم الله تعالى وإحاطته وإنَّ ذلك كلَّه في كتاب، وهو اللّوح المحفوظ"[1]؛ أي: وإذ قد علمتَ هذا وأيقنت فاعلَمْ أنَّه يعلم أيضًا ما أنتم مختلفون فيه فيحكم بينكم[2]؛ لأنَّه عالم بما يستحقُّه كلُّ أحد منكم، فحُكْمُه سبحانه واقعٌ بالعدل لا بالجَوْر[3]، فالاستئناف "لزيادة تحقيق التَّأييد الذي تضمَّنه قوله: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾"[4].

ولمّا اختلفت الجملتان الكريمتان خبرًا وإنشاءً حسُن الفصل بينهما، وقد أدَّى هذا الفصل إلى إثارة الانتباه، وشحذ الذِّهن، وهو مطلوب في الجمل المصدَّرة بسؤال.

تعيين المخاطب بقوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾:

المخاطَب الرَّسول الكريم، وعموم المخاطَبين بالذِّكر العظيم، أو المنكِر الجاحد الأثيم

الخطاب في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ إمّا أن يكون للرَّسول ﷺ، ومعناه تقوية قلب الرَّسول ﷺ، والوعد له وإيعاد الكافرين بأنَّ أفعالهم كلَّها محفوظة عند الله لا يَضِلُّ عنه ولا يَنْسى، فالخطاب للنَّبيِّ ﷺ والمراد بذلك سائر العباد؛ لأنَّ الرِّسالة لا تثبت إلا بعد العِلم بكونه تعالى عالمًا بكلِّ المعلومات[5].

وإمّا أن يكون الخطاب للكافر المكذِّب بالبَعث والمنكِر لإحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا يترتَّب عليه الثَّواب والعقاب يوم الدّين.

بلاغةُ الاستفهام ونوعُه وغرضُه:

إقامة الحجّة بالإقرار، وتوبيخ المعاند على الإنكار

معرفةُ نوعِ الاستفهام وغرضُهُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 133.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(5) ابن عادل، اللباب: 14/ 145.

﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ يترتَّب على تعيين المخاطَب بالآية الكريمة، فعلى القول بأنَّ المخاطَب هو النَّبيُّ ﷺ، أو عموم المؤمنين؛ فيكون الاستفهام تقريريًّا، و"معناه تقوية قلب الرَّسول ﷺ والوعد له وإيعاد الكافرين بأنَّ كلَّ فعلهم محفوظ عند اللّه لا يضلُّ عنه ولا ينسى"[1]، واللّه سبحانه - وإن كان لا يحتاج إلى تقرير العباد بعلمه وأنَّه إذا أخبر بأنَّه يعلم ما في السَّماوات والأرض فهو حقٌّ - ولكنَّ اللّه تعالى يريد أن يكون الخبر من المخاطَب وليس منه سبحانه، فيكون إقرارًا من العبد تقوم به الحجَّة منه على نفسه.

وإذا كان المخاطَب بالآية الكريمة هو الكافر المعاند المنكِر لعلم اللّه تعالى؛ فيكون الاستفهام إنكاريًّا للتَّوبيخ[2]، ومعناه: أتنكر أيُّها المعاند إحاطة اللّه بكلِّ شيء علمًا، ولا تعلم أنَّ اللّه يعلم ما في السَّماء والأرض من الأمور الظّاهرة والباطنة، وأنَّ ما يخفى على خلقه فإنَّه لا يخفى عليه سبحانه، بل سطَّره في كتاب محفوظ؟! أي أنَّ هذا الأمر من الوضوح والجلاء بحيث لا يتصوَّر أن يُنكَر أو يُجحَد، فكيف "يخفى عليه ما تعملون ومعلوم عند العلماء باللّه أنَّه يعلم كلَّ ما يحدث في السَّماوات والأرض"[3]؟!

نكتة التّعبير بالعلم بدلًا من الرّؤية:

لفظ العلم أعمّ، والتَّعبير به أتمّ

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ أوثِر التَّعبير فيه بلفظ العِلْم بدلًا عن لفظ الرُّؤية حيث انْفَرَد هذا الموضع بالتّعبير بالعلم "أمّا في سائر القرآن: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ [المجادلة: 7]"[4] وإن كان لفظ الرُّؤية يأتي بمعنى العلم لكنَّ التَّعبير بالعِلم أعمُّ من التَّعبير

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250.

(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331، والنخجواني، الفواتح الإلهية: 1/ 561.

(3) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 453.

(4) الكسائي، متشابهات القرآن، ص: 67.

بالرُّؤية؛ فالعِلم يتعلَّق بالموجود والمعدوم، وأمّا الرُّؤية فتتعلَّق بالموجود دون المعدوم، أو بما نُزِّل من الغيب منزلة الشَّهادة المدرَكة بالبصر توكيدًا له، فكان لفظ العِلم أنسب لمعنى عموم إحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا.

غرض التّعبير بالمضارع: ﴿تَعۡلَمۡ﴾:

نفي المضارع يدلُّ على انتفاء الحدث على تطاول المدَّة

يفيد التَّعبير بالمضارع معنى التَّجدُّد والاستمرار، لكنَّ دخول أداة النَّفي (لم) عليه يقلب زمنه إلى المضيِّ، ويكون معناه: (أما عَلِمتَ).

غير أنَّ العدول عن صيغة (أما علمت) إلى ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ جاء لنكتة بديعة، وهي أنَّ الماضي المنفيَّ بـ (ما) يكون في الغالب لنفي الماضي القريب من الحال، وأما (لم) فليست مقيَّدة بزمن من أزمنة المضيِّ، كما أنَّ الماضي يدلُّ على أنَّ الأمر قد انقضى، وأمّا المضارع فإنَّه قد يدلُّ على التَّكرار، والتَّجدُّد والتَّطاول، فالفعل (كَتَبَ) يدلُّ على انتهاء الحدث، وانقضائه، والفعل (يَكْتُبُ) يدلُّ على تجدُّد الحدث واستمراره، فإذا دخلت (ما) على الماضي دلَّ على انتفاء الحدث بصيغة المضيِّ، وإذا دخلت (لم) على المضارع دلَّ على انتفاء الحدث في المضيِّ، لكن بصيغة التَّجدُّد والاستمرار، فدخول (لم) يدلُّ على أنَّ الحدث لم يحصل في الماضي على تطاول المدَّة واستمرارها، ويمكن أن يقال أيضًا أنَّه قد يُنفى بـ(ما) مع الماضي إذا أُريدَ نفيُ الحدث بصورته المنقضية التّامة، وينفى بـ(لم) مع المضارع إذا أُريدَ نفيُ الحدث في الماضي بصورة التَّغيُّر والتَّجدُّد فيشخص في الذِّهن بصورته المتجدِّدة، ثمَّ ينفيه بهذه الصّورة في الماضي[1].

فالحاصل أنَّ المعنى: ألم يتجدَّد لك عِلمٌ في كلِّ حادثة ينبيك عن إحاطة الله تعالى بكلِّ شيء علمًا؟ فحقَّ هذه الحوادث والأقضية

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 193 - 196.

والتَّدابير أن تزرع في القلوب بذور اليقين، فتثمر الإيمان والتَّوحيد، والثَّبات على الصِّراط دون أن تحيد.

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ مصدر مؤوَّل في محلِّ نصب سدَّ مسدَّ مفعولَيْ ﴿تَعۡلَمۡ﴾[1]، وأنَّ واسمها، وجملة ﴿يَعۡلَمُ﴾ خبرها[2].

وقد عُدِل عن التَّعبير بالمصدر الصَّريح: (ألم تعلم علمَ اللّه ما في السَّماء والأرض كائنًا) لما في التَّعبير بالفعل من معنى التجدُّد والاستمرار، وهو هنا بمعنى تعلُّق عِلم اللّه تعالى بالمعلومات، والتَّعبير بالمضارع أفاد شمول عِلم اللّه للحاضر والمستقبل، وإذا عَلِمَ ما في المستقبل فهو بما مضى أعلَمُ، فمهما يقع في هذا الكون الكبير فإنَّ اللّه به عليم خبير، قدَّره بحكمة، وكتبه في كتاب.

مهما يقع في هذا الكون الفسيح الكبير فإنَّ الله به عليم خبير

فائدة توالي المؤكّدات في: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

اشتمل قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ على أكثر من مؤكِّد، منه: ورود (أنَّ) التي تقوم مقام تكرير الجملة مرَّتين، والجملة الاسميَّة المفيدة لمعنى الثُّبوت والاستقرار، وسدِّها مسدَّ مفعولَي (علم) التي تفيد اليقين، ووقوعها في حيِّز الاستفهام التَّقريريِّ، والتَّقرير ضرب من التَّوكيد، والتَّعبير بالمسند الفعليِّ المفيد تقوية الحكم وتوكيده.

لا يُنكِرُ عِلْمَ الله إلّا الكافرون السُّفهاء؛ لأنَّهم عن الحقِّ في عماء

وهذا لتنزيلِ غير المُنْكِر منزلةَ المُنْكِرِ مبالغةً وتوكيدًا، على أنَّ الخطاب موجَّه إلى النَّبيِّ ﷺ بطريقة التَّقرير.

وإمّا أن يكون الخطاب موجَّهًا للمخاطَب المنكِر، فحَسُنَ توكيدُه بأكثر من مؤكِّد؛ إقامة للحُجَّة، ودفعًا للعذر.

اختصَّ الله تعالى بعلم ما يكون وما هو كائن، فلم يشاركه فيه كائن

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليِّ:

جاء المُسْنَدُ فِعْليًّا في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ لإفادة

---

(1) محمود صافي، الجدول: 9/ 145.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 476.

التَّخصيص وتقوية الحكم: أمّا التَّخصيصُ فبقرينةِ إحاطةِ علْمِ اللّه تعالى بكلِّ معلوم، وأنَّ ذلك لا يَقْدِرُ عليه المخلوق ألبتَّة.

وأمّا تقويةُ الحُكْمِ فمُستفادٌ مِن إعادة الإسناد، حيث إنَّ الفعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ مسنَدٌ إلى المبتدأ الذي هو لفظ الجلال، وفيه ضمير مستتر يعود أيضًا على هذا المبتدأ، فكأنَّ الإسناد قد كُرِّر مرَّتين، وهذا ممّا يفيد تقويةَ الحكم وتوكيدَه[1].

فائدة إعادة لفظة العلم: ﴿تَعۡلَمۡ﴾، و: ﴿يَعۡلَمُ﴾:

في التَّعبير بالعلم إفادة اليقين، وتكراره قطع لرؤوس الظُّنون

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ ترديدٌ، وهو تَكْرارُ لفظ العِلم مع تغيُّر المتعلِّق، حيث أُسنِد اللَّفظ الأوَّل إلى المخاطَب، وأُسنِد اللفظ الثّاني إلى ربِّ العالمين؛ وهذا من حسن البيان وتمام التَّأليف.

وفي التَّعبير بالعلم إفادة معنى اليقين، وفي تكراره توكيد لهذا المعنى، وفيه دليل على أنَّ أمور الاعتقاد إنَّما تُبنى على اليقين الذي يذيب نورُه أشباح الشَّكِّ، ويحصد سيفه رؤوس الظَّنِّ.

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾:

اللّه تعالى منبِّئٌ عبادَه بما يعملون، وهو مجازيهم بما كانوا يفعلون

في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ﴾ كنايتان بديعتان، أولاهما: عن إقامة الحساب والجزاء يوم القيامة، فهو المترتِّب على العلم، وهو الفائدة مِن ذِكر هذا العلم، فالمعنى أنَّ اللّه تعالى الذي يعلم ما في السَّماء والأرض هو الحَكَمُ بين خلقه يوم القيامة، على علم منه بجميع ما عَمِلوه في الدُّنيا، فمجازي المحسِن منهم بإحسانه والمسيء بإساءته[2]، "فالكلام كناية عن جزاء كلٍّ بما يليق به"[3].

وأمّا الكناية الأخرى فهي عن التَّسلية للنَّبيِّ ﷺ ممّا لاقاه من

(1) طبل، علم المعاني، ص: 125.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 681.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.

الذين جادلوه مِن بعد ما تبيَّن لهم الحقُّ، والمعنى: لا تَضِق صدرًا ممّا تلاقيه منهم، فإنَّما حسابهم عند ربِّهم[1].

معنى ﴿مَا﴾:

عموم (ما) يعمُّ كلَّ شيء، ويشمل ما يعمله المشركون، وما كانوا فيه يخالفون

﴿مَا﴾ في الآية الكريمة هي الموصولة بمعنى (الذي)، غير أنَّها أعمُّ منه وأشمل؛ ذلك أنَّها تُستخدَم للدَّلالة على ذوات ما لا يعقل، أو صفات ما يعقل[2].

فقوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: يعلم كلَّ ما يحدث في السَّماء والأرض، ولا يخفَى عليه شيء من الأشياء، ومن جملتها: ما يقوله الكَفَرة وما يعملونه[3].

فدلَّ التَّعبير بها على عموم المعلومات من الظَّواهر والخوافي والحسنات والسَّيِّئات وأعمال المؤمنين والكافرين والملائكة والشَّياطين، فسبحان مَن أحاط علمه بكلِّ شيء.

فائدة التّعبير بـ﴿فِي﴾ الظّرفيّة:

أفادت الظَّرفيَّة معنى الوعاء، لتأكيد إحاطة علم الله بما في الأرض والسَّماء

أفاد التَّعبير بـ﴿فِي﴾ الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ معنى الإحاطة، ذلك أنَّها جعلت السَّماء والأرض ظرفًا يحوي المعلومات، ولمّا كانت السَّماء والأرض تحوي كلَّ شيء فدلَّتِ الظَّرفيَّة على توكيد إحاطة اللّه بكلِّ شيء علمًا، فما كان داخلًا في محيط السَّماء والأرض - وهذا يعمُّ كلَّ مخلوق - فإنَّ اللّه به عليم، يشمل هذا كلَّ حيٍّ وفِعلَه.

الموقع النّحويّ لقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ شبه جملة متعلِّق بمحذوف صلة الموصول ﴿مَا﴾[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 119، وابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 552.
(4) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 206.

والتَّقدير: (اللّه يعلم ما هو كائن في السَّماء وكائن في الأرض)، وهو يشمل ما يعمله المشركون وما كانوا فيه يخالفون، ففيه تهديد للمعارضين، وتسلية للمؤمنين.

معنى (أل) في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، و: ﴿وَٱلْأَرْضِ﴾:

(أل) في كلمتي: ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾، و﴿وَٱلْأَرْضِ﴾ هي التي للعهد الحضوريِّ أو الذِّهنيِّ؛ أي: السَّماء والأرض المعهودتان المعلومتان، فالمخاطَبون على عِلم بمعناهما، وفي هذا نوعُ تقرير؛ فالأرض التي تُقلُّكم، والسَّماء التي تُظلُّكم لا يخفى على اللّه تعالى ما فيهما ولا ما بينهما، وهو بكلِّ ذلك محيط، وعليه محاسِب.

بـكـلِّ مـا علا ومـا سفَل قد أحاط علمُ الله واكتمل

ويصحُّ أن تكون جنسيَّة، فتشمل كلَّ ما علا وكلَّ ما سَفَلَ ممّا رآه المخاطَبون وما لم يروه أو تُدرِكه أوهامهم، أو تَبْلُغْه أفهامهم.

نكتة تقديم السّماء على الأرض:

قدّم السّماء على الأرض؛ لأنّ الكلام في سياق ثنائه تعالى على نفسه والوصف بإحاطة علمه؛ فناسب تقديم السّماء على الأرض لأنّها أعظم من الأرض وأعلى.

في معرض الثّناء تقدّم السّماء

وإذا كان اللّه تعالى عالمًا بما في السَّماء - ولا يعلم المخاطَبون شيئًا عمّا يدور فيها - فهو سبحانه بما يدور في الأرض أعلم، فالتَّقدير: (عَلِم اللّه ما لا تعلمون، أفلا يعلم ما تعلمون؟!) فهو من باب الاستدلال بطريق الأَوْلى.

نكتة إفراد لفظ السّماء:

أفرد لفظ السَّماء في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ لأنَّ المراد به في الآية الكريمة هو جنس السَّماء، أو الوصف المطلق من العلوِّ والارتفاع والجهة، فيعمُّ كلَّ ما يقابل الأرض، أو لأنَّ المراد بها سماء الدُّنيا المعهودة للمخاطَبين، ويكون عِلم اللّه تعالى بما فيها

عِلم الله تعالى بـالـجُـزئـيّـات كعلمه سبحانه بالكُلّيّات

دليلًا على علمه بما فوقها مِن السَّماوات، وذلك من باب "أنَّ عِلم اللّه بالجزئيّات كعِلْمِه بالكليّات"[1].

ولمّا كان السّياق لحفظ أحوال الثَّقلين للحُكم بينهم، وكان أكثر ما يُتخيَّل أنَّ بعض الجنِّ يبلغ استراق السَّمع مِن السَّماء الدُّنيا، لم تدْعُ حاجة إلى ذِكر أكثر منها، فأفرد معبِّرًا بما يشمل - لكونه جنسًا - الكثير أيضًا فقال: ﴿ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ ممّا يتَّفق منهم ومن غيرهم من جميع الخلائق الحيوانات وغيرها[2].

بلاغة الإدماج في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾:

قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إدماج للوعد والوعيد مع بيان إحاطة علم اللّه تعالى بالمعلومات، فهو يحمل الوعد والوعيد في وقت واحد، وهذا من عجائب الأداء القرآنيِّ، فعِلْم اللّه بكلِّ شيء في السَّماء والأرض وإحاطته سبحانه بما يجري بين خلقه هو وعدٌ للمُحِقِّ، ووعيد للمُبطِل[3].

اللـه عليمٌ بالعباد وأعمالهم، ولا يخفى عليه مستورهم، وسيحاسبهم ويقضي بينهم

وفيه كذلك تعريض بسفاهة المشركين الذين عبدوا من دون اللّه ما لا يعلم شيئًا في السَّماوات والأرض، ففي هذه الآية إخبار اللّه تعالى عن كمال علمه وقدرته وكتابته كلَّ شيء وما هو كائن إلى الأبد، والمشركون على مدار الزَّمان يعبدون آلهة لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تبصر ولا تسمع، ولا تغني ولا تشفع، وينسون الواحد الأحد العليم العظيم[4].

نكتة الفصل في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ عمّا قبله لما بين الجملتين السّاميتَيْن من كمال الاتِّصال؛ إذ إنَّ الجملة الثّانية مؤكِّدة لمعنى

عليمٌ ربُّنا بالعباد وأحوالهم، وهو محاسبهم على جميع أعمالهم

(1) ابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 198.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 91.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9926.
(4) مأمون حموش، التفسير المأمون: 5/ 222.

الأولى، وبيان لها؛ أي: يعلم ما في السَّماء والأرض علمًا مفصَّلًا لا يختلف؛ لأنَّ شأن الكتاب أن لا تتطرَّق إليه الزّيادة والنُّقصان[1].

أو هي بمنزلة التَّعليل لما قبلها[2]، وقد حسن الفصل دون الوصل لتغاير الجملتين إنشاءً وخبرًا.

غرض التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

يعبَّر في سياق المدح بالإشارة للبعيد لإفادة معنى التَّشريف والتَّمجيد

أوثر التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾؛ لأنَّ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ يشار به إلى البعيد، ويحدِّد السّياق دلالته وغرضه، ولمّا كان المشار إليه في الآية الكريمة شريفًا عُبِّر باسم الإشارة للبعيد لإفادة معنى التَّشريف والتَّمجيد، وللدَّلالة على بُعد حصول ذلك العِلم للمخلوقين، وأنَّه ممّا تفرَّد به ربُّ العالمين.

معنى ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿كِتَٰبٍۚ﴾:

دلّت الظَّرفيَّة على معنى الرَّقْم والتَّسجيل، والحفظ وعدم التَّبديل

الأصل في معنى ﴿فِي﴾ أنَّها موضوعة للدَّلالة على الظَّرفيَّة والوعاء، مكانيَّة أو زمانيَّة، حقيقيَّة أو مجازيَّة[3].

وهذا هو المراد هاهنا، فإنَّه في قوله: ﴿فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يدلُّ على أنَّ الكتاب - وهو اللَّوح المحفوظ - صار كالظَّرف المحيط بما سُطِر فيه من دقائق علم الله تعالى؛ أي: إنَّ كلَّ ما يحدث في الكون مسطورٌ، وكلَّ ما تعملونه مرقومٌ مكنونٌ، وأنتم به محاسَبون مجزيّون.

وقد أفادت هذه الظَّرفيَّة معنى الحفظ، والتَّسجيل، وعدم التَّبديل، فليطمئنَّ المؤمن المُقِرّ، وليرعَوِ الكافر المستكبر.

نكتة تنكير ﴿كِتَٰبٍۚ﴾:

الكتاب عظيمٌ لا تحيط بوصفه عبارة البلغاء، ولا تبلغه عقول الأذكياء

أفاد تنكير الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ معنى التَّعظيم، وهذا ما تسوق إليه القرائن، فالكتاب الحافظ لكلِّ ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 331.
(2) الدرة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه: 6/ 206.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 471، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 57.

جرى في الكون ويجري لا يكون إلّا كتابًا عظيمًا لا تحيط بوصفه عبارةُ البلغاء، ولا يُدرِك كُنْهَهُ عقولُ الأذكياء.

فتنكيره إذن؛ لأنَّه ليس من جنس الكتب المتعارَفَة(1)، وهو أمُّ الكتاب الذي قدّر فيه ربُّنا جلَّ ثناؤه قبل أن يخلق خلقه ما هو كائن إلى يوم القيامة(2).

فائدة ذكر الكتاب بعد ذكر تمام العلم:

الإنسان محلُّ النِّسيان، والكتاب محفوظ للحساب

ذُكِر الكتاب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ بعد ذِكر تمام عِلم الله سبحانه بكلِّ ما في السَّماء والأرض في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾، لأنَّ المقصود من الخطاب هم الثَّقلان: الإنس والجنُّ، ولمّا كان الإنسان محلَّ النسيان، لا يحفظ الأمور إلّا بالكتاب، خاطبه الله تعالى بما يعرفه الإنسان، مع ما فيه مِن عجيب القُدرة(3).

أمّا الأخرى، فضرورةُ الكتاب ليدلَّ النّاسَ أجمعين وليدلَّ الملائكة المطَّلعين على أنَّ الأشياء التي تحدث مستقبلًا قد كتبها الله سبحانه أزلًا، فكتابة الشَّيء قبل أن يكون، ثمَّ مجيء هذا الشَّيءُ موافقًا لما قد كُتِبَ يُعَدُّ أكبر دليل على علم كاتبه وإحاطته، ولا يكون ذلك إلّا للعليم القدير سبحانه وبحمده.

فمجيء الكتاب إنَّما ليكون حجَّة على المكلَّف، فيقال له: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ١٤﴾ [الإسراء: 14] فها هو تاريخك، وها هي قصَّتك، ليس كلامًا من عندنا، وإنَّما فعلُك والحُجَّة عليك(4).

---

(1) ابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 153.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 681.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 92.

(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9925.

بلاغة الكناية في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾:

قَدَّر الله المقادير قبل خلق الخلائق، وكتب كلَّ شيء العظائم والدَّقائق

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ كنايتان بديعتان: أولاهما عن الحفظ وعدم النِّسيان، وعدم الخلط أو الاضطراب، فالكتاب موضوع للضَّبط والحفظ والتَّسجيل، وهذا مناسب تمام المناسبة لما قبله؛ فإنَّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ يدلُّ على تمام علم اللّه تعالى بعمل كلِّ عاملٍ ونيَّته، وقوله تعالى بعده: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ﴾ يدلُّ على أنَّ أعمال العباد محفوظة مسجَّلة، فليطمئنَّ المؤمن بأنَّ اللّه تعالى لا يضيع أجر مَن أحسن عملًا، وليجزع الكافر بأنَّ كتاب اللّه سينطق عليه بالحقِّ يوم القيامة ﴿إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29].

وأمّا الكناية الأخرى فعن تمام علم اللّه تعالى أنَّه عَلِم الأشياء قبل كونها، وقدَّرها وكتبها أيضًا، فما العباد عاملون قد عَلِمه تعالى قبل ذلك، على الوجه الذي يفعلونه، فيعلم قبل الخلق أنَّ هذا يطيع باختياره، وهذا يعصي باختياره، وكتب ذلك عنده، وأحاط بكلِّ شيء علمًا، وهو سهل عليه، يسير لديه[1].

نكتة الفصل في: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ عمّا قبله لِما بينهما من كمال الاتِّصال؛ ذلك أنَّ الجملة الثّانية مؤكِّدة لمعنى الأولى، وهي بيان لمضمون الاستفهام من الكتابة عن الجزاء[2].

نكتة التّعبير باسم الإشارة وإعادة ذكره:

تدلُّ الإشارة بالبُعد على معنى التَّفخيم إذا أُشير بها إلى عظيم

التَّعبير باسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يشار به إلى البعيد يفيد الدَّلالة على التَّفخيم؛ ذلك أنَّ المشار إليه جليل وعظيم؛ أي أنَّه قد بلغ في العظمة شأوًا بعيدًا.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن: 5/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 332.

وتشير دلالته على البُعد إلى بُعد حصول ذلك العلم للمخلوقين، وأنَّه مما تفرد به ربُّ العالمين، وفي تكراره توكيد لهذا المعنى لا سيَّما مع وصفه بأنَّه يسير على الله؛ أي: إنَّ ذلك العِلم البعيد حصوله عن نوالكم هو يسير على الله تعالى.

كلُّ ما في الكون صنعة القدير، والصّانع لا يخفى عليه ممّا صنع صغير ولا كبير

تعيين المشار إليه: ﴿ذَٰلِكَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يحتمل أن تكون الإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى الحُكم في الاختلاف، أو إلى كَتْبِ المعلومات في الكتاب[1].

فعلى الأوَّل يكون المراد بالإشارة ما جاء في قوله تعالى قبلُ: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ﴾؛ أي: إنَّ الحُكم منه سبحانه بين عباده فيما يختلفون فيه يسيرٌ عليه غير عسير.

وعلى الثّاني يكون المشار إليه ما ذُكر في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: إنَّ إحاطة علمه بما في السَّماء والأرض يسير عليه[2].

وهذا القول الثّاني هو الأقرب؛ لأنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أقرب منه إلى قوله: ﴿ٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ﴾ فكان إلحاق ذلك بما هو أقرب إليه أولى منه بما بَعُد[3].

غرض التّعبير بحرف الاستعلاء: ﴿عَلَى﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ فيه معنى الاستعلاء من حيث إنَّ مَن خلق الخلق قد قَدَرَ عليهم، وأحاط بهم عِلْمُه ظاهرًا وباطنًا مستعليًا قاهرًا، عظيمًا قادرًا.

(1) ابن جزي، التسهيل: 2/ 46.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 553.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 682.

نكتة الإظهار في موضع الإضمار:

في قول اللّه تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ إظهار في مقام الإضمار، إذ كان الأصل: إنَّ ذلك عليه يسير؛ لتقدُّم ذكر لفظ الجلال في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ يَعْلَمُ﴾.

ونكتة هذا الإظهار في موضع الإضمار هي إفادة معنى التَّعظيم والتَّعليل؛ لأنَّه إذا جاء الوَصْف مُعلَّقًا عليه حُكْم من الأحكام دلَّ ذلك على عِلّيَّة هذا الوَصفِ.

اللـه هـو الإلـه الحقّ، فلا جَرَمَ يَـقْـدِرعـلى كـلِّ شيء

غرض تقديم شبه الجملة: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

قُدِّم شبه الجملة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإفادة القصر؛ أي: إنَّ ذلك يسير على اللّه وحدَه دون غيرِه[1]، وللاهتمام بذكره للدَّلالة على إمكانه في جانب علم اللّه تعالى[2]، وفيه - مع الاهتمام وإفادة القصر - مناسبة رؤوس الآي[3]، فجمع مع براعة اللَّفظ بلاغة المعنى.

عِـلـم كـلِّ شيء مـقـتـصـرعـلى الـلـه، فلا يقدر عـلـى ذلـك مِـن أحد سواه

نكتة تنكير ﴿يَسِيرٌ﴾:

جاءت لفظة ﴿يَسِيرٌ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ لإفادة معنى التَّهوين والتَّقليل؛ أي إنَّ عِلْم اللّه بجميع ما ذُكِر سهل عليه يسيرٌ، لا يتعذَّر عليه العِلم به[4]؛ فإنَّ ذلك الاطِّلاع على الوجه المذكور على اللّه المتَّصف بجميع أوصاف الكمال يسير، وبجنب قدرته وإرادته سهلٌ حقير[5].

كـلُّ شيء على الـلـه يـسـيـر، وبجنب قدرته سهل حقير

الكناية في قوله: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾؛ أي: فهو لا يفوته شيء من

يعلم الله السِّرَّ والنَّجوى، وما تـكـون حـاجـة العبد له أمسُّ وأقوى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 332.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189.
(4) ابن الجوزي، زاد المسير: 3/ 249.
(5) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/ 561.

أعمالكم فيجازي كلًّا على حساب عمله، فالكلام كناية عن جزاء كلٍّ بما يليق به.

"وهذا يفيد أنَّ الحُكم يوم القيامة بالعدل الذي لا جَوْر فيه"[1].

وهذا تصوير لضِدِّه وهو صعوبة مثل ذلك على غيره وإلّا فلا مدخل لليُسر والصُّعوبة في كمال قدرته سبحانه[2]؛ أي: وإن كان تصوُّره عندكم لا يُحاط به، فاللّه تعالى يسيرٌ عليه أن يحيط علمًا بجميع الأشياء، وأن يكتب ذلك في كتاب مطابق للواقع[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

اليسير والهيّن:

في اليُسر جريان الأمور بلا عوائق، والهَوْن سهولته من الخِفَّة واللين

المعنى المحوريّ لجذر الياء والسّين والرّاء يدور حول سريان الشَّيء مستطابًا بلطفٍ واتّصال، ومن ذلك اليُسر بمعنى: ضدّ العسر؛ ففيه جريان الأمور بلا عوائق[4].

أمّا المعنى المحوريّ للهاء والواو والنّون فيدور حول لين الشيء، ومِن هذا اللين يأتي معنى السهولة[5]، ويأتي من معنى الخِفّة التي في الهَوْن: مصدرُ هانَ عليه الشيءُ، أي: خَفَّ، ويقال: هوَّنه اللّهُ عليه، أي: سهَّله وخفَّفه، وشيء هيِّن، أي: سهل[6].

(1) محمد حجازي، التفسير الواضح: 2/ 605.
(2) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 100.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 545.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (يسر).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هون).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، اللسان: (هون).

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [الحج: 71]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

المشركون مصرّون على الباطل والعصيان، فاستحقّوا العذاب والحرمان

لمّا أمر الله تعالى رسوله ﷺ ألّا يدع للمشركين فرصة لمنازعته في منهجه المستقيم، وأنَّه سيفصل بين المؤمنين والكافرين يوم القيامة بحكمه الفصل العدل، وأعلمه بالجواب الذي يردُّ به عليهم؛ حيث إنَّهم كثيرو الجدال والتشكيك، وأخبر أنَّه سبحانه هو مَن أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا؛ كشف سبحانه عمّا في منهج المشركين من إصرار على الباطل، وتمادٍ في الفسوق والعصيان؛ فاستحقّوا الحرمان من عونه سبحانه ونصرته؛ ﴿وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكۡرِمٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ۩ ١٨﴾ [الحج: 18][1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾: (سلط) أصلٌ يدلُّ على القوَّة والقهر[2]، والسَّلاطة: التَّمكُّن من القهر، يقال: سلَّطه الله فتسلَّط، والاسم من ذلك السُّلْطة[3]، ومنه سُمّي السُّلطان وهو الوالي؛ لأنَّه الذي تقام به الحجَّة والبرهان، والسُّلطان يقال في السَّلاطة التي هي قدرة المُلْكِ والقهر.

نحو قوله تعالى: ﴿فَقَدۡ جَعَلۡنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ [الإسراء: 33]، وقد يقال لذي السَّلاطة الذي هو الوالي، وهو الأكثر[4].

وسُمّي البرهان والحجَّة سلطانًا؛ لأنَّه ممّا يهجم على القلوب، وإن كان أكثَرُ تسلُّطِه على أهل العلم والحكمة من المؤمنين[5].

(1) المراغي، تفسير القرآن: 17/ 141، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 400.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلط).
(3) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(4) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سلط).
(5) الجوهري، الصحاح، والرّاغب، المفردات: (سلط).

والسُّلطان في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ أي: حُجَّة وبرهان[1].

2) ﴿نَّصِيرٍ﴾: (نصر) أصلٌ يدلُّ على الإمداد بما فيه زيادة وقوَّة وإتيان الخير وإيتائه للغير[2]، إعانة المظلوم، والمَنَعَة له من الظّالم[3]. "وفي الحديث: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا"، وتفسيره: أن يمنعه من الظُّلم إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا أعانه على ظالمه"[4].

ونصرةُ اللّه للعبد إعانتُه، ونصرةُ العبد للّه هو إعانته لعبادِه وأنبيائه، والقيام بحفظ دينه وحدوده[5]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ أي: ليس للمشركين من معاون يقرِّر مذهبهم، ولا مانع يدفع عنهم عذاب اللّه ويمنعهم منه[6].

المَعنى الإجْماليُّ:

عبـادة الأوثـان عاقبة وخسران، وعبادة الرَّحمن فوز ورضوان

وبَّخ اللّه تعالى هؤلاء المشركين الَّذين اتَّخذوا من دونه سبحانه آلهةً يعبدونها من غير حجَّة أو برهان فقال: ويعبد هؤلاء المشركون مِنْ دون اللّه مِنَ الأوثان والأصنام ما لم ينزِّل به حجَّة أو برهانًا لعبادتها من دونه، وما ليس لديهم عليه دليل عقليٌّ أو نقليٌّ، وما للمشركين من ناصر يقرِّر مذهبهم واعتقادهم، أو مانع يمنعهم من عذاب اللّه إذا نزل بهم[7].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (نصر).
(3) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، المجمل، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(4) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (نصر)، والحديث أخرجه البخاري، برقم: (2443).
(5) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نصر).
(6) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 7.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 16/ 631.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو:

يجوز أن يكون الواو في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حرف عطف، وتكون الجملة معطوفةً على الجملة السّابقة بما تفرَّع عليها عطفَ غرض على غرض، ويجوز أن يكون الواو للحال من الضَّمير المرفوع في قوله تعالى: ﴿وَإِن جَٰدَلُوكَ﴾؛ أي: جادلوك في الدّين حالَ كونهم مستمرّين على عبادة ما لا يستحقُّ العبادة، وتتضمَّن جملة الحال تعجيبًا من شأنهم في مكابرتهم وإصرارهم[1].

أصرَّ المجادلون على الكفر بالله العليّ، ومعاندة الحقِّ الجليّ، ومعارضة النَّبيّ ﷺ

ويَحۡتَمِلُ أن تكون الواو استئنافيَّة، وتكون الجملة بعدها مستأنَفَة[2]، ومســوقة لبيان صورة جديدة من صور معاندة القوم للحقِّ الجليِّ، ومعارضتهم لدعوة النَّبيِّ ﷺ، وإصرارهــم على الكفر وعبادة كلِّ شيء إلّا الله الواحد العليّ.

نكتة التّعبير بالفعل المضارع ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

جاء فعل العبادة مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ لإفادة التَّجدُّد والاستمرار، فإنَّ الدَّلائل التي تحيط بهم على بطلان عبادة ما يعبدون من دون الله، والدَّلائل على استحقاق الله ﷻ وحده العبادةَ، كافيةٌ في حملهم على الإقلاع عن عبادة الأصنام لو كانوا يريدون الحقَّ، فالإتيان بالفعل المضارع الدّالِّ على التَّجدُّد فيه إشارة إلى إصرارهم على الباطل، وعدم إرادتهم الحقَّ مع وضوح البراهين[3].

في المضارعة معنى التَّجدُّد والاستمرار، وإصرارهم على الكفر بالواحد القهّار

عَوۡدُ الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾:

الضَّمير في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ يراد به المشركون الذين

الكافرون عن رحمة الله مُبعَدون، وفي النّار هم خالدون

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 332.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 479، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 350، ومحمود صافي، الجدول: 9/ 146، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 206.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.

يعبدون آلهة دون اللّه، ولم يكن للمشركين ذِكرٌ هنا حتَّى يعود هذا الضَّمير إليهم، فالحديث عنهم بضمير الغَيْبَةِ إبعادٌ لهم، وإنكار لوجودهم في مجتمع العقلاء الذين هم أهل للخطاب(1).

معنى ﴿مِن﴾:

أصرَّ الكفّار على التَّباعد عن جناب الله الأجلّ، والكفر بكلِّ ما شرع ونزَّل

الأصل في معنى (مِن) أنَّه حرف موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية، زمانيَّة كانت أم مكانيَّة(2).

و﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دالٌّ على هذا المعنى، فالمراد أنَّهم جعلوا ابتداء فعل العبادة مِن جانِبٍ مُباعِد للّه ﷻ، وهذا الجانب هو جانب عبادة الأصنام(3).

وفيه تصوير لمدى نفورهم وإعراضهم عن كلِّ ما يتعلَّق بعبادة اللّه تعالى، فليس يهمُّهم ما يعبدون، بل أن يكون هذا المعبود أيَّ شيء إلّا اللّه سبحانه وبحمده! قاتلهم اللّه أنّى يؤفَكون!

فائدة التركيب ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

أُشرِب الكافرون في قلوبهم الأصنام، فأعرضوا عن عبادة ربِّ الأنام

كلمة ﴿دُونِ﴾ تدلُّ على معانٍ تدور حول التَّحقير، والقِلَّة، والتَّقصير عن الغاية، والدُّنوِّ، والغيريَّة(4).

فدخولها على لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دلَّ على أنَّهم يُعرِضون عن عبادة اللّه، بما فيها من دلالة على معنى المباعَدَة، لكنَّ المباعَدَة المستفادَة منها قد تصدق بالمشارَكة بين ما تضاف إليه وبين غيره، فإذا دخل عليها حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ أفادت معنى ابتداء الفعل من جانِبٍ مُباعِدٍ لِما أُضيف إليه ﴿دُونِ﴾.

فلزم من ذلك أنَّ المضاف إليه الذي هو لفظ الجلال ﴿ٱللَّهِ﴾

---

(1) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1096.

(2) الزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.

(4) الراغب، المفردات، والزبيدي، التاج، وحسن الجمل، معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (دون).

غير مشارِك في الفعل الذي هو العبادة، فدلَّ ذلك على أنَّهم يعبدون الأصنام وحدَها ولا يعبدون اللّهَ معها، ووجه ذلك أنَّهم لمّا أُشرِبوا في قلوبهم عبادةَ الأصنام والعكوف عليها، صاروا كالمعطِّلين لعبادة اللّه أصلًا[1].

فقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: مِن أدنى رتبة من رتب الذي قامت جميع الدَّلائل على احتوائه على جميع صفات الكمال، وتنزُّهِه عن شوائب النَّقص[2].

الموقع النّحويّ لـ: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

يرتضي الكافرون كلَّ معبود إلّا الله العظيم، فلا جرم أنَّ لهم عذاب الجحيم

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرور متعلّق بـ﴿وَيَعۡبُدُونَ﴾ في محلِّ نصب حالٍ من الاسم الموصول ﴿مَا﴾؛ أي: يعبدون الأصنام التي لم يُنَزِّل اللّه تعالى بها سلطانًا حال كونها من دون اللّه[3]، فكأنَّهم ما عبدوها إلّا لأنَّها من دون اللّه؛ أي أنَّهم يرتضون كلَّ معبود إلّا اللّه سبحانه!

معنى ﴿مَا﴾:

عبد الكافرون ما لا يعقل ولا يسمع لهم دعاء، وتركوا الخالق القدير ذا الآلاء

﴿مَا﴾ اسم موصول بمعنى (الذي)، غير أنّه أعمُّ من (الذي) وأشمل، فيقع على ذوات ما لا يعقل، وعلى صفات مَن يعقل[4].

وهو في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ مقصود به الأصنام التي كانوا يعبدونها[5]، وفي التَّعبير بـ﴿مَا﴾ التي هي لغير العاقل تعريض بالكافرين وتشنيع لفعلهم، فقد آثروا الميت على الحيِّ الذي لا يموت، واختاروا ما لا يخلق شيئًا على الخالق لكلِّ شيء، وعبدوا ما لا يضرُّ ولا ينفع، ولا يغني ولا يشفع، ولا يبصر

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 92.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 479، ومحمود صافي، الجدول: 9/ 146، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 350.

(4) السامرائي، معاني النحو: 1/ 130.

(5) البروسوي، روح البيان: 6/ 59.

ولا يسمع، وتركوا عبادة اللّه السَّميع البصير، فخسروا الخسران المبين، وضلّوا الضَّلال الكبير.

التَّعبير بالموصول وصلته في: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾:

كلُّ عبادة مِن دون الله مفتراة، ليس عند مَن اختلقها سلطان مِن الله

أوثر التَّعبير بالموصول ﴿مَا﴾ وصلته في قوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ دون (ويعبدون من دون اللّه أصنامًا)؛ لأنَّ المقصود ليس تعيين ما يعبدون، بل للتَّشنيع عليهم أنَّهم عبدوا شيئًا لا يعقل، وليس عندهم به برهان من وحي أو علم، فقد أدَّت الآية المعنيين؛ **أوّلهما**: أنَّ المعبود أصنامٌ لا تعقل، وهو مستفاد من دلالة ﴿مَا﴾، **وثانيهما**: أنَّ هذه العبادة مفتراة، وليس عندهم بها سلطان من اللّه، فليس يصحُّ قولهم إنَّها تقرِّبهم إلى اللّه زلفى، أو أنَّ اللّه تعالى أمرهم بها، بل إنَّما اتَّبعوا أهواءهم.

فمعنى قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ أي: أصنامًا وأوثانًا لم ينزِّل سبحانه على استحقاقهم للعبادة برهانًا وتبيانًا ليكون حجَّة دالَّة على مدَّعاهم[1].

توجيه القراءات القرآنيّة المتواترة في قوله تعالى: ﴿يُنَزِّلۡ﴾ وبلاغتها:

ما كان للرَّحمن أن ينزِل بعبادة الأوثان مِن برهان أو سلطان

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ويعقوب: ﴿يُنزِلۡ﴾ بإسكان النّون وتخفيف الزّاي، وقرأ الباقون: ﴿يُنَزِّلۡ﴾ بفتح النّون وتشديد الزّاي[2].

والفرق بين الإنزال والتَّنزيل أنَّ الإنزال يستعمل في الدَّفعة، والتَّنزيل يستعمل في التَّدريج[3].

فقد نَفَتِ القراءتان كلَّ نزول بسلطان يؤيِّد عبادة الكافرين لأصنامهم وأهوائهم، سواء كان جملة أم منجَّمًا.

(1) النخجواني، الفواتح الإلهية: 1/ 561.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 218.
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 68، والراغب، المفردات: (نزل).

فائدة التَّعبير بقوله تعالى: ﴿يُنَزِّلۡ﴾:

النُّزول في الأصل هو انحطاطٌ من عُلوٍّ، ومادَّته تدلُّ على الانحدار والهبوط[1].

وقوله تعالى: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ يدلُّ على أنَّ العبادة - وهي: طاعةُ أمرٍ واجتنابُ نَهْيٍ - يجب أن تكون صادرة من الأعلى: الأعلى من النّاس جميعًا، وهو اللّه ربُّ العالمين، فليس لأحد من النّاس أن يبتدع شرعًا بغير سلطان من اللّه، وليس لأحد منهم أن يشرِّع للآخر فيأمره أو ينهاه؛ لأنَّ الأمر من المُساوي لا مرجِّح له، فللمأمور أن يقول لآمره: لماذا تأمرني بطاعتك إذا كنتُ في مثل درجتك؟ أمّا إن صدر الأمر من الأعلى فعلى الأدنى أن يطيع بلا اعتراض[2].

اللّه العليُّ الأعلى هو مصدر التَّشريع المأمون، والنّاس بالاتِّباع مأمورون

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِهِۦ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[3]، وهذا هو معناه في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾، والإلصاق فيه مجازيٌّ، كما يقال: بخل به؛ أي: التصق به البخل، وتعلَّق به تعلُّقًا معنويًّا.

عبد المشركون أصنامهم بلا دليل، فاستحقّوا التَّعذيب والتَّنكيل

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

أوثِرَ تقديمُ شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ لإفادة الاهتمام به، والتَّأكيد على أنَّ هذه الأصنام المعبودة من دون اللّه تعالى لا دليل لهم بها ولا حُجَّة على استحقاقها العبادة، وفيه تقريع وتشنيع عليهم.

في التَّقديم اهتمام وتأكيد، وتشنيع على الكفّار وتنديد

(1) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (نزل).
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9926.
(3) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

نكتة تنكير ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾:

في التَّنكير معنى التَّقليل، وإبعاد للباطل عن قدسيَّة التَّنزيل

أوثِرَ الإتيان بكلمة ﴿سُلۡطَٰنٗا﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ لإفادة التَّقليل؛ أي: إنَّهم ليس لهم حجَّة على استحقاقِ هذه الأصنامِ العبادةَ.

ولو كانت هذه الحجَّة قليلة، وفي ذلك مزيد بيان لضعف ما ذهبوا إليه وبطلانه[1].

فائدة العطف في: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم﴾:

ليس مع الكفّار على دينهم دليل من السَّمع الصَّحيح، ولا العقل الصَّريح

عُطِف قولُه تعالى: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾ على قوله تعالى: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ للتَّنبيه على أنَّهم ليس لهم دليلٌ من السَّمع ولا دليلٌ من العقل؛ فإنَّ قوله: ﴿مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾ نفى الحجَّة والدَّليل السَّمعي المُنَزَّل من عند الله سبحانه، وليس في مجرَّد نفي دليل السَّمع ما يلزم عنه نفي دليل العقل؛ إذ قد يكون لهم دليل من العقل على عبادة الأصنام، وإن انتفى دليل السَّمع، فقطع الله عليهم كلَّ سبيل للاحتجاج على صحَّة عبادتهم بنفي دليل العقل أيضًا بقوله ﷻ: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾؛ أي: دليل عقليٌّ.

وتقديم انتفاء الدَّليل السَّمعيِّ على انتفاء الدَّليل العقليِّ؛ لأنَّ الدَّليل السَّمعيَّ أهمُّ، وهو الأصل، وعليه الاستناد في أكثر العبادات، وقد أُعيد النَّفي للدَّلالة على استقلال كلٍّ منهما في الذَّمِّ[2].

نكتة تنكير ﴿عِلۡمٞۗ﴾:

لا دليل سمعيَّ للسّاجدين للأوثان، وليس معهم من العقل برهان

أوثِرَ الإتيان بكلمة ﴿عِلۡمٞۗ﴾ نكرةً في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَيۡسَ لَهُم بِهِۦ عِلۡمٞۗ﴾؛ لإفادة معنى التَّقليل والتَّحقير؛ أي: إنَّهم ليس لهم حجَّة عقليَّة مستنبَطَة على استحقاق هذه الأصنام العبادة، ولو كانت حجَّة قليلة ضعيفة، وفي ذلك مزيدُ بيانٍ لضعفِ ما ذهبوا إليه وبُطلانه.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 189، وابن عرفة، تفسير القرآن: 3/ 199، والشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 312، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.

فحاصل المعنى أنَّهم لا دليل لهم أصلًا لا من جهة السَّمع، ولا من جهة العقل على عبادتهم أصنامَهم، ومع ذلك يتمسَّكون بهذه العبادة الباطلة[1]!

معنى الواو في: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ﴾:

لا تنفع الأصنام عُبّادها، بل لا تقدر على نفع نفسها، ولا دفع ما نزل بها

الواو عاطفة[2]، والجملة معطوفة على جملة ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي يعبدون ما ذُكر وما لهم نصير، فلا تنفعهم عبادة الأصنام، فالمراد بالظّالمين المشركون المتحدَّث عنهم[3].

ويَحْتَمِلُ أن يكون الواو حرف استئناف[4]، والجملة بعده مستأنَفَة لبيان سوء عاقبة الظّالمين الذين عبدوا مِن دون الله غيره.

معنى ﴿وَمَا﴾:

ليس لهؤلاء الكافرين مِن ناصر أو مُعين

جاءت ﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ نافيةً؛ أي: ليس لهؤلاء المشركين الظّالمين أنفسَهم بعبادتهم غيرَ الله من نصير معاون ودافع عنهم العذاب[5].

و(ما) آكد في النَّفي من (ليس)؛ فإنَّها تقع جوابًا للقَسَم في نحو: (والله ما هو بمنطلق) بخلاف (ليس)، كما أنَّها أوسع استعمالًا منها أيضًا[6].

معنى اللّام في: ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾:

مَن يدفع عن الظّالمين العذاب؟ وقد كفروا بربِّ الأرباب

الأصل في معنى (اللّام) أنَّه موضوع للدَّلالة على الاختصاص[7]، وهذا هو المقصود في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾؛ أي:

(1) طنطاوي، الوسيط: 9/ 341.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 479.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.
(4) محمود صافي، الجدول: 9/ 146، وبهجت صالح، الإعراب المفصل: 7/ 350، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 321.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.
(6) السامرائي، معاني النحو: 4/ 191.
(7) الزمخشري، المفصل، ص: 282، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 479، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 64.

ليس للذين ارتكبوا مثلَ هذا الظُّلم العظيم بعبادتهم غيرَ اللّه شيء يختصّون به أو يستحقّونه مِن أحدٍ ينصرهم، أو يصوِّب مذهبَهم، أو يدفع العذاب عنهم حين يعتريهم بسبب ظُلمِهم[1].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾ لمعنى العهد، فالظّالمون هنا هم المشركون المتحدَّث عنهم سابقًا، المُتقدِّم ذكرُهم في الآية[2].

نكتة الإظهار في موضع الإضمار في: ﴿لِلظَّٰلِمِينَ﴾:

كفر الظّالمون بالسَّميع البصير، فضلَّ عنهم الشَّفيع والنَّصير

أوثر الإظهار في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ بدلًا من: (وما لهم من نصير)؛ لتسجيل الظُّلم عليهم والحكم به عليهم، مع تعليل حكم انتفاء النُّصرة عنهم به؛ أي: لأنَّكم ظالمون - أي: كافرون - فما لكم من نصير؛ أي أنَّ سبب انتفاء النَّصير لهم هو ظُلمُهم؛ أي: كُفرُهم، وقد أفاد ذلك ذهابَ عبادتِهم الأصنامَ باطلًا لأنَّهم عبدوها رجاءَ النَّصر، ويفيد بعمومه أنَّ الأصنام لا تنصرهم، فأغنى عن موصولٍ ثالثٍ هو من صفات الأصنام كأنَّه قيل: وما لا ينصرهم، كقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسۡتَطِيعُونَ نَصۡرَكُمۡ﴾ [الأعراف: 197][3].

نكتة وصف الكافرين بالظّالمين:

الشِّرك ظلم عظيم، وسَفهٌ عقليٌّ ذميم

الظُّلم: وضع الشَّيء في غير موضعه، وهو في الشَّريعة: عبارة عن التَّعدّي عن الحقِّ إلى الباطل، وهو الجَور، وقيل: هو التَّصرُّف في ملك الغير ومجاوزة الحَدِّ[4].

فالمادَّة تدور حول معاني الحَجب - كما في الظُّلمة - ووضع الشَّيء

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 553.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 333، 334.
(4) الجرجاني، التعريفات، ص: 144.

في غير مكانه تعدّيًا[1]، فيُعبَّر بها عن الجهل، والشِّرك والفسق، كما يُعبَّر بالنّور عن أضدادها[2].

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ هو تهديد لهؤلاء المشركين الذين ظلموا الحقَّ، فلم يطلبوه من كتاب اللّه، وظلموا أنفسهم فلم يستعملوا حواسَّهم وملكاتِهم في النَّظر لما فيه هدايتهم، فركبوا مراكب الضَّلال والهلاك[3].

فإذا لم يكن عندهم دليل من عند اللّه أنزله فكان لهم سلطان، ولا عِلم عقليٌّ فإنَّ ذلك يكون ظُلمًا، وإذا كانوا يعبدون ما لا دليل عليه من نقل أو عقل، ويشركون مع خالقهم في العبادة، وهو الواحد الأحد، فإنَّ ذلك لأنفسهم ولقولهم ضلال وفساد[4].

نكتة تقديم شبه الجملة الخبريّة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾:

اختصَّ الظّالمون بانتفاء النَّصير؛ لأنَّ جُرمهم بالشِّرك كبير

قُدِّمَت شبهُ الجملة ﴿لِلظَّالِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ لإفادة الاختصاص؛ أي: ليس لهؤلاء المشركين الظّالمين - خصوصًا دون غيرهم - من نصير ينصرهم ويعينهم ويدفع عنهم العذاب في الآخرة؛ لأنَّ غير المشركين ممَّن استحقَّ العذاب قد يدفع عنهم العذاب في الآخرة بعفو اللّه ورحمته.

معنى ﴿مِن﴾:

(مِـن) زائدة للاستغراق، لتأكيد النَّفي وقطع الأعلاق

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ زائدة لاستغراق الجنس، ولتأكيد معنى عموم النَّفي؛ أي: ليس لهم أيُّ نصير مِن ملَكٍ أو إنسان[5].

كأنَّك جعلت ابتداء الغاية من أوَّل نصير إلى آخر نصير، ثم

(1) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (ظلم).
(2) الراغب، المفردات: (ظلم).
(3) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني: 9/ 1097.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5027.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5027.

نفيت ذلك كلَّه، فدلَّ ذلك على استغراق النَّفي للجنس، وتأكيد عموم النَّفي[1].

نكتة تنكير ﴿نَّصِيرٍ﴾:

في تنكير النَّصير تعميم أو تحقير

جاءت كلمة ﴿نَّصِيرٍ﴾ نكرة في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ لإفادة التَّقليل والتَّحقير؛ أي: ليس لهم من مُعين ومُدافع ولو كان حقيرًا وضعيفًا وقليلًا، فليس لهم أدنى درجات النَّصير وأقلُّها، فليس لهم نصير في الدُّنيا ولا في الآخرة، أمّا في الدُّنيا فليس لهم مَن يقرِّر مذاهبهم، ويلزمه دفع ما يخالفها، وأمّا في الآخرة فليس لهم مَن يدفع العذاب عنهم[2].

وفي هذا تأييس لهم من أن يكون لهم نصير، جزاء وفاقًا كما أنَّهم عبدوا من دون اللّه ما لا يستحقُّ العبادة.

وقد يكون النَّفي مفيدًا للعموم والشُّمول، فقد نفى اللّه تعالى أن يكون لهم نصير أيُّ نصير؛ إذ لا يمكن أن يكون نصيرًا أمام قوَّة اللّه العليِّ العظيم[3].

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الآية والحجّة والسّلطان:

في الآيةِ ظهور، وفي الحُجَّةِ استقامة في القَصد، وفي السُّلطان قَهر

الآية مشتقة من التأيّي الذي هو التثبّت والإقامة على الشَّيء، وهي العلامة الظاهرة، يقال: ائتني بآية كذا، أي: بعلامة[4].

أمّا الحُجَّة فأصلُها القَصد؛ لأنَّها تُقصَد، أو بها يُقصَد الحقُّ المطلوب[5]، ويُضاف إلى هذا القصدِ الاستقامةُ فيه؛ يقال: حجّ يحجّ إذا استقام في قَصده[6]، والحُجّة: هي الدّلالة المبيِّنة للمحجّة، أي:

---

(1) ابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(2) الشّهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 312.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5027.
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أيي).
(5) الأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (حجج).
(6) أبو الهلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 70.

القصد المستقيم الذي يقتضي صحّة أحد النقيضين[1]، والمعنى المحوريّ لجذر الحُجَّة: تجوُّف صلب أو متين يحمي ما في داخله[2]، كالحِجاج: وهو العَظم المستدير حولَ العَين[3]، وهو يحمي مُقلةَ العَين بكلِّ ما حولها، والحُجَّة من هذا المعنى المحوريّ؛ كأنَّها ظرف قويّ صلب للرأي يحفظه ويدعمه[4].

وأمّا السُّلطان فأصله القوَّة والقهر[5]، وهو منطق أو آية تقهر المنكِر أو المعارِض على التسليم؛ ولذا استُعمِل في المعجزة، قال الله ﷻ: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ ٣٨﴾ [الذاريات: 38][6].

(1) الراغب، المفردات: (حجج).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حجج).
(3) الخليل، العين، والأزهري، التهذيب، وابن فارس، المقاييس: (حجج).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (حجج).
(5) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (سلط).
(6) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سلط).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ تَعْرِفُ فِى وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمُنكَرَ ۖ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۗ قُلْ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكُمُ ۗ ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٢﴾﴾ [الحج: 72]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

يشتدّ عليهم الغيظ في الدنيا والحنَق بهم يستبدّ، وعذابهم في الآخرة أخزى وأشدّ

لمّا ذكر اللّه سبحانه اعترافَهم بما لا يُعرف بنقل ولا عقل؛ ذَكر إنكارَهُم لما لا يصحّ أن يُنْكَرَ ولا أن يُجْحَدَ؛ ولمّا كان غيظُهم من التذكير بالآيات، ودعوتُهم إلى الحق الذي جاء من عند اللّه عذابًا لهم في الدّنيا؛ أبانَ سبحانه لهم أنَّ ما ينالهم من النار التي يقتحمونها بأفعالهم وأقوالهم، أعظمُ مما ينالهم من الغمِّ والغَيْظِ حين تلاوة هذه الآيات(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَعْرِفُ﴾: (عرف) أصلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى تَتابُعِ الشَّيْءِ مُتَّصِلًا بَعْضُهُ بِبَعْضٍ، والآخَرُ عَلَى السُّكونِ والطُّمَأْنينَةِ، المعرفة والعِرفان: العلم وإدراك الشَّيء بتفكُّر وتدبُّر(2)، وهو ضدُّ الإنكار؛ لأنَّ النَّفس إذا أنكرتْ شيئًا استوحَشَتْ منه، وإذا عَرفَتْه، سكَنَتْ له واطمأنَّت، يقال: عرَف الشَّيء يعرِفه معرفة وعِرفانًا، واعترفه: عَلِمَه(3)، أصله من سكون النَّفس

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 250 - 251، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 93 - 94، والمراغي، تفسير القرآن: 17/ 141، والهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 400.
(2) الراغب، المفردات: (عرف).
(3) الجوهري، الصحاح وابن فارس، المجمل، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).

وطمأنينتها[1]، والمعروف: ضد المنكر، والعُرف: ضد النُّكر[2]، ومعنى: ﴿تَعۡرِفُ﴾ في الآية: يتبيَّن[3].

2) ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾: (نكر) أصل يدلُّ على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب[4]، والإنكار: الجحود، وهو ضدُّ العِرفان، يقال: أَنْكَرْتُ كذا إنكارًا ونُكْرًا، ونَكِرت كذا نكيرًا، واستنكرتُه، وأَصله أن يَرِد على القلب ما لا يتصوَّره، وذلك ضَرْبٌ من الجهل[5].

وقد يُستعمل فيما يُنكَر باللِّسان، وسبب الإنكار باللِّسان هو الإنكار بالقلب، لكن ربَّما يُنْكِرُ اللَّسانُ الشَّيءَ، وصورتُه حاصلةٌ في القلب، ويكون في ذلك كاذبًا[6].

والمُنكَر من الأمر: خلافُ المعروف، وهو كلُّ فعل تَحْكُم العقول الصحيحة بقُبْحِه، أو تتوقَّف في استقباحه واستحسانه العقولُ، فتَحْكُم بقبحه الشَّريعةُ[7].

3) ﴿يَسۡطُونَ﴾: (سطا) أصلٌ يدلُّ على القهر والعلوِّ[8]، والسَّطْوَةُ: البَطْش برفع اليد، والقهر به، يُقال سَطا عليه وبه سَطْوًا وسَطْوَةً: صال[9]، قال الله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾؛ أي: يَبْسُطون إليهم أيديَهم إذا سمعوا الرجلَ من المسلمين يتلو القرآن يكادون يَبْطِشون به[10]، وتُستَعار السَّطْوَةُ للماء كالطَّغْو، يقال: سَطا الماء، وطغى الماء: كَثُر[11].

4) ﴿بِشَرّٖ﴾: أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الانتِشارِ والتَّطايُرِ، والشَّرُّ: السّوء الذي يرغب عنه كلُّ النّاس وقد يكون دينيًّا ودنيويًّا، كما أنَّ الخير هو الذي يرغب فيه كلُّ الناس، والشَّرُّ ضِدُّ الخير، وجمعه شرور[12]، ويقال: شَرَرتَ يا رجل وشَرِرت شرًّا وشرارًا وشرارة، وفلان شَرٌّ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عرف).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عرف).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والخازن، لباب التأويل في معاني التنزيل: 3/ 264.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نكر).
(5) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نكر).
(6) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نكر).
(7) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (نكر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سطا).
(9) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سطا).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ، وابن منظور، لسان العرب: (سطا).
(11) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي: (سطا).
(12) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (شرر).

النّاس: أكثرهم شرًّا، ولا يقال: أشرُّهم إلا في لغة رديئة[1]، ورجل شَرٌّ وشِرّير: مُتعاطٍ للشَّر، وقوم أشرار، وقد أشْرَرْتُه: نسبتُه إلى الشَّرِّ[2]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾؛ أي: بِشَرٍّ لكم وأكره من هذا القرآن الذي تسمعون[3].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

مَـنْ طَبَـعَ اللهُ بـالـكـفـرِ على قلوبهم، كان النُّصح ثقيلًا على نفوسهم

بيَّن المولى ﷻ في هذه الآية الكريمة أنَّ المشركين بجانب كفرهم وضلالهم تأخذهم العزَّة بالإثم أيضًا إذا ما نصحهم النّاصحون بالإقلاع عَنْ هذا الكفر وهذا الضّلال فقال: وإذا تتلى على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة، وحُجَجُه ودلائله الظّاهرة ترى في وجوههم الإنكارَ والكراهيةَ والعبوسَ، يكادون يَبْطِشون بالمؤمنين الَّذين يتلون عليهم آياتنا الدّالة على قدرتنا ووحدانيِّتنا، وإذا كان الأمر كذلك أيُّها الرَّسول الكريم فقل لهم: أفأخبركم أيُّها المشركون بما هو أشدُّ ألمًا وغيظًا لكم مِنْ هذا القرآن الَّذي تستمعون؟ النّار الَّتي أعدَّها اللّه للكافرين مِنْ أمثالكم في الآخرة أشدُّ ألمًا وغيظًا، وبئستِ النّارُ موئلًا ومقامًا ومرجعًا لكم أيُّها المشركون[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو في: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ﴾:

تـعـدّدت سبل صـدّهـم؛ فتعدّدت طرق شقائهم

الواو عاطفة، حيث عطفت جملة ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ على جملة ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يُنَزِّلۡ بِهِۦ سُلۡطَٰنٗا﴾؛ لبيان جُرم آخرَ من أجرامهم مع جُرم عبادة الأصنام، وهو جرم تكذيب الرَّسول ﷺ، وتكذيب الآيات المنزَّلة عليه من اللّه سبحانه[5].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (شرر).
(2) الجوهري، الصحاح، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (شرر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 95، والخازن، لباب التأويل من معاني التنزيل: 3/ 264.
(4) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 399 - 400، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 9/ 341 - 342.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 334، والهرري، الحدائق: 18/ 416.

فائدة التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

التَّقييد بالشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لإفادة أنَّ الفعل واقع في المستقبَل؛ ولإفادة أنَّ البلاغ قائم ومتحقِّق، وإذا كان البلاغ متحقِّقًا؛ فإنَّه سيقع صدٌّ وإعراض وتكذيب من أهل الكفر الجاحدين بآيات الله لا محالة، وذلك لترتُّب النَّتيجة على الشَّرط ترتُّبَ المسبَّب على السَّبب[1].

النُّكران من أهل الجحود متجدِّد ومعهود

نكتة التّعبير بـ(إذا) دون (إنْ):

جاء التَّعبير في الآية الكريمة بـ(إذا) التي تضمَّنت معنى الشَّرط؛ لإفادة التَّأكيد والتَّكثير؛ أي أنَّ إبلاغ الآيات سيتحقَّق، وسيقيِّض الله له من يقومون به في كلِّ زمان ومكان، وأنَّ هذا البلاغ والتِّبيان لآيات الله سيواجَه دائمًا بالصَّدِّ والإعراض من أولئك الجاحدين بالآيات، المكذِّبين بالرِّسالات، وهذا المعنى مستفاد من دلالة (إذا) على التَّحقيق، ولذا عُدل عن استخدام (إنْ)؛ لأنَّها تحمل معنى الشَّكِّ والتَّقليل، وهذا ما لا يقتضيه المقام[2].

الجحود من الكافرين كثير ومتكرِّر؛ وليس لهم من عذر أو مبرِّر

نكتة بناء الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ إلى ما لم يُسمّ فاعله:

بُني الفعل ﴿تُتۡلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ﴾ لما لم يُسمّ فاعله؛ ليفيد أنَّ الآيات التي جاءت هي واضحة الدَّلالة، عظيمة الشَّأن.

سواء جاء البلاغ من النَّبيِّ ﷺ أو من أيِّ أحدٍ من أتباعه الذين عاشوا في زمنه أو الذين سيأتون بعد زمنه صلوات الله وتسليماته عليه[3].

الإعجاز في آيات الله سبحانه كائن؛ وإنكاره جُرم شائن

فليس المرادُ تعيين مَن يتلو، بل للاهتمام بالمتلوِّ، وذلك لبيان أنَّ اعتراض القوم إنَّما هو على هذه الآيات من حيث هي هي، لا من

---

(1) الهلال، الثري الجامع: 17/ 184، عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 1/ 179.

(2) القرافي، أنوار البروق في أنواء الفروق: 2/ 97، درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 480، والهلال، الثري الجامع: 17/ 184.

(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 535، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 94.

حيث مَن يتلوها، فقد بلغ بهم الكفر والإعراض مبلغًا أعمى قلوبهم، وأغشى أبصارهم، وأصمَّ أسماعهم.

نكتة التَّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ﴾:

دعـوة الحقّ باقية ومتجدِّدة، وألسُنُ حملَتِها بها صادحة ولها مردِّدة

عُبِّر في قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بصيغة المضارع؛ للدَّلالة على الاستمرار التَّجدُّدي؛ أي أنَّ البلاغ عن الله تعالى ورسوله ﷺ، والدَّعوة إلى الحقِّ سيظلُّ باقيًا، وسيقيِّض الله سبحانه في زمان ومكان لهذه الدَّعوة المبارَكة رجالًا أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم يقومون بحمل أعبائها، وأداء رسالتها خير أداء[1].

وفي هذا إشارة أيضًا إلى تجدُّد الكفر من المعرضين، فكلَّما تجدَّدت على أسماعهم تلاوة الآيات تجدَّد منهم الإعراض والالتفات، فما أشدَّ إصرارهم على الإدبار، وما أصبرهم على النّار!

نكتة تعدية التّلاوة بحرف الاستعلاء:

آيـات القرآن واضحة جليَّة، ومكانتها جليلة عليَّة

جاء تعدية التِّلاوة بحرف الاستعلاء (عَلَى) في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ لبيان منزلة هذه الآيات وعلوِّ قدرِها، وعظيم شأنها؛ حيث إنَّها منزَّلة من العليِّ الكبير سبحانه؛

ممّا يوجِب على العباد الأخذ بها، والعمل بمقتضى أحكامها[2].

وفي هذا إشارة إلى علوِّ منزلة مَن يتلو هذه الآيات؛ إذ ﴿يَرۡفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ دَرَجَٰتٖ﴾ [المجادلة: 11].

غرض تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾:

آيـات القرآن ناطقة بالعلوّ، شـاهدة على الرفعة والسموّ

تقدَّم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِمۡ﴾ على نائب الفاعل وهو قوله سبحانه: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لإفادة التَّخصيص بالمسند إليه؛ أي: إذا تُليت عليهم هم خصوصًا آياتنا اشمأزَّت وجوههم، وامتلأت بالغيظ قلوبهم، فكأنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 94، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 190.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 95.

جوابهم القبيح هذا مخصوصٌ بهم لما انطوت عليهم نفوسهم من الخبث، وما تضمَّخت به قلوبهم من الدَّنس[1].

نكتة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

يَعظُم القرآن بعظمة قائله، ويرفع قدر مبلِّغه وحامله

جاءت الآيات مضافة إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ لبيان أنَّها من اللّه العظيم، وهذا باعث على وجوب اتِّباعها، وتصديق ما جاء فيها دون مراء، ولبيان ما ينتج عن ذلك من علوِّ شأنٍ وجلالةِ قَدْرٍ، وهذا آكَدُ في وجوب تصديقها واتِّباعها، وأعظمُ في التَّشنيع على منكِرها والمُعْرِض عنها[2].

بلاغة الالتفات بالضّمائر من الغَيْبَة إلى التّكلّم في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُنَا﴾:

الالتفات، مشير لعظمة ربِّ البريّات، مبين لمنزلة الآيات البيِّنات

الالتفات بالضَّمائر من الغَيْبَةِ في قوله سبحانه: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ إلى التَّكلُّم في قوله تعالى:

﴿ءَايَٰتُنَا﴾ للاهتمام بالإخبار عن الذّات العليَّة، ولتنشيط أذن السّامع إلى ما اختصَّت به الآيات المنزَّلة من عند ربِّ العالمين سبحانه وبحمده من علوِّ الشَّأن وعظيم المكانة، وبيان عظم جُرم مَن أنكرها وأعرض عنها؛ فمعصية العظيم إثم عظيم[3].

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾:

أحكام القرآن صادقة نقيَّة، وبراهينه ساطعة واقعيَّة

قوله تعالى: ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ حال من الآيات؛ أي: هذه الآيات المتلوَّة على مسامع الكافرين المعرضين هي آيات واضحات الدَّلالة على العقائد الحقَّة والأحكام الصّادقة، أو على بطلان ما هُم عليه من عبادة غير اللّه تعالى[4].

وفي هذا غاية الإعذار، وبيان شدَّة الإعراض والنَّفار، فقد أعذر

(1) المطعني، خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية: 2/ 96.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 93.
(3) الزركشي، البرهان في علوم القرآن: 3/ 330، مطلوب، أساليب بلاغية، ص: 279.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 190.

اللّه تعالى إليهم بتبيين الدَّلائل، وإزالة ما يحول دونها من حوائل، ولكنَّهم أصرّوا على الإعراض، وأظهروا الإنكار والامتعاض، فتبيَّن أنَّ كفرهم ليس بسبب خفاء الدَّليل، بل لكراهيتهم التَّنزيل، نعوذ باللّه من الخذلان الوبيل!

دلالة التّعبير بـ﴿بَيِّنَٰتٖ﴾ مادّة وصيغة:

حجج القرآن بالغة، ودلالته واضحة دامغة

البيان: الانكشاف والوضوح[1]، وقد أفاد التَّقييد بهذه الحال تصوير ما بلغه الكفّار من غاية الإعراض ونهاية النُّفور عن تلمُّس الهدى والنّور الذي أنزله الرَّبُّ الرَّحيم الغفور؛ أي أنَّ هؤلاء البعداء الجفاة الغلاظ قد أنكروا الآيات حالة كونها بيِّنات، فليس فيها ما يعذر به منكروها، فهي في غاية الوضوح، وبيّنة الدلالة على العقائد الحقّة[2]، ولقد أحسن مَن قال:

وَلَيْسَ يَصِحُّ في الأَذْهانِ شَيءٌ *** إذا احْتاجَ النَّهارُ إلَى دَليلِ

نكتة التّعبير بـ﴿تَعۡرِفُ﴾ مادّة وصيغة:

قوة الحجج ووضوح الدِّلالات؛ فاضح لما جاء به أهل الكفر من ادِّعاءات

جاء التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تَعۡرِفُ﴾ - وهو جواب ﴿وَإِذَا﴾ - لإفادة ظهور الكراهية على وجوههم بالغضب أو الانفعال أو العُبوس؛ للدَّلالة على فضح هؤلاء الكافرين بجعل وجوههم تنطق بما امتلأت به نفوسهم الخبيثة، وللدَّلالة كذلك على الفِراسة التي يجعلها اللّه سبحانه في نفوس المؤمنين المتَّبعين للآيات[3].

بيان المخاطب بقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ﴾:

لأهل الكفر في كلِّ زمان خصائص موصوفة، ودلائل معروفة

المخاطب بقوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ﴾ كلُّ مَن يصلح للخطاب بدليل قوله ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾؛ أي أنَّ هذا الخطاب ليس خاصًّا بفريق بعينه، وإنَّ المقصود به في المقام الأوَّل هم كفّار مكَّة الذين

(1) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بين).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 94، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335.
(3) الهلال، الثري الجامع: 17/ 184.

كذَّبوا الرَّسول ﷺ ابتداءً وآذوه، لكنَّ هذا الكفر متكرِّر، وسيظلُّ يتكرَّر بتكرُّر تلاوة الآيات؛ ولهذا عُبِّر بالمضارع هنا ليفيد التَّجدُّد والاستمرار كما عبِّر بالمضارع مع تلاوة الآيات ليفيد أيضًا التَّجدُّد والاستمرار[1].

فائدة التّعبير بالظّرفيّة ﴿فِي﴾:

الوجوه مرآة القلوب؛ ومنبئة عمّا فيه من أمور وخطوب

جاء التَّعبير بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾؛ لإفادة تلبُّسهم بهذا بالكفر الذي نطقت به وجوههم قبل أن تنطق به ألسنتهم؛ فالوجوه مرآة القلوب، فكلُّ صورة من الإقرار والإنكار تظهر فيها، فهي أثر أحوال الباطن، وكلُّ إناء يترشَّح بما فيه[2].

فكأنَّ الوجوه صارت وعاء للمنكر تحويه وتحوطه، ألا بئست هذه الوجوه!

نكتة التّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

القرآن عجيب في إشاراته، بديع في انتقالاته

جاء التَّعبير بالاسم الموصول وصِلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّسجيل عليهم بالإيماء إلى أنَّ علَّة ذلك هو ما يبطنونه من الكفر؛ ولبيان مدى بشاعة الجُرم الذي وقعوا فيه وتلبسوا به وفظاعته، حيث كفروا بها وكذَّبوا بما جاء فيها[3].

فالمراد مدلول هذه الصِّلة بما تضمَّنته من الصِّفة.

الغرض من تقديم قوله تعالى: ﴿فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على المفعول:

تعبير القسمات يسبق تعبير الكلمات

قُدِّم شبه الجملة: ﴿فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على مفعول الفعل ﴿تَعۡرِفُ﴾ وهو: ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾؛ لإفادة التَّخصيص؛ أي تستدلُّ من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 334.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 93، والهرري، الحدائق: 18/ 416.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335، عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 35.
(4) الهرري، الحدائق: 18/ 447.

فكأنَّ الوجوه المنكرة لما أنزل الله تعالى هي وجوه الذين كفروا خصوصًا، فلا ينكر الآيات، ولا يكره الدَّلائل البيِّنات إلّا مَن كفر بربِّ الأرض والسَّماوات.

بلاغة الإظهار في موقع الإضمار في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الجحود بآيات الله تعالى سبب لإنفاذ الوعيد، واستحقاق العذاب الشَّديد

جاء الإظهار بالموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ بعد قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾ وكان مقتضى الظّاهر أن يقال: (تعرف في وجوههم) بالإضمار، وذلك للتَّنبيه على العلَّة الموجِبة لظهور المنكَر، الجالبة للشَّقاوة في الدّارين، ولتعميم الحكم في كلِّ كافر؛ إذ ليس المراد تخصيص أفراد بأعيانهم، بل المراد أنَّ مَن ينكر آيات الله تعالى هو كلُّ كافر في كلِّ زمان وأيِّ مكان.

مع ما يفيده من تنبيه السّامع إلى تغيُّر نسق الخطاب للتَّسجيل على المنكِرين بأنَّهم هم الكاملون في الفسق والتمرُّد؛ لزيادة التَّقرير أو للإهانة والتَّحقير(1).

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾:

الكفر بادٍ منهم دائمًا وحاضر، لا سيّما عند نزول النواهي والأوامر

جاءت (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ لبيان الجنس، لتفيد شمول خصائص الإنكار كلِّها مِن تغيُّظ وبُسور واستفظاع ووجوم وإعراض وعُبوس.

ويجوز أن تكون عهديَّة؛ لإفادة أنَّ المعهود منهم عند الاستماع للآيات الإنكار والتَّكذيب المخصوص الذي عُهِد عنهم عند كلِّ سماع، نحو قوله سبحانه: ﴿وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ﴾ [محمد: 30](2).

دلالة التّعبير بـ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ مادّة وصيغة:

التَّكرار دليل الكفران

المنكَر: ما ليس فيه رضا الله سبحانه مِن قولٍ أو فعلٍ، والمعروف

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، وابن عادل، اللّباب: 14/ 146، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335.

(2) المرادي، الجنى الدّاني، ص: 192.

ضدُّه[1]، ومادَّته تدور على خلاف المعرفة التي يسكن إليها القلب[2]، فهو كلُّ فعل تحكم العقول الصَّحيحة بقُبحه، أو تتوقَّف في استقباحه واستحسانه العقولُ، فتحكم بقبحِه الشَّريعة[3].

وهو هنا إمّا بمعنى الشَّيء الذي تنكره الأنظار والنُّفوس فيكون اسمًا؛ أي: دلائل كراهيتهم وغضبهم وعزمهم على السّوء، وإمّا مصدر ميميٌّ بمعنى الإنكار؛ كالمكرم بمعنى الإكرام، والمحملان آيلان إلى معنى أنَّهم يلوح على وجوههم الغيظ والغضب عندما يُتلَى عليهم القرآن ويُدعَون إلى الإيمان، ويصحُّ أن يكون المنكَر هو حال وجوههم من التَّغيُّظ والبُسور والاستفظاع، وسُمّيت هذه الحال ﴿ٱلۡمُنكَرَۖ﴾؛ لأنَّها في ذاتها أمر منكَر، إذ لا يتلقَّون الحقَّ بالتَّفهُّم والتَّدبُّر، بل يبادرون بردِّه ردًّا عنيفًا مستكبرين، قد غلظت أعناقهم، وتجهَّمت وجوههم[4].

بلاغة الكناية في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾:

ينضح الوجه وينطق اللِّسان بما امتلأت به النَّفس وحُشي به الوجدان

في قوله تعالى: ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ كناية بديعة، حيث كنَّى سبحانه عن امتلاء نفوسهم من الإنكار والغيظ حتى تجاوز أثر ذلك الغيظ بواطنهم وظهر على وجوههم، ولأجل هذه الكناية عُدل عن التَّصريح بنحو: اشتدَّ غيظهم، أو يكادون يتميَّزون غيظًا، كما في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٞ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٢٢﴾ [النحل: 22][5].

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ﴾:

يشتمل الإنكار على شتَّى أشكال السَّطو والازورار

فُصِل قوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ عمّا قبله كونه واقعًا موقع بدل الاشتمال لجملة ﴿تَعۡرِفُ فِي وُجُوهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمُنكَرَۖ﴾ لإفادة

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 234.
(2) ابن فارس، المقاييس: (نكر).
(3) الراغب، المفردات: (نكر).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 154، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 334.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 334.

أنَّ الهمَّ بالسَّطو ممّا يشتمل عليه المنكر[1]، فبين الجملتين الكريمتين كمال اتِّصال، وهو من المواضع الموجِبة للفصل.

دلالة التّعبير بـ﴿يَكَادُونَ﴾ مادّة وصيغة:

يقارب الكفّار إيذاء المؤمنين طول زمانهم، وتتّقد جذوات الفتك في وجدانهم

جاء الفعل (كاد) وهو من أفعال المقاربة؛ ليفيد مقاربة الفعل دون مزاولته، يقال:

كادَ يفعل: إذا لم يكن قد فعل، وإذا كان معه حرف نفي يكون لما قد وقَع، ويكون قريبًا من ألّا يكون واقعًا[2]؛ فهم يقاربون ذلك طولَ زمانهم، وتتَّقد جذوات الفتك في وجدانهم، ولكنَّ اللّٰه يدافع عن الذين آمنوا، ويصرف عنهم أذى الكافرين، وقال تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ مع أنَّهم قد سطوا بالفعل، ذلك لأنَّ الحكم عامٌّ، والسَّطو الفعليُّ كان مِن بعضهم، لا مِن جميعهم، وما كان مِن التِّلاوة فقط، بل كان من اعتناقهم الإسلامَ مع هذه التِّلاوة؛ فالمقاربة بالنِّسبة لجميعهم، لا بالنِّسبة لبعضهم، فلا يعارَض ذلك بما وقع من هؤلاء البعداء ببعض الصَّحابة من سطوٍ في شاذٍّ من الأوقات[3].

دلالة التّعبير بـ﴿يَسۡطُونَ﴾ مادّة وصيغة:

مشاهد السَّطو ونظرات الاعتراض، ناطقة بما خفي من غيظ وامتعاض

تدلُّ مادَّة السَّطو على القَهر والعُلوِّ، يقال سطا عليه يسطو، وذلك إذا قهرَهُ ببطشٍ، وسطا به إذا بطش به برفع يده عليه[4].

والمعنى: يقاربون أن يصولوا على الذين يتلون عليهم الآيات من شدَّة الغضب والغيظ من سماع القرآن، ﴿وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [النساء: 141][5].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (كاد).
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028، والهلال، الثري الجامع: 17/ 184.
(4) ابن فارس، المقاييس، والراغب، المفردات: (سطو).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، وابن كمال باشا، تفسير القرآن: 7/ 155، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 190، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028، والهلال، الثري الجامع: 17/ 184.

وعُبِّر بالسَّطو هنا دون القهر - وإن كان في معناه - لما في السَّطو من معنى العلوِّ والبطش والقهر، وهذا يصوِّر ما أراد الكافرون فعله مع المؤمنين وكادوا يدركوه لولا رحمة اللّه سبحانه.

والتَّعبير بالمضارع لإفادة التَّجدُّد والاستمرار واستحضار الصّورة، أي أنَّ هذا هو حال الكافرين دائمًا؛ فلْيعتبر أولو الألباب.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

عـــداوة أهل الباطل لأهل الحقّ دائمة، ومحاربتهم إيّاهم قائمة

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهو المراد هنا، فالباء في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾ للإلصاق المجازيِّ، ولتصوير أنَّ الكافرين كادوا أن يُلصِقوا بطشَهم الشَّديد بالمؤمنين حيث كانوا، فدائمًا ما يكون عداؤهم موجَّهًا لمن يرفعون راية الحقّ، ويبلِّغون آيات اللّه بصدق، وقد أفادت - إلى جانب الإلصاق - تعدية الفعل للمفعول.

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ﴾:

لتلاوة الآيات شرف لا يُبَزّ، وعِزٌّ لا يدانيه عِزّ

جاء التَّعبير بالاسم الموصول (الَّذينَ) وصلته ﴿يَتۡلُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ للتَّنبيه على العلَّة في إنكار الكافرين على المؤمنين، ولبيان شرف التِّلاوة، وما يترتَّب عليها من عظيم الأجر، وجزيل الثَّواب[2].

نكتة التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ﴾:

القرآن نور لا يخبو ضياؤه، ولا يُحجَب نوره وسناؤه

جاء التَّعبير في قوله تعالى: ﴿تُتۡلَىٰ﴾ بصيغة المضارع للدَّلالة على الاستمرار التَّجدُّدي؛ أي أنَّ تلاوة الآيات ستبقى، وسيسخِّر اللّه من عباده الأبرار مَن يتلون آياته على مسامع الكفّار آناء اللَّيل وأطراف النَّهار[3].

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، وابن عادل، اللّباب: 14/ 146، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 94، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 190.

نكتة تعدية التّلاوة بحرف الاستعلاء:

جاءت تعدية التِّلاوة بحرف الاستعلاء (على) في قوله تعالى: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ﴾؛ لبيان منزلة هذه الآيات وعلوِّ قدرها وشأنها؛ حيث إنَّها منزَّلة من العليِّ الكبير سبحانه؛ ممّا يوجب على العباد الأخذ بها، والعمل بمقتضَى أحكامها[1].

آيـات الـقـرآن واضحة جليَّة، ومكانتها جليلة عليَّة

وفيها كذلك دلالة على علوِّ مكانة مَن يتلو هذه الآيات؛ وذلك لتمسُّكهم بحبل السَّماء، فعَلَت كعوبُهم هوامَّ النّاس، وذلك نحو قوله تعالى لموسى عليه السلام: ﴿لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: 68].

غرض تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْهِمْ﴾:

تقدّم شبه الجملة على المفعول به في قوله سبحانه: ﴿يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾؛ لإفادة التَّخصيص؛ أي أنَّ المؤمنين ذهبوا إلى الكافرين دُعاةً ناصحين، يدعونهم إلى التَّمسُّك بهُدى ربِّ العالمين، والنَّجاء من لُجَّة الكفر المبين، فقصدوهم بتلاوة الآيات على مسامعهم، ولكنَّ الكافرين كانوا على عنادهم مصرّين، وبكُفرهم مستمسكين!

خصَّ المؤمنون الكفّارَ بدعوتهم، فقابلهم الكافرون بسطوتهم

نكتة إضافة الآيات إلى ضمير العظمة:

جاءت الآيات مضافة إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتِنَا﴾؛ لبيان أنَّها من اللّٰه العظيم؛ وهذا باعث على وجوب اتِّباعها، وتصديق ما جاء فيها دون مِراء؛ ولبيان ما لها من العظمة والعُلوِّ؛ حيث إنَّها منزَّلة من العليِّ الحكيم سبحانه جلَّ في علاه[2].

يَعظُم القرآن بعظمة الخالق الجليل، ولمبلِّغه المكان الأرفع والثواب الجزيل

فإذا بلغ الكافرون أن كفروا بالآيات التي هي آيات اللّٰه تعالى، والتي هي منزَّلة من اللّٰه - فقد بلغوا أقصى مبلغ من العتوِّ والجحود!

نكتة إظهار تلاوة الآيات في موضع إضمارها:

جاء التَّعبير بإظهار تلاوة الآيات في موضع إضمارها في قوله

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 95.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 93.

عـداوة أهـل الـكـفـر لآيـات الله مستمرّة، وقلوبهم بالكفر مستقرّة

تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾، وكان مقتضى الظّاهر: (يتلونها عليهم)؛ وذلك لبيان شرف تلاوة آيات الله ﷻ، وللإشارة كذلك إلى علّة معاداة أهل الجحود والكفران لأهل الإيمان، ولتعميم الحكم[1].

فصل وابتداء؛ لبيان العاقبة والجزاء

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾:

فصل قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف ابتدائيٌّ للانتقال إلى ذِكر وعيد المشركين؛ لزيادة إغاظتهم بأنَّ أمرَ اللّهِ النَّبيَّ ﷺ أن يتلو عليهم ما يفيد أنَّهم صائرون إلى عذاب النّار[2].

دلالة قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ على التّهكّم والاستهزاء:

استئذان تهكميّ؛ لبيان أنَّ دخولهم دار البوار أمرٌ مقضيّ

الاستفهام الوارد في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ مستعمَلٌ في الاستئذان، وهو استئذان تهكميٌّ؛ لأنَّه قد نبَّأهم بذلك دون أن ينتظر جوابهم، وكذا للسُّخرية من عقولهم التي لم تفهم آيات الله التي جاءتهم من عند الله مع بيانها ووضوحها؛ فكأنَّه قال: أتَعون فأخبركم خبرًا عظيمًا[3]؟

دلالة فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

تنبغي دعوة أهل الباطل بالتَّرغيب، ومواجهتهم بالتَّرهيب

الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾ على حقيقته لصدوره من الأعلى، وفيه حثٌّ للرَّسول ﷺ للرَّدِّ على أولئك المعاندين الجاحدين، وإقناطٌ عمّا يقصدونه من الإضرار بالمسلمين[4].

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾:

الاستفهام فيه معنى الإنكار؛ لبيان أن مصير الكافرين النّار

الهمزة في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾ للاستفهام؛ وهو استفهام تهكميٌّ؛ لأنَّه قد نبَّأهم بذلك دون أن ينتظر جوابَهم، وغرضُه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 94.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120.

الإنكار على هؤلاء المكذِّبين تكذيبَهم بالآيات البيِّنات، وكذا إنكار ما يلحقونه بالمؤمنين مِن فتكٍ وبطش، ولإعلامهم أنَّ ما فعلوه لن يمرَّ دون حساب أو عقاب[1].

معنى الفاء ودلالتها على المحذوف قبلها في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾:

تفريع الوعيد على الإنباء، ترهيبًا من سوء الجزاء

جاءت الفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم﴾؛ لإفادة التَّفريع؛ للدَّلالة على أنَّ ظهور أثر المنكَر على وجوههم كان بمنزلة الألفاظ؛ ففرَّع عليها ما هو جواب عن كلام، فيزيدهم غيظًا وتجهُّمًا، فالفاء عاطفة على محذوف، وجملة: (أُنَبِّئُكُمْ...) إلخ معطوفة على جملة مقدَّرة قبلها، والتَّقدير: (أخاطبكم فأنبِّئكم)[2].

ويجوز جعل التَّفريع على التِّلاوة المأخوذة من قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: اتلُ عليهم الآيات المنذِرة والمبيِّنة لكُفرهم، وفرِّع عليها وعيدَهم بالنّار، فهذا جزاء الفُجّار[3].

نكتة التّعبير بالإنباء مادّة وصيغة:

للنَّبأ خطورة وشأن عظيم، فلا يكون إلّا في الخطب الجسيم

النَّبأ: خبر ذو فائدة عظيمة، يحصل به علم أو غَلَبَة ظنٍّ، ولا يقال للخبر في الأصل نَبَأٌ حتى يتضمَّن هذه الأشياء الثَّلاثة، وحقُّ الخبر الذي يقال فيه نَبَأٌ أن يتعرَّى عن الكذب، كالتَّواتر، وخبر الله تعالى، وخبر النَّبيِّ ﷺ[4].

والنَّبأ والأنباء لم يردا في القرآن إلّا لما له وقعٌ وشأن عظيم[5].

وقد جاء هنا لإخبار الكافرين بأخبار خطيرة لا تسرُّهم بل تضرُّهم؛ ليزداد غمُّهم، ومساءتهم[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336، والهلال، الثري الجامع: 17/ 184.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 480، والدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 208.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028.
(4) الراغب، المفردات: (نبأ).
(5) أبو البقاء الكفوي، الكليات، ص: 886.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028.

معنى الباء في قوله تعالى: ﴿بِشَرّٖ﴾:

الأصل في معنى (الباء) أنَّه موضوع للدَّلالة على الإلصاق، حقيقيًّا كان أم مجازيًّا[1]، وهذا هو المراد هنا، فالباء في قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ﴾ كأنَّه جعل الشَّرَّ ملتصقًا بالإنباء من أوَّل حرف فيه إلى نهاية إبلاغه، وفيه دلالة على أنَّ الوعيد بالنّار أمر عظيم، وهول جسيم، لا خير فيه لِمَن استحقَّه، نسأل الله السَّلامة والعافية.

في الوعيد بالنّار تخويف قويّ، لِمَن كان له قلب حيّ

نكتة التّعبير بـ﴿بِشَرّٖ﴾ مادّة وصيغة:

تدور مادَّة الشَّرِّ حول الانتشار والتَّطاير مع الحِدَّة الحقيقيَّة أو ما هو من بابها[2]، والشَّرُّ: عبارة عن عدم ملاءمة الشَّيءِ الطَّبعَ[3]، ولذلك يرغب عنه الكُلُّ[4].

عذاب النّار أشدُّ إيلامًا وإذلالًا، وأصحابها أسوأ الخَلْق حالًا

و(شرّ) في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَأُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾ اسم تفضيل، أصله أشرُّ، ويكثر حذف الهمزة منه تخفيفًا، كما حُذفت في (خير) وهي بمعنى (أخْيَر)؛ لبيان أنَّ عذاب النّار الذي ينتظرهم في الآخرة هو أشدُّ إيلامًا، وأبشع منظرًا لو أنَّهم يعون ويفهمون[5].

معنى ﴿مِّن﴾:

الأصل في معنى (مِن) أنَّه موضوع للدَّلالة على ابتداء الغاية[6]، وهو بهذا المعنى في قوله تعالى ﴿مِّن ذَٰلِكُمُۚ﴾؛ إذ التَّقدير أنَّه جعل ﴿ذَٰلِكُمُۚ﴾ - المشار به إلى غيظهم من سماع الآيات - الموضع الذي ابتُدِئ منه السُّفول إلى ما هو أشدُّ ضرًّا، وأعظم شرًّا[7]؛ أي: (إنْ سألتم عن الذي هو أشدُّ شرًّا فاعلموا أنَّه النّار)[8].

النّار أشدُّ شرًّا، وأعظم ضرًّا

---

(1) الزمخشري، المفصل، ص: 381، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 474، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 19.
(2) ابن فارس، المقاييس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (شر).
(3) الجرجاني، التعريفات، ص: 127.
(4) الراغب، المفردات: (شر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336، والهلال، الثري الجامع: 17/ 184.
(6) الزمخشري، المفصل، ص: 379، وابن يعيش، شرح المفصل: 4/ 459، والسامرائي، معاني النحو: 3/ 75.
(7) سيبويه، الكتاب: 4/ 225.
(8) الهلال، الثري الجامع: 17/ 184.

في الإبعاد تحقير وإذلال، لمستحقّي العذاب والنّكال

نكتة التّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكُمُۚ﴾:

التَّعبير باسم الإشارة البعيد ﴿ذَٰلِكُمُۚ﴾ يدلُّ على الإبعاد والتَّحقير؛ ذلك أنَّه وارد في سياق الذَّمِّ والتَّهكُّم.

وهو يشير إلى ما أثار نُكرهم وحفيظتهم؛ أي ما هو أشدُّ شرًّا عليكم في نفوسكم ممّا سمعتموه فأغضبكم؛ أي: فإن كنتم غاضبين لما تُلِيَ عليكم من الآيات فازدادوا غضبًا بهذا الذي أنبِّئكم به: ﴿ٱلنَّارُ﴾[1].

معنى (أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ هي العهديَّة؛ أي: النّار التي قرع ذِكرُها أسماعَكم فجعلتم في آذانكم وقرًا فصَمَمْتُم، وخوِّفتم بعذابها فما ارعَوَيْتم.

نكتة فصل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾:

فُصِل قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ عن سابقه؛ لأنَّه استئناف بيانيٌّ ناشئ عن سؤال مقدَّر؛ أي: إن سألتم عن الذي هو أشدُّ شرًّا فاعلموا أنَّه النّار[2].

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾:

في النّار موعظة للوَجِلين، لا تخشع لها قلوب المعرضين

الرَّفعُ في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ﴾ من وجهين:

أحدهما: الرفعُ على الابتداء، والخبرُ الجملةُ من ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ والجملةُ لا محلَّ لها؛ فإنَّها مفسِّرةٌ للشَّرِّ المتقدِّم، كأنَّه قيل: ما شَرٌّ مِن ذلك؟ فقيل: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾.

والثّاني: أنَّها خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، كأنَّه قيل: ما شرٌّ مِن ذلك؟ فقيل: ﴿ٱلنَّارُ﴾؛ أي: هو النّارُ، وحينئذٍ يجوز في قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ الرَّفعُ على كونها خبرًا بعد خبر.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028 - 5029.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336.

وأُجيز أن تكون بدلًا مِن ﴿ٱلنَّارُ﴾، وفيه نظرٌ من حيث إنَّ المُبْدَل منه مفردٌ، وقد يُجاب عنه بأنَّ الجملةَ في تأويلِ مفردٍ، وتكونُ بدلَ اشتمالٍ، كأنَّه قيل: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ الكفّارَ، وأجيز أن تكونَ مستأنفةً لا محلَّ لها.

دلالة التَّعبير بالجملة الاسميَّة:

تناسب الاسميَّة معنى اللُّبث في النّار لأحقاب لا يعلمها مداها إلّا الجبّار

أوثِر التَّعبير بالجملة الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ لما فيها من الدَّلالة على معنى الثُّبوت والدَّوام لمجيئها في معرض الذَّمِّ[1].

وهذا ضرب من ضروب التَّوكيد، فالتَّعبير بالاسميَّة هنا أبلغ من الفعليَّة لأنَّ المراد إخبار هؤلاء المخاطبين ومَن جاء بعدهم ممَّن كان على شاكلتهم أنَّهم في النّار خالدون، وما هم منها بخارجين.

فناسبت الجملة الاسميَّة - بدلالتها على الثُّبوت - التَّعبير عن الخلود واللُّبث في النّار لأحقاب لا يعلم مداها إلّا الجبّار.

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾:

الله منجز وعيدَه، وليس يُخلِف وعدَه

جملة ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ إمّا خبر ثانٍ، وإمّا خبرُ ﴿ٱلنَّارُ﴾، و﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ فعلٌ ومفعولٌ به أوَّلُ وفاعل، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مفعولٌ به ثانٍ لـ﴿وَعَدَهَا﴾.

ويجوز أن يكون الضَّمير هو المفعول الثّاني، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ هو المفعول الأوَّل، وهو أرجح[2]؛ لأنَّه متى اجتمع بعدَ ما يتعدَّى إلى اثنين شيئان ليس ثانيهما عبارةً عن الأوَّل، فالفاعلُ المعنويُّ رتبتُه التَّقديمُ، وهو المفعولُ الأوَّلُ، ونعني بالفاعلِ المعنويِّ مَن يتأتَّى منه فِعلٌ، فإذا قُلتَ: (وَعَدّتُ زيدًا دينارًا) فالدّينار هو المفعول؛ لأنَّه لا يتأتَّى منه فِعلٌ، وهو نظير: (أعطيتُ زيدًا درهمًا)، فزيدٌ هو الفاعلُ؛ لأنَّه آخِذٌ للدِّرهم[3].

(1) عتيق، علم المعاني: 1/ 48.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 480.
(3) السمين، الدر المصون: 8/ 307.

نكتة التَّعبير بالمسند الفعليّ ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾:

أفاد المسنَدُ الفعليُّ التَّوكيدَ، لما تضمَّنته صيغة الوعيد

أفاد التَّعبير بالمسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا ٱللَّهُ﴾ معنى التَّخصيص وتقوية الحكم، فأمّا التَّخصيص فلِكَوْن الواعد بها هو الله ربُّ العالمين، وليس هذا لأحد إلّا للّه، وأمّا تقوية الحكم فمستفاد من إعادة الإسناد[1]؛ ذلك أنَّ قوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا﴾ يعود على المسند إليه الذي هو ﴿ٱلنَّارُ﴾، كما أنَّ فيه ضميرًا يعود أيضًا على هذا المسند إليه نفسه، فإعادة الإسناد تقوّي الحكم وتؤكّده.

نكتة الإظهار في موضع الإضمار:

لا يظلم اللهُ أحدًا، فقد حرَّم الظُّلم على نفسه أبدًا

قوله تعالى: ﴿ٱلنَّارُ وَعَدَهَا ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۖ﴾ إظهار في مقام الإضمار، وكان مقتضى السّياق أن يكون: (وعدها اللّهُ إيّاكم)، ولكنَّه أظهر في موضع الإضمار لبيان العلَّة الموجِبة لدخول النّار، وهي الكفر باللّه وبآياته سبحانه، فاللّه تعالى لم يظلمهم شيئًا ولكن كانوا هم الظّالمين.

وهو مع التَّعليل يفيد معنى التَّعميم؛ أي: أنَّ هذا الحكم عامٌّ في كلِّ كافر، لا يخصُّ فردًا أو أفرادًا بعَيْنِهم، وليدلَّ كذلك على أنَّهم هم الكاملون في الفسق والتَّمرُّد؛ لزيادة التَّقرير، وللإهانة والتَّحقير[2].

غرض التّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾:

الكفر بالآيات والنَّذير موجِبٌ للخلود في السَّعير

جاء التّعبير بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للتَّسجيل عليهم بالكفر، وللإشارة إلى أنَّ مضمون الصِّلة - وهو الكفر والإعراض عن الآيات البيِّنات - هو سبب الحكم الذي استحقّوه، وهو النّار وبئس المصير، فإنَّها لا نهاية لعذابها، بل هم خالدون فيها، وهي مصيرهم الذي لا ينتهي[3].

---

(1) طبل، علم المعاني، ص: 125.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 337.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 336، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5028 - 5029.

وفيه كذلك تعريض بتعظيم الآيات المنزَّلة من عند الله، من حيث إنَّ إنكارها موجوب للحساب والعقاب[1].

معنى الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ﴾ اعتراضيَّة تذييليَّة؛ لبيان أنَّ مصيرهم هو أسوأ مصير؛ لتحذير السّامعين مِن أنْ يَصيروا إلى مثل ذلك المصير[2].

الموقع النّحويّ لقوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ استئنافيَّة، والجملة بعدها مستأنَفَة لا محلَّ لها[3]، ويجوز أن تكون تذييلًا لما فيها مِن عموم الحُكم للمخاطَبين وغيرهم[4].

معنى (أل) في: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾:

النّار عذاب عظيم، ومستقرٌّ وخيم، ومصير أليم

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمَصِيرُ﴾ عوض عن المضاف إليه، فتكون الجملة إنشاء ذمٍّ معطوفة على جملة الحال على تقدير القول.

ويجوز أن تكون لتعريف الجنس، الذي يفيد العموم؛ أي: بئس المصير هي لكلِّ مَن يصير إليها، فتكون الجملة تذييلًا لما فيها من عموم الحكم للمخاطَبين وغيرهم[5].

بلاغة الحذف في قوله: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾:

لا تُدانَى النّارُ شدَّة، ولا يُحَدُّ لُبث الكافرين فيها بمُدَّة

في قوله تعالى: ﴿وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ حذف للمخصوص بالذَّمِّ، تقديرُه: (وبئس المصيرُ هي النّارُ)[6]، فحذف لتقدُّم ذِكره،

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 536، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 93، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 335، عوني، المنهاج الواضح للبلاغة: 2/ 35.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 337.
(3) الدرة، تفسير القرآن وإعرابه: 6/ 209، ومحمود صافي، الجدول: 9/ 147، والدعاس، إعراب القرآن: 2/ 321.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 337.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 337.
(6) السمين، الدر المصون: 8/ 307.

ولبيان أنَّ المصير الأسوأ هو النّار، فليس ثمَّ ما هو أسوأ، فكأنَّه لشهرته ووضوحه بحيث لا يُحتاج لذكره أو تعيينه، نسأل اللّه السَّلامة والعافية.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المعرفة والعلم:

المعرفة أخصُّ من العِلم

العلم إدراك الشيء على حقيقته[1]، أمّا المعرفة: فهي إدراكُ الشيء بتفكُّرٍ وتدبُّرٍ لأثره، ومأخوذة من عرفان الدّار، أي: آثارها التي تُعرَف بها[2]، أو مِن: عرَفت، أي: أصبت عَرْفَه، أي: رائحتَه[3].

والمعرفةُ أخصُّ من العلم، ويقال: فلان يعرف اللّه، ولا يقال: فلان يعلم اللّهَ، متعدّيًا إلى واحد؛ لأنَّ معرفة البشر للّه ﷻ هي بتدبُّر آثاره دون إدراك ذاته، ويقال: اللّهُ يعلم كذا، ولا يقال: يعرف كذا؛ لأنَّ المعرفةَ تُستعمل في العلم القاصر المتوصَّل إليه بتفكُّر وتدبُّر[4].

والمعرفة في الغالب تكون لِما غاب عن القلب بعد إدراكه، فإذا أدركه قيل: عرَفه، وذلك كما في قول اللّه ﷻ: ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ۝٥٨﴾ [يوسف: 58].

والمعرفة على هذا نسبةُ الذِّكر النفسيّ، وهو حضور ما كان غائبًا عن الذّاكر؛ ولهذا كان ضدّ المعرفة الإنكار وضدّ العلم الجهل، قال اللّه ﷻ: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: 83]، ويقال: عرَفَ الحقَّ فأقرَّ به، وعرَفه فأنكره[5].

السّطو والبطش:

السَّطوة البَطش برفع اليد، والبَطش سرعةُ الانتقام

السّين والطّاء والحرف المعتلّ أصلٌ يدلُّ على القهر والعلوّ[6]،

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (علم).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 80.
(3) الراغب، المفردات: (عرف).
(4) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، والفيروزآبادي، البصائر: (عرف).
(5) الفيروزآبادي، البصائر: (عرف).
(6) ابن فارس، المقاييس: (سطو).

والسَّطوة: البَطش برفع اليد، وأصل السَّطو من: سطا الفرسُ إذا قام على رجليه رافعًا يديه[1]، والمعنى المحوريّ للجذر يدور حول الامتداد للتناول[2].

والباء والطّاء والشّين أصلٌ واحدٌ، وهو أخذُ الشيء بقهرٍ وغلبةٍ وقوَّة[3]، والبَطْش: سرعةُ الانتقام[4]، وبطش به يبطش بَطْشًا: سَطا عليه في سرعة[5]؛ ويدلُّ هذا على أنَّ البطشَ سَطْوٌ في سرعة.

(1) الراغب، المفردات، والسمين الحلبي، المفردات: (سطو).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (سطو).
(3) ابن فارس، المقاييس: (بطش).
(4) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطش).
(5) ابن منظور، اللسان: (بطش).

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ ٧٣﴾ [الحج: 73]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

هوانُ الآلهة الباطلة دليلُ هوان عبّادِها

لـمّا ذَكَرَتِ الآيات السّابقة حالَ الكفّار، وأنَّهم يعبدون ما لا يسمع، ولا يعقل، ويتركون عبادة مَن يستحق العبادةَ، وهو الذي خلقهم سبحانه، ناسب أن يذكر حال تلك المعبودات الباطلة، في كونها لا تخلق أحقرَ المخلوقاتِ، بل لا يُستنقذ منها ما يسلبه منها، وفي ذلك دليلٌ حسيٌّ عقليٌّ على بطلان معبوداتهم، وأحقيَّة عبادة اللّه القهّار.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُرِبَ﴾: (ضرب) أصل واحد، ثم يُستعار ويُحمل عليه فروع كثيرة؛ يقال: هذه الأشياء على هذا الضرب، أي: على هذا المثال(1)، ويطلق الضرب على الوصف، وجعل ابن الجوزي منه قول اللّه تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ﴾ [البقرة: 26] أي: يصف مثلًا ما(2)، والمذكور في الآية من ضرب المثل: هو اعتبار الشّيء بغيره وتمثيله به(3).

2) ﴿مَثَلٞ﴾: (مثل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ عَلى مُناظرةِ الشَّيءِ لِلشَّيءِ، ومنه: المثيل بمعنى النّظير والشّبيه، وقول العرب: أَمْثَلَ الأميرُ فلانًا؛ إذا قَتَلَهُ قصاصًا، وذلك لأنه فعَلَ به مِثْلَ ما كان فعَلَهُ بمن قَتَلَهُ، ومنه أيضًا: المثَلُ المضروبُ؛ لأنَّهُ يُذكَرُ مورًّى به عن شبيهه في المعنى(4)،

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (ضرب).
(2) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين النّواظر، ص: 402.
(3) ابن الأثير، النِّهاية في غريب الحديث والأثر: (ضرب).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (مثل).

والمثلُ القرآني: عبارةٌ عن قول في شيء يشبه قولًا في شيء آخر بينهما مشابهة؛ ليُبيِّن أحدهما الآخرَ ويُصَوِّرَهُ وعلى هذا الوجه ما ضرب الله تعالى من الأمثال(1)، وقد اختُلف في أصل معنى (ضرب المثل) اختلافًا كثيرًا، مرجعه في تصور اختلاف الضّرب، فبسبب ذلك خولف بين تفاسيرها(2).

3) ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾: (سمع) أصل واحد، وهو إيناس الشيء بالأذن من النّاس وكل ذي أذن، تقول: سمعت الشيء سمعًا(3)، والسّمع: قوّةٌ في الأذن بها تُدرَكُ الأصواتُ، وفعله يقال له السَّمع، والاستماع: الإصغاء، وكل موضع أثبت الله السّمع للمؤمنين، أو نفاهُ عن الكافرين، أو حثّ على تحريه فالقصد به إلى تصوّر المعنى والتفكّر فيه(4)، ففي هذه الآية يحثّ الله سبحانه النّاس على الاستماع للمثل المضروب والتفكّر فيه والاتّعاظ به.

4) ﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾: (سلب) أصل واحد، وهو أخذ الشّيء بخفّة واختطاف، يقال سلبته ثوبه سلبًا، والسَّلَبُ: المسلوب(5)، والسَّلْبُ: نزع الشّيء من الغير على القهر(6)، وهو المعنى المقصود في الآية فقد كان الذّباب يأخذ ما يطلون به أصنامهم من الطّيب أو ما يضعونه بين أيديهم من الأكل(7).

5) ﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾: (نقذ) أصل صحيح يدلّ على استخلاص شيء، وأنقذته منه: خَلَّصتُه، وكُلّ ما أنقذته فهو نَقَذٌ(8)، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ٤٣﴾ [يس: 43] معناه: لا يَنْجون ولا يَتَخَلَّصونَ(9)، وسائر ما في القرآن من التّركيب هو بمعنى استخلاص الشّيء في قوّة من بين ما لا يُرضَى حَوْزُه إيّاه أو تمكُّنُه منه(10)، ومنه في هذه الآية عجز الأصنام عن استخلاص ما أخذه الذّباب منهم من الطّيب والأكل وغيره.

(1) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (مثل).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (ضرب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سمع).
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (ضرب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سلب).
(6) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (سلب).
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نقذ).
(9) السمين، عمدة الحفاظ: (نقذ).
(10) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (نقذ).

6) ﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾: (طلب) أصل واحد يدلّ على ابتغاء الشيء، يقال: طلبت الشّيء أطلبه طلبًا، وهذا مطلبي[1]، والطَّلَبُ: الفحص عن وجود الشيء، عينًا كان أو معنًى، قال تعالى: ﴿أَوۡ يُصۡبِحَ مَآؤُهَا غَوۡرٗا فَلَن تَسۡتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبٗا ٤١﴾ [الكهف: 41][2]، وفي هذه الآية كان المشركون يطلون أوثانهم بالزعفران ورؤوسَها بالعسل فيدخل الذباب فيأكله، فلا يمكن للأوثان السَّعي في تحصيل ما أخذه الذباب منهم، فتحقّق الضعف في الأوثان وعابديها والذباب[3].

المَعْنى الإجْماليّ:

العجز في عقول المشركين أوضح مــن الــذبــاب السّالب

الآيةُ خطابٌ عامٌّ لجميعِ النّاس من اللّه ﷻ، ليستمعوا للمثل الذي وصفه لهم، ويتدبّروه: إن الأصنام والأنداد التي تعبدونها من دون اللّه لن تقدر مجتمعة على خَلْق ذبابة واحدة، فكيف بخلق ما هو أكبر؟ ولا تقدر أن تستخلِصَ ما يَسْلُبه الذّباب منها، فهل بعد ذلك مِن عَجْز؟ فهما ضعيفان معًا: ضَعُفَ الطّالب الّذي هو المعبود من دون اللّه أن يستنقذ ما أخذه الذّباب منه، وضَعُفَ المطلوب الّذي هو الذّباب، فكيف تُتَّخذ هذه الأصنام والأنداد آلهة، وهي بهذا الهوان؟[4].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفتاح بالنداء:

تنبيه مشغول الـبـال إلى ما سيُلقى إليه من الأمثال

استفتحتِ الآية بأسلوبِ النِّداء في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾، والغرض منه تنبيه السّامع لإيقاظ ذهنه واستحضار قلبه، فإنّ الحكيم إذا خاطب من يكون محلّ الغفلة أو مشغول البال يُقَدِّمُ على الكلام المقصود شيئًا ليلتفت المخاطب بسببه إليه، ويُقبِلَ بقلبه

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (طلب).
(2) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (طلب).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (طلب).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.

عليه، فاختير النِّداء في هذه الآية، تنبيهًا له على أنّ ما سيُلقى إليه أمر مهمّ[1].

دلالة النّكرة المقصودة (أيّ):

بُعدُ المشركين وشديدُ غفلتِهم يحتاجُ إلى مهمازِ التَّنبيه

جاء النداء في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ بأداة البعيد (يا)، ثمَّ جيء بـ (أيّ) توصلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد ذهب جمهور النحاة إلى أن معنى المنادى المعرف بـ (أل) والنّكرة المقصودة واحد لأنّهما معرفة، فقولك: (يا رجلُ) كقولك: (يا أيّها الرجل)[2]، وأبدى بعض العلماء فرقًا بينهما، فإنّ المنادى في قولك: (يا رجل) نكرة في الأصل فقُصِدَ بالنّداء، وأمّا المعرّف بـ (أل) فهو معرفة، قبل قصده بالنّداء[3]، وكذلك فإنّ قولك: (يا رجل) يدلّ على مجرّد النّداء، أمّا قولك: (يا أيّها الرجل) فيدلّ على مجرَّد النِّداءِ أيضًا مع الإنباءِ عن خَطَرِ المنادى له، أو غفلة المنادى[4]، فاستعمل (أيّ) في هذه لفظ (أيها) تنبيهًا للدّلالة على غفلة المشركين.

معنى التَّعريفِ في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾:

خطاب القرآن يعمُّ جنسَ النّاس ويدخل المقصود بالسّياق دخولًا أوّليًّا

التَّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّاسُ﴾ يحتمل العهد أو الجنس، فإن كان للعهد فالخطاب في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خاصٌّ بالمشركين؛ لأنهّم المقصودون بالردّ والزجر بقرينة قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ على قراءة الجمهور بتاء الخطاب، كما أنّ السياق وهو عبادة الأوثان يُقوّي أن يكون الخطابُ للمشركين[5].

وإن كان للجنس فإنّ هذا اللفظ يعمّ العالَم كافرهم ومؤمنهم[6]، ويمكن الجمع بينهما بأن يُقال: إنّ الخطاب في ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.
(2) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.
(3) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 330.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 133.

يشمل النّاس عامّة، ويدخل في ذلك المشركون دخولًا أوّليًّا لعموم الاتّعاظ بالقرآن، فيتقوّى حينئذٍ القول بأنَّ التَّعريف للجنسِ.

بلاغةُ استعمال مفردة ﴿ضُرِبَ﴾:

براعة الاحتمال بين الكناية والاستعارة

آثر النَّظم الكريم التَّعبير بالفعلِ ﴿ضُرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، كناية عن الثَّبات واللزوم، ويحتمل أن يكون (ضَرْبُ المثَلِ) من الضَّريبِ الّذي هو المِثْلُ؛ ففيه تقريبُ حالٍ بحالٍ للتبيين[1]، كما يحتمل أن يكون مجازًا عن الوضع والجعل، استُعير الضرب للقول والذِّكر تشبيهًا بوضع الشّيء بشدّة من قولهم: ضَرَبَ خَيْمَةً، وضَرَبَ بيتًا على سبيل الاستعارة المكنية[2].

دلالة استعمال صيغة الماضي:

تقريب زمن الماضي لاستثارة الأذهانِ وجذب الانتباه

آثر النَّظم الكريم استعمال صيغة الماضي في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، والمثل سيُذكر بعد الفعل الماضي ﴿ضُرِبَ﴾، والله تعالى هو المتكلِّم بهذا الكلام ابتداءً، وذلك لنكتة تقريب زمن الماضي من الحال والحاضر؛ كقوله: ﴿لَوۡ تَرَكُواْ مِنۡ خَلۡفِهِمۡ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا﴾ [النساء: 9]، أي لو قاربوا أن يتركوا، وذلك تنبيه للسّامعين بأن يتهيَّؤوا لتلقّي هذا المثل، لما هو معروف لدى البلغاء من استشرافهم للأمثال ومواقعها[3].

نكتةُ بناء الفعل للمفعول:

الغرض من المثل تعقّل ما فيه لا معرفة قائله

بُني فعل ﴿ضُرِبَ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ للمفعول، فلم يُصرِّح بالفاعل، بعكس ما في المواضع الأخرى التي صُرِّحَ فيها بفاعل ضَرْبِ المثَلِ نحو قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: 26]، وقوله تعالى: ﴿۞ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 133.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 337.

عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النحل: 75]، وقوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا﴾ [الزمر: 29]، وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلَيۡنِ﴾ [النحل: 76]؛ إذْ أُسْنِدَ في تلك المواضع وغيرها ضرب المثل إلى الله ﷻ؛ وذلك لأنّ المقصود هنا نسج التّركيب على إيجازٍ صالح لإفادة احتمالين:

أحدهما: أن يُقَدَّرَ الفاعل وهو الله تعالى، وأن يكون المثل تشبيهًا تمثيليًّا، أي: أوضح الله تمثيلًا يوضِّح حال الأصنام في فرط العجز عن إيجاد أضعف المخلوقات كما هو مشاهد لكلِّ أحد.

والآخر: أن يُقَدَّرَ الفاعل، وهو المشركون، ويكون المثل بمعنى المماثل، أي جَعَلوا أصنامهم مماثلة لله تعالى في الإلهيّة[1]، وعلى كلا الاحتمالين فإنّ المقصود من المثل تعقُّله لا قائلُه[2].

معنى المثل وأثره البياني:

استعارة المثل للمعاني البليغة والكلمات الجزلة

استُعملت مفردة ﴿مَثَلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾؛ لبلاغتِها وقوّة تأثيرها في ذهنِ المتلقّي، والمَثَلُ بمعنى المِثْل، تقولُ: زيدٌ مثلُ عمرٍو ومِثله ومَثيله، كما تقول: شِبْهُهُ وشَبَهُهُ وشَبيهُهُ، ثم قالوا على سبيل الاستعارة لجملةٍ من الكلام مستغربةٍ مستفصحةٍ متلقّاةٍ بالرضا والقبول، أهلٍ للتّسيير والإرسال: إنَّها مَثَلٌ؛ لأنّهم جعلوا مضربها مثلًا لموردها، ثُم استعاروا هذا المستعار للقصّةِ أو الحالةِ المستغربة لتماثلهما في الغرابة[3].

غرضُ تنكيرِ ﴿مَثَلٌ﴾:

تعظيمُ الأمثالِ تفخيمٌ لمعانيها وتنويهٌ بحقائقها

جاء لفظ المثل في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ نكرةً غير معرَّف ولا مجموعٍ، وغرض تنكيره: التنويع[4]، فهو مثلٌ من جملة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 338.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 95.
(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 530، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 362.

الأمثال التي يضربها الله ﷻ برهانًا على بطلان عبادة الأصنام؛ لأنها عاجزة محتاجة، والمعبود قادر غير عاجز[1].

كما أنّ التّنكير يدلّ على الإبهام، والإبهام له علاقة مباشرة بالتّعظيم والتّفخيم، فإنّ مَن أراد أن يُعظّم شيئًا أبهمه بحيث لا يُكتَنَهُ وصفه.

نوعُ الفاءِ ومعناها:

الـفـاءُ إمّـا أن تـكـونَ تفريعيَّة أو فصيحة

عطف قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ على ما قبله وهو قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٞ﴾ للتّفريع، فقد فُرِّعَ الأمر بالاستماع على التّهيئة لتلقي هذا المثل، وذلك لاسترعاءِ الأسماع وإلقاء الشَّراشِرِ لوعيه وترقّب بيان إجماله، توخّيًا للتفطّن لمفاد هذا المثل مما يُبطل دعوى الشَرِكَةِ للّه في الإلهيّة[2]، ويصح أن تكون الفاءُ فصيحة، أفصحت عن مقدَّر محذوف، والتَّقدير: (إن أردتم الحقَّ فاستمعوا له).

نكتةُ إيثار صيغة الافتعال:

السّماع النّافع ما صاحبه تدبّر مـثـمـر وتـفـكّـر مُشعر

آثر النَّظم الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾ صيغة الافتعال في فعل ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾؛ لما تُفيده صيغة (افتعل) من تكلّف الفعل، فأمر اللّه سبحانه النّاس بالاستماع للمثلِ نفسِه استماعَ تدبّر وتفكُّرٍ؛ لأنّ نفس السّماع لا ينفع، وإنّما ينفع التدبّر[3] معه، فهو أمرٌ بالسَّماعِ على هيئةٍ مخصوصةٍ وهي التَّفاعل مع المسموعِ، ولو قال: (اسمعوا) لما تحقَّق إلّا مطلق الأمر بالسَّماعِ.

توجيه غرضِ الأمرِ:

تنوُّعُ النكاتِ ثراءٌ بتعدُّدِ الاحتمال

إذا جُعل ضارب المثل اللّه ﷻ، كان الأمر ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ مستعملًا في التّحريض على التدبّر، وجعل الضمير في شبه الجملة ﴿لَهُۥٓ﴾ عائدًا على المثل؛ لأنّ المثل على هذا الوجه من قبيل الألفاظ المسموعة.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 340.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251.

وإذا جُعل ضارب المثل المشركون الذين جعلوا أصنامهم مماثلةً للّه في الإلهيّة، كان الأمر ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ مستعملًا في التَّعجيب من شركهم، وجعل الضَّمير في شبه الجملة ﴿لَهُۥٓ﴾ عائدًا على الضرب المتقدّم في قوله تعالى: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ﴾ على طريقة ﴿ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰٓ﴾ [المائدة: 8]، أي: استمعوا لما يدلّ على الضّرب من الألفاظ، فيُقدَّر مضاف بقرينة ﴿فَٱسۡتَمِعُواْ﴾ لأنّ المسموع لا يكون إلا ألفاظًا، أي: استمعوا لما يدل على ضرب المثل المتعجَّبِ منه في حماقة ضاربيه[1].

غرضُ فصل الجملة:

الجمل المفصولة تقع موقع البيانِ والتَّعليل

فُصِل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ عمّا قبله وهو قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥٓ﴾؛ لوجود كمال الاتّصال بينهما، وهو اتحاد الجملتين اتّحادًا تامًّا وامتزاجهما امتزاجًا معنويًّا، بحيث تُنَزَّل الثّانية من الأولى منزلة نفسها[2]، فقد وقعت جُمَلَةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ﴾ بيانًا للمثل وتفسيرًا له على القول الأوّل بأنّ الضارب له هو اللّه سبحانه، وتعليلًا لبطلان جعلهم الأصنامَ مِثلَ اللّه سبحانه في استحقاق العبادةِ على القول الثاني بأنّ الضارب له هم المشركون[3].

بلاغة التوكيد الخبريّ:

تنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لإشراكهم بربّ العالمين

تضمّن قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ خبرًا إنكاريًّا، فقد أكّد إثبات الخبر بحرف توكيد الإثبات وهو ﴿إِنَّ﴾، وأكّد ما فيه من النّفي بحرف توكيد النّفي ﴿لَن﴾؛ لتنزيل المخاطبين منزلة المنكرين لمضمون الخبر؛ لأنّ جعلهم الأصنام آلهة يقتضي إثباتهم الخلق إليها، وقد نُفِيَ عنها الخلق في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 339.

(2) القزويني، الإيضاح: 3/ 108.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 120، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 339.

المستقبل؛ لأنّه أظهر في إقحام الذين ادّعوا لها الإلهيّة؛ لأنّ نفي أن تخلق في المستقبل يقتضي نفي ذلك في الماضي بالأحرى؛ لأنّ الّذي يفعل شيئًا يكون فعله من بعد أيسر عليه[1].

نكتة التّعبير بالاسم الموصول:

تقريع المشركين بدعاء غير ربّ العالمين

عُدِلَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ عن الاسم الظّاهر إلى الموصول؛ لتقريع المشركين بما في حيّز الصّلة، وهو دعاء غير اللّه والإشراك به مع الأصنام العاجزة عن أدنى الأمور، فذمّهم بذلك من أوّل الأمر قبل بيان عجز آلهتهم، قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥﴾ [الأحقاف: 5].

نكتةُ استعمال مفردة الدعاء:

أبرز مظاهر العبادة عند المشركين هي الدعاء

أوثِرَ استعمال ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ومعناه تعبدون، فالدّعاء هو العبادة؛ لأنّها تستلزم دعاء المعبود، فالدّعاء يُطلق على سؤال العبد من اللّه حاجتَهُ، وهو ظاهر معناه في اللغة، ويطلق على عبادة اللّه عن طريق الكناية؛ لأنّ العبادة لا تخلو من دعاء المعبود بنداء تعظيمه والتضرّع إليه، وهذا إطلاق أقلّ شيوعًا من الأوّل، فأطلق الدُّعاء باعتباره أظهر عبادات المشركين، إذ أغلب ما يقومون به في عباداتهم هو التّوجّه إلى الأصنام بالدُّعاء.

دلالة صيغة مضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾:

استمرارُ أهل الباطل في باطلهم دليل العناد والمكابرة

عُبِّرَ بصيغة المضارع ﴿تَدۡعُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ دون غيره من الأزمنة؛ لما يفيده المضارع من افتراض تَكَرُّرِ الحدث وتجدّده واستمراره[2]، وفي ذلك دلالة على

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.
(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 78.

تكرّر دعائهم لآلهتهم الباطلة، وتجدُّد ذلك منهم دون أن يحصلوا منها على أيّ نفع أو دفع أيِّ ضرٍّ، وفي تكرار ذلك منهم، زيادة في التَّوبيخ والتَّقريع لهم.

توجيه القراءات القرآنيَّة ﴿تَدۡعُونَ﴾ وبلاغتها:

إثــراء المعـاني الدّلالية بتنوّع الــقــراءات القرآنية

تنوّعت القراءة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، فقرأ يعقوب بالغيب ﴿يَدۡعُونَ﴾، وقرأ الباقون بالخطاب[1]، فحجَّة من قرأ: ﴿يَدۡعُونَ﴾ بالياء قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ [الحج: 72]، فيكون المقصود المشركين، حتّى لو قيل بأنّ المقصود بقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ جميع النّاس لأنّهم علموا بحال فريق منهم وهم أهل الشرك، والتّقدير: (إنّ الذين يدعون هم فريق منكم)[2].

وحجّة الجمهور في القراءة بالتّاء قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ﴾، وهذا إليه أقرب من قوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ﴾ [الحج: 72] والأقرب أولى، على أنّ المراد بالناس في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ خصوص المشركين، فيكون التّقدير: (وأنّ ما تدعون أيّها المشركون، لِأنّ المُسلمين لا يخاطبون بذلك)[3].

فائدة التقييد بالجارّ والمجرور:

كـلُّ إلــهٍ باطل فــهــو دون الـلـه تـعـالى في الاستحقاقِ

قُيِّد فعل الدعاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالجارّ والمجرور: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وذلك لأنه أنكر عليهم عبادة آلهة باطلة في أدنى المراتب عوض عبادة الإله الحقّ سبحانه، وللإعلام بأنَّ كلَّ ما يُدعى من دون اللّه تعالى فهو دون اللّه تعالى.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ابتدائية؛ بمعنى أنهم

(1) ابن الجزري، النشر: 02/ 327.

(2) الفارسيّ، الحجّة: 5/ 285، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.

(3) الفارسيّ، الحجّة: 5/ 285، وابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 552.

مبتدئون من جانب غير جانب اللّه، فهم يعبدون آلهة مبتدئين إيّاهم من ناحية غير اللّه تعالى؛ لأنّهم حين يعبدونهم قد شُغِلوا بعبادتهم ففرّطوا في عبادة اللّه المستحقّ للعبادة، وتجاوزوا حقّ إلهيّته في أحوال كثيرة وأوقات وفيرة[1]؛ فكلُّ آلهةٍ من دون اللّه تعالى هي من الأغيار الباطلة، والأوثان الهابطة.

دَلالَةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالَةِ:

لـفـظُ الـجـلالـة والمهابة إذا حضر مـعـانـي غـيـره تزول بلا أثر

آثرتِ الآية ذكر لفظ الجلالة دون الرُّبوبيَّة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه الأنسب بالسياق الذي هو توبيخهم على ترك عبادة الإله الخالق المستوجب توحيده بالألوهيّة، وعلى عبادة الأصنام العاجزة أمام أضعف مخلوق كالذباب، فاللّه الملك أجلُّ وأعلى من هذه الأصنام الّتي هم بها مغترّون، ولما يدَّعون فيها مفترون، لأنّ سلب القدرة عنها يبين أنّها في أدنى المراتب، فجاء النّظم باسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾؛ للدّلالة على أنّه الإله الحقّ في أعلى المراتب، وأنّه لا شَرِكَةَ لغيرهِ في الإلهيّة بوجه من الوجوه[2].

نكتة النفي بأداة ﴿لَن﴾:

التّأكيد على عجز الأوثان في الحال والاستقبال

أوثر في قوله تعالى: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ استعمال حرف النفي ﴿لَن﴾ دون غيره؛ لما يفيده هذا الحرف من نفي المستقبل المؤكد، وهو لا يدلّ على الامتناع لأنّه لا يستلزمه فيكون لازمًا، واللّازم لا يدلّ على الملزوم، ولكن يحتمله، ولمّا كان محتملًا له حُمِلَ عليه لقرينة سياق الكلام؛ لأنّه إن أمكن ذلك منهم لا يحصلُ الاستبعادُ المطلوبُ والمبالغةُ في تجهيلهم واستركاك عقولهم؛ لأنّهم مع اجتماعهم وتعاونهم لا يقدرون على أقلِّ ما خلقه اللّه تعالى وأذلّه وأحقره، وأدلّ من ذلك على عجزهم وانتفاء قُدرتهم، أنّ هذا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 186.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 437.

الحقير الذليل لو اختطف منهم شيئًا لم يقدروا على استخلاصه ولو اجتمعوا له[1].

بلاغة التمثيل بالذباب:

التمثيل بالذباب تهوينٌ للمشركين وتنفيرٌ من معبوداتهم

ذُكر الذباب في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، وهو من أضعف المخلوقات الّتي فيها الحياة المشاهدة؛ مبالغةً في بيان عجز آلهتهم، فقد بدأ تعالى بنفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصّة به، فكأنّه قال: ليس لهم صفتي، فهذه الأصنام وإن اجتمعت لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها، فكيف يليق بالعاقل جعلها معبودًا؟![2].

نكتة تنكير ﴿ذُبَابٗا﴾:

من عجز عن القليل فهو عن سواه أعجز

جاء لفظ الذباب نكرة ﴿ذُبَابٗا﴾ وذلك لغرض التقليل، فالأصنام عاجزة عن خلق أقلّ شيء ولو كان ذبابًا، فهو من أحقر المخلوقات التي فيها الحياة المشاهدة[3]، هذا وقد جعل بعض العلماء لفظ (ذبابا) واحدًا لا جمعًا، فيُقال: هذا ذُباب واحد، وثلاثة أذِبَّة، لأقلّ العدد ولأكثره ذُباب، وقول النّاس: ذُبابة خطأ[4]، فإن صحّ هذا فيُضاف الإفراد إلى التنكير مبالغة في الدّلالة على التّقليل.

نوعُ الواو ودلالتها:

إذا ثبت العجزُ اجتماعًا فثبوتُه انفرادًا أشدُّ وأوضح

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ للحال، أي: في حال اجتماعهم لن يخلقوا ذبابًا، كأنّه قال: مستحيل أن يخلقوا الذّباب مشروطًا عليهم اجتماعهم جميعًا لخلقه وتعاونهم عليه، وهذا من أبلغ ما أنزله الله في تجهيل قريش واستركاك عقولهم، فهم لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 531.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 251.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 341.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

منفردين[1]، أو تكون الواو عاطفة على حال محذوفة، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ ولو في هذه الحال التي كانت تقتضي أن يخلقوا لأجل اجتماعهم، ولكنّه ليس في مقدورهم ذلك[2].

دلالة (لو) ومعناها في السياق:

تأكيدُ المعاني الواضحات دليلُ ضعفِ الدعاوى الواهيات

حرف (لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ حرف شرط، وحذف جوابه لدلالة ما قبله عليه، ومثل هذا الاستعمال شائعٌ في كلام العرب، ولكثرته قال كثير من النحاة: إنَّ (لو) و(إن) الشرطيتين في مثله مجرّدتان عن معنى الشرط لا يُقصد بهما إلّا المبالغة، ولقّبوهما بالوصليتين: أي أنهما لمجرد الوصل والربط في مقام التأكيد، والشّرط الذي بعدها شرط مفروض هو غاية ما يُتوقَّع معه انتفاء الحكم الّذي قبلها، فيذكره المتكلم لقصد تحقق الحكم في سائر الأحوال، فالأصنام لو لم يجتمعوا على خلق الذباب لن يخلقوه، ولو اجتمعوا له لن يخلقوه، كأنَّه قيل: لن يخلقوا ذبابًا على كلِّ حالٍ، فالجواب المقدر في موضع حال جيء بها للمبالغة في تعجيزهم، فهم لا يقدرون على خلقه مجتمعين له متعاونين عليه فكيف إذا كانوا منفردين[3].

نكتة التعبير عن الأوثان بضمير العقلاء:

الشِّرك يقود إلى حماقةِ الأوهام وتفاهة الظُّنون

جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ ذكر الأوثان الّتي يعبدها المشركون من دون اللّه تعالى بضمير العقلاء؛ جريًا على زعمهم وتفكيرهم مع أنّهم جماد غير أحياء؛ فضلًا عن أن يكونوا عاجزين[4]، ويحتمل أن يكون من باب تشبيههم بالعقلاء لمّا نسبوا إليها بعض ما يُنسب للعقلاء من القدرة، ففيه إثبات العجز ولو شابهوا العقلاء، وهذا زيادة في التَّهكُّم بمن يعبدها.

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 171، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/ 61.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 538.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 03/ 306، وإسماعيل حقّي، روح البيان: 1/ 61.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5029.

معنى العطف وبلاغته:

التَّدرج في إثبات الحجج لدفع الشطط واللجج

عُطف قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، من باب عطف بيان ذل الأصنام على حجّة عجزهم عن الخلق، كأنّه قيل: إنَّ أمر الخلق والإيجاد أعظم وأكبر وأبلغ من أن يُتكلّم فيه، فإنّ الذباب إن سَلب منها شيئًا، فهي لا تقدر على استنقاذ ذلك الشّيء من الذّباب[1]، فهو من عطف البرهان الأوضح على الواضح، والأسهل على المستحيل، استنزالًا مع الخصم في بيان الواقع المشاهد، وإثبات ركاكة العقل المشاهِد.

نكتة استعمال (إنْ):

افتراضُ الأحداث يُؤكِّد عجز الأوثان وبلاهة عابديها

استعمل النَّظم (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ﴾ وهو حرف شرط جازم، وهو يرد عمومًا في المعاني المحتملة الوقوع، والمشكوك في حصولها، والموهومة والنادرة والمستحيلة وسائر الافتراضات الأخرى[2]، واستعماله في الآيةِ لبيانِ أنَّ هذا السَّلب غير مُتحقق الوقوع، وعلى فرض وقوعه فإنَّ الحال عدم الاستنقاذ مما سلب الذُّباب؛ فهو مبالغةٌ في إثبات العجز، لإقامة البرهان في عقول المشركين.

بلاغة أسلوب الشرط:

التَّعريض بالعقول الخربة يسلب طمأنينة القلوب النجسة

ورد أسلوب الشرط: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، لغرضِ تعليق مضمون الجواب على دوام حصول مضمون الشرط؛ فيحصل الثاني بحصول الأوّل، فكلّما سلب الذّباب الأصنام شيئًا من الطّيب الذي كان المشركون يطلونها به عجزت هذه الأصنام عن استنقاذه واسترجاعه منه مع ضعفه، ولقد جُهِّل المشركون بهذا المثل غايةَ التَّجهيلِ في إشراكِهم باللّه القادرِ تماثيلَ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.

(2) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 69.

هي أعجزُ الأشياءِ، وبيّن ذلك بأنَّها لا تقدرُ على أقلّ الأحياءِ وأذلِّها ولو اتَّفقت عليه، بل لا تقوى على مقاومةِ هذا الأقلِّ الأذلِّ وتعجز عن ذبِّه عن نفسِها واستنقاذِ ما يختطفُه منها[1]، فكلُّ برهانٍ يُذكر يُثبت استركاك عقول المخاطبين، ويسلب طمأنينة سادة المشركين، وفيه تعريض بليغٌ بهم.

سرّ التمثيل بالذباب:

اجتماع الضعف والحقارة واستحالة الخلاص يُبرهن على هوان الأصنام

أوثر التمثيل بالذُّباب في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ دون غيره من المخلوقات؛ لوجوده واجتماعه على رؤوس الأصنام، ولرغبة المشركين الخلاص منه، فقد كان المشركون كما روي عن ابن عباس رضي اللّه تعالى عنهما يطلون الأوثان بالزّعفران ورؤوسها بالعسل ويغلقون عليها، فيدخل الذّباب من الكوى فيأكله، وروي أيضًا أنّهم كانوا يُضَمِّخونَها بأنواع الطّيبِ فكان الذباب يَذْهَبُ بذلك، وكانوا متألّمين من هذه الجهة فجُعِلت مثلًا[2] مصاحبًا لهم في كلِّ نادٍ، فاختارت الآية أكثر ما يُؤذيهم، وأحقر ما يزعجهم، وأشدَّ الأمور استحالةً في الخلاص منها، ليصحبهم الشُّعور بالضعف والعجز، وقال بعضهم: إنّ جهة التمثيل به هو الوقاحة في الاستلاب، فلو كانت وقاحته في الأسد لم ينج منه أحد، ولكن اقتضت الحكمة أن تصحب قوّة الأسد النُّفرة، ووقاحة الذباب الضّعف[3].

بلاغةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

المبالغة في بيان عجز الأوثان ورميها بالذلّ والهوان

تكرّر لفظ الذباب في قوله تعالى: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، وحقه الإضمار، فلم يقل: (وإن يسلبهم شيئًا)، ونكتة الإظهار هي إظهار حقارته

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 121.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 192.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

كلّ الإظهار[1]، وبالتّالي المبالغة في بيان عجز الأوثان أمام أضعف المخلوقات؛ فإنَّ الانزعاج من الذباب ظاهر، فكان ذكره مظهرًا زيادةً في البيانِ، ودفعًا للأوهام.

معنى التعريف في لفظِ ﴿ٱلذُّبَابُ﴾:

المعنى واحدٌ بين تعريف الجنس وتعريف العهد

جاء لفظ ﴿ٱلذُّبَابُ﴾ معرَّفًا بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ الدالّة على تعريف الجنس المقتضي للعموم، أي: جنس الذباب المعلوم عندهم، الذي كان يسلبهم ما يطلون به أصنامهم من الطّيب، أو ما يضعونه بين أيديها من الأكل أو غيره.

ويحتمل أن تكون (ال) في لفظِ الذباب للعهد الذكري، فقد تقدّم ذكر الذباب في هذه الآية نكرة في قوله: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، فأعيد بعدها معرفة في قوله: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ على حدّ قوله تعالى: ﴿كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا ١٥ فَعَصَىٰ فِرۡعَوۡنُ ٱلرَّسُولَ﴾ [المزمل: 15 - 16]، والمعنى واحد.

غرض تنكير وإفراد ﴿شَيۡـٔٗا﴾:

العجز عن استرجاع قليل الأشياء فضلًا عن كثيرها

ورد لفظ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾ نكرةً مفردًا، والغرض البلاغي من تنكيره وإفراده هو التّقليل، إضافة إلى أنّ كلمة (شيء) لتوغّلها في إبهام جنس ما تُضاف إليه، أو جنس الموجود مطلقًا مفيدة للتّقليل غالبًا؛ كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأۡخُذُواْ مِنۡهُ شَيۡـًٔاۚ﴾ [النساء: 20][2]، والمعنى أنّه إن يسلبهم الذّباب شيئًا أيًّا كان وصفه، أو حجمه، ممّا يُطلون به أصنامهم من الطّيب أو ما يضعونه بين أيديهم من الأكل أو غيره ما استطاعوا استنقاذه منه[3]؛ فهو لتوكيدِ العجز.

(1) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 119.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 15/ 175.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

استمرار العجز توكيدٌ للهوان وتشكيكٌ بالأصنام

نكتةُ استعمال حرف النفي ﴿لَّا﴾:

أوثر استعمالُ حرف النفي ﴿لَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾، وهو يدخل على الفعل المضارع، فلا يقيِّده بزمن على الأرجح، بل لنفي الفعل نفيًا مطلقًا، إذا خلا النَّظم من القرائن المقيِّدة، وهي تفيد هنا الاستمرار، بمعنى استمرار عجز الأوثان عن استنقاذ شيء من الذباب في جميع الأزمنة[1]، وهو كذلك مفيدٌ لتوكيد العجز والهوان.

عجز الأوثان عن إنقاذ المسلوب برهانٌ على عجزها عن تلبية عابديها

بلاغة التعريض في لفظ (الاستنقاذ):

آثر النظم الكريم اختيار مفردة ﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾، وأصله (نقذ) وهو يدلّ على استخلاص شيء[2]، أي: لا يستطيعون بأكثر جهد وطلب أن ينقذوه منه؛ لأنَّ الأوثان لا قوّة لها في أيّ ناحية، فهي جماد لا يتحرّك، ولكن الوهم هو الّذي جعل لها قوّة في نظرهم الّذي لا يبصر، وسَوَّل لهم الشيطان عبادتها[3]، وفيه تعريضٌ بأنَّ هذه الآلهة لا تستطيع أن تستنقذ المسلوب في الدُّنيا لنفسِها، فكيف تستنقذ ما يطلبه أولئك الحمقى في دفع المضار، وتحصيل المنافع؟!

دلالة السين والتّاء في ﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾:

السّين والتاء في فعل ﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾ للطلب والتوكيد، أي: لا يستطيعون ذلك مهما طلبوه، فإنَّ الطلب منفيٌّ؛ لأنَّ القدرة معدومة، وطلب المعدوم معدوم.

تصوير عجز الأصنام بذكر الضدّين وتقابل المختلفين

بلاغة الطباق وغرضه:

تضمّن قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا لَّا يَسۡتَنقِذُوهُ مِنۡهُۚ﴾ طباقًا بديعًا بين لفظتي ﴿يَسۡلُبۡهُمُ﴾، و﴿يَسۡتَنقِذُوهُ﴾، وهو محسّن معنوي يوضّح عجز الأوثان عن إنقاذ ما سلبه أضعف المخلوقات،

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 330.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نقذ).
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

فبين تقابل السَّلب والنَّقَذِ وتخالفهما تضادّ يثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حسنًا وطرافة، كما يقوي المعنى إذ بضدّها تتمايز الأشياء.

نوعُ حرف (من) ودلالتها:

حرف (من) في قوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ﴾ لابتداءِ الغاية، بمعنى لا يستنقذون ابتداءً من الذباب ما سلبه منهم، فالضمير عائد على الذباب.

براعة الإيضاح بعد الإبهام:

تشويق المستمعين لمعرفة الخبر اليقين بعد النظم المبين

يظهر في هذه الآية فنٌّ من فنون الإطناب، وهو براعة الإيضاح بعد الإبهام، حيث استهلّت الآية بالإبهام في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥٓۚ﴾؛ إذ ألقى المعنى على سبيل الإجمال؛ لما فيه من تعظيم؛ كي يخلق لدى المستمع تشويقًا إلى معرفته على سبيل التّفصيل، ثم جاء الإيضاح ببيان المراد في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُواْ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾، فيَرِد الكلامُ على نفسٍ متشوِّقةٍ لمعرفته فيحصل المراد من التّأثير.

علّة الفصل وبلاغته:

بيانُ ضعف الجهتين احتراسٌ عن توهم الباطل

فُصل قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه خرج مخرج التذييل، وفي التذييل معنى البيان والتوكيد؛ فعندما تحدّى اللّه المشركين بعجز أوثانِهم أمام الذّباب، ربّما أفهم هذا قوّة الذّباب، فبيّن أنّ المقصود غير ذلك وأنّهما اجتمعا في الضعف، وإن كانت الأصنام أضعف بدرجات[1]، ففيه كذلك احتراسٌ بديع.

دلالة التّعبير بصيغة الماضي:

ذمّ الأوثان وعابديها بتحقّق الضّعف والهوان

استعمل النَّظم الكريم صيغةَ الماضي في قولِه تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾؛ للدّلالة على تحقّق صفة الضعف ورسوخها

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 96.

واستمرارها في الذباب والأوثان، وإن كانت الأوثان أضعف من الذباب؛ لأنّه مخلوق حيّ يقدر على سلبها بإرادة اللّه تعالى، وهي جماد لا حياة فيها ولا قوّة.

تجهيل المشركين وتحقير معبوداتهم جمعًا لأغراض السياق

معنى التعريف في ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ و﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾:

عُرّف لفظا ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ و﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، والتعريف فيهما للعهد التقديري[1]، فقد تقدّم في السّياق ذكرهما، والطّالِبُ عند أكثر العلماء الصنم يَطْلُب ما سُلبَ منه، والمَطْلوبُ هو الذُّباب بما سَلَبَ، وجَوَّزَ بعض السّلف أنْ يُراد بالطّالب: عابد الصنم، وبالمطلوب معبوده، وقيل: هو أنسب بالسياق؛ لأنّه لتجهيلهم وتحقير معبوداتهم، فناسب إرادتهم والأصنام من هذا التذييل، وقد اختار الوجه الأوّل الزمخشريّ لما فيه من التّهكم، بجعل الصنم طالبًا على الفرض تهكّمًا، وأنّه أضعف من الذّباب لأنّه مسلوب وجماد، وذلك حيوان بخلافه[2].

التعريضُ بسفاهة عقول المشركين وطيش أفهامهم

براعة العطف بين المتناقضين:

عُطف لفظ ﴿وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ على لفظ ﴿ٱلطَّالِبُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، ونكتة ذلك تسوية الصنم بالذّباب في الضّعف، بل إنَّ الطّالبَ - وهو الصنم - أضعفُ وأحقر؛ فإنّ الذُّبابَ حيوان غالب، والصنم جماد مغلوب، فكيف بمن يدعو الجماد المغلوب[3]؛ ففيه تعريضٌ بديع بالمشركين، بأنَّه على قانون القوَّة والقدرة؛ فالذباب أولى بالعبادةِ من تلك الأصنام، وهذا في غاية تسفيه العقول، وتطييش الفهوم.

جناس الإلحاق بما اتّفق في أصل الاشتقاق

فنُّ الجناس:

في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ جناس اشتقاق،

---

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 532.

(2) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275.

(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

حيث توافقت كلمتا ﴿ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ في الحروف الأصول وهي (طلب)، وهو ملحق بالجناس الاصطلاحيّ؛ لأنَّ كثيرًا ما يلحق بالتجنيس الكلمتان الراجعتان إلى أصلٍ واحدٍ بالاشتقاق، لما فيه من المسامحة[1].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّهكميَّةِ:

الضَّعف وصفٌ يلحق ذوي القوَّة لا الجمادات الهامدة

في قوله تعالى: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾ مجازٌ، وذلك على القول المشهور بأنّ المراد بالطّالب: الصّنم، فشبَّه الصنم بالطالب العاقل من حيث إنّه لو طَلب أن يستنقِذَ منه ما استُلِبَه لعجَزَ عنه، وكونُ الصّنم طالبًا ليس حقيقة بل هو على سبيل التّقدير، فالمجاز فيه حاصل؛ لأنّ الوثن لا يصحّ أن يكون ضعيفًا، لأنّ الضّعف لا يكون إلّا في ذي قوَّة[2]، فجعله طالبًا من قبل الاستعارة التهكّمية[3]، وغرض الاستعارة التَّهكميَّة هو التعريض بعقولِ المشركين.

بلاغةُ التذييل في الفاصلة:

الكلمات الجامعةُ أمثالٌ سائرة وحكمٌ دائرة

ختمت الآية بجملة التَّذييلِ: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، وهذه الجملة تذييل وفذلكة للغرض من التّمثيل، أي: ضعف الصنم والذباب، أو: ضَعُفَ الدّاعي والمدعوُّ، إشارة إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابًا﴾، أي: ضَعُفْتم أنتم في دعوتهم آلهة، وضعفت الأصنام عن صفات الإله، وهذه الجملة كلام أرسل مثلًا، وذلك من بلاغة الكلام[4].

بلاغة الاستعارة التمثيليَّة:

تصوير عجز الأصنام بأروع الأمثال وأدق الأحوال

شُبِّهَتِ الأصنام المتعددة المتفرقة في قبائل العرب بعظماء - أي: عند عابديها - وشُبِّهَتْ هيئتُها في العجز بهيئة ناس تعذّر عليهم خلق

(1) عربشاه، الأطول شرح تلخيص مفتاح العلوم: 2/ 464.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.
(3) القاسمي، محاسن التّأويل: 7/ 275.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 342.

أضعف المخلوقات، وهو الذّباب، بَلْهَ المخلوقات العظيمة كالسّماوات والأرض، وقد دلّ إسناد نفي الخلق إليهم ﴿لَن يَخۡلُقُواْ ذُبَابٗا وَلَوِ ٱجۡتَمَعُواْ لَهُۥۖ﴾ على تشبيههم بذوي الإرادة؛ لأنّ نفي الخلق يقتضي محاولة إيجاده، ولو فُرض أنّ الذّباب سلبَهُم شيئًا لم يستطيعوا أخذه منه، ودليل ذلك مشاهدة عدم تحرّكهم، فكما عجزت عن إيجاد أضعف الخلق وعن دفع أضعف المخلوقات عنها فكيف توسم بالإلهية؟ ورمز إلى الهيئة المشبه بها بذكر لوازم أركان التشبيه من قوله: ﴿لَن يَخۡلُقُواْ﴾، وقوله: ﴿وَإِن يَسۡلُبۡهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيۡـٔٗا﴾، فحصل تشبيه هيئة الأصنام في عجزها بما دون هيئة أضعف المخلوقات فكانت تمثيلية مكنية[1].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السَّمع والاستماع والإصغاء والإنصات:

الاستماع طلب السمع بتمييز، والإصغاء استماع مع تفاعل، والإنصات تجرُّد للمسموع

تشترك هذه الألفاظ جميعًا في أنّها متعلّقة بجارحة الأذن والسّمع، وتختلف فيما بينها في أنّ السّمع هو حاسّة إدراك المسموع، والسّمع أيضًا اسم الآلة التي يُسمع بها، وقد يكون التقاط الصّوت عفويًّا بدون قصد المستمع، أمّا (الاستماع) فيزيد على السمع بالسّين والتّاء الدّالة على الطّلب، فهو فعل يقصد منه تكلّف السّمع وتمييزه جيدًا.

أمّا الإصغاء فهو طلب إدراك المسموع بإمالة السّمع إليه يقال: صغا يصغو إذا مال وأصغى غيره، وفي القرآن: ﴿فَقَدۡ صَغَتۡ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: 4] أي: مالت، وصَغْوُكَ مع فُلان أي مَيْلُكَ[2]، ويشترط في (الإصغاء) الانتباه وتفاعل القلب والمشاعر، وأمّا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 340.

(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 284.

(الإنصات) فأصل مادته (نَصَتَ)، وهو قائم على السّكوت[1]، وهو شرط للإصغاء الجيّد إذ يتطلّب إلغاءَ الضّوضاء، وإسكات بقيّة الأصوات من أجل حسن الاستماع.

وقد فرّق القرآن بطريقة بليغة ودقيقة بين هذه الحالات الأربع، فحالة السّمع العفوي مثالها قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ﴾ [القصص: 55]، وحالة الاستماع بقصد قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الأحقاف: 29]، أمّا الإصغاء فمثاله قوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَاۖ﴾ [التحريم: 4]، وأمّا طلب السكوت بغرض الاستماع فمثاله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٢٠٤﴾ [الأعراف: 204].

الإنقاذ والتّخليص والإنجاء:

عموم التخليص وخصوص الإنقاذ والإنجاء من أذى

تتقارب هذه الألفاظ في الدلالة على السّلامة، ويظهر الفرق بينها أنّ التّخليص قد يكون من تعقيد وإن لم يكن أذى، أمّا (الإنقاذ) و(الإنجاء) فلا يكونان إلّا من أذى، ولا يُقال لمن لا خوف عليه: أُنجي أو أُنقذ؛ لأنّه لا يكون ناجيًا أو منقذًا إلّا مما يُخاف[2].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصت).
(2) أبو هلال العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 120.

﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٧٤﴾ [الحج: 74]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من بيان تعظيم الباطل إلى عدم تقدير الحقِّ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة صفات الأصنام التي يعبدها المشركون من دون الله تعالى، وما هي عليه من الضعف والهوان، وبيان ما عليه المشركون من تعظيم هذه الأصنام الهامدة، التي لا تقوى على نفع نفسها، انتقلت الآيات لبيانِ موقف المشركين من المستحق للعبادة الحقَّة ﷻ؛ لبيان جهلهم وظلمهم وظلمة عقولهم وقلوبهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَدَرُواْ﴾: (قدر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى مَبْلَغِ الشَّيْءِ وكُنْهِهِ ونِهايَتِه، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كُلِّ شَيْءٍ، يُقالُ: قَدْرُهُ كذا، أيْ: مَبْلَغُهُ، وكَذلِك القَدَرُ، وقَدَرْتُ الشَّيْءَ أقْدِرُهُ وأقْدُرُهُ مِنَ التَّقْديرِ[1]، ومعنى ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ في الآية عدم تعظيم المشركين لربّ العالمين حقّ التّعظيم، وعدم معرفته حقّ المعرفة، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبودية[2].

2) ﴿لَقَوِيٌّ﴾: (قوي) أصلٌ يَدُلُّ على شِدَّةٍ وخِلافِ ضعف، والقَويُّ: خلاف الضعيف، وأصل ذلك من القوَى وهي جمع قوَّةٍ من قوَى الحبل[3]، وليس في القرآن من التركيب إلا (القوة) بمعناها المذكور، وجمعها (القوَى)، والصفة (القويّ)[4]، والقويّ في الآية: من أسمائه تعالى، وهو مستعمل في القدرة على كلّ مراد له سبحانه[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قدر).
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (قوي).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (قوي).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.

3) ﴿عَزِيزٌ﴾: (عَزَّ) أصلٌ يدلّ على شدّة وقوّة وما يُضاهيها، من غلبة وقَهْر[1]، والعِزّة: حالة مانعة للإنسان من أن يُغلب، من قولهم: أرض عَزاز، أي: صُلْبة[2]، والعِزّ خلاف الذُّلّ، كما أنّ الذُّلّ لين ورخاوة، ومنه العِزّة: الشّدّة والقوّة والامتناع، والعزيز: القويّ الشّديد الذي لا يُغلب[3]، ومعنى العزيز في الآية: ذو العِزّة وهي القوّة، والشِدّة، والغلبة، والرّفعة[4].

المَعْنى الإجْماليّ:

أعظم الظُّلم تعظيم الحقيرِ والتّغافل عن القدير

يخبر اللّه سبحانه أنّ هؤلاء المشركين لم يعظِّموا اللّه حقّ تعظيمه، إذ جعلوا له شركاء، وهو القويّ الّذي خلق كلّ شيء، العزيز الّذي لا يغالَب[5]، بعد بيان تعظيمهم الأصنام التي لا تقوى على فعل شيء؛ لبيانِ ظلم المشرك لعقله ونفسه.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ الفصلِ وبلاغته:

الإشراك بالله نتيجة حتميّة عند خلوّ القلب من مقام التّعظيم

فُصل قَوْله تَعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ عن الآية السّابقة لوجود كمال الاتّصال بينهما، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ نتيجة وتذييلًا للجملة قبلها، فبينهما ما يشبه علاقة العلّة في الحكم بالمعلول، أو المقدّمة والنّتيجة، وذلك لأنّ عبادتهم الأصنام مع اللّه استخفاف بحقّ إلهيّته تعالى إذ أشركوا معه في أعظم الأوصاف أحقر الموصوفين[6]، وهذا من باب البيانِ للسّابق، ففيه تنبيهٌ على ضرورةِ الانتباه في تربية القلب على التعظيم للحقّ سبحانه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عزّ).
(2) الراغب، المفردات: (عزّ).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (عزز).
(4) القاسمي، محاسن التأويل: 260/ 1.
(5) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 342.

فائدةُ النفي بأداة ﴿مَا﴾:

الجمعُ بين معنَيَي التأكيدِ والعمومِ

استعمل النَّظم أداة النَّفي ﴿مَا﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾؛ للتأكيد على عدم معرفة المشركين لعظمة اللّه ﷻ حقّ المعرفة، حيث أشركوا به وسمّوا باسمه ما هو أبعد الأشياء عنه مناسبة؛ لأنّ في حرف ﴿مَا﴾ من معنى التّأكيد ما ليس في غيره[1]، فهي آكد في النفي من (لم)[2]، كما أنَّها تدلُّ على معنى العموم، أي: إنَّهم ما قدروا اللّه تعالى حقَّ قدره في كلِّ ما يستحقه من التَّقدير والتَّعظيم.

نكتةُ التّعبير بصيغة الماضي:

إذا رسخ الكفرُ في القلوبِ امتدَّ أثره وطال أمده

جاء فعل ﴿قَدَرُواْ﴾ في قول اللّه تعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ بصيغة الماضي دلالةً على تحقّق استخفاف المشركين بحقّ ألوهيّته سبحانه، ورسوخهم في الكفر بعدم تعظيم اللّه حقّ تعظيمه إذ أشركوا معه الضعفاء العجزة وهو الغالب القويّ[3]، وأنَّ عدم تقديرهم للّه ربِّ العالمين ممتدٌّ في الزمن الماضي، فهو جمع بين الامتداد والرسوخ.

نكتة اختيار الاسم الجليل:

تبكيت الغافلين عن جليل العظمة وعظيم المهابة

آثر النظم ذكر الاسم الجليل في قَوْله تَعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ الجامع لأسمائه الحسنى موضع الضمير تعظيمًا لحقّ الألوهيّة، وتقريرًا للقوّة الكاملة والعزّة القاهرة للّه سبحانه، فهو جديرٌ بتلك الصفات الفائقة[4]، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُختَصَّةٌ به وحده سبحانه، فلا يُساوى بِهِ غَيرُه، فيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى

---

(1) قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)، فإنّ نفيه: (ما فعل)، لأنّه كأنّه قال: (واللّه لقد فعل)، فقال: (واللّه ما فعل)" سيبويه، الكتاب: 3/ 117.

(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 362.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 533.

الجامِعِ لِصِفاتِ الكمالِ[1]، وفي هذا الإيراد تبكيتٌ لمن لم يتلفت إلى هذه المعاني، وينتبه إلى هذه الدَّقائق، فوقع في ظلمة عبادة الأصنام.

غرضُ التعبير بالمفعول المطلق:

التـوكـيـد على عــدم تـعظيم المـشـركين لـربّ العالمين

انتصب لفظ ﴿حَقَّ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق لإضافته إلى المصدر وهو ﴿قَدۡرِهِۦٓ﴾، والغرض منه التّوكيد على عدم تعظيم المشركين لربّ العالمين حقّ التّعظيم، حيث جعلوا هذه الأصنام على نهاية خساستها شريكة له في المعبوديَّة[2]، والإضافة هنا من إضافة الصفة إلى الموصوف، والأصل: ما قدروا الله قدرَهُ الحَقَّ[3].

بلاغة الالتفات:

توبيخ المشركين بتنزيلهم منزلة الغائبين

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ العدول عن الخطاب بأن يقال: (ما قدرتم الله حقّ قدره) إلى أسلوب الغيبة على سبيل الالتفات، وفي ذلك تعريض بهم بأنّهم ليسوا أهلًا للمخاطبة وتوبيخ لهم حيث أشركوا به وسمَّوا باسمه ما هو أبعدُ الأشياءِ عنه مناسبةً، وبذلك أيضًا يندمج في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ تهديد لهم بأنَّه سيُعاقبهم على وقاحتهم[4].

علّة الفصل:

تعليلُ جملةِ التَّعليل بيانٌ يسبقه بيانٌ

فُصل قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ عن الكلام السابق لكمال الاتّصال بينهما، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ تعليلًا لمضمون الجملة قبلها؛ فإنّ ما أشركوه مع الله في العبادة ضعيفٌ ذليلٌ، فما قدروه حقّ قدره؛ لأنّه قوي عزيز فكيف يشاركه الضّعيف الذّليل[5]، فهو تعليلٌ لجملة التعليل، وبيان بعد بيان.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 07/ 362.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.

غرضُ توالي المؤكّدات:

إشراك الضعيف المهين إنكار لعظمة ربّ العالمين

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ جملة من المؤكدات، وهي حرف التّوكيد، ولام الابتداء، والجملة الاسمية، مع أنّ مضمونها ممّا لا يُختلف فيه، وذلك لنكتة تنزيل علمهم بذلك منزلة الإنكار؛ لأنّهم لم يجروا على موجب العلم حين أشركوا مع القويّ العزيز ضعفاء أذلة[1].

نكتةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

من شأن الإظهار التّعظيم والتّنبيه على استحقاق العبودية

جاء الاسم الجليل في قَوْله تَعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ مظهرًا، وحقه الإضمار لتقدمه، ونكتة ذلك تعظيم قدره ﷻ، فهو اللّه العظيم المستحق للعبادة وحده دون ما سواه من الأوثان، والتنبيه على سبب استحقاق العبادة: وهو انفراده بصفة الألوهيّة[2]، ولتوريث المهابة في النفوس، ولتجري هذه الجملة مجرى الأمثال السّائرة.

سر إيثار (القويّ العزيز):

تقابل المباني من شأنه توليد المعاني وتوريث الدلالات

اقترن اسما ﴿لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ في الفاصلة؛ لأنّ الحقّ ﷻ تكلّم في المثل السابق عمّن انصرف عن عبادته سبحانه إلى عبادة الأصنام فقال: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾؛ فحسن أن يذكر في مقابل هذا الضَّعف صفة القوَّة ﴿لَقَوِيٌّ﴾، قوّةً عن العابد؛ لأنّه ليس في حاجة إلى عبادته، وقوّةً عن المعبود لأنّه لو شاء حَطَّمَهُ، ولما انصرف المشركون عن توحيد اللّه وعبدوا غيره، فهذا فيه مضارّة ومعارضة، فأخبر سبحانه عن نفسه تهديدًا لهم بأنّه عزيز لا يُغالب[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.
(2) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 576.
(3) الشعراويّ، تفسير الشعراوي: 16/ 9936.

﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ ٧٥﴾ [الحج: 75]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

إثبات التّوحيد بإنزال الحجج على ألسنة الرّسل

لما نصب سبحانه الدّليل على أنّ ما يعبده المشركون لا يصلح أن يكون شيء منه إلهًا، بعد أن أخبر أنّه لم ينزل إليهم حجة بعبادتهم لهم، وختم بما له سبحانه من وصفي القوّة والعزّة بعد أن أثبت أنّ له الملك كله، تلا ذلك بدليله الذي تقتضيه سعة الملك وقوّة السلطان من إنزال الحجج على ألسنة الرّسل بأوامره ونواهيه الموجبة لإخلاص العبادة له، المقتضية لتعذيب تاركها[1]، كما أنّه لما نفت الآيات السابقة أن يكون للأصنام التي يعبدها المشركون مزيّة في نصرهم بقوله: ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٖ ٧١﴾ [الحج: 71]، وقوله: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلۡمَطۡلُوبُ﴾، ونعى على المشركين تكذيبهم الرسول ﷺ بقوله: ﴿يَكَادُونَ يَسۡطُونَ بِٱلَّذِينَ يَتۡلُونَ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۗ﴾ [الحج: 72]، وقد كان من دواعي التّكذيب أنّهم أحالوا أن يأتيهم رسول من البشر: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ مَلَكٞۖ﴾ [الأنعام: 8] أي يصاحبه، ﴿۞وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرۡجُونَ لِقَآءَنَا لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَوۡ نَرَىٰ رَبَّنَاۗ﴾ [الفرقان: 21] أعقب إبطال أقوالهم جميعًا بأنّ الله يصطفي من شاء اصطفاءه من الملائكة ومن النّاس دون الحجارة، وأنّه يصطفيهم ليرسلهم إلى الناس، أي: لا ليكونوا شركاء، فلا جرم أبطلت هذه الآية جميع مزاعم المشركين في أصنامهم[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَصۡطَفِي﴾: (صفو) الصاد والفاء والحرف المعتل أصل واحد

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 97.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.

يَدُلُّ على خُلوص من كُلِّ شَوْبٍ، من ذلك الصّفاء، وهو ضِدُّ الكَدَرِ؛ يُقال: صفا يصفو، إذا خَلُصَ[1]، والاصطفاء: تناولُ صَفْوِ الشَّيء، كما أنَّ الاختيار: تناوُلُ خَيْرِه، والاجتباء: تناول جِبايَتِهِ، واصطفاء اللّه بعض عباده قد يكون بإيجاده تعالى إياه صافيًا عن الشَّوْبِ الموجود في غيره، وقد يكون باختياره وبحكمه وإن لم يَتَعَرَّ ذلك من الأوَّلِ، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

إرسال الرسل حكمةٌ بالغةٌ واصطفاءٌ إلهيٌّ

تُبيِّن الآية أنَّ اللّه ﷻ يختار من الملائكة رسلًا إلى أنبيائه، ويختار كذلك من النّاس رسلًا لتبليغ رسالاته إلى الخلق، لأنّه السميع لأقوال عباده، البصير بجميع الأشياء، وبمن يختاره للرّسالة مِن خلقه[3]، والعالم بأحوال النّاس، والمحيط بأسرار المخلوقات.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّةُ فصْلِ الآيةِ عمّا قبلها:

إبطال مزاعم المشركين وبيان عدلِ ربِّ العالمين

فُصل قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه واقع استئنافًا ابتدائيًّا[4]، وذلك لما بُيِّن في شأن المناسبة، والانتقال من بيان معتقدات المشركين في الآيات السّابقة إلى بيان إرسال اللّه تعالى رسله من الملائكة والبشر جميعًا.

بلاغة الاستفتاح باسم الله الأعظم:

مناسبة إظهار الألفاظ لإظهار المعاني

استهلّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ باسم الجلالة مظهرًا في مقام الإضمار حيث لم يقل: (هو يصطفي من الملائكة رسلًا)؛ لأنّ إظهار اسم الجلالة له من مزايا التّأثير

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).
(2) الراغب، المفردات: (صفو).
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 343.

على النّفس، وقوّة الخطاب، ما لا يكون للضَّمير، ولمّا كان المقام مقامَ إظهار الاصطفاء؛ ناسب أن يُظهر اسم المصطفي ﷻ.

غرض الابتداء بالمسند إليه:

اصطفاء الرُّسل من الخصائص الإلهيّة

ابتُدِئ بالمسند إليه ﴿ٱللَّهُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ لغرضين وهما: الاختصاص، ويقصد به قصر المسند على المسند إليه، فقدّم المسند إليه وهو اسم الجلالة على الخبر الفعلي في قوله ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي﴾ دون أن يقول: نصطفي، لإفادة الاختصاص، أي اللّه وحده هو الذي يصطفي لا أنتم تصطفون وتنسبون إليه(1)، وللتشويق؛ فإنَّ سماعَ الاسم الأعظم يُثير في النّفس تشويقًا لمعرفة الخبر.

نكتةُ إيثار مفردة الاصطفاء:

إرسالُ الرُّسل يكون بعد تصفيتهم وتمييزهم بما يُحقِّق غايةَ الإرسال

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الاصطفاء في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ لدلالة المفردة على أنَّ اللّه تعالى يصطفي من كان صافيًا عن الشوب الموجود في غيره، فهو سبحانه يصطفي من الملائكة رسلًا بينه وبين العباد، لتربيتهم بأداء الرسالة إذ لم يكونوا بعدُ مستأهلين لاستماع الخطاب بلا واسطة، فيربيهم بواسطة رسالة الملائكة ومن النّاس(2)، وهو ﷻ يُصفّي الرسل من البشرِ من كلِّ ما يعكر صفوَ الرسالة، والقيام بأعبائها.

نكتة التعبير بصيغة المضارع ﴿يَصۡطَفِي﴾:

الإشارةُ إلى اصطفاءِ الله تعالى من عبادِه من يحملُ لواءَ الشَّريعةِ

جاء التَّعبير بصيغة المضارِع في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ دون الماضي، مع أنَّ الاصطفاء قد تحقَّق؛ للدّلالة على تصوير فعل الاصطفاء منه سبحانه لما كان، وللإشارة إلى أنَّ الاصطفاءَ سنّةٌ له في خلقه، ففي كلّ زمان يصطفي اللّه من

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 62.

يشاء من عباده لتجديد دينه في قلوب العباد وليحيي به ما اندرس من الدّين؛ فإنَّ اللّه تعالى قد ختم الرسالات بآخر الرسل، لكن بقي العلماء وهم ورثة الأنبياء، فإنَّ اللّه تعالى يوفِّق منهم من يعمل لهذا الدّين، ويُجدِّد لهذه الأمة أمر دينها، فهذا من ثمرات الاصطفاءِ، فكما يكون الاصطفاء في الرسل، فهو كذلك في أتباعهم.

نوع حرف ﴿مِنَ﴾ ودلالته:

اصطفاء بعض الملائكة رسلًا

دلَّ حرف ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ على التّبعيض، فقوله: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾ يقتضي أن تكون الرسل بعض الملائكة لا كلّهم[1]، ولهذا ورد في النّصوص أنّ رسلَ اللّه تعالى من الملائكة إلى البشر هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة صلوات اللّه عليهم دون غيرهم.

توجيه استشكال:

إرسال الملائكة يكون خاصًّا للبشر وعامًّا للملائكةِ

استشكل بعض العلماء دلالة التبعيض في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا﴾؛ لأنّه يقتضي أن تكون الرّسل بعض الملائكة لا كلّهم، في حين أنَّه قال: ﴿جَاعِلِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: 1] يقتضي كونهم كلهم رسلًا، وأجيب عنه بأنّه يجوز أن يكون المذكور ههنا من كان رسلًا إلى بني آدم، وهم أكابر الملائكة: كجبريل وميكائيل وإسرافيل وملك الموت والحفظة صلوات اللّه عليهم، وأمّا كلّ الملائكة فبعضهم رسل إلى البعض كما في موضع فاطر[2]، أو على تقدير محذوف، أي: بعض الملائكة الذين نعرفهم ممن أرسلهم اللّه للبشر.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾:

اصطفاء الله من جنس الملائكة رسلًا إلى البشر

عُرّف لفظ ﴿ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بـ(أل) الدالّة على تعريف الجنس في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، فاللّه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 253.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 253.

يصطفي من جنس الملائكة رسلًا إلى البشر بمختلف المهامّ، وبالأخصّ لتبليغهم وحيه وشرائعه، وقد اصطفى جبريل عليه السلام من الملائكة ليكون رسوله إلى رُسله.

غرضُ تنكير ﴿رُسُلٗا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿رُسُلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ للتعظيم، وبيان أنَّهم على قدرٍ من المكانة والفخامة، فهم الرُّسل المصطفون المرتضون.

علَّةُ تقديم الملائكة على النّاس:

قُدِّمَ ذكر الملائكة في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ على ذكر ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾؛ لأنّهم هم الواسطة بين الله والرّسل من النّاس، يتوسّطون بينه وبين الأنبياء بالوحي.

دلالة العطف بالواو:

تشريك النّاس في حكم اصطفاء الرسل

عُطف في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ الجار والمجرور ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ على ﴿مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ﴾ بحرف الواو؛ لتشريك النّاس في حكم اصطفاءِ الرُّسُل، وإن كان رسل كلٍّ موصوفة بغير صفة الآخرين، وقيل: إنَّ المراد أنّ الله يصطفي من الملائكة رسلًا إلى سائرِهم في تبليغ ما كلّفهم به من الطّاعات، ومن النّاس رسلًا إلى سائرهم في تبليغ ما كلّفهم به[1].

بلاغةُ تعريف لفظ ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾:

عدل الله قائمٌ على الاصطفاء من جنس النّاس لا من خصوص أقوام

عُرّف لفظ ﴿ٱلنَّاسِۚ﴾ بـ(ال) الدالّة على تعريف الجنس في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾، فاللّه يصطفي من جنس النّاس رسلًا إلى أقوامهم، وقد اختصّهم الله سبحانه بالنّفوس الزكيّة، وأيّدهم بالقوّة القدسية، فهم متعلّقون بكلا العالمين الروحاني والجسماني، يتلقون من جانب ويلقون إلى

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 197.

جانب، ولا يعوقهم التَّعلُّق بمصالح الخلق عن التبتُّل إلى جناب الحقّ، فيدعونهم إليه تعالى بما أنزل عليهم ويُعلّمونهم شرائعه وأحكامه[1]، فليس الاصطفاء من قوم معيّنين، بل من جنسِ النّاس، ففيه بيانٌ للعدلِ الإلهيِّ، وأنَّ اللّه ﷻ يقوم اصطفاؤه على ما فيه الخير للنّاس جميعًا.

علَّة فصل جملة الفاصلة:

التَّعليلُ بيانٌ للمخاطبِ وتوكيدٌ للعالم

فُصِلَ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ عن السابق لكمال الاتّصال، فقد وقعت هذه الجملة تعليلًا لمضمون جملة ﴿ٱللَّهُ يَصۡطَفِي مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلٗا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾؛ لأنّ المحيط علمه بالأشياء هو الذي يختصّ بالاصطفاء، وليس لأهل العقول ما بلغت بهم عقولهم من الفطنة والاختيار أن يطلعوا على خفايا الأمور، فيصطفوا للمقامات العليا من قد تخفى عنهم نقائصهم بله اصطفاء الحجارة الصمّاء[2].

نكتةُ إظهار ما حقُّه الإضمار:

استحضار عظمة الإله الفعّال لما يشاء من الاصطفاء

آثر النظم إظهار لفظ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾، وهو في مقام الإضمار، حيث لم يقل: (إنّه سميع بصير)، وذلك لأنّ اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾ أصله الإله، أي الإله المعروف الّذي لا إله غيره، فاشتقاقه مشير إلى أنّ مسمّاه جامع كلّ الصفات العُلا تقريرًا للعظمة الّتي يصطفي بها من يشاء[3].

نكتةُ اصطفاء صفتي (السميع البصير):

وعدٌ من الله تعالى لرسله بنصرتهم وتأييدهم في دعوتهم

اصطفى النَّظم صفتي السميع والبصير في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ دون غيرها من صفاته العُلا مناسبة لسياق الآية، فاللّه سميع بجميع المسموعات ويدخل في ذلك أقوال

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 121.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.

الرّسل، بصير بجميع المبصرات، ويدخل في ذلك أحوال المرسَل إليهم، وفي ذلك إشعار بأنّ رسله سيواجَهون بأقوال تؤذيهم واستهزاء، وسيقابلون بأفعال تعرقل مسيرة دعوتهم، فيثبّت اللّه رسله بأنّه معهم سميع لما يقال، بصير بما يُفعل بهم، فهم تحت سمعه وبصره وكلاءته[1]؛ ففي هاتين الصِّفتين وعدٌ بالانتقام من المكذِّبين، والانتصار للرسل وأتباعهم.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الاصطفاء والاختيار والاجتباء والانتقاء والانتخاب:

ألفاظٌ متقاربةٌ اختصَّ كلٌّ منها بنوعِ دلالة

تتقارب هذه الألفاظ في الدّلالة على تحصيل الأفضل، وتختلف فيما بينها في الاشتقاق اللغويّ وبعض الدّقائق المعنويّة، فالاصطفاء مأخوذ من الفعل (اصطفى)، من الجذر اللّغوي (صَفَوَ)، وأصل الصَّفاء: خُلوص الشّيء من الشَّوْبِ، ومنه الصّفا: للحجارة الصّافية[2]، أمّا الاختيار فمن (خَيَر)، وأصله العطف والميل، ثُمّ يحُمل عليه، فالخير خلاف الشّرّ، لأنّ كلّ واحد يميل إليه، ويعطف على صاحبه[3]، فالاختيار أن يختار من غير متشابهات، كأن تختار كتابًا من بين الكتب والأقلام والكرّاسات، أمّا الاصطفاء فيكون بين أشياء متناظرة متشابهة؛ كقوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: 33]، فالاصطفاء هنا بين البشر، وهم متناظرون، والاختيار يدلّ على أنّ اختيارك لشيء أخذك خير ما فيه في الحقيقة أو خيره عندك، والاصطفاء: أخذ ما يصفو منه[4]، أمّا الاجتباءُ: فهو الجَمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، واجتباءُ اللّه العبدَ: تخصيصهُ إيَّاه بفضلٍ إلهيٍّ، يتحصّل له منه أنواعٌ منَ النِّعَمِ بلا سعيٍ منَ العبدِ، وذلك

(1) الشعراويّ، تفسير الشعراوي: 16/ 9940.
(2) الرّاغب، المفردات: (صفو).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خير).
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 285.

للأنبياءِ، وبعض مَن يُقاربُهُم منَ الصّدِّيقينَ والشّهداءِ[1]، والانتقاء أخذ النُقاوَةِ وهي أفضل ما انتقيت من شيء وأخلَصهُ[2]، والانتخاب اختيار النَخْبِ، وهو خيار الشّيء[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جبى)، والراغب، المفردات: (جبى).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نقي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نخب).

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ٧٦﴾

[الحج: 76]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الانتقال من ذكر الخصوص إلى العموم

لـمّا أخبر سبحانه أنّه سميع بصير، وكان المتّصف بذلك قد يكون وصفه مقصورًا على بعض الأشياء، أخبر أنّ صفاته محيطة تعميمًا بعد تخصيص[1]، فالآية مقررة لمضمون جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾، وفائدتها زيادة على التقرير أنها تعريض بوجوب مراقبتهم ربهم في السر والعلانية؛ لأنه لا تخفى عليه خافية[2].

❁ شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيۡدِيهِمۡ﴾: جمعُ مفرده (يد)، وهي الجارحة، والياء والدال: أصل بناء اليد للإنسان وغيره، ويستعار في المِنَّة فيقال: له عليه يد، ويجمع على الأيادي واليُديِّ[3]، وقوله في الآية ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ استعارةٌ لما يظهرونه، وهو الحاضر المهيّأ، وسُمّيَ بين أيديهم، لأنّه أمامهم، فَشُبِّهَ عِلْمُ الحاضر بما يكون مُهَيَّأً مُعَدًّا[4].

2) ﴿خَلۡفَهُمۡۚ﴾: (خلف) الخاءُ واللّام والفاءُ أُصولٌ ثَلاثَةٌ: أحَدُها: أنْ يَجيءَ شَيْءٌ بَعْدَ شَيْءٍ يَقومُ مَقامَهُ، والثّاني: خِلافُ قُدّامٍ، والثّالِثُ التَّغَيُّرُ، والمراد هنا خِلاف قُدّام، قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ [البقرة: 255]، وقال تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ [الرعد: 11]، وقوله في الآية ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ هو ما يخفونه؛ لأنّ الشيء الذي يظهره صاحبه يجعله

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 98.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (صفو).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.

بين يديه والشيء الذي يخفيه يجعله وراءه[1]، وهم لا يُخفون شيئًا عن اللّه تعالى.

3) ﴿تُرۡجَعُ﴾: (رجع) أصل كبير مطرد منقاس يدل على ردّ وتَكرار، تقول: رجع يرجِع رجوعًا، إذا عاد، وراجع الرجل امرأته، وهي الرَّجْعَةُ والرِّجْعَةُ، والراجِعة: النّاقة تباع ويشترى بثمنها مثلها، والثّانية هي الراجِعة[2]، والرُّجوع: العَوْدُ، والرَّجْعُ: الإعادة، والعَوْدُ إلى الدّنيا بعد المات، ويقال: فلان يؤمن بِالرَّجْعَةِ[3]، فيكون الرّجوع المقصود في الآية هو العودة إلى اللّه تعالى بعد المات للحساب والجزاء.

المَعْنى الإجْماليّ:

علم الله مطلقٌ في جميع شؤون عباده وفي كلِّ الأزمنة

تُبيِّن الآية أنَّ اللّه ﷻ يعلم ما بين أيدي ملائكته ورسله من قبل أن يخلقهم، ويعلم ما هو كائن بعد فنائهم وإلى اللّه وحده ترجع الأمور[4]، فهي بيانٌ لإحاطة اللّه تعالى بجميع خلقه، علمًا وتصرُّفًا، ماضيًا وحاضرًا ومستقبلًا.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علّة فصل الآية عن السّابق:

تقرير المعاني المتقدّمة وتأكيدها

فُصل قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ عمّا قبله، لوقوعه تقريرًا لمضمون جملة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٞ﴾ من إحاطة علمه سبحانه بكلّ شيء[5]، فبينهما ما يسمّى بـ (كمال الاتّصال)، لتقرير الجملة الثّانية ما جاء في الأولى وتأكيده.

نكتة التّعبير بصيغةِ المُضارِع:

آثر النَّظم الكريم صيغة المضارع في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رجع).
(3) الراغب، المفردات: (رجع).
(4) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.

﴿أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾؛ لما تفيده هذه الصّيغة من الدّلالة على الدّوام والاستمرار، فعلم اللّه سبحانه مطلق دائم.

بلاغة التّعريض:

استحضار رقابة الله ثمرة العلم بالإحاطة

في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ إعلام العباد مراقبة اللّه تعالى لهم في جميع أحوالهم، وفي هذا الإعلام تعريض بوجوب مراقبتهم ربّهم في السِّرِّ والعلانية؛ لأنّه لا تخفى عليه خافية، وألّا يَصْدُرَ منهم إلّا ما يرضيه سبحانه من الأقوال والأفعال[1].

وإذا كان مرجع الضمير للرسل، فهو تعريض بأنَّه ناصرهم ومؤيدهم، وأنَّ على العباد أن يحذروا من خذلانهم وعداوتهم.

دلالة استعمال الموصول ﴿مَا﴾:

شمول علم الله سبحانه لكلّ الأشياء في كلّ الأزمان

آثر النَّظم الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ بدلًا من الاسم الظاهر؛ للإحاطةِ والعموم، فيشمل علمه تعالى كل ما يعمُّه الاسم الموصول فيما تضمنته صلته، فاللّه سبحانه يعلم مستقبل أحوالهم وأعمالهم وماضيها، فعلمه محيط بجميع الأشياء في جميع الأزمان.

بلاغة الاستعارة:

علم الله مطلقٌ يحيط بالظاهر والخفي والماضي والمستقبل

تضمّن قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ استعارة، فقوله: ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مستعار لما يُظهرونه، وهو الحاضر المهيّأ، وسُمّيَ ﴿بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾؛ لأنّه أمامهم، فَشُبِّهَ عِلْمُ الحاضر بما يكون مُهَيَّأً مُعَدًّا، وقوله: ﴿وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ هو ما يُخفونه؛ لأنّ الشيء الذي يظهره صاحبه يجعله بين يديه والشيء الذي يخفيه يجعله وراءه[2].

أو يكون ﴿مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ﴾ مستعار لما قدَّموا من العَمَل، ﴿وَمَا

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 344، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.

﴿خَلْفَهُمْۚ﴾: ما أخروه فلم يعملوه[1]، والوجهان مُرادان؛ فاللّه ﷻ يعلم ما يُظهرونه وما يُخفونه، وماضيهم ومستقبلهم.

وجْهُ العطفِ بالواو:

عطف قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۚ﴾ على ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع؛ لإفادة شمول علم اللّه ﷻ وإحاطته بأعمالهم، وذلك بالجمع بين المستقبل والماضي وما بينهما.

فنُّ المقابلة بين الاستعارات:

بيان سعة علم اللّه سبحانه وإحاطته بالعباد

في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۚ﴾ محسِّنٌ بديعي معنوي غرضه بيان سعة علم اللّه سبحانه وشموله، وهو من نوع المقابلة، حيث قابل بين عبارة ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ الّتي هي بمعنى (ما أمامهم)، وبين عبارة ﴿وَمَا خَلْفَهُمْۚ﴾، وبين تقابل الأمام والخلف وتخالفهما تضادّ يثير الذّهن ويجذب الانتباه، ويزيد الكلام حسنًا وطرافةً، كما يُقوّي المعنى إذ بضدّها تتمايز الأشياء.

تعيينُ مرجعِ الضمير:

احتمالُ عود الضمير إلى الخصوص السياقي أو العموم المقامي

اختُلف في مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْۚ﴾، فقيل: يعود إلى المشركين الّذين عاد إليهم ضمير ﴿فَلَا يُنَٰزِعُنَّكَ فِي ٱلْأَمْرِۚ﴾ [الحج: 67]، وقيل: إنّه يعود إلى الرّسل من الملائكة والناس، ويُقوّيه السِّباق، أو أنّه يعود إلى الذين يبلغهم الرّسل، فالضمير يعود إلى كلّ الناس، ولذا عقّب الآية بقوله: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾، بمعنى أنّ الأمور كلّها ترجع إليه وحده يوم القيامة، ليحاسب كُلَّ نفس بما كسبت، وتجد كل نفس ما عملت محضرًا، من خير أو من شرّ، ويكون له وحده الجزاء[2].

---

(1) السمعاني، تفسير السمعاني: 3/ 457.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.

فائدةُ العطف ودلالته:

عطف قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على ما قبله بحرف الواو؛ لإفادة خبرٍ جديدٍ معطوفٍ على السّابق، فهو ﷻ قد أحاط بكلِّ شيءٍ علمًا بأحوال النّاس، وأحوال الرسل مع أقوامهم، وهذه الإحاطة بالمعلوم لها غايةٌ عظيمةٌ، وهي الحساب على ما صدر عن النّاس في الموقف من الرسالة، فقال سبحانه: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾؛ لبيانِ أنَّ الأعمال التي أحاط علمه سبحانه بها، ستكون إلى غاية الحساب والجزاء، ففي هذه الجملة تنبيهٌ وتحذير.

إحاطةُ علم الله تعالى تعقبها غايةٌ عظيمة تتضمن التَّنبيه والتَّحذير

دلالة حرف انتهاء الغاية:

دلَّ حرف (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ على نهاية الأمر، وفي ذكر النهاية تنبيه على بدايته، حيث إن لكل نهاية بداية، فالبداية بالنسبة للعباد هي موقفهم من الرسل، واستجابتهم لدعوتهم، والنهاية هي الجزاء والحساب، فكأنَّه قال لهم: تنبّهوا إلى ما أنتم فيه من البدايات، لتُشرق نهاياتكم إذا رجعتم إلى اللّه تعالى.

من أشرقت بدايته أشرقت نهايته

نكتة إظهار ما حقُّه الإضمار:

أظهر اسم الجلالة ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بعد أن كان مضمرًا في الكلام السّابق وهو قوله تعالى: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾ لاستحضار عظمة اللّه سبحانه، ولإقامة هذه الجملة بعبارةٍ مستقلة، ولتجري مجرى المثل السّائر.

استحضار عظمة الله سبحانه في الحساب والجزاء

غرضُ تقديمِ الجار والمجرور:

قُدِّم في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ الجارّ والمجرور ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ﴾ لإفادة الحصر الحقيقي، أي: إلى اللّه لا إلى غيره رجوع جميع النّاس، وفي ذلك بيان أنّ المرجع إليه وحده، وله وحده الحساب والجزاء لأنّه مَلِكُ يوم الدّين، وإرجاع الأمور إرجاع القضاء في جزائها من ثواب وعقاب إليه يوم القيامة[1]، وفيه ردٌّ على من

رجوعُ العبادِ إلى الله وحده إثباتٌ ليوم البعث والحساب

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 345.

يزعم أن لا مرجع ولا بعث ولا حساب، فإذا أُثبت الرجوع إلى اللّه وحدَه، ثبت بطريق الأولى البعث والحساب.

نكتةُ اختيارِ الفعل ﴿تُرۡجَعُ﴾ مبنيًّا للمفعول:

تحذيرُ المنكِرِ من بقائه في غيّه وضلاله

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ بناء فعل ﴿تُرۡجَعُ﴾ إلى ما لم يسمّ فاعله؛ لظهور فاعل الإرجاع؛ فإنّه لا يليق إلا باللّه تعالى، وهو معلوم عند كلّ أحدٍ فجاز عدم إظهاره، فاللّه سبحانه يُمْهِلُ النّاس في الدّنيا، وهو يُرجِعُ الأمورَ إليه يوم القيامة[1]، وفيه تحذير ضمنيٌّ، فإنَّ المؤمن يعلم أنَّ اللّه تعالى هو الذي يُرجع الأمور كلَّها إليه، بخلاف المنكر، فبناء الفعل للمفعولِ فيه إبهامٌ مقصود، والإبهام إذا قُصد حَمل على التنبيه والتَّحذير.

وجه تعريف الأمور وجمعها:

استغراق جميع الأمور بالرجوع إلى الله تعالى

ورد في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ لفظ الأمور مجموعًا معرّفًا، والنّكتة في تعريفه وجمعه استغراق جميع الأمور، أي كلّ أمر من شأنه أن يرجع إلى اللّه تعالى، وذلك جمع بين البشارة والنذارة تبعًا لما قبله من قوله: ﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۚ﴾[2].

بلاغة الكناية:

الجمع بين مُطلق الإخبار والكناية عن مقصود الخبر

قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ كنايةٌ عن الحساب والجزاء؛ فإنَّ غاية الرجوع إلى اللّه تعالى هي الحساب، فأخبرتِ الآية برجوع الأمور كلِّها إليه تعالى، مع إرادة المعنى الكنائي وهو الحساب، فبانت بلاغة الجملة في الجمع بين الخبر، وبين كنايته، للإخبار والتحذير.

توجيه القراءات القرآنيّة في ﴿تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ﴾ وبلاغتها:

إثراء المعاني الدّلالية بتنوّع القراءات القرآنية

قرأ ابْنُ عامِرٍ وحَمْزَةُ والكِسائِيُّ وخَلَفٌ ويعقوب بفَتْحِ حَرْفِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 345.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 134، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 345.

المُضَارَعَةِ وكَسْرِ الجيم ﴿تَرْجِعُ ٱلْأُمُورُ﴾، وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وعاصم وأبو جعفر بضمّ حرف المضارعة وفتح الجيم: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾[1]، **فالحجّة لمن فتحه:** أنّه أراد: (تصير)، على أَنَّ (رَجَعَ): لازِمٌ، ومصدره الرّجوع، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ فاعل ﴿تَرْجِعُ﴾[2].

والحجة لمن ضَمّه: أنه أراد: (تُرَدّ) من (أرجَعَ) ومصدره الرّجْع، وبناء الفعل للمفعول في قوله: ﴿تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ للإيذان برفعة الشّأن؛ أَيْ: (يُرْجِعُ راجِعُها الأُمورَ إلى اللّه)، وحُذِفَ الفاعِلُ على هَذا لعَدَم تَعَيُّنِ فاعِلٍ عُرْفِيٍّ لِهَذا الرَّجْعِ، أَوْ حُذِفَ لِدَفْعِ ما يَبْدو مِنَ التَّنافي بَيْنَ كَوْنِ اسْمِ الجَلالَةِ فاعِلًا لِلرُّجوعِ ومَفْعولًا لَهُ بِحَرْفِ (إلى)، و﴿ٱلْأُمُورُ﴾ نائب فاعل تُرجَع[3]، فالحذف موجود على كلا القراءتين، والمجاز العقلي موجود على قراءة البناء للفاعل؛ فالأمور لا ترجع بنفسها.

وهذه الجملة ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ خبريّة، أريد بها تربية المهابة في النّفوس، وفي هذا إنذار بليغ بعد التّهديد السّابق، وفيه تنبيه للغافلين الضّالّين إلى أنّ مرجعهم في الآخرة إلى اللّه وحده، والجملة الكريمة تذييل قُصد به تأكيدُ قضاءِ أمره، ونفاذِ حُكمه، وتمام قدرته.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الخلف والوراء:

لفظ (وراء) أعمّ دلالـة من لفظ (خلف)

يشترك لفظا (الخلف) و(الوراء) في الدّلالة على البَعْدِيَّة، ويختلفان في الاشتقاق اللغويّ، فأصل مادة (خلف) في اللغة: ضدّ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/209.
(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 95، والشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي: 2/ 296، والطّاهر بن عاشور، التّحرير والتّنوير: 2/ 287.
(3) ابن الجزري، النشر: 2/209.

التقدُّم والسَّبْق، فعُبِّرَ به عن التأخير في المكان وغيره[1]، وأصل الوراء من مادة (ورى) ومعناها في اللغة: السَّتر والحِجاب، ومعنى وراء كذا: ما سَتَرَهُ الشيءُ وحَجَبَهُ[2].

كما يتّضح الفرق بين اللفظين من جهة المعنى، فـ(خلف) له معنى واحد، وهو ضدّ (أمام)، وأكثر المواضع التي وردت فيها كلمة (خلف) في القرآن الكريم اقترنت فيها بـ (ما بين يديها): أي ما قبلها أو ما بحضرتها، والمراد بما خلفها: ما بعدها[3]، فهي البَعْديَّة الزمانية.

أمّا لفظ (وراء) فهو مشترك بين معانٍ متعدّدة؛ **منها**: معنى البَعْديَّة الزّمانية، كما في قوله ﷻ: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ۝٥﴾ [مريم: 5]، أي: من بعد موتي[4]، **ومنها**: الدّلالة على التأخُّر في المكان، كما في قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾ [الحجرات: 4].

ومنها أنّها تُستعمل بمعنى أمام، كما في قول الله ﷻ: ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: 79] قال أبو حيان: "(وراءهم) لفظ يُطلق على الخلف وعلى الأمام، ومعناها هنا: أمامَهم، ولا خلاف عند أهل اللغة أن (وراء) يجوز بمعنى قُدّام"[5].

كما تستعمل بمعنى الكثرة والزيادة، نحو قول الله ﷻ: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٧﴾ [المؤمنون: 7] [المعارج: 31] أي: أكثر من ذلك، أو: غير ذلك، قال الطّاهر بن عاشور: "أصل الوراء: اسم المكان الذي في جهة الظّهر، ويُطْلَق على الشيء الخارج عن الحدِّ المحدود، تشبيهًا للمتجاوز الشيءَ بشيءٍ موضوع خَلْفَ ظهر ذلك الشيء ... ثم تُوسِّعَ فيه فصار بمعنى (غير)، أي: فمن ابتغوا بفروجهم شيئًا غير الأزواج وما ملكت أيمانهم"[6]، فلفظ (وراء) أعمّ دلالة وأكثر اتّساعًا من لفظ (خلف).

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (خلف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (ورى).
(3) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 286، وأبو حيّان، البحر المحيط: 1/ 246 - 247.
(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 2/ 502.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 6/ 154.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 01/ 18.

الرّجوع، والعودة، والمآب:

الرجوع نصٌّ فيما كان منه الابتداء والعودة محتملةٌ في ذلك

تتقارب هذه الألفاظ في المعنى، ويظهر الفرق بينها أنّ الرُّجوعُ: هو العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانًا كان أو فعلًا، أو قولًا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله[1]، أمّا العودة: فعلى الرّغم من احتمال أحد معانيه الرّجوع إلى الشيء بعد الانصراف عنه[2]، إلّا أنّه يحتمل أن يجيء بمعنى الصّيرورة[3]، وقد يطلق مرادًا به الابتداء[4]، فيكون الرجوع نصًّا في هذا المعنى، والعود محتملًا فيه وفي الصيرورة.

ويستعمل المآب ويراد به المنقلب الذي يؤول إليه النّاس: إمّا الجنة وإمّا النّار، فمنقلب أهل الإيمان الجنّة، كما قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾ [آل عمران: 14]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلۡفَىٰ وَحُسۡنَ مَـَٔابٖ ٢٥﴾ [ص: 25] ومنقلب أهل الكفر النّار، كما قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ ٥٥﴾ [ص: 55]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتۡ مِرۡصَادٗا ٢١ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابٗا ٢٢﴾ [النّبأ: 21 - 22] ففي مآب أهل الجنّة ومآب أهل النّار معنى الذّات، لدلالته على مكانة كلٍّ منهم، فضلًا عن دلالته على نهاية أعمالهم[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (رجع).
(2) الرّاغب، المفردات: (عود).
(3) الزّمخشري، الفائق: 2/ 186، والكفويّ، الكلّيات، ص: 657.
(4) الزّبيدي، تاج العروس: (عود).
(5) الدّوري، دقائق الفروق اللغوية، ص: 269.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ٧٧﴾ [الحج: 77]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

اصطفاء المرسلين من أجل تبليغ الدّين وتطبيق أمرِ ربِّ العالمين

لمّا ذكرتِ الآيات السابقة أن اللّه تعالى أمر عباده بتوحيدِه، واتباع ما جاء به الرسل، وردَّت على المشركين ما زعموه من افتراءاتٍ باطلة، وأكاذيب واجفة، وبيَّنت أنَّ اللّه ﷻ يصطفي رسلًا من الملائكة والبشر، ناسب أن يُتبع ذلك كلَّه بتوجيه الخطاب للمؤمنين، ليأمرهم بما عليهم أن يقوموا به من اتِّباع الرُّسل، وتطبيق ما جاءت به الرُّسل؛ ليكونوا عبادَ اللّه المصطفين، فهو انتقالٌ من بيانِ الرسالة وما احتوته من عقائد، إلى بيان الواجب على المؤمنين فعله وتطبيقه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تُفۡلِحُونَ﴾: (فلح) أصلٌ يدلّ على فوز وبقاء[1]، ومصدره: الفلاح؛ وهو الفَوْزُ بِما يُغتبَطُ به، وفيهِ صلاحُ الحالِ[2]، ويقال: أفلح؛ إذا أدرك مطلوبَهُ[3]، ويأتي الفلاح بمعنى البقاء في الخَيْرِ[4]، ومِنْهُ سُمّيَ السَّحورُ فلاحًا؛ لِأنَّ بِهِ بقاءَ البدنِ والحِفظَ مِنَ الضَّعفِ[5]، وبضمِّ المعنَيَيْن وهما الفَوْزُ والبقاء؛ يَتَحَصَّلُ لنا المعنى الكُلّيُّ لِلْفَلاحِ وهو الفوزُ وإدراكُ الخَيْرِ، ثُمَّ البقاءُ فيهِ، ولذا قيل فيه: ليسَ في كلام العرب كلمَةٌ أجمَعُ لِخَيْرِ الدُّنيا والآخرة مِنْها[6]، فالفلاحُ جامعٌ لخَيْرَيِ الدُّنيا والآخرة.

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فلح).
(2) الزَّبيدي، تاج العروس: (فلح).
(3) ابن دُريد، جمهرة اللُّغة: (فلح).
(4) الخليل بن أحمد، العين: (فلح)، وأبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 1/ 38.
(5) السَّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ في تفسير أشرف الألفاظ: (فلح).
(6) الطِّيبيّ، فتوح الغَيب في الكشف عن قناع الرَّيب: 6/ 430.

المَعْنى الإجْماليُّ:

آيةٌ جامعةٌ في الأخذ بأسباب الفلاح

تُخاطب الآيةُ المؤمنين بأن يتوجَّهوا إلى اللّه تعالى بالركوع والسجود، وعبادة ربِّ العالمين، وفعل الخير؛ لتحقيق الفلاح في الدنيا والآخرة، فهي آية جامعة لكلِّ معاني الخير والبركة.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ الاستفتاح بأسلوبِ النّداء:

تنبيه المؤمنين إلى ما سيُلقى إليهم من الأمر المبين

استفتح قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ بأداة (يا)، وهي أداة تُستعمل في الأصل لنداء البعيدِ، والغرض منها الإشارةُ إلى أنَّ الكلام الذي بعدها كلام يحتاج من المنادى الانتباه لما سيُقال، فيكون ذلك سببًا لاسترعاء سمع المؤمنين إلى ما سيُقال[1]، والغرض منه تنبيه السّامع لإيقاظ ذهنه واستحضار قلبه، فإنّ الحكيم إذا خاطب من يكون محلّ الغفلة أو مشغول البال يُقَدِّمُ بين يدي الكلام المقصود شيئًا؛ ليلتفت المخاطب بسببه إليه، ويُقبِلَ بقلبه عليه بسبب ذلك المقَدَّمِ، كالنّداء وحروف الاستفتاح وغيرها، تنبيهًا له على أنّ ما سيُلقى إليه أمر مهمّ[2]، وهنا نزّلت الآية المؤمنين منزلة الغافلين لأهميَّة ما سيُلقى إليهم من أوامر تكون سببًا في نجاحهم وفلاحهم.

دلالة النكرة المقصودة:

نداء المؤمنين لأداء أعظم شعيرة في الدّين

جيء بـ (أيّ) توصلًا لنداء ما فيه (أل)، وقد ذهب جمهور النحاة إلى أن معنى المنادى المعرف بـ (أل) والنّكرة المقصودة واحد لأنّهما معرفة، فقولك: (يا رجل) كقولك (يا أيّها الرجل)[3]، وأبدى بعض العلماء فرقًا بينهما، فإنّ المنادى في قولك (يا رجل) نكرة في

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 10/ 90.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 23.
(3) سيبويه، الكتاب: 1/ 310.

الأصل فقُصِدَ بالنّداء، وأمّا المعرّف بـ (أل) فهو معرفة، قبل قصده بالنّداء[1]، وكذلك فإنّ قولك (يا رجل) يدلّ على مجرّد النّداء، أمّا قولك (يا أيّها الرجل) يدلّ على ذلك أيضًا، ويُنبِئُ عن خَطَرِ المنادى له، أو غفلة المنادى[2]؛ فاستعمل (أيّ) في هذه الآية للدّلالة على تعظيم ما نودي لفعله المؤمنون، ألا وهي الصّلاة.

نكتة التعبير بالاسم الموصول:

الإيمانُ مهمازُ الأبدان ومحركُ القلوبِ النَّقيَّة

استُعمل الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ دون الاسم الظاهر لما يُفيده الاسم الموصول من التعليل بجملة الصّلة، فقد خصّ الله بالنّداء عباده الّذين استقرّ الإيمان في قلوبهم، لبيان أن هذه الأوامر والتشريعات لا يقوم بحملها والقيام بواجبها إلّا من امتلأ قلبُه إيمانًا عامرًا.

دلالة التعبير بصيغة الماضي:

إذا استقرَّ الإيمان قويت الأفعال ورسخت الأعمال

جاءت صلة الموصول في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ فعلًا ماضيًا ﴿ءَامَنُواْ﴾؛ لما تفيده صيغة الماضي من تحقّق الفعل ورسوخ الوصف في المخاطبين بهذه الأوامر، فإنّ الإيمان هو الباعث للعبد على عبادة ربّه رجاء للثواب الذي أعدّه الله للطائعين، وخوفًا من العقاب الذي توعّد الله به العصاة المتكبّرين؛ فلمّا ثبت الإيمان واستقرَّ حسُن الخطابُ؛ لما فيه من حسن الاستجابة.

نكتة توجيه الخطاب للمؤمنين:

تخصيص المؤمنين بالخطاب تشريفٌ وتكليف

خصَّ الله تعالى الخطاب في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ بالمؤمنين؛ ليكون ذلك كالتّحريض لهم على المواظبة على قبوله، وكالتّشريف لهم في ذلك الإقرار والتّخصيص[3].

(1) فاضل السامرائي، معاني النحو: 4/ 330.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 189.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 254، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5033.

بلاغة المجاز المرسل:

جاء الأمر في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ بالركوع والسجود، والمقصود الصلاة، فهي مجاز مرسل وعلاقته الجزئية، حيث أمر الله سبحانه بالرّكوع والسّجود (وهما جزء) والمقصود الأمر بالصّلاة (وهي الكلّ)، وذلك لأنّ الصّلاة هي المختصة بهذين الركنين فكان ذكرهما جاريًا مجرى ذكر الصلاة كليّة، ونكتة ذلك، في كون الركوع والسجود انتقال مباشر من القيام، فالراكع يركع بعد قيام، وكذلك الساجد يسجد بعد قيام، فكان هذان الركنان هما المختصين بهذه الخصيصة، كما أنَّ لهما من مزايا التطامن والخضوع والقرب ما لا يكون في سواهما، فخُصّا بالذكر دون أن يُقال: صلوا، أو أقيموا الصلاة.

اختصاص الركوعِ والسجودِ بكونِهما بعد قيامٍ

توجيه المخصوص بالذِّكر:

خُصَّ ذكر الركوع والسُّجود في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دون بقيَّة أركان الصَّلاة، لما فيهما من خضوع لم تعرفه بقيَّة الأديان، وقد ذكرت هذه السورة أديانًا أخرى لم يعهدوا الركوع والسجود كما هو في هيئة المصلين، بل بعض الفِرَقِ فيهم من يَستقبحُ - لما غلب عليه من العُتوِّ - بعضَ الهيئات الدالّة على ذلّ[1].

مزيَّة هذه الأمَّة في ركوعها وسجودها

بلاغة عطفِ العام على الخاص:

يظهر جليًّا في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ التّنويه بمكانة الصّلاة عند الله ﷻ، فإنّه لمّا كان للذّكر شأن ليس لغيره من الطاعات: دُعي المؤمنون أوّلًا إلى الصّلاة التي هي ذِكر خالص تشريفًا لها، ثمّ عمّ باقي أنواع العبادة بقوله:

الصلاة عماد الدّين ومجمعُ قلوب المتقين

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 254، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 99.

﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ أي: بغير الصلاة كالصوم والحجّ والغزو[1]، وهذا من عطفِ العامّ على الخاصّ لإفادة الشّمول، فبعد تخصيص الصّلاة بالذكر عمَّ باقي العبادات من صوم وزكاة وحجّ وغيرها[2].

فائدةُ إيثارِ لفظِ الربوبيّة:

الأمرُ بالعباداتِ قـائـمٌ عـلى التَّربيةِ الروحيَّة والـرعـايـةِ السلوكيَّة

آثر النَّظم الكريم الإتيان بعنوان الربوبية في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ دون لفظ الجلالة، والمقام مقام عبادة وطاعة وتشريع؛ لما في وصف الربوبية من الدّلالة على الشفقة بالمربوب، ومحبّة الخير له، وللتّنبيه على أن واجب العبيد التقرّب إلى مربيهم المحسن إليهم بكلّ نعمة دنيوية ودينية[3]، فذكر الربوبيّة إشعارٌ للعبادِ بمكانتِهم وحب الله لهم، وأنَّ العلاقة قائمةٌ على التَّربية الروحيَّة، في مدارج السلوك والوصول.

دلالة إضافة لفظ الربوبيّة إلى الضَّمير:

تكريمٌ وتنويهٌ ورفعةٌ وتشريف يسعى له كلُّ شريف

أُضيف لفظ الربوبيّة لضمير المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ لتتأتّى الإضافة المفيدة للتّشريف والقُرب فهو ربّهم[4]، فالمتقرِّب إلى ربّه بالعبادات محبٌّ له، والله يحبّه لقوله سبحانه في الحديث القدسيّ: "ما تَقَرَّبَ إلَيَّ عَبْدي بشَيءٍ أحَبَّ إلَيَّ ممّا افْتَرَضْتُ عليه، وما يَزالُ عَبْدي يَتَقَرَّبُ إلَيَّ بالنَّوافِلِ حتَّى أُحِبَّهُ"[5]، ولتكريم المؤمنين ورفع شأنهم، فإنَّ الآمر هو ربهم، ففيه حضٌّ وحثٌّ على العبادةِ الحقَّة.

بلاغة اختيار مفردة ﴿وَٱفۡعَلُواْ﴾:

فـعـل الـخـير سـجـيَّـة من سجايا المؤمنين

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الفعل في قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 172.
(2) ابن عرفة، التّفسير: 3/ 200.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 100.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 4/ 202.
(5) رواه البخاريّ في صحيحه رقم: (6502).

﴿ٱلۡخَيۡرَ﴾ دون مرادفاته، وذلك باعتبار أنَّ الأفعال هي سجايا الإنسان، فليس المطلوب من المؤمنين أن يعملوا الخير فحسب - وهذه درجة عظيمة - بل أن يعملوه إلى أن يصبح سجيَّةً من سجاياهم، وخصلةً من خصالهم.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلۡخَيۡرَ﴾:

جاء لفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ معرّفًا بـ(أل)؛ لإفادة الاستغراق، بمعنى الأمر بفعل كلّ أنواع الخير من الصدقات وأعمال البرّ وكلّ ما فيه نفع للعباد.

بلاغة ترتيب الأوامر:

الترقّي من الأخصّ إلى الأعمّ ومن الخير اللازم إلى الخير المتعدي

اشتمل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ على أربعة أفعال أمر، فبدأ بذكر الأمر بالرّكوع والسّجود؛ لأنّهما أشرف أركان الصلاة الّتي هي أشرف العبادات، ثمّ عمّ بقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾؛ ليشمل باقي العبادات البدنية والمالية من صوم وزكاة وحجّ، ثمّ عمّ بالحثّ على سائر الخيرات وجميع ما يُحتاج إليه في الدّين، وهو المراد من قوله تعالى: ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾، فيظهر في هذا الترتيب أنّهم أُمِروا أوّلًا بالصّلاة وهي نوع من العبادة، وثانيًا بالعبادة وهي نوع من فعل الخير، وثالثًا بفعل الخير وهو أعمّ من العبادة، فبدأ بخاصّ ثم بعامّ ثم بأعمّ، فهو كالتّرقّي والتدرّج من الأخصّ إلى الأعمّ[1]، كما أنَّ فيه تدرُّجًا من الخير اللازم إلى الخير المتعدّي.

فائدة التعبير بـ(لعلّ):

الترجّي في القرآن بمنزلة التحقيق

استُعملت أداة (لعلَّ) في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩﴾ الدالّة على التّرجّي لأمر محبوب[2]، والرّجاء في هذه الآية مستعملٌ

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 539، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 534.
(2) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 1/ 304.

في معنى تقريب الفلاح للمؤمنين إذا بلغوا بأعمالهم الحدّ الموجب للفلاح فيما أمر اللّه تعالى، والتّرجي في القرآن بمنزلة التّحقيق، وأمّا ما يستلزمه الرّجاء من تردد الرّاجي في حصول المرجوّ فذلك لا يخطر بالبال لقيام الأدلَّة التي تُحيل الشكّ على اللّه تعالى، ولأنّ المؤمنين يعلمون أنّ اللّه سبحانه لا يترك أن يفعل بعباده ما أطمعهم فيه من الجزاء على أعمالهم والعِوض على طاعتهم إيّاه[1].

دلالة التعبير بصيغة المضارع ﴿تُفۡلِحُونَ﴾:

طيبُ حياةِ الدُّنيا والفوزُ المبينُ في جنَّةِ ربِّ العالمين

جاء فعل الفلاح في قوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على حصول الفلاح في الحال والاستقبال، والفلاح: الظَفَر وإدراك البُغية، وذلك ضربان دنيويّ وأخرويّ، فالدّنيوي الظَّفر بالسّعادات التي تطيب بها الحياة الدّنيا وهي البقاء والغنى والعزّ والعلم، والأخرويّ أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، وغنى بلا فقر، وعزّ بلا ذلّ، وعلم بلا جهل، ولذلك قيل: لا عيش إلا عيش الآخرة[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفعل والعمل والصّنع:

الفعل أعمُّ من العمل من جهة وأخـص من أخرى، والصنع أخصُّ الجميعِ

العمل أخصّ من الفعل من جهةٍ؛ لأنّ الفعل قد يُنسب إلى الحيوانات الّتي يقع منها فعل بغير قصد، وقد يُنسب إلى الجمادات، والعمل قلّما ينسب إلى ذلك.

والعمل أعمّ من جهةٍ أخرى؛ لأنه من أعمال الجوارح والقلب، وتدخل فيه الأقوال، لأنّها عمل اللّسان، وهو من جملة الجوارح، وقد وقع في التّقابل الفرق بين الأقوال والأفعال، فيقولون: سديد الأقوال والأفعال[3]، والعمل لمّا كان مع امتداد زمان نحو: ﴿يَعۡمَلُونَ لَهُۥ مَا

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 526.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 63.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (عمل).

يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍۚ﴾ [سبأ: 13]، وأنّ العمل لا يُقال إلّا فيما كان عن فكرٍ ورَوِيَّةٍ، ولهذا قُرن بالعلم[1].

وأضيف أنّ الملحظ الأخير عن الفِكر والرّويّة كأنّه متمّم أو لازم لملحظ امتداد زمن العمل، كما أضيف أنّ ممّا يُؤيّد ملحظ الامتداد هذا أنّنا نسأل الشّخص عن حرفته فنقول له: ما عملك؟ والعرب تقول: "رجل عَمول: إذا كان كسوبًا، وفلان خبيث العِمْلة - بالكسر - أي الكسب (السّعي الّذي يحّل منه رزقه)"[2].

أمّا الصّنع فهو أخصّ من الفعل والعمل، وهو إجادةُ الفعل، فكلّ صُنْعٍ فِعْلٌ، وليس كلّ فعل صُنْعًا، ولا ينسب إلى الحيوانات والجمادات كما ينسب إليها الفعل، قال تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88][3].

الفلاح، والفوز:

الفوز النجاة مع الوصول إلى المحبوب والفلاح إدراك كل مأمول في الدنيا والآخرة

الفوز: ضدّ الهلاك[4]، وهو الظّفر بدلًا من الوقوع في الشَّرِّ[5]، ولذا قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، فجعل فوزهم بدلًا من دخولهم النّار، ومنه جعل الحِميريّ النّجاة من معاني الفوز[6]، وقال الخليل: "الفوز: الظّفر بالخير، والنّجاة من الشرّ"[7]، يُقال: فاز بالخير، وفاز من العذاب[8]، ولذا فإنّ الفوز ليس مجرّد الخلاص ممّا يُكره، وإنّما هو الخلاص منه مع الوصول إلى المحبوب، "ولهذا سمّى اللّه تعالى المؤمنين فائزين

(1) الكفوي، الكليات، ص: 616.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (عمل).
(3) الرّاغب، المفردات: (صنع).
(4) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (فوز).
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 211.
(6) نشوان الحمريّ، شمس العلوم: (فوز).
(7) الخليل، العين: (فوز).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (فوز).

لنجاتهم من النّار ونيلهم الجنّة"[1]، وأمّا الفلاح فهو إدراك الخير والبقاء فيه، فهو "يجمع بين الدنيا والآخرة، فهو ثمرة لنجاحات متعددة، وفيه جنْيٌ لثمار النّجاح، وفيه إدراك كل مأمول، وفيه معنى السّعة، ومعنى التّيسير، ومعنى البقاء والخير[2]، والبَقاء في الخير يلزم منه النّجاة من المكاره، فالفلاح أجمع وأوعب.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 210.

(2) محمّد داود، معجم الفروق اللغوية والدّلاليّة، ص: 43.

﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ ٧٨﴾

[الحج: 78]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

نشر دعوة الحقّ سعيًا في نفع جميع الخلق

لمّا أمر اللّه سبحانه في الآية السّابقة بتطهير النفس، وملئها بعبادةِ اللّه تعالى في الصّلاة خصوصًا والعبادة عمومًا، ثمّ الأمر بفعل الخير لعمومِ الأمّة، ناسب أن تتابع الأوامر في هذه الآية بالنّفع الإنساني بتبليغ الرّسالة المحمدية للنّاس جميعًا، وذلك بالدّعوة إلى الإسلام والجهاد وتذليل العقبات في سبيل هذه الدّعوة(1).

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾: (جهد) أصله المشقّة، ثمّ يُحمل عليه ما يقاربه، وأصلُ (الجُهدِ) الطّاقةُ والمشقّةُ، يُقال: جاهد العدوَّ مجاهدةً وجهادًا: قاتله، والجِهاد والمجاهدة: استفراغ الوُسعِ في مدافعةِ العدوِّ، فالجهادُ استفراغ ما في الوُسع والطّاقة من قول أو فعل، والمعنى في الآية: محاربة الأعداء(2).

2) ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾: (جبي) أَصْلٌ يدلُّ على جمع الشيء والتجمّع، يقال: جَبَيْتُ المال أجبيه جِبايَةً، وجبيت الماء في الحوض(3)، واجتبى

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5030.

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (جهد).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جبي).

الشّيء: اصطفاهُ واختارَهُ لنفسه، قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: 6][1]، والاجتباءُ: الجَمعُ على طريقِ الاصطفاءِ، واجتباءُ اللّه العبدَ: تخصيصهُ إيّاه بفضل إلهيٍّ، يتحصّل له منه أنواعٌ منَ النِّعَم بلا سعيٍ منَ العبدِ، وذلك للأنبياءِ، وبعض مَن يُقاربُهُم منَ الصّدّيقينَ والشّهداءِ[2]، فمعنى اجتباء اللّه للمسلمين اختيارهم لحمل أعباء دينه ونشر تعاليمه في الخلق.

3) ﴿حَرَجٖ﴾: (حرج) أصلٌ يَدُلُّ على تجمُّع الشّيء وضيقه، وقَدِ استُعملَ في الشكِّ؛ لأنَّ النَّفْس تَقلقُ مِنْهُ، ولا تَطْمَئِنُّ، والحَرَج أيضًا: الإثْمُ؛ لأنَّه يوقِعُ في الضّيق، والحَرَجُ: الضّيق، ومَكانٌ حَرِجٌ وحَريج: ضيِّق، ورجل حَرَج وحَرِج: ضيِّقُ الصدْر، فقولُهُ سبحانه: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، أيْ: ما جعل عليكم فيه ضيقًا[3].

4) ﴿مِّلَّةَ﴾: (ملّ) أصلٌ يدلُّ تصريفاته على تَهيُّؤٍ أو تهيئة بالامتداد لأجل الانتفاع والصّلاح، ومنه قولهم: طريق مَليل، وهو الممتد المهيّأ، وذلك لكونه قد سُلك حتى صار مَعْلمًا[4]، والملّة: الطّريقة المسلوكة[5]، وتُطلق على الدّين، وتجمع على مِلَلٍ، مثل: سِدْرَةٍ وسِدَرٍ[6]، وحقيقة الملّة شرعًا أنّها: اسمٌ جامعٌ لما شرعه اللّه سبحانه لعباده على ألسنة أنبيائه ورسله[7].

5) ﴿أَبِيكُمۡ﴾: (أبو) أَصْلٌ يَدُلُّ على التَّرْبِيَةِ والغَذْوِ، أَبَوْتُ الشَّيْءَ آبوهُ أَبْوًا: إذا غَذَوْتُهُ، وبذلك سُمّيَ الأَبُ أبًا[8]، والأب أيضًا: الوالد، ويسمّى كلّ من كان سببًا في إيجاد شيءٍ أو صلاحه أو ظهوره أبًا[9]، ومعنى أبوّة إبراهيم عليه السلام للمؤمنين في الآية أنّه أبو رسول اللّه ﷺ، وهو كالأب لأمّته، أو لأنّ أكثر العرب كانوا من ذرّيته فغَلَبوا على غيرهم، وقيل: معنى أبوّته كونه مقدّمًا في التّوحيد، مفيضًا على كلّ موَحّد، فكلّهم من أولاده[10].

(1) أحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جبو).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جبى)، والراغب، المفردات: (جبى).
(3) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 130، وابن دريد، جمهرة اللّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللُّغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حرج).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ملل).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (ملل).
(6) الفيّومي، المصباح المنير: (ملل).
(7) الراغب، المفردات: (ملل).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أبو).
(9) الراغب، المفردات: (أبو).
(10) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.

6) ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾: (سمو) أصلٌ يدل على العلو، يقال سموت، إذا علوت[1]، والِاسْمُ: ما يعرف به ذات الشيء، وأصله سِمْوٌ، بدلالة قولهم: أسماء وسُمَيٌّ، وأصله من السُّموِّ وهو الذي به رفع ذكر المُسَمَّى فيعرف به[2]، ومعنى ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ في الآية أنّ الله ﷻ اختصّ المسلمين بهذا الاسم مِن قبلُ في الكتب المنزَّلة السّابقة، وفي هذا القرآن[3].

7) ﴿شَهِيدًا﴾: (شهد) أَصْلٌ يَدُلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإِعْلام، لا يخرج شيء من فروعه عنها، من ذلك الشّهادة، يَجْمَعُ الأصولَ الّتي ذُكِرَتْ من الحضور، والعلم، والإعلام، يقال: شَهِدَ يَشْهَدُ شَهادَةً، والمَشْهَدُ: محضَرُ النّاسِ[4]، والشُّهودُ والشَّهادَةُ: الحضور مع المشاهدة، إمّا بالبصر، أو بالبصيرة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ [السجدة: 6]، أي: ما يغيب عن حواسّ النّاس وبصائرهم وما يشهدونه بهما[5]، فيكون معنى ﴿شَهِيدًا﴾: شاهدًا بقول صادر عن علم حَلَّ بمشاهدة بصيرة أو بصر[6].

8) ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ﴾: (عصم) أَصْلٌ يَدُلُّ على الإمساك والمَنْع والملازمَة، فكُلُّ مانع شيئًا، فهو عاصِمُهُ، والممتنع به معتصم به، والعِصمة: كلّ شيء اعتصمتَ به، ولذلك قيل للحبل: عِصام، وللسّبب الّذي يتسبّب به الرّجل إلى حاجته: (عصام)، والاعتصام: التّمسّك بالشّيء، قال تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا﴾ [آل عمران: 103]، أي: وتمسّكوا بدين الله الّذي أمركم به، وقوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ معناه التّمسّك بسببه، وبدينه وطاعته، وطلب النّجاة والمنعة به[7].

9) ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾: (ولي) أَصْلٌ يَدُلُّ على قُربٍ، والمولى يُطلق بإزاء معانٍ: فالمولى: النّاصرُ والمُنْعِم وابن العمّ والحليف، وكُلّ من تولّى أمرك فهو مولاك، والولاء يحصل لما فيه من معنى القُرب من حيث النّسب، ومن حيث الدّين ومن حيث الصداقة والنّصرة

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو).
(2) الراغب، المفردات: (سمو).
(3) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسر، ص: 341.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) الراغب، المفردات: (شهد).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (شهد).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 5/ 634، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 2/ 141، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحُفّاظ: (عصم).

والاعتقاد، والولي والمولى يستعملان في كلّ ذلك[1]، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ١١﴾ [محمّد: 11]، فاللّه مولى المؤمنين بمعنى أنّه ناصرهم، والقائم بأمرهم.

10) ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾: (نصر) أصلٌ صَحيحٌ يدلُّ على إتيانِ خيرٍ وإيتائِه، ومنه: نصر اللّه تعالى للمسلمين؛ وهو إيتاؤهم الظَّفَرَ على عَدوِّهم[2]، والنُّصرَة: حسنُ المعونة[3]، وتأتي بمعنى: التّنجية والتّخليص[4]، والنّاصر: المُعين، فيكون معنى قول اللّه تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ أنّه نعم المعين للمسلمين في جهادهم على الكافرين، فهو الموثوق منه بألّا يُسَلِم أولياءه ولا يخذلهم[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

اصطفاء الله سبحانه المؤمنين للقيام بنشر الدّين وتبليغه لسائر العالمين

عطفت الآية مجموعةً من الأوامر على الآية السّابقة، وفيها أمر اللّه سبحانه المؤمنين بأن يُجاهدوا أنفسهم، ويقوموا قيامًا تامًّا بأمر اللّه، لدعوة الخلق إلى سبيله، والجهاد بالأموال والأنفس، مخلصين فيه النيّة للّه ﷻ، مسلمين له قلوبهم وجوارحهم، فهو الذي اصطفاهم لحمل هذا الدّين، وقد منَّ عليهم بأن جعل شريعته سمحة، ليس فيها تضييق ولا تشديد في تكاليفها وأحكامها، كما كان في بعض الأمم، وهذه الملّة السمحة هي ملّة أبيكم إبراهيم ﵇، وقد سَمّاكم اللّه المسلمين مِن قبلُ في الكتب المنزَّلة السّابقة، وفي هذا القرآن، وقد اختصَّكم بهذا الاختيار؛ ليكون خاتم الرّسل محمد ﷺ شاهدًا عليكم بأنّه بلَّغكم رسالة ربّه، وتكونوا شهداء على الأمم أنّ رسلهم قد بلَّغتهم بما أخبركم اللّه به في كتابه، فعليكم أن تعرفوا

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ، والفيومي، المصباح المنير: (ولي).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نصر).

(3) الخليل بن أحمد، العينُ: (نصر).

(4) الزَّبيديّ، تاج العروس: (نصر).

(5) الحسين بن الحسن الحَليمي، المنهاج: 1/ 205.

لهذه النّعمة قدرها، فتشكروها، وتحافظوا على معالم دين اللّه بأداء الصّلاة بأركانها وشروطها، وإخراج الزّكاة المفروضة، وأن تلجؤوا إلى اللّه ﷻ، وتتوكّلوا عليه، فهو نِعْمَ المولى لمن تولّاه، ونعم النّصير لمن استنصره[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوصل بالواو:

الصلاة عمود الدّين، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله

وُصل قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ بما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران؛ لأنّه تكميل لأنواع العبادات المذكورة في الآية السّابقة، وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩﴾، فبعد الأمر بحمل النّفس على العبادات البدنية والمالية أمر بجهاد السّيف؛ لأنّه أساس الدّين وذروة سنامه، والعلاقة بين الصلاة والجهاد علاقة تكامليَّة، فإنَّ الصلاة إصلاح النّفس والذات، والجهاد إصلاح الآخر والناس، والمسلم لا يستقيم حاله ما لم يجتهد في الأمرين، فإنَّ نفع المؤمنين يعمُّهم ويعمُّ غيرَهم من العباد، ولا تقتصر عبادةُ المؤمنين على العبادة الذّاتيَّة، بل تتعدّاها إلى العبادة الكبرى في دعوة النّاس للدُّخول في سياج الإسلام، ومن قصَّر في الأولى قصَّر في الأخرى، ومن أهمل الثّانية لم يُحقِّق شروط الأولى.

بلاغةُ الأمر بصيغة المفاعلة:

بذل الجهد في نشر الدّين وقتال أعداء المسلمين

جاء الأمر بالجهاد في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ بصيغةِ المفاعلةِ؛ لأنّ المؤمن يبذل جهده في الدّعوة إلى اللّه، والمقاوِم من الكفّار يبذل جهده في الصدّ عن سبيل اللّه، ومقاومة الحقّ، فبينهما مدافعةٌ ومجابهة؛ فالجهاد حقيقة عرفية في قتال أعداء

(1) نخبة منَ العلماء، التّفسير الميسّر، ص: 341.

المسلمين في الدّين لأجل إعلاء كلمة الإسلام أو للدّفع عنه كما فسّره النبيّ ﷺ بقوله: "من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه"[1]، وعليه فالمجاهدة بذل الوسع والجهد في سبيل نشر دين الحقِّ، ودفع صولة الباطلِ وأهل الكفر، ولا يكون هذا إلّا بالمدافعةِ والمجابهة.

معنى حرف الجرّ ودلالته:

إخلاصُ النّيّةِ شرطٌ في إعلاءِ كلمةِ الله تعالى

استعمل النَّظم الكريم حرف الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾، ومعناه السببيّة، أي: الجهاد لأجل ذات اللّه وابتغاء مرضاته، وذلك كما في الحديث الشريف: "دخلت امرأة النّار في هرّة"[2]، والإتيان بـ ﴿فِي﴾ بدل (الباء) أو (من) فيه معنى إحاطة اللّه تعالى بالجهاد بأن يكون كلّه للّه تعالى[3]، وإذا كان على حذفِ المضاف والتقدير: (في سبيل اللّه)؛ فحرف الظَّرفيَّة على حقيقته.

نكتةُ حذف المضاف:

تعظيم المهابة في قلوب العباد

في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ ذُكر اسم اللّه الأعظم دون أن يُضاف إليه (سبيل)، فهو على حذف المضاف؛ وذلك لإبراز أثر اسم اللّه الأعظم الجامع لأسمائه الحسنى، والغرض استحضار عظمة اللّه الجامعِ لِصِفاتِ الكمالِ، في مواطن الوغى.

دلالة التعبير بالمفعول المطلق:

الجهادُ الحقُّ هو الكامل في الذّات والأقوال والأفعال

انتصب لفظ ﴿حَقَّ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ على النيابة عن المفعول المطلق المبين للنوع؛ لإضافته إلى المصدر وهو ﴿جِهَادِهِۦۚ﴾، والغرض منه بيانُ نوع الجهاد الذي يأمر اللّه به عبادَه المؤمنين، وهو الجهاد الحقّ بمعنى الخالص، أي

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (123)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1904).
(2) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3248)، ومسلم صحيح مسلم، الحديث رقم: (6931) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5035.

الجهاد الذي لا يشوبه تقصير في ذات اللّه سبحانه[1]، ولا يلحقه رياءٌ في طلب رضا النّاس وإعجابهم، بل هو جهاد كاملٌ في ذاته وصفاته وأفعاله.

بلاغة المركب الإضافي ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾:

كلُّ جهادٍ خالٍ من الإخلاصِ واستكمال الشُّروطِ فعبثٌ ولعب

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ إضافة الصفة ﴿حَقَّ﴾ إلى الموصوف ﴿جِهَادِهِۦ﴾، ومعنى ﴿حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾: (جهادًا حقًّا) فعُكس، وأضيف الحقُّ إلى الجهاد مبالغةً؛ ليفيد أنّ هناك جهادًا واجبًا القيام بموجبه وشرائطه على وجه التّمام والكمال بقدر الوسع والطّاقة[2]، فألفاظ (كلّ) و(جدّ) و(حقّ) إذا وقعت تابعةً لاسم جنس، مضافة لمثل متبوعها لفظًا ومعنًى، نحو: (أنت عالم كلّ عالم) أو (جدّ عالم) أو (حقّ عالم) أفادت أنّه تجمّع فيه من الخِلال ما تفرّق في الكُلّ، وأنّ ما سواه باطل أو هزل[3]، أي: أنَّ الجهاد الذي لا يكون حقَّ الجهاد في خلوصه من الشوائب، وخلوه من النواقص، وتكديره بالرياء، فهو ليس بجهادٍ حقٍّ، بل هو أقرب إلى العبث واللعب.

توجيه إضافة الجهاد إلى الضمير:

لما كان الجهاد في سبيل الله تعالى صحَّت إضافته إليه

أضيف لفظ الجهاد في قَوْله تَعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ إلى الضمير العائد على اللّه ﷻ، وكان القياس: حقّ الجهاد فيه، أو حق جهادكم فيه، كما قال: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ﴾؛ لأنّ الإضافة تكون بأدنى ملابسة واختصاص، فلما كان الجهاد مختصًّا باللّه من حيث إنه مفعولٌ لوجهه، ومن أجله، صحَّت إضافته إليه سبحانه[4]، ويشهد لذلك أنّه لمّا سُئل رسول اللّه ﷺ: يا رسول اللّه،

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 348.

(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 536.

(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 278.

(4) الزمخشريّ، الكشّاف: 3/ 173.

الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل اللّه؟ فقال رسول اللّه ﷺ: "من قاتل لتكون كلمة اللّه هي العليا فهو في سبيل اللّه"[1].

توجيه فصل جملة ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾:

جملةُ التَّعليل بيانٌ للسّابق وتوكيدٌ

فُصلت جملة: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ عمّا قبلها؛ لأنّها واقعةٌ موقعَ العلّة، لِما أُمِروا به ابتداءً من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾، أي: لأنّه لمّا اجتباكم، كان حقيقًا بالشكر له بتلك الخصال المأمور بها[2]، فالجملة تعليلٌ مبيِّن للسّابق، كأنه قال: لأنَّه اجتباكم، والبيان من موجبات الفصل، ويصح أن تكون الجملة حالًا من لفظ الجلالةِ.

دلالة ضمير الفصل:

اللّه وحده من يجتبي عباده

أوثر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ استعمال ضمير الفصل ﴿هُوَ﴾، والغرض منه تفخيمُ قدره سبحانه، واختصاصه بالاجتباء، فهو وحده من يجتبي من عباده من شاء لا غيره، وقد اختاركم لدينه ونصرته، وفي هذا تنبيهٌ على ما يقتضي الجهادَ ويدعو إليه[3].

نكتة التعبير بصيغة الماضي:

اختصاص أمّة محمد ﷺ بالتكريم من القديم

آثر النَّظم التعبير بصيغة الماضي: ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾؛ للدّلالة على تحقّق ذلك من القديم، فأمّة محمد ﷺ هي الأمة المرحومة المختارة للتوحيد والدعوة إليه، والجهاد في سبيله، الموسومة بذلك في الكتب المتقدمة، فقد زيّن اللّه هذه الأمّة بزينة الخواص قبل أن يوجدها، وقد سبقت لها من اللّه تعالى الخصوصيّة في الأزل[4].

(1) متفق عليه، أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (123)، ومسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (1904).

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 349.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 122.

(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 537.

دلالةُ الخطاب في فعل ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾:

الخطابُ محمولٌ على الصَّحابةِ ومرادٌ به غيرهم ممَّن جاء بعدهم

جاء التعبير بمفردة الاجتباء وهو: الاصطفاء والاختيار، أي هو اختاركم لتلقي دينه ونشره ونصره على معانديه، والخطاب إمّا أن يكون موجَّهًا لأصحاب رسول الله ﷺ أصالة، ويشركهم فيه كل من جاء بعدهم بحكم اتحاد الوصف في الأجيال كما هو الشأن في مخاطبات التشريع، وهو الظاهر، وإمّا أن يكون محمولًا على معنى التفضيل على الأمم، فيكون ملحوظًا فيه تفضيل مجموع الأمة على مجموع الأمم السابقة الراجع إلى تفضيل كل طبقة من هذه الأمة على الطبقة المماثلة لها من الأمم السالفة[1].

نوع الواو ودلالتها:

الواو في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ للعطفِ على الاجتباء، أي: جاهدوا في الله حق الجهاد فيه لأنَّه اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج.

بلاغة النفي بأداة (ما):

النَّفي إذا عمَّ أكَّد وإذا أكَّد حقَّق المقصود

آثر النَّظم الكريم النَّفي بأداة (ما) في قول الله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾؛ للتَّأكيدِ على عدم وجود أيِّ حرجٍ في الدّين، وذلك لأنّ في حرف (ما) من معنى التّأكيد ما ليس في غيره، كما قال سيبويه: "وإذا قال: (لقد فعل)؛ فإنّ نفيه: (ما فعل)؛ لأنّه كأنّه قال: (والله لقد فعل)، فقال: (والله ما فعل)"[2]، فهي آكد في النفي من (لم)[3]، وسرُّ التَّأكيد عموم النَّفي، إذ تعمُّ أداةُ النَّفي كلَّ مقصودٍ بالنَّفي، كأنَّه قال: فما جعل أدنى جعلٍ في الدين من حرج، فعمَّ كلَّ حرجٍ يدخل تحت لواء النَّفي.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 349.
(2) سيبويه، الكتاب: 3/ 117.
(3) السّامرائيّ، معاني النَّحو: 4/ 569.

براعة اختيار مفردة الجعل:

أحكام الجهاد خاضعةٌ لمصالح الأمَّة ومقدّراتها وأولوياتها

آثر النظم الكريم في قول اللّه تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ استعمالَ فعل ﴿جَعَلَ﴾، دون أن يقول: (ما شرع لكم في الدين حرجًا)، وذلك لبيانِ أنَّ الشرع لا يصير إلى حالة الحرج، فإنَّ ما شُرع في الجهاد من أحكام، فلا تؤول إلى الحرج بتاتًا، وذلك أنَّ أحكام الجهاد لا تخضع لحالةٍ واحدةٍ، بل لها حالات كثيرة، وتتشابه وتتشابك، وللجهاد فقه مآلات وأولويات وواقع، وهو مرتبطٌ بوليٍّ أمر المسلمين، واستعداد الأمَّة للقتال، فالأصل في أحكامه أن تكون غير عسرة، ولا شاقَّة، وأن تكون بتكييفٍ فقهي مقاصدي مرفوعٍ عنه الحرج، ولذلك قال: ﴿وَمَا جَعَلَ﴾؛ ليُعلم أنَّ اللّه تعالى لا يريد الحرج لهذه الأمَّة في أحكام الجهاد، ولا يُريد من الأمة أن تتكلّف فوق طاقتها في ذلك.

دلالةُ استعمال حرف الاستعلاء:

رفع الحرج في واجبات الدّين وتيسيره على المكلّفين

أُشيرَ في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ إلى خلوّ تكاليف الدّين وواجباته من الحرج والضّيق، وذلك في قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ﴾، فإنّ عبارة ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ من الأساليب الخبرية الدالّة على الوجوب: كالأمر، والتصريح بالإيجاب، والفرض، والكَتْبِ، ولفظة (حقٌّ على العباد، وعلى المؤمنين)[1]، بل هو من أوكد ألفاظ الوجوب عند العرب، فإذا قال العربي: لفلان عَلَيَّ كذا فقد وكَّدَهُ وأوجبه[2]، فنفى اللّه بذلك الحرج في واجبات الدّين وتكاليفه جميعًا.

معنى ﴿فِي﴾ في الآية:

أحكامُ الدين خاليةٌ من العسر مفضيةٌ إلى اليُسر

استعمل حرف الجرّ ﴿فِي﴾ من قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ للدلالة على الظّرفية، فالدّين الذي ارتضاه اللّه

(1) ابن القيّم، بدائع الفوائد: 4/ 1307.
(2) ابن العربي، أحكام القرآن: 1/ 374.

لعباده المؤمنين لا يحتوي في ثنايا تكاليفه وشرائعه على أيّ عسر، فقد يسّر اللّه على عباده المؤمنين حمل هذا الدّين والالتزام بأحكامه السّمحة، فمن تأمَّل دينَ اللّه تعالى وجده خاليًا من العسر والحرج، مفضيًا إلى اليُسر والبشارة.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾:

اليُسر صفةٌ لازمةٌ لدين الإسلامِ

جاء لفظ ﴿ٱلدِّينِ﴾ معرّفًا في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾، والمقصود به العهد الذهني، أي: دين الإسلام، فقد رفع اللّه الحرج والضّيق عن هذه الأمّة في جميع أمور دينها أصولًا وفروعًا، ولم يثقلها بتكليف ما يشقّ القيام به كما كان على الأمم السّابقة(1).

فائدةُ حرف ﴿مِنۡ﴾:

استعملت الآية حرف ﴿مِنۡ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ للمبالغة في عموم النفي؛ فكأنَّه قال: (ما جعل عليكم أدنى حرج).

توجيهُ المجازِ في مفردةِ ﴿حَرَجٖ﴾:

بعضُ المجازات أصبحت حقائقَ عرفيَّة بكثرة الاستعمالِ

لفظُ ﴿حَرَجٖ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ مجازٌ، فإنّ الحرج مأخوذٌ من الحَرَجَة، وهي الشجر الملتف المتضايق، فأُطلق على عُسر الأفعال تشبيهًا للمعقول بالمحسوس، ثُمَّ شاع ذلك حتّى صار حقيقة عرفيَّة في الضّيق(2)، وهذا الذي يُقال فيه مجازٌ تُنوسي معناه الأصلي، وعومل معاملة الحقائق.

نكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿حَرَجٖ﴾:

رحمة اللّه بالمؤمنين برفع أدنى حرج في أمور الدّين

ورد في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖ﴾ لفظ ﴿حَرَجٖ﴾ نكرة، والغرض من تنكيره الإبهام، فلم يجعل اللّه أدنى

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 135، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.

حرج في أمور الدّين، ولم يشدد على هذه الأمّة شيئًا كما شدّد على من قبلها، فمن ذلك: قبول توبة المؤمنين إذا ندموا وأقلعوا، ولم يجعل توبتهم قتل أنفسهم، وإذا أذنب الشخص منهم ذنبًا، ستره اللّه ولم يفضحه في الدنيا، بأن يجده مكتوبًا في جبهته أو على باب داره، كما كان فيمن قبلهم، وجعل النجاسة تُزال بالماء دون قطع محلّها، وغير ذلك من التيسير[1].

نكتة تقديم شبه الجملة:

الاهتمام بتشريعات الدّين وإزاحة أعذار المكلّفين

قُدّم الجار والمجرور ﴿فِي ٱلدِّينِ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ على المفعول؛ للاهتمام بتشريعات الدّين وإزاحة أعذار المكلّفين في عدم القيام بتكاليفه وشرائعه، ومن ذلك تشريعه للرُّخَصِ وكون المشقّة تجلب التيسيرَ، وإنّه سبحانه لم يبتلِ عبده بشيء من الذنوب إلّا وجعل له مخرجًا منها إما بالتّوبة أو بالكفّارة[2]، وقد اعتبر بعض العلماء سياق الآيات السابقة، فقال: إنّ فيه إشارةً إلى أنّ فرضيّة الجهاد مرفوعة عن أصحاب المعاذير وقت عذرهم، وهي في الوقت ذاته قاعدة عامة في معاني الشريعة الإسلامية[3].

فائدة استعمال مفردة ﴿مِّلَّةَ﴾:

الملّة لا تضاف إلّا إلى النبيّ الّذي تسند إليه، وهي أعمُّ من الدين

آثر النظم الكريم استعمال مفردة ﴿مِّلَّةَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمۡ إِبۡرَٰهِيمَۚ﴾ دون غيرها من الألفاظ القريبة كالدّين، وذلك لأنّ الملّة هي اسم لما شرع اللّه لعباده على لسان الأنبياء ليتوصّلوا به إلى جوار اللّه تعالى، والفرق بينها وبين الدّين أنّ الملة لا تضاف إلّا إلى النبيّ الّذي تسند إليه نحو: ﴿فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ﴾ [آل عمران: 95]، ﴿وَٱتَّبَعۡتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۚ﴾ [يوسف: 38]، ولا يكاد

(1) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 92.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 255.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5036.

يوجد مضافًا إلى الله تعالى ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، ولا يُستعمل إلّا في جملة الشرائع دون آحادها؛ فلا يقال: مِلّة الله ولا مِلّتي ومِلّة زيد، كما يُقال: دين الله، وأصل الملّة من مَلَلْتُ الكتاب، ويُقال الملّة اعتبارًا بالنبيّ الّذي شرعها، والدّين يقال اعتبارًا بمن يقيمه إذا كان معناه الطّاعة[1].

توجيه نصب ﴿مِلَّةَ﴾ ودلالتها البلاغيَّة:

أثر تنوّع المعاني الدلاليّة في تعدّد التخريجات الإعرابية

ورد لفظ ﴿مِلَّةَ﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ منصوبًا، وقد قيل في توجيه نصبه: إنّه منصوب على المصدريّة، بفعل دلّ عليه ما قبله من نفي الحرج، بعد حذف مضاف، أي: وسّع دينكم كتوسيع ملّة أبيكم إبراهيم، أو على الإغراء بتقدير: (اتبعوا أو الزموا)، كأنَّه قال: (اركعوا والزموا مِلّة إبْراهيم)[2]، أو الاختصاص بتقدير (أعني) ونحوه، أو هو بدل أو عطف بيان مما قبله[3].

وأبدى بعض العلماء وجهًا بديعًا في بلاغة النصب، وهو أنّ للإسلام أحكامًا كثيرةً ولكنَّه اشتمل على ما لم يشتمل عليه غيره من الشّرائع الأخرى من دين إبراهيم، فجعل كأنّه عين ملّة إبراهيم، فعلى هذا الاعتبار يكون انتصاب ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ على الحال من الدّين، باعتبار أنّ الإسلام حوى مِلّةَ إبراهيمَ[4].

توجيه إضافة ﴿أَبِيكُمْ﴾ إلى الضمير:

عظمةُ إبراهيم عليه السلام تجعله في مقامِ الأب للأمّة

أُضيف لفظ (الأب) في قَوْله تَعالى: ﴿مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ﴾ إلى ضمير المخاطبين، فقيل في بيان وجه أبوّته أقوال: منها أنّه جُعِلَ أباهم؛ لأنّه أبو رسول الله ﷺ، وهو كالأب لأمّته، من حيث إنّه سببٌ لحياتهم الأبديّة، أو لأنّ أكثر العرب كانوا من ذرّيته فغَلَبوا على

(1) الراغب، المفردات: (ملّة).
(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 231.
(3) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.

غيرهم، وقيل: معنى أبوّته كونه مقدّمًا في التّوحيد، مفيضًا على كلّ موَحّد، فكلّهم من أولاده، وقيل: يجوز أن يكون الخطاب للنبيّ ﷺ على طريقة التّعظيم؛ كأنّه قال: ملة أبيك إبراهيم.

وبعض العلماء اعتبر سياق الآية، فإنّه إن كان الخطاب موجّهًا إلى الذين صحبوا النبيّ ﷺ فإضافة أبوّة إبراهيم إليهم باعتبار غالب الأمّة؛ لأنّ غالب الأمّة يومئذ من العرب المضريّة، وأمّا الأنصار فإنّ نسبهم لا ينتمي إلى إبراهيم ﷺ؛ لأنّهم من العرب القحطانيين على أنّ أكثرهم كانت لإبراهيم عليهم ولادة من قبل الأمّهات.

وإن كان الخطاب لعموم المسلمين كانت إضافة أُبوّة إبراهيم لهم على معنى التّشبيه في الحُرمة واستحقاق التّعظيم كقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: 6]، ولأنّه أبو النبيّ محمد ﷺ، ومحمّد ﷺ له مقام الأبوّة للمسلمين(1).

توجيه المجاز في لفظ ﴿أَبِيكُمْ﴾:

الرّسول أب لأمّته وسبب لحياتها الأبديّة

إطلاق الأب على الجدّ مجازٌ بمعنى أصله، فيكون مجازًا مرسلًا علاقته السّببية، ويحتمل أيضًا أن يكون استعارة؛ لأنّ كون الرسول ﷺ أبًا لأمته بناء على التّشبيه، أي: كالأب لأمّته من حيث إنّه سبب لحياتهم الأبديّة(2).

تعيينُ مرجع الضّمير وأثره في بيان معنى جملة الفصل:

تشريف المسلمين بتسميتهم من ربّ العالمين

ضمير الفصل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ إمّا أن يكون راجعًا إلى إبراهيم عليه السلام، فإنَّ لكل نبيّ دعوةً مستجابةً وهو قول إبراهيم ﷺ: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ [البقرة: 128] فاستجاب اللّه تعالى له فجعلها أمة محمد ﷺ، وتكون جملة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ حالًا من إبراهيم عليه السلام، أي اتبعوا ملة إبراهيم حال أرادكم مسلمين للّه تعالى.

(1) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 350.

(2) القونوي، الحاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 125.

وإمّا أن يكون راجعًا إلى اللّه تعالى في قوله: ﴿هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، وهذا الوجه أقرب لأنّه تعالى قال: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ فبيّن أنه سمّاهم بذلك لهذا، فتكون جملة: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ تابعة للتعليل السّابق، أي: لأنه اجتباكم وسماكم[1].

نكتةُ التعبير بصيغة الماضي:

اختصاص المسلمين بهذه التّسمية من القديم

استُعمل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ فعل ﴿سَمَّىٰكُمُ﴾ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق ذلك من القديم، فقد خصّ اللّه أمّة النبيّ ﷺ بهذه التسمية في الأزمان المتقدّمة قبل إنزال هذا القرآن، فنوّه بذكرهم والثناء عليهم في كتب الأنبياء السابقين لنبيّنا الكريم[2].

دلالة إضافة الفعل إلى الضمير:

تشريف أمّة النبيّ الكريم باسم الإسلام

أُضيف الفعل (سمّى) في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إلى ضمير المخاطبين تشريفًا لأمّة النبيّ ﷺ، وامتنانًا على المسلمين بتكريمهم من القديم بالاجتباء والاختصاص بالفضل، ممّا يستوجب عليهم شكر هذه النعم بأنواع العبادات، وهذا محمولٌ على وجهي عود الضَّمير المذكورين آنفًا.

توجيه التعريف في لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

ورد لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ معرّفًا بـ (ال) الدالّة على العهد، فقد سمّى اللّه أمّة النبيّ ﷺ بهذا الاسم في كتب الأنبياء السّابقين، وفي هذا القرآن العظيم.

دلالة اختيار لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾:

اختصّت أمّة الإسلام بهذا الاسم فلا يُشاركُها فيه أحدٌ من العالمين

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ بلفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 256، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 538.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 102.

للدّلالة على أنّ اللّه تعالى خصّهم باسم الإسلام مشتقًّا له من اسمه ﴿ٱلسَّلَٰمُ﴾ [الحشر: 23]، مع ما خصّهم به من اسم الإيمان اشتقاقًا له من اسمه المؤمن، فأثبت لهم هذا الاسم في كتبه، واجتباهم لاتّباع رسوله[1]، والإيمانُ وصفٌ يشترك فيه كثيرٌ من أصحاب الأديان، فيزعمون أنَّهم مؤمنون، بخلاف الإسلام فهو اسمٌ علمٌ على هذا الدّين، ففي هذه التَّسمية خصوصيَّة لهذه الأمَّة به، ويدخل فيه جميع المسلمين من لدن آدم عليه السلام إلى أن يرث اللّه الأرض ومن عليها، ومن انحرف عن هذه الملَّة التي جاء ختامُها في هذا القرآن؛ فقد خرج عن الجادَّة، وعُدَّ من غير المسلمين.

فائدة ذكر شبه الجملة:

تسـمـيـةُ هـذه الأمَّةِ بالمسلمين ثابتةٌ قبل نزول القرآن وفيه

قُيّد فعل تسمية هذه الأمة بالمسلمين بقيد: ﴿مِن قَبۡلُ﴾، والظرف ﴿قَبۡلُ﴾ إذا بُنِيَ على الضمّ كان على تقدير مضاف إليه منويٍّ بمعناه دون لفظه، والاسم الّذي أضيف إليه ﴿قَبۡلُ﴾ محذوف، وبُنِيَ ﴿قَبۡلُ﴾ على الضمِّ إشعارًا بالمُضاف إليه، والتّقدير: من قبل نزول القرآن، وقرينة هذا التَّقدير؛ قوله تعالى: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾، أي: (وفي هذا القرآن)، وفي ذلك إشعار إلى أنّ هذه التسمية ثابتة في الأزمان المتقدمة قبل إنزال هذا القرآن، تنويهًا بذكرهم والثناء عليهم في كتب الأنبياء السابقين لنبيّنا الكريم[2].

معنى الواو ودلالتها:

عُطِف قَوْله تَعالى: ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ على الظرف ﴿مِن قَبۡلُ﴾ بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، فقد خصّ اللّه المسلمين بهذه التسمية في كتب السابقين وفي هذا القرآن الكريم.

تسمية القرآن للمسلمين ثابتةٌ راسخةٌ لا يُشكِّك فيها إلا جاهلٌ أو حقود

فائدةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

استُعمل حرف الظّرفيّة في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 102.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.

﴿مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾، لبيانِ أنَّ هذا التَّسميةِ منتشرةٌ فيه، ثابتة راسخةٌ لا يُشكِّك فيها أحدٌ، فقد احتوى القرآن الكريم على تسمية المسلمين في كثيرٍ من آياته نحو قوله تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾ [آل عمران: 64]، وقوله تعالى: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزمر: 12].

براعة الإشارة بالقريب:

القرآن الكريم قريبٌ من المسلم فإذا أُشير إليه سارع إلى الذهنِ

جاء التَّعبير عن القرآن الكريم باسم الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ مِن قَبۡلُ وَفِي هَٰذَا﴾؛ لحضورِ القرآن بين أيديهم وفي علمهم، ولاستحضارهم تلك التَّسمية العظيمة، وللإشارة بأنَّ تسمية القرآن باسم الإشارة القريب يُشعر بضرورة أن يكون القرآن قريبًا من المسلم، فيُشار إليه بهذا، ولا تنصرف الإشارة إلّا إليه كما في قوله تعالى: ﴿ٱئۡتُونِي بِكِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ هَٰذَآ أَوۡ أَثَٰرَةٖ مِّنۡ عِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٤﴾ [الأحقاف: 4]، وقيل ﴿وَفِي هَٰذَا﴾ تقديره: (وفي هذا بيان تسميته إيّاكم المسلمين)[1].

نوع اللّام ومعناها بحسب تعلقها:

اللّامُ لتعليل التّكليف بأحكام الإسلام وشرائعه

دخل حرف اللام على فعل الكون في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾، وقد اختُلف في دلالته ومتعلّقه، فالجمهور على أنّ الغرض منه التّعليل، أي: لأجل أن يكون الرسول شهيدًا عليكم، ومُتعلَّقها إمّا بقوله: ﴿ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ أو بقوله: ﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾، أي: ليكون الرسول محمد ﷺ شهيدًا على الأمّة الإسلامية بأنّها آمنت به، وتكون الأمَّة الإسلامية شاهدة على الأمم بأنّ رسلهم بلَّغوهم الدعوة[2].

أو يتعلّق حرف اللّام بقوله تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ﴾، فيكون المعنى: جاهدوا لأجل أن يكون الرسول شهيدًا عليكم بأنّكم بلّغتم وأدّيتم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 122، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 103، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 351.

الأمانة الّتي أودعها اللّه ونبيّه إيّاكم، فيشهد الرّسول بأنّكم أدّيتموها حقّ أدائها، ورعيتموها حقّ رعايتها[1]، وذهب الصّاويّ إلى أنّ اللام هنا متعلّقة بقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ﴾ ومعناه العاقبة[2]، أي: سماكم المسلمين لتكون العاقبة بأن يشهد عليكم الرسول، وهي في المعنى آيلة إلى معنى التَّعليل.

دلالة التَّعبير بصيغةِ المضارع:

جاء فعل (يكون) في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ بصيغة المضارع للدلالة على الاستقبال، بمعنى أنّ الرسول ﷺ سيشهد يوم القيامة على أمّته.

فائدة إيثار لفظ ﴿ٱلرَّسُولُ﴾:

العِبرة بالرسالة لا بوصف الرسول المجرَّد عنها

آثر النَّظم الكريم استعمال مفردة الرسول في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾؛ للدلالة على العبرة باتّصافه بالرسالة من عند اللّه إلى أمته[3]، وإشعارًا بأنّ العبرة هي الإيمان برسالة الرّسول، وأنّ المقصود هو الشهادة على من آمن برسالته وعلى من كفر بها يوم الجزاء، فمضمون الرسالة هو عبرة الإيمان والاستسلام والخضوع، فذكر الوصف وأراد مضمونه ودلالته.

دلالة صيغة ﴿شَهِيدًا﴾:

الشّهيد أبلغ وأقوى دلالة من شاهد

آثر النظم صيغة (فعيل) في قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ وهي صفة مشبّهة من الشّهادة، التي تدلّ على حضورٍ وعِلْمٍ وإعْلام[4]، وقد أوثرت هذه الصيغة دون صيغة (شاهد) لما هو معلوم من أنّ الصّفة المشبّهة أبلغ من اسم الفاعل؛ لأنّها تفيد الثّبوت، في حين يفيد اسم الفاعل مجرّد الحدوث.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(2) الصّاوي، الحاشية على الجلالين: 3/ 93.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 2/ 14.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

نكتة تنكير ﴿شَهِيدًا﴾:

نُكِّر لفظُ ﴿شَهِيدًا﴾؛ للدلالةِ على التّعظيم والتّفخيم، فإنّ أمر الشَّهادة عظيم، فكيف إذا اتّصف به سيِّد الخلق أجمعين.

بلاغةُ التَّضمين:

شهادة الرّسول شهادة تكليف ومراقبة وهيمنة

يُلحظ أنَّ صيغة ﴿شَهِيدًا﴾ تعدَّت بحرف الاستعلاء دون اللام، والتحقيق أنّ شهد إذا تعدَّت بحرف (على) إنّما تُستعمل فيما فيه مضرّة المشهود عليه، وإذا قيل: شهد له، استُعمل فيما فيه منفعة، وأوجب ههنا مقام المدح الحكم بالعكس، وأن يُضَمَّنَ الشهيدُ معنى الرّقيب والمهيمن ليفيد معنى التّزكية؛ لأنّ المزكّي لا بد أن يكون مُراقِبًا على أحوال المزَكّى، فإذا شاهد منه ما اقتضى الصلاح والرُّشد والهداية لا يشهد إلّا بعدالته ولا يصدر منه إلا تزكيته، ففي الكلام تضمين ثمّ كناية[1]، فيُفهم من ذلك أنَّ شهادته ﷺ ليست مدحًا وثناءً لهم، بل مراقبةً وهيمنةً، وهذا شأن التَّربية الجادَّة، وهو ما يتناسب مع سياق التَّكليف.

توجيه المتشابه اللفظي:

تقديم الأهمّ بحسب سياق الآية

تشابه قَوْله تَعالى: ﴿لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيۡكُمۡ﴾ مع قوله تعالى: ﴿وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ﴾ [البقرة: 143]، ففي الآيتين إثبات لشهادة الرّسول على أمّته، وقُدّمت شهادة الرّسول للأمّة هنا، وقُدِّمت شهادة الأمّة في البقرة، والنّكتة في ذلك أنّ آية سورة الحجّ في مقام التّنويه بالدّين الذي جاء به الرّسول، فالرّسول هنا أسبق إلى الحضور فكان ذكر شهادته أهمّ، وآية البقرة صُدِّرت بالثّناء على الأمّة فكان ذكر شهادة الأُمّة أهمّ[2].

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 1/ 199، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 3/ 134.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

بلاغة العطف:

شأنُ الاقتداءِ أن يكونَ في الدَّعوة والشَّهادة

عُطِف قَوْله تَعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ على ما قبله بحرف الواو الدالّ على الجمع والاقتران، فبعد ذكر شهادة الرّسول على المسلمين تزكية لهم، عطف عليه شهادة المسلمين على غيرهم من الأمم تنويهًا بشأنهم وتشريفًا لقدرهم، فإنَّ من شأن من يُشهد عليه ليلتزم بشريعة الإسلام، أن يقوم بواجبه تجاه غيره، فيقتدي بسنَّة سيد الأنام، في الدّعوة والشهادة.

دلالة صيغة المضارع:

جاء فعل الكون في قَوْله تَعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ بصيغة المضارع؛ للدّلالة على الاستقبال، بمعنى أنّ هذه الأمّة ستشهد يوم القيامة على غيرها من الأمم.

دلالة استعمال حرف الاستعلاء:

تشريف المسلمين وتحذير بقيَّة الأمم من المكذّبين

آثر النَّظم استعمال حرف الاستعلاء كالمتقدِّم في شهادة الرَّسول على أمّته في قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِۚ﴾ على شهادة المسلمين على غيرهم من الأمم، والشهادة على الأمم تكون لهم وعليهم، ولكنّه اكتفى في الآية بتعديتها بعلى إشارة إلى أنّ معظم شهادة هذه الأمّة وأهمّها شهادتها على المعرضين؛ فهي بمثابة الحجة عليهم؛ لأنّ المؤمنين قد شُهِد لهم بإيمانهم، ففيه تحذير للأمم أن يكونوا من المشهود عليهم، وتنويه بالمسلمين إذا كانوا بمثابة الشّاهدين على غيرِهم[1].

نوعُ الفاء ودلالتها:

احتمال الفاء للتفريع والفصيحة وكلاهما مقبولٌ متآيلٌ في المعنى

وُصِل قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ بما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، وهي الّتي تفيد أنّ الكلام بعدها مترتّب على الكلام الذي قبلها، ففُرّع على جملة ﴿هُوَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

﴿ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ وما بعدها هذه الأوامر، أي: فاشكروا اللّه بالدّوام على إقامة الصّلاة وإيتاء الزّكاة والاعتصام باللّه[1]، وتحتمل أن تكون الفاء فصيحةً، أي: الّتي تفصح عن شرط مقدّر، وتقديره: (إذا كانت لكم هذه المكانة، فاشكروا اللّه بإقامة الصّلاة وإيتاء الزكاة، والاعتصام به)[2]، والمعنيان متقاربان، فكونها تفريعيَّة يُفضي إلى الالتزام، وإذا كانت فصيحة فكذلك الحال.

غرضُ الأمر ودلالته:

وجـوب المداومة عـلى الـصّـلاة وإقامة أركانها وأذكارها

أمر اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ بإقامة الصّلاة، ومعنى الإقامة الدّوام، يُقال أقام الصّلاة: إذا داوم عليها، وأمّا إذا قيل أقام للصّلاة فمعناه نادى عليها بألفاظ الإقامة[3]، ويحتمل لفظ الإقامة الإتيان بها قائمة تامّة القيام والرّكوع والسّجود والأذكار، كما يحتمل إظهار الصّلاة والثّبات عليها، كما يقال: أقيمت السّوق، وهذا تشبيه بالقيام من حالة خفاء؛ قعود أو غيره[4]، ويمكن الجمع بين هذه المعاني بأن يكون معنى ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المداومة عليها، وإظهارها وإقامة أركانها وأذكارها وسائر شروطها.

غرضُ الأمر وبلاغتُه:

استعارةُ الإيتاءِ للإنعامِ بما فيه منفعةٌ

أمر اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ بوجوب إيتاء الزّكاة، والمقصود بالإيتاء: الإعطاء، وهو مستعار للإنعام بالحالة النافعة؛ لأنّ شأن الإعطاء أن يكون تمكينًا بالمأخوذ المحبوب[5]، فمعنى إيتاء الزكاة دفعها لمستحقّيها كما بيّن الشرع.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 103، وابنعاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(3) الفيّومي، المصباح المنير: (قوم).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 85.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 179.

الإيتاء يكون عن طيبِ نفسٍ وقوّة قلبٍ

بلاغة اجتباء مفردة الإيتاء دون الإعطاء:

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ التعبير بمادّة الإيتاء دون مادة الإعطاء؛ لما أنّ الإيتاء دالّ على المجيء بيسر وسهولة[1]، ولهذا قد خُصّ هذا الفعل بدفع الصّدقة حيثما ورد في القرآن الكريم[2]، إشارة إلى ضرورة أن يربي المسلم نفسه على دفعها بيسر وسهولة وطيب من النّفس، كما أنَّ الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله؛ لأنّ الإعطاء له مطاوع، تقول: أعطاني فعَطَوْتُ، ولا يُقال في الإيتاء آتاني فأتَيْتُ، وإنّما يقال آتاني فأخذت، والفعل الّذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الفعل الذي لا مطاوع له[3]، فاستعمل النظم القرآني أقوى اللّفظين مراعاة لأهمّية الزكاة في الإسلام.

إذا زُكّي المال فقد طَهُر ونما نماءَ البركة والعافية

معنى التعريف في لفظ ﴿ٱلزَّكَوٰةَ﴾:

جاء لفظ الزكاة معرّفًا في قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، والتعريف للعهد، فالزّكاة وإن كان معناها في اللّغة: النّماء، إلّا أنها إذا أطلقت في لسان الشّرع لا ينصرف الذّهن إلّا إلى الزكاة المفروضة المعروفة بأنّها: قدر مخصوص من مالٍ مخصوصٍ في زمن مخصوصٍ[4]، والحقيقة الشّرعية للّفظ مقدَّمة على حقيقته اللغوية، إلّا إذا وجدت القرينة الصارفة.

حثّ المسلمين على العناية بالزكاة والانشغال بإخراجِها

نكتة حذف المفعول الثاني:

حُذف المفعول الثاني للفعل ﴿وَءَاتُواْ﴾ من قوله تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾، وتقديره: (مستحقّيها)، ودليل الحذف شرعيّ، فمعلوم في الشرع أنّ الزكاة تصرف لمستحقّيها، والنّكتة البلاغية في حذفه هي بيان أهمّية المُعطى لا المُعطى له، ومعلوم إذا كان الكلام منصبًّا إلى

---

(1) الراغب، المفردات: (أتى).

(2) السمين، عمدة الحفاظ: (خسف).

(3) السيوطي، الإتقان: 2/ 368.

(4) السمين، عمدة الحفاظ: (زكو).

غرض من الأغراض جعل سياقه له وتوجّهه إليه، كأنّ ما سواه مرفوض مُطَّرَح[1]؛ فالغرض هو حثّ المسلمين على العناية بإيتاء الزكاة في حدّ ذاتها، وأمّا المستحقّون فقد بيّنت آيات أخرى أصنافهم.

نكتة اقتران الزكاة بالصّلاة:

الصّلاة أشرف العبادات البدنية، والزّكاة أفضل العبادات المالية

اقترنت الزَّكاة بالصَّلاة في قوله تعالى: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾؛ لأنّ بالصّلاة صلاح النّفس إذ الصّلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبالزّكاة صلاح المجتمع لكفاية عَوَزِ المُعوَزين، والصّلاة متضمّنة للإخلاص للمعبود، والزّكاة متضمنة للإحسان إلى عبيده، فعنوان سعادة العبد إخلاصه للمعبود، وسعيه في نفع الخلق[2]، كما أنّ الصّلاة أشرف العبادات البدنية، والزّكاة أفضل العبادات المالية، ومجموع الصلاة والزّكاة تعظيم الخالق والشفقة على المخلوق[3].

بلاغةُ العطفِ وغرضِه:

تحقيق توحيد الألوهية بالجمع بين أنواع العبوديّة

عُطف قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ على ما قبله بحرف الواو جمعًا لأنواع العبادة من الصّلاة والزّكاة والثِّقة به سبحانه تحقيقًا لتوحيد الألوهية، وشكرًا له على نعمة الاجتباء والإحسان، فجمع سبحانه بذلك بين التّهذيب الروحي للفرد بالصّلاة، والتعاون الاجتماعي بالزّكاة، ووحدة الصفّ بالاعتصام والاتّفاق على طاعة اللّه تعالى[4].

نكتة إيثار لفظ الاعتصام:

التعلّق بالله ورفض التوكّل على سواه

أوثر التعبير بفعل الاعتصام في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، وهو افتعال من العَصْم، وهو المنع من الضرّ وطلب النّجاة، ونظيره قوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ

---

(1) الزمخشريّ، الكشّاف: 4/ 8.

(2) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 40.

(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 18/ 136.

(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 279.

﴿ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: 43]، فأمر سبحانه بالاعتصام به، أي: بالتعلّق به والخلوص له وطلب النّجاة منه، ورفض التوكل على سواه(1)، وقد قال ابن عبّاس في تفسيرها: سلوا ربكم أن يعصمكم من كل ما يُكره، وقال الحسن: تمسّكوا بدين اللّه(2).

نوع الباء ومعناها:

استعمل في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ حرف الباء، ومعناها الاستعانة، أي الاستعانة باللّه سبحانه في طلب النجاة، والمنع من الضرّ، واللجوء إليه في كلّ ما ينوب العبد.

الفرق بين الاعتصام بالله والاعتصام بحبل الله:

الاعتصام بالله أعمّ دلالة، والاعتصام بحبل الله تصويرٌ للمقصود

أمر اللّه سبحانه بالاعتصام به في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾، وأمر بالاعتصام بحبله في قوله: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران: 103]، ويتجلّى الفرق بينهما في علاقة الإطلاق والتقييد، فموضع الحجّ أطلق في الاعتصام باللّه سبحانه، فيشمل استمساك المؤمنين بأوامره ونواهيه، والاستمساك بذاته العليّة لا يفكرون إلا فيه، ولا يبتغون غيره، ويلتفون حول شريعته غير منفصلين عنه، وكذلك الالتجاء إلى كتابه وسنّة رسوله، والتمسّك بجماعة المسلمين(3).

أمّا موضع آل عمران فقد قيّد الاعتصام بحبل اللّه خصوصًا، على اختلاف عبارة المفسّرين في المراد بِحَبْلِ اللّه(4)، كما يظهر الفرق بينهما في باب البيان، فموضع الحجّ مجاز بالحذف فيكون الاعتصام باللّه اعتصامًا بدين اللّه وأوامره ونواهيه، وأمّا موضع

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 540.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 9/ 5038.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 483.

آل عمران فالاعتصام بحبل اللّه يحتمل أن يكون من باب التّمثيل، مثل استظهاره به ووثوقه بإمساك المتدلّي من مكان مرتفع بحبل وثيق يُؤمن انقطاعه، ويحتمل أن يكون من باب الاستعارة، استعار الحبل للعهد والاعتصام للوثوق بالعهد[1].

نكتةُ إظهار اسم الله الأعظم:

إخلاص الأعمال للمتفرّد بصفات العظمة والكمال

أُظهر لفظ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾؛ لاستحضار عظمته سبحانه فهو المحيط بجميع صفات الكمال في جميع ما أمر به من المناسك والعبادات التي تقدّمت من صلاة وزكاة وحجّ وغيرها، وحَقيقةُ العَظَمَةِ مُخْتَصَّةٌ به وحده سبحانه، فلا يُساوى بِهِ غَيرُه، فيُذْكرُ اسْمُ الجلالَةِ لإحضارِ المَعْنى الجامِعِ لِصِفاتِ العظمة والكمالِ[2].

نكتةُ فصل جملة ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾:

الاعتصام بالمولى لعظيم قدرته وبديع حكمته

فُصل قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ عن الكلام الذي قبله لوجود كمال الاتّصال بينهما، فقد وقعت جُمْلَةُ ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾ تعليلًا لمضمون الجملة قبلها، أي معلّلة للأمر بالاعتصام به سبحانه؛ لأنّ المولى يُعتصم به ويُرجع إليه لعظيم قدرته وبديع حكمته[3]، كأنّه قال: اعتصموا باللّه تعالى، ولا تخشوا أحدًا؛ لأنَّ اللّه هو مولاكم، وتحتمل أن تكون الجملة حاليَّة.

دلالة استعمال ضمير الفصل:

اختصاص الله وحده بتولّي شؤون عباده ونصرة أوليائه

أوثر استعمال ضمير الفصل في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوْلَىٰكُمْۖ﴾؛ لتفخيم قدره سبحانه، واختصاصه بتولّي شؤون عباده وكفايتهم، فهو وحده من ينصرهم على كلّ من يعاديهم، بحيث

(1) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/ 286.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 40.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.

يتمكّنون من إظهار هذا الدّين من مناسك الحجّ والعبادات من صلاة وزكاة وغيرها[1].

نكتةُ إيثار مفردة الولي:

نصرةُ الله للمؤمنين قريبةُ الوقوع راسخةٌ في القلوبِ

عُبّر في قَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ بلفظ (المولى)، وأصله من الوَلي وهو يدلّ على قُرْبٍ[2]، وهو مأخوذ من الوِلايَة وهي النُّصْرةُ وحقيقتها: تَوَلّي الأمرِ، فاللّهُ تعالى وليُّ المؤمنين ومَوْلاهُمْ ينصرهم على أعدائهم[3]، وإيثار هذه اللفظة على غيرِها لبيان قرب اللّه تعالى للمؤمنين بنصرتهم على أعدائهم، ففيه طمأنةٌ للنفوس، وتسكين للقلوب.

دلالةُ الإضافةِ وغرضُها:

تشريف المؤمنين بعناية ربّ العالمين

أضيف لفظ المولى لضمير المخاطبين في قَوْله تَعالى: ﴿مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ تثبيتًا للمؤمنين، وتقوية لقلوبهم، أي: فاعلموا أنّ اللّه تعالى ناصرُكم، فثقوا به ولا تُبالوا بمعاداة الكفّار[4]، كما أنّ في هذه الإضافة تكريمًا وتشريفًا لهم بكونهم في كنف اللّه تعالى وحفظه، فهو مولاهم لا أحدَ سواه.

نوعُ الفاء ومعناها:

تفريعٌ لإنشاء الثناء على الله تعالى

وُصل قوله تعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ بما قبله بحرف الفاء الدّالّة على التّفريع، ففرّع على جملة ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾ إنشاء الثناء على اللّه بأنه أحسن مولى وأحسن نصير، أي: نعم المدبر لشؤونكم، ونعم الناصر لكم[5]، أو تكون الفاء استئنافًا لإنشاء معنى الثناء على اللّه تعالى.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104..
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ولي).
(3) الراغب، المفردات: (فعل).
(4) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 59/ 3.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 353.

بلاغة صيغة المدح:

تضمّن قَوْله تَعالى: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ مدحًا وثناءً من اللّه تعالى على نفسه ﷻ، وقد جاء المدح بصيغة الفعل الجامد (نِعْمَ)، وهي من الإنشاء غير الطّلبيّ؛ لأنّه لا يستدعي مطلوبًا وقت الكلام، فهو يتحقّق وقت اللّفظ، وهو أسلوبٌ يُعبّر عن الثّناء والإعجاب بالشّيء بألفاظ معيّنة، وهذه الصّيغةُ عبارة عن جملةٍ فعليّةٍ من فعلٍ وفاعلٍ تُعرب خبرًا عن مبتدأ محذوف تقديره (هو)، وهذا المبتدأ هو الذي صيغ المدح له، ويسمّى (المخصوص بالمدح)، وهو محذوفٌ وجوبًا، وإنّما حُذِف اعتمادًا على ظهور المعنى وطلبًا للإيجاز[1]، والغرض منه في النّظم إنشاء الثناء على اللّه بأنه أحسن مولى وأحسن نصير[2].

الثّناء على الله القدير بأنّه أحسن مولى وأحسن نصير

بلاغة التَّأكيد بالعطف:

عُطف قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ على قوله جلّ شأنه: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ بحرف الواو الدّال على الجمع والاقتران؛ لما في لفظة ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ من معنى النّصر الذي يوافق ﴿ٱلنَّصِيرُ﴾[3]؛ فاقتضى العطف التوافق في المآل، وهو نصرة المؤمنين، بدليل الفحوى وبدليل النص الظّاهر، أي: أنه وليكم على الدّوام، وهو ناصركم في كل حال تلجؤون إليه.

الله مولى المؤمنين على الدوام وهو ناصرهم في كلِّ حال

معنى التَّعريف في ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾:

عُرّف ﴿ٱلۡمَوۡلَىٰ﴾ و﴿ٱلنَّصِيرُ﴾ في قوله جلّ شأنه: ﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ بالألف واللّام الدّالّة على العهد، فقد تقدّم المعهود في قوله تعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ﴾، كما يفيد هذا التّعريف استغراق الصّفات

التّنويه بصفات الله العليا والتّأكيد على كمالها

---

(1) النّسفي، مدارك التّنزيل: 1/ 645، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 10/ 430.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 352.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 9/ 348.

المصاغة للمدح والدّلالة على رسوخها، فالولاية والنّصرة معروفة راسخة في الممدوح، وقد جاء المدح تنويهًا بهذه الصّفات الجليلة.

نكتةُ التعبير بصيغة (فعيل):

من نصره الله فلا غالب له

أوثر في قوله تعالى: ﴿وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ الثّناء على نصر اللّه سبحانه لأوليائه بإيراد النّصر على صيغة المبالغة بيانًا إلى أنّه لا يُغْلَب من نصره[1]، فإنّ أفعال اللّه تعالى لا تتأثّر بالمبالغة، فتدلّ صيغة المبالغة فيها على أثر المتعلّق، فالمبالغة في النّصرة متعلّقةٌ بتأكيد انتفاء تحقّق الغَلَبِ على من أراد اللّه تعالى أن ينصره.

براعة ختام السورة بجملة آخر آية:

التّقوى مجلبة الخير وطاردة الضّر والبلوى

خُتمت هذه السّورة بقَوْله تَعالى: ﴿هُوَ مَوۡلَىٰكُمۡۖ فَنِعۡمَ ٱلۡمَوۡلَىٰ وَنِعۡمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ تثبيتًا لقلوب المؤمنين وحثًّا لهم على الاعتصام به سبحانه؛ لأنّه نعم المولى لهم ونعم النّصير لهم، وأمّا الكافرون فلا يتولّاهم تولّي العناية ولا ينصرهم، وهذا الإنشاء يتضمّن تحقيق حسن ولاية اللّه تعالى وحسن نصره للمؤمنين نتيجة للتّقوى وما يليها من أفعال الطاعة ممّا ذكرناه سابقًا من محور السورة، فقد انطبق بهذا آخر السّورة على أوّلها، ورُدَّ مقطعُها على مطلعها، وهذا من براعة الختام، كما هو بيّن لذوي الأفهام[2].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الحرج والضيق والعسر:

الحرجُ أخصُّ دلالةً من الضّيق والعسر ضيقٌ مع صعوبة

الحَرَجُ: هو الشّديد الضَّيِّق[3]، وهو أضيَق الضّيق[4]، والحرج: ضيقٌ لا منفذ فيه، مأخوذ من الحَرَجَةِ، وهي الشّجر الملتَفّ حتّى لا

(1) البيضاوي، أنوار التّنزيل: 59/ 3.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 104، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 353.
(3) الأزهري، تهذيب اللّغة: (حرج).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن وإعرابه: 2/ 290.

يمكن الدّخول فيه، ولا الخروج منه[1]، وقد اجتمع اللّفظان في قوله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: 125]، فقد ذكر لفظ الضّيق والحرج معًا؛ إذ إنّه لم يكن لفظ الضّيق وافيًا في بيان المقصود، جيء بلفظ الحرج؛ لأنّ في الحرج من معنى شدّة الضيق، ما ليس في اللّفظ الآخر، فالحرج هو المتزايد في الضّيق، فيكون أخصّ من الضّيق، فكلّ حرج ضيق من غير عكس[2].

والعُسر: من (عَسُرَ)، أصل يدّل على صعوبة وشدّة؛ فالعُسر: نقيض اليُسر[3]، وهو الضّيق والشّدة والصّعوبة[4]، وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185] إرادة أمر وتشريع، تتعلّق بالطّاعات لا بالمعصية[5].

الملة والفرقة والطائفة:

خصوص استعمالِ الملّة بالدّين وعموم الفرقة والطائفة في الدين وغيره

المِلّة: السُّنة والطّريقة، وأصبحت اسمًا لما شرع اللّه تعالى لعباده على لسان الأنبياء، من حيث إنّ الأنبياء يُعلِّمونها ويسلكونها، ويوجّهون أتباعهم إلى سلوكها[6]، وبهذا الاعتبار لا تُضاف إلّا إلى النّبيّ الّذي تستند إليه، من ذلك: مِلّةَ إبراهيم، ولا تكاد توجد مضافة إلى اللّه تعالى، ولا إلى آحاد أمّة النّبيّ، ولا تستعمل إلّا في جملة الشّرائع دون آحادها، فلا يُقال: مِلّةَ اللّه، ولا مِلّتي، ولا مِلّة زيد، كما يقال: دين اللّه، وديني، ودين زيد[7]؛ لأنّها تُقال اعتبارًا بمن يؤدّي الشّرع عن اللّه تعالى.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 305.
(2) السّمين، الدّرّ المصون: 5/ 142.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عسر).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (عسر).
(5) الكفويّ، الكليّات، ص: 76.
(6) ابن منظور، لسان العرب: (ملل).
(7) الكفوي، الكليات، ص: 524.

والفِرقة: مشتقّة من التّفريق، وهي الطّائفة من النّاس المنفصلة عن غيرها، قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ﴾ [التوبة: 122]، والفريق: الجماعة المنفردة أيضًا، كقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ۝٧﴾ [الشورى: 7][1].

والطّائفة: في الأصل جماعة من شأنها الطواف، ويجوز أن يكون أصلها الجماعة الّتي تستوي بها حلقة يُطاف عليها، ثمّ كثُر ذلك حتى سمّيت كلّ جماعة طائفة، قال تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَاۖ﴾ [الحجرات: 9]، ورويَ في قوله ﷻ: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٢﴾ [النّور: 2] أنّه أراد واحدًا، وقال يجوز قبول الواحد بدلالة قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾ [التوبة: 122] إلى أن قال: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ۝١٢٢﴾ [التوبة: 122]، فأوجب العمل في خبر الطائفة، وقد تكون الطائفة واحدًا[2].

الاعتصام والتمسّك:

التمسّك عامٌّ، والاعتصام يختصُّ بطلب النّجاة

الاعتصام: مشتقّ من العَصِم: وهو الإمساك والمنع والملازمة، فكلّ مانع شيئًا، فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به، والاعتصام: التّمسّك بالشّيء، والتمسّك تفعّل من المسك، وهو أصل واحد صحيح يدلُّ على حبس الشّيء أو تحبُّسه[3]، وإمساك الشيء: التعلّق به وحفظه[4]، فيزيد الاعتصام على مجرّد التمسّك بالقصد وطلب النّجاة، فهو أخصّ منه.

(1) السّمين، عمدة الحفّاظ: 3/ 222.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 278، والكفويّ، الكليّات، ص: 576.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مسك).
(4) الرّاغب، المفردات في غريب القرآن: (مسك).

الجُزْءُ الثَّامِنَ عَشَرَ

سُورَةُ المؤمنون

سُورَةُ المُؤْمِنُونَ

التّعريف العامّ بالسّورة:

الأصحُّ أنّ سورة (المؤمنون) كلّها مَكّيّة.

سورة المؤمنون من السّور المكّيّة عند جمهور العلماء(1)، ويظهر انسجامُ مَكّيِّها كلَّ الانسجام مع السّياق الذي جاءت فيه نظمًا وموضوعًا(2).

وسورة (المؤمنون) هي السّورة الثّالثة والعشرون في ترتيب المصحف الشّريف، وهو التّرتيب الثّابت والمُعوّل عليه عند أهل النّظر والتّحقيق - وهو المُسمَّى بترتيب التّلاوة - جاءت بين سورتيّ الحجّ والنّور، وعدد آياتها مائة وثماني عشرَة آيَةً في الكوفيّ، وتسع عشر آيَة في عدد الباقينَ(3).

وأمّا ترتيبها النّزوليّ فقد ذُكِر أنّ ترتيبها هو الثّالثة والسّبعون بين سورتي الأنبياء والسّجدة(4)، وزعم بعضهم أنّها السّورَةُ السّادِسَةُ والسَّبْعونَ في عِدادِ نُزولِ سوَرِ القُرْآنِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سورَةِ الطّورِ وقبْل سورَةِ المُلك(5)، والحقّ أنّ التّرتيب النّزوليّ ليس قطعيًّا في ثبوته لافتقاده إلى صحّة الرّوايات الواردة فيه، وممّا يؤكّد ذلك اختلافهم في سرد هذا التّرتيب، ولكن مع هذا كلّه فهُمْ على الأقلّ مُتّفقون على أنّها من أواخر السّور نزولًا قبل الهجرة إلى المدينة المنوّرة.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 102، وأوردت بعض المصادر أقوالًا بمدنيَّة بعض آياتها، ينظر: السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 61، والآلوسي، روح المعاني: 2/ 18، والقاسميّ، محاسن التّأويل: 70/ 12.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 6.

(3) الدّاني، البيان في عدّ آيّ القرآن، ص: 191.

(4) السّيوطيّ، الإتقان في علوم القرآن: 1/ 43.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 6.

فضائلها:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنّه قال: "كان النّبيّ ﷺ إذا أُنزل عليه الوحي سُمِعَ عند وجهه دويٌّ كدويّ النّحل؛ فأُنزِل عليه يومًا فمكثنا ساعةً، فسُرّي عنه، فاستقبل القبلة، ورفع يديه وقال: اللهمّ زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تُهنّا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تُؤثر علينا، وأرْضِنا وارضَ عنا، ثمّ قال: أُنزل عليّ عشر آيات مَن أقامهنَّ دخل الجنّة، ثم قرأ: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ حتى ختم عشر آيات"[1].

وأخرج النسائي عن يَزيد بْن بابَنوسَ، قالَ: قُلْنا لِعائِشَةَ: يا أُمَّ المُؤْمنينَ، كَيْفَ كانَ خُلُقُ رَسولِ اللّهِ ﷺ؟ قالَتْ: "كانَ خُلُقُ رَسولِ اللّهِ القُرْآنُ"، فقَرَأَتْ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١﴾ [المؤمنون: 1] حَتَّى انْتَهَتْ ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩﴾ [المؤمنون: 9]، قالَتْ: "هَكَذا كانَ خُلُقَ رَسولِ اللّهِ ﷺ"[2].

التّوقيتُ الزّمنيُّ لنزول السّورة:

ظروف نزول السّورة حافلة بالأحداث والتّحديّات للمسلمين في مكّة.

ذكر أهل التفسير أنّ الظّروف التي نزلت فيها هذه السّورة كانت حافلة بأحداثٍ جِسامٍ عاشها المسلمون الأوائل في مكّة المكرّمة، حيث نزلت في أواخر العهد المكي، بعد تكبُّدهم المعاناة والاضطهاد، وتقلَّبت عليهم فيها أحوالٌ من التّكذيب والتّشكيك، وكان النبي ﷺ قد فقد عمَّه أبا طالب وزوجَهُ السّيدة خديجة رضي الله عنها، وسُمّي ذلك العام بعام الحزن بسبب تعطّل أسباب دعوة أهل مكة، وما لَقيَه من أذًى في داخل مكّة وفي خارجها من أهل الطّائف؛ فوجد النَّبيّ ﷺ في نفسه ما وجد من كَبَدٍ وعناء، فجاءت السّورة تحمل في طيّاتها ما تُثبّت به فؤاده وترفع من معنويّاته؛ كقوله: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ

(1) التّرمذيّ، سنن التّرمذيّ، باب: ومن سورة المؤمنون، حديث رقم: (3173).
(2) النسائي، السنن الكبرى، كتاب التفسير، الحديث رقم: (11287).

﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾ [المؤمنون: 44] وقوله: ﴿قُل رَّبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ ٩٣ رَبِّ فَلَا تَجۡعَلۡنِي فِي ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٩٤ وَإِنَّا عَلَىٰٓ أَن نُّرِيَكَ مَا نَعِدُهُمۡ لَقَٰدِرُونَ ٩٥﴾ [المؤمنون: 93 - 95]، وخلال ذلك كلّه عرضتْ بعضَ جوانب رحلة الأنبياء مع أقوامهم، وبيّنت ما حلّ بأقوامهم من عذاب، وخُتمت السّورة بالتّسرية عن النّبيّ ﷺ، والوصيّة له بالثّبات على دعوته: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون: 118].

أسماء السّورة الكريمة:

سورةُ (المؤمنون) لـمْ تُسَمَّ باسمٍ غيرِه في الأثر

ورد في السُّنّة تسميتُها بهذا الاسم؛ فعن عبد الله بن السّائب قال: "صلَّى بنا رسول الله ص ﷺ الصبح بمكة فاستفتح سورة المؤمنين، حتى إذا جاء ذِكْر موسى وهارون - أو ذِكْرُ موسى وعيسى؛ ابن عبّاد يَشُكُّ، أو اختلفوا - أخذتِ النّبيَّ ﷺ سَعْلَةٌ؛ فحذف فركع، وعبد الله بن السّائب حاضرٌ"(1).

يقول القاسميّ: "سُمّيت بالمؤمنين لاشتمالها على جلائل أوصافهم ونتائجها في أوّلها وفي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧﴾ [المؤمنون: 57]"(2).

والحقّ أنّ تسميتها بسورة المؤمنين ليس مُرتبطًا فقط باستهلال السّورة الكريمة التصريح بذكر أوصافهم؛ بل لأنّ مدار السّورة الكريمة قائمٌ على بيان حقيقة هذا الإيمان وأركانه وثمراته في النّفوس، وساقت أدلّة هذا الإيمان في الأنفس والآفاق، ووضحت مهمّة الأنبياء السّابقين في تقرير الإيمان في نفوس أقوامهم، ولأنّ السّورة الكريمة بيّنت كذلك شبهات المُكذّبين ودعاويهم، والأسباب

(1) مسلم، صحيح مسلم، الحديث رقم: (455)، وأبو داود، سنن أبي داود، برقم: (649)، وقوله: "فحذف فركع" بمعنى: تَوقَّفَ عن القِراءةِ وأنهاها على ما وصَلَ إليه، وركَعَ، ولم يُواصِلْ قراءةَ بَقيَّةِ السُّورة.
(2) القاسميّ، محاسن التّأويل: 7/ 280.

الحقيقيّة التي صدّتهم عن دعوة الحقّ، وبيّنت كذلك مصائرهم في الدّنيا والآخرة وما لحقهم من العذاب، فارتباط اسم السّورة بمحورها هو ارتباطٌ تامٌّ، ولذا فقد جاءت تسميتها بهذا الاسم؛ لأنّه يُمثّل شعارها العام الذي قامت عليه.

ومن الأسماء المتداولة للسّورة: سورة (قد أفلح)، وسورة (الفلاح) من باب إطلاق الجزء ليُراد به الكلّ[1]، وعنوَن باسم سورَةِ (قَدۡ أَفۡلَحَ) الطَّبريُّ في تفسيره[2]، وسمّاها بهذا الاسم السَّخاويُّ كذلك[3].

۞ الموضوعاتُ الرئيسةُ للسّورة:

مَدارُ السّورةِ حولَ الألوهيّة والنّبوّة والغيبيّات.

يرى ابن عاشور أنّ هَذِهِ السّورَةُ تَدورُ آيُها حَوۡلَ مِحۡوَرِ تَحۡقيقِ الوَحۡدانيَّةِ وإبۡطالِ الشِّرۡكِ ونَقۡضِ قَواعِدِه، والتَّنۡويهِ بالإيمانِ وشَرائِعِه.

فَكانَ افۡتِتاحُها بالبِشارَةِ لِلۡمُؤۡمِنينَ بالفَلاحِ العَظيمِ عَلَى ما تَحَلَّوۡا بِهِ مِنۡ أُصولِ الفَضائِلِ الرّوحية والعلميّة الَّتي بها تَزۡكيَةُ النَّفۡسِ واسۡتِقامَةُ السُّلوك.

وَأَعۡقَبَ ذَلِكَ بِوَصۡفِ خَلۡقِ الإنۡسانِ أَصۡلِهِ ونَسۡلِهِ الدّالِّ عَلَى تَفَرُّدِ اللهِ تَعالَى بالإلَهيَّةِ لِتَفَرُّدِهِ بِخَلۡقِ الإنۡسانِ ونَشۡأتِه؛ لِيَبۡتَدِئَ النّاظِرُ بِالِاعۡتِبارِ في تَكۡوينِ ذاتِه، ثُمَّ بِعَدَمِهِ بَعۡدَ الحَياة، ودَلالَةِ ذَلِكَ الخَلۡقِ عَلَى إثۡباتِ البَعۡثِ بَعۡدَ المَماتِ، وأنَّ اللهَ لَمۡ يَخۡلُقِ الخَلۡقَ سُدًى ولَعِبًا.

وانۡتَقَلَ إلَى الِاعۡتِبارِ بِخَلۡقِ السَّماواتِ ودَلالَتِهِ عَلَى حِكۡمَةِ اللهِ تَعالَى، وإلَى الِاعۡتِبارِ والِامۡتِنانِ بِمَصۡنوعاتِ اللهِ تَعالَى الَّتي أَصۡلُها الماءُ الَّذي بِهِ حَياةُ ما في هَذا العالَمِ مِنَ الحَيَوانِ والنَّباتِ، وما في ذَلِكَ مِنۡ دَقائِقِ الصُّنۡعِ، وما في الأنۡعامِ مِنَ المَنافِعِ؛ ومِنۡها الحَمۡلُ، ومِنۡ تَسۡخيرِ المَنافِعِ لِلنّاسِ، وما أوتيَهُ الإنۡسانُ مِنۡ آلاتِ الفِكۡرِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 5.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 9/ 194.
(3) السّخاويّ، جمال القرّاء: 1/ 37.

والنَّظَرِ، ووَرَدَ ذِكْرُ الحَمَلِ عَلَى الفُلْكِ فكانَ مِنْهُ تَخَلُّصٌ إِلَى بِعْثَةِ نوحٍ وحَدَثِ الطّوفانِ.

وانْتَقَلَ إِلَى التَّذْكيرِ بِبِعْثَةِ الرُّسُلِ لِلْهُدَى والإِرْشادِ إِلَى التَّوْحيدِ والعَمَلِ الصّالِحِ، وما تَلَقّاها بِهِ أَقْوامُهُمْ مِنَ الإِعْراضِ والطَّعْنِ والتَّفَرُّقِ، وما كانَ مِنْ عِقابِ المُكَذِّبينَ، وتِلْكَ أَمْثالٌ لِمَوْعِظَةِ المُعْرِضينَ عَنْ دَعْوَةِ مُحَمَّد ﷺ؛ فأَعْقَبَ ذَلِكَ بِالثَّناءِ عَلَى الَّذينَ آمَنوا واتَّقَوْا، وبِتَنْبيهِ المُشْرِكينَ عَلَى أَنَّ حالَهُمْ مُماثِلٌ لِأَحْوالِ الأُمَمِ الغابِرَةِ وكَلِمَتَهُمْ واحِدَةٌ؛ فَهُمْ عُرْضَةٌ لِأَنْ يَحِلَّ بِهِمْ ما حَلَّ بِالأُمَمِ الماضيَةِ المُكَذِّبَةِ.

وَقَدْ أَراهُمُ اللّهُ مَخائِلَ العَذابِ لَعَلَّهُمْ يُقْلِعونَ عَنِ العِنادِ؛ فأَصَرّوا عَلَى إِشْراكِهِمْ بِما أَلْقَى الشَّيْطانُ في عُقولِهِمْ، وذُكِّروا بِأَنَّهُمْ يُقِرّونَ إِذا سُئِلوا بِأَنَّ اللّهَ مُفْرَدٌ بِالرُّبوبيَّةِ ولا يُجْرونَ عَلَى مُقْتَضَى إِقْرارِهِمْ، وأَنَّهُمْ سَيَنْدَمونَ على الكفرِ عِنْدما يَحْضُرُهُمُ المَوْتُ وفي يَوْمِ القيامَةِ، وبِأَنَّهُمْ عَرَفوا الرَّسولَ وخَبَروا صِدْقَهُ وأَمانَتَهُ ونُصْحَهُ المُجَرَّدَ عَنْ طَلَبِ المَنْفَعَةِ لِنَفْسِهِ إِلّا ثَوابَ اللّهِ؛ وما تَخَلَّلَ ذَلِكَ مِنْ جَوامِعِ الكَلِمِ.

وَخُتِمَتْ بِأَمْرِ النَّبيِّ ﷺ أَنْ يَغُضَّ عَنْ سوءِ مُعامَلَتِهِمْ ويَدْفَعَها بِالَّتي هيَ أَحْسَنُ، ويَسْأَلَ المَغْفِرَةَ لِلْمُؤْمِنينَ؛ وذَلِكَ هوَ الفَلاحُ الَّذي ابْتُدِئَتْ بِهِ السّورَةُ[1].

❁ بيانُ محورِها العامِّ والموضوعاتِ التي تأتلفُ وتلتفُّ حولَه:

دعـوةُ الأنبياء للإيمان واحدة، ومـلّـةُ الكفر واحدةٌ.

المحور الذي قامت عليه هذه السّورة يتعلّق بتقرير حقيقة الإيمان وماهيّته، ووظيفة الرّسل في إبلاغه للنّاس، وذلك من خلال عرض بعد الأدلّة الأنفسيّة والآفاقيّة الدّالّة عليه، ثمّ بيان أهمّ شبهات المُكذّبين حول حقائق الأُلوهيّة، وبشريّة الرّسل وإمكانيّة البعث،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 17 - 18.

والرّدّ عليها، واقتضى الأمر أن تُبيّن السّورة أسبابَ اختلافهم حول هذه الحقائق، وعرض جزاء الفريقيْن من المؤمنين والكافرين.

ومن المقاصد العامَّة للسّورة:

أولًا: بشارة المؤمنين بالفلاح العظيم؛ لِما تحلَّوا به من أصول الفضائل الرّوحية والعَمَلية التي تحصل بها تزكية النَّفس واستقامةُ السُّلوك، واستحقاقُ ميراث الفردوس الأعلى في جنّات الخلد.

ثانيًا: بيانُ أدلة الوحدانيّة في خلق الإنسان والنّبات والحيوان، وتذكيرُ الإنسان بأطواره التي مرَّ بها في خلقه، ودلالة ذلك على إثبات البعث بعد الممات، وأنَّ اللّه لم يخلق الخلق سُدًى.

ثالثًا: التّنصيص على وحدة الرِّسالات، والتّذكيرُ ببعثة الرُّسل للإرشاد إلى التّوحيد والعمل الصّالح، وما تلقاهم به أقوامهم من الإعراض، وما كان من عقاب المُكذّبين؛ تذكرةً وموعظةً للمُعرضين عن دعوة النبيّ ﷺ، وتسليةً له عمّا ناله من أذى المشركين وتكذيبِهم واستهزائِهم.

رابعًا: تعليمُ النّبيّ ﷺ بعضَ الآداب الشرعيَّة في الدُّعاء وفي الرَّدِّ على الأعداء، والالتجاءِ إلى اللّه ﷻ.

خامسًا: ذِكْر ما يكون بعد الموت من مشاهد القيامة من الحشر والنَّشر، وانقسام النّاس إلى فريقيْن؛ فلا حسبٌ ولا نسبٌ ينفع في ذلك اليوم؛ إنَّما هو العمل الصّالح، وذِكْر حال أهل الشّقاء وما ينتهون إليه، وحال أهل السّعادة عند إعلان فوزهم في الدّار الآخرة.

سادسًا: بيّنت السّورةُ الكريمة صفاتِ المؤمنين، وقرَّرت حقيقةَ الإيمان وأثره في النّفوس على كافّة المستويات القوليّة والفعليّة والاعتقاديّة، سواءً أكان ذلك في المجال التّعبّديّ أم التّعامليّ أم الأخلاقيّ فيما بينهم وبين خالقهم، أو بينهم وبين غيرهم، وذلك بدءًا من الآيات الأولى في السّورة في قوله تعالى في وصف المؤمنين.

سابعًا: أوجزت السّورة في أثنائها حقيقة الإيمان في نفوس أتباعه من خلال بيان بعض أركانه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ

﴿رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 57 - 61].

ثامنًا: بيّنت السّورة الكريمة كذلك موجز دعوة الأنبياء لأقوامهم لحقيقة الإيمان وأثره في نفوسهم، جاء ذلك على لسان نوح ﷺ في قوله: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٢٣﴾ [المؤمنون: 23]، وكانت هي ذات الدّعوة لكلّ مَن جاء بعده من الرّسل، وكانت وصيّة اللّه واحدة لكلّ أولئك الرّسل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: 51].

وبيّنت السّورة الكريمة تكذيب هؤلاء الأقوام لدعوة الرّسل، وبيّنت بعض ما حلّ بالمكذّبين، وبيّنت على وجه التّفصيل مصائر بعض المكذّبين، فعن قوم نوح مثلًا قال اللّه تعالى لنبيّه: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ٢٧﴾ [المؤمنون: 27]، وعن مصائر القرون بعده قال: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون: 41 - 42]، وعن المُكذّبين لدعوة موسى وهارون قال: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨﴾ [المؤمنون: 48].

تاسعًا: عرضت السّورة الكريمة للأدلّة المُتنوّعة على حقيقة هذا الإيمان في الأنفس والآفاق؛ فبدأت بالأدلّة الأنفسيّة؛ لأنّها الأقرب للمُخاطَبين(1).

عاشرًا: عرضت السورة الشّبهات التي أثارها المكذّبون حول هذه الحقائق الإيمانيّة، وناقشتها نقاشًا هادئًا رزينًا كما فعلت في شبهتهم حول حقيقة الوحدانيّة، إذ قال اللّه تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٖ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنۡ إِلَٰهٍۚ إِذٗا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهِۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ٩١﴾ [المؤمنون: 91]، وعرض شبهاتهم حول النّبوّة في مثل ما قالوه حول نوح ﷺ والأنبياء من بعده من أنّهم مُجرَّد بشر(2).

وأمّا في حقيقة البعث والمعاد وإنكارهم له واستبعادهم حصوله؛ فقد كان شعارهم الذي يتداولونه بينهم: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ ٣٥

(1) كما في الآيات: (12 - 22، و78 - 80).

(2) في الآيات: (24، 25، 33، 34، 47).

﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ٣٦ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧﴾ [المؤمنون: 35 - 37]، وكانت السّورة تردُّ عليهم شُبَهَهم هذه في كلّ مرّةٍ بأسلوبٍ هادئٍ رزينٍ(1).

الحادي عشر: بيّنت السّورةُ الكريمة بعضَ الأسباب التي دفعتهم إلى هذا التّكذيب؛ ومن أهمّها تقطّعُهم وتشرذُمهم إلى فرقٍ وأحزابٍ، وقد أشار تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾ [المؤمنون: 53] مع أنّ اللّه تعالى كان قد أمرهم بأن يكونوا على مِلَّةٍ وشريعةٍ واحدةٍ بقوله: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢﴾ [المؤمنون: 52]، وبيّنت السّورة كذلك أثر التّرف في تكذيبهم في موضعين منها(2).

وقد تتابع ذِكْر هذه الأسباب المانعة لهم من الإيمان باللّه تعالى من الاستكبار، وترك التّدبّر، وكراهيتهم للحقّ، واتّباعهم للأهواء(3).

الثاني عشر: خُتمت السّورةُ الكريمة ببيان الجزاء الأخرويّ للمُؤمنين والمُكذّبين بهذه الحقائق التي عرضتها في شأن الإيمان بالإلهيّات والنّبوّات والغيبيّات(4)، ثمّ عرضت السّورةُ الكريمة صورةً حيّةً من الجزاء الأخرويّ للمُكذِّبين وللمؤمنين تُبيِّن فيه ندم المُكذِّبين في ذلك الموقف المهيب(5).

الخصائص الموضوعيّة والأسلوبيّة لسورة (المؤمنون):

أوّلًا: تميّزت سورة المؤمنون أوَّل ما تميّزت ببراعة الاستهلال، إذ لا يوجد سورةٌ أخرى شاركتها في هذا الابتداء: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾.

ثانيًا: تميّزت السورة الكريمة بصفات المؤمنين التي ذكرتها؛ فلا يوجد سورة أخرى شاركتها في هذه الأوصاف، خلا سورة المعارج التي شاركتها في بعض الصّفات، وزادت كلٌّ منهما عن الأخرى بصفاتٍ محدّدة بما يتلاءم مع مقصود كلِّ سورة، ومحورها الذي قامت عليه(6).

(1) في الآيات: (84 - 89).
(2) في الآيات: (33، 64).
(3) في الآيات: (67 - 71).
(4) في الآيات: (101 - 103).
(5) في الآيات: (106 - 111).
(6) سورة المعارج: (19 - 35).

ثالثًا: تميّزت السّورة الكريمة بذِكْر سبع مراحل متتابعة من خلق الإنسان لم تشاركها فيها سورةٌ أخرى، خلا سورة الحجّ التي سبقتها، والتي ذكرت سبعَ مراحل لخلق الإنسان مثلها، مع احتفاظ كلّ سورةٍ منهما بخصوصيّة الأسلوب في العرض، فقد استعملت سورة المؤمنين أسلوب العطف بـ (ثمّ) في أوّل مراحل الخَلْق مثل سورة الحجّ، ثمّ عطفت بين بقيّة المراحل بحرف الفاء الذي أفاد التّرتيب والتّعقيب السّريع بخلاف سورة الحجّ التي فصَلتْ بين هذه المراحل بحرف (ثمّ)، وكذلك في اختصاص كلّ منهما بتفصيلات ومراحل لاءمت السّياق الذي جاءت فيه(1).

رابعًا: تفرّدت السّورة بما ذكرته عن السّماوات ووصفها بالطّرائق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧ وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨﴾ [المؤمنون: 17 - 18]، وكذلك فيما ذكرته عن شجرة الزّيتون وإن لم تُسمِّها باسمها: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾ [المؤمنون: 20].

خامسًا: امتازت السّورة بذِكْر التّرف مرّتيْن على أنّه سببٌ في إهلاك الأمم في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ٣٣﴾ [المؤمنون: 33]، وقوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذۡنَا مُتۡرَفِيهِم بِٱلۡعَذَابِ إِذَا هُمۡ يَجۡـَٔرُونَ ٦٤﴾ [المؤمنون: 64]، وذلك من أصل ثمانية مواضع وردت في القرآن كلّه(2).

سادسًا: اختُصَّت السّورةُ بدعاء خاصٍّ ذُكر فيها في موضعين؛ الأوّل: بصيغة الجمع في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١٠٩﴾ [المؤمنون: 109]، والثّاني: بصيغة الإفراد في قوله سبحانه: ﴿وَقُل رَّبِّ ٱغۡفِرۡ وَٱرۡحَمۡ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ١١٨﴾ [المؤمنون: 118].

سابعًا: انفردت السّورة بذِكْر هذا الرّدّ الشّديد الخطاب الذي لم نعهده في أسلوب القرآن، وذلك في أثناء الرّدّ على طلب أهل جهنّم حين قالوا: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡهَا فَإِنۡ عُدۡنَا

(1) سورة الحجّ: 5، وسورة المؤمنون: 12 - 14.

(2) هود، الآية: (116)، الإسراء، الآية: (16)، الأنبياء، الآية: (13)، سبأ، الآية: (34)، الزّخرف، الآية: (23)، الواقعة، الآية: (45).

فَإِنَّا ظَٰلِمُونَ ﴿١٠٧﴾ [المؤمنون:107]؛ فردّ الحقّ سبحانه عليهم بقوله: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔواْ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٠٨﴾ [المؤمنون: 108].

ثامنًا: تعانق مطلع السّورة مع آخرها؛ إذ بدأت بقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾، وخُتمت بقوله: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١١٧﴾ وَقُل رَّبِّ ٱغْفِرْ وَٱرْحَمْ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١١٨﴾ [المؤمنون: 117 - 118]، فقد أفلح المؤمنون في أوّل السّورة الكريمة، ولم يُفلح الكافرون في آخرها؛ وهذا تقابلٌ ظاهرٌ.

تاسعًا: انفردت السّورة بكثرة أساليب التّوكيد فيها، وكذلك بكثرة أسلوب الاستفهام التّقريريّ والإنكاريّ، ممّا يُدلّل على عناية السّورة بتحقيق القضايا العَقَديّة الكبرى التي جاءت بها.

عاشرًا: جاءت معظم فواصل السّورة منتهيةً بحرف النّون؛ وعددها (مائة وأربع عشرة) فاصلة؛ أمّا الأربع الباقية فجاءتْ منتهيةً بحرف الميم، وهما حرفان يشتركان في كثير من الصِّفات، وأهم صفاتهما أنّهما أكثر الأصوات السّاكنة وضوحًا، حيث غلب على السّورة جوّ الخطاب الهادئ والحجج العقليّة التي يلزمها أعلى درجات الوضوح في الوصف، وعلى شدّة ثقة المُتكلِّم بما جاء به، وجاءت الآيات الأربع التي ختمت بالميم متميزة حيث دلّت ثلاثٌ منها على صفات الله تعالى: ﴿عَلِيمٌ ﴿٥١﴾﴾ [المؤمنون: 51]، ﴿وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾﴾ [المؤمنون: 86]، ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ [المؤمنون: 116]، والرّابعة وصفًا لدين الله الـ﴿مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٣﴾﴾ [المؤمنون: 73].

الحادي عشر: كثر في السّورة فعل الأمر (قُلْ) إذْ ورد نحو إحدى عشرة مرّةً من أصل ثلاثمائة واثنين وثلاثين مرّةً في القرآن الكريم، ولا شكّ أنّ أمر النّبيّ ﷺ بهذا الفعل (قُلْ) يأتي في سياق أمورٍ مهمّة جليلةٍ تستدعي أن يتولّاها بنفسه.

الثّاني عشر: انفردت السّورةُ ببعض الألفاظ التي لم تَرِد في غيرها - على الصيغة نفسها - من السّور في المادّة اللّغويّة مثل: ﴿سَيْنَآءَ﴾ [المؤمنون: 20]، ﴿كَٰلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾ [المؤمنون: 104]، ﴿تَلْفَحُ﴾ [المؤمنون: 104]، ﴿۞هَيْهَاتَ﴾ [المؤمنون: 36]، ولا شكّ أنَّ انفراد السّور القرآنيّة ببعض الأساليب والألفاظ والصّيغ والتّعابير الخاصّة بها له ارتباطٌ كبير بموضوعاتها وأغراضها

التي سيقت لأجلها والتي قامت عليها محاور السّور، والتي من شأنها أن تُميِّزها عن غيرها من السّور التي شاركتها ذات القضايا والموضوعات التي عالجها القرآن الكريم.

بيانُ المناسبة بين السّورة وسابقتها ولاحقتها:

السّورة متّصلة تمامًا بسورتي الحجّ والنّور مضمونًا وأسلوبًا.

جاءت هذه السّورة في التّرتيب المُصحفيّ بعد سورة الحجّ، وقد تلمّس وجه اتّصالهما الإمامُ البقاعيّ بقوله: "لمّا خُتمت الحجّ بنداء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [الحج: 77] وأمرهم بأمور الدّين خاصّةً وعامّةً، وختم بالصّلاة والزّكاة والعصمة به سبحانه مَوْصوفًا بِما ذَكَرَ؛ أوجب ذلك توقّع المُنادين كلّ خير، فابتدأت هذه بما يُثمر الاعتصام به سبحانه في الصّلاة وغيرها من خلال الدّين في الدّاريْن"[1].

وأضاف المراغيّ وجوهًا أخرى للمناسبة بينها وبين ما قبلها من وجوه:

أوّلًا: أنَّه تعالى ختم السّورة السّابقة بخطاب المؤمنين، وأمرهم بإقامة الصّلاة، وإيتاء الزكاة، وفعل الخيرات؛ لعلهم يفلحون، فقد حقّق فلاحهم في بدء هذه السّورة؛ ففي مطلع (المؤمنون) إفصاحٌ بما هو غايةُ ما في آخر (الحَجّ)؛ فهذا وجه تناسُبٍ وتجاوُرٍ وترتيبٍ.

ثانيًا: أنّه تكلّم في كلّ من السّورتيْن في النّشأة الأولى، وجعل ذلك دليلًا على البعث والنّشور.

ثالثًا: أنَّ في كلّ من السّورتيْن قصصًا للأنبياء الماضين وأُممهم ذُكرت عبرةً للحاضرين والآتين.

رابعًا: أنَّه نصب في كلّ منهما أدلّةً على وجود الخالق ووحدانيّته[2]، وكلُّ من الوجه الثّاني والثّالثِ والرّابعِ: وجهُ تناسُبٍ وتجاوُرٍ عامٌّ.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105.
(2) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 3.

أمّا عن اتّصالها بسورة النّور التي تلتها في ترتيب المصحف الشّريف، فرغم مدنيّة سورة النّور إلّا أنّ العلائق بين السّورتيْن قويّة جدًا، أوجزها السُّيوطيُّ بقوله: "وجه اتّصالها بسورة ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾: أنّه لمّا قال فيها: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَـٰفِظُونَ﴾؛ ذَكَر في النّور أحكام مَن لم يحفظ فرْجَه من الزّانية والزّاني وما اتّصل بذلك من شأن القذف، وقصّة الإفك، والأمر بغضِّ البصر، وأمر فيها بالنِّكاح حفظًا للفُروج، وأمر مَن لم يقدِرْ على النِّكاح بالاستعفاف وحفظ فرْجه، ونهى عن إكراه الفتيات على الزِّنى، ثمّ عقّب قائلًا: ولا ارتباط أحسن من هذا الارتباط؛ ولا تناسق أبدع من هذا النَّسَق"[1].

والحقّ أنّه قال فأوجز؛ فجُلُّ الأحكام التي ذكرتْها سورة النّور مرتبطةٌ بتحقُّق الإيمان وتمكّنه في النّفوس، ولا سيّما أنّها ذكرت أحكامًا تتعلّق بعفّة المجتمع المسلم وفضيلته التي من شأنها أن تحفظ وجوده، فمن بداية السّورة ظهر هذا الأمر، وفي التّعقيب على حادثة الإفك ذِكْرُ بعض الإجراءات التي يجبُ اتّخاذها للحيلولة دون تناقل الإشاعات الكاذبة، وربط ذلك بالإيمان، وفي معرض ذِكْره للوسائل الوقائيّة من جريمة الزّنى قال: ﴿۞يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ﴾ [النّور: 21]، وذكر أحكام الاستئذان، وأمر بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج، ونهى عن إظهار الزّينة الدّاخليّة سدًّا لذريعة الزّنى، ثمّ ذيّل آيتيّ غضّ البصر وحفظ الفروج وأحكام الزّينة، وذكر في السّورة من أوصاف المؤمنين.

والحاصلُ: أنَّ غير قليلٍ من آي سورة النّور تفصيلٌ لبعض معاني سورة (المؤمنون)؛ فالعَلاقة بينهما علاقة تفصيل بإجمالٍ، وبيان بإبهام؛ وهذه علاقةٌ مُطَّردةٌ بين سور الذّكر الحكيم؛ أليست كلّ سور القرآن - ما عدا الفاتحةَ - تفصيلًا لسورة الفاتحة التي هي أُمُّ القرآنِ؟ وهذه العلاقة وجهُ تناسُبٍ وتجاوُرٍ وترتيبٍ.

(1) السّيوطيّ، تناسق الدُّرر، ص: 112.

﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢
وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ ٣ وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ٤
وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ ٥ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ
أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ ٦ فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ
هُمُ ٱلۡعَادُونَ ٧﴾ [المؤمنون: 1 - 7]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

العصمةُ باللهِ وأداءُ فروضِه سبيلٌ للظَّفَرِ بصفاتِ المؤمنينَ المُفلحين

لَمّا ختمتْ سورةُ الحجّ بنداء الَّذين آمنوا وأمرِهم بأمورِ الدّين خاصَّةً وعامَّة، وخُتِمَ بها بوجوب إقامةِ الصَّلاةِ وأداءِ الزَّكاة والعصمة به ﷻ؛ أَوْجَبَ ذلك توقُّعَ المؤدّين لها كلَّ خير؛ فابتدأت سورةُ (المؤمنون) بما يُثمِرُ الاعتصامَ به سبحانه في الصَّلاةِ والزَّكاةِ وغيرِها من خلال الدّين في الدّارَيْن، فقال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ مُفتتحًا بحرف التَّوقُّع ﴿قَدۡ﴾ لتثبيتِ المتوقَّع وتقريبِ الماضي من الحال؛ لبيانِ ظَفَرِ المؤمنين المُتَّصفين بما ورد في صدرِ هذه السّورةِ من الصِّفات الخاصَّة بهم لا بغيرهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفۡلَحَ﴾: (فلح) أصلان صحيحان، أحدُهما يدلُّ على شقٍّ، والآخرُ على فوْزٍ وبقاء، والآيةُ من الثّاني: وهو الفلاحُ: الفوزُ والبقاءُ والنَّجاةُ وإدراكُ بُغيةٍ، وقول الرَّجلِ لامرأته: "اسْتَفْلِحي بأمْرِك"؛ معناه: فوزي بأمرِك[2]، والفَلاحُ ضربان: دُنيويٌّ وأُخرويٌّ، فالدُّنيويُّ: الظَّفرُ بالسَّعادات الَّتي تطيبُ بها حياة الدُّنيا من البقاءِ والغِنى والعزّ، وكلُّ ذلك مؤقَّتٌ، وإيّاه قصدَ الشّاعرُ بقوله:

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 104 - 105.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فلح).

أفْلِحْ بما شئتَ فقد يدركُ بالـ *** ضَّعفِ وقد يُخَدَّعُ الأريب[1]

وفلاحٌ أُخرويٌّ: وهي دار الفَلاحِ بالبقاءِ والغِنَى والعِزّ، وكلُّ ذلك دائمٌ، ويُؤَيِّدُه قول رسول اللّه ﷺ: "لا عَيْشَ إلّا عيشُ الآخرة"[2]، ومنه الآية الكريمة[3].

2) ﴿خَٰشِعُونَ﴾: خشع يَخْشَعُ خُشوعًا، والخُشوعُ: الضَّراعةُ والخُضوع، وأكثرُ ما يُستعمَلُ الخشوعُ فيما يوجَدُ على الجوارح، وأكثرُ ما تُستعمَلُ الضَّراعةُ فيما يوجَد في القلب، قال تعالى: ﴿وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩ ١٠٩﴾ [الإسراء: 109][4]، والخُشوعُ: السُّكون[5]، وقال عليٌّ رضي الله عنه: الخشوعُ في القلب، وأن تُلينَ للمرءِ المسلم كنَفكَ، ولا تلتفت[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾: مُخبِتون أذلّاء[7]، خائفون[8]، متواضعون[9].

3) ﴿ٱللَّغۡوِ﴾: (لغو) أصْلانِ صَحيحانِ، أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى الشَّيْءِ لا يُعْتَدُّ بِهِ، والآخَرُ عَلَى اللهَجِ بِالشَّيْءِ، واللَّغْوُ من الكلام: ما لا يُعتدُّ به، وهو الَّذي يوردُ لا عن رَوِيَّةٍ وفكر، فيجري مجرَى اللَّغا، وهو صوتُ العصافير ونحوِها من الطُّيور، وقد يُسمَّى كلُّ كلامٍ قبيح لغوًا؛ قال تعالى: ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا كِذَّٰبٗا ٣٥﴾ [النَّبأ: 35]، ويُستعملُ اللَّغوُ فيما لا يُعتدُّ به، ومنه اللَّغوُ في الأيمان؛ قال تعالى: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: 225][10]، ومعنى قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾: عن المعاصي[11]، والشَّتْمِ والأذى[12] وكلِّ باطلٍ ولهوٍ وهَزل ومعصية، وما لا يُحَمدُ في القول والفعل[13].

---

(1) البيت لعبيد بن الأبرص، ديوانه، ص: 26.

(2) الحديث عن أنس بن مالك، قال: قالت الأنصار يوم الخندق: "نحن الَّذين بايعوا محمَّدًا..، على الجهاد ما بقينا أبدًا، فأجابهم النَّبيّ ﷺ: «لا عَيْش إلّا عيشُ الآخرة، فأكرِم الأنصارَ والمُهاجرة»، أخرجه البخاريُّ، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (3795)، ومُسلمٌ في صحيحه، الحديث رقم: (1805).

(3) الرّاغب، المُفردات: (فلح).

(4) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (خشع).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خشع).

(6) أخرجه ابن المبارك في الزّهد، الحديث رقم: (1148)، والحاكم في المُستدرَك، الحديث رقم: (3482)، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذَّهبيّ.

(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 3، عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

(8) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6، والجصّاص، أحكام القرآن: 3/ 252.

(9) مُقاتل بن سليمان، تفسير مُقاتل: 3/ 152.

(10) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (لغا).

(11) عبد الرّزاق الصّنعانيّ، تفسير عبد الرَّزّاق: 2/ 43، والنَّحاس، إعراب القرآن: 3/ 109، كلاهما عن الحسن البصري، وقال النَّحاس: "ومن أحسنِ ما قيلَ فيه قول الحسن ...، فهذا قول جامع".

(12) مُقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29.

(13) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6.

4) ﴿مُعۡرِضُونَ﴾: (عرض) أصل واحد تكثر فروعه، وأعرضَ الشَّيءُ: بدا عُرْضُه، والعُرْضُ خُصَّ بالجانب، وأعْرضَ: أظْهرَ عَرْضَه؛ أيْ: ناصيتَه، وإذا قيل: أعْرضَ عنّي؛ فمعناه: ولَّى مُبديًا عَرْضَه، قال تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾ [الأعراف: 199]، وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾ [آل عمران: 23][1]، ومنه قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ أيْ: يتولَّونَ عن اللَّغو.

5) ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾: (زكى) أصلٌ يدُلُّ على نماءٍ وزيادة، ويُقال: الطَّهارةُ زكاةُ المال، وقال بعضُهم: سُمّيتْ بذلك؛ لأنَّها ممّا يُرجَى به زكاءُ المال، وهو زيادتُه ونماؤه[2]، والمُرادُ بها في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ أيِ: الصَّدقة الواجبة بشروطها وأنْصبتِها[3]، والصَّدقة المُستحبّة.

6) ﴿فَٰعِلُونَ﴾: (فعل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إحداثِ شيءٍ من عَمَلٍ وغيره، من ذلك: فعلتُ كذا أفعلُه فعْلًا، وكانت من فلانٍ فعلَةٌ حَسَنَةٌ أو قبيحة، والفِعالُ جمعُ فِعْلٍ، والفَعالُ بفتح الفاء: الكَرَمُ وما يُفعلُ من حَسَنٍ[4]، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ أيْ: مُؤَدّون[5].

7) ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾: (فرج) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على تَفتُّحٍ في الشَّيء، من ذلك: الفُرْجةُ في الحائطِ وغيرِه: الشَّقُّ، والفُروجُ جمع فرْجٍ، وهو ما بين رِجْلَي الفَرَس[6].

8) ﴿حَٰفِظُونَ﴾: (حفظ) أَصْلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى مُراعاةِ الشَّيْءِ، حَفِظَ يحفظُ حِفْظًا: حَرَسَهُ، وحَفِظه أيضًا: اسْتظهرَهُ، والمحافظةُ: المراقبةُ، والحفظُ يُستعمَلُ في كلِّ تفقُّدٍ ورعاية؛ قال تعالى: ﴿وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ١٢﴾ [يوسف: 12][7]، ومعنى قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: مُمسِكون لها بالعفاف عمّا لا يحلُّ لهم[8].

9) ﴿مَلَكَتۡ﴾: (ملك) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيءِ، ويُقال هذا الشَّيءُ مِلْكُ

---

(1) الرّاغب، المُفردات، والفيروزابادي، القاموس: (عرض).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (زكى).
(3) البَغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 409.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فعل).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 4، والسَّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 463.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرج).
(7) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (حفظ).
(8) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.

يميني ومَلْكُ يميني، والفتحُ في الميم أفصح، والمملوكُ يختصُّ في التَّعارفِ بالرَّقيقِ من الأملاك، قال تعالى: ﴿عَبۡدٗا مَّمۡلُوكٗا﴾ [النّحل: 75]؛ فالمملوكُ: العبدُ، وقد يُقال: فلانٌ جوادٌ بمملوكه؛ أيْ: بما يتملَّكه، والمِلْكَةُ تختصُّ بمِلْكِ العبيد، ويُقال: فلانٌ حَسَنُ المِلكة؛ أي: الصّنع إلى مماليكه، وخُصَّ ملكُ العبيد في القرآن باليمين؛ فقال تعالى: ﴿لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ﴾ [النور: 58]، ومنه قوله تعالى هنا: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾[1].

10) ﴿مَلُومِينَ﴾: (لوم) كَلِمَتانِ تَدُلُّ إِحْداهُما عَلَى العَتْبِ والعَذْلِ، والأُخْرَى عَلَى الإِبْطاءِ[2]، فاللَّوْمُ: عَذْلُ الإنسانِ بنسبتِه إلى ما فيه لَوْم، يُقالُ: لُمْتُه فهو مَلومٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾ [إبراهيم: 22]، وألامَ: استَحقَّ اللَّوْم، قال تعالى: ﴿فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ ٤٠﴾ [الذّاريات: 40]، والتَّلاومُ: أن يلومَ بعضُهم بعضًا، قال تعالى: ﴿فَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَلَٰوَمُونَ ٣٠﴾ [القلم: 30]، وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ ذكر اللَّوْم تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يُفعل بهم ما فوق اللَّوْم[3]، فهم لا يُلامون على الحلالِ بوطءِ زَوْجاتِهم أو إمائهم[4].

11) ﴿ٱبۡتَغَىٰ﴾: بَغيتُ الشَّيءَ؛ إذا طلبتُ أكثرَ ما يجب، وابْتغيتُ كذلك، قال تعالى: ﴿لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ﴾ [التّوبة: 48]، والبَغيُ: طلبُ تجاوزِ الاقتصادِ فيما يُتحرَّى، تجاوزَه أم لم يتجاوزه، فتارةً يُعتبرُ في القَدْرِ الَّذي هو الكميَّة، وتارةً يُعتبرُ في الوصفِ الَّذي هو الكيفيَّة، وبَغَى ضالَّته يبغيها بُغاءً بالضَّمِّ والمدِّ وبُغايةً بالضَّمِّ أيضًا: طلبَها، وكلُّ طَلِبةٍ بُغاء، وبغَى له وأبغاه الشَّيءَ: طلبَه له[5]، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱبۡتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ طلبَ سوى الأزواجِ والوَلائد؛ أي: ابتغى الفواحشَ بعدهنَّ[6]، وطلبَ ما بعد ذلك[7].

12) ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾: (عدو) أَصْلٌ واحِدٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ إِلَيْهِ الفُروعُ كُلُّها، وهوَ يَدُلُّ عَلَى

(1) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (ملك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (لوم).
(3) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصّحاح: (لوم).
(4) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 410.
(5) الرّاغب، المُفردات، والرّازي، مختار الصِّحاح: (بغي).
(6) مقاتل بن سليمان، تفسير مقاتل: 2/ 29، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 107.
(7) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.

تَجاوُزٍ في الشَّيْءِ وتَقَدُّم لِما يَنْبَغي أَنْ يُقْتَصَرَ عليهِ[1]، عدا يعدو عَدْوًا، وعَداهُ يعدوهُ: جاوزه، والتَّعدّي: مجاوزةُ الشَّيءِ إلى غيرِه، يُقال: عدّاهُ تعديةً فتعدَّى؛ أيْ: تجاوز، وعدا؛ أيْ: جارَ وظلم، وعدا: جاوز[2]، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالم مجاوزٌ ما حُدَّ له، ومعنى قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾؛ أيِ: الجائرون الظّالمون[3] يتعدّون الحلالَ إلى الحرام[4].

تحقّقُ المؤمنين بـصـفـاتٍ تـجـعـلـهـم من المُفلحين

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر اللّهُ تعالى عن بعضِ صفاتِ المؤمنين الذين فازوا وسعدوا وحصلوا على الفَلاح، أولئك المؤمنون المُتَّصفون بهذه الأوصاف: الَّذين تَفْرُغُ قلوبهم في صلاتهم، وتسكن جوارحهم فيها، وهم عن الباطلِ والمعاصي وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال تاركون، وهم مُؤدّون لزكاةِ أموالهم، ومُزكّون أنفسُهم عن الشِّرك والدَّنس، وهم قد حفظوا فروجَهم من الحرام الذي نهاهمُ اللّهُ عنه من الزِّنى واللِّواط وكل الفواحش، ولا يَقربونَ سوى أزواجهم الَّتي أحلَّها اللّهُ لهم، أو ما ملكت أيمانُهم من السَّراري، ومَنْ تعاطَى ما أحلَّه اللّهُ له فلا لَوْمَ عليه ولا حَرَج، وأمّا من ابْتغى ما وراء الحلالِ الطَّيبِ من الأزواجِ والإماء، فقد تعدَّى حدودَ اللّه وظلمَ نفسه؛ فهو من المجاوزين الحلال إلى الحرام، وقد عرَّض نفسه لعقاب اللّه وسُخطه[5].

مَـن أحـسـن في صـلاتـه أحسنَ في صِلاته

وترشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى الحثِّ على الاتّصاف بصفات المؤمنين والتّرغيب فيها، وأنَّ العبدَ ينبغي أن يعرضَ نفسَه وغيرَه على هذه الآيات؛ حتى يعرفَ بذلك ما معه وما مع غيره من الإيمان

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عدو).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.
(4) الجشميّ، التَّهذيب: 6/ 193.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 225 - 226، ونخبة من العلماء، التّفسير المُيسَّر، ص: 342.

زيادةً ونقصًا، وإلى أنَّ حضور القلب بين يدي اللّه تعالى الذي تنتفي به الوساوسُ والأفكار الرّديئة هو روحُ الصَّلاة والمقصود منها، وهو الذي يُكتب للعبد؛ فالصّلاةُ التي لا خشوعَ ولا حضورَ قلبٍ فيها - وإن كانت مُجزئةَ الأداء مُثابًا عليها - إلّا أنَّ الثّواب الوافيَ فيها على حَسَب ما يعقل القلبُ منها، وتُرشدُ الآياتُ إلى الإحسان في عبادة الخالق في الخشوع في الصّلاة، وإلى الإحسان إلى خَلْقه بأداء الزّكاة، ويدلُّ عمومُ ابتغاءِ ما أحلَّ اللّهُ على تحريم نكاح المُتعة؛ فالمرأة فيه ليست زوجةً حقيقةً مقصودًا بقاؤها ولا مملوكة، ويدلُّ على تحريم نكاح المُحلِّل لذلك[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

براعةُ الاسْتهلالِ في السّورة الكريمة:

جوامع الكَّلِم تفتحُ بَوارِقَ الخيرِ والأمَلِ

افتتاحٌ بديعٌ صُدِّرت به هذه السّورةُ الكريمة؛ لأنَّه من جوامعِ الكَلِم، فإنَّ الفلاحَ غايةُ كلِّ ساعٍ إلى عمله، ولمّا كانت هِمَّةُ المؤمنين مُنصرِفةً إلى تمكُّنِ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ من نفوسِهم؛ كان ذلك إعلامًا بأنَّهم نجحوا فيما تعلّقت به هِمَمُهم من خيرِ الآخرة والحقِّ من خيرِ الدُّنيا، ويتضمَّنُ بشارةً برضَى اللّهِ عنهم، ووعدًا بأنَّ اللّهَ مُكمِلٌ لهم ما يتطلَّبونَه من خير[2]، والسّورةُ مقصودُها الأعظمُ اختصاصُ المؤمنين بالفلاح[3]؛ فكان ما افتُتِحَ به ذا إيماءٍ إلى ما ستتلوه من مقصودٍ كُلّيٍّ ومقاصدَ جزئيةٍ شارحةٍ له.

معنى ﴿قَدْ﴾ ونُكتةُ دخولِها على الفعلِ الماضي:

الفلاحُ حالٌ مُتحقِّقٌ للمؤمنين

﴿قَدْ﴾ حرفٌ يوجَبُ به الشَّيء؛ كقولك: قد كان كذلك، والخبرُ أن تقول: كان كذا، فأدخل ﴿قَدْ﴾ توكيدًا لتصديق ذلك[4]، ودخولُ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 547.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 8.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 182.
(4) الأزهري، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (قد).

(قد) على الفعلِ الماضي لتقرِّبَه من الحال[1] حتَّى تُلحقَه بحُكمه، كما يقولون: (قد قامتِ الصَّلاة) قبلَ حالِ قيامِها[2].

والحالُ في الفعل الماضي لا يكون إلّا بإضمار (قد) أو بإظهارها؛ كقوله تعالى: ﴿أَوۡ جَآءُوكُمۡ حَصِرَتۡ صُدُورُهُمۡ﴾ [النِّساء: 90]، ولا يكون ﴿حَصِرَتۡ﴾ [النِّساء: 90] حالًا إلّا بإضمارِ (قد)[3]، فـ ﴿قَدۡ﴾ ههنا يجوزُ أن تكون تأكيدًا لفلاحِ المؤمنين، ويجوزُ أن تكون تقريبًا للماضي من الحال، ويكون المعنى أنَّ الفلاحَ قد حصل لهم وأنَّهم عليه في الحال، ووراء هذا من المعنى مدحُهم، وعظيمُ التّرغيب في التّأسّي بهم في أحوالهم؛ فيكون في ذلك تشوُّفٌ وتشوُّقٌ لمعرفة هاتيك الأحوال؛ وهذا ما ستتلوه الآياتُ عقبَ هذه الآية الأولى.

فائدةُ التَّوكيدِ مع أنَّ الأمرَ لم يتحقَّق بعد:

الخطابُ بثباتِ المتوقَّع، وتحقُّقه لا محالة

لَمّا أفادت ﴿قَدۡ﴾ توكيدَ المتوقَّعِ وتثبيتَه في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ دلَّت على أنَّ المؤمنين كانوا مُتوقِّعين مثل هذه البِشارة؛ وهي الإخبارُ بثباتِ الفلاح، فخوطبوا بما دلَّ على ثباتِ ما توقَّعوه[4].

غرضُ حذفِ مُتعلَّق الفلاح:

تحقُّقُ فلاحِ المؤمنين في كلِّ ما قصدوا حصولَه

الإخبارُ بفلاحِ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ دون ذِكرِ مُتعلِّقٍ بفعلِ الفلاح، يقتضي في المقامِ الخطابيّ تعميمَ ما به الفلاحُ المطلوب، فكأنَّه قيل: (قد أفلح المؤمنون في كلِّ ما رَغبوا فيه)؛ أي: أفلحوا فلاحًا كاملًا[5].

معنى (أل) في ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ ودلالة الاسمية:

تحقُّقُ الإيمانِ بِمَنِ اتَّصفَ بأعمالِه

عبَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ بالاسْمِ ﴿ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ المحلَّى بـ (أل) إشارةً

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105.

(2) ابن يعيش، شرح المُفصَّل: 8/ 147، وأبو حيّان، ارتشاف الضَّرَب: 3/ 256، وابن هشام، مُغني اللَّبيب: 1/ 195.

(3) الفرّاء، معاني القرآن: 1/ 24.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 25.

(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 8.

إلى أنَّ مَنْ أقرَّ بالإيمانِ وعملَ بما أُمِرَ به في آخر السّورة الَّتي قبلَها في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ۩ ۝٧٧ وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ﴾ [الحج: 77 - 78] إلى قوله: ﴿فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱعۡتَصِمُواْ بِٱللَّهِ﴾ [الحجّ: 78]؛ فقد استحقَّ الوصفَ الثّابت؛ لأنَّه اتَّقى وأنفقَ ممّا رُزِقَ وجاهدَ وصلَّى وزكَّى واعتصمَ بالله[1]، وذلك يشمل كلَّ مؤمنٍ في كلِّ عصرٍ ومِصْرٍ وجنسٍ؛ فـ(أل) فيه للجنس.

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾:

استئنافُ تعريفٍ بصفاتِ المؤمنينَ المفلحين

جاء قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ استئنافًا لقولِه تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ تعريفًا بهم وبصفاتهم الموضِّحة والمادحة لهم، حسبَ اعْتبارِ ما ذُكِرَ في حيِّزِ الصِّلة من المعاني مع الإيمان إجمالًا أو تفصيلًا[2]، وهو يصحُّ أن يكون استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الحُكم عليهم بالفلاح المؤكَّد المُحقَّق عامِّ المتعلَّق يُشوِّق إلى معرفة أوصاف هؤلاء المؤمنين؛ فذلك من شأنه أن يُحرِّك المُتلقّي لسؤالٍ عن ذلك؛ فكانت هذه الآية وما بعدها ممّا في سياقها جوابًا عنه.

غرضُ التَّعبير بالاسْمِ الموصولِ وتكريرِه:

الخلالُ التي بها فلاحُ المؤمنين

أجْرَى النَّظمُ الكريمُ الصّفاتِ على المؤمنين بالتَّعريفِ بطريق الموصولِ وبتكريرِه؛ للإيماءِ إلى وجْه فلاحهم وعلَّته؛ أيْ إنَّ كلَّ خَصْلةٍ من هذه الخصالِ هي من أسبابِ فلاحهم، وهذا يقتضي أنَّ كلّ خَصْلةٍ من هذه الخصالِ سببٌ للفلاح؛ لأنَّه لم يقصد أنَّ سببَ فلاحِهم مجموعُ الخصالِ المعدودة هنا، فإنَّ الفلاحَ لا يتمُّ إلّا بخصالٍ أُخرى ممّا هو مرجعُ التَّقوى، ولكن لَمّا كانت كلُّ خصلةٍ من هذه الخِصالِ تُنبئُ عن رسوخِ الإيمانِ من صاحبِها؛ اعْتُبِرَت لذلك

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105.

(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 48.

سببًا للفلاح، وصُدِّرت بالاسْمِ الموصول[1]، وفي التّعبير بالموصول مدحهم، وفي تكريره إبلاغٌ فيه؛ تأسيسًا على أنَّ الصّلة بيانٌ وتعريف للموصول المُبهم الغامض.

نكتةُ التَّعبيرِ في الخشوع بالجملةِ الاسْميَّة:

الخــشــوعُ صفـةٌ مُـلازمـةٌ لـلـمـؤمـنـيـنَ المفلحين

الجملةُ الاسميَّةُ تقتضي الثَّبات، وكذلك هنا في وصف المؤمنين عُبِّر بالجملة الاسميّة في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾، فهم في ثباتٍ في صفة الخشوع؛ أي: الخشوعُ مصاحبٌ لهم في صلاتهم لا يُغادرهم، وهو كنايةٌ عن تعلُّقِ قلوبِهم باللّه، وشدَّةِ الخوفِ منه ﷻ، ولذلك جاء الإخبارُ بثباتِ الفلاحِ لهم فخوطبوا بما اتّصفوا به، ومنه ثباتُهم في الخشوعِ لهم في صلاتِهم ودوامِه[2].

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

الـصَّـلاةُ جـزءٌ أصـيـل مـهـمٌّ في حياة المؤمن

التَّعبيرُ بالحرف ﴿فِي﴾ يُفيدُ الظَّرفيَّةَ الدّاخلةَ في عُمقِ زمنِ إقامتِهم وأدائهم للصَّلاة، فكأنَّهمُ انْغَمَسوا في قلبِ صلاتهم فدخلوا في محرابِ وُجدانِها، فأصبحوا جزءًا منها وأصبحتْ جزءًا منهم، لا ينفكّون عنها ولا تنفكُّ عنهم، وزاد هذا التَّعبيرَ قوَّةً خشوعُهم فيها، ولذلك قالَ تعالى: ﴿هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾.

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ﴾:

ضرورةُ الاهتمام بـشـأنِ الـصَّـلاة؛ فـهـي أعـظـمُ فرائضِ الإسلام

الأصلُ أنَّ الجارَّ مُتعلِّقٌ بما بعده، ولكنَّه قُدِّم هنا فقال: ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ للاهتمام به؛ وهو أمرُ إقامةِ الصَّلاة في حياتهم، وحسَّنه كونُ مُتعلَّقِه فاصلة، وكذلك هو الحال فيما بعده من أخواته[3]، وللإيذانِ بأنَّ لهم تعلُّقًا شديدًا بالصَّلاة؛ لأنَّ شأنَ الإضافةِ أن تُفيدَ شدَّةَ الاتِّصالِ بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9.
(2) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 8/ 315.
(3) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المصون: 8/ 315.

على معنَى لام الاخْتصاص، فلو قيل: (الَّذين إذا صلّوا خَشَعوا)؛ فاتَ هذا المعنَى[1].

نكتةُ إضافةِ الصَّلاةِ إلى ضميرِ المؤمنين:

المؤمنون هم المنتفعون بالصَّلاة

أُضيفَتِ الصَّلاةُ إلى ضميرِ ﴿هُمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ﴾؛ لأنَّهم هُمُ المنتفعون بها وبثمراتِها في الدُّنيا والآخرة، وهي عُدَّتهم وذخيرتُهم، والمصلَّى له - وهو اللّهُ تعالى - غنيٌّ عنها وعن الانْتفاعِ بها[2]، وفيها إيماءٌ إلى كمال عنايتهم بها في نور توجيهات الشَّرع الحنيف؛ كأنَّها من مسئولياتهم ومن محلِّ رعايتهم؛ وأنَّهم لذلك يُقبِلون عليها ويرتاحون فيها.

نكتةُ ذِكْرِ الخشوعِ مع أنَّه ليس من أركانِ الصَّلاة:

الصَّلاة أوْلى مواضع الخشوع وأعلاها منزلة

الخشوعُ: خوفٌ يوجِبُ تعظيمَ المخوَّفِ منه، ولا شكَّ أنَّ الخشوعَ للّهِ يقتضي التَّقْوى فهو سببُ الفلاح، وفي وصف المؤمنين بالخشوع في صلاتِهم في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ مع أنَّه ليس من أركانها؛ لقصد الجمعِ بين وصفِهم بأداءِ الصَّلاةِ وبالخشوع، وخاصَّةً إذا كان في حال الصَّلاة؛ لأنَّ الخشوعَ للّه يكون في حالِ الصَّلاة وفي غيرها، إذِ الخشوعُ محلُّه القلب؛ فليس من أفعال الصَّلاة، ولكنَّه يتلبَّسُ المُصلّي في حالةِ صلاته، وذُكرَ مع الصَّلاة؛ لأنَّ الصَّلاة أوْلى المواضع بإثارةِ الخشوعِ وقوَّته ولذلك قُدِّمت؛ ولأنَّه بالصَّلاةِ أعْلَق؛ فإنَّ الصَّلاةَ خشوعٌ للّه تعالى وخضوعٌ له؛ ولأنَّ الخشوعَ لَمّا كان للّه تعالى كان أوْلى الأحوالِ به حالُ الصَّلاة؛ لأنَّ المُصلّي يُناجي ربَّه فيُشْعِرُ نَفْسَه أنَّه بين يَدَي ربِّه فيخشع له، وهذا من آدابِ المعاملةِ مع الخالقِ سبحانه تعالى؛ وهي رأسُ الآدابِ الشَّرعيَّة ومصدرُ الخيراتِ كلِّها[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 25.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9.

الخشوعُ في الصَّلاة سجيَّةٌ ثابتةٌ للمؤمنين

بلاغة الإيجاز في الآية:

جاء الإيجازُ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ في أجْلَى معانيه، إذ إنَّ من شأن المؤمنين المُفلحين التَّشوُّقَ للصَّلاة بإقامتها وأدائها، فهي أساسُ الفروض، ورأسُ العبادات، ولذلك اسْتخدمَ النَّظمُ الكريمُ كلماتٍ قليلةٍ مع ما ترمي إليه من معانٍ جليلةٍ عظيمة، فعرَّفَ المؤمنينَ المفلحينَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ﴾ باسْتعمالِ اسْمِ الموصول وصلته، ثمَّ بقوله: ﴿فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ بتقييدِ الخشوعِ بكونه في الصَّلاة، فجمع لهم بين الصَّلاة والخشوع، مع بيانِ تعلُّقِهمُ الشَّديدِ بالصَّلاة، ولم يتأتَّ وصفهم بكونهم خاشعين إلّا بالجملة الاسْميَّة وما تدلُّ عليه من ثباتِ الخشوع لهم ودوامِه؛ أيْ: كونُ الخُشوع خُلُقًا لهم بخلافِ نحو: (الَّذين خشعوا)، فحصل الإيجاز، ولم يَفُتِ الإعجاز[1].

عطفُ صفةٍ على ما تقدَّمَها لموصوفٍ واحد

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾:

العطفُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ هو من قبيلِ عطفِ الصِّفاتِ لموصوفٍ واحدٍ؛ وهو هنا المؤمنون في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾؛ أيِ: المؤمنون الَّذين من صفاتهم أنَّهم عن اللَّغوِ مُعرِضون؛ لأنَّ الإعراضَ عن اللَّغو من صفات المؤمنين المُفلحين[2].

بيانُ سببٍ من أسباب فلاح المؤمنين

غرض التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول:

صُدِّرت هذه الصِّفةُ بالاسْمِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾؛ لبيان سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، ووَجْهٍ آخرَ من وجوه ما يستحقّون به هذا الثَّناءَ العظيمَ بجعلِهم من أهلِ الفلاح[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصول وصلته، والإظهار في مقامِ الإضمار:

نُظمت الصِّفاتُ مع تصديرِها بالاسْمِ الموصول وصلتِه؛ للثَّناء على المؤمنين بما هم أهلُه، وفي إعادةِ الاسْم الموصول مع صلتِه دون اكتفاءٍ بعطف صلةٍ على صلةٍ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفات موجِبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحونَ حتَّى يجمعوا بين مضامين الصَّلاةِ كلِّها فحسب، ولِما في الإظهارِ في مقام الإضمارِ من زيادةِ تقريرٍ للخَبَرِ في ذهنِ السّامعِ بعد تشوُّفه لمعرفته والوقوفِ على مضمونه[1]، وهذا ينظرُ إلى تحقيق فعل الفلاح وتوكيده بـ ﴿قَدۡ﴾ في صدر السّورةِ؛ فكما كان تحقيق وتوكيد في المجمَل كان مِثْلُه في التّفصيل، وفي التّكرارِ تنبيهٌ على استواء أو تقارب قوة تسبُّبِ ما يرِد في حيِّز كل موصولٍ من صلةٍ، في حصولِ الفلاحِ للمؤمنين، ومن فوائد التّكرار: حصول التّماسك والتّرابط بين الآيات ومعانيها.

صفات الفلاح تتكامل وتترقّى في نفوس أصحابها

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في الإعراض عن اللَّغو:

لم يأتِ النَّظمُ القرآنيُّ بقولِه في وصفِ المؤمنين: (أعرضوا عنِ اللَّغو)، أو بقوله: (كانوا عنِ اللَّغوِ معرضين)، وإلّا يَفُتْ ما تدلُّ عليه الجملةُ الاسْميَّةُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَنِ ٱللَّغۡوِ مُعۡرِضُونَ﴾ من ثباتِ إعراضِهم عنِ اللَّغوِ ودوامه، فإعراضُهم عن اللَّغوِ ثابتٌ لهم في حياتِهم حتَّى أصبحَ صفةً ملازمةً لهم[2].

ثباتُ المؤمنين في إعراضِهم عن اللَّغو

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾:

في تقديم الجارّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱللَّغۡوِ﴾ على الخبر ﴿مُعۡرِضُونَ﴾ إفادةُ الحَصْرِ في إعراضِهم عن اللَّغو، وتركه بالكُلّيَّة[3]، وفي تقديمه أيضًا: تنبيهٌ على أنَّهم أدركوا أنَّ اللَّغو ممّا

إفادة الحصر في الإعراض عن اللَّغو وانصرافهم عنه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

ينبغي التّولّي والإعراض عنه؛ فقد عرَفوه؛ ولذلك حذروا منه، وهذا يعني أنَّ من أسبابِ فلاح هؤلاء المؤمنين أنَّهم يعبدون اللّه على عِلْمٍ، والعبادة القليلة مع العلم خيرٌ من العبادة الكثيرة مع الجهل.

معنى (أل) في ﴿ٱللَّغْوِ﴾:

المؤمنون مُعرِضون عن كلِّ ما يعنيه اللَّغو

(أل) في قوله ﷻ: ﴿ٱللَّغْوِ﴾ لإفادةِ جِنْس ما يدخلُ في معنَى اللَّغوِ ممّا لا يُعتدُّ به من الأقوال والأفعال، وكلِّ باطل، وما شاعَ في الكلام الَّذي يورَدُ لا عن رَويَّةٍ وفكرٍ، وكلِّ كلامٍ قبيحٍ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالإعراضِ مادَّةً وصيغةً:

اجتنابُ المؤمنين للَّغْوِ صار طبعًا لهم في عامَّةِ أوقاتهم

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن اجْتنابِ المؤمنين للَّغْوِ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿مُعۡرِضُونَ﴾، وهذا أبلغُ من أن يُقال: (لا يلهون)، أو: (يتركون)، فإقامةُ الإعراضِ مقام التَّرك ليدُلَّ على تباعُدِهم عنه رأسًا مباشرةً وتَسَبُّبًا ومَيْلًا وحُضورًا، فإنَّ أصلَه أن يكونَ في عُرْض؛ أيْ: ناحيةٍ غير عُرْضِه، فالإعراض يشمل التَّرك وزيادة، و﴿مُعۡرِضُونَ﴾ اسْمٌ دالٌّ على الاسْتمرار؛ أيْ: يدخلُ فيه إعراضُهم عن اللَّغوِ في عامَّةِ أوقاتهم؛ حتى صار تركه والانصرافُ عنه طبعًا فيهم، وديدنًا لهم.

فائدةُ التَّعقيب عن إعراضهم عنِ اللَّغو بعد وصفِهم بالخشوع:

الإعراضُ عن اللَّغوِ ممّا تقتضيه الصَّلاةُ والخشوع

عقَّبَ النَّظمُ القرآنيُّ ذِكْرَ الخشوعِ بذِكْر الإعراضِ عنِ اللَّغو؛ لأنَّ الصَّلاةَ في الأصل الدُّعاء، وهو من الأقوالِ الصّالحة فكان اللَّغوُ ممّا يخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الصَّلاة بجامع الضِّدّيَّة؛ فكان الإعراضُ عن اللَّغوِ بمعنَيَي الإعراض ممّا تقتضيه الصَّلاةُ والخشوع؛ لأنَّ مَن اعْتادَ القولَ الصّالحَ تجنَّبَ القولَ الباطل، ومَن اعْتادَ الخشوعَ للّه تجنَّبَ قولَ الزّور[2]، فالإعراضُ عنِ اللَّغوِ من مُتمِّمات الصَّلاة[3]؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 11.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.

فجاء وصفُهم بالإعراضِ عنِ اللَّغوِ بعد وصفِهم بالخشوع في الصَّلاة؛ ليجمعَ لهمُ الفعلَ والتَّركَ الشّاقَّيْنِ على الأنفُسِ اللَّذَيْنِ هما قاعدتا بناءِ التَّكليف[1].

والحاصلُ أنَّ الصّفةَ الثّانيةَ من شأنها أن تُحقِّقَ الأولى وتوكِّدَها؛ لأنَّ حصولَ اللَّغو أثناء الصَّلاةِ أو بعدِ الصَّلاةِ مِمّا من شأنه أن يتسبَّبَ في نقصِ الخشوعِ؛ فكأنَّ هاتَيْنِ الصِّفتَيْنِ صفةٌ واحدةٌ كبيرةٌ؛ وإن نُظِمتا في آيتَيْن.

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾:

تقويةُ الثَّناءِ على المؤمنينَ المُفلحين

ورد قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ من قَبيل عطفِ صلةٍ على صلةٍ؛ تقويةً للثَّناءِ على المؤمنين[2] الَّذين وُصفوا بالفلاحِ المُحقَّقِ في صدرِ السّورة في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾، وسرْدًا للأوصافِ التي تسبَّبَتْ في وصفهم بالفلاح في مطلع السّورة.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصول:

التَّعريفُ بأنَّ صفةَ أداءِ الزَّكاةِ من أسبابِ الفلاح

إجراءُ الصِّفاتِ على المؤمنين بالتَّعريفِ بطريقِ الموصولِ؛ للإيماء إلى وجهِ فلاحِهم وعِلَّته؛ أيْ: هذه الخصلةُ من هاته الخِصالِ للمؤمنين هي من أسبابِ فلاحِهم، وهي تُنبئُ عن رسوخِ الإيمانِ من صاحبِها، لذلك اعتُبِرتْ سببًا للفلاح[3].

غرضُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في أداء الزكاة:

ثباتُ المؤمنين على فعلِ الزَّكاة

التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّة في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على ثباتِ المؤمنين من فاعلي الزَّكاة في أدائها ودوامِهم على إتيانها لمُستحقّيها[4].

---

(1) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 9، 13.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصولِ وصلتِه، والإظهارِ في مقامِ الإضمار:

كلُّ صفةٍ من صفاتِ المؤمنين موجِبةٌ للفلاح مقرِّرةٌ له

تكرارُ الاسْمِ الموصول (الَّذين) مع صلتِه ﴿هُمْ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفاتِ موجبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحون حتَّى يجمعوا بين مضامينِ الصَّلاةِ كلِّها، ولِما في الإظهارِ في مقامِ الإضمار من زيادةِ تقريرٍ للخبرِ في ذِهْنِ السّامع[1].

معنَى (اللّام) في ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

اللّام لتقوية أداء الزّكاة أو لتعليله

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ للتَّقوية؛ لضَعْفِ العاملِ بالفَرْعيَّة، وبالتَّأخيرِ عن معموله، ويجوز أن تكون لامَ التَّعليل؛ لأنَّ الزَّكاة فيها معنَى تزكيةِ النَّفْس[2]، ويمكن أن تكون اللّامُ لتقويةِ العملِ من وجْهَيْن، تقديمِ المعمول، وكونِ العامل اسْمًا[3]؛ أي: أثبت اللّامَ تقويةً لاسم الفاعل في قوله: ﴿فَٰعِلُونَ﴾[4].

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

التّنبيهُ على أهميَّةِ الزَّكاة، والتَّعلُّق الشَّديد بفعلها

تقدَّم الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ على ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لمزيدِ الاهْتمامِ بشأن الزَّكاة، وبيانِ مَصبِّ الفائدة في الإنفاق المأمورِ به فيما يليقُ بصاحبِه فعلُه على وجهِ الطّاعةِ للّه، وأداءِ حقوقِ العبادِ عليه[5]، وللتّنبيه على أنّ فعل الزّكاة لم يكن من فاعليها إلّا من بعد عِلْمٍ بحقيقة الزّكاة وثمرتها ومنافعها، إلى آخر ما يتعلّق بها ممّا يُفيد معرفتُه في حصول الفلاح بالزّكاة، وللإيذان بأنَّ لهم تعلُّقًا شديدًا بإيتاء الزَّكاة؛ لأنَّ شأنَ الإضافة أن تُفيدَ شدَّةَ الاتّصالِ بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها على معنَى لام الاختصاص[6].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، وينظر: الرّاغب، المُفردات: (زكي).
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 107.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.

معنَى (أل) في ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾:

الزَّكاةُ فريضةٌ ربّانيَّةٌ معلومةٌ من الدّين بالضَّرورة

(أل) في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ﴾ للعهد؛ أيِ: الزَّكاةُ المعهودة المفروضة في الأموال على المسلمين - بحسَب حالهم وأزمانهم - بشروطِها وأنصبتِها ومصارفِها؛ لأنَّ هذه اللَّفظةَ قدِ اخْتُصَّت في الشَّرعِ بهذا المعنَى[1]، يقول ابن عاشور: "والسّورة مَكّيَّةٌ بِالِاتِّفاقِ، ولا اعْتِدادَ بِتَوَقُّفِ مَنْ تَوَقَّفَ في ذَلِكَ بِأنَّ الآيَةَ الَّتي ذُكِرَتْ فيها الزَّكاةُ وهيَ قَوْلُهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ تُعَيِّنُ أنَّها مَدَنيَّةٌ؛ لِأنَّ الزَّكاةَ فُرِضَتْ في المَدينَةِ، فالزَّكاةُ المَذْكورَةُ فيها هيَ الصَّدَقَةُ لا زَكاةَ النُّصُبِ المُعَيَّنَةِ في الأمْوالِ، وإطْلاقُ الزَّكاةِ على الصَّدَقَةِ مَشْهورٌ في القُرْآنِ، قالَ تَعالَى: ﴿وَوَيۡلٞ لِّلۡمُشۡرِكِينَ ٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [فصلت: 6 - 7] وهيَ سورَةٌ مَكّيَّةٌ بِالِاتِّفاقِ، وقالَ: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ٥٤ وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ [مَرْيَم: 54 - 55] ولَمْ تَكُنْ زَكاةُ النُّصُبِ مَشْروعَةً في زَمَنِ إسْماعيلَ"[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ مادَّةً وصيغةً:

أداءُ الزَّكاةِ فعلٌ يقوم به مَن وفَّقه الله إليه

الزَّكاةُ اسمٌ مُشتركٌ بين عَيْنٍ ومعنًى؛ فالعَيْنُ: القَدْرُ الَّذي يُخرجُه المُزكّي من النِّصابِ إلى الفقير؛ والمعنَى: فعلُ المُزكّي الَّذي هو التَّزكية، وهو الَّذي أرادَه اللّٰهُ تعالى فجعل المزكّين فاعلين له، ولا يَسوغُ فيه غيرُه؛ لأنَّه ما من مصدرٍ إلّا يُعبَّر عن معناه بالفعل، ويُقالُ لُمحدِثه: فاعل، تقول للضّارب: فاعل الضّرب، وللقاتل: فاعل القتل، وللمُزكّي: فاعل الزَّكاة، وعلى هذا الكلامُ كلُّه، والتَّحقيق فيه: أنَّك تقولُ في جميع الحوادثِ مَنْ فاعلُ هذا؟ فيُقالُ لك: فاعلُه اللّٰه، أو بعضُ الخَلْق، ممَّن خلقَ اللّٰهُ الفعلَ على أيديهم وجعلَهم محلًّا له، ولم يمتنع الزَّكاة الدّالَّة على العَيْنِ أن يتعلَّق بها ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لخروجِها

(1) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 136، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 6.

من صحَّةِ أن يتناولَها الفاعل[1]، وكذلك يُقال: إنَّما أوثِرَ هنا الاسْمُ الأعمُّ وهو ﴿فَٰعِلُونَ﴾؛ لأنَّ مادَّةَ (فعل) مُشتهرةٌ في إسداءِ المعروف، واشْتقَّ منها الفَعالُ بفتح الفاء[2]، فهي أبلغ في سياق مدحهم هذا المدح العظيم بالفلاح العظيم.

نكتةُ التَّعبيرِ عن الزَّكاةِ بالفعلِ دون الإيتاءِ أوِ الأداء:

الـزَّكـاةُ ممّا يـصـدُقُ عليه التَّعبيرُ بالفعل

آثر السياقُ الكريمُ التَّعبير بالفعل في قوله تعالى: ﴿لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾، على معنَى فعلِهم للزَّكاة هو إيتاؤها لِمُستَحقّيها أو تأديتُها لهم، ولكنَّ النَّظْمَ الكريمَ عبَّر عن الإيتاءِ أو التَّأديةِ بالفعل؛ لأنَّها ممّا يصدُقُ عليه الفعلُ[3] في مادَّته - كما تقدَّم آنفًا - في استعمالِها في إسداءِ المعروف.

فائدةُ الحديثِ عن فعلِهم للزَّكاة بعد ما تقدَّم من صفاتهم:

بلوغُ المؤمنين الغايةَ القُصوى من أداءِ الطّاعاتِ البدنيَّة، وتجنُّبِ المحرَّمات

جاء وصفُ المؤمنين في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ﴾ بعد وصفِهم بالخشوعِ في الصَّلاة للدَّلالة على أنَّهم بلغوا الغايةَ القاصيةَ من القيامِ بالطّاعاتِ البدنيَّة والماليَّة، وتجنُّبِ المحرَّمات وسائرِ ما توجبُ المروءةُ اجْتنابَه، وتوسيطُ حديثِ الإعراضِ بينهما؛ لكمالِ ملابسته بالخشوعِ في الصَّلاة[4].

مناسبة الترتيب بين الآيات:

فُصِلَ بينهما هنا بالإعراضِ عن اللَّغو؛ لأنَّ الصَّلاة في الأصلِ الدُّعاء، وهو من الأقوالِ الصّالحة؛ فكان اللَّغوُ ممّا يخطُرُ بالبالِ عند ذِكْرِ الصَّلاةِ بجامع الضِّدّيَّة[5]، وإذا كانت صفة الإعراض عن اللَّغو من تمام صفة الخشوع في الصَّلاة من حيث إنّ الثّانية تُحقّق

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 26.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 12.
(3) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 49.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 11.

وتوكِّد الأولى؛ فإنَّ صفة فعل الزَّكاة هنا تقَع من صفة الإعراض عن اللَّغو هنا نفسَ الموقِع؛ فتأدية الزّكاة تحقّق التّطهُّر من اللّغو؛ كما ورد في حديث النّبيّ ﷺ: "والصَّدقة تُطفئُ الخطيئةَ كما يُطفئُ الماءُ النّارَ"(1).

نكتةُ عطفِ قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾:

أداءُ الزَّكاةِ والإعراضُ عن اللَّغوِ سبيلانِ لحفظِ الفُروج

ذكرَ النَّظمُ القرآنيُّ حفظَ الفُروجِ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ عطفًا على الإعراضِ عن اللَّغو؛ لأنَّ من الإعراضِ عن اللَّغو تركَ اللَّغو بالأحْرى؛ لأنَّ زلَّةَ الصّالح قد تأتيه من انْفلاتِ أحدِ هذيْن العُضوَيْن - اللِّسانِ والفَرْج - من جهة ما أودِعَ في الجِبلَّةِ من شهوة اسْتعمالِهما، فلذلك ضبطتِ الشَّريعةُ اسْتعمالَهما بأن يكون في الأمورِ الصّالحةِ الَّتي أرشدتِ إليها الدّيانة(2).

وجاء - كذلك - عطفُ صفةِ حفظِ الفَرْج على صفة أداء الزَّكاة؛ لأنَّ بذلَ المالِ على وجْهِه طُهْرة، وأنَّ حَبْسَه عن ذلك تَلِفَة، فأتبعَه الإيماءُ إلى أنَّ بَذْلَ الفَرْجِ في غير موضعِه نجاسة، وحفظُه طُهْرَةٌ(3).

مناسبة ورود صفة حفظ الفرج بعد الصفات السّابقة:

حفظ الفرج نتيجة لتحقيق الصفات السّابقة

وفي مجيء هذه الصِّفة بعد الصّفات السّابقة تنبيهٌ لطيفٌ على عِظَم خطرِ تحقُّق هذه الصِّفة؛ فإنَّ حفظ الفَرْج يفتقر إلى إقامة الصّلاة، وإلى حفظ اللّسان بالإعراض عن اللّغو؛ لأنه رُبَّ كلمةٍ جرَّتْ إلى الزِّنى - عياذًا باللّه من ذلك - وإلى تهيئة النّفس للمَيْل إلى الشَّرع ومحاسنه وأوامره ونواهيه؛ ومن خيرِ ما يُحقِّقُ ذلك الزَّكاة خصوصًا والإنفاقُ عمومًا، واللّه تعالى قال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ [العنكبوت: 45].

---

(1) القول النبوي المذكور جزء من حديث في سنن الترمذي، أبواب السفر، الحديث رقم: (614).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 14 - 15.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 108.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصِلتِه:

بيانُ سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين

صُدِّرت هذه الصِّفةُ - كسابقيها - بالاسْمِ الموصولِ ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ لبيان سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، ووَجْهٍ آخرَ من وجوه ما يستحقّون به هذا الثَّناءَ بجعلِهم من أهلِ الفلاح(1).

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصول وصلتِه، والإظهار في مقام الإضمار:

الـثَّـنـاءُ على المؤمنين بصفاتِ فـلاحـهـم وتقريرِهم عليها

صَدَّرَ النَّظمُ القرآنيُّ كلَّ صفةٍ من صفاتِ المؤمنين المُفلحين بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه للثَّناء على المؤمنين بما هم أهلُه، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من صفاتِهم موجبةٌ للفلاح، وفي الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ زيادةُ تقريرٍ للخبر في ذهنِ السّامع بعد تشوُّفِه لمعرفتِه والوقوفِ على مضمونِه(2).

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة ﴿هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾:

ثباتُ المؤمنين في حفظِ فروجِهم

لم يأتِ بيانُ القرآن بقوله في وصف المؤمنين هنا: (حفظوا فروجَهم)، أو: (كانوا لفروجِهم حافظين)، حتَّى لا يَفتَّ ذلك من عَضُدِ ما تعنيه الجملةُ الاسْميَّةُ من ثباتِ حفظِهم لفروجِهم ومداومتِهم عليه في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ فحفظُهم لفروجِهم مُلازمٌ لهم في حياتِهم لا يتخلَّف(3)؛ لأنَّه نتاج الأوصاف السّابقة التي أعانت المؤمنين على تحقيق ذلك الحفظ لفروجهم.

معنَى اللّامِ في ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾:

الـلّامُ لتقويةِ اسْـمِ الـفـاعـل (حافظون)

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾ لامُ التَّقوية؛ لضَعْفِ العاملِ بالفَرعيَّةِ وبالتَّأخيرِ عن معمولِه، وهذه التَّقويةُ من وجْهَيْن: تقديم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 15.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 15.

المعمول، وكونِ العاملِ اسْمًا[1]؛ أيْ: أثبت اللّامَ هنا تقويةً لاسم الفاعل ﴿حَٰفِظُونَ﴾[2].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عمومُ سَوْءاتِ الرِّجالِ والنِّساء، والمُراد هنا خصوصُ الرِّجال

الفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سَوْءات الرِّجال والنِّساء، فالقُبُلان وما حواليهما كلُّه فرْج، وكذلك من الدَّوابّ[3]، ومعنى الفَرْجُ في اللُّغة: الفُرجةُ بين الشَّيئَيْن، ولهذا سُمّيَ ما بين قوائم الدّابَّةِ الفُروج[4]، والمرادُ بالفُروج ههنا: فروجُ الرِّجالِ خاصَّةً لدلالة ما بعدهما عليهما، وهو قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ للإجماع على أنَّه لا يحلُّ للمرأةِ أن تطأ ما تملكُه[5].

بلاغةُ المجازِ في التَّعبيرِ عن العَوْرةِ بالفروج:

سترُ الفُروجِ صيانةٌ للعوراتِ من المُحرَّمات

قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: لعوراتِهِمُ الدّاخليَّةِ المُغلَّظةِ حافظون، فإنَّ في إطلاقِ الفَرْجِ على العوراتِ الدّاخليَّة تجوُّزًا، وهذا شأنُ القرآنِ الكريمِ في اسْتعمالِ الكنايات والمجازات في مثلِ هذه القضايا، دون التَّعبيرِ عنها بأسمائها - إذِ الأصلُ في معنَى الفَرْج هو الجَيْبُ الَّذي يكونُ في القميص أو الثَّوب عامَّة - فينكشفُ ما بداخله ويُرى، فأُطلقَ الفرجُ هنا على تلك العورات من باب الاستعارة التّصريحيّة؛ لأنَّ مُجرَّدَ انكشافِها سبيلٌ لانْتهاكِ حَصانتِها والوقوعِ في الفاحشة[6].

براعةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عن حُرمةِ الزِّنَى بحفظِ الفُروج:

حفظُ الفُروجِ صيانةٌ لها عن الزِّنَى المُحرَّم

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ عن حُرمةِ الزِّنى بحفظِ الفُروج بطريق الكناية، ذلك

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 107.
(3) الفراهيديّ، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (فرج).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فرج).
(5) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6.
(6) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 645.

أنَّ القرآنَ الكريمَ يستعملُ كلمةَ ﴿لِفُرُوجِهِمْ﴾ كنايةً عن العوراتِ الدّاخليَّة، وستر هذه العوراتِ لأجلِ حفظِها من الزِّنى؛ لأنَّ كشفَها مظنَّةٌ لحدوثِ الزِّنى المحرَّم، واللهُ تعالى يقول: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةٗ وَسَآءَ سَبِيلٗا ٣٢﴾ [الإسراء: 32]، والمقامُ هنا في وصف المؤمنين بحفظهم فروجَهم، فيه كنايةٌ عن التَّشديد في شأنِ عدم حفظ الفُروج المُؤدّي لفاحشة الزِّنى[1]، فحفظُ الفروج يُؤدّي إلى عدم الزِّنى، وعدم الزِّنى مُؤسَّسٌ على حُرْمته.

نكتةُ تقديم شِبه الجملة ﴿لِفُرُوجِهِمۡ﴾:

الاهتمامُ بشأنِ الفُروج لحفظها، واختصاصُ المؤمنين بصيانتها

في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ تقدَّمت شِبهُ الجملة للاهْتمامِ بشأنِ حفظِ الفُروج، ولكونها سبيلًا للفساد والإفساد، فأمرُها خطيرٌ وعدمُ سَتْرِها يؤدّي إلى هَتْكِ حُرمتها[2]، وفي هذا التَّقديم - كذلك - إيذانٌ بأنَّ للمؤمنين حرصًا شديدًا في حفظ فروجهم؛ لأنَّ شأنَ الإضافةِ أن تُفيدَ شدَّةَ الاتّصال بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها على معنى لام الاخْتصاص؛ أي: اختصَّ المؤمنون بحفظِ فروجِهم، وأنَّ حِفْظَها صفةٌ خاصَّةٌ بهم[3].

غرضُ التَّعبيرِ عن الفُروجِ بالحفظ:

ضرورةُ صيانةِ الفُروجِ وتعفُّفِها والتَّقيُّدِ فيها بالحلال

عبَّر النَّظمُ الكريمُ عن الفُروجِ بالحفظ في قوله تعالى: ﴿لِفُرُوجِهِمۡ حَٰفِظُونَ﴾ لأغراضٍ عديدة؛ أحدها: ضرورة صيانتها عن رِجْسِ الحرام المعنويّ والمادّيّ؛ أمّا المعنويُّ فهو ما في الحرام من خُبثٍ يُطهّرُ نفسَه منه؛ وأمّا المادّيُّ فهو ما يكون في الزِّنَى من تعرُّضٍ لأمراضٍ خبيثةٍ، وثانيها: الاسْتمساكُ والتَّحفُّظُ بالعِفَّة، وألّا يرميَ ماءه في غيرِ محلِّه، ليُحفظَ له نسَبُه، وثالثُها: التَّقيُّدُ؛ أيَ:

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 5/ 255، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 453، والآلوسي، روح المعاني: 10/ 205.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 15.

ليسوا مُنطلقينَ يُلقونَها في أيِّ مكان، وعلى أيِّ امرأةٍ، كلٌّ يَنْزو كما تَنزوا الحيواناتُ[1].

معنَى الاسْتثناء في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾:

حِـــلُّ الأزواج ومملوكات اليمين من سائر النِّساء

الاسْتثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ اسْتثناءٌ من عُموم مُتعلَّقاتِ الحفظِ الَّتي دلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾؛ أي: حافظوها على كلِّ ما يُحفَظُ عليه إلّا المتعلَّقُ الَّذي هو أزواجُهم، أو ما مَلكتْ أيمانُهم، فضُمِّن (حافظوا) معنى عدمِ البَذْل، يُقالُ: احْفَظْ عليَّ عَنانَ فرَسي، كما يُقال: أمْسِكْ عليَّ، كما في آية: ﴿أَمۡسِكۡ عَلَيۡكَ زَوۡجَكَ﴾ [الأحزاب: 37]، والمُرادُ: حِلُّ الصِّنفَيْن من بين بقيةِ أصنافِ النِّساء[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتعلاءِ ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾:

عُلوُّ ذِكْرِ ما أحلَّه الله

عبَّر بيانُ النَّظم القرآنيِّ بحرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰٓ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾؛ أي: اللّاتي ملكوا أبضاعَهنَّ بعقدِ النِّكاح، وهذا يقتضي عُلوَّ الذِّكر، فناسَبَه التَّعبيرُ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾[3]، ومن ظلال ﴿عَلَىٰٓ﴾ التَّنفير الشَّديد من تعدّي أصحاب الفُروج بها على غير ما يحلُّ لهم.

دَلالةُ شِبْهِ الجملة ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ على محذوفٍ:

الولايةُ والقَوامةُ عـلــى الأزواج وحِلُّهم لهم

دلَّ شِبْهُ الجملة ﴿عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ على محذوفٍ؛ وتقديرُه: (إلّا والينَ على أزواجِهم، أو قوّامين عليهنّ)؛ من قولك: كان فلانٌ على فلانةٍ فمات عنها، فخلَفَ عليها فلان، ونظيرُه كان زيادٌ على البصرة؛ أيْ: واليًا عليها، ومنه قولُهم: ثلاثةٌ تحت فلان، ومن ثمَّةَ سُمّيتِ المرأةُ فراشًا، والمعنَى أنَّهم لفُروجِهم حافظون في كافَّةِ الأحوال إلّا في حالِ تزوُّجهم أو تَسرّيهم، أو تعلَّق بمحذوفٍ يدلُّ عليه قولُه: ﴿غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾، كأنَّه قيل: يُلامون إلّا على أزواجِهم؛ أيْ:

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5046 - 5047.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 13 - 14.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 108.

يُلامونَ على كلِّ مباشرةٍ إلّا على ما أُطلِقَ لهم، فإنَّهم غيرُ مَلومينَ عليه، أو تجعله صلةً لـ: ﴿حَٰفِظُونَ﴾ من قولك: احفظْ عليَّ عَنان فرسي، على تضمينه معنَى النَّفي، كما ضُمِّن قولُهم: نشدتُكَ باللّه إلّا فعلتُ، معنَى: ما طلبتُ إليكَ إلّا فِعْلَك؛ يعني أنَّ صورتَه إثبات، ومعناه نفيٌ"[1].

الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾:

صيانةُ الفُروجِ عن كلِّ فرجٍ إلّا عن فُروجِ أزواجِهم

قوله تعالى: ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ جاء بعد الاسْتثناء بـ ﴿إِلَّا﴾ الَّذي هو استثناءٌ من عموم مُتعلّقاتِ الحفظِ الَّتي دلَّ عليها حرفُ ﴿عَلَىٰٓ﴾، وبهذا يكون التَّقدير: حافظوها على كلّ ما يُحفَظُ عليه إلّا المتعلَّق الَّذي هو ﴿أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾، فضمَّنَ ﴿حَٰفِظُونَ﴾ معنَى عدمِ البَذْل، فيكونُ ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ جارًّا ومجرورًا مُتعلّقًا بالمُستثنَى بـ ﴿إِلَّا﴾؛ أيْ: حافظون لها من كلِّ أحدٍ إلّا من أزواجِهم؛ أيْ: صانوها عن كلِّ فرْجٍ إلّا على فُروجِ أزواجِهم[2]، ويمكنُ أن تكون ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مُتعلقةً بمحذوفٍ وقع حالًا من ضميرِ ﴿حَٰفِظُونَ﴾؛ أيْ: حافظون لها في جميعِ الأحوالِ إلّا حالَ كونِهم والينَ أو قوّامين على أزواجِهم[3]، ويمكنُ أن تكون ﴿عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ﴾ مُتعلِّقةٌ بمحذوفٍ يدلّ عليه ﴿غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ كأنَّه قيل: (يُلامون على كلِّ مباشرٍ إلّا ما أُطلِقَ لهم فإنَّهم غيرُ ملومين)[4]، والوجهُ الأوَّلُ أوْلى لاتِّساقِه مع ظاهرِ السّياق.

(1) الزَّمخشري، الكشّاف: 3/ 26.

(2) العكبريّ، التّبيان: 2/ 147، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.

(3) العكبريّ، التّبيان: 2/ 147، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50.

(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50، ولم يجوِّز العكبريّ هذا الوجه إذ قال: "ولا يجوز أن يتعلَّق بـ ﴿مَلُومِينَ﴾ لأمرَيْن: أحدهما: أنَّ ما بعد (إنّ) لا يعمل فيما قبلها، والثّاني: أنَّ المضاف إليه لا يعملُ فيما قبله، وإنَّما تعلَّقت على يحافظون على المعنَى، ويجوز أن تتعلَّق بفعلٍ دلَّ عليه ﴿مَلُومِينَ﴾ أي: إلّا على أزواجهم لا يُلامون، يُنظر: العكبريّ، التبيان في إعراب القرآن: 2/ 147.

معنى ﴿أَوۡ﴾ في: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

الإباحةُ لصنفي النّساء الحرائر والإماء

﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾ عطفٌ على ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾؛ فـ ﴿مَا﴾ في موضعِ خفضٍ معطوفة على ﴿أَزۡوَٰجِهِمۡ﴾، وهي بمعنَى الإباحة؛ أيْ: إباحة بين هذيْن الصِّنفيْن اللَّذيْن أحلَّهما اللّهُ للأزواج دون غيرهما: الأزواجِ من النِّساءِ الحرائر والإماء، أو المعنَى: (لفروجِهم حافظون إلّا في حالِ ما أباحه اللّهُ لهم في حالِ تزوّجِهم أو تَسرّيهم)[1].

معنَى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾:

التَّعبيرُ عن الإماء باسْم ﴿مَا﴾ الموصولة، غالب اسْتعمالها لغيرِ العاقل، وقد جرى هنا على خلافِ الغالب في عادة استعمال العرب فاستُعمل للعاقل[2]، والتّعبير بـ ﴿مَا﴾ يفيد تعميم وطء ما مُلِك باليمين، وهو مختص بالإناث[3]، وللفرْقِ بينهنّ وبين الحَرائِر[4].

بلاغةُ المجاز العقليّ في إسنادِ الملِك إلى أيمانِهم:

الإمــاءُ مـلـكٌ لـصـاحـبـهـنَّ يتصرَّف فيهنّ

قوله تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ﴾؛ أيْ: سَراريهم؛ فأسْنَدَ الملكَ إلى الأيمانِ كناية عن ملكِ صاحبهنّ لرقبتهنّ، إمّا بالتَّسرّي بهنَّ لِنَفْسه، وإمّا بيعهنَّ أو شرائهنّ، فقد اجتمعت في هذه الأمَةِ السُّرّية وصفان: أحدُهما: الأنوثة؛ والآخر: كونُها مِلكًا لصاحبها[5].

سرّ التعبير عن الإماء بملك اليمين:

إطـلاق مـلـك الـيـمـين عـلى السّراري تفاؤل باليُمن

دَرَج البيان القرآنيّ على تسمية الإماء والسّراري بملك اليمين تفاؤلًا باليُمن؛ لأنّ اليمين مخصوصةٌ في معهود الاستعمال العربي بالمحاسن.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 261.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 14.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 549.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 108.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 262.

وذهب جمعٌ من أهل العلم إلى أنّ إطلاق (ملك اليمين) على الأمَة أو الجارية هو من باب إسناد الفعل إلى السبب؛ لأنّ الغالب أنّ اليمين سببٌ في الحصول عليهنّ، وفي كلّ هذه الحالات يكون التعبير من باب المجاز، حيث أسند الملك إلى السّبب.

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَإِنَّهُمْ﴾:

حفظُ فروجِهم إلّا مع أزواجِهم وإمائهم يمنع لومَهم

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصحُ في شرطٍ مُقدَّرٍ مأخوذٍ من الكلام؛ أيْ: فإذا كان ذلك على أزواجِهم أو ما ملكتْ أيمانهم فإنَّهم غيرُ ملومين[1]؛ فالفاءُ تفريعٌ للتَّصريح على مفهوم الاسْتثناءِ الَّذي هو في قوَّة الشَّرط - كما تقدَّم - فأشْبهَ التَّفريعُ عليه جوابَ الشَّرط، فقُرِئ بالفاءِ تحقيقًا للاشْتراط[2].

تتابعُ المُؤكّدات (إنّ) والجملة الاسميَّةُ:

تـأكيـدُ انْـتـفـاءِ الـلّـوم الشَّرعـيِّ عـلـى مَـن حفظَ فـرجَـه عـلـى ما أُحلَّ له

المُؤكِّداتُ (إنَّ) والجملةُ الاسميَّةُ في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ تصريحٌ بزائدٍ على حُكم مفهوم الاسْتثناء؛ لأنَّ الاسْتثناءَ لم يدلَّ على أكثرَ من كَوْنِ عدمِ الحفظِ على الأزواجِ والمملوكات لا يمنع الفَلاح، فأُريدَ - زيادة بيانٍ وتأكيدٍ - أنَّه أيضًا لا يوجبُ اللَّوْمَ الشَّرعيّ، فيدلُّ هذا بالمفهوم على أنَّ عدمَ الحفظِ على مَنْ سواهنَّ يوجبُ اللَّومَ الشَّرعيَّ ليحذرَه المؤمنون[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مَلُومِينَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

كيف يُـلامُ مَن يأتي ما أحلَّ الله له؟!

اللَّومُ: الإنكارُ على الغَيرِ ما صدَرَ منه من فعلٍ أو قولٍ لا يليقُ عند اللائم، وهو مرادفُ العَذْلِ وأضْعفُ من التَّعنيف[4]، فمادَّةُ اللَّوم قائمةٌ على عَذْلِ الإنسانِ بنسبته إلى ما فيه لَوْم[5]، وذكرَ اللَّومَ هنا

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5046.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(5) الرّاغب، المُفردات: (لوم).

تنبيهًا على أنَّه إذا لم يُلاموا لم يُفعلْ بهم ما فوق اللَّوْم، فهم لا يُلامونَ على الحلالِ بوطءِ أزواجِهم أو إمائهم[1]، ولذلك جاءت ملومين بهذه الصّيغة تعبيرًا على أنّهم لم يُعرِّضوا أنفُسهم للَوم لم يستحقّوه في عدم حفظ فروجِهم من هذيْن الصّنفين: أزواجِهم وما ملكت أيمانُهم[2].

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ﴾:

عدمُ العدوان مُترتِّبٌ على الحلالِ الطَّيِّب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ تُفيدُ ترتيبَ ما بعدها على ما قبلَها؛ أيْ: إذا كان الحلالُ في هذه الدّائرة؛ فهو غيرُ عدوانٍ على الأُسَر، وعلى المجتمع وعلى النَّفس، فيترتَّبُ على التَّحريم السّابقِ منعَ ابْتغاءِ المُحرَّمات، والابتغاءُ هو الطَّلبُ الشَّديد الَّذي يؤدّي إلى العدوان[3].

معنَى حرف (مَن) في السّياق:

مَن ابْتغى ما وراءَ ما أحلَّه اللهُ وقعَ في الحرام

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ، أو أداة شرط يُحمل على لفظها بالإفراد والتذكير، وعلى معناها بمُطلق الجمع؛ وهو إشارةٌ إلى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ فعبَّرت (من) عن ﴿فَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ أي: العادون، وفيه تحذيرٌ شديدٌ بعد ذلك من التَّفريع بأنَّ المذكورَ في قوله: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾؛ أيْ: وراء الأزواج والمملوكات؛ أيْ: غيرَ ذَيْنَك الصِّنفَيْن فيُخشَى أن تتغلَّبُ شهوةُ الفَرْج على حافظِها، فيقع فيما وراءَ ذلك ممّا حرَّمه اللّهُ عليه[4].

سِرُّ حمل (مَن) على لفظها ومعناها:

كلُّ نفسٍ بما كسبت رهينةٌ، والأسرةُ صورةٌ مُصغَّرةٌ للمجتمع

حُمِل على معنى (مَن) بالإفراد والتَّذكير في قوله: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ﴾؛

---

(1) مُقاتل بن سليمان، تفسير مُقاتل: 2/ 29، والبغويّ، معالم التَّنزيل: 5/ 410.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5047 - 5048.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.

فأمّا الإفرادُ فلأنّ ﴿كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: 38]، وأنتَ أيها الإنسان المسؤول أولًا وأخيرًا عن فعلك وقولك وعملك ونيّتك؛ وإن كان لذلك مدخلٌ في إيجاده مِن غيرك، وأمّا التّذكير فلأنّ هذا المعنى إنّما يختصّ بالرجال، وحُمِل على معناها بالجمع المُذكَّر في قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ - وتوجيهُ التَّذكير هنا كسابقه مع الإفراد -؛ إرشادًا إلى أنَّ عظيم الأثر السّلبيّ لمعنى الشّرط في الجماعة المسلمة؛ فإنَّ مَن ابتغى وراء ذلك أفسد أسرته وهدمها، وأفسد أسرة مَن فعَل بها ذلك الفُحْشَ وتلك الفاحشةَ، والأسرةُ صورةٌ مُصغَّرةٌ للمجتمع الكبير؛ فهو ينهدم بانهدامها.

دَلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الشَّرطيَّة:

تقريرُ التَّحذيرِ من الاعتداء ممَّن ابتغَى وراء ما أحلَّ اللهُ

جاء قولُه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ تفريعًا على قوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ الَّذي أشْبهَ التَّفريعُ عليه جوابَ الشَّرط، فقُرئَ بالفاء تحقيقًا للاشْتراط، وزيدَ ذلك التَّحذير تقريرًا بأن فُرِّعَ عليه ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾؛ لأنَّ داعيةَ غَلَبةِ شَّهوة الفَرْج على حفظِ صاحبِه إيّاه غريزةٌ طبيعيَّةٌ يُخشَى أن تتغلَّبَ على حافظها فيتعدَّى إلى ما وراءَ الأزواجِ والمملوكات(1).

غرضُ التَّعبيرِ بالابْتغاءِ مادَّةً وصيغةً:

قصدُ ما حرَّم اللهُ ابتغاءٌ للفُحشِ وحرصٌ عليه

الابْتغاءُ: افْتعالٌ من البَغْي، والبَغْيُ في ذاته في معنَى التَّعدّي، وطلبِ سوى الحلال، وقصدِ الفُحش والحرام(2)، وهو هنا بصيغتِه ﴿ٱبْتَغَىٰ﴾ يدلُّ على قَصْدِ ما سوى الأزواجِ والولائد بما حرَّمَ اللّهُ تعالى، والسَّعيِ للانْحراف، فلا يقفُ أولئك عند الحلال؛ بل يطلبون

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 14.
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7، والرّاغب، المُفردات: (بغي).

الشَّهواتِ بشدَّةٍ تؤدّي بهم إلى الانْحرافِ عن الجادَّة[1]، والصّيغة تدلُّ على أنَّ ما يُبتغَى من غير ما يحلُّ من النِّساء لا يُبتغى إلّا بقوَّةٍ وشدَّةٍ وتكلُّفٍ وكمال رغبةٍ.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿وَرَآءَ﴾:

قوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: سواه، وعبَّر عنه بـ ﴿وَرَآءَ﴾ إشارةً إلى أنَّه انْحطاطٌ في الرُّتبة، وإلى أنَّه وراءُ الإنسانيَّةِ المستقيمة، وانحرافٌ في القصد، وضلالٌ في الفعل[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة للبعيد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

في الابتغاء المُشار إليه ابْتعادٌ عن رضا الله

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾ بالإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهو إشارةٌ إلى الأزواجِ والإماء؛ أيْ: مَنِ ابْتغى وراءَ ما أحلَّه اللّهُ له من الأزواجِ والإماء؛ فقد تعدَّى حدودَ اللّه، واسْتعمالُ الإشارةِ للبعيد بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ لبُعدِ الابْتغاء عمّا أحلَّ اللّه وطلب ما سواه ممّا حرَّمه اللّه[3]؛ ففي التّعريف في: ﴿ذَٰلِكَ﴾ تعظيمٌ للأزواج والإماء؛ على تقدير رجوعه إليهنّ، وتعظيمٌ لقضاء شهوة الفَرْج في ما أحله اللّه في الأزواج والإماء؛ على تقدير تفسيره بهذا.

بلاغةُ الكنايةِ في التَّعبيرِ عن الزِّنى بـ ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾:

عادةُ القرآنِ الكريم في إيرادِ الألفاظِ الأديبةِ

كَنَّى النَّظمُ الكريمُ عنِ الزِّنَى بقوله تعالى: ﴿وَرَآءَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: سوى ما أحلَّه اللّهُ من الفُروجِ في الأزواجِ والإماء، وأصلُ الوَراءِ: اسمُ المكان الَّذي في جهةِ الظَّهر، ويُطلقُ على الشَّيءِ الخارج عن الحدِّ المحدود تشبيهًا للمُتجاوزِ الشَّيءَ بشيءٍ موضوعٍ خلف ذلك الشَّيء؛ لأنَّ ما كان من أعلاق الشَّخصِ يُجعلُ بين يديه وبمرأى منه، وما كانَ غير ذلك يُنبَذُ وراء الظَّهر[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5048، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 107.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5048.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.

معنَى الفاء في ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾:

رَبْطُ العُدوانِ بابْتغاءِ الحرام

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ رابطة لجواب الشَّرط بأداته وفعله ﴿فَمَنِ ٱبۡتَغَىٰ﴾، وهي تُفيدُ رَبْطَ ما جاء بعدها من العدوان بما سبَقها من ابتغاء الحرام - ربطًا جازمًا حاسمًا[1].

نكتةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارة للبعيد (أولئك):

زيادةُ تمييزِ مَنْ لم يحفظ فرْجَه عن الحرام بهذه الخصْلة القبيحة

جاء التَّعبيرُ باسْمِ الإشارةِ للبعيد (أولئك) في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾؛ لزيادةِ تمييزهم بهذه الخَصْلةِ الذَّميمة، وليكونَ وصفُهم بالعُدوان مشهورًا مقرَّرًا؛ كقوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ [البقرة: 177][2]؛ فيكون فيه كلُّ ذمٍّ لهم؛ فيتْبَع ذلك التَّنفير الشَّديد من تلك الخصلة القبيحة.

فائدةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة:

مَن لم يحفظْ فرْجَه عن الحرامِ ثبتت له صفةُ المُعتدي

أفادَ التَّعبيرُ بالجملةِ الاسْميَّة في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ ثباتَ وملازمةَ هذه الصِّفة القبيحة لأولئكَ الَّذين تعدَّوْا حدودَ اللّٰه، فاسْتبدلوا بالحلالِ الطَّيِّبِ في أزواجِهم وإمائهم فيما وراءَ ذلك الحرامَ الخبيثَ[3].

بلاغةُ القَصْر بتعريفِ طرفَيِ الإسنادِ وضميرِ الفصل:

المتجاوزون غيرَ الأزواج والإماء هُمُ البالغون غايةَ العدوان

ورد قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡعَادُونَ﴾ وحملَ معه بلاغة القَصْرِ من خلالِ طرفيِ الإسناد في المُسند: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، وفي المُسند إليه: ﴿ٱلۡعَادُونَ﴾ وتوسطّهما ضميرُ الرَّفعِ المُنفصل ﴿هُمُ﴾ - الَّذي يُفيدُ تقويةَ الحُكم - وهو قصرُ موصوفٍ على صفة، فقد قصرَ النَّظمُ الكريمُ ابتغاءَ ما حرَّم اللّٰهُ دون ما أحلَّه على صفة الاعتداء؛ أيْ: وصفَ مَنْ طلبَ الحرامَ في الفُروج دون ما أحلَّه اللّٰهُ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.

له من الأزواج والإماء بأنَّه معتدٍ؛ أيْ: همُ البالغون غايةَ العدوان على الحدود الشَّرعيَّة[1].

معنى (أل) في ﴿ٱلْعَادُونَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ للاستحقاقِ والمبالغة؛ أيْ: مَنْ ظلموا وتجاوزوا الحلالَ إلى الحرام في أمرِ الفُروج؛ فقد استحقُّوا الوصفَ الثّابت، ولزمتهم صفةُ ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ فقد عَدَوْا، وجاروا، وظلموا، وبالغوا في تعدّي الحدود[2].

مَنْ ظلمَ وتجاوزَ؛ استحقَّ صفةَ الاعتداء

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

العادي هو المُعتدي؛ أيِ: الظّالم؛ لأنَّه عدا على الأمر؛ أيْ: جارَ وظلم، وعدا: جاوز[3]، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالمَ مُجاوزٌ ما حُدَّ له؛ فالعادون هم الجائرون الظّالمون[4] الَّذين يتعدّون الحلالَ إلى الحرام[5]، وبلاغة التّعبير بمادة (عدا) دون مادة (ظلم) كامنةٌ في التّنبيه على أن عِرْضَ الغيرِ حِمًى مصونٌ محفوظٌ لا ينبغي الحَوْمُ حولَه ولا التّطرُّق إليه ولا التّعرُّضُ له ولا تجاوزُه بحالٍ، والظّلمُ هو وضع الشّيء في غير موضعِه؛ فلفتُه إلى هذا المعنى أضعفُ من لفت معنى: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾ إليه.

الظُّلمُ والجَوْرُ والتَّجاوزُ وجوهٌ لمعنَى التَّعدّي

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الفُروج والعورات:

الفُروجُ: جمع فرْج، وأصلُ معناه: الشَّق، وهو الفُرْجة بين الشَّيئَيْن[6]، والفَرْجُ: هو ما بين رِجْلي الفَرَس.

الفَرْجُ والعَوْرةُ يشتركان في معنى الشَّقِّ في الشَّيء، ويتعاوران في الإطلاق

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 105، 108.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (عدا).
(4) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.
(5) الجشميّ، التَّهذيب: 6/ 193.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والأزهري، تهذيب اللّغة: (فرج).

وتطلَقُ الفُروجُ على فُروج الرِّجال والنِّساء، وهي ما يُسمَّى بالعَوْرة المغلَّظة، والفَرْجُ اسْمٌ يجمعُ سَوْآتِ الرِّجال والنِّساء، فالقُبُلان وما حواليهما كلُّه فرْج[1].

والعَوْرةُ: سوأةُ الإنسان؛ وذلك كناية، وأصلُها من العار؛ وذلك لما يلحقُ في ظهورِه من العار؛ أيْ: المذَمَّة، ولذلك سُمّيَ النِّساءُ عَوْرة؛ فقد ورد في الحديث الشّريف: "المرأةُ عورةٌ، فإذا خرَجَتْ اسْتَشْرَفَها الشيطانُ"[2]، ومن ذلك العَوْراء للكلمةِ القبيحة، والعَوارُ والعَوْرةُ: شقٌّ في الشَّيء كالثَّوب والبيتِ ونحوه، قال تعالى: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ [الأحزاب: 13]؛ أيْ: مُتخرِّمةٌ مُمكنةٌ لما أرادها، ومنه قيل: فلانٌ يحفظ عَوْرَته؛ أيْ: خَلَله، وقوله تعالى: ﴿ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ﴾ [النّور: 58]؛ أيْ: نصفُ النّهار، وآخرُ اللَّيل، وبعدَ العشاء الآخرة، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ﴾ [النّور: 31]؛ أيْ: لم يبلُغوا الحُلُم[3].

المُـــفـــردات جميعُها فيها معنَى التَّجاوزِ والظُّلم وأشدُّها الطُّغيان

العَدْو والبَغي والطُّغيان والعُتوّ:

العَدْو: عَدا يَعْدوا عَدْوًا، وعَداهُ يعدوه: جاوزَه، والتَّعدّي: مجاوزةُ الشَّيءِ إلى غيره، وعدا؛ أيْ: جارَ وظَلَم، وعدا: جاوز، وهما يرجعان إلى أصلٍ واحد؛ لأنَّ الظّالمَ مجاوزٌ ما حُدَّ له[4]، وقولُه تعالى: ﴿ٱلْعَادُونَ﴾؛ أيْ: الجائرون الظّالمون[5]، المتجاوزونَ لحدودِ اللّه، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾ [الطّلاق: 1].

والبَغْيُ: شدَّةُ الطَّلَبِ لما ليس بحقٍّ بالتَّغليب، وأصلُه في العربيّة: شدَّةُ الطَّلب، ومنه يقال: دفعْنا بغيَ السَّماءِ خَلْفَنا؛ أيْ: شدّةَ مطرِها، وبغَى الجرحُ يَبْغي، إذا تراقَى إلى فسادٍ يرجع إلى ذلك، وكذلك

(1) الفراهيديّ، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (فرج).
(2) التّرمذيّ، السُّنن، برقم: (1173) واللّفظ له، والبزّار، المُسند، برقم: (2061)، وابن خُزيمة، الصَّحيح، برقم: (1685) مُطوَّلاً.
(3) الرّاغب، المُفردات: (عور).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (عدا).
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 7.

البغاء، وهو الزِّنى، وقيل في قوله تعالى: ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: 33] أنَّه يريد التَّرأُّسَ على النّاس بالغَلَبةِ والاستطالة(1).

والطُّغيانُ: مجاوزةُ الحدِّ في المكروهِ مع غَلَبةٍ وقَهْر؛ ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ﴾ [الحاقَّة: 11]، يُقالُ: طغى الماءُ إذا جاوزَ الحدَّ في الظُّلم.

والعُتوُّ: المبالغةُ في المكروه، فهو دون الطُّغيان، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ [مريم: 8]، قالوا: كلُّ مُبالغٍ في كِبْرٍ أو كُفرٍ أو فسادٍ فقد عتا فيه، ومنه قولهُ تعالى: ﴿بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦﴾ [الحاقّة: 6]؛ أيّ: مُبالغة في الشِّدَّة، ويُقال: جبّارٌ عاتٍ؛ أيّ: مُبالغٌ في الجبريَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الطّلاق: 8]؛ يعني: أهلها تكبَّروا على ربِّهم فلم يُطيعوه(2).

اللَّوم والتَّثريب والتَّفنيد:

اللَّـومُ على الفعلِ الحَسَن، والتَّثريبُ على القبيحِ مع التّوبيخ، وفي التَّفنيد محاججة

اللَّومُ: عذلُ الإنسان بنسبتِه إلى ما فيه لَوْم، قال تعالى: ﴿فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: 22]، واللَّومُ قد يكون لما يفعلُه الإنسان في الحال، ولا يُقال لذلك تقريعٌ وتثريبٌ وتوبيخ(3)، واللَّوْمُ يكون على الفعلِ الحسن، ولا يكون التَّثريبُ إلّا على قبيح.

والتَّفنيدُ: تعجيزُ الرَّأي، يقالُ: فنَّدَهُ إذا عجَّزَ رأيَه وضعَّفه، والاسْمُ: الفَنَدُ؛ وهو الخطأ في القولِ والرَّأي، وأصلُ الكلمةِ الغِلَظ؛ ومنه قيل للقِطْعة من الجبل: الفِنْد بكسرِ الفاء وفتحِها.

والتَّثريبُ: الاسْتقصاءُ في اللَّوم والتَّعنيف، وثَرَّبَ عليه تثريبًا: قبَّحَ عليه فعلَه، وأصلُه من (الثَّرب)؛ وهو شحمُ الجَوْف رقيق؛ لأنَّ البلوغَ إليه هو البلوغُ إلى المواضعِ الأقْصى من البَدَن، والتَّثريبُ شبيهٌ بالتَّقريعِ والتَّوبيخ؛ تقول: وبَّخَه وقرَّعَه وثرَّبه بما كان منه(4).

---

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 341 - 342، والرّاغب، المُفردات: (بغي).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 337، والرّاغب، المُفردات: (طغى) و(عتا).
(3) العسكريّ، الفروق، ص: 116 - 117، والرّاغب، المُفردات: (لوم).
(4) العسكريّ، الفروق، ص: 116 - 117، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (فند) (ثرب).

﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ
صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ٩ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ ١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ
ٱلۡفِرۡدَوۡسَ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١﴾ [المؤمنون: 8 - 11]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

أوصافُ المؤمنين المُفلحين توصلُهم إلى الفردوسِ

لَمّا كانت تلك الصّفاتُ من الأمانات العظيمة؛ أتبعه عمومَها فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾؛ سواء أكانت بينهم وبين اللّه؛ كالصَّلاةِ والصّيام وغيرِهما، أم في المعاني الباطنةِ؛ كالإخلاصِ والصِّدق، أم بينهم وبين الخَلْقِ كالودائعِ والبضائع[1].

والعطفُ هنا بمُجمله هو من قبيل عطفِ العامِّ على الخاصّ، ممّا يؤصِّلُ صيانةَ المجتمعِ المسلم في نفسِه ليُحسِنَ التَّعاملَ مع المجتمعاتِ الإنسانيَّة؛ لتكتمل المنظومةُ البشريَّةُ والوحدةُ الموضوعيَّةُ لكلِّ المجتمعات في المنظورِ القرآنيّ الإسلاميّ الَّذي أنزله اللّهُ رحمةً للعالمين؛ فموقعُ الحديثِ عن الأمانة والعهد مِمّا قبلَه موقعٌ لطيفٌ وسخيٌّ جدًّا؛ لأنّه يُفْهِمُ أنّ هذه الصِّفاتِ الفرديّةَ السّابقَ ذِكْرُها للمؤمنين الفالحين إنّما تُنْتِجُ صفاتٍ جماعيَّةً؛ فلها أثرُها في المجتمع الإنسانيّ الذي يعيشُ فيه كلُّ فردٍ من أفراد المؤمنين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾: (أمن) أَصْلانِ مُتَقارِبانِ: أَحَدُهُما الأمانَةُ الَّتي هيَ ضِدُّ الخيانَة، ومَعْناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ التَّصْديقُ[2]، أمِنَ يأمَنُ أمْنًا، وأمانًا وأمَنَةً بفتحتَيْن، فهو آمنٌ، فهذه في الأصل مصادر، ويُجعلُ الأمانُ تارةً اسمًا للحالةِ الَّتي يكونُ عليها الإنسانُ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 109 - 110.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أمن).

في الأمْن، وتارةً اسْمًا لما يُؤمَّنُ عليه الإنسان؛ نحو قوله تعالى: ﴿وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ﴾ [الأنفال: 27]؛ أيْ: ما ائْتمنتُم عليه، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا﴾ [النّساء: 58]، وأصلُ الأمْنِ: طُمأنينةُ النَّفْسِ وزوالُ الخَوْف، قال تعالى: ﴿وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ وَأَمۡنٗا﴾ [البقرة: 125][1]، ومعنى قوله تعالى: ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾؛ أيْ: أمانات النّاس، والأشياء المؤتَمنون عليها والمعاهَدون عليها[2].

2) ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾: عَهِدَ فلانٌ إلى فلانٍ بعَهْد؛ أيْ: ألْقى إليه العهدَ وأوصاهُ بحفظِه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ [طه: 115]، والعَهْدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعد حال، وسُمّيَ الموثَّقُ الَّذي يلزمُ مراعاتُه عَهْدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34][3]، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾؛ أيْ: العقودُ الَّتي عاقدوا النّاسَ عليها[4].

3) ﴿رَٰعُونَ﴾: (رعى) أصْلانِ: أحَدُهما المُراقَبَةُ والحِفْظ، والآخَرُ الرُّجوعُ[5]، رعَى يَرْعَى رَعْيًا ورِعايةً[6]، وأصلُ الرَّعْيِ في اللُّغة: القيامُ على إصلاحِ ما يتولّاه من كلِّ شيء، تقول: الإمامُ يرعَى رعيّتَه، والقيِّمُ بالغَنَم يرعَى غَنَمَه، وفلانٌ يرعَى ما بينَه وبين فلان؛ أيْ: يقومُ على إصلاحِه[7]، ومن معانيها: رعايةُ حدود الله بالمحافظة عليها، قال تعالى: ﴿فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَاۖ﴾ [الحديد: 27]، ومعنى قوله تعالى: ﴿رَٰعُونَ﴾؛ أيْ: حافظون[8].

4) ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾: (ورث) كلمةٌ واحدةٌ، هي الوِرْثُ، والميراثُ أصلُه أن يكونَ الشَّيءُ لِقوم ثمَّ يصيرُ إلى آخرينَ بِنَسَبٍ أو سَبَب[9]، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمۡ يَكُن لَّهَا وَلَدٞۚ﴾ [النّساء: 176]، وقال ﷻ: ﴿وَنَجۡعَلَهُمۡ أَئِمَّةٗ وَنَجۡعَلَهُمُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥﴾ [القَصص: 5]، ومعنى قوله تعالى:

(1) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (أمن).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 5، والزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (عهد).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 5.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رعى).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (رعَى).
(7) الزَّجّاج، معاني القرآن: 6/ 7.
(8) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 546.
(9) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورث).

﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾: أي: ورثوا من أهل النّار منازلهم من الجنَّة[1]، أو بمعنَى ورثوا منازلَهم الَّتي بُنيتْ لهم في الجنَّة[2].

5) ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾: الفِردَوْسُ: جنَّةٌ ذاتُ كرْمٍ؛ أيِ: البُستانُ الَّذي فيه الأعناب، مُفَرْدَس؛ أيْ: مُعَرَّش[3]، والفِرْدَوْسُ في كلامِ العرب: الشَّجرُ المُلْتفّ، والأغْلبُ عليه العِنَب، وجمعُه الفراديس، والفِرْدَوْس هو البستانُ بالرّوميَّة[4]، واختاره الزَّجّاج فقال: هو بالرّوميَّة منقولٌ إلى لفظ العربيَّة[5]، وأنشدَ لحسّان:

وإنَّ ثوابَ اللّهِ كلِّ موحِّدٍ *** جنانٌ من الفِردَوْسِ فيها يُخَلَّدِ[6]

وحقيقتُه أنَّه البستانُ الَّذي يجمعُ كلَّ ما يكونُ في البساتين[7]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾: أعلى الجنَّة وأوسطُها[8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

أداءُ الأماناتِ والعهود، والمحافظةُ على الصَّلوات، سبيلٌ لدخول أعلى الجنّات

يتابعُ النَّظمُ القرآنيُّ الكريمُ حديثَه عن صفاتِ المؤمنين؛ فيذكر من صفاتهم: أنَّهم إذا ائْتُمنوا لم يخونوا؛ بل يُؤدّونَ الأماناتِ إلى أهلِها، وإذا عاهدوا أو عاقَدوا أوْفَوا، وهم يواظبون على صلواتِهم في مواقيتِها وعلى هيئتِها المشروعة، ولمّا وصفهُمُ اللّهُ تعالى بهذه الصِّفاتِ الحميدةِ والأفعالِ الرَّشيدة، بيَّن جزاءهم الحَسَنَ يومَ القيامة بأنَّهم هم الأحقّاء بأنْ يُسمّوا بأنَّهم الوارثون دون غيرِهم، ثمَّ بيَّنَ الموروثَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ وهو أوسطُ الجنَّة وأعلاها، وهم في

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 6.
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 646.
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (فردوس)، وابن جرير، جامع البيان: 16/ 36.
(4) البغويّ، معالم التّنزيل: 5/ 211، والماورديّ، النُّكت والعيون: 3/ 348.
(5) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 315.
(6) ديوان حسّان، ص: 93.
(7) الزّجّاج، معاني القرآن: 3/ 315.
(8) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 546، ويُؤيّده قولُ رسول الله ﷺ: «الفردوسُ ربوةُ الجنَّة، وأوْسطُها، وأفضلُها، وأحسنُها، وفوقه عَرْشُ الرَّحمن، ومنه تفجَّرُ أنهارُ الجنَّة، فإذا سألتُمُ اللهَ الجنَّة فاسْألوهُ الفِرْدَوس»، ينظر: البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2790، 3247).

هذه المنزلةِ الرَّفيعةِ دائمون، وهي أفضلُها منزلًا، هم فيها خالدون، لا ينقطع نعيمهم ولا يزول، ولا يخرجون منها ولا يموتون(1).

وتُرشدُ الآيات الكريمةُ إلى أنَّ جميع ما أوجبه اللّهُ على عباده أمانة، وهو لفظٌ عامٌّ يتناول جميعَ الأمانات التي هي حقٌّ للّه، والتي هي حقٌّ للعباد، فعلى العبد حفظُها بالقيام التّام بها؛ كأمانات الأموال والأسرار ونحوهما، وكذلك العهد يشمل العهدَ الذي بين العبادِ وبين ربِّهم، والعهدَ الذي بينهم وبين العباد؛ وهي الالتزامات والعقود التي يعقدها العبد، فعليه مراعاتها والوفاء بها، ويحرُم عليه التّفريط فيها وإهمالُها.

وترشدُ إلى أنَّ اللّهَ مدحَ المؤمنين بالخشوع بالصّلاة، وبالمحافظة عليها؛ لأنّه لا يتمُّ أمرهم إلّا بالأمريْن معًا، فمَن يداوم على الصّلاة من غير خشوع أو على الخشوع من دون محافظة عليها؛ فإنّه مذمومٌ ناقصٌ(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ عطفِ الآية بالواو:

الصّفاتُ الإيمانيَّةُ تتكاملُ فيما بينها لتحقيقِ النَّظرةِ الشّموليَّةِ الإنسانيَّة

جاءَ عطفُ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ على ما تقدَّمَ من صفاتِ المؤمنين، بالتَّدرُّجِ من المحافظةِ على النَّفْسِ إلى التّعاونِ الاجتماعيّ إلى إقامةِ الأسرةِ على أساسِ العدل، والمحافظةِ على النَّسْل، ثمَّ إلى بيانِ الأُسُسِ الَّتي يقوم عليها التَّعاملُ الإنسانيّ، وهو الأمانة(3)، وذكرُ الأمانةِ والعهدِ عقبَ أداءِ الزَّكاةِ خاصَّةً؛ لأنَّ الزَّكاةَ أمانةُ اللّهِ عند الَّذين أنعمَ اللّهُ عليهم بالمال، ولذلك سُمّيت: حقَّ اللّه، وحقَّ المال، وحقَّ المسكين(4)، وهذا من دلالات الاقتران.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 226، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 646.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 547.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5048.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 17.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسْم الموصول:

الأمانةُ وحفظُ العهد سببان عظيمان من أسبابِ فلاحِ المؤمنين

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ باسْم الموصول (الَّذين) لبيانِ سببٍ آخرَ من أسبابِ فلاحِ المؤمنين، ووجهٍ آخرَ من وجوه ما يستحقّون به هذا الثَّناء، فعُرِّفوا بصفةٍ عظيمةٍ هي صفةُ أداءِ الأمانةِ مع حفظِ العهد، وعدمِ خيانته[1].

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصولِ وصلتِه:

صفاتُ المؤمنين محلُّ ثناء، موجبةٌ للفلاح

نُظِمَتِ الصِّفاتُ مع تقدُّمِ الاسْمِ الموصول وصلته على كلِّ واحدةٍ منها للثَّناء على المؤمنين بما يستحقّونه، وفي إعادةِ الاسْمِ الموصولِ مع صلتِه دون اكتفاءٍ بعطفِ صلةٍ على صلةٍ؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفاتِ موجبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحون حتَّى يجمعوا بين مضامين الصِّلةِ كلِّها فحسب[2].

نكتةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمار:

تقريرُ المؤمنين على صفةِ رعايةِ الأمانةِ والعهد

أظهرَ النَّظمُ الكريمُ المحدَّثَ عنهم في قولِه تعالى: ﴿هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾ بدل أن يقول: (يرعونَ أماناتِهم وعهدِهم)؛ وذلك لما في الإظهار - هنا - في مقام الإضمار من زيادةِ تقريرٍ للخبرِ في ذهن السّامع، بعد تشوُّفِه لمعرفتِه والوقوفِ على مضمونه[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في الأمانة والعهد:

ثباتُ المؤمنين المُفلحين في أداءِ الأماناتِ ورعايةِ العهود

لم يصفِ النَّظمُ القرآنيُّ المؤمنين بقوله: (أدَّوا الأماناتِ وارعَوُا العهود)، أو بقوله: (كانوا راعين للأماناتِ والعهود)؛ بل قال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾؛ وذلك حتَّى لا يفوتَ ما تدلُّ عليه الجملةُ الاسميَّةُ من ثباتِ أدائهم للأماناتِ ورعايةِ العهود ودوامهم عليها في حياتهم، فهذا الثَّباتُ في ذَيْنك الصِّفتَيْن لازبٌ لا

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 17.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 17.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10.

يتخلَّف[1]، وهذه الاسميّة تُذكِّر بنظائرِها فيما سبَق؛ وتوقِعُ في أنفُس المُتلقّينَ التّعاضُد والتّناصر والتّعاون الذي بين هاتيك الصّفات في سياق تكوين رجلٍ مؤمنٍ فالحٍ.

معنَى اللّام في ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾:

المؤمنون ذوو قوّةٍ في رعايةِ الأماناتِ والعُهود

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ لامُ التَّقوية لضَعْفِ العامل بالفرعيَّة وبالتَّأخيرِ عن معموله، وهذه التَّقويةُ من وجهَيْن: تقديم المعمول، وكَوْن العامل اسمًا[2]؛ أيْ: أثبتَ النَّظمُ الكريمُ اللّامَ هنا تقويةً لاسْمِ الفاعل ﴿رَٰعُونَ﴾[3].

توجيه القراءات في قوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾:

الأمانات المنوطةُ بالمؤمنين كثيرةٌ وأداؤها واجب

في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾ قراءتان قرآنيَّتان متواترتان[4]: الأولى: ﴿لِأَمَٰنَتِهِمۡ﴾ بالإفراد، وهي قراءة ابن كثير المكي، ووجهُ هذه القراءة أنَّ الأمانةَ مصدرٌ واسْمُ جِنْس فيقعُ على الكَثْرة، وإن كان مفردًا في اللَّفظ، كقوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمۡ﴾ [الأنعام: 108] وجُمِع في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ [المؤمنون: 63] ووجهُ الإفراد كذلك خفَّتُه، ويُقوّيه أنَّ بعده: ﴿وَعَهۡدِهِمۡ﴾ وهو مصدر[5]، والثّانيةُ: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾، بالجمع، وهي قراءة الباقين، ووجهُ القراءة بالجمع؛ أنَّ المصدرَ إذا اختلفت أجناسُه وأنواعُه جُمِع، والأماناتُ الَّتي تلزَمُ النّاسَ مراعاتُها كثيرة، فجُمِعَ لكثرتِها، وقد أجمعوا على الجَمْعِ في قوله تعالى: ﴿أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ﴾ [النّساء: 58] لهذا المعنَى[6].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 107.

(4) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 444، ومكّي، التَّبصرة، ص: 269، والداني، التَّيسير، ص: 158، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 328.

(5) ابن خالَوَيْه، إعراب القراءات السَّبع: 2/ 85، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 288، وابن زنجلة، حُجّة القراءات، ص: 483.

(6) مكّيّ، الكشف: 2/ 125، والعكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 147.

والأصل في المعنى من القراءتيْنِ هي قراءةُ الجمعِ؛ لأنّها تُصوِّرُ حقيقةَ عددِ ما ائتُمِن عليه هؤلاء المؤمنون على الجملة؛ فهي كثيرةٌ؛ على ما يُفْهِمُه الجمعُ، وهيَ مُمَيَّزةٌ من جهةِ أدائهم هم لها؛ لأنّها أُضيفت إليهم: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ﴾؛ فهو أداءٌ كامل قوي مُستمرٌّ ودائم على ما يُفْهِمُه معنى القلة؛ لأنَّ جمع المُؤنّث السّالم من أوزان القِلَّة، أو ملحق بأوزان القِلّة، وأمّا قراءةُ الإفراد؛ فقد جاءت على خلاف الأصل والظّاهر أنها للدلالة على استواء أفراد أماناتهم في الرعاية والعناية والأداء والاهتمام وما جرى في هذا الطريق مِن المعنى؛ فأماناتهم كأمانة واحدة في كمال اقتدارهم على أداء تلك الأمانات المؤسَّس على كمال معرفتهم وعلمهم بها، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28]، والحاصل أنّهم بالغون كمالًا في كلِّ أمانة على جهة الاستقلال؛ وذلك فلاحٌ أيُّ فلاحٍ.

فائدةُ تقديمِ شِبْهِ الجملة ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾:

التَّنبيهُ على أهميَّةِ رعايةِ الأمانةِ والعهد

تقدَّمَ الجارُّ والمجرور في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ على ﴿رَٰعُونَ﴾ لمزيدِ الاهْتمام بشأنِ الأمانةِ والعهد[1]، وبيانِ ما لأداءِ الأمانةِ ورعايةِ العهدِ من آثارٍ عظيمةٍ في حياةِ الأفرادِ والمجتمعاتِ الإنسانيَّة، وفي هذا التَّقديم إيذانٌ بأنَّ للمؤمنين تعلُّقًا شديدًا برعايةِ الأمانةِ والعهد؛ لأنَّ شأنَ الإضافةِ أن تُفيدَ شدَّةَ الاتّصالِ بين المُضافِ والمُضافِ إليه؛ لأنَّها على معنَى لامِ الاخْتصاص[2]، ولذلك كان في التّقديم إشعارٌ بأن رعايتهم للأمانات والعهد مُؤسَّسة على العلم بما ينبغي أن يكون تُجاه تلك الأمانات وذلك العهد؛ فهم لم يتعاملوا مع الأمانات والعهد تعاملًا عاديّا تقليديًّا؛ وإنّما تعاملوا معها ومع العهد

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 17.

معاملةً خاصّة؛ لأنّها مع العهد ذات موقع خاصٍّ وجليلٍ وخطيرٍ في بصائرهم؛ وذلك مِن شأن الكُمَّلِ الفالحين.

غرضُ تقديمِ الأماناتِ على العهود:

الأماناتُ متنوِّعةٌ وأداؤها جميعِها واجبٌ شرعيٌّ

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ الأماناتِ على العهود في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾؛ لأنَّ الأماناتِ كثيرةٌ تشملُ ما ائتمنَهُمُ اللّهُ تعالى عليه من الأعضاءِ والقوى والأموالِ والأعيان، فهي متنوعةٌ جدًّا تضمُّ حقوقَ اللّهِ على العباد، وحقوقَ العبادِ فيما بينهم، ورعايةُ ذلك كلِّه أوْلى وأوْفى من رعايةِ فردٍ من أفراده وهو العهد، مع أنَّه أعظم أفراد الأمانة ولذلك خصَّه بالذِّكر، فحفظُ الأماناتِ كالتَّخلية، وحفظُ العهدِ كالتَّحلية[1]، وعطفُ العهد على الأمانات من عطف الخاصِّ على العامِّ؛ وذلك الأصلُ في بيان أهمية الخاصِّ وقيمته.

فائدةُ جمعِ الأماناتِ وإفرادِ العهود:

الأمانـاتُ كثيرةٌ والعـهـدُ أهـمُّ أفرادِها

وردتِ الأمانةُ بصيغةِ الجمعِ، والعهدُ بالإفراد في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾ وذلك باعتبارِ تعدُّدِ أنواعِ الأمانة، وتعدُّدِ القائمين عليها بالحفظِ تنصيصًا على العموم، والعهدُ فردٌ من أفرادِ الأمانة، جاء ذِكْرُه بعدها تخصيصًا له بالمنزلةِ العظيمة، وتنبيهًا على أنَّه أهمُّ أفرادِ الأمانة؛ فالعهدُ ما سُمّيَ عهدًا إلّا لأنَّ الطَّرفَيْن يتحالفانِ بعد اللّهِ بأن يكون اللّهُ رقيبًا عليهما في ذلك لا يُفيتُهمُ المؤاخذةُ على تخلُّفه[2].

نكتةُ إضافةِ الأماناتِ والعهودِ إلى ضمير (هم):

غـايـةُ الأمـانـاتِ والـعـهـودِ من صـفـاتِ خُـلَّـصِ المؤمنين

أضافَ النَّظمُ الكريمُ الأماناتِ والعهودَ إلى ضمير (هم) في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ﴾؛ لأنَّ رعايتهما من صفاتِ المؤمنين المُتحقّقين بالفلاح، فلا يحرصُ على رعايتِهما إلّا خُلَّصُ المؤمنين، وخيانتُهما من صفاتِ المنافقين[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 17.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5048.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿رَٰعُونَ﴾ مادَّةً وصيغة:

الثّبات والمُداومة عـلـى رعـايـة الأمـانـات والعهود

أصلُ الرَّعيِ في اللُّغة: القيامُ على إصلاحِ ما يتولّاه من كلِّ شيءٍ[1]، والرّاعي: القائمُ على الشَّيء بحفظٍ وإصلاح؛ كراعي الغنمِ وراعي الرَّعيَّة، وراعي هذا الشَّيء؛ أيْ: مُتولّيه وصاحبُه[2]، وراعونَ في موقعها في قوله تعالى: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾؛ أيْ: حافظون لِحلِفِهمُ الَّذي يُؤْخَذُ عليهم، ولعقودِهم الَّتي عاقدوا النّاسَ عليها[3]، فاسْتُعيرَ هذا المعنَى في رَعْيِ الماشية لرَعْيِ النّاس، فرَعْيُ الأمانةِ: حفظُها، ولمّا كان الحفظُ مقصودًا لأجلِ صاحبِها كان ردُّها إليه أوْلَى من حِفْظها، ورَعْيُ العَهْدِ مجازٌ؛ أيْ: ملاحظتُه عند كلِّ مناسبة[4].

وفي التّعبير بهذه المادّة على جهة الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة؛ لأنّ الكلمة على وزن فاعل؛ وهو من المُشتقّات، وفيها تنبيهٌ على كمال أداء المؤمنين تلك الأمانات وذلك العهد؛ بإقبالهم بكُلّيّاتهم عليها وعلى العهد؛ معرفةً وأداءً ورعايةً وما جرى في هذا الطَّريق من المعنى، وصيغةُ ﴿رَٰعُونَ﴾ تُفيدُ الثَّباتَ والدَّيمومةَ على رعايةِ الأمانةِ والعهد، والمحافظةِ عليهما بشكلٍ مُستمرٍّ لا ينقطع.

فائدةُ عطفِ موضوع الصلاة وتكراره:

إقـامـةُ الـصَّـلاةِ والمحافظةُ عليها أعـظـمُ أمـانـةٍ وعهدٍ

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ ثناءٌ على المؤمنين بالمحافظةِ على الصَّلوات؛ أيْ: بعدم إضاعتِها أو إضاعةِ بعضِها، وذلك بعد قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ لِأَمَٰنَٰتِهِمۡ وَعَهۡدِهِمۡ رَٰعُونَ﴾، والصَّلاةُ والمحافظةُ عليها أمانةٌ من الأماناتِ وعهدٌ من العهود؛ بل هو أهمُّ أمانةٍ وأقوى عهدٍ[5]، وتكرارُ ذِكْرِ الصّلاة، وذِكْرُها من

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 6/ 7.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 5، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 546.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 17.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 17.

بعد ذِكْر الأمانات والعهد يُشير إلى أنَّ إقامة الصَّلاة من الصِّفات الأمهات التي تُنتِج صفاتٍ أخرى، وتُقوّي صفاتٍ أخرى.

غرضُ التَّعبير بالاسْم الموصول:

الـثَّـنـاءُ على المـؤمـنـين بالمحافظةِ على الصَّلاة

عبَّر النَّظمُ الكريمُ بالاسْمِ الموصول ﴿وَٱلَّذِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾؛ لبيانِ صفةٍ من صفاتِ المؤمنين هي سببٌ من أسبابِ فوزِهم وفلاحِهم الَّذي صُدِّرت السّورةُ به: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ فاسْتحقّوا به هذا الثّناءَ وذاك المقام[1].

نكتةُ تكرارِ الاسْمِ الموصول وصلته:

صفةُ المحافظةِ على الصَّلاةِ من أسـبـابِ فـلاحِ المؤمنين كسائر الصِّفات

تكرَّرَ الاسْمُ الموصولُ هنا كما سبق في صدر كلِّ صفة للثَّناء على المؤمنين بصفتِهم تلك؛ فهم أهلٌ لها ولما ينتجُ عنها من الفلاح، وفي إعادةِ الاسْمِ الموصولِ مع صلتِه دون اكْتفاءٍ بعطفِ صلةٍ على صلة؛ للإشارةِ إلى أنَّ كلَّ صفةٍ من الصِّفات - وهذه منها - موجبةٌ للفلاح، فلا يُتوهَّمُ أنَّهم لا يُفلحون حتَّى يجمعوا بين مضامينِ الصَّلاةِ كلِّها فحسب[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسْميَّة في المحافظة على الصَّلوات:

ثباتُ المؤمنينَ في محافظتِهم على الصَّلوات

لم يأتِ بيانُ صفةِ ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾ بصيغة: (يُحافظونَ على صلواتِهم) أو: (كانوا يُحافظونَ على صلواتِهم)؛ وذلك لأنَّ الجملةَ الاسْميَّةَ الواردةَ في الآيةِ الكريمةِ تعني الثَّبات؛ أيْ: ثباتَ المؤمنين على المحافظةِ على صلواتِهم وأدائها على الوجه الشَّرعيِّ المأمور به؛ أيْ: في أركانِها وواجباتِها وسُنَنِها وأوقاتِها وكلِّ ما يتعلَّق بمعنَى المحافظةِ عليها[3].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 18.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 10، 13، 17، 18.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 15، 18.

نكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾:

تمكُّنُ المؤمنينَ من المحافظةِ على صلواتِهم

عبَّر سياقُ الآيةِ بحرفِ الاسْتعلاء ﴿عَلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾؛ لتمكُّنِ المؤمنين من المحافظةِ على صلواتِهم، وهذا يقتضي عُلوَّ شأنِ الصَّلاةِ وعُلوَّ شأنِ مَنْ يُحافظُ عليها[1].

نكتةُ إضافةِ الصَّلاةِ إلى ضميرهم:

الصَّلاةُ للمؤمنين كالرّوحِ من الجسَد لا يُفرِّطون بها

أضيفتِ الصَّلاةُ إلى ضمير (هم) في قوله: ﴿صَلَوَاتِهِمْ﴾؛ لأنَّهمُ الآتونَ بالصَّلاةِ وفروعِها المُختصُّون بها الحريصون عليها[2]، وكأنَّها مِلْكٌ لهم لا يُفرّطون بها أبدًا، وحُقَّ لهم على هذا الوجهِ أن يكونوا مَحَلًّا لمدحِ اللهِ لهم وثنائه الجليلِ عليهم، ومثّلُ هذه الإضافة تُشير إلى أنَّ كمالَ راحتهم في الصَّلاة؛ كما كان نبيُّنا ﷺ يقول: "يا بلالُ، أقِمِ الصَّلاةَ، أرِحْنا بها"[3]، وقال: "وجُعلت قرةُ عيني في الصّلاة"[4].

فائدةُ تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾:

الصَّلاةُ أهمُّ الفروض ورأسُ العبادات

تقدَّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ﴾ على قوله: ﴿يُحَافِظُونَ﴾ - والأصلُ تأخُّرُه - للاهْتمامِ الكبيرِ الَّذي تحظَى به الصَّلاةُ في كونِها أهمَّ فريضةٍ في الإسلام بعد الشَّهادتَيْن، وبيانُ القرآنِ الكريم والحديثِ النَّبويِّ الشَّريفِ الصَّحيحِ شاهدٌ على ذلك، فهي سبيلٌ لتصحيحِ ما عداها إن حوفِظَ عليها، فإذا صلَحتِ الصَّلاةُ؛ صَلَحَ سائرُ عملِ المسلم، وإذا فسدَتْ فسدَ سائرُ عملِه؛ فهي أمُّ الفروض والعبادات، وفي هذا التَّقديم كذلك إيذانٌ بأنَّ المؤمنينَ المُفلحينَ حريصونَ كلَّ الحرصِ على المحافظة على الصَّلوات حرصَهم على أرواحِهم، ولذلك شُيِّد هذا الاتِّصالُ اللَّصيقُ بين الصَّلاة والمحافظةِ عليها[5].

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 108.
(2) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 48.
(3) أبو داود، سُنن أبي داود، برقم: (4985)، وصحَّحه الألبانيّ، صحيح الجامع، برقم: (7892).
(4) النّسائيّ، سنن النّسائيّ، برقم: (3940)، وأحمد، المُسند، برقم: (12293).
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 208.

توجيهِ القراءاتِ في قوله: ﴿صَلَوَٰتِهِمۡ﴾:

الصّلاةُ في طبعِ المؤمنين الصّالحين ومن ديدنهم

في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ﴾، قراءتان متواترتان[1]: الأوْلى: بالإفراد ﴿صَلَوٰتِهِمۡ﴾، وهي قراءة حمزة والكسائي وخلف، والإفرادُ؛ لأنَّ الصَّلاةَ في الأصلِ مصدر؛ كالعملِ والأمانة، والثّانيةُ: بالجمع ﴿صَلَوَٰتِهِمۡ﴾، وهي قراءة الباقين، والجمعُ؛ لأنَّه قد صارَ اسْمًا شرعيًّا لانْضمام ما لم يكن في أجلِ اللُّغةِ أن ينضمّ، وقراءةُ الجمع دلالةً على إتيانهم كلَّ صلاةٍ في كل يوم وليلة؛ بل في أيامهم ولياليهم في حياتهم؛ لأنَّ صيغة: (صلوات) من صيغ الكثرة، وفي هذه الصيغة أيضًا: إيماءٌ إلى أنَّهم يُصلّون غير الصّلاة المفروضة من النوافل، ومن مِثْلِ الصلاةِ باللّيل في الأسحار؛ بل إنّهم يُحافظون على هاتيك الصّلوات.

ثم تأتي قراءةُ الإفراد؛ لتدلّ على أنّ صلواتهم كلِّها على كثرتها وتنوُّعها وتعدّدها وتغايرها كصلاةٍ واحدةٍ؛ في المعنى المذكور، وفي كمال اقتدارهم عليها في كل وقتٍ ومكانٍ.

نكتةُ التَّعبير بـ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

المؤمنون يواظبون على صلواتِهم ولا يغفُلون عنها

حَفِظَ الشَّيءَ حفظًا: حَرَسه، والحفيظ: المحافظ، والتَّحفُّظُ: التَّيقُّظ وقلّةُ الغفلة[2]، وقولُه تعالى: ﴿يُحَافِظُونَ﴾؛ أيْ: يَتيقَّظونَ لها فلا يَغفُلونَ عنها، وكأنَّهم يَحرُسونها حتَّى لا تضيعَ منهم، فلا يُفرِّطونَ بها؛ بل يواظبونَ على أدائها على أكملِ وجه، وصيغةُ ﴿يُحَافِظُونَ﴾ جاءت فعلًا مضارعًا بعد سياقات رؤوس الآي السابقة التي جاءت أسماءً، وذلك لِما في المحافظة على الصلاة من معاني التَّجدُّد والتَّكرُّر[3]، فالمحافظة على الصلاة دائمٌ متجدّد عند المؤمن بمحافظته على صفات المؤمنين الواردة في السّورة على وجه الدّوام.

---

(1) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 444، والداني، التَّيسير، ص: 158، وابن الجزريّ، النّشر: 2/ 328.

(2) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حفظ).

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 214.

نكتةُ الفصلِ بين الخشوع والمحافظة على الصلاة:

الخشوعُ في الصَّلاة فضيلة، والمحافظةُ عليها فضيلةٌ أُخرى

جاء الفصلُ بين قولِه تعالى: ﴿هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ وقوله هنا: ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾؛ للإيذانِ بأنَّ كلًّا منهما فضيلةٌ مُستقلَّةٌ بنفسِها، ولو قُرِنا في الذِّكرِ لربَّما تُوهِّمَ أنَّ مجموعَ الخشوعِ والمحافظةَ فضيلةٌ واحدة[1]، ثمَّ إنَّ معنى المحافظة أقرب وألصق بالأمانات والعهد؛ فلهذا جاءت في هذا الموقع.

ومن فوائد ذِكْرِ الخشوع في الصَّلاة في السّياق أوّلًا قبل المحافظة عليها؛ أنه تقدَّمَ ذِكْرُ الخشوعِ في الصَّلاة في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ﴾ على ذِكْر قوله تعالى: ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾؛ للاهتمام به، فإنَّ الصَّلاةَ بدونه كلاصلاةٍ بالإجماع، والصَّلاةُ بلا خُشوعٍ جَسَدٌ بلا روح، ويمكنُ أن يكونَ تقديمُ الخشوعِ باعتبارِه أهمّ خواصِّ المحافظة على الصَّلاة، ثمَّ جاء العمومُ بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿هُمۡ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾[2].

بلاغةُ التَّرتيبِ بين صفاتِ المؤمنين المذكورة:

كلُّ صفةٍ تُبنَى على سابقتِها وجميعُها يتحقَّقُ بتحقُّقِ الخشوعِ في الصَّلاة

ابْتَدَأَ أوصافَ المؤمنين المُفلحين بصفةِ الخشوعِ الَّتي هي روحُ الصَّلاة، فإن تحقّقتْ فلأصحابِها شأنٌ عظيمٌ ولصَلاتِهم مقامٌ كريمٌ، فبالخشوعِ اشتدَّت مراقبتُهم لله، فامتثلوا واجْتنبوا، وكلاهما من أعمال القلب، وقد كانت هذه صفتَهم، فهم الَّذين يتورَّعون عن اللَّغوِ، وهو من سوءِ الخُلُق؛ فيُعرِضونَ عن قليلِه وكثيرِه، وهم يؤدّون زكاةَ أموالِهم راغبينَ في إعطائها، مُعتبرين ذلك مَغْنَمًا وليس مَغْرَمًا، وهم وحدهمُ الَّذين يَسْتمسكونَ بالمحافظةِ على أعراضِهم؛ فيترفّعون عن حضيضِ مشابهةِ البهائم، وهم الَّذين يراعون العهودَ والأماناتِ؛ فيُعطونَ ذا الحقِّ حقَّه، ولا يتوانون ولا يُمسكون، وهم

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 50 - 51.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.

الَّذين يحرصون على أداءِ صلواتِهم في أوقاتها، ولا يغفُلونَ عنها ألبتّة؛ بل يواظبونَ عليها مستمرّينَ غيرَ مُفرِّطين[1].

فكلُّ صفةٍ من صفاتهم تُبنَى على ما قبلَها، وجميع الصِّفاتِ مبنيَّةٌ على أصلٍ واحدٍ؛ هو الإيمانُ باللّهِ لا شريكَ له، وجميعُها كذلك مبنيٌّ ومُستندٌ إلى أوّلى هذه الصِّفات، وهي الخشوعُ في الصَّلاة، فمَن تحقّقت فيه صفةُ الخشوعِ تحقّقت فيه كلُّ تلك الصِّفات، وتحقَّقت عنده مَلَكَتا الفعلِ والتَّركِ في المُهمّات، وهما منبعُ الأخلاقِ الفاضلة، وفي تصديرِ الأوصافِ وختمِها بأمرِ الصَّلاة تعظيمٌ لشأنِها؛ فهي أقوى الفروضِ وأجلُّ العبادات[2].

ويمكنُ أن يكونَ تكريرُ ذِكْرِ الصَّلاة تنويهًا بها، ولا ريب أنَّ في ذلك ردًّا للعَجُزِ على الصَّدْرِ تحسينًا للكلامِ الَّذي ذُكرت فيه تلك الصّفات؛ لتزدادَ النَّفسُ قَبولًا لسماعِها ووَعْيِها فتتأسَّى بها[3].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾:

صفاتُ المؤمنين الرّاسخة لهم سببٌ لوراثة النَّعيم المقيم

جاء فصلُ قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ لبيانِ جزاءِ أولئك المُتَّصفين بهذه الصِّفات، وهمُ المؤمنون حقًّا، وهم الَّذين يرثونَ ويَخلُفونَ غيرَهم وأنَّهم الباقون، ولأنَّ كلَّ مُتَعِ الآخرةِ تكون لهم؛ لأنَّهم أبْقى، وسجاياهم تجعلُهم أهلَ النَّعيمِ الباقي برحمة اللّه تعالى[4]، وهذا الفصلُ واردٌ على طريقة الاستئناف البيانيِّ؛ لأنَّ إعادة ذِكْر الصّلاة مِمّا يضع في النَّفس انتهاء هذا المقطع المَعْنَوي الذي يسرد صفات هؤلاء المؤمنين الفالحين؛ لأنّها تعني ردَّ العَجُز على الصَّدر، وردُّ العجُز على الصّدر في القرآن يرد عند انتهاء معاقد السّور ومقاطعها؛ فكان ذلك مِمّا يُحرِّك نفوس المُتلقّين للسّؤال عن جزاء

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5050.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 18.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5050.

المُحدَّث عنهم؛ فكان قولُه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ جوابًا عنه، وإذا كان ذلك استئنافًا ابتدائيًّا فإنّ في غياب العاطف (الواوِ) إشعارًا بكمال جدارة المُحدّث عنهم بمضمون هذه الآية وما بعدها.

فائدةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ البعيد ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

عُلوّ مَنْزلةِ مَنْ تحقَّقَ بصفاتِ المؤمنين

عبَّرَ النَّظمُ الكريمُ باسْمِ الإشارة الَّذي يُفيدُ البُعْدَ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾؛ للإشارةِ إلى المؤمنين باعْتبارِ اتِّصافِهم بما ذُكر من الصِّفات للإيذانِ بعُلوِّ طبقتِهم، وبُعْدِ درجتِهم في الفَضْلِ والشَّرَف[1].

نكتةُ إيثارِ الإظهارِ على الإضمار:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ إظهارَ الإشارةِ إليهم بـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ﴾؛ للإشعارِ بامْتيازِهم بها عن غيرِهم، ونُزولِهم منزلةَ المُشارِ إليهم حِسًّا[2].

بلاغةُ القَصْرِ ونوعُه وغرضُه في الآية:

المؤمنون المتّصفونَ بتلك الصِّفات، همُ الوارثونَ الحقيقيّونَ لا غيرُهم

حُفَّتِ الآيةُ القرآنيَّةُ من طرفيْها باسْم الإشارة ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الَّذي يفيدُ التَّعريف، و﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ المُحلَّى بـ (أل) التَّعريف؛ لحَصْرِ هذه الوراثةِ بهم دون غيرِهم؛ وهو قصرٌ حقيقيٌّ إضافيٌّ؛ أيْ: مَنْ حصلتْ لهم هذه الصِّفاتُ - على نحو قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ﴾ [البقرة: 5] بعد قوله: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ٢﴾ [البقرة: 2] - همُ الأحقّاءُ بأن يكونوا الوارثينَ بذلك لا غيرهم، وتوسُّطُ ضميرِ الفصلِ لتأكيدِ القَصْرِ وتقويةِ الخبرِ عنهم بذلك[3].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾:

الوارثونَ همُ المعهودونَ بتلك الصِّفات

قولُه: ﴿ٱلْوَٰرِثُونَ﴾ تحلَّى بـ (أل) العهد؛ أيْ: مَنْ عُرِفوا بما عُهِدَ عنهم من تلك الصِّفات، كأنَّه قيل: هم أصحابُ هذا الوصف المعروفون به[4].

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 20.

(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (ورث).

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

المؤمنون بصفاتِهم أحقُّ من غيرهم بالإرْثِ الحقيقيّ

الوِراثةُ: الاسْتحقاقُ الثّابت؛ لأنَّ الإرثَ يعني أن يكون الشَّيءُ لقوم ثمَّ يصيرُ إلى آخرين[1]، وقولُه: ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾؛ أي: الأحقّاءُ أن يُسمّوا وُرّاثًا دون مَنْ عداهم ممَّن لم يتَّصف بتلك الصِّفاتِ من المؤمنين، أو من الكفّار حيث فوّتوها على أنفُسهم؛ لأنَّه تعالى خلقَ لكلٍّ منزلًا في الجنَّة ومنزلًا في النّار، ولذلك جاءتْ صيغةُ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ خبرًا مُعرَّفًا بما يُفيدُ تحقّقَ الخبرِ فيهم بما عُهدَ عنهم من الصِّفاتِ المؤهِّلة لهذه الوراثة.

وكلمة ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ هي نتاج ما قبلها من الصّفات لفظًا ومعنًى ونظمًا؛ فإنَّ القرآن أثبت لهم صفاتٍ تدلّ على أنَّهم ورثة نبيّنا ﷺ حقًّا وصدقًا، وأثبتها لهم على جهة الإبلاغ من الثَّبات والاستمرار والدّوام.

بلاغةُ الاسْتعارةِ في التَّعبيرِ عن الاسْتحقاقِ بالإرْثِ:

المؤمنون المفلحون ورثوا الفِرْدَوْسَ باسْتحقاق

اسْتُعيرتِ الوراثةُ للاسْتحقاقِ الثّابت؛ لأنَّ الإرثَ أقوى الأسبابِ لاسْتحقاقِ المال، قال تعالى: ﴿وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٧٢﴾ [الزُّخرف: 72][2]، وفي ذلك من المبالغةِ ما فيه؛ لأنَّ الإرثَ أقوى أسبابِ الملك[3].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾:

هذا الإرثُ يُتشوَّفُ إليه ويُترقَّبُ له

جاءَ فصلُ قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ﴾ بيانًا لما أُبهِمَ وأُجْمِلَ بحذفِ معمولِ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾؛ وذلك حتَّى يترقَّبَ السّامعُ هذا البيان، فإذا به يَظْهرُ بقولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ قَصْدًا لتّفخيم هذه الوراثة، الَّتي دونَها كلُّ إرْثٍ يلهثُ النّاسُ وراءَه حتَّى يُحصِّلوه[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 20.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 20.

فائدةُ التَّعبيرِ بالاسْمِ الموصولِ وصلتِه:

الـوارثـون هـم أصحابُ الـفِـردَوْسِ المعروفونَ به

الإتيانُ في البيانِ القرآنيِّ باسْمِ الموصول الَّذي شأنُه أن يكون معلومًا للسّامعِ بمضمونِ صلتِه إشارةٌ إلى أنَّ تعريفَ ﴿ٱلۡوَٰرِثُونَ﴾ تعريفُ العَهْد، كأنَّه قيل: الوارثونَ هم أصحابُ هذا الوصفِ المعروفون به[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارع ﴿يَرِثُونَ﴾ وإعادةِ ذِكْرِه:

الـفِـردَوْسُ إرثٌ فـخـمٌ مُـتـجـدِّدٌ مُستمرٌّ لأهلِه

وردَ التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿يَرِثُونَ﴾ لبيانِ الإرثِ الَّذي يرثونَه بعدَ تشوُّفٍ ورغبةٍ مُلحَّةٍ لمعرفته، فيأتي الجوابُ بالبيان الشّافي الكافي: ﴿يَرِثُونَ ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ ويزيدُه بيانًا، فيقول: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ وجاء الجوابُ بالبيانِ الواضح بتكريرِ الفعل ﴿يَرِثُونَ﴾؛ قصْدًا لتفخيم هذه الوراثة وتأكيدًا لها[2] والَّتي عَنَت صيغتُها بقوله: ﴿يَرِثُونَ﴾ تجدُّدَ واسْتمرارَ هذا الإرْث، فكأنَّه نَبْعٌ لا يَنْضُبُ معينُه ولا يَنفدُ خيرُه، والتَّجدُّدُ فيه ينظر إلى تجدُّد النَّعيم الذي سيعيشون فيه في جنّات الآخرة.

معنى (أل) في الفِردَوْس:

الجنَّةُ المعهودةُ الـمُـسـتَـحَـقَّـةُ بصفاتٍ خاصّةٍ بها

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ لامُ العَهْد؛ أي: الجنَّةُ الَّتي وردَ وصفها بأنَّها: "رَبوةُ الجنَّة، وأوسطُها، وأفضلُها، وأحسنُها"[3]، ويمكن أن تكون (أل) للاسْتحقاق؛ أي: اسْتحقَّ المؤمنونَ بصفاتِهمُ السّابقةِ الجنَّةَ المُسمّاة بـ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾، والحملُ على الأولى تأسيسٌ، والحملُ على الثّانية توكيدٌ؛ لأنَّ معنى الوراثة فيه معنى الاستحقاق.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾:

جنَّةُ الـفِـردَوْسِ تـعـنـي الـخـلـودَ الأبَديّ

قولُه تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ جملةٌ مُستأنَفَةٌ مقرِّرةٌ لما قبلها[4]؛

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 20.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 20.
(3) الرّاغب، المُفردات: (الفردوس).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 51.

أيْ: هم في الفِرْدَوسِ خالدون، فبينها وبين ما قبلها كمالُ اتّصالٍ من نوع التّوكيد المعنويّ، ويمكنُ أن تكونَ حالًا مقدَّرةً من فاعل ﴿يَرِثُونَ﴾؛ أيْ: يرثونَ همُ الفِردَوْسَ خالدين فيه، أوْ: وحالهُم أنَّهم فيها خالدون، أو: مفعولَه[1]، والحملُ على الحال فيه إبراز تميُّزِهم وتفوُّقهم وشرفهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّةِ ﴿فِيهَا﴾:

دلَّ التَّعبير بالظَّرفيّة ﴿فِيهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ على اسْتحواذهم ومُكثهم وإقامتهم الدّائمة في الفردوس، وهذا يقتضي الخلودَ الدّائم الَّذي لا مَوْتَ معه[2]، واللَّذّةَ الَّتي لا انْقطاعَ لها، والملكَ الَّذي لا زوال له.

في الفِردَوْسِ إقامةٌ دائمةٌ لا تنقطع

نكتةُ تقديم شِبْهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾:

تقدَّمتْ شِبهُ الجملة ﴿فِيهَا﴾ على قولِه: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ لإفادةِ الاخْتصاص؛ أيْ: في الفِردَوْسِ لا في غيرِها هم خالدون[3]؛ أي: فهي خاصّةٌ بهم مقصورةٌ عليهم، وفيه أيضًا لفتٌ إلى عظمة وفخامة معنى الخلود في الفردوس؛ باللّفت إلى الفردوس أوّلًا، ثم ذِكْرِ معنى الخلود ثانيًا.

اختصاصُ أصحابِ الصِّفاتِ المُعلَنة بالفِرْدَوس

دلالةُ التَّعبيرِ بالخلود مادّةً وصيغة:

قولُه تعالى: ﴿خَٰلِدُونَ﴾ يدلُّ في أصلِ الكلمةِ على الثَّباتِ والمُلازَمَة. ومنه: جنَّةُ الخُلد، وأخْلَدَ إلى الأرض: لَصِقَ بها، كما قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ﴾ [الأعراف: 176]؛ فهو من الخُلْدِ وهو البقاء[4]، فقوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ أي: باقون في الجنَّةِ لا يموتون، وصيغةُ ﴿خَٰلِدُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ يدلُّ مع مُبتدَئه ﴿هُمۡ﴾ على الثَّباتِ والدّوام، فهم في جنَّة الفِردوسِ مُلازمونَ باقون.

أهلُ الفِردَوْسِ باقون فيها لا يموتون

---

(1) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 646.

(2) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 646.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 110.

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خلد).

تخصيص الصّلاةِ بالذّكر مرّتين لأهميّتها، وزيادةُ بيانِ الأمانةِ في (المؤمنون)

توجيهُ المتُشابهِ اللّفظيّ بين آياتِ سورة المؤمنون وسورة المعارج:

في سورةِ المعارجِ وردَ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢ ٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج: 22 - 23]، ثمَّ جاءَ عقيبَه قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝٢٩ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٣٠ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ۝٣١ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢ وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ۝٣٤ أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: 29 - 35].

في هذه الآياتِ وردَ قولُه: ﴿إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ ۝٢٢﴾ [المعارج: 22] وعقيبه ذكرَ الخِصالَ المذكورةَ أوَّلَ سورةِ المؤمنين، وزادَ فيها ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِشَهَٰدَٰتِهِمْ قَآئِمُونَ ۝٣٣﴾ [المعارج: 33]؛ لأنَّه وقع عقيبَ قوله: ﴿لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ۝٣٢﴾ [المعارج: 32]، وإقامةُ الشَّهادةِ أمانةٌ يؤدّيها إذا احْتاجَ إليها صاحبُها لإحياء حقّ؛ فهي إذن من جملةِ الأمانات، والسّورة هناك مُؤسَّسة على الإنذار بالعذاب الواقع، وقد ذُكرتِ الأمانةُ في سورة المؤمنين، وخُصَّتْ هذه السّورةُ بزيادةِ بيانها، كما خُصَّتْ بإعادةِ الصَّلاة حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ بعد قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ﴾[(1)]؛ لأنّ ذلك ألصق ببيان الحُكم عليها بالفلاح العظيم في سياق تقديمهم كنموذج عليٍّ في أمة نبينا ﷺ.

وفي سورة (المعارج) ورد قولُه تعالى في خاتمة هذه الصِّفات: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي جَنَّٰتٍ مُّكْرَمُونَ ۝٣٥﴾ [المعارج: 35]، وفي سورة (المؤمنون) خُتمت صفاتُ المؤمنين بقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ۝١٠ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾؛ لأنَّ الفريق المقابل لهم قد ورد في السّورة جزاؤه المُفيد هلعه وفزعه وإهانته والتّحقيرَ منه: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ۝١٥ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَىٰ ۝١٦ تَدْعُواْ مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّىٰ ۝١٧ وَجَمَعَ فَأَوْعَىٰٓ ۝١٨

(1) الكرمانيّ، البرهان، ص: 240 - 241.

*﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩﴾ [المعارج: 15 - 19] إلى آخره، فكان أهلُ الإيمان مُقرَّبين؛ ليحصل التّناسُبُ بين حال الفريقيْن، وكمال نفي التّسوية بينهما، وفي سورةِ المعارج ذَكَرَ ﴿جَنَّٰتٍ﴾ [المعارج: 35]، وفي سورة المؤمنين ذَكَرَ اسْمَ الجنَّة ووسطَها وأفضلَها، ومن معاني ﴿مُّكۡرَمُونَ ٣٥﴾ [المعارج: 35] الفوزُ بهذه الجنّاتِ على صفتِها في ﴿ٱلۡفِرۡدَوۡسَ﴾ والخلودُ فيها بقوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

العَهْد والميثاق:

العهدُ حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه، والميثاقُ توكيدُه

العهدُ: حفظُ الشَّيءِ ومراعاتُه حالًا بعد حالٍ، وسُمّيَ الموثّقُ الَّذي يلزمُ مراعاتُه عَهدًا، قال تعالى: ﴿وَأَوۡفُواْ بِٱلۡعَهۡدِۖ إِنَّ ٱلۡعَهۡدَ كَانَ مَسۡـُٔولٗا ٣٤﴾ [الإسراء: 34]، والميثاقُ توكيدُ العقد، من قولك: أوْثقتُ الشَّيءَ إذا أحكمتُ شدَّه، والعَهْدُ يكونُ حالًا من المتعاهدين، والميثاقُ يكونُ من أحدِهما[1].

الفِردَوس ودارُ السَّلام ودارُ الخُلد ودارُ المُقامة وجنَّةُ المأوى والنَّعيم والغُرُفات:

الجنَّةُ اسْمٌ عامٌّ يضمُّ أسماءَ عديدةً باعْتبارِ صفاتِها لذاتٍ واحدة

الفِرْدَوسُ: البستانُ الَّذي فيه الأعناب، وهو في كلام العرب: الشَّجرُ المُلتفّ، والأغلبُ عليه العِنَب، وحقيقتُه أنَّه البستانُ الَّذي يجمع كلَّ ما يكونُ في البساتين[2]، وقد ورد أنَّه: "أَوْسَطُ الجَنَّةِ وأَعْلَى الجَنَّةِ - أُراهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحمن، ومنه تُفجَّرُ أنهارُ الجنَّة"[3].

ودارُ السَّلام: سُميَّت بهذا الاسْم لسلامتِها من كلِّ بليَّةٍ وآفة؛ فإنَّ اللّه هو السَّلام، وهي دارُه ﷻ، وتحيَّةُ المؤمنين فيها سلام، والملائكةُ يدخلونَ عليهم من كلّ بابٍ بالسَّلام، وكلامُهم فيها سلام، قال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ٢٥ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا ٢٦﴾

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 525، والرّاغب، المُفردات: (عهد) و(وثق).
(2) الزَّجّاج، معاني القرآن: 3/ 315، والشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 546.
(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، الحديث رقم: (2790).

[الواقعة: 25 - 26]، وقال تعالى: ﴿۞لَهُمۡ دَارُ ٱلسَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمۡۖ﴾ [الأنعام: 127]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: 25].

ودارُ الخُلْد: وسُمّيت بذلك؛ لأنَّ أهلَها، لا يَظعنونَ عنها، واشتقاقُه من الخُلْد - وهو دوامُ البقاء - من قولهم: أخْلَدَ بالمكان: أقامَ به، قال تعالى: ﴿قُلۡ أَذَٰلِكَ خَيۡرٌ أَمۡ جَنَّةُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [الفرقان: 15].

ودارُ المُقامة؛ أي: الدّارُ الَّتي يقيمُ فيها المؤمنونَ إقامةً دائمةً، لا يموتون ولا يتحوَّلون، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ [فاطر: 35].

وجنَّةُ المأوى: من آوَى يَأْوِي؛ أي: انْضمَّ إلى المكان، قال تعالى: ﴿عِندَ سِدۡرَةِ ٱلۡمُنتَهَىٰ ١٤ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلۡمَأۡوَىٰٓ ١٥﴾ [النَّجم: 14 - 15].

وجنَّةُ عَدْن؛ أيْ: جنَّةُ إقامةٍ دائمة، يُقال: عَدَنَ بالمكان: إذا أقامَ به، وعَدَنْتُ البَلَدَ: توطَّنتُه، وعَدَنَتِ الإبلُ بمكان كذا: لَزِمَتْه فلم تبرَحْ منه.

وجنَّةُ النَّعيم: النَّعيمُ: النِّعمةُ الكثيرة، قال تعالى: ﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ٩﴾ [يونس: 9]، وقال تعالى: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ وَجَنَّتُ نَعِيمٖ ٨٩﴾ [الواقعة: 89]؛ وذلك لما في الجنَّةِ من نِعَمٍ عظيمةٍ جليلةٍ كثيرةٍ متنوِّعة، لا تُعدُّ ولا تُحصَى.

والغُرُفات: جمع غُرْفَة، والغُرفةُ: عَليَّةٌ من البناء، وسُمّيتْ منازلُ الجنَّةِ غُرُفًا، قال تعالى: ﴿لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ غُرَفٗا﴾ [العنكبوت: 58]، وقال ﷻ: ﴿وَهُمۡ فِي ٱلۡغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ٣٧﴾ [سبأ: 37][1].

(1) الأزهري، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (فردوس، سلم، خلد، قام، أوى، عدن، نعم، غرف)، ومجموعة من المؤلِّفين، الموسوعة العقديّة: 5/ 71 - 72.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾﴾ [المؤمنون: 12 - 14]

مُناسَبةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

مَنْ قدَّر البَعْثَ للعباد هو مَنْ ابْتدأ خَلْقَهم

لَمّا ذكرَ اللهُ ﷻ الجنَّةَ التي تضمَّنَ ذِكرُها البعث؛ استدلَّ على القدرةِ عليه بابْتداءِ الخلق، وكذلك لَمّا ذَكَرَ العباداتِ السَّبعةَ الَّتي هي سببُ دخولِ الجنَّةِ ووراثةِ الفِردَوْس؛ أَتْبعَها بذِكْرِ أطوارٍ سبعةٍ يتقلَّبُ فيها الإنسانُ قبلَ خروجِه إلى الدُّنيا فقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وكأنّه قد قيل له: إنَّما كَمُلَ خلقُكَ وخُروجُكَ على الدُّنيا بعد هذه التَّقلُّباتِ السَّبعة، وإنَّما تتخلَّصُ من دُنياك بالتزامِ هذه العباداتِ السَّبع(1)، ويمكنُ أن تكونَ المناسبةُ أنَّه لَمّا ذَكَرَ سبحانه أحوالَ السُّعداء، عقَّبه بذِكْرِ مبدئهم ومآلِ أمرِهم في ضمنِ ما يعمُّهم وغيرَهم، وفي ذلك إعظامٌ للمِنَّة عليهم، وحثٌّ على الاتّصافِ بالصِّفاتِ الحميدة، وتحمُّلِ مُؤَنِ التَّكليفاتِ الشَّديدة(2).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سُلَٰلَةٍ﴾: (سلّ) أَصْلٌ واحِدٌ، وهوَ مَدُّ الشَّيْءِ في رِفْقٍ وخَفاءٍ، وسلُّ الشَّيءِ من الشَّيءِ: نَزْعُه، والسُّلالةُ: فُعالةٌ من السَّل؛ وهو اسْتخراجُ الشَّيءِ من الشَّيء، يُقال: سَلَلْتُ الشَّعرَ من العجينِ فانْسلّ،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 111 - 112.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.

وسَلَلْتُ السَّيفَ من غِمْدِه فانسلّ، ومن هذا يُقالُ للنّطفة: سُلالَة، وللولَد: سَليلٌ وسُلالة؛ أيْ: سَلّ الولَدِ من الأب[1].

ومعنى قولِه تعالى: ﴿سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾؛ أيْ: جَوْهرُ الإنسانِ وأصلُه الَّذي يُسَلُّ من كلِّ تربةٍ[2].

2) ﴿طِينٍ﴾: طِنْتُ كذا، وطيَّنتُه، والطّينُ: التُّرابُ والماءُ المختلط، وقد يُسمَّى بذلك وإن زالَ عنه قوّةُ الماء، قال تعالى: ﴿مِّن طِينٍ لَّازِبٍ ⑪﴾ [الصّافّات: 11]، والطّينُ: الوَحْلُ، والطّينةُ أخصُّ منه، ويُقال: طيَّنَ السَّطحَ تَطْييناً، وبعضُهم يُنكرُه ويقول: طانَه من باب باعَ؛ أيْ: طانَه يَطينُ، فهو مَطين، والطّينة: الخِلقةُ والجِبلَّةُ[3]، وقولُه: ﴿مِّن طِينٍ﴾ هي خِلْقةُ آدمَ عليه السلام؛ أيْ: من طينةٍ اسْتُلَّت من الأرضِ طيبِها وسَبخِها وجميعِ أنواعها[4].

3) ﴿نُطْفَةً﴾: بضمِّ الطّاء وكسرها، ونَطَفانُ الماء: سَيَلانُه، والنُّطفةُ: الماءُ الصّافي، وأصلُها من النَّطْف، وهو القَطْر، ويُعبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُل، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ يَكُ نُطۡفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمۡنَىٰ ㊲﴾ [القيامة: 37]؛ ومنه قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةً﴾[5].

4) ﴿قَرَارٍ﴾: قرَّ في مكانه يَقِرُّ قرارًا، إذا ثبتَ ثبوتًا جامدًا، وأصلُه من القَرِّ وهو البَرْد، وهو يقتضي السُّكون، والحرُّ يقتضي الحركة، قال تعالى: ﴿وَقَرۡنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ [الأحزاب: 33]، قال تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ قَرَارٗا﴾ [غافر: 64]؛ أيْ: مُستقرًّا.

5) ﴿مَّكِينٍ﴾: يُقال: أمكَنْتُ فلانًا من فلان، ويُقال: مكانٌ ومكانة، والمكانُ عند أهل اللُّغة: الموضعُ الحاوي للشَّيء، وقوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلۡعَرۡشِ مَكِينٖ ⑳﴾ [التّكوير: 20]؛ أي: مُتمكِّنٍ ذي قَدْرٍ ومَنزِلة[6]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾؛ أيْ: مُستقرٍّ وموضعِ قرارٍ - فسمّاه بالمصدر - مُطمئنٍّ غيرِ مضطَرِب، يُقال: مَكين: بَيِّن المكانة؛ والمُرادُ هنا: الرَّحِمُ، مُكِّنَ فيه بأن هُيِّئَ لاسْتقرارِه فيه إلى بلوغِ أمَدِه الَّذي جُعِلَ له[7].

---

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 1/ 8، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصِّحاح: (سلل).

(2) الفرّاء، معاني القرآن: 2/ 231.

(3) الرّاغب، المُفردات، ومختار الصِّحاح: (طين).

(4) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649، والسَّبخة المكان يسبخ، فينبت الملح، والسَّبخةُ - محرّكة ومسكّنة -: أرضٌ ذات نزٍّ وملح، يُنظر: ابن منظور، لسان العرب، والزّبيدي، تاج العروس: (سبخ).

(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرازي، مختار الصِّحاح: (نطف).

(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (قر) (مكن).

(7) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649.

6) ﴿عَلَقَةً﴾: (علق) أصْلٌ كَبيرٌ صَحيحٌ يرْجِعُ إلَى معنًى واحدٍ[1]، والعَلَقُ: التَّشبُّثُ بالشَّيء، يُقالُ: عَلِقَ الصَّيدُ في الحِبالة، وأعْلَقَ الصّائد؛ إذا عَلِقَ الصَّيدُ في حِبالته، والعَلَقُ: الدَّمُ الجامد، ومنه العَلَقةُ الَّتي يكونُ منها الولد، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢﴾ [العلق: 2].

ومعنى قولِه تعالى: ﴿عَلَقَةً﴾؛ أيْ: قطعة الدَّمِ الجامد[2].

7) ﴿مُضْغَةً﴾: (مَضَغ): أصْلٌ صَحيحٌ، مَضَغَ الطَّعامَ يمضَغُه مَضْغًا، ومَضغَ الطَّعامَ يمضُغُه مَضغًا، والمُضْغَةُ: القطعةُ من اللَّحم، قَدْرَ ما يُمضَغُ ولم ينضُج، قال الشّاعر:

يَلَجْلَجُ مضغة فيها أنيضُ[3]

أي: غيرُ مُنضَج، وجُعِلَ اسْمًا للحالةِ الَّتي ينتهي إليها الجنينُ بعد العَلَقة، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾[4].

8) ﴿فَكَسَوْنَا﴾: (كسا): كَسَوْتُه كِسْوةً؛ فاكْتَسَى، قال تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ﴾ [النِّساء: 5]، والكِساءُ والكِسْوةُ والكُسْوة: اللِّباس، قال تعالى: ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ﴾ [المائدة: 89][5].

ومنه قولُه تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾؛ أيْ: أنبتَ اللّهُ ﷻ على كلِّ عظمٍ لحمًا على مقدارِ الَّذي يليقُ به ويناسبُه[6].

9) ﴿أَنشَأْنَٰهُ﴾: (نَشَأ) أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ[7]، وأنْشأَهُ اللّهُ: خلقَه، والاسْمُ: النَّشْأةُ والنَّشاءة، وأنْشَأ يفعلُ كذا؛ أيِ: ابْتدأ، والنَّشْءِ والنَّشْأةُ والإنْشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]، والإنشاءُ: هو الابتداء[8]، قال تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النَّجم: 32]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾؛

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (علق).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والرّاغب، المُفردات: (علق).
(3) الشَّطرُ لزهير بن أبي سلمى في ديوانه، ص: 14، وعجزه: أصلّت فهي تحت الكشح داءُ.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (مضغ).
(5) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (كسا).
(6) الشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 649.
(7) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشأ).
(8) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).

أيْ: بنفخِ الرّوحِ فيه[1]، أو استوائه شبابًا[2]، أو أن جُعلَ ذكَرًا وأُنثَى[3]، والأَوْلى دخولُ هذه المعاني كلِّها، فلا وجهَ للتَّخصيص، وإنَّما هو عامٌّ في هذا وغيرِه من وجودِ النُّطقِ والإدراك وحُسْنِ المحاولة، وأوَّلُ رُتبةٍ من كونِه آخَر، هو نَفْخُ الرّوحِ فيه، ثمَّ تحصيلُه المعقولاتِ إلى أن يموت[4].

10) ﴿فَتَبَارَكَ﴾: (برك) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ ثَباتُ الشَّيْءِ، تَبارك؛ أيْ: بارك؛ مثل: قاتلَ وتَقاتلَ إلّا أنَّ فاعَلَ يتعدَّى، وتفاعَلَ لا يتعدَّى، وتبرَّك به؛ أيْ: تيمَّنَ به، والبَرَكةُ: النَّماءُ والزّيادة، ويُقال: هو مُبارَكٌ؛ أيْ: فيه بَرَكة، وتَبارَكَ؛ أيْ: تَنبيهٌ على اخْتصاصِه تعالى بالخَيْراتِ المذكورة، كما في قولِه تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: 1]، وقولِه تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ وهذا شأنُ لفظِ (تباركَ) في كلِّ موضعٍ وردَ فيه[5].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تباركَ اللهُ الّذي قدَّرَ مراحلَ خَلْقِ الإنسانِ فجعلَه معتدلًا سَويًّا

يقولُ تعالى مُخبِرًا عنِ ابْتداءِ خلقِ الإنسانِ من سُلالةٍ من طينٍ؛ وهو آدمُ عليه السلام: خلقَه اللّهُ من طينٍ مأخوذ من جميع الأرض، ثمَّ جعله نُطفةً في الرَّحِمِ المُعدِّ لذلك المُهيَّأ له، ثمَّ صيَّر اللّهُ النُّطفةَ الَّتي تخرجُ من صُلْبِ الرَّجُلِ وترائبِ المرأة - وهي عظامُ صَدْرِها ما بين التَّرقوةِ إلى السُّرَّة - فصارتْ عَلَقةً حمراء، ثمَّ صيَّرها قطعةً كالبَضْعةِ من اللَّحم، ثمَّ خلقَها اللّهُ تعالى ذاتَ رأسٍ ويدَيْن ورِجْلَيْن بعظامِها وعَصَبِها وعُروقِها، ثمَّ نفخ اللّهُ في هذا المخلوق الرّوحَ فتحرَّكَ وصارَ خلْقًا آخرَ ذا سمعٍ وبَصَرٍ وإدراكٍ وحَرِكةٍ واضْطراب؛

(1) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، عن ابن عباس رضي الله عنهما، والسّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 91.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 10 - 11، عن مجاهد.
(3) الزَّجَّاج، معاني القرآن: 4/ 9، والنَّحّاس، معاني القرآن: 4/ 449.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 10/ 336، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 110.
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).

فتباركَ اللّهُ وكَثُرَ خيرُه في قدرتِه ولُطفِه في خلقِ هذه النُّطفةِ من حالٍ إلى حالٍ، وشَكْلٍ إلى شَكْلٍ، حتَّى تصوَّرتْ إلى ما صارتْ إليه من الإنسانِ السَّويِّ الكامل الخَلْق(1).

وتُرشدُ الآياتُ الكريمةُ إلى بيان مظاهر قدرة اللّه وعلمه وحكمته، وبيان خلق الإنسان والأطوار التي يمرُّ بها(2).

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا﴾:

الواوُ استئنافيَّةٌ أو عاطفةٌ

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا﴾ للاسْتِئناف، فبعد أن ذَكَرَ النَّظمُ الكريمُ أوصافَ المؤمنين وإرثَهمُ الفِردَوسَ وخلودَهم فيها؛ اسْتَأنفَ حديثَه بذِكْرِ مبدئهم ومآلِ أمرِهم في ضمنِ ما يعمُّهم وغيرَهم(3)، والاستئناف ابتدائيٌّ.

ويمكنُ أن تكونَ الواوُ عاطفةً جملةَ كلامٍ على جملةٍ، وإن تباينت في المعاني(4)، والعطفُ بالواو هنا يُسمَّى عطفَ غرَضٍ على غَرَض، ويُسمَّى كذلك عطفَ القصَّة على القصّة، فللجملةِ حُكمُ الاسْتِئناف؛ لأنَّها عطفٌ على جملةِ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ التَّي هي ابْتدائية(5)، وما جاء بعدها من جمل إلى آخر جملة من قبل هذا الكلام المعطوف.

معنَى اللّام و(قد) وغَرَضُ تتابعِ المؤكّدات:

القَسَمُ والتَّحقيقُ تعريضٌ بالمشركينَ المُنكرينَ للألوهيَّة

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ واقعةٌ في جوابِ القَسَم؛ أيْ: باللّهِ لقد خلقنا جِنْسَ الإنسان من طين(6)، و(قد) حرفُ تحقيق، وتأكيدُ الخَبرِ بلامِ القَسَم وحرفِ التَّحقيقِ مُراعًى فيه التَّعريضُ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 3/ 227 - 228.
(2) الجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 508.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(4) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 137.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 21.
(6) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 3/ 51.

بالمشركينَ المُنزَّلينَ منزلةَ مَنْ يُنكرُ هذا الخبرَ لعدَمِ جَرْيِهم على موجِبِ العلم[1].

نكتةُ إسنادِ الخَلْقِ في الآيةِ إلى ضميرِ العَظَمة:

عُلوُّ وعظمةُ اللهِ في خلقِه وقدرتِه

قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا﴾ بإسنادِ الخلقِ إلى ضميرِ العَظَمة (نا) دلالةٌ على عُلوٍّ في الرُّتبةِ والعَظمةِ للّه ﷻ؛ أيِ: خَلَقْنا بما لنا من العَظَمةِ والقُدرةِ الفائقةِ والعلمِ الواسعِ، والحكمةِ البالغةِ في كلِّ شيءٍ، ومن ذلك: خَلَقْنا النّطفةَ البيضاءَ جدًّا علقةً حمراءَ دمًا عبيطًا شديدَ الحُمرةِ جامدًا غليظًا، ثمَّ مضغةً، ثمَّ عظامًا، ثمَّ كسَوْناه لحمًا ثمَّ أنشأْناه خلْقًا آخر[2].

معنَى (أل) في الإنسان:

(أل) في ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ للجِنْس؛ أيِ: المُرادُ بالإنسانِ جِنسُه بدءًا بآدمَ عليه السلام، ثمَّ ما نَسلَ منه من سُلالةٍ بشريَّة[3].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾:

خلقُ الإنسانِ من خُلاصةِ الطّين

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِن سُلَٰلَةٖ﴾ ابْتدائيَّةٌ متعلِّقةٌ بالخَلْق؛ أي: ابْتدأ خَلْقُ الإنسانِ من خلاصةِ الطِّين؛ لأنَّها تُسَلُّ من بين الكَدَر؛ أيِ: خلَقْناه مُنفصلًا آتيًا من سُلالة[4].

نكتةُ تنكير ﴿سُلَٰلَةٖ﴾:

صيغةُ سُلالةٍ تدلُّ على القِلَّة

قولُه تعالى: ﴿سُلَٰلَةٖ﴾ نكرة؛ أيِ: هي شيءٌ قليلٌ، بما تدلُّ عليه صيغةُ فُعالة؛ فهي بناءٌ للقِلَّة، كالقُلامةِ والقُمامة؛ فتكون السُّلالةُ على هذا مجموعَ ماءِ الذَّكَرِ والأُنْثَى المسلولِ من دمِهما[5].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.
(2) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115 - 116.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 215.
(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(5) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.

معنَى ﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن طِينٍ﴾:

الإنسانُ مخلوقٌ من سلالةٍ كائنةٍ من طينٍ

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّن طِينٍ﴾ يحتملُ أن تكون ابتدائيَّةً كالأولى إلّا أنَّها مُتعلِّقةٌ بـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾ على أنَّها بمعنَى مَسلولة، أو متعلِّقةٌ بمحذوفٍ وقع صفةً لـ﴿سُلَٰلَةٍ﴾؛ أيْ: سلالةٍ كائنةٍ من طينٍ[1]، ويحتملُ أن تكون على هذا تبعيضيَّة[2]، وأن تكون بيانيَّة[3].

نكتةُ تنكيرِ ﴿طِينٍ﴾:

جاءت كلمةُ ﴿طِينٍ﴾ نكرةً؛ أيْ: من جِنْسِ طينِ الأرضِ لا على التَّعيين؛ أيْ: كائنة من طينٍ[4] أيًّا كان نوعه ولونه وصفته.

معنَى ﴿ثُمَّ﴾:

ترتيبُ ما بعدَ (ثمَّ) عمّا قبلها

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾ للتَّرتيبِ الرُّتَبيّ والتَّراخي؛ أيْ: ترتيبُ ما جاءَ بعد ﴿ثُمَّ﴾ عمّا تقدَّمها، إذْ كان خلقُ النُّطفة عَلَقَةً أعْجبَ من خلق النُّطفة، إذ قد صيَّر الماءَ السّائلَ دَمًا جامدًا فتغيَّرَ بالكثافة، وتبدَّل اللَّونُ من عواملَ أودعَها اللّهُ في الرَّحِم[5]، وبعد تراخٍ في الزَّمان[6].

دلالةُ التَّرتيبِ بالجَعْل في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ﴾:

جعلَ اللهُ السُّلالةَ في موضعٍ أمينٍ حفاظًا عليها

الجَعْلُ في قوله تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ أعظمُ من خَلْقِ السُّلالة، فضميرُ ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ عائدٌ إلى الإنسانِ باعْتبارِ أنَّه من السُّلالة؛ فالمعنَى: جعلْنا السُّلالةَ في قرارٍ مكين؛ أيْ: وضعناها فيه حفظًا لها، ولذلك غيَّرَ في الآيةِ التَّعبيرَ عن فعلِ الخَلْقِ إلى فعلِ الجَعْلِ المُتعدّي بـ ﴿فِي﴾ بمعنَى الوضع[7].

---

(1) العُكبريّ، إملاء ما منَّ به الرَّحمن: 2/ 147، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27، وروح المعاني: 9/ 216.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 114.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(6) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115.
(7) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.

بيانُ مفعولي الجَعْل:

الأوَّلُ: هاءُ الضَّمير (الإنسان) والثّاني: نُطفة

قولُه تعالى: ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ له مفعولان، الأوَّلُ: هاءُ الضَّميرِ في ﴿جَعَلۡنَٰهُ﴾ وهو عائدٌ إلى الإنسان في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، أو عائدٌ إلى (الخَلق)؛ أيْ: جنس الخلق؛ لأنَّه طَوْرٌ آخَرُ للخَلْق ومادَّته، والثّاني: قولُه: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾[1]، ويمكن أن تكون ﴿نُطۡفَةٗ﴾ في سائر الوجوهِ مفعولًا ثانيًا للجَعْل على أنَّه بمعنى التَّصيير[2]، ويجوز أن يكون الجَعْلُ بمعنَى الخَلْقِ المتعدّي إلى مفعولٍ واحد، ويكون ﴿نُطۡفَةٗ﴾ منصوبًا بنزعِ الخافض؛ أي: ثمَّ خَلقْنا الإنسانَ من نطفةٍ كائنةٍ في قرارٍ مكينٍ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿نُطۡفَةٗ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خلقُ الإنسانِ من الماءِ الصّافي حالَ كونه يقطُر في الرَّحِم

سُميَّت سُلالةُ الذَّكَرِ نُطفة؛ لأنَّها تُنْطَفُ؛ أيْ: تُقطَرُ في الرَّحِم في قناةٍ معروفةٍ وهو القرارُ المَكين، ويُعبَّرُ بها عن ماءِ الرَّجُل، وهو الماءُ الصّافي، وأصْلُهُ من النَّطْف، وهو القَطْر[4]، و﴿نُطۡفَةٗ﴾ هنا جاءت منصوبةً على الحال؛ أيْ: ثمَّ جعلناه حالَ كونه نطفةً في قرارٍ مكينٍ[5]، ونظمُها حالًا فيه لفتٌ للإنسان إلى مقارنة حاله؛ - وهو يتلقَّى هذا الخطابَ القرآنيّ - بحاله؛ وهو نطفة؛ ليرى عجيب صنع اللّه فيه؛ فينقاد له؛ أمرًا ونهيًا.

نكتةُ تنكيرِ ﴿نُطۡفَةٗ﴾:

من نطفةٍ ما يكونُ خَلْقُ الإنسان

جاء تنكيرُ ﴿نُطۡفَةٗ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه الماءُ الدّافقُ الَّذي أُلْقيَ في أرحامِ الأمَّهات، وهذا الماءُ الدّافقُ الَّذي هو ماءُ الرَّجُل، نُطفةٌ واحدةٌ منه - لا على التَّعيين - هي الَّتي يقدِّرُ اللّهُ أن تجتمعَ مع نطفةِ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (نطف).
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 22.

المرأةِ في الرَّحِمِ فتلقِّحُها، فتكون مادَّةُ خلقِ الإنسان منها في هذا القرارِ المَكين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

ثبوتُ النُّطفةِ في الرَّحِم

عبر السّياق الكريم في الآية في قوله تعالى: ﴿فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾؛ إذ القرارُ في الأصل: مصدرُ قرَّ إذا ثبتَ في مكانه، وقد سُمّيَ به هنا المكانُ نفسُه، والمَكينُ: الثّابتُ في المكانِ بحيث لا يُقلَعُ من مكانِه، فمُقتضَى الظّاهرِ أن يوصفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثّابتِ فيه؛ أي: البيان الوافي لثبوتِ النّطفةِ في هذا القرارِ المكين[2].

بلاغةُ المَجازِ في قوله: ﴿قَرَارٍ﴾:

الـرَّحِـمُ مَـكـيـنٌ للنُّطفةِ حافظٌ لها

لَمّا قال تعالى: ﴿نُطۡفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ بيانًا لثبوتِ النُّطفةِ في المكان، سمَّى به هنا القرارَ المكانَ نفسَه، وزاد هذا الوصفَ قوَّةً أن جعل وصفَ القرارِ الَّذي هو ﴿مَّكِينٍ﴾ وصفًا لنفسِ المكانِ الَّذي استقرَّت فيه النُّطفة على طريقةِ المجازِ العقليِّ للمبالغة؛ وحقيقتُه: مكينٌ حالُّه[3]، وهذا المجازُ على قول القائل: طريقٌ سائرٌ، وإنَّما السّائرُ مَنْ فيه[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿قَرَارٍ﴾:

استقرارُ النُّطفةِ في الرَّحِمِ الَّذي تدخلُ فيه

جاء قولُه تعالى: ﴿قَرَارٍ﴾ نكرة؛ للمبالغةِ في دخول النُّطفةِ في هذا القرار؛ أيِ: الرَّحِم، وهو أيُّ رَحِمٍ تتوجَّه إليه النُّطفةُ لتدخلَ فيه ثمَّ تستقرُّ فيه، والقرارُ: المستقرّ؛ فهو موضعُ الاسْتقرار[5].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿مَّكِينٍ﴾ مادَّةً وصيغةً:

النُّطفةُ تستقرُّ في مكانِ الرَّحِمِ وتتمكَّنُ فيه

المَكينُ: الثّابتُ في المكانِ بحيث لا يُقلَعُ من مكانه؛ فمُقتضَى

---

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.

(4) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.

(5) السَّمين الحلبيّ، الدُّرُّ المَصون: 8/ 322.

الظّاهرِ أنْ يوصَفَ بالمَكينِ الشَّيءُ الحالُّ في المكانِ الثّابتُ فيه، وقد وقع هنا وصفًا لنَفْسِ المكان الَّذي استقرَّت فيه النُّطفة[1]، فهو تعبيرٌ عن تمكُّنِها بحيث هي وأُحرِزت[2]، وهو هنا ذو وصفَيْن؛ الأوَّلُ: تمكُّنه في نَفْسِه بحيث لا يَعْرِضُ له اخْتلال، والثّاني: تمكُّن مَنْ يَحِلُّ فيه، فوُصفَ بذلك على سبيلِ المجاز كما تقدَّم[3].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا﴾:

تراخي خلقِ العَلَقةِ من النُّطفةِ

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ﴾ معناه التَّراخي في خلقِ العَلَقةِ من الماء السّائلِ في موضعِه؛ لأنَّه يكون في وقتٍ أطول، إذْ إنَّه يتحوَّلُ إلى لحمةٍ حمراء، ويتحيَّزُ في مكانٍ بعد أنْ كان سائلًا ليس له مكانٌ مُتحيِّزٌ فيه يملأ فراغًا[4].

معنَى الخلْق هنا:

أنشأ اللهُ النُّطفة وحوّلها أطوارًا بخلقه وقدرته

الخَلْقُ: الإنشاءُ والصُّنع - بأمرِ اللَّه -؛ أيْ: إنشاءُ شيءٍ من لا شيءٍ، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس: 82]، وعبَّر هنا بالخَلْق، ولم يُعبِّر بالجَعْل؛ لأنَّه أنْشأه إنشاءً، إذْ تحوَّلَ ما يَنسِلُ من الطّين إلى ماءٍ هو النُّطفة، تحويلٌ بخلق الخالق[5]، فكان خلقُ النُّطفة علقةً أعْجبَ من خَلْقِ النُّطفة، إذ صيَّر الماءَ السّائلَ دمًا جامدًا، فتغيَّرَ بالكثافة، وتبدَّلُ اللَّونُ من عواملَ أودَعَها اللَّهُ في الرَّحِم[6].

معنَى (أل) في قوله: ﴿ٱلنُّطۡفَةَ﴾:

(أل) في ﴿ٱلنُّطۡفَةَ﴾ للعَهْد الذِّكريِّ؛ أيِ: النُّطفةُ المعهودةُ وهي السّائلُ الرَّقيقُ الأبيضُ الدّافقُ الَّذي يخرج من صُلْبِ الرَّجلِ وترائبِ المرأةِ، ثمَّ إلى الرَّحِم[7].

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(2) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 551.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5052.
(6) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.
(7) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 115.

نكتةُ تنكيرِ ﴿عَلَقَةً﴾:

العلقةُ قطعةُ دمٍ حمراءَ لا اسْتبانةَ فيها

جاءتِ ﴿عَلَقَةً﴾ نكرةً؛ لأنَّه لا اسْتبانةَ ولا تَمايزَ فيها؛ فهي قطعةُ دمٍ جامدٍ غيرُ واضحةِ المعالم، شأنُها - ظاهرًا - كشأنِ أيِّ دمٍ أحمرَ جامدٍ[1]، ولكنَّها مرحلةٌ من مراحلِ خلقِ الجنينِ قبلَ أن يخرجَ من رَحم أُمِّه، و﴿عَلَقَةً﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً﴾ مفعولٌ به ثانٍ لقوله: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ ذلك أنَّ خَلَقْنا بمعنَى: صيَّرنا أو جعلْنا؛ وهي تأخذُ مفعولَيْن[2].

معنَى الفاء في ﴿فَخَلَقۡنَا﴾:

تعقيبُ خَلْقِ المُضغةِ عن العَلَقة

عطفَ النَّظمُ الكريمُ جَعْلَ العَلَقةِ مُضغةً بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾؛ لأنَّ الانتقالَ من العَلَقةِ إلى المُضغةِ يُشبهُ تعقيبَ شيءٍ عن شيءٍ، إذِ اللَّحمُ والدَّمُ الجامدُ متقاربان فتطوّرُهما قريبٌ وإن كان مُكْثُ كلِّ طَوْرٍ مدَّةً طويلة[3].

نكتةُ العدولِ عن العطفِ بـ ﴿ثُمَّ﴾ إلى الفاءِ في المراحلِ الباقية:

تفريغُ مراحلِ الخلق، وتعقيبُ كلِّ طورٍ عن أخيه

عدلَ النَّظْمُ الكريمُ عن العطفِ بـ (ثمَّ) إلى الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ و﴿فَكَسَوۡنَا﴾؛ لتفريعِ اللّاحقِ عن السّابقِ وتعقيبه عنه؛ فهما متقاربان وطَوْرُ كلِّ واحدٍ منهما قريبٌ من الآخر وإن أخذ مدَّةً طويلةً[4]؛ ففي الفاء و﴿ثُمَّ﴾ تظهر دقة البيان القرآنيّ المتناهية في التَّعبير عن حاقِّ المعنى.

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡعَلَقَةَ﴾:

قطعةُ دمٍ تسكنُ الرّحمَ تصيرُ جنينًا

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَلَقَةَ﴾ للعهد الذِّكْريّ؛ أي: العَلَقةُ المعروفةُ المعهودةُ الَّتي سبق ذِكْرُها، والتي تكون بعد تحوُّلِ النُّطفةِ لها، وهي قطعةٌ من دمٍ عاقدٍ، تتحيَّزُ في مكانٍ في رحمِ المرأةِ بعد أن كانت سائلًا ليس له مكانٌ مُتحيِّزٌ فيه يملأ فراغًا[5].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52.
(2) العكبريّ، التّبيان في إعراب القرآن: 2/ 148.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(5) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.

معنى الخَلْقِ هنا:

تصيرُ مراحلِ الخلقِ بخلقِ اللهِ وقدرتِه

الخَلْقُ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً﴾ بمعنَى الإنشاء؛ أيْ: أنشأناه إنشاءً، إذْ إنَّ تحوُّلَ العَلَقةِ إلى مُضغة، هو تصييرٌ وتحويلٌ بقدرةِ اللّهِ وأمره، فالتَّعبيرُ بـ (الخَلْق) هنا للإشارةِ إلى أنَّ ذلك التَّصييرَ أو التَّحويلَ إنَّما هو بخلق اللّه تعالى لا بالسَّببيَّة الَّتي تحوِّلُ الجنينَ من نطفةٍ إلى علَقةٍ ثمَّ إلى مضغة، فإنَّ اللّهَ تعالى هو الَّذي يُنشِئُ الشَّيء، لا ينشأُ شيءٌ بغيرِ إرادته، إنَّما إرادةُ اللّه تعالى وقدرتُه هي الفاعلة[1]، وإيثارُ التّعبير بالخَلْقِ على التّعبير بالنّشأةِ في هذه الآيات؛ لتعظيم خلْق الإنسان؛ رجوعًا إلى صيغة العظمة التي أُسنِد إليه الخلق في قوله: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ﴾؛ بإفهام أنَّ كلَّ مرحلة من مراحل خلْق الإنسان كأنَّه خلْقٌ مُستقلٌ عظيمٌ في نفسه وفي بابه؛ فهو جديرٌ بالتَّأمُّل، وهو حقيقٌ بالاستدلال به على المقصود من البعث وغيره جل اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُضْغَةً﴾:

مقدارُ ما يُمضَغُ يتصلَّبُ ليكونَ جنينًا

المُضغةُ: القطعةُ الصَّغيرةُ من اللَّحم مقدارُ اللُّقمة الَّتي تُمضغ[2]، وجُعلَ اسْمًا للحالةِ الَّتي ينتهي إليها الجنينُ بعد العلَقة[3]، والتَّعبيرُ بالمُضغةِ يُشيرُ إلى تصفيتِها وتصليبِها بما سبَّبها اللّهُ لها بخلقِه من الحرارةِ والأمورِ اللَّطيفةِ الغامضة[4].

نكتةُ تنكيرِ ﴿مُضْغَةً﴾:

قطعةُ اللَّحمِ الَّتي تُمضَغُ ستكونُ ذاتَ شأنٍ عندما تصيرُ إنسانًا

ورد قولُه تعالى: ﴿مُضْغَةً﴾ بصيغةِ التَّنكير؛ لأنَّ هذه القطعةَ الصَّغيرةَ من اللَّحم، وهي بمقدارِ اللُّقمةِ الَّتي تُمضَغُ لا اسْتبانةَ ولا تمايُزَ فيها، وهي ظاهرًا مُجرَّدةٌ عن أيِّ حياة، شأنُها كشأنِ أيِّ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 23.

(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (مَضغ).

(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.

قطعةِ لحم، ولكنَّها ستكونُ مودعةً لسِرٍّ من أسرارِ الخَلْق، ومحلًّا لحياةِ مخلوقٍ بشريٍّ اسْمُه الإنسان[1].

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾:

تفريعٌ وتعقيبُ خَلْقِ العظامِ عن المُضْغةِ

جاءتِ الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾ عطفًا على جَعْلِ المُضغةِ عظامًا تفريعًا وتعقيبًا؛ لأنَّ الانْتقالَ من المضغةِ إلى العِظامِ يُشبه تعقيبَ شيءٍ عن شيءٍ، لكنَّه هنا تكوينُ العظامِ في داخلِ تلك المُضغة، وذلك ابتداءُ تكوينِ الهيكلِ الإنسانيِّ من عَظْمٍ ولحمٍ[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡمُضۡغَةَ﴾:

المُضْغةُ تكوَّن في الرَّحِم لتصيرَ خَلقًا آخر

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُضۡغَةَ﴾ للعَهْدِ الذِّكْري؛ أي: المضغة الَّتي سبق ذِكْرُها، والتي جعلَها اللّٰهُ طَوْرًا من أطوارِ خَلْقِ الإنسان الَّتي تكونُ بعد تحوُّلِ العَلَقة، وهي قطعةُ لحمٍ بمقدارِ اللُّقمةِ الَّتي تُمضَغ، تسكنُ بقدرةِ اللّٰهِ في رحمِ الأمِّ؛ لتصيرَ بعد ذلك مع مراحلَ بعدها جنينًا تامًّا وخَلْقًا سويًّا[3].

معنَى الخلق في: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾:

تكوينُ العظامِ داخلَ المضغةِ بدايةُ الهيكلِ الإنسانيّ

قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ فيه بيانُ خَلْقِ المُضغةِ عظامًا، والمُرادُ بالخَلْق هنا: تكوينُ العظامِ في داخلِ تلك المضغة، وذلك ابْتداءُ تكوينِ الهيكلِ الإنسانيِّ من عَظْمٍ ولَحْمٍ دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ بفاءِ التَّفريع[4].

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿عِظَٰمٗا﴾:

الصَّلابةُ والقوَّةُ في العِظام

العَظْمُ: جمعُه عِظام، ويُقال: عَظْمةُ الذِّراعِ لِمُستَغلِظها، ويُستعارُ العَظْمُ لكلِّ كبيرٍ وغليظٍ كنايةً عن الصَّلابةِ والقوَّة، ويُقال عن الشَّيء: عَظُمَ؛ أيْ: كَبُرَ عَظْمُه، فأُجْرِيَ مَجْراهُ سواء أكان محسوسًا

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24.

أم معقولًا[1]؛ فجاء التَّعبيرُ بهذه المادّة؛ لأنَّ التَّصييرَ بالتَّصليبِ هو المناسبُ لتحويلِ المضغةِ إلى عظامٍ صغيرةٍ وكبيرةٍ حَسَب ما تقتضيه الحِكْمة[2].

نكتةُ تنكير ﴿عِظَٰمٗا﴾:

العظامُ متفاوتةٌ في مقاييسها ومحالِّها

قولُه تعالى: ﴿عِظَٰمٗا﴾ نكرة؛ لأنَّ العظامَ متفاوتةٌ في حَجْمها وطولِها وصلابتِها، وخلقُ المُضغةِ عظامًا قد يكون بغالبِها ومُعظمِها أو كلِّها، وقد تكون العظامُ صغارًا أو كبارًا، وهي غيرُ مُستبينةٍ أو مُتمايزةٍ حتَّى تأخذَ صورتَها وصلابتَها مع أطوارِ خلقِ الإنسانِ من صغيرِه حتَّى يقوى عودُه ويشتدَّ صُلبُه[3].

الموقعُ النَّحويّ لقوله: ﴿عِظَٰمٗا﴾:

جعلَ الله تعالى المُضغةَ عظامًا

﴿عِظَٰمٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا﴾ مفعولٌ ثانٍ للفعل ﴿فَخَلَقۡنَا﴾؛ أيْ: بعد أن تخلَّقتِ المضغةُ وتميَّزتْ أجزاؤها، جعلَها اللّهُ تعالى عظامًا؛ أيْ: جعلَ من هذه المضغةِ عظامًا صلبةً تتحمَّل[4]، فقوله: ﴿فَخَلَقۡنَا﴾؛ أيْ: صيَّرنا بحسبِ الوصف، فيحتاج بهذا إلى مفعولَيْن[5].

توجيهِ القراءاتِ القرآنيَّةِ في: ﴿عِظَٰمٗا﴾ وبلاغتها:

الإفرادُ والجمع، والأوَّل يُـرادُ به الثّاني

في قوله تعالى: ﴿عِظَٰمٗا﴾ قراءتانِ متواترتان[6]؛ الأولى: ﴿عَظۡمٗا﴾ بالإفراد، وهي قراءة ابن عامر، وشعبة عن عاصم؛ على أنَّه اسم جِنْس، فأُفرِدَ كما أُفرِدَتِ المصادرُ وغيرُها من الأجناس نحو: الإنسان، والدِّرهم، والشّاء، والبعير، وقد يجوز من التَّوحيد إذا

(1) الرّاغب، المُفردات: (عظم).
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 216 - 217.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(6) ابن مجاهد، السَّبعة، ص: 444، والداني، التّيسير، ص: 158، وابن الجرزي، النَّشر: 2/ 328.

كان في الكلام دليلٌ على الجمع[1]، والثّانية: ﴿عِظَٰمًا﴾ بالجمع، وهي قراءة الباقين؛ لأنَّه يُعلمُ أنَّ الإنسانَ ذو عظام، والجمعُ أشبهُ بما جاء في التَّنزيلِ في غير هذا الموضع، كقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا﴾ [الإسراء: 49]، وقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ١١﴾ [النّازعات: 11]، وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ﴾ [يس: 78][2]، وكذلك جاء جمعُ العظام؛ لأنَّها متغايرةٌ هيئةً وصلابة، بخلاف غيرِها، ألا ترى عظمَ السّاقِ وعظمَ الأصابعِ وأطرافِ الأضلاعِ وغيرِها كثير[3].

والتَّوحيدُ والجمعُ ههنا جائزان؛ لأنَّه إذا ذُكِرَ على التَّوحيد؛ فلأنَّه يدلُّ على الجمع، ولأنَّ معه اللَّحم، ولفظُه لفظُ الواحد، فقد عُلِمَ أنَّ العَظْمَ يُرادُ به العظام[4].

معنَى الفاءِ في قولِه: ﴿فَكَسَوۡنَا﴾:

ترتيبُ كِسوةِ العظامِ لحمًا على جعلِ المضغةِ عظامًا

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَكَسَوۡنَا﴾ للتَّفريعِ والتَّرتيبِ والتَّعقيب؛ لأنَّ الانتقالَ من العظام إلى كسائها لحمًا يُشبهُ تعقيبَ شيءٍ عن شيء، لكنَّه هنا جعلَ من هذه المضغة عظامًا صُلبةً تتحمَّل، وبعد أن خَلق فيها صفةَ الصَّلابةِ والتَّحمّلِ جعلها مكسوَّةً باللّحم المُغلِّف لما هو قويٌّ صُلبٌ لا يتفتَّت ولا يتهاوى أو يسقط، وهذه حكمة ربّانيَّةٌ جليلةٌ مع قدرةٍ فائقةٍ عظيمةٍ[5].

نكتةُ العطفِ بالفاءِ دون غيرِها من حروف العطف:

سُرعةُ التَّكوينِ الإلهيِّ لمراحلِ خلقِ الإنسانِ مع القدرةِ والحكمةِ الجليلتَيْن

يُلاحظُ أنَّ العطفَ في مقام خلق المضغة عظامًا، وكسو العظام لحمًا كان بالفاء الدّالَّةِ على التَّرتيبِ والتَّعقيبِ في قوله تعالى: ﴿فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا﴾؛ وذلك للدَّلالةِ على

(1) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 8 - 9، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 288 - 289.
(2) ابن خالوَيه، إعراب القراءات السَّبع: 2/ 85 - 86، والفارسيّ، الحُجَّة: 5/ 288 - 289، وابن زَنْجَلَة، حُجَّة القراءات، ص: 484، ومكّي، الكشف: 2/ 126.
(3) الزَّجّاج، معاني القرآن: 4/ 8 - 9.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(5) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 24، وأبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.

سرعةِ التَّكوينِ مع تفاوتِ هذا التَّكوين، أوِ التَّحوّلِ بإرادةِ اللّهِ وحده، وبذلك تكونُ أيْسر، وما خَلْقُ الإنسانِ بأكْبرَ من خلقِ السّماوات والأرض، قال ﷻ: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧﴾ [غافر: 57][1].

دَلالةُ التَّعبيرِ بالكَسْو في العظام:

اللَّحمُ ساترٌ للعظامِ كما اللِّباسُ ساترٌ للجَسد

الكِساءُ: اللِّباس، وكَسَوْنا؛ أيْ: ألْبَسْنا، وكما أنَّ اللِّباسَ ساترٌ للبَدَن، فكذلك - هنا - في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾ جعلَ اللّهُ اللَّحْمَ ساترًا للعظامِ حمايةً لها، ولإسباغِ التَّسويةِ والجمالِ على ظاهرِ الجسد، وهذا الكساءُ للعظام متحقِّقٌ ظاهرٌ معلومٌ لكلِّ إنسان[2]، فالتعبيرُ بالكَسْوِ أبلغ في إبراز نعمة اللّه في هذه المرحلة من خلق الإنسان؛ دمجًا للامتنان في سياق الاستدلال.

نكتةُ إسنادِ الكِسوةِ إلى ضميرِ العَظَمة:

اللّهُ تعالى بعظَمتِه وقُدرتِه كسا العظامَ لحمًا

أسندَ النَّظمُ الكريمُ في قوله تعالى: ﴿فَكَسَوْنَا﴾ الكِسوةَ إلى ضميرِ العظَمة (النّون)، والنّون هنا دالَّةٌ على الفاعلين تعظيمًا للفاعل وهو اللّهُ الخالقُ ﷻ؛ أيْ: فكَسَوْنا - بما لنا من قدرةِ الاخْتراعِ وعلمٍ واسعٍ وحكمةٍ فائقةٍ - تلك العظامَ لحمًا، فستَرْنا تلكَ العظامَ، وقوَّيناها وشدَدْناها بالرَّوابطِ والأعصاب[3].

معنَى (أل) في ﴿ٱلْعِظَٰمَ﴾:

كسا اللّهُ العظامَ المعهودةَ لحمًا

(أل) في قولِه تعالى: ﴿ٱلْعِظَٰمَ﴾ للعَهْد الذِّكْري؛ أيْ: فكَسَوْنا العظامَ المعهودةَ لحمًا، وهذا أمرٌ بادٍ لكلِّ ذي لُبٍّ[4]، والعهد هنا وفيما سبق من نظائره يكون ذهنيًّا أيضًا؛ لأنَّ المُتلقّين خوطبوا بهذا الكلام بعد تمام خَلقهم وتهيئَتهم للخطاب؛ فهو للعهد الذِكْريّ والعهد الذّهنيّ معًا.

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053 - 5054.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.
(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 217.

نكتةُ تنكيرِ ﴿لَحۡمٗا﴾:

لفتُ النَّظر إلى المُضغة قبل كونها عظمًا

جاء تنكيرُ ﴿لَحۡمٗا﴾ عَوْدًا على ما كانت عليه من قبل؛ وهي مُضغةٌ قَدْر ما يمضغه الإنسان؛ أيِ: كَسَوْنا العظامَ لحمًا بما ولَّدنا منها، ترجيعًا لحالها قبل كونها عظمًا، فستَرْنا تلك العظامَ لحمًا وقوَّيناها به[1].

الموقعُ النَّحْويُّ لقوله: ﴿لَحۡمٗا﴾:

صيَّر اللهُ العظامَ لحمًا

قولُه: ﴿لَحۡمٗا﴾ مفعولٌ ثانٍ للفعل ﴿فَكَسَوۡنَا﴾؛ لأنَّ كسَوْنا فيها معنى الجَعلِ والتَّصيير؛ أيِ: صيَّرنا تلك المضغةَ أو جزءًا منها لتكون لحمًا كاسيًا للعظام، أو هيَّأنا العظامَ لتكون صالحةً لكِسوتِها باللَّحم[2].

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾:

تراخي أطوارِ الخَلْق

﴿ثُمَّ﴾ تُفيد التَّراخي، وهو هنا كذلك، فالعطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ له موضعُه في هذا السّياق؛ لأنَّ ذلك الخلقَ الآخَرَ أخذَ أطوارًا مختلفةً مُتلاحقةً بمُددٍ زمنيَّةٍ متفاوتةٍ تقصرُ أو تطول، حسب ما تقتضيه الحكمةُ الإلهيَّة[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَنشَأۡنَٰهُ﴾ مادَّةً وصيغة:

نفخُ الرّوحِ تحقيقُ إنشاءِ الجنينِ خَلْقًا آخَر

الإنشاءُ: هو الابْتداء، وإحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه[4]، وأصلُ النّونِ والشّينِ والهمزةِ يدلُّ على ارتفاعٍ في شيءٍ وسُموٍّ[5]، فدلَّ هذا على أنَّه أرادَ به نَفْخَ الرّوح[6]؛ لأنَّه لا يحتملُ أن يكونَ خلقًا آخرَ إلّا بأن يزولَ عن كيفيَّته الأولى، وهي أنَّه كان لحمًا وعظمًا مواتًا، فلمّا حصلَ فيه الرّوحُ صارَ خلقًا آخَر حيوانًا بعد أن كان مواتًا[7]، فأوَّلُ رُتبةٍ من كونه

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 116.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5053.
(4) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (نشأ).
(6) عن ابن عبّاس ، يُنظر: ابن جرير، جامع البيان: 18/ 9، والسّيوطيّ، الدُّرُّ المنثور: 6/ 91، وهو اختيار ابن قتيبة في غريب القرآن، ص: 296.
(7) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 110، والواحدي، البسيط: 15/ 542.

آخَرَ هو نفخُ الرّوح فيه، ثمَّ تحصيلُه المعقولاتِ إلى أن يموت[1]، فعُبِّر بالإنشاء تفرقةً بين ما سبق من خَلقٍ وهذا الخَلق الآخر، ثم هذا الخَلق الآخرُ مُتطوِّر عن الخلق الأول؛ فخلقُ الإنسان فيه أعلى وأرفع وأتمُّ وأكمل، وهو أمرٌ مُتحقَّقٌ بأمرِ اللّهِ وقَدَره، دلَّ على ذلك صيغةُ الفعل الماضي ﴿أَنشَأۡنَٰهُ﴾.

نكتةُ تنكيرِ ﴿خَلۡقًا﴾:

أطوارُ خَلْقِ الإنسانِ عديدةٌ مُتباينة

جاء تنكيرُ ﴿خَلۡقًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ للدَّلالة على أنَّ ﴿خَلۡقًا﴾؛ أيْ: هذه الخلقُ أخذَ أدوارًا مختلفةً وأطوارًا مُتباينةً، وهو خلقٌ ناقصٌ في تلك المراحل، لكنَّه خَلْقٌ مُتمِّمٌ لما قبله موطِّئٌ لما بعده حتَّى اسْتوى خَلْقًا كاملًا - في آخرِ رحلاتِه - إنسانًا سويًّا[2].

دلالةُ وصفِ الخَلْقِ بـ ﴿ءَاخَرَۚ﴾:

مباينةُ خَلْقِ الإنسانِ بعد نفخِ الرّوحِ فيه عمّا كان عليه قبلَها

ورد وصفُ الخَلق بـ ﴿ءَاخَرَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾ للدَّلالةِ على أنَّه خَلقٌ مُباينٌ للخَلْقِ الأوَّل مباينةً ما أبعدها، وذلك بعد دبِّ الرّوحِ فيه حيث جعلَه حيوانًا وكان جمادًا، وناطقًا وكان أبْكم، وسميعًا وكان أصمّ، وبصيرًا وكان أكْمَه، وأوْدعَ باطنَه وظاهره، وكلَّ عضوٍ من أعضائه، وكلَّ جزءٍ من أجزائه عجائبَ قدرته، وغرائبَ حِكَمِه ممّا لا يُدرَك بوصفِ الواصف، ولا بشرحِ الشّارح[3]، ففي هذا الوصف تمكينٌ للتّعبير بـ ﴿أَنشَأۡنَٰهُ﴾ دون: (خَلَقْناهُ).

معنَى الفاء في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾:

الجملةُ السّاميةُ (فتبارَكَ اللهُ) ثمرةٌ طيِّبةٌ للخَلقِ السّابق

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ للإفصاح؛ لأنَّها تُفصحُ عن شرطٍ مقدَّرٍ معناه: إذا كان اللّهُ هو الَّذي خلقَ ذلك الخَلق؛ فتباركَ اللّهُ أحسنُ الخالقين[4]؛ فالفاءُ هنا أعْربَتْ عن أنَّ إعجازَ هذه الآيةِ

(1) ابن عطيَّة، المُحرّر الوجيز: 10/ 336.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5054.
(3) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 27.
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5054.

الكريمةِ منوطٌ بما قبلَ قولِه: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ فإنَّها اعتراضٌ تَذْييليٌّ مُقرِّرٌ لمضمونِ ما قبلَه[1].

العَلاقةُ بين الجملتيْن لفظيَّة سببيَّة ظاهرة

والفاء تُفْهِمُ أيضًا أنَّ فقه مضمون جملة: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ مُتوقِّفٌ على فقه على ما قبلها من معانٍ من قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾ إلى آخره، ولَمّا كان السّياقُ للاستدلالِ على الأصالةِ وللامتنانِ على التَّبَعِ آثر القرآنُ ربطَ هذه الجملة بما قبلها ربطًا ظاهرًا؛ فكانت العَلاقةُ بينهما لفظيَّة سببيَّة ظاهرة؛ وهي الفاءُ ﴿فَتَبَارَكَ﴾، ولو قيل: (تبارك اللّه أحسن الخالقين)؛ لكانت قد فُصلت عمّا قبلها؛ لأنَّ ما قبلها يُنتِجُها ويُؤدّي إليها؛ بدليل أنَّ بعض الصَّحابة نطق بها من قبل أن ينطق بها النَّبيُّ ﷺ؛ فهي لازمٌ من لوازمه؛ فبينهما كمال اتّصال مِن نوع التّوكيد المعنويّ.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

البركةُ دائمةٌ من اللهِ لا تنقطع

تباركَ؛ أيْ: تسامَى في البركةِ وعلا جلَّ شأنُه، حتَّى لا يُناهدَه أحدٌ في خيرِه الدّائم ﷻ[2] وهو من البَركة، والبَرَكةُ من اللّهِ تعالى: النَّماءُ والزّيادةُ واليُمن، وكلُّ ذلك من اللّهِ وحدَه، فهو تعالى المُختصُّ بالخيراتِ دون سواه[3]، وصيغةُ (تبارَك) (تفاعل) صيغةُ مُطاوعةٍ في الأصل، وأصلُ المُطاوعةِ قَبولُ أثَرِ الفعل، وتُستعمَلُ في لازمِ ذلك، وهو التَّلبُّسُ بمعنَى الفعلِ تلبُّسًا مَكينًا؛ لأنَّ شأنَ المطاوعةِ أن تكونَ بعد معالجةِ الفعل، فتقتضي ارْتساخَ معنَى الفعلِ في المفعولِ القابلِ له حتَّى يصيرَ ذلك المفعولُ فاعلًا، فيُقال: كسَّرْتُه فتكسَّر؛ فلذلك كان (تفاعل) إذا جاء بمعنَى (فَعَلَ) دالًّا على المبالغة[4].

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 53.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.
(3) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (برك).
(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.

إجلالُ اللهِ وإعظامُه في بديعِ خَلْقِه وآثارِ قُدرتِه

بلاغةُ الالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّمِ إلى الغَيْبَة:

جاء النَّظمُ الكريمُ بالالتفاتِ من ضمائرِ التَّكلُّم السّابقةِ إلى الغَيْبةِ في قوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ مع ذِكرِ الاسْم الجليل؛ لتربيةِ المَهابةِ وإدخالِ الرَّوعة، والإشعارِ بأنَّ ما ذُكر من الأفاعيل العجيبةِ هو من أحكام الأُلوهيَّة، وللإيْذانِ بأنَّ حقَّ كلِّ مَنْ سمعَ ما فُصِّلَ من آثارِ قدرته ﷻ، أو لاحظَه أن يُسارِعَ إلى التَّكلُّم به إجلالًا وإعظامًا لشؤونه ﷻ[1].

السّياقُ الجليلُ دليلٌ على شمولِ علمِ اللهِ وعظيمِ قدرتِه

نكتةُ حذف مُتعلَّق ﴿فَتَبَارَكَ﴾:

لم يذكرِ النَّظمُ الجليلُ مُتعلَّقَ قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾؛ لأنَّ السّياقَ في سابقِه دلَّ عليه دلالةً واضحةً في بيانِ شأنه تعالى في علمِه الشّاملِ وقدرتِه الباهرةِ وحكمتِه الفائقةِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ و﴿جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾، ثمَّ أكَّدَ ذلك وتوَّجَه باللِّحاق، فقال: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾[2]، وكذلك فإنَّه لَمّا حُذِفَ متعلَّقُ ﴿فَتَبَارَكَ﴾ كان قولُه: ﴿فَتَبَارَكَ﴾ عامًّا، فيشملُ عَظَمةَ الخيرِ في الخلقِ وفي غيرِه[3].

وهذا الحذفُ هو الأنسبُ بسياق الاستدلال على البعث وغيرِه؛ فإنه يفتح بابَ الاستدلال بغير ما ذُكِر من قبل هذه الجملة ممّا يُقال عقبَ سماعه أو رؤيتِه أو تلقّيه مُطلقَ تلقٍّ: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وبهذا الحذف تهيَّأتِ هذه الجملةُ لأن تكون مَثَلًا يُقال في كل شيءٍ عظيمٍ فخمٍ.

عنصر الإبانة: إمّا تأسيسٌ، وإمّا تمكينٌ، أو هما معًا

علةُ حذفِ مُتعلَّق ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾:

حذفُ مُتعلَّقِ ﴿ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 52 - 53.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 218.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.

يدلُّ على العموم؛ أيْ: عموم خَلقِ الإنسان، وخَلْقِ غيرِه كالسّماوات والأرض والجبال وسائرِ المخلوقات[1]، وهذا الحذف تمكينٌ لحذف متعلّق قوله: ﴿فَتَبَارَكَ﴾.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿أَحۡسَنُ﴾، وخروجها عنِ الظّاهر:

قولُه تعالى: ﴿أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾؛ أيْ: أحسنُ المُنشئين إنشاءً؛ لأنَّه أنشأ ما لا يستطيعُ غيرُه إنشاؤه[2]، وقولُه: ﴿أَحۡسَنُ﴾ أفعل التَّفضيل، وهو ليس على بابه، إنَّما معناه أنَّ خلْقَ اللّهِ تعالى وصلَ إلى أعلى درجات الحُسْن، بحيث لا يُناصبُه حُسْنٌ قطّ، وحقًّا لقد خلقَ اللّهُ الإنسانَ في أحْسنِ تقويم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ ٤﴾ [التّين: 4][3]، واستعمالُ هذه الكلمة مادةً وصيغةً: أبَرُّ بسياق الاستدلالِ؛ للفت إلى قوّة الدّليل، ومدى عمقه في الاستدلال، وعظمته في الإقناع؛ فيكونُ بينها وبين الفاء في صدر الجملة تناغٍ وتناصرٌ في إبراز هذا المقصودِ السّياقيِّ.

خَلْقُ اللهِ تعالى في حُسْنِه لا يُناصبُه حُسْن

معنى (أل) في ﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾:

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾ للاسْتحقاقِ والمبالغة؛ أيْ: مَنْ قدَّر هذا الخلقَ العجيبَ هذا التَّقدير، ثمَّ طوَّره في أطوارِه - ما بين طفلٍ رضيعٍ، ومُحتلِم شَديد، وشابٍّ نشيط، وكَهْلٍ عظيم، وشيخٍ هَرِم - إلى ما بين ذلك من شؤونٍ لا يُحيطُ بها إلّا اللَّطيفُ الخبير، الَّذي هو حقًّا وصدقًا أحْسنُ الخالقين المُستحقُّ لأرفعِ مقاماتِ الإجلال، وأعْلى درجاتِ التَّعظيم[4].

المستحقُّ لأعلى مقاماتِ الإجلالِ والتَّعظيم، هو اللهُ الخالقُ الأحد

توجيهُ المُتشابهِ اللَّفظيِّ مع آيةِ الخلقِ في سورة الحجّ:

في سورة (المؤمنون) جاء العطفُ بـ (ثمَّ) في خلقِ العلَقةِ من الماءِ

الله القادر خلقَ الإنسانَ في أطوارِه المتعاقبة ثمَّ يُميتُه ثمَّ يبعثُه

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 25.
(3) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.
(4) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 117.

السّائلِ الأبيضِ في موضعه؛ لأنَّه يكونُ في وقتٍ أطول، وفي سورة (المؤمنون) ذكرَ النَّظمُ الكريمُ أطوارَ خلقِ الإنسان، ثمَّ ختمَها بنهايةِ هذه الأطوار - وهو الموت - ثمَّ البعث؛ فقال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، وذلك لإثباتِ عقيدةِ البعث.

وفي سورة (الحجّ) بدأ الحديثَ عن أطوارِ الخلقِ بإثباتِ عقيدةِ البعثِ بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحجّ: 5]؛ أيْ: إنَّنا نُعلمُكم بأنّا خلَقْناكم من ترابٍ مثل الرُّفات الَّذي تصير إليه الأجساد بعد الموت؛ أي: انْظروا في بدءِ خلقِكم فإنّا خلَقْناكم من تراب، والَّذي خُلقَ من ترابٍ هو أصل النَّوع، وهو آدمُ عليه السلام وزوجُه حوّاء، وفي (المؤمنون) من طين، وأصلُ الطّينِ من ترابٍ مُزجَ بالماء[1].

وجاءت (ثمَّ) لتفيدَ التَّراخيَ في أطوارِ الخلقِ في السّورتَيْن، وفي سورة (المؤمنون) زيدتِ الفاءُ في ترتيبِ وتعقيب أطوارِ الخلق: ﴿فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَٰمَ لَحْمًا﴾؛ وليس في سورة (الحجّ) حرفُ الفاء؛ لأنَّه اكتفى بـ (ثمَّ) الَّتي تفيدُ التَّراخيَ الزَّمنيَّ الحقيقيَّ دون إعادةِ ذكرِ كلِّ طَوْرٍ سابقٍ مع لاحقِه، فقال: ﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ﴾ [الحج: 5]، وزاد في بيانِ قِسْمي المضغةِ في (الحجّ) بقوله: ﴿مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج: 5] ممّا لم يذكُرْه في (المؤمنون)، وذكرَ في (الحجّ) دون (المؤمنون) حرفَ (مِنْ) المكرَّرةِ أربعَ مرات، وهي ابتدائيَّةٌ وتكريرُها توكيد.

وفي (المؤمنون) قال: ﴿فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ﴾ وهو الرَّحِمُ الَّذي صرَّحَ به في (الحجّ) بقوله: ﴿وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ﴾ [الحج: 5] وختم في (المؤمنون) بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾، وفي (الحجّ) بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ [الحج: 6]؛ أيْ: بأنَّ اللّه هو الخالقُ الحقّ - لا أحدَ سواه - الَّذي خلقَ تلك الأطوارَ حتَّى تمَّ خلقُ الإنسان، فخرج من رَحِمِ أمّه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾.

وسرُّ ما في: (الحج) أنَّ السّورة صُدِّرت بالتّخويف والإنذار والتّهديد والتّرهيب من أهوال الآخرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ١ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ﴾ [الحج: 1 - 2] إلى آخره.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 196 - 197.

ثم ذكرت السّورةُ الذين يجادلون في الله بغير علم، وشيئًا من أحوالهم؛ فكان الخطاب المُسيطِر على السّياق خطاب الجلال؛ فلهذا صُدِّر الحديث عن نشأة خلق الإنسان بخطابٍ عامٍّ للنّاس كلِّ النّاس كما في صدر السّورة، وبما هو امتداد لسياق السِّباق من كون المخاطبين في ريبٍ من البعث؛ حتى تطَّردَ لُحمة السّياق، ويحصل التَّماسك المعنويّ بين أجزاء معاني الكلام، ولهذا أيضًا عُبِّر بالتُّراب دون الطّين؛ تناسبًا مع عموم الخطاب للناس كلِّ الناس؛ لأنّ الذي خلق من تراب هو أصل الخليقة؛ وهو آدم، والله قال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾ [آل عمران: 59]، وهذا الخطابُ العامُّ غابَ في سورةِ: (المؤمنون)؛ فلم يرِد فيها ذِكرُ التراب، وإنّما ورَد فيها ذكرُ الطّين، وكُرِّرت: (مِن)، وخُتم الكلامُ بقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الحج: 6]، وزيد معنى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: 5]؛ لأن المخاطَب أهلُ جدالٍ في الله بغير علم؛ فكانوا فقيرين إلى التّحقيق والتّوكيد، وإلى هذا الختم، وإلى هذا التفصيل بهذا المعنى: ﴿مُّخَلَّقَةٖ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٖ﴾ [الحج: 5].

وذِكرُ: ﴿ٱلۡأَرۡحَامِ﴾ [الحج: 5] في: (الحجّ) هو البلاغة؛ لأنّها قد سُبِقت بذِكر قوله: ﴿يَوۡمَ تَرَوۡنَهَا تَذۡهَلُ كُلُّ مُرۡضِعَةٍ عَمَّآ أَرۡضَعَتۡ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمۡلٍ حَمۡلَهَا﴾ [الحج: 2] إلخ؛ فكأنَّ الاقتران بين ذِكر ذلك وذِكر الأرحام في سياقٍ واحدٍ مع تقارب موقع الطّرفيْن يومئ إلى معنى قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ۝١٠١﴾ [المؤمنون: 101]، وهذا من وجوه التّناسب بين: (الحج) و(المؤمنون)؛ ففي الثّانية إفصاح بما ألمحت إليه الأولى وأجملته.

وسِرُّ ما في سورة (المؤمنون) أنّها صُدِّرتِ بالحُكم على المؤمنين الرّاسخين في مقام الإيمان بالفلاح، ثم شرعت في تفصيل ذلك؛ ببيان أسباب الفلاح وطُرقه ومسالكه وصفات أهله، ثم خَتمت هذا المقطع بقرار أهل الفلاح واستقرارهم في الفردوس التي ورثوها، وهم فيها خالدون؛ فكان من البلاغة والتّناسب أن يتأخّر ذِكْرُ المُستدلّ عليه من البعث، وأن يتقدّم عليه دليله؛ لأنّ ذلك هو الأبرُّ بهدوء السّياق سياق الفلاح والجمال والإيمان، وأمّا في (الحجّ) فالسّياق للجلال والتّهديد، وأن يُقال: ﴿فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ﴾ تناسبًا مع تمكين الله لهؤلاء المؤمنين الفالحين في الفردوس، وأن يُقال: ﴿مِّن طِينٖ﴾ لا (من تراب)؛ لأنّ في الطّين استحضارًا للماء، والماءُ أصل كلِّ شيءٍ حيٍّ، والحياة الحقيقيّة هي

التي يعلوها الفلاح والنّجاح، وإن كان الختم بقوله: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾؛ لأنّه ألصق بسياقٍ يشيع فيه الفلاح؛ فقد روعي فيه ذلك، وروعي فيه أيضًا مقصدُ الاستدلال على البعث.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإنشاء والجَعْل والخلق والبَرْء والذَّرْء:

الخَلْقُ أقوى لأنَّه خـاصٌّ بـالـلـه، ويتبعُه الإنشاءُ والجَعْلُ والـبَرْءُ والذَّرْء

الإنشاءُ: هو الإحداثُ حالًا بعد حالٍ من غيرِ احْتذاءٍ على مثال، ومنه يُقال: نشأ الغلام، وهي ناشئ: إذا نَما وزادَ شيئًا فشيئًا، والاسْمُ: النُّشوء، ويمكنُ أن يكونَ الإنشاءُ ابْتداءَ الإيجادِ من غيرِ سببٍ(1).

والجَعْلُ: تغييرُ صورةِ الشَّيء بإيجادِ الأثَرِ فيه وبغيرِ ذلك، نقول: جعلَ الطّينَ خَزَفًا، وجعل السّاكنَ مُتحرِّكًا، والجَعْلُ: يكون بمعنَى الإحداث، وهو قولُه تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَۖ﴾ [الأنعام: 1]، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ [السَّجدة: 9]، ويجوز أن يُقال: إنَّ ذلك يقتضي أنَّه جعلَها على هذه الصِّفةِ الَّتي هي عليها، كما تقول: جعلتُ الطّينَ خَزَفًا، والجَعْلُ يدلُّ على الاتّصال، ولذلك جُعِلَ طَرَفًا للفعل، فتستفتحُ به؛ كقولك: جعلَ يقول، وجعلَ يُنشِد، وجاء أيضًا بمعنَى الخبر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمۡ عِبَٰدُ ٱلرَّحۡمَٰنِ إِنَٰثًاۚ﴾ [الزُّخرف: 19]؛ أيْ: أخبروا بذلك، وبمعنَى الحُكْم في قوله تعالى: ﴿۞أَجَعَلۡتُمۡ سِقَايَةَ ٱلۡحَآجِّ﴾ [التَّوبة: 19]؛ أيْ: حكمتُم بذلك، ومثله: جعلَهُ اللّه حرامًا وجعلَه حلالًا؛ أيْ: حكمَ بتحليلِه وتحريمه، والجَعْلُ أصلُ الدَّلالةِ على الفعل؛ لأنَّك تعلمُه ضرورةً، وذلك أنَّك إذا رأيتَ دارًا مُهدَّمةً، ثمَّ رأيتَها مبنيَّةً علمتَ التَّغيُّرَ ضرورةً، ولم تعلم حدوث شيءٍ إلّا بالاسْتدلال(2).

---

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 80، والرّاغب، المُفردات: (نشأ).
(2) العسكريّ، الفروق، ص: 376 - 377، والرّاغب، المُفردات: (جعل).

والخلقُ: التَّقديرُ المستقيم، يُقال: (خلقتُ الأديمَ)؛ إذا قدَّرتَه خُفًّا أو غيرَه، ويُستعملُ في إبداع الشَّيءِ من غيرِ أصلٍ ولا احْتذاء، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ [الأنعام: 1]، ويُستعملُ في إيجادِ الشَّيءِ من الشَّيء؛ نحو: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [النِّساء: 1]، وليس الخلقُ الَّذي هو الإبداعُ إلّا للّهِ تعالى، ولهذا قال تعالى في الفَصْلِ بينهَ وبين غيرِه: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ١٧﴾ [النَّحل: 17][1].

والبَرْءُ: هو تمييزُ الصّورة، وقولُهم: بَرَأ اللّهُ الخلقَ؛ أيْ: ميَّزَ صوَرَهم، وأصلُه: القَطْع، ومنه البراءةُ؛ وهي قطعُ العلَقة، وبَرِئتَ من المرض، كأنَّه انقطعتْ أسبابُه عنك، وبَرِئتَ من الدَّيْن، وبَرأ اللَّحمَ من العَظْم: قطعَه، وتبرَّأ من الرَّجُلِ إذا انقطعتْ عصمتُه منه[2].

والذَّرْءُ: الإظهارُ، ومعنَى ذَرَأ اللّهُ الخلق: أظْهرَهم بالإيْجادِ بعد العدَم، ومنه قيل للبياض: الذُّرْأة؛ لظُهورِه وشُهرتِه، ومِلحٌ ذَرآنيٌّ لبياضِه[3].

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 224، والرّاغب، المُفردات: (خلق).

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 95.

(3) العسكريّ، الفروق، ص: 241.

﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ١٦ وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 15 - 17]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبلَها:

اللهُ الَّذي قدَّرَ أطوارَ خلقِ الإنسانِ هو الَّذي قدَّر موتَه ثمَّ بعثَه

لَمّا كانت إماتةُ ما صارَ هكذا - بعد القوّةِ العظيمةِ والإدراكِ التّامّ - من الغرائب، وكان وجودُها فيه وتكرارُها عليه في كلِّ وقتٍ قد صيرَّها أمرًا مألوفًا، وشيئًا ظاهرًا مكشوفًا، وكان عُتوُّ الإنسانِ على خالقِه وتمرُّدُه ومخالفتُه لأمرِه نسيانًا لهذا المألوفِ كالإنكارِ له، أشارَ إلى ذلك بقولِه تعالى مُسبّبًا مبالغًا في التَّأكيد: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ﴾، ولمّا تقرَّر بذلك القُدرةُ على البعثِ تقرُّرًا لا يشكُّ فيه عاقل، قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾، ولمّا بيَّنَ لهم أنَّ فكرَهم فيهم يكفيهم، ولاعْتقادِ البعثِ يعنيهم، أتبعَه دليلًا آخرَ بالتَّذكيرِ بخلقِ ما هو أكبرُ منهم، وبتدبيرِهم بخلقِه وخلقِ ما فيه من المنافع لاسْتبقائهم، فقال: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿طَرَآئِقَ﴾: (طَرَقَ) أَرْبَعَةُ أُصولٍ، أَحَدُها: الإتْيانُ مَساءً، والثّاني: الضَّرْبُ، والثّالِثُ: جِنْسٌ مِن اسْتِرْخاءِ الشَّيْءِ، والرّابِعُ: خَصْفُ شَيْءٍ عَلَى شَيْءٍ[2]، يَطْرُقُ طُروقًا فهو طارقٌ، والطَّريقُ: السَّبيلُ الَّذي يُطرَقُ بالأَرْجُل؛ أيْ: يُضرَب، قال تعالى: ﴿طَرِيقًا فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [طه: 77]، وعنه اسْتُعيرَ كلُّ مَسْلكٍ يسلُكه الإنسانُ في فعل، محمودًا كان أو مذمومًا، قال تعالى: ﴿وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 119 - 120.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طرق).

﴿...﴾ ﴿٦٣﴾ [طه: 63]، والطَّريقُ: يُذَكَّرُ ويؤنَّث، تقول: الطَّريقُ الأعظمُ والطَّريقُ العُظمى، وجمعُ طريق: طُرُق، وجمعُ طريقةٍ طرائق، قال تعالى: ﴿كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾﴾ [الجنّ: 11] إشارةٌ إلى اختلافِهم في درجاتِهم، يُقال: طارَقَ الرَّجُلُ بين نعلَيْه، إذا أطبقَ نعلًا على نعلٍ، وطارقَ الرَّجُلُ بين ثوبَيْن، إذا لبس ثوبًا على ثوبٍ، وهو الطِّراق[1]، وأطباقُ السَّماء، يُقال لهم: طرائق[2].

ومعنى قوله تعالى: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾: سبع سماوات[3]، كلُّ سماءٍ طريقة، قيل: سُمّيتْ طريقةً لتَطارُقِها، وهو أنَّ بعضَها فوقَ بعض[4].

2) ﴿غَٰفِلِينَ﴾: (غفَلَ): أصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى تَرْكِ الشَّيْءِ سَهْوًا، ورُبَّما كانَ عَنْ عَمْدٍ[5]، غَفَلَ يغفُلُ غَفْلَةً وغُفولًا من باب (دخل)، والغَفْلَةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ، يُقال: غَفَلَ فهو غافِلٌ، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، وأغْفَلَ الشَّيءَ: ترَكَهُ على ذُكْر[6]، ومعنى قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾؛ أيْ: ساهينَ عن حفظِه وإمساكه السَّماواتِ أن تقعَ فوقَهم بقدرتِنا، أو غافلينَ عن النّاسِ فيما يُصلحُهم، وبفتحِ أرزاقِهم وبركاتِهم من السَّماء، وبما ينفعُهم بأنواعِ منافعِها[7].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّٰهُ تعالى عبادَه فيقول: إنَّكم بعدَ ذلك الخَلْقِ ونَفْخِ الرّوحِ لميِّتونَ في أحدِ أطوارِكم وتنقلاتِكم، ثمَّ إنَّكم يومَ القيامةِ تُبعثونَ

بعثُ النّاسِ بعد موتِهم، وعلمُ اللهِ بهم حقٌّ لا رَيْبَ فيه

(1) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (طرق).
(2) الرّاغب، المُفردات، والرّازيّ، مختار الصِّحاح: (طرق).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 18/ 12.
(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 56، ولفظه: "كلُّ شيءٍ فوقه شيء، فهو طريقة"، الأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (طرق).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفل).
(6) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).
(7) الزَّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 28، والشَّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 650.

من قبورِكم، فتُجازونَ بأعمالِكم، حَسَنِها وسَيِّئِها، ولقد مننّا عليكم أن خَلَقْنا فوقكم سبعَ سماواتٍ طباقًا، كلُّ طبَقةٍ فوقَ الأخرى، فيها حفظٌ لكم ورعايةٌ لمصالحِكم وتحقيقُ منافعِكم، وكما أنَّ خلقَنا عامٌّ لكلِّ مخلوق، فكذلك علمُنا محيطٌ بما خلَقْنا، فلا نُغفِلُ مخلوقًا، ولا ننساه، ولا نخلُقُ خلْقًا فنضيِّعه، ولا نَغفُلُ عن السَّماءِ فتقع على الأرض، ولا يعزُبُ عنّا ذرةٌ في لُجَجِ البحار، وجوانبِ الفَلوات، ولا دابّةٌ إلّا سُقْنا إليها رزقَنا[1].

وترشدُ الآيات الكريمةُ إلى أنَّ اللّه تعالى كثيرًا ما يَقْرن بين خلقه وعلمه، كقوله: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، وقوله: ﴿بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ ٨١﴾ [يس: 81]؛ لأنَّ خلق المخلوقات من أقوى الأدلّة العقليّة على عِلم خالقها وحكمته، وإلى بيانِ قدرة اللّه تعالى وعظمتِه في خلق السّماوات طرائق، وعدم غفلته عن سائر خلقه، فسار كلُّ شيءٍ لما خُلق له، فثبت الكونُ وانتظمت الحياة[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ وإيثارُها دون الفاء:

تراخي الموتِ بعد تمامِ خلْقِ الإنسان، وهو توطئةٌ للبعث

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ في موضعِه؛ لأنَّه يفيدُ تراخيَ الموتِ بعد خَلقِهم في أحسنِ خِلْقة، ومنهم مَنْ يردُّه اللّهُ تعالى إلى أسفل سافلين، ويستمرّون إلى أجلٍ مُسمًّى، ضلّوا فيه أو اهْتدوا، أخلَصوا دينَهم للّه أو كفروا، وبعثَ فيهم الرُّسُلَ مُبشِّرين ومُنذِرين، إنَّهم بعد هذا الدَّورِ لميِّتون[3]، ورتبةُ الموتِ وإنْ كانت بعد ما سبقَها من أطوارِ الخلْق، لكنَّ ذكرَها هنا بذلك التَّرتيب؛ لأنَّ ذِكْرَ حقيقةِ الموتِ توطئةٌ للجملةِ بعدَه، وهي قولُه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾، وهو المقصود.

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 492.
(2) السّعديّ، تيسير الكريم الرَّحمن، ص: 492، والجزائريّ، أيسر التّفاسير: 3/ 511.
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات:

المــوتُ حقيقةٌ كــبْرَى يغفُلُ عنها كثيرٌ من النّاس مُغترّين بدنياهم

جاءَ تتابعُ المُؤكِّداتِ بـ (إنَّ) والجملةِ الاسْميَّة ﴿إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ واللّامِ المُزحلَقةِ في ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ مع كونِهم لا يرتابون في هذا الخبر؛ لأنَّهم لَمّا أعرضوا عن التَّدبُّرِ فيما بعد هذه الحياة، كانوا بمنزلةِ مَن يُنكرون أنّهم يموتون[1]، ومن أغراضِ هذا التَّوكيد اللَّفت إلى ألّا يغترَّ النّاسُ بغرورِ هذه الدُّنيا، وأنَّها إلى فناءٍ مهما طالت، وأنَّ الحياةَ الآخرةَ هي الباقيةُ في سعادةٍ ونعيم، أو في شقاءٍ وجحيم[2].

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الإشارةِ للواحد البعيد:

عُلوّ رُتبةِ خلْقِ الإنسانِ بأطوارِه السّابقة

قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: بعد ما ذُكِرَ من الأمورِ العجيبةِ في أطوارِ خَلْقِ الإنسان، حَسَبما يُنبئُ عنه ما في اسْمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾ من معنَى البُعدِ المُشعِرِ بعلوِّ رتبةِ المُشارِ إليه، وبُعدِ منزلته في الفضلِ والكمال، وكونِه بذلك مُمتازًا مُنزَّلًا المنزلةَ الحسّيَّة[3]، وفي التَّعبير عمّا ذُكر من قبل باسم الإشارة المُفرد: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إيجاز شديد، وفي الإفراد تنبيهٌ على أنّ الإنسان عند موته تظهر له الدّنيا على حقيقتها؛ من أنّها كساعةٍ قضاها ثم تركها.

غرضُ تقديمِ ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر:

أطــوارُ خلْـقِ الإنــســانِ العجيبة تنتهي بالموت

تقدَّمَ قولُه: ﴿بَعْدَ ذَٰلِكَ﴾ على الخبر ﴿لَمَيِّتُونَ﴾؛ لبيانِ أهميَّةِ عجائبِ خلْقِ الإنسانِ في أطوارِه المُتلاحِقة، وشرفِ ما نالَه الإنسانُ من رعايةِ خالقِه وعظيمِ تدبيرِه لأمرِه منذ أن كان نطفةً في رحِمِ أُمِّه، فإنَّ الَّذي خلقَه ورعاه في كلِّ تلك المراحلِ العجيبةِ هو سبحانه الَّذي حكمَ بموته، فالمصيرُ إليه ﷻ؛ أيِ: الَّذي قدَرَ على خلْقِ الإنسانِ قادرٌ على أن يُنهيَ رحلةَ حياتِه تلك بالموت ثمَّ البعث، فخلقُ الإنسانِ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5055.

(3) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 53 - 54.

في بديعِ أطوارِه تِوطِئةٌ لموتِه، ثمَّ بعثِه، وفيه أيضًا: أن موت الإنسان له حكمة بل حِكَم؛ كخلقه في الحياة الدنيا؛ فكان مرجع اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ كالمقيس عليه، وقوله: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾ كالمقيس.

بلاغةُ الإدماجِ في الآية:

إبطالُ الشِّركِ، والتَّذكيرُ بالموتِ بإشارةٍ سريعة

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم بَعْدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ﴾ إدماجٌ في أثناءِ تَعدادِ الدَّلائلِ على تفرُّدِ اللهِ بالخلْقِ من مبدئه إلى منتهاه، وعظيم رعايتِه الخاصَّة بهذا الإنسانِ في جميعِ مراحلِ خَلْقِه الَّتي عُبِّر عنها باختزالٍ شديدٍ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾، وهذا التَّفرُّدُ بالخَلْقِ على اخْتلافِ أصنافِ المخلوقاتِ عامَّة، وذلك لقصدِ إبطالِ الشِّرك، والتَّذكيرِ بالموتِ الَّذي يُعدُّ حقيقةً بيِّنةً لا يمكنُ لعاقلٍ إنكارُها، وهي في حدِّ ذاتِها توطِئةٌ لذِكْرِ حقيقةِ البعثِ الَّتي يُنكِرُها المشركون(1).

معنَى ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُم﴾:

تراخي البعثِ عن الموتِ مدَّةً لا يعلمُها إلّا الله

العطفُ بـ ﴿ثُمَّ﴾ له موضعُه، لتراخي البعثِ بعد الموتِ وحياةِ البرزخِ مدَّةً طالتْ أو قَصُرت - بالنّسبة لكلِّ ميِّت - لا يعلمُها إلّا اللّهُ تعالى؛ لأنَّ الأجسامَ تبقى في القبور، أو حيث تكونُ في أجزاءٍ أخرى، كما قال تعالى: ﴿۞قُلْ كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ۝٥٠ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ ۚ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا ۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ﴾ [الإسراء: 50 - 51](2).

غرضُ تتابعِ المؤكِّدات بـ (إنَّ) والجملةِ الاسْميَّة:

خلقُ الله في الإنشاءِ دليلٌ على قدرته في الإعادة

جاءتِ (إنَّ) والجملةُ الاسْميَّةُ في قولِه تعالى: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تُبْعَثُونَ﴾، تأكيدًا للبعث؛ لأنَّ اللّهَ تعالى لم يخلقْنا عَبَثًا، قال عزَّ من قائل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝١١٥﴾ [المؤمنون: 115]، وأكَّد اللّهُ ﷻ البعثَ لِعظَمِ إنكار أهل الكفر والشِّرك له،

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 26.

(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.

وهم مِن المخاطبين بهذه الآيات في المقام الأول، ولقد بالغوا في إنكارِه كشأن الَّذين لا يُؤمنون إلّا بما يُحسّونَ ولا يُؤمنون بالغيب، فبالغَ تعالى في تأكيدِه، وجعل ذلك يومَ القيامة، واللّهُ ﷻ هو الَّذي خلقَ وأبدع، وخَلْقُه في الإنشاءِ دليلٌ على قدرتِه في الإعادة[1].

غرضُ تقديم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على الخبر:

لـيـومِ القيامة أهميَّةٌ عظيمةٌ تُسقِطُ إنكارَ المُنكرين

قدَّمَ النَّظمُ الكريمُ يومَ القيامةِ على الخبرِ في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ للتَّنبيهِ على أهميَّةِ هذا اليوم وضرورةِ وجودِه؛ ليتحقَّق فيه كمالُ العدالةِ الإلهيَّة، وأنَّه واقعٌ لا محالة، وليس لإنكارِ المُنكرينَ له أيُّ دليلٍ عقليّ في عدمِه، فالَّذي خلقَ وأبدعَ هو الَّذي قدَّرَ وجودَ هذا اليوم، قال تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِي فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖۚ﴾ [الإسراء: 51][2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿تُبۡعَثُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

إخراجُ النّاسِ من قبورِهم وسَوْقُهم إلى المحشرِ للحساب

أصلُ البَعْث: إثارةُ الشَّيء وتوجيهُه، يُقال: بعثتُه فانْبعثَ[3]، والبعثُ يومَ القيامة هو إحياءُ النّاس، وإخراجُهم من قبورِهم، وسَوْقُهم إلى مَحْشرِهم، وقولُه: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ قائمٌ على هذا المعنَى؛ أيْ: تُبعثونَ من قبورِكم للحسابِ والمجازاةِ بالثَّوابِ والعقاب[4]، وجاءت صيغةُ المبنيِّ لما لم يُسمَّ فاعله في الفعل ﴿تُبۡعَثُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مَنْ خلقَهم اللّهُ بتلكَ الأطوارِ المتلاحقةِ سيموتون، ثمَّ يُبعثون، لا غَرْوَ في ذلك؛ فهو أمرٌ محسومٌ مجزوم مقطوع به.

نكتةُ تأكيدِ الموتِ باللّام، وعدم تأكيد البعث:

عدمُ العملِ للموتِ أوْجبَ تأكيدَه

الموتُ لا يختلفُ فيه اثْنان، وكم من مُخالفٍ في البعث؟! فلِمَ أُكِّدَ المُجمَعُ عليه أبْلَغَ تأكيد في قوله تعالى: ﴿لَمَيِّتُونَ﴾، وتُرِكَ المختلَفُ

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.
(2) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 15/ 5056.
(3) الرّاغب، المُفردات: (بعث).
(4) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 4/ 54.

فيه - في قوله تعالى: ﴿تُبۡعَثُونَ﴾ - من تلك المبالغةِ في التَّأكيد؟! إنَّ البعثَ لَمّا تظاهرتْ أدلَّتُه وتضافرتْ، أُبرِزَ في صورةِ المُجمعِ عليه المُستغني عن ذلك، وأنَّهم لَمّا لم يعملوا للموت، ولم يهتموا بأمرِه نُزِّلوا منزلةَ مَنْ يُنكرُه، فأبرزَهم في صورةِ المُنكِرِ الَّذي اسْتبعدوه كلَّ اسْتبعاد[1].

بلاغةُ الواوِ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾:

خلقُ العالَم العُلويِّ حكمةٌ ربّانيّةٌ جليلةٌ

صُدِّر قولُه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ بالواوِ الَّتي عُطِفَتْ جملتُها على جملةِ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ﴾، وجاء هذا العطفُ عَقِبَ قولِه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ﴾ للتَّنبيه على أنَّ الَّذي خلقَ هذا العالمَ العلويَّ ما خلقَه إلّا لحكمة، وأنَّ الحكيمَ لا يُهمِلُ ثوابَ الصّالحينَ على حسناتِهم، ولا جزاءَ المُسيئينَ على سيِّئاتهم، وأنَّ جَعْلَه تلكَ الطّرائقَ فوقَنا بحيث نراها ليَدُلَّنا على أنَّ لها صلةً بنا؛ لأنَّ عالمَ الجزاءِ كائنٌ فيها ومخلوقاتُه مُستقِرَّةٌ فيها[2].

غرضُ تتابعِ المُؤكِّدات في ﴿وَلَقَدۡ﴾:

تأكيدُ قدرةِ اللهِ على خلْقِ ما هو أعظمُ من خلْقِ الإنسان

تتابعتِ المؤكِّداتُ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ﴾ وهي (اللّامُ) الموطِّئةُ للقَسَم، و(قد) حرفُ التَّحقيق؛ لإثباتِ الدَّليلِ اليقينيِّ على خَلْقِ ما هو أعظمُ وأكبرُ من الإنسان، وبتدبيرهم بخلْقِه وخلقِ ما فيه من المنافع لاستبقائهم[3]، وفي التوكيد لفت إلى عظمة المعنى المُؤكَّد وغرابته في بابه.

نكتةُ إسنادِ الخَلقِ إلى ضميرِ العَظَمَة:

الخَلْقُ من خصائصِ اللهِ وعظَمتِه

في إسنادِ الخَلْقِ إلى صيغة العظمة في قوله تعالى: ﴿خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ﴾ إرادةُ تعظيم خَلْقِ اللهِ المتجلّي في خلقِ سبعِ سماواتٍ طباقًا، وهي أكبرُ

(1) السَّمين الحلبيّ، الدُّرّ المَصون: 8/ 325.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 118.

من خلْقِ الإنسان، كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]، فالخَلْقُ يُسْنَدُ إلى اللهِ لا إلى أحدٍ سواه[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيَّةِ وتقديمها:

الفوقيَّةُ مظنَّةُ النَّظرِ والتَّأمُّلِ في خلْقِ السّماوات والانْتفاعِ بها

قولُه تعالى: ﴿فَوْقَكُمْ﴾ ظرفُ مكان، والتَّعبيرُ به وتقديمه على المفعول ﴿سَبْعَ﴾ للتَّنبيهِ على وجوبِ النَّظرِ في أحوالِ تلك السّماوات السَّبع؛ للاستدلال بها على قدرةِ الخالقِ لها ﷻ، فإنَّها إمكانُ النَّظرِ إليها والتَّأمُّلِ فيها، ولأنَّ كونَها فوقَ النّاسِ ممّا سهَّلَ انتفاعَهم بها في التَّوقيت، وفي حفظِهم وتيسيرِ شؤونِ حياتِهم[2]، فكان في ذِكْرِ هذا القيد ﴿فَوْقَكُمْ﴾ تحقيقٌ لغرضَي الاستدلال والامتنان.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿طَرَآئِقَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

السّماوات طرائقُ بعضُها فوقَ بعضٍ

عُبِّر بـ﴿طَرَآئِقَ﴾ وهي جمع (طريقة) المُؤنَّثة في اللَّفظ؛ تنبيهًا على إمكان وسهولة اتّخاذ التّأمّل في تلك الطّرائق سبيلًا إلى معرفة الحقّ والصّواب خصوصًا في القضايا التي هي محلّ إنكارٍ وريبٍ عند أهل الكُفر والشّرك؛ فالاستدلالُ بهذه الطّرائق على إمكان البعث عظيم؛ لأنَّ خَلق السّماوات والأرض أكبر من خَلق النّاس، وكذلك الامتنان بما فيها من خير يتنزَّل على أهل الأرض عظيمٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (طرائقَ) صيغةً

وأمّا صيغةُ: ﴿طَرَآئِقَ﴾: فلا جمعٌ لكلمة: (طريقة) في المعاجم إلّا الجَمْعَ: ﴿طَرَآئِقَ﴾[3]، والقرآنُ على هذا عَبَّرَ بجَمْعِ الكثرةِ: ﴿طَرَآئِقَ﴾ معَ أن المُضافَ إليهِ العددَ: ﴿سَبْعَ﴾ يقتضي جَمْعِ قِلَّةٍ؛ لأنّه لا جَمْعَ قِلَّةٍ للمفردِ: (طريقة)، فهل عَبَّرَ القرآنُ به؛ لأجل هذا فقط دونَ غرضٍ آخَرَ؟، هذا ما عليه غيرُ قليلٍ مِن العلماءِ في كلِّ جَمْعِ كثرةٍ ليس له جَمْعُ قِلَّةٍ، وقد عُبِّرَ بجَمْعِ الكثرةِ في موضِعِه.

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 118.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.
(3) ابن منظور، لسان العرب، والرّاغب، المُفردات: (طرق)، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.

الحاصل في دلالة التَّعبير بـ (طرائق) صيغةً

والحاصلُ: أن جَمْعَ الكثرةِ مُتناسِبٌ معَ هذا، وإثباتُ تناسُبِه: لا يَضُرُّهُ مذهبُ مَن قال: إنّ القرآنَ عَبَّرَ بجَمْعِ الكثرةِ في موضِعِ جَمْعِ القِلَّةِ؛ لانعدامِ جَمْعِ القِلَّة، وهو يُؤيّدُ مذهبَ البقاعيِّ من أن انعدامَ هذا الجَمْعِ ليس العلةَ الوحيدةَ للتّعبيرِ بجَمْعِ الكثرةِ، وقولُهُ تعالى: ﴿طَرَآئِقَ﴾: يُحْتَمَلُ كونُه صفةَ موصوفٍ محذوفٍ؛ أيْ: سماواتٍ طرائقَ، وهذا ما يُفْهِمُه لفظُ البقاعيِّ: ﴿طَرَآئِقَ﴾؛ أيْ: سماواتٍ لا تتغيَّرُ عن حالتِها التي دبَّرْناها عليها إلى أن نُريدَ ... وفيها طَرْقٌ لكواكبِها[1]، وهذا أوْلى وأبلغُ؛ لأنَّ فيه استحضارًا للسَّموات ولكونها طرائقَ مَعًا[2]، وهو أقوى وأبلغُ من الوجهِ الثّاني الآتي ذِكْرُهُ.

ويحتملُ ألّا يكونَ كذلك، وذلك على تفسيرِ (الطّرائقِ) بما ذكَرَهُ ابنُ عاشورٍ في قوله: "والطرائقُ: جَمْعُ طريقة، وهي اسمٌ للطريقِ، تُذَكَّر وتُؤنَّث، والمُرادُ بها هنا: طرائقُ سَيرِ الكواكبِ السّبعةِ، وهي أفلاكُها؛ أيِ: الخطوطُ الفرضيّةُ التي ضبَطَ النّاسُ بها سُموتَ سَيْرِ الكواكبِ، وقد أُطْلِقَ على الكوكبِ اسمُ (الطّارقِ) في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ١﴾ [الطّارق: 1] من أجل أنّه ينتقِلُ في سمتٍ يُسمَّى طريقةً؛ فإنَّ السّايرَ في طريقٍ يُقالُ لهُ: طارق، ولا شَكَّ أنَّ الطَّرائقَ تَسْتَلْزِمُ سائراتٍ فيها؛ فكان المعنى: خلقْنا سيّاراتٍ وطرائِقَها"[3].

معنَى الواوِ في قولِه: ﴿وَمَا كُنَّا﴾:

مَن خلَق شيئًا عجيبًا بديعًا كيف يغفل عنه؟

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ للحال، وجملتها

(1) وهذا ما عليه أكثرُ المفسرينَ، مَثَلًا: قال الطبريُّ: "يقولُ تعالى ذِكْرُهُ: ولقد خلقنا فوقكم أيها الناسُ سبعَ سماواتٍ، بعضُهن فوقَ بعضٍ، والعربُ تُسمّي كلَّ شيءٍ فوقَ شيءٍ طريقةً، وإنما قيل للسموات السبع: ﴿سَبْعَ طَرَآئِقَ﴾، لأن بعضَهُنَّ فوقَ بعضٍ، فكلُّ سماءٍ منهن طريقةٌ"، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 17/ 26، ونقَل عن ابن زيد - مِن السلف - أنه قال: الطرائقُ السماواتُ، ينظر: ابن جرير، جامع البيان: 17/ 27.

(2) قال البقاعيُّ: "ومعَ كونِ السماواتِ مطارقة بعضُها فوقَ بعضٍ فهي طرقٌ للملائكةِ، يتنزَّلُون فيها بأوامرِهِ ﷻ"، انتهى مِن نظم الدُّرر: 5/ 190، كأنَّ البقاعيَّ بكلمتِه هذه يلفتُ إلى عظمةِ المعنى على وجهِ تقديرِ موصوفٍ محذوفٍ، هو السماواتُ.

(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.

في موضع الحال؛ أيّ: والحالُ أنَّنا ما كنّا عن الخَلْقِ غافلينَ[1]، ونظمُ معنى هذه الجملة ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ حالًا يبرز الغفلة التي يقع فيها أهل الكفر والشِّرك؛ فإنَّهم بإنكارهم البعث ونحوه من توابع السّاعة يُنَزِّلون الله - تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيرًا - منزلةَ مَن غفَل عن خلْقِه رحمةً وعدلًا، وحسابًا وعقابًا وثوابًا، وكيف يخلقهم ذلك الخلق البديع ثم يغفل عنهم؟!.

دلالةُ النَّفْيِ ودخولِه على فعلِ الكَوْنِ:

كمالُ العنايةِ الرَّبّانيَّةِ بالخلْقِ ورعايةِ مصالحِهم

نَفْيُ الغَفْلةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ كنايةٌ عن العنايةِ والملاحظة، فأفادَ ذلك أنَّ في خَلْقِ الطَّرائقِ السَّماويَّةِ لما خُلقَتْ له لُطفًا بالنّاس أيضًا، إذْ كانَ نظامُ خَلْقِها صالحًا لانتفاعِ النّاسِ به في مواقيتِهم وأسفارِهم في البَرِّ والبَحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: 97]، وأعْظَمُ تلكَ الطَّرائقِ طريقةُ الشَّمسِ مع ما زادتْ به من النَّفعِ بالإنارةِ وإصلاحِ الأرضِ والأجساد؛ فصارَ المعنَى: خلَقْنا فوقَكم سبعَ طرائقَ لحكمةٍ لا تعلمونَها، وما أهملْنا في خَلْقِها رَعْيَ مصالحِكم أيضًا[2].

معنَى (أل) في ﴿ٱلۡخَلۡقِ﴾ ودلالتها:

الخَلْقُ كلُّهم محلُّ رعايةِ الله، وواجبُهمُ الإيمانُ بالله

(أل) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡخَلۡقِ﴾ للجِنس؛ أي: اسْتغراقِ الخَلقِ بعمومِه ممّا يتناولُ جميعَ المخلوقات: الإنس والجنّ والحيوانات والسّماوات السَّبع، وكلّ شيءٍ تتناولُه كلمةُ الخَلْق؛ ذلك أنَّ قولَه: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾؛ لأنَّكم مخلوقاتُنا جميعُكم، فنحنُ نعاملُكم بوصفِ الرُّبوبيَّة، وفي ذلك تنبيهٌ على وجوبِ الشُّكرِ على الخَلْق، والإقلاعِ عن الكُفْر[3]، ويجوزُ أن تكونَ (أل) للعَهْدِ، على أنَّ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27 - 28.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.

المُرادَ بالخَلْقِ المخلوقُ المذكور، وهو السّماوات السَّبع؛ أيْ: نحفظُها عن الزَّوالِ والاخْتلالِ ونُدبِّـرُ أمرَها[1].

نكتةُ تقديمِ شِبْهِ الجملةِ على الخبر:

أهميَّةُ الخلقِ عندَ خالقِهم، وتـمـامُ رعايتِه لهم

تقدَّمَ شِبْهُ الجُملة ﴿عَنِ ٱلْخَلْقِ﴾ على خبر الكون ﴿غَٰفِلِينَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ للتَّنبيهِ على أهميَّةِ الخَلْقِ عند خالقِهم ، وأنَّهم في رعايتِه، فهو يعاملُهم بوصفِه الرَّبّ الَّذي يُربّي عبادَه بما يُصلحُ شؤونَهم ويرعَى مصالحَهم، وفي هذا إشارةٌ واضحةٌ إلى ضرورةِ معاملةِ الخَلْقِ خالقَهم بالشُّكرِ والإقلاعِ عنِ الكفر[2]، وكذلك كيف يُظنُّ أنَّ الخالقَ يترك الخَلْقَ بعد موتِهم سُدى، مع أنَّ فيهم المطيعَ الَّذي لم يوفِّه ثوابَه، والعاصيَ الَّذي لم يُنزِلْ به عقابَه؟! أم كيف لا يقدرُ على إعادتِهم إلى ما كانوا عليه بعدَ ما قدَرَ على إبداعِهم ولم يكونوا شيئًا مذكورًا؟![3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ مادَّةً وصيغة:

انـتـفـاءُ تـركِ الـخَـلْـقِ دون رعـايـةِ الـلـهِ وحفظِه

الغفلةُ: سهوٌ يعتري الإنسانَ من قلّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ[4]، وهذا المعنَى يُنزِّهُ اللّهُ عنه، والتَّعبيرُ بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ هنا في السّياق يعني: (ما كنّا مُهملينَ لخَلْقِنا ساهينَ عن حفظِه من أن تقعَ فوقَهم السّماوات؛ بل نجعلُها مصدرَ رزقِهم ونفعِهم بها بأنواعِ المنافعِ العظيمةِ المختلفة)[5].

وفي التعبير بـ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ تعريض بغفلة مُنكري البعث وغيره مما يتعلّق بالساعة - عن كمالات اللّه تعالى - كمالات جلاله وجماله، فمَن أنكر قدرة اللّه على البعث كمَنْ أنكر أنّه ليس الخالق لهذا الخلق.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.

(3) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 120.

(4) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غفل).

(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

وصيغةُ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ على وزنِ (فاعلينَ) تقتضي الحدوث؛ أيْ: ما كنّا عن الخَلْقِ بمُحدِثينَ ما يضرُّهم ويوقِعُهم في الحرَجِ وانْتفاءِ المنافع.

وإن كان موقعُ ﴿غَٰفِلِينَ﴾ خبرًا لاسْمِها المَنفيِّ مع تمامِ جُملتِها يدلُّ على الثُّبوت؛ أيْ: ثبوتِ انْتفاءِ الغَفْلةِ عن الخَلْق.

بلاغةُ الكنايةِ في نَفْيِ الغَفْلة:

نَفْيُ الغَفلةِ في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ كنايةٌ عن العنايةِ والملاحظة، فأفادَ ذلكَ أنَّ في خَلْقِ الطَّرائقِ السَّماويةِ لما خُلِقتْ له لُطفًا بالنّاس أيضًا؛ إذْ كان نظامُ خَلْقِها صالحًا لانْتفاعِ النّاسِ به في مواقيتِهم وأسفارِهم في البَرِّ والبحر، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ﴾ [الأنعام: 97]؛ فصار المعنَى: خلَقْنا فوقَكم سبعَ طرائقَ لحكمةٍ لا تعلمونَها، وما أهْمَلْنا في خَلْقِها رَعْيَ مصالحِكم أيضًا[1].

نَفْيُ الغَفْلةِ عن الخَلْقِ؛ كمالُ العنايةِ بهم

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ في ختامِ الآية:

جاءَ الإظهارُ في موضعِ الإضمارِ - في ختامِ الآيةِ - من قولِه تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ﴾ دون أن يُقال: (وما كُنّا عنكم غافلينَ)؛ لما يُفيدُه المُشتقُّ من معنَى التَّعليل؛ أيْ: ما كُنّا غافلين؛ لأنَّكم مخلوقاتُنا، فنحن نعاملُكم بوصفِ الرُّبوبيَّة، وفي ذلك تنبيهٌ على وجوبِ الشُّكرِ والإقلاعِ عن الكفر[2]، في مقابلِ الاعْتناءِ الفائقِ بشأنِكم والقيامِ الدّائمِ برعايتِكم وحفظِكم في جميعِ أحوالِكم[3].

اللهُ تعالى يعاملُ الخلْقَ بوصفِ الرُّبوبيَّةِ ومن واجبِهم الإيمانُ والشُّكر

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الغَفْلة واللهو والسَّهْو:

لَهى عن الشَّيء تركَه سهوًا أو تشاغُلًا، وأصلُه من اللهْوِ؛ وهو ميلُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 27 - 28.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 28.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

الغَفْلةُ أعمُّ من السَّهْوِ واللّهْو، والأخيرُ يكون مع اللَّعِب والانْشغالِ عمّا يَعْني ويُفيد

الانْفعالِ والمطاوعة، واللهوُ: ما يشغَلُ الإنسانَ عمّا يَعْنيه(1)، ولا لهوَ إلّا لَعِبٌ؛ أي: اللهْوُ لعِبٌ لا يعقبُ نفعًا، وسُمّيَ لَهْوًا؛ لأنَّه يشغلُ عمّا يعني، من قولِهم: ألْهاني الشَّيءُ؛ أيْ: شَغَلني، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ١﴾ [التّكاثر: 1].

والغَفْلَةُ: سَهْوٌ يَعْتري الإنسانَ من قلَّةِ التَّحفُّظِ والتَّيقُّظ، وأغْفلَ الشَّيءَ: تركه على ذُكْرٍ له، قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾ [ق: 22]، والغَفْلَةُ تكون عمّا يكون، تقول: غَفَلت عن هذا الشَّيءِ حتَّى كان، فيجوزُ أن تغفُلَ عنه ويكون، والغَفْلَةُ تكونُ عن فعلِ الغير، تقول: كنتُ غافلًا عمّا كان من فلان، والغفلةُ: عدمُ حضورِ الشَّيء في البالِ بالفعل.

والسَّهْوُ: عدمُ التَّفطُّنِ للشَّيءِ مع بقاءِ صورته أو معناهُ في الخيال، أو الذِّكرِ بسببِ اشْتغالِ النَّفْسِ والتفافِها إلى بعضِ مهمّاتِها، والسَّهْوُ يكون عمّا لا يكون، لا تقولُ: سَهوْتُ عنه حتَّى كان؛ لأنَّك إذا سَهَوْتَ عنه لم يكن، ولا يجوزُ أن يكونَ السَّهوُ عن فعلِ الغيرِ كالغفلةِ الَّتي تكونُ عن فعلِ الغير.

وبهذا تكونُ الغفلةُ أعمَّ من السَّهْوِ، ولَمّا كان ذلك من لواحقِ القوى الإنسانيَّة كان مسلوبًا عن الملائكة(2).

---

(1) العسكريّ، الفروق، ص: 470، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 204.

(2) العسكريّ، الفروق، ص: 388 - 389، والرّاغب، المُفردات: (غفل، سها)، والكفويّ، الكلّيّات: 3/ 25، 26، 143، والجُرجانيّ، التَّعريفات، ص: 260.

﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَإِنَّا عَلَىٰ
ذَهَابِۢ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ ١٨ فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ
وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ
تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ ٢٠﴾

[المؤمنون: 18 - 20]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

علاقةُ ذكر بعضِ دلائلِ قُدرةِ الله تعالى على الخلق، بمنافع الغيث النّازلِ من السَّماء

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها: فهي أنَّهُ بعدَ أنْ ذكرَ اللّهُ تعالى مِنْ دلائلِ قُدرتِهِ خَلْقَ الإنسانِ وخَلْقَ السَّماواتِ السَّبْعِ - ذكرَ إنزالَ الماءِ مِنَ السَّماءِ، فقالَ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ الآيةَ(1).

وقيلَ: مناسبةُ عطفِ إنزالِ ماءِ المطرِ على جملةِ ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ الآيةَ [المؤمنون: 17]: أنَّ ماءَ المطرِ ينزلُ مِنْ جهةِ السَّماءِ(2).

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى: فهي أنَّهُ سبحانَهُ لمّا نبَّهَ على عظيمِ نعمتِهِ بخَلْقِ الماءِ ذكرَ بعدَهُ النِّعَمَ الحاصلةَ مِنَ الماءِ، فقالَ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ الآيةَ(3).

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّالثةِ للثّانيةِ: فهي أنَّهُ لمّا ذكرَ سبحانَهُ ما إذا عُصِرَ كانَ ماءً لا ينفعُ للاصطباحِ - أتبعَهُ ما إذا عُصِرَ كانَ دُهْنًا يعمُّ الاصطباحَ والاصطباغَ، وفصلَهُ عنهُ؛ لأنَّهُ أدلُّ على القُدرةِ، فقالَ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾(4).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 120.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 554، ومحيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 153.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِقَدَرٖ﴾، ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، فالقَدْرُ: مَبْلَغُ كلِّ شيءٍ، يقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: مَبْلَغُهُ، والقَدْرُ والقَدَرُ: قضاءُ اللّٰهِ سبحانَهُ الأشياءَ على مَبالغِها ونهاياتِها الَّتي أرادَها لها[1]، ويقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللّٰهِ ومِقْدارِهِ وتقديرِهِ وأقدارِهِ ومَقاديرِهِ[2]، والأقدرُ مِنَ الخَيْلِ: الَّذي تقعُ رِجْلاهُ مَواقعَ يديهِ، كأنَّ ذلكَ قدَّرَهُ تقديرًا، والتَّقديرُ: تبْيِينُ كمّيَّةِ الشَّيءِ[3].

والقادر: يُقال: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[4]، ويقالُ: قَدَرَ على الشَّيءِ قُدْرَةً، فهو قادرٌ[5]، والقُدرةُ إذا وُصِفَ بها الإنسانُ فهي اسمٌ لهيئةٍ لهُ يتمكَّنُ بها مِنْ فعلِ شيءٍ ما، وإذا وُصِفَ اللّٰهُ تعالى بها فهي نَفْيُ العَجْزِ عنهُ، ولا يوصَفُ غيرُ اللّٰهِ سبحانَهُ بالقُدرةِ المُطلَقةِ[6].

2) ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾: (سكن) أصلٌ واحدٌ مطّردٌ يدلُّ على خلافِ الاضطرابِ والحركةِ[7]، واستقرارٍ في جوفِ حيِّزٍ أو باطنٍ[8]، فالسُّكونُ: ثبوتُ الشَّيءِ بعدَ تحرُّكٍ[9]، أو ثبوتُهُ مِنْ غيرِ نظرٍ إلى حركةٍ سابقةٍ[10]، ويُستعمَلُ في الاستيطانِ، نحوُ: سكنَ فلانٌ مكانَ كذا، أي: استوطنَهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ تنبيهٌ منهُ على إيجادِهِ وقُدرتِهِ على إفنائِهِ، والسَّكَنُ: السُّكونُ وما يُسكَنُ إليهِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا﴾ [النحل: 80].

3) ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾: (نشأ) أصلٌ يدلُّ على ارتفاعٍ في الشَّيءِ وسُموٍّ، فيقالُ: نشأ السَّحابُ، إذا ارتفعَ، وأنشأَهُ اللّٰهُ: رفعَهُ، وقولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ﴾ [المزمل: 6] يُرادُ بها القيامُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (قدر).
(3) الراغب، المفردات: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قدر).
(5) الخليل، العين: (قدر).
(6) الراغب، المفردات: (قدر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سكن).
(8) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سكن).
(9) الخليل، العين: (سكن).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).

والانتصابُ للصَّلاة[1]، والنَّشْءُ والنَّشْأةُ والإنشاءُ: إحداثُ الشَّيءِ وتربيتُه، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62][2]، والإنشاءُ الاختراعيُّ غيرُ المسبوقِ بمِثالٍ لا يليقُ إلّا بالباري ﷻ[3].

4) ﴿نَّخِيلٍ﴾: (نخل) أصلٌ يدلّ على انتقاءِ الشَّيءِ واختيارِه، يقالُ: انتخلتُهُ، أي: انتقيتُهُ، وأخذتُ خيارَهُ، والنَّخْلُ: نَخْلُكَ الدَّقيقَ بالمُنْخَلِ، وسُمّيَ شَجَرُ النَّخْلِ بذلك؛ لأنَّهُ أشرفُ كلِّ شَجَرٍ ذي ساقٍ[4]، وقد يُستعمَلُ في الواحدِ والجمعِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠﴾ [القمر: 20]، وقالَ: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: 7][5].

5) ﴿وَأَعْنَٰبٍ﴾: (عنب) أصلٌ يدلُّ على ثَمَرٍ معروفٍ[6]، وهو يقالُ لثَمَرةِ الكَرْمِ، وللكَرْمِ نفسِه، والواحدةُ: عِنَبةٌ، وجمعُهُ: أعنابٌ وعِنَبٌ، قالَ تعالى: ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ [النحل: 67]، وقالَ: ﴿أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ﴾ [الإسراء: 91][7].

6) ﴿طُورِ سَيْنَآءَ﴾: (طور) أصلٌ يدلُّ على امتدادٍ في شيءٍ مِنْ مكانٍ أو زمانٍ[8]، ولذلكَ يقالُ: عَدا طَوْرَهُ، أي: جازَ الحدَّ الَّذي هو لَهُ مِنْ دارِه، ثمَّ استُعيرَ ذلكَ في كلِّ شيءٍ يتعدَّى، ويقالُ: فعلَ ذلكَ طَوْرًا بعدَ طَوْرٍ، كأنَّهُ فعلَهُ مدَّةً بعدَ مدَّةٍ[9]، والطّورُ: قيلَ: هو اسمٌ لكلِّ جبلٍ، وقيلَ: اسمٌ لجبلٍ مخصوصٍ[10]، وطورُ سَيْناءَ: جبلٌ معروفٌ بالشّامِ، قالَ جلَّ وعزَّ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾[11].

7) ﴿تَنۢبُتُ﴾: (نبت) أصْلٌ يَدُلُّ على نَماءٍ في مزروعٍ[12]، فالنَّبْتُ والنَّباتُ: ما يخرجُ مِنَ الأرضِ مِنَ النّامياتِ، سواءٌ كانَ لهُ ساقٌ كالشَّجَرِ، أو لم يكنْ لهُ ساقٌ كالنَّجْمِ، ويُستعمَلُ في

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ).
(2) الراغب، المفردات: (نشأ).
(3) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سكن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نشأ)، والزبيدي، تاج العروس: (نخل).
(5) الراغب، المفردات: (نخل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نخل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عنب).
(7) الراغب، المفردات: (عنب).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّل: (طور).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (طور)، والراغب، المفردات: (طور).
(10) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (طور).
(11) الراغب، المفردات: (سين)، والزبيدي، تاج العروس: (طور).
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نبت)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّل: (نبت).

كلِّ نامٍ، نباتًا كانَ أو حيوانًا أو إنسانًا، والإنباتُ يُستعمَلُ في كلِّ ذلكَ، قالَ تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا حَبّٗا ٢٧ وَعِنَبٗا وَقَضۡبٗا ٢٨ وَزَيۡتُونٗا وَنَخۡلٗا ٢٩ وَحَدَآئِقَ غُلۡبٗا ٣٠ وَفَٰكِهَةٗ وَأَبّٗا ٣١﴾ [عبس: 27 - 31][1]، ويقالُ: نَبَتَ فلانٌ في مَنْبَتِ صِدْقٍ، وفي أكرمِ المَنابتِ[2]، وقولُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾ معناهُ: تَنْبُتُ حاملةً للدُّهْنِ، أي: تَنْبُتُ والدُّهْنُ موجودٌ فيها بالقوَّة[3].

8) ﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾: (دهن) أَصْلٌ واحدٌ يدلُّ على لينٍ وسُهولةٍ وقِلَّةٍ، ومِنْ ذلكَ الدُّهْنُ[4]، قالَ سبحانَهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾، وجمعُ الدُّهْنِ: أدهانٌ[5]، والدِّهانُ: ما يُدْهَنُ بهِ، قالَ اللّهُ سبحانَهُ: ﴿فَكَانَتۡ وَرۡدَةٗ كَٱلدِّهَانِ ٣٧﴾ [الرحمن: 37]، قيلَ: هو دُرْديُّ الزَّيْتِ، والمُداهَنةُ: المُصانَعةُ، يقالُ: داهَنْتُ الرَّجلَ، إذا وارَبْتَهُ وأظهرتَ لهُ خلافَ ما تُضْمِرُ لهُ، كأنَّهُ إذا فعلَ ذلكَ فهو يَدْهَنُهُ ويُسَكِّنُ منهُ[6]، ويقالُ: دَهَنَ المطرُ الأرضَ: بلَّها بَلًّا يسيرًا، كالدُّهْنِ الَّذي يُدْهَنُ بهِ الرَّأسُ[7]، وقولُهم: دَهَنَهُ بالعَصا: كنايةٌ عنِ الضَّربِ على سبيلِ التَّهكُّمِ، كقولِهم: مَسَحْتُهُ بالسَّيفِ، وحيَّيْتُهُ بالرُّمْحِ[8].

9) ﴿وَصِبۡغٖ﴾: (صبغ) أصلٌ يدلُّ على تلوينِ الشَّيءِ بلونٍ ما، تقولُ: صَبَغْتُهُ أصبغُهُ صَبْغًا[9]، والصِّبْغُ والصِّبْغةُ: ما يُصْبَغُ بهِ[10]، والصِّبْغُ: المصبوغُ، وقولُهُ سبحانَهُ: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138] إشارةٌ إلى ما أوجدَهُ اللّهُ تعالى في النّاسِ مِنَ العقلِ المميِّزِ عنِ البهائمِ، وقولُهُ تعالى: ﴿وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ يعني: أنَّ الزَّيتَ مُصطبَغٌ بِهِ للأكلِ بمنزلةِ الإدامِ، وذلكَ مِنْ قولِهم: اصطبغتُ بالخلِّ[11].

---

(1) الراغب، المفردات: (نبت)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبت).
(2) الزمخشري، أساس البلاغة: (نبت).
(3) الراغب، المفردات: (نبت)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نبت).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دهن).
(5) الراغب، المفردات: (دهن).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دهن).
(7) الزمخشري، أساس البلاغة: (دهن).
(8) الراغب، المفردات: (دهن).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صبغ)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (صبغ).
(10) الجوهري، الصحاح: (صبغ).
(11) الراغب، المفردات: (صبغ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صبغ).

المَعنى الإجْماليُّ:

يُخبِرُ اللّهُ ﷻ عن بعضِ نِعَمِهِ الَّتي أنعمَ بها على عِبادِهِ في المَطاعم والمَشارب، فيقولُ: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ مُعيَّنٍ على وفْقِ ما اقتضَتْهُ حِكْمَتُنا، فأسكنّاهُ في الأرضِ، وإنّا على أنْ نذهبَ بالماءِ الَّذي أسكنّاهُ في الأرضِ وأنْزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ لقادرونَ، فتَهْلِكوا أيُّها النّاسُ عَطَشًا، وتَخْرَبَ أرضُكم، فلا تُنْبِتَ زَرْعًا ولا غَرْسًا، وتَهْلِكَ مَواشيكم.

نِعَمُ اللهِ بالماءِ، وما ينبتهِ من فواكهَ وثمارٍ، ومنها الزّيتون مأكولًا ودهنًا

ثمَّ يُخبِرُ ﷻ عن بعضِ ما أنبتَهُ بهذا الماءِ، فيقولُ: فأحدَثْنا لكُم بالماءِ الَّذي أنزَلْناهُ مِنَ السَّماءِ بساتينَ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، لكُم في الجنّاتِ فواكهُ كثيرةٌ، ومِنَ الجنّاتِ تأكلونَ، وأنشَأْنا لكُم أيضًا شجرةً مباركةً تَخْرُجُ مِنْ طورِ سَيْناءَ، وهي شجرةُ الزَّيتونِ، فيها منافعُ لكُم في الأكلِ مِنْ ثمارِها، والائتدامِ بزَيْتِها[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ (الواوِ) في قولِهِ تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾:

أثرُ وصلِ الجملِ في ترسيةِ المعنى وتكامله

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، ومناسبةُ هذا العطفِ: أنَّ ماءَ المطرِ ينزلُ مِنْ جهةِ السَّماءِ، وفي إنزالِ ماءِ المطرِ دلالةٌ على سَعَةِ العِلمِ ودقيقِ القُدرةِ، وفي ذلكَ أيضًا مِنَّةٌ على الخَلْقِ[2].

نكتةُ إسنادِ الإنزالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

إنزالُ الماءِ مِنَ السَّماءِ سببٌ للحياةِ ومظهرٌ للإنباتِ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ في قولِ اللهِ علَتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ إلى نونِ العظَمةِ؛ لتعظيمِ شأنِ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ؛ لأنَّ فيهِ دلالةً على سَعَةِ العِلمِ ودقيقِ القُدرةِ[3].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 20 - 21.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 28.

ولا يَقدِرُ عليه إلّا ذو العظَمةِ والجلالِ تقدَّسَتْ آلاؤُه، والمعنَى: وأنزَلْنا بعظَمتِنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ، فأسكنّاهُ في الأرضِ(1).

سرُّ التَّعبيرِ بالفعْلِ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾ ماضيًا:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾؛ لدلالةِ الماضي على تحقُّقِ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ وحصولِه، وذلكَ أنسبُ بمقامِ بيانِ عظيمِ قُدرتِه ﷻ، وأوفقُ بمقامِ الامتنانِ على العِبادِ؛ لأنَّ الامتنانَ بنِعْمةٍ حاصلةٍ كائنةٍ، وفيهِ أيضًا ملاءمةٌ لصيَغِ الماضي الواردةِ في الآياتِ السّابقةِ في قولِه تبارك شأنُهُ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وقولِه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلۡخَلۡقِ غَٰفِلِينَ ١٧﴾ [المؤمنون: 17]، وفي الآياتِ اللّاحقةِ، كما في قولِه: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾.

بيانُ أنَّ صيغةَ الماضي تلائم ما في السّياق من صيغ الماضي

معنى ﴿مِنَ﴾ في شبه الجملة ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

﴿مِنَ﴾ في قولِ اللهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ ابتدائيَّةٌ مُتعلِّقةٌ بـ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾(2)، والمعنَى: وأنزَلْنا ابتداءً مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ، فأسكنّاهُ في الأرضِ.

الماءُ ينزل مِنَ السَّماءِ بقدرٍ؛ ليحييَ الأرض وينفع البشر

المرادُ بالسَّماءِ في قولِهِ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

اختُلِفَ في المرادِ بالسَّماءِ في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾:

فقيلَ: إنَّهُ تعالى يُنزِلُ الماءَ في الحقيقةِ مِنَ السَّماءِ المعروفةِ، وهو الظّاهرُ مِنَ اللَّفظِ، ويُؤَكِّدُهُ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ٢٢﴾ [الذاريات: 22].

السَّماءُ سقفٌ مرفوع، لتنزُّل عطاء الله اللّامقطوع

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.

وقيلَ: المرادُ: السَّحابُ، وسمّاهُ سماءً لعُلوِّه[1].

وقيلَ: المرادُ بالسَّماءِ: جهةُ العُلوِّ[2].

بلاغةُ العُدولِ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ:

السَّماءُ جهة العلوّ الدّالّة على العظمة والسُّموّ

على القولِ بأنَّ المرادَ بالسَّماءِ السَّماءُ المعروفةُ، كما هو الظّاهرُ يكونُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾ عُدولٌ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ، حيثُ لم يُقلْ: (وأنزَلْنا منها ماءً بقَدَرٍ)، أي: مِنَ الطَّرائقِ المذكورةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعَ طَرَآئِقَ﴾ [المؤمنون: 17]، والطَّرائقُ السَّماواتُ، وفائدةُ هذا العُدولِ أنَّ الإنزالَ لا يُعتبَرُ فيهِ عُنوانُ كونِها طرائقَ، بل مُجرَّدُ كونِها جهةَ العُلوِّ[3].

وقيلَ: العُدولُ؛ لأنَّ الإنزالَ مِنْ هذهِ السَّماءِ فقطْ لا مِنَ السَّماواتِ جميعًا[4].

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

مناطُ التَّقديم الاعتناءُ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ على المفعولِ الصَّريحِ، في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾؛ لِما في هذا التَّقديمِ مِنَ الاعتناءِ بالمُقدَّمِ والتَّشويقِ إلى المُؤخَّرِ[5]؛ لأنَّهُ يُقدَّمُ في الكلامِ ما هو مَحَلُّ العِنايةِ، لا سيَّما والمقامُ مقامُ بيانِ كمالِ قُدرتِهِ ﷻ على إنزالِ الماءِ بقَدَرٍ مخصوصٍ مِنَ السَّماءِ الَّتي هي الغايةُ في البُعْدِ والارتفاعِ، وفي التَّأخيرِ تشويقٌ إلى المُؤخَّرِ وتهيئةٌ للنَّفسِ لِتلَقّيهِ، فإذا وردَ عليها تمكَّنَ فيها فضلَ تمكُّنٍ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَآءَۢ﴾:

بيانُ أنَّ الاختلافَ في دلالة اللّفظ دليلٌ على اتّساع المعنى المراد

اختُلِفَ في المرادِ بالماءِ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾:

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 268، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.
(4) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 370.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 220.

فقيلَ: المرادُ بِهِ المطرُ[1]، وقيلَ: المرادُ الأنهارُ الخمسةُ: سَيْحانُ وجَيْحانُ ودجلةُ والفُراتُ والنّيلُ، أنزلَها اللّهُ تعالى مِنْ عَيْنٍ واحدةٍ مِنْ عُيونِ الجنَّةِ، فاستودعَها الجبالَ، وأجراها في الأرضِ، وجعلَ فيها منافعَ للنّاسِ في فُنونِ مَعايشِهم[2].

وقيلَ: الصَّوابُ أنَّ هذا كلَّهُ داخلٌ تحتَ الماءِ الَّذي أنزلَهُ اللّٰه تعالى مِنَ السَّماءِ[3].

وبناءً على هذهِ الأقوالِ يكونُ تنكيرُ ﴿مَآءَۢ﴾ للتَّبعيضِ؛ إذ لم يَنْزِلْ ماءُ البِحارِ مثلًا مِنَ السَّماءِ.

وعلى القولِ بأنَّ المرادَ ماءُ المطرِ يحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً عظيمًا عجيبَ الشَّأنِ، وهو المطرُ.

سرُّ تعدُّدِ المعنى في لفظ ﴿بِقَدَرٍ﴾:

تـعـدُّدُ تـأويـل المعاني مبينٌ عن المراد من السّياق

يحتملُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٍ﴾ أنْ يكونَ معناهُ: بتقديرٍ يَسْلَمونَ معَهُ مِنَ المَضَرَّةِ، ويَصِلونَ إلى المَنْفَعةِ[4]، أي: بقَدَرِ ما يَسْقي الزُّروعَ والأشجارَ، ويُحيي البَراريَ والقِفارَ، وما تحتاجُ إليهِ البِحارُ ممّا تصبُّ فيها الأنهارُ؛ إذ لو كانَ فوقَ ذلكَ لأغرقتِ البِحارُ الأقطارَ، ولو كانَ دونَ ذلكَ لَأدَّى إلى جفافِ النَّباتِ والأشجارِ[5]، وعلى هذا يكونُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ صفةَ ﴿مَآءَۢ﴾ أو حالًا مِنَ الضَّميرِ[6].

ويحتملُ أنْ يكونَ معناهُ: بمِقْدارِ ما عَلِمْنا مِنْ صلاحِهم[7]، وعلى هذا يكونُ ﴿بِقَدَرٍ﴾ صِلَةً لـ ﴿وَأَنزَلۡنَا﴾[8].

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 463، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 127.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 127.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.
(6) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 323.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(8) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 323.

بلاغةُ التَّعبيرِ بشبه الجملة: ﴿بِقَدَرٖ﴾:

ملمحُ حمْلِ المعنى على الصَّريحِ والكنايةِ مفيدٌ في البيان

قيلَ: معنى القَدَرِ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾: التَّقديرُ والتَّعيينُ للمِقْدارِ في الكَمِّ وفي النَّوْبة، فيصحُّ أنْ يُحمَلَ على صريحِه، أي: بمِقْدارٍ مُعيَّنٍ مُناسِبٍ للإنعام به؛ لأنَّهُ إذا أُنزِلَ كذلك حصلَ بهِ الرّيُّ والتَّعاقبُ، وكذلكَ ذَوبانُ الثُّلوجِ النّازلة، ويصحُّ أنْ يُقصَدَ معَ ذلكَ الكنايةُ عنِ الضَّبْطِ والإتقانِ(1).

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿بِقَدَرٖ﴾:

التَّنكيرُ مبينٌ عن تنوُّع بيان الألفاظ، ودقَّة استعمالها

يحتملُ تنكيرُ ﴿بِقَدَرٖ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾، أنْ يكونَ للنَّوعيَّة، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ مُعيَّن، وهو ما يكونُ فيهِ النَّفْعُ، ولا تحصلُ بهِ المَضَرَّةُ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيم، أي: وأنزَلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً بقَدَرٍ بديعٍ عظيمِ الشَّأنِ؛ إذ لا يعلمُ مِقْدارَ حاجةِ العبادِ إلّا ربُّ العبادِ ﷻ.

دلالةُ الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾:

الاستدلالُ بإسكان الماء على قدرة ربِّ الأرض والسَّماء

الفاءُ في قولِ اللّهِ جلَّ وعزَّ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للعطفِ، فتفيدُ عطفَ هذهِ الجملةِ على جملةِ قولِه تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾، فيكونُ كلٌّ مِنْ إنزالِ الماءِ مِنَ السَّماءِ، وإسكانِهِ في الأرضِ داخلًا في الاستدلالِ على عظيمِ قُدرتِهِ ﷻ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِه: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾:

إفادةُ التَّحقُّقِ، وملاءمةُ المعطوفِ عليهِ من فصيحِ البيان

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على أنَّ إسكانَ الماءِ في الأرضِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضى، فهو مُشاهَدٌ محسوسٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه، وفي التَّعبيرِ بهذهِ الصّيغةِ أيضًا ملاءمةٌ للمعطوفِ عليه، وهو قولُه جلَّ شأنُه: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾؛ فإنَّ مِنْ مُحسِّناتِ الوصلِ بينَ الجملِ توافُقَها في الصّيغة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

نكتةُ إسنادِ الإسكانِ إلى نونِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ إسكانِ الماءِ في الأرضِ، لعجزِ غيرِ اللهِ عن فعلِهِ

أُسنِدَ الفعلُ ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ إسكانِ الماءِ في الأرضِ بحيثُ يَبْقَى مُنتفَعًا بهِ؛ فذلكَ ممّا لا يَصدُرُ إلّا عن كمالِ القُدرةِ ونهايةِ العظَمةِ، والمعنى: فأسكنّاهُ بعظَمتِنا في الأرضِ، بعضُهُ على ظَهْرِها، وبعضُهُ في بَطْنِها[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِهِ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ﴾:

الإسكانُ إقرارٌ في الأرضِ، تتجلّى فيه قدرة الله تعالى

في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، بيانُها: أنَّ الإسكانَ في الأصلِ: جعلُ الشَّيءِ في مَسْكَنٍ، والمَسْكَنُ: مَحَلُّ القرارِ، وأُطلِقَ الإسكانُ على الإقرارِ في الأرضِ على طريقِ الاستعارةِ، حيث شُبِّه إقرارُ الماءِ في الأرضِ بالسُّكنى، وذلك لكمالِ التّوطّنِ، حيث إنّ ذلكَ الإقرارَ على نوعينِ: إقرارٍ قصيرٍ، كإقرارِ ماءِ المطرِ في القِشْرةِ الظّاهرةِ مِنَ الأرضِ عَقِبَ نُزولِ الأمطارِ على حسَبِ ما تقتضيهِ غَزارةُ المطرِ ورخاوةُ الأرضِ وشدَّةُ الحرارةِ أو شدَّةُ البَرْدِ، وهو ما يُنْبَتُ به النَّباتُ في الرَّبيعِ، وتمتصُّ منهُ الأشجارُ بعُروقِها، فتُثمِرُ إثمارَها، وتخرجُ بِهِ عُروقُ الأشجارِ وأصولُها مِنَ الأرضِ.

ونوعٍ آخرَ هو إقرارٌ طويلٌ، وهو إقرارُ المياهِ الَّتي تنزلُ مِنَ المطرِ، وعن ذَوْبِ الثُّلوجِ النّازلةِ، فتتسرَّبُ إلى دواخلِ الأرضِ، فتنشأُ منها العُيونُ الَّتي تنبُعُ بنفسِها أو بالحَفْرِ للآبارِ[2].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الأرضُ وعاءٌ للماءِ المُنْزَلِ مِنَ السَّماءِ للإنباتِ والحياةِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ على أنَّ مَقرَّ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

هو الأرضُ، فمنهُ الأنهارُ والعُيونُ والآبارُ[1]، والأرضُ مُشتمِلةٌ عليهِ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، فسُبحانَ القادرِ العظيمِ جلَّ وعزَّ!

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

الإسكانُ المعهودُ للماء، ضمانٌ لانبعاث الحياة واستمرارها

اللّامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ للعهدِ، والمرادُ: فأسكنّاهُ في الأرضِ المعهودةِ الَّتي يعيشُ على ظَهرِها النّاسُ، وهذا مِنْ تمامِ نعمةِ اللّهِ ﷻ، حيثُ جعلَ الماءَ بالقُرْبِ منهُم، وفي مُتناوَلِهم.

بلاغةُ التَّقابُلِ في الآيةِ الكريمة:

مدلولُ مقابلةِ السَّماءِ بالأرضِ، والإنزالِ بالإسكانِ

في قولِه ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ مقابلةٌ لطيفةٌ، حيثُ قوبِلَتِ السَّماءُ الَّتي هي الغايةُ في الارتفاعِ بالأرضِ الَّتي هي الغايةُ في الانخفاضِ، وهذا من طباق الإيجاب، وقوبِلَ الإنزالُ الَّذي فيهِ حركةٌ وانتقالٌ بالإسكانِ الَّذي فيهِ ثَباتٌ وقرارٌ.

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَإِنَّا﴾ و﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

تنوُّعُ معاني العبارةِ، منبئٌ أنَّ الإعرابَ فرعٌ عن المعنى

قولُهُ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ حالٌ[2]، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بهِ بالإفسادِ أوِ التَّصعيدِ أوِ التَّعميقِ بحيثُ يتعذَّرُ استنباطُهُ - لقادرونَ كما كنّا قادرينَ على إنزالِهِ[3].

وقيلَ: الجملةُ معترضةٌ بينَ الجملةِ السابقةِ وما تفرَّعَ عليها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾[4].

علَّةُ توالي المؤكِّداتِ في السّياق:

ملاءمةُ كثرةِ المؤكِّداتِ لمقامِ الإيعادِ، مبينٌ عن المراد

في قولِ اللّهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ إيعادٌ عظيمٌ بإذهابِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، وفي هذا الإيعادِ مبالغةٌ يقتضيها المقامُ؛ لأنَّ الآيةَ مَسوقةٌ بعدَ تعدادِ نِعَمِ الأنفسِ والآفاقِ،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 554.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.

واستجلابِ الشُّكرِ لها، والتَّحذيرِ مِنْ كُفْرانِها، ولذلكَ أُكِّدَتِ الجملةُ بأنواعٍ مِنَ المُؤكِّداتِ، حيثُ جيءَ بها اسميَّةً مُصدَّرةً بـ (إنَّ) مُؤكَّدةً باللّامِ، وقُدِّمَ فيها المعمولُ على العاملِ، وأُتيَ بصيغةِ الكِبْرياءِ والعظَمةِ، وبحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الاستصحابِ، أي: يأخذُهُ اللّٰهُ معَهُ، ويُمسِكُهُ عندَهُ، وما يُمسِكْ فلا مُرسِلَ لهُ مِنْ بَعْدِهِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ العظَمةِ في ﴿وَإِنَّا﴾:

تعظيمُ شأنِ الذَّهابِ بالماءِ، مفصحٌ عن قدرةِ اللهِ على الفعلِ

يدلُّ التَّعبيرُ بضميرِ العظَمةِ والكِبْرياءِ، وهو ضميرُ الجماعةِ في ﴿وَإِنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ - على تعظيمِ شأنِ الذَّهابِ بالماءِ الَّذي أنزلَهُ اللّٰهُ ﷻ مِنَ السَّماءِ، وأسكنَهُ في الأرضِ، والمعنَى: وإنّا بكِبْريائِنا وعظَمتِنا على ذهابٍ بهِ لقادرونَ، وهذا التَّعظيمُ يناسبُ مقامَ الإيعادِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بشبْهِ الجُملة: ﴿عَلَىٰ ذَهَابِۭ﴾:

معنى الاستعلاءِ على الذَّهابِ بالماءِ، منبئٌ عن طلاقةِ القدرةِ وعظمتِها

حرفُ الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ معَ مجرورِهِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ مُتعلِّقانِ بقولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾[2]، و﴿عَلَىٰ﴾ يدلُّ على الاستعلاءِ، فيفيدُ أنَّ الذَّهابَ بالماءِ مقهورٌ بقُدرةِ اللّٰهِ تعالى، وهي مُستعليةٌ عليهِ، ومُحيطةٌ بِهِ بحيثُ لا يَفوتُها.

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿ذَهَابِۭ﴾ في السّياق:

النَّكرةُ في الإثباتِ عامَّةٌ، على سبيلِ العُمومِ البَدَليِّ المبينِ

تنكيرُ ﴿ذَهَابِۭ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّتْ قُدرتُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، لتعظيمِ شأنِ الذَّهابِ وتفخيمِهِ، والمعنَى: على وجهٍ مِنْ وجوهِ الذَّهابِ بهِ، وطريقٍ مِنْ طُرُقِهِ، أي: ذهابٍ لا يُكتنَهُ كُنْهُهُ، ولا يُقادَرُ قَدْرُهُ، بحيثُ إنْ تُصوِّرَ أنْ ينقلبَ الماءُ إلى ضدِّهِ لجازَ ذلكَ، وفيهِ إيذانٌ باقتدارِ المُذهِبِ تعالى، وأنَّهُ لا يمتنعُ عليهِ شيءٌ إذا أرادَهُ[3].

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 222.

(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.

(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564.

وقيلَ: النَّكرةُ في الإثباتِ عامَّةٌ على سبيلِ العُمومِ البَدَليِّ، كالَّتي في النَّفْيِ للعُمومِ الشُّموليِّ، فحصلتِ المبالغةُ في الإثباتِ بذلكَ، كما حصلَتْ في النَّفْيِ، والمعنَى: نُذْهِبُهُ أيَّ إذهابٍ شِئْنا[1].

علَّةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ في قولِهِ: ﴿ذَهَابِۭ﴾:

ملمحُ التَّوصُّلِ بالمصدرِ إلى التَّنكيرِ المُفيدِ للتَّعظيمِ

عُبِّرَ بصيغةِ المصدرِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغةِ الفعلِ، فلم يُقَلْ: (وإنّا على أنْ نذهبَ بهِ لقادرونَ)؛ لِما في التَّعبيرِ بالمصدرِ مِنَ التَّوصُّلِ إلى التَّنكيرِ المُفيدِ للتَّعظيمِ المُناسبِ لمقامِ الإيعادِ.

نكتةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ في السّياقِ:

الاهتمامُ بالمُقَدَّمِ ومراعاةُ الفاصلةِ مقصدٌ مبين عن الدَّلالة

الجارُّ والمجرورُ ﴿عَلَىٰ ذَهَابِۭ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ مُتعلِّقانِ بقولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾[2]، وقد قُدِّما معَ ﴿بِهِۦ﴾ - المُتعلِّقِ بالمصدرِ - عليهِ؛ اعتناءً بهما، وتقويةً لمقامِ الإيعادِ[3]، ولِما في تأخيرِ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ مِنْ مراعاةِ ملاءمةِ فاصلةِ الآيةِ لِما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

معنى الباءِ في شبه الجملة: ﴿بِهِۦ﴾:

المبالغةُ في الإيعادِ من فصيحِ البيانِ المستفادِ

الباءُ الجارَّةُ في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ للاستصحابِ[4]، ويمكنُ أن تكونَ للتّعديةِ، وهي مرادفةٌ للهمزةِ، ومِثلُها الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ﴾ [البقرة: 20]، أي: وإنّا على إذهابِهِ لقادرونَ[5]، وفي التَّعبيرِ بها مبالغةٌ في مقامِ الإيعادِ والتَّخويفِ، إذِ المعنَى: أنَّ اللّه تعالى يأخذُ الماءَ معَهُ، ويُمسِكُهُ عندَهُ، وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لهُ مِنْ بعدِهِ[6]، ولا يَقْدِرُ أحدٌ على أخذِهِ وردِّهِ.

---

(1) أطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 370.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 325.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 564، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.

عَوْدُ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّميرُ راجعٌ للماءِ لإبرازِ مسلكِ القدرة في الذَّهاب به

ضميرُ ﴿بِهِۦ﴾ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ راجعٌ للماءِ المذكورِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ﴾، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بالماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ الَّذي أسكنّاهُ في الأرضِ لقادرونَ.

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾:

تعبيرُ السّياقِ عن قدرة الله تعالى الّتي لا يعجزها شيء

لامُ ﴿لَقَٰدِرُونَ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾، هي اللّامُ المُزحلَقةُ الواقعةُ في خبرِ ﴿وَإِنَّا﴾، وفي التَّعبيرِ بها زيادةُ مبالغةٍ وتأكيدٍ لمقامِ الإيعادِ والتَّخويفِ والإنذارِ؛ لأنَّ هذهِ اللّامَ يُؤتى بها لتوكيدِ مضمونِ الجملةِ المُثبَتةِ، وإزالةِ الشَّكِّ عن معناها المُثبَتِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ بالجمعِ:

المبالغةُ وملاءمةُ (وَإِنّا) مفيدةٌ في التَّعليل

في التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابِۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ دلالةٌ على القُدرةِ على الذَّهابِ بالماءِ، والفعلُ الواقعُ مِنَ القادرِ أبلغُ، وصيغةُ اسمِ الفاعلِ تدلُّ على دوامِ الاقتدارِ وثباتِهِ، فهو اقتدارٌ لا يعتريهِ عَجْزٌ في حالٍ مِنَ الأحوالِ، وفي جمعِ اسمِ الفاعلِ زيادةُ مبالغةٍ تلائمُ مقامَ الإيعادِ والتَّخويفِ[1]، والمعنَى: وإنّا على ذهابٍ بهِ لقادرونَ قُدرةً هي في نهايةِ العظَمةِ، فإيّاكم والتَّعرُّضَ لِما يُسْخِطُنا[2].

وأيضًا في التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ المجموعِ مراعاةٌ للتَّناسبِ اللَّفظيِّ بينَهُ وبينَ ﴿وَإِنَّا﴾، فكلٌّ منهما جمعٌ دالٌّ على الكِبْرياءِ والعظَمةِ.

دلالةُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ آيتي (المؤمنون والملك):

في هذهِ الآيةِ مبالغةٌ إيجابيَّةٌ مِنْ عدَّةِ وجوهٍ

في معنى هذهِ الآيةِ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ٣٠﴾ [الملك: 30]؛ ففي كلٍّ منهما تهديدٌ بإذهابِ الماءِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

وقد ذكرَ الزمخشريُّ أنَّ آيةَ سورة المؤمنون بليغة في الإيعادِ والتَّخويفِ[1]، وقد ذُكِرَ للأبلغيَّةِ ثلاثين وجهًا؛ خلاصتها: **الأوَّلُ**: أنَّ ذلكَ على الفَرْضِ والتَّقدير، وهذا على الجَزْمِ، على معنى أنَّهُ أدلُّ على تحقيقِ ما أوعدَ بهِ وإنْ لم يقعْ، **والثّاني**: التَّوكيدُ بـ (إنَّ)، **والثّالثُ**: اللّام في الخبرِ ﴿لَقَدِرُونَ﴾، **والرّابعُ**: أنَّ هذهِ في مُطلَقِ الماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ، وتلكَ في ماءٍ مُضافٍ إليهم، **والخامسُ**: أنَّ الغائرَ قد يكونُ باقيًا، بخلافِ الذّاهبِ، **والسّادسُ**: ما في تنكيرِ ﴿ذَهَابِۭ﴾ مِنَ المبالغةِ، **والسّابعُ**: إسنادُهُ هنا إلى مُذهِبٍ، بخلافهِ في موضع سورة الملك، حيثُ قيلَ: ﴿غَوْرًا﴾ [الملك: 30]، **والثّامنُ**: ما في ضميرِ المُعظِّم نفسَهُ مِنَ الرَّوعة، **والتّاسعُ**: ما في ﴿لَقَدِرُونَ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على القُدرةِ عليهِ، والفعلُ الواقعُ مِنَ القادرِ أبلغُ، **والعاشرُ**: ما في جمع ﴿لَقَدِرُونَ﴾ مِنَ المبالغةِ، **والحادي عشرَ**: ما في لفظ ﴿بِهِۦ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على أنَّ ما يُمسِكُهُ تعالى فلا مُرسِلَ لهُ مِنْ بعدِهِ، **والثّاني عشرَ**: إخلاؤُهُ مِنَ التَّعقيبِ بإطماعٍ، وهنالكَ ذُكِرَ الإتيانُ المُطمِعُ، **والثّالثَ عشرَ**: تقديمُ ما فيهِ الإيعادُ، وهو الذَّهابُ على ما هو كالمتعلِّقِ لهُ أو متعلَّقُهُ، **والرّابعَ عشرَ**: ما بينَ الجملتينِ الاسميَّةِ والفعليَّةِ مِنَ التَّفاوتِ ثباتًا وغيرَهُ، **والخامسَ عشرَ**: ما في لفظِ ﴿أَصْبَحَ﴾ [الملك: 30] مِنَ الدَّلالة على الانتقالِ والصَّيرورةِ، **والسّادسَ عشرَ**: أنَّ الإذهابَ هنا مُصرَّحٌ بهِ، وهنالكَ مفهومٌ مِنْ سياقِ الاستفهام، **والسّابعَ عشرَ**: أنَّ هنالكَ نفيَ ماءٍ خاصٍّ، وهو المَعينُ، بخلافهِ هنا، **والثّامنَ عشرَ**: اعتبارُ مجموعِ هذهِ الأمورِ الّتي يكفي كلُّ منها مُؤكِّدًا[2].

وزيدَ على الوجوهِ السّابقةِ:

التّاسعَ عشرَ: إخبارُهُ تعالى نفسِهِ بهِ مِنْ دونِ أمرٍ للغيرِ هنا، بخلافهِ هناكَ؛ فإنَّهُ سبحانَهُ أمرَ نبيَّهُ ﷺ أنْ يقولَ ذلكَ، **والعشرونَ**: عدمُ تخصيصِ مُخاطَبٍ هنا، وتخصيصُ الكفّارِ بالخطابِ هناكَ، **والحادي والعشرونَ**: التَّشبيهُ المُستفادُ مِنْ جعلِ الجملة حالًا؛ فإنَّهُ يُفيدُ تحقيقَ القُدرةِ، ولا تشبيهَ هناكَ، **والثّاني والعشرونَ**: إسنادُ القُدرةِ إليهِ تعالى مرَّتينَ، **والثّالثُ والعشرونَ**: تضمينُ الإيعادِ هنا إيعادَهم بالإبعادِ عن رحمةِ اللّهِ؛ لأنَّ (ذهبَ به) يستلزمُ مصاحبةَ الفاعلِ المفعولَ، وذهابُ اللّهِ تعالى عنهُم مَعَ الماءِ بمعنى ذهابِ رحمتِهِ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 30 - 31، نقلاً عن الفالي صاحب التقريب.

سبحانَهُ عنهُم ولَعْنِهم وطَرْدِهم عنها، ولا كذلكَ ما هناكَ، **والرّابعُ والعشرونَ**: أنَّهُ ليسَ الوقتُ للذَّهابِ مُعيَّنًا هنا، بخلافِهِ في ﴿إِنْ أَصْبَحَ﴾ [الملك: 30]؛ فإنَّهُ يُفهَمُ منهُ أنَّ الصَّيرورة في الصُّبحِ، **والخامسُ والعشرونَ**: أنَّ جهةَ الذَّهابِ بهِ ليسَتْ مُعيَّنةً بأنّها السُّفلُ، أي: ما دلَّ عليهِ لفظُ ﴿غَوْرًا﴾ [الملك: 30]، **والسّادسُ والعشرونَ**: أنَّ الإيعادَ هنا بما لم يُبْتَلَوْا بهِ قطُّ، بخلافِهِ بما هناكَ، **والسّابعُ والعشرونَ**: أنَّ الموعَدَ بهِ هنا إنْ وقعَ فهُم هالكونَ البتَّةَ، **والثّامنُ والعشرونَ**: أنَّهُ لم يَبْقَ هنا لهُم مُتشبَّثٌ ولو ضعيفًا في تأميلِ امتناعِ الموعَدِ بهِ، وهناكَ حيثُ أُسنِدَ الإصباحُ غَوْرًا إلى الماءِ، والماءُ لا يُصبِحُ غَوْرًا بنفسِهِ، **والتّاسعُ والعشرونَ**: أنَّ الموعَدَ بهِ هنا يحتملُ في بادئِ النَّظرِ وقوعُهُ حالًا، بخلافِهِ هناكَ؛ فإنَّ المستقبلَ مُتعيِّنٌ لوقوعِهِ بدليلِ ﴿إِنْ﴾ [الملك: 30]، والتَّهديدُ بمحتملِ الوقوعِ في الحالِ أهوَلُ، ومُتعيِّنُ الوقوعِ في الاستقبالِ أهوَنُ، **والثّلاثونَ**: أنَّ ما هنا لا يحتملُ غيرَ الإيعادِ، بخلافِ ما هناكَ؛ فإنَّهُ يحتملُ ولو على بُعْدٍ أنْ يكونَ المرادُ بهِ الامتنانَ بأنَّهُ إنْ أصبحَ ماؤُكم غَوْرًا فلا يأتيكُم بماءٍ مَعينٍ سوى اللّهِ تعالى[1].

وقيلَ في بيانِ سببِ وفرةِ الخصائصِ في آيةِ سورةِ المؤمنينَ: إنَّ آيةَ سورةِ المؤمنينَ قُصِدَ منها الإنذارُ والتَّهديدُ بسَلْبِ تلكَ النِّعمةِ العظيمةِ، وأمّا آيةُ سورةِ المُلْكِ فالقصدُ منها الاعتبارُ بقُدرةِ اللّهِ تعالى على سَلْبِها، فاختلافُ المقامينِ لهُ أثرٌ في اختلافِ المُقتضَياتِ، فكانَتْ آيةُ سورةِ المؤمنينَ آثرَ بوفرةِ الخصائصِ المناسبةِ لمقامِ الإنذارِ والتَّهديدِ.

وسورةُ المُلْكِ نزلَتْ عَقِبَ نُزولِ سورةِ المؤمنينَ، وقد يتداخلُ نُزولُ بعضِها معَ نُزولِ بعضِ سورةِ المؤمنينَ، فلمّا أُشْبِعَتْ آيةُ سورةِ المؤمنينَ بالخصوصيّاتِ الَّتي اقتضاها المقامُ اكتُفِيَ عن مِثْلِها في نظيرتِها مِنْ سورةِ المُلْكِ، فسُلِكَ في الثّانيةِ مَسْلَكُ الإيجازِ؛ لقُرْبِ العهدِ بنظيرتِها[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا﴾:

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾ عاطفةٌ[3]، وهي

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 222.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 29 - 33.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

تُفيدُ عطفَ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وكلٌّ منهما مِنْ دلائلِ قُدرةِ اللّهِ تعالى.

سرُّ التَّعبيرِ بالماضي في قولِه: ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾:

مناسبةُ السّياقِ لمقامِ الامتنانِ، وبيانِ جلالِ القُدرةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾؛ لدلالةِ هذهِ الصّيغةِ على أنَّ إنشاءَ الجنّاتِ أمرٌ واقعٌ مُتحقِّقٌ مُشاهَدٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ بُرهانٍ أو دليلٍ عليهِ، وإنَّما المقصودُ لَفْتُ النَّظرِ إليهِ، والحثُّ على التأمُّلِ والاعتبارِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ بيانِ قُدرةِ اللّهِ ﷻ، ومقامِ امتنانِهِ على عِبادِهِ بهذهِ النِّعَمِ؛ إذِ الامتنانُ بنِعَمٍ حاصلةٍ.

نكتةُ الإسنادِ إلى ضميرِ العظَمةِ ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾:

تعظيمُ شأنِ الإنشاءِ؛ لكونهِ صادرًا عن اللهِ ذي العظمةِ

يدلُّ إسنادُ فعلِ الإنشاءِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ على تعظيمِ شأنِ إنشاءِ الجنّاتِ ببيانِ كونِهِ صادرًا مِنْ ذي الجلالِ والعظَمةِ والكِبْرياءِ، ولا يَقْدِرُ على ذلكَ سِواهُ ﷻ الَّذي جعلَ في الأرضِ قابليَّةَ الإنباتِ، وأودعَ في الماءِ قابليَّةَ السَّقْيِ والإحياءِ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ كمالِ قُدرتِهِ جلَّتْ قُدرتُهُ.

معنى اللّامِ ودلالتُها في شبهِ الجملة ﴿لَكُم﴾:

دلالةُ حرفِ المعنى على الامتنانِ بما يعودُ بالنَّفعِ على الإنسانِ

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ على المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ منفعةَ ذلكَ راجعةٌ إليهم، وأنَّهم هم المقصودونَ بالإنشاءِ، والمعنَى: فأنشأْنا لكُم خاصَّةً لا لنا[1].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَكُم﴾:

ملمحُ البيانِ عن تعجيلِ المَسَرَّةِ، وحُسْنِ انتظامِ الكلامِ

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُم﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾؛ لتعجيلِ مَسَرَّةِ المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

الإنشاءَ لهُم، إضافةً إلى أنَّ في قولِه تعالى: ﴿بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ نوعَ طولٍ، فرُبَّما يُخِلُّ تقديمُهُ بحُسْنِ انتظامِ الكلامِ.

معنى الباءِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

المعنى مرعيٌّ، سواء أفادت الباءُ السَّببيَّة أم الملابَسة

الباءُ الجارَّةُ في قولِه ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ مُتعلِّقةٌ بقولِه: ﴿فَأَنشَأۡنَا﴾، وفيها معنى السَّببيَّةِ، أي: فأنشَأْنا لكُم بسببِهِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، ويحتملُ أنْ تكونَ مُتعلِّقةً بمحذوفِ حالٍ، فتكونُ للمُلابَسةِ[1]، أي: فأنشَأْنا لكُم مُلتبِسةً بِهِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ.

مرجعُ الضَّميرِ في شبه الجملة ﴿بِهِۦ﴾:

الضَّميرُ الرّاجعُ إلى الماءِ، ذو أثرٍ في توجيه المعنى

ضميرُ الهاءِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ راجعٌ إلى الماءِ المذكورِ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾، أي: فأنشَأْنا لكُم بالماءِ المُنزَلِ مِنَ السَّماءِ المزوجِ بالتُّرابِ جنّاتٍ مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ[2].

نُكتةُ تنكيرِ لفظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ وجمعِهِ:

إفادةُ التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ، مفيدٌ في تجلية المعنى وبيانه

جيءَ بلفظِ ﴿جَنَّٰتٖ﴾ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ مجموعًا مُنكَّرًا؛ لإفادةِ التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ؛ فالجنّاتُ الَّتي أنشأها اللهُ جلَّ وعزَّ بالماءِ الَّذي أنزلَهُ مِنَ السَّماءِ مُتعدِّدةٌ مُتنوِّعةٌ؛ إذ بعضُها مِنْ نخيلٍ، وبعضُها مِنْ أعنابٍ، كما يدلُّ عليهِ قولُهُ سبحانَهُ: ﴿مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، وبعضُها غيرُ ذلكَ، وفي ذلكَ مزيدُ مبالغةٍ في بيانِ قُدرتِه جلَّ وتبارَكَ، حيثُ جعلَ هذا الماءَ المزوجَ بالتُّرابِ سببًا لإنباتِ هذهِ الجنّاتِ المُتنوِّعةِ المُتعدِّدةِ المُبهجةِ ذاتِ المنظرِ الحسنِ[3].

---

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 503.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 471.

دلالةُ حرف الجرِّ في قوله: ﴿مِّن نَّخِيلٖ﴾:

بيانُ نوعِ الجنّاتِ مفصحٌ عن المراد من السّياق

﴿مِّن﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ بيانيَّةٌ، فهي بيانٌ لنوعِ الجنّاتِ بأنَّهُ نخيلٌ وأعنابٌ[1]، والمعنَى: فأنشَأْنا لكُم بهِ جنّاتٍ هي نخيلٌ وأعنابٌ.

علَّةُ التَّصريحِ بالنَّخيلِ والأعنابِ:

ذكـرُ أعظمِ الثِّمارِ وأشرفِها تذكيرٌ بما يعرف المخاطَبون

وصفَ جلَّ ثناؤُهُ الجنّاتِ الَّتي ذكرَها في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ بأنَّها مِنْ نخيلٍ وأعنابٍ، ولم يَصِفْها بغيرِهما مِنْ ثمارِ الأرضِ؛ لأنَّ هذينِ النَّوعينِ مِنَ الثِّمارِ كانا أعظمَ ثمارِ الحجازِ وما قَرُبَ منها، فكانتِ النَّخيلُ لأهلِ المدينةِ، والأعنابُ لأهلِ الطّائفِ، فذكَّرَ القومَ بما يعرفونَ مِنْ نعمةِ اللّهِ عليهِم[2]، ولأنَّهما أيضًا أشرفُ الثِّمارِ، فذكرَهما مثالًا؛ تشريفًا لهما وتنبيهًا عليهما[3]، لكثرةِ منافعِهما؛ فإنَّهما يقومانِ مقامَ الطَّعامِ، ومقامَ الإدامِ، ومقامَ الفواكهِ رَطْبًا ويابسًا[4].

سرُّ تقديمِ النَّخيلِ على الأعنابِ:

ملمحُ تقديمِ الأكثرِ والأعزِّ عندَ العربِ

قُدِّمَ النَّخيلُ على الأعنابِ في قولِ اللّهِ جلَّتْ كلمتُهُ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾؛ لأنَّهُ عندَ العربِ أكثرُ وأعزُّ[5]، وفوائدُه أكثرُ نفعًا للنّاس، فضلًا عنِ احتوائِه على جميعِ المُكمّلاتِ الغذائيّةِ، التي يحتاجُها النّاسُ، إضافةً إلى الانتفاعِ بجريدِ هذا النّخل، والجلوسِ في ظلّه، فيناسبُ تقديمُهُ مقامَ الامتنانِ بذكرِ الأهمِّ فالأهمِّ مِنَ الجنّاتِ، ومقامَ بيانِ عظيمِ القُدرةِ بذكرِ ما هو محسوسٌ مُشاهَدٌ بكثرةٍ في ديارِهم.

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 152.

نُكتةُ جمعِ النَّخيلِ والأعنابِ وتنكيرِهما:

الإشارةُ إلى التّنوّعِ تأكيدٌ على التّميُّزِ بالبيانِ الأروعِ

جيءَ بلفظَي النَّخيلِ والأعنابِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾ مجموعَين منكَّرَين؛ لأنَّهما أنواعٌ مختلفةٌ، وهما بكلِّ أنواعِهما قد خلقَهما اللّهُ تعالى، وأنشأهما إنشاءً[1]، فيكونُ في هذا التَّنويعِ مبالغةٌ في إقامةِ الدَّليلِ على القُدرةِ، ومبالغةٌ في الامتنانِ على المُخاطَبينَ.

دلالةُ إعراب ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ﴾:

الجملةُ تجليةٌ للحالةِ أو الوصفِ المستفادِ من الجملةِ

جملةُ ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾، حالٌ مِنْ ﴿جَنَّٰتٖ﴾، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾، أو صفةٌ لها[2]، لذلك لم تُعطفْ عليها لكمالِ اتّصالِها بها.

نكتةُ استعمالِ اللّامِ في: ﴿لَّكُمۡ﴾:

في السّياقِ المخصَّصِ للفواكهِ تقويةٌ للامتنانِ المذكورِ

اللّامُ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ لمقامِ الامتنانِ على المخاطَبينَ ببيانِ أنَّ الفواكهَ الكثيرةَ لهُم، والمعنَى: لكُم خاصَّةً في الجنّاتِ فواكهُ كثيرةٌ[3].

علَّةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿لَّكُمۡ﴾:

في إبرازِ المنَّةِ عنايةٌ مُقرَّةٌ وتعجيلٌ للمَسَرَّةِ

تقديمُ ﴿لَّكُمۡ﴾ على ﴿فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرِهِ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ مع كونِهِ نكرةً موصوفةً يصحُّ الابتداءُ بها؛ للاعتناءِ بكونِ الفواكهِ الكثيرةِ للمُخاطَبينَ، وتعجيلِ مَسَرَّتِهم بتقديمِ ما يدلُّ على كونِ منافعِ هذهِ الفواكهِ لهُم دونَ غيرِهم، وفي ذلكَ إحالةٌ لهُم على أمرٍ محسوسٍ مُشاهَدٍ ألِفوهُ وعَرَفوهُ، فيكونُ ذلكَ أقوى في طلبِ الاعتبارِ والشُّكرِ.

---

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

(2) درويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه: 6/ 503.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 121.

الـدّلالـةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مـسـهـمـةٌ في الإبانة عن المراد

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿فِيهَا﴾:

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ على كونِ الجنّاتِ ظرفًا ومكانًا للفواكهِ الكثيرةِ، وكونِها بمثابةِ المَنْبَعِ لهذهِ الفواكه، وفي ذلكَ مزيدُ امتنانٍ على المُخاطَبينَ، وتحريكٌ لسِلْسِلةِ الشُّكرِ بالتَّنبيهِ على دواعيه.

الضَّميرُ الرّاجعُ إلـى الـجـنّـاتِ مـبرزٌ بعض ما في الجنات من العطاءات

دلالةُ مرجعِ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

الظّاهرُ أنَّ ضميرَ ﴿فِيهَا﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾ عائدٌ على الجنّاتِ المذكورةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ﴾[1]، فكما أنَّ في الجنّاتِ النَّخيلَ والأعنابَ ففيها الفواكهُ الكثيرةُ[2].

وقيلَ: يحتملُ أنْ يعودَ الضَّميرُ على النَّخيلِ والأعنابِ خاصَّةً؛ إذ فيها مراتبُ وأنواعٌ[3].

الـدّلالـةُ على التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ مفيدةٌ في تجليةِ المعنى

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿فَوَٰكِهُ﴾:

جيءَ بلفظِ الفواكهِ مُنكَّرًا في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾؛ للدَّلالةِ على تعدُّدِ فواكهِ الجنّاتِ وتنوُّعِها؛ فالفواكهُ جمعُ فاكهةٍ، وهي الطَّعامُ الَّذي يُتفكَّهُ بأكلِهِ، أي: يُتلذَّذُ بطعمِهِ مِنْ غيرِ قصدِ القوتِ، فإنْ قُصِدَ بِهِ القوتُ، قيلَ لَهُ: طعامٌ، فمِنَ الأطعمةِ ما هوفاكهةٌ وطعامٌ كالتَّمْرِ والعِنَبِ؛ لأنَّهُ يُؤكَلُ رَطْبًا ويابسًا، ومنها ما هو فاكهةٌ وليسَ بطعامٍ كاللَّوْزِ والكُمَّثْرى، ومنها ما هو طعامٌ غيرُ فاكهةٍ كالزَّيتونِ[4]، ويمكنُ أن يكونَ التّنكيرُ مفيدًا للتّفخيمِ والتّعظيمِ.

أهميَّةُ الإشـارةِ إلى عـدمِ حصْرِ جميعِ الأنواعِ

علّةُ وصفِ الفواكهِ بالكثرةِ:

وصفُ الفواكهِ بالكثرةِ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 139، والبيضاويّ، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 555.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 33.

﴿كَثِيرَةٌ﴾؛ لأنَّهُ لم يُحصَرْ جميعُ أنواعِها[1]، وباعتبارِ اختلافِ أصنافِها وكثرةِ إثمارِ كلِّ صنفٍ منها[2].

دلالةُ إعراب جملةِ ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾:

أثرُ عطفِ الجملةِ على ما قبلَها في تكامل المعاني واتِّساقها

الظّاهرُ أنَّ قولَهُ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ عطفٌ على قولِهِ: ﴿لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ﴾، وفي هذا العطفِ إشعارٌ بأنَّ ثمرَها جامعٌ بينَ أمرينِ: أنَّهُ فاكهةٌ يُتفكَّهُ بها، وأنَّهُ طعامٌ[3].

وقيلَ: قولُهُ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ معطوفٌ على شيءٍ مُقدَّرٍ، والتَّقديرُ: (تنظرونَ إلى حُسْنِها ونُضْجِها، ومنها تأكلونَ)[4].

وقيلَ: لمّا كانَ التَّقديرُ: (منها وهي طريَّةٌ تتفكَّهونَ) عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَمِنۡهَا﴾، أي: (بعدَ اليُبْسِ والعَصْرِ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾)[5].

دلالةُ (مِنْ) في قولِهِ: ﴿وَمِنۡهَا﴾:

تدقيقُ عرضِ النِّعمِ الموعودةِ والتَّشويقِ إليها

الظّاهرُ أنَّ (مِنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ تبعيضيَّةٌ، وهي في محلِّ نصبِ مفعولٍ بهِ لـ ﴿تَأۡكُلُونَ﴾، والمعنى: وبعضَها تأكلونَ[6].

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ قولُهُ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ مِنْ قولِهم: يأكلُ فلانٌ مِنْ حِرْفةٍ يحترفُها، ومِنْ تجارةٍ يتربَّحُ بها، يَعْنونَ أنَّها وِجْهتُهُ الَّتي منها رِزْقُهُ، كأنَّهُ قيلَ: وهذهِ الجنّاتُ وجوهُ أرزاقِكم ومَعايشِكم، منها ترتزقونَ وتتعيَّشونَ[7]، فـ (مِنْ) على هذا ابتدائيَّةٌ، والمفعولُ محذوفٌ[8]، وفي هذا الوجهِ بُعْدٌ[9]، والأوَّلُ هو الرّاجحُ.

---

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9991.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(3) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 153.
(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 471.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 3/ 180، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(7) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180.
(8) الطيبي، فتوح الغيب: 3/ 180.
(9) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 566.

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَمِنْهَا﴾:

مرجعُ الضَّميرِ إلى الجنّاتِ أوما فيها منبئٌ عن روعة ما فيها

يحتملُ الضَّميرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾، أنْ يكونَ راجعًا إلى الجنّاتِ كما هو الظّاهرُ[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ راجعًا إلى النَّخيلِ والأعنابِ[2]، وقيلَ: يحتملُ أنْ يرجعَ إلى الفواكهِ، أي: ومِنَ الفواكهِ تأكلونَ[3].

نكتةُ تقديم ﴿وَمِنْهَا﴾:

تعظيمُ الامتنانِ ومراعاةُ الفاصلةِ من بليغِ البيان

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَمِنْهَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ تعظيمًا للامتنانِ بالجنّاتِ الَّتي يأكلُ منها المُخاطَبونَ[4]؛ لأنَّ التَّقديمَ يستدعي كونَ المُقدَّمِ مَحَطَّ عنايةِ المُتكلِّمِ والسّامعِ، يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في تأخيرِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾ مراعاةً لملاءمة فاصلةِ الآيةِ لما قبلَها مِنَ الفواصلِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَأْكُلُونَ﴾:

الـدَّلالـةُ على استمرارِ الأكلِ وتجدُّدِهِ مناسبٌ للمضارعيَّةِ

أوثرَ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الأكلِ واستمرارِهِ، أي: ومنها يتجدَّدُ لكم الأكلُ ويستمرُّ ولو بالادِّخارِ[5]، وفي ذلكَ زيادةُ مبالغةٍ في الامتنانِ؛ لأنَّ الأكلَ منها مُستمرٌّ مُتجدِّدٌ، لا يحتاجُ إلى إقامةِ دليلٍ عليه، إضافةً إلى ما يترتَّبُ على التَّعبيرِ بالمضارعِ، مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿وَشَجَرَةً﴾:

الـعـطـفُ على (جَـنّـاتٍ) منبئٌ عن الاشتراك في الدّلالة

﴿وَشَجَرَةً﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَآءَ﴾ بالنَّصبِ، عطفٌ على ﴿جَنَّٰتٍ﴾ في قولِهِ: ﴿فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ﴾[6]، أي: وأنشأْنا لكُم بِهِ شجرةً تخرجُ مِنْ طورِ سَيْناءَ[7]، والمرادُ بها الزَّيتونةُ، وهي كثيرةٌ في طورِ سَيْناءَ مِنْ أرضِ الشّامِ[8].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 21.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 122.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 139، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 463.

سرُّ التَّخصيصِ لشجرةِ الزَّيتونِ:

استقلالُ الزَّيتونِ بمنافعَ لا توجَدُ في غيرِه، من إعجازِ القرآنِ العلميِّ

تخصيصُ شجرةِ الزَّيتونِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ الأشجارِ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾؛ لاستقلالِها بمنافعَ معروفةٍ[1]، ولأنَّهُ لا يتعاهدُها أحدٌ بالسَّقْيِ، وهي الَّتي يخرجُ الدُّهْنُ منها، فذكرَها اللّهُ سبحانَهُ؛ امتنانًا منهُ على عِبادِهِ بها، ولأنَّها أكرمُ الشَّجَرِ، وأعمُّها نفعًا، وأكثرُها بركةً[2].

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿وَشَجَرَةٗ﴾:

تعظيمُ شأنِ شجرةِ الزَّيتونِ، وقيمتها الغذائيَّةُ والصِّحيَّة

تنكيرُ ﴿وَشَجَرَةٗ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ شجرةِ الزَّيتونِ وتفخيمِهِ، وبيانِ فضلِ خيراتِها ومنافعِها الكثيرةِ[3]، والمعنَى: وأنشَأْنا لكم بِهِ شجرةً عظيمةَ الشَّأنِ، مِنْ شأنِها كيتَ وكيتَ.

علَّةُ نِسبةِ شجرةِ الزَّيتونِ إلى طورِ سَيْناءَ:

مـدحُ شجرةِ الزَّيتونِ باعتبارِ مكانِها الميمونِ

المرادُ بالشَّجرةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ شجرةُ الزَّيتونِ، وقد اختُلِفَ في سببِ نسبتِها إلى طورِ سَيْناءَ مَعَ خُروجِها مِنْ بِقاعٍ كثيرةٍ في الأرضِ: فقيلَ: نُسِبَتْ إلى الطّورِ؛ لأنَّهُ المنشأُ الأصليُّ لها، أو لكثرتِها فيهِ[4].

وقيلَ: تخصيصُ خُروجِها بطورِ سَيْناءَ؛ لأنَّ زيتونَهُ أجودُ الزَّيتونِ[5].

وقيلَ: نُسِبَتْ إليهِ؛ لتعظيمِها وتشريفِها بذكرِ مَقَرِّها، وهو الجبلُ الَّذي كلَّمَ اللّهُ فيهِ نَجيَّهُ موسى عليه السلام[6].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 566، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 324.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 154.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.

ولعلَّ هذا الوجهَ هو الأنسبُ، فيكونُ في الكلامِ مدحٌ لها باعتبارِ مكانِها المُبارَكِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِهِ: ﴿تَخۡرُجُ﴾:

استحضارُ الصّورةِ العجيبةِ المُهِمَّةِ من بليغ البيان

التَّعبيرُ بالمضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾؛ لاستحضارِ الصّورةِ العجيبةِ المُهِمَّةِ الَّتي كوِّنَتْ بها تلكَ الشَّجرةُ في أوَّلِ تكوينِها، حتَّى كأنَّ السّامعَ يُبصِرُها خارجةً بالنَّباتِ في طورِ سَيْناءِ[2].

ويمكنُ أنْ يُجعَلَ التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ الخُروجِ واستمرارِه.

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾:

المستنبتُ في الأرضِ المباركةِ لا يكون إلّا مباركًا

﴿مِن﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ للابتداءِ، أي: وشجرةً يكونُ ابتداءُ خروجِها مِنْ طورِ سَيْناءَ، ويجوزُ أن تكونَ بمعنَى (في)، والمعنى: وشجرةً تخرجُ مُبارَكةً في طورِ سَيْناءَ[3].

غرضُ إضافةِ الطّورِ إلى سَيْناءَ:

احتمالُ إضافةِ الطّورِ إلى البُقْعةِ، أوْ كون التَّركيبِ اسمًا

﴿طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ﴾ إمّا أنْ يكونَ مِنْ إضافةِ الطّورِ إلى بُقْعةٍ اسمُها سَيْناءُ، فيكونَ مِنْ إضافةِ العامِّ إلى الخاصِّ.

وإمّا أنْ يكونَ اسمًا للجبلِ مُركَّبًا مِنْ مضافٍ ومضافٍ إليه، كامرئِ القيسِ، وكبَعْلَبَكَّ، وقيلَ: هو جبلُ فلسطينَ، وقيلَ: بينَ مِصْرَ وأيْلَةَ، ومنهُ نوديَ موسى عليه السلام[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 224، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 38.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 34.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5059.

(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 84.

نكتةُ إعرابِ جملةِ ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾:

الجملةُ صفةٌ ثانيةٌ للشَّجرةِ منبئةٌ عن بعض خصائصها

قولُه ﷻ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لقولِه: ﴿وَشَجَرَةٗ﴾[1]، والغرضُ مِنْ هذهِ الصِّفةِ مدحُ الشَّجرةِ باعتبارِ ما هي عليهِ في نفسِها بعدَ مدحِها باعتبارِ المكانِ الَّذي تخرجُ منهُ[2].

وقيلَ في بلاغةِ هذهِ الصِّفةِ أيضًا: لمّا ذكرَ سبحانَهُ إنشاءَ هذهِ الشَّجرةِ بهذا الجبلِ البعيدِ عن مياهِ البحارِ؛ لعُلوِّهِ وصلابتِهِ، أو بما حولَهُ مِنَ الأرضِ الحارَّةِ - ذكرَ تميُّزَها عن عامَّةِ الأشجارِ بوجهٍ آخرَ عجيبٍ، فقالَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَنۢبُتُ﴾:

استحضارُ الصّورةِ العجيبةِ الشَّأنِ من جميلِ البيانِ

في التَّعبيرِ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ دلالةٌ على استحضارِ الصّورةِ المُهِمَّةِ العجيبةِ لشجرةِ الزَّيتونِ المباركةِ، وهي تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للآكِلينَ، وكأنَّ السّامعَ يُبْصِرُها وهي في هذا الحالِ العجيبِ البديعِ.

ويمكنُ أنْ يُجعَلَ التَّعبيرُ بالمضارعِ؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ كونِها تَنْبُتُ بذلكَ واستمرارِه.

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿تَنۢبُتُ﴾ وبلاغتها:

تعدُّدُ المعاني بتعدُّدِ القراءاتِ مفسحٌ لاستنباطِ الدَّلالاتِ

قرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمرٍو ورُوَيْسٌ: ﴿تُنۢبِتُ﴾ بضمِّ التّاءِ وكسرِ الباءِ، وقرأ الباقونَ: ﴿تَنۢبُتُ﴾ بفتحِ التّاءِ وضمِّ الباءِ[4].

فأمّا القراءةُ الأولى ففيها ثلاثةُ أوجهٍ:

أحدُها: أنَّ (أنبتَ) بمعنى (نبتَ)، فهو ممّا اتَّفقَ فيهِ فعَلَ وأفعلَ.

الثّاني: أنَّ الهمزةَ للتَّعديةِ، والمفعولُ محذوفٌ؛ لأنَّ المعنى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 128.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 224.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 125.
(4) ابن الجزري، النشر: 2/ 328.

مفهومٌ، أي: تُنْبِتُ ثَمَرَها، والباءُ في ﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾ حالٌ مِنَ المفعولِ، أي: مُلتبِسًا بالدُّهْنِ.

الثّالثُ: أنَّ الباءَ مزيدةٌ في المفعولِ بهِ، كما في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ﴾ [البقرة: 195].

وأمّا القراءةُ الأخرى فواضحةٌ، والباءُ للحالِ مِنَ الفاعلِ، أي: مُلتبِسةً بالدُّهْنِ، يعني: وفيها الدُّهْنُ[1].

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿بِٱلدُّهۡنِ﴾:

بيانُ أنَّ خلاصةَ دهنِ الزّيتونِ غذاءٌ وشفاءٌ

المرادُ بالدُّهْنِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ﴾: الزَّيْتُ الَّذي يُؤكَلُ ويُدَّهَنُ بهِ[2]، واللّامُ فيهِ للعهدِ، أي: تَنْبُتُ بالدُّهْنِ المعهودِ، وهو زَيْتُ الزَّيتونِ، وإنَّما حُمِلَتْ على العهدِ؛ لعدمِ الدَّليلِ على إرادةِ الجنسِ أوِ الاستغراقِ؛ إذ ليسَ المرادُ أنَّها تَنْبُتُ بكلِّ أنواعِ الدُّهْنِ، وقيلَ في سرِّ تعريفِ الدُّهْنِ هنا: إنَّهُ عُرِّفَ؛ لأنَّهُ أجلُّ الأدهانِ وأكملُها[3].

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿وَصِبۡغٖ﴾:

الصِّبْغُ معطوفٌ على الدُّهْنِ مشتركٌ معه في الدَّلالة

الصِّبْغُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾، معطوفٌ على الدُّهْنِ جارٍ على إعرابِهِ[4]، وهو مِنْ عطفِ أحدِ وصفَي الشَّيءِ على الآخرِ، أي: تَنْبُتُ بالشَّيءِ الجامعِ بينَ كونِهِ دُهْنًا يُدَّهَنُ بهِ ويُسْرَجُ منهُ، وكونِهِ إدامًا يُصبَغُ فيهِ الخُبْزُ، أي: يُغْمَسُ فيهِ للائتدامِ[5].

وعطفُ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ، ليسَ مِنْ بابِ عطفِ الشَّيءِ على نفسِهِ، بل هو باعتبارِ المغايرةِ فيما تدلُّ عليهِ مادَّةُ اشتقاقِ الوصفِ؛ فإنَّ الصِّبْغَ ما يُصبَغُ بهِ، والدُّهْنَ ما يُدَّهَنُ بهِ، والصِّبْغُ أخصُّ،

(1) السمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 328.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 126.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.

فهو مِنْ بابِ عطفِ الخاصِّ على العامِّ للاهتمامِ، وكانوا يَأْدِمونَ بهِ الطَّعامَ، وذلكَ صَبْغٌ للطَّعامِ(1).

فائدةُ عطفِ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ:

التَّنبيهُ على إحسانِهِ سبحانَهُ، بهذهِ الشَّجرةِ المباركة المزدانة

في قولِهِ ﷻ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ المُتضمِّنِ عطفَ الصِّبْغِ على الدُّهْنِ، تنبيهٌ على غايةِ إحسانِهِ جلَّ وتباركَ بهذهِ الشَّجرةِ الَّتي أنعمَ بها على عبادِهِ؛ لأنَّها تُخْرِجُ هذهِ الثَّمرةَ الَّتي يَكْثُرُ بها الانتفاعُ وهي طَرِيَّةٌ ومُدَّخَرَةٌ، وبأنْ تُعْصَرَ فيظهرَ الزَّيْتُ منها، وتَعْظُمَ وجوهُ الانتفاعِ بهِ(2)، وفي ذلكَ مزيدُ مناسبةٍ لمقامِ الامتنانِ على المُخاطَبينَ.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الصِّبْغِ:

الصِّبْغُ مُستعارٌ للإدامِ، ممتنٌّ به على الأنامِ

في لفظِ الصِّبْغِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ استعارةٌ لطيفةٌ، وذلكَ أنَّ الصِّبْغَ بكسرِ الصّادِ: ما يُصْبَغُ بهِ، أي: يُغيَّرُ بهِ اللَّوْنُ، كالزَّعْفَرانِ والوَرْسِ ونحوِهما، ثمَّ توُسِّعَ في إطلاقِهِ على كلِّ مائعٍ يُطْلَى بهِ ظاهرُ جسمٍ ما، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿صِبۡغَةَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: 138]، وسُمِّيَ الزَّيْتُ صِبْغًا؛ لأنَّ الخُبْزَ إذا غُمِسَ فيهِ يكونُ بلَوْنِهِ(3).

والاستعارةُ تصريحيَّةٌ، شُبِّهَ الزَّيْتُ بالصِّبْغِ، ثمَّ حُذِفَ المُشبَّهُ وأُبقيَ المُشبَّهُ بهِ، بجامعِ التَّلوُّنِ بلونِهِ إذا غُمِسَ بهِ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿وَصِبۡغٖ﴾:

التَّنكيرُ للتَّعظيمِ منبئٌ عن كثرة الخيرِ ورحابة الانتفاع

قيلَ: إنَّ تنكيرَ ﴿وَصِبۡغٖ﴾، في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ لأنَّ في الإدامِ ما هو أشرفُ منهُ وألذُّ، وإنْ كانَتْ بركتُهُ مشهورةً(4).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 38.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 269.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 6/ 325، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 156، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 38.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 126.

ولعلَّ الأنسبَ بمقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على المُخاطَبينَ أنْ يُحمَلَ التَّنكيرُ على التَّعظيمِ، أي: تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ عظيمِ الشَّأنِ للآكلينَ؛ لِما فيه مِنْ كثرةِ الخيراتِ والمنافعِ.

معنى حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿لِّلْأَكِلِينَ﴾:

تقويةُ الامتنانِ بمنافعِ الدُّهنِ للآكلين، تفضُّلٌ مِن اللهِ ربِّ العالمين

اللّامُ الجارَّةُ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ للاختصاصِ والتَّمليكِ، وهي تُفيدُ أنَّ المنفعةَ الَّتي جعلَها اللّهُ ﷻ في الدُّهْنِ والصِّبْغِ راجعةٌ للآكلينَ، ومملوكةٌ لهُم؛ تفضُّلًا منهُ ﷻ على عِبادِه، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ، ببيانِ أنَّ نَفْعَ الدُّهْنِ والصِّبْغِ للمُخاطَبينَ الآكلينَ لا لهُ ﷻ.

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿لِّلْأَكِلِينَ﴾:

سياقُ العُمومِ مفيدٌ للإبانة عن المعنى المروم

تدلُّ لامُ التَّعريفِ الدّاخلةُ على الجمعِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾ على العُمومِ، فتُفيدُ أنَّ منفعةَ الدُّهْنِ والصِّبْغِ لجميعِ الآكلينَ، وفي ذلكَ توسيعٌ لدائرةِ الامتنانِ، ببيانِ شمولِها لجميعِ المُخاطَبينَ، ولذلكَ كانَ حقًّا عليهِم أنْ يتَّعِظوا ويَعتبِروا، ويَحْمَدوا ويَشْكُروا، ويُقْلِعوا عمّا هم فيهِ مِنَ الكِبْرِ والعِنادِ.

نكتةُ اختيارِ لفظِ الآكلينَ دونَ غيرِه:

اختيارُ اللَّفْظِ المُناسِبِ لمقامِ الامتنانِ من بليغ البيان

اختيرَ لفظُ الآكِلينَ دونَ غيرِه في قولِ الحقِّ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ لِما فيه مِنْ شدَّةِ المناسبةِ لمقامِ الامتنانِ بالنِّعَمِ على العِبادِ؛ إذ في هذا اللَّفظِ إيماءٌ إلى وقتِ الانتفاعِ بالدُّهْنِ والصِّبْغِ، وهو وقتُ الأكلِ، ولا شكَّ أنَّ الامتنانَ بالنِّعمةِ يكونُ أعظمَ في وقتِ الاحتياجِ إليها.

وفي هذا اللَّفظِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ العِبادَ يقتاتونَ ويأكلونَ ممّا أنعمَ اللّهُ بِه عليهِم، لا بكَدِّهم وتحصيلِهم، فهم آكلونَ لِما رزقَهم اللّهُ بمنِّهِ وكرمِه.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ ﴿لِّلۡأٓكِلِينَ﴾:

الـدَّلالـةُ على رُسـوخِـهـم في صـفـةِ الأكـلِ زيـادةُ إيـضـاحٍ للسّياق

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾، ولم يُعبَّرْ بصيغةِ الفعلِ، فلم يُقَلْ مَثَلًا: (تَنْبُتُ بالدُّهْنِ وصِبْغٍ للَّذينَ يأكلونَ)؛ لِما في التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ مِنَ الدَّلالةِ على تمكُّنِ المُخاطَبِينَ في صفةِ الأكلِ ورُسوخِهم فيها، حتَّى صارَتْ كأنَّها مِنَ الصِّفاتِ الَّتي جُبِلوا عليها، وفي ذلكَ مبالغةٌ عظيمةٌ في الامتنانِ؛ لِما في اسمِ الفاعلِ مِنَ الإشارةِ إلى كثرةِ وقوعِ الأكلِ منهُم لهذهِ الخيراتِ المباركةِ.

نكتةُ تخصيصِ الأنواعِ الثَّلاثةِ بالذِّكرِ:

أكرمُ الشَّجرِ في الوجودِ ما ذُكِرَ في القرآنِ المجيدِ

تخصيصُ الأنواعِ الثَّلاثةِ - وهي النَّخيلُ والأعنابُ والزَّيتونُ - بالذِّكرِ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ لأنَّها أكرمُ الأشجارِ وأفضلُها وأجمعُها للمنافعِ والفوائدِ[1]، وفي ذكرِها زيادةُ مبالغةٍ في الامتنانِ، واستنزالِ طائرِ كِبْرِ العِبادِ وعِنادِهم.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 180، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 33.

﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ ٢٢﴾ [المؤمنون: 21 - 22]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيانُ تعدّد إنعامات الله

لمّا دلَّ ﷻ على قُدرتِهِ بما أحيا بالماءِ حياةً قاصرةً عنِ الرّوحِ أتبعَهُ ما أفاضَ عليهِ بهِ حياةً كاملةً، فقالَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾[1].

وكذلك فإنّ الآيتينِ بيانٌ للنِّعَمِ الفائضةِ عليهِم مِنْ جهةِ الحيوانِ إثْرَ بيانِ النِّعَمِ الواصلةِ إليهِم مِنْ جهةِ الماءِ والنَّباتِ[2].

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى: فهي أنَّهُ لمّا كانَ التّفاوتُ بينَ الحيواناتِ في القوى وسهولةِ الانقيادِ دالًّا على كمالِ القُدرةِ، وكانَ الحَمْلُ للنَّفْسِ والمَتاعِ عليها وعلى غيرِها مِنَ الحيوانِ مِنْ أجلِّ المنافعِ ذكرَهُ فيها مُذكِّرًا بغيرِها في البَرِّ تلويحًا، وفي البحرِ تصريحًا، فقالَ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾: (نعم) أصلٌ يدلُّ على ترفُّهٍ وطيبِ عيشٍ وصلاحٍ، ومِنْ ذلكَ: النِّعمةُ، وهي ما يُنعِمُ اللهُ تعالى بهِ على عِبادِهِ مِنْ مالٍ وعيشٍ، يقالُ: للّهِ تعالى عليهِ نِعْمةٌ[4]، والنِّعمةُ بكسرِ النّونِ: المِنَّةُ، وكذا النَّعْماءُ[5]، والنَّعْمةُ بفتحِ النّونِ: التَّنعُّمُ وطيبُ العيشِ، قالَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 127.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، ومحيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 155، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 225.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 128.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(5) الجوهري، الصحاح: (نعم).

سبحانَهُ: ﴿وَنَعۡمَةٖ كَانُواْ فِيهَا فَٰكِهِينَ ٢٧﴾ [الدخان: 27]، والنَّعَمُ: الإبلُ، لِما فيها مِنَ الخيرِ والنِّعْمةِ[1]، والجمعُ: أنعامٌ، لكنَّ الأنعامَ تقالُ للإبلِ والبقرِ والغَنَمِ، ولا يقالُ لها: أنعامٌ، حتَّى يكونَ في جملتِها الإبلُ[2].

2) ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾: (عبر) أصلٌ يدلُّ على النُّفوذِ والمُضيِّ في الشَّيءِ[3]، وانتقالٍ مِنْ حيِّزٍ إلى آخرَ[4]، يقالُ: عَبَرْتُ النَّهرَ عُبورًا، ورجلٌ عابرُ سبيلٍ، أي: مارٌّ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَلَا جُنُبًا إِلَّا عَابِرِي سَبِيلٍ﴾ [النساء: 43]، والعَبْرةُ: الدَّمعُ؛ لأنَّ الدَّمْعَ يَعْبُرُ، أي: يَنْفُذُ ويَجْري، ويقالُ: عبَّرَ الرُّؤيا يُعبِّرُها تعبيرًا، إذا فسَّرَها؛ لأنَّ مُفسِّرَ الرُّؤيا يأخذُ بها مِنْ وجهٍ إلى وجهٍ، كأنْ يُسألَ عن رؤيا الماءِ، فيقولَ: حياةٌ[5]، والعِبارةُ مختصَّةٌ بالكلامِ العابرِ الهواءَ مِنْ لسانِ المتكلِّمِ إلى سَمْعِ السّامعِ[6]، والاعتبارُ: افتعالٌ مِنَ العُبورِ، وهو المُجاوَزةُ[7].

3) ﴿نُّسۡقِيكُم﴾: (سقى) أصلٌ يدلُّ على تحصيلِ الماءِ ونحوِهِ مِنَ المائعِ في الجوفِ بإنفاذِهِ إليهِ[8]، تقولُ: سَقَيْتُهُ أَسْقيهِ سَقْيًا، وأسقَيْتُهُ، إذا جعلتَ لهُ سُقْيا[9]، قالَ تعالى في السَّقْيِ: ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١﴾ [الإنسان: 21]، وقالَ في الإسقاءِ: ﴿وَأَسۡقَيۡنَٰكُم مَّآءٗ فُرَاتٗا ٢٧﴾ [المرسلات: 27]، وقالَ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾، وقيلَ: السَّقْيُ والإسقاءُ بمعنًى، والاستسقاءُ: طلبُ السَّقْيِ أوِ الإسقاءِ، قالَ تعالى: ﴿۞وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ﴾ [البقرة: 60][10]، والسِّقايةُ: الموضعُ يُتَّخذُ فيهِ الشَّرابُ في المواسمِ وغيرِها[11].

4) ﴿بُطُونِهَا﴾: (بطن) أَصْلٌ يَدُلُّ على الجَوْفِ الدّاخليِّ للشَّيءِ، حيثُ يَخْفَى فيهِ ما يدخلُ إليهِ[12]، فالبَطْنُ: خلافُ الظَّهرِ، وتقولُ: بَطَنْتُ الرَّجلَ، إذا ضربتَ بَطْنَهُ، وباطنُ الأمرِ: خلافُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).
(2) الراغب، المفردات: (نعم)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نعم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (عبر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبر).
(6) الراغب، المفردات: (عبر).
(7) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عبر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سقي).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقي).
(10) الراغب، المفردات: (سقي)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (سقي).
(11) الخليل، العين: (سقي).
(12) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (بطن).

ظاهرِه، واللّهُ سبحانَهُ هو الباطنُ؛ لأنَّهُ بَطَنَ الأشياءَ خُبْرًا، تقولُ: بَطَنْتُ الأمرَ، إذا عرفتَ باطنَهُ، والبَطينُ: الرَّجلُ العظيمُ البَطْنِ، والمبطونُ: العليلُ البَطْنِ، والمِبْطانُ: الكثيرُ الأكلِ حتَّى يَعْظُمَ بَطْنُهُ[1]، والبطانةُ: خلافُ الظِّهارةِ في الملبوساتِ، واستُعيرَ ذلكَ فيمَنْ يختصُّ بسريرتِكَ، وعلى ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ [آل عمران: 118][2].

5) ﴿مَنَٰفِعُ﴾: (نفع) أَصْلٌ يدلُّ على فائدةٍ تُنالُ مِنَ الشَّيءِ[3]، والنَّفْعُ: ما يُستعانُ بِهِ في الوصولِ إلى الخيراتِ، وما يُتوصَّلُ بِهِ إلى الخيرِ فهو خيرٌ، فالنَّفْعُ خيرٌ، وضدُّهُ الضَّرُّ، قالَ ﷻ: ﴿وَلَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗا﴾ [الفرقان: 3][4]، ويقالُ: فلانٌ نَفّاعٌ ضَرّارٌ، وإنَّهُ لحاضرُ النَّفيعةِ، أي: النَّفْعِ[5].

6) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: (فلك) أصلٌ يدلُّ على استدارةٍ في شيءٍ[6]، ومِنْ ذلكَ: فلْكَةُ المِغْزَلِ، سُمِّيَتْ بذلكَ لاستدارتِها، ويقالُ: فلَكَ ثَدْيُ المرأةِ، إذا استدارَ، ومِنْ ذلكَ أيضًا: فلَكُ السَّماءِ، سُمِّيَ بذلكَ لاستدارتِهِ، ويقالُ: فلَكْتُ الجَدْيَ بقضيبٍ، أي: أدَرْتُهُ على لسانِهِ؛ لئلّا يرتضعَ، والفُلْكُ: السَّفينةُ، وتُسمَّى فُلْكًا؛ لأنَّها تُدارُ في الماءِ[7]، ويُستعمَلُ ذلكَ للواحدِ والجمعِ، قالَ جلَّ وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ [يونس: 22]، وقالَ: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [البقرة: 164]، وقالَ: ﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: 12][8].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذِكْرُ مواطنِ العِبْرَةِ في الأنعامِ، وما فيها من منافعَ للأنامِ

يذكرُ اللّهُ تعالى ما جعلَ لخَلْقِهِ في الأنعامِ مِنَ المنافعِ، فيقولُ:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن)، والراغب، المفردات: (بطن).
(2) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (بطن).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (نفع).
(4) الراغب، المفردات: (نفع).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (نفع).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فلك).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فلك).
(8) الراغب، المفردات: (فلك).

وإنَّ لكُم أيُّها النّاسُ في الأنعامِ لَعِبْرةً تعتبرونَ بها، فتعرفونَ بها نِعَمَ اللّهِ عليكُم، وقُدرتَهُ على ما يشاءُ، وأنَّهُ الَّذي لا يمتنعُ عليهِ شيءٌ أرادَهُ، ولا يُعجِزُهُ شيءٌ شاءَهُ.

ومِنْ جملةِ العِبَرِ أنّا نُسْقيكُم ممّا في بُطونِها مِنَ اللَّبَنِ الخارجِ مِنْ بينِ الفَرْثِ والدَّمِ، ولكُم معَ ذلكَ في الأنعامِ منافعُ كثيرةٌ في أصوافِها وأوبارِها وأشعارِها ونحوِ ذلكَ، ومِنْ لُحومِها تأكلونَ، وعليها وعلى السُّفُنِ تُحْمَلونَ، على هذهِ في البَرِّ، وعلى هذهِ في البحرِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ﴾:

عطفُ الجملةِ على ما قبلَها، تعانقٌ للمعنى وتكامل

الواوُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، فتكونُ هذهِ الجملةُ داخلةً مثلَ الجُملِ السّابقةِ في حيِّزِ الاستدلالِ على القُدرةِ الباهرةِ للّهِ تباركَ شأنُهُ، وفي حيِّزِ الامتنانِ على العبادِ ببعضِ النِّعَمِ[2].

نكتةُ تتابعِ المُؤكِّداتِ في الآيةِ:

ملاءمةُ كثرةِ المُؤكِّداتِ لمقامِ الاستدلالِ والامتنانِ

في قولِ اللّهِ جلَّ سُلطانُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ استدلالٌ على باهرِ قُدرةِ اللّهِ تعالى، وامتنانٌ على العبادِ بالنِّعَمِ المودَعةِ في الأنعامِ، وحثٌّ لهُم على شُكرِها، وفي هذا الاستدلالِ والامتنانِ مبالغةٌ يقتضيها المقامُ، ولذلكَ أُكِّدَتِ الجملةُ بأنواعٍ مِنَ المُؤكِّداتِ، حيثُ جيءَ بها اسميَّةً مُصدَّرةً بـ (إنَّ) مُؤكَّدةً باللّامِ، وقُدِّمَ فيها ﴿لَكُمْ﴾ في موضعينِ، وأُتيَ بصيغةِ الكِبْرياءِ والعظَمةِ في ﴿نُّسْقِيكُم﴾.

دلالةُ اللّامِ في شبهِ الجملةِ: ﴿لَكُمْ﴾:

اللّامُ الجارَّةُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً﴾،

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 472.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.

للاختصاصِ والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ على المخاطَبينَ ببيانِ أنَّ منفعةَ الأنعامِ الَّتي هي مَحَلُّ العِبْرةِ - مِنْ أجلِهم، وهي راجعةٌ إليهم، لا إلى غيرِهم، ولا إلى المُنعِمِ المُتفضِّلِ بها ﷻ.

مفادُ الاختصاصِ والتَّمليكِ تنبيهٌ إلى ما أنعم به المليك

غرضُ تقديمِ ﴿لَكُمۡ﴾ على اسمِ إنَّ:

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿لَكُمۡ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾؛ لتعجيلِ مَسَرَّةِ المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ منفعةَ الأنعامِ الَّتي هي مَحَلُّ العِبْرةِ لهُم لا لغيرِهم.

تعجيلُ المَسَرَّةِ علَّةٌ في تقديمِ ما به يختصّون، وله يملكون

وفي التَّقديمِ أيضًا تقويةٌ لمقامِ الاستدلالِ على عظيمِ قُدرةِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ، بتعجيلِ بيانِ كونِ العِبْرةِ لهُم، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ لهُم على التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ؛ ليتوصَّلوا بذلكَ إلى توحيدِ المُنعِمِ وشُكْرِه.

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

ظرفيَّةُ الأنعامِ للعِبْرة، والتَّحقُّق من قيمةِ الإنعامِ بالأنعامِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ على ظرفيَّةِ الأنعامِ للعِبْرةِ[1]، وأنَّ الأنعامَ بمثابةِ المُستقَرِّ والمَنْبَعِ للعِبْرةِ، وأنَّ العِبْرةَ مُستقِرَّةٌ فيها، لا تخفَى على النّاظرِ المُتأمِّلِ في شأنِ الأنعامِ الَّتي هي مِنْ جملةِ الحيواناتِ المُسخَّرةِ للانتفاعِ بها، وقدِ اعتادَ النّاسُ رُؤيتَها والاستفادةَ منها.

المرادُ بالأنعامِ في الآيةِ الكريمة:

بيانُ أنَّ المرادَ بالأنعامِ الأصنافُ الثَّمانيةُ أوِ الإبلُ خاصَّةً

الظّاهرُ أنَّ المرادَ بالأنعامِ في قولِه تباركَ شأنُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾ الإبلُ والبقرُ والغَنَمُ والمَعْزُ، وهي الأصنافُ الثَّمانيةُ المذكورةُ في قولِه تعالى: ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۖ مِّنَ ٱلضَّأۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡمَعۡزِ ٱثۡنَيۡنِۗ قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ نَبِّـُٔونِي بِعِلۡمٍ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٤٣ وَمِنَ ٱلۡإِبِلِ ٱثۡنَيۡنِ وَمِنَ ٱلۡبَقَرِ ٱثۡنَيۡنِۗ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 157.

﴿قُلۡ ءَآلذَّكَرَيۡنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلۡأُنثَيَيۡنِ أَمَّا ٱشۡتَمَلَتۡ عَلَيۡهِ أَرۡحَامُ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۖ﴾ [الأنعام: 143 - 144][1].

وقيلَ: المقصودُ بالأنعامِ هنا الإبلُ خاصَّةً؛ لأنَّها كذلكَ في غالبِ عُرْفِ العربِ[2]، ولأنَّها هي المحمولُ عليها في العادةِ، ولأنَّهُ قرنَها بالفُلْكِ، فهي سفائنُ البَرِّ، كما أنَّ الفُلْكَ سفائنُ البحرِ[3].

نكتةُ تقديمِ شبْهِ الجملة ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

تعجيلُ ذكرِ مَحَلِّ العِبْرةِ يناسبُ الاستدلالَ بعظيمِ النِّعمة بها

قُدِّمَ الجارُّ والمجرورُ ﴿فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ على المسندِ إليهِ ﴿لَعِبۡرَةٗۖ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾؛ لِما في التَّقديمِ مِنْ تعجيلِ ذكرِ مَحَلِّ العِظَةِ والعِبْرةِ، وهو الأنعامُ، وذلكَ يلائمُ غايةَ الملاءمةِ مقامَ الاستدلالِ، على قُدرةِ اللّهِ تعالى، ومقامَ امتنانِهِ على عبادِهِ بتسخيرِ هذهِ الأنعامِ لهُم.

نكتةُ تخصيصِ الأنعامِ بالذِّكرِ:

الأنعامُ بديعةُ الفِطْرةِ، كثيرةُ المنافعِ

تخصيصُ الأنعامِ بالذِّكرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾؛ لأنَّ مَحَلَّ العِبْرةِ فيها أظهرُ ممّا في النَّباتِ[4]، فيكونُ في الكلامِ تَرَقٍّ مِنَ الأدنى إلى الأعلى في الحثِّ على الاتِّعاظِ والاعتبارِ.

وقيلَ: تخصيصُها بالذِّكرِ؛ لأنَّها بديعةُ الفِطْرةِ، وكثيرةُ المنافعِ، كما أنَّ تخصيصَ النَّخيلِ والأعنابِ والزَّيتونِ بالذِّكرِ مِنْ بينِ الثِّمارِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَنشَأۡنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٖ مِّن نَّخِيلٖ وَأَعۡنَٰبٖ لَّكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ١٩ وَشَجَرَةٗ تَخۡرُجُ مِن طُورِ سَيۡنَآءَ تَنۢبُتُ بِٱلدُّهۡنِ وَصِبۡغٖ لِّلۡأٓكِلِينَ﴾؛ لأنَّها أكرمُ الشَّجرِ وأفضلُها وأجمعُها للمنافعِ، فيكونُ ذلكَ أدلَّ على صحَّةِ البعثِ، فيتمُّ الارتباطُ بما قبلَهُ[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 127، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(3) النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: 5/ 114.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 225.
(5) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 159.

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾:

توكيدُ مضمونِ الجملةِ المُثبَتةِ مفيدٌ في البيان المتوخّى

اللّامُ الدّاخلةُ على ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾، هي اللّامُ المُزحلَقةُ، وهي هنا واقعةٌ في اسم ﴿وَإِنَّ﴾، وفي التَّعبيرِ بها زيادةُ مبالغةٍ وتأكيدٍ لمقام الاستدلالِ والامتنانِ؛ لأنَّ هذهِ اللّامَ يُؤتَى بها لتوكيدِ مضمونِ الجملةِ المُثبَتةِ، وإزالةِ الشَّكِّ عن معناها المُثبَتِ.

نكتةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾:

كلُّ عبرةٍ يشير إليها القرآن، فهي من العظمةِ بمكانٍ

تنكيرُ ﴿لَعِبۡرَةٗ﴾ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ لتعظيمِ شأنِ العِبْرةِ وتفخيمِهِ، أي: وإنَّ لكُم في الأنعام لَعِبْرةً عظيمةً بديعةً، تَحارُ في دَرْكِها العُقولُ، ويَهيمُ في فهْمِها ألبابُ الفُحولِ[1]، والمعنَى: إنَّ لكُم في الأنعامِ دليلًا على انفرادِ اللّهِ تعالى بالخلقِ وتمامِ القُدرةِ وسَعَةِ العِلمِ[2]، فهي مُسخَّرةٌ للإنسانِ وإنْ لم تكنْ عاقلةً[3].

نكتةُ فصلِ ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ موضِّحٌ لبيان المقال

فُصِلَ قولُهُ جلَّ شأنُهُ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ عن قولِهِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ قولَهُ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ استئنافٌ بيانيٌّ فيهِ تفصيلٌ لمواقعِ العِبْرةِ جوابًا عن سؤالٍ يُثيرُهُ الكلامُ السّابقُ، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗ﴾ سألَ سائلٌ، فقالَ: ما العِبْرةُ؟ أو كيفَ العِبْرةُ؟ فقيلَ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ الآيةَ[4].

وقيلَ: يجوزُ أنْ تكونَ الجملةُ خبرًا لمبتدأ مُضمَرٍ، والجملةُ الكُبرى جوابٌ لذلكَ السُّؤالِ، أي: هي - أيِ: العِبْرةُ - نُسْقيكُم[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 124، والآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5061.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 127، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(5) السّمين الحلبيّ، الدر المصون: 7/ 251.

وفي هذا الوجهِ بُعْدٌ وتكلُّفٌ لا حاجةَ إليهِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿نُّسۡقِيكُم﴾:

تصويرُ الحالةِ العجيبةِ مفيدٌ في تجليةِ المعنى وترسيتِهِ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ على تصويرِ الحالةِ البديعةِ العجيبةِ الشَّأنِ، وكأنَّ السّامعَ يشاهدُ صورةَ المُخاطَبينَ وهم يُسْقَوْنَ ممّا في بُطونِ الأنعامِ، فيكونُ ذلكَ أَدْعَى لاستجلابِ الاعتبارِ.

وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا دلالةٌ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ لهذهِ النِّعمةِ العظيمةِ؛ إذ لا يزالُ النّاسُ ينتفعونَ بما في بُطونِ الأنعامِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ الاستدلالِ على عظيمِ قُدرتِهِ سبحانَهُ، ومقامِ الامتنانِ على العبادِ.

نكتةُ إسنادِ الإسقاءِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الإسقاءِ دليلٌ على معجزةِ اللهِ بتسخيرِهِ للبشرِ

أُسنِدَ فعلُ الإسقاءِ إلى نونِ العظَمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾؛ تعظيمًا لشأنِ هذا الإسقاءِ العجيبِ الشَّأنِ؛ إذ يُخرِجُ سبحانَهُ مِنْ بُطونِ هذهِ الأنعامِ مِنْ بينِ فرْثٍ ودمٍ لَبَنًا خالصًا سائغًا للشّاربينَ، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66]، وهذا الفعلُ مُنبِئٌ عن كمالِ القُدرةِ الَّذي لا يكونُ لغيرِ اللّهِ ﷻ، فسبحانَهُ ما أعظمَ قُدرتَهُ! وأجلَّ نِعْمتَهُ!

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾ وبلاغتها:

اختلافُ الفاعلِ بتعدُّدِ القراءاتِ مفيدٌ في رسوِّ المعنى وتجليته

قرأ أبو جعفرٍ: ﴿تَسۡقِيكُم﴾ بالتّاءِ مفتوحةً، وقرأ الباقونَ بالنّونِ، ففتحَها نافعٌ وابنُ عامرٍ ويعقوبُ وشُعبةُ: ﴿نَّسۡقِيكُم﴾، وضمَّها الباقونَ: ﴿نُّسۡقِيكُم﴾[2].

أمّا على قراءةِ التّاءِ المفتوحةِ فالفاعلُ هو الأنعامُ، والمعنى: تَسْقيكم الأنعامُ[3].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 414.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 304.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 181، والسمين الحلبي، الدر المصون: 8/ 330.

وأمّا قراءةُ ضمِّ النّونِ فهي مِنْ أَسْقَى، وأمّا قراءةُ فتحِ النّونِ فهي مِنْ سَقَى، والفاعلُ عليهما هو اللّهُ ﷻ، ثم اختُلِفَ، فقيلَ: أَسْقَى وسَقَى لغتانِ بمعنًى[1]، وقيلَ: سَقَيْتُه، إذا أعطيتُه للشَّفَةِ، وأسقيتُه، إذا جعلتُ لهُ سُقْيا لأرضٍ أو ثمرةٍ ونحوِ ذلكَ، فكأنَّ اللّهَ تعالى جعلَ الأنعامَ لعبيدِهِ سُقْيا يشربونَ وينتجعونَ[2]، ومن بلاغة القراءات الثلاث هنا جمعها بين السبب والمُسبِّب؛ فإسناد السقي للأنعام مجاز، وقد جلَّت حقيقتَه القراءةُ الأخرى.

معنى (مِنْ) في قولِهِ: ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾:

ما ينشأُ من لبنٍ في بطونِ الأنعامِ معجزةٌ باهرةٌ للأنام

تحتملُ (مِنْ) في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ أَنْ تكونَ للتَّبعيضِ، وما في بُطونِ الأنعامِ عبارةٌ عنِ الألبانِ، والمرادُ بالبُطونِ الجَوْفُ[3]، وإنَّما كانَتْ (مِنْ) للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المَسْقيَّ بعضُ الألبانِ[4]، والمعنَى: نُسْقيكُم بعضَ ألبانِها الَّتي في بُطونِها.

وتحتملُ (مِنْ) أَنْ تكونَ للابتداءِ، وما في بطونِ الأنعامِ عبارةٌ عنِ العَلَفِ الَّذي يتكوَّنُ منهُ اللَّبَنُ، والبُطونُ على حقيقتِها[5]، وإنَّما كانَتْ (مِنْ) للابتداءِ؛ لأنَّ العَلَفَ ليسَ ممّا يُسْقَى، لكنَّهُ مبدأٌ للإسقاءِ مِنْ حيثُ إنّ اللَّبَنَ يتكوَّنُ منهُ[6]، والمفعولُ الثّاني محذوفٌ على هذا الوجهِ، والتَّقديرُ: (نُسْقيكُم ألبانَها النّاشئةَ مِنَ العَلَفِ الَّذي في بُطونِها).

دلالةُ (ما) في ﴿مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾:

دلالةُ (ما) الموصولة على المنتج المسقيِّ من البطون

(ما) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهَا﴾ موصولةٌ، والمعنَى: نُسْقيكُم بعضَ ألبانِها الَّتي في بُطونِها، أو نُسْقيكُم ألبانَها النّاشئةَ مِنَ العَلَفِ الَّذي في بُطونِها، على الوجهينِ السّابقينِ في معنى (مِنْ).

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 140، و النّسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 140.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(4) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 157.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(6) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 157.

أهميَّةُ الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في إبراز الدَّلالة الإبانيَّةِ

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قولِه: ﴿فِي بُطُونِهَا﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِي﴾ الواردُ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا﴾ للظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ، فإنْ كانَ المرادُ بالبُطونِ الجَوْفَ فهو ظَرْفٌ للَّبَنِ، وإنْ كانَ المرادُ بها حقيقةَ البُطونِ فهي ظَرْفٌ للعَلَفِ الَّذي يبدأُ منهُ نُشوءُ اللَّبَنِ.

في توجيهِ اختلافِ الآيتينِ بالتَّذكيرِ والتَّأنيثِ أقوالٌ مفيدةٌ في البيان

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ الآيتين:

قالَ ﷻ هنا: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٢١ وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾.

وقالَ في سورةِ النَّحلِ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا خَالِصٗا سَآئِغٗا لِّلشَّٰرِبِينَ ٦٦﴾ [النحل: 66].

وقدِ اتَّفقتِ الآيتانِ في التَّنبيهِ على ما في الأنعامِ مِنَ العِبْرةِ الكائنةِ في إسقاءِ العبادِ مِنْ لَبَنِها الَّذي يتكوَّنُ في بُطونِها بقُدرةِ اللّهِ تعالى على صورةٍ عجيبةٍ.

ويُلحَظُ أنَّ الضَّميرَ قد وردَ هنا مُؤنَّثًا، فقالَ تعالى: ﴿بُطُونِهَا﴾، ووردَ مُذكَّرًا في سورةِ النَّحلِ، فقالَ سبحانَهُ: ﴿بُطُونِهِۦ﴾ [النحل: 66]، وقد اختُلِفَ في توجيهِ هذا الاختلافِ:

فقيلَ: عادَ الضَّميرُ في سورةِ النَّحلِ على الأنعامِ مُفرَدًا مُذكَّرًا؛ لأنَّ لفظَ الأنعامِ مِنَ الأسماءِ المُفرَدةِ الواردةِ على وزنِ (أفعال)، ولذلكَ عادَ الضميرُ عليهِ مُذكَّرًا، وأمّا في سورةِ المؤمنينَ فرجعَ الضَّميرُ مُؤنَّثًا؛ لأنَّ لفظَ الأنعامِ معناهُ جمعٌ[1].

وقيلَ: في لفظِ الأنعامِ وجهانِ: أحدُهما: أنْ يكونَ تكسيرَ (نَعَمٍ)، كأجبالٍ في جَبَلٍ، وأنْ يكونَ اسمًا مُفرَدًا مُقتضيًا لمعنى

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 615.

الجمعِ، كنَعَمٍ، فإذا ذُكِّرَ فكما يُذكَّرُ نَعَمٌ، وإذا أُنِّثَ ففيهِ وجهانِ: أنَّهُ تكسيرُ نَعَمٍ، وأنَّهُ في معنى الجمعِ[1].

وقيلَ: إنَّما ذُكِّرَ الضَّميرُ في سورةِ النَّحلِ؛ لأنَّهُ يعودُ على البعضِ، وهو الإناثُ؛ لأنَّ الذُّكورَ لا ألبانَ لها، فكأنَّ العِبرَةَ هي بعضُ الأنعامِ[2]، فالتَّذكيرُ باعتبارِ لفظِ بعضٍ[3].

وقيلَ: إنَّ تأنيثَ الضَّميرِ في سورةِ المؤمنينَ؛ لأنَّهُ راجعٌ إلى الإناثِ فقطْ[4].

وقيلَ: التَّذكيرُ في سورةِ النَّحلِ بتأويلِ ما ذُكِرَ، أي: في بُطونِ ما ذُكِرَ، وهذا شائعٌ في القرآنِ، كما في قولِهِ تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ﴿١١﴾ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿١٢﴾﴾ [عبس: 11 - 12]، أي: ذكرَ هذا الشَّيءَ[5].

وقيلَ: جمعُ التَّكسيرِ فيما لا يعقلُ يُعامَلُ معاملةَ الجماعةِ ومعاملةَ الجمعِ، ففي سورةِ النَّحلِ اعتُبِرَ معنى الجمعِ، وفي سورةِ المؤمنينَ اعتُبِرَ معنى الجماعةِ[6].

وقيلَ: الضَّميرُ المُذكَّرُ يعودُ على الفَحْلِ؛ لأنَّ اللَّبَنَ يكونُ مِنْ طَرْقِ الفَحْلِ النّاقةَ، فأصلُ اللَّبَنِ ماءُ الفَحْلِ.

وهذا الوجهُ ضعيفٌ؛ لأنَّ اللَّبَنَ وإنْ نُسِبَ إلى الفَحْلِ فقد جُمِعَ لفظُ البُطونِ، وليسَ فحْلُ الأنعامِ واحدًا، ولا للواحدِ بُطونٌ[7].

ومِنْ تمامِ الكلامِ في الفرقِ بينَ الآيتينِ: أنَّهُ يُلْحَظُ أنَّ آيةَ النَّحلِ ركَّزَتْ على مسألةِ تصفيةِ اللَّبَنِ مِنْ بينِ فرْثٍ ودمٍ، أمّا هنا فقد ركَّزَتْ على منافعَ أخرى للأنعامِ، فكلُّ آيةٍ تأخذُ جانبًا مِنَ الموضوعِ، وتتناولُهُ مِنْ زاويةٍ خاصَّةٍ، فالآياتُ في الموضوعِ الواحدِ ليسَتْ تَكرارًا، إنَّما هو تأسيسٌ بصورٍ مختلفةٍ، كلُّ صورةٍ تُؤدّي في مكانِها موقعًا مِنَ العِظَةِ والعِبْرةِ، بحيثُ إذا جمعتَ كلَّ هذهِ المُكرَّراتِ الظّاهرةِ تُعطيكَ الصّورةَ الكاملةَ للشَّيءِ[8].

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 615.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 252، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 225.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9993.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9993.
(5) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 252.
(6) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 252.
(7) السمين الحلبي، الدر المصون: 7/ 252.
(8) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 9994.

سرُّ استعمالِ اللّامِ في قولِهِ: ﴿وَلَكُمۡ﴾:

ملمح الاختصاص والتَّمليك، ذو أثرٍ في إبراز منافعِ الأنعام

اللّامُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ للاختصاص والتَّمليكِ، وفي التَّعبيرِ بها تقويةٌ للامتنانِ على المخاطَبينَ ببيانِ أنَّ المنافعَ الكثيرةَ الَّتي في الأنعامِ، والَّتي هي مِنْ مظاهرِ العِبْرةِ مِنْ أجلِهم، وهي راجعةٌ إليهِم، لا إلى غيرِهم.

غرضُ تقديمِ ﴿وَلَكُمۡ﴾ على ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

تعجيلُ مَسَرَّة المُخاطَبين بذكر حيازتهم للمنافع

قُدِّمَ المُسندُ ﴿وَلَكُمۡ﴾ على المُسندِ إليهِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾؛ لتعجيلِ مَسَرَّةِ المُخاطَبينَ ببيانِ أنَّ منافعَ الأنعامِ الكثيرةَ لهُم لا لغيرِهم.

وفي هذا التَّقديمِ أيضًا تقويةٌ لمقامِ الحثِّ على الشُّكرِ والاعتبارِ؛ لأنَّ منافعَ الأنعامِ محسوسةٌ مُشاهَدةٌ مِنْ قِبَلِهم، وهم ينتفعونَ بها على الدَّوامِ، وهي مُذلَّلةٌ مُسخَّرةٌ لهُم، وذلكَ أعوَنُ على شُكْرِ المُنعِمِ وتوحيدِهِ.

علَّةُ تَكرارِ شبه الجملة ﴿وَلَكُمۡ﴾:

ملاءمةُ التَّكرار لمقامِ الامتنانِ، والحثِّ على الاعتبارِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وإنَّ لكُم في الأنعامِ لَعِبْرةً نُسْقيكُم ممّا في بُطونِها وفيها منافعُ كثيرةٌ)، ولكنْ كُرِّرَ الجارُّ والمجرورُ ﴿وَلَكُمۡ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ نُّسۡقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾؛ لِما في هذا التَّكرارِ مِنْ مزيدِ التَّنبيهِ على أنَّ المُخاطَبينَ هم المقصودونَ بالعِبْرةِ والمنافعِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ الحثِّ على الاعتبارِ، ومقامِ الامتنانِ على العِبادِ بهذهِ النِّعَمِ الجِسامِ، ولو قيلَ: (وفيها منافعُ كثيرةٌ) لربَّما ذَهَلَ المُخاطَبونَ عن كونِ هذهِ المنافعِ لأجلِهم.

دلالةُ حرف الجرِّ ﴿فِيهَا﴾:

الدَّلالةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مفيدةٌ في بيان السّياق

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ على ظرفيَّةِ الأنعامِ للمنافعِ الكثيرةِ، وأنَّها بمثابةِ المَنْبَعِ لهذهِ المنافعِ المحسوسةِ المُستقِرَّةِ

فيها استقرارَ المظروفِ في الظَّرْفِ، وهي لا تَخْفَى على النّاظرِ المُتأمِّلِ في شأنِ الأنعامِ المُسخَّرةِ للانتفاعِ بها مِنْ قِبَلِ العِبادِ.

نكتةُ تقديمِ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

تعظيمُ منافعِ الأنعامِ؛ لأنَّ تقديمَ محلِّ العبرةِ أنسبُ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ولكُم منافعُ كثيرةٌ فيها)؛ ليكونَ ﴿فِيهَا﴾ صفةً ثانيةً لـ ﴿مَنَٰفِعُ﴾، لكنْ قُدِّمَ ﴿فِيهَا﴾ على ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في قولِ الحقِّ تعالى ذِكرُهُ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾؛ تعظيمًا لمنافعِ الأنعامِ، حتَّى كأنَّ منافعَ غيرِها بالنِّسبةِ إلى منافعِها عَدَمٌ[1]، ولأنَّهُ لمّا كانَ المقامُ للحثِّ على الاعتبارِ كانَ تقديمُ مَحَلِّ العِبْرةِ أنسبَ.

نكتةُ الجمعِ في قولِهِ: ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

الإشارةُ إلى التَّعدُّدِ والتَّنوُّعِ مفيدٌ في الإيضاحِ

جيءَ بلفظِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ مجموعًا؛ لِما تدلُّ عليهِ صيغةُ الجمعِ مِنْ تعدُّدِ منافعِ الأنعامِ وتنوُّعِها، مِنَ الحَمْلِ عليها، والانتفاعِ بجُلودِها، وأصوافِها، وأوبارِها، وأشعارِها، وغيرِ ذلكَ ممّا يطولُ عَدُّهُ[2]، وذلكَ أنسبُ بمقامِ الامتنانِ؛ لِما يُشيرُ إليهِ مِنْ كثرةِ النِّعَمِ المُستوجبةِ للشُّكْرِ، وبمقامِ الاعتبارِ؛ لِما يُشيرُ إليهِ مِنْ كثرةِ مواطنِ العِبْرةِ بحيثُ لا تكادُ تُحصَى، وإنَّما تُذكَرُ مُجمَلةً، ويُحالُ على السّامعِ في تفصيلِها وبيانِها.

علَّةُ تنكيرِ قولِهِ تعالى: ﴿مَنَٰفِعُ﴾:

تعظيمُ شأنِ المنافعِ مؤذنٌ بأهمِّيَّتِها البالغةِ

جيءَ بلفظِ ﴿مَنَٰفِعُ﴾ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ مُنكَّرًا؛ لِما يُفيدُهُ التَّنكيرُ الواردُ في سياقِ الامتنانِ والحثِّ على الاعتبارِ مِنْ تعظيمِ شأنِ منافعِ الأنعامِ وتفخيمِهِ، أي: ولكُم في الأنعامِ منافعُ عظيمةُ الشَّأنِ كثيرةٌ، ولا شكَّ أنَّ السّامعَ العاقلَ إذا طَرَقَ سَمْعَهُ هذا الخبرُ يُسارِعُ إلى التَّأمُّلِ والتَّفكُّرِ لمعرفةِ هذهِ المنافعِ الجليلةِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 127.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 140.

نُكتةُ وصفِ المنافعِ بالكثرةِ:

ملمحيَّة تقوية الدّاعي إلى الشُّكرِ والاعتبارِ

في وصفِ منافعِ الأنعامِ بالكثرةِ في قولِ اللهِ علَتْ كلمتُهُ: ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾ تقويةٌ لداعي الحثِّ على الاعتبارِ، وداعي الشُّكرِ للمُنعِمِ المُتفضِّلِ ﷻ، فالمُخاطَبونَ مُحاطونَ بنِعَمٍ كثيرةٍ تدعوهم إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ والشُّكرِ، أي: ولكُم في الأنعامِ منافعُ كثيرةٌ سوى الألبانِ، وهي منافعُ الأصوافِ والأوبارِ والأشعارِ والنِّتاجِ ونحوِ ذلكَ ممّا يَكثُرُ عَدُّهُ[1].

إعرابُ جملةِ ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾:

عطفُ الجملةِ على ما قبلَها مُسهِمٌ في تكامل المعنى وتعانقِهِ

الظّاهرُ أنَّ جملةَ ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿وَلَكُمۡ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٞ﴾[2]، وهي مِثلُها داخلةٌ في حيِّزِ بيانِ العِبرةِ الَّتي في الأنعامِ[3]، فتُفيدُ أنَّ مِنْ جملةِ العِبَرِ الأكلَ منها؛ إذ أعدَّها اللهُ صالحةً لتغذيةِ البشرِ بلُحومِها لذيذةِ الطَّعْمِ، وألهمَ إلى طريقةِ شَيِّها وطَبْخِها، وفي ذلكَ مِنَّةٌ عظيمةٌ ظاهرةٌ[4].

وقيلَ: الجملةُ معطوفةٌ على جملةٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: (تَصْرِفونَها في تلكَ المنافعِ، ومنها تأكلونَ)[5].

دلالةُ حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿وَمِنۡهَا﴾:

ورودُ التَّبعيضِ؛ لأنَّ من أجزاءِ الأنعامِ ما لا يُؤكل

حرفُ الجرِّ (مِنْ) في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ للتَّبعيضِ، والمعنى: وبعضَها تأكلونَ، أي: لُحومَها[6]، وإنَّما حُمِلَتْ (مِنْ) على البعضيَّةِ؛ لأنَّ مِنْ أجزاءِ الأنعامِ ما لا يُؤكَلُ[7].

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(2) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 569.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 128.
(6) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 325.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 225.

ملمحُ تعظيمِ مأكولِ الأنعامِ، ومراعاةُ الفاصلةِ في الكلامِ

نكتةُ تقديمِ قولِه: ﴿وَمِنْهَا﴾:

قُدِّمَ ﴿وَمِنْهَا﴾ على ﴿تَأْكُلُونَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ تعظيمًا لمأكولِ الأنعامِ[1]، ومراعاةً للفاصلةِ[2].

وقيلَ: التَّقديمُ للحصرِ الإضافيِّ بالنِّسبةِ للحميرِ ونحوِها[3]، أي: تأكلونَ منها، لا مِنَ الخيلِ والبِغالِ والحميرِ[4].

وقيلَ: الحصرُ باعتبارِ ما في ﴿تَأْكُلُونَ﴾ مِنَ الدَّلالةِ على العادةِ المُستمِرَّةِ[5]، أي: ومنها تأكلونَ باستمرارٍ، ولا يُنافي ذلكَ الأكلَ مِنَ الحُمُرِ الوحشيَّةِ مثلًا؛ لأنَّ الأكلَ منها لا يكونُ باستمرارٍ.

استمرارُ الأكلِ وتجدُّدُه، دليلُ وجودِ النِّعمِ باطِّرادٍ

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تَأْكُلُونَ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ اللهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الأكلَ مِنْ لُحومِ الأنعامِ أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ لا ينقطعُ، وفي ذلكَ زيادةُ مبالغةٍ في المِنَّةِ على العِبادِ؛ إذ إنَّ النِّعمةَ الدّائمةَ المُستمِرَّةَ تستوجبُ شُكرَ المُنعِمِ المُتفضِّلِ بها ﷻ؛ لأنَّهُ معَ التَّفضُّلِ بها لم يُخْلِ منها وقتًا مِنَ الأوقاتِ.

تعظيمُ شأنِ منفعتَيِ الأكلِ والحَمْلِ، لاتِّصالِهما بالتَّعاملِ اليوميِّ

نُكتةُ تخصيصِ منفعتَيِ الأكلِ والحَمْلِ بالنَّفعِ:

ذكرَ ﷻ في قولِه: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ﴾ ما في الأنعامِ مِنَ المنافعِ إجمالًا، يعني: في ظُهورِها وألبانِها وأولادِها وأصوافِها وأشعارِها، ثمَّ ذكرَ منفعةً خاصَّةً، فقالَ: ﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ لِما في الأكلِ مِنْ عظيمِ الانتفاعِ لهُم[6]، ولكونِه انتفاعًا مُغايرًا لِما سبقَ مِنْ حيثُ كونُهُ انتفاعًا بأعيانِها بعدَ ذَبحِها، بخلافِ المنافعِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 128.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 325.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 325.
(4) اطفيش، تفسير اطفيش: 6/ 373.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 225.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 567.

السّابقةِ، فإنَّها انتفاعٌ بمنافعِها الخارجةِ عن ذواتِها وهي حيَّةٌ باقيةٌ بأعيانِها[1].

وكذلكَ ذكرَ ﷻ الرُّكوبَ عليها؛ لِما فيهِ مِنَ المنفعةِ العظيمةِ، فقالَ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾[2].

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾:

الواوُ في قولِ اللّٰهِ ﷻ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ للعطفِ، وهي تُفيدُ دخولَ هذهِ الجملةِ في حيِّزِ الجُملِ الَّتي فيها بيانُ العِبرةِ المذكورةِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَإِنَّ لَكُمۡ فِي ٱلۡأَنۡعَٰمِ لَعِبۡرَةٗۖ﴾[3].

ربْطُ الجملةِ بعطفِها متمٌّ لمعنى السّياقِ فيما قبلَها

عَوْدُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾:

الضَّميرُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ للأنعامِ[4]؛ فإنَّ منها ما يُحمَلُ عليهِ كالإبلِ والبقرِ[5].

وقيلَ: الضَّميرُ للإبلِ خاصَّةً؛ لأنَّها هي المحمولُ عليها عندَهم، والمناسبُ للفُلْكِ؛ فإنَّها سفائنُ البَرِّ، والفُلْكَ سفائنُ البحرِ[6].

الضَّميرُ للأنعامِ أو للإبلِ خاصَّةً؛ لأنَّها سفائنُ الصَّحراءِ

نُكتةُ تقديمِ قولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا﴾:

لمّا كانَ التَّفاوتُ بينَ الحيواناتِ في القوى وسهولةِ الانقيادِ دالًّا على كمالِ القُدرةِ، وكانَ الحَمْلُ للنَّفْسِ والمتاعِ عليها وعلى غيرِها مِنَ الحيوانِ مِنْ أجلِّ المنافعِ، بحيثُ لولاهُ لتعطَّلَتْ أكثرُ المصالحِ - ذكرَهُ فيها مُذكِّرًا بغيرِها في البَرِّ تلويحًا، وذاكرًا لمحاملِ البحرِ تصريحًا، فقالَ مُقدِّمًا للجارِّ؛ عَدًّا لحَمْلِ غيرِها بالنِّسبةِ إلى حَمْلِها عَدَمًا: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾[7].

تعظيمُ شأنِ الحَمْلِ على الأنعامِ، لأهمِّيَّتِهِ في جزيرةِ العربِ

(1) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 155.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 567.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 39.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 24، والنسفي، مدارك التنزيل: 2/ 464.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 128.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 181.
(7) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 128.

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿وَعَلَيْهَا﴾:

الـدَّلالـةُ على تمكُّنِ المُخاطَبينَ مِنَ الأنعامِ عندَ رُكوبِها

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ على تمكُّنِ المُخاطَبينَ مِنَ الأنعامِ عندَ رُكوبِها والحَمْلِ عليها، فهي مَطيَّةٌ لهُم ولأمتعتِهم وأثقالِهم، وهم مُستَعْلونَ عليها استعلاءً حسّيًّا مُشاهَدًا، وفي ذلكَ مزيدُ تحريكٍ لدواعي الشُّكرِ في نفوسِهم؛ حيثُ سخَّرَ اللّهُ لهُم هذهِ الأنعامَ وذلَّلَها لهُم على ضَعْفِهم وقوَّتِها.

معنى الواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾:

الـعـطـفُ هنا لإشراكِ الأنعامِ مـع الـفُـلـك في حمْلِهم عليها

الواوُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾ لعطفِ الفُلْكِ على الهاءِ، في قولِه: ﴿وَعَلَيْهَا﴾ العائدةِ على الأنعامِ؛ للتَّشريكِ بينَهما في حكمِ الحَمْلِ عليهما.

وفي هذا التَّشريكِ مبالغةٌ في تحمُّلِ الأنعامِ للحَمْلِ، وهو الدّاعي إلى تأخيرِ ذكرِ هذهِ المنفعةِ عن ذكرِ منفعةِ الأكلِ المُتعلِّقةِ بعينِ الأنعامِ[1].

وفيهِ أيضًا تتميمٌ للنِّعمةِ، وتكميلٌ للمِنَّةِ؛ لأنَّهُ لمّا كانتِ الأنعامُ غالبَ ما يكونُ الرُّكوبُ عليهِ في البَرِّ - ضمَّ إليها ما يكونُ الرُّكوبُ عليهِ في البحرِ[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿وَعَلَى ٱلْفُلْكِ﴾:

التَّعبيرُ بـ (على) مـشـاكـلـةٌ في السّياقِ الحكيمِ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (وعليها وفي الفُلْكِ تُحْمَلونَ)؛ لأنَّ الحَمْلَ يكونُ في السُّفُنِ لا عليها، كما في قولِه تعالى: ﴿فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [يونس: 73]، وقولِه: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ﴾ [العنكبوت: 65]، وقولِه: ﴿حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ۝٤١﴾ [يس: 41]، لكنْ عُبِّرَ بـ (على)

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 226.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 567.

في قولِه تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ على سبيلِ المشاكلةِ والمناسبةِ لاستعمالِ (على) في جانبِ الأنعام[1].

معنى (أل) في قولِه: ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾:

اللّامُ للجنسِ تستغرقُ كلَّ ما يُطلقُ عليه لفظُ فلكٍ عُرفًا

لامُ ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ للجنسِ؛ إذ ليسَ القصدُ إلى معهودٍ، ولا إلى بعضِ أفرادِ الفُلْكِ دونَ بعضٍ، والمعنَى: وعليها وعلى الجنسِ المُسمَّى بالفُلْكِ تُحمَلونَ.

نُكتةُ تقديمِ الأنعامِ على الفُلْكِ في الحمل:

العلَّةُ راجعةٌ إلى تقديمِ الغالبِ، ومراعاةِ حُسْنِ النَّظمِ

قُدِّمَ الحَمْلُ على الأنعامِ على الحَمْلِ على الفُلْكِ في قولِه ﷻ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾؛ لأنَّ الحَمْلَ على الأنعامِ هو الغالبُ والأكثرُ، ولأنَّ في تقديمِ الحَمْلِ عليها مراعاةً لحُسْنِ نظمِ الكلامِ، بذكرِ مواطنِ العِبْرةِ في الأنعامِ متتاليةً، لا يفصلُ بينَها شيءٌ ليسَ منها.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ في قولِه: ﴿تُحۡمَلُونَ﴾:

الدَّلالةُ على الاعتيادِ والاستمرارِ مناسبةٌ للمضارعيَّةِ

يُشيرُ التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ إلى اعتيادِ المُخاطَبينَ الحَمْلَ على الأنعامِ والفُلْكِ، واستمرارِ ذلكَ منهُم[2]، وذلكَ أعظمُ في المِنَّةِ الَّتي سيقَ الكلامُ لأجلِها، وأدعى لشُكْرِ المُنعِمِ المَنّانِ جلَّ وتباركَ.

وفي صيغةِ المضارعِ أيضًا تصويرٌ للحالةِ البديعةِ العجيبةِ الشَّأنِ للحَمْلِ على الأنعامِ والفُلْكِ؛ وكأنَّ السّامعَ يرى صورةَ الأنعامِ وهي في غايةِ الذُّلِّ والانقيادِ لراكبيها بالرَّغمِ مِنْ قوَّتِها وصعوبةِ انقيادِها، ويرى صورةَ الفُلْكِ وهي تَمْخَرُ ماءَ البحرِ مسافاتٍ طويلةً، وهي مُحمَّلةٌ بالرُّكّابِ والبضائعِ ونحوِهما.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمبنيِّ للمفعولِ في ﴿تُحۡمَلُونَ﴾:

لمّا كانَ مِنَ المعلومِ مِنْ تذليلِ الأنعامِ على كِبَرِها وقوَّتِها وامتناعِ

(1) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 159.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 325.

غيرِها على صِغَرِهِ وضَعْفِهِ أنَّهُ لا فاعلَ لذلكَ إلّا اللّهُ، معَ أنَّ المُمْتَنَّ بهِ نفسُ الحَمْلِ، لا بالنَّظرِ إلى شيءٍ آخرَ - بُنِيَ للمفعولِ قولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، أي: بإنعامِهِ سبحانَهُ عليكُم بذلكَ، ولو شاءَ لمنعَهُ، فتذكَّروا عظيمَ قُدرتِهِ، وعظِّموهُ حقَّ تعظيمِهِ، واشكُروهُ على ما أولاكم مِنْ تلكَ النِّعَمِ، وأخلِصوا لهُ الدّينَ لتُفْلِحوا[1].

تفخيمُ شأنِ الفاعلِ الحاملِ لهم عليها، وهو اللهُ دونَ سواه

براعةُ التَّخلُّصِ من الفُلْك إلى قصَّةِ نوح:

في ذكرِ الحَمْلِ على الفُلْكِ، في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾ إدماجٌ وتهيئةٌ للتَّخلُّصِ إلى قصَّةِ نوحٍ عليه السلام المُشتمِلةِ على صُنْعِ السَّفينةِ ورُكوبِها[2].

بيانُ التَّوطِئةِ لتناولِ قصَّةِ نوحٍ مع الفلكِ بالتَّفصيلِ

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المَتاعُ والمنفعةُ:

الفرقُ بينَ المَتاعِ والمنفعةِ: أنَّ المَتاعَ هو النَّفْعُ الَّذي تُتعجَّلُ بهِ اللَّذَّةُ، وذلكَ إمّا لوجودِ اللَّذَّةِ، وإمّا بما يكونُ معَهُ اللَّذَّةُ، كالمالِ النَّفيسِ. وأمّا المنفعةُ فقد تكونُ بما تتأجَّلُ بهِ اللَّذَّةُ، كإصلاحِ الطَّعامِ، وتبريدِ الماءِ لوقتِ الحاجةِ إلى ذلكَ[3].

المَتاعُ النَّفْعُ الَّذي تُتعجَّلُ بهِ اللَّذَّةُ، وقد يكونُ النَّفْعُ بما تتأجَّلُ بهِ اللَّذَّةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 128.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 40.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 476.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ ٱلْمَلَؤُا۟ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِىٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾﴾ [المؤمنون: 23 - 25]

مُناسَبَةُ الآياتِ لِما قَبْلَها:

التَّمثيلُ بأحوالِ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بعدَ بيانِ دلائلِ التَّوحيدِ

في مناسبةِ الآياتِ لِما قبلَها وجوهٌ متقاربةٌ:

منها: أنَّها ابتداءُ تمثيلٍ لكفّارِ قُريشٍ بأُمَمٍ كفرَتْ بأنبيائِها، فأُهلِكوا، وفي ذلكَ وعيدٌ بأنْ يَحُلَّ بهؤلاءِ نحوُ ما حلَّ بأولئكَ[1].

ومنها: أنَّهُ ﷻ لمّا بيَّنَ دلائلَ التَّوحيدِ أردفَها بالقَصَصِ، كما هو العادةُ في سائرِ السّوَرِ[2].

ومنها: أنَّ الكلامَ شُروعٌ في بيانِ إهمالِ الأُمَمِ السّابقةِ، وتركِهم النَّظرَ والاعتبارَ فيما عُدِّدَ مِنَ النِّعَمِ الفائتةِ للحصرِ، وعدمِ تذكُّرِهم بتذكيرِ رُسُلِهم، وما حاقَ بهم لذلكَ مِنْ فُنونِ العذابِ[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَؤُا۟﴾: (ملأ) أصلٌ يدلّ علَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ[4]، الملأُ: الأشرافُ، سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم يملؤونَ القُلوبَ هَيْبةً، والعُيونَ جلالةً[5]، وقيلَ: الملأُ: جماعةٌ يجتمعونَ على رأيٍ، فيملؤونَ العُيونَ رواءً ومنظرًا، والنُّفوسَ بَهاءً وجلالًا، قالَ ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 40.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ملأ).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ملأ).

﴿ٱلۡمَلَإِ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [البقرة: 246]، ويقالُ: فلانٌ مِلْءُ العُيونِ، أي: مُعظَّمٌ عندَ مَنْ رآهُ، كأنَّهُ ملأ عينَهُ مِنْ رؤيتِهِ، ومالأْتُهُ: عاونتُهُ وصِرْتُ مِنْ مَلَئِهِ، أي: جَمْعِهِ[1].

2) ﴿يَتَفَضَّلَ﴾: (فضل) أصلٌ يدلُّ على زيادةٍ في شيءٍ[2]، ومِنْ ذلكَ: الفَضْلُ، وهو الزّيادةُ والخيرُ، والإفضالُ: الإحسانُ، يقالُ: رجلٌ مُفْضِلٌ[3]، وأمّا المُتفضِّلُ فالمُدَّعي للفضلِ على أقرانِهِ، قالَ تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾[4]، والفَضْلُ إذا استُعمِلَ لزيادةِ أحدِ الشَّيئينِ على الآخرِ فعلى ثلاثةِ أضرُبٍ: فضْلٌ مِنْ حيثُ الجنسُ، كفَضْلِ جنسِ الحيوانِ على جنسِ النَّباتِ، وفَضْلٌ مِنْ حيثُ النَّوعُ، كفَضْلِ الإنسانِ على غيرِهِ مِنَ الحيوانِ، وفَضْلٌ مِنْ حيثُ الذّاتُ، كفَضْلِ رجلٍ على آخرَ[5].

3) ﴿جِنَّةٌ﴾: (جن) أصلٌ واحد يدلُ على سَتْرِ الشَّيءِ[6]، فالجَنَّةُ: ما يصيرُ إليهِ المُسلمونَ في الآخرةِ، وهو ثوابٌ مستورٌ عنهم اليومَ، والجَنَّةُ: البستانُ؛ لأنَّ الشَّجرَ بورَقِه يَسْتُرُ، والجِنَّةُ: الجنونُ؛ لأنَّهُ يُغطّي العقلَ، وجَنانُ اللَّيلِ: سوادُهُ وسَتْرُهُ الأشياءَ، والجِنُّ سُمّوا بذلكَ؛ لأنَّهم مُتستِّرونَ عن أعيُنِ الخَلْقِ[7]، والمِجَنُّ والمِجَنَّةُ: التُّرْسُ الَّذي يُجِنُّ صاحبَهُ، أي: يسترُهُ[8]، والجَنانُ: القلبُ؛ لاستتارِهِ بالصَّدْرِ[9].

4) ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: (ربص) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على الانتظارِ[10]، فالتَّربُّصُ: الانتظارُ بالشَّيءِ، سواءٌ كانَ سلعةً يُقصَدُ بها غلاءٌ أو رُخْصٌ، أو أمرًا يُنتظَرُ زوالُهُ أو حصولُهُ، يقالُ: تربَّصْتُ بكذا، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ﴾ [البقرة: 228][11].

5) ﴿حِينٍ﴾: (حين) أصلٌ واحدٌ، ثمّ يُحملُ عليه، والحينُ: الزَّمانُ قليلُهُ وكثيرُهُ، يقالُ:

(1) الراغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فضل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فضل).
(4) الخليل، العين: (فضل)، والزمخشري، أساس البلاغة: (فضل).
(5) الراغب، المفردات: (فضل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فضل).
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (جنن).
(7) الجوهري، الصحاح: (ربص)، وابن فارس، مقاييس اللغة: (جنن).
(8) الراغب، المفردات: (جنن).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (جنن).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ربص).
(11) الراغب، المفردات: (ربص)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ربص).

عاملتُ فلانًا مُحايَنةً، وأحيَنْتُ بالمكانِ: أقمتُ بِهِ حينًا[1]، وحانَ حينُ كذا، أي: قَرُبَ أوانُهُ، وحيَّنتُ الشَّيءَ: جعلتُ لهُ حينًا، ويُعبَّرُ بالحينِ أيضًا عن وقتِ الموتِ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

ذكرُ شُبَهِ قومِ نوحٍ عليه السلام في إنكارِ نُبوَّتِهِ ومجادلته بالباطل

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن نوحٍ عليه السلام حينَ بعثَهُ إلى قومِهِ؛ ليُنذِرَهم عذابَ اللّهِ وانتقامَهُ ممَّنْ أشركَ بهِ، وخالفَ أمرَهُ وكذَّبَ رُسُلَهُ، فيقولُ: ولقد أرسَلْنا نوحًا إلى قومِهِ، فقالَ لهُم نوحٌ: يا قومِ اعبُدوا اللّهَ؛ ما لكُم مِنْ معبودٍ يجوزُ لكُم أنْ تَعْبُدوهُ غيرُهُ، أفلا تَخْشَوْنَ بعِبادتِكم غيرَهُ أنْ يَحُلَّ بكُم عقابُهُ.

ثمَّ يُخبِرُ سبحانَهُ عن جوابِ قومِ نوحٍ، أنّ جماعةً من أشرافِ قومِ نوحٍ الَّذينَ جَحَدوا توحيدَ اللّهِ قالوا لقومِهم: (ما نوحٌ أيُّها القومُ إلَّا إنسانٌ مِثْلُكم، يريدُ أنْ يصيرَ لهُ الفَضْلُ عليكُم، فيكونَ متبوعًا، وأنتم لهُ تَبَعٌ، ولو شاءَ اللّهُ إرسالَ الرُّسُلِ لأرسلَ بالدُّعاءِ إلى ما يدعوكُم إليهِ نوحٌ ملائكةً تُؤدّي إليكُم رسالتَهُ، ما سَمِعْنا بهذا في القُرونِ الماضيةِ، ما نوحٌ إلّا رجلٌ بِهِ جُنونٌ فتلبَّثوا بِهِ إلى وقتٍ ما)[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا﴾:

بيانُ أثرِ الجملة الاستئنافيَّةِ في عرض المعنى وتجليتِهِ

الواوُ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ استئنافيَّةٌ[4]، والجملةُ مستأنفةٌ لذكرِ أمثالٍ لكفّارِ قريشٍ مِنَ الأُمَمِ السّابقةِ المُنكِرةِ لإرسالِ اللّهِ رُسُلًا، المُكذِّبةِ بما جاءَتهم بهِ الأنبياءُ عنِ اللّهِ[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حين).
(2) الراغب، المفردات: (حين).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 25.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556.

سرُّ الابتداءِ بقصَّةِ نوحٍ عليه السلام:

مناسبةُ قصَّةِ نوحٍ عليه السلام لذكرِ الفُلْكِ

ذكرَ سبحانه وتعالى على سبيلِ الحثِّ على الاتِّعاظِ والاعتبارِ أمثالًا لكفّارِ قريشٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبةِ بما جاءَتْهم بِهِ الأنبياءُ عنِ اللّهِ، وابتدأ بقصَّةِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّهُ الأبُ الثّاني للبَشَرِ، كما ذكرَ أوَّلًا آدمَ عليه السلام في قولِه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: 12]، ولمناسبةِ قصَّتِه لِما قبلَها، وهو قولُهُ تعالى: ﴿وَعَلَيۡهَا وَعَلَى ٱلۡفُلۡكِ تُحۡمَلُونَ﴾، فذكرَ سبحانَهُ قصَّةَ مَنْ صنعَ الفُلْكَ أوَّلًا[1]، ولأنَّ قصَّتَهُ أشهرُ القَصَصِ[2].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ﴾:

بيانُ أثرِ اللّامِ باعتبارِها واقعةً في جوابِ قَسَمٍ محذوفٍ

اللّامُ في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾، واقعة في جواب قَسَم محذوفٍ، وتصدير القصَّةِ بها؛ لإظهارِ كمالِ الاعتناءِ بمضمونِها؛ لأنَّ لامَ القَسَمِ مِنَ المؤكِّداتِ، وإنَّما يُؤكَّد المُعتنَى بهِ، أي: وباللّهِ لقد أرسَلْنا نوحًا إلى قومِهِ[3].

نكتةُ دخولِ (قد) على الفعلِ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

تحقيقُ الإرسالِ مؤكَّدٌ بحرفِ التَّحقيقِ وأسلوبِه

لمّا كانَ المقامُ لإظهارِ الاعتناءِ بمضمونِ قصَّةِ نوحٍ عليه السلام أُدخِلَ حرفُ (قد) على الفعلِ الماضي ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ في قولِ الحقِّ جل جلاله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ لأنَّ دخولَ (قد) على الفعلِ الماضي يُفيدُ تحقيقَهُ، فإرسالُ نوحٍ عليه السلام إلى قومِهِ أمرٌ مُحقَّقٌ معلومٌ، لا شكَّ فيهِ ولا امتراءَ.

نكتةُ إسنادِ الإرسالِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

تعظيمُ شأنِ الإرسالِ بعظمة المُرسِلِ جل جلاله

أُسنِدَ الإرسالُ إلى نونِ العظَمةِ في قولِهِ عزَّ وتبارَكَ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الإرسالِ بأنَّهُ صادرٌ عن ذي

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 556، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 569.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 129.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 227، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 40.

العظَمةِ والجلالِ ﷻ، وإشارةً إلى زيادةِ التَّسليةِ لنبيِّنا ﷺ بأنَّهُ أوتيَ مِنَ الآياتِ ما مِثْلُهُ آمنَ عليهِ البشرُ، وقامَ هو ﷺ بذلكَ حقَّ القيامِ(1)، وفيهِ أيضًا تعظيمٌ وتفخيمٌ للمُرسَلِ، وهو نوحٌ عليه السلام.

نكتةُ إضافةِ القومِ إلى الضَّميرِ:

بيانُ رحمةِ اللهِ بالمُرسَلِ إليهم

الإضافةُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بمعنى اللّامِ، يعني: إلى قومٍ لهُ؛ لأنَّهُ منهُم، ومأمونٌ عليهِم، ومعروفٌ لهُم سيرتُهُ الأولى، فإذا قالَ لهُم لا يتَّهمونَهُ، فمِنْ رحمةِ اللّهِ بالعِبادِ أنْ يُرسِلَ إليهِم واحدًا منهُم، كما قالَ سبحانَهُ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ﴾ الآيةَ [التوبة: 128]، ففي هذا إيناسٌ للقومِ، ولو كانَ الرَّسولُ ملَكًا مثلًا لاستوحشَ القومُ منهُ، ولم يَأنَسوا بهِ، والمعنى هنا: (لم نأتِ لهُم برسولٍ مِنْ جنسٍ آخرَ، ولا مِنْ قبيلةٍ أخرى، بل منهُم، فيأنَسونَ بما يجيءُ بهِ، ولا يَقفونَ منهُ موقفَ المُعاداةِ)(2).

سرُّ العطفِ بالفاءِ في جملة ﴿فَقَالَ﴾:

الـدَّلالـةُ على سُرعةِ الامتثالِ، منبئةٌ عن فحوى المَقالِ

عطفُ قولِهِ تعالى: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ على قولِهِ: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ بفاءِ التَّعقيبِ؛ لإفادةِ أداءِ نوحٍ عليه السلام رسالةَ ربِّهِ بالفَوْرِ مِنْ أمرِهِ تعالى، وذلكَ هو شأنُ الامتثالِ(3)، وفي ذلكَ مدحٌ لهُ عليه السلام وتعظيمٌ لشأنِهِ.

نُكتةُ الإضافةِ بين نوحٍ وقومِهِ ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

الإضـافـةُ للاستعطافِ والشَّفقةِ مناسبةٌ للمقصودِ في السّياقِ

أضافَ نوحٌ عليه السلام في النِّداءِ قومَهُ إلى نفسِهِ، فقالَ: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾؛ استعطافًا لهُم، وترفُّقًا بهِم، وشَفقةً عليهِم(4)، واستمالةً لهُم إلى الحقِّ(5)؛ لأنَّ المَقامَ مقامُ دعوةٍ لهُم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10000.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.

إلى أهمِّ قضيَّةٍ في الوجودِ، وهي عِبادةُ اللّهِ وتوحيدُهُ، وهي خلافُ ما ألِفوهُ مِنَ الشِّركِ، فاحتاجَ إلى التَّلطُّفِ والتَّرفُّقِ بهِم؛ استنزالًا لطائرِ كِبْرِهم وعِنادِهم، وذلكَ مِنْ رحمتِهِ وحكمتِهِ ﵇، وينبغي أنْ يقتديَ بِهِ الدُّعاةُ إلى اللّهِ ﷻ.

نكتةُ حذفِ الياءِ في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

حُذِفَتِ الياءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾، ولم يُقَلْ: (يا قومي)؛ إيجازًا واختصارًا.

دلالةُ الأمرِ في الفعلِ: ﴿ٱعۡبُدُواْ﴾:

الأمرُ بالعبادة للوجوبِ، وهو جوهرُ الرِّسالاتِ عبرَ العصورِ

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ هنا؛ لأنَّ الأمرَ بعِبادةِ اللّهِ جلَّ وعزَّ ما يُتصوَّرُ أنْ يكونَ لغيرِ الوجوبِ، وهو لُبُّ لُبابِ الرِّسالاتِ السَّماويَّةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ تحديدًا:

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لسياقِ الأمرِ بالعِبادةِ في السّياقِ المحكم

اختيرَ لفظُ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ﴾، ولم يُقَلْ مثلًا: (اعبُدوا ربَّكم)؛ لِما يُشيرُ إليهِ لفظُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الكمالِ والجلالِ الَّتي بها تُستحَقُّ الأُلوهيَّةُ، فيكونُ أنسبَ بمقامِ الدَّعوةِ إلى عبادةِ اللّهِ ﷻ وتوحيدِهِ، أي: اعبُدوا المَلِكَ الأعظمَ الَّذي لا كُفْءَ لهُ؛ لأنَّهُ الهُكم وحدَهُ؛ لاستحقاقِهِ جميعَ خِلالِ الكمالِ[1].

علَّةُ تركِ القصرِ في الأمرِ بالعِبادةِ:

العِـبـادةُ معَ الإشراكِ ليسَتْ مِنَ العِبادةِ في شيءٍ

قولُهُ ﷻ: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ معناهُ: اعبُدوهُ وحدَهُ، كما يُفصِحُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَن لَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَۖ﴾ [هود: 26][2]، ولأنَّ مقامَ الخطابِ معَ المشركينَ استدعَى الاختصاصَ[3]، وتركُ التَّقييدِ بهِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.

(3) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 159.

للإيذانِ بأنَّها هي العِبادةُ فقطْ، وأمّا العِبادةُ معَ الإشراكِ فليسَتْ مِنَ العِبادةِ في شيءٍ أصلًا[1].

وقيلَ: قد حُكيَتْ دعوةُ نوحٍ ﷺ قومَهُ في أكثرِ الآياتِ بصيغةِ أمرٍ بأصلِ عِبادةِ اللّهِ دونَ الأمرِ بقَصْرِ عِبادتِهم على اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ دليلٌ على أنَّهم وإنْ عَبَدوا الأصنامَ ما كانوا يُنكِرونَ وجودَ اللّهِ، ولذلكَ عقَّبَ كلامَهُ بقولِه: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾، ويدلُّ على هذا قولُهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ فهم مُثبِتونَ لوجودِ اللّهِ[2].

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ مِنَ الأساليبِ البليغة

نكتةُ الفصلِ بين أجزاء الآية الكريمة:

فُصِلَ قولُهُ جلَّ وعزَّ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ عن قولِه: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، ولم يُعْطَفْ عليهِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ جوابًا عن سؤالٍ يقتضيهِ الكلامُ السّابقُ[3]؛ فإنَّهُ لمّا قالَ: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ كأنَّهم قالوا: لِمَ تأمرُنا بعِبادتِهِ؟ فقالَ: لأنَّهُ ما لكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ[4].

وهو تعليلٌ أخصُّ مِنَ المُعلَّلِ، وهو أوقعُ؛ لِما فيهِ مِنَ الإيجازِ؛ لاقتضائِهِ معنَى: اعبُدوا اللّهَ وحدَهُ، فالمعنَى: اعبُدوا اللّهَ الَّذي تركتُم عِبادتَهُ، وهو إلهُكم دونَ غيرِهِ، فلا يستحقُّ غيرُهُ العِبادةَ، فلا تَعْبُدوا أصنامَكم معَهُ[5].

العِبادةُ لله وحده، ولا تكون لأحدٍ سواه

معنى ﴿مَا﴾ في قولِهِ: ﴿مَا لَكُم﴾:

﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نافيةٌ، والمرادُ أنَّ عِبادةَ غيرِ اللّهِ لا تجوزُ؛ إذ لا إلهَ سواهُ ﷻ، ومِنْ حقِّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 182، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.
(4) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 570، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.

العِبادةِ أنْ تكونَ لَمِنْ أنعمَ بالخَلْقِ والإحياءِ وما بعدَهما، فإذا لم يصحَّ ذلكَ إلّا منهُ تعالى فكيفَ يُعْبَدُ ما لا يضرُّ ولا ينفعُ؟!»[1].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَكُم﴾:

لامُ ﴿لَكُم﴾ في قولِهِ جلَّ وتبارك: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ للتَّخصيصِ والتَّبيينِ، أي: ما لكُم في الوجودِ أو في العالَمِ إلهٌ غيرُهُ تعالى[2].

نكتةُ تقديمِ قولِهِ تعالى: ﴿لَكُم﴾:

الاهتمامُ بالمُقدَّمِ، يناسبُ هذا التَّقديم

لمّا كانَ السّياقُ للأمرِ بعبادةِ اللّهِ ﷻ، وبيانِ تفرُّدِهِ بالأُلوهيَّةِ، واستحقاقِهِ العبادةَ دونَ غيرِهِ، وكانَ المُخاطَبونَ ممَّنْ يُشْرِكُ باللّهِ ﷻ؛ قُدِّمَ ﴿لَكُم﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ للاهتمامِ بنفيِ وجودِ إلهٍ غيرِ اللّهِ تعالى للمُخاطَبينَ.

علّةُ الإتيانِ بـ ﴿مِّنْ﴾ في ﴿مِّنْ إِلَٰهٍ﴾:

استغراقُ نفيِ الألوهيَّةِ عن كلِّ مَن سوى الله تعالى

لمّا كانَ الغرضُ مِنْ قولِهِ ﷻ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ نفيَ الأُلوهيَّةِ عن غيرِهِ جلَّ شأنُهُ - أُتيَ بـ ﴿مِّنْ﴾ لإفادةِ استغراقِ النَّفْيِ[3]، أي: ليسَ لكُم إلهٌ غيرُهُ، فلا أُلوهيَّةَ إلّا لهُ ﷻ[4].

غرضُ تنكيرِ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في سياقِ الآيةِ:

التَّنكيرُ للعُمومِ، مفيدٌ للمراد في اللَّفظِ المذكور

نُكِّرَ لفظُ ﴿إِلَٰهٍ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾؛ لإفادةِ التَّعميمِ المناسبِ لسياقِ بيانِ تفرُّدِهِ ﷻ بالأُلوهيَّةِ الموجبةِ لإفرادِهِ بالعِبادةِ.

تَوجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿غَيْرُهُۥٓ﴾ وبلاغتها:

قراءةُ الرَّفعِ باعتبارِ المَحَلِّ، وقراءةُ الجرِّ باعتبارِ اللَّفظِ

قرأ أبو جعفرٍ والكِسائيُّ: ﴿غَيْرِهِۦ﴾ بخفضِ الرّاءِ وكسرِ الهاءِ بعدَها، على اعتبارِ أنّها صفةٌ تابعةٌ لحركةِ اللّفظِ المجرورِ السّابقِ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5063.

لها، وقرأ الباقونَ: ﴿غَيۡرُهُۥٓ﴾ برفعِ الرّاءِ وضمِّ الهاءِ[1]، أمّا الرَّفعُ فعلى أنَّهُ صفةٌ لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ باعتبارِ مَحَلِّهِ الَّذي هو الرَّفعُ على أنَّهُ فاعلٌ، أو مبتدأٌ خبرُهُ ﴿لَكُم﴾، أو محذوفٌ، أي: ما لكُم في الوجودِ أو في العالَمِ إلهٌ غيرُهُ تعالى، وأمّا الجرُّ فباعتبارِ لفظِ ﴿إِلَٰهٍ﴾[2]، فالحجة لمن قرأه بالرفع: أنه جعله حرف استثناء، فأعربه بما كان الاسم يعرب به بعد (إلّا) كقوله تعالى: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [الأنبياء: 22]، ويجوز الرفع في (غير) على الوصف لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾ قبل دخول ﴿مِّنۡ إِلَٰهٍ﴾ عليه كقوله تعالى: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، والحجة لمن خفض: أنه جعله وصفا لـ ﴿إِلَٰهٍ﴾، ولم يجعله استثناء، فهو قولك: (معي درهم غير زائف) [3]، فجمعت القراءتان بين أسلوب الاستثناء الذي يُفهم القصر والحصر، وبين الأسلوب الخبري الوصفي.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

احتمالُ الاستفهامِ معانيَ مُتعدِّدةً من بليغِ البيان

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ تباركَ اسمُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ؛ فإنَّهُ لمّا كانَتْ أدلَّةُ الوَحدانيَّةِ والعظَمةِ في غايةِ الظُّهورِ، لا تحتاجُ إلى كبيرِ تأمُّلٍ، تسبَّبَ عن ذلكَ إنكارُهُ لأَمْنِهم مِنْ مَكْرِهِ، فقالَ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾، أي: أفلا تخافونَ ما ينبغي الخوفُ منهُ، فتجعَلوا لكُم وِقايةً مِنْ عذابِهِ، فتعمَلوا بما تقتضيهِ التَّقوى مِنْ إفرادِهِ بالعِبادةِ[4].

وكذلك يأتي الاستفهامُ للزَّجْرِ والوعيدِ؛ فإنَّهُ لمّا لم ينفعْ فيهِم هذا الدُّعاءُ، واستمرّوا على عِبادةِ غيرِ اللهِ تعالى حذَّرَهم بقولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ ذلكَ زَجْرٌ ووعيدٌ باتِّقاءِ العُقوبةِ؛

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 270.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 129.
(3) ابن خالويه، الحجة، ص: 157.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

لينصرِفوا عمّا هم عليهِ[1]، وقيلَ: الاستفهامُ للتَّنبيهِ والتَّحريضِ على اتِّقاءِ العذابِ[2].

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

بيانُ كونِ الفاءِ للتَّعقيبِ، والعطفِ على محذوفٍ

الهمزةُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ لإنكارِ الواقعِ واستقباحِهِ، والفاءُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقتضيهِ المقامُ، أي: أتَعْرِفونَ مضمونَ قولِهِ تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ فلا تتَّقونَ عذابَهُ، بسببِ إشراكِكم بِهِ في العِبادةِ ما لا يستحقُّ الوجودَ لولا إيجادُ اللهِ تعالى إيّاهُ، فضلًا عنِ استحقاقِ العِبادةِ؟ فالمُنكَرُ عدمُ الاتِّقاءِ مَعَ تحقُّقِ ما يوجِبُهُ.

أوِ المعنَى: ألا تُلاحظونَ ذلكَ فلا تتَّقونَهُ؟! فالمُنكَرُ كلا الأمرينِ، فالمبالغةُ حينئذٍ في الكمّيَّةِ، وفي الأوَّلِ في الكيفيَّةِ[3].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

الدَّلالةُ على استمرارِ انتفاءِ التَّقوى منبئةٌ عن المطلوب

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ اللهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ انتفاءِ التَّقوى مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام؛ لأنَّ المضارعَ يُفيدُ استمرارَ الفعلِ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفْيُ أفادَ استمرارَ انتفائِهِ.

وإنْ كانَ الاستفهامُ للإنكارِ فهو لإنكارِ استمرارِ انتفاءِ التَّقوى مَعَ وجودِ ما يوجِبُ حصولَها.

غرضُ حذفِ مفعولِ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

دلالةُ قرينةِ الحالِ على المحذوفِ، مفيدةٌ في الإبانة عن المراد

حُذِفَ مفعولُ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ قرينةَ الحالِ تدلُّ عليهِ، والمعنَى: أفلا تتَّقونَهُ، أو أفلا تتَّقونَ عذابَهُ؛ لأنَّ المُشرِكَ غيرُ مُتَّقٍ للهِ عز وجل، وغيرُ مُتَّقٍ لعذابِهِ، فالحذفُ للتّعميمِ.

نُكتةُ العطفِ بالفاءِ في: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ﴾:

في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10004.

(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5063.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 227.

إفادةُ سُرعةِ التَّكذيبِ ملائمةٌ للعطف بفاء التَّعقيبِ

﴿مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ خولِفتْ في حكايةِ جوابِ الملأِ مِنْ قوم نوح عليه السلام الطَّريقةُ المألوفةُ في القرآنِ في حكايةِ المُحاوَرات، وهي تركُ العطفِ، فعُطِفَ هنا جوابُ الملأِ مِنْ قومِهِ بالفاءِ؛ لوجهين:

أحدُهما: أنَّهم لم يوجِّهوا الكلامَ إليهِ، بل تركوهُ وأقبلوا على قومِهم يُفنِّدونَ لهُم ما دعاهُم إليهِ نوحٌ عليه السلام؛ حرصًا منهُم على صرفِ النّاسِ عنِ اتِّباعِهِ.

والثّاني: ليُفادَ أنَّهم أسرَعوا بتكذيبِهِ وتزييفِ دعوتِهِ قبلَ النَّظرِ والتَّفكُّرِ(1).

معنى (أل) في لفظ ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾:

تحديدُ الملأِ من قوم نوحٍ انتقاءٌ دقيقٌ للفظِ المُستعمل

اللّامُ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ للعهدِ؛ لأنَّ المرادَ بهم مَلَأٌ مخصوصٌ، وهم مَلَأُ قومِ نوحٍ عليه السلام، ويدلُّ على ذلكَ قولُهُ تعالى: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾.

نُكتةُ وصفِ الملَأِ بالكفرِ:

الإيذانُ بكمالِ عَراقتِهم في الكفرِ وصمٌّ لهم بعارِه

وصفُ المَلَأ بالكفرِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ معَ اشتراكِ القومِ كلِّهم فيهِ؛ للإيذانِ بكمالِ عَراقتِهم وشدَّةِ شَكيمتِهم فيهِ(2)، والمرادُ مِنْ ذلكَ ذمُّهم، لا التَّمييزُ عن أشرافٍ آخرينَ آمَنوا بنوحٍ عليه السلام؛ إذ لم يُؤمِنْ بهِ أحدٌ مِنْ أشرافِهم، كما يُفصِحُ عنهُ قولُهُ تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27](3).

وقيلَ: يجوزُ أنْ يكونَ الوصفُ بذلكَ للتَّمييزِ، وإنْ لم يُؤمِنْ بعضُ أشرافِهم وقتَ التَّكلُّمِ بهذا الكلامِ؛ لأنَّ مِنْ أهلِهِ عليه السلام المتَّبعينَ له

(1) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 41.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 227.

أشرافًا، وأمّا قولُهم: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27] فعلى زعمِهم، أو لقلَّةِ المتَّبعينَ لهُ مِنَ الأشرافِ[1].

ولا يخلو هذا القيلُ مِنَ التَّكلُّفِ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الإيماءُ إلى علَّةِ الرَّدِّ المُكذِّبِ، والتَّعريضِ ببطلانِ إفكِهم

في التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إيماءٌ إلى أنَّ كفرَهم هو الَّذي أنطقَهم بهذا الرَّدِّ على نوحٍ عليه السلام، وهو تعريضٌ بأنَّ مِثلَ ذلكَ الرَّدِّ لا نُهوضَ لهُ، ولكنَّهم روَّجوا بِهِ كفرَهم؛ خشيةً على زوالِ سيادتِهم[3].

دلالةُ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾:

﴿مِن﴾ في قولِ اللهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ للبيانِ، فتفيدُ أنَّ المَلَأَ الموصوفينَ بالكفرِ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام.

علَّةُ تَكرارِ لفظِ القومِ في: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾:

زيادةُ التَّشنيعِ على المُكذِّبِينَ من البيانِ الفاضحِ للمجرمينَ

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (فقالَ الملأُ الَّذينَ كفروا منهُم)؛ لرجوعِ الضَّميرِ إلى القومِ المذكورينَ فيما سبقَ، لكنْ عُدِلَ إلى إظهارِ لفظِ القومِ، فقيلَ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾، وكأنَّ أفخاذَهم كانَتْ متمايزةً، فزادَ في الشَّناعةِ عليهِم بأنْ عرَّفَ أنَّهم مِنْ أقربِ النّاسِ إليهِ[4].

دلالةُ إعرابِ قولِهِ: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾:

الجارُّ والمجرورُ صفةٌ ثانيةٌ للمَلَإِ، مفيدةٌ في تدقيقِ وصفِهِم

الجارُّ والمجرورُ في قولِهِ عزَّ وتباركَ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾[5]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ الملأَ متَّصفونَ بصفتينِ: الكفرِ، وكونِهم مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام.

---

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 160.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 41.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

علَّةُ التَّقديمِ والتَّأخيرِ بين الصِّفاتِ:

التَّسليةُ ببيانِ التَّكذيبِ أتمُّ، والإبانةُ بها أشملُ وأعمُّ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ و﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ كلاهما صفةٌ لـ ﴿ٱلۡمَلَؤُاْ﴾، وقد قُدِّمَ قولُهُ تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ على قولِهِ: ﴿مِن قَوۡمِهِۦ﴾؛ لأنَّ التَّسليةَ ببيانِ التَّكذيبِ أتمُّ، ولأنَّ صلةَ الموصولِ هنا قصيرةٌ، لا يحصلُ بتقديمِها لَبْسٌ ولا ضَعْفٌ في النَّظمِ(1).

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

قولُهُ ﷻ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ في محلِّ نصبِ مَقولِ الفعلِ ﴿فَقَالَ﴾، لذلك فإنّها لم تأتِ معطوفةً على ما تقدّمَها.

بلاغةُ القَصْرِ في ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ﴾:

قَصْرُ الإفرادِ مفيدٌ في بيانِ جمعِ نوحٍ بين البشريَّةِ والرِّسالةِ

القَصْرُ بالنَّفيِ والاستثناءِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ قصرُ موصوفٍ على صفةٍ، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وهو قَصْرُ إفرادٍ؛ لأنَّ نوحًا عليه السلام جامعٌ بينَ البشريَّةِ والرِّسالةِ، وهم قَصَروهُ على الاتِّصافِ بالبشريَّةِ، بحيثُ لا يتجاوزُها إلى الاتِّصافِ بالرِّسالةِ، والمعنَى: ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، أي: في الجنسِ والوصفِ، مِنْ غيرِ فرْقٍ بينَكم وبينَهُ، وصَفوهُ عليه السلام بذلكَ؛ مبالغةً في وضعِ رُتبتِهِ العاليةِ وحطِّها عن مَنْصِبِ النُّبوَّةِ(2).

نُكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿هَٰذَآ﴾:

الدَّلالةُ على التَّصغيرِ والتَّحقيرِ، من مقتضى الصِّراعِ المذكورِ

اسمُ الإشارةِ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُنصرِفٌ إلى نوحٍ عليه السلام، أي: ما نوحٌ إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، وذلكَ يقتضي أنَّ كلامَ المَلَأ قد وقعَ بحضرةِ نوحٍ عليه السلام في وقتِ دعوتِهِ، فعَدَلوا عنِ اسمِهِ العلَمِ إلى اسمِ الإشارةِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

للقريبِ؛ لأنَّ مرادَهم تصغيرُ أمرِهِ وتحقيرُهُ لدى عامَّتِهم؛ لئلّا يتقبَّلوا قولَهُ[1].

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿بَشَرٌ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ مبينٌ عن المعنى المراد

لمّا كانَ مقصودُ قومِ نوحٍ عليه السلام قَصْرَهُ على البشريَّةِ، وإنكارَ أنْ يكونَ لهُ مزيَّةٌ على باقي البَشَرِ جيءَ بلفظِ ﴿بَشَرٌ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُنكَّرا؛ لإفادةِ أنَّهُ فردٌ مِنْ أفرادِ الجنسِ المُسمَّى بالبَشَرِ، والمعنى: ما هذا إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ البَشَرِ، لا يختلفُ عن باقي البَشَرِ في الجنسِ والوصفِ، فلا يتجاوزُ البشريَّةَ إلى الاتِّصافِ بكونِهِ رسولًا مِنْ عندِ اللهِ كما يدَّعي، وعلى هذا فيمكنُ أن يفيدَ التّنكيرُ التّحقيرَ المستفادَ من قرارة أنفسِهم تجاهَ نوحٍ عليه السلام.

نُكتةُ الوصفِ بالقولِ: ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

تأكيدُ مساواة نوحٍ لهُم في البشريَّةِ، لنفي صدق إرساله

في وصفِ قومِ نوحٍ عليه السلام لهُ، بأنَّهُ بَشَرٌ مثلُهم في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ تأكيدٌ لكونِهِ بَشَرًا مُساويًا لهُم في جنسِ البشريَّةِ وأوصافِها، فلم يَكْتفوا بوصفِهِ بكونِهِ بَشَرًا، بل زادوا على ذلكَ إثباتَ مساواتِهِ لهُم، والمعنى: ما هذا إلا بَشَرٌ مِثْلُكم، أي: مُساويكُم في البشريَّةِ، فلا يعلمُ ما لا تعلمونَ، فأنَّى يكونُ لهُ اتِّصافٌ بالرِّسالة؟!![2].

بلاغةُ الكنايةِ في الوصفِ بالبشريَّةِ:

الإخبارُ بالبشريَّةِ كنايةٌ عن تكذيبِ دعوَى الرِّسالةِ

إخبارُ المَلَأ عن نوحٍ عليه السلام بأنَّهُ بَشَرٌ مِثلُهم في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾ مُستعمَلٌ كنايةً عن تكذيبِهِ في دعوى الرِّسالة بدليلٍ مِنْ ذاتِهِ، أَوْهَموا بذلكَ أنَّ المساواةَ في البشريَّةِ مانعةٌ مِنَ الوَساطةِ بينَ اللهِ ﷻ وبينَ خَلْقِهِ، وهذا مِنَ الأوهامِ الَّتي أضلَّتْ كثيرًا مِنَ الأُمَمِ[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 557، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 131.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

وصفُهُ بإرادة التَّفضُّلِ عليهم اتِّهامٌ له بالطَّمع في سلطانِهم

دلالةُ إعراب ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾:

جملةُ ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ صفةٌ ثانيةٌ لـ ﴿بَشَرٞ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، أي: يريدُ أنْ يطلبَ الفضْلَ عليكم ويتقدَّمكم بادِّعاءِ الرِّسالةِ، معَ كونِهِ مثْلَكم، وصَفوهُ بذلكَ؛ إغضابًا للمُخاطَبينَ عليهِ عليه السلام، وإغراءً لهُم على مُعاداتِهِ عليه السلام[1]، فإنَّ سادةَ القومِ ظَنّوا أنَّهُ ما جاءَ بتلكَ الدَّعوةِ إلّا حُبًّا في أنْ يَسودَ على قومِهم، فخَشوا أنْ تزولَ سيادتُهم، وهم بجهلِهم لا يتدبَّرونَ أحوالَ النُّفوسِ، ولكنَّهم يَقيسونَ غيرَهم على مِقْياسِ أنفُسِهم، فلمّا كانَتْ مطامحُ أنفُسِهم حبَّ الرئاسةِ والتّوسُّلَ إليها بالانتصابِ لخِدْمةِ الأصنامِ، توهَّموا أنَّ الَّذي جاءَ بإبطالِ عِبادةِ الأصنامِ إنَّما أرادَ منازعتَهم سُلطانَهم[2].

الدَّلالةُ على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، ملائمةٌ للمضارعيَّة

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ: ﴿يُرِيدُ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾؛ لِما تُفيدُهُ هذهِ الصّيغةُ مِنْ تجدُّدِ الفعلِ واستمرارِهِ، وقد أوهمَ الملَأُ قومَهم بذلكَ أنَّ غايةَ نوحٍ عليه السلام على التَّجدُّدِ والاستمرارِ هي التفضُّلُ على قومِهِ، وطلبُ الزَّعامةِ والرِّئاسةِ فيهم، وفي ذلكَ صدٌّ لهُم عن سبيلِهِ، ومزيدُ تنفيرٍ لهُم عنِ اتِّباعِهِ.

إرادةُ التَّفضُّل بالسّيادةِ عليهم طعنٌ منهم في تجرُّدِ نوحٍ لله

بلاغةُ الكنايةِ في معنى التَّفضُّلِ عليهم:

المرادُ بالتَّفضُّلِ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ طلبُ الفَضْلِ وتكلُّفُهُ[3]، أي: يريدُ أنْ يَشْرُفَ عليكُم، بأنْ يكونَ متبوعًا، وأنتم لهُ تَبَعٌ[4]، وهو كنايةٌ عنِ السّيادةِ، كأنَّهُ قيلَ: يريدُ أنْ يَسودَكم ويتقدَّمَكم بادِّعائِهِ الرِّسالةَ معَ كونِهِ مثْلَكم[5].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85، وأبو حيان، البحر المحيط: 7/ 557، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 118.

(5) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 228.

وقيلَ: صيغةُ التَّفعُّلِ مستعارةٌ للكمالِ، فإنَّ ما يُتكلَّفُ لهُ يكونُ على أكملِ وجهٍ، فكأنَّهُ قيلَ: يريدُ كمالَ الفضلِ عليكُم[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ (على):

الدَّلالةُ على الاستعلاءِ منبئةٌ عن الطَّمع والكبرياء

لمّا كانَ مرادُ المَلَأِ تنفيرَ قومِهم عنِ اتِّباعِ نوحٍ عليه السلام عبَّروا في قولِهم: ﴿يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيۡكُمۡ﴾ بحرفِ الجرِّ (على) الدّالِّ على الاستعلاءِ، لِما يُشيرُ إليهِ مِنِ استعلاءِ تفضُّلِ نوحٍ عليه السلام على القومِ، وأنَّهم تحتَ تفضُّلِه.

إعرابُ جملةِ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

عطفُ الجملةِ على ما قبلَها يحقِّقُ تواصُلَ المعاني، وتعانُقَ الجمل

جملةُ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ عطفٌ على جملةِ ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾، وقد مهَّدوا لجملةِ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ بأنَّ البشريَّةَ مانعةٌ مِنْ أنْ يكونَ صاحبُها رسولًا للهِ[2].

دلالةُ (لو) في قولِهِ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

حرفُ الامتناع مفيدٌ في الدّلالة عن المقصود في السّياق

(لو) الشَّرطيَّةُ في قولِ الحقِّ جلَّ وتباركَ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً﴾ حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ، والكلامُ بيانٌ لعدمِ رسالةِ البَشَرِ على الإطلاقِ على الزَّعمِ الفاسدِ للمَلَأِ بعدَ تحقيقِ بشريَّةِ نوحٍ عليه السلام، أي: لو شاءَ اللهُ تعالى إرسالَ الرَّسولِ لأرسلَ رُسُلًا مِنَ الملائكةِ[3].

وتقريرُ شُبْهتِهم: أنَّ اللهَ سبحانَهُ لو شاءَ إرشادَ البَشَرِ لوجبَ أنْ يَسْلُكَ الطَّريقَ الَّذي يكونُ أشدَّ إفضاءً إلى المقصودِ، وبعْثةُ الملائكةِ أشدُّ إفضاءً إلى هذا المقصودِ مِنْ بِعْثةِ البَشَرِ؛ لأنَّ الملائكةَ لعُلوِّ شأنِهم وشدَّةِ سَطْوتِهم وكثرةِ عُلومِهم ينقادُ الخَلْقُ إليهم، ولا يَشُكّونَ في رسالتِهم، فلمّا لم يفعلْ ذلكَ عُلِمَ أنَّهُ ما أرسلَ رسولًا البتَّةَ[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 228.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 271.

الأصلُ في (لو) المُضيُّ في جملتَيْها، فناسبَ ذلك مضيُّ (شاء)

الحذفُ إيجازًا من بليغ السّياقِ المدرجِ في هذه الآية

مناسبةُ لفظِ الجلالةِ لمقامِ الإنزالِ للملائكة

اللّامُ واقعةٌ في جوابِ (لو)، وهي مفيدةٌ في بابها

الجملةُ جوابُ الشَّرطِ، وهي مبرزةٌ لمقتضى المشيئةِ

علَّةُ التَّعبيرِ بالماضي في: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ﴾:

(لو) للشَّرطِ في الماضي، أي: لتعليقِ حصولِ مضمونِ الجزاءِ بحصولِ مضمونِ الشَّرطِ فرْضًا في الماضي، معَ القطعِ بانتفاءِ الشَّرطِ، ولذلكَ يلزمُ في جملتَيْها المُضيُّ وعدمُ الثُّبوتِ[1]، ولذلكَ عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ عزَّ سُلطانُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾.

نُكتةُ حذفِ مفعولِ المشيئةِ:

قولُه ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ معناهُ: ولو شاءَ اللّهُ أنْ يُرسِلَ رسولًا لأنزلَ ملائكةً رُسُلًا[2]، وقد حُذِفَ مفعولُ الفعلِ ﴿شَآءَ﴾؛ لظهورِهِ مِنْ جوابِ (لو)، وحذفُ مفعولِ المشيئةِ جائزٌ إذا دلَّتْ عليه القرينةُ، وذلكَ ضربٌ مِنَ الإيجازِ[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسْنى في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾؛ لِما يُنبِئُ عنهُ لفظُ الجلالةِ مِنْ صفاتِ الجلالِ والكمالِ، ومنها القُدرةُ على إنزالِ الملائكةِ وجعلِهم رُسُلًا للبَشَرِ، والمعنَى: ولو شاءَ اللّهُ - أي: المَلِكُ الأعلى - الإرسالَ إليكُم وعدمَ عِبادةِ غيرِهِ لأنزلَ لأجلِ ذلكَ ملائكةً[4].

معنى اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَأَنزَلَ﴾:

لامُ ﴿لَأَنزَلَ﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾ هي اللّامُ الواقعةُ في جوابِ (لو) الَّتي هي أداةُ الشَّرطِ، وهي للتّأكيدِ.

دلالةُ إعرابِ جملةِ ﴿لَأَنزَلَ﴾:

جملةُ ﴿لَأَنزَلَ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَـٰٓئِكَةً﴾

---

(1) التفتازاني، المختصر، ص: 281 - 284.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 42.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 131.

هي جملةُ جوابِ الشَّرطِ، ومعنَى الكلامِ: أنَّهُ قدِ امتنعَ الإنزالُ لامتناعِ المشيئةِ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ دونَ الإرسالِ:

إرسالُ الملائكةِ لا يكونُ إلّا بطريقِ الإنزالِ من السَّماء

قولُه ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾، معناهُ: ولو شاءَ اللّهُ إرسالَ الرَّسولِ لأرسلَ رُسُلًا مِنَ الملائكةِ، وإنَّما قيلَ: ﴿لَأَنزَلَ﴾ دونَ (لأرسلَ)؛ لأنَّ إرسالَ الملائكةِ لا يكونُ إلّا بطريقِ الإنزالِ[1]، يعني: أنَّ إرسالَ الملائكةِ إلى العِبادِ يستلزمُ نُزولَهم إليهم[2]؛ لأنَّ مَحَلَّ الملائكةِ هو السَّماءُ، والانتقالُ منها إلى الأرضِ نزولٌ.

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿مَلَٰٓئِكَةٗ﴾:

التَّنكيرُ للتَّكثيرِ أوِ التَّعظيمِ، مفيدٌ في البيان المتوخّى

التَّنكيرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾ للتَّكثيرِ، أي: ولو شاءَ اللّهُ لأنزلَ ملائكةً ذوي عددٍ كثيرٍ، وفي ذلكَ تحكُّمٌ منهُم وإيغالٌ في العِنادِ والمكابرةِ، حيثُ لم يَرْضَوْا بإنزالِ مَلَكٍ واحدٍ.

ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: ولو شاءَ اللّهُ لأنزلَ ملائكةً ذوي شأنٍ عظيمٍ، ويُؤيِّدُ ذلكَ تحقيرُهم لنوحٍ عليه السلام بالإشارةِ إليهِ إشارةَ القريبِ في قولِهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

نُكتةُ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

الجملةُ مستأنفةٌ مقصودةٌ بذاتِها

جملةُ ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ مستأنفةٌ، قصدَ المَلَأُ بها تكذيبَ الدَّعوةِ بعدَ تكذيبِ الدّاعي عليه السلام، فلذلكَ جيءَ بها مستأنفةً غيرَ معطوفةٍ؛ تنبيهًا على أنَّها مقصودةٌ بذاتِها، وليسَتْ تكملةً لما قبلَها، بخلافِ أسلوبِ عطفِ جملةِ ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةٗ﴾؛ إذ مضمونُها مِنْ تمامِ غرضِ ما قبلَها[3].

معنى ﴿مَّا﴾ في قولِهِ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا﴾:

﴿مَّا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 569.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.

حُجَجُ الكفّارِ في هذه الآيةِ القرآنيَّةِ نوعٌ من المجادلةِ السّفسطائيَّةِ

نافيةٌ، جعل المَلَأُ انتفاءَ عِلمِهم بالشَّيءِ حُجَّةً على بُطلانِه، وهو مجادلةٌ سُفسطائيَّةٌ؛ إذ قد يكونُ انتفاءُ العِلمِ عن تقصيرٍ في اكتسابِ المعلوماتِ، وقد يكونُ لعدمِ وجودِ سببٍ يقتضي حدوثَ مِثْلِه، بأنْ كانَ النّاسُ على حقٍّ، فلم يكنْ داعٍ إلى مُخاطَبتِهم بمِثْلِ ذلكَ، وقد كانَ النّاسُ مِنْ زمنِ آدمَ عليه السلام على الفِطْرةِ، حتَّى حدثَ الشِّركُ في النّاسِ، فأرسلَ اللّهُ نوحًا عليه السلام، فهو أوَّلُ رَسولٍ أُرسِلَ إلى أهلِ الأرضِ[1].

مرجعُ الإشارةِ في قولِه: ﴿بِهَٰذَا﴾:

مفادُ الإشارةِ إلى نوحٍ عليه السلام، أو إلى ما نُقِلَ عنه من كلام

الإشارةُ في قولِ الحقِّ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ راجعةٌ إلى نوحٍ عليه السلام، أو إلى ما كلَّمَهم بهِ مِنَ الحثِّ على عِبادةِ اللّهِ تعالى، والمعنى: ما سَمِعْنا بمِثْلِ هذا الكلامِ، أو بمِثْلِ هذا الَّذي يدَّعي وهو بَشَرٌ أنَّهُ رسولُ اللّهِ.

وبيانُ هذهِ الشُّبهةِ: أنَّهم كانوا لا يُعوِّلونَ في شيءٍ مِنْ مذاهبِهم إلّا على التَّقليدِ والرُّجوعِ إلى قولِ الآباءِ، فلمّا لم يَجِدوا في نُبوَّةِ نوحٍ عليه السلام هذهِ الطَّريقةَ حَكَموا بفسادِها[2].

نُكتةُ تعديةِ فعلِ السَّماعِ بالباءِ:

تضمينُ السَّماعِ معنى الاتِّصالِ مفيدٌ في البيان

لّما كانَ السَّماعُ المنفيُّ في قولِه جلَّ ثناؤُه: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ ليسَ سماعًا بآذانِهم لكلامٍ في زمنِ آبائِهم، بلِ المرادُ: ما بلغَ إلينا وقوعُ مِثْلِ هذا في زمنِ آبائِنا، عُدّيَ فعلُ ﴿سَمِعۡنَا﴾ بالباءِ؛ لتضمينِه معنى الاتِّصالِ[3].

وقيلَ: الباءُ في قولِه: ﴿بِهَٰذَا﴾ صِلَةٌ، أي: ما سَمِعْنا هذا كائنًا في آبائِنا الأوَّلينَ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 271.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 118.

غرضُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ في قولِهِ: ﴿بِهَٰذَا﴾:

غايةُ الإشارةِ في التَّعبيرِ محضُ الإهانةِ والتَّحقيرِ

يدلُّ استعمالُ اسمِ الإشارةِ للقريبِ في قولِ اللّٰهِ تباركَ شأنُهُ على لسانِ المَلَأ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ على تحقيرِهم للمُشارِ إليهِ، وهو نوحٌ عليه السلام، أوِ الكلامُ الَّذي جاءَهم بهِ، وهو الدَّعوةُ إلى عِبادةِ اللّٰهِ سبحانه وتعالى وتوحيدِهِ، فيكونُ هؤلاءِ القومُ قد جَمَعوا بينَ الإنكارِ والتَّكذيبِ وبينَ الاستهزاءِ والتَّحقيرِ، كما هو دَيْدَنُ المُستكبِرينَ في كلِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ المُكذِّبة.

معنى حرفِ الجرِّ في قوله: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾:

حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الواردُ في قولِ اللّٰهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، والمعنى: ما سَمِعْنا بهذا في زمنِ أجدادِنا.

نُكتةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿فِيٓ ءَابَآئِنَا﴾:

الإيجازُ بحذفِ المضافِ إليهِ منَ الأساليبِ البلاغيَّةِ المتداولة

لمّا كانَ حرفُ الجرِّ ﴿فِيٓ﴾ الواردُ في قولِ الحقِّ تعالى شأنُهُ: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ للظَّرفيَّةِ الزَّمانيَّةِ، وهو يقتضي زَمَنًا؛ تعيَّنَ أنْ يكونَ مدخولُهُ على تقديرِ مضافٍ؛ لأنَّ الآباءَ لا يَصلُحُ للظَّرفيَّةِ، أي: (ما سَمِعْنا بهذا في مُدَّةِ آبائِنا الأوَّلينَ)[1].

بلاغةُ وصْفِ الآباءِ بلفظ ﴿ٱلۡأَوَّلِينَ﴾:

بيانُ فرْطِ غُلوِّهم في العِنادِ من خلالِ التَّكذيبِ والفساد

قولُ المَلَأ مِنْ قومِ نوحٍ عليه السلام: ﴿مَّا سَمِعۡنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ معناهُ: ما سَمِعْنا بهذا في آبائِنا الماضينَ قبلَ بِعْثةِ نوحٍ، وقد قالوا ذلكَ إمّا لكونِهم وآبائِهم في فترةٍ متطاولةٍ بالفعلِ، وإمّا لفَرْطِ غُلوِّهم في التَّكذيبِ والعِنادِ، وانهماكِهم في الغَيِّ والفسادِ[2]، حيثُ جَعَلوا النَّفْيَ يمتدُّ إلى فترةٍ زمنيَّةٍ متطاولةٍ وإنْ لم تكنْ كذلكَ في الواقعِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 43.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتّصالِ مفصحٌ في الدَّلالة عن المراد

نُكتةُ فصلِ الجملة مِنَ الآية:

جملةُ ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ جميعَ ما قالوهُ يُثيرُ في نُفوسِ السّامعينَ أنْ يتساءَلوا: إذا كانَ هذا حالَ دعوتِه في البُطلانِ فما الَّذي دعاهُ إلى القولِ بها؟ فيُجابُ بأنَّهُ أصابَهُ خَلَلٌ في عَقْلِه، فطلبَ ما لم يكنْ لينالَهُ مِثْلُه مِنَ التَّفضُّلِ على النّاسِ كلِّهم بنسبتِهم إلى الضَّلالِ، فقد طَمِعَ فيما لا يطمعُ عاقلٌ في مِثْلِه، فدلَّ ذلكَ على أنَّهُ مجنونٌ[1].

بيانُ الغايةِ من قَصْرِ نوحٍ عليه السلام على صفةِ الجُنونِ

بلاغةُ القَصْرِ في الآيةِ الكريمة:

القَصْرُ المستفادُ مِنْ ﴿إِنۡ﴾ و﴿إِلَّا﴾، في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ مِنْ قَصْرِ الموصوفِ على الصِّفة، فقد قصرَ المَلَأُ نوحًا عليه السلام على صفةِ الجُنونِ، وهو قَصْرٌ إضافيٌّ، أي: ليسَ برسولٍ مِنَ اللّهِ، بل هو مجنونٌ[2].

التَّنكيرُ للإفرادِ من بليغِ المعنى المستفادِ

نُكتةُ تنكيرِ قولِه: ﴿رَجُلُۢ﴾:

تنكيرُ ﴿رَجُلُۢ﴾ في قولِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ للإفرادِ، والمعنَى: إنْ هو إلّا فردٌ مِنْ أفرادِ الرِّجالِ مجنونٌ، ليسَ برَسولٍ مِنَ اللّهِ، ولا مزيَّةَ لهُ على غيرِهِ مِنَ البَشَرِ، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّحقيرِ، بدليلِ قولِهم فيما سبقَ: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾.

مفادُ التَّنكيرِ للنَّوعيَّةِ أو التَّعظيمِ في هذه الدَّلالةِ

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿جِنَّةٞ﴾:

تنوينُ ﴿جِنَّةٞ﴾ في قولِ المَولى عزَّ سُلطانُهُ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ للنَّوعيَّةِ، أي: إنْ هو إلّا رجلٌ مُتلبِّسٌ بنوعٍ مِنَ الجُنونِ، وهذا اقتصادٌ منهُم في حالِه، حيثُ احترَزوا مِنْ أنْ يورِّطوا أنفُسَهم في وصفِهِ بالخَبالِ، معَ أنَّ المُشاهَدَ مِنْ حالِهِ يُنافي ذلكَ، فأوهَموا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

قومَهم أنَّ بهِ جُنونًا خفيفًا، لا تَبْدو آثارُهُ واضحةً[1]، ويحتملُ أنْ يكونَ التَّنكيرُ للتَّعظيمِ، أي: (إنْ هو إلّا رجلٌ بهِ جُنونٌ عظيمٌ، ولذلكَ أتاكُم بما أتاكُم بهِ).

سرُّ استعمالِ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦ جِنَّةٌ﴾:

الباءُ في جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾ للملابَسةِ، أي: إن هو إلّا رجلٌ مُتلبِّسٌ بالجُنونِ[2]، واتِّهامُ المرسلِ بالجنون اختلاقٌ لا يستندُ إلى عقلٍ ولا حجَّةٍ.

نُكتةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٞ﴾:

أهميَّةُ العنايةِ بالمُقدَّمِ، والتَّشويقُ للمُؤخَّرِ

قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿جِنَّةٞ﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلُۢ بِهِۦ جِنَّةٞ﴾؛ للعِنايةِ بالمُقدَّم، وهو إفادةُ تلبُّسِ شيءٍ بنوحٍ ﷺ في زعمِهم الفاسدِ، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو الجُنونُ، ولأنَّ تأخيرَ ﴿جِنَّةٞ﴾ يترتَّبُ عليهِ تصحيحُ كونِهِ مبتدأً معَ كونِهِ نكرةً.

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

السّياقُ يتوخّى تفريعَ الكلامِ؛ لتحقيقِ الإفهامِ

الفاءُ في قولِ اللّهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ للتَّفريعِ، فرَّعَ المَلَأُ على الحُكمِ بجُنونِ نوحٍ ﷺ أمرًا لقومِهم بانتظارِ ما ينكشفُ عنهُ أمرُهُ بعدَ زمانٍ، وذلكَ إمّا شِفاءٌ مِنَ الجُنونِ، فيرجعُ إلى الرُّشْدِ، أو ازديادُ الجُنونِ بهِ، فيتَّضحُ أمرُهُ، وأنَّهُ لا اعتدادَ بكلامِهِ[3].

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾:

سياقُ الأمرِ بالتَّربُّصِ للوجوبِ، والحقُّ ثابتٌ في كلِّ آنٍ

الأمرُ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ للوجوبِ، لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ في هذا السّياقِ، بلِ السّياقُ يقتضيهِ؛ لأنَّ المقامَ مقامُ مُكابَرةٍ وعِنادٍ مِنَ المَلَأ، ومقامُ حضٍّ منهُم لقومِهم على

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.

التَّمسُّكِ بما هم عليهِ مِنْ عِبادةِ الأصنامِ، فلا يُتصوَّرُ أنْ يكونَ الأمرُ لغيرِ الوجوبِ، والمعنَى: فانتظِروا حالَهُ حتَّى تتبيَّنَ عاقبةُ أمرِهِ.

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦ﴾:

الفعلُ (تربَّص) متعدٍّ بالباءِ في مقامِ مكابرةِ الملأِ وعنادِهم

التَّربُّصُ: التَّوقُّفُ عن عملٍ يُرادُ عملُهُ والتَّريُّثُ فيه؛ انتظارًا لما قد يُغني عنِ العملِ، أوِ انتظارًا لفُرْصةٍ تُمكِّنُ مِنْ إيقاعِهِ على أتقنِ كيفيَّةٍ لنجاحِهِ، وهو فعلٌ قاصرٌ يتعدَّى إلى المفعولِ بالباءِ الَّتي هي للتَّعديةِ، ومعناها السَّببيَّةُ، أي: كانَ تربُّصُ المُتربِّصِ بسببِ مدخولِ الباءِ، والمرادُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾: بسببِ ما يطرأُ عليهِ مِنْ أحوالٍ، فهو على نيَّةِ مضافٍ حُذِفَ لكثرةِ الاستعمالِ[1].

معنى ﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِهِ: ﴿حَتَّىٰ حِينٖ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ بمعنى (إلى)، أي: فتربَّصوا بهِ إلى حينٍ[2].

نُكتةُ تنكيرِ قولِهِ: ﴿حِينٖ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ مبيِّنٌ عن المعنى المرادِ

تنكيرُ ﴿حِينٖ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٖ﴾ للإفرادِ، إذ لم يُرِدِ المَلَأُ بالحينِ حينًا معيَّنًا، وهو في المعنَى كقولِكَ: دَعْهُ إلى يومٍ، ولم تُرِدْ: إلى يومٍ معلومٍ واحدٍ مِنْ ذي قبلُ، ولا إلى مقدارِ يومٍ معلومٍ، إنَّما هو كقولِكَ: إلى يومٍ ما[3]، ومرادُ المَلَأ: فتربَّصوا بهِ إلى وقتٍ يُريحُكم القَدَرُ منهُ[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّربُّصُ والانتظارُ:

فُرِّقَ بينَ الانتظارِ والتَّربُّصِ: بأنَّ التَّربُّصَ طولُ الانتظارِ، وأمّا

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 44.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 132.
(3) الفراء، معاني القرآن: 2/ 234.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141.

الانتظارُ فيكونُ قصيرَ المُدَّةِ وطويلَها، ولذلكَ يُسمَّى المُتربِّصُ بالسِّلعةِ وغيرِها مُتربِّصًا؛ لأنَّهُ يُطيلُ الانتظارَ لزيادةِ الرِّبْحِ، ومنهُ قولُهُ تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُواْ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾[1].

والتَّربُّصُ أشدُّ مِنَ الانتظارِ مِنْ ناحيةِ اللَّفظِ والحروفِ الَّتي يتركَّبُ منها، فيكونُ فيهِ على النَّفْسِ ثِقَلٌ وتكلُّفٌ وترقُّبٌ[2].

التَّربُّصُ أخصُّ مِنَ الانتظارِ وهو طويلُ المدَّةِ، والانتظارُ لا يُشترَطُ فيه ذلك

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 76.

(2) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 207 - 208.

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾ فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [المؤمنون: 26 - 27]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

رَبْطُ مجادلةِ قومِ نوحٍ وعنادِهم، بهلاك من دعا عليهم، ونجاة مَن آمنَ

أمّا مناسبةُ الآيةِ الأولى لِما قبلَها: فهي أنَّهُ لمّا سمعَ نوحٌ ﷺ كلامَ قومِه، وعرفَ تماديَهم على الكفرِ وإصرارَهم عليه قالَ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[1].

وأمّا مناسبةُ الآيةِ الثّانيةِ للأولى: فهي أنَّهُ لمّا أجابَ اللّهُ دعاءَ نوحٍ ﷺ قالَ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ الآيةَ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: (نصر) أصلٌ يدلُّ على إتيانِ خيرٍ وإيتائِه، أمّا الإتيانُ فيقالُ: نَصَرْتُ بلدَ كذا، إذا أتيتُهُ[3]، والنَّصْرُ والنُّصْرةُ: العَوْنُ، قالَ تعالى: ﴿نَصۡرٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَتۡحٞ قَرِيبٞۗ﴾ [الصف: 13][4]، ويقالُ: نَصَرَ الغَيْثُ البلدَ، أي: أعانَهُ على الخِصْبِ والنَّباتِ[5]، والانتصارُ والاستنصارُ: طلبُ النُّصْرةِ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡبَغۡيُ هُمۡ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الشورى: 39]، وقالَ: ﴿وَإِنِ ٱسۡتَنصَرُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ فَعَلَيۡكُمُ ٱلنَّصۡرُ﴾ [الأنفال: 72]، والتَّناصرُ: التَّعاونُ، قالَ تعالى: ﴿مَا لَكُمۡ لَا تَنَاصَرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الصافات: 25][6].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 570.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 272.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نصر).
(4) الراغب، المفردات: (نصر).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (نصر).
(6) الراغب، المفردات: (نصر).

2) ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾: (وحى) أصلٌ يدلُّ على إلقاءِ عِلْمٍ في إخفاءٍ أو غيرِهِ إلى غيرِكَ(1)، وذلكَ يكونُ بالكلامِ على سبيلِ الرَّمْزِ والتَّعريضِ، وقد يكونُ بصوتٍ لا تركيبَ فيهِ، وقد يكونُ بإشارةٍ ببعضِ الجوارحِ، وبالكتابةِ، ويقالُ للكلمةِ الإلهيَّةِ الَّتي تُلْقَى إلى أنبيائِهِ وأوليائِهِ: وحْيٌ، وذلكَ أنواعٌ؛ إمّا برسولٍ مُشاهَدٍ تُرى ذاتُهُ ويُسمَعُ كلامُهُ، كتبليغِ جبريلَ عليه السلام للنَّبيِّ ﷺ في صورةٍ مُعيَّنةٍ، وإمّا بسماعِ كلامٍ مِنْ غيرِ معايَنةٍ؛ كسماعِ موسى كلامَ اللهِ، وإمّا بإلقاءٍ في الرّوعِ، وإمّا بإلهامٍ، نحوَ: ﴿وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَرۡضِعِيهِۖ﴾ [القصص: 7]، وإمّا بتسخيرٍ، نحوَ: ﴿وَأَوۡحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحۡلِ﴾ [النحل: 68]، أو بمَنامٍ(2).

3) ﴿ٱصۡنَعِ﴾: (صنع) أصلٌ واحدٌ، وهو عملُ الشَّيءِ صُنْعًا(3)، وذلكَ بجمعٍ أو تحصيلٍ في هيأةٍ جديدةٍ بتدبيرٍ واحتيالٍ أو إحكامٍ، فالمصانعُ: أحباسٌ تُتَّخذُ للماءِ(4)، والصَّنيعةُ: ما اصطنعتَهُ مِنْ خيرٍ، وفرسٌ صَنيعٌ: أُحسِنَ القيامُ عليهِ، وعُبِّرَ عنِ الأمكنةِ الشَّريفةِ بالمصانعِ، قالَ تعالى: ﴿وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ﴾ [الشعراء: 129]، والصُّنْعُ: إجادةُ الفعلِ، قالَ تعالى: ﴿صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ﴾ [النمل: 88]، وقالَ: ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾، وكُنيَ بالرِّشْوةِ عنِ المصانعةِ، والاصطناعُ: المبالغةُ في إصلاحِ الشَّيءِ(5)، وقولُهُ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ ٣٩﴾ [طه: 39] كنايةٌ عن تربيتِهِ إلى أنْ شبَّ وبلغَ أشُدَّهُ، وجعلَهُ بمنزلةِ الشَّيءِ المصنوعِ(6)، والتَّصنُّعُ: تكلُّفُ الصَّلاحِ وحُسْنِ السَّمْتِ وإظهارُهُ والتَّزيُّنُ بهِ، والباطنُ مدخولٌ(7).

4) ﴿بِأَعۡيُنِنَا﴾: (عين) أصلٌ يدلُّ على عُضْوٍ بهِ يُبْصَرُ(8)، فالعينُ: الجارحةُ، قالَ تعالى: ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾ [المائدة: 45]، ويقالُ: فلانٌ بعَيْني، أي: أحفظُهُ وأُراعيهِ، كقولِكَ: هو بمَرْأى منّي ومَسْمَعٍ، قالَ سبحانَهُ: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ [هود: 37]، أي: بحيثُ نرى ونحفظُ، ويقالُ، عُنْتُ الرَّجلَ: أصبتُ عينَهُ، وعُنْتُهُ: أصبتُهُ بعَيْني(9)، ومِنْ معاني العينِ سوى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وحي).
(2) الراغب، المفردات: (وحي)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وحي).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صنع).
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (صنع).
(5) الراغب، المفردات: (صنع).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (صنع).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (صنع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عين).
(9) الراغب، المفردات: (عين).

الجارحةِ: عينُ الماءِ، وعينُ الميزانِ، وعينُ الذَّهبِ، وعينُ الشَّمسِ[1]، والعينُ أيضًا: المالُ العَتيدُ الحاضرُ، يقالُ: إنَّهُ لَعَيْنٌ غيرُ دَيْنٍ، أي: إنَّه مالٌ حاضرٌ[2]، والعين أيضا: الجاسوس.

5) ﴿وَفَارَ﴾: (فور) أَصْلٌ يَدُلُّ على غَلَيانِ نحوِ الماءِ إلى أعلى بقوَّةٍ واندفاع[3]، ويقالُ الفَوْرُ في النّارِ إذا هاجَتْ، وفي القِدْرِ، وفي الغَضَبِ، كقولِه تعالى في صفةِ جهنَّمَ: ﴿وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾ [الملك: 7]، وقالَ سبحانَهُ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، ويقالُ: فعلتُ كذا مِنْ فوْري، أي: غَلَيانِ الحالِ، وقيلَ: سُكونِ الأمرِ، قالَ تعالى: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا﴾ [آل عمران: 125][4]، أي: مِنْ وقتِهم وساعتِهم[5].

6) ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾: التَّنّورُ في الأصلِ الَّذي يُخْبَزُ فيه[6]، وقدِ اختُلِفَ في المرادِ به في قولِه ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، فقيلَ: هو وجهُ الأرضِ، وقيلَ: إنَّهُ تنّورُ الخابزِ[7]، وهو الظّاهرُ، وصاحبُه تَنّار، وجمعُه تنانير.

7) ﴿فَٱسْلُكْ﴾: (سلك) أصلٌ يدلُّ على نُفوذِ شيءٍ في شيءٍ[8]، فالسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقِه، قالَ سبحانَهُ: ﴿لِّتَسْلُكُوا۟ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا ۝٢٠﴾ [نوح: 20]، وقالَ: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝٤٢﴾ [المدثر: 42]، وقالَ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾[9].

8) ﴿زَوْجَيْنِ﴾: (زوج) أصلٌ يدلُّ على مقارنةِ شيءٍ لشيءٍ[10]، فيقالُ لكلِّ واحدٍ مِنَ القرينَيْنِ مِنَ الذَّكرِ والأنثى في الحيواناتِ المتزاوجةِ: زوجٌ، ولكلِّ قرينَيْنِ فيها وفي غيرِها: زوجٌ، كالخُفِّ والنَّعْلِ، ولكلِّ ما يقترنُ بآخرَ مماثلًا لهُ أو مُضادًّا: زوجٌ، قالَ ﷻ: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقالَ: ﴿وَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾

(1) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (عين).
(2) الخليل، العين: (عين).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فور)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فور).
(4) الراغب، المفردات: (فور).
(5) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (فور).
(6) الجوهري، الصحاح: (تنر).
(7) الزبيدي، تاج العروس: (تنر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سلك)، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سلك).
(9) الراغب، المفردات: (سلك).
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).

[البقرة: 35]، وقالَ: ﴿۞ٱحۡشُرُواْ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَأَزۡوَٰجَهُمۡ﴾ [الصافات: 22]، أي: أقرانَهم المقتدينَ بهِم في أفعالِهم[1].

9) ﴿وَأَهۡلَكَ﴾: (أهل) أصلانِ مُتَباعِدانِ؛ أحدُهما: الإهالةُ، وهي الألْيَةُ ونحوُها، والأصلُ الآخرُ: الأهلُ[2]، وأهلُ الرَّجلِ: مَنْ يجمعُهُ وإيّاهم نَسَبٌ أو دينٌ أو ما يَجْري مَجْراهما، مِنْ صناعةٍ وبيتٍ وبلدٍ، وعُبِّرَ بأهلِ الرَّجلِ عنِ امرأتِهِ، ويقالُ: تأهَّلَ، إذا تزوَّجَ، ومكانٌ مأهولٌ: فيهِ أهلُهُ[3].

10) ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾: (خطب) أصلانِ؛ أحدُهما: اختلافُ لونَينِ، ومِنْ ذلكَ: الخَطْباءُ، وهي الأتانُ الَّتي لها خطٌّ أسودُ على ظَهْرِها، والأصلُ الآخرُ: الكلامُ بينَ اثنينِ[4]، ومِنْ ذلكَ: المُخاطَبةُ والتَّخاطبُ، أي: المُراجَعةُ في الكلامِ، والخَطْبُ: الأمرُ العظيمُ الَّذي يكثرُ فيهِ التَّخاطبُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿قَالَ فَمَا خَطۡبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ٩٥﴾ [طه: 95][5]، وقولُهُ تعالى: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحِكۡمَةَ وَفَصۡلَ ٱلۡخِطَابِ ٢٠﴾ [ص: 20]، أي: ما ينفصلُ بهِ الأمرُ بينَ المتخاطبينِ في الخِصامِ ونحوِهِ؛ لأنَّ كلًّا مِنَ الخَصْمينِ يخاطبُ خَصْمَهُ بما ينفعُهُ[6].

11) ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾: (غرق) أصلٌ يدلُّ على انتهاءٍ في شيءٍ يبلغُ أقصاهُ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: أغرقتُ في القَوْسِ: مَدَدْتُها غايةَ المَدِّ[7]، والغَرَقُ: الرُّسوبُ في الماءِ، يقالُ: غَرِقَ فلانٌ يَغْرَقُ غَرَقًا، وأغرقَهُ غيرُهُ، قالَ سبحانَهُ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ﴾ [يونس: 90]، وقالَ: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ﴾ [البقرة: 50][8]، ويقالُ: استغرقَ فلانٌ في كذا، كأنَّهُ أحاطَ بالمُتفكِّرِ فيهِ إحاطةَ الماءِ بالغريقِ[9].

(1) الراغب، المفردات: (زوج)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (زوج).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أهل).
(3) الراغب، المفردات: (أهل)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أهل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خطب).
(5) الراغب، المفردات: (خطب)، والزبيدي، تاج العروس: (خطب).
(6) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (خطب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غرق).
(8) الراغب، المفردات: (غرق).
(9) السمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (غرق).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الحُكمُ بنجاةِ المؤمنينَ وهلاكِ الظَّالمينَ، باستجابةِ دعاءِ نوحٍ عليه السلام

قالَ نوحٌ عليه السلام داعيًا ربَّهُ، ومُستنصِرًا بهِ على قومِهِ لمّا طالَ أمرُهُ وأمرُهم، وتمادَوْا في غَيِّهم: (ربِّ انصُرْني على قومي بسببِ تكذيبِهم إيّايَ فيما بلَّغتُهم مِنْ رسالتِكَ، ودعوتُهم إليهِ مِنْ توحيدِكَ).

(فقُلْنا لهُ حينَ استنصرَنا على كفرةِ قومِهِ: اصنَعِ السَّفينةَ بحفظِنا وكَلاءتِنا، وبتعليمِنا إيّاكَ كيفيَّةَ صُنْعِها، فإذا جاءَ قضاؤُنا في قومِكَ بعذابِهم وهلاكِهم، وفارَ تنّورُ الخُبْزِ بالماءِ - فأدخِلْ في السَّفينةِ واحمِلْ ذكرًا وأنثى مِنْ كلِّ نوعٍ مِنَ الأنواعِ، ولا تُخاطِبْني في شأنِ الَّذينَ كفروا، ولا تطلُبْ منّي أنْ أُنجيَهم؛ فإنّي قد حكمتُ عليهِم أنْ أُغرِقَهم جميعًا)[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نُكتةُ فصلِ الآيةِ عن سابقتِها:

الآيةُ استئنافٌ بيانيٌّ، مبيِّنٌ عن دعاءِ نوحٍ، المستنصرِ بجنابِ اللهِ الواقي

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعْطَفْ عليهِ؛ لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ مبنيٌّ على سؤالٍ نشأ مِنْ حكايةِ كلامِ الكفرةِ، كأنَّهُ قيلَ: فماذا قالَ نوحٌ عليه السلام بعدَما سَمِعَ منهُم هذهِ الأباطيلَ؟ فقيلَ: قالَ لمّا رآهُم قد أصرّوا على الكفرِ والتَّكذيبِ، وتمادَوْا في الغَوايةِ والضَّلالِ، حتَّى يَئِسَ مِنْ إيمانِهم، وقد أوحى اللّهُ إليهِ أنَّهُ لنْ يُؤمِنَ مِنْ قومِهِ إلا مَنْ قد آمنَ: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[2].

نُكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ:

مناسبةُ لفظِ الرُّبوبيَّةِ لسياقِ طلبِ النَّصرِ

عُبِّرَ في قولِهِ جل جلاله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ بلفظِ الرُّبوبيَّةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى؛ لأنَّ المقامَ مقامُ طلبِ نوحٍ عليه السلام النَّصرَ مِنَ اللهِ عز وجل، وذكرُ وصفِ الرَّبِّ المُنبِئِ بحسَبِ معناهُ اللُّغويِّ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 25 - 26.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 45.

عنِ الإحسانِ والرِّعايةِ والعِنايةِ يُناسبُ ذلكَ المقامَ، فيكونُ ذكرُ هذا اللَّفظِ الجليلِ بمنزلةِ تقديمِ الوسيلةِ بينَ يدَيْ طلبِ الحاجةِ.

بلاغةُ الدُّعاءِ في قولِهِ: ﴿ٱنصُرۡنِي﴾:

النَّصْرُ هنا مجازٌ عنِ الإهلاكِ

قيلَ: قولُهُ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ مجازٌ عن إهلاكِهم؛ لأنَّ في نُصرتِهِ إهلاكَهم، إطلاقًا لاسمِ السَّببِ على المُسبَّبِ[1]، وهذا حكايةٌ إجماليَّةٌ لقولِهِ ﷺ: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ٢٦﴾ [نوح: 26] إلى آخرِه[2].

وفي هذا الطَّريقِ مِنَ الدُّعاءِ ما لا يخفَى مِنَ البراعةِ والبلاغةِ؛ حيثُ لم يُصرِّحْ بإهلاكِهم، بل سألَهُ بطريقٍ يستلزمُ سؤالَ إهلاكِهم، وهذا في غايةٍ مِنْ حُسْنِ الأدبِ[3].

معنى الباءِ في قولِهِ: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾:

الباءُ للسَّببيَّةِ أوِ البدلِ، وكلاهما مفصحٌ عنِ المرادِ في السّياقِ

الباءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ للسَّببيَّةِ، أي: أهلِكْهم بسببِ تكذيبِهم إيّايَ[4]، فجعلَ ﷺ حظَّ نفسِهِ فيما اعتدَوْا عليهِ مُلْغًى، واهتمَّ بحظِّ الرِّسالةِ عنِ اللهِ؛ لأنَّ الاعتداءَ على الرَّسولِ استخفافٌ بمَنْ أرسلَهُ[5].

ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ للبَدَلِ، أي: انصُرْني بدلَ ما كذَّبوني، كما تقولُ: هذا بذاكَ، أي: بدلُ ذاكَ، والمعنَى: أبدِلْني مِنْ غَمِّ تكذيبِهم سُلْوَةَ النُّصرةِ عليهِم[6].

معنى (ما) في قولِهِ: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾:

(ما) في قولِهِ ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنَى: (انصُرْني بسببِ تكذيبِهم إيّايَ، أوِ انصُرْني بدلَ تكذيبِهم إيّايَ)[7].

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 572.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 161.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 183، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 45.
(6) الزمخشري، الكشاف: 3/ 183، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 228.

الدّلالةُ على مبالغتِهم في التّكذيبِ واضحةٌ في السّياق

نُكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المُضعَّفِ:

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الفعلِ المُضعَّفِ في قولِه ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ على أنَّ قومَ نوحٍ عليه السلام قد بالَغوا في تكذيبِه وإنكارِ نُبوَّتِه، ولا غَرْوَ في ذلكَ؛ فقد لَبِثَ فيهم يَدعوهم إلى اللّهِ ﷻ ألفَ سنةٍ إلّا خمسينَ عامًا، ولم يَرْتَدِعوا عن كفرِهم وضلالِهم، بل كانَ شأنُهم كما أخبرَ عنهُم قولُهُ ﷻ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوۡتُ قَوۡمِي لَيۡلٗا وَنَهَارٗا ۝٥ فَلَمۡ يَزِدۡهُمۡ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارٗا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوۡتُهُمۡ لِتَغۡفِرَ لَهُمۡ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَٱسۡتَغۡشَوۡاْ ثِيَابَهُمۡ وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوۡتُهُمۡ جِهَارٗا ۝٨ ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ [نوح: 5 - 9] إلى آخرِ الآياتِ، ولذلكَ استحقّوا الدُّعاءَ عليهِم بالهلاكِ، فأخذَهم الطّوفانُ وهم ظالمونَ.

الآيةُ شروعٌ في ملامحِ النُّصرةِ، وبوادرِ الإهلاكِ

معنى الفاءِ في قولِه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾:

الفاءُ في قولِ الحقِّ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ للسَّببيَّةِ، أي: أجَبْنا دعاءَهُ فأوحَيْنا إليهِ[1]، فالآيةُ شُروعٌ في مَبادي النُّصرةِ والإهلاكِ[2].

وقيلَ: سألَ نوحٌ عليه السلام نَصرًا مُجملًا كما حُكيَ هنا، وأعلمَهُ اللّهُ تعالى أنَّهُ لا رجاءَ في إيمانِ قومِهِ إلّا مَنْ آمنَ منهُم، كما جاءَ في سورةِ هودٍ، فلا رجاءَ في أنْ يكونَ نَصرُهُ برجوعِهم إلى طاعتِهِ وتصديقِهِ واتِّباعِ مِلَّتِه، فسألَ نوحٌ عليه السلام عندَ ذلكَ نَصرًا خاصًّا، وهو استئصالُ الَّذينَ لم يُؤمِنوا، كما جاءَ في سورةِ نوحٍ: ﴿وَقَالَ نُوحٞ رَّبِّ لَا تَذَرۡ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ۝٢٦﴾ [نوح: 26]، فالتَّعقيبُ الَّذي في قولِهِ تعالى هنا: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ﴾ تعقيبٌ بتقديرِ جُمَلٍ محذوفةٍ، وهو إيجازٌ في حكايةِ القصَّةِ[3].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 133.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 162.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 45.

نُكتةُ التَّعبيرِ بنونِ العظَمةِ في الآيةِ:

تعظيمُ شأنِ ما دخلَت عليهِ نونُ العظَمةِ معبِّرٌ عن المعنى

عُبِّرَ بضميرِ العظَمةِ في قولِ اللهِ تبارك شأنُه: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ لتعظيمِ شأنِ الوَحْيِ بكونِهِ صادرًا عن ذي العظَمةِ والجلالِ ﷻ، وتعظيمِ شأنِ الأعيُنِ المُعبَّرِ بها عنِ الحفظِ والكَلاءة، وتعظيمِ شأنِ الموحَى به، وهو كيفيَّةُ صُنْعِ السَّفينةِ الَّتي كانَتْ فيها نَجاةُ نوحٍ ومَنْ معَهُ، وتعظيمِ أمرِ اللهِ الَّذي ترتَّبَ عليهِ نَجاةُ المُؤمنينَ وهلاكُ الظَّالمينَ[1].

وفي الكلامِ أيضًا تعظيمُ الموحَى إليهِ أيضًا، وهو نبيُّ اللهِ نوحٌ عليه السلام.

معنى ﴿أَنِ﴾ في قولِهِ: ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾:

فِعلُ الوحيِ (أوْحَيْنا) فيه معنى القولِ دونَ حروفِهِ

الظّاهرُ أنَّ ﴿أَنِ﴾ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ تفسيريَّةٌ، وجملةُ ﴿أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ مُفسِّرةٌ لجملةِ ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ﴾؛ لأنَّ فعلَ الوَحْيِ فيهِ معنى القولِ دونَ حُروفِهِ[2]، وقيلَ: يجوزُ أنْ تكونَ (أنْ) مصدريَّةً، أو مُخفَّفةً مِنَ الثَّقيلةِ[3].

دلالةُ الأمرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱصۡنَعِ﴾:

الأمرُ للوجوبِ، والغرضُ اتِّخاذُ الأسبابِ للنَّجاةِ من الهلاكِ

الأمرُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ للوجوبِ، لأنَّهُ هو الأصلُ في صيغةِ الأمرِ، ولا صارفَ عنهُ، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ صُنْعِ السَّفينةِ وما عُطِفَ عليهِ على نوحٍ عليه السلام.

نُكتةُ التَّعبيرِ بفعلِ الصُّنْعِ دونَ غيرِهِ:

الإشارةُ إلى إحكامِ العملِ، وبلوغِ أعلى مستوياتِ الجودةِ

لمّا كانَ المقامُ لأمرِ نوحٍ عليه السلام بتجهيزِ سفينةِ النَّجاةِ لهُ ولِمَنْ معَهُ أوثِرَ في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَأَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡهِ أَنِ ٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ بِأَعۡيُنِنَا وَوَحۡيِنَا﴾ فعلُ الصُّنْعِ على غيرِهِ مِنَ الأفعالِ؛ لأنَّ الصُّنْعَ يُشيرُ إلى إحكامِ العملِ؛ لأنَّهُ في الأصلِ: إجادةُ الفعلِ[4]، فكانَ أنسبَ بالمقامِ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 283.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131، والشوكاني، فتح القدير: 3/ 570.
(3) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 162.
(4) الراغب، المفردات: (صنع).

لأنَّ ما يُصنَعُ بأعيُنِ اللهِ ووَحْيِهِ جديرٌ بأنْ يكونَ على أكملِ ما تكونُ عليهِ المصنوعاتُ.

الغايةُ صنعُ السَّفينةِ المعيَّنةِ الَّتي صُنِعتْ بأمرِ الله تعالى

دلالةُ (أل) في لفظِ ﴿ٱلْفُلْكَ﴾:

اللّامُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ للعهدِ الذِّهنيِّ؛ إذ ليسَ القصدُ إلى حقيقةِ الفُلْكِ؛ إذ لا يتعلَّقُ بها الصُّنْعُ، ولا إلى الاستغراقِ؛ إذ ليسَ القصدُ إلى صُنْعِ كلِّ سفينةٍ، ولا إلى بعضٍ مُعيَّنٍ مذكورٍ في الكلامِ.

الباءُ للمُلابَسةِ، والأمرُ واقعٌ تحت عينِ الله ورعايته

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:

باءُ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ للمُلابَسةِ، وهي في موضعِ الحالِ مِنْ ضميرِ ﴿ٱصْنَعِ﴾[1]، والتَّقديرُ: (فأوحَيْنا إليهِ أنِ اصنَعِ الفُلْكَ مُلتبِسًا بأعيُنِنا ووَحْينا)[2].

المبالغةُ في الحفظِ والرِّعايةِ، مِن لطفِ الله بمن أرسلَهُ وحماه

نُكتةُ جمعِ الأعيُنِ ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾:

على مذهبِ من رأى أنّ لفظ (الأعين) في قولِ الحقِّ تبارك شأنُهُ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾ بمعنى الحفظ والرِّعاية - على سبيلِ الاستعارةِ أوِ الكنايةِ أوِ المجازِ المُرسَلِ - جيءَ بلفظِ الأعيُنِ جمعًا؛ للمبالغةِ في الحفظِ والرِّعايةِ، والدَّلالةِ على كمالِهما[3]، وقيلَ: صيغةُ الجمعِ في ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بمعنى المُثنَّى، والمرادُ: بعَيْنَيْنا[4].

المرادُ بالوَحيِ كيفيَّةُ صُنْعِ السَّفينةِ

دلالةُ المرادِ بالوَحيِ في قولِهِ: ﴿وَوَحْيِنَا﴾:

المرادُ بالوَحْيِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾: الوَحْيُ الَّذي بِهِ وصفُ كيفيَّةِ صُنْعِ الفُلْكِ[5]، ويدلُّ على ذلك عطفُهُ على ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ المجرورِ بباءِ المُلابَسةِ المُتعلِّقةِ بالأمرِ بالصُّنْعِ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 66.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 283، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3708.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 66.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 272.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 67.

معنى الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾:

أثرُ الفاءِ في ترتيبِ ما بعدَها على ما قبلَها

الفاءُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ لترتيبِ مضمونِ ما بعدَها على ما قبلَها[1]، وقد فُرِّعَ على الأمرِ بصُنْعِ الفُلْكِ تفصيلُ ما يفعلُهُ نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ عندَ الحاجةِ إلى استعمالِ الفُلْكِ[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بـ (إذا) دونَ (إنْ):

الدَّلالةُ على تحقُّقِ مجيءِ الأمرِ؛ لأنَّهُ أمرُ مَن بيدِهِ الأمرُ

عُبِّرَ بـ (إذا) الشَّرطيَّةِ في قولِ الحقِّ عزَّ وتباركَ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ مجيءِ الأمرِ، أي: فإذا جاءَ أمرُنا بالهلاكِ[3]، وذلكَ لأنَّ (إذا) للشَّرطِ في الاستقبالِ، وهي تُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بهِ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ تحقُّقِ الوعدِ بنُصْرةِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وإهلاكِ أعدائِهِ، ولم يُعبَّرْ بـ (إنْ)؛ لأنَّها وإنْ كانَتْ للشَّرطِ في الاستقبالِ أيضًا لكنَّها تُستعمَلُ في الأمرِ النّادرِ المشكوكِ في وقوعِهِ، فلا تناسبُ هذا المقامَ.

نُكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿جَآءَ﴾:

مناسبةُ لفظِ الماضي لمقامِ تحقُّقِ مجيءِ الأمرِ

لمّا كانَتْ (إذا) للشَّرطِ في الاستقبالِ، وتُستعمَلُ في الأمرِ المقطوعِ بحصولِهِ - غُلِّبَ لفظُ الماضي معَها؛ لأنَّهُ أقربُ للوقوعِ باعتبارِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنَى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، وقد عُبِّرَ بها في قولِهِ جلَّ شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾؛ دلالةً على تحقُّقِ مجيءِ أمرِ اللّهِ تباركَ شأنُهُ بإهلاكِ قومِ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وكأنَّ الأمرَ قد جاءَ، واللّهُ سبحانَهُ يُخبِرُ عن مجيئِهِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظِ الأمرِ:

تعظيمُ شأنِ الإهلاكِ الَّذي لا نجاةَ منهُ

المرادُ بالأمرِ في قولِ اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾: العذابُ والإهلاكُ[4]، وقد عُبِّرَ عنهُ بلفظِ الأمرِ؛ تعظيمًا لهُ وتفخيمًا؛ لأنَّ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 46.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 133.

(4) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 465.

الأمرَ يأتي بمعنى الشَّأنِ العظيم[1]، ويُقوّي التَّفخيمَ فيه إضافتُهُ إلى نونِ العظَمةِ كما تقدَّمَ، وفي إسنادِ المَجيءِ إلى الأمرِ مجازٌ حُكميٌّ علاقتُه السّببيّةُ والمسبّبيّةُ؛ لأنّ الأمرَ هو سببٌ لوقوعِ العذابِ.

إعرابُ جملةِ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾:

الجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها، مفيدةٌ بدلالتها

جملةُ ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ معطوفةٌ على جملةِ ﴿جَآءَ أَمۡرُنَا﴾ عطفَ النَّسقِ[2]، فتكونُ داخلةً معَها في حيِّزِ الشَّرْطِ، وقيلَ: الجملةُ معطوفةٌ على ما قبلَها عطفَ البيانِ، عندَ من يرى وقوعَ عطْفِ البيانِ بين الجُمل، أي: إنَّ مجيءَ الأمرِ هو فوَرانُ التَّنّورِ[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ: ﴿وَفَارَ﴾:

مناسبةُ الماضي لمقامِ القطعِ بحصولِ الفَوَرانِ

حصولُ فوَرانِ التَّنّورِ أمرٌ مقطوعٌ به؛ لأنَّ مجيءَ أمرِ اللهِ سبحانَهُ بإهلاكِ قومِ نوحٍ مقطوعٌ بحصولِهِ، بدليلِ (إذا) وصيغةِ الماضي في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا﴾، وفَوَرانُ التَّنّورِ المذكورُ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ معطوفٌ عليهِ وداخلٌ معَهُ في حيِّزِ الشَّرطِ، فيكونُ مثْلَهُ في القطعِ، ولذلكَ وافقَهُ في كونِهِ بصيغةِ الماضي الدّالَّةِ بحسَبِ ظاهرِ اللَّفظِ على أنَّ الفَوَرانَ قد تحقَّقَ، وأنَّ اللهَ تعالى يُخبِرُ عنهُ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾:

التَّنّور علامةٌ لبدء تنفيذِ الغرقِ المُهلكِ، ونجاةِ القلَّةِ المؤمنةِ

الرّاجحُ أنَّ المرادَ بالتَّنّورِ، في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾: تنّورُ الخُبْزِ، وأنَّهُ كانَ أمارةً بينَ اللهِ تعالى وبينَ نوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ[4]، وعليهِ تكونُ لامُ ﴿ٱلتَّنُّورُ﴾ للعهدِ، والمرادُ به تنّورٌ مُعيَّنٌ، وقد رويَ: أنَّهُ قيلَ لنوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إذا فارَ الماءُ منَ التَّنّورِ اركبْ أنتَ ومَنْ معكَ، فلمّا نبعَ الماءُ منهُ أخبرَتْهُ امرأتُهُ، فركبَ، ومَحَلُّ التَّنّورِ في الكوفةِ[5].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 272.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 570.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 141، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 133.
(5) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86.

علَّةُ جعلِ فوَرانِ التَّنّورِ أمارةً بدايةِ الطّوفانِ:

المبالغةُ في الإنذارِ والاعتبارِ بفورانِ التَّنّورِ؛ لإغراقِ كلِّ كفورٍ

قولُه ﷻ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ معناهُ: فارَ الماءُ مِنْ تنّورِ الخُبْزِ، وفي ذلكَ آيةٌ عجيبةٌ، حيثُ أُخرِجَ سببُ الغرَقِ - وهو الماءُ - مِنْ موضعِ الحَرْقِ، وهو التَّنّورُ؛ ليكونَ ذلكَ أبلغَ في الإنذارِ والاعتبارِ[1]؛ إذ جعلَ اللّهُ جلَّتْ قُدرتُهُ الضِّدَّ مَنْبَعًا للضِّدِّ.

وقيلَ: الكلامُ ليسَ على حقيقتِهِ، بل قولُهُ تعالى: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ كنايةٌ عنِ الشِّدَّةِ، كقولِهم: حَمِيَ الوَطيسُ.

وقيلَ: قولُهُ سبحانَهُ: ﴿وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ مَثَلٌ لبُلوغِ الشَّيءِ إلى أقصى ما يُتحمَّلُ مِثْلُهُ، كما يقالُ: بلغَ السَّيْلُ الزُّبَى، وامتلأَ الصّاعُ، وفاضَتِ الكأسُ[2].

دلالةُ الفاءِ في قولِهِ: ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾:

الفاءُ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ واقعةٌ في جوابِ الشَّرطِ المذكورِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾، وهي تُفيدُ رَبْطَ الجوابِ بالشَّرطِ.

معنى حرفِ الجرِّ في قولِهِ: ﴿فِيهَا﴾:

الدَّلالةُ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ مبيِّنةٌ عن المرادِ في السّياقِ

يدلُّ التَّعبيرُ بحرفِ الجرِّ (في) الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ المكانيَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ على أنَّ السَّفينةَ كانَتْ ظرفًا ومكانًا للَّذينَ أُمِرَ نوحٌ عليه السلام أنْ يُدخِلَهم فيها، وهي تشتملُ عليهم اشتمالَ الظَّرفِ على المظروفِ، وفي ذلكَ مزيدُ حفظٍ وصيانةٍ لهُم في هذا الحدثِ الهائلِ العظيمِ، حيثُ الأمواجُ تتلاطمُ، والمياهُ تَغْمُرُ كلَّ مكانٍ تسيرُ فيهِ السَّفينةُ.

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 2/ 465، والبقاعيّ، نظم الدرر: 13/ 133.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 70.

نُكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿فِيهَا﴾:

أفاد تقديمُ شبْهِ الجملة على المفعول، العنايةَ بهذه السّفينة وبمن يكون على متنها منَ الأزواج الّذين ذكرتهمُ الآيةُ، والعنايةُ بالسَّفينة وأهلها، لطفٌ بمن التجأ إلى ملاذِ اللّه الآمن.

توجيهُ القراءاتِ في قولِهِ: ﴿كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ وبلاغتها:

اختلافُ وجوهِ الإعرابِ باختلافِ القراءاتِ مفيدٌ في بابه

قرأ حفصٌ: ﴿كُلٍّ زَوْجَيْنِ﴾ بالتّنوينِ، وقرأ الباقونَ: ﴿كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ بغيرِ تنوينٍ على الإضافةِ[1].

أمّا مَنْ قرأ بالتَّنوينِ فالتَّنوينُ عِوَضٌ عن مضافٍ إليهِ محذوفٍ، والمعنَى: مِنْ كلِّ نوعٍ زوجينِ، و﴿زَوْجَيْنِ﴾ مفعولُ ﴿فَاسْلُكْ﴾، و﴿اثْنَيْنِ﴾ تأكيدٌ[2]، أي: صفةٌ مُؤكِّدةٌ، أي: لا تَزِدْ على اثنينِ[3].

وأمّا مَنْ قرأ بالإضافةِ فالإضافةُ بيانيَّةٌ[4]، و﴿اثْنَيْنِ﴾ مفعولُ ﴿فَاسْلُكْ﴾، وهو بيانٌ لئلّا يُتوهَّمَ أنْ يحملَ مِنْ كلِّ زوجينِ واحدًا منهما؛ لأنَّ الزَّوجَ هو واحدٌ مِنِ اثنينِ مُتَّصلينِ، ولئلّا يَحملَ أكثرَ مِنِ اثنينِ مِنْ نوعٍ، فتَضيقَ السَّفينةُ وتَثْقُلَ[5]، فقراءة الإضافة أزالت الإبهام الذي في قراءة التنوين؛ أيِ: ذكر وأنثى من كلّ صنف، سواء أكان إنسان أم حيوان أم نبات.

نُكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿زَوْجَيْنِ﴾:

التَّنكيرُ للإفرادِ؛ ليسلك فيها كلُّ زوجين من الأنواع

تنكيرُ ﴿زَوْجَيْنِ﴾ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ للإفراد، فالزَّوجُ في الأصلِ: شيءٌ يكونُ ثانيًا لآخرَ في حالةٍ، وأصلُهُ: اسمٌ لِما ينضمُّ إلى فردٍ فيصيرُ زوجًا لهُ، وكلُّ

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 288.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86، والقونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 163.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 72.
(4) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 72.

منهما زوجٌ للآخرِ، والمرادُ بـ ﴿زَوۡجَيۡنِ﴾ هنا الذَّكرُ والأنثى مِنَ النَّوعِ، والمعنَى: فاسلُكْ فيها مِنْ أزواجِ جميعِ الأنواعِ[1].

المرادُ بالأهلِ في قولِه: ﴿وَأَهۡلَكَ﴾:

المرادُ أُمَّةُ الإجابةِ أوِ امرأتُه وبَنوهُ، وكلاهما وجيهٌ

اختُلِفَ في المرادِ بالأهلِ في قولِ الحقِّ تبارك شأنُه: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾:

فقيلَ: المرادُ بهم أُمَّةُ الإجابةِ الَّذينَ آمَنوا به عليه السلام، سواءٌ كانوا مِنْ ذوي قرابتِه أم لا، وإنَّما حُمِلَ عليهِ هنا دونَ المعنَى المشهورِ، وهو امرأتُه وبَنوهُ؛ ليشملَ مَنْ آمنَ ممَّنْ ليسَ ذا قرابةٍ؛ فإنَّهم قد ذُكِروا في سورةِ هودٍ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ﴾ [هود: 40]، والقرآنُ يُفسِّرُ بعضُه بعضًا، وعلى هذا يكونُ قولُه تعالى: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾ استثناءً منقطِعًا[2].

وقيلَ: المرادُ بالأهلِ المعنَى المشهورُ، وهو امرأتُه وبَنوهُ منه كما في سورةِ هودٍ[3]، وحينئذٍ يكونُ الاستثناءُ متَّصلًا كما كانَ هناكَ[4].

بلاغةُ تأخيرِ سَلْكِ الأهلِ في السَّفينةِ:

احتياجُ سَلْكِ الأزواجِ إلى معاونةِ غيرِه له عليه السلام

تأخيرُ الأمرِ بسَلْكِ الأهلِ في السَّفينةِ عمّا ذُكِرَ مِنْ سَلْكِ الأزواجِ فيها في قولِه جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ مِنۡهُمۡۖ﴾؛ لكونِه عريقًا فيما أُمِرَ به مِنَ السَّلْكِ؛ فإنَّهُ يحتاجُ إلى مُزاوَلةِ الأعمالِ مِنْ نوحٍ عليه السلام، بل يحتاجُ إلى مُعاوَنةٍ مِنْ أهلِه وأتباعِه، وأمّا هم فإنَّما يدخلونَها باختيارِهم بعدَ ذلكَ، ولأنَّ في المُؤخَّرِ نوعَ تفصيلٍ بذكرِ الاستثناءِ وغيرِه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 72.
(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327.
(3) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 142، والبقاعي، نظم الدرر: 13/ 133، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 132.
(4) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 164، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 229.

فتقديمُهُ يُؤدّي إلى الإخلالِ بحُسْنِ انتظامِ الكلامِ، وتجاوبِ أطرافِ النَّظمِ الكريمِ(1).

معنى الموصولِ في قولِهِ: ﴿إِلَّا مَن سَبَقَ﴾:

مَنْ سبق عليه القولُ مُنِعَ من السّلك في السَّفينة

﴿مَن﴾ في قولِ اللّهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ موصولةٌ، صِلَتُها جملة ﴿سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، وفي التَّعبيرِ بالموصولِ وصِلَتِهِ إشارةٌ إلى أنَّ علَّةَ استثناءِ مَنِ استُثْنِيَ من السَّلْكِ، هي سَبْقُ القولُ عليهِ مِنَ اللّهِ جلَّ ذكرُهُ، كأنَّهُ قيلَ: لا تَسْلُكْ هؤلاءِ في السَّفينةِ؛ لأنَّهم سبقَ عليهِم القولُ.

نُكتةُ تعديةِ ﴿سَبَقَ﴾ بـ(على):

استعمالُ (على) في المَضارِّ، من البيان المفصح

عُدّيَ الفعلُ ﴿سَبَقَ﴾ بـ (على) في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾؛ لأنَّ العادةَ قد جرَتْ باستعمالِ (على) عندَ سَبْقِ الضّارِّ، وسَبْقُ القولِ هنا ضارٌّ؛ لأنَّهُ عليهِ لا لهُ، كما يُجاءُ باللّامِ عندَ سَبْقِ النّافعِ، قالَ اللّهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: 101]، وقالَ: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾﴾ [الصافات: 171]، ونحوُهُ قولُهُ تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286](2)، وكما يقالُ: دَعا عليهِ، وشَهِدَ عليهِ، وادَّعى عليهِ، ويقالُ: دَعا لهُ، وشَهِدَ لهُ(3)، وقيلَ: عُدّيَ الفعلُ ﴿سَبَقَ﴾ بـ (على)؛ لتضمينِهِ معنَى: حَكَمَ، والمرادُ الحُكْمُ عليهِم بالهلاكِ(4).

دلالةُ تقديمِ قولِهِ: ﴿عَلَيْهِ﴾:

العِنايةُ بالمُقدَّمِ والتَّشويقُ إلى المُؤخَّرِ من بلاغةِ السّياق

قُدِّمَ ﴿عَلَيْهِ﴾ على ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ في قولِهِ تباركَ شأنُهُ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾؛

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 132، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 229.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 184، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 273.
(3) ابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 13/ 164.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5066، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 72.

لبيانِ الاعتناءِ بوقوعِ سَبْقِ شيْءٍ على المُعبَّرَ عنهُ بـ ﴿مَن﴾ الموصولة، وللتَّشويقِ إلى المُؤَخَّرِ السّابقِ، وهو ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ المرادُ بهِ الوعيدُ بالهلاكِ، وفي التَّشويقِ تهيئةٌ للنَّفْسِ لتلقّي المُؤَخَّرِ، فيتمكَّنُ عندَ الوُرودِ عليها فضْلَ تمكُّنٍ.

معنى (أل) في لفظِ ﴿ٱلْقَوْلُ﴾:

المرادُ بالقولِ في قولِهِ جلَّتْ أسماؤُهُ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾: ما مضى مِنْ قولِ اللّهِ عليهِ، أي: وعيدِهِ، فالتَّعريفُ في ﴿ٱلْقَوْلُ﴾ للعهدِ[1].

مرجعُ الضَّميرِ في قولِهِ: ﴿مِنْهُمْ﴾:

الضَّميرُ راجعٌ للأهلِ، ومعبِّرٌ عن ألطافِ الله بنجاتهم

ضميرُ الهاءِ في ﴿مِنْهُمْ﴾ راجعٌ إلى الأهلِ في قولِهِ ﷻ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾، سواءٌ كانَ لفظُ الأهلِ بمعنَى أُمَّةِ الإجابةِ أو بمعناهُ المشهورِ، وهو زوجةُ نوحٍ عليه السلام وبَنوهُ[2].

توجيهُ المتشابهِ اللَّفظيِّ بينَ آيتَي (المؤمنون وهود):

اختلافُ اللَّفظِ مرتبطٌ بملمحِ التَّوصيفِ، وأوانِ الخطابِ الإلهيِّ المنيفِ

تشابهَ قولُهُ تعالى في هذهِ السّورةِ: ﴿فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، معَ قولِهِ في سورةِ هودٍ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٤٠﴾ [هود: 40].

ومِنْ وجوهِ الاختلافِ بينَ الآيتينِ:

أوَّلًا: هذهِ الآيةُ صريحةٌ في أنَّ الأمرَ بالسَّلْكِ كانَ قبلَ صُنْعِهِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 72.

(2) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327.

الفُلْكَ، وهو بخلافِ ما في سورةِ هودٍ، فالوجهُ أنْ يُحمَلَ ما في سورةِ هودٍ إمّا على أنَّهُ حكايةٌ لأمرٍ آخرَ تنجيزيٍّ وردَ عندَ فوَرانِ التَّنّورِ الَّذي نيطَ بهِ الأمرُ التَّعليقيُّ؛ اعتناءً بشأنِ المأمورِ بهِ، أو على أنَّ ذلكَ هو الأمرُ السّابقُ بعينِهِ، لكنْ لمّا كانَ الأمرُ التَّعليقيُّ قبلَ تحقُّقِ المُعلَّقِ بهِ في حقِّ إيجابِ المأمورِ بهِ بمنزلةِ العَدَمِ - جُعِلَ كأنَّهُ إنَّما حدثَ عندَ تحقُّقِهِ، فحُكِيَ على صورةِ التَّنجيزِ[1].

ثانيًا: عُبِّرَ بالحَمْلِ في سورةِ هودٍ، فقيلَ: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا﴾ [هود: 40]، وعُبِّرَ بالسَّلْكِ هنا، فقيلَ: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا﴾، ووجهُ ذلكَ: أنَّ أحدَهما نقلٌ بالمعنى؛ لأنَّ القصَّةَ واحدةٌ، وفيها تغايرٌ في اللَّفظِ، لكنَّهُ تطابقٌ معنًى، وفيها اختصارٌ أيضًا[2].

وقيلَ: إنَّما عُبِّرَ بالحَمْلِ هناكَ وبالسَّلْكِ هنا؛ لأنَّ آيةَ سورةِ هودٍ حكَتْ ما خاطبَهُ اللّٰهُ بهِ عندَ حدوثِ الطّوفانِ، وذلكَ وقتٌ ضيِّقٌ، فأُمِرَ بأنْ يحملَ في السَّفينةِ مَنْ أرادَ اللّٰهُ إبقاءَهم، فأُسنِدَ الحَمْلُ إلى نوحٍ؛ تمثيلًا للإسراعِ بإركابِ ما عُيِّنَ لهُ في السَّفينةِ، حتَّى كأنَّ حالَهُ في إدخالِهِ إيّاهم حالُ مَنْ يحملُ شيئًا ليضعَهُ في موضعٍ.

وأمّا آيةُ هذهِ السّورةِ فحكَتْ ما خاطبَهُ اللّٰهُ بهِ قبلَ حدوثِ الطّوفانِ؛ إنباءً بما يفعلُهُ عندَ حدوثِ الطّوفانِ، فأمرَهُ بأنَّهُ حينئذٍ يُدخِلُ في السَّفينةِ مَنْ عيَّنَ اللّٰهُ إدخالَهم، معَ ما في ذلكَ مِنَ التَّفنُّنِ في حكايةِ القصَّةِ[3].

ثالثًا: لم يُذكَرْ في هذهِ الآيةِ مَنْ آمنَ؛ اكتفاءً بدلالةِ الاستثناءِ لِمَنْ سبقَ عليهِ القولُ مِنْ أهلِ بيتِهِ؛ فإنَّهُ يدلُّ على أنَّهُ تعالى أمرَ بإدخالِ جميعِ مَنْ آمنَ بهِ وإنْ لم يكنْ مِنْ أهلِ بيتِهِ[4].

معنى الواوِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾:

الواوُ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ للعطفِ، والظّاهرُ أنَّ المعطوفَ عليهِ هو قولُهُ تعالى: ﴿فَٱسۡلُكۡ﴾، وقيلَ: لمّا كانَ التَّقديرُ: (إلّا مَنْ سبقَ عليهِ القولُ منهُم،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 131، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 229.
(2) القونويّ، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 163.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 46، وانظر للتوسع: ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 256 - 257، والإسكافي، درة التنزيل: 1/ 937.
(4) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 158.

فلا تَحْمِلْهُ معَكَ، ولا تَعْطِفْ عليهِ؛ لظُلْمِهِ) عُطِفَ عليهِ قولُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾[1]، فتكونُ الجملةُ معطوفةً على جملةٍ محذوفةٍ يستدعيها سياقُ الكلامِ.

الـواوُ لعطفِ الجملةِ على ما قبلَها؛ لتكامُلِ المعنى واتِّساقِهِ

دلالةُ النَّهيِ في قولِهِ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي﴾:

يدلُّ النَّهيُ في قولِهِ عزَّ شأنُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ على أنَّ كفّارَ قومِ نوحٍ عليه السلام سينزلُ بهم عِقابٌ عظيمٌ لا مَرَدَّ له؛ لأنَّ المرادَ بالمُخاطَبةِ المنهيِّ عنها المُخاطَبةُ الَّتي ترفعُ عِقابَهم، فتكونُ لنفعِهم، كالشَّفاعةِ وطلبِ تخفيفِ العِقابِ، لا مُطلَقُ المُخاطَبةِ[2].

الـدَّلالـةُ على نُـزولِ العِقابِ العظيمِ بقومِ نوحٍ الكفرةِ

وفي الكلامِ إشارةٌ إلى شَفَقةِ نوحٍ عليه السلام على قومِهِ وحُبِّهِ لنَجاتِهم[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بحرفِ الجرِّ ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾:

المرادُ بالمُخاطَبةِ المنهيِّ عنها في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ المُخاطَبةُ الَّتي فيها استشفاعُ نوحٍ عليه السلام لقومِهِ، وطلبُهُ رفعَ العذابِ عنهُم، لا مُطلَقُ المُخاطَبةِ، ولكنَّ الكلامَ أُخرِجَ مُخْرَجَ المبالغةِ، حيثُ أوقعَ النَّهْيُ مِنْ حيثُ الظّاهرُ على المُخاطَبةِ المُتعلِّقةِ بذواتِ المُخاطَبينَ، فقالَ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ بإدخالِ ﴿فِي﴾ الدّالَّةِ على الظَّرفيةِ المكانيَّةِ على ﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾، وكأنَّ ذواتِ المُخاطَبينَ صارَتْ ظرفًا ومَحَلًّا للنَّهيِ عنِ المُخاطَبةِ، فيفيدُ الكلامُ مِنْ حيثُ صورةُ الخِطابِ النَّهيَ عنِ المُخاطَبةِ المُتعلِّقةِ بالَّذينَ ظَلَموا أيًّا كانَ نوعُها، وفي ذلكَ مِنَ المبالغةِ في تحقيقِ نُزولِ العذابِ بهم ما لا يَخْفَى على المُتأمِّلِ.

ملمحُ المبالغةِ في النَّهيِ عن المُخاطَبةِ

بلاغةُ الإيجازِ في قولِهِ: ﴿فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾:

في قولِهِ سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ إيجازٌ لطيفٌ، وهو

الإيجازُ بحذفِ طرفِ الإضافةِ من بلاغةِ السّياقِ في الإفادةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 133.

(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 67.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 283.

إيجازٌ بحذفِ مضافٍ، والتَّقديرُ: (ولا تُخاطِبْني في شأنِ الَّذين ظَلَموا واستدفاعِ العذابِ عنهُم بشفاعتِك)، وإنَّما قُدِّرَ ذلك؛ لأنَّ النَّهيَ عنِ المُخاطَبةِ لا يتعلَّقُ بذواتِ الَّذينَ ظَلَموا حقيقةً، وإنَّما يتعلَّقُ بأمرٍ مُتعلِّقٍ بهِم يدلُّ عليهِ المقامُ.

بلاغةُ الإظهارِ في موضعِ الإضمارِ:

التَّنبيهُ على علَّةِ النَّهيِ مفيدةٌ في بيانِ المعنى

الظّاهرُ أنْ يقالَ: (ولا تُخاطِبْني فيهم)؛ لأنَّ الضَّميرَ راجعٌ إلى مَنْ سبقَ عليهِ القولُ، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ معَ أنَّهُ أوجزُ إلى الإظهارِ في قولِهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ ليُتوصَّلَ بواسطةِ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ إلى التَّنبيهِ على علَّةِ النَّهيِ عنِ المُخاطَبةِ، والمعنَى: ولا تُخاطِبْني في الَّذينَ ظَلَموا، أي: لا تُكلِّمْني فيهم بشفاعةٍ وإنجاءٍ لهُم مِنَ الغرَقِ ونحوِهِ؛ لأنَّهم ظَلَموا أنفُسَهم بالإشراكِ[1].

نُكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في قولِهِ: ﴿ظَلَمُوٓاْ﴾:

الـدَّلالـةُ على رُسـوخِـهـم في الظُّـلـمِ ظاهرةٌ بيّنةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنْ تحقُّقِ الظُّلمِ منهُم ورُسوخِهم فيهِ، وأنَّ لهُم قَدَمَ صِدْقٍ فيه، بحيثُ صارَ بمنزلةِ صفاتِهم الجِبِلّيَّةِ، والمعنَى: ولا تُخاطِبْني في شأنِ الَّذينَ أوجَدوا الظُّلْمَ، واستمرّوا عليهِ[2].

نُكتةُ فصلِ قولِهِ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾:

الفصلُ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ مفيدٌ في الإبانةِ عن المعنى

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ عمّا قبلَهُ، ولم يُعْطَفْ عليهِ؛ لما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ الموجِبِ للفصلِ؛ لأنَّ قولَهُ سبحانَهُ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ لتعليلِ ما قبلَهُ[3]، وهو نَهْيُهُ عليه السلام عنِ الدُّعاءِ بالإنجاءِ للَّذينَ ظَلَموا[4]، كأنَّهُ لمّا قيلَ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي

(1) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 229.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/ 283.
(3) الخفاجي، عناية القاضي: 6/ 327.
(4) زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 158.

﴿ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ سألَ سائلٌ، فقالَ: ما سببُ النَّهي عنِ المُخاطَبةِ فيهِم؟ فأُجيبَ بقولِهِ تعالى: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾، أي: لأنَّهم مُغرَقونَ.

غرضُ التَّوكيدِ في: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾:

أثرُ تنزيلِ غيرِ السّائلِ المُتردِّدِ منزلةَ السّائلِ

تأكيدُ الخبرِ بحرفِ التَّوكيدِ في قولِهِ ﷻ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ مثالٌ لتخريجِ الكلامِ على خلافِ مُقتضَى الظّاهرِ، بتنزيلِ غيرِ السّائلِ المُتردِّدِ منزلةَ السّائلِ إذا قُدِّمَ إليهِ مِنَ الكلامِ ما يُلوِّحُ إلى جنسِ الخبرِ، فيستشرفُهُ لتعْيينِهِ استشرافًا يُشبِهُ استشرافَ السّائلِ عن عينِ الخبرِ[1].

بيانُ ذلكَ: أنَّ معنَى قولِهِ جلَّ وتباركَ: ﴿وَلَا تُخَٰطِبۡنِي فِي ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾: لا تَدْعُني يا نوحُ في شأنِ قومِكَ واستدفاعِ العذابِ عنهُم بشفاعتِكَ، فهذا الكلامُ يُلوِّحُ بالخبرِ تلويحًا ما، ويُشعِرُ بأنَّهُ قد حقَّ عليهِم، فصارَ المقامُ مقامَ أنْ يتردَّدَ المُخاطَبُ في أنَّهم هل صاروا محكومًا عليهِم بالإغراقِ أم لا؟ فقيلَ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾ مُؤكَّدًا[2]، أي: محكومٌ عليهِم بالإغراقِ؛ لظُلمِهم بالإشراكِ والمعاصي[3].

دلالةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ في: ﴿مُّغۡرَقُونَ﴾:

الدّلالةُ على تحقُّقِ الإغراقِ، لما يتَّصفونَ بهِ مِنَ الكفرِ والعنادِ والشِّقاقِ

عُبِّرَ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ في قولِ الحقِّ تباركَ شأنُهُ: ﴿إِنَّهُم مُّغۡرَقُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإغراقِ، وأنَّ اتِّصافَهم بكونِهِم مُغرَقينَ أمرٌ ثابتٌ مُستقِرٌّ، حتَّى كأنَّهُ مِنْ جملةِ الصِّفاتِ الجِبِلِّيَّةِ الَّتي يتَّصفونَ بها، فلا مَدْفَعَ لهُ، ولا تنفعُ في حقِّهم شفاعةُ شافعٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 12/ 67.
(2) التفتازاني، المختصر، ص: 150.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 86.

﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلۡفُلۡكِ فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٢٨﴾ [المؤمنون: 28]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

إكمال ما ذُكِرَ سلفًا من قِصّة نوح وقومه، والتّأكيد على حمد الله المُنجي مِنَ الظَّلَمة

لَمّا ذَكر اللّه تعالى في الآية السّابقة تكليفَ نوحٍ ﷺ بدخول السّفينة، هو ومَن معه إذا ظهرتْ علامةُ الطّوفان؛ أوحَى إليه - هنا - بما ينبغي عليه إذا تمكّن في الفُلْكِ هو ومَن معه، ودارتْ بهم في الطّوفان والغَرَق، أنْ يحمد اللّهَ المُنجي الحافظ الّذي عصمهم ممّا أصاب غيرَهم من إهلاك، فهو اصطفاءٌ من اللّه لهم، فيه آياتٌ جليلة تستحقّ الحمدَ للجليلِ والاستمساك به.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شيئَين، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ مِنْ هذا الأمْرِ، أيْ: سَواءٍ[1]، والاستواءُ: الإقبالُ على الشَّيْءِ، ويأتي بمعنى: الاعتلاء، قالَ الأخْفَش: استَوى، أي: علا، ويَقول: استوَيْتُ فوقَ الدّابة، وعَلى ظهر الدّابة، أي: عَلَوْته[2]، والاسْتِواءُ كذلك: الاسْتِقْرارُ، قالَ تعالَى: ﴿وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: 44]، ويأتي بمعنى: الانتهاء، يُقالُ: اسْتَوَى الرَّجُلُ، إذا انْتَهَى شَبابه، قالَ: ولا يُقالُ في شيءٍ مِنَ الأشياء اسْتَوَى بنفسِه، حَتَّى يُضَمَّ إلَى غيره، فيُقال: اسْتَوَى فلانٌ وفلانٌ، إلّا في مَعْنَى بلوغِ الرَّجُلِ النّهايةَ، فيُقالُ: اسْتَوَى[3]، والمراد بالاستواء في الآية: الاعتلاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).

(2) أبو عُبيدة، مجاز القرآن: 2/ 15، وابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 277، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سوي).

(3) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (سوي).

2) ﴿ٱلۡفُلۡكِ﴾: (فلك) أصلٌ يَدُلُّ على اسْتِدارَةٍ في شَيْءٍ، ومِنْ ذلكَ: فَلْكَةُ المِغْزَلِ بِفَتْحِ الفاءِ، سُمّيَتْ لِاسْتِدارَتِها[1]، والفُلْكُ جَمْعٌ، لَفْظُهُ كَلَفْظِ مُفْرَدِه: السَّفينَة، يُذَكَّر ويُؤَنَّث[2]، "قال تعالى: ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ١١٩﴾ [الشّعراء: 119] فجاء به مُذكَّرًا، وقال: ﴿وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: 164] فأنّث، ويحتمل واحدًا وجمعًا، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: 22] فجُمِع، فكأنّه يُذْهَب بها إذا كانت واحدةً إلى المَرْكَب فيُذَكّر، وإلى السّفينة فتُؤنّث"[3]، والمرادُ بالفُلْكِ في الآية: اسمٌ لمَرْكَبِ البَحْرِ، واسمُ جَمْعٍ لهُ بصيغَةٍ واحدَةٍ.

3) ﴿نَجَّىٰنَا﴾: (نجو) أصْلانِ، يَدُلُّ أحَدُهُما عَلَى كَشْطٍ وكَشْفٍ، والآخَرُ عَلَى سَتْرٍ وإخْفاءٍ[4]، وأصلُ الإنجاءِ: الانفصالُ مِنَ الشَّيءِ، ومنه: نَجا فلانٌ من فلانٍ، وأنْجَيْتُهُ ونَجَّيْتُهُ، قال تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [النّمل: 53][5]، والنَّجاةُ: الخَلاصُ ممّا فيه المَخافَةُ، ونَظيرُها السَّلامَة، والتَّنْجيَةُ: الإنْجاءُ، وهوَ جَعْلُ الغَيْرِ ناجيًا[6]، والنَّجْوَةُ والنَّجاةُ: المكانُ المُرتفِع المُنفصِل بارتفاعه عمّا حولَه، وقيل: سُمّيَ لكونه ناجيًا منَ السَّيْل، ونَجَّيْتُهُ: تركتُه بنَجْوة، وعلى هذا: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ﴾ [يونس: 92][7]، والمقصود بالتَّنْجيَةِ مِنَ القَوْمِ الظّالمينَ هنا: الخلاصُ مِنْ أذاهُمْ.

4) ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: (ظلم) أَصْلٌ يَدُلُّ على وضْعِ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِه، كَقَوْلِهم: ظَلَمَ الأرْضَ، إذا حَفَرَها في غَيْرِ مَوْضِعِ حَفْرِها[8]، والظُّلْمُ: المَيْلُ عن القَصد، والعَرَب تَقولُ: الزَمْ هذا الصَّوْبَ ولا تَظْلِم مِنْهُ شَيْئًا، أي: لا تَجُرْ عَنهُ[9]، وضِدُّه: العَدْلُ، والظُّلامةُ: مَظْلِمتُكَ تطلُبُها عندَ الظّالم، وظَلَّمتُه تظليمًا، إذا أنْبَأْتَهُ أنَّه ظالم[10]، "والظّلْمُ في اللّغة:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (فلك).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن سيده، المحكم: (فلك).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (فلك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نجو).
(5) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(6) الزّبيديّ، تاج العروس: (نجو)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 130.
(7) الرّاغب، المفردات: (نجو).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ظلم).
(9) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ظلم).
(10) الخليل، العين، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ظلم).

أخذُكَ حقَّ غيرِك، وتَعدّيكَ إلى ما لا يجب لك، ولذلك لم يَجُزْ أن يوصف اللّه ﷻ به؛ لأنّ الأشياء كلّها له، فهو يفعل فيها ما يريد، كما يفعل المالكُ للشّيء، فيبطل بذلك قولُ القَدَريّة، تعالى اللّهُ عن مقالتهم"[1]، والظُّلم في الآية يَجوزُ أنْ يُرادَ بِهِ الشِّرْكُ، كَما قالَ تَعالَى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ ١٣﴾ [لُقمان: 13][2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

توجيهُ اللهِ تعالى لنوحٍ، بأن يحمدِ الله على أن أنجاهُ منَ الظَّلَمةِ المُناوئين

أرشد اللّهُ سبحانه نبيَّه نوحًا إلى ما يقوله بعد أن يستقرّ في السَّفينة، فقال ﷻ: (فإذا استقرَرْتَ - يا نوحُ - أنتَ والمُؤمِنونَ الَّذين معك على السَّفينة، وعَلَوتُم فوقَها راكِبينَ، فقُل: الحَمدُ للّهِ الَّذي خلَّصَنا مِنَ القَومِ المُشرِكينَ)[3]؛ ذلك أنّ نجاة نوح عليه السلام من ذلك الطّوفان المُطبق، تُعتبر معجزةً خالدة وباهرة، لا يُنكِرُها ذو لُبّ رشيد، ولا ذو فهم سديد.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة (الفاء) في سياق الآية:

الامتثال لمرضاة اللـه، يفضي إلى السّكينة والثّبات

الفاء في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾ تفريعٌ على قوله: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا﴾ [المؤمنون: 27]، فالاستواءُ عليها مُترتِّبٌ على السّلوك فيها[4]، وكِلا الفعلين المكوّنين لسياق الشّرط، يُمثّلان جزءًا أصيلًا منَ المشهد المُكَوِّن للمفاصل المُهمّة لهذه القصّة الإعجازيّة الخالدة.

سِرّ ورود (إذا) المُتَضمِّنَة معنى الشّرط:

طمأنةُ نوح عليه السلام ووعدُه بالنّجاة، من بيان السّياق المُفصِح

(إذا) في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾، ظرفٌ لما يُستقبل منَ الزّمان، متضمِّنٌ معنى الشّرط، وهو يفيد تحقيقَ الاستواءِ المذكور، فهو واقعٌ

(1) الدّانيّ، الفرق بين الضّاد والظّاء في كتاب الله ﷻ وفي المشهور من الكلام، ص: 66.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 47.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 37، والسّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 472، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 119، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 29.

(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 165.

لا محالة، وتحقيق الشّرط مستفادٌ من أداة الشّرط: (إذا)، ومن ماضويّة فعلِ الشّرط: ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾، أي: إذا تمّ استواؤكَ على الفُلْك وتحقّق، فاحمد اللّهَ على تمام نعمته عليكَ في الإنجاء، ومجيءُ النّظم على أسلوب الشّرط؛ لإفادة أنّ تكليفَه بالحمد، مُستحَقٌّ واجبٌ في مُقابِل استقرارِه في السّفينة، أي: أنّ الاستواء في الفُلك نعمةٌ تستحِقّ الشّكرَ، وتستوجِبُ الحمدَ[1].

دلالة العدول عن لفظ (الاستقرار) إلى (الاستواء):

الاستواءُ اعتلاءٌ وظهور، وهو أمكنُ في الدّلالة عنِ المراد

لم يقل في السّياق الكريم: (فإذا استقررت)؛ لتعديّته بحرف ﴿عَلَى﴾ دون (في)؛ لإفادة أنّ لهم جُهْدًا طولَ فترةِ بقائهم في السّفينة؛ فإنّ الاستواء على الشّيء يقتضي مجهودًا لاستدامة التّمكّن منه، وفي ذلك إلماحٌ لقوّة الطّوفان وزلزلته، بخلاف الاستقرار في الشّيء، فإنّ فيه إحاطَةً واندِماجًا، يُعفي منَ المجهود، أو يُخفِّف منه، فهو دالٌّ على درجةٍ أعلى من الأمن والرّاحة، وقد يكون الاستواء بمعنى الارتفاع، قال الخليل: دخلنا على أبي ربيعة الأعرابيّ، فقال لنا: (استووا)، أي: ارتفعوا[2].

بلاغة المجاز المُرسل في الآية الكريمة:

الاستواءُ هو خيرُ أحوالِ الإنسان، ولذلك آثَرَه السّياقُ في البيان

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ﴾، أطلقَ الاستواءَ وأراد به الاستقرارَ، بقرينة قوله: ﴿فَٱسۡلُكۡ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [المؤمنون: 27]، فالاستواء مجازٌ مرسل، بعلاقة الإطلاق والتّقييد، وملائمُ المجازِ تعديّتُه بحرف الاستعلاء، فهو مناسِبٌ للاستواء، ومُرشِّحٌ لمجازه[3].

نُكْتَةُ ورودِ الضّميرَين في ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ﴾:

إطالةُ الخطابِ بالضّمائر، في سياق البشائر

﴿أَنتَ﴾ في قوله: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ﴾ ضميرُ رفعٍ منفصلٌ، مؤكِّدٌ لضمير الخطاب المتّصلِ بالفعل: ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾، وفي التّأكيد

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 71.
(2) السّمعانيّ، تفسير القرآن: 3/ 472.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 47.

زيادةُ تشريفٍ لنوحٍ عليه السلام، ومبالغةٌ في تحقيق إنجائه، وإظهار الامتنان على شخصه[1].

موقع جملة ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ ممّا قبلها:

معيَّةُ الصّالحين مَنْجاةٌ، والمَرءُ يُحشَر مع من أحبّ

جملة ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿ٱسۡتَوَيۡتَ﴾[2]؛ للجمع بين نوحٍ ومَن معه في الشّرط المذكور، فهي على بابها في إفادة التّشريك في الحُكم، ومعيّةُ النّبوّةِ شرفٌ يرفع مَن يُنْمَى إليه، ومَن يشترك معه في نسبة أو علاقة مباشرة أو غير مباشرة، وقد شَرُفَ قومُ نوحٍ من المؤمنين به، وليس العكسُ.

دلالة الموصول (مَنْ) في السّياق المُحكم:

نوحٌ عليه السلام كان أمَنَةً لجميع المخلوقات، باصطفاء الله وحمايته

(مَنْ) في قوله: ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾، لتغليب العقلاء على غير العقلاء؛ لاشتمال السّفينة على زوجين اثنين من كلٍّ ما يُستطاع إدخالُه منَ الكائنات، وهي تدلّ على الإبهام والعموم[3]، والواقع أنّ خطاب العُقلاء يجعل خطابَ غيرِهم تبعًا لهم، وخاصّةً أنّ السّفينة المصنوعةَ بأمر الله تعالى، قد ضمّت من كلّ زوجين اثنين، منَ الحيوانات والزّواحف والطّيور، وأصبحت أصلًا للحياة الجديدة، ممّا تأهّل به نوحٌ عليه السلام لكي يصبحَ آدمَ الثّاني.

دلالةُ لفظ المعيّة (مع):

المعيّةُ تُفيد الاجتماع المكانيّ، بقرينة ذِكْر المكان

أداة الجرّ (مع) في قوله: ﴿أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾، على بابها في إفادة المصاحبة والاجتماع، وهي متعلّقةٌ بمحذوف صلةٍ لـ (مَن)، أي: مُستوٍ معك، أو كائنون معك، والمعيّةُ هنا تُفيد الاجتماعَ المكانيّ، بقرينة قوله: ﴿عَلَى ٱلۡفُلۡكِ﴾[4].

(1) صافي، الجدول: 18/ 172.
(2) صافي، الجدول: 18/ 172.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 129.
(4) الرّاغب، المفردات: (مع)، وصافي، الجدول: 18/ 172، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 220.

دلالة الحرف ﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾:

مطالعة الطّوفان على متن الفلك من مشاهد الإعجاز

﴿عَلَى﴾ في قوله: ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ لإفادة الاستعلاء المكانيّ، وهو استعلاء حقيقيٌّ؛ لأنّهم محمولون على ظهر السّفينة، وهي حامِلةٌ لهم، ولا يخفى ما فيه من إفادة تمكّنهم منها، وظهورهم فوقَ مَتْنِها، فهم راؤون للماء حولَها؛ لأنّهم ليسوا محجوبين في داخلها، بحيثُ يغيبون عن ملاحظة ما يجري حولَها[1].

نُكْتَةُ إيثارِ لفظ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ دون غيره:

لفظ الفُلْك مُؤذِنٌ ببلوغ الإنجاء وإتمام الغاية

أوثِرَ التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلْفُلْكِ﴾ دون غيره في قوله: ﴿عَلَى ٱلْفُلْكِ﴾؛ للإشارة لعودتها إلى محلّ اليابسة بعد انقضاء الطّوفان، ففيه دلالةٌ إلى بلوغها غاية الإنجاء وتمامه، وتوجيه ذلك: أنّ لفظ الفلك دالٌّ على الاستدارة، وهي متصوَّرةٌ فيها؛ لذهابها وعَوْدها في الماء؛ تشبيهًا لها بالمتحرّك دائريًّا؛ لأنّه يعود إلى نفس النّقطة التّي بدأ منها على سطح الدّائرة، فكذلك الفلكُ تدور في الماء ذهابًا وعودة، وقيل: لأنّ الفلك مستديرةٌ في هيئتها تجوّزًا، فتصميمها ينحو نحوَ الاستدارةِ ويقارِبُها[2].

دلالة (الفاء) في جواب الشّرط:

جزاءُ الإغاثةِ الحمْدُ، واعتبارُ النّاجي بمعجزةٍ، أنّه لله عبد

الفاء في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رابطةٌ للجواب بالشّرط، واقترانُها بالجواب في هذا الموضع واجبٌ؛ لأنّ الجواب جملةٌ طلبيّة، ولا يَصِحّ وقوعُه شرطًا، ومعنى الفاء: السّببيّةُ والتّأكيد، فهي دالّة على أنّ الأمر بالحمد مُسبَّبٌ عنِ الشّرط، ونتيجةٌ عنه وجزاءٌ عليه، وهي لتأكيد الأمر وتحقيقِ مضمون الطّلب بالتّحميد للّه[3].

دلالة فعل الأمر ﴿فَقُلِ﴾ في السّياق:

الحمدُ جارٍ في القلب اعتقادًا، وملفوظٌ باللّسان امتثالًا

لم يقل في السّياق الكريم: (فاحمَدِ اللّه)، بل أمر أن يكون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 47.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 106.

الحَمْدُ مَقولًا؛ لتأكيد تحقيقه وتقريره، بإجرائه على اللّسان؛ ليدلّ على أنّه أُريدَ أن يكون حمْدُ اللّه ذِكْرًا، يجري ترديدُه على الألْسُن؛ إشارةً بذلك إلى معنى الاعتراف والإقرار، وهو أبلغ من (فاحمد اللّه)؛ لأنّه لا يتضمّن الإعلانَ والاعترافَ نصًّا مَقولًا، وللدّلالة على أنّ المراد بالحمد الثّناءُ على اللّه سبحانه بما نجّى ولَطَف، والثّناءُ يكون قولًا يستتبع العملَ والطّاعة، الّذي هو معنى الشّكرِ، فالشّكرُ بالعمل لازمٌ عنِ الحمد بالقول.

دلالة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ على (الإنجاء) دون (الإهلاك):

المنافع الحاصلة، والمواهبُ الكاملة، أوْلى ما تعلّق به الحمدُ وأجدر

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (فَقُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذي أَهْلَكَ الظّالمِينَ)؛ لأنّ الأصل في الحمد أن يكون على إيجاب النّعمة، فيتعلّق بالمنافع الحاصلة، والمواهب الكاملة؛ لأنّ المنفعةَ تُؤذِن بزوال المَضرّة، ولأن التّلذّذَ بالمنافع غيرُ حاصلٍ، والمضرّةَ موجودةٌ، فوجودُ المنافع يدلّ على دفع نظائرها في المضارّ، بخلاف العكس، ولذا كان تعليق الحمد بالإنجاء أبلغَ من تعليقه بالإهلاك؛ لأنّه لن تكون نجاةٌ منَ الظّالمين إلّا بهلاك الظّالمين، وفيه مراعاةُ كمالِ الأدب، بِذِكْر الحسَن الجميل، والإعراض عنِ السَّيِّئ القبيح، لاسيّما إذا كان مصيبةً كالإهلاك، كأنّه يُعلِّم النّاسَ ألّا يكون حمْدُهم شماتةً أو تَنَدُّرًا، فنزّه تعليقَ الحمدِ بالسّلب.

وأيضًا: لِعدم صِحّة تعلُّق الحمدِ بالإهلاك من حيثُ حقيقةُ الإهلاك؛ لأنّ الحمد يتعلّق بالنّعمة الواصلة للحامِد، والإهلاك ليس نعمةً في ذاته، بل في أثره، من حيثُ إنّ فيه تخليصًا لأهل الأرض من شُؤم عقائدِهم وأعمالهم، واستمرارِ إفسادهم، ولذا صَحّ الحمدُ عليه من هذه الحيثيّةِ، لا من حيثُ هو هو، في قوله: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْۚ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٥﴾ [الأنعام: 45]، ولعلّ هذا هو سِرّ تأخير الحمد هنالك، والتّذييل به دون تصديره كما هو هنا؛

لأنّ التّذييل بالحمد بعد الإهلاك في سورة الأنعام، وعطفَه بالواو دونَ الفاء، وإيرادَ النّظمِ على غير أسلوب الشّرط هنالك، يدلّ على أنّ الحمد ليس على نفس الإهلاك، بل على ما تضمَّنَه واستتبعه من نِعمة، بخلاف مجيء النّظم هنا على تقديم الحمد، قبل الإنجاء، وانخراطه في حيّز الشّرطيّة، فيقال فيه من التّوجيه ما سبق بيانه(1).

دلالةُ التّعبير بالموصول وصلتِه في السّياق:

التّعافي مِنَ الأذى يقتضي زمنًا طويلًا، واستعدادًا صادقًا

جاء النّعت بالموصول وصلته في قوله: ﴿ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا﴾، دونَ أن يقال: (الحَمْدُ لله المُنْجي مِنَ القَومِ الظّالمينَ)؛ لحكاية قِصّة نجاتِهم، فتوسَّلَ بالموصول إلى وصف المعرفة (اللّه) بالجملة، من الموصول وصلته، وحكايةُ قِصّة نجاتهم تقتضي الزّمنيّة الّتي في جملة الصّلة؛ لأنّها تحكي عن قصّتهم الخاصّة، وما دار فيها من أحداث تنجيّتهم، ولو عبّر باسم الفاعل (المُنجي) لأشعر بالعموم الّذي لا يختصّ بزمانهم وواقعتهم، ولكان وصفًا للمعرفة بالمفرد لا بالجملة، وفائدة التّعريفِ بالصّلة: الإشارةُ إلى عِظَم الأذى، وطولِ المُعاناة الّذي يستلزمه التّحقيقُ الزّمنيّ لإنجائهم، وتعليقِ الحمد به، فإنّ التّخليص منَ الأذى، يقتضي مُعالجةً طويلةً للزّمن، وتمهيدًا واستعدادًا بالصّبر، والجاهزيّة والمقاومة(2).

دلالة المضيّ في الفعل: ﴿نَجَّىٰنَا﴾:

تبدأ النّجاةُ بتجنُّب مصدرِ الخطر، والتَّحَصُّنِ بالله من كلّ ضرر

التّعبير بصيغة الماضي في قوله: ﴿نَجَّىٰنَا﴾ بمجرّد الاستواء على السّفينة، فيه إشارةٌ إلى أنّ تمام الإنجاء حصل بالاستواء، ذلك أنّ تحقيق النّجاة، لا يكون إلّا بتجنّب مصدر الخطر، ولا يكون ذلك إلّا بالدّخول في حيّز الأمن، وهو الاستقرار في الفُلْك.

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 184، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 134، والآلوسي، روح المعاني: 9/ 230، والقُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 165.

(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 1/ 124.

دلالة اسمِ الفاعل: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾:

اسـم الفاعل يدلّ على كمال التمكّن من الوصف في السّياق

مجيءُ الوصفِ على وزن اسم الفاعل في قوله: ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ للدّلالة على أصالة الظّلم فيهم، وتمكّنِه منهم؛ لأنّ (أل) التّعريفيّة الدّاخلة على الوصف المشتقّ - كاسم الفاعلين - تُفيد الموصوليّة، كأنّه قيل: (الّذينَ ظَلَموا)، وتُفيد الكمالَ في الوصف الدّالّ على استغراق الموصوفين لخصائص الوصف وماهيّته، أي: البالغينَ الغايةَ في الظّلم، المُستكملين لنُعوتِه وخصائِصه، فالمرادُ منَ الكمال هنا: الذَّمُّ والتّقبيحُ التّامّ لاستيفائهم كامِلَ أسبابه، ولم يقل في السّياق الكريم: (الذين ظلموا) لكون التّعبير باسم الفاعل أوجزَ وأبلغَ في الذّمّ.

نُكْتَةُ الخطابِ بالإفراد، وتلقينِ الإجابة بالجمع:

خطابُ المسؤول مُـلزِمٌ لأتباعه بالتّبعِ اعتبارًا لمَقامه

خطابُ اللّهِ تعالى لنوحٍ ﵇ بالإفراد في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ مُلْزِمٌ لأتْباعِهِ بالتَّبَعِ؛ لأنّ الكلام من البداية جارٍ على قصد تفريدِه واستقلالِه بالخطاب أصالةً دون قومه، ولأنّه المُبلِّغ عنِ اللّه، والواسطةُ بينَه وبين قومه، فكان حَريًّا بالاستقلال، ولذا قال: ﴿فَإِذَا ٱسۡتَوَيۡتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ﴾ على خطابه دونَهم، فقوله: ﴿وَمَن مَّعَكَ﴾ غَيْبَةٌ وليس خطابًا، ولم يقل: (فَإذا اسْتَوَيْتُمْ) بخطاب الجميع؛ فكان قوله: ﴿فَقُلِ﴾ اطّرادًا على هذا الأسلوب؛ لأنّه نبيّهم وإمامُهم، فكان قولُه قولَهم، مع ما فيه من الإشعار بفضل النّبوّة، وإظهارِ كبرياء الرّبوبيّة، وأنّ رُتبة تلك المخاطبة، لا يترقّى إليها إلّا مَلَكٌ أو نَبيٌّ[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفُلك والسّفينة:

لفظ الفُلْكِ دالٌّ على الاستدارة، وهي متصوَّرةٌ فيها؛ لذهابها

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 185.

وعَوْدِها في الماء؛ تشبيهًا لها بالمُتحرّك دائريًّا؛ لأنّه يعود إلى نفس النّقطة الّتي بدأ منها على سطح الدّائرة، فكذلك الفُلكُ تدور في الماء ذهابًا وعودةً، وقيل: لأنّ الفُلك مستديرةٌ في هيئتها تجوّزًا، فتصميمُها ينحو نحوَ الاستدارةِ ويقُاربها[1].

السّفينةُ تدلّ على الحركة الظّاهرة على الماء، والفُلك تدلّ على مبدأ هذه الحركة وغايتِها

وأمّا السّفينة: فأصلُ مادّتها يدلّ على تنحيّةِ الشّيء عن وجْهِ الشّيء، كالقَشْر[2]، والسّفينةُ سُمّيت بذلك لأنّها تَسْفِنُ وجْهَ الماء، كأنّها تَقْشِرُهُ وتَنْحَتُه، فالسّفينةُ منَ السَّفْنِ، وهو القَشْرُ، ونَحْتُ ظاهرِ الشّيء[3].

وعليه: فالسّفينة تقال باعتبار الحركة الظّاهرة على وجه الماء، وهي حركةٌ ينتجُ عنها تنحيةُ الماء، كأنّها تَنْحَتُ فيه، وتَقْشِرُ سطحَه عن سائره، والفُلك تُقال باعتبار كيفيّة هذه الحركةِ في انطلاقها ومآلها، فهي حينما تذهب وتعود كأنّها تدور، وباعتبار هيئة الاستدارة الغالبة عليها، أو المقارِبةِ لها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (فلك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سفن).
(3) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (سفن).

﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ ٢٩ إِنَّ فِي
ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ ٣٠﴾ [المؤمنون: 29 - 30]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبط بينَ النّجاة بعد المعاناة، وبينَ التماس المأوى المُريح، والمَنْزِل الآمِن المبارك

لمّا ذَكَر تعالى في الآية السّابقة التّلقينَ بالحمد والثّناء بعد النّجاة منَ البلاء، وكان ذلك بسبب استقرارهم في المأوى الآمِن، والمحلّ السّالم، وهو الفُلك، وكان لا بُدّ للسّفينة من مَرسًى تنتهي إليه، وينزلون عنده؛ أوحى إليه - هنا - أن يسأل ربّه سبحانه المَنزِلَ المبارك، والمَقَرَّ الحميدَ الهنيءَ، الّذي يكون خِتامَ خيرٍ وسلامٍ لهذه المِحنة العظيمة، والرِّحلةِ التّاريخيّة الفخيمة، وفي هذه القِصّة آياتٌ، تدلّ على أنّ اللّه وحدَه المعبود، وعلى رحمة اللّه بعباده، حيثُ حملهم في الفلك لّما أغرق أهلَ الأرض[1]، ولم يبق إلّا مَن ركب السّفينة، فكان منَ النّاجين.

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنزِلۡنِي﴾: (نزل) أصلٌ يَدُلُّ على هُبوطِ شَيءٍ ووُقوعِه[2]، يُقالُ: نَزَلَ الشَّيء، ينزِلُ، نُزولًا، أي: هَبَط وانحَدَرَ مِنْ عُلوٍّ إلى سُفْلٍ، وأنزل الشَّيء: جعله ينزُل[3]، والمُنْزَلُ: الإنزال، تقولُ: أنْزِلْني مُنْزَلًا مُباركًا، ونَزَّلَ القومَ: أنْزَلَهم المَنازل، ونَزَّلَ فُلانٌ عيرَه: قَدَّرَ لَها المَنازل، وقَوْمٌ نُزُلٌ: نازِلون، والمَنْزِل والمَنْزِلَة: مَوْضِعُ النُّزول[4]، ونَزَلَ بكذا، وأنْزَلَهُ بمعنًى، وإنْزالُ اللّه تعالى نِعَمَهُ ونِقَمَهُ على الخَلْق، وإعطاؤُهُم إيّاها، وذلك إمّا بإنزال الشَّيء نفسِه كإنزال القرآن، وإمّا بإنزال أسبابِه

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551. (بتصرّف).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نزل).
(3) الجوهريّ، الصّحاح، والفيروزاباديّ، القاموس المحيط: (نزل).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (نزل).

والهدايةِ إليه، كإنزال الحديد واللِّباس[1]، والمرادُ بقوله: ﴿أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾، المنزِلُ هنا بمعنى المصدر لا بمعنى المكان، أي: أنزلني إنزالًا فيه خيرٌ ونماءٌ وبَركةٌ[2].

2) ﴿مُّبَارَكٗا﴾: (برك) أصل البَرْكِ صدرُ البَعير، وإنِ استُعمِلَ في غيره، وبَرَكَ البعيرُ: ألقى بَرْكَهُ، واعتُبر منه معنى اللُّزوم والثَّبات، فقيل: ابْتَرَكوا في الحرب، أي: ثبتوا ولازموا مَوضِع الحَرب، وسُمّي مَحْبِس الماءِ بِرْكَةً، والبَرَكَةُ: ثبوتُ الخَيْرِ الإلهيِّ في الشَّيءِ[3]، والمُبارَك: ما فيه ذلكَ الخيرُ؛ ولمّا كان الخَيرُ الإلهيُّ يَصدرُ مِنْ حيثُ لا يُحَسّ، وعلى وجْهٍ لا يُحصَى ولا يُحصَر، قيل لكلِّ ما يُشاهَد منه زيادةٌ غيرُ محسوسة: هو مُبارَكٌ، وفيه بَرَكَة[4]، ومباركٌ: اسمُ مفعولٍ من بارَكَهُ، إذا جعله ذا بَرَكَةٍ، أو من باركَ فيه، إذا جَعَلَ البَرَكَةَ معه، والمُراد به في الآية: الَّذي تُقارِنُ البَرَكَةُ أحْوالَهُ في أعمالِه[5].

3) ﴿لَمُبۡتَلِينَ﴾: (بلو) أصلُ الابْتِلاءِ: الاختِبارُ والامتِحانُ، يُقال: بَلَوتُ الرَّجلَ، وابْتَلَيْتُهُ، أي: امتَحَنتُهُ واختَبَرتُهُ وجَرَّبتُهُ[6]، وبَلِيَ الثَّوب بِلًى وبَلاءً، أي: خَلَق، وكأنّي أَخْلَقْتُه مِن كثرة اختباري له[7]، والابْتِلاءِ منَ البَلاءِ، وهو: التَّكليفُ بالأمْرِ الشّاق[8]، ويكون في الخَيْر والشَّرّ مَعًا، يُقال في الخَيْر: أبليتُه، وفي الشَّرّ: بَلَوتُه بلاءً[9]، والمُرادُ بالابتلاء في الآية: الاختبارُ والامتحان[10].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقول اللّه تعالى: وقل يا نوحُ: ربّي أنزلني منَ السَّفينة ومَن معيَ منَ المؤمنين بعد انتهاء الطّوفان وخرابِ الدُّنيا، مكانًا ومَنْزِلًا كثيرَ الخيرات؛ لكي نستطيعَ العيشَ فيه نحن وذُرّياتُنا، وأنتَ - يا رَبَّنا - خَيرُ مَن تُنزِلُ عِبادَك هذه المنازلَ المباركة، ثمّ يؤكّد تعالى على

(1) الرّاغب، المفردات: (نزل).
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5067.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 16/ 99.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات: (برك).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 16/ 99.
(6) ابن سيده، المحكم: (بلو)، وابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث، وابن منظور، لسان العرب: (بلا).
(7) الرّاغب، المفردات: (بلى).
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 1/ 104.
(9) الكفويّ، الكلّيّات، ص: 34.
(10) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 29.

أنّ في إهلاكه قومَ نوحٍ الكافرينَ وإنجائِه المُؤمِنينَ لَدلالاتٍ واضحاتٍ على وحدانيَّته وعِلمِه وحِكمَتِه، وصِدْقِ أنبيائِه، وقُدْرتِه على نَصْرِ المؤمنين، وإهلاكِ أعدائِه، ويُؤكّد على أنّ إرسال الرُّسُل والتّذكيرَ بالآيات إنّما هو اختبار منَ اللّه تعالى لعباده قبلَ نزول العقوبة، ليَنظُرَ كيف يَعمَلونَ[1].

أُمِرَ المؤمنُ أن يَحمَدَ رَبَّه عند النَّجاة، ويسألَه نزولًا مُباركًا، فيما يكون آيةً وابتلاء

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ ممّا قبلها:

التّقديمُ بين يديَ الدّعاء بالحمد والثّناء من سُنّة خيرِ الأنبياء

جملة ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾[2]، للجمع بينَ الثّناء بالحمد، والدّعاء بالمسألة والحاجة، وفيه إشارةٌ إلى عادة القرآن في التّمهيد إلى الدّعاء والرّجاء بالحمد والثّناء، كما في سورة الفاتحة، وقد رويَ عَن قَتادَة رضي الله عنه: "يعلمكم سبحانَه كيف تقولون إذا ركبتُم، وكيف تقولون إذا نزلتُم"[3]، فقولُه تعالى: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٜىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٤١﴾ [هود: 41] عند الرّكوب، وقولُه تعالى: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، عند النُّزول[4].

بلاغة التّعبير بالمفعول المُطْلَق ﴿مُنزَلًا﴾:

خيرُ الدّعاءِ الجامعُ بينَ الخشيةِ في الشِّدّة، والرّجاءِ في اليُسر

على اعتبار المصدريّة في لفظ: ﴿مُنزَلًا﴾ من قوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾، فيدلُّ المفعول المُطلَق على تأكيد مصدر العامل، وهو الحَدَثُ الّذي أخرجه العاملُ أو الفعلُ لحيّز الوجود، وفائدةُ التّنصيص على المصدر ﴿مُنزَلًا﴾ بعد ذِكْر العامل ﴿أَنزِلْنِي﴾، المبالغةُ في تعيين المطلوب وتحقيق الدّعاء، كأنّ الدّاعي يريد أن يَلتَبِس بالحَدَث نفسِه، وهو مَنزِل البَرَكة، فيعيشَ فيه، ويُحاطَ به، ويدومَ في كَنَفِه،

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 38، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 120، والسعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1286.

(2) صافي، الجدول: 18/ 173.

(3) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 572.

(4) صافي، الجدول: 18/ 173.

فما أبدعَ التّعبيرَ بالمصدر في تصويره الحَدَثَ نفسَه، وقد صار حِرزًا ينزل فيه الدّاعي، فلا يَبْرَحُ عن وِعاء البركة أبدًا، وعلى ذِكْر أنّ المبالغةَ المقصودةَ تُصَيِّر الحدثَ المَدلولَ عليه بالمصدر مكانًا أو موضعًا يغيبُ في أمانِه الفاعل - فيصحُّ هنا أن يكون ﴿مُنزَلٗا﴾ اسمَ مكانٍ لا مفعولًا مُطلقًا، فيَنتَصِبُ على الظّرفيّة، أي: أنزلني مكانَ البَركَة والخير، فلا أفارقُه في الدّنيا والآخرة[1].

توجيه القراءات القرآنيّة في: ﴿مُنزَلٗا﴾ وبلاغتها:

المصدر الميميّ يدلّ على منتهى الحدث والذّاتِ المقترِنة به

قرأ الجمهورُ: ﴿مُنزَلٗا﴾ بضَمّ الميم وفتحِ الزّاي، وهو اسم مفعول من (أنزله)، على حذفِ المَجرور، أي: مُنزَلًا فيه، ويجوز أن يكون مصدرًا ميميًّا، أي: إنزالًا مباركًا، والمعنيان مُتلازمان، ويجوز أن يكون اسمَ مكانٍ لموضع النّزول.

وقرأ شعبةُ عن عاصم: ﴿مَنزِلٗا﴾ بفتح الميم وكسر الزّاي[2]، وهو اسمٌ لمكان النّزول، أو اسمُ مصدرٍ بمعنى النّزول، كأنّه قيل: (أنزلني نزولًا)، كاسم المصدر في قوله: ﴿أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ١٧﴾ [نوح: 17][3]، فمن بلاغة القراءات هنا أن نوحًا ﵇ دعا بالبركة في الحال والمآل؛ أيّ: أنزلني إنزالًا مباركًا، وفي مكان مبارك، وهو من جوامع الدعاء.

دلالةُ تلقينه الدّعاءَ في ﴿وَقُل رَّبِّ﴾:

الدّعاءُ منَ الله وإلى الله، وهو مفتاحُ اليُسر والقَبول

استهلالُ الخطاب بـ(قُلْ) يدلّ على تلقين اللّهِ تعالى مضمونَ الدّعاء، وفي التّلقين إشارةٌ إلى أنّ الدّعاء لمّا كان من أجَلّ العبادات، احتيجَ للنّصّ على مضمونه، وبيانِ كيفيَّته كسائر العبادات، فأُصولُ الأدعيةِ ومبدأُ تعليمِها لا يُدرَك إلّا بالتّوقيف والتّلقين، وفيه إشارةٌ

---

(1) السّامرائيّ، معاني النّحو: 2/ 149.

(2) ابن الجزريّ، النّشر: 2/ 328.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 142، والسّمين، الدّر المصون: 8/ 330، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 48.

إلى أنّ التّلقين بالمَضمون هاهنا كان ضروريًّا؛ لأنّه استتمامٌ لِهدايةِ اللّهِ لنوحٍ ﷺ، والهدايةُ لا تتعيّن إلّا بالوحي.

بديعُ جناس الاشتقاقِ في ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾:

أحسـنُ الـكـلامِ ما ورد على غير تكلّفٍ ولا تَزلّفٍ

بينَ لفظي: ﴿أَنزِلْنِي﴾ و﴿مُنزَلًا﴾ جناسُ اشتقاقٍ، حيثُ اجتمع اللّفظانِ في أصل الجَذْرِ الاشتقاقيّ، فكلاهما منَ الجَذْرِ الثّلاثيّ: (نزل)، وهو جناسٌ غيرُ تامٍّ، بين فعلٍ واسم، وهو محسِّنٌ لفظيٌّ بديعيّ، من تمام بلاغة التّركيب، يورَد من غير تكلّف.

دلالة حذف أداة النّداء:

عـطـاء الـلـه أوسع ممّا يؤمِّل العبد، ونِعَمُه لا نهاية لها

قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾، جملة ندائيّة من حرف النّداء المحذوف، والمنادى المذكور وجوابه، والتقدير: (ياربّ أنزلني)، وجملة النّداء في محلّ نصب مقول القول[1]، وهذه الجملة يَكتنِفُها إيجازٌ بديع، بحذف أداة النّداء تسريعًا في إدخال الدّاعي على ربّه ﷻ، فيكون لفظ الربّ أوّل مَنطوقٍ في الدّعاء، وإيجاز التّخفيف بحذف ياء الإضافة من المنادى، وأصل الكلام: (يا ربّي) وفي حذف الياء - فضلًا عن التّخفيف - إسراعٌ في ذِكْر الحاجة وعرضها، بين يدي ربّ العالمين، بعد افتتاح الدّعاء بالتوجّه باسمه، ويكأنّ الدّاعي حين يدعو لا يُفصَل عن مناجاة ربّه بفاصل، ولا تُفصَل حاجتُه عن اللّه بفاصِل، ففي هذا الحذف زيادة تقريبٍ للعبد من ربّه، وهو يدعو إضافةً إلى قُرب الدّعاء نفسِه، فهو قُربٌ على قُرب، وفي حذف ياء الإضافة كذلك، إشارةٌ بديعة، وهو أنّ الدّاعي حين يحذف ياء المتكلّم من (ربّي) الدّالة على خصوص الرّبوبيّة بالنّسبة له، فيقول: ﴿رَّبِّ﴾ ويكأنّه، يسأل اللّه بعموم ربوبيّته، لا بخصوصها، فكأنّه ينسى ذاتَه ويستحضر اسمَ (الرّبّ)، مجرّدًا عن ضميره، هكذا بعمومه الواسع المطلق، من غير إضافةٍ ولا تقييد، ليكون العطاء أوسع من رجائه وسؤاله.

(1) صافي، الجدول: 18/ 173.

إيثارُ لفظِ الرّبوبيّة على غيره:

التّصديرُ باسم الرّبوبيّة، إيذانٌ بالاستجابة والقَبول

حُقّ للدّعوات أن تُصَدّر بلفظ الرّبوبيّة؛ لأنّها استغاثةٌ يُستَنْزَلُ بها عطاءُ المَلِك الكريم، فلا بدّ أن يُقدِّم الدّاعي بوصفٍ يُناسبُ الإحسان الّذي يرجوه، فكأنّه يُعلِّل رجاءَه بنداءِ اسم الرّبوبيّة الجليل، أي: لكونك أنتَ الرّبُّ الواسعُ، توجّهتُ بمسألتي إليكَ، ففي التّصدير باسم الرّبوبيّة إيذانٌ بالاستجابة والقَبول.

بلاغةُ المجازِ المُرسل في فعل الأمر ﴿أَنزِلۡنِي﴾:

الأمـرُ إلـزامٌ وتـكـليـفٌ، والدّعاء إخفاضٌ وتضرُّع

صيغة الأمرِ في قوله: ﴿أَنزِلۡنِي﴾ مجازٌ مُرسل، علاقتُه الإطلاقُ والتّقييد، فخرج الأمرُ عن معناه الحقيقيّ، وأُريدَ بهِ الدّعاءُ والاسترحام، وبين المَعنيين الحقيقيّ والمَجازيّ لِلفظِ الأمر مُقابلةٌ واسعة؛ لأنّ الأمر إلزامٌ وتكليفٌ واستعلاءٌ، والدّعاءُ إخفاضٌ واستكانةٌ وتضرُّع.

وجه إضافةِ الفعلِ إلى ضمير المُتكلّم:

إدخـالُ العبدِ نفسَه في المناجاة مع الله، إشهادٌ عليه بالإيمان

إضافةُ الفعلِ إلى ضمير المُتكلّم في قوله: ﴿أَنزِلۡنِي﴾، من ضرورات المعنى في النّظم؛ إسنادًا للحاجة إلى مُبتغيها، لأنّه بدون الضّمير لا يتحدّد هل السّؤالُ لنفسه أم لغيره، وهذه جهالةٌ تُخِلّ بالمعنى المقصود منَ النّظم.

دلالةُ استعمالِ لفظ ﴿مُّبَارَكٗا﴾ صفةً للمُنَزَّل:

الكُرُبات تعقبُها البَركات، كما يَعقبُ اليُسرُ العُسرَ

وَصْفُ المَنزلِ بالمُبارك في قوله: ﴿مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾؛ للدّلالة على أنّ السّفينة في ذاتها ومرساها مَحلٌّ لثُبوت الخير ولُزومه لهم، فالسّفينة محلٌّ لإنجائهم، فلا يبارحُها وصفُ البَرَكَة إذا نزلوا فيها، وحين ترسو إلى غايتها، فالبَرَكة حيثُ رَسَتْ إذا نزلوا منها، فهم في خيرٍ لازم دائم إذا نزلوا فيها ونزلوا منها، فالوصفُ بالبَرَكة فيه إشارةٌ إلى تمام النّجاة، بدوام الخير وإحاطتِه بهم حيثُ نزلوا[1].

(1) الرّاغب، المفردات: (برك).

الخطاباتُ توجّه لـــرأس الـقـوم وسيّدهم، ومن خـلالِـه لـلقـوم كافّة

دلالةُ إفرادِ الضّمير في ﴿أَنزِلۡنِي﴾:

إفرادُ نوعٍ بالطّلب في قوله تعالى: ﴿أَنزِلۡنِي﴾، مع أنّه يشمل مَن معه من ركّاب السّفينة، فلم يقل: (أَنْزِلْنا)؛ لأنّه إمامُهم وسيّدُهم، والخطاباتُ توجّه لرأس القوم؛ إكبارًا له وإكرامًا، ولأنّه واسطةُ تبليغِ الوحي إليهم، فيتوجَّهُ الخِطاب له؛ ولأنّه الرّاعي المسؤول عنهم، وهمُ الرّعيّةُ المسؤولون منه، فلا يتوجّه الخطابُ إلّا له، فهو واسطةُ التّعليم والبلاغ فيهم، ولا يخفى ما فيه منَ التّنبيه على رُتبته منهم، ورُتبتِهم منه؛ ليُعَظّموا نبيَّهم ويوَقِّروه إذ وجدوا استقلالَه بالخِطاب دونَهم.

بلاغةُ التّذييل في جملة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

جملة ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ تذييلٌ تعليليٌّ لجملة الدّعاء قبلَها، كأنّه قيل: أنزلني منزلًا مباركًا؛ لأنّك خيرُ المُنزلين، فلا بَركةَ إلّا منك، ولا خيرَ إلّا في إنزالك، والواوُ حاليّة أو استئنافيّة[1].

سِرّ الخطاب بضمير الجلال المنفصل (أَنْتَ):

إيـقـاعُ الـدّعـاء بينَ ثناءِ الحمد، وثناءِ التّفضيل

الخطاب بالضّمير المُنفصل المبتدأ[2] في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، اختتامٌ للمسألة والدّعاء، بخطابِ الثّناء على الله سبحانه، وهذا الخطاب بالثّناء الختاميّ من جنس الدّعاء لفظًا ومعنى، في قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي﴾، وهو تكميلٌ واستِتمامٌ لخطاب الثّناء الافتتاحيّ في قوله: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي نَجَّىٰنَا﴾، فافتتحَ بالثّناء واختتمَ بالثّناء، والثّناءُ الأوّلُ مشفوعٌ بدَفْعِ المَضرّة، وهو التَّنْجيَةُ مِن أذى الظّالمين بإفنائهم، والثّناءُ الأخيرُ متبوعٌ بتوسّلِ جَلْبِ المَنفعة، وهو سؤالُ الإنزالِ المُبارك.

فاجتمع من ذلك أمران؛ **الأوّل:** معنويٌّ، وهو ابتداءُ الدّعاء بالثّناء وختمُه بالثّناء، فالدّعاء في قوله: ﴿رَّبِّ أَنزِلۡنِي مُنزَلٗا مُّبَارَكٗا﴾ واقع

(1) صافي، الجدول: 18/ 173.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.

بين ثنائين؛ ثناءِ الحمد في قوله: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وثناءِ التّفضيل في قوله: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، **والثّاني**: ردّ العَجُزِ على الصَّدر في جملة الدّعاء وخَتْمه في قوله: ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، فخِتامُ الجملة: ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، هو ختامٌ لوحظَ مَطلِعُه في قوله: ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾، فكلمةُ ﴿ٱلْمُنزِلِينَ﴾ مردودةٌ على ﴿أَنزِلْنِي مُنزَلًا﴾، وكلمة ﴿خَيْرُ﴾ مردودةٌ على ﴿مُّبَارَكًا﴾، كأنّه جَعلَ وصفَ التبّريكِ في المنزل ناشئًا عن وصفِ الخيريّة للّه سبحانه.

﴿مُّبَارَكًا﴾ اسمُ مفعول، فالبَرَكَةُ مجعولةٌ فيه بفعل اللّهِ النّاشئ عن صفاته، فصِفةُ البَركَة في ﴿مُنزَلًا مُّبَارَكًا﴾ هي أثرٌ مِن آثار صفةِ الخيريّة المُطلقة الثّابتة للّه تعالى في قوله: ﴿خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، وبينَ ﴿مُّبَارَكًا﴾ و﴿خَيْرُ﴾ تطابقٌ معنويٌّ بينَ الصّفة وأثرِها؛ لأنّ البَركَة هي إيداعُ الخير في الشّيء على جِهَة اللّزوم والدّوام، فالتّبريكُ هو وجهٌ من وجوه الخير، ورَدّ العَجُزِ على الصَّدْرِ، أو ما يُعرَف بالتّصدير، أو ما يقال له: ملاحظةُ المَطْلِعِ في الخِتام، والخِتامِ في المَطْلع، وهو لونٌ مِن ألوان المُحسّنات البَديعيّة اللّفظيّة، وهذا المُحَسّن البَديعيّ يَزداد حُسْنًا باجتماعه مع جِناس الاشتقاق الّذي سبق التّنويهُ عليه.

نُكْتَةُ تكرارِ لفظ: (قُلْ) في الآية الكريمة:

إعـــادة (قـل) لتعدُّد الدّعاء، إمعانٌ في التّقرُّب والتّودّد

تكريرُ فعل القول في جملة الحمد وجملة الدّعاء: ﴿فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ﴿وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِي﴾؛ لتَعدُّد الدّعاء[1]؛ وللإشارة إلى التزام الأنبياء والمؤمنين لمقتضى الخِطاب الإلهيّ في جميع أحوالهم، وأنّ هذا الخطابَ كان خطابًا تكليفيًّا واجبًا في كِلا الجُملتين.

موقع جملة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ ممّا قبلها:

جملة ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ﴾ استئنافٌ؛ انتُقِل به لتقريرِ العِبرة

(1) الشّهاب الخفاجيّ، عناية القاضي وكفاية الرّاضي: 6/ 328.

والمقصودِ من سَرْد القِصّة وحكاياتها، وفيه تنبيهٌ على أنّ القَصَص تُحْكَى لالتماس مقاصدِها، وتَحَرّي مَجامعِ العِبرةِ فيها، وأنّ قَصَص القرآنِ فصْلٌ مُحْكَمٌ لا فضولَ فيه ولا غُثاء؛ فينفذُ إلى المقصود مِن أقصر طريق، وأجزل أسلوب، ويَصِحّ أن يكون الغرضُ مِنَ الاستئناف تعليلَ ما ذُكِر؛ أي: قَصَصْنا ما قصصناهُ لاستخلاص الآيات واستنتاج العِبَر[1].

حكايةُ القَصَص مَلْمَحٌ غايتُه التماسُ المقاصدِ والعِبَر

نُكْتَةُ الجمعِ في قوله: ﴿لَآيَٰتٍ﴾:

جمعُ لفظِ الآيات في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾، مع أنّ ﴿ذَٰلِكَ﴾ تُشير إلى قِصّة واحدة، وهي قصّة نوح ﵇؛ باعتبار تعدُّد الدّلائلِ وكثرةِ متعلَّقاتِها في نفسها، وباعتبار تَعدّدِ القِصّة في أذهان المُتلَقّين لها فكلٌّ يَعتَبِر بها بحسب عِلْمِه وفَهْمِه، وعلى قَدْر مكانِه وزمنه[2].

تتباينُ العِبَرُ بحسب تفاوت المُتَلَقّين لها، في العقول والقلوب والظّروف

نُكْتَةُ تأكيدِ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾:

تصدير جملةِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾ بحرف التّوكيد؛ لدَحْض الارتيابِ والتّردّدِ عند المُخاطَبِ، في شأن ثبوتِ العِبْرةِ النّافعة، والمَغْزى الصّادق المُستَلْهَم من هذا السّرد القَصَصيّ المُعْجِز، فمَن شكّ في اشتماله على الآيات، وظَنّها عَبثًا أو عِبئًا، فقد سيق له مضمونُ الجملةِ مُؤكّدًا؛ ليندفعَ عنه الشّكُّ والإنكار، ومَن كان مؤمنًا فالتّأكيدُ مُفيدٌ في تثبيتِه وتحصينه، من انتقال عدوى المُنكرين المُرتابين إليه[3].

الارتيابُ مرضٌ يُعْدي، والاعتمادُ عليه لا يُجْدي

سِرُّ تقديم الجارِّ والمجرور على اسم ﴿إِنَّ﴾:

لم يقل في السّياق الكريم: (إنَّ آياتٍ في ذَلِكَ)، بل قَدَّمَ الجارَّ والمجرورَ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ﴾؛ للاختصاص والاعتناء بمدخول

تقديمُ شِبهِ الجملةِ للاختصاص والاعتناء

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 48.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 49.

الجارّ، وهو اسمُ الإشارة العائدِ على القِصّة المذكورة، فإنّه أولى بالعناية والتّقديم؛ لكون المدار عليه، وللتّوسّل بهذا التّقديم إلى زَحْلَقةِ لام التّأكيد إلى المبتدأ المتأخّر ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾[1]؛ لتأكيد مضمونِ الجملة، بتأكيد النّسبة وتحقيقها بينَ المُسنَد والمُسنَد إليه.

موقع جملة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ ممّا قبلها:

الابتلاءاتُ قرينةُ العِبَرِ لمَن أراد أن يَعتبر

جملة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾[2]؛ للجمع بين حصول الآيات والبلاء في القصّة، كأنّه قيل: (إنَّ في ذلكَ القَصَصِ المَذكورِ لآياتٍ وابتلاء)، وجملة ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ حاليّةٌ؛ لتقرير أنّ الابتلاءات مصاحبةٌ للعِبرات[3]، ومُفادُ ذلك: أنّ الشّأنَ إصابةُ قومِ نوحٍ بالبلاء العظيم، والعقابِ الأليم، وسوفَ يكون ذلك اختبارًا لعبادِنا بهذه الآياتِ؛ لننظرَ مَن يَعْتَبِرُ، ونَخْبُرَ مَن يتذكَّر، وهو مشابهٌ لقولِه تعالى: ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةٗ فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ ١٥﴾ [القمر: 15][4].

دلالةُ التّعبير باسمِ الفاعل في قوله: ﴿لَمُبۡتَلِينَ﴾:

الابـتـلاءُ سُنّـةٌ إلهيّةٌ لا بـدَّ من جريانها على ابن آدمَ ضرورةً

التّعبير باسم الفاعل دون الفعل في قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبۡتَلِينَ﴾ دون الفعل، فلم يقل: (وَإِنْ كُنّا لِنَبْتَلي) لغرضين؛ **الأوّل:** رعايةُ الفواصلِ في جَرَسِها وصورتِها، فلا تتنافرُ عمّا قبلها منَ ألفاظ ﴿ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، و﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، ويبقى الاطّراد على اسم الفاعل، **والثّاني:** تحقيقُ المعنى بتحقيق المَبنى، فالمعنى: هو الإخبار بوقوع الابتلاء لا محالةَ، والمبنى: هو صياغةُ اللّفظِ على بناء الاسميّة؛ ليتحقّقَ الوصفُ ذاتًا وزمنًا وحقيقةً، فيدلَّ اسمُ الفاعلِ على ذات الجليل الفاعلة، وعلى استمرار حدوثِ الصّفةِ، وعلى تحقُّقِها في المُضيّ، وحصولِها في

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.

(2) صافي، الجدول: 18/ 175.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 132.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 132.

الحال والاستقبال، أي: وإن كنّا لمبتلين من قبل ذلك، وفي ذلك وبعد ذلك، وعلى حقيقة الصّفة الدّالّةِ على معنى الحَدَث، ولا يتحقّقُ هذا المجموعُ في الفعليّة، ونُكْتَةُ التّعبيرِ بالاسميّة: الإلماحُ إلى أنّ الابتلاء سُنّةٌ كونيّة، لا بُدّ من جَريانها[1].

دلالة اللّام في قوله: ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾:

التّمايز بين وظائف (إنْ) المتباينةِ مفيدٌ في الدّلالة

اللّام في قوله: ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ هي الفارقة بين (إنْ) المُثْبِتة والنّافية، والفارقةُ بينَها وبينَ الشّرطيّة، وفائدُتها التّوكيدُ، فحاصل المؤكّدات في التّركيب أربعة: (إنْ) المُخَفّفة من الثّقيلة، وفعلُ الكونِ التّحقيقيّ في قوله: ﴿كُنَّا﴾، ولامُ التّوكيد الفارقة[2].

نُكْتَةُ التّعبير بلفظ ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾:

الابتلاءُ يكشف الحقائقَ، ويُحَدّد المقامات

التّعبيرُ بلفظ البلاء في قوله تعالى: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾؛ لإفادة معنيين؛ أحدهما: تعرّف حالِ المُمْتَحَن، وإظهارُ حقيقته، والوقوفُ على ما يُجْهَل من أمره، والثّاني: ظهورُ جودتِه ورداءَته، وتحديدُ رُتْبتِه ومقامِه في حقيقته المُنْكَشِفة بالابتلاء[3].

نُكْتَةُ حذفِ المفعول في قوله: ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾:

ألوانُ البلاء لا تنحصر في النّاس كيفيّاتُها ولا ألوانُها

حذفُ مفعولِ ﴿لَمُبْتَلِينَ﴾ في قوله: ﴿وَإِن كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾؛ للعموم، حتّى تذهبَ النّفسُ فيه كلّ مذهبٍ في التّأويل، على اعتبار أنّ المقصود بالابتلاء عمومُ المخاطَبين، كأنّه قيل: (وإن كنّا لمبتلين النّاس كما ابتلينا نوحًا وقومَه؛ لنعلمَ المؤمنَ منَ الكافر)، وألوان الابتلاء لا تنحَصِر وجوهُها وكيفيّاتُها في النّاس، ولذلك حُذِفَ المفعول، وأمّا على اعتبار الخصوص، فحَذْفُ المفعولِ لدلالة ما قبلَه عليه، أي: وإن كنّا لمبتلين نوحًا وقومَه بما سبق؛ ليَميزَ اللّهُ الصّادقين منَ الكاذبين،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 135.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 142، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 10/ 575، وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القونويّ: 13/ 167، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 48.

(3) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 81.

فهو يُخبر أنّ ما سبق من أحداث كان ابتلاءً وتمحيصًا، وأيضًا: صيانةً للفاصلة ألّا تنخَرِم[1].

بلاغةُ القَصْر بتعريف طرفَيْ طرفَيِ الإسناد:

التّوسّل بالثّناء؛ لإنجاح المرامي، وتحقيق المقاصد

قوله: ﴿وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، تعرَّفَ فيه طرَفا الإسناد المبتدأُ والخبرُ[2]، فأفاد قصرَ حُكمِ المُسنَد على المُسنَد إليه، فلا يَتّصِفُ بـ ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ إلّا هو سبحانه، وهو قَصْرٌ حقيقيٌّ يُؤذِنُ بالثّناء على اللّهِ؛ توسّلًا بإنجاح مقصودِه وعدم خِذْلانه؛ لأنّ مآله إلى ضيافة ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، فالقَصْر مُضَمَّنٌ معنى البُشْرَى والجزاء بالخير؛ لقرينة الخيريّة في قوله: ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾.

إيثارُ التّعبير بوصف الخيريّة في التّفضيل:

الخيرُ في قضاء الله وإن لم تستحسنه النّفوس، أو ترتَحْ إليه الطّباعُ

آثَرَ النّظمُ الكريم وصْفَ الخيريّة في التّفضيل في قول: ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، ليدلّ على أنّ وصْفَ الخيريّة توصَف به المواقعُ والمَقارُّ؛ لتقرير منفعتها، وانتفاءِ الشّرِّ عنها في ذاتها بحسب الحِكْمة وسَبْق التّقدير؛ وفي هذا إشارة إلى تسليم نوحٍ لحُكْم اللّهِ سبحانه ورضاه، بما يختارُه له، فهو يطلب مقدارَ الخيرِ والعافية، وأنّه قائمٌ حيثُ أقامَه اللّهُ، كأنّه قال: (الخيرُ حيثُ أنزلتَني، وإنْ لم تظهرْ لي حِكْمتُه وحُسْنُه).

نُكْتَةُ التّعبير بصيغة (أفعل) التّفضيل:

جَعْلُ المفضولِ بإزاءِ الأفضل، يُبْرِزُ كمالَ الأفضل

مجيءُ التّركيب على صيغة التّفضيل في قوله: ﴿خَيۡرُ ٱلۡمُنزِلِينَ﴾؛ لإثبات الخيريّة المُطلَقَة في إنزاله ﷻ على إنزال مَن سواه، وإنْ وُجِدَ وصْفُ الخيريّة فيمَن سِواه، إلّا أنّ خيريَّتَه سبحانَه كاملةٌ تامَّةٌ؛ لاقترانها بالحِكْمة والعِلْم الكاملَين، وخيريّةُ مَن سِواه تعتريها احتمالاتُ النّقص، ولذا كان هو سبحانه خيرُ المُنزِلين؛ لاستحالة الخطأ أو الخفاء أو النّقص أو الشّطط أو الجهل في أفعاله وصفاته سبحانه.

---

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 86.

(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.

دلالةُ (أل) في ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾:

الصِّفاتُ المألوفة على قَدْرِ الذَّواتِ الموصوفة

(أل) التّعريف في قوله: ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾ هي الموصولةُ الدّاخِلةُ على أسماء الفاعلين، ولها دلالةٌ على إفادة الكمال، وهو استغراقُ خصائصِ أفرادِ الجنس، أي: هو خيرُ المُنْزِلين الذين استوفَوا صِفاتِ استئهالِ القدرةِ على إنزال خَلْقِه وتوطينِهم، واستكملوا خصائصَ الفعلِ وحقائِقَه.

ودلالتُها على الموصوليّة حقيقةٌ، ودلالتُها على الكمال مجازٌ، ولا تَعارض بين الدّلالتين؛ لأنّ معنى الموصوليَّةِ مُطّرِدٌ في (أل)، ثابتٌ بنفْسِه من غير قرينة، والّذي أعان على دلالة الكمال ليس (أل) وحْدَها، بل قرائنُ السّياق، وهي في هذا التّركيب: مَجيءُ الكلامِ بصيغة التّفضيل، الّتي تُؤذِنُ بثُبوتِ أفضليّةٍ مرجوحةٍ للمفضول، ولِكوْنِ التّفضيلِ في جانبِ اللّه سبحانَه، تأكَّدَ معنى الكمالِ في ﴿ٱلۡمُنزِلِينَ﴾، إذِ اللّهُ لا يُفاضَلُ مع المُنْزِلين النّاقصين، وكذا تعريفُ اللّفظ بـ (ألْ) الجنسيّةِ الدّالّةِ على استغراق صفاتِ الأفراد وعدَدِهم.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّزولُ والحُلول:

الحُلول تُستَحضَر معه الهيئةُ السّابقةُ على النّزول

النّزول: أصل (نزل) يدلّ على انحطاطٍ وهويٍّ مِن عُلوٍّ إلى سُفْل، فالنّزولُ يقال على تَصوُّرِ الهبوط الرّأسيّ، الّذي يُؤدّي إلى الاستقرار في المَحلّ أو الموضع، ثمّ تُجوِّز فيه، فصار يقال في كلّ مَأوىً يَسهُل استقرارُ الإنسان فيه، ويألَفُ فيه المقامَ؛ لأنّه لمّا كان النّزولُ سهلًا غيرَ منفورٍ منه، بخلاف الصّعود الّذي يقتضي المجهود، صار كلُّ محلٍّ سَهْلٍ على الإنسان يُسَمّى منزلًا، وإنْ لم يهبط إليه بالنّزول من أعلى إلى أسفل.

وأمّا الحلول: فيُقال في النّزول في المكان، لكنّ الحلولَ تُستَحضَر معه الهيئةُ السّابقةُ على النّزول، وهي التّخفّف منَ الأحمال، فأصلُ

الحلول: فكُّ ما كان مشدودًا، أي: معقودًا ومربوطًا وموثَقًا، ولذا كان الحلولُ بالمكان: هو حَلُّ المسافرِ عُقَدَ أحمالِه ليَنزِلَ بالمكان، فالحلولُ حين يُطلَق على النّزول، فهو مجازٌ مرسل علاقتُه الأيلولةُ؛ لأنّ النّازل لا يستطيع النّزولَ في المكان والاستقرار فيه إلّا بِحَلّ أحمالِه والتّخفّف منها، ولذا كان الحلولُ هو النّزول باعتبار ما يكون، أو يؤولُ إليه حالُ الحالِّ عُقَدَه[1].

الابتلاء والتّمحيص:

التّمحيص هو نتيجة البلاء، أو لازِمٌ من لوازمه

الابتلاء في أصل مادّته يدلّ على إخلاق الشّيء وعلى الاختبار، ومنه الثّوب البالي، أي: الخَلَقُ القديم المُتهالِكُ، وسُمّيتِ التّكاليفُ ومُجرياتُ الأقدارِ ابتلاءً؛ لأنّها تَشُقّ على النّاس، فتُخْلِق نفوسَهم، أي: تُهزِلُها وتُقْدِمُها، وتنالُ من عزْمها وجِدِّها، ولأنّها - أيضًا - امتحانٌ واختبار لمعادن النّاس، ووازِعِ الدّين فيهم[2].

وأمّا التّمحيص: فأصل مادّتِه يدلّ على تخليص الشّيء بإنقائه، وتصفيتِه ممّا يشوبُه، فيُقال: مَحَّصَ اللّهُ العبدَ من الذّنب، إذا طهّره مِن آثاره، وخَلّصَه منَ الاقتراف له[3].

وعليه: فالبلاءُ مُقَدَّمُ التّمحيص، فلا تمحيصَ إلّا بابتلاء، والتّمحيص هو نتيجةُ البلاء، فمعادنُ النّاس لا تتمايز ولا يُخلَّى بعضُها عن بعض إلّا بعد امتحانها، ونفْسُ الإنسان لا تُنقَّى من شوائبها المَعيبة إلّا بَعركِها واعتصارها في مِصفاة البلاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والراغب، المفردات: (حل، نزل)، وابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حلل، نزل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بلوي)، والرّاغب، المفردات: (بلى).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (محص).

﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ ٣١ فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولًا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ ٣٢﴾

[المؤمنون: 31 - 32]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

بيان أنّ حُجّة اللّه بإرسال رسله في كلّ العصور، قائمةٌ في كلّ جيلٍ إلى يوم الدّين

في الآيات السّابقة طويَتْ قصّة نوحٍ عليه السلام، وانتقل - هنا - لِنَظيرٍ ممُاثِلٍ وأنموذجٍ شبيه، فأخبر أنّه بعد انقضاء جيلِ الطّوفان الّذين عاشوا على رسالة نوحٍ عليه السلام، أنشأ اللّهُ جيلًا جديدًا، وأرسل لهم رسولًا منهم؛ لتستمرَّ سُنّةُ اللّهِ في خلقه، في استدامة حُجّته عليهم؛ لئَلّا يكون للنّاس على اللّه حُجّة بعد الرّسل، ولئَلّا تخلو أمّةٌ من نذير، وقد جاء في سورة الأعراف ما قاله هودٌ عليه السلام لقومه، وهو يُحَذّرهم ويَدْعوهم إلى اللّه: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69]، والمقصود بـ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ عادٌ الأولى، وهم قوم هود عليه السلام.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَنشَأۡنَا﴾: (نشأ) أَصْلٌ يَدُلُّ على الإيجاد والابتداء والإحداث، يُقالُ: نشأ وأنشأ: إذا خرج وابتدأ، وأنشأ يفعل كذا، ويقول كذا: إذا ابتدأ يفعل ويقولُ[1]، ومن هذا الأصل عُبِّر به عن بَدْءِ الشَّيء لأَوّل أمره من عَدَمٍ، كما قالوا: أنشأ دارًا: بناها، أو من أثناء كانت موجودة، ولكن لم يكن له وجود مُتعَيِّن فيها، ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [هود: 61]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الأنعام: 98][2]، وأنشأ اللّهُ الخَلْق، أي: ابتدأ خَلْقَهم[3]، وعليه فالمراد بالإنشاء في الآية: ابتداءُ الشَّيء وخَلْقُه، على مِثالٍ لم يُسبق إليه.

(1) ابن سيده، المحكم، وابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب: (نشأ).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصّل: (نشأ).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).

2) ﴿قَرۡنًا﴾: (قرن) أَصْلٌ يَدُلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[1]، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ، وهو اجتماعُ شيئَين أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني[2]، والقَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النّاسِ المُقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ، وقيل: مُدَّةُ القرنِ مئةُ سنةٍ، وقيل: ثمانونَ، وقيل: ثلاثون، وقيل غيرُ ذلك[3]، والمُراد بالقَرْنِ في الآية: الأُمَّةُ، والأظْهَرُ أنَّ المُرادَ به هنا ثَمودُ؛ لأنَّه الَّذي يُناسبه قولُه في آخرِ القِصَّةِ: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾[4].

3) ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾: (رسل) أَصْلٌ يَدُلُّ عَلَى الانْبِعاثِ والامْتِدادِ، فالرَّسْلُ: السَّيْرُ السَّهْلُ، وناقَةٌ رَسْلَةٌ: لا تُكَلِّفُكَ سياقًا، وشَعْرٌ رَسْلٌ، إذا كانَ مُسْتَرْسِلًا[5]، والإرْسالُ يُقالُ في الإنسان، وفي الأشياء المحبوبة، والمكروهة، وقد يكون ذلك بالتّسخير، كإرسال الرّيح والمطر، وقد يكون ببعث من له اختيار، نحو إرْسالِ الرّسل، وقد يكون ذلك بالتَّخلية، وترك المنع، نحو قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّآ أَرۡسَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمۡ أَزّٗا ٨٣﴾ [مريم: 83][6]، والمقصودُ بالإرسالِ في الآية: البعثُ والتَّوْجيهُ، وقَوْلُهُ: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ أيْ: جُعِلَ الرَّسولُ بَيْنَهُمْ وهوَ مِنْهُمْ، أيْ: مِنْ قَبيلَتِهِمْ[7].

4) ﴿تَتَّقُونَ﴾: (وقى) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ تَدُلُّ عَلَى دَفْعِ شَيْءٍ عَنْ شَيْءٍ بغَيْرِهِ[8]، وأَصْلُ الوِقايَةِ: دَفْعُ شَيْءٍ عن شَيْءٍ بِغَيْرِهِ، يُقال: وقَى نَفْسَهُ مِنَ العَدوِّ بِسلاحِه، أَيْ: دَفَعَهُ بِهِ، والوِقايَةُ: ما يَقي الشَّيْءَ، واتَّقِ اللّهَ: تَوَقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَكَ وبَيْنَهُ كالوِقايَةِ، قالَ النَّبيُّ ﷺ: "اتَّقوا النّارَ ولَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ"[9]، وكأنَّهُ أرادَ: اجْعَلوها وِقايَةً بَيْنَكُم وبَيْنَها[10]، والمُتَّقي: مَنِ اتَّصَفَ بِالاتِّقاءِ، وهوَ طَلَبُ الوِقايَةِ، وهوَ الحَذَرُ المُتَطَلِّبُ لِلنَّجاةِ مِنْ شَيْءٍ مَكْروهٍ مُضِرٍّ[11]، والتَّقوى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).
(2) الرّاغب، المفردات: (قرن).
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قرن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 49، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 31.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (رسل).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (رسل).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 50.
(8) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وقى).
(9) أخرجه البخاري في صحيحه، برقم: (1417)، ومسلم في صحيحه، برقم: (1016).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(11) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (وقى)، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 226.

اتِّخاذُ الوِقايَةِ والحِمايَةِ مِنَ الشَّيءِ، والاِتِّقاءُ: تَكَلُّفُ الوِقايَةِ، وهيَ الصَّوْنُ والدَّفْعُ[1]، وتأْتي الوِقايَةُ بِمعنى الحِفْظِ مِنَ الأذَى والضَّرَرِ[2]، والمقصود بالاتّقاء في الآية: حفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه ويَضُرُّه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ما أصاب قومَ نوحٍ والأممَ بعدَهم، سُنَّةُ اللهِ في المُكَذِّبينَ عبرَ الزّمان

يخبرُ اللّهُ تعالى: أنّه أوجَدَ مِن بَعدِ قَومِ نوحٍ قَومًا آخَرينَ، وهم عاد، فأرسل فيهم رسولًا منهم، وهو هودٌ ﵇، داعيًا لهم وقائلًا: (يا قوم اعبُدوا اللّهَ وأطيعوه، دونَ الأوثانِ والأصنام، فإنّ العبادة لا تنبغي إلّا له، ولا تصلح لسواه، أفَلا تخافونَ عقابَ اللّه على شِركِكم؛ فتَجْتَنِبوا عبادةَ هذه الأصنامِ؟!)[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة ﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا﴾ للتّعقيب الزّمنيّ المُتراخي، والتّراخي هو باعتبار التّبايُن العُمُريّ بينَ الجيل والذي يَليه[4]، فبين كلّ جيلٍ وآخر، فترةٌ منَ الوعي والعقل تعيشها الأُمم.

دلالةُ الفعل ﴿أَنشَأۡنَا﴾ وإيثارُه على غيره:

الإنشاء دالٌّ على إحداث جيلٍ جديد، لزمنٍ مِن بعده غيرِ مديد

إيثارُ فعلِ (النّشأة) دون (الجعل) أو (الخلْق)، في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا﴾؛ للدّلالة على أنّهم كانوا مُستأهلين للتّكليف بالخطاب الإلهيّ، وبلاغِ الرّسل بما استنجزوه من إنعام اللّه، وببلوغِ أهليّة خطابِهم بالشّرع؛ ذلك أنّ إنشاء الشّيء يعني أمرين: إحداثَه، وتربيتَه إلى أنْ يبلغ ويُدرك، ونُكْتَةُ ذلك: تنبيهُ المُخاطَب إلى أنّ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.

(2) السّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصّل: (وقى)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التّعاريف، ص: 340.

(3) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 39، والمراغيّ، تفسير المراغي: 18/ 22، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.

تكليفَهم اللّاحِق بالعبادة - فيما يأتي في السّياق -، ومؤاخذتَهم على كُفرانهم بهذا التّكليف، كانت عنِ استحقاقٍ وعَدل، ولم يكن لهم عُذرٌ من حجابٍ عنِ الإدراك، أو كتمانٍ للبيان، أو حِرْمانٍ منَ النِّعَم[1]، وفي التّعبير بالإنشاء تنبيهٌ، على أنّه إحداثٌ لجيلٍ جديد؛ لدفع تَوهّم أنّهم كانوا بقايا من الجيل الّذي هلك قبلَهم في زمن نوحٍ ﷺ، فعَبَّر عن إنجائهم بإنشائهم، وحَقّق أنّهم أُحدِثوا بعدَهم، فقال: ﴿ءَاخَرِينَ﴾[2].

دلالة إسناد الفِعل إلى ضمير العَظَمَة:

المفعولات الكبيرة تستلزم فاعلًا جليلًا وقديرًا

إسناد الفعل ﴿أَنشَأۡنَا﴾ إلى ضمير العَظَمة؛ للدّلالة على كمال هذا الإنشاء وتعظيم فاعلِه، أي: (بما لنا منَ العَظَمةِ فعَلْنا ما فعَلْنا من إنشائهم)[3]، والإنشاءُ إحداثٌ وإحياءٌ وتربية، لا تتأتّى إلّا بعَظَمة اللّهِ تعالى وجلالِه، وعليه فقد كان مفترضًا أن لا ينازعَه في ذلك مخلوقٌ حادثٌ، ولا شريكٌ مزعوم.

دلالةُ إلحاقِ الجارّ في ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ دون إسقاطه:

البَعديّة المباشرةُ من غير انقطاعٍ أو فاصلٍ طويل، مفيدةٌ للمُراد

أثبت النّظم القرآني الجارّ ﴿مِنۢ﴾ في قوله ﴿مِنۢ بَعۡدِهِمۡ﴾ للدّلالة على البعديّة المباشرة من غير انقطاعٍ وفاصلٍ طويل، فقوله: ﴿مِنۢ﴾ ابتدائيّة لتسريع الشّروع والدّخول بالفعل ﴿أَنشَأۡنَا﴾ في زمن البَعديّة المذكور، ولو جاء النّظمُ بإسقاط الجارّ: (أنشأنا بعدهم) لاحتمل أمرين؛ الأوّل: الانقطاع الطّويل البعيد، والثّاني: استغراقُ زمانِ البَعديّة[4].

دلالةُ استعمال لفظ ﴿قَرۡنًا﴾:

يُقال القرنُ للاقتران الجماعيِّ في الزّمن على شيءٍ ما

إيثارُ التّعبير بلفظ ﴿قَرۡنًا﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا﴾ دونَ غيره - كلفظ الأُمّة أو القوم -؛ لدلالته على معنى الاقتراب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (نشأ).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 136.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 136.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 136.

والاقتران، فكلّ جيلٍ قرينُ سابقِه في حلَقة الزّمن، وكلُّ جيلٍ يقترن بنظيره السّابق واللّاحق في التّوالي والتّعاقب الزّمنيّ، وأفرادُ الجيل الواحد قُرناء في الحُقبة الزّمنيّة، والقَرْنُ: هو الزّمن الّذي يجمع أناسًا مُتقاربين في مسائل الحياة، وانتهى العلماء إلى أنّ القرن مئة عام، أو إلى مُلْكٍ مهما طال، أو رسالةٍ مهما طالت، كلّها تسمّى قرنًا، فقولُه سبحانه: ﴿قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾؛ للإشعار بأنّهم كانوا يعيشون في زمان واحد مع نبيّهم، وأنّهم كانوا معاصرين له، ومُشاهدين لأحواله قبلَ البعثة وبعدَها[1].

دلالةُ عدمِ ذِكْر الأُمّة باسمها واسمِ رسولِها:

الإبهام أبلغُ منَ التّعيين إذا بلغ المقصودَ وأصاب المَحَزَّ

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾ لم يُعَيِّنِ القَرْنَ ولا القرونَ بأسمائهم؛ لتشابُهِهم جميعًا في مِلّة الكُفر، واتّفاقِهم على مَسْلك التّكذيب، واتّحادِهم في نفس المصير، فاكتفى بالتّسمية في قوم نوح كمثالٍ على مَن بعدَهم ممّن جرتْ عليهم سُنّة اللّه في استحقاق العقوبة[2]، وإنشاءُ القرنِ كان بعد إهلاكِ قومِ نوحٍ وإغراقِهم، حيثُ تَمّ استخلافُ أجيالٍ مِن ذُرّيّة مَن في السّفينةِ المنسوبةِ لنوح عليه السلام، ممّن عُرِفوا بقوم عادٍ وثمود، ولكنّهم عِوَضَ الاعتبارِ بعدَ النَّجاة والاستقرار، انحرفوا عن جادّة التّوحيد، وسلكوا مسلكَ العِناد والكُفر، فكان مصيرُهم الكفرَ، على شاكلة مَن سبقهم، وذلك مصيرُ كلّ كافر جحود، أو مُعانِد لَدود.

موقع جملة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾ ممّا قبلها:

لا حُجّةَ للخَلْق علـى اللـه بعد إرسـال الرّسل وحصولِ البلاغ

الفاءُ في جملة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على جملة ﴿أَنشَأۡنَا﴾، والوصلُ بالفاء للتّرتيب والتّعقيب، وهو ترتيبُ الإرسال على الإنشاء ومُعاقبتِه له، فالفاء في معنى السّببيّة، أي: فتعقّب

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (قرن)، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10024، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 31.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 49.

إنشاءَنا لهم، وتسبّب عنه أن أرسلنا، ولم يقل: (ثمّ أرسلنا) ليَدُلّ على أنّ اللّه سبحانه لم يُمهِلهم من غير بلاغ، ولم يُهمِلْهُم في الهداية والبيان، فبُلِّغوا وبُيِّنَ لهم بمُجرّد إنشائهم واستتمام أهليّتهم في تلقّي الخطاب[1].

دلالة الماضي في ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾:

التّكاليفُ تنقضي، ويبقى الجزاءُ والحساب

مجيءُ الفعل ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ ماضيًا؛ لتحقيق الإرسالِ وتوثيقه، وللتّنبيه على أنّهم غيرُ معذورين باستتمام البيان واستيفاءِ الحُجّة. فليس لهم حُجّةٌ على اللّه بعد أنْ قضى حُجّته عليهم بالإرسال.

نُكْتَةُ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمة:

إرسالُ الرّسل شأنٌ إلهيٌّ خالص، لا دخلَ لمخلوقٍ في حصوله

إسنادُ فعلِ الإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾ إلى نون العَظَمة؛ لتعظيم الفاعل الجليل سبحانه، وتعظيم فِعلِه بإرسال الوحي، فإنّ الإرسال لمّا كان عظيمًا لا يَقْدِر عليه إلّا اللّه؛ أسنده إلى نون الجلال والعَظَمةِ لهذا الغَرَض[2].

عِلّة التّعدية بـ (في) دونَ (إلى):

التّعدية بالظّرفيّة تصويرٌ لتمكّن البلاغ من نفوس المبلَّغين

تعديةُ فعلِ الإرسال في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ بحرف الظّرفيّة (في) لا بحرف الغاية (إلى)؛ ليجعلَ القرنَ (أمّةَ الدّعوة) ظرفًا وموضعًا للإرسال، لا غايةً له؛ للتّنبيه على أنّ مَن أُرسِلَ إليهم لم يأتهم من مكانٍ غيرِ مكانهم، وإنّما أُوحيَ إليه وهو بين أظهرهم[3]؛ للمُماثلة بين حالهم وحال الّذين أُرسِلَ إليهم محمّدٌ ﷺ[4]؛ لينبّهَ بذلك على أنّ طاعتهم للرّسول أولى بهم وألزم لهم[5].

وأيضًا: التّعبيرُ بحرف الظرفيّة يُفيد أنّ صوت الرّسول بالبلاغ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 137.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 137.

(3) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 86.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 50.

(5) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 168.

قد بُثَّ فيهم - في دواخلهم وأعماق نفوسهم -؛ كنايةً عن حصول معرفتِهم التّامّةِ، واطّلاعهم على البيان الكامل، فكأنّ في التّعديَة بالظّرفيّة تصويرًا لتمكُّن البلاغِ من نفوسهم، تَمَكُّنَ الظّرفِ منَ المَظروفِ، بجَعْلِ الإرسال حاصلًا فيهم.

سِرّ تقديمِ شِبه الجملة ﴿فِيهِمۡ﴾:

تقديمُ شِبه الجملة ﴿فِيهِمۡ﴾، على معمول الفعل ﴿رَسُولٗا﴾[1] في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾؛ للاعتناء والحصر، أي: أرسلنا فيهم خاصَّة دون غيرهم.

اجتماعُ الجِناس والتّصدير في السّياق:

أهميّةُ إحالةِ العَجُزِ إلى الصّدرِ، في الإبانة عنِ المعنى المُراد

في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ جِناس اشتقاق، بين فعلٍ واسمٍ: (أرسَلْنا، رَسولًا)، اتّفقا في الجَذْر الثّلاثيّ: (رسل)، وفيه أسلوب التّصدير البديع، فكلمةُ ﴿رَسُولٗا﴾ في آخر التّركيب، مردودة على كلمة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا﴾، رَدَّ العَجُزِ على الصّدر، ولا يخفى ما في اجتماع الجِناس مع التّصدير من عذوبة الجَرْسِ الصّوتيّ في التّركيب، واستحضارِ حَرَكةِ الإرسال مُذْ نشوئِها إلى بلوغِ غايتِها.

دلالةُ شِبْهَيِ الجملة ﴿فِيهِمۡ﴾ و﴿مِّنۡهُمۡ﴾:

الظّرفيّة تدلّ على الامتزاج النّفسيّ، والابتدائيّة تدلّ على عُلوّ النَّسَبِ فيهم

استخدام شِبه الجملة بالحرفين (في) الظّرفيّة، و(مِنْ) الابتدائيّة، في قوله تعالى: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ في جملة واحدة، راجعَيْن في نفس السّياق إلى المُخاطَبين منَ الأقوام؛ لدلالة الظّرفيّة على معنى المُداخَلَة النّفسيّة، والمُمازجة العقليّة لدعوة الرّسول فيهم، ودلالةِ حرفِ الابتداء على المُقاربة الحسيّة والمُساكَنَة الاجتماعيّة، منَ الرّسول لهم، أي: أرسلنا رسولًا ناشئًا من جهة أنسابهم - أصلُه بادئٌ منهم - ومعروفًا فيهم.

---

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 509.

دلالة ﴿أَنِ﴾ في ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ﴾:

الأمرُ بعبوديّة الخَلْق لله أبلغُ مقولةً، وأرشد سُلوكًا

﴿أَنِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ تفسيريّةٌ مسبوقةٌ بما له معنى القولِ دونَ نَصِّهِ وحُروفِهِ، وهو فِعلُ الإرسال، كأنّه قيل: قلنا لهم على لسان الرّسول: اعبدوا اللّه[1].

من بلاغة النظم في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓۚ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾:

ورد التفصيل في بلاغة الألفاظ في الآية 23 من السورة

الفصلُ في ﴿مَا لَكُم﴾ لشِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ فهو استئنافٌ بيانيٌّ تعليليٌّ جوابًا عن سؤالٍ يقتضيهِ الكلامُ السّابقُ[2]؛ فإنَّهُ لمّا قالَ: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ كأنَّهم قالوا: لمَ تأمرُنا بعِبادتِهِ؟ فقالَ: لأنَّهُ ما لكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ[3].

وقد أفادت ﴿مَا﴾ النافية و﴿مِّنۡ﴾ المفيدة لاستغراق النفي[4]، وتنكير لفظ ﴿إِلَٰهٍ﴾ أنّ العبادة للّه وحده، ولا تكون لأحدٍ سواه، واللّام للتَّخصيصِ والتَّبيينِ، أي: (ما لكُم في الوجودِ أو في العالَمِ إلهٌ غيرُهُ تعالى)[5]، وتقديم الجارّ والمجرور للاهتمام بالمُقدَّمِ، لبيان قصديّة إيقاع النّفي عند المخاطَبين.

والاستفهامُ في قولِ الحقِّ تباركَ اسمُهُ: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ للإنكارِ والتَّوبيخِ، وللزَّجْرِ والوعيدِ؛ وللتَّنبيهِ والتَّحريضِ على اتِّقاءِ العذابِ[6].

وحُذف مفعولُ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ قرينةَ الحالِ تدلُّ عليهِ.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 182، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 85.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 10/ 570، والخفاجي، عناية القاضي: 6/ 326.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 130.

(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 130.

(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 270، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5063، والشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10004.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَٓخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ٣٣﴾ [المؤمنون: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الرّبط بين الدّعوة إلى الله وتقواه، وبين مقالات الكافرين المكذّبين في كلّ حين

لمّا ذكر في الآية السّابقة القرنَ اللّاحق لجيْل نوحٍ ﷺ، وذكر إرسالَ الرّسولِ ومقالَتَه لهم بالعبادة ونفي الشّرك، وكان هذا حوارًا لا بُدَّ له مِن تمام؛ استكمل هنا هذا الحوارَ بذِكْر مقالةِ القوم لرسولهم، ولمّا كان في كلّ قوم وكلاءُ عنهم مِن وجهائهم، كان القولُ منسوبًا إلى الملأ منهم، والسّياقُ هنا ورد في معرض حكاية ما بَدَر منهم من أقاويل، هي للباطل أقربُ منها إلى الحقّ، وذلك إثرَ حكايةِ القولِ الحَقّ، مِن إرسال رسولٍ يأمر بعبادة الله، وتمحيضِ العبادةِ له دونَ سواه، مع خشيتِه وتَقْواه.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمَلَأُ﴾: (ملأ) أصلٌ يدلّ عَلَى المُساواةِ والكَمالِ في الشَّيْءِ[1]، وأصلُ المَلَأ: جماعة يجتمعون على رأي، فيَملؤون العيونَ رواءً ومنظرًا، والنّفوسَ بَهاءً وجلالًا[2]، والمَلأُ أيضًا: أشْرافُ القَوْمِ ووجوهُهم ورؤَساؤهم ومُقَدَّموهم، الَّذينَ يُرْجَع إلَى قَوْلِهِمْ، والجَمْعُ: أمْلاءٌ[3]، سُمّوا بذَلِكَ؛ لأنّهم مِلاءٌ بما يُحتاجُ إلَيْهِ، والمراد بهم في الآية: الأشرافُ؛ لأنَّهم عنهم يَصْدُرُ المَلَأ، وهو جمع القوم[4]، واحتجّ أبو عُبيدة على أنّ الملأ همُ الرّؤساء والأشراف، بقوله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ﴾ [البقرة: 246]، قال كَعْبُ بنُ مالك[5]:

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ملأ).
(2) الرّاغب، المفردات: (ملأ).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (ملأ).
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 141.
(5) ديوان كعب بن مالك، ص: 219، وكذلك: أبو بكر الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: 2/ 161.

فدونَكَ واعْلَمْ أنَّ نَقْضَ عُهودِنا***أباهُ المَلا مِنّا الَّذينَ تَبايَعوا

2) ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾: (ترف) أَصْلٌ، والتُّرْفَةُ: التَّوسُّع في النِّعمة[1]، يُقالُ: أُتْرِفَ فُلانٌ فهو مُتْرَف[2]، فالتَّرَفُ: التَّنَعُّمُ، والتَّتْريفُ: حُسْنُ الغِذاء، وصبيٌّ مُتَرَفٌ، إذا كانَ مُنَعَّمَ البدنِ مُدَلَّلًا، والمُتْرَفُ: الموسَّعُ عليه عَيشُه، القليلُ فيه هَمُّه، وأتْرَفَه اللهُ، أي: أنعَمَ ووسَّعَ عليه[3]، وأتْرَفَتْه النِّعمةُ، أي: أطْغَتْه[4]، "قال ابن عرفة: المُتْرَف المَتروكُ يصنع ما يشاء، لا يُمنع منه، وقيل للمُتَنعِّم: مُتْرَف، لأنّه مُطْلَق له لا يُمْنَع من تَنَعُّم. ﴿أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا﴾ [الإسراء: 16]، قال قتادة: جبابرتَها"[5]، والمقصودُ بالإترافِ في الآية: جَعْلُهُمْ أصْحابَ تَرَفٍ[6]، أي: نعَّمناهُم وبَسَطنا لهمُ الآمالَ والأرزاقَ[7].

3) ﴿بَشَرٌ﴾: (بشر) أصْلٌ يدلُّ على ظُهورِ الشَّيْءِ مَعَ حُسْنٍ وجَمالٍ، فالبَشَرَةُ ظاهِرُ جِلْدِ الإنسانِ، وسُمّيَ البَشَرُ بَشَرًا لِظُهورِهِمْ[8]، قال الرّاغِبُ: عَبَّرَ عَنِ الإنسانِ بالبَشَرِ، اعْتِبارًا بِظُهورِ بَشَرَتِهِ، وهيَ جِلْدُهُ مِنَ الشَّعْرِ، بِخِلافِ الحَيَواناتِ الَّتي عَلَيها الصّوفُ والشَّعْرُ والوَبَرُ، أيْ: والرّيشُ، وخُصَّ في القرآن كلُّ موضعٍ اعتُبِرَ مِنَ الإنسان جثّتُه وظاهِرُه بلفظ البَشَر، نحو: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ مِنَ ٱلۡمَآءِ بَشَرٗا﴾ [الفرقان: 54][9]، والبَشَرُ أيضًا: اسْمٌ يَقع على النّاس، أسودِهم وأحمرِهم، يُقال: هَذا بشَرٌ للرَّجُلِ، وهما بَشَران للرَّجُلين، وفي التَّنْزيل: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا﴾ [المؤمنون: 47]، ولم يَقولوا: ثَلاثَةُ بشَرٍ[10]، وعليه فالمُرادُ بالبَشَرِ في الآيةِ: اسْمُ جِنْسٍ لِلْإِنْسانِ.

المَعنى الإجْماليّ:

(وقال الرُّؤساءُ والأشرافُ والسّادةُ مِن قَومِ هذا الرّسولِ، الَّذين كَفَروا باللهِ، وكذَّبوا

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ترف).
(2) الرّاغب، المفردات: (ترف).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ترف).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ترف).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ترف).
(6) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 52.
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 142.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (بشر).
(9) الرّاغب، المفردات: (بشر).
(10) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (بشر).

بالبَعثِ والحِسابِ، ونعَّمْناهم ووَسَّعْنا عليهمُ الرِّزقَ في الحَياةِ الدُّنيا حتَّى بَطِروا وطَغَوا، ما هذا الذي يدَّعي الرّسالةَ فيكم إلّا بشرٌ مماثلٌ لكم، فهو يأكل ممّا تأكلون منه، ويشرب ممّا تشربون، فليست له ميزةٌ فيكم، حتَّى يدَّعي أنَّه رسولُ اللّهِ إليكم!)[1].

التَّرفُ من غير إيمان يجعلُ النَّفسَ تُنكِر الرّسولَ، وتنظرُ إلى خصائصه البشريّة

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة موقع جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ ممّا قبلها:

الوصل بالواو جمعٌ بين مقولة الحقّ، ومقولة الباطل؛ لتتجلّى المقابلة المعنويّة بينهما

جملة ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ﴾ معطوفةٌ على حكاية الإرسال المُتضمِّن معنى القول في جملة ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، وهو من باب عطف القِصّة على القِصّة، وفائدة الوصل بالواو: الجمع بين مقولة الحقّ، ومقولة الباطل؛ لتتجلّى المقابلة المعنويّة بين المقولتين، وامتنع الوصل بالفاء - هنا - ولم يأت على غرار قوله في قصّة نوحٍ: ﴿فَقَالَ ٱلۡمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24] لسببين:

الأوّل: لِكون مقولتِهم - هنا - غيرِ متّصلة بكلام رسولهم، فهي ليست على إرادة التّعقيب بلا مُهْلَةٍ، فعُطِف بالواو لِمُراعاةِ أنّ قولهم هذا، كان متأخِّرًا عن وقت مقالةِ رسولِهم الّتي هي فاتحةُ دعوته؛ بأنْ يكونوا أجابوا كلامَه بالرّدّ والزّجر، فلمّا استمرّ على دعوتهم وكرّرها فيهم؛ وجّهوا مقالتَهم المحكيّةَ هنا إلى قومهم.

الثّاني: أنّ كلام نوحٍ عليه السلام، قد حُكيَ بصيغة القول: ﴿فَقَالَ يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: 23]، فكان ذلك حوارًا صريحًا مقتضيًا للمُطاوعة الفوريّة، فناسَبَ تعقيبَها بالفاء، وجاء كلام الرّسولِ - هنا - مَحكيًّا بـ ﴿أَنِ﴾ التّفسيريّة؛ لِما تضمّنَه معنى الإرسالِ من معنى القول: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ﴾، فكان حِوارًا وقولًا ضِمْنيًّا، يقتضي الانفعالَ معه على نفْس رُتْبَتِهِ بِتوانٍ وعدم تعجّلٍ؛ فناسب أنْ يُعطف

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 39، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 121، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.

بالواو دون الفاء، لكون الفاء دالّةً على الاندماج السّريع في الحوار، والحوارُ هنا غيرُ صريح، فلم يكن عطفُهُ بالفاء هو الأنسب.

ويصحّ أن تكون الواو استئنافيّةً في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾، على إرادة القطع بين مقولة الرّسول، ومقولتهم؛ لأنّ مقولتَهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ ليستْ موجّهةً للرّسول، بل لأقوامهم، فانفصلت بذلك عن قول الرّسول؛ لكونها ليست ردًّا على قولِه، ولا حوارًا معه، فحسُن أنْ تكون مستأنفةً للانتقال إلى تقرير موقفهم، وخلاصةِ فِعالِهم بعد الدّعوة والبيان.

توجيه المتشابه اللفظي:

قد أتتِ الجملةُ موصولةً بالعاطف، ولم تأتِ مفصولةً، على غِرار نظيراتها في سورة الأعراف وسورة هود، في قوله: ﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ﴾ [الأعراف: 60، 66]، وقولِه: ﴿قَالُواْ يَٰهُودُ﴾ [هود: 53]؛ لأنّ هذه الآيات جاريةٌ على الاستئناف البيانيّ، على تقدير سؤال، أي: فما كان قولُهم له؟ قال: قالوا: كذا وكذا، والاستئنافُ البيانيّ من مواضع الفصل؛ لشِبه كمالِ الاتّصال، وأيضًا: الفصل في هذه النّظائر؛ لأصل جريانها على أسلوب المُحاورات الّتي تقتضي جعلَ الكلامِ فصولًا مقسومةً بقطع كلام المُحاوَر عنِ المُحاوِر له، وأمّا - هنا - فالوصلُ بالعاطف لكون الحوار - هنا - ليس موجَّهًا منَ الملأ إلى الرّسول، بل هو حوارٌ موجَّهٌ منَ الملأ إلى سائر القومِ أو الشّعب، فهو حوارٌ مضمومٌ إلى حوارٍ سابقٍ عليه، فاقتضى عطفَه، وليس حوارًا واحدًا يقتضي الفصلَ بين تقاسيمه[1].

سِرّ استعمال لفظ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ في السّياق:

استُعمل لفظُ ﴿ٱلۡمَلَأُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ﴾؛ ليَدُلَّ به على خصوص الفِئة، فإنّ الملأ هم رؤوسُ القومِ وأشرافُهُمْ،

الملأ لهم منَ النّفوذ والحيثيّة ما يُغري النّاسَ باتّباعهم في الحَقّ والباطل

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 186، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 4/ 87، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 559، وابن التّمجيد، حاشية ابن التّمجيد بهامش القونويّ: 13/ 168، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 51، وصافي، الجدول: 18/ 176.

الّذين تَمْلَأ رؤيتُهم الصّدور[1]، وخصَّهم دونَ غيرهم؛ لأنّهم صانعو القرارَ في كلّ بلد، وبيدهم تحريك الأحداث، ولهم منَ النّفوذ والحيثيّة ما يُغْرِي عمومَ النّاس باتّباعهم، والاغترارِ بتحريضهم ومسلكهم، وذلك مألوف في كلّ الشّعوب.

دلالة قيد ﴿ٱلْمَلَأُ﴾ بالمتعلّق ﴿مِن قَوْمِهِ﴾:

المَــذمـــومُ في قومه، هو عندَ غيرِهم أشدُّ ذمًّا

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ بيانيّةٌ؛ لتعيين المَلأ وتعريفهم؛ لأنّ القبائل قد تفرّقتْ بتفرّق الألسن واللهجات، فاحتاجَ لتعيينهم، لأنّ لكلّ قبيلةٍ مَلَأً، وفائدةُ تعيينِ أنّهم من قومه: التّحسيرُ من حالهم، والنّعي عليهم؛ فإنّ التآمُر من القوم أوجع؛ لأنّهم أعرفُ النّاس بالرّسول، فكان الأولَى أن يحملهم عِرفانُهم به على القبول له والمدح، أو الصّمتِ عنه، وعدمِ القدح؛ لأنّ القَدْحَ إذا جاء منَ العارف القريب، أغرى البعيدَ الغريبَ على عدم النّظر وعدمِ التّصديق، فمن كان مجروحًا عند قومه، كان عند غيرهم أعْظَمَ جَرْحًا.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور في السّياق:

بيـان أنّ غاية التّقديم دفعُ الإيهامِ الّذي قد يقع في النّظم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور على متعلَّقه في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ للاعتناء والاختصاص؛ ولأنّه لو أُخِّر لكان بعد تمام الصّلة، وهي طويلةٌ بالمعطوفات، فيؤدّي إلى الفصل بينَ البيان والمُبيَّن؛ ولأنّه لو أُخِّرَ لأوهمَ أنّ قوله: ﴿مِن قَوْمِهِ﴾ متعلّق بـ ﴿ٱلدُّنْيَا﴾، فأُخِّرَ النّعتُ ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ لتتَّصلَ بِهِ الصّفتانِ المعطوفتان من قوله: ﴿وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْآخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ﴾، بخلاف قوله: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَؤُاْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 24]، وقولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٖ﴾ [الأعراف: 66]، بتأخير الجارِّ والمجرور على الأصل، ولعدم المعطوفات في حيّز الصّلة[2].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 119، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.

الكُفْر يستجلِب القوادحَ، ويُفضي إلى أسوأ المَذامِّ

دلالة التّعريف بالصِّلة في السّياق:

وصفُ الملأِ بالكفر، على طريقة التّعريف بالصّلة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ ذمًّا لهم وتنبيهًا على غُلوِّهم في الكُفْرِ، بإجراء وصف الكفر على ذواتِهم؛ إشعارًا بأنّ كُفْرَهُم هو عِلّةُ ضلالهم فيما قالوه منَ البُطلان والقَدح.

تعديدُ المدائحِ يُفيد المبالغةَ في المَدح، وتعديدُ القوادح يُفيد المبالغةَ في الذَّمّ

دلالةُ العطف بين فِعْلَي ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾:

العطف بين فِعلي ﴿كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ﴾، في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ للمُغايرة والتّعديد في أوصافهم، نعيًا عليهم بالذّمّ، فإنّ تعديد القوادح كتعديد المدائح[1]؛ يُراد بهِ الإغراقُ في الذّمِّ والاستزادةُ منه؛ لتجلية حقائق الخصم وتعليلِ مؤاخذتِه، بأنّها بعد بيّنةٍ وسَعَة، وفائدة ذلك: التّنبيه على أنّهم ازدادوا كفرًا على كفر، فداروا في مَداره، حتّى استتمّوا حَلْقتَه، واستوفَوا أصولَه وأركانَه، فكَفَروا بالخالق، وكذّبوا بلقائه في الآخرة[2].

التّكذيبُ بالآخرة منتهى الكُفران، وغاية النُّكران

نُكْتَةُ ذِكْر (التّكذيب) بعد (الكفر)، مع أنّه من جِنسه:

عُطِفَ التّكذيبُ بالآخرة على الكفر في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ ليَدُلّ على أنّ كلًّا منَ الكفر باللّه، والتّكذيبِ بلقائه وحسابِه، مقترنانِ لا ينفكّان، يُجامِع أحدُهما الآخرَ، وهو من باب عطف الخاصّ على العامّ، ولم يُذْكَر معمولُ الكفرِ للتّعميم، أو لأنّ الكفر باللّه هو الكفرُ الواسع البَواح، فمعناه العموم، فيُساق على طريقة العموم بحَذْفِ المعمول، ثمّ ذَكَرَ أعظمَ أفرادِه، وهو التّكذيب بالآخرة؛ ليَدُلّ على مبدأ الكفر ومنتهاه، فالكفر باللّه يُؤدّي إلى الكفر بلقائه يومَ القيامة، والتّكذيبُ بالآخرة يُيَئِّسُ منَ النّظر والاستماع،

(1) تعديد المدائح: يراد به المبالغة في المدح، إذْ مَن بُولِغ في مدحه، تعدّدت وتنوّعت مدائحُه، للدّلالة على كثرة مآثره.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

فإذا قال: هم كافرون ومكذّبون بالبعث، فكأنّه يقول للمخاطَب: هم راسخون بذلك في كفرهم، محجوبون محرمون، فلا يُرجَى منهم إيمانٌ، ولا يؤمَّل منهم إصغاءٌ، وإعادةُ نظر.

سِرّ توالي الأفعال الماضية في النّظم:

مَن أظلمت نهاياتُه بالكفر هلكَ، والعِبْرَةُ بالخواتيم

توالي الأفعال الماضية، في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ﴾، ﴿كَفَرُواْ﴾، ﴿وَكَذَّبُواْ﴾؛ ليدلّ على أنّ آخر عهدِهم بالرّسول الكفرُ، فآخِرُ ما يصحّ أنْ يُحكَمَ به عليهم منَ الأوصاف: أنّهم متحقّقون بالكفر تَحَقُّقَ الماضي في ثبوته، وعدمِ تغيّره في الانقضاء والتّحقّق والفوات، فلم يَمْحوه بتوبةٍ، أو يستدركوه بإيمان.

دلالةُ إضافة المصدر إلى ظَرْفِه:

لقاءُ الآخرة مصيرٌ لا مَفرَّ منه، ولا مندوحةَ عنه

إضافة المصدرِ إلى ظَرفِه في قوله تعالى: ﴿بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ﴾؛ لتعيين نوع اللّقاء المَذكور، بتعيين موقِعه، وهو لقاء الحسابِ الّذي يقع في الآخرة[1]، وهذا اللّقاءُ قَدَرٌ مقدور، "وهو لقاء الحسابِ والعقابِ والثّواب، ولقاءُ ملائكةِ العذاب، أي: أنّه يلقى كلُّ (مَنْ) في الآخرة، كلَّ ما هو شقاءٌ مرهوبٌ"[2]، وذلك اللّقاء هو الظّرفُ المُرتبطُ بهَول العَرْض على مَن بيده الأمرُ كلُّه، وهناك تُبْلَى السّرائرُ، وتُحَدّد المصائرُ، ويكون النّاسُ في هول ورُعبٍ وتوجّس؛ حيثُ ينتهون، إمّا إلى جنّة راضية، أو إلى نارٍ حاميَة.

موقع جملة ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾ ممّا قبلها:

التّرفُ يُحرّض على الطّغيان، ويَمنع مِنَ الشُّكران

قوله تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾، إمّا معطوفٌ على صلة الموصول، فهو داخل في حيّز الصّلة، كأنّه قيل: (والّذين أترفناهم)، فالواو عاطفة، أو حالٌ منَ الضّمير في: ﴿وَكَذَّبُواْ﴾، كأنّه قيل: (كذّبوا والحالُ أنّا أترفناهم)، أو: (كذّبوا وقد أترفناهم)، وكِلا الوجهين

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5070.

(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5070.

يُفيد أنّهم قابلوا الإحسانَ بالتّرَف، وإسباغَ النّعمةِ بالإساءةِ، وبالكفر والتّكذيب، وهذا أبلغُ في ذمّهم والنّعي عليهم، واستهجان مسلكهم[1].

دلالةُ التّعبير بمادّة (الترف):

الفاسدُ يرى المالَ والتّرفَ المعيارَ للمكانة والشّرَف

عَبَّر بمادّة التّرف في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾؛ لكون التّرف يُغريهم على الأشَر والبَطَر، والاستغناء المُستَلزِم للإعراض عنِ الرُّسل، والمُكابرة في اتّباعهم، وعدمِ التّواضع لقيَم الحقّ الّذي نزل بها الوحيُ؛ توهّمًا منهم أنّ التّرف مِن لازم الشّرف، فجعلوه معيارًا في الاستحقاق والقبول والتّمكين؛ حتّى عبدوا المالَ والجاه، واتّخذوهما آلهةً مِن دون اللّه، فلا وكيلَ عليهم، ولا مُلزِمَ لهم[2].

دلالةُ نسبةِ إترافِهم إلى الله تعالى:

يمتحنُ اللهُ سبحانَه النّاسَ بوفرة النّوال، كما يمتحنُهم بالإقلال

نسبةُ إترافهم إلى ضمير العَظَمة الجليل في قوله تعالى: ﴿وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ﴾؛ للدّلالة على مصدر الإنعام والتّرف الّذي جرّأهم على الكفر بالمنعِم سبحانه، والاستكبار عن وحيه، وهو تعريضٌ بهم عظيم! كأنّه قيل: أترفناهم فكفروا بنا، بما كان ينبغي أن يكون عونًا لهم على الطّاعة والإيمان، فتوسّلوا به إلى الكفر بالمُنعِم! ففيه إشارةٌ إلى أنّ الكافر باللّه كافرٌ بنعمته؛ بوضعها في غير موضعها، واستغلالِها بغير ما هو لها.

دلالةُ الجمعِ بين وصفَي (التّكذيب) و(التّرف):

التّرَف من غير إيمان، يَجُر إلى التّجَبُّر والطُّغيان

الجمع بينَ التّكذيب بلقاء الآخرة، والتّرف في الدّنيا، هو من عطف السّببِ على المُسبَّب، فالتّرف في الدّنيا أطغاهم وأنساهم، فكان سببًا في تكذيبهم، كما قال تعالى: ﴿وَذَرۡنِي وَٱلۡمُكَذِّبِينَ أُوْلِي ٱلنَّعۡمَةِ﴾ [المزّمّل: 11]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧﴾ [العلق: 6 - 7]، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التّرف في الدّنيا من غير إيمانٍ، يَجُرّ

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 138.

إلى التّجبُّر والتّكبّر، والإفساد بالعدوان على أهل الفضل وظُلمِهم، والانفلات العريض؛ لأنّ التّكذيب بالآخرة ينفي عنهم توقّعَ المؤاخذةِ بعدَ الموت، والثّروةَ وبسطةَ العيشِ تُغريهم بالكِبر والصَّلَف، إذْ ألِفوا أن يكونوا سادةً لا أتباعًا، يُحتاج إليهم، ويَسْعَى الكلُّ في خِدمتهم، ولا يحتاجون لأحد[1].

التّماثل يُغري بعدم الاتّباع والتّسليم

بلاغة الكناية في التّركيب المُحكم:

قوله تعالى: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾، "كنايةٌ عن تكذيبه في دعوى الرّسالة؛ لتوهّمهم أنّ البشريّة تُنافي أن يكون صاحبُها رسولًا منَ الله، فأتَوا بالمَلزوم وأرادوا لازمَه"[2]، ومفادُ السّياقِ: أنّ هذا الّذي يَدّعي أنّه رسول، ليس إلّا بشرًا عاديًّا، لا ميزةَ له عليكم، فهو يأكل ويشرب مثلما تفعلون، فكيف يدّعي أنّه الأفضل، ويزعم أنّه مرسلٌ منَ الله إليكم؟.

بيانُ ما آلَ إليه فسادُ المعيار والتّصوّر، عند الكافرين المُعاندين

عِلّة التّعبير بلفظ ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾:

التّعبير بالمثليّة، في قوله: ﴿بَشَرٌ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ لإرادة اتّحاد الرّسول مع متبوعيهم في الوصف والحال، وفيه استكبارٌ وعُلوٌّ منهم على مَن يخاطبونهم منَ الأتباع، فضلًا عن تهوينهم لشأن الرّسول، ووجْه ذلك: أنّهم لم يُضيفوا المِثليّة إلى ضمير أنفسهم، فلم يقولوا: (بَشَرٌ مِثْلُنا)؛ لتحييد أنفسِهم عن مقام المقارنة مع أحد، كأنّهم خارجُ المقارنة؛ عُلوًّا واغترارًا بتَرَفهم ونفوذهم، ويؤيّده: أنّهم قاسوا الرّسولَ بمعيار نوعيّة المُتّبعين له، وهو أنّه قدِ اتّبعه مَن كانوا مِن أتباعهم، وفي حُكم خُدّامهم، كما في قصّة نوح عليه السلام، في سورة هود: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمۡ أَرَاذِلُنَا﴾ [هود: 27]، أي: خُدّامنا وأتباعُنا من خارج المَلأِ والأشراف[3].

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 52.
(3) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 167.

نُكْتَةُ إيثارِ لفظ ﴿مِّثۡلُكُمۡ﴾ على (مِثْلُنا):

تهوينُ أمرِ المُرسَلِ منَ العنادِ وشِدّةِ الجهل

إسناد المِثليّة إلى ضمير الخطاب، بدلًا من ضمير المتكلّم، في قوله: ﴿إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾ فلم يقولوا: (إلّا بَشَرٌ مِثْلُنا)؛ للمبالغة في تهوين أمره ﷺ وتوهينه[1]، والحالُ أنّ الله وسّعَ لهم نِعَمَ الدّنيا، "فَبَطِروا بسبب ما صاروا فيه من كثرة المال، ورفاهةِ العيش، حتّى وصفوا رسولَهم بمساواتهم في البشريّة، وفي الأكل والشّرب"[2]، والواقع أنّ نظرتهم إلى هذا الأمرِ السّماويّ الجليل كان من وجهة نظر مادّيّة بحتة، وهي نظرة قاصرة محدودة، ولو تعالَوا بنظرتهم إلى آفاقٍ أرحبَ وأسمى، لَعَلِموا أنّ الأسرار والهداية والخوارق، لا تحدُّها مماثلةٌ، ولا تقيّدها مشابهةٌ ظاهريّة؛ لأنّ الأسرار كالأرواح التّي عبّر عنها القرآن الكريم بأنّها من أمر الله، في قوله تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا ٨٥﴾ [الإسراء: 85].

بلاغة الكناية والوصف بالأكل والشّرب معًا:

الاستدلالُ بالحيثيّات السّاذجة، أمارةٌ على سطحيّة العقول ومحدوديّتِها

قوله: ﴿يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾، استدلالٌ منهم على بشريّته المُماثلة لهم، فالجملةُ تقريرٌ لمضمون الجملة قبلها، وهي كنايةٌ عن عدم تفوّقه عليهم في شيءٍ، حتّى يُصطفَى عليهم بالرّسالة، وفي استدلالهم هذا ازدراءٌ لعقولهم، التّي لا تعرف غيرَ التّفضيل الماديّ، ولا تستدلّ إلّا بالمحسوس، وهذا نتيجةُ النّمط الّذي تشرّبوا به، منَ التّرف والانغماس في النِّعم والشّهوات، ولذا استدلّوا بحيثيّةٍ ساذجةٍ، لا تعدو صورةَ الأجسام وكيميائيّتها.

دلالة حذف العائد في قوله: ﴿مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾:

حَذْفُ عائدِ الموصولِ منَ الصِّلة مِن بليغ الإيجاز

حُذِفَ العائدُ في قوله: ﴿مِمَّا تَشۡرَبُونَ﴾، ولم يقل: (مِمّا

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 117.

تَشْرَبونَهُ)، أو (تَشْرَبُونَ مِنْهُ)؛ اكتفاءً بدلالة ما قبله عليه في قوله: ﴿تَأْكُلُونَ مِنْهُ﴾، وطلبًا للإيجاز، وصيانةً للفاصلة ألّا تنخرمَ، هذا إذا جعلنا (ما) في قوله: ﴿مِمَّا﴾ موصولة، فإن جُعِلَتْ مع ما بعدها مصدرًا، لم تحتج إلى عائد، ويكون المصدر واقعًا موقعَ المفعول، أي: من مشروبكم[1].

دلالةُ تكرُّرِ الحرف (من)، وأثرُه في المعنى:

الإحالـةُ على الجنس أولى منَ الإحالة على الخصوص

(مِنْ) في قوله: ﴿يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: مصدرُ أكْلِه ومَبْدؤه من جنس أكْلِكُم، و(مِنْ) الثّانية في قوله: (تَأْكُلونَ مِنْهُ) بيانيّة، أي: مأكولُه من جنس أكلِكم، ولذلك لم يقل: (مِمّا تَأْكُلونَهُ)؛ لأنّه لا يأكل من أكلِهم الخاصّ بهم، بل يأكل من مِثْلِه في النّوع والجنس، من طعامٍ آخَر، فالإحالة على الجنس أولى مِنَ الإحالة على الخصوص، ويقال مثل ما سبق في معنى (مِنْ) في قوله: ﴿وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التّرف والغِنى:

لم يرِد التّرفُ في القرآن إلّا مذمومًا، وكلُّ مُترفٍ غنيّ، وليس كلّ غنيٍّ مُترَفًا

التّرفُ: هو التّوسُّع في النِّعَم، والمُتْرَف: هو المُتَنَعِّمُ المُتوسِّعُ في مَلاذّ الدّنيا وشهواتها، والمُتْرَف: هو المتروكُ يصنع ما يشاء في النِّعَم لا يُمنَع ممّا فيه، فهو مُطْلَقٌ في تنعُّمِه، لا يُقيّده شيء، ولم يَرِد التّرفُ في القرآن إلّا مذمومًا[3].

وأمّا الغِنَى: فهو الكفاية بالشّيء عن غيره؛ لعدم حاجته لغير ما عنده، والغِنى: هو عدمُ الحاجات، وهذا لا يكون إلّا للّه تعالى؛ لأنّه ذو الغِنى الكامل، وهو قِلّة الحاجات، وهذا حاصلٌ في الخلْق،

(1) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 8/ 332.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 232.
(3) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (ترف).

والغِنَى لمّا كانت حقيقتُه في الاكتفاء بالشّيء وعدمِ الحاجة إلى ما سواه، وكان النّاس يتفاوتون فيما بينهم في حدود هذه الكفاية، صحّ لذلك أن يطلق على الهيئة النّفسيّة؛ لتفاوت النّفوس في أغراضها، ومقدارِ ما يكفيها، ولذا كان الغِنَى غِنى النّفْس في أساسه، وكان ممدوحًا تارةً، ومذمومًا تارةً، بحسب حال الإنسان نفسِه[1].

وعليه: فالتّرفُ أعمّ منَ الغِنى، وهو يتعلّق بكثرة النّعم والتّوسّع فيها، وأمّا الغنى: فيتعلّق بالكفاية بما حصل منها، وبعدم الحاجة إلى غير هذا الحاصل، وإن لم يكن كثيرًا أو واسِعًا، ويقال الغِنى للهيئة النّفسيّة؛ لأنّها باعثة على الاكتفاء، وأمّا التّرف فلا يتعلّق إلّا بالكثرة الخارجة منَ النّعم.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (غني).

﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَاسِرُونَ ٣٤﴾ [المؤمنون: 34]

الكفْرُ والاستكبارُ حجابٌ عنِ المنطق الصّريح، والعقلِ الصّحيح

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

لمّا افتتح الآيتين السّابقتين ببيانِ مقالةِ المَلَأ على الرّسول المُبلِّغ، وكان هذا القولُ قولَ سوءٍ وجحود، وعِنادٍ وصدود؛ أخبر - هنا - عن ذيول تلك المقالة، واستطرادات المَلَأ فيها، وإمعانِهم في استلاب عقولِ أقوامهم وأتباعهم، بالصّدّ عن طاعة الرّسول بالتّنظير المُبطِل، والرّأي الأُحاديّ المُستَبِدّ، في قولهم: "إنّكم إذا آمنتُم لبشرٍ مثلِكم، وصدّقتُم بما جاءكم به، وعبدتم الإلهَ الّذي يدعوكم لعبادته، فإنّكم تكونون منَ الخاسرين؛ لأنّكم لن تنتفعوا بطاعته"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَّخَاسِرُونَ﴾: (خسر) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى النَّقْص، فمِنْ ذلكَ الخُسْرُ والخُسْرانُ، والفِعل: خَسِرَ يَخْسَرُ خُسْرانًا، ومصدَرُه: الخَسارَةُ والخُسْرُ، والخاسِرُ: الَّذي وُضِعَ في تجارته[2]، وخَسَرَ إذا نَقَصَ ميزانًا أو غَيْرَهُ، وخَسِرَ إذا هَلَكَ[3]، والتَّخْسيرُ: الإهلاك[4]، وقيل: الإبْعادُ مِن الخَير[5]، والمُرادُ بالخسارة هنا: الغَبْنُ، أي: لَمَغْبونونَ بتَرْكِكُم آلهتَكم واتّباعِكم إيّاه من غير فضيلةٍ لهُ عليكم[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من أسباب الخسارة العظيمة طاعةُ البشرِ العاجزِ الضَّعيفَ

لقد أكَّدوا من فرْطِ حسدهِم بقولهم: (ونُقسِم لئن أطعتُم بشرًا مماثلًا لكم في بشريَّتِكُم، فصَدَّقتُم أنَّه رَسولٌ واتَّبعتُموه،

(1) أسعد حومد، أيسر التّفاسير، ص: 2587.
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خسر).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (خسر).
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (خسر).
(6) الأبياريّ، الموسوعة القرآنيّة: 10/ 374.

إنَّكم إذَن لَمَغْبونونَ)، وهذا من العجب، فإنَّ الخسارة والنَّدامة حقيقةٌ لمن لم يتابِعْه، ولم يَنْقَدْ له، والجهل والسَّفَهُ العظيم لمن تكبَّر عن الانقياد لبشرٍ خَّصه الله بوحيه، وفَضَّلَه برسالته، وابتُلي بعبادة الشَّجر والحَجَر[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ موقعِ جملة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾:

جملة ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ معطوفة على جملة ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[2]، فهي داخلة في حيّز القول، وهي منَ المَلاحِق على مبدأ القول وأصله في جملة: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾.

الاستطالة في الاحتجاج على غير طائل، من شؤون المُبْطِلين

فائدة اللّام في ﴿وَلَئِنْ﴾:

اللّام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَطَعْتُم﴾ هي الموطّئة للقَسَم قبل الشّرط؛ للتّنبيه على القسم المحذوف[3]، وفائدتُها: نيابةُ القَسَم المحذوف في توكيد مضمون الجملة؛ للمبالغة في تحقيق الشّرط المَذكور في جوابه؛ ليَنزِلَ كلامُهم منزلةَ الوعدِ اليقينيّ المشروطِ بحصول شرطِه، والتّقدير: (واللهِ إنْ أطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ ...)، ويصحّ إجراءُ التّركيبِ على عدم اعتبار قسَمٍ مُقدَّر، وأنّ اللّام الموطّئة هي لام الابتداء؛ لتأكيد مضمون الجملة، كتوكيد القَسَم[4].

اللّام تحتمل القَسَمَ أو التّوكيدَ فقط، والعِبرةُ بقصد المُتكلّم

دلالةُ الماضي ﴿أَطَعْتُم﴾ في سياق الشّرط:

الفعل الماضي ﴿أَطَعْتُم﴾ في جملة الشّرط، معناه الاستقبال، أي: إن تُطعيوه في المستقبل، أو تستمرّوا على طاعته؛ تخسروا، وأسلوبُ الشّرط مفادُه بإيجاز: أنّكم إنِ امتثلتُم آدميًّا مثلَكم في الخَلْق

احتمالُ الطّاعةِ للبشر المُماثِل، لا يتأتّى مع صِدق الوحي النّازل

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 40، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 121، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.

(2) صافي، الجدول: 18/ 177.

(3) السّامرائي، معاني النّحو: 4/ 180.

(4) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 170، والسّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 186.

والحال، وعملتُم بأوامره، إنَّكُمْ إن أطعتموه لَخاسِرونَ، أي: مغلوبون في عقولكم، ومغبونون في مآلكم[1].

دلالةُ إدماجِ أسلوبِ القَسَم مع الشّرط:

مقامُ الاحتجاج يقتضي التّأكيدَ والقَسَم؛ للإقناع في الحِجاج

اجتمع في جملة ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا﴾ القَسَم المُقَدّر معَ الشّرط؛ لتنزيل الكلامِ منزلةَ الوعدِ المَشروط، بحصول شَرطِه، ويدلُّ القَسَم المُقَدّر على أنّ الكلام في سياق الاحتجاج والاستدلال يُؤكَّد بأساليب التّحقيق والتّأكيد كالقَسَم، ويدلُّ أسلوبُ القَسَم على توقّع تكذيبِ المُخاطَب للمُتكلِّم، أو كونِ المُخاطَب مُستبعِدًا أو مُتردِّدًا في ثبوت الخبر الّذي يورِدُه المُتكلّم عليه، فالمَلَأ لمّا كانوا عارفين بأنّهم غيرُ جديرين بثِقَةِ أتباع الرّسولِ فيهم، وأنّ كلامَهم محلُّ نظرٍ وتردّدٍ، كان لا بدّ أن يصوغوا كلامَهم مؤكَّدًا بالقَسَم والشّرط ولام التّأكيد، في أوّل الجملة وآخرها - الموطِّئة والمُزَحلَقة - في: ﴿وَلَئِنۡ﴾، و﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾، وتوسيط الجوابِ بـ﴿إِذٗا﴾؛ ليَدْفعوا بهذه المُؤكِّدات أيَّ تَرَدُّدٍ أو إنكارٍ يعتري ذِهنَ المُخاطَب إزاءَ كلامهم[2].

فائدة إقحام ﴿إِذٗا﴾ بين الاسم والخبر:

توالي المُؤكّدات يكون أحيانًا أمارَةً على عدم تماسُكِ المضمون

﴿إِذٗا﴾ في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾ اسمُ شرطٍ غيرُ جازم، مُضافٌ إلى جملة مُقدّرة، والتّنوين فيه عِوضٌ عن الجملة المحذوفة، والتّقدير: (إنّكم إذا أطعتموه لخاسرون)[3]، وفائدةُ إقحامِ ﴿إِذٗا﴾ بينَ اسم إنّ وخبرِها؛ لتأكيد مضمون جملة الجواب، وتحقيقِ النّسبة بينَ المبتدأ والخبر، وجملةُ الجواب: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، هي للقَسَم المُقدّر، وقد سَدّ مَسَدّ جوابِ الشّرط[4].

(1) الجاويّ، مراح لبيد: 2/ 87.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.
(3) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133، والخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 51.

التّلبيس على المخاطب بتنزيل الحُجّة الخاصّة منزلةَ القانون الكليّ العامّ

سِرّ تنكير لفظ ﴿بَشَرًا﴾:

تنكيرُ لفظِ ﴿بَشَرًا﴾ في قولة المعاندين: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرًا﴾؛ للتّعميم الّذي يُراد به التّعيين؛ لأنّ مرادَهم اتّباعُ الرّسول، وفائدة التّعميم: أنْ ينطليَ احتجاجُهم على مُخاطَبيهم؛ لأنّه إذا جاء الكلامُ على صورة العموم مع ما في نفْس المُتكلّم من إرادة الخصوص؛ كان الكلامُ خارجًا مخرجَ القانونِ العامّ والسُّنَّةِ الثّابتة، فيدفع عنهم تُهمةَ الانحيازِ المُضادّ المُتعسّف على غير بيّنة، فيُساق الكلامُ مساقَ الكلّيّات العامّة لأجل ذلك.

أهلُ العقلِ وتحريرِ المنطق الأنور، نادِرون في النّاس، مثلُ الكبريت الأحمر

دلالةُ جملةِ الجواب على المُغالطة العقليّة:

في قوله: ﴿إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، جوابُ القَسَم المُقَدّر الّذي سَدّ مسدّ جوابِ الشّرط، وفيه مغالطةٌ عقليّة، ومفارقةٌ غيرُ منطقيّة؛ وهي أنّهم شرطوا تحقّق الخُسران والجَزم به باتّباع الرّسول، والاهتداءِ بالحَقّ، فوضَعوا الشّرطَ في غير موضعه، وعادوا بالعُدْوان والظّلم على أنفسهم وعلى أقوامهم، فضلّوا وأضَلّوا، وترتيبُ المُغالطة: الرّسولُ بَشَرٌ مثلُهم وطاعةُ البشرِ خُسرانٌ، إذًا طاعةُ الرّسولِ خُسران!

ولوِ اعتبرنا بناءَ التّركيب وحده، دونَ تعلّقِه بقضيّة الرّسول، وهي قضيّة: (إنْ أطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ تَخْسَروا) بتعليق الخُسران على طاعة البشر، فهذا وحْدَه تمويهٌ وتلبيسٌ، ومغالطةٌ أيضًا؛ لأنّ طاعة البشر بإطلاقٍ وتعميم، لا تستلزم الخُسران، فهذه المُقدّمة لا تُنتِج هذه النّتيجة؛ بل لا بدّ من تحديد نوعِ الطّاعة، فطاعةُ البشرِ في الباطل والغلط تُؤدّي للخُسران، وما عدا ذلك منَ الطّاعة ليس خُسرانًا، فمُجَرّدُ التّعميم في منطوق كلامهم تلبيسٌ وغَلَط! وبحمل التّركيب على التّقييد والتّعيين، فكذبٌ وتضليل؛ لأنّ طاعة الرّسولِ ليست في باطل؛ لأنّه لا يأمر بباطل، فثَبَت أنّ طاعتَه أبعدُ ما يكون عن ملاقاة الخُسران[1].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133.

دلالةُ التّعبيرِ باسم الفاعل ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾:

الكافر المُجادِل عن كُفْرِه، متمحّضٌ في الضّلال والإضلال

التّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿لَّخَٰسِرُونَ﴾؛ للدّلالة على تمحّضهم في الخُسران، وإحاطتِه لهم، واستغلاقِه عليهم، فوَصْفُ الخُسران ملازمٌ لهم، مستمرٌّ معهم، محيطٌ بهم، وهذا من مبالغتهم في تخويف أقوامهم مِن اتّباع الرّسول والوحي، مع ما فيه من قلقهم، وعدمِ استقرارِهم؛ حرصًا على نفوذهم الّذي سيتلاشى بانتشار دعوةِ الحَقِّ والخير، لدرجة أنّهم يُلْقون الكلامَ على عَواهِنِه بلا تماسُكٍ ولا نظر، فضلًا عنِ اشتماله على الزّيْف والمُغالطات.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخُسْرانُ والخَيْبَةُ:

الخُسْرانُ يتعلّق بالوسائل والمُقدّمات، والخَيْبة تتعلّق بالنّتائج والغايات

أصل (خسر) يدلّ على النّقص، ومنه الخُسْرُ والخُسْرانُ والخَسارة، ويُنسب إلى القيَم، كالمال وما في حُكمه، كالسِّلَع والمُقتنيات وسائرِ المُتَّجَرات، وإلى الإنسان، فيقال: خَسِر فلانٌ، وإلى الميزان، فيقال: خَسِر في الميزان، إذا أنقصَه وأخَلّ به، والخسارةُ تُقال في المادّيّات كالمال والجاه في الدّنيا ونحو ذلك، وتُقال في المعنويّات كالصّحّة والعقل والإيمان، والعافية والثّواب، وكلّ خُسران ذَكَره اللّهُ تعالى في القرآن، فهو على هذا المعنى الأخير، دونَ الخُسران المُتعلّق بالمُقتنيات الدّنيويّة، والتّجارات البشريّة[1].

وأصل (خاب، خيب) يدلّ على عدم فائدةٍ وحِرمانٍ وفَوات، ومنهُ الخَيْبةُ، وهي فوْتُ الطّلبِ وعدمُ الظّفرِ بالبُغيَة، فالخائِبُ هو المَحروم ممّا طَلَب[2].

فالخُسرانُ والخَيْبة وإن كانا يتقاطعان في غايةٍ واحدة، وهي عدمُ الظّفرِ والفَوات، فالخاسِرُ هو ناقِصُ الصّفقة، وكلّ ما نَقَصَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (خسر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، اللّسان، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (خيب).

منك، فقد فاتك، ولم تظفر به، وحُرِمتَ منه، والخائِبُ: هو المحروم الّذي فاتَه مُرادُه ولم يظفر به.

إلّا أنّ الفرق الدّقيق بينهما، يُؤخَذ من أصل دلالتِهما، فمعنى النّقص أصلٌ في الخسارة، ومعنى الفوات والحرمان أصلٌ في الخَيْبة، وهذا يجعل الخُسرانَ مُقدّمةً للخَيْبَة؛ لأنّه كلّما نقصَ منه شيء في أمر الدّين أو الدّنيا، أوْصَلَهُ ذلك إلى فوات مُراده، وامتناع مقصودِه.

﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ۝٣٥ ۞ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ۝٣٦﴾ [المؤمنون: 35 - 36]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبطُ بينَ استنكار بشريّة المُبلِّغ، وبينَ إنكار البعثِ والمَعاد، الّذي يَطال العباد

لمّا ذَكَر تعالى في الآية السّابقة تحذيرَ المَلَأ لِقومهم من طاعة الرّسول، بحُجّةٍ ساذَجة، وهو أنّه بشرٌ مثلُهم؛ أخبر هنا عنِ انتقالهم منَ القَدْح في الرّسول إلى القَدْح في مضمون رسالتِه، والطّعن في مفردات الإيمان وأركانه، وعقيدةِ البعثِ والآخِرة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَعِدُكُمْ﴾: (وعد) أَصْلٌ يدُلُّ عَلَى تَرْجِيَةٍ بِقَوْلٍ، يُقالُ: وعَدْتُه أَعِدُهُ وعْدًا، ويكونُ ذَلِكَ بِخَيْرٍ وشَرٍّ، فأمّا الوَعيدُ فلا يكونُ إلّا بِشَرٍّ، يقولونَ: أوعَدتُه بكذا[1]، والوَعْدُ والعِدَةُ يكونان مصدرًا واسمًا، فأمّا العِدَةُ فتُجْمع: عِدات، والوَعدُ لا يُجمع على الصّحيح، والموعِدُ: مَوضِعُ التَّواعُد، وهو الميعادُ، ويكون المَوعِد مصدرَ وعَدته، ويكون المَوعد وقتًا للعِدَة، والموعدة أيْضًا: اسْم للعِدَةِ، والميعاد لا يكون إلّا وقتًا أو موضعًا[2]، وخُلْف الوعدِ من أكبر المنهيّات في ديننا، والمقصودُ بالوَعْدِ في الآية: الإخبارُ بأَمْرٍ مُسْتَقْبَلٍ.

2) ﴿مُّخْرَجُونَ﴾: (خرج) أصلٌ يَدُلُّ على النَّفاذِ عنِ الشَّيْءِ، يُقالُ: خَرَجَ يَخْرُجُ خُروجًا، والخُراجُ بالجَسَدِ، والخَراجُ والخَرْجُ: الإتاوَةُ؛ لأنَّه مالٌ يُخْرِجُهُ المُعْطي[3]، والخُروجُ: اسمٌ من أسماء يوم القيامة، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ۝٤٢﴾ [ق: 42]، أي: يَوْمُ يُبْعَثون

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (وعد).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (وعد).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (خرج).

فيَخْرُجون منَ الأرْض[1]، والخُروجُ أيضًا: البُروزُ والظُّهورُ، ومنه سُمّي الخوارِج بذلك؛ لِخُروجِهم على النّاسِ[2]، والمقصود بالخروج في الآية: النُّشور مِنَ القبورِ، أيْ: مُخرَجونَ للقيامةِ بقرينةِ السّياقِ[3].

3) ﴿هَيْهَاتَ﴾: كلمةٌ تُستعَمَلُ لتبعيدِ الشّيءِ، وقدِ اخْتُلِفَ فيها أهيَ فِعْلٌ أم اسمٌ؟ فجُمهورُ النُّحاةِ ذهبوا إلى أنَّ (هَيْهاتَ) اسْمُ فِعْلٍ للماضي مِنَ البُعْدِ، فمعنى هيهاتَ كذا: بَعُدَ، فيكونُ ما يلي (هَيْهاتَ) فاعلًا، وقيل هي اسمٌ للبُعْدِ، أيْ فهي مصدرٌ جامدٌ، وقيلَ: (هَيهاتَ) ظَرفٌ غيرُ مُتصَرِّفٍ، وهو قولُ المُبَرِّدِ، وفيها لُغاتٌ كثيرةٌ؛ أفصحُها: أنَّها بِهاءَيْنِ وتاءٍ مفتوحةٍ فتحةَ بِناءٍ، وأنَّ تاءَها تَثْبُتُ في الوقْفِ، وقيلَ يوقف عليها هاء، وأنَّها لا تُنَوَّنُ تَنوينَ تَنكيرٍ[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ أنّ هؤلاءِ القومَ يستبعدون البعثَ بعدَ الموتِ بإلحاحٍ وعدمِ تَروٍّ

أيعدِكُم هذا الّذي يدّعي النُّبوّة - وهو بشَرٌ مثلُكم - أنَّكم إذا فارقتم هذه الحياةَ، وصرتُم أمواتًا، وصارت بعضُ أجزاءِ أجسامكم تُرابًا، وبعضُها عظامًا نَخِرةً، أنَّكم مُخرَجون من قبوركم إلى الحياة مرَّة أُخرى للحساب والجزاء؟ فهذا بَعيدٌ بَعيدٌ جِدًّا ما يَعِدُكم به، مِنَ البَعثِ بَعدَ المَوتِ؛ فلا يكونُ ذلك أبدًا[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾ ممّا قبلها:

إيضاحُ الجمعِ بينَ إنكارِ الدّعوَى وإنكارِ مضمونِها

جملة ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ﴾ استئنافيّةٌ مسوقةٌ لتقرير ما قبلها

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيديّ، تاج العروس: (خرج).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (خرج).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 143، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 53.
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم: (هيه)، والرّاغب، المفردات: (هيهات)، وابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 54.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 42، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 572، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 32.

من زجر المَلَأ لأقوامهم عنِ اتّباع الرّسول، في قوله: ﴿وَلَئِنۡ أَطَعۡتُم بَشَرٗا مِّثۡلَكُمۡ إِنَّكُمۡ إِذٗا لَّخَٰسِرُونَ﴾، فأنكروا بهذه الجملة مضمونَ الرّسالةِ من تقرير البعث، بعد أن أنكروا قبلَها دعوى الرّسالةِ، ويَصِحّ جعلُ الجملةِ استئنافًا بيانيًّا لكيفيّة إنكارهم؟ أو لأسلوب إنكارهم وتنظيرهم في التّشغيب على اتِّباعِ الرّسولِ، كأنّ سائلًا سأل: فكيف أنكروا وماذا قالوا في إنكارهم، فأُجيبَ: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ﴾[1].

معنى الهمزة في ﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾:

السّخريَةُ من الحقائق دأبُ المُستكبرين

الهمزة في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾ للاستفهام الإنكاريّ الاستبعاديّ، فالاستفهامُ ليس على حقيقته في طلب الفهم وإنشاء العِلم، بل هو للتّعجّب والاستهزاء والاستهجان، على طريقة المجاز المُرسل، علاقتُه الإطلاقُ والتّقييد[2].

دلالةُ استعمالِ المضارع ﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾ في السّياق:

الوعدُ حالٌ في منطوقه، مستقبَلٌ في تحقيقه

استعمال المضارع في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمۡ﴾؛ للدّلالة على الحال بمنطوق لفظ الوعد ذِهْنًا، والدّلالةِ على الاستقبال بمضمونه وُقوعًا؛ لأنّ الوعد بالشّيء يقع أوّلًا في الذّهن، بطريق الإخبار في الحال، ويقع آخِرًا في الخارج بطريق إيجاده وحصولِه في المستقبل.

نُكْتَةُ تكرارِ أداة التّوكيد:

ما أتعبَ الكافرَ في مقاومتِه لتفاصيل الحقائقِ وأنوارِها

تكرارُ أداةِ التّوكيد (أنّ) في قوله: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾، تأكيدٌ لـ ﴿أَنَّكُمۡ﴾ الأولى، في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ﴾؛ لطول الفصل بينَه وبين خبره الّذي هو قوله تعالى: ﴿مُّخۡرَجُونَ﴾، و(إذا) في قوله: ﴿إِذَا مِتُّمۡ﴾ ظرفٌ متعلّقٌ به، أي: أيَعِدُكُم أنّكم مخرجون من قبوركم أحياءً، كما كنتم أوّلًا إذا مِتّم وكنتم ترابًا[3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 139، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 133، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 53.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 53.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.

دلالةُ تقديمِ (التّراب) على (العظام):

قُدِّمَ التّرابُ على العظام في قوله: ﴿وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾؛ تقديمًا للمُتقدِّم على المُتأخِّر في الزّمن، فالتّرابُ أعتقُ وأقدمُ منَ العظام في دورة تحلّل الأجساد، وهو منتهى تحلّل العظام، وفائدةُ ذلك في السّياق: تثبيتُ حُجّتهم على أتباع الرّسول، بتقديم ما هو أبلغُ في العَجْز والإفحام، فالتّرابُ أنفى لإقامة الهيكل الإنسانيّ وإعادتِه، فاستَحَقَّ التّقديمَ؛ لعَراقته في التّعجيز[1].

يُقدَّم في المناظرات ما هو أشدّ إفحامًا وإلجامًا للخَصْم

دلالةُ استعمال ﴿إِذَا﴾:

إيثارُ التّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الشّرطيّة دون (إنْ)، في قوله: ﴿إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا﴾؛ لاختصاص ﴿إِذَا﴾ بالدّخول على مقطوعِ الحصول، فتَقْتَرِنُ بما هو مُتَحَقِّقٌ مُتَيَقَّنٌ، والموتُ وصيرورةُ الأجسادِ إلى العظام والتّراب واقعٌ حتمًا لا شَكّ فيه[2].

لا مَناصَ للأجساد مِنَ الزّوال والفناء

نُكْتَةُ إيرادِ فعلِ الكون بصيغة الماضي:

عُبِّرَ عنِ الكَون في قوله: ﴿وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا﴾ بصيغة الماضي، والمراد ما يؤول إليه في المستقبل؛ لأنّه لمّا كانت ﴿إِذَا﴾ تُفيد الجزمَ بالوقوع، غلب معها لفظُ الماضي؛ لكونه أدَلَّ على الوقوع باعتبار لفظه[3]، وهنا اقترنت بالفعل ﴿مِتُّمۡ﴾ والفعل ﴿وَكُنتُمۡ﴾، والمُراد بالأوّل الحالُ والاستقبالُ، أي: إذا متّم الآن أو بعدَ ذلك، والمُراد بالثّاني الاستقبالُ، أي: بما تَؤولُ إليه ذواتُكم منَ العظام والتّراب، وهذا جارٍ على أصل ﴿إِذَا﴾، من إفادتها الظّرفيّةَ المستقبليّةَ.

إفادةُ فعلِ الكونِ تحقيقَ النّسبةِ بينَ المبتدأ والخبر

نُكْتَةُ إيثارِ لفظ ﴿مُّخۡرَجُونَ﴾، على لفظ (مَبْعوثون):

أوثِرَ التّعبيرُ بالإخراج، على التّعبير بالبعث، في قوله: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾، ولم يقل: (مَبْعوثونَ)؛ لاستبعاد الأدنى بما يستلزمُ

استبعادُ الإخراجِ يستلزمُ استبعادَ البعثِ، وكلاهما قَدَرٌ لا مناصَ منه

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 71.
(3) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 77.

استبعادَ الأعلى؛ لأنّ البعثَ أعلى منَ الإخراج؛ لاشتماله على الإخراج وزيادة، وهو إعادةُ الأجسادِ منَ العظام والتّراب، وسَوقِها إلى وُجهتِها في أرض المَحشر، فالبعثُ إخراجٌ مع توجيهٍ وسَوْق، والإخراجُ إنفاذٌ للأجساد من حيّز القبورِ، بإحيائِها وإعادتها فقط[1].

دلالة اسم الفعل ﴿هَيۡهَاتَ﴾:

تأكيدُ الاستبعادِ باللّفظ والمعنى

﴿هَيۡهَاتَ﴾ في قوله: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ اسمُ فعلٍ، واسمُ الفعلِ: هو اسمٌ يدلّ على معنى الفعل، فـ﴿هَيۡهَاتَ﴾ يدلّ على الحَدَث والزّمن، فهي اسمُ فعلٍ ماضٍ بمعنى بَعُدَ[2]، وليس له اشتقاق؛ لأنّه بمنزلة الأصوات، وفيه زيادةُ معنًى ليس في (بَعُدَ)، وهي أن المتكلّم بلفظ ﴿هَيۡهَاتَ﴾، يُخْبِر عنِ اعتقاده استبعادَ ذلكَ الشّيءِ الّذي يُخبِر عن بُعدِه، وكأنّه بمنزلة أن تقول: بَعُدَ جدًّا، وما أبعدَه! وليس على مجرّد أن يُخبِرَ المخاطَبَ بمكان ذلك الشّيءِ في البُعْد فحسب، كما لو قال: (بَعُدَ زَيْدٌ)، الّذي يُفهَم منه حينَئذٍ أنّه يُخبر عن مكانه في البُعد[3]، وهي نَصٌّ على الاستبعاد باللّفظ، بعدَ النّصّ عليه بالمعنى والمضمون في الاستفهام الاستبعاديّ، في: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ﴾، فحصل: أنّ التّأكيد بالتّكرار اللّفظيّ في استبعادهم وتلبيسِهم، حاصلٌ في لفظين؛ لفظِ ﴿أَنَّكُمۡ﴾، وكرّرها في قوله: ﴿أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ﴾ و﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾، ولفظِ ﴿هَيۡهَاتَ﴾، في قوله: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ﴾[4].

دلالةُ تكرار لفظ ﴿هَيۡهَاتَ﴾:

التّكرارُ اللّفظيّ بليغٌ في السّريع الخفيف منَ الألفاظ

مجيءُ قولِه تعالى: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، بتكرار لفظ ﴿هَيۡهَاتَ﴾؛ لتأكيد الاستبعاد والإغراق فيه، كأنّه قيل: بعُدَ بعُدَ جدًّا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بعث، خرج).

(2) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 41.

(3) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 572.

(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 143.

بحيثُ صارَ ممتنعًا[1]، و﴿هَيۡهَاتَ﴾ كلمةٌ استعملتها العربُ للتّعبير عنِ البُعْد، وهي من جميل ما استعمله القرآنُ الكريم، فكان مناسبًا للسّياق المُستخدَم فيه، ولفظُ ﴿هَيۡهَاتَ﴾ يعني: بعيدًا بعيدًا، ومعناه أنّهم قالوا: إنّ هذا البعثَ المَذكورَ في السّياق لا يكون أبدًا؛ ولذلك عبّروا باستبعاد ما يوعَد به العبادُ[2].

معنى حرف اللّام في ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾:

مجيءُ اللّام لغرض التّبيين، ممّا يُفيد في البيان المُبين

اللّام في قوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ للتّبيين، والمراد: بيانُ الشّيءِ المُستبْعَد، المدلولِ عليه بلفظ: ﴿هَيۡهَاتَ﴾، كأنّه لمّا قال: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ﴾، قيل: لأيّ شيء؟ فقيل: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أي: البيانُ للمُستبعَد بكلمة الاستبعاد[3]؛ لأنّ كلمة ﴿هَيۡهَاتَ﴾، قد يظهر معها الفاعل، كما تقول: بَعُدَ كذا، وهَيْهاتَ مجيءُ زيد، وتارة يُحذف معها الفاعلُ، ويُؤتى بلام البيان؛ للدّلالة على الفاعل المحذوف، كما هو هنا في الآية، والتّقدير: (هيهاتَ الوجودُ لما توعَدون)[4].

دلالةُ (ما) في السّياق المُحْكم:

مُرادُ المُتكلّم مِن مُحدِّدات التّعيين والتّخصيص

(ما) في قوله: ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾ موصولةٌ، وعائدُها محذوفٌ، أي: ما توعدونه، وهي إمّا أنّها تُفيد العمومَ والإبهامَ، فيتناولُ استبعادَ جميعِ مقالاتِ الرّسولِ لهم منَ الأخبار، وإمّا أنّها تُفيد العهدَ، فيرادُ به أمرُ البعثِ المَذكور في: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ وَكُنتُمۡ تُرَابٗا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾.

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

الإخراجُ والبَعثُ:

الإخراج إنفاذ الشّيء، والبَعْثُ فيه استفزازٌ واستثارة، مع دفْعٍ مُتوالٍ بقوّة

الإخراج: هو إنفاذ الشّيء مِنْ داخلٍ كان فيه، أو بعدَ إيجاده

(1) الواحديّ، البسيط: 15/ 572، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 139.
(2) الواحديّ، البسيط: 15/ 572، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 143، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 139.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 187.
(4) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 143.

فيه؛ فالأوّلُ: كإخراج الشّيءِ من صندوقٍ كان فيه، والثّاني: كإخراج النَّبْتِ منَ التُّربةِ بعد إيجاد بذرتِه في داخلها.

وأمّا البَعْثُ: فهو إثارةُ الشّيءِ وتحريكُه إلى وِجْهَتِه.

والفرق بينهما: أنّ البعث فيه استفزازٌ واستثارة، وهو يشتمل على دفْعٍ مُتوالٍ بقوّةٍ، فليس فيه تُؤَدَةٌ أو تباطؤٌ، والإخراج هو إنفاذُ الشّيء، ففيه نوعُ إثارةٍ وتحريك، لكنّه اعتياديٌّ مُطلق، فليس فيه التّحفيزُ الّذي يكون في البعث إلّا بالتّقييد، فيقال: أخرجتُه بقوّة أو باستثارةٍ واستفزاز، كقوله: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، فلمّا عبّر عنِ البعث بالخروج؛ قيّده بلفظ ﴿سِرَاعٗا﴾ [المعارج: 43]، ولذا قال: ﴿أَنَّكُم مُّخۡرَجُونَ﴾؛ لأنّه خروجٌ هادئٌ بطيء؛ قبلَ التّدافُع للمَحشَر[1].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (بعث، خرج).

﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ٣٧
إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ ٣٨﴾

[المؤمنون: 37 - 38]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبط بينَ إنكار البعث واستبعاده، وبين أقوال الغطرسة والعُدوان المُجانفة للعقل والبرهان

لمّا ذَكَر تعالى في الآية السّابقة سخريةَ المَلَأ وتَنَدُّرَهم على عقيدة البعث والإعادة بعدَ الموت، محاولةً منهم لهدم هذا الأصل بالاستخفاف والاستعجاب، وهي حيلةُ كلّ متجهّمٍ تقودُه الغَطرسةُ والعدوان، ولا يقودُه العقلُ والبرهان؛ أخبر - هنا - عن تقريرهم لعقيدتهم في الوجود والحياة، وأنّه لا بعثَ ولا إعادةَ، وأنّ الحياة هي المعاشُ الدُّنيويّ - فقط - في هذه الدّار، وهي المُنتهى والقرار، ولا حسابَ بعدَها ولا جزاءَ، وكلُّ الخلائق في مصيرهم إلى الفناء سواء.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾: (حيّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على خِلافِ المَوتِ[1]، والحَيُّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ: نَقيضُ المَيِّتِ، وحَيِيَ، يَحْيا، فهو حَيٌّ، ومِنه الحَيَوانُ، وهو كُلُّ ذي روحٍ، ناطِقًا كان أو غيرَ ناطِقٍ، والحيُّ مِنَ النَّباتِ: ما كانَ طَرِيًّا يَهتَزُّ، وأرضٌ حَيَّةٌ، أَيْ: مُخصِبَةٌ، وطَريقٌ حَيٌّ، أَيْ: بَيِّنٌ[2]، والحياةُ الدُّنيا مُرادٌ بها ما تشتملُ عليهِ مِنَ اللَّذّاتِ والمُلائماتِ والذَّواتِ الحَسَنَةِ، وهذا إطلاقٌ مشهورٌ لها، والدُّنيا: مُؤَنَّثُ الأدْنَى، أي: القريبةُ، بمعنى الحاضِرةِ[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيي).
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (حيي).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/ 294، 18/ 56.

2) ﴿ٱفۡتَرَىٰ﴾: أَصْلُ الكلمةِ مِنَ الفَرْيِ، وهوَ: القَطْعُ والشَّقُّ، يُقالُ: أَفْرَى الذِّئْبُ بَطْنَ الشّاةِ يُفْري فرْيًا، أي: شَقَّهُ، ومِنْهُ الفراءُ، وهوَ الجِلْدُ؛ لِأَنَّهُ يُقْطَعُ، ويَأْتي الفَرْيُ بِمَعْنَى الصُّنْعِ والاِخْتِلاقِ، وسُمّيَ الكَذِبُ فِرْيَةً وافْتِراءً؛ لِأَنَّ المُفتَري يَقْتَطِعُ الكَلامَ اِقْتِطاعًا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ[1]، والافتراء: الكَذِبُ، والجَمْعُ: فِرًى، يُقالُ: افْتَرَى يَفْتَري افْتِراءً، أَيْ: كَذَبَ، وقيلَ الاِفْتِراءُ: الكَذِبُ العَظيمُ، وقيلَ: الكَذِبُ المتَعَلِّقُ بِالأَعْراضِ، ويَأْتي الاِفْتِراءُ بِمَعْنَى البُهْتانِ والظُّلْمِ[2]، والمراد بالافتراء في الآية: الاختلاق، وهو الكذبُ الَّذي لا شُبهةَ فيهِ للمُخْبِرِ، أي: اختلَقَ على الله الكذبَ فيما يقولُه ويدعو إليه[3].

3) ﴿بِمُؤۡمِنِينَ﴾: (أمن) أصلانِ مُتقاربانِ، أحدهما: الأمانةُ الَّتي هي ضِدُّ الخيانَةِ، ومعناها سُكونُ القَلْبِ، والآخَرُ: التَّصْديقُ[4]، والإيمانُ: إقرارٌ بالشَّيء عن تصديقٍ به، وضِدُّه: الكُفر، يُقال: آمن به إيمانًا: صدَّقه، ويُستَعمل تارةً اسمًا للشَّريعة الَّتي جاء بها محمَّد ﷺ، وعلى ذلك: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ﴾ [المائدة: 69]، ويوصَف به كلُّ مَن دخل في شريعته مُقِرًّا باللّه وبنُبوَّته، وتارةً يُستَعمل على سبيل المَدْح، ويُرادُ به إذعانُ النَّفسِ للحَقِّ على سبيل التَّصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: تحقيقٌ بالقَلْب، وإقرارٌ باللِّسان، وعملٌ بحسب ذلك بالجوارح، وعلى هذا قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ﴾ [الحديد: 19][5]، والمُرادُ بالإيمان في الآية: الإذعانُ والتَّصديق، أي: ما نحن بمُذْعنين لقوله ولا مُصَدّقين به، ولتَضمُّن الإيمانِ معنى الإذعانِ والتّسليم عُدّيَ باللّام، أي: ما نحن بمُصَدّقين، ولا مُذْعنين له[6].

❁ المَعْنى الإجماليُّ:

قال الملأ من قوم هود لقومهم: ما هذا الَّذي يَزعُمُ أنَّه رَسولٌ، سِوى رَجُلٍ يَختَلِقُ على

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 449، وابن منظور، لسان العرب: (فري).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 57، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 33.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أمن).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (أمن).
(6) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.

اللّهِ كَذِبًا، بأنَّه أرسَلَه بالتَّوحيدِ، وأنَّه يَبعَثُ عِبادَه أحياءً بَعْدَ المَوتِ، وما نحنُ له بمُصَدِّقينَ فيما يقولُه مِن تَوحيدِ اللّهِ والبَعثِ بَعدَ المَوتِ[1].

من عـادات أهل الـضَّـلال، رمـيُ الرُّسلِ بالكذب والانتحال

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة جملة ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾:

جملة ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ بيانٌ وتفسيرٌ لجملة الاستبعاد، في قولهم: ﴿هَيۡهَاتَ هَيۡهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾، فهي في معنى التّوكيد الشّارح لها[2]، "وتحقيق المعنى: أنّهم قالوا: نموت نحن ويحيا أولادنا، ولا بعثَ بعدَ الموت، وقيل: في الكلام تقديمٌ وتأخير، والمعنى: نحيا ونموت فلا نحيا، وقيل المعنى: نكون أمواتًا نُطفًا، ثمّ نحيا في الدّنيا"[3]، وفي جميع الأحوال، فإنّ هذه العبارة تُلْمِح إلى تكذيبهم السّافر بالبعث، وتأكيدِهم أنّ الحياة إنّما تنحصر في الدّنيا، ولا حياةَ بعدَها في زعمهم.

كـلُّ يستـزيد مِـن جـنـس ما هو مُشَبَّعٌ به، ومألوفٌ لديه

دلالة ﴿إِنۡ﴾ النّافية، الموازنةِ لـ (لا) الجنسيّة:

﴿إِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ هي النّافيةُ الموازِنةُ لـ (لا) النّافية للجنس، كأنّهم قالوا: لا وجود إلّا هذا الوجود الّذي نحن فيه، أو لا حياةَ كائنة إلّا حياتنا الدّنيا، و﴿إِنۡ﴾ النّافية هنا وارِدةٌ في نفي الحقيقة، مع إفادتها للاستمرار، فالمراد بالتّركيب نفيُ حقيقةِ الحياة الآخِرة، معَ استمرار حصول الحياة والموت في الدّنيا، كأنّهم قالوا: لا آخِرةَ ولا إعادةَ، بل الحياة الدّنيا هي دَيْدَنُنا المستمرّ، في حصول الميلاد والوفاة فقط، فالخلْق مُستمرّون في هذين، ولا وراء لهما[4].

قيمة الحقائق بـوجـودهـا في الـواقـع، لا بما تتوهّمُه الأذهان

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 45، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 124، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 474.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 276.

(3) مكّيّ، الهداية إلى بلوغ النّهاية: 7/ 4965.

(4) السّامرائيّ، معاني النّحو: 4/ 199.

أهميّة قصر المبالغة والتزيّد، في الإبانة عن المراد

بلاغةُ القَصْر في السّياق المُحْكم:

في اجتماع النّفي والاستثناء في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ إفادةٌ لقصر الموصوف على الصّفة، أي: قصرُ جنسِ الحياة على حياتهم الدّنيا، وهو قصرٌ ادّعائيّ كاذبٌ غيرُ تحقيقيّ، وهو رديف القَصْر الإضافيّ[1].

الكافر مآربُهُ مُكَرّسة لإمتاع نفسه، لا لإرضاء ربّه

دلالةُ إضافةِ الحياة إلى ضميرهم:

في قولهم: ﴿حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾، أضافوا الحياة إلى ضمير أنفسِهم، وهو يشمل ذواتَ المتكلّمين، وذواتَ المُخاطَبين، والإضافةُ بمعنى الاختصاص، أي: حياةٌ لنا في الدّنيا، وفي ذلك إشارةٌ إلى عدم اعتقاد الكافر أنّ حياتَه ومماته للّه، بل لنفسه وذاتِه، قال الزّمخشريُّ: "هذا ضمير لا يعلم ما يُعْنَى به إلّا بما يتلوه من بيانه، وأصله: إنِ الحياةُ إلّا حَياتُنا الدُّنْيا، ثمّ وضع ﴿هِيَ﴾ موضعَ الحياة؛ لأنّ الخبر يدلّ عليها ويبينها"[2].

سِرّ وصفِ الحياة بلفظ ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

وَصْفُ الحياةِ بالدّنيا، في قولهم: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾؛ إشارةٌ إلى مبلغ علمهم المُتضائلِ، وقِصَرِ نظَرِهم المحدود، حيث حصروا حياتَهم في الدّار الأدنى، والمقام الدَّنيّ.

(إن) النّافية تدخل على ما يُفيد الحقيقة والماهيّة

مرجع ضمير التّأنيث المنفصل ﴿هِيَ﴾:

الضّمير في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ﴾، يعود على ما بعدَه لفظًا ورُتبة، وهو لفظ (الحياة) الواقع خبرًا، في قوله: ﴿حَيَاتُنَا﴾، على تقدير: (إنِ الحياةُ إلّا حياتُنا)، وفائدةُ التّعبيرِ بالضّمير دونَ الظّاهر: تلافي التّكرارِ، لاسيّما وأنّ تَعَيُّنَ المرادِ منَ الضّمير يُغْني عنِ التّصريح

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 173.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/ 468.

به[1]، ويَصِحّ أنْ يكون مفسِّرُ الضّميرِ هو الحقيقة الذّهنيّة الوجوديّة المفهومة من سياق الكلام، على تقدير: (ما الوجود إلّا حياتنا)، أو (ما الأحوال إلّا حياتنا)[2].

نُكْتَةُ عَودِ الضّمير على مذكورٍ بعدَه:

يتأخّرُ مرجعُ الضّمير، إذا كان ما بعد الضّمير بيانًا له

﴿إِنۡ﴾ النّافية - هنا - بمنزلةِ (لا) النّافيةِ للجنسِ؛ لكون الضَّمير بمعنى الحياةِ الدّالة على الجنسِ في قوله: ﴿إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾[3]، والنُّكْتَة من عَوْد الضّمير ﴿هِيَ﴾ على مذكور بعدَه: قَصْدُ الإبهام ثمّ التّفصيل؛ ليتمكَّنَ المعنى في ذِهن السّامع، وهذا من مواضع عودِ الضّمير على ما بعده - إذا كان ما بعدَه بيانًا له[4].

دلالة موقع جملة ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

الحياةُ والموتُ المَذكوران، هما الميلادُ والوفاة في الدّنيا

جملة ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ مفسِّرةٌ لِدعواهم واعتقادِهم من أنّ حياتهم لا تكون إلّا كذا[5]، ولذا فالجملةُ مفسِّرة لاعتقادهم الباطل، وليست مقرِّرةً للاعتقاد الصّحيح بالحياة بعد الموت، إذ لو كان ذلك كذلك؛ لكان قولُهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾ موجبًا لمدحهم لا ذمِّهم، ولكان متناقضًا مع سياق الإنكار السّابق عليه، واللّاحق بعده في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾[6].

سِرّ تقديمِ (الموت) على (الحياة):

المشكلةُ عندَ المادّيين دائمًا تتعلّقُ بالغيب

تقديمُ الموتِ على الحياة في قوله تعالى: ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾، ليس على إرادة التّرتيب؛ لأنّ الواو لا تُفيد ترتيبًا[7]، بل تُفيد مُطلَق الجمعِ والتّشريك في الحُكم، والجمعُ هنا على جهة التّوزيعِ لا الاقترانِ، أي:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(2) الخطيب، التّفصيل في الإعراب: 9/ 56.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 55.
(5) السّمين، الدّرّ المصون: 8/ 342.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 5/ 120.
(7) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 234، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 56.

يموت مَن يموت بالوفاة، ويحيا من يحيا بالميلاد، وليس المراد: أنّهم يموتون جميعًا، ويَحْيَون جميعًا مقترنين، ولم يقل: (نَحْيا ونَموتُ)؛ لتقديم الغايةِ والمُنتهى، على المَبْدَأ والمنشأ؛ لأنّه أمْكَنُ في النّظم؛ فالسّياقُ من حيثُ المعنى، واردٌ في استبعاد الإعادة بعدَ الموت، بترويج أنّ الموت هو غايةٌ لا بَعْدَ لها، فلمّا دار النّظمُ حولَ الموتِ في السّياق السّابق، في قوله: ﴿أَيَعِدُكُمۡ أَنَّكُمۡ إِذَا مِتُّمۡ﴾؛ ناسبَ أن يُجاوِرَ الموتَ في قوله: ﴿نَمُوتُ﴾؛ ولمّا ذكر في السّياق اللّاحق البعثَ في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾؛ ناسبَ أن يُجاوِرَ الحياة في قوله: ﴿وَنَحۡيَا﴾، فلمّا كانت القضيّةُ بينهم وبينَ الرّسل متعلّقةً بما بعد الوفاة منَ البعث، ولم يكن الخِلافُ مُتعلّقًا بما بعد الميلاد - قدّم الموتَ.

أسلوبُ الطّباق بين ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾:

بيان أنّ الكافر قصيرُ البصر، ضعيفُ النّظَر

بين قوله: ﴿نَمُوتُ﴾، ﴿وَنَحۡيَا﴾ طباقٌ بالإيجاب، جرى بين ضدّين، وقيمة الطّباق تظهر في الجمع بينَ المبدأ والمنتهى المحدودَيْن - بحسب اعتقادهم -؛ لإظهار قِصَر عقولهم في اختزالهم الوجودَ الإنسانيّ في عالم الشّهادة المحسوس المحدود، بالزّمنيّة والمكانيّة الدّنيويّة.

دلالةُ جملة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾:

إنكارُ البعث دليلٌ على أنّ الكافر يجمع بين خطإ التّقدير، وضحالةِ التّفكير

جملة ﴿وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ﴾ معطوفة على جملة ﴿نَمُوتُ وَنَحۡيَا﴾[1]، وداخلة في حيّز تأكيد استبعادهم، وهو منَ الإطناب والإطالة في التّنظير؛ لتقرير الأباطيل بأبلغ مجهود، ومفاد هذه العبارة: "ما نَحْنُ بِمَبْعوثِينَ مُنَشّرين من قبورنا أحياء، بعد ما متنا فيها، كما نشاهد من سائر الأشياء، يعني: لا منزلَ لنا سوى الدّنيا، حياتُنا فيها ومماتُنا فيها، لا دارَ لنا غيرُها"[2]، والجملةُ المعطوف عليها

(1) صافي، الجدول: 18/ 178.

(2) نعمة الله علوان، الفواتح الإلهيّة والمفاتح الغيبيّة: 1/ 569.

إقرارٌ بالحياة والموت؛ باعتبارهما واقعًا ما له من دافع، والجملة المعطوفة إنكارٌ لوجود الآخرة بعد الدّنيا، وذلك بنفي البعث مطلقًا.

دلالة الباء في قوله: ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾:

مبالغتُهم في الإنكار، لا تغيّر مسار الأقدار، كما أرادها العزيزُ الجبّار

الباء في قوله: ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ صِلة؛ زيدت للتّأكيد مبالغةً منهم في إنكار البعث ونفيه[1]، قال في روح البيان: " انظر كيف عميت قلوبُهم، حتّى لم يَرَوا أنّ الاعادة أهونُ من الابتداء، وأنّ الّذي هو قادرٌ على إيجاد شيء منَ العدم، وإعدامِه منَ الوجود، يكون قادرًا على إعادته ثانيًا"[2].

دلالة ورود قوله: ﴿بِمَبْعُوثِينَ﴾ على صيغة المفعول:

نفيُ الوصفِ أبلغُ من نفي الفعل

التّعبير بصيغة اسم المفعول في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ لتأكيد إنكارهم، بنفي الوصف الدّالّ على الذّات والحَدَث والحُدوث، وهو أبلغُ وأوكدُ من نفي الفعل[3]، وفي هذه العبارة ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أكّدوا المعنى بنفي الوصف، كأنّهم قالوا: "ليس من شأننا أن نُبْعَث؛ لأنّ من مات لا يعود؛ ولأنّه لا تحيا العظامُ بعد أن صارت رميمًا"[4].

دلالةُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

نفيُ البعثِ موحٍ بثبات هذا العِناد، ورسوخِه في الأذهان

إيقاعُ النّفي على الجملة الاسميّة دونَ الفعليّة في قوله: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾؛ أفاد تقويّةَ مدلولِه وتحقيقه[5]، وذلك بتأكيد أنّه ليس هناك إلّا الحياةُ الدّنيا، بما فيها منَ الموت والحياة اللَّذَيْنِ يتواردان علينا بالعشيّ والإبكار، فمولودٌ يولَد، وحيٌّ يُفقَد، مع الإصرار على أن لا بعثَ بعدَ الموت أبدًا[6]، وجَعْلُ الدّلالةِ منطويّةً في الجملة الاسميّة المنفيّة إبانةٌ بمُرادهم منَ السّياق.

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.
(2) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 82.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 56.
(6) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 506.

موقع جملة ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ ممّا قبلها:

الكافر يتردّى بإصراره على الكفر، فيزدادُ به تأصّلًا في الإثم والشّرّ

جملة ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾ استئنافيّةٌ؛ للانتقال من مَرتبةِ الإنكار المُجرّد، إلى مرتبةِ التّهجُّم على مقام الرّسالة بالطّعن في الرّسول نفسِه[1]، وهذا الأمرُ مألوف في كلّ رسول يربو بينَ القوم، ثمّ يفاجئُهم بأنّه مرسلٌ منَ الله، فيستصغرون حالَه، على قاعدة: أنّ المعاصرة حجابٌ، وأنّ طائر الحيّ لا يُطرب.

بلاغة القصر في قوله: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾:

رَمْيُهُمُ الرّسولَ بهذا الأسلوب، دليلٌ على افترائهم ومحضِ كَذِبِهِم

جملة: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾، جرت على طريقة النّفي والاستثناء، فأفاد التّركيبُ قَصْرَ الموصوفِ على الصِّفة قَصْرَ قلبٍ إضافيًّا[2]، أي: لا كما يَزعم أنّه مرسَلٌ من اللّه[3]، ومعنى ذلك: أنّهم قصروا حالَ الرّسول على افتراء الكذب على اللّه تعالى[4].

سِرّ وصفهم الرّسول بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾:

في كلّ زمان نجد الأفاضلَ النّبلاء، أغراضًا للحُثالةِ والوُضَعاء

التّعبيرُ عنِ الرّسول بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾، في قولهم: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ﴾، من غير أن يذكروا اسمَه، أو رسالتَه، فيخبرون عنه بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾، المُتوغّلِ في التّنكير والإبهام؛ فيه نوعُ ازدراء وعدم اكتراث، وخفْضٍ من مقام الرّسول، كأنّهم بالتّعبير بلفظ ﴿رَجُلٌ﴾ يُمَهِّدون به للازدراء الكاملِ بحَصْر الرّسول في الافتراء عليه سبحانه، وأيضًا: في إجراء أنّه ﴿رَجُلٌ﴾ متابعة لوصفه بالبشريّة، في قولهم: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ﴾؛ تقريرًا لدليل المماثلة المُنافية للرّسالة في زعمهم، أي: زيادةً على كونه رجلًا مثلَهم، فهو رجل كاذب[5].

نُكْتَةُ تنكيرِ ﴿كَذِبًا﴾:

الكذبُ أسوأُ الأخلاق، ووَصْفُ الرّسولِ به محضُ سَفَهٍ واختلاق

تنكير ﴿كَذِبًا﴾ للتّعظيم والتّكثير، أي: كذبًا عظيمًا في نفسِه، أو

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 174.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 57.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 57، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.

عظيمًا في عدده وكثرته، ولا شكّ أنّ الكذبَ مُستقبَحٌ منَ النّاس جميعًا، والقولُ بحرمته أمرٌ متّفق عليه في كلّ الشّرائع والقوانين، وفي كلّ المِلَل والنِّحَلِ بلا استثناء، لكنّه سوف يكون أقبح وأبشع، إذا وُصِفَ به رسولٌ، أو لُمِزَ به نبيٌّ منَ المُكَلّفين بالبلاغ، فهو طعنٌ في مصداقيّته، واتّهامٌ له في صدق بلاغه، فالكاذبُ لا يُؤتَمَن، ولا تُقْبَل عدالتُه ولا شهادته.

دلالةُ تقييد الافتراء بكونه كذبًا:

التّنفيرُ يقتضي حَشْدَ المَذامّ واستفراغَ الوُسْعِ في نشرها بينَ الأنام

لفظ ﴿كَذِبًا﴾ في قوله: ﴿ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ مفعولٌ مطلقٌ؛ لتأكيد الفعل بالحَدَث، أي: يفتري افتراءً، ويكذب كَذِبًا، أو مفعولٌ لأجله؛ لتبيين عِلّة الافتراء، أي: يفتري لأجل الكذب[1]، ولم يقل: (افترى على الله) بدون إقران الكذب؛ لكونهم أرادوا تنفيرَ النّاسِ عنه، والتّنفيرُ يقتضي إقرانَ المَذامّ، واستفراغَ الوسع في حشْدها ونشرها، والتّشهير بها.

بلاغةُ التّذييل بجملة ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾:

البراءةُ منَ الجناية، يستتبع البراءةَ من فاعلها

التّذييل بقولهم: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾، بعد قولهم: ﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾؛ في حكم التّعليل له، ومن باب عطف اللّازم على ملزومه، كأنّهم قالوا: إن هو إلّا رجلٌ افترى على الله كذبًا ولذلك لا نُؤمن، فعَدمُ إيمانِهم لازمٌ عنِ افترائه الكذبَ؛ فالأوّل: رميٌ بالجناية، والثّاني: تبرّؤُهم من صاحبها[2].

معنى اللّام في شبه الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

التّسليمُ والخُضوع يتعدّى باللّام، ويدلّ على المرام

اللّام في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ للاختصاص والعِلّة، أي: وما نحن لأجله بمصدّقين ومُذعنين، أو ما نحن بمختصّيه بالإيمان، ولم يقل: (وما نَحْنُ بِهِ بِمُؤْمِنين)؛ لتضمين الإيمان معنى الخضوعِ والاستسلام[3].

---

(1) الخطيب، التّفصيل في إعراب القرآن: 9/ 57.

(2) صافي، الجدول: 18/ 179، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 57.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.

سِرّ تقديمِ الجارّ والمجرور على متعلّقه:

تقديمُ الجارّ والمجرور على الخبر في قوله: ﴿وَمَا نَحۡنُ لَهُۥ بِمُؤۡمِنِينَ﴾؛ للاعتناء والاختصاص، وتقديمه يدلّ على عنادهم ومنتهى تجهّمهم.

۞ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحياةُ والعَيشُ:

العـيـشُ هـو نتيجة الحياة، وأثـرٌ من آثارها المُـتـوخّـاة في الواقع

الحياة: خلافُ الموت، وهي القوّة النّامية الكامنة المودَعة في الإنسان والحيوان والنّبات، وهي آلة العيْش والكسب، والسّعي في الأرض، فهي منَ الصّفات الّتي تُعرَف بآثارها، كالتّفاعل والنّموّ والإدراك، والحياةُ صفةُ كمالٍ للّه سبحانه، وكلٌّ حيّ في الموجودات، فحياتُه أثرٌ من آثار صفة الحياة الكاملة للإله العظيم سبحانه.

وأمّا العيش: فهو ما تعلّق بالحياة من أسباب الحاجة التّي تستبقي هذه الحياة، فالتّغذية والسّكن واللّباس والدّواء وغيرها، هي الحاجاتُ التّي تستبقي قوّةَ الحياةِ في الإنسان، والعيشُ هو تفاعلُ قوّةِ الحياة في الإنسان مع هذه الأسباب، ولذلك قالوا: العيشُ هو الحياة المختصّة بالحيوان؛ لأنّها حياةٌ مرتبطة بأسبابِ استمرارِه في الوجود، وهي أسبابُ حاجتِه الّتي تدلّ على نقصه، ولذا كان العيشُ أخصّ منَ الحياة؛ لأنّ الحياة يوّصَف بها الحيوانُ، ويوّصَف بها وصف كمال الباري الجليلُ سبحانه[1].

وعليه: فالعيش أخصّ من الحياة، وهو حياة الحيوانُ فقط، وهو لا يكون إلّا بالحياة، فالحياةُ مادّة العيش وآلتُه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حي)، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حيي).

﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ ۝٣٩ قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ۝٤٠﴾ [المؤمنون: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

الرّبط بين تكذيب الرّسولِ ودعائه مولاه الّذي وعده بالفَرَج بعد اليأس

لمّا استوفى في الآيات السّابقة تحريضَ المَلَأ على رسولهم، وصَدَّهُمُ القومَ عنه؛ أخبر - هنا - عمّا يُنبِئُ عن يأس الرّسول من هدايتهم، وقلَّةِ حيلتِه معهم، وهو اللّجوء والاضطرار إلى طلب نَصرِ اللّه عليهم، وانتقامِه منهم، فدعا عليهم، واستغاثَ باللّه العظيمِ منهم.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنصُرۡنِي﴾: (نصر) أَصْلٌ يَدُلُّ على إتْيانِ خَيْرٍ وإيتائِه، فالنَّصرُ: عَوْنُ المظلوم، والنُّصْرة: حُسْنُ المَعونة[1]، والنَّصير فعيلٌ بِمَعْنَى فاعِل أو مَفْعولٍ؛ لأَنَّ كُلَّ واحِدٍ مِنَ المُتَناصِرَيْن ناصِرٌ ومَنْصورٌ، والاسْتِنْصار: اسْتِمْداد النَّصر، والتَّناصُر: التَّعاون عَلَى النَّصر[2]، والنَّصْرُ: العَطاءُ[3]، والنّصير: النّاصر، والجمع الأنصار، مثل: شريف وأشراف، واستنصره على عَدوِّه، أي: سأله أن ينصره عليه، وتناصروا: نصرَ بعضُهم بعضًا[4]، والمرادُ بالنَّصرِ في الآية: تَغليبُ المُعتَدى عليهِ على المُعتَدي[5].

2) ﴿قَلِيلٖ﴾: (قلّ) أَصْلٌ يَدُلُّ على نَزارَةِ الشَّيءِ، وقَلَّ الشَّيْءُ يَقِلُّ قِلَّةً وقُلًّا، فهوَ قَليلٌ، والقُلُّ: القِلَّة، وذلك كالذُّلِّ والذِّلَّةِ[6]، والقِلَّة:

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (نصر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نصر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نصر).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 45.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (قلل، قلّ).

خِلاف الكَثْرَةِ، والقُلُّ: خِلافُ الكُثْرِ[1]، والقِلَّةُ والكثرة يُستعملان في الأعداد، كما أنَّ العِظَم والصِّغَر يُستعملان في الأجسام، ثمَّ يُستعار كلُّ واحدٍ منَ الكثرة والعِظم[2]، والمرادُ بالقِلَّة في الآيةِ: خِلافُ الكَثرةِ، أي: بعد زمن قليل.

3) ﴿لَّيُصْبِحُنَّ﴾: (صبح) أَصْلٌ واحِدٌ مُطَّرِدٌ، وهو لَوْنٌ منَ الألوانِ، قالوا: أصلُهُ الحُمْرَةُ، وقالوا: وسُمّيَ الصُّبْحُ صُبْحًا لِحُمْرَتِهِ، كما سُمّيَ المِصباحُ مِصْباحًا لِحُمْرَتِهِ[3]، والصُّبْحُ: أوَّلُ النَّهارِ، يُقال: صَبَّحْتُ الرَّجُلَ: إذا أتَيْتَهُ أوَّلَ النَّهارِ، وأصبَحَ القَوْمُ: إذا دخلوا في الصَّباحِ[4]، والصَّباحُ: نورُ النَّهارِ[5]، ويُطْلَق عليه: الفَجْرُ، والغَداةُ، وضِدُّه: المَساءِ، وجَمعُه: أَصْباحٌ[6]، وفِعل الإصباح في الآية هو مِنْ أفعالِ الزَّمنِ، فوعَدَ اللّهُ تعالى الرَّسولَ نَصْرًا عاجِلًا، فهو تعبير لبيان أنَّ الوعيد آتٍ لا ريبَ فيه، وفي وقتٍ قريبٍ[7].

4) ﴿نَٰدِمِينَ﴾: (ندم) أَصْلٌ يَدُلُّ على تأسُّف على الشيءِ وتَلَهُّفٍ على فَوْتِه، يُقالُ: نَدِمَ عليه نَدَمًا ونَدامَةً[8]، والنَّدَمُ والنَّدامَةُ: التَّحَسُّر من تَغيُّر رأي في أمر فائِتٍ[9]، ونَدِمَ على الشَّيءِ، ونَدِمَ على ما فعَلَ نَدَمًا ونَدامةً، وتَنَدَّمَ: أَسِفَ[10]، وأصله من مُنادَمَةِ الحُزن له[11]، وحقيقةُ النَّدمِ: أن يلوم نفسَه على تفريطٍ وقع منه، وقيل: النّدم غمٌّ يصحب الإنسانَ، يتمنّى أنّ ما وقع منه لم يقع[12]، وعلى ما سبق: فالنَّدَمُ في الآية مُرادٌ به الأَسَفُ على فِعْلٍ صَدَرَ[13].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يخبرُ اللّهُ تعالى: أنَّ رَسولَهم دعا رَبَّه قائِلًا: (ربِّ انصُرْني على قَومي، فأهلِكْهم

(1) ابن منظور، لسان العرب: (قلل).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صبح).
(4) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صبح).
(6) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (صبح).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 58، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 34.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ندم).
(9) الرّاغب، المفردات: (ندم).
(10) ابن منظور، لسان العرب: (ندم).
(11) الرّاغب، المفردات: (ندم).
(12) الزَّبيديّ، تاج العروس: (ندم).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 26/ 232.

دعاءُ الرُّسلِ على أقوامهم بالعذاب ما كان إلّا نتيجةَ طُغيانهم وصَدّهم عن دين الله

بسَبَبِ تَكذيبِهم برسالتي)، فقال اللّهُ مُجيبًا لِدَعوةِ ذلك الرَّسولِ: (سنُعَذِّبُهم قَريبًا، فيُصبِحونَ نادِمينَ على كُفرِهم وتَكذيبِهم)[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾:

جملة ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾ استئنافٌ بيانيّ، فبينَها وبينَ الجملة قبلَها شِبهُ كمالِ اتّصال، ولذلك فُصِلَت، والجملةُ على تقدير كونها جوابًا لسؤال مُقَدّر عن نتيجة عنادهم، وما آلَ إليه أمرُ الرّسول معهم؟ فأجيبَ بالإخبار عن موقف الرّسول بالاستنصار عليهم منَ اللّه، والاستعانة به، والاستفتاح بفتْحِه[2].

إذا انقطعتِ الحيَلُ فبابُ اللهِ هو الأمَل

نُكْتَةُ الاستنصار باسم الرُّبوبيّة:

الدّعاء باسم الرّبوبيّة في قوله: ﴿قَالَ رَبِّ ٱنصُرۡنِي﴾؛ لأنّ النّجدةَ من أفعال الرّبوبيّة، وكلّ واصلٍ منَ اللّه إلى النّاسِ مِنْ عطاءٍ أو إغاثةٍ، فبمقتضى ربوبيّة اللّه وصَلَ إليهم[3].

نُكْتَةُ طلبِ (النّصر) دون (النّجاة):

النّصرُ مشتَمِلٌ على عقاب الخصمِ والانتصافِ منه

لم يقل في السّياق الكريم: (رَبِّ نَجِّني بِما كَذَّبونِ)، بل قال: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، فسأل النّصرَ دون النّجاة؛ لأنّ النّجاة قد لا يصحبُها نَصرٌ، فهي مجرّدُ تخليص شيءٍ من شيء، وأمّا سؤالُ النّصر، فيشتمل على النّجاة وزيادة؛ لأنّ في النّصر علوٌّ على الخصم وانتقامٌ منه، وعِزّةٌ للمُنتصِر وشفاءٌ لما في الصّدور، ولذا كان طَلَبُ النّصرِ في الآية مقرونًا بسببه منَ الأذى والظّلم، وهو قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 45، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 124، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 474.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 57.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 140.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5073.

معنى الباء في ﴿بِمَا﴾:

استيفاءُ المَحظور مؤذِنٌ بإنجاز المعونةِ على إزالته

باء الجَرّ الدّاخِلَةُ على (ما) في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ هي السّببيّة، أي: بسبب تكذيبهم[1]، وفي اقتران الدّعاء بالسّبب إشارةٌ إلى إظهاره لاضطراره بين يديَ اللّه؛ ودعاءُ المُضطرّ مستجابٌ، وفيه إشارةٌ إلى استيفاء الحاجة بين يدي اللّه عند استغاثته، ويَصِحّ أن تكون الباءُ للبَدَليّة[2]، أي: اجعل نصركَ بديلًا وعِوَضًا لي عن تكذيبهم، ويصحّ أن تكون الباءُ للآلة[3]، وهي الاستعانة، أي: انصرني بالّذي كذّبوني به، وهو الوعد بالعذاب على التّكذيب، كأنّه قيل: انصرني بإنجاز ذلك الوعد.

بلاغةُ الكناية في اقتران الدّعاء بسببه:

اليأس والاضطرار بابا العطاءِ والعون

في الدّعاء المقرونِ بسببه في قوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾، كنايةٌ عن يأس الرّسول، فإنّ النّبيّ لا يَستفتِح على قومه بالفصل والقضاء بينَهم وبينه، إلّا بعد أن ييأسَ منهم، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسۡتَيۡـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُمۡ قَدۡ كُذِبُواْ جَآءَهُمۡ نَصۡرُنَا﴾ [يوسف: 110]، وفي الدّعاء عليهم كنايةٌ عن عذاب الاستئصال؛ لأنّ النّصر عليهم بسبب تكذيبهم لا يكون إلّا باستئصالهم.

معنى (ما) في سياق الآية الكريمة:

تكذيبُ الرّسولِ في شيءٍ، كتكذيبه في كلّ شيء

(ما) في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾ هي الموصولة، والعائدُ محذوفٌ، وتفيد العمومَ في جميع ما كذّبوا فيه الرّسولَ، أو هي المَصدريّة، أي: بتكذيبهم، والموصولةُ اسمٌ، والمصدريّة حرف[4].

نُكْتَةُ حذفِ ضمير المفعول:

حُذِفَ ضميرُ المفعول في قوله: ﴿بِمَا كَذَّبُونِ﴾؛ لظهوره ووضوحه،

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 174.
(2) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 174.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 234.
(4) الخطيب، التّفصيل في إعراب القرآن: 9/ 58.

ودلالةِ ما قبلَه عليه، ودلالةِ كسرةِ النّون على الضّمير المحذوف، أي: بما كذّبوني، أو بتكذيبهم إيّاي[1]؛ فُحِذَف إيجازًا، وصيانةً للفاصلة ألّا تنخرمَ.

موقع جملة ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ﴾:

الـلـهُ مُـنْـجِـزٌ وعْـدَهُ رُسُـلَـهُ، ولن يخلفَ اللهُ الميعاد

جملة ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ﴾ استئنافٌ بيانيّ[2]، كأنّه قيل: فبماذا أجابه اللهُ حينَ دعا بقوله: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾؟ وقد ألمح الشّعراويّ إلى أنّ "تاريخ الرّسالات يعيد نفسه مع المُكذِّبين، وكأنّه [نموذج] ثابتٌ على ألسنة الرّسل: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾، فيتّهمونه ويُكذِّبونه، ويقولون: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ [الشعراء: 154]، فتأتي النّهاية واحدة: ﴿رَبِّ ٱنصُرۡنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾[3]".

دلالةُ الفَصْلِ بـ(ما) ومعناها:

بيانُ أنّ (ما) تأتي مؤكّدةً لمعمولات الحروف

لم يقل في السّياق الكريم: (عن قليلٍ)، وإنّما فصَل بينَ الجارّ والمجرور بـ(ما) في قوله: ﴿عَمَّا﴾، وهي صِلةٌ زيدَت لتأكيدِ معنى القِلَّةِ الزّمنيّ، في قوله: ﴿قَلِيلٖ﴾، أي: عن زمانٍ قليل، فـ﴿قَلِيلٖ﴾ صفةٌ للزّمان المحذوف، على غرار قوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ﴾ [آل عمران: 159][4]، ويَصِحّ أن تكون (ما) نكرة موصوفة بالقِلّة، أي: عن شيءٍ قليل[5].

بلاغةُ الاستعارةِ التَّبَعيَّة، بتضمين (عن) معنى (بعد):

زمـنُ الـبَـعـديّة أوسـعُ، وزمـنُ المجاوَزة أسرع

(عن) في قوله: ﴿عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ للمجاوزة الزّمانيّة، فهي مجاوزة مجازيّة، أي: إنَّ إصباحهم نادمين يتجاوز الزّمنَ القليل، والمُراد به زمنُ التّكلّم بالوعيد، والمعنى على ذلك: بعد

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 140.
(3) الشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10034.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 134.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 234.

قليلٍ ليُصبحُنّ نادمين، بتضمين (عن) معنى (بعد)، على طريقة الاستعارة التّبعيّة[1]، ولم يقل: (بعد قليلٍ ليصبحنّ)؛ للدّلالة على المسارعة وعدم الإمهال، فإنّ المجاوزة أقصر زمنًا.

لكلّ مُضَيِّعٍ قبلَ موته حظُّه منَ الحسرة والنّدم

دلالة الفعل النّاقص ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾:

التّعبيرُ بفِعْل الإصباح في قوله: ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾؛ للنّصّ على وقت العذاب، وهو وقت الصّباح، ومعنى (يصبح): يدخل في وقت الصّبح، ويُؤيّده قولُه: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83][2]، وتحديدُ الوقتِ فيه إشارةٌ إلى عدم إمكان التّدارك أو التّوبة؛ لفوات وقتِهما بتعيين وقتِ الإهلاك؛ لأنّ القول حَقَّ عليهم، والحُكم نافذٌ واقعٌ لا ريبَ فيه، ولذلك لم يقل: (لَيَندَمون)، ويَصِحّ أن يكون ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾ بمعنى الصّيرورة، أي: ليَصيرُنّ؛ ليتحوّلوا مِنَ التّمكّن إلى العجز، ومنَ الغَطرسة إلى النّدم، وهذا النّدمُ واقعٌ في الزّمن بين معاينة علاماتِ الإهلاك، والفناءِ بالإهلاك[3].

المـؤكّـدات تزيدُ الكـافرَ رِجْسًا، والمؤمنَ أُنْسًا

بلاغةُ توالي المُؤكّدات في جملة الفاصلة:

في قوله تعالى: ﴿عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾ تأكُّدُ نزولِ العذابَ بهم بمُؤكّدات؛ فأُكّدَ أوّلًا: بـ(ما) المُؤكّدة في ﴿عَمَّا﴾، وثانيًا: بالقَسَم المُقدّر المَدلولِ عليه باللّام الموطّئة في ﴿لَّيُصۡبِحُنَّ﴾، أي: واللّهِ لَيُصبِحُنّ، وثالثًا: لام القَسَم، وهي الموطّئة، أو هي لامُ الابتداء المُؤكّدة، ولا قسَم، ورابعًا: نونُ التّوكيد الثّقيلة، وأيضًا التّعبيرُ بصيغة اسم الفاعل في: ﴿نَٰدِمِينَ﴾؛ للدّلالة على ملازمتهمُ النّدمَ، إذا عاينوا العذابَ قبلَ هلاكِهم، وفي هذه المُؤكّدات إشارةٌ إلى تحقيق الوعيد، ودفعِ توهُّمِ تأخُّرِه أو تَخَلُّفه[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 58.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 235.
(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5074.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

النّصرُ والتّأييد:

التّأييد مشتملٌ على معنى الحِفظ والقوّة؛ ومنه اليَد؛ لأنّها آلةُ الحِفظ والتّناولِ بالقوّة، وأمّا النّصرُ: فهو العَوْنُ والمَنَعَةُ، يقال: نَصَرْتُه، أي: أعنْتُه على عَدوّه ومَنَعْتُه منه[1].

النّصرُ آلةُ التّأييد، وكلاهما مفردةٌ قرآنيّة صميمة

والفرق بينَ النّصر والتّأييد: أنّ النّصر هو أثرُ التّأييد، فهو مِن أمارات حصولِ التّأييد، فالتّأييدُ آلتُه النّصرُ، بدليل قولِه تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٦٢﴾ [الأنفال: 62]، وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ﴾ [الأنفال: 26]، فالنّصرُ وسيلةٌ للتّأييد.

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (أيّد، نصر).

﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١ ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون: 41 - 42]

ربط وعيد الله لقوم نوحٍ المُعاندين، بكون الانتقام منهم شفاءً لصدور المؤمنين

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لمّا ذكر تعالى في الآية السّابقةِ استغاثةَ الرّسول واستفتاحَه باللّه على الظّالمين من قومه، ووَعْدَ اللّهِ له بإنجاز دعائِه وإغاثتِه؛ أخبر هنا في هذه الآية عن تحقيقه الوعدَ بالفعل، وإنجازِه بنزول العذاب، وكيفيّةِ عقابِه للظّالمين.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ﴾: (أخذ) أصلُ الأخذ: حَوْزُ الشَّيءِ وجَبْيُه وجَمْعُه، قالَ الخليلُ: هوَ خِلافُ العَطاءِ، وهو التّناوُلُ[1]، فالأَخْذُ: تناوُلُ الشَّيءِ باليَد، واستُعمِلَ مجازًا مَشهورًا في الاستيلاء، قال تعالى: ﴿وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ﴾ [التّوبَة: 5]، وفي القَهْر نحو: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُم بِٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ [الأنعام: 42]، وفي التَّلقّي مثلُ: ﴿أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [آل عمران: 81]، وفي الاحتِواءِ والإحاطَةِ، يُقالُ: أخَذَتْه الحُمَّى، وأخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ، وفي الإهلاكِ نحو: ﴿فَأَخَذَهُمۡ أَخۡذَةٗ رَّابِيَةً ١٠﴾ [الحاقة: 10][2]، والمُرادُ بالأخذِ في الآية: الإهلاكُ والقَهرُ والتَّدميرُ السَّريع.

2) ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾: (صيح) أصلٌ يَدُلُّ على تَشقيقِ الصَّوتِ، مِنْ قَولِهِمْ: انْصاحَ الخشبُ، أوِ الثَّوب، إذا انشقَّ، فسُمِعَ منه صَوتٌ، وصيحَ الثَّوبُ إذا انشقَّ كذلك[3]، والصّياحُ: صوتُ كُلِّ شَيْءٍ إذا اشْتَدَّ[4]، والصَّيْحَةُ: العذابُ، يُقالُ: صيحَ في آلِ فُلانٍ، إذا هَلَكوا،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخذ).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 2/ 271.
(3) الرّاغب، المفردات: (صيح).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).

والصَّيحةُ: الغارةُ إذا فوجِئَ الحيُّ بها[1]، ولمّا كانت الصَّيْحَةُ قد تُفْزِع، عبَّر بها عَنِ الفَزَعِ في قوله: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [الحجر: 73]، والصّائِحَةُ: صَيْحَةُ المناحة[2]، والمراد بالصَّيْحَةِ في الآية: صَوْتُ الصّاعقة[3].

3) ﴿غُثَآءً﴾: (غثي): أَصْلٌ تَدُلُّ على ارتفاعِ شَيءٍ دَنيٍّ فوقَ شيءٍ، من ذلكَ: غُثاءُ السَّيلِ، يُقالُ: غَثا الوادي يَغْثو، وأَغْثَى يُغْثي أيْضًا[4]، ويُضرَب به المَثَل فيما يَضيع ويذهبُ غيرَ مُعتدٍّ به، ويُقالُ: غَثَتْ نفسُه تَغْثي غَثَيانًا: خَبُثَت[5]، والغثاء عند العرب: ما يعلو الماءَ مِنَ القماش والزَّبد، ممّا لا يُنْتَفَعُ به، فيُشَبَّهُ كلُّ مَنْ لا خير فيه، ولا منفعةَ عندَه، بالغُثاء، والغُثاءُ هو الجُفاء، قد غَثَى الوادي يَغْثي، وقدِ انجفَأَ ينجفىءُ: إذا علاه ذلك[6]، والمُرادُ بالغُثاءِ هنا: الرَّميم الهامد الَّذي يحملُه السَّيلُ من ورَق الشَّجر وغيره، أي: فصيَّرناهم هَلْكَى هامدين، كغُثاء السَّيل البالي[7].

4) ﴿فَبُعْدًا﴾: (بعد) أصلُ البُعْدِ: خِلافُ القُرْبِ، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضِدّ قَرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حَدٌّ محدود[8]، والَّذي عَبَّرَ بِهِ الأقدمون، أنَّ البُعْد بمعنَى الهلاك، كما في (الصّحاح) وغيره، ويُقال: إنَّ الَّذي بمعنَى الهلاكِ، إنَّما هو البَعَد، ومَنْ جَوَّزَ الاشتراكَ فيهما أشارَ إلى أفصحيَّة الضَّمِّ في خِلافِ القُرْب، وأفصحيَّة الكسرِ في معنَى الهلاكِ[9]، وأمّا المقصود بالبُعْد في الآية: فكِنايةٌ عنِ التَّحقيرِ، بلازِم كراهيّةِ الشَّيءِ[10]، أي: هلاكًا لهم.

5) ﴿قُرُونًا﴾: (قرن) أَصلٌ يدلُّ على جَمْعِ شَيءٍ إلى شَيءٍ[11]، وهو مأخوذٌ مِنَ الاقترانِ،

(1) ابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(2) الرّاغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (صيح).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 59.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غثى).
(5) الرّاغب، المفردات: (غثى).
(6) الأنباريّ، الزّاهر في معاني كلمات النّاس: (غثاء).
(7) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 10/ 34.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، والزَّبيديّ، تاج العروس: (بعد).
(9) الجوهريّ، الصّحاح، والزّبيديّ، تاج العروس: (بعد).
(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 12/ 79.
(11) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قرن).

وهو اجتماعُ شيئَينِ أو أشياءَ في معنًى مِنَ المعاني[1]، والقَرْنُ: القومُ أو الأُمَّةُ مِنَ النّاسِ المُقترِنونَ في زمنٍ واحدٍ، غَيْرِ مُقَدَّرٍ بمُدَّةٍ مُعَيَّنةٍ[2]، والجَمْعُ: قُرونٌ، قال الجوهريّ: "والقَرْنُ: ثمانون سنةً، ويقال: ثلاثون سَنةً، والقرن: مثلُك في السِّنّ، تقول: هو على قَرْني، أي: على سِنّي، والقَرْنُ منَ النّاس: أهلُ زمان واحد، قال:

إذا ذَهَبَ القَرْنُ الّذي أنْتَ فيهِمُ***وَخُلِّفْتَ في قَرْنٍ فأنْتَ غَريبُ"[3]

والمُراد بها في الآية: الأُمَم، وهُمُ الَّذينَ لم تُرسَلْ إليهم رُسلٌ، وبقَوا على اتِّباعِ شريعةِ نوحٍ، أو شريعةِ هودٍ، أو شريعةِ صالحٍ، أو لم يُؤمروا بشرعٍ[4].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

هلاكُ الكَفَرة المُعاندين، هو النَّتيجة الحتميَّةُ المُطابِقةُ لعَدْلِ اللهِ وميزانه في كونه

فانتقَمْنا منهم بصَيحةٍ أخذَتْهم، وهم يَستَحِقّونَ هذا العِقابَ؛ لِكُفرِهم باللّهِ وتَكذيبِهم رَسولَه، فلم يَظلِمْهمُ اللّهُ، ولكِنْ ظَلَموا أنفُسَهم، فجعَلْناهم هَلْكى هامِدينَ، حتَّى صاروا كغُثاءِ السَّيلِ الَّذي لا مَنْفعةَ فيه، فبُعدًا مِن رَحمةِ اللّهِ لِلقَومِ الكافرينَ الَّذين ظَلَموا أنفُسَهم بالكُفرِ برَبِّهم، ومَعصيةِ رَسولِه، ثمَّ أوجدنا بعد هلاك أُمَّة القَرْنِ السّابق أُمَمًا وخلائقَ أُخرى، ويُراد بها عند أكثر المفسّرين: أقوامُ صالحٍ ولوطٍ وشُعيبٍ، وغيرُهم[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ موقعِ جملة ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾:

عقوبةُ اللهِ سريعةٌ مُباغِتَةٌ، وفجأةُ العقابِ مِن أشدّ العقاب

جملة: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾ معطوفة على مقالة الوعيد، في

---

(1) الرّاغب، المفردات: (قرن).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (قرن).
(3) الجوهريّ، الصّحاح: (قرن).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتنوير: 18/ 60.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 47، والواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 586، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 475، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1293.

جملة: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٖ لَّيُصۡبِحُنَّ نَٰدِمِينَ﴾؛ لتعقيب القول بالفعل، والوعيدِ بالإنجاز، ومعنى الفاء: السّببيّة، فأَخْذُهُم بالصّيحة مُسَبَّبٌ عنِ الوعيد المقول، ولا يخفى ما في الفاء من دلالةٍ على التّوالي السّريع في وقوع ذلك[1].

بلاغةُ المجازِ العقليّ في التّركيب:

يُسنَد الفعل إلى سبَبِه المشهود، توسّلًا إلى شهود الفاعل الأعظم له

في إسناد الأخذ إلى الصّيحة في قوله: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ﴾، مجازٌ عقليّ، بإسناد الفعل إلى غير فاعله الحقيقيّ؛ لتصويرهم وهم مُتلبِّسون بالعذاب؛ لأنّ الصّيحة هي سببُ الأخذ، وهي مَرئيّةٌ مشهودةٌ بدمارها وآثارها[2].

لفظ ﴿ٱلصَّيۡحَةُ﴾ بينَ الحقيقة والمجاز:

الدّلالة المجازيّة قد تكون أوسعَ في معناها منَ الدّلالة الحقيقيّة

إذا أُريدَ بالقوم المُهلَكين قومُ صالح، فلفظُ الصّيحةِ على حقيقته، وهي صيحةُ جبريلَ عليهم، فصُعقوا من صوته، أو هي صوتُ الصّاعقة الّذي صدّعَهم وأهلَكهم، ويُؤيّده قولُه تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهۡلِكُواْ بِٱلطَّاغِيَةِ ٥﴾ [الحاقّة: 5]، وقولُه في شأنهم: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ ٨٣﴾ [الحجر: 83]، وإن أُريدَ بهم عادٌ قومُ هودٍ، فالتّعبيرُ بالصّيحة مجازٌ مرسلٌ، والمُراد بهِ العقوبةُ الهائلةُ والعذابُ المُستأصِل بالرّيح؛ لأنّ قوم هودٍ أُهلِكوا به، كما في قوله: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا﴾ [فصلت: 16]، فأطلَقَ الخاصّ وهو الصّيحةُ، وأراد العامَّ وهو العذاب، ويدلّ على كونهم قومَ هودٍ أنّ القصّة هذه عَقِبَ قصّةِ نوحٍ، واللّهُ يقول في عاد: ﴿وَٱذۡكُرُوٓاْ إِذۡ جَعَلَكُمۡ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعۡدِ قَوۡمِ نُوحٖ﴾ [الأعراف: 69][3].

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 140، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 59، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5074.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 59، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5074.

(3) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 175.

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للمُلابسة[1]، أي: مُلتبسًا بحُكم الحَقّ والعدل، ويَصِحّ أن تكون الباءُ للسّببيّة، أي: فأخذناهم بسبب الحَقّ، أي: بسبب استحقاقهم ذلك[2].

توجيهُ الكنايةِ في كون ﴿ٱلصَّيۡحَةُ بِٱلۡحَقِّ﴾:

لا دافعَ ولا رافعَ لِما قضاهُ اللهُ وحَكَم به

باعتبار الباء للسّببيّة الدّالّة على ثُبوت الاستحقاق وإيجاب الوقوع، فيكون تعليقُ إيقاعِ الصّيحة بلفظ (الحقّ) كنايةً عن إرادة اللّه في الوعيد المذكور، فلا يتخلّف، ولا دافعَ له ولا رافعَ - على أنّ (الحقّ) بمعنى الثّابت، مِن (حقّ) إذا (ثَبَت)[3].

دلالةُ تقييد الوعيد بـ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

تقييد العقوباتِ بحيثيّاتها، مِنَ التّعليلات الجميلة، والمقاصد الأصيلة

تقييدُ الأخذ بالصّيحة بكونه ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، مع أنّ كلّ وعيدٍ لا يقع إلّا بحَقّ؛ لدفعِ الإشفاقِ عليهم، أو طلبِ المعذرةِ لهم، ليستقرّ في ذِهنِ كلِّ مُستعظِمٍ لهذا الوعيد، أنّه وعيدٌ استحقّوه ولم يُظلموا فيه مثقال ذرّة، وفائدة التّقييد أيضًا: التّنبيهُ على أنّ نزولَ الصّيحةِ كان عن عقوبةٍ وحُكمٍ جزائيّ؛ لئَلّا يَدّعي مُدّعٍ أنّ نزولَ الصّيحة كان مُجَرّد ظاهرةٍ كونيّة، أو حُكمٍ قَدَريّ.

نُكْتَةُ إضمارِ الفاعل في جملة ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ﴾:

عقابُ اللهِ للظّالمين؛ تحوّلُ العافيةِ وتبدّلُ الحال

إيثارُ الإضمار في قوله: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾، ولم يقل: (فَجَعَلَهُمُ اللّهُ غُثاءً) - بإظهار الفاعل؛ لقصد الإسناد إلى نون العَظَمة؛ لتعظيم الجليل في أفعاله، بما يستلزم تعظيمَ العقوبةِ، وهي الأخذ بالصّيحة ترهيبًا مِنَ الوعيد.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 59.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 15/ 584.
(3) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 175.

بلاغةُ التّشبيه البليغ في ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾:

بيان أنّ السّياق الحكيم يُبرِز مِقدارَ ذَمِّهم، والمبالغةَ في تحقيرهم

في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ تشبيهٌ بليغ[1]، حُذِفَ منه أداةُ التّشبيه ووجهُ الشَّبَه، حيثُ شبّههم بعد إهلاكهم - وهم صَرْعى - بالغُثاء فوقَ السّيل، وهو غثاءٌ لا يلبث أن يذهبَ جُفاءً، وتقديرُ التّشبيه البليغ في السّياق: (هم غثاء)، وقيمة التّشبيه البليغ في جَعْل المُشَبَّه متّحِدًا في المُشبّه به، كأنّه حالٌّ فيه، ممتزجٌ به، فيصيرُ كأنّه هو.

بلاغةُ الكنايةِ في التّركيب المُحكم:

الكُفْرُ يُجرّد الإنسانَ من قيمته، ويطرحُه هباءً غُثاءً

في تركيب ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ غُثَآءٗۚ﴾ كنايةٌ بديعة، في التّنبيه على لازم ذلك، وهو أنّهم صاروا بلا قوّةٍ، ولا قيمةٍ، ولا نفعٍ، ولا نصير.

معنى الفاء في لفظ ﴿فَبُعۡدٗا﴾:

مُزامنةُ الصّيحةِ والهلاكِ، للدّعاء على الظّلمة الهُلّاك

الفاء في قوله: ﴿فَبُعۡدٗا﴾ فصيحةٌ، عاطِفةٌ مدخولَها على محذوفٍ مُقدّر، أي: إذا كانوا قد صاروا غثاءً، فقد بَعُدوا وهَلَكوا - فبُعْدًا وهلاكًا لهم، وهي في معنى السّببيّة والتّفريع كذلك، أي: ترتّبَ عن جَعْلِهم غثاءً إبعادُهم وإفناؤُهم، وإراحةُ الخَليقةِ منهم[2].

دلالةُ لفظِ (بُعْدًا):

الدّعاء متعلّقٌ بما سيَحْصُل استقبالًا واستمرارًا

كلمة (بُعدًا) في جملة: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، جاريةٌ على سبيل الدّعاء عليهم بالهلاك الماحِق، دعاءَ شتْم وتحقيرٍ ذمًّا لهم، وليس مستعملًا في حقيقة الدّعاء؛ لأنّ هؤلاء قد بَعُدوا - بالفعل - بالهلاك، وحقيقةُ الدّعاء جاريةٌ فيما سيَحْصُل، لا فيما حصل، فالجملةُ إخبارٌ لا إنشاء، ويصحّ أن يكون إنشاءً بالدّعاء عليهم حقيقةً، على معنى استمرارِ الدّعاء عليهم بالطّرد والإبعاد إلى يوم يبعثون، فهم ملعونون في كلّ كتابٍ، وعلى كلّ لسان، حتّى يَلْقَوا جزاءَهم يومَ الدّين[3].

(1) القُونويّ، حاشيته على تفسير البيضاويّ: 13/ 175.
(2) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5075.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 135، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 59، والخطيب، التّفصيل في إعراب القرآن: 9/ 61.

نُكْتَةُ الإظهارِ في موضع الإضمار:

أظهَرَ في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ولم يقل: (فَبُعْدًا لَهُمْ)؛ صيانةً للفاصلة ألّا تنخرِمَ، وتعميمًا لِمَنْ يستحقّون حُكْمَ الإبعاد، والمأخوذون بالصّيحة مندرجون تحتهم، وتعليقًا للحُكم بالوصف، تحذيرًا لكلّ من تلبّس به، وإشعارًا بعِلّة الإبعاد، وهو الاتّصاف بالظّلم[1].

سُنَنُ اللهِ جاريةٌ في الخُصوص والعُموم

دلالةُ اللّام في شبه الجملة ﴿لِّلۡقَوۡمِ﴾:

اللّام في قوله: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ للبيان والتّعيين[2]، أي: تعيينِ وصْفِ الفئةِ الّتي دُعيَ عليها بالإبعاد، فأُتْبِعوا مع عذابِهم البُعْدَ واللّعنةَ والذّمَّ منَ العالَمين[3].

معنى الحرف ﴿ثُمَّ﴾ في سياق الآية:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ للتّرتيب والتّراخي الزّمني، بمعنى التّعاقب؛ وذلك للدّلالة على أنّ الأزمنة لا تخلو منَ الرّسل[4]، "قيل: هم قومُ صالحٍ، ولوطٍ، وشُعيبٍ، ويونسَ، وأيّوبَ، وغيرُهم، كما وردت قِصّتهم على هذا التّرتيب في الأعراف وهود، وقيل: هم بنو إسرائيلَ، وكان فيهم الرّسلُ قبلَ موسى، والقرونُ الأُمَمُ"[5].

لا يخلو زمانٌ مِن حُجّة الرّسالات، الّتي بلّغها الرّسلُ للخلائق

سِرُّ إسنادِ الفعل إلى ضمير العَظَمة:

إسنادُ فعلِ الإنشاء إلى ضمير العَظَمة، في قوله: ﴿أَنشَأۡنَا﴾؛ لتعظيم الفاعلِ الجليل ﷻ، وفائدةُ التّعظيم: التّنبيهُ على أنّ هذا الإنشاءَ حاصلٌ على جهة العَظَمةِ والإتقان، في التّدبير والتّقدير، فلا يتأثّر بكونه حاصلًا في المُتقدِّمين أو المُتأخِّرين[6].

أفعالُ اللهِ نافذةٌ لا تَحْجُبها الموانعُ، ولا تُؤثِّر فيها العَوارضُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 141، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 135، وأبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5075.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 135.

(3) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 551.

(4) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 10/ 5076.

(5) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 9/ 120.

(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 13/ 142.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظ ﴿قُرُونًا﴾ دونَ غيرِه:

لفظُ القرونِ يدلّ على المُشتركاتِ بينَ النّاس

كلمة ﴿قُرُونًا﴾ دون (أجْيالٍ) ونحوِه، مُعبِّرةٌ عنِ الأقوام والأُمم[1]؛ استطرادًا مع النّظم في سياقه القريب المُجاوِر، في قوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾، ولأنّ القرون يُراد بها أهلُ الزّمنِ الواحد، سُمّوا بذلك لمقارنة بعضِهم ببعض[2]، فهذه القرونُ تُقارَنُ فيما بينَها في التّاريخ والمذهب، وسائرِ الفُروقِ البينيّة الحاصلةِ بين جيلٍ وآخر، وأهلُ القرنِ الواحدِ يقترن بعضُهم ببعضٍ في الأعراف والتقاليد، والأديان ومنازِع الاعتقاد والشّرع، ويُقارَنُ بينَهم في الإيمان والكُفر، وسائرِ الفُروق التّي تنبني بها المُقارَنات.

دلالة لفظ ﴿ءَاخَرِينَ﴾ في السّياق:

لـكـلّ جـيـلٍ طبائِعُهُ، ولكلِّ عصرٍ مميّزاتُه

دلّ وصفُ القرونِ بكلمة ﴿ءَاخَرِينَ﴾ على التّغاير والخصوصيّة، والفروقِ بينَ المواصفات والظّروف، وطبائعِ كلّ مرحلةٍ وتمايزِها عمّا كان قبلها.

التّشابه اللّفظيّ بين آيتَي سورة المؤمنون (42)، و(31):

الإجـمـالُ بـعـدَ التّفصيل، جارٍ مجرى القانون العامّ، والتّقعيد الكليّ

بين قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾، وقولِه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قَرۡنًا ءَاخَرِينَ﴾، تشابُهٌ لفظيّ، فجاءت ﴿قَرۡنًا﴾ بصيغة المُفردِ أوّلًا؛ لأنّ الحديثَ مقصورٌ على عادٍ قوم هود، أمّا هنا فقال: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا﴾؛ لأنّ الكلام سيأتي عن أُمم ورسالات مختلفةٍ ومتعدّدة، فجاءت ﴿قُرُونًا﴾ بصيغة الجمع؛ ليدلّ على قرونٍ متتابعة أو متعاصرة، كما تعاصر إبراهيمُ ولوطٌ عليهما السلام، وكما تعاصر موسى وشعيبٌ عليهما السلام، فوُرودُ الآيتين بصيغة الجمع بعد الإفراد، فيه إجمالٌ بعد تفصيل، أو تعميمٌ بعد تعيين؛ لأنّ الآية الأولى حكَتْ عن قومٍ ورسولٍ بأعيانهم، والآيةُ الثّانية: أخبرت عنِ

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 135.

(2) الثّعلبيّ، الكشف والبيان: 7/ 47.

القرون والأقوام دونَ إتباع ذلك بقِصّة الرّسل معهم، فإمّا أن تكون هذه الأُمم على شريعة مَن قبلَهم، أو كان لهم شريعةٌ ورسولٌ، واكتفى بالإشارة إليهم - تنبيهًا على أنّه جرت عليهم سُنّة اللّهِ في النّذارة والبِشارة، وتحقّق الوعدُ أو الوعيد كمَن سبقهم[1].

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 573، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 60، والشّعراويّ، تفسير الشّعراويّ: 16/ 10041.

﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ ٤٣﴾ [المؤمنون: 43]

۞ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبلَها:

لم يعجّل على أحد منهم قبل الأجل الذي حدّه له ولم يؤخّره

وبّخهم اللّه بإنشائه من بعدهم قرونًا آخرين، مخبرًا بعده بأنّه لم يعجّل على أمّة من الأمم أن تسبق الأجل المحدّد لهلاكها، ولا تستأخره؛ فكان في ذلك ظهور خيبة المكذّبين، وفلاح المصدّقين[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَسۡبِقُ﴾: (سبق) أَصْلٌ يَدُلُّ على التّقدّم أو القدمة، وقيل هو التّقدّم في الجري وفي كلّ أمر، ويستعار السّبق لغيره من المعاني، فقد يكون لإحراز الفضل والبروز، ووَصَف الحقّ سبحانه الملائكة بالسّابقات، لأنّها تسبق الشّياطين بالوحي إلى الأنبياء، ويرد أيضًا بمعنى المجاوزة والزّيادة عليه[2]، ومعنى قوله تعالى: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾، أي: أنّ العذاب الذي ضربه الحقّ سبحانه على أمّة من الأمم لا يتقدّم على وقته[3] ولو ساعةً من نهار.

2) ﴿أُمَّةٍ﴾: (أمم) أَصْلٌ يدُلّ على تضامٍّ شيءٍ أو أشياء متجانسة، أي لحاق بعضها ببعض في حيّز يحيط بظاهرها بلطف[4]، فالأُمّة: كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دينٌ واحدٌ، أو زمانٌ واحدٌ، أو مكانٌ واحدٌ، سواءً كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا[5]، والأمّة: القرنُ والجيل من النّاس، جماعةٌ كبيرةٌ متّحدو الجنس أو زمن الوجود معًا[6]، وتأتي الأمّة أيضًا بمعنى الطّريقة والدّين، ومعنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 141 - 142.
(2) الفراهيدي، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (سبق).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 130.
(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، و الراغب، المفردات: (امّ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(6) الجوهري، الصحاح، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).

الأمّة في الآية: الطّائفة التي تجتمع في قرنٍ ما، فهذه لها آجال مكتوبة موتًا وهلاكًا من غير تقدُّمٍ ولا تأخُّرٍ[1].

3) ﴿أَجَلَهَا﴾: (أجل) أصلٌ يدلّ على المدّة المضروبة للشّيء، كحياة الإنسان، أو وقت حلول الدَّين، والاسم منه الآجِل نقيض العاجِل؛ فمعنى دنا أجل الإنسان: اقترب موته، وحقيقته استيفاء مدّة حياته[2]، ومعنى ﴿أَجَلَهَا﴾ في الآية: وقت عذابها[3] الذي يهلكها ويستأصلها.

4) ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾: (أخر) أصلٌ يدلّ على خلاف التّقدّم، أي: تخلّفُ الشيء (في المكان أو الزمان) عن مقارنه؛ فالآخِر نقيض المتقدّم، والأُخُر نقيض القُدم؛ ومن معاني الآخِر بكسر الخاء ممّا يكون مقابِلًا للأوّل كما التّأخير مقابلٌ للتّقديم[4]، ومعنى ﴿يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ في الآية، أي: لا يتجاوزون الوقت الذي حدّد لهم فيزيدون عليه[5].

المَعنى الإجْماليُّ:

لا تستقدم أمّة أجلها ساعة ولا تستأخر

يبيّن الحقّ ﷻ - بعد أن ذكر خلْقَه لأقوام وأمم آخرين - أنه ما تسبق أمّة من هؤلاء الأمم ساعةً عن أجلها الذي جعله اللّهُ لها بالإهلاك والفناء، وما تستأخر عنه[6].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فصل الجملة في صدر الآية:

استئناف بيانيّ عن سؤال سائل عن مدّة تعميرهم ووقت انقراضهم

جملة ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ مفصولة عمّا سبقها؛ لأنّها استئنافٌ بيانيٌّ فيه إجابةٌ مُجمَلَةٌ عن سؤالِ سائلٍ

(1) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 121.
(2) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أجل).
(3) ابن زمنين، تفسير القرآن العزيز: 2/ 380.
(4) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أخر).
(5) مكي القيسي، الهداية: 6/ 3863.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 6/ 421.

أثارته الجملة التي قبلها، والجملة التي بعدها، عن مدّة تعمير هذه القرون، ووقت انقراضهم؛ فإنّ لكلّ قرن أجلًا عيّنه الحقّ سبحانه، ثمّ ينقرض ويخلُفُه قرنٌ آخر يأتي يُعَمَّر بعده قرن كان معاصرًا له، وهذا التّعيين لازمٌ بأمر الله، من غير تقديم ولا تأخير[1].

المجاز بالحذف في الآية:

أنشأنا قرونًا آخرين فأهلكناهم بالعذاب في الدّنيا من غير سبق ولا تأخير

قوله تعالى: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ فيه مجاز بالحذف، فإنّه لّما أنشأ من بعدهم قرونًا آخرين أضمر قوله (فأهلكناهم بالعذاب في الدّنيا) فإنّه ما تتقدّم أمّة أجلها طرفة عين، وما يستأخرون أجلهم طرفة عين[2].

إيثار استخدام ﴿مَا﴾ النافية:

ما تسبق وما تستأخر نفيٌ مشاهَدٌ محسوس

وآثر التّعبير بـ﴿مَا﴾ مع فعل السّبق والتّأخير بقوله: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾، ولم يستعمل (لا) لدلالة ﴿مَا﴾ على نفي الحال[3]، فيما تدلّ (لا) على الاستقبال في أصلها، ولّما أراد الحقّ ﷻ أن ينفي السّبق والتّأخير نفيًا واقعًا مشاهدًا جاء بـ﴿مَا﴾، فههنا نفي مشاهد، خلاف التّعبير بـ(لا) الدّالّ على النّفي غير المشاهد.

دلالة التعبير بالمضارع في قوله ﴿مَا تَسۡبِقُ﴾:

نفيُ سبق الأجل في الأزمان كلّها

عندما أراد نَفْيَ سبقِ أجَلِ الأمم أورده بصيغة المضارع بقوله: ﴿مَا تَسۡبِقُ﴾؛ للإشارة إلى نفي الأزمان كلّها؛ فمعناه أنّه ما كان شيء من ذلك السّبق ولا يكون[4] حاضرًا ولا مستقبلًا، فإنّه أمر مقرّر من الحقّ سبحانه.

بلاغة الطّباق بين السّبق والتّأخير:

مهما طغت لا تَسبق أجلَها ومهما طلبت لا يُؤخَّر أجلُها

عبّر بالأجَل؛ لأنّ له ابتداءً وانتهاءً، فلا سبق ولا تأخير لأجَل

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 60.
(2) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 481.
(3) الفارسي، المسائل الحلبيات، ص: 211.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142.

الأمّة وإن طغت وبغت، ولو طلبت ذلك لما أجيبت إليه "فمهما طغت لا تسبق أجلَها، ومهما طلبت لا يؤخّر أجلها"[1]، وقد طابق بين السّبق والتّأخير، والتعبير بالطباق يُورِد المتضادَّين في صورةٍ واحدةٍ لِتَبَيُّنِ المعنى، لكون العقل مجبولًا على استدعاء الضّدّ.

توجيه المتشابه اللفظي:

مناسبة تقديم السّبق على التأخير

قُدّم السّبق على التّأخير هنا في قول الله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَ﴾ فيما قُدّم التّأخير على السبق في غيرها من المواضع كما في قوله تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٠﴾ [سبأ: 30] وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٣٤﴾ [الأعراف: 34] ومثله في [يونس: 49] و[النحل: 61]، لأنّ آية سورة المؤمنون ذُكرت لّمّا كانوا يستعجلون نزول العذاب والهلاك الموعود؛ فأخبر بأنّ لكلّ أمّة أجلًا من غير تقديم ولا تأخير[2]، أمّا الآيات الأخرى فقد فرض الله هناك مجيء الأجل، فلا يكون حينئذ نظر إلّا إلى التّأخير"[3]، وأنّ من عادة هذه الأمم وديدنها السّعي إلى تأخير أجلها الذي فرضه الله تعالى عليهم لا تقديمه، فيما أورده في [المؤمنون: 43] حكمًا إلهيًا عامًّا.

من أحبّ لقاء الله أحبّ الله لقاءه

ومن النكت اللطيفة أيضًا في تقديم السبق على التأخير - مع أنّ القياس عكس ذلك، إذ المرء مجبولٌ على حبّ الدّنيا وكراهة الموت - هو إفادة أنّ تأخير الأجَل والهلاك ممكنٌ للأمّة بتعرّف أسبابه، والعمل به؛ فإنّ ذلك ممكن الوقوع بترك الظّلم والبغي والفجور وقطيعة الرحم إلى أضدادها من العدل والحقّ والإنصاف وصلة الرحم[4].

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 8/ 4068.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 469.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142.
(4) رشيد رضا، تفسير المنار: 8/ 364.

معنى ﴿مِنْ﴾ ودلالتها:

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ﴾ صلة؛ لإفادة التّوكيد؛ توكيد فحوى القول في أنّ أيَّة أُمّة لا تسبق الوقت المضروب لها ولا تتأخّره[1] وقد زيدت للدّلالة على الاستغراق[2] لبيان أنّ هذا الحكم يشمل الأمم جميعًا، فلا تهلك أمّة إلّا بمجيء وقت هلاكها[3]؛ فإنّ النّكرة في سياق النّفي تعمّ، وفيه إشارة إلى أنّ الآجال بيده تعالى، وهو من تمام قدرته سبحانه.

استغراق الأمم جميعًا في هذا الحكم

سرّ تكرار (ما) مع ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾:

ودخول ﴿مَا﴾ على فعل السّبق أفاد نفي الحال، فلمّا عطف عليه الفعل ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾ كرّر ﴿وَمَا﴾ النّافية لإفادة التّوكيد[4]؛ فإنّ العطف على نية تكرار العامل، وفائدة التّوكيد في هذا الموضع؛ في أنّ الاستئخار والتّمسّك بالحياة عادةً مطلوبُ البشر ومرغوبهم أكثر من السّبق.

توكيد فعل الاستئخار إذ هو مرغوب البشر

معنى السّينِ والتّاءِ في ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾:

في التّعبير عن تأخير الأجل بالفعل ﴿يَسْتَئْخِرُونَ﴾ المزيد بالسّين والتاء الدّالّان على الطّلب في معاني الأبنية الصّرفية العربية[5]، إشعارٌ بأنّهم لم يألوا جهدًا في طلب التّأخير، لكنّهم مع ذلك عجزوا[6] لأنّ التّقدّم والتّأخّر في آجال تلك القرون والأمم محكومٌ بأمر اللّه تعالى.

آجال الأمم حُكْمُ الله وأمره، لا رادّ لقضاء الله ولا معقّب لحكمه

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 125.

(2) دخول من على اللفظ النكرة يفيد استغراق جنس ذلك اللفظ وعمومه، يُنظر: ابن يعيش، شرح المفصّل: 2/ 74.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 235.

(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 14/ 5.

(5) ابن جني، المنصف، ص: 77.

(6) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 259.

التّذكير في الفعل ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾:

أنّث فعل السّبق حملًا على اللّفظ وذكّر التّأخير حملًا على المعنى

لمّا ذكر فعلَ السّبق جعله مُؤَنَّثًا بقوله: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ﴾ نظرًا إلى لفظ الأمّة المؤنّث، فلمّا أورد فعل التّأخير ﴿يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ استعمله مذكّرًا حملًا له على معنى الأمّة[1] المشتملة على النّاس والبشر، وفي ذلك أيضًا رعاية الفاصلة[2]، فحُمِل الأوّل على اللفظ وحُمِل الثاني على المعنى، وفي ذلك من التّفنّن في الكلام ما فيه.

سرّ إسناد فعل التّأخّر لواو الجماعة:

في الجمع إيذانٌ بأنّ كلّ أحد يحبّ أن يتأخّر عن أجله

أُسند فعل التّأخير في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ لواو الجماعة؛ للدّلالة على أنّ كلّ واحد من الأمّة لا يتأخّر عن أجله المكتوب له، فالجمع دالّ على الكُلّيّة، والتّأخّر محبوب للنّفوس مرغوبٌ فيها، فكلّ أحد يكره الموت؛ فكان الإسناد للجمع مناسبًا في هذا المقام، فإنّ كلّ إنسان يحبّ أن يتأخّر عن أجله[3] والضمير لجماعة العقلاء إشارة إلى أنّ الأمّة المعنيّة عبارة عن مجموعة العقلاء المدرِكين المكلَّفين الذين أرسل إليهم الرّسل، وخوطبوا بالرّسالة[4].

دلالة الآية على التعريض:

وعيدٌ لقريش وإعلامٌ ليبلغوا الأجل الذي أُجّل لهم فتحلّ بهم نقمته

في قوله تعالى: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ تعريضٌ بقريش وإعلامٌ منه تعالى أنّه إنّما أخّر آجالهم مع كفرهم وعنادهم كي يبلغوا الأجل المؤجّل لهم، عندها تحلّ نقمته، ويصيبهم عذابه، وهم في ذلك لا يخرجون عن سنّته فيمن قبلهم من الأمم التي سبقتهم[5].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّبقُ والتّقدّمُ:

التّقدّم على الشيء السَّيرُ قُدّامَه، والسبقُ تجاوز الحدّ والأجل

واستُعمل فعل السّبق في قوله تعالى: ﴿مَا تَسۡبِقُ مِنۡ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾،

(1) الزمخشري، الكشاف: 2/ 571.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 7/ 259.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 207.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5076.
(5) مكي القيسي، الهداية: 7/ 4967.

في سياق نفي تجاوز الأجل بحال من الأحوال، يعنى لا تتجاوز الأمّة أجلَها المضروب لها في العذاب بأن يقع عليها قبل أوانه.

أمّا فعل التّقدّم فمعناه أنّه يسير قدّامه[1]، أي: أنّ الأمم تسير قدّام آجالها، وهو غير مراد في الآية موضع الاستشهاد.

الأمّة والجماعة:

الجماعة تضامّ عامّ بين أفرادها والأمّة مخصوصة برسول أرسل إليها

في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾ عبر البيان الإلهي بلفظ الأمّة، دون لفظ الجماعة، فالجماعة حصول التّضامّ بين الأشياء، ومنه تسمية يوم الجمعة لاجتماع النّاس فيه[2]، أمّا الأمّة ففيها معنى الجمع وزيادة، فالأمّة هنا أمّة كلّ رسول أرسل إليها[3]، فهم جماعة مخصوصون برسالة رسول بعث فيهم، فلا يحسن التّعبير بلفظ الجماعة؛ لأنّه لفظ عامّ في كلّ ما كان بين أفرادها، وبين غيرهم تضامّ واجتماع.

الأجل والوقت:

الوقت مقدار من الزّمن والأجل الوقت المضروب لانقضاء الشّيء

استعمل مفردة الأجل في قوله تعالى: ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا﴾، ولم يستعمل الوقت؛ لأنّ الوقت معروفٌ، وهو مقدار من الزمان يُفرض لأمرٍ معيَّن[4]، أمّا الأجل فهو وإن كان وقتًا لكنّه يكون مضروبًا لانقضاء الأمر، فأجل الإنسان هو الوقت الذي ينقضي فيه عمره، وأجَلُ الموتِ وقتُ حلوله لانقضاء الحياة التي مضت فيه[5]، فبين الوقت والأجل إذَنْ عمومٌ وخصوصٌ، فالوقت عامّ، والأجل آخرُ المدّة، ونفى في الآية أن تختار أمّة من الأمم أجلَها وهو نهايتها لا على سبيل السّبق، ولا على سبيل التّأخير.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جمع).
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 35.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 576.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 20.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ ٤٤﴾

[المؤمنون: 44]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا لم يهتدوا بما نصب لهم من الأدلة وما أسبغ عليهم من النّعم أرسل فيهم الرّسل

لَمّا أملى الحقّ ﷻ للأقوام الذين مضوا حتّى طال عليهم الزّمن فلم تهدِهم عقولهم على الرّغم ممّا نَصَبَ لهم من الأدلة والبراهين، وما أفاض عليهم من النّعم السّوابغ، وما أحلّ بالمكذّبين من العذاب والنّقم، عند ذلك أرسل فيهم الرّسل بعد إنشاء القرون، وطول الإمهال[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿تَتۡرَاۖ﴾: أصلها (وترى) أي (فَعْلى) من (وتر)، ثم قلبت الواو تاءً، وهو أصلٌ يدلّ على انفراد الشيء وتجرّده مما يحيط به؛ ومن ذلك التّواتر بمعنى التّتابع، فالمواترة المتابعة بأن تجعل كلّ فرد بإثر صاحبه، والمتواتر: الشّيء يكون هُنَيْهَةً ثمّ يجيء الآخَر، ولا تكون المواترة بين الأشياء إلّا إذا وقعت بينها فترة"[2]، ومعنى الإخبار عن الرّسل بأنّها ﴿تَتۡرَاۖ﴾ في الآية، أي: أنّنا نرسلهم مترادفين يتبع بعضهم بعضًا من غير تواصل بينهم، فبين كلّ واحد منهم والآخر زمانٌ طويل، وفترةٌ بيّنةٌ[3].

2) ﴿فَأَتۡبَعۡنَا﴾: (تبِعَ) أَصْلٌ واحِدٌ لا يَشِذُّ عَنْهُ مِنَ البابِ شَيْءٌ، بمعنى التلوّ والقفو، بأن تفعل شيئًا إثر آخر، يقال: تبعتُ فلانًا إذا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142.
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (وتر).
(3) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 418.

تَلَوْتَه واتَّبعْتَه، وأتبعتَه إذا لحقتَه، وليس لزومًا أن يكون الاتباع بالجسم والمادّة، فإنّه قد يكون بالارتسام والائتمار، ومنه اتّباع القرآن فهو قفوٌ واتّباع معنويّ كأنّ القرآن أمامه[1]، ومعنى فعل الاتباع ﴿فَأَتْبَعْنَا﴾ في الآية: الإهلاك، أي: أتبعنا بعضَ الأمم بعضًا بأن أهلكنا بعضهم إثر بعض[2].

3) ﴿أَحَادِيثَ﴾: (حدث) أصلٌ يدلُّ على الكشف عن الشّيء وإظهاره، ولَمّا كان الخبر يكشف عمّا في النّفس سُمّي حديثًا، فالحديث هو الكلام الذي يصل إلى المرء عن طريق السّمع، أو الوحي يقظةً أو منامًا، وما يتحدّث به ويُنقل يسمّى حديثًا[3]، والأُحْدوثة اسمٌ لما يتلهّى به النّاس، وزنه أُفْعولة كالأعجوبة والأسطورة، ومعنى ﴿أَحَادِيثَ﴾ في الآية أن يكون التّمثيل بهؤلاء في الشّرّ، أي: جعلتُهم عبرةً وعظةً للآخرين؛ ولا يُقال في الخير: جعلته حديثًا[4].

4) ﴿فَبُعْدًا﴾: (بعد): ضدّ القُرْب وخلافه، يُقال: بَعُد يَبْعُدُ بُعْدًا، ضدّ قرُبَ يَقرُب قُربًا، وليس لهما حدٌّ محدود[5]، والَّذي عبّر به الأقدمون أنَّ البَعَد بمعنى الهلاكِ كما في (الصّحاح) وغيره، ويُقال إنّ الّذي بمعنى الهلاك إنّما هو البُعْد، ومن جوَّز الاشتراك فيهما أشار إلى أفصحيَّة الضّمّ في خلاف القُرْب (بعُد بُعدًا)، وأفصحيَّة الكسر في معنى الهلاك (بعِد بَعَدًا)[6]، أمّا المقصود بالبُعْد في الآية فهو كناية عن الدّعاء عليهم بالهلاك الذي يستأصلهم[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أرسل الحقّ ﷻ الرّسلَ مبشّرين ومنذرين، رسولًا إثر رسول، أي: جعلناهم متتابعين، وكلّما جاء الرّسول أمّتَه المرسَل إليها بالتّكاليف والشّرائع كذّبه عامَّتُهم وجمهورهم؛ فكان

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (تبع).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 35.

(3) الراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حدث).

(4) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/ 59.

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسّمين، عمدة الحفاظ، والزَّبيدي، تاج العروس: (بعد).

(6) الجوهري، الصحاح، والزبيدي، تاج العروس: (بعد).

(7) الشنقيطي، أضواء البيان: 5/ 866.

جزاؤهم أن أتْبَع اللّه تعالى بعضَهم بعضًا بالهلاك والاستئصال حتّى جعلهم أحاديثَ وأخبارًا على ألسنة النّاس لهوًا وتعجّبًا، فليس لمن انصرف عن الإيمان بعد ذلك إلّا الهلاك والتّدمير والبعد عن رحمته تعالى.

أرسلنا رسلنا متتابعين فكُذّبوا فأهلكنا المكذّبين وجعلناهم أحاديثَ وأبعدناهم من رحمتنا

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ التّعبير بلفظ العطف ﴿ثُمَّ﴾:

أملى الحقّ سبحانه للقرون السّابقين، وبيّن أنّهم لا يستقدمون ولا يستأخرون؛ فطال عليهم الأمد فعبّر بأداة التّراخي بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ﴾، أي: إرسالنا هذا كان عقب إنشاء تلك القرون وطول إمهالنا لهم، ولِما بين الرّسل من الفترات(1).

أرسلنا رسلنا بعد إنشاء القرون وطول إمهالنا لهم

بلاغة الجناس الاشتقاقيّ في ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾:

وقوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ من باب الجناس الاشتقاقيّ، أو من باب تجنيس التّرجيع بأن تعيد الكلمة بذاتها(2)، أو قريبًا منه، وهو من الفنون البلاغية المعنيّة بتزيين الألفاظ في اشتقاق لفظ من الآخر وإيرادهما جميعًا، وتزيين المعاني لما يعطي الجملة من مسحة توكيدية.

تزيين الألفاظ في الاشتقاق والمعاني في لمح التّوكيد

سرّ إضافة الرّسل إلى الضّمير (نا) في ﴿رُسُلَنَا﴾:

وأضاف لفظة الرّسل إلى الضّمير (نا) العائد على الحقّ تبارك وتعالى في قوله تعالى: ﴿رُسُلَنَا﴾؛ لأنّ مقام الإرسال مقام العظمة، وزيادة في التّسلية(3) بإرسال الرّسول إثر الرّسول، وبأنّ هذا الإرسال من ربٍّ غفور.

المقام مقام العظمة وزيادة في التّسلية

سرّ القيد بالحال ﴿تَتۡرَاۖ﴾:

جاء القيد بالحال ﴿تَتۡرَاۖ﴾ أي: متواترين، لبيان أن إرسال الرّسل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 142 - 143.
(2) ابن منقذ، البديع في نقد الشعر، ص: 26.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 143.

كان حاصلًا بالتّعاقب مع الفترات والانقطاع[1]، والقيد بالحال كاشف عن الواقع مبيِّنٌ عنه.

موقع قوله: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾:

لم يصدر منهم بعد إرسال الرسل المتتالية إلا التكذيب

ويقع قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾ موقع الاستئناف البياني ممّا سبق؛ فإنّه لمّا أخبر الحقّ ﷻ بأنّه يرسل الرّسل مردفين، الرّسول إثر الرّسول، كأنّه قيل: فكان ماذا بعد ذاك الإرسال؟ فأجيب بتكذيب الأمم رسلَها؛ فكان مصيرهم العذاب والهلاك[2].

سرّ التقييد بظرف الزمان وتقديمه على متعلَّقه:

تسجيل زمن الإجرام تبشيع للجريمة وتقبيح لمرتكبيها

﴿كُلَّ﴾ ظرف زمان يتضمّن معنى الشرط متعلِّقٌ بـ ﴿كَذَّبُوهُۖ﴾ و﴿مَا﴾ مصدرية والتقدير: (كذّبوه كل وقت مجيء رسول)، وقد قَيَّدَ النظمُ الكريم تكذيبَ الأمم للرسل بظرف الزمان للتسجيل على الهالكين ولبيان استحقاقِهم الهلاكَ، وفي تقديمه على متعلَّقه تأكيد على حصول الجُرْم ببيان زمان، وكأنّ الأمم الهالكة كانت تستشرف زمن رسولها لتكذّبه.

الغرض من تقديم المفعول على الفاعل:

الأمم هي المقصودة بالهداية والإرشاد

قدّم النظم الكريم المفعول به ﴿أُمَّةً﴾ على الفاعل ﴿رَّسُولُهَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾ للتخصيص والاهتمام بهداية الأمم وإرشادها، وهذا من أجلّ نِعم الله على البشر.

سرّ الإضافة في لفظ ﴿رَّسُولُهَا﴾:

كلُّ رسولٍ جاء أُمّته الخاصّة، والإشعارُ بكمالِ شناعتِهم بتكذيبهم الرسل

في قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةً رَّسُولُهَا﴾ أضاف لفظة الرّسول إلى الضّمير (ها) العائد على الأمّة ذمًّا لهم؛ لجريان الكلام في سياق التّكذيب، فإنّهم خُصّوا بالكرامة فأبَوْا أن يقبلوها، وقصدًا للتّسلية أيضًا[3] ولإفادة أنّ كلّ رسول جاء أمّته الخاصّة، رافعًا مجيء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 61.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 143.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 143.

الرّسل جميعًا كلّ الأمم، وإشعارًا بكمال شناعتهم، وقبيح صنيعهم بأن كذّبت كلّ أمّة رسولها المعيّن[1].

الفرق في الإضافة بين ﴿رُسُلَنَا﴾ و﴿رَّسُولُهَا﴾:

(رُسُلَنا) دالّ على مبدأ الأمر منه تعالى، و(رَسولُها) دالٌّ على منتهاه إليهم

ويلمح في الإضافة إلى لفظ الرّسول أنّه قد غاير بين المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا تَتۡرَاۖ كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾، فأضاف الرّسول أوّلًا إلى المرسِل وهو الحقّ ﷻ بصيغة الجمع المعظّم ﴿رُسُلَنَا﴾؛ لأنّ المبدأ منه، وأضاف الرّسول إلى المرسَل إليهم ثانيًا ﴿رَّسُولُهَا﴾؛ لأنّ المنتهى إليهم في المجيء والإهلاك[2]، والإضافة عند النحويين تكون بأدنى ملابسة[3]، والرّسول ملابس للمرسِل والمرسَل إليه، ففي الإضافتين هنا مناسبةٌ حسنةٌ؛ فقد أضاف الحقُّ ﷻ الرّسلَ إليه بقوله: ﴿رُسُلَنَا﴾ تشريفًا للرّسل، ثمّ أضاف الرّسول إلى الأمّة بقوله: ﴿رَّسُولُهَا﴾ لتكذيبها إيّاه، وإعراضها عن دعوته[4].

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿جَآءَ﴾:

التّبليغ أو المجيء حقيقةً دلالةٌ على أنّهم كذّبوه عند أوّل لقاء

يدلّ فعل المجيء في قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾ على تحقيق حصول التّبليغ، أي: كلّما بلّغ رسول أمّته، أو يدل على المجيء حقيقة؛ للإيذان بتكذيبهم إيّاه عند أول ملاقاة[5]، وفي ذلك من التّشنيع والتّقبيح ما لا يخفى؛ فإنّهم لم يصبروا، بل عاجلوه بالتّكذيب.

دلالة التعبير بالفعل الماضي ﴿كَذَّبُوهُۖ﴾:

التكذيبُ مُبيّتٌ، وإعلانه معلّقٌ على وقت مجيء الرسل

جاء جواب الشرط بالفعل الماضي وأسلوب الشرط تعليق التكذيب على مجرّد المجيء دون انتظار لما يقوله الرسول، وهو كاشف عن عَقْدِهم نيّةَ التكذيب، وانعقاد إظهاره على وقت المجيء،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 135.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 88.
(3) الصّبان، حاشية الصّبّان على شرح الاشموني: 2/ 356.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 564.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 135.

وفيه من التشنيع على الهالكين ما فيه، والتعبير بالماضي تأكيدٌ لحصول الفعل.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَأَتۡبَعۡنَا﴾:

تكذيبُهم الرّسلَ سببٌ لإتباعهم الله تعالى بالهلاك

الفاء دالّة على التعقيب ومعاجلتهم بالهلاك بعد استحكام تكذيبهم وإصرارهم على الكفر، وكان التّكذيب من شأن الأمم التي أُرسِل لها الرّسل متواترين الواحد إثر الآخر؛ فكان ذلك سببًا[1] لأن يُتبعهم الحقُّ سبحانه بغيرهم محوًا وإهلاكًا بقوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾؛ فالفاء دالّة على التعقيب وعدم المهلة، وفيه تهديدٌ للكافرين.

دلالة التعبير بالماضي ﴿فَأَتۡبَعۡنَا﴾:

تحقيق تتابع إهلاك المكذبين بيانٌ لقدرة الجليل وتسليةٌ للمؤمنين

عبّر في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ بالماضي لبيان وقوع الهلاك والمحو والاستئصال على وجه التّحقيق بتعبيره بصيغة الماضي، وقرينة الهلاك مقاميّةٌ بقوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ أي: صَيَّرناهم أُحدوثاتٍ يتحدث النّاس بما أصابهم[2]، ومعنى (إتباع بعضهم بعضًا)، أي: في الهلاك تأسيسًا على إتباع بعضهم بعضًا في مباشرة أسبابه من الكفر وتكذيب الرّسل وأنواع المعاصي[3] التي كانوا يقترفونها، فكأنّه عاقبهم بجنس ما كانوا يفعلونه.

سرّ التعبير بالمفعولين ﴿بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾:

ضمير الغائبين في ﴿بَعۡضَهُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَتۡبَعۡنَا بَعۡضَهُم بَعۡضٗا﴾ عائدٌ على الهالكين، وسرّ تقييد الإتباع بالمفعولين، نظمٌ للأمم الهالكة في سلك واحد كأنّه يتبع بعضهم بعضًا؛ فاتصال الصورة أقوى من اتصال الزمن.

فائدة عطف جملة ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ على ما قبلها:

لَمّا أهلك الله المكذّبين لم يبق منهم إلّا أخبارهم يتسامر بها النّاس

ولَمّا كان من شأن المكذّبين بالرّسل أن أخذهم اللّه تعالى بالعذاب

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 143.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 62.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 135.

والهلاك؛ فكان مصيرهم المَحْوَ لم يبقَ إلّا أخبارهم التي جعلها النّاس أحاديث يتسامرون بها تعجيبًا ليتّعظ بها المستبصرون، فيعلمون أنّ الفلاح مفارق الكافرين، كما الخيبة نائية عن المؤمنين(1).

الغرض من الكناية في ﴿وَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَۚ﴾ وسرّ اصطفائها:

كناية عن إبادتهم فقد جعلناهم أحاديث بائدين غير مُبْصَرين

التّعبير بلفظ ﴿أَحَادِيثَۚ﴾ كناية عن إبادتهم، أي: جعلهم الحقّ سبحانه أحاديث بائدين لا يبصرهم أحد، وإنّما يتحدّث النّاس بما غرُب ونَدُر من الأشياء، والأحاديث جمع أحدوثة، وهي اسمٌ لما يتلَهّى النّاس بالحديث عنه، وزنه أفعولة كالأعجوبة والأسطورة(2) والتعبير بالكناية كاشفٌ عن تلاشيهم تمامًا كأن لم يكونوا يومًا.

دلالة الفاء في ﴿فَبُعۡدٗا﴾ وإعرابها:

أبعدهم الله تعالى من ثواب الآخرة بمدعاة تكذيبهم الرّسل

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا﴾ دالّة على السّببيّة، وهو معنًى ذائعٌ لها في كلام العرب(3)؛ فإنّ هلاكهم المقتضي لبعدهم كان بسبب تكذيبهم(4) رسلَهم على الرّغم ممّا جاءهم به من الحُجَج والبراهين والبيّنات، و(بعدًا) مصدر نائب عن فعله، أي: أبعدهم الله تعالى من ثواب الآخرة(5).

معنى ﴿فَبُعۡدٗا﴾ ودلالتها:

دعاء وذمّ وتوبيخ وتقريع لهم

التّعبير بقوله تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ يأتي في سياق التّكذيب، ثمّ تصييرهم عبرةً وعِظَةً لغيرهم، وهو دالّ على الدّعاء والتّقريع والذمّ والتّوبيخ(6).

دلالة تنكير لفظ ﴿لِّقَوۡمٖ﴾:

دعاء يشمل كلّ قوم لا يؤمنون برسل الله

وأورد لفظ (القوم) في قوله تعالى: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 144.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 62.
(3) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 103.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 144.
(5) النحّاس، إعراب القرآن: 3/ 81.
(6) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 14/ 220.

نكرةً؛ لأنّه أراد أن يشمل كلّ قوم لا يؤمنون برسل الحقّ ﷻ؛ فإنّ النّكرة في سياق الدّعاء تفيد العموم[1].

المتشابه اللّفظي:

الهلاك منوط بالظلم، وبعدم الإيمان

مشتبه النظم بين قوله هنا: ﴿فَبُعۡدٗا لِّقَوۡمٖ لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ وقوله قبلها: ﴿فَبُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ٤١﴾، حيث وصف القوم في خاتمة الآية الأولى بالظّالمين، فيما وصفهم في خاتمة الآية الثّانية بأنّهم لا يؤمنون، فيُسأل عن الفرق بين التّعبيرين؟ والجواب عن ذلك أنّ الحديث في الآية الأولى كان عن أمّة معينة، فبيّن حالها وما ارتكبت من القبائح؛ فكان اسم الظّلم واقعًا عليها على أتمّ معناه من عدم الإيمان، والكفر والتّكذيب، وليس ذلك مع ما ختم به من الآية الثّانية، فإنّه وارد عقب الإخبار مُجْمَلًا عن طوائف وأمم اجتمعوا في التّكذيب؛ فوصفهم بعدم الإيمان لوقوع المعصية منهم، والمعصية ليست بالظّلم والكفر، ولم يقع تفصيل مرتكبات هؤلاء؛ فناسبهم الإجمال ووصفهم بعدم الإيمان[2] فيكون التّبعيد في الموضعين محصّلًا مذمّة الكفر، ومذمّة انتفاء الإيمان[3] فجاء وصفهم في الأولى بالظّلم، وهم القرون الأولى، لما نقل عنهم من الغلوّ وتجاوز الحدّ كفرًا وعدوانًا، وجاء وصفهم في الثّانية بنفي الإيمان عنهم، مقتصرًا على حكاية تكذيبهم إجمالًا[4].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّة:

أرسلنا وبعثنا:

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا رُسُلَنَا﴾ أورد فعل الإرسال لأنّ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.
(2) الغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 368 - 369.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 62.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 135 - 136.

في الإرسال رسالةٌ يبلّغها المرسَل، والبعث إرسالٌ في حاجة مخصوصة

الإرسال رسالةً يبلّغها المرسَل مع السّهولة واليسر، أمّا البعث فيجوز أن يبعث الرّجل إلى غيره لحاجة مخصوصة دون غيره كالصّبي تبعثه إلى المكتب، فيقال: بعثت الصّبيّ ولا يقال أرسلته[1]، ولمّا كان الحقّ ﷻ قد أرسل الرّسل إلى أقوامهم بالرّسالة لتبليغهم ما يكون عليهم من أمر الدّين فهو ليس بعثًا مخصوصًا، وآية ذلك تتابع الرّسل، الرّسول إثر الآخر؛ للدّلالة على أهمية ما أُرسلوا به، وهي رسالة اللّه تعالى، وفي التّعبير بلفظ ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾ دون (بعثنا)؛ إشارةٌ إلى وجود الأمّة التي أرسلَ إليها، وقد صرّح بذلك في قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا كَذَّبُوهُۖ﴾[2].

المجيء والإتيان:

مجيء الرّسول بنفسه إلى الأمّة دالّ على التّبليغ بالرّسالة

واستعمل فعل المجيء في قوله تعالى: ﴿كُلَّ مَا جَآءَ أُمَّةٗ رَّسُولُهَا﴾، ولم يستعمل الفعل (أتى)، ومصدره الإتيان، ومعناه مجيءٌ بسهولة، والإتيان يُقال للمجيء بالذّات، وبالأمر وبالتّدبير، ويُقال في الخير، وفي الشّرّ، وفي الأعيان والأعراض"[3]، فالإتيان مجيؤه مع شيء يؤتى، أمّا فعل المجيء فيُكتفى به؛ فهو دالّ على معناه من غير شيء يصحبه؛ لأنّ "قولك جاء: كلام تامّ لا يحتاج إلى صلة ... ولهذا يُقال: جاءَ فلانٌ نفسُه"[4]، ولمّا كان مجيء الرّسول بنفسه إلى الأمّة دالًّا على التّبليغ بالرّسالة لم يكن هناك مسوّغ للتّعبير عنه بالإتيان الدّال على المجيء صحبة أمر معيّن؛ ففعل المجيء أنسب وأدقّ في هذا السّياق.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 103.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 62.
(3) الراغب، المفردات، ص: 60.
(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 309.

﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ ٤٥ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ ٤٦﴾ [المؤمنون: 45 - 46]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

مثلما كذّبت الأمم السّابقة رسلَها كذّب فرعونُ وقومه موسى وأخاه هارون

بعد أن أرسل الحقّ ﷻ الرّسل تترى إلى أقوامهم فأنكروا بعثة الرّسل من البشر، وتكبّروا عليهم، أرسل اللّه تعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام إلى فرعون وأشراف قومه ومن تبعهم من القبط، أرسلهما بالآيات والحُجَجَ والبراهين؛ فما كان منهم إلّا الاستكبار عن الاتّباع، وعدم الانقياد لما أمروا به، حالهم في ذلك حال من تقدّمهم من الأمم التي كذّبت رسلها، وصدفت عن دعوتها.

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسُلۡطَٰنٖ﴾: (سلط) أَصْلٌ يَدُلُّ على التمكّن من القهر من بعيد، والسّلطان بمعنى الحجّة؛ ولذا وُصِف الأمراء بالسّلاطين، فبهم تقام الحجج، وتُؤخذ الحقوق[1]، وكلّ سلطان في القرآن بمعنى الحجّة النّيّرة، ومن معانيه التّمكّن من القهر والشّدّة أيضًا[2]، وترد الكلمة في القرآن على معنى الحجّة والقدرة القاهرتين[3]، ومعنى السّلطان في الآية بمعنى الحجّة الواضحة البيّنة التي تُظهِر بطلان من خالفها، فتَحْتَمِل أن تكون عصا موسى عليه السلام، أو الآيات نفسها[4].

2) ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾: (ملأ) أَصْلٌ يَدُلُّ على تجمّع الشيء في أثناء ظرفٍ حتى لا يبقى في الظَّرف، ومنه المالأة بمعنى المعاونة

---

(1) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (سلط).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والهروي، الغريبين في القرآن والحديث، والراغب، المفردات: (سلط).

(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيُّ المؤصَّل: (سلط).

(4) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 193.

والمظاهرة، وإذا تمالؤوا على الأمر فقد اجتمعوا عليه، ومعنى (الملأ): "جماعةٌ يجتمعون على رأي، فيملؤون العيونَ رواءً ومنظرًا، والنّفوس بهاءً وجلالًا"[1]، وهم الأشراف من النّاس ووجهاؤهم، وتسمية أشراف القوم من الامتلاء لأنّهم مُلئوا رأيًا وغناءً، وفي ذكر ملأ فرعون في الآية إشارة إلى أهل مجلسه ومجتمعه وعلماء دينه من السّحرة وأضرابهم[2].

3) ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾: (كبر) أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَى خِلافِ الصِّغَرِ، والأصل في الكِبر أن يستعمل في الأعيان، ثمّ يستعمل استعارة للمعاني كالاستكبار المذكور، وهو قريب من الكِبَر والتّكبّر، وفيه أن يتشبّع الإنسان فيكون مظهِرًا من نفسه ما ليس له، وهو الإعجاب بالنّفس[3]، ومعنى الاستكبار في الآية أنّهم تكبّروا عن الإيمان بما جاء من عند اللّه تعالى[4].

4) ﴿عَالِينَ﴾: (علو) أصل، والعلوّ ضدّ السّفل، وهو العظمة والتّجبّر، وهو للّه ﷻ رفعةٌ وتشريفٌ[5]، ووصف العالين فيه دلالة التّكبّر، أي: متكبّرين؛ فإنّ من معاني العلوّ التّكبّر في الأرض[6]، ومعنى وصفهم بكونهم قومًا ﴿عَالِينَ﴾، أي: أنّهم متكبّرون يريدون أن يقهروا غيرهم بالظّلم والعدوان[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

أرسلنا موسى وهارون إلى فرعون ومَلَئِه فعَتَوْا وصَدّوا وكانوا من المتكبّرين

كان ممّن أرسلنا بعد تلك القرون موسى وهارون ﵉ المؤَيَّدان بالحجّة والبرهان المبين؛ فإنّهما أُرسلا إلى فرعون ومن شايعه

(1) الجوهري، الصحاح، والهروي، الغريبين، والراغب، المفردات: (ملأ).
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (كبر).
(4) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 291.
(5) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة: (علو)، والراغب، المفردات: (علا).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة: (علا)، والكفوي، الكلّيات، ص: 659.
(7) البغوي، معالم التنزيل: 5/ 419.

من ملئه وأشراف قومه من القبط، فما كان منهم إلّا الصّدود عن دعوتنا، والاستكبار عن الإيمان بما جاءا به من عندنا؛ فإنّهم كانوا قومًا عالين متكبّرين على الرّسالة، وعلى قومهم من بني إسرائيل بالظّلم والقهر[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

لمّا كانت الرّسالة لفرعون وقومه بعد مدّة طويلة دلّ عليها بحرف التّراخي

عطف قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ﴾ بحرف المهلة ﴿ثُمَّ﴾ على ما قبله من الأقوام التي أرسل إليها الرّسل متتابعين؛ فكذّبوها فأخذهم اللّه بذنوبهم؛ لأنّ الرّسالة إلى قوم فرعون كانت بعد مدّةٍ طويلة؛ فناسبها التّعبير بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ الدّالّ على التّراخي[2].

سرّ إسناد الفعل لضمير العظمة ﴿أَرۡسَلۡنَا﴾:

أسند النظم الكريم الفعل إلى الضمير الدالّ على التعظيم، لبيان عظمة الرسالة فإنها تكون على قدر مرسِلِها.

سرّ اختصاص ﴿مُوسَىٰ﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾ بالذّكر:

أنقذ الله تعالى بني إسرائيل على أيديهما

واختصّ المولى سبحانه من أنبياء بني إسرائيل ﴿مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ عليهما السلام بالذّكر؛ لأنّهما النّبيّان اللّذان أنقذ الحقُّ تبارك وتعالى على أيديهما بني إسرائيل[3] من فرعون وتسلّطه وعبوديّته.

دلالة تقديم ﴿وَأَخَاهُ﴾ على هارون:

الأخوّة إيذان بتبعيّته في الرّسالة

وفي قوله تعالى: ﴿مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ﴾ قدّم صفة الأُخوّة على الاسم العلم ﴿هَٰرُونَ﴾، ولم يعكس بأن يقول: (وهارون أخاه) في إشارة إلى تبعيّته في النّبوة، وهو بدل أو عطف بيان[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 51.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 144.

(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5077.

(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 179.

معنى الباء، ودلالة الإضافة:

والباء في قوله تعالى: ﴿أَرۡسَلۡنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا﴾ دالّة على المصاحبة والملابسة، وهو معنى من معانيها المشتهرة في كلام العرب[1]، فقد أرسلهم الحقّ ﷻ على ملابسة الآيات ومصاحبتها، ثمّ أضاف الآيات المعجزات إلى ضّمير الجلالة (نا) العائد عليه سبحانه، تنويهًا بها، وإظهارًا لعظمتها[2]؛ فهي آيات سامية مهيبة؛ لصدورها ممّن يتّصف بالعظمة والمهابة.

أُرسلوا مصاحبين الآيات المعجزات بعظمته تعالى لمن يباريها

دلالة العطفِ:

عطف قوله: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾؛ لأنّه على معنى الحجّة الملزمة العظيمة الواضحة في أنّه وحده، وقد حرسه اللّه تعالى، وأعلى شأنه على من عاداه، كما أنّ عطف السّلطان المبين على الآيات من باب عطف الصّفة على الموصوف؛ لبيان مزيد الاختصاص، فالآيات هي السّلطان، وهو الحجّة، والحجّة عليه تعالى آياتُ الكون، وعلى صِدق الرّسول معجزاتُه، وعلى الأحكام الآياتُ الحاملة لها[3].

حجّة عظيمة واضحة في حراسته وإعلاء شأنه وهي من أعظم الآيات

سرّ وصف السُّلْطانِ بـ﴿مُّبِينٍ﴾:

وسمّى الحقّ سبحانه معجزة موسى بالسّلطان، ووصفها بالمبين، أي: المحيط؛ لكونها معجزة متكرّرة متعدّدة في أحوالها، تنقلب تارة حيّة تلقف الحيّات، ويضرب بها البحر تارةً أخرى فينفلق، ويضرب بها الحجر تارة ثالثة فيتفجّر منه الماء، وله فيها مآرب أخرى[4] وهي في كل أحوالها واضحةٌ ظاهرةٌ.

معجزةٌ محيطةٌ متكرّرةٌ في أحوالها بين انقلابها حيّة وتفجّر الماء بها وغير ذلك

نكتة اقتصار الإرسال ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾:

لَمّا أُرسل موسى وهارون عليهما السلام اقتصر في هذا الإرسال ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ

---

(1) ابن هشام، مغني اللبيب، ص: 140.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10046.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10046.

دعوةٌ لفرعون ومَن بيده تصريف الأمور لتحرير بني إسرائيل من العبودية

﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾، وهم أعيان القوم وأهل مجلسه دون الباقين من أُمّة القبط؛ لأنّ تلك الدّعوة كانت خطابًا لفرعون وأهل دولته ممّن يتصرّفون في أمور الأمّة، وكان غرض الدّعوة تحرير بني إسرائيل من العبوديّة؛ فلم يكن إرسالهما بشريعة إلى الأقباط[1].

فائدة ذكر ﴿وَمَلَإِيْهِۦ﴾ بعد فرعون:

لَمّا كان الأطراف لا يخالفون الأشراف عدّهم عدمًا

لَمّا ذكر إرسال موسى وهارون عليهما السلام إلى فرعون، عَطَف عليه قومَهُ بقوله: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ﴾، فأوردهم بعد فرعون؛ لأنّ الأطراف لا يخالفون الأشراف، بل هم تَبَعٌ لهم؛ فعدّهم عدمًا[2] وألحقهم بفرعون إمامهم.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

سرعة إيجاد الكِبْر منهم عن اتّباع الدّعوة إلى الله من غير تأمّلٍ وطول نظر

لَمّا كانت الفاء دالّةً على التّعقيب من غير مهلةٍ في حروف المعاني[3]، أوردها في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ في إشارة إلى سرعة إيجاد الكبر منهم عن اتّباع الدّعوة إلى الله عقيب إبلاغهم، من غير تأمّل وتثبّت وطول نظر، وأن لا يكونوا تحت إمرة الدّاعي[4]؛ وفي ذلك تشنيعٌ عليهم استعجالَهم الفعلَ السَّيِّئَ، والأمرَ القبيح.

ويجوز أن تكون الفاء المقترنة مع فعل الاستكبار دالّة على السّببيّة؛ فإنّهم بسبب هذه الطّغواء استكبروا وتجبّروا وكانوا قومًا عالين، لا يستمعون إلى داعي الحقّ[5].

الغرض من الحذف في قوله ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾:

أمَراهم أن يعبدوا الله وحده فاستكبروا

في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ حذفٌ لأنّ الاستكبار لا يكون ناشئًا عن مجرّد مجيء موسى وهارون عليهما السلام إلى

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 145.
(3) ابن جني، اللمع في العربية، ص: 91.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 145.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5078.

فرعون وملئه، بل لأنّ التّقدير بعد المجيء: (أن اعبدوا اللّه ما لكم من إله غيره)[1]؛ فاستكبروا عن هذه الدّعوة، وكانوا من العالين.

إيثار فعل الاستكبار مادَّةً وصيغةً:

طلبوا الكبر وتكلّفوه فلم ينقادوا إلى الحق

آثر فعلَ الاستكبار على غيره بقوله: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾، وهو فعلٌ دالٌّ على الطّلب والاكتساب، وزنه (استفعل)[2]، وهذا كان حالَهم تمامًا؛ لأنّهم طلبوا فِعل الكِبْر وتكلّفوه، فكان مصيرهم أن لم ينقادوا إلى الحقّ المبين[3]، والسّين والتّاء في قوله تعالى: ﴿فَٱسۡتَكۡبَرُواْ﴾ دالّة على التّوكيد؛ فإنّهم لّمّا أتتهم الدّعوة والآيات والحُجج البيّنات لم يتأمّلوا فيها، ولم يُعيروا موسى ودعوته الآذان الصّاغية التي يجب أن تكون، ولكنّهم أفرطوا في كبريائهم، وتكبّروا تكبّرًا شديدًا[4].

فائدة التعبير بالفعل ﴿وَكَانُواْ﴾:

أصالة فساد جبلّتهم وطبعهم

ولّما أراد الإشارة إلى فساد جِبِلَّتِهم وطَبْعِهم وعادتهم وما فُطِروا عليه[5] أورد فعل الكون مصدّرًا بقوله تعالى: ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾، أي: إنّهم العريقون في صفتهم تلك وهي العلوّ والتّكبّر، والتعبير بالتكوين يدل على أنّهم جُبلوا على ذلك.

نكتةُ ذِكْر القوميَّة هنا ﴿قَوۡمًا﴾:

تمكّن الاستعلاء منهم فخالط سجاياهم وتقوّم مع قوميّتهم

ونكتةُ ذكر القوميّة بقوله: ﴿قَوۡمًا عَالِينَ﴾ من باب التّيئيس منهم، وقطع الأمل عن ترك استكبارهم؛ فإنَّ بلوغهم هذا المبلغ من الاستعلاء لا يُرجى منه صلاحهم؛ فقد تمكّن الاستكبار والاستعلاء منهم وإنّما نشأ الكبر فيهم سجيّة وتطبّعًا[6]، وتجذّر فيهم فخالطهم ولابس سجاياهم، وتقوّم مع قوميّتهم، وصار من خصائصهم، ولو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 145.
(2) الشاطبي، المقاصد الشافية: 8/ 314.
(3) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 574.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 145، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1295.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 64.

لم يُذكر لكان لفظ الـ﴿عَالِينَ﴾ لقبًا يصدق على من كان العلوّ غير متجذّر فيه، فيرجى منه صلاحه وإيمانه، وما هم عليه خلاف ذلك.

موقع جملة ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ ودلالتها:

وجملة ﴿وَكَانُواْ قَوۡمًا عَالِينَ﴾ واقعة موقع الاعتراض بين جملة الاستكبار وما تفرّع عليها من قولهم: ﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾، وهي جملة في موضع الحال من فرعون وملئه؛ باستكبارهم وإعراضهم عن إجابة دعوة موسى وهارون عليهما السلام فكان شأنهم الكبرياء والعلوّ خلقًا وسجيّة[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

السّلطان والحجّة:

الحجّة استقامة النّظر والسّلطان قهرٌ وقدرةٌ وهو أليق بإرسال موسى إلى قومٍ متعنّتين

وجاء بلفظ السّلطان في إرسال موسى وأخيه عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿وَسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٍ﴾ وترك لفظ الحجّة مع أنّ بينهما تلاقيًا في المعنى العامّ إلّا أنّ السّلطان له قوّة اليد في القهر والجبروت لِما كثُر كالجمهور، وما قلّ كالجماعة القليلة، والسّلطان دالّ على القدرة أيضًا[2]، أمّا الحجّة فهي "الاستقامة في النّظر والمضيّ فيه على سَنَنٍ مستقيم؛ مشتقّة من معنى الاستقامة في القصد؛ حجّ يحجُّ إذا استقام في قصده"[3]؛ فإيراد لفظ السّلطان هنا أنسب وأليق في مقام إرسال موسى وهارون إلى قوم يتّصفون بالكفر والتعنّت والجحود.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 63.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 282.

(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 233 - 234.

﴿فَقَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ مِثۡلِنَا وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ ٤٧ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ ٤٨﴾ [المؤمنون: 47 - 48]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

لَمّا استكبروا عن دعـــوة مــوسى أنـكـروا اتّباعه بمدعاة بشريته وانقياد القوم لهم

لَمّا كان من شأن فرعون وأشراف قومه أن صدّوا عن دعوة موسى وهارون عليهما السلام وكانوا قومًا مستكبرين عالين؛ تسبب عن ذلك الاستكبار والعلوّ إنكارُهم اتّباعَ الرّسول؛ فأنكروا بشرية الرّسول، فكيف نؤمن لكما والقوم لنا صاغرون منقادون كالعبيد، ونحن أعلى منهم؛ فكان حالهم هذا من التكذيب سببًا لأن نهلكهم بالإغراق[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لِبَشَرَيۡنِ﴾: (بشر) أَصْلٌ يَدُلُّ على ظهورِ الشّيء مع الحسن والجمال، وتسمية البشر بهذا الاسم لظهورهم، ومنه بشرة الإنسان وهو الجلد الظّاهر منه؛ ولذلك عبّر عن الإنسان بالبشر لظهور جلده من الشّعر، بخلاف الحيوان المكتسي بالشّعر أو الصّوف أو الوبر، ويكون أيضًا على معنى الانتشار، ومنه أصل البشرة فهو انتشار واسع على ظاهر الشَّيء: كانتشار جلد البدن على ظاهره، وانتشار الشَّعر على الجلد، وكلُّ ما في القرآن من لفظ البشر فهو بمعنى بني آدم عليه السلام[2]، ومعنى قوله: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾ هل نصدّق إنسانين مثلنا، وهما من لحم ودم كحالنا، وليسا يَفْضُلانِنا بشيء[3].

2) ﴿عَٰبِدُونَ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على حَصرٍ شديدٍ للشيء يجعله رقيقًا رِخوًا ناعمًا غير صُلب ولا خشن، والعبد: ضدّ الحرّ،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 146.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (بشر).
(3) الواحدي، التفسير البسيط: 15/ 593.

وأصل العبد من قولهم طريق معبّد، أي: مذلّل، والعبوديّة: إظهار التّذلّل، والعبادة أبلغ منها؛ لأنّها غاية التّذلّل، ولا يستحقّها إلّا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، وعابدون أي: دائنون فكلّ من يدين للملك العلّام فهو دائن له[1]، ومعنى ﴿عَٰبِدُونَ﴾ في الآية - والحديث عن بني إسرائيل - أنّهم خاضعون متذلّلون كأنّهم عباد لنا[2].

3) ﴿ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾: (هلك) أصلٌ يدلّ على كسرٍ وسقوطٍ، ولذلك يقال للميّت: هلك، وجعله الرّاغب على ثلاثة أنحاء، **الأوّل:** افتقاد الشّيء عنك، وهو عند غيرك موجود، **والثاني:** هلاك الشّيء باستحالة وفساد، **والثالث:** الموت، فيرد الهلاك بمعنى السّقوط والموت، وأن يرمي الإنسان نفسه في التّهلكة، ويرد الإهلاك في كثير من مواضع القرآن بمعنى الإفناء مؤاخذة[3]، أمّا تعبيره بكونهم من ﴿ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ في الآية فهو كونهم "ممّن أهلكهم الله كما أهلك مَنْ قبلهم من الأمم بتكذيبِها رُسُلَها"[4] استئصالًا ومحوًا وإفناءً وغرقًا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

كان من مقالة فرعون وقومه لموسى وهارون عليهما السلام أنْ عيَّروهما ببشريّتهما في ادّعاء الرّسالة، وقهر فرعون لقومه وانصياعهم وإذعانهم كالعبيد له، فهم مطيعون له، مؤتمرون بأمره؛ فكان مآل ذلك أن كذّب فرعونُ وملؤه موسى وهارونَ؛ فأهلكهم الحقّ تبارك وتعالى أسوةً بغيرهم من الأمم التي قبلها ممّن كذّبت رسلها[5].

كيف نُؤمن لِبَشَرَين، وقومُهما مُطيعون مُنصاعون لنا فأهلكهم الله بموجب تكذيبهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والأزهري، تهذيب اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (عبد).
(2) العليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 4/ 475.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (هلك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 36.
(5) مكي القيسي، الهداية إلى بلوغ النهاية: 7/ 4969.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

مقالتهم إنكار للاتباع متسبّب عن استكبارهم وعلوّهم

الفاء في ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ دالّة على العطف التّرتيبي؛ فرتّبت قولهم هذا على دعوة موسى وهارون عليهما السلام للإيمان بالله وحده لا شريك له[1].

مرجع الواو في ﴿فَقَالُوٓاْ﴾:

قول بعض الملأ لبعض كقولهم جميعًا

واو الضمير في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوٓاْ﴾ لا يرجع إلى فرعون، بل القول قول بعض الملأ لبعضهم الآخر، لكنّهم لمّا تراضوا عليه نُسبَ إليهم على وجه الجمع، وأمّا فرعون فقد كان مستمعًا لهم مُصغيًا لرأيهم ومشورتهم[2].

غرض الاستفهام في ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾:

إنكار الإيمان ببشرَيْن مثلِهم بانتفاء كونهما ابنين للآلهة، ولكونهما مقهورَين في نظرهم

الاستفهام في قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ﴾ دالّ على الإنكار والإبعاد[3]، فتقدير قولهم: (ما كان لنا الإيمان بموسى وهارون، وهما بشر مثلنا غير مؤهَّلَين لأن يكونا ابنين للآلهة، بموجب تكذيبهما إلهيّةَ الآلهة)[4]، أو هو دالٌّ على التّعجّب؛ فإنّهم حينما أتوهما بالرّسالة عجبوا من دعوتهما، (فكيف نرفعهم ونحن الغالبون عليهم، وهم تحتنا، ونحن فوقهم، وهم العابدون لنا؟)[5].

معنى اللّام ودلالتها في: ﴿لِبَشَرَيۡنِ﴾:

لا نصدّق موسى وهارون فيما جاءا به وهما من البشر

اللّام في قوله تعالى: ﴿أَنُؤۡمِنُ لِبَشَرَيۡنِ﴾ دالّة على تعدية فعل الإيمان؛ ليكون المعنى تصديق المخبِر فيما أخبر به، فتعديته باللّام فيها دلالة على صدقٍ بالخبر؛ لأجل ثقة المخبِر في نفسه، فيجوز القول: آمنت بمحمّد، أي: برسالته، وآمنت لمحمد، أي: صدّقته،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 7.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 64.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 7.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 64.
(5) الماتريدي، تأويلات أهل السّنة: 7/ 471.

ولا يجوز القول: آمنت للّه تعالى[1]، فهم قد أنكروا تصديق موسى وهارون عليهما السلام فيما جاءا به من ربّهما بسبب بشريّتهما.

سرّ وصف البشرين بـ﴿مِثۡلِنَا﴾:

ما كان صِنْوَنا في البشريّة والمأكل والمشرب وغيرهما لا يصلح أن يكون رسولًا

لّما أراد فرعون وأشراف قومه الاستدلال على بطلان دعوة موسى وهارون عليهما السلام بحسب زعمهم، أنكروا أن يكون الرّسول بشرًا شبههم في المأكل والمشرب وقضاء الحاجة وغيرها من الصّفات التي تعتري البشر[2]، ومن كان على هذه الصّفة فإنّه لا يصلح أن يباشر دور الرّسالة بحسب ظنّهم القاصر.

وكان من ضلال ملأ فرعون أنّهم يتطلّبون لصحة الرّسالة أن يكون الرّسول مختلفًا عن المرسَل إليهم في جنسه وماهيّته؛ فتخيّلوا آلهتهم أجناسًا غريبة مباينة من مثل جسد الآدمي، كرأس بقرة، أو جسد أسد ونحوها، ولا يقيمون وزنًا لاختلاف العقول والنفوس، وهي أحرى بظهور التّفاوت، فهي قرارة الإنسانيّة[3] فكان هذا التّصوّر الأعمى منهم سببًا في إنكار أن يكون الرّسول مثلهم.

كما أنّ في وصف البشرين وهما موسى وهارون عليهما السلام بـ﴿مِثۡلِنَا﴾ طَعْنًا فيما أُرْسِلا به من اللّه تعالى في جانب حالهما الذّاتيّ[4]، وهو كونهما من جنس البشر غير مؤهَّلَين لحمل الرّسالة، وفي التّعبير بـ﴿مِثۡلِنَا﴾ أيضًا توكيدٌ لبشريّتهم، وقد أرادوا بذلك مساواة موسى وهارون عليهما السلام بهم؛ فحقيقٌ عليهم السّير في الحياة الدّنيا وفق ما تمليه عليه عقولهم[5].

دلالة الواو في ﴿وَقَوۡمُهُمَا﴾، وإضافتهما إلى ضمير الغائِبَيْنِ:

كيف نؤمن لهما والحال أنّ قومهما الذين لا يؤبه لهم لنا عابدون

الواو في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾ حاليّة، والمعنى إنكار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 64 - 65.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 146.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 64.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 65.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 7.

أن يؤمنوا لهما، والحال أنّ قومهما لهم عابدون مطيعون[1]، وإضافة القوم إلى ضمير الغائبين لإفادة أنّ هؤلاء أدنى من أن يُهتمّ لهم، ويؤبه بهم، وفيه زيادة إنكار لما كان يَدْعوانِ إليه ﷺ.

الغرض من تقديم ﴿لَنَا﴾ على ﴿عَٰبِدُونَ﴾:

القوم من فريقٍ قَصَرنا عبادتهم علينا وهم أحطُّ منّا فكيف يسودوننا

قدّم الجارّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَقَوۡمُهُمَا لَنَا عَٰبِدُونَ﴾؛ لإفادة قصر عبادة بني إسرائيل عليهم، ولسان حالهم ناطق بأنّ قوم موسى وهارون من أناس لنا عابدون مطيعون خاضعون لا لغيرنا، وهم أحطّ منّا، فكيف تكون السّيادة لهم علينا[2].

العدول عن الفعل (يعبدون) إلى اسم الفاعل ﴿عَٰبِدُونَ﴾:

هم متيقّنون بأنّ القوم لهم عابدون على وجه الدّوام والثّبات

لَمّا كان الاسم دالًّا على الثّبوت والدّوام، عدل عن التّعبير عن عبادة بني إسرائيل فرعونَ من الفعلية (يعبدون) إلى الاسمية ﴿عَٰبِدُونَ﴾؛ إيذانًا بأنّهم متيقّنون بأنّ القوم لهم عابدون على وجه الدّوام والثّبات، غير متحوّلين إلى عبادة غيرهم، واسم الفاعل فيه لحظ الحدث واسميّته فيها لحظ الثبات.

الاستعارة في التعبير باسم الفاعل ﴿عَٰبِدُونَ﴾:

المبالغة في تشبيه الخضوع والانقياد بالعبادة الخالصة

والتّعبير باسم الفاعل ﴿عَٰبِدُونَ﴾ فيه استعارة تصريحية، فالعبودية هنا بمعنى الخضوع لا العبادة بمعناها المعهود؛ لسرّ بلاغيّ وهو المبالغة في تصوير الخضوع والانقياد وتشبيههما بالعبادة الخالصة[3]، فمثلما يكون العبد خاضعًا منقادًا لربّه، فكذلك هؤلاء.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾:

تفريع التّكذيب على إنكار الإيمان والطّعن في بشريتهما

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾ تفريعية؛ فقد فرَّع على قولهم السابق التّصميمَ على تكذيبهم إيّاهما المحكيَّ بقوله ﴿فَكَذَّبُوهُمَا﴾،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 8.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 65.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 8.

أي: أُرسي أمرهم على أن كذّبوهما"[1]؛ فإنّه لم يُغْنِهم أن أنكروا الإيمان بالرّسل، وأنّهم طعنوا في رسالتهما من جهة حالهم الذّاتية، أن زادوا هنا التّكذيب تصميمًا وإصرارًا.

فائدة التعبير بـ ﴿فَكَانُواْ﴾ في الآية:

هلاكهم ثابت متحقّق بموجب كذبهم

وأورد فعل الكون ماضيًا في قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾؛ للدّلالة على أنّ هلاكهم بمدعاة كذبهم ثابتٌ متحقّق ثبوتَ وجودِهم في هذه الدّنيا.

دلالة ﴿مِنَ﴾، وإيثار الهلاك مادّة وصيغة:

تعريض بتهديد قريش على تكذيبهم وإيماءٌ إلى سنّته تعالى في إهلاك المكذّبين

﴿مِنَ﴾ هنا بيانيّة للدلالة على أنّهم من جنس المهلَكين، وفي جملة الإهلاك تعريض بقريش تهديدًا لها على أن كذّبت رسول اللّه ﷺ؛ لأنّ في قوله: ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ إيماءً إلى أنّ الذين يكذّبون رسله ستشملهم سنّة اللّه تعالى في الإهلاك، واستعمال صيغة ﴿ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ أبلغ من قوله: فأُهْلِكوا[2].

واستعماله صيغة المفعول في قوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾؛ للدّلالة على عظيم قدرته ﷻ، وفيه إشارة إلى أنّ إهلاكهم لم يكن بأنفسهم من غير مُهلِكٍ مختار يهلكهم، وآية ذلك أنّه تعالى أغرقهم جميعًا؛ فلم تغنِ عنهم قوّتهم[3].

فائدة ذكر جملة ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾:

تكذيبهم سببٌ لأن كانوا من المهلكين

لَمّا كان من شأن القوم الذين أُرسِل إليهم موسى وهارون عليهما السلام أن كذّبوهما، كان جزاء المكذّبين أن أهلكهم الحقّ ﷻ بالغرق؛ فكانوا من المنتظمين في سلك الأقوام الهالكين[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 65.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 65.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 146.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 65.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

البشر والإنسان:

البـبشـر دالّ عـلى المـساواة وهـذا غرضهـم والإنـسـان ما كـان مخـالـفًا للبهيمية

أورد الحقّ ﷻ لفظ البشر حكايةً عن قوم فرعون في قوله تعالى: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ في معرض إنكار رسالة موسى وهارون ﵉ لكونهما من البشر، والبشر دالّ على الهيئة والظّهور؛ فسمّي النّاس بشرًا؛ لأنّهم أحسن المخلوقات هيئة، ولظهور شأنهم[1]، فحيثما يراد إظهار المساواة استعمل لفظ البشر، فالبشر متساوون وهو ما كان من استفهامهم الإنكاري في أنّهم أرادوا إنكار التّماثل والتّساوي، ومعناه "أنصدّق إنسانين من لحم ودم ليس لهما علينا فضل"[2] أمّا الإنسان فيدلّ على مخالفته البهيمية، واشتقاقه من النسيان، ولا يكون النسيان إلّا من بعد العلم، أمّا البهيمة فلأنّها أُبهِمت على العلم والفهم فأنّى يأتيها النّسيان[3]، وهو غير مراد من إنكارهم رسالة موسى وهارون ﵉.

الهلاك والموت:

الهلاك موت مع الشّدّة بموجب ما كان منهم من كفر وتكذيب

قوله تعالى: ﴿فَكَانُواْ مِنَ ٱلۡمُهۡلَكِينَ﴾ لَمّا كذّب هؤلاء بدعوة موسى وهارون ﵉، كان مصيرهم الهلاك من اللّه تعالى، فعبّر بهذه اللفظة (الهلاك)، ومعنى هلك أن يقع الرّجل في أمر شديد عظيم[4]، أمّا الموت فهو ما كان مضادًّا للحياة، وهو نفي الحياة مع سلامة البنية، أمّا الإهلاك فهو ما تكون البنية فيه منقوضة، والحاسّة مُبْطَلة[5]، فالإهلاك هنا أشدّ من الموت، فإنّ الحقّ ﷻ أراده موتًا مع العذاب والوقوع في الأمر الشّديد؛ بموجب ما كان منهم من كفر وتكذيب لِما جاءت به الرّسل.

---

(1) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 101.
(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 291.
(3) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 80.
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 502.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 104.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٤٩﴾ [المؤمنون: 49]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

أنزل على موسى التّوراة رجاء أن يهتدي بها بنو إسرائيل

كان مآل غطرسة فرعون وقومه أمرين: تكذيب موسى المتسبّب في إهلاكهم بالغرق، وإنزال التّوراة على موسى ﵇ والتي تشتمل على الأحكام والأوامر والنواهي؛ رجاء أن يهتدي بنو إسرائيل إلى الحقّ بأن يمتثلوا ما فيها من الأحكام والمعارف.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَهْتَدُونَ﴾: (هدي) أصلٌ، ومنهُ الهدى وهوَ نقيضُ الضّلالةِ وخلافُه، ومنْ معانيهِ البيانُ، ومنها إخراجُ شيءٍ إلى شيءٍ، ومنها الطّاعةُ والورعُ، ومنها إذا دلّهُ إلى الطّريقِ، ومعناهُ يقومُ على أصلينِ؛ أحدُهما التقدّمُ للإرشادِ، والآخرُ بعثةُ لطفٍ، وهما متقاربانِ في معناهما، والمتقدّمُ هادٍ، وذكرَ الرّاغبُ في معنى الهدى أنّهُ التلطّفُ في الدّلالةِ، ومنهُ الهدايةُ في الآخرةِ إلى الجنّةِ وتبيّنُ الوجهةِ بالتقدمِ أوْ الكشفِ[1]، ومعنى ﴿يَهْتَدُونَ﴾ في الآية - والحديثُ عن قوم موسى - أي: لعلهم يعملون بما جاء في شرائع التوراة التي أنزلت عليهم ومواعظها[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

آتـينـا مـوسى الـتّوراة ليعمل قومه بشرائعها ومواعظها

بعد أن أهلك اللّه تعالى فرعون ومن معه بالغرق، آتى موسى التّوراة، ثمّ لّما كان إيتاء موسى الكتاب بحكم إيتاء قومه ختَمَه بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ فيعملون بشرائعها وأحكامها ومواعظها؛ لأنّ الاهتداء بالكتب الإلهية إنّما يحصل بالعمل بها لا مجرّد العلم بها[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقي: (هدي).
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 189.
(3) ابن كمال باشا، تفسير ابن كمال باشا: 7/ 195.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الواو في صدر الآية:

عَطْفُ إيتائِه الكتابَ على ما سبق من إرسالهما إلى فرعون وملئه

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دالّة على العطف[1]، فقد عطف هذه الآية على ما سبق من إرساله موسى وهارون إلى فرعون وملئه، ثمّ تكذيبهم وما ترتّب عليه من إهلاكهم، فجاءت هذه الآية لتكمل القصّة بالمهم منها من إيتاء موسى الكتاب هدايةً لبني إسرائيل[2]، ويجوز أن تكون استئنافية، يراد منها التمهيد لقصة المسيح ، أو يراد منها الإشارة إلى أن إيتاء الكتاب للهداية كأنه قصة برأسها، وفيه بيان خيبتهم في مواجهة تلك المنّة الكبرى بالجحود والخسران.

الغرض من ذكر موسى وحده بعد ذكره وأخيه من قبل:

التّوراة أنزلت على موسى في الطّور وهارون خليفة في قومه

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ خصّ موسى بالذّكر مع أنّه ذكره في آية سابقة مقترنًا بأخيه هارون، وسبب ذلك التّخصيص أنّ الحقّ أنزل التّوراة على موسى في الطّور في الوقت الذي كان فيه هارون خليفة في قومه[3]، أو أنّه من باب الاختصار؛ لأنّه الأصل في الإنباء، وهو لا يمنع من دخول هارون معه في الحكم[4].

دلالة التّعبير بـ﴿وَلَقَدۡ﴾:

توكيد حقيقة الكتاب المنزل عليهم لتنظيم شؤون حياتهم

التّعبير بـ﴿وَلَقَدۡ﴾ في الآية لإفادة التّوكيد، وقد للتّحقيق[5]، بأنّه أعطاهم كتابًا فيه تنظيم العلاقة بين النّاس، وتنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكوم، وتنظيم الأسرة، وتوكيد أنّ هذا الكتاب هو دستور الحكم[6].

---

(1) الخرّاط، المجتبى من مشكل إعراب القرآن: 2/ 772.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(3) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 126.
(4) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1296.
(5) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 49.
(6) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5079.

الغرض من القَسَم المحذوف ﴿وَلَقَدۡ﴾:

بيان العناية والاهتمام بالمُقْسَم عليه

واللام موطِّئةٌ للقسم، والقسم محذوف، وفي حذفه إيجازٌ، والتعبير بـ ﴿وَلَقَدۡ﴾ إيماء إلى أهمية المذكور في الجواب لأنه لا يقسم إلا على عظائم الأمور، وفيه لفت لأهمية مايذكر.

معنى اللام في ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

أعطينا موسى التّوراة لتكون منهج هداية وعمل لبني إسرائيل

واللّام في قوله تعالى: ﴿ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾ دالّة على العهد[1]، والمعنى أنّنا أعطينا موسى ﷺ التّوراة هداية لبني إسرائيل، وعملًا بها[2]؛ فإنّ كتاب موسى إذا أطلق انصرف الذّهن إلى التّوراة كتابهم المقدّس.

الغرض من التعبير بأسلوب الترجّي (لعلَّ):

إرسال الكتاب علة تحقيق الهداية

لعل للتّرجّي: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ وهو ترقب وإشفاق، لكنه هاهنا خرج من الترجي إلى التعليل، وإنما اصطفى النظم الكريم حرف الترجي للدلالة على التعليل إيماءً إلى ما ينبغي أن يكون عليه الداعي من تعليق قلبه برجاء هداية المَدْعوّينَ، مع الأخذ بالسبب، وكأن المعنى: ولقد آتينا موسى الكتاب قائلين له اذهب إلى فرعون راجيًا هدايته.؛ فإنّ الكتاب المنزل عليهم - وهو التّوراة - من شأنه أن يترجّى من إيتائه وإنزاله عليهم أن يكون هاديًا لهم[3].

مرجع الضّمير في ﴿لَعَلَّهُمۡ﴾ ودلالته:

رجاء الهداية لبني إسرائيل لا إلى فرعون وملئه

والضمير المتصل بحرف الترجي راجعٌ للقرون التي مضى ذكرها في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِمۡ قُرُونًا ءَاخَرِينَ ٤٢﴾ [المؤمنون: 42] "ولا يجوز أن يرجع الضّمير في لَعَلَّهُمۡ إلى فرعون وملئه، لأنّ التّوراة إنّما أوتيها بنو إسرائيل بعد إغراق فرعون وملئه"[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(2) مكي القيسي، الهداية الى بلوغ النهاية: 7/ 4969.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(4) الزمخشري، الكشاف: 3/ 189.

سرّ العدول عن ذكر الظاهر إلى المضمر في لفظ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾:

حاضرون بأجسادهم غائبون بعقولهم لقساوة قلوبهم والتواء طبائعهم

الحديث في سياق الآيات جارٍ عن بني إسرائيل، إلّا أنّه عدل عن ذكرهم صراحة إلى التّعبير بضمير الغَيْبَة عنهم، وفي ذلك إشعار لما عليه القوم من عتوّ وعناد ومكر بآيات الله؛ فإنّهم يسمعون كلام الله، ويرون معجزاته ممّا يأتي بها موسى ﷺ، لكنّهم غائبون لقساوة قلوبهم، والتواء طبائعهم[1].

إيثار لفظ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

خلوصهم من الضّلالة وتجدّد الهداية في كلّ زمان

أورد لفظ ﴿يَهۡتَدُونَ﴾ لإنقاذهم من الضّلالة، فإنّ بني إسرائيل كانت الضّلالة والتّيه من أخصّ خصائصهم، أمّا اختيار صيغة المضارع فهو للإيذان بتجدّد الحكم، حكم الهداية في كلّ زمان؛ لما يدل عليه الفعل المضارع من التّجدّد الاستمراريّ.

الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الهدى والرّشاد:

الهداية استقامة في العلم وهي متضمّنة الرّشد سابقة عليه

يقول الحقّ سبحانه في شأن قوم موسى ﷺ: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ لَعَلَّهُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾؛ فجاء بالفعل ﴿يَهۡتَدُونَ﴾، وفعله المجرد من (هدى يهدي) ومصدره (الهداية)، ومعناها الدّلالة مع التّلطّف[2]، وهي مقابل الضّلال، والهدى الاستقامة في العلم، أمّا الرّشد فيستعمل نقيض الغيّ[3]، وهو الاستقامة في العمل والسّلوك، والهداية عمومًا متضمّنة الرّشد، ولّما أراد الجمع بين المعنيين استعمل فعل الهداية ﴿يَهۡتَدُونَ﴾، ولأمر آخر وهو أنّ الرّشد يتلو الهداية؛ فإنّ الاستقامة في العمل والسّلوك يأتي بعد الاستقامة في العلم وحصول اليقين.

---

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1142.
(2) الراغب، المفردات: (هدي).
(3) الراغب، المفردات: (رشد).

﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةٗ وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ ذَاتِ قَرَارٖ وَمَعِينٖ ٥٠﴾ [المؤمنون: 50]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

لَمّا اتّخذ بنو إسرائيل عيسى إلهًا وهو بشر أتبع هنا ذكره تعجيبًا من حال المكذبين

كان من أمر بني إسرائيل بعد أن أيّدهم اللّه تعالى، ونصرهم على عدوّهم، وبيّن لهم طريق الهدى والحقّ بالكتاب، أن اتّخذوا عيسى إلهًا، وهو بشر ممّن خلق اللّه، فأتبع هنا ذكره تعجيبًا من حال المكذّبين في أنّه وأمّه آية، ثمّ ذكر ممّا يحقّق بشريّتهما أن آواهما الجليل سبحانه إلى ربوة ذات مستقرّ، وماء ظاهر للعين، جارٍ ينتفع به[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ﴾: (أوى) أَصْلٌ يَدُلُّ على الميلِ، وسمّي منزل الرّجل مأواه، لأنّه المكان الذي يميل إليه فيقيم فيه، يقال: أوى المرء إلى منزله يأوي ومعناه التّجمّع والانضمام[2]، ومنه المأوى ويشمل كلّ مكان يأوي إليه الإنسان أو غيره ليلًا أو نهارًا[3]، ويأتي بمعنى الإنزال فآويته بمعنى أنزلته، ومن أوى إلى اللّه فقد رجع إليه[4] وأكثر ما ورد في القرآن من الضّمّ المُحْوِجِ للحماية[5]، ومعنى ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ﴾ في الآية، أي: ضممناهما إلى ربوة فصارا إليها، من قولهم: أوى فلان إلى موضعه، فهو يأوي إليه إذا صار إليه[6].

2) ﴿رَبۡوَةٖ﴾: (ربو) من ربا يربو، ومعناه الزّيادة، والرّابية

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 148 - 149.
(2) الفراهيدي، العين: (أوي).
(3) الجوهري، الصحاح: (اوا).
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (أوى).
(5) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤَصَّل: (أوو - أوى).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 36.

والرّبوة كلّ ما ارتفع من الأرض، وكلّ ما كان عاليًا، وإذا أربى عليه فقد أشرف عليه، وكلّ ما ينمو يسمّى ربًا كالزّرع[1]، ورَبَتِ الأرضُ إذا زادت وانتفخت، وهو نموّ الشّيء مستغلظًا مرتفعًا[2]، ومعنى ﴿رَبْوَةٍ﴾ في الآية: المكانُ المرتفعُ من الأرض على اختلاف في موضعها بين دمشق وفلسطين[3].

3) ﴿قَرَارٍ﴾: (قرّ) أَصْلانِ صَحيحانِ، يَدُلُّ أَحَدُهُما عَلَى بَرْدٍ، والآخَرُ عَلَى تَمَكُّنٍ، اسم مصدر للفعل قرّ، وجذره اللغويّ (قرّ)، والقرار هو المستقرّ من الأرض، والقارّ بمعنى السّاكن المتمكّن المستقرّ، والأصل في معنى هذه اللفظة أن يدلّ على التّمكّن، والقارّ والمستقرّ يدلّ على الثّبوت الجامد، والاستقرار نقيض التّحوّل، ومعناه المحوريّ الثّبات والتّمسّك والتّمكّن والاستقرار[4]، ووصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ﴾ وهو "المكان المطمئن الذي يستقرّ فيه الماء، ويقال للرّوضة المنخفضة: القرارة"[5].

4) ﴿وَمَعِينٍ﴾: اسم على وزن مفعول (معيون)، ثمّ حصل فيه إعلال بالحذف، وجذره اللّغويّ (معن)، والماء المعين هو الماء الظّاهر الجاري على الأرض، ومنه مَعَنَ الوادي إذا كثُر ماؤه، والأصل في الميم والعين والنّون دلالته على السّهولة واليسر في الجريان، ومنه أمعنت الأرض بمعنى رويت، ويجوز أن يكون المعين بمعنى (العين) والميم زائدة، والمعن فيه دلالة على السّهولة واليسر؛ فهو الماء الظّاهر العذب الجاري الغزير، وكلّ ذلك دالّ على السّهولة، أمّا المعنى المحوريّ له فهو: تباعد الشّيء، وأن يكون ممتدًّا متغلغلًا كالفرس يتباعد جريًا، وكالماء يتغلغل بين النّبات وأخاديد الأرض[6]، ومعنى وصف الرّبوة بأنّها ذات (مَعينٍ) في الآية، أي: الموصوفة بأنّها ذات ماء جارٍ، أو ذات عيون تجري فيها من: عانَتِ البِركة إذا جرى فيها الماء[7].

---

(1) الفراهيدي، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة، والراغب، المفردات: (ربو).
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (ربو - ربى).
(3) ابن جزيّ، التّسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 52.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (قرر).
(5) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 5/ 1523.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (معن).
(7) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 477.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

جعلنا ابن مريم وأمّه حُجَّةً وصيّرناهما إلى ربوة قارّة ذات ماء جارٍ

يذكر الحقّ ﷻ أنّه جعل ابن مريم وأمّه حجّة واضحة على قومه، وعلى قدرته تعالى على إنشاء الأجسام من غير شيء، ثمّ ضمّهما إلى مكان مرتفع من الأرض في دمشق أو في فلسطين ذي استواء واستقرار وذي ماء جارٍ[1] امتنانًا منه عليهم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

نهج المرسلين في الهداية واحدٌ، ومواجهة الكافرين في كلّ الأمم واحدة وإن تشعّبت السُّبُل

الواو عاطفة، عطفت على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ﴾، وفيه دلالة على ارتباط القصة بالقصة السابقة، لبيان أن نهج المرسلين ومواجهة الكافرين لهم واحدة، وإنِ اختلفت السُّبُل والمسالك، فإنّ الحديث في عمومه عن بني إسرائيل، فعيسى عليه السلام مرسلٌ إلى بني إسرائيل، وهو آية من آياته، وفي ذلك تتابعُ الآيات القاهرة، وهي حججٌ على هؤلاء القوم، فإن لم يستجيبوا ضوعف لهم العذاب أضعافًا مضاعفة[2].

سرّ التّعبير بالجَعْل دون الإرسال في ﴿وَجَعَلۡنَا﴾:

لم تُذكر رسالته لأنّ معجزة تخليقه دالّة على صدق رسالته

في التّعبير بالجَعْل، والعدول عن ذكر الإرسال في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾؛ إشارةٌ إلى معجزة تكوينه وتخليقه وأنّها آية عظمى في ذاته، دالّة على صدق رسالته؛ فكان الاهتمام بذكرها هنا[3]، وفي جَعْل مريمَ وابنِها عليهما السلام آيةً تشريفٌ لهما، وتنويهٌ بهما، في أنّ الحقّ ﷻ صيّرهما وسيلة لليقين بعظمته، وقدرته تعالى، ومعجزات أنبيائه؛ فهذا اعتبار حصل فيه تشريف لبعض المخلوقات[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 36.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1142.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 139.

الغرض من تقديم عيسى على أمّه:

هو الأصل فيما ذكر من كونه آية

قدِّم عيسى على أمّه عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾؛ لأنّه الأصل في ذكره هنا من كونه آية، كتقديمها في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]؛ لأنّها الأصل هناك في نسبة الإحصان والنّفخ[1].

ولّما كان عيسى عليه السلام موصوفًا بأنّه آيةٌ معجِزةٌ، وكانت مريم عليها السلام موصوفة الوصف عينه؛ فهما متساويان فكان تقديم عيسى هنا طلبًا للمساواة في النّصّ، والتماسًا للعدالة فيه؛ فقد قَدَّمَ مريمَ في مناسبة سابقة بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٩١﴾ [الأنبياء: 91]؛ فهما على السّواء في الخيريّة[2]، وأنّ كلًّا منهما آية معجزة.

سرّ العدول عن (عيسى) إلى ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾:

حقّق انتفاء الأب عنه وكونَه محمولًا في البطن مولودًا لا يصلح لرتبة الإلهية

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ حديث عن رسول اللّه عيسى عليه السلام لكنّه عَدَلَ عن التّصريح باسمه إلى ذكر كنيته، فنسبه إلى أمّه مريم عليها السلام من باب التّحقيق؛ فإنّه لا أب له؛ ولأنّه بشرٌ محمول في البطن، ثمّ مولود، ففيه إيذان ببشريّته وأنّه لا يصلح لأن يكون إلهًا[3] كما هو الشّأن في معتقدهم، ولّما كان السّياق جاريًا في الحديث عن وجه كونهما آية ومعجزة عبّر بالابن والأمّ دون عيسى ومريم عليهما السلام[4]؛ لأنّ الآية كانت في إيجاده من غير أب، وولادتها من غير زوج ولا مسيس، فلَمّا ذَكَر فِعْلَ الجَعْل أورد المجعولَ كنيةً بقوله: ﴿ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾، وفي هذا العدول إشارةٌ إلى نسبه الصّحيح في أنّه ابن مريم نفيًا لما ادّعته النّصارى بأنّه ابن الإله، ونفيًا لما رَمَتْه به اليهود بأنه ابن زنا، لا هذا ولا ذاك بل هو ابن مريم تحقيقًا[5].

(1) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 86.
(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 16/ 10051.
(3) الشربيني، السراج المنير: 2/ 581.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 183.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1142.

فائدة عطف ﴿وَأُمَّهُۥٓ﴾ عليه:

إدماج لتسفيه اليهود فيما رموا به مريم وابنها عليهما السلام

لَمّا تحدّث عن معجزة عيسى عليه السلام أردفها بذكر أمّه بقوله تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَأُمَّهُۥٓ﴾، وهو إدماجٌ فائدته تسفيه اليهود برميهم مريم عليها السلام فإنّ الحقّ تبارك وتعالى جعله آية لها ولابنها، وهم جعلوه مطعنًا ومغمزًا فيهما[1].

الغرض من حذف ﴿ءَايَةٗ﴾:

ابن مريم آية وأمّه آية فحذف الأولى لدلالة الثّانية عليها

إنّ معجزة ابن مريم وأمّه آيتان عظيمتان، فإنّ مريم ولدته من غير مسيس، وعيسى روح اللّه، وقد تكلّم في المهد، وكان يحيي الموتى، فهذه آية من غير وجه؛ فيكونا آيتين على تقدير: (وجعلنا ابن مريم آية، وأمّه آية)، فحذف الآية الأولى لدلالة الثّانية عليها[2] وفي الحذف إيجاز واختصار، كما أن فيه إلاحةً إلى أنّ المعجزتين تساويتا في القوّة حتى إنّهما معجزةٌ واحدةٌ.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿ءَايَةٗ﴾ وسرّ التعبير به مفردًا:

الآية عظيمة، ولم تتمّ معجزةُ عيسى عليه السلام إلّا بضميمة أمّه

أوردها النظم الكريم نكرةً؛ لإرادة تعظيمها؛ فهي آية مشتملة على آيات كثيرة، ولأنّ مجموعها دالٌّ على صدق عيسى عليه السلام فيما أرسل به؛ فقد جعل الحقّ سبحانه مجموعها آية عظيمة على صدقه[3].

وفي ذكر لفظ ﴿ءَايَةٗ﴾ مفردة دلالةٌ على الجنس والعموم، في إشارةٍ إلى أنّ الآية بمعنى القدرة على خلق الإنسان وإيجاده في جميع الاعتبارات؛ بأن يكون الإنسان مخلوقًا من غير ذكر وأنثى؛ وهو آدم عليه السلام، ومن ذَكَرٍ من غير أنثى؛ وهي حوّاء عليها السلام، ومن أنثى بلا ذكر؛ وهو عيسى عليه السلام، - في الآية محلّ الاستشهاد - ، ومن الزّوجين الذكر والأنثى، وهو ما ينطبق على بقية النّاس[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 66.
(2) الزمخشري، الكشاف: 3/ 189.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(4) الشربيني، السراج المنير: 2/ 581.

كما أنّه وصفهما بالآية بإفراد اللّفظ؛ لأنّ عيسى عليه السلام لم يكن دالًّا على الآية إلّا بضميمة أمّه، وولادته منها من دون أب، ومريم عليها السلام لم تكن آية إلّا بميلاد عيسى، فهما الاثنان آية معجزة بضميمة الواحد إلى الآخر(1).

سرّ تخصيص عيسى وأمّه بالذّكر:

خروجهما عن المعتاد في الخلق من غير أب ولا زوج

خصّ في هذه الآية عيسى وأمّه عليهما السلام بالذّكر في كونهما آية، مع أنّ البشر جميعًا في معنى الآية بخلقهم من نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة إلى ما ينتهي بهذا الكائن؛ فيصير إنسانًا سويًّا على أفضل خلقة؛ فالأعجوبة خلق الإنسان من النّطفة، لكنّه لمّا كان خلقهما خارجًا عن المعتاد في الخلق من دون أب وزوج خصّهما بالذّكر هنا(2).

إيثار عطف الفعل ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ﴾ مادّةً وصيغةً:

تنويه بهما إذ جعلهما الله محلّ عنايته ومظهر قدرته ولطفه

معنى الإيواء أن تجعل غيرك آويًا ساكنًا، وعطف فعل الإيواء ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ﴾ على فعل الجعل تنويهًا بهما في أنّ الحقّ تبارك وتعالى جعلهما محلّ عنايته ورعايته، ومظهر قدرته وترفّقه ولطفه(3).

سرّ التعبير بالاستعارة في لفظ الإيواء:

إيواءٌ كإيواء الأب والأمّ لابنهما مستقرًّا ومعاشًا

قوله تعالى: ﴿رَبۡوَةٖ﴾ استعارة؛ فإنّه "ذكر أنّه آواهما إلى ربوة كما يؤوي الأب والأمّ الولد إلى مكان يتعيّش به؛ إذ الرّبوة هي مكان التّعيّش فيه"(4)، وزاد عليه وصفها بالقرار والمعين، كما يكون الوالدان مستقرًّا للولد يمدّانه بالقوت والماء، وما يصلح حياته ومعاشه.

سرّ التقييد بالجارّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾:

قيّد الفعل بالجارّ المجرور بقوله: ﴿إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾ إيحاءً إلى مريم

(1) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 2/ 1277.
(2) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 471.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.
(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 472.

عند اقتراب مخاضها أن تنفرد بربوة منعزلة عن النّاس؛ لِتلدَ عيسى بعيدًا عن النّاس، وحفظًا له من أذاهم[1].

سرّ وصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾:

المبالغة في مدحه لاشتماله على صنوف الرّاحة

وصف الرّبوة بأنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾؛ لأنّه وصفٌ جامعٌ لأسباب التّنزّه والتّطهّر وطيب المكان من انبساطها، واشتمالها على الزّروع والثّمار؛ فلمّا أراد المبالغة بمدحها وصفها بذلك الوصف الجامع لصنوف الرّاحة والسّرور[2]، ومعنى القرار: المكث في المكان؛ فهو وصف دالّ على صلاحية الرّبوة لأن تكون قرارًا ومستقرًّا، فجعل إضافة الرّبوة إلى ما فيها من معنى متحصّل لأدنى ملابسة؛ بما احتوت من النّخيل المثمر، فتستظلّ به غير محتاجة إلى طلب القوت، وزاد على ذلك أن أجرى فيها الماء المعين الظّاهر الجاري على وجه الأرض[3].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإيواء والإسكان والإنزال:

الإنزال انحطاط والإسكان دائم وإيواء عيسى ومريم إلى الرّبوة أمر مؤقّت

قوله: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٖ﴾، استعمل مفردة (الإيواء)، ولم يستعمل مفردة (الإسكان)، ولا (الإنزال)؛ لأنّ الإيواء ضمّ شيء إلى شيء مع ضعفٍ ما كالنّصرة والحياطة[4] بما يوحي بأنّ الإيواء أمر مؤقّت ليس ثابتًا لازمًا، أمّا الإسكان فهو من (سكن يسكن) إذا ثبت وذهبت حركته، فالسّكون عدم الحركة[5]، وهو معنى يشير بأنّ الإسكان هو توفير المأوى الدائم للإنسان، ولم تكن الرّبوة التي آوت عيسى ومريم سكنًا دائمًا لهما، أمّا الإنزال ومنه النّزول فهو أن

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 184 - 185.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 67.

(4) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أوو - أوى).

(5) الزبيدي، تاج العروس: (سكن).

ينحطّ شيء من علو[1] حقيقة أو معنى فلا يتناسب مع الرّبوة الدّالة على العلو والارتفاع.

الرّبوة والمرتفَع:

المرتفع ما علا مطلقًا، والرّبوة ما علا مع اشتمالها على الماء والخضرة

ولّما كانت الرّبوة مشتقّة من (ربا يربو)، وهي دالّة على النّماء والزّيادة؛ عبّر بها عن المكان الذي آوى فيه عيسى وأمّه مريم عليهما السلام بقوله تعالى: ﴿وَءَاوَيۡنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبۡوَةٍ﴾، وزاد على ذلك بوصفها أنّها ﴿ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾ ليؤكّد هذا المعنى، وهو اشتمالها على الماء والخضرة[2] ممّا بهما حاجةٌ شديدةٌ إليه، أمّا مفردة المرتفع فهي لفظٌ عامٌّ يطلق على كلّ ما علا وبرز من الأرض.

(1) الراغب، المفردات: (نزل).
(2) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 86.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٥١﴾ [المؤمنون: 51]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

شأن الرّسل واحد، فكلّهم بشرٌ كما كان عيسى بشرًا

بعد أن بيّن في الآية السّابقة أنّ عيسى عليه السلام بشر ممّن خلق، وأنّه على منهاج إخوانه من الرّسل في الأكل والعبادة وسائر الأحوال البشرية، زاد في هذه الآية تحقيق هذا المعنى؛ ففيه بيانٌ وبرهانٌ للضّالّين المعتقدين فيه ما لا يليق بعبدٍ من عباد الله؛ فخاطب الرّسل جميعًا ردًّا لمنكري الرّسالة، وتبكيتًا لمبتدعة الرّهبانيّة إعلامًا بأنّ شأن المرسلين واحدٌ في هذا الأمر[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: (طيب) أَصْلٌ يدل على الطيّب الحلال، وهو أيضًا خلاف الخبيث، والطّعام الطّيّب الذي يكون سائغًا في الحلق، ويستلذّ من يأكله، والأصل في الطّاء والياء والباء دلالته على نقيض الخبيث، والطيب "ما تستلذّه الحواسّ، وما تستلذّه النّفس، والطّعام الطَّيّب في الشّرع: ما كان متناولًا من حيث ما يجوز، ومن المكان الّذي يجوز"، ومنه الماء الطّيّب إذا كان عذبًا طاهرًا[2]، والمراد بـ﴿ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾ في الآية "المُحَلَّلات، فمِلْكُ غيرِك وإن كان مستلذًّا في الحسّ، فإنّه ليس طيّبًا لك شرعًا؛ وذلك لأنّه مُسْتَقْذَرٌ من العقل بما فيه عند تناوله بدون إذن صاحبه من التّعدّي المُستقبَح في العقل"[3]، وهذا من رحمته تعالى بعباده.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 154.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (طيب).
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 353.

المَعنى الإجْماليُّ:

نداء إلى الرّسل بالأكل من الطّيّب الحلال فهو العليم بأعمالهم الباطنة والظّاهرة

بعد أن قصّ الحقّ ﷻ قصصَ بعض الأنبياء السّابقين: كما هو الحال في شأن موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وقومه المستكبرين، ثمّ ما كان من معجزة ابن مريم وأمّه، وجعلهما آية للعالمين - عَقَّبَ هنا بندائِهِ الرُّسُلَ بأن أوصاهم أن يأكلوا من الطيّب الحلال، وأن يعملوا صالح الأعمال بفعل المأمورات وترك المنهيّات؛ لما أنعم عليهم من النّعم الجزيلة، ثمّ عقّب كلامه تحذيرًا وإنذارًا بأنّه العليم المطّلع على أعمالهم ما ظهر منها وما بطن فلا يخفى عليه شيء[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

فصل الجملة في صدر الآية:

كلام مبتدأ مع رسول الله ﷺ

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾ جملة مفصولة عمّا سبقها من قول؛ فهي ابتداء كلام غير متعلّق بما قبله، موجّه إلى رسول الله ﷺ، والتّقدير: (وقلنا يا محمّد ﷺ للرّسل عليهم السلام أن افعلوا كذا وكذا ...) الآية[2].

دلالة التّعبير بلفظ الرّسل:

هذا المأمور به ممّا يجب عليهم تبليغه

على الرّغم من أنّ النّداء الموجّه إلى الرّسل مشتمِلٌ على إباحة الأكل من الطّيّبات، وعلى عمل الصّالحات بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ﴾، لكن التّعبير بلفظ الرّسل فيه إشارة إلى أنّ ما نودوا به إنّما هو أمر يجب عليهم تبليغه[3]، وفي التّعبير بلفظ الرّسل علّةٌ أيضًا، وهي أنّه خطابٌ عامٌّ موَجَّهٌ إلى اتباع الرّسل جميعًا، لكنّه خصّ الرّسل هنا بالخطاب؛ لأنّهم القدوةُ والمَثَلُ للإنسانية كلّها، ولأقوامهم على وجه الخصوص[4].

(1) المراغي، تفسير المراغي: 18/ 28.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 186.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 354.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 9/ 1144.

سرّ التعبير بالمنادى جمعًا في قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ﴾:

كلّ رسولٍ قد أوحى الله إليه بهذا النّداء والأمر في زمانه

جاء نداءُ الرّسل وتوجيهُهُم إلى الأكل من الطّيبات وعمل الصّالحات مجموعًا بقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ إذ أورد الخطاب مجموعًا؛ مع أنّهم أُرسلوا متفرّقين في أزمنة مختلفة؛ ليُعلم أنّ كلّ رسول في زمانه قد أوحى اللّه إليه بهذا النّداء والأمر؛ فيحصل اعتقادٌ من السامع بأنّ أمرًا نودي به الرسل جميعًا لَهوَ أمرٌ مهمٌّ حقيقٌ بأن يؤخذ ويعمل به[1].

سرّ تقديم جملة النّداء على جملة الأمر:

في التّقديم اهتمام بالمأمور وهم الرّسل

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَـٰلِحًا﴾ قدّم جملة النّداء على جملة الأمر؛ أي بتقديم الأكل من الطّيبات، على عمل الأفعال الصّالحات من فعل المأمورات، وترك المنهيّات؛ وذلك اهتمامًا بالمأمور[2].

ومن لطائف هذا التّرتيب أنّ الأعمال تتوقّف على سلامة الأبدان، فالمحافظة عليها من الواجبات، وليس من الإسلام تحريم الطّيّبات، ولا تضعيف الأبدان وتعذيبها، والميزان العدل فعل الرّسول ﷺ، وما كان عليه أصحابه رضوان اللّه عليهم - ففي هذا التّقديم تنبيه على أنّ طيّب الغذاء به صلاح القلب والبدن؛ فتصلح الأعمال، كما الغذاء الخبيث يفسد القلب والبدن فتفسد الأعمال[3]، كما أنّ فيه دلالةً على أنّ العمل الصّالح ينبغي فيه أن يكون مسبوقًا بأكل الحلال الطّيّب[4].

سرّ دخول ﴿مِنَ﴾ في أكل الطيّبات خاصّة:

في قوله تعالى: ﴿كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾ استعمل حرف الجرّ ﴿مِنَ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 280.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 354.
(3) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 355.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 281.

الدّال على التّبعيض، وهو أحد معانيها المشتهرة في كلام العرب[1]؛ لأنّ المقصود من الأكل وهو الغذاء واللّذة يحصلان ببعض الطّيبات[2].

سرّ تخصيص خطاب الرسل جميعا بالأكل من الطيبات والعمل الصالح:

إباحة الطّيّبات شرعٌ قديم جرى عليه جميع الرّسل ولا ينافي العمل الصّالح

في خطابه للرّسل جاء التّعبير بأكل الطّيّبات، وعمل الصّالح للرّسل على وجه الخصوص؛ للإيذان بأنّ أكل الطّيّبات شرع قديم جرى عليه الرّسل جميعًا، ووصّوا به، وفيه دلالة على بطلان ما عليه الرّهابنة من رفض الطّيّبات[3]، كما أنّ الأكل من الطّيّبات لا ينافي العمل الصّالح.

علّة فصل جملة ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾:

فصل قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ عمّا قبله؛ لأنّه على نيّة التّعليل، أي: اعملوا الصّالحات؛ فإنّي بما تعملون عليم، لا يخفى عليّ شيءٌ مهما صغُر، فأجازيكم على أعمالكم إن خيرًا، وإن شرًّا[4].

دلالة حرف التّوكيد في الجملة:

شأن النّفس أن تستشرف ثمرة الأكل الحلال والعمل الصّالح

"ولمّا كان المخاطب بأكل الحلال والعمل الصّالح شأنه أن تستشرف نفسه لتعيين ثمرة ذلك، جاء الخبر مؤكّدًا بإنّ"[5] في قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾؛ للإشارة إلى أنّ الحقّ سبحانه يجازي عباده على ائتمارهم بأوامره، وانتهائهم عن نواهيه على وجه التّحقيق والتّوكيد؛ فتطمئنّ نفوسهم بذلك.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور عن الخبر:

الحصر بأعمالهم دالٌّ على التّخويف والتّحذير

قدّم الجارّ والمجرور على الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾؛ للدّلالة على الاهتمام والحصر، وعِلۡمُ المولى سبحانه يشمل ما

(1) المبرد، المقتضب: 1/ 44.
(2) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 354.
(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 580.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 575.
(5) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 354.

كان وما سيكون وما هو كائن إلى يوم القيامة، إلّا أنّ الحصر هنا من باب التّخويف والتّحذير، فكأنّه تعالى قد حصر علمه بما يعمل هؤلاء.

الغرض من التعبير بالكناية في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾:

علم الله مستلزمٌ لجزائه للعاملين وفي الكناية عن الجزاء بالعلم تفخيمٌ وتعظيمٌ

في الإخبار عن علمه تعالى في قوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ﴾ كناية عن الجزاء؛ فإنّ علم الحقّ ﷻ مستلزمٌ لجزائه للعاملين من خلقه، أي: أنا عالم حقّ العلم بما قدمتم من عمل صالح، وسأجازيكم عن ذلك، وفي هذه الكناية عن الجزاء بالعلم وتوكيده تفخيمٌ وتعظيمٌ لذلك الجزاء، فهو جزاء العليم، وأعظِم به من جزاء[1].

(1) ابن باديس، مجالس التذكير، ص: 354.

﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ٥٢
فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ زُبُرٗاۖ كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ ٥٣﴾

[المؤمنون: 52 - 53]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

اتّـفـاق الـرّسـل على أكل الحلال وصالح الأعمال يقتضي اتّفاقهم على توحيد الله وتقواه

في ندائه تعالى الرُّسُلَ بالأكل الحلال من الطّيّبات، والأعمال الصّالحات، وأنّه يجب اتّفاقهم على ذلك في الآية السّابقة، بيّن هنا اتّفاقهم أيضًا على توحيده ﷻ في الذّات والصّفات، وعلى اتّقاء معصيته، ولكنّ المشركين تفرّقوا، وذهب كلّ قوم وهو مغتبطٌ بما اتّخذ من دين لنفسه، وهو يظنّه الحقّ، وغيره الباطل[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾: (أمم) أصْلٌ يدُلّ على تَضامّ شيءٍ أو أشياءَ متجانسةٍ، أي لحاق بعضها ببعض في حيّز يحيط بظاهرها بلطف[2]، فالأمّة: كلّ جماعة يجمعهم أمرٌ ما، إمّا دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواءً كان ذلك الأمر الجامع تسخيرًا أو اختيارًا"[3]."والأمّة: القرنُ والجيل من النّاس، جماعة كبيرة متّحدو الجنس، أو زمن الوجود معًا"[4]، ومعنى ﴿أُمَّتُكُمۡ﴾ في الآية أنّ الأصل في القوم إذا اجتمعوا على دين واحد أن يُقال لهم أمّة كما يُقال أمّة محمّد ﷺ؛ فهم على أمر واحد، فوَصَفُهم هنا بالأمّة بموجب اجتماعهم على دين وشريعة واحدة[5].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 281 - 282.
(2) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (امّ)، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمم).
(4) الجوهري، الصحاح، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (أمم).
(5) ابن قتيبة، تأويل مشكل القرآن: 5/ 121.

2) ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: (قطع) أَصْلٌ يَدُلُّ على معنى الفصل للأشياء، وقد يكون بإدراك البصر كالأجسام المحسوسة، أو بالبصيرة كالمعقولات، والمعنى المحوريّ له: فصل الأجرام الممتدّة شقًّا[1]، ومُنْقَطَعُ كلّ شيء: انتهاءُ غايته، والقطعة: الطّائفة من كلّ شيء، وتقطيع الأمر تقسيمُه، وتقطُّعُ الأمر هو الاختلاف في الدّين مع أنّ الحقّ ﷻ قد أخبرهم أنّ دينهم واحد وأمرهم واحد وهو الإسلام، لكنّهم تقطّعوا واختلفوا، وصاروا أحزابًا وفِرَقًا على غير دين ومذهب واعتقاد واحد[2]، ومعنى ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾ أي: أنّهم اتّخذوا الكثير من الآلهة معبوداتٍ لهم؛ فغدا دينهم مقطّعًا قطعًا كثيرة، ولكلّ فريق منهم وطائفة صنمٌ وعبادةٌ من دون اللّه[3].

3) ﴿أَمۡرَهُم﴾: (أمر) الأمر نقيض النَّهي، والأمر واحد من أمور النّاس، وإذا أمرت من الأمر، فأمّا الواحد من الأمور فقولهم: هذا أمر رضيته، وأمر لا أرضاه، وفي المَثَل: أمرٌ ما أتى بك، والأمر: الشّأن، وجمعه أمور، والأمر: إذا كلَّفْتَه أن يفعل شيئًا، وهو لفظ عامّ للأفعال والأقوال كلِّها، والأصل في الأمر طلب الفعل، لكنّه قد يطلق باعتبار الحال والبيان، فيشمل ذلك الأقوال والأفعال، ويَرِدُ الأمر بمعنى الدّين الذي جاءهم به نبيّهم[4]، ومعنى تقطيع الأمر بينهم في الآية، أي: أمر الدّين الذي أُمروا به فجعلوه أديانًا مختلفة[5].

4) ﴿زُبُرٗاۖ﴾: (زبر) أصلٌ يدلّ على إحكام الشيء وتوثيقه، وعلى قراءة وكتابة وما أشبه ذلك، ومعنى الزُّبْرَة: القطعة من الحديد الضّخمة[6]، ثمّ يستعار للمجزّأ والمقطّع فيقال: زُبَر[7]، ومعنى الزُّبَر "إيقاع التّقطيع على الأمر، وصيرورته زُبُرًا، أي: قطعًا يفسّر بالشيَع"[8]، ومعنى لفظة ﴿زُبُرٗاۖ﴾ في الآية، أي: اختلافهم كالفِرَق، وكالقِطَع المختلفة

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (قطع).
(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 298، والعسكري، الوجوه والنظائر، ص: 71، والهروي، الغريبين، ص: 1561.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (أمر).
(5) الكرماني، غرائب التفسير: 2/ 779.
(6) الفراهيدي، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (زبر).
(7) الراغب، المفردات: (زبر).
(8) الراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (زبر).

المتباينة، المفرد منها (زبور) بمعنى الفرقة والطّائفة، أو بمعنى الكُتُب على أن المفرد منها (زَبور) بمعنى كتاب[1].

5) ﴿حِزۡبِۭ﴾: (حزب) أصلٌ يدلّ على التّجمّع مع التّماسك والتكتّل والشدّة مأخوذًا من الحَزْب والحِزْباءِ وهي الأرض الغليظة الشّديدة، ومعنى الحِزْب: أصحابُ المرء ممّن يكونون على أمره ورأيه، ومنه تحازب القوم إذا كان بعضهم لبعض ممالئًا، وكلّ قوم تشاكلت قلوبهم وأعمالهم فهم أحزابٌ وإن لم يلقَ بعضهم بعضًا، ويأتي الحزب بمعنى الطّائفة والجماعة من الناس، وجمعه الأحزاب، وجعل الرّاغب الحزب للجماعة التي تتّصف بالغلظة، ويأتي الحزب بمعنى النّصرة في قولهم: فلان يحازب فلانًا، أي: ينصره ويؤيّده ويعاضده، فميزة الحزب التّماسك على الحقّ أو الباطل[2]، ومعنى الحزب في قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾، أي: كلّ فِرْقَةٍ افترقت عن الأخرى، وآية ذلك أن دانت كلّ فرقة بكتابها؛ فدانت اليهود بحكم التّوراة، وكذّبوا سواه، ودانت النّصارى بالإنجيل، وكذّبوا سواه[3].

6) ﴿فَرِحُونَ﴾: (فرح) أصلٌ يدلّ على ضدّ الحزن، فأيّ شيء يُفْرِحُك فهو يَسُرُّك، وإذا انشرح الصّدر بلذّة عاجلة سُمّيَ فرَحًا، والغالب أن يكون ذلك في اللّذّات الدّنيويّة، ولا سيّما اللّذات البدنيّة، ومن معاني الفرح الأخرى البَطَر، ويطلق الفرح على عدّة معانٍ في القرآن الكريم كالأشَر والرّضا والسّرور، والفرِحُ من يجد في قلبه خفّة، ولذلك علاقة فإنّ الفرح خروج الغلظ والثّقل من الفؤاد؛ فيصبح الصّدر منشرحًا؛ لتخلّصه ممّا يثقله ويهمّه[4]، ومعنى ﴿فَرِحُونَ﴾ في الآية، أي: معجبون مسرورون كلّ أحد منهم يظنّ أنّه على الحقّ المبين[5].

۞ المَعْنى الإجماليُّ:

يخبر الحقّ ﷻ الرّسلَ جميعًا بأنّ ملّتهم ملّةٌ واحدة؛ فلا تكونوا إلّا على دين واحد،

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 292.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حزب).
(3) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 41.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (فرح).
(5) الكرماني، لباب التفاسير، ص: 2074.

المـلّـة واحـدة والتّقوى واجبة فتفرّق النّاس عمّا أُمِروا به، وفـرحـوا بما وضعوا

مجتمعون في الاعتقاد، وأصول الشّرائع، وأن تكونوا جماعة واحدة باتّفاقكم على الإيمان، والتّوحيد في عباداتكم، فلا تشقّوا العصا، ولا تخالفوا الكلمة؛ لأنّ ذلك ينافي التّقوى، فما كان من أمم الرّسل إلّا أن تفرّقوا في دينهم، وجعلوه أديانًا كثيرة مختلفة، وكلّ حزب من أولئك فرِحٌ بما ابتدعه من الدّين، ظنًّا منه أنّه على الحقّ المبين، وغيره على الباطل المشين[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى الواو ودلالتها في ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾:

عـطـفٌ على خطاب الرّسل أو على قصص الإرسال

الواو في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ دالّة على العطف، فقد عطفت هذه الجملة على قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾؛ فتكون هذه الجملة ممّا قيل للرّسل، أي: قلنا لهم بأنّ أمّتكم أمّة واحدة، ويجوز أن تكون معطوفة على قصص الإرسال من لدن قوله: ﴿وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦ﴾ [المؤمنون: 23]، فقد قصّت تلك القصص للاهتداء بها؛ لأنّ شأن الرّسل الدّعوة إلى التّوحيد[2]، ويجوز أن تكون الواو دالّة على الحال، فإنّ الحقّ سبحانه أمر الرّسل بملّة الإسلام الملّة الواحدة، فما كان من المشركين إلّا ركوب طريق الضّلال بأن تقطّعوا أمرهم، وعاندوا الرّسل، ومالوا عن الدّين، وانحرفوا عن طريق الإسلام والتّوحيد، وهو شريعة إبراهيم عليه السلام[3].

دلالة التأكيد ﴿وَإِنَّ﴾:

أورد الكلامَ مؤكَّدًا بـ(إنّ) في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ﴾ ردًّا على المشركين من أمم الرّسل الذين أرسلوا إلى أقوامهم، أو المشركين الذين خوطبوا بالقرآن الكريم[4].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 90.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 69.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 17/ 142.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.

تنوّع القراءات في ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾ وبلاغتها:

دينكم واحد فلا تُعدِّدوا المعبود واتّقوني ولا تُشركوا بي غيري

قرأها الجمهور ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة وتشديد النّون، والخطاب يكون للرّسل وللمنذَرين، ويكون التّقدير باللّام (لأنّ)، والمعنى: لكون دينكم واحدًا لا يتعدّد فيه مَن تعبدون، وأنا ربّكم فاتّقون، ولا تشركوا معي غيري، فهو خطابٌ لأمم الرّسل، أو خطابٌ عامٌّ لكلّ من خاطبهم القرآن[1].

وقرأها عاصم وحمزة والكسائيّ وخلف ﴿وَإِنَّ﴾ بكسر الهمزة وتشديد النّون[2]، فالكسر لوقوع (إنّ) في حيز حكاية القول، أو لأنّ الجملة مستأنفة، والمعنى الوارد نفسه في قراءة الجمهور[3].

وقرأها ابن عامر ﴿وَأَنْ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النّون[4]، فهي مخفّفة من (أنّ) المؤكّدة المفتوحة الهمزة، واسمها ضمير شأن محذوف، والخبر ما بعدها من جملة، فيكون التّقدير (وأن الشّأن أمّتكم أمّة واحدة)، والمعنى نفسه على قراءة الجمهور[5] بتوحيده، ولزوم تقواه، وعدم الإشراك به، فجمعت القراءات الثلاث بين التعليل والتأكيد، للدلالة على أهمية لزوم الأمة الواحدة والحفاظ على وحدتها.

سرّ التّعبير باسم الإشارة ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾:

مرادٌ به شريعة كلٍّ من الأنبياء أو شريعة الإسلام على الوجهين في المخاطب

بعد أن صدّر الآية بحرف التّوكيد، أعقبه باسم الإشارة بقوله تعالى: ﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ﴾؛ لأنّه أراد باسم الإشارة هذا شريعة كلّ نبيّ من الأنبياء، أو أراد به شريعة الإسلام على الوجهين فيمن خوطب بهذه الآية[6]، وفي إيراده اسمَ الإشارة مؤنّثًا لطيفة؛ فإنّ الإشارة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 69 - 70.
(2) ابن مهران، المبسوط، ص: 312، وابن الجزري، النشر: 2/ 328.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.
(4) ابن زنجلة، حجة القراءات، ص: 488.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 70.

في التّأنيث دالٌّ على أمر مستحضر كائنٍ في الذّهن، وضَّحَه الخبرُ والحال، فمعنى التّأنيث، أي: هذه الشّريعة التي أوحيناها إليك هي شريعتك فالتزمها، ولا تغيّر فيها شيئًا زيادة أو نقصانًا، وكان القصد الإخبار عن اسم الإشارة قصدًا إلى الاتحاد بين مَدْلولَيِ الإشارة والخبر؛ لإفادة الثّبات وعدم التّغيير[1].

موقع ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ ودلالته:

أمّتكم في حال كونكم جماعة واحدة فمتى تفرّقتم ذهب الوصف عنكم

ويقع قوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ موقع الحال[2]، والحال عند النّحويين ما دلّ على الانتقالِ والتّحوّل والتّغيّر[3]، ولَمّا أراد أن يكون المعنى أنّها أمّتكم في حالِ كونِها جماعةً واحدةً على دين واحد كالتّوحيد والصّفات والنّبوّات والطّاعات، فإن تفرّقتم في طرق الباطل[4] ذهب هذا الوصف عنكم، وهذا هو شأن الحال أن تكون منتقلة؛ فحَسُنَ التّعبيرُ بها في هذا الموضع، وتقييد الأمّة بهذا بيان أنّ وصف الأمّة الحق لا يكون إلا بتوحيد اللّه سبحانه والتوجّه إليه وحده دون سواه.

موقع قوله ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾ مما قبله ودلالته:

أنا المحسن إليكم بالخلق والرّزق وحدي وبتوحيدي النّجاةُ

قوله تعالى: ﴿وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ﴾، الواو دالّة على الحال، أي: إن كنتم كذلك؛ فالحال أنّني أنا الذي أُحْسِنُ إليكم خَلْقًا ورزقًا وحدي لا يشاركني فيه غيري، فحَريٌّ بكم توحيدي؛ ففي توحيدي النّجاة، وفي تعدّد الأرباب الهلاك[5]، وتفرُّد المنعم - كما تدلّ عليه الجملة الحالية - تعليل لوحدة الأمة، فوحدة المنعم تقتضي توحيد الاتجاه والاجتماع على معبود واحد، وسرُّ التعبير بجملة الحالية اسمية بيانُ ثباتِ وصفِ الربوبية له وحده على الدوام.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 71.
(2) مكي القيسي، مشكل إعراب القرآن: 2/ 503.
(3) ابن بابشاذ، شرح المقدمة المحسبة: 2/ 311.
(4) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 914.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 155.

إيثار لفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ مادّةً وصيغةً:

أورد فعل الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ في خطابٍ عامٍّ للرّسل والأمم، وهو في حقّ الرّسل للتّهييج والإلهاب، وأراده في حقّ الأمم للتّحذير والإيجاب، وكلٌّ من الرّبوبيّة واتّحاد الأمّة موجبٌ للاتّقاء حتمًا[1].

دلالة الفاء في لفظ ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾ جزائيّةٌ، وفيها دلالةٌ على تضمُّن الكلام معنى الشّرط، فإن كنتم تتقون شيئًا ما فاتقونِ، فإنّ ألوهيّته وربوبيّته والعقائد الحقّة والشّرائع المنزلة لا تختلف عليها العقول السّليمة، وهي موجبةٌ للتّقوى[2].

إن كنتم متّقين شيئًا فاتّقونِ فالعقول السّليمة متّفقة على ألوهيَّتي وربوبيَّتي

توجيه المتشابه بين آيتي المؤمنون (52) والأنبياء (92):

وذلك بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ٩٢﴾ [الأنبياء: 92]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾، فإنّ للسّائل أن يسأل عن اختلاف كلّ آية فيما ختمت به من الأمر بالعبادة في الأولى، والأمر بالتّقوى في الثّانية؟

الأمر بالعبادة خطابٌ لِفِرَق الباطل والضّلال والأمر بالتّقوى للرّسل والمؤمنين

والجواب عن ذلك أنّ الخطاب في آية (الأنبياء) خطاب للفِرَق التي تفرّقت في طرق الباطل والضّلال، ولم تُخلِص العبادة له وحده تعالى؛ فجاء الأمر بالعبادة، أمّا آية (المؤمنون) فإنّ الخطاب فيها أكثره للرّسل وهم يعبدون اللّه تعالى، فكان خطابًا للمؤمنين، فأمرهم بالتّقوى والاحتراز بطاعته، والامتناع بموجبات الثّواب عن موجبات العقاب[3].

ومن مناسبة التّذييل بالأمر بالعبادة في آية الأنبياء أنّ السّورة لم يرد فيها لفظ التّقوى من أوّلها إلى آخرها خبرًا أو أمرًا، أمّا

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 138.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 188.

(3) الإسكافي، درة التنزيل: 1/ 917، وابن جماعة، كشف المعاني، ص: 258.

سورة (المؤمنون) فقد ورد فيها لفظ التّقوى ثلاث مرّات؛ فروعيَ في الأولى ما تقدّمها، وبالثّانية ما اكْتَنَفَها.

ومن ذلك أيضًا أنّه أورد الأمر بالعبادة والأمر بالتّقوى على مقتضى التّرتيب؛ فإنّ الاتّصاف بالعبادة سابقٌ على الاتّصاف بالتّقوى مثلما سورة (الأنبياء) سابقة على سورة (المؤمنون)[1].

دلالة الفاء في صدر الآية:

لم تتريث الأمم عقب تبليغ الرّسل فاتّخذت آلهة كثيرة

لَمّا بلّغ الرّسلُ أممَهم بأنّ الدّين واحد، وأنّ الربّ واجب التّقوى، لم يتريّثوا عقب هذا التّبليغ، بل اتّخذوا آلهة كثيرة، وصار أمر دينهم متقطّعًا مشتّتًا، فتجد لكلّ فريق منهم صنمًا، ولكلّ فِرْقَة منهم عبادةً خاصّة؛ فكانت الفاء دالّة على التّعقيب[2] وتفيد الفاء التّفريع فضلًا عن التّعقيب؛ لأنّه لَمّا كان الكلام قد سيق مساق الذّمّ؛ فقد تفرّع على ما أمرناهم به من عبادته تعالى وتوحيده أنّهم جاؤوا خلاف ما أُمِروا به، وأتوا عكس مطلوبنا، ليكون الكلام دالًّا على التّعجيب من حالهم، فضلًا عن ذمّهم وتقبيحهم[3].

إيثار الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ مادّةً وصيغةً:

دلالته على الشّدّة في التّقطّع والمبالغة فيه وفي ذلك ذمّ لهم

أورد فعل القطع مزيدًا مطاوعًا في قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمۡرَهُم﴾؛ فإنّ فعل التّقطّع مطاوع للفعل المزيد (قَطّعَ) زنة (فَعّلَ) الدّال على الكثرة والمبالغة[4]، فاستعمل فعل التّقطّع هنا متعدّيًا؛ لإفادة الشّدّة في حصول فعل التّقطّع في أنّهم أوغلوا في تفريق دينهم، فجعلوه نِحلًا كثيرة، واتّخذ كلّ واحد منهم له دينًا[5] بعد أن أراده الحقّ سبحانه لهم دينًا واحدًا، وفي ذلك تقبيح وتشنيع عليهم، والأصل

(1) الغرناطي، ملاك التاويل: 2/ 453 - 454.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(4) سيبويه، الكتاب: 4/ 64، وابن عصفور، الممتع الكبير في التصريف، ص: 129.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.

في ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾: (تقطّعتم)، لكنّه عدل عن الخطاب المباشر إلى الغَيْبَة على طريق الالتفات، كأنّه ينقل سوء صنيعهم، وما أفسدوه إلى غيرهم، مع تقبيح فعلهم قائلًا:)ألّا ترون إلى هؤلاء وما ارتكبوا من عظيم الفعل الشّنيع)[1].

جعلوا أنفسهم فِرَقًا فعبدوا آلهة متعدّدة واتَّخذت كلُّ قبيلة لنفسها إلهًا

ويجوز أن يكون فعل التّقطّع قاصرًا غير متعدٍّ، فعندئذٍ قد أسند فعل التّقطّع إليهم على سبيل الإبهام، ثمّ ميّزه بالأمر معرفة على إرادة تقطّعوا أمرًا؛ فقد جعلوا أنفسهم طوائف وفرقًا متعدّدة، فعبدوا الكثير من الآلهة كلّ اتّخذ لنفسه إلهًا مع اللّه[2].

مرجعية الضّمير في الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾:

ضمير الجمع عائد إلى أمم الرّسل ومَنْ نشأ بعدهم

الضّمير في الفعل ﴿فَتَقَطَّعُوٓاْ﴾ راجع إلى الأمم التي تفهم من سياق الكلام، وهم المقصودون من خطابه بأنّ ﴿هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾، فهو تصريح بأنّ الأنبياء ومن تبعهم ونجا منهم أمّة واحدة، فالضّمير راجع إلى الأمم ومن نشأ بعدهم[3] الذين قطّعوا دينهم، وصاروا أحزابًا وفِرَقًا.

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿زُبُرٗاۖ﴾:

الزُّبُر جمع مفرده (زَبور) بمعنى الكتاب، وقد استُعير اسم الكتاب للدّين، فشأن كلّ دين أن يكون كتاب لأهله، ولّما لم يكن لكلّ من هؤلاء الذين تقطّعوا أمرهم كتاب، جعلت الاستعارة هنا تهكّميّة باتّخاذهم لأنفسهم عقائد وأديانًا لو سجّلت لكان ينبغي أن تكون زُبُرًا[4].

موقع قوله: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ﴾ عمّا قبلها، ودلالته:

زيادة في معنى الذّمّ فهم ليسوا بحال من يفرح

فصل قوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنّ

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 22/ 183.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73، و: 17/ 142.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 156.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.

ما سبق قد ساقه الجليل تعالى مساق الذّمّ بجامع مخالفتِهم أمْرَنا، وإتيانِهم عكْسَ مطلبنا، فلمّا أراد زيادة معنى الذّمّ، والإغراق فيه ذيّله بهذه الجملة، والمعنى: كيف يكون لهم الفرح، وهم ليسوا بحال من تكون صفته الفرح[1]، فتقع جملة ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ موقع الاستئناف البيانيّ؛ لأنّه لّما تقطّعوا أمرهم زُبُرًا بعد بيان الأمّة الواحدة، وهذا ممّا لا يرضاه عاقل، نشأ عن ذلك سؤالٌ مفاده: وهل رضوا بذلك مع ما كان من ضرره؟ فالجواب عن ذلك أنّهم على تفرّقهم فهم فرحون بما لديهم من الغيّ والضّلال[2]، ويجوز في جملة ﴿كُلُّ حِزۡبِۢ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾ أن تكون تذييلًا لما سبقه من كلام؛ فإنّ التّقطّع سبب لحصول التّحزّب؛ فذيّل بهذه الجملة فكان كلّ فريق منهم جَذِلٌ راضٍ بدينه، والمعنى كلّ حزب منهم[3].

سرّ إضافة ﴿كُلُّ﴾ إلى ﴿حِزۡبِۢ﴾:

الإضافة تفيد التعميم، وفي التعميم بيانٌ لشيوع الجريمة الذي يترتب عليه الأخذ الشديد، والهلاك العميم.

الغرض من تقديم ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ على الخبر:

كـونـه لـديـهـم فتنهم ففرحوا بـه واستـغـنـوا عما سواه

الغرض من تقديم الجار والمجرور ﴿بِمَا لَدَيۡهِمۡ﴾ على الخبر ﴿فَرِحُونَ﴾ بيان عنايتهم بما لديهم من مخالفة محمد ﷺ وكونه السبب في الفرح من تقديم السبب على المسبب.

إيثار لفظ ﴿فَرِحُونَ﴾ مادّة وصيغة:

المبالغة في الفرح عن غير دليل ولا تبصّر بل لمجرّد الـعـكـوف على المعتاد

واستعمل لفظة ﴿فَرِحُونَ﴾ للدّلالة على المبالغة في المسرّة؛ فإنّ (فَرِحٌ) صيغة مبالغة زنة (فَعِلٌ)[4]، والمعنى أنّهم راضون جَذِلون باتّخاذهم طريقتهم في الدّين، وهو فرَحٌ من غير دليل ولا تبصّر ولا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 72.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 157.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(4) الرضي، شرح شافية ابن الحاجب: 2/ 88.

هداية، بل لمجرد أنّهم عاكفون على ما اعتادوا[1]، ولشدّة الفرح منهم بدينهم الباطل دلالة؛ فهو يومئ أنّ ما قطّعوا من الدين الواحد أمر متقرّر لديهم، فلا يرضون من أحد أن يخالفهم، بل ويعادونه، وذلك يفضي تفريقًا وتخاذلًا بين الأمّة الواحدة، وهو خلاف مراده تعالى؛ لأنّ التّحزّب سبب لسقوط الأديان والأمم، وهو من دعوة الشّيطان في أنّه يُلبس على النّاس الباطل في صورة الحقّ[2].

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الفرح والسرور والضحك:

الضّحك هيئة والسّرور بما فيه نفع والفرح ممّا ليس فيه نفع أو لذّة

عبّر المولى سبحانه عن حالهم بعد أن تقطّعوا أمرهم بقوله تعالى: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾، فجاء بوصف الفرح، وعَدَلَ عن أوصاف مشترِكة معه في المعنى العامّ من مثل السّرور؛ لأنّ الفرح قد يكون بما ليس فيه نفع ولا لذّة كفرح الصّبيّ بالرّقص والسّباحة ونحوها ممّا فيه تعبٌ ونَصَبٌ وأذى[3]، أمّا السّرور فهو فرحٌ مَشوبٌ بالنفع واللّذة على الحقيقة، أمّا الضّحك فهو يدلّ على الهيئة من انبساط الوجه وظهور الأسنان[4]، ولّما كان من شأن المتحزّبين رضاهم وإعجابهم[5] بما ارتكبوا من تقطيع الدّين والملّة استعمل وصف الفرح؛ لعدم مناسبة وصف السّرور، ولا وصف الضّحك لما بان من معانيهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 73.
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 689.
(4) الراغب، المفردات: (ضحك).
(5) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 483.

﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ حَتَّىٰ حِينٍ ٥٤﴾ [المؤمنون: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

نتج عن تفرّقهم وتقطّعهم زُبُـرًا انغماسهم في الضّلال

لَمّا فرح النّاكبون عن الصّراط بما كان من تفرّقهم على أديان وكتب كثيرة، وكلٌّ يدّعي أنّه على الطّريق المستقيم؛ فتحصّل من ذلك أنّ الضّلال وإن بانَ فلا يكشفه إلّا ذو الجلال؛ فتسبب عنه هذه الآية تسليةً لحبيبه ﷺ في تركهم في ضلالتهم حينًا من الزّمن[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾: (وذر) الفعل الماضي منه متروك، أماتته العرب، وأبقت الحاضر (يذرُ) والأمر (ذرْ)، وهو بمعنى التّرك؛ ولذلكَ استغنوا بالفعل (تركَ) عن الفعل (وذرَ)، وسُمعَ المصدر (وذرٌ)، ويُقالُ: فلانٌ يذرُ الشّيءَ، أي: يقذفه لقلّة اعتداده به؛ فقد فُسرَ قوله: ﴿ثُمَّ ذَرۡهُمۡ فِي خَوۡضِهِمۡ يَلۡعَبُونَ ٩١﴾ [الأنعام: 91] بمعنى القذف والإلقاء والتّرك فلا يعتدّ بهم ولا يبالى لهم[2]، فهو أخصّ من التّرك بزيادة عدم الاعتداد، ومنه الوذرة قطعة من اللّحم صغيرة[3]، ومعنى ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ في الآية، أي: اتركهم يا محمّد ﷺ وقتًا من الزّمان؛ فيأتيهم ما وعدهم اللّه تعالى من العذاب[4].

2) ﴿غَمۡرَتِهِمۡ﴾: (غمر) أصلٌ يَدُلُّ على تغطيةٍ وسَتْرٍ في بعض الشدّة، فمن ذلك: الغَمْرُ بمعنى الماء الكثير المُغرِق، والماء غامرٌ لأنّه يغطّي كلّ شيء وقع فيه، ويجوز أن يدلّ الغمر على السّعة بقوله: هو غَمْر الخَلْق، أي: واسعه، والثّوب الغمر أي: السّابغ وهو من المجاز،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 157 - 158.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والراغب، المفردات، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (وذر).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (وذر).
(4) السمرقندي، بحر العلوم: 2/ 483.

وقد يدلّ على الزّحمة والكثرة من قولهم: دخلت في غُمار النّاس، أي: زحمتهم وكثرتهم[1]، ومعنى ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ الغَمْرة هنا بمعنى الضّلالة والجهل والغفلة والحيرة[2] فكلّها تستر الإنسان عن تبصرة الحقيقة.

3) ﴿حِينٍ﴾: الحاء والياء والنّون أصل واحد، ثمَّ يُحملُ عليه، والأصل الزَّمان، فالحين الزَّمان قليلهُ وكثيرهُ، وهو الحقبة من الدّهر، وإذا حان الحين فقد قرُب الوقت[3]، وهو كالوقت يصلح لجميع الزّمان طالت أم قصرت، ومعنى أن يذرهم حتّى حين، أي: يتركهم حتّى تفنى أجسادهم[4]، فإنّ الوقت كفيل بذلك.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

خطابٌ لنبيّه أن يتركهم في غفلتهم وحيرتهم حتّى الموت أو نزول العذاب

خطابٌ من المولى سبحانه لحبيبه ﷺ، في الذين قطّعوا دينهم، وجعلوه شيّعًا وفِرَقًا، كلّ حزب يدّعي أنّه على الصّراط المستقيم، أن يدعَ هؤلاء الكفّار المتفرّقين على حالهم، وأن لا يشغل قلبه بهم حتّى يأتي حينُ قتلهم، أو موتهم على كفرهم، أو أن يحلّ العذاب بهم، فهو وعيدٌ لهم، وتسليةٌ له ﷺ، ونهيٌ عن الاستعجال والجزع[5].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الفاء في ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

مَنْ أعرضَ عَنِ الله أعرضَ عنه الصّالحون

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ لإفادة السّببيّة، فإنّه لَمّا تقطّعوا أحزابًا فرحين فرَحَ الجاهلِ الضّالّ، تسبّب عنه قول الحقّ ﷻ هنا تسلية لرسوله ﷺ أن يتركهم على شرّ حالاتهم[6]، ويجوز أن

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (غمر).
(2) العز بن عبد السلام، تفسير القرآن: 2/ 377.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ، وابن دريد، جمهرة اللغة: (حين).
(4) الهروي، الغريبين في القرآن والحديث: 2/ 518.
(5) إسماعيل حقّي، روح البيان: 6/ 89.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.

تكون الفاء في ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾ دالّة على التّرتيب، فقد أراد ترتيب فعل الأمر بتركهم على ما قبله من فرحهم المزعوم بما تحصّل لديهم من الدّين الذي كان خيارهم بعد تفرّقهم وتقطّع أمرهم[1].

بلاغة التعبير بفعل الأمر في ﴿فَذَرۡهُمۡ﴾:

أمر خارج مخرج التّهديد

بعد ما صاروا إلى الهوى والضّلال، فقطّعوا دينهم ومِلَّتَهم وفرحوا، أمر الحقّ سبحانه رسوله ﷺ بأن يتركهم ومصيرهم، وهو أمرٌ خارجٌ مخرجَ التّهديد لهم، لا مخرج الأمر له ﷺ بالكفّ عنهم، وتركهم على ما هم عليه[2]، ففعل الأمر ظاهره خطاب له ﷺ يراد منه المتاركة، إلّا أنّ حقيقته الإملاء لهم، وإنذارهم بأنّ عاقبة السّوء هو ما يستقبلهم[3].

سرّ الانتقال من خطاب الضالّين إلى خطاب سيّد المرسلين النّبي ﷺ:

تسلية رسول الله ﷺ ونهيه عن استعجال عذابهم

بعد أن كان الخطاب موجَّهًا إلى أمم الرسل بأن يكونوا مع الملّة الواحدة، ثمّ ما كان منهم من تقطّع أمرهم، وتحزّبهم فِرَقًا وطوائفَ، انتقل بالخطاب إلى الأمر بقوله: ﴿فَذَرۡهُمۡ فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ تهديدًا لهم، وتسليةً لرسوله ﷺ، ونهيًا عن أن يستعجل عذابهم[4].

بلاغة الاستعارة في قوله: ﴿غَمۡرَتِهِمۡ﴾:

شبّه جهالتهم وضلالهم بالماء الذي يغمر قامتهم

وقوله تعالى: ﴿فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾: استعارة تصريحيّة، فقد شبّه جهالتهم بالماء الذي يغمرهم، ويستر عقولهم، ووَجْهُ الشّبه الغلبةُ والاستهلاك مطلقًا، فهو حسّيّ في المشبّه به وهو الماء، معنويّ في المشبّه وهو الغلبة والهلاك[5]، أو استعارة تمثيلية، فقد مَثَّلَ حالَهم وهم ﴿فِي غَمۡرَتِهِمۡ﴾ بمن يغمره الماء، وهو يلعب به؛ لما هم عليه من

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1301.
(2) الشوكاني، فتح القدير: 3/ 576.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 74.
(4) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 581.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 190.

الضّلال والباطل والجهل والعَماية[1]، فهو كمن يضيّع السّعي بعد الكدح؛ فهو من باب الاستعارة التّمثيلية[2].

سرّ إضافة غمرة إلى ضمير الغائبين:

إضافة الغمرة إلى الضّمير الدّالّ على الجمع للتّعميم

استعمل المفرد (غمرة) في قوله تعالى: ﴿فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ على إرادة الجمع والعموم؛ لأنّه لّما أضافها إلى ضمير الغائبين المجموع أدّت معنى العموم والجمع، فالمفرد إذا أضيف إلى العامّ عمّ[3]، وفي إضافة الغمرة إلى ضمير الغائبين إيماء إلى ملازمتها إيّاهم حتّى أصبحت عَلَمًا عليهم يُعرفون بها في تمثيل لاشتغالهم بما هم فيه من ترف العيش، وانحرافهم عن التّدبر فيما يُدعون إليه لينجوا من العذاب، فشبّههم بحال قوم غُمروا بالماء، وأوشكوا على الغرق، وهم يحسبون أنّهم يَسْبَحون[4].

معنى شبه الجملة ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾:

﴿حَتَّىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ دالّة على الغاية، والمعنى: (اتركهم يا محمّد ﷺ إلى الوقت الذي ضربناه لهم قبل الخليقة، فعِلْمُنا محيطٌ بهم، وبكلّ ما يصدر منهم على أنّه وقت يسير قصير)[5].

الغرض من تنكير ﴿حِينٍ﴾:

اتركهم وضلالَهم إلى أجلهم المعدّ لهم

أورد الحين منكَّرًا في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾؛ لأنّه يَحْتَمِلُ أن يكون المعنى أن يتركهم حتّى يوم القيامة، ويحتمل أن يكون التّرك حتّى وقت آخر غير معلوم لم يُبَيَّن[6]، ويحتمل حتّى الموت، ويحتمل أن يكون قد خرّجه مخرج الوعيد، كقولك للمتوعَّد: لك يوم[7]، ويجوز

(1) الزمخشري، الكشاف: 3/ 191.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 191.
(3) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 567.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 74.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 474.
(7) الماوردي، النكت والعيون: 4/ 58، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 130.

في التّنكير في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أن يكون على إرادة التّهويل والتّخويف[1] بما كان منهم من تفرّقهم في الدّين، وتحزّبهم وفرحهم بما كان منهم من غفلة وحيرة، وكثافة حجاب.

الفُروقُ المُعْجَميَّة:

(ذَرْهُمْ) و(اتركهم):

دلالة (ذرهم) على عدم الاعتداد والاكتراث

قوله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ﴾ عبّرَ بالفعلِ (ذرهم)، وجذرُه من (الوذر)، ولم يعبّرْ بفعلِ التّركِ، لأن (وذر) دالٌّ على التّخلي عن الشّيءِ إهمالًا له، وقذفه لعدمِ الاعتدادِ به[2]، أمّا التّركُ فهو فعلٌ عامٌّ يطلقُ على التّخلّي عن الشّيءِ و"تخليفِ الشّيءِ في المكانِ الذي هو فيه، والانصرافِ عنه"[3]، ففي ترك هؤلاء إهمال لهم، وعدم اعتداد بهم جزاءً بما كانوا يكسبون، فإنّه لَمّا حَباهم الحقّ سبحانه بالملّة الواحدة فتنكّبوا عن الهدى، وفرّقوا دينهم، وتقطّعوا أمرهم، وتحزّبوا فِرَقًا وأحزابًا كان مصيرهم أن يُتركوا مع الإهمال، وعدم الاعتداد بهم؛ فهو جزاؤهم.

الحين والوقت:

الوقت مقدارٌ معيّنٌ والحين أجل غير محدّد ضربه الله لهم

استعمل لفظ (الحين)، ولم يستعمل لفظ (الوقت)؛ لأنّ "الحين وقت واقع يقع على كلّ شيء قصيرًا كان أو طويلًا، محدودًا أو غير ذ[4]، أمّا الوقت فهو مقدار معيّن من الزّمان يُفرض لأمر ما[5]، ولما كان الوقت المضروب لهم غير محدّد وغير معلوم[6] أورد لفظ (الحين)، فقد ذهب فيه المفسرون مذاهب كثيرة كالموت والفناء والقيامة وحلول العذاب والوعيد وغير ذلك.

---

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 3/ 581، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 15/ 42.
(2) الراغب، المفردات: (وذر).
(3) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 124.
(4) العسكري، الوجوه والنظائر، ص: 194.
(5) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 676.
(6) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 474.

﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 55 - 56]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إنكار ظنّهم أنّ بَسْطَ الأموال والأولاد حال الموعود لا المتوعّد

لمّا كان من شأنهم فيما سبق من آيات أنّهم اغترّوا بحالهم، وكان الموجب لغرورهم ظنّهم أنّ حالهم في أن بَسَطَ الحقّ سبحانه عليهم من الأموال والأولاد حالُ مَنْ وعده اللّه خيرًا لا مَنْ توعّده شرًّا وعقابًا - جاء الكلام هنا مُنكرًا عليهم ما كان من سوء ظنونهم وفساد اعتقادهم، تنبيهًا لمن سُبق بالسّعادة، وكُتب له الحسنى وزيادة[1].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿أَيَحۡسَبُونَ﴾: (حسب) أصلٌ يدلّ على العدّ والظنّ والكفاية، والحِسْبان الحكم لأحد النّقيضين مع عدم خطور الآخر بباله؛ فهو قريبٌ من الظّنّ، وإن كان الظّنّ ترجيح أحد النّقيضين، ومن حَسِب شيئًا بمعنى ظنّه، أي: استحضره في رأسه[2]، ومعنى ﴿أَيَحۡسَبُونَ﴾ في الآية موضع الحديث، أي: يظنّون ظنًّا وحِسْبانًا، وكان الواجب عليهم علم ذلك على وجه الإحاطة واليقين[3].

2) ﴿نُمِدُّهُم﴾: (مدّ) أصلٌ يدلُّ على الجرّ للأشياء في طول، وأن يتّصل شيء بشيء بطريقة الاستطالة، ومنه المدد وهو ما أمددتَ القوم في الحرب من الطّعام والماء، والمدّ مدّ الرّجل الآخرَ في الغيّ، ومن معانيه الزّيادة، ومدّه، أي: أمهله وطوّل له، وأكثَرُ الإمداد

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (حسب).
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 7/ 475.

يأتي في المكروه، فيما يأتي المدّ في المحبوب، ومنه الامتداد بمعنى الانبساط[1]، ومعنى ﴿نُمِدُّهُم﴾ في الآية، أي: نعطيهم المال والأولاد في الدّنيا[2].

3) ﴿نُسَارِعُ﴾: (سرع) أَصْلٌ يَدُلُّ على خلاف البُطْء، يقال: أسرعَ إلى شيءٍ ما، أي: أمضى إليه سريعًا، ومنه المسارعة إلى الشّيء، أي: المبادرة إليه، والسّرعة تكون في الأجسام وفي الأفعال، وسَرَعانُ النّاس المتقدّمون منهم وأوائلهم، والسّرعة دالّة على قوّة النّفاذ والاختراق، وكلّ ما ورد في القرآن الكريم فهو بالمعنى العامّ للإسراع، وهو نقيض البطء[3]، ومعنى قوله: ﴿نُسَارِعُ لَهُمْ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ إخبار من الحقّ سبحانه بالمسارعة في إيتائهم خيرات الآخرة، ومبادرتنا لهم فيها[4].

4) ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾: (خير) أصلٌ يدلّ على العطف والمَيْل، فالخير ما كان ضدّ الشّرّ، لأنّ كلَّ أحدٍ يميل إليه ويعطف على صاحبه، والخير اسمٌ جامعٌ لكلِّ المنافع في الأمور، ومنه الاختيار؛ لأنّ المرء يختار عادةً ما فيه منفعة له، ومن تعريفاته أنّه نفعٌ حسنٌ بإجازة الشّرع له، وما ورد في القرآن الكريم من لفظ الخير هو ما كان مقابلًا للشّرّ، أو ما كان بمعنى التّفضيل[5]، ومعنى المسارعة في ﴿ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ "أنّا نتعجّل في تقديم ثواب أعمالهم لرضانا عنهم حين بسطنا لهم الرّزق، وأكثرنا أولادهم"[6].

5) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: (شعر) أصلانِ مَعْروفانِ، شعرت بكذا معناه فطنت له، ويأتي بمعنى الدّراية والعقل والفهم، وسمّي الشّاعر شاعرًا؛ لأنّه يشعر ما لا يشعر غيره، واستشعار الخوف إضماره، والشّعور هو العلم الدّقيق الذي يصيب إصابة كإصابة الشَّعر، وهو النّوع اللّطيف الدّقيق من العلم أخذًا من نفاذ الشَّعر الدقيق، ولمّا كان الشّعر دقيقًا نافذًا ممتدًّا استعمل الشّعور بمعنى الدّراية والفطنة والعقل لأنّها دقيقة خفيّة[7]، ومعنى ﴿لَّا يَشْعُرُونَ﴾، أي: لا يعلمون أنّ ما نمدّهم هو استدراجٌ لهم[8].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والفيومي، المصباح المنير: (مد).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.
(3) الراغب، المفردات، وابن فارس، مقاييس اللغة، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (سرع).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (خير).
(6) الواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 292.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (شعر).
(8) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 43.

ظنّ المفرّقون أنّ أعطياتنا في الدّنيا إكرام لهم وهي استدراج وفتنة ولكنّهم لا يشعرون

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يطلق الحقّ ﷻ خطابًا استفهاميًا فحواه: أيظنُّ أهل الفِرَق أنّ ما يبسطه اللّه لهم من الأموال والأولاد في الدّنيا هو إكرامٌ لهم وتعجيلٌ لثوابهم؟ الجواب كلّا؛ فإنّ ما يفعله تعالى معهم هو مسارعة لهم في خيرات الدّنيا، وهم لا يشعرون، فاللّه تعالى سيكرمهم في الدّنيا، ويهينهم في الآخرة[1]، وأنّ تلك الخيرات إنّما هي من باب الاستدراج والفتنة، وكيف يشعر بها من كان منغمسًا في الضّلالة والعمى.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

الغرض من التعبير بالاستفهام في ﴿أَيَحۡسَبُونَ﴾:

إنكارٌ لمغالطة عقلية، وتوبيخ على وَهْمٍ مصطنع

قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾ استفهامٌ دالٌّ على إنكار الواقع وتقبيحه وتوبيخه[2]؛ لأنّه وإن كان استفهامًا في وضعه إلّا أنّ معنى الإمداد هنا استدراجهم إلى المعاصي، واستجرارهم إلى ما فيه الإثم الكثير، وهم يظنّونه من الخير والنّفع والإكرام، ومعاجلة لهم بالثّواب قبل أوانه[3].

سرّ إيثار لفظ الحِسْبان دون الظنّ:

الحُسبان أقوى في الاعتقاد من الظّنّ

آثر التّعبير بفعل الحِسْبان في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ﴾، وعدلَ عن فعل (الظّنّ)؛ لأنّ فعل الظّنّ يدلّ على الشّكّ، وعدم التّحقّق، وفعل الحسبان ظنٌّ راجحٌ مبنيٌّ على الحساب والتّجربة والنّظر[4]، ولأنّه رامَ من فعل الحسبان معنى الاعتقاد؛ ولذلك عيب عليهم هذا الاعتقاد[5].

دلالة التعبير بـ ﴿أَنَّمَا﴾:

استعمل ﴿أَنَّمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُم﴾؛ لإفادة الحصر،

(1) الفيروزآبادي، تنوير المقباس من تفسير ابن عباس، ص: 288.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 139، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(3) الزمخشري، الكشاف: 3/ 191.
(4) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 55.
(5) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 192.

وُهِبوا هذه النّعم ليشتغلوا بكلف الحقّ فإن أعرضوا لزمتهم الحجّة

فإنّ الحقّ ﷻ "إنّما أعطاهم هذه النّعم ليكونوا فارغي البال، متمكّنين من الاشتغال بكُلف الحقّ، فإذا أعرضوا عن الحقّ والحالة هذه، كان لزوم الحجّة عليهم أقوى"[1].

ويجوز أن تكون ﴿أَنَّمَا﴾ من لفظين (أنّ) المؤكّدة، و(ما) الموصولة بمعنى (الذي)، والمعنى: أيَحْسَبون يا رسول الله ﷺ أنّ الذي نعطيهم في الدّنيا من مال وولد هو ثواب لهم؟ كلّا بل هو استدراج وإملاء، وليس إسراعًا في الخيرات[2]؛ لأنّ حقيقة الخيرات أن تكون خالصة من شوائب الضّرر الآجلة والعاجلة.

الغرض من التعبير بالاستعارة في ﴿نُمِدُّهُم﴾:

شبّه إغراقهم بملاذّ الحياة بإمداد الجيش بقوّة إلى قوّته

التّعبير بالفعل ﴿نُمِدُّهُم﴾ من باب الاستعارة التّصريحية التّبعية، فالصّورة فيها تشبيه إغراقهم بملذّات الحياة ومُتَعِ الدّنيا بالإمداد، كأنّه جيش يمدّ بقوّة تضاف إلى قوّته، والجامع بينهما حصول الزّيادة في كلٍّ منهما[3].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها وسرّ تقديم المال على البنين:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ لبيان الشّيء الذي يُمَدّون به وهو ما الموصولة[4] من ﴿أَنَّمَا﴾، وقد بيّنت نوعَ المدد وحَصرَتْه في أمرين هما المال والبنون، يتفرّع عنهما كلُّ شيءٍ وينبني عليهما كلُّ شيءٍ، وقدّم المال على البنين لِقدَمِ الصّحبة في المال وأكثريّتها، فحصول الإنسان على المال يسبق في الغالب حصوله على البنين؛ ولأنّه ينشغل بالمال أكثر من انشغاله بالبنين[5] كما أنه كاشف عما به اللهو أكثر.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 282.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 12/ 131.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 9.

مالٌ رُزِقَهُ الظّالمون للإمداد - على كثرته - حقير

الغرض من تنكير المال ﴿مِن مَّالٍ﴾:

جاء المال في قوله تعالى: ﴿نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ منكَّرًا، وفائدته أن يعمّ كلّ نوع من المال[1]، كالمواشي والذّهب والفضّة والحبوب والأطعمة والثّمار والعقار ونحوه، فإنّه داخل فيه.

الولد واقع على الذّكر والأنثى وهم قد اتّخذوا البنين طريقة للتّفاخر

فائدة التعبير بلفظ ﴿وَبَنِينَ﴾ دون (أولاد):

في قوله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ﴾ استعمل لفظ الـ(بَنِينَ) جمع (ابن)، ولم يستعمل لفظ (الأولاد) مع أنّه مرادف له في المعنى العامّ، إلاّ أنّ بينهما فرقًا، وهو أنّ (الابن) يقع على الذّكر، أمّا الولد فيقع على الذّكر والأنثى[2]؛ وبما أنّهم اتّخذوا من البنين وسيلة للتّفاخر ذكره هنا ولم يذكر الولد لدخول الأنثى فيه، وهو غير مراد عندهم.

ألهاهم الغُرور حتى ظنّوا أنّ الرّبّ بعملهم مسرور

إيثار لفظ ﴿نُسَارِعُ﴾ مادّةً وصيغةً:

في قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ الفعل ﴿نُسَارِعُ﴾ فعل مزيد، وزنه المجرّد (فاعَلَ) دالٌّ على المفاعلة والمغالبة بين طرفين، يفعل كلّ واحد ما يفعل صاحبه[3]، فالمسارعة لهم في الخيرات بمعنى إدرارنا عليهم بالأموال والبنين في سرعة من يباري نظيره[4]، فكأنّه صوّر طرفين ممّن يفعل فعل المسارعة إملاء لهم واستدراجًا.

وفي التّعبير بهذه الصّيغة ﴿نُسَارِعُ﴾، والعدول عن (نسرع) إيماء إلى معنى خفيّ يقتضيه المقام؛ فالمسارعة من اللّه تعالى لتدفع عنهم شَرَّي الفقر والعقم، فهم يظنّون أنّ الحقّ سبحانه يحامي عنهم، ويدفع هذين الشّرَّيْن، فهُمْ على ذلك من أوليائه بزعمهم، وهذا غاية الجهل والغرور[5].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 13/ 191.
(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 13.
(3) السيرافي، شرح كتاب سيبويه: 1/ 249.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 158.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 13/ 10.

غرض الكناية في فعل المسارعة:

معنى فعل المسارعة في الخيرات هو ما مرّ من إمدادهم بالمال والولد، وفعل المسارعة كناية عن تلاحق حصول الأموال لهم، وتتابع إنجاب الذّرّيّة من البنين[1]، وهو تلاحقٌ وتتابعٌ متجدّدٌ بجامع دلالة الفعل المضارع على الاستمرار والتجدّد.

في المسارعة كنايةٌ عن تلاحق حصول المال وتتابع إنجاب البنين

فائدة استعمال حرف الجر (في) في قوله: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

لَمّا أراد الإشارة إلى المبالغة في المسارعة عَدَلَ عن الحرف (مِن) إلى حرف الظّرفية ﴿فِي﴾ بقوله: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾؛ للدّلالة على أنّ الحقّ ﷻ فعل بهم من المسارعة في إمدادهم بالأموال والبنين على وجهٍ يعمّهم من جميع الجهات؛ فكانت الخيرات ظرفًا لهم محيطةً بهم من جميع الجهات؛ ليكون استدراجهم على أبلغ ما يكون، ثمّ يأخذهم أخذ عزيز مقتدر، والتّعبير بحرف الظّرفية في قوله تعالى: ﴿نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ تعبيرٌ ظرفيٌّ مجازيٌّ، فكأنّه جعل الخيرات بمنزلة الطّريق الذي يقع فيه فعل المسارعة بالمشي والتّوغّل فيه؛ فيكون حرف الظّرفية ﴿فِي﴾ قرينة مكنيّة[2].

الخيرات ظرف لهم محيطة بهم تعمّهم من جميع الجهات

سرّ التعبير بالجمع في ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾:

في قوله تعالى: ﴿فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ أورد لفظ الخيرات مجموعًا؛ لأنّه أراد منه خيرات الدّنيا والآخرة ومنافعهما، وكذلك فهو الشّيء الحلال الحَسَن ويدخل تحته المال والصّحة والطّعام والشّراب والأمن والأولاد[3].

الغرض من الحذف في: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشۡعُرُونَ﴾ فيه مجازٌ بالحذف، فقد عطف الجملة على محذوفٍ مقدَّرٍ، أي: كلّا، لا نفعل ذلك، بل لأنّهم لا

لا يشعرون بشيءٍ أصلًا؛ فلا فطنة لهم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 13/ 10.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 75.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 56.

يشعرون بشيءٍ أصلًا؛ لأنّهم لا فطنة ولا شعور لهم، فهم كالبهائم لا يعلمون أنّه استدراج وإملاء[1].

لا شعور لديهم بحقائق الأمور لانخداعهم بظواهرها

دلالة ﴿بَل﴾:

وفي قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ استعمل ﴿بَل﴾ الدّالّة على الإضراب عن الأوّل، والانتقال إلى الثّاني[2]، فأدخلها على انتفاء الشّعور، فهو إضرابٌ إبطاليٌّ انتقل فيه ممّا كان متصوَّرًا وهمًا إلى ما هو حقٌّ مكين؛ فلا شعور لديهم بحقائق الأمور، إنّما هم مخدوعون بظواهر الأمور، ولا يعلمون شيئًا عن بواطنها؛ لانعدام فطنتهم في كونهم كالأنعام[3].

تهديدٌ ووعيدٌ متجدّدٌ للظّانّين بالله غير الحقّ

سرّ التّعبير بعدم الشّعور مادّةً وصيغةً:

التّعبير بانتفاء الشّعور عنهم في قوله تعالى: ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ فيه تهديد ووعيد[4] لمن ظنّ أنّ الحقّ ﷻ قد أمدّه بالمال والولد على ما كان منه من كفر وعتوٍّ وعناد، ثمّ جاء عدم الشّعور بصيغة التّجدّد والاستمرار، وهو شأن هؤلاء على مرّ العصور، وتطاول الأزمنة والدّهور.

لَمّا استفهم عن الحسبان استفهام تقريع قابله بعدم الشّعور في كونهم كالبهائم

المطابقة بين الحِسْبان وعدم الشّعور:

لَمّا ذكر فعل الحِسْبان مستفهمًا عنه استفهام تقريع ﴿أَيَحْسَبُونَ﴾، قابله بالفعل الدّالّ على انتفاء الشّعور منهم ﴿بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾ في إضراب انتقال إلى "أنّهم أشباه البهائم لا شعور لهم حتّى يتفكّروا في ذلك الإمداد، أهو استدراجٌ أم مسارعةٌ في الخير"[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 139.
(2) المبرد، المقتضب: 1/ 12.
(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 10.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 147.
(5) ابن عادل، اللباب: 14/ 230.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [المؤمنون: 57 - 59]

مُناسَبَةُ الآيَاتِ لِما قَبْلَها:

بعد أن ذمّ الله من فرّق دينه أردفه بصفات من يسارع حقيقةً في الخيرات

بعد أن ذمّ الحقّ ﷻ من تقدّم ذِكْرَهم من الذين فرّقوا دينهم، ومن الظّانّين بأنّ إمدادهم بالأموال والبنين، والمسارعة لهم بالخيرات إنّما هو من صفات إيمانهم، وهو ظنٌّ جانَبَ الصّوابَ، بَيَّنَ هنا صفات المسارع في الخيرات على وجه الحقيقة لا الظّنّ، وهي الخشية من اللّه، والإيمان بآياته، ونفي الشّريك عنه، وأداء حقوقه، وحقوق عباده[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿خَشۡيَةِ﴾: (خشي)، ومعنى الخشية هو الخوف عامّةً، أمّا الأصل في معناه فهو قريب؛ لأنّه يدلّ على خوف وذُعر، ثمَّ يُحملُ عليه المجاز، فالخشية الخوف، وفيه بعض الاختلاف عند الرّاغب؛ لأنّ الخشية: خوف يشوبه تعظيم، وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه؛ ولذلك خصّ العلماء بها في قوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، والخشية من اللّه تكون بمعنى الكراهة، والخشية خوف مع استشعار شيءٍ في النّفس[2]، ومعنى الخشية هنا انزعاج نفس المرء توقُّعًا لحصول المساءة والمضرّة[3].

2) ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾: (شفق) من (أشفقَ يشفقُ)، ومعنى الشّفق الخوف؛ فهو مُشفق، أي: خائف، ويأتي أيضًا بمعنى الحذر، والشّفق يكون بمعنى النّصح المشفوع بخوف على المنصوح من أن

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 282 - 283.
(2) الراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصّل: (خشي).
(3) السمعاني، تفسير القرآن: 3/ 479.

يناله مكروه، والأصل في الشّين والفاء والقاف دلالتها على رقّةٍ في الشّيء، ثمّ يشتقّ فيُقالُ: أشفقتُ إذا رقَّقت وحاذَرْتَ، وإذا كانت العناية مختلطة بالخوف سمّي إشفاقًا، فالمشفق يحبّ من يشفق عليه، ويخاف عليه، وقولهم: "وأنا مشفق من هذا الأمر خائف منه خوفًا يرقّ القلب، ويبلغ منه" وأكثر ما يرد في القرآن الكريم من هذا الجذر، وما اشتقّ منه هو بمعنى الخوف[1]، وقوله: ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ في الآية دالٌّ على خوفهم وخشيتهم من عذابه سبحانه؛ فكانوا دائبين في طاعته، جادّين في طلب مرضاته[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

مدح لمن خشي الرّحمن وآمن بآيات القرآن وأخلص للواحد المنّان

يصف الحقّ ﷻ صنفًا من عباده، وهو في معرض المدح، وهم الذين على جانب كبير من الوَجَل؛ لخشيتهم من ربّهم، وسوء ظنّهم بأنفسهم وبتقصيرهم، والذين يؤمنون بآياته إذا تليت عليهم ويتدبّرونها، ويتفكّرون في الآيات الكونيّة؛ فيحصل لهم الإيمان ما لا يعبّر عنه اللّسان، والذين من صفتهم الإخلاص، وعدم الإشراك باللّه شركًا جليًّا، ولا شركًا خفيًّا كالرّياء؛ فهم مخلصون في الأقوال والأفعال وسائر الأحوال[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ ناشئٌ عن سؤالٍ يجيش في صدر السّائل، فكأنّه قيل بعد الآيات التي سبقت: فمنِ المستحِقّ للمسارعة في الخيرات بعد إقناط الكفّار لها، وأنّ حسبانهم الكاذب باطلٌ؟ فكان الجواب بأنّه الخائِفُ الحَذِرُ

(1) الزمخشري، أساس البلاغة، والسمين الحلبي، عمدة الحفاظ، ومحمّد جبل، المعجم الاشتِقاقيُّ المؤصَّل: (شفق).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 19/ 44.

(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 554.

من ربّ العزّة[1]، وغرضه التّفصيل له، فإنّ ما قبله كان إعراضًا عن عبادة اللّه، وتكذيبًا بآياته، وإشراكًا به، وإنفاق مالهم في الملّذات، وتكذيبهم بالبعث، فكلّ ذلك تشمله الغمرة؛ فجيء بهذه الجملة التي تذكر أحوال المؤمنين والثّناء عليهم[2].

دلالة التّوكيد بـ﴿إِنَّ﴾:

صدّر قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ الدّالّة على التّوكيد اهتمامًا بالخبر[3]، وهو إشفاقهم من خشيته تعالى، وفي هذا الاهتمام مدحٌ وثناءٌ عليهم.

الغرض من التّعبير بالاسم الموصول:

الإيماء إلى وجه بناء الخبر في المسارعة والمسابقة إلى الخيرات

آثر النظم الكريم التّعبير بالاسم الموصول على الاسم الظاهر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ للإيماء إلى العلّة التي بُني من أجلها الخبرُ، وهو مسارعتُهم في الخيرات، ومسابقتهم إليها[4].

دلالة التّعبير بضمير الغائبين في الآيات ﴿هُم﴾:

تخصيص الخشية بالرّبّ الذي أحسن إليهم تخصيصًا مؤكّدًا

جاء بضمير الغائبين ﴿هُم﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ لأنّ المؤمن قد يَعْرِضُ له ما تقدّم من أنواع الشّرك الجليّ، أو الشّرك الخفيّ؛ فأراد الإشارة الى الخشية بربّهم الذي أحسن إليهم على وجه التوكيد[5].

معنى ﴿مِّنْ﴾ ودلالتها:

﴿مِّنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ إمّا أن تكون لبيان جنس الإشفاق، والإشفاق إنما هو توقّعٌ وخوفٌ من عذابه ﷻ[6].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 139.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 76.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 76، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5085.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 76.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 159، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5085.
(6) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 147.

وإمّا أن تكون ابتدائية والتّقدير: (مشفقون من خشية ربّهم)، وجاء بحرف الابتداء ﴿مِّنۡ﴾؛ لأنّه أراد إظهار الخوف، ولو عُدّيَ بـ(في) لكان معنى العناية هنا أظهر[1]؛ فإنّ المشفق قد يكون خائفًا محضًا، وقد يكون خائفًا مع العناية، وقد كان حال الموصوفين هنا الخوف المحض ظنًّا بأنفسهم السّوء، والتّقصير في حقّ ربّهم.

وإمّا أن تكون دالّة على التّعليل[2]؛ فإنّ إشفاقهم من ربّهم سببه خشيتهم للّه تعالى، وهذا مَحْضُ إيمانهم بالحقّ ﷻ.

سرّ إضافة الخشية إلى ﴿رَبِّهِم﴾ خاصّة:

الخوف العظيم من المحسِن إليهم المنعِم عليهم

أضاف الخشية إلى لفظ الربّ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾ اعترافًا وإقرارًا بأنّهم يخافون خوفًا عظيمًا من الذي أحسن إليهم، وأنعم عليهم[3]؛ فهو خوف الجلالة والعظمة، والحقّ سبحانه حريّ به.

إيثار لفظ ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

توقُّعُ المكروه يُديم الحذر

آثَرَ استعمالَ لفظ ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ للدلالة على توقّع المكروه والخوف من العذاب، مع ما كان منهم من الإيمان، فإنّ المؤمن الحقّ ما كان أمره بين الخوف والرّجاء والحذر، فلا يأمن مكر اللّه، ولا يفتر عن طاعته وعبادته، ثمّ أورد الشّفقة بالاسمية لإيذانها بمعنى الحذر الدّائم[4] وإذا أراد المؤمن أن يبلغ كمال الخشية أصبح مشفقًا؛ فهو إذ ذاك في نهاية الخوف من سخط اللّه في عاجل أمره، ومن عقابه في آجله؛ ليكون في مأمن من عقابه، وفي نهاية الاحتراز عن معاصيه[5].

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن، ص: 459.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 77، وابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 209.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 159.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 159.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 283.

الغرض من حذف متعلّق الإشفاق:

بسبب خشيته يتوقّعون غضبه ويخافون عقابه

في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ مجازٌ بالحذف في صفة الإشفاق، فإنّ الإشفاق توقّع المكروه، وقد حذف هذا المتوقّع لدلالة السّياق عليه، فإنّه بسبب خشيته يتوقّعون غضبه، ويخافون عقابه[1] كما أنّ في الحذف توسيعًا للمعنى لعموم كل ما يشفق منه.

دلالة الجمع بين الخشية والإشفاق:

الإشفاق توكيدٌ للخشية مع نوع زيادة

لّما ذكر أنّ من صفة الممدوحين أنّهم ﴿مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾، والخشية الخوف من الجليل لعظمته، زاد عليها صفة الإشفاق ﴿مُّشۡفِقُونَ﴾ مع أنّ الإشفاق يتضمّن الخشية مع الرّقّة والضعف؛ فكان الجمع بين الخشية والإشفاق من باب التّأكيد[2].

دلالة العطف في ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾:

صفت القلوب فتلقّت أنوارَ المطلوب

عطف قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ على قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم﴾ من باب عطف الصّفة على الصّفة، ونتيجة لها؛ فإنّ الموصوفين في الأولى كان من نتيجة خشيتهم من ربّهم، ومحبّتهم له أن تصفو نفوسهم، وتزال الكُدْرَة عن أفهامهم، فإذا شاهدوا الآيات كان توجّههم إليها بقلب سليم صافٍ مشرق، فقذف به نور الإخلاص[3].

الغرض من التعبير بالاسم الموصول في ﴿وَٱلَّذِينَ هُم﴾:

في التعبير بالموصول إتاحة لذكر جملة الصلة التي تومئ إلى وجه بناء الخبر، كما أن التعبير بالموصول بسط في الذكر عناية به.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾:

كأنّ إيمانهم محصور بآيات ربّهم

وقدّم الجارّ والمجرور ﴿بِـَٔايَٰتِ﴾ على فعل الإيمان في قوله تعالى:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 77.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 282.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5086.

﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، للدّلالة على القَصْر، وهو قَصْرٌ للمبالغة، فكأنّ إيمانهم محصور بآيات ربّهم، والآيات تعمّ القرآن والعبر وغيرها ممّا فيه نظر واعتبار.

إيثار لفظ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

لا يزال إيمانهم بالآيات يتجدّد شكرًا لإحسانه إليهم

ذكر ثاني صفاتهم أنّهم ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، والإيمان من أخصّ صفات المؤمن، ولا يكون إيمانًا حقًّا حتّى يكون متجدِّدًا شكرًا لله على أن أحسن إليهم[1]، وكان من صفاتهم أنّهم كلّما وقفوا على آية من آيات ربّهم آمنوا بها، وصدّقوا بمضمونها؛ فإيمانهم متجدّدٌ بتجدّد الآيات؛ فجاء باللفظ مضارعًا[2].

سرّ تَكْرار الاسم الموصول في الآيات:

الاهتمام بكلّ صلة من الخشية والإيمان بالآيات وعدم الإشراك

في تكرار الموصولات في الآيات الثّلاث، وما تلتها من آية رابعة؛ للإيذان بأنّ كلّ موصول مع صلته مستقلّ بنفسه غير تابع لما سبق، ونازلة منزلة استقلال الموصوف بها، ثمّ إنّ كلّ واحدة من تلك الصفات تتوفّر على فضيلة باهرة[3] من الخشية والإيمان وعدم الإشراك، والاهتمام بكلّ صِلَة من صِلاتها، فلا تُذكر تبعًا بالعطف، والمقصود الفريق الّذين اتّصفوا بصلة من هذه الصّلات[4].

نكتة الجمع بين الإيمان بآيات الله وعدم الإشراك به:

الإيمان بآيات الله لا يقتضي عدم الإشراك به؛ فإنّ كفّار قريش يدّعون أنّهم يؤمنون بآيات ربّهم قصدًا إلى التّصديق بأنّه المخترع الخالق الرّازق، فزاد الحقّ سبحانه هنا نفيَ الإشراك؛ فإنّه لا حظّ لهم فيه بمدعاة عبادتهم الأصنام والأوثان[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 13/ 159.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 244، وأبو زهرة، زهرة التفاسير: 10/ 5086.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 91.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 18/ 77.
(5) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 147.

إيثار لفظ عدم الإشراك مادّةً وصيغةً:

تجديد نفي الشّرك الخفيّ وإخلاص العبادة لله

نفي الشّرك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ لا يراد منه التّوحيد ونفي الشّريك لله تعالى؛ لأنّه متضمَّن في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، بل المراد منه نفي الشّرك الخفيّ كالرّياء ونحوه، وأنّ المرء يجب أن يكون مخلصًا في عبادته، طالبًا رضوانه، لا يقدّم على العبادة شيئًا[1]، وأن يكون إخلاصه، وعدم إشراكه مستمرًّا متجدّدًا؛ فإنّ طوارق الشّرك الخفيّ لا تنقضي.

فائدة تكرار لفظ الرّبوبيّة في الآيات الثّلاث:

عنوان الرّبوبيّة علّة للإشفاق والإيمان وعدم الإشراك

تعرّض النظم الكريم لعنوان الرّبوبيّة في كلّ آية من الآيات الثّلاث في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾ وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ إشعارًا بِعِلِّيَّتِها في مواضع الشّفقة والإيمان بالآيات وعدم الإشراك[2].

نكتة تأخير آية عدم الإشراك على آية الإيمان بالله:

أخّر قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾ على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، والقياس أن تتقدّم بأن يأتي بها أوّلًا؛ فالتّحذير من الشّرك يسبق الدّعوة إلى الإيمان، والجواب عن ذلك أنّ الحقّ ﷻ لا يتحدّث في هذه الآية عن الشّرك الجليّ والشّريك والنّدّ، إنّما يريد الشّرك الخفيّ، وهو الرّياء الذي لا يكاد ينجو منه مؤمن[3] آمن من ذي قبل بالواحد القهّار.

الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الخشية والخوف والإشفاق:

الخشية خوف مع التّعظيم والإجلال والإشفاق عناية مختلطة بالخوف

آثر الحقّ ﷻ مفردة الخشية في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 283.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 6/ 140، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 6/ 1304.
(3) محمد الهلال، تفسير القرآن الثري: 18/ 59.

خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾، ولم يستعمل مفردة الخوف؛ لأنّ الخشية خوف يشوبه التّعظيم والإجلال[1]؛ فقد يكون الخوف من أمر لا على جهة التّعظيم، والآية واردة في سياق مدح هؤلاء، وأنّهم على حالة من انكسار القلب، مع دوام الوقوف بين يديه، أمّا الإشفاق فهو أرَقُّ من الخشية، فهي مرتبة تلي مرتبة الخشية[2]، وهو أي: الإشفاق عناية مشوبة بخوف، فالمشفِقُ يحبّ المشفَقَ عليه، ويخاف ما يلحقه[3]، وقد زاده الحقّ سبحانه وصفًا مدح به المذكورين في هذه الآية.

(1) الراغب، المفردات: (خشي).
(2) التستري، تفسير التستري، ص: 110.
(3) إسماعيل حقي، روح البيان: 6/ 90.

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ ٦١﴾ [المؤمنون: 60 - 61]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قَبْلَهُما:

إخراجُ المالِ برهانُ الإيمانِ ومدعاةُ العُجْب، وهما في قلبِ المؤمنِ لا يَجتمعان

الآية استتباعٌ لبيان حالِ المؤمنين الذين يخشَون اللّه تعالى في الجانب العمليّ الجامع بين الاعتقاد والسُّلوك، وهو إخراج المالِ طلَبًا لرضوان اللّه تعالى، فبعد أنْ أثبت لهم الإيمانَ الخالص الّذي قد يكون مَدْعاةً إلى العُجب نفاه عنهم[1] بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ ليَجمعوا بذلك بين التّحلّي بالإيمان والبُعْدِ عن كلِّ ما عساه أنْ يَشوبَه مِن عُجْبٍ ونحوه، ثمَّ أخبرَ عنهم بأنَّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾؛ فأثبتَ لهم بذلك ما فُهِم أنَّ ضدَّه ثابتٌ لأضدادهم، فهم وحدَهم يُسارعون في الخيرات، وغيرُهم من الكفّار والمنافقين يُسارِعون في الشّرور.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يُؤۡتُونَ﴾، (أتو) يَدُلُّ عَلَى مَجيءِ الشَّيْءِ وإِصْحابِهِ وطاعَتِه، وأصلُ الإيتاءِ: الإعطاء، آتَى يُؤاتي إيتاءً وآتاهُ إيتاءً؛ أيْ: أعطاه، ويُقال: لِفُلانٍ أَتْوٌ؛ أيْ: عطاءٌ، وآتاهُ الشَّيءَ؛ أيْ: أعطاه إيّاه، وآتاهُ على الأمْرِ: طاوَعَه[2]، والإيتاءُ: مُستعارٌ للإنعام بالحالةِ النّافعةِ؛ لأنَّ شأْنَ الإعطاءِ أنْ يَكونَ تَمَكينًا بالمأْخوذِ المَحْبوبِ[3]، والمُؤاتاةُ: حُسْنُ المُطاوَعةِ، وآتَيْتُه على ذلكَ الأمْرِ مُؤاتاةً إذا وافَقْتَه وطاوَعْتَه[4]،

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 159.
(2) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (أتي).
(3) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 14/ 179.
(4) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (أتي).

والمقصودُ بالإيتاءِ في الآية: الإعْطاءُ، وهو مُشْعِرٌ بأنَّ الـمُعْطَى مَرغوبٌ فيهِ، وهو مُستعمَلٌ في لازِمِه، وهو النَّوْلُ[1].

2) ﴿وَجِلَةٌ﴾: (وجل) أصلٌ يدلُّ على استشعارِ الخَوفِ، يُقال: وجِل يَوْجَلُ وجَلًا، فهو وجِلٌ[2]، والوَجَلُ خَوْفٌ معَ فزَعٍ، فيكونُ لاستِعظام الـمَوجولِ منه، والأمرُ من وجِلَ: ايجَلْ، صارتِ الواوُ ياءً لكسرة ما قبلَها، وتقول: إنّي منهُ لأَوْجَلُ، ولا يُقالُ في المُؤنَّث: وجلاءُ، ولكنْ: وجِلةٌ[3]، والمُراد بالوَجَلِ في الآية: الخوفُ مع الاضطرابِ الشَّديد، والإحساسِ بالتّقصير[4].

3) ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾: (سرع) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ البُطْءِ، فالسَّريعُ: خِلافُ البَطيءِ[5]، ويُستعمل في الأجسام والأفعال، يُقال: سَرُعَ، فهو سَريعٌ، وأسْرَعَ فهو مُسْرِعٌ، وأسْرَعوا: صارت إبلُهم سِراعاً[6]، ويُقال: أسرعَ إلى كَذا وكَذا؛ يُريدونَ أسرَعَ الْمُضيَّ إليه، وسارَعَ بمعنى أسرعَ؛ يُقالُ ذلكَ للواحِد، وللجميع: سارَعوا[7]، والمُسارَعَةُ: التَّعْجيلُ، والمُراد بـ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ في الآية: المضيُّ بسُرعةٍ في عملِ الخير معَ التنافس على أعمالِ الطّاعة والإحسان، وهو كنايةٌ على الحرص على عملِ الخير وعدم فواته.

4) ﴿سَٰبِقُونَ﴾: (سبق) أَصلٌ يدُلُّ على التَّقْديم، يُقالُ سَبَقَ يَسْبِقُ سَبْقًا[8]، والسَّبْقُ: القُدْمةُ في الجَرْيِ وفي كُلِّ شَيءٍ؛ تَقولُ: لَهُ في كُلِّ أمْرٍ سُبْقَةٌ وسابِقةٌ وسَبْقٌ، والجَمْعُ: الأسْباق والسَّوابِقُ[9]، ويُستعارُ السَّبْقُ لإحراز الفَضْلِ والتَّبريز، وعلى ذلك: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠﴾ [الواقعة: 10]؛ أيْ: المُتقدِّمون إلى ثواب اللّه وجنَّته بالأعمال الصّالحة[10]، والمفادُ من السَّبْقِ في الآية: التَّمثيلُ للتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكثارِ مِنَ الخَيراتِ[11].

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 19/ 252.
(2) الخليل، العين، والرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (وجل).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (وجل).
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5087.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سرع).
(6) الرّاغب، المُفردات: (سرع).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (سرع).
(8) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سبق).
(9) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، وابن منظور، لسان العرب: (سبق).
(10) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (سبق).
(11) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 78.

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُخبر الحقُّ تعالى عن صفة المُؤمنين الرّابعة، وهي: إيتاءُ المال صدقةً وعَطاءً، والحالُ أنَّ قُلوبَهم خائِفةٌ مِن رُجوعِهم إلى ربِّهم، وبَعْثِهم يومَ القيامةِ للحِسابِ والجَزاءِ، فيَخافونَ ألّا يُتقبَّلَ منهم[1]، يقول اللّه تعالى: أولئكَ الموصوفونَ بما سبقَ تفصيله من الأوصاف الجليلة يُبادرونَ بنيل الخيرات الدنيويَّة والأُخرويَّة؛ تَقرُّبًا إلى اللّهِ تعالى، ونَيل الدَّرَجاتِ، وهم لأجلها سابقونَ النّاس إلى الثَّواب، لا أولئك الَّذين أمدَدْناهم بالمال والبنين فظنّوا غيرَ الحقِّ أنَّ ذلك إكرامٌ منّا لهم، فإنَّ إعطاءَ المال والبنين والإمدادَ بهما لا يُؤهِّلُ للمُسارعة إلى الخيرات، وإنَّما الّذي يؤهِّل للخيرات هو خشيةُ اللّه وعدمُ الإشراك به وعدمُ الرّياء في العمل والتّصديقُ باللّه معَ الخوفِ منه[2].

المؤمنون في وجَلٍ من لقاءِ ربِّهم مع ما يُعطَوْن من حَسَناتٍ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواو) في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ﴾ عاطفةٌ جملةَ الموصولِ على الموصولاتِ قبلَها، دالّةٌ على تشريك هؤلاء الممدوحينَ بهذا الإخبار بين كلِّ مضامين هذه الجُمل، وما حملَتْه من أوصاف، وأفاد العطف الجمعَ بين أعمالِ القلوب وأعمالِ الجوارح؛ لأنَّ القلب إنَّ تحقّقَ إيمانه وتصديقُه، وثبتت خشيته للّه؛ فإنّه يتقرّب إليه تعالى بأعمال الطّاعات، ومن أجَلِّها الإنفاق، فيكون جامعُ العطف خياليًّا بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح؛ لتقارُنِها في الخيال وتلازُمِها فيه.

الجمعُ بين أعمالِ القلوبِ والجوارحِ سرُّ كمالِ الإيمان

نكتةُ تكرارِ الاسمِ الموصولِ:

الموصولُ في الآية هو الموصول الرّابعُ تتاليًا معَ ما سبقَه، ونسقًا

انفرادُ الصِّفاتِ بالعنايةِ والاهتمامِ برهانُ المكانةِ والجلالِ

(1) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 66، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 480، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 33، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 554.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 72، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 34، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 554، ومجمع البحوث، التّفسير الوسيط: 6/ 1305.

عليه، بدءًا من قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ ٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 56 - 60]، ولم يكتفِ النَّظمُ بـ(الموصول الأوّل) بحيثُ يُعطَف عليه ما بعدَه، فلم يَقُل: (وبآياتِ ربِّهم يُؤمنون، وبربِّهم لا يشركون، ويُؤتون ما آتوا وقلوبُهم وجِلة)، وذلك ليستقلَّ كلُّ واحد من الموصولات بصلتِه، فتكون كلُّ واحدةٍ من الجُمل الموصولةِ محلَّ اهتمامٍ ومدحٍ بصفةٍ مستقلَّةٍ، وليس فقط بضميمتِها وتبعيّتها لما قبلَها؛ فيكون "المقصودُ الفريقَ الذين اتَّصفوا بصلةٍ من هذه الصِّلات"[1]، وللإيذانِ باستقلال كلِّ واحدةٍ من تلك الصِّفات بفضيلةٍ باهرةٍ على حيالها، وتنزيلًا لاستقلالها منزلةَ استقلالِ الموصوف بها[2]؛ فالعطفُ بترك الموصول يُعطي للجملةِ الأولى فقط صفةَ المركزيَّة والهيمنةِ على غيرها من المعطوفات، وتكونُ بقيّةُ المعطوفات تابعةً لها على أنَّها صفاتٌ أقلُّ شأنًا وأضعفُ أثرًا، فأعاد النَّظمُ الموصولاتِ وكرَّرها تلميحًا إلى أنَّ كلّ موصولٍ وصلته بما اشتمل عليه من وصفٍ له دورٌ أساسٌ ومركزيٌّ في هذا المدح للمؤمنين، وأنَّ كلَّ صفةٍ اتَّصفوا بها لها تميُّزُها الدّالُّ على شدَّة الإيمان وكماله.

فضلُ الأعمالِ في استمرارِها وإن قلَّتْ

براعةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المضارعِ ﴿يُؤۡتُونَ﴾:

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمضارعِ ﴿يُؤۡتُونَ﴾ مع ذِكْر أنَّهم آتوه، لبيان أنَّ المُسارِعين إلى الخيراتِ لا يكتفونَ بمسارعةٍ واحدة، وإلّا ما كانوا أهلًا للمدح بهذه الصّيغة ﴿يُؤۡتُونَ﴾ الدّالّة على أنَّ هذا الإيتاء يتكرَّر منهم، ويستمرُّ ويتجدّدُ كلَّما تجدَّدتْ مظانُّه، ووُجِدت محالُّه، فتراهم يَبذلون صدقاتِهم ويَنثرونها في أهلها المُحتاجين،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 77.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.

ولا يَكتفون بالمفروض منها؛ بل يَزيدون عليه تنفُّلًا وقُرْبًا رِضًا من أنفسِهم، وشكرًا لِمَن أنعمَ عليهم.

نكتةُ استعمالِ مادّةِ (الإيتاء):

إذا طابتِ النُّفوسُ تسامحَتْ في الإنفاقِ وتسارعَتْ في البذلِ والعطاءِ

اختارَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ ﴿يُؤۡتُونَ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ المُتصدِّقين يبذلونَ ما يَبذلون، ويُنفقون ما يُنفقون عن رضًا وسماحةِ نفسٍ وطيِّبِ خاطر، وليس قَهرًا أوْ جَبرًا، فمادّة الإتيان فيها معنى: السّهولة في الإنجاز[1]، وجرت عادةُ القرآن الكريم على ربطِ دفعِ الصَّدقات وبذلِها بلفظ الإتيان، تنبيهًا على أنَّ بذلَها لا يكون إلّا بهذا الطَّريق السَّهل السّمح الّذي يتغلَّب فيه المُكلَّف على شُحِّ النّفس المفطورة على حبِّ المال أشدَّ الحبّ وأبلغَه، كما قال سبحانه: ﴿وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ٢٠﴾ [الفجر: 20] حتّى يستحقَّ المرءُ بأنْ يكونَ مِن أولئك الَّذين مدحَهم الله بأنَّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾.

نوع ﴿مَآ﴾ ودلالتُها:

(ما) موصولةٌ دالّةٌ على العمومِ المُستغرقِ لكلِّ نفقةٍ

﴿مَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ اسمُ موصول مُبهمٌ، وعُبِّر بها دون (الذي) لدلالتها على العمومِ والإبهام، فيُقصَد بها إلى جمع المُراداتِ الكثيرة بأخصر لفظٍ؛ فهي أجمعُ من غيرها وأخصر، والمُراد أنّهم وجِلون خائفونَ من التّقصير في كلِّ عملٍ صالحٍ يعملونه، وكلِّ نفقةٍ يُنفقونها فريضةً كانت أوْ تطوُّعًا، قليلةً كانتْ أوْ كثيرةً، حَذِرون من عدمِ قبولِها، كما أفاد الإبهام في ﴿مَآ﴾ أنَّ النّفقة لا يُشترط فيها أن تكونَ عظيمة المقدار، فقد تصدرُ عن فقيرٍ لكنَّها في الميزان عظيمةٌ، ولذا نكّرها وأبهمها لتشمل القليلةَ أيضًا؛ لأنَّ صاحبَها لا يملكُ فاضلًا عن حاجته إلّا إيّاها، فكأنّ المُرادَ: (يُؤتون أيَّ شيءٍ).

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (أتى).

الدّلالةُ على الاستغراقِ الزّمنيّ للإنفاقِ وعملِ الخيرِ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي الواقعِ في حيِّزِ المضارعِ:

التَّعبيرُ بصيغةِ الماضي ﴿ءَاتَواْ﴾ للدّلالةِ على التّحقُّق والقطعِ بالوقوع؛ أيْ: ما بذلوه وأنفقوه من الصَّدقات بالفعل المُتحقِّق والمُنجَز، فهم قومٌ يعملون غير مُكتفين بالقول، فيكونُ قولُهم أمانيَّ لا مصاديقَ لها، وفي الجمعِ بينَ الفعل المضارع ﴿يُؤۡتُونَ﴾ المُتسلِّط على الموصول، والفعل الماضي ﴿ءَاتَواْ﴾ الواقعِ صلةً دلالةٌ لطيفةٌ على أنَّهم حال إعطائهم الصّدقةَ في الماضي كانوا مُستمرّين عليها، فلم يكنِ الماضي قد صدرَ مرّةً واحدةً؛ بل هو ماضٍ مُستمرٌّ، وما استمرَّ في الماضي لعِلّة فإنّه مستمرٌّ في الحاضر والمستقبل؛ فأفاد هذا الجمع بين الزَّمنيْن أنَّ إيتاءهم الصَّدقات مُستغرقٌ جميعَ أزمنةِ وجودهم.

كلُّ ما تجودُ به النَّفسُ مرضاةً لله تعالى صدقةٌ عظيمةٌ

بلاغةُ الكنايةِ ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾:

جاء التَّعبير بقوله تعالى: ﴿مَآ ءَاتَواْ﴾ كنايةً عن (الصّدقات)، دون أن يقولَ: (والذين يؤتون صدقاتهم) أوْ (نفقاتهم)؛ ليعمَّ كلَّ أصناف العطاء المطلوب شرعًا، وليعمَّ القليلَ منه والكثير، ولو ذَكَرَ (الصّدقات)؛ لظُنَّ أنَّ المقصودَ هي الصَّدقاتُ الواجبة، والمُرادُ عمومُ الصَّدقات الواجبةِ والتطوعيَّة؛ فالكلام عن البَذْل والإنفاق من حيث هو على شرط سماحة النَّفس ومحبَّة الإيتاء، دون نظرٍ إلى قَدْرِه أوْ نوعِه أوْ حُكْمِه.

وَجَلُ القلوبِ كمالُ إيمانٍ وثمرةُ إحسانٍ

بلاغةُ جملةِ الحالِ:

معنى قوله تعالى: ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾؛ أيْ: خائفون أشدَّ الخوف، وقد ولَجَ الخوفُ في دواخل قلوبهم وجالَ في كلِّ جزءٍ منها؛ لأنَّهم عالِمون بأنَّهم لا يَقدرون اللّه حقَّ قدرِه وإنِ اجتهدوا[1]، وجملةُ الحال ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ جاءتْ بعدَ جُمَلٍ مُتعاطفةٍ، فحقُّها أنْ تعودَ إلى جميع الجُمَل الّتي قبلها، وجملةُ الحال تفيدُ تقييدَ مضمون ما

---

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 160.

قبلها، فهم عندما يفعلونَ تلك الأفعال لا يشعرونَ بالرّاحة والرِّضا عندما يُفكّرونَ ويستشعرونَ صعوبةَ الحساب؛ أيْ: يفعلون ما ذُكر من الأعمال الصّالحة بقلوبهم وجوارحهم، وهم مضمرونَ وجَلًا وخوفًا من ربِّهم أنْ يَرجعوا إليه فلا يجدونَه راضيًا عنهم، أوْ لا يجدونَ ما يجِدُه غيرُهم ممَّن يسبقُهم في الصّالحات، فهم لذلك ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ ويُكثرون منها ما استطاعوا، وكذلك كان شأنُ المسلمين الأوَّلين(1).

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميّة:

عراقةُ الخوفِ من اللهِ ولقائِه نموذجٌ إيمانيٌّ رفيعٌ

دلَّت الجملةُ الاسميّة ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ على تحقُّق هذا الوصف في المُنْفِقين، وأنَّه سجيَّةٌ وطَبْعٌ ومَلَكَةٌ ثابتةٌ راسخةٌ قد تمكَّنت في نفوسهم، وهذا أبلغ من التَّعبير بالفعليّة، فلم يَقُلْ: (ووجلتْ قلوبُهم)؛ لأنَّ الجملة الاسميّة تفيدُ الثُّبوت والدّوام، فهم أثناءَ تقديمِ أعمالِ الطّاعات القلبيَّة والجسميَّة خائفونَ من عدم القبول، مُشفِقونَ من هَوْل الحساب وصعوبته، ومن ثَمَّ يَنشطون دائمًا في أعمال الخيرات مُسارعين.

غرضُ اختيارِ مُفرَدَة القلوبِ:

ذكرُ القلبِ مدحٌ وثناءٌ وتذكيرٌ وتحذيرٌ

جاء استعمالُ مُفرَدَة القلوبِ في قوله تعالى: ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾ المأخوذ من التقلُّب، دون لفظ (الفؤاد)، وذلك لبيانِ أنَّهم وإن أنفقوا فإنَّ القلوب معرَّضةٌ للتقلُّب، ولا يأمنُ مكرَ اللّه أحدٌ، فهم يخشَون ذهابَ الأجر والثَّواب إنْ زُحزحت قلوبهم عن الطّريق وشعروا بالعُجْب والغرور مع طاعاتهم، ففي التَّعبير بالقلب مدحٌ لهم على الثّبات، وإبرازٌ لمنّة اللّه عليهم في تثبيتهم، وتحذيرٌ وتذكيرٌ بأنَّ هذه القلوبَ بيد اللّه تعالى، وقد "كان رسول اللّه ﷺ يكثرُ أنْ يقول: "يا مُقلِّب القلوب ثبِّتْ قلبي على دينِك"، فقلتُ: يا رسول اللّه،

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 77.

آمنّا بك وبما جئتَ به، فهل تخافُ علينا؟ قال: نعم، إنَّ القلوبَ بين أُصْبُعَيْنِ من أصابعِ اللّه يُقلِّبُها كيف يشاءُ"[1].

نكتةُ إسنادِ الوجَلِ إلى القلوبِ:

وجـلُ القـلـبِ يسـتـلـزمُ وجَـلَ البدنِ كلِّه

أُسنِدَ الوجَلُ إلى القُلوبِ إسنادًا حقيقيًّا؛ لأنَّ القَلْبَ يَكثُرُ إطلاقُهُ في كلامِ العَرَبِ على إحساسِ الإنسانِ وقَرارَةِ إدراكِه، وليسَ المُرادُ به هذا العُضْوَ الصَّنوبريَّ الّذي يُرسِلُ الدَّمَ إلى الشَّرايينِ[2]، وفي إسنادِ الخوفِ والاضطرابِ الشَّديدِ إلى القلوبِ دلالةٌ على أنَّهم بجميعِ أبدانِهم ينتابهم فزعٌ عندما يُؤتون ويستذكرون لقاء اللّه، لكن ذُكِر القلب وهو محلُّ الإدراك باعتبار أنَّه إنْ شعر بالخوف والقلق فإنَّ البدن كلَّه يرضخُ له وينقادُ، ويُحسُّ بقشعريرة تنثالُ إلى أطرافه وأجزاءِ جسمِه الأخرى، فيكون في ذِكْرِ (القلوب) وحدَها مجازٌ مُرسَلٌ علاقتُه الجزئيّةُ.

دلالةُ اختيارِ مُفرَدَة ﴿وَجِلَةٌ﴾:

الـوَجَـلُ يجمعُ إلى فزعِ الخوفِ رجاءَ القبولِ

آثر النَّظمُ استعمالَ مُفرَدَة ﴿وَجِلَةٌ﴾ دون (خائفة)؛ لأنَّ التَّعبير بالوجَل أدلُّ على حال المُنفقينَ في سبيل اللّه وأنسبُ لمقامهم من التَّعبير بـ(الخوف)؛ فالوجَلُ أخصُّ من الخوف من حيث إنَّه خوفٌ يُمازِجُه طمَعٌ وفزَعٌ؛ أيْ: والحال أنَّ قلوبهم بين خوفِ الرَّدِّ وفزَعِه ورجاءِ القبولِ وطمَعِه[3].

حذفُ حرفِ التّعليلِ:

بيانُ علَّةِ الوجَلِ مــع صـــلاحِ العملِ

قولُه تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾، مجرورٌ بحرفِ تعليلٍ محذوفٍ، فهو مصدرٌ مُؤوَّلٌ تقديره: (لرجوعهم إلى اللّه)، وحذفُ حرفِ الجرِّ مُطّردٌ مع (أنّ)، والغرضُ من التّعليل بيانُ سرِّ الخوف

(1) سُنن التّرمذيّ، كتاب أبواب القدر، الحديث رقم: (2140).

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 9/ 256.

(3) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 170.

الّذي ينتابهم، والفزعِ الّذي يُقلقهم، والطّمع الّذي يدفعُهم للرّجاء، وهذا التّعليل مناطُ المدحِ لهم والإكرامِ لمقامِهم السّامي.

غرضُ التّوكيدِ:

الثِّقةُ بالجزاءِ مع ذِكْرِ الوَجَلِ يحتاجُ إلى توكيدٍ يُبيِّن أهميَّةَ الخشية

التّوكيدُ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ دالٌّ على الاهتمام واليقينِ بالحُكم، حيثُ لا يوجَد شاكٌّ ولا شكٌّ في الرّجوع إليه تعالى عندهم، فينصرف التّوكيد إلى الاهتمام وتيقُّن الرجوعِ بسبب وجَلِهم، وهو رجوعهم إلى ربِّهم بأعمالٍ يخشَون عدمَ قبولها مع الرَّجاء والطَّمع فيه، فمقتضى الإنفاقِ الثِّقةُ بالجزاءِ الأحسن، والوَجَلُ مع الثِّقة يحتاجُ إلى نوعِ توكيدٍ يورِّث الأهميَّة بمثل هذا المقام، ويُفيد وصولَهم درجةَ اليقين بلقاء اللّه تعالى حتّى خافوا ورهِبوا اللِّقاء.

نكتةُ الإضمارِ في: ﴿أَنَّهُمْ﴾:

توحُّد الضَّمير وتعدُّد المرجع يجعل المُتعدِّد واحدًا

عبَّر السّياق الحكيم بضمير الغائب في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ ليكون جامعًا للموصولات الأربعة؛ فكأنَّهم طائفةٌ واحدةٌ مُتّصفةٌ بما ذُكِر في حيِّز صلاتها من الأوصاف الأربعة[1]، فالضَّمير ليس عائدًا إلى الذّوات المُعبَّر عنها بالموصول فقط؛ بل راجعٌ إليها بقيد صِلاتها المُتضمِّنة تلك الأوصاف الجليلة، والجمعُ بينها بضميرٍ واحدٍ يدلُّ على أنّهم مع تكثُّرهم بمنزلة طائفةٍ واحدةٍ لا تكثُّر فيها حقيقةً.

فائدةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تقديمُ الجارِّ والمجرورِ لإفادةِ الاهتمامِ والاختصاصِ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ على الخبر ﴿رَاجِعُونَ﴾؛ لإفادة الاهتمام والاختصاص، فسببُ وجَلِهم هو كون هذا الرّجوع إلى ربّهم لا إلى غيره، الّذي يخجَلون من تقصيرهم في حقِّه بما قدَّموه من أعمالٍ على صلاحِ وصفِها وكمالها، وليس أنَّهم وجِلون من الرُّجوعِ نفسِه، فهم مُؤمنون بالبعث والحساب، ففيه إشارةٌ إلى أنَّهم دائمو

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.

التَّفكير في الرّجوع إلى اللّه تعالى، ومن هذا الرّجوعِ المُنحصِرِ باللّه تعالى يتحصَّل الوجلُ الشَّديد.

دلالةُ استعمالِ حرفِ انتهاءِ الغايةِ:

الرّجوعُ إلى اللهِ حضورٌ في المحشَرِ للجزاءِ

استعمالُ حرفِ انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يُشير إلى البدايةِ، وهو الإيمان باللّه تعالى، فإنَّ مُقتضى الإيمان باللّه ابتداءً الإيمانُ بالرُّجوع إليه انتهاءً، والرُّجوعُ إلى اللّه تعالى معناه الحضورُ في المَحْشَر للحِسابِ والجزاء، وإنّما سُمّي الحضور للمحشر رجوعًا إلى اللّه تعالى؛ لأنّه مالكُ يومِ الدّين المُتصرِّف فيه، المُحاسبُ لعباده على أعمالهم.

بلاغةُ اختيارِ عنوانِ الربوبيّةِ:

إحسانُ الظَّنِّ بالرزّاقِ يستوجبُ الإنفاقَ وتركَ الاضطرابِ

إيثارُ التَّعبيرِ باسم الربِّ دون الاسم الجليل (اللّه) فيه دلالةٌ على الرّجاء الّذي يملأُ قلوبَهم رغمَ ما بها من خوفٍ وفزعٍ واضطراب، وفيه مدحٌ لهم وثناءٌ عليهم؛ لأنهم مُعترفونَ بإحسان ربِّهم إليهم وإنعامِه عليهم؛ فإنَّ إنفاقهم هو إيمانٌ بأنَّ ما يُنفقونه هو رزقُ اللّه لهم، وأنَّه سيرزقُهم في المستقبلِ كما رزقَهم في الماضي، وفيه تعريضٌ بغيرهم من المُشركين الَّذين قابلوا إحسانَ ربِّهم إليهم بالكفر والنكران، كما أنَّ في العدول إلى (الربّ) دلالةً على ما يتلاءم مع حالة الخوف؛ لأنَّ فيه معانيَ العظمة والقوَّة والسّيادة والتّصرُّف المُطلق، وبذلك يتناسب لفظ (الرَّبّ) مع حالتي الرَّجاء والخوف معًا.

نكتةُ إضافةِ لفظِ الرَّبوبيّة إلى الضَّميرِ:

التَّشريفُ والتَّخصيصُ دليلُ الاعتقادِ الحقِّ

أُضيف وصفُ الرّبِّ إلى الضَّمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ تشريفًا لهم، ورفعةً لمقامهم؛ فهو ربُّهم الّذي رزقهم وأعطاهم وأمدَّهم بالعطاءِ الجزيل، والمَدَد الوفير، كما تُفيدُ الإضافةُ التَّخصيصَ بأنَّ ربَّهم هو الحقُّ، وأمّا بقيَّة الأربابِ الّتي يدِّعيها العابدون أربابًا مُختَرَعةً فمحضُ افتراءٍ وكذبٍ.

براعةُ استعمالِ مُفرَدَة ﴿رَٰجِعُونَ﴾:

في استخدام مُفرَدَة ﴿رَٰجِعُونَ﴾ ردٌّ على مَن يُنكرون البعث استعظامًا له، وينسَون أنَّ الّذي يُعيدهم ويَبعثُهم هو الّذي خلقهم أوّل مرّةٍ، فالرّجوعُ هو العَوْدُ إلى مكانٍ كان منه البَدْء[1]، فهم راجعونَ إلى مَن بدأ خلْقَهم وإلى المكانِ الّذي كان أبوهم فيه، بما يدلُّ على أنَّ استعظام أمرِ البعث ليس في محلِّه، فلو حاكموا أنفسَهم إلى مُقتضياتِ العقلِ السَّديد والبرهانِ الواضح علِموا أنّهم مُخطئون؛ لأنَّ وجودهم هو أكبرُ دليلٍ على قدرة مَن أوجدهم، وعلى قدرته على إعادتِهم وإرجاعِهم إليه، وهذا القياس له في القرآن وجودٌ مُتكرّرٌ وبأساليب متنوعة؛ منها قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ [الرّوم: 27] وقوله: ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَاۖ قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٍۚ﴾ [الإسراء: 51] وقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡىِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ٧٨ قُلۡ يُحۡيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلۡقٍ عَلِيمٌ ٧٩﴾ [يس: 78 - 79].

الـرُّجـوعُ إلى اللـهِ تعالى هيئةٌ نفسيَّةٌ واستعدادٌ روحيٌّ واعتقادٌ راسخٌ

دلالةُ استعمالِ صيغةِ اسمِ الفاعل:

عبَّر بصيغة اسم الفاعلِ ﴿رَٰجِعُونَ﴾ للدِّلالةِ على كمالِ إيمانِهم بعقيدةِ حدوثِ البعثِ والرّجوعِ إلى اللّهِ، وأنَّ اعتقادَهم هذا لم يُفارقْ قلوبَهم لحظةً؛ لأنَّ (اسم الفاعل) يدلُّ على حدوثِ هذا الرّجوع لا محالةَ في وقتٍ مّا، وأنَّهم مؤمنون بهذا الحدوث إيمانًا راسخًا ثابتًا لا يتزلزل، ومن ثَمَّ كانت قلوبُهم عريقةً في الوَجَل من ذلك الرّجوع واللّقاء.

رسوخ الإيمان في الفؤاد دليل على الإيمان بالمعاد

غرضُ الخبرِ وبلاغتُه:

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ جملة اسميّة وقعت خبرًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ﴾ [المؤمنون: 57] وهي مسوقة

تخصيصُ المؤمنين بالمدحِ والثّناء، والتّعريضُ بالمشركين

(1) الرّاغب، المُفردات: (رجع).

لبيانِ مَن له المُسارعة في الخيرات، إثرَ إقناطِ الكفّار عنها وإبطالِ حِسبانهم الكاذب؛ أيْ: أولئك المنعوتونَ بما فُصِّل من النعوت الجليلة خاصّة، دون أولئك الكفرة، يُسارعون في نيل الخيرات الّتي من جملتها الخيراتُ العاجلة الموعودة على الأعمال الصّالحة[1]، فغرضُ الخبر تخصيص المؤمنين بالمدح والثَّناء؛ لأنَّ المُسنَد الفعليَّ يُفيد تقويةَ الحُكْمِ وتخصيصَ المحكوم عليه بما تضمَّنَه الحُكْمُ، كما يُفيد هذا التَّخصيصُ التعريضَ بالمشركين.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّة:

المــؤمــنــون مُــبــادِرون إلى فـعـلِ الـخـيـراتِ وقد يُعجَّل لهم بعضُ الجزاءِ

التَّعبير بالجملة الاسميّة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ﴾؛ للدّلالة على ثبوت هذا الجزاء لهم على سبيل الاستمرار، إنْ حملنا الآية على كونها خبرًا عن جزائهم المُعجَّل، أوْ على ثبوت وصفهم بأنّهم مُبادِرون دومًا ومُسارِعونَ إلى فعل الخيرات على المعنى الآخر المُحتَمل، وعلى كلٍّ فالتَّعبير بالاسميّة يؤكّد ثبوت هذه المسارعة لهم واستمرارها، أيًّا كان معناها.

نكتةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

الإشـــارةُ إلى الـمُـنـزَّلِ منزلة المحسوسِ يُفيد عِلّيَّةَ بناءِ الخبرِ

في ابتداءِ الإخبارِ عن الّذين يخشَون ربَّهم باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الدّالِّ على البُعد مدحٌ لهم، وثناءٌ عليهم، وإقرارٌ ببُعد منزلتهم في الفضل وفي الخير، وكذلك في الجزاء عليه، كما أفادتِ الإشارة الموضوعة لـ: "أنْ تَعودَ إلَى ذاتٍ مُشاهَدَةٍ مُعَيَّنَة، إلّا أنَّ العَرَبَ قَدْ يَخْرُجونَ بِها عَنِ الأصْلِ، فتَعودُ إلَى ذاتٍ مُسْتَحْضَرَةٍ مِنَ الكَلامِ بَعْدَ أنْ يُذْكَرَ مِنْ صِفاتِها وأحْوالِها ما يُنْزِلُها مَنْزِلَةَ الحاضِرِ في ذِهْنِ المُتَكَلِّمِ والسّامِعِ، فإنَّ السّامِعَ إذا وعَى تِلْكَ الصِّفاتِ وكانَتْ مُهِمَّةً أوْ غَرِيبَةً في خَيْرٍ أوْ ضِدِّهِ صارَ المَوْصوفُ بِها كالمُشاهِدِ، فالمُتَكَلِّمُ يَبْني

(1) الآلوسي، روح المعاني: 9/ 245.

عَلَى ذَلِكَ فيُشيرُ إِلَيْهِ كالحاضِرِ المُشاهَدِ، فيُؤتَى بِتِلْكَ الإشارَةِ إِلَى أَنَّهُ لا أَوْضَحَ في تَشَخُّصِهِ، ولا أَغْنَى في مُشاهَدَتِهِ مِنْ تَعَرُّفِ تِلْكَ الصِّفاتِ، فتَكْفي الإشارَةُ إِلَيْها"[1]، وبناءُ الأحكام على اسم الإشارة يفيدُ أنَّ تلك الأحكام المبنيّة بسبب تلك الصّفات الّتي أُشير إليها، فهم يُسارعون في الخيرات لأنَّهم اتّصفوا بتلك الصّفات، وأنَّ تلك الصّفات أهّلتهم لكي يكونوا مُسارعينَ في الخيرات.

نكتةُ مجيء المُسنَد فعلًا مضارعًا:

المؤمنون الصّادقون يَنشَطون دائمًا لفعل الخيرات

جاء المُسنَد فعلًا مضارعًا ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ إشعارًا باستمرار مسارعتهم إلى فعل الخيرات، وأنَّ عزائمهم لا تفترُ عن فعلها، وإن فترَت بعضَ الوقت، فسريعًا ما ينشَطون لها من جديد، وإن فُهم من الصّيغة ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى المشاركة، وهو أحد معنَييها، فهي للمبالغة في معناها؛ "لأنَّهم إذا سورِع بما لهم فقد سارعوا في نيلها"[2].

سرُّ استعمالِ المسارعةِ دون المسابقةِ:

المؤمنون وحدَهم يُسارعون في عمل الخير ولا يُنافسُهم فيه أحدٌ

تدلُّ المسارعة على مرحلة سعيٍ لبلوغ الهدف بأسرع وقتٍ، فالمسارعةُ تتقدّمُ السّبقَ والمسابقةَ وتكون آلةً لتحصيلهما، فالمسارعة جريٌ سريعٌ يؤول إلى المسابقة والسّبق، فيكون ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ بمعنى: يُسرعون سرعةً شديدةً، وصيغةُ المشاركة لمجرَّد المبالغة، أَوْ أنَّها تُفيد المُشاركة؛ لأن المؤمنين في حالة تنافس من أجل عمل الخيرات وتحصيلها؛ في حين أنّ المسابقة لازمةٌ للمسارعة وتقتضي الوصول إلى الهدف وإحرازَه مع مشاركةِ طرفٍ آخر في مضمار التّنافس والسّباق والوصول إلى الهدف، فلو عبّر بـ (يسابقون) لدلَّ على أنَّهم يُسابقون غيرهم دون إشارةٍ إلى أنّ السَّبق بسرعةٍ وجريٍ قويٍّ، فكان التَّعبير بالمسارعة، للدّلالة على أنَّهم يُسارعون في عمل

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 1/ 241.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 192، ومحيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 171.

الخير ويُبادرون إليه، وهذا يوصلُهم بدوره إلى السَّبق والمنافسة وإحرازِ الهدف.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ المسارعةِ:

لفظ المسارعةِ مُستعارٌ لتوخّي المَرغوبِ والحِرصِ على الفعل، وصَرْفِ الهِمَّةِ والجِدِّ للخَيْراتِ؛ أيْ: لفعلِها، تَشبيهًا للمُداوَمَةِ والاهتِمامِ بمسارعةِ السّائِرِ إلى المكانِ المقصودِ الجادِّ في مَسالكهِ(1)، ففي الفعلِ استعارةٌ تصريحيّةٌ تبعيَّةٌ.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّةِ:

بيانُ الانغماس في فعلِ الخيراتِ وتضمين المسارعةِ معنى الرغبةِ

جاء التَّعبير بالحرف الموضوع للظَّرفية في قوله تعالى: ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾، وآثَرَه على حرف انتهاء الغاية ﴿إِلَىٰ﴾ [آل عمران: 133]، المستعمل مع الفعل نفسِه في قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ [آل عمران: 133]؛ "للإيذان بأنَّهم مُتقلِّبون في فنون الخيرات، لا أنَّهم خارجون عنها مُتوجِّهون إليها بطريق المُسارعة"(2)، فهم بالفعل مُنغمِسون في فعل الخيرات؛ بل مسارعون في هذا الفعل، ولتضمين ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾ معنى (يرغبون)، أوْ أنَّه كنايةٌ عن الرّغبة(3)، وانظر إلى التناسب في ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ﴾ [آل عمران: 133] و﴿يُسَٰرِعُونَ فِي﴾؛ فإنَّ الأمر بالمسارعة يدلُّ على أنّهم يُطلب منهم الذهاب إلى الخيرات، بمعنى أنّهم لم يتوجَّهوا إليها أصلاً فأمروا بذلك، في حين أنّ المُتحدَّث عنهم هنا قد مضَوا مسبقًا في الخيرات ودأبوا عليها، فجاء الوصف لهم بأنَّهم مُسارعون فيها لا إليها.

معنى التَّعريف الجمعيّ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾:

التَّعبيرُ بلفظ ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ مجموعًا مُعرَّفًا يدلُّ على أنَّ المقصودَ

---

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 17/ 136.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140.

(3) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 6/ 336.

عمومُ معنى الخيرات، فهم يسارعون في كلّ مجالٍ من مجالات الخير سواء تعلق بالمعتقدات أوْ بالأقوال أوْ بالأفعال، وهو ما يدلُّ على أنَّ تنويع أفعال الخيرِ أحبُّ إلى الله تعالى من الاقتصارِ على بعضها.

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَة الخيراتِ دون الصّالحاتِ:

لفظُ الخير أوسعُ دلالةً من لفظِ الصَّلاحِ

استعمال مُفرَدَة ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ أوسعُ دلالةً من مُفرَدَة (الصّالحات)، فقد تُعورف على أنَّ الصَّلاح مرتبطٌ بالأعمال، فيُقال: عملٌ صالحٌ، وفي الكتاب العزيز يتكرَّر كثيرًا: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا الخير فهو أوسعُ من ذلك؛ فيدخل فيه المعتقدات والأعمال والأقوال والعلوم النافعة؛ فقد يكون الخير رأيًا حكيمًا، أو مشورةً سديدةً، ويشمل من باب أوْلى الأعمال الصّالحة، والطّاعات بأنواعها، فالخير: ما يرغب فيه الكلّ[1]، ولا ننسى أن مرجعَ اسم الإشارة الصّفاتُ السّابقة، وهي تجمعُ صنوفًا من الخير تتعلّق بالاعتقاد الحقّ والعمل الصّالح والقول الطيِّب، فناسبتها لفظةُ الخير الشّاملةُ لكلِّ ذلك.

بلاغةُ المُقابلة:

المسارعةُ في الخيرات مفهومٌ قرآنيٌّ يُقصد به الفوز بجنّات النَّعيم

لمّا قال ﷻ قبل هذه الآية عن غير المؤمنين: ﴿أَيَحۡسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ ٥٥ نُسَارِعُ لَهُمۡ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ بَل لَّا يَشۡعُرُونَ ٥٦﴾ [المؤمنون: 55 - 56] فنفى نفيًا ضمنيًّا مستفادًا من الاسْتفْهام الإنكاريّ الداخل عَلَى فعل الحسبان[2]، أنْ يكون ما يقعُ لهم ونيالُهم من نعيم الدُّنيا أنَّه من رضا الله عليهم، ومن مسارعته في منحِهم الخيرات، ناسبَ هنا أن ينصَّ على أنَّ الذين ينالون الخيراتِ ويُسارعون فيها هم المؤمنون الصّادقون، وجزاؤهم أنْ يُسارع الله تعالى لهم في الخيرات؛ وعليه فبين هذه الآية والتي سبقَتْها في

(1) الرّاغب، المفردات: (خيّر).
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 194.

نفي الخيرات عن الكفّار (طباقٌ معنويٌّ)؛ لأنَّ فيه إثبات ما نُفي عن الكفّار للمؤمنين[1].

نوع الواو ودلالتها:

عطفُ اللّازم على الملزوم تحصيل النتيجة بعد الأخذ بالمُقدّمات

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ عاطفةٌ على جملة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ لقصد التّشريك والجمع بينهما، وتأكيد نوال بلوغ الغاية، وهما جملتان متفقتان خبرًا، فيجمعُ بينهما بالعطف، والعطف فيه من عطف اللّازم على الملزوم؛ إذ يلزم من المُسارعة في الخيرات أنْ يكونوا سابقينَ مَن عداهم، وفائزين وفالحين في مضمار السِّباق.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميّةِ بعد الفعليّةِ:

السَّبقُ للخيراتِ سجيّةُ المؤمنين وحَميَّةُ الصّادقين

جاء التَّعبير بالجملةِ الاسميّةِ ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ مدحًا للمؤمنين وثناءً عليهم، وتأكيدًا بأنّ سبقهم غيرَهم إلى الطّاعات ونيلِها هو سجيَّةٌ فيهم، وخُلقٌ ثابت ثباتَ الطّبع لا يتخلَّف عنهم، ومجيئُها بعد جملة ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ تقريرٌ لها تقريرَ النّتيجة لما يَستلزمُها، ولتُفيد الثبوتَ بعدما أفادتِ الأولى التجدُّدَ[2]، ولمّا كانت عملية المسارعة بحثًا عن الخيرات وتحصيلًا لها عبّر بالجملة الفعليّة، ولمّا كان السَّبق والوصول إلى تلك الطّاعات ونيلُها وإحرازُها أمرًا لازمًا لتلك المسارعة وذلك الجري عبّر بالجملة الاسميّة.

نوعُ اللّامِ ومعناها:

اللّامُ محمولةٌ على التَّقوية أوِ التّعليل

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ لتقوية العمل؛ لأنَّ اسم الفاعل ﴿سَٰبِقُونَ﴾ متعدٍّ بنفسه، فهم سابقون إياها؛ أيْ: ينالونها قبل الآخرة، وهذا مبنيٌّ على أنَّ المُراد بالخيرات الجزاءُ الحسنُ الّذي ينالونه مُعجّلًا في الدُّنيا، وإذا فسَّرنا ﴿ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾ بالطّاعات؛

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 3/ 192، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570، والهرريّ، حدائق الرّوح والرّيحان: 19/ 90.

أيْ: فيكون معنى ﴿سَٰبِقُونَ﴾ راغبون في الطّاعات أشدَّ الرغبة، وهم لأجلها سابقونَ فاعلون السَّبق، فتكون اللّام للتّعليل، أو ﴿سَٰبِقُونَ﴾ النّاس لأجلها[1].

مجازيةُ التَّعبيرِ بـ﴿وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾:

الاستعارةُ التمثيليةُ أو المجازُ المُرسلُ لبيان كمال المدح

مدحُ المؤمنين بأنَّهم يُسارعون في أعمال الطّاعات ولا يتأخَّرون عنها، استلزمَ تمثيلَ حالهم بهيئةِ المُتسابق للوصول إلى غايته، فكما أنَّ المتسابق يرغبُ حالة السِّباق والتّنافس بالوصول متقدِّما قبل غيره إلى الهدف المنشود؛ فإنَّ المؤمنين يتنافسون من أجل تحصيلِ أكبرِ قدرٍ مُمكنٍ من الطّاعات، أوْ أنَّ ﴿سَٰبِقُونَ﴾ وحدها بمعنى: محرزون تسميةً للملزوم باسم لازمه ومآله؛ إذ يؤول السّبق إلى الإحراز فيكون مجازًا مُرسلًا، وعلى هذيْن التّوجيهيْن فإن اللّام بمعنى (إلى) وهذا التّوجيه الجديرُ بالقبول ما مال إليه ابن عاشور بقوله: "أنَّهُمْ يَتَنافَسونَ في الإكْثارِ مِنْ أعْمالِ الخَيْرِ، فالسَّبْقُ تَمْثيلٌ لِلتَّنافُسِ والتَّفاوُتِ في الإكْثارِ مِنَ الخَيْراتِ بِحالِ السّابق إلَى الغايَةِ، أوِ المَعْنَى وهُمْ مُحْرِزونَ لِما حَرَصوا عليهِمْ، فالسَّبْقُ مُجازٌ لِإحْرازِ المَطْلوبِ لِأنَّ الإحْرازَ مِنْ لَوازِمِ السَّبْقِ، وعَلَى التَّقْديرَيْنِ فاللّام بِمَعْنَى (إلَى)، وقَدْ قيلَ إنَّ فِعْلَ السَّبْقِ يَتَعَدَّى بِاللّام كَما يَتَعَدَّى بِـ(إلَى)"[2].

غرضُ تقديمِ ﴿لَهَا﴾ على الخبر:

قصرُ همِّهم وسائر شؤونهم على عمل الخيرات

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على الخبر ﴿سَٰبِقُونَ﴾؛ لإفادة الحصر والاختصاص، لكونهم لا يُسارعون إلّا في الخيرات، وهو من قصر الموصوف على الصّفة، وكأنّ نظرَهم وحياتَهم قد سخّروهما

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 140، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 23/ 284، وأبو حيّان، البحر المحيط: 7/ 570.

(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 78.

في طلب الخير وتحصيله، فلا شغلَ لهم عنها؛ بل همُّهم التّنافسُ والمسابقة من أجل الخير وعمله، مع ما في التَّقديم من مراعاة الفواصل، وهي تابعةٌ للدّلالة المعنويَّة.

براعة التَّعبير بـ﴿سَٰبِقُونَ﴾ بعد ذِكْر ﴿يُسَٰرِعُونَ﴾:

المسارعةُ ابتداءُ الأعمالِ والسَّبقُ ثمرتُها

عبّر بمُفرَدَة السَّبق بعد ذِكْر المُسارعة؛ للإشعار بأنَّهم جامعون بين مضمون كلٍّ منهما، فهم في أنفسهم يُسارعون في الخيرات، ويبادرون إليها رغبةً فيها، وهم مع غيرهم لا يرضَون إلّا بأن يكون لهم السّبق؛ فهم مُسارعون ابتداءً سابقون انتهاءً، وهذا من بديعِ الثّناءِ عليهم بأنْ وصفهم بالمسارعةِ في أعمالهم، ثم ثنَّى على ذلك بأنَّهم سابقونَ في مآل الأمر في تحصيل أثر الطّاعات وثمراتها؛ فالعطفُ بين الجُملتَيْن من عطف اللّازم على الملزوم.

نكتةُ الإخبارِ باسمِ الفاعل:

أخبرَ عنهم باسم الفاعل ﴿سَٰبِقُونَ﴾؛ لما فيه من إشعارٍ بأنَّ وصف السَّبق إلى الخيرات والتّنافسِ من أجلها والحرصِ على إحرازها فيهم واقعٌ على سبيل التّجدُّد الاستمراريّ لا ينقطع، فيكون مستلزمًا للرُّسوخ والثّبات والدّوام.

غرضُ حذفِ متعلّقِ ﴿سَٰبِقُونَ﴾:

حُـذِفَ المفعولُ للعلْمِ به إيجازًا، أوْ تنزيلًا له منزلة اللّازم

حُذف مُتعلّق ﴿سَٰبِقُونَ﴾ اختصارًا للعلْم به، ولإفادةِ العموم؛ أيْ: سابقونَ النّاس(1)، أو سابقون غيرهم، أوْ أنَّه نُزِّل هذا الفعل المُتعدّي منزلة اللّازم، للإعلام بوقوع السَّبق منهم من غير نظر إلى مَن سبقوه، كما في الأفعال اللّازمة الّتي لا تحتاج إلى مفعولٍ في مثلِ قوله سبحانه: ﴿يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258] وقوله تعالى: ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ﴾ [البقرة: 187](2).

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 587.
(2) السّمين، الدُّرُّ المَصون: 8/ 354.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

القلب والفؤاد:

القلب ملحوظٌ فيه معنى التّقلُّب، والفؤاد ملحوظٌ فيه التّفوُّد والتّوقُّد

سُمّي القلبُ لكثرة تقلّبه[1] وقابليّته للتّغيير، فالطّبع فيه عدم الثّبات، وهو اسم جنس على هذه المضغة في الجسد، وهو أعمُّ في الاعتبارات من غيره، والفؤاد يُطلَق على ما يُطلق عليه القلب لكن باعتبار معنى التّفوّد فيه؛ أيَ: الحرارة والتّوقُّد، يُقال: فأدْتُ اللَّحْمَ: شَوَيْتُهُ، وهَذا فئيدٌ؛ أيَ: مَشْويٌّ، وسُمّيَ الفُؤادُ بِذَلِكَ لِحَرارَتِه[2]، وعلى هذا كان التَّعبير به في قوله تعالى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ﴾ [القصص: 10]؛ لأنَّ قلبها كان متوقّدًا مُحترقًا على وليدها، ولذلك قال بعده: ﴿إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا﴾ [القصص: 10]؛ أيَ: ثبّتنا قلبها كي لا يتقلَّب بها إلى مكروه، فهنا أُطلق كلٌّ من الفؤاد والقلب على نفس الشّيء وذاته ولكنْ بالاعتبارَيْن المَذكورَيْن.

الخوف والوجل:

الوجلُ أخصّ من الخوفِ مُطلقًا؛ لأنّه جامعٌ بين الخوف والرّجاء

الوَجَلُ استشعارُ الخوفِ[3]؛ أيَ: هو من مُقدِّمات الخوف وليس بخوف، فالخَوْف خلافُ الطُّمَأْنينَة، فيُقال: وجِل الرجل يَوجَل وجَلًا إذا قلِق، ولم يطمئنَّ، ويُقال: أنا من هَذا على وجَلٍ، ومن ذَلِك على طمأنينة، ولا يُقال: على خوفٍ في هَذا الموضع، وفي القُرْآن: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]؛ أيَ: إذا ذُكرت عَظمَة اللّه وقدرته لم تطمئنَّ قُلوبُهم إلَى ما قدَّموه من الطّاعَة، وظنّوا أنَّهم مُقصّرون، فاضطربوا من ذَلِك وقلقوا، ولفظ خافَ مُتَعَدّ، ووَجِل غير مُتَعَدّ، وصيغتاهما مُخْتَلِفَتانِ، وذَلِك يدلُّ على فرقٍ بَينهما في المَعْنى[4]، والوجَلُ مزيجٌ من الخوف والطَّمع، فوجودُ الطّمع والرّجاء فيه مقرونًا بالخوف والرّهبة

---

(1) الرّاغب، المُفردات: (قلب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (فأد).

(3) الرّاغب، المُفردات: (وجل).

(4) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 243.

هو حالُ المؤمنين المطلوب منهم أن يوازنوا بين الخوف والرّجاء؛ وعلى هذا فالوجل أخصُّ من الخوف لأنّه خوفٌ يمازجه طمعٌ ورجاءٌ، ومعنى: ﴿وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ﴾؛ أيِّ: والحال أنّ قلوبهم بين خوف الرَّدِّ ورجاءِ القبول[1].

المسارعةُ والمسابقةُ:

المسابقةُ فيها معنى المشاركةِ، والمسارعةُ لا تقتضيها فهي بمعنى المبادرةِ والتّعجُّلِ

أصل السَّبْقِ: التّقدّم في السّير، والاِسْتِباقُ: التَّسابُقُ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا ذَهَبۡنَا نَسۡتَبِقُ﴾ [يوسف: 17][2] والمسابقة مفاعلةٌ منه؛ أيِّ: لا بدَّ فيه من متسابقَيْن على الأقلِّ؛ ليقوما بالمسابقة والمنافسة فيما بينهما، ومنه المسابقة بالخيل والإبل، وأمّا المسارعة فهي من سرُع، وأصله خلافُ البُطء[3] بما يعني المبادرة إلى الشّيء والتّعجُّل إليه فلا يستدعي مشاركةً غالبًا؛ بل يدلُّ على سرعةٍ مبالغٍ فيها، وقد تُفيد الصّيغة المُشارَكَةَ، كما أنَّ السّابق إلى الشّيء مُحرِزٌ له نائلُه، والسُّرعة من مقدِّماته وموجِباته، فالمسارعة تستلزم السّبق والوصولَ للهدف.

الخيرات والصّالحات:

لفظ الخيرِ أوسعُ دلالـةً من لفظِ الصّلاحِ؛ فهو يشملُ الأعمالَ والأقوالَ والمُعتقَدَ

الخير خلاف الشّرِّ، ويُطلق على العطف والميل إليه[4]، والتَّعبير بـ (الخير) أوسعُ دلالةً من التَّعبير بالصّلاح، فقد تُعورف على أنَّ الصّلاح مُرتبطٌ بالأعمال فحسب، فيُقال: عمل صالحٌ، وفي الكتاب العزيز يتكرَّر كثيرًا ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: 25]، أمّا الخير فهو أوسعُ من ذلك؛ فقد يكون الخير رأيًا حكيمًا، أوْ مشورةً سديدةً، أو شعورًا وعطفًا وحنانًا، أو قولًا طيّبًا أوْ مُعتقدًا صادقًا ونحو ذلك، كما أنَّه أيضًا لسعة دلالته يشمل الأعمالَ الصّالحة، والطّاعات بأنواعها؛ فالخير ما يرغبُ فيه الكلّ[5].

(1) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 170.
(2) الرّاغب، المُفردات: (سبق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (سرع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (خير).
(5) الرّاغب، المُفردات: (خيّر).

﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٢﴾ [المؤمنون: 62]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

دفعُ الأوهامِ من مسلكِ القرآنِ في تقريرِ حُسْنِ الأفهامِ

لمّا أثنى اللّه تعالى على المؤمنين الصّادقين المُخلصين بأنَّهم يُسارعون في الخيرات، وهم سابقونَ في إحرازها؛ فقد يتوهَّم أنَّ من مقتضيات هذه المُسارعة وذلك السَّبق؛ أنْ يأتيَ الممدوحُ بهما، بما لا يُطاق من الأعمال، وأنّ القُربى إلى اللّه تعالى لا تُنال إلّا بذلك؛ فناسبَ نفيُ هذا الفهم الّذي منبعُه الوهم، فقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ ليعلمَ السّالك أنَّ اللّه لم يكلِّفه ما لا يُطيق، فيزداد للّه شُكرًا، وليعلم الهالك أنّه قد فرَّط فيما كانَ في طاقته إتيانُه، فيزداد حسرةً وندامةً.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نُكَلِّفُ﴾: (كلف) أَصلٌ يَدُلُّ على إيلاعٍ بالشَّيْءِ وتَعَلُّقٍ بِهِ[1]، والتَّكليف: تَفْعيلٌ بمعنى جَعَلَهُ ذا كُلْفةٍ، وهو مصدرُ: كَلَّفَهُ تكليفًا؛ أيَ: أَمَرَهُ بما يَشُقُّ عليه، وتَكَلَّفْتُ الشَّيءَ: تَجَشَّمْتُهُ، والكُلْفَةُ: ما تَتَكَلَّفُهُ مِنْ نائِبَةٍ أَوْ حَقٍّ[2]، ويُطْلَقُ التَّكْليفُ على الأَمْرِ بِفِعْلٍ فيه كُلْفَةٌ، وهو اصطلاحٌ شَرعيٌّ جَديدٌ، والمُراد بالتَّكليف في الآية: الإلزامُ بما فيه كُلفةٌ ومَشقّةٌ[3].

2) ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾: (وسع) أصلٌ يَدُلُّ على خِلافِ الضّيقِ والعُسْرِ، يُقالُ: وسُعَ الشَّيْءُ، واتَّسَعَ[4]، والسَّعَةُ تُقالُ في الأمكنة، وفي الحال،

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (كلف).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (كلف).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 3/ 83.
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسع).

وفي الفعل كالقُدرة والجود، ونحو ذلك، ففي المكان نحوُ قوله: ﴿إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ﴾ [العنكبوت: 56]، والوُسْعُ من القُدرة: ما يفضُل عن قُدرة المُكلَّف، قال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ [البقرة: 286][1]، والوُسْعُ: الغِنَى، واللّهُ الواسِعُ؛ أي: الغنيُّ[2]، وأوسعَ الرَّجلُ: كثُر مالُه[3]، والمُرادُ بالوُسْعِ في الآية: القُدرةُ والطّاقَةُ؛ أيْ: ما يتّسع على الإنسان فعلُه ولا يضيقُ عليه[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

تكليفُ الشَّرعِ الحنيفِ في وسعِ المُسلمِ وقدرتِهِ

تُبيِّن الآيةُ أنَّ اللّه تعالى لم يُكلِّف المؤمنين الصّادقين فوقَ طاقتهم؛ لأنَّ الإيمانَ الحقّ إذا خالطَتْ بَشاشتُه القلوب يجعلُها لا تشعر بالمَشَقَّة عند فعل الطّاعات، وإنَّما يجعلها تحسُّ بالرِّضا والسَّعادة والإقدام على فِعل الخير بدون تردُّد، فقال تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا﴾ إلّا ما تُطيقُ حَمْلَه والقيامَ به مِن عِبادةِ اللّهِ والعَمَلِ بشَرعِه، ولدينا صحائفُ أعمالِهم يقرؤونها حينَ الحساب، وتظهرُ فيها أعمالُهم الّتي عمِلوها في الدُّنيا دون لَبْسٍ ولا ريب، ويُجازَوْن على الجليل منها والحقير، والقليل والكثير، ولا نَظلِمُهم بعُقوبتِهم بما لم يَعمَلوا، أوْ بالزّيادةِ في سَيِّئاتِهم، أوْ بالنَّقصِ مِن حَسَناتِهم[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الاستئنافُ تحريضٌ على الطّاعاتِ مُبينٌ عن سهولةِ فعلِها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ استئنافيّةٌ، وسيقت الجملة للتّحريض على ما وُصِف به السّابقون من فعل

(1) الرّاغب، المُفردات: (وسع).
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (وسع).
(3) ابن دُرَيْد، جمهرة اللُّغة، والأزهريّ، تهذيب اللُّغة: (وسع).
(4) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 35.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 73، وابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 148، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 5/ 481، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 35، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 45.

الطّاعات المُؤدّي إلى نيل الخيرات ببيان سهولته وكونه غيرَ خارجٍ عن حدِّ الوُسْع والطّاقة[1]، كما دلّ الاستئناف على استنهاض هِمَمِ المُتقاصِرينَ الظّانّين صعوبةَ ما قدّمه السّابقون، فأوضح لهم أنَّ ذلك المُقدَّم منهم يسيرٌ وسهلٌ؛ لأنَّه داخلٌ ضمن الطّاقة والقدرةِ الإنسانيّة.

دلالة استعمالِ أداة النَّفي (لا):

تكاليفُ الشَّرع سمحةٌ يسيرةٌ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ

استُعملت أداة النَّفي (لا) الداخلةُ على المضارع للدّلالة على أنَّ تكليف النُّفوس فوقَ ما تستطيع لم يكنْ ولن يكونَ في المستقبل، وفي جملة النَّفي تسجيلٌ على المُقصِّرين في حقِّ الإتيان بتكاليفه سبحانه مع كونها يسيرةً غيرَ عسيرة، وتحريضٌ على ما وصَف به الصّالحين - من كونهم يُسارعون في الخيرات ويُسابقون إليها - وتسهيلٌ له على النّفوس[2]، فـ "المُراد استمرارُ النَّفي بمعونة المقام لا نفيُ الاستمرار، أوْ للتّرخيص فيما هو قاصرٌ عن درجة أعمال أولئك الصّالحين، ببيان أنّه تعالى لا يكلِّف عباده إلا ما في وُسعهم، فإنْ لم يبلغوا في فعل الطّاعات مراتبَ السّابقين، فلا عليهم بعدُ أنْ يَبذلوا طاقتَهم ويستفرغوا وُسعَهم"[3].

بلاغةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿نُكَلِّفُ﴾:

كلمةُ التّكليفِ تـدلُّ عـلى ما يُفعلُ بمشقّةٍ دون ما لا يُطاقُ

التّكليف يُقال لما يجبُ التزامُه وفعلُه ممّا يدخل في طوق الإنسان وقدراته، وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ نفيٌ لما لا يتمُّ إلّا بمشقّةٍ مُجهدةٍ خارجةٍ عن الطّوق والقدرة، وهو ما يتنافى مع حكمة اللّه تعالى الّتي قضى بها اليُسر في تشريعاته وتكليفاته، وفي إيثار هذه الكلمة دونَ سواها، حيث لم يَقُلْ مثلًا: (ولا نحمّل أو نلزم)؛ لأنَّ اختيار هذه الكلمة أدلُّ على المُراد، فقد صارت في

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 141.
(2) محيي الدين زاده، حاشيته على تفسير البيضاوي: 6/ 171.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 141.

التّعارف اسمًا للمشقّة، فالتَّكَلُّف: اسمٌ لما يُفعَلُ بمشقّة[1]، والمقصود منها هنا ما فيه كلفةٌ ومشقّةٌ، ولو قال: (لا نُلزِم أو لا نوجِب أو لا نُحمِّل) لربّما أدّى إلى خلاف المقصود، إذ لا يلزم من الواجبات أو التّحميل أو الإلزامات أن تكون فيها مشقّةٌ وصعوبةٌ، فكان اختيار الكلمة للدّلالة على أنَّ قِسْمًا من الواجبات الشّرعيّة فيه صعوبةٌ، لكنّها داخلةٌ ضمن حدود القدرة الإنسانيّة.

بلاغةُ إسنادِ فعلِ التَّكليفِ إلى ضميرِ العَظَمَةِ:

تعظيمُ المُكلِّفِ يقودُ إلى احترامِ التّكاليفِ

في إسناد فعل التّكليف إلى ضمير العظمة، ما يدلُّ على عظمة هذه التّكليفات الصّادرة من العظيم سبحانه، وحينئذٍ يجب على المُكلَّف أن يُشدّد عليها ويحرص على أدائها، وأن يُدرك أنَّ التّكليف بها أمرٌ مأخوذٌ على مَحمَلِ الجدّ؛ فلا يتهاون في أدائها أَوْ يتغافلُ عنها ركونًا إلى رحمةِ المُكلِّف تعالى وحِلْمه العظيم.

نكتةُ استعمالِ مُفرَدَةِ ﴿نَفۡسًا﴾:

التَّمييز بين ما يُطاق من المَشَقّة وما لا يُطاق، هو مـن خصـائص الـنّـفـس الإنسانيّة

النّفس هي موطن الاختبار والابتلاء والفتنة، فقد اختير لفظ (النفس) دون غيره لكون إدراك المَشقَّة وعدمه والتَّمييز بين ما يطاقُ منها وما لا يُطاق من خصائص النَّفس، فالنّفوس القويّة يهون معها الشّديد والصَّعب، فلا ترى في التّكاليف الشّرعيّة مشقَّةً غيرَ مُعتادَة، كما قال سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾ [البقرة: 45]، أمّا النّفوس الضّعيفةُ فإنّها ترى كلَّ تكليفٍ كأنَّه جبلٌ قد كُلِّفت بحمله، ولذا فإنّها تتنصَّل من أيِّ تكليفٍ كان، فلم يَقُلْ: (ولا نكلِّف شخصًا أو إنسانًا)؛ لأنَّ موطن الإدراك في الشّخص والإنسان نفسُه الّتي بين جنبيْه، فشخَّصها وأوضحها تمامَ الإيضاح، فإنِ استشعرت معانيَ الإيمان هان أمامَها كلُّ تكليفٍ، وإنِ اضطربت فيه صعُب عليها الأداء والامتثال، واختيار لفظ (النّفس)

(1) الرّاغب، المُفردات: (كلف).

دقيق للغاية؛ لأن بعضًا من التّكاليف اعتقاديّةٌ ليست عمليّة، والنّفس هي الّتي تدرك تلك التّكاليف، فتُحرِّك الجسم نحوَ الأعمال الخيِّرة.

غرضُ تنكيرِ ﴿نَفۡسًا﴾:

العمومُ يُفيدُ استواءَ النُّفوسِ أمامَ التّكاليفِ

نُكِّرت النَّفس في سياق النَّفي لإفادةِ العموم، والمعنى: لا نُكلِّف أيَّ نفسٍ كافرةٍ أوْ مؤمنةٍ[1]، إلّا ما يكون في طبيعته ممّا تُطيقه النُّفوسُ، وتقدر على الاستجابة له والعملِ به، وأفاد هذا العمومُ استواء النّفس الإنسانيّة في قبول التّكاليف العمليّة والقلبيّة والنُّهوض بها، لكنّها تختلف بقبول الإيمان وعدمه لصفائها وخبثها، ومن ثَمَّ تغدو النّفوس المؤمنة الصّافية قويّةً تستسهلُ التّكاليف، والنّفوسُ الكافرة الخبيثة ضعيفةً تستصعبُ التّكاليف وتضجَرُ منها.

دلالةُ الاستثناءِ المُفرغ:

الحصرُ تطمينٌ للمؤمنينَ وتنبيهٌ للكافرين

الاستثناء في قوله تعالى: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾ مُفرَّغ من أعمِّ العلل والأحوال، وهو مُفيدٌ للحصر والقصر؛ أيْ: لا يُكلّفُ اللّه نفسًا في حالٍ من الأحوال ولا لعلّةٍ من العِلل إلّا بما يكون في وُسعها وقدرتها، وفي هذا الحصر تطمينٌ للمؤمنين بأنَّ تكاليفهم كلها مقدورةٌ لهم وأنَّ اللّه رحيمٌ بعباده لا يكلِّفهم ما لا يُطيقون، ولا يُحاسبُهم عليه، ونقضٌ وهمٍ للكافرين بالتّنبيه إلى أنّه كان بمقدورهم السّيرُ في ظلِّ تلك التّكاليف، والفوزُ بما فاز به المؤمنون.

دلالةُ استعمالِ مُفرَدَة ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾:

تكاليفُ الشَّرعِ في قدرةِ المُكلَّف ووُسعه دون أدنى حرجٍ

الوُسْع هو القدرة[2] والطّاقة، وسُمّي وُسْعًا للتّوسعة على النّفس في فعلِه، "فلفظ ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾ يشير إلى أنَّ النّفس تكونُ عند عمله في سعَةٍ من غير ضيقٍ ولا إحراج، فلا حرجَ في الدّين ولا ضيق، وكذلك كلُّ

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 161.
(2) الرّاغب، المُفردات: (وسع).

تكليفات الإسلام ليس فيها مشقّةٌ فوقَ الطّاقة[1]، ولا أدلَّ على ذلك من ثراء (باب الرُّخص والأعذار) في أداء الفرائض والشّرائع ممّا تزخر به النّصوص الشّرعيّة ويُبلورها الفقه الإسلاميّ، وفي هذه المُفرَدَة إشارةٌ إلى أنَّ التّكاليف في وُسع الإنسان وقدرته البشريَّة، الّتي خلقها اللّه وأنشأها على هذا البنيان المخصوص، الّذي يتحمّلُ أداءَ تلك التّكاليف القلبيَّة والفِعليّة، وهو قادرٌ على أدائها دونَ أن يشعرَ بحرجٍ كبيرٍ؛ لأنّ فيها كُلفةً لكنّها مقدورةٌ.

نكتةُ إضافةِ الوُسْعِ إلى الضَّمير:

لِكلِّ نفسٍ وُسْعٌ خاصٌّ بها ويتزاحمُ في المعالي أهلُ المعالي

أُضيف لفظ الوسع وهو نَكِرة إلى الضَّمير ﴿وُسۡعَهَاۚ﴾ لإفادة التَّخصيص، وفي هذه الإضافة ملمحٌ إلى الرُّخَص الّتي تُخفَّف فيها التّكاليف على أهل الأعذار؛ كالإفطار في نهار رمضانَ للمريض والمسافر على شرط القضاء وقتَ زوال العذر، وكالصَّلاة قاعدًا لِمَن لا يُطيق القيام، ونحو ذلك من الرُّخَص الّتي تُبيح المحظورَ عند الضّيق الشّديد، الّذي يعلو حينًا إلى مستوى الضَّرورة، أوْ يهبط عنها قليلًا إلى مستوى الحاجة، وفي الإضافة إلماحةٌ عجيبةٌ، وهي أنَّ لكلِّ نفسٍ وسعًا خاصًّا بها، واللّه لا يُكلِّفها فوق وسعِها، وإنَّما يتزاحمُ في المعالي أهلُ المعالي.

نوعُ الواوِ ودلالتُها ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ﴾:

التّقارن بين كَونِ التّكاليف مقدورةً وتسجيل الأعمال في الصّحائف

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٞ يَنطِقُ﴾ عطفتْ ما بعدَها على الجملةِ المُستأنَفَة قبلها، وهو مُتمِّمٌ لما قبله ببيانِ أحوالِ ما كُلِّفوه من الأعمال، وأحكامِها المترتّبة عليها من الحساب والثّواب والعقاب[2]، إذ هنالك تناسبٌ واقتران بين التكاليف المقدورةِ وتسجيلِ ما عمِلوه منها في كتابٍ، لا يتركُ صغيرةً ولا كبيرةً إلّا أحصاها، والعطفُ من

(1) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5088.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 141.

عطف اللّازم على الملزوم، والتّقارن بين المُتعاطفين خياليٌّ؛ لعلاقة السّببيّة والمُسبَّبيَّة.

سرُّ اختيارِ الظَّرفِ ﴿وَلَدَيۡنَا﴾:

(لدى) أبلغُ وأخصُّ تعبيرًا وأنسبُ مقامًا من (عند)

التَّعبير بـ (لدى) أبلغُ وأخصُّ من التَّعبير بـ (عند) وإن كانت في معناها، والفرق بينهما أنّ (عند) لا يَستدعي حضورًا، و(لدى) يَستدعيه؛ تقول: عندي مالٌ وإنْ كان غائبًا عن مجلسِك، ولا تقول: لديَّ إلّا وهو بمجلسِك[1]، ويكون الغرض من تشخيص كون الكتابِ لدى اللّه تعالى أنّه كتابٌ شاهدٌ حاضرٌ، لا يغيب عن مجلس الحُكم والقضاء يومَ الدّين، ولذا يقول المُحاسَب حينئذ: ﴿هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ١٩﴾ [الحاقة: 19]، ويقول تعالى: ﴿أَلۡزَمۡنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِي عُنُقِهِۦۖ وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبٗا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: 13 - 14]، فدلّا على أنَّ الكتاب حاضرٌ شاهدٌ لذلك المشهَد الرَّهيب العادل.

نكتةُ تقديمِ الظَّرفِ على المبتدأِ:

قدَّم الظَّرف ﴿وَلَدَيۡنَا﴾ وأخَّر ﴿كِتَٰبٞ يَنطِقُ﴾ لإفادة الاهتمام بالمُقدَّم، والاختصاص بذلك الكتاب الصّادق الّذي لا يوجَد فيه إلّا أعمالُهم المُسجَّلة بكلِّ دقّةٍ وأمانةٍ وحقٍّ، وفي تشخيص المكان وتقديمه إشارةٌ إلى أنّه كتابٌ يختلف عن غيره، إذ دوِّنَ فيه كلُّ صغيرٍ وكبيرٍ.

غرضُ تنكيرِ ﴿كِتَٰبٞ﴾:

الكتابُ هو سِجلُّ الأعمالِ وتنكيرُه للتّفخيم

المُراد بـ(الكتاب) هنا هو سجلُّ الأعمال الّذي سَجَّلت فيه الملائكةُ الكتبةُ أعمالَ الإنسان؛ ليكون حُجَّةً عليه يومَ القيامة، وهو الوارد في قوله سبحانه: ﴿هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيۡكُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّا كُنَّا نَسۡتَنسِخُ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ٢٩﴾ [الجاثية: 29]، ونُكِّر لتفخيم أمره، من حيث إنَّه يحوي كلَّ ما فعله العبد في دنياه لحظةً بلحظةٍ، وحركةً بحركةٍ، فلا يستطيع إنكارَ شيءٍ منه، كما قال سبحانه: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ

(1) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عُمدة الحُفّاظ: (لدن).

﴿كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ مَنشُورًا ١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ١٤﴾ [الإسراء: 13 - 14]، كما يحتمل التّنكير إفادةَ التّنويع؛ للدّلالة على أنّه كتابٌ يختلف عن سائر الكتب المعهودة الّتي تُحصَى فيها الأشياء، فهو نموذجٌ فريدٌ في الإحصاء التّامّ والاستقراءِ الشّامل والدّقيق مع الصِّدق وكمال العدل.

بلاغةُ مجيءِ الصِّفة جملةً فعليّةً:

لا يغادر صغيرة ولا كبيرة

في قوله تعالى: ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ﴾ عبّر بصيغة المضارع ﴿يَنطِقُ﴾ في جملة الصّفة إشارةً إلى كثرة ما دوِّن فيه وما حواه من الأعمال حتّى إنَّه يستمرُّ في إقامة الحُجج على أصحاب الأعمال بعَرْضها عليهم موثَّقة بكلِّ دقَّةٍ؛ فهو كتابٌ ناطقٌ بالحقِّ والصِّدق، يُعطي المعلومةَ المُسجَّلة مسموعةً لا مقروءةً حتّى تكون أبلغَ في الإثبات وأوضحَ في البيان.

نكتةُ الاستعارةِ في ﴿يَنطِقُ﴾:

النُّطق هنا إمّا محمولٌ على الاستعارة بمعنى الدّلالة، وإمّا على الحقيقة

التَّعبير بمُفرَدَة ﴿يَنطِقُ﴾ "يجوز أن يكون نطقَ الكتابُ حقيقةً، بأنْ تكون الحروفُ المكتوبةُ فيه ذاتَ أصوات"[1]، وهذا أمرٌ غيبيٌّ، وهو أمرٌ ممكنٌ، إذ تنطق الجماداتُ بقدرة اللّه تعالى، ويجوز ألا يُراد به حقيقة النُّطق الّذي هو التّكلّم بالأصوات، بأن تكون هنالك استعارةٌ تبعيّةٌ؛ للدّلالة على ما فيه من أعمالٍ مسجَّلة، ويكون نطقُه هو حُجيّتَه القاطعة ودلالتَه السّاطعة على الأعمال، وهذا كما تقولُ لَمن تمدحُه بعملٍ جليل: (تصرُّفُك هذا ناطقٌ بكريم أصلك)، وأنت لا تريد بالنُّطق هنا الكلامَ، ولكنك تُريد أنّه دالٌّ على كريم أصل المُخاطب، وقد يقوّي هذا الاحتمال وأنّه ليس المُراد بالنُّطق هنا الكلامَ حقيقةً قولُه تعالى: ﴿وَنُخۡرِجُ لَهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلۡقَىٰهُ

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 79.

﴿مَنشُورًا ۝١٣ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبًا ۝١٤﴾ [الإسراء: 13 - 14] فإنَّه يُصرِّح بأنَّ الّذي يقرأ الكتاب هو صاحبُه، وأمّا الكتاب فهو يدلُّ على تلك المعاني كأنّه ينطقُ بها، فسُمّيت الدّلالة نطقًا استعارةً لوجود الجامع بينهما وهو الإرشاد إلى معنًى، وفيها مبالغةٌ ظاهرةٌ؛ إذ تتحوَّل الدّلالة إلى نُطقٍ وكلامٍ يُنبئُ عن المكتوب.

بلاغةُ المتعلِّق أو الحال ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ بعد الصّفة:

من حُججِ اللهِ على عبادِه إظهارُ أعمالِهم يومَ القيامةِ كما عملوها بكاملِ تفاصيلِها

قوله تعالى: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ مُتعلّقٌ بـ ﴿يَنطِقُ﴾ على أنّه ظرف لغو، أَوْ بمحذوفٍ هو حالٌ من فاعِله فهو ظرفٌ مُستقرٌّ؛ أيْ: ينطقُ مُلتبسًا بالحقِّ[1] وأيًّا ما كان فإنَّ مجيئَه بعد الصّفة ﴿يَنطِقُ﴾ يدلُّ على أنّ مقام الاستعظام ليس في كون هذا الكتاب ينطق أيًّا كان المُرادُ بالنُّطق، ولكن في كونه ينطقُ بالحقِّ والصِّدق؛ أيْ: يظهر الحقَّ المطابق للواقع على ما هو عليه ذاتًا ووصفًا ويُبيِّنُه للنّاظر كما يُبيِّنه النُّطقُ ويُظهره للسّامع، فيُظهر هنالك جلائلَ أعمالهم ودقائقَها، ويُرتّبَ عليها أجزيتها؛ إنْ خيرًا فخيرٌ، وإنْ شرًّا فشرٌّ[2].

نكتةُ اختيارِ لفظِ الحقِّ دونَ الصدقِ:

الحقُّ يشتملُ على الصِّدقِ وزيادة

التَّعبير ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ أدقُّ وأدلُّ وأثبت؛ فالحقُّ هو الثّابت الّذي لا يزولُ ولا يحول، ومن مظاهره هنا أنْ تكون قد سُجِّلت على العباد أعمالُهم بكامل تفاصيلها، وكأنّها مشاهد وصورٌ تتحرّكُ تُحاكي كلَّ ما قام به الإنسانُ، وأنَّ الأمر ليس مُجرَّدَ خبرٍ يُطابقُ الواقعَ كما هو معنى الصّدق، ولذا قالوا: إنّ الحقَّ ما طابقَه الواقعُ، وأمّا الصِّدق فهو الخبر المطابِقُ للواقع، وبلا شكٍّ فإنَّ المبالغة تكمُنُ في مطابقة الواقع للكلام، وإنْ حصلت في الوقت ذاتِه مطابقةُ الكلام للواقع أيضًا.

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 3/ 579.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 141.

التّلازُم بين نُطْق الكتابِ بالحقِّ وعدمِ الظُّلمِ

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ عاطفةٌ، ودالّةٌ على أنَّ تسجيل الأعمال عليهم في كتابٍ خاصٍّ راجعٌ إلى عدل اللّه المُطلق وفضلِه في محاسبة عباده على أعمالهم دونَ نقصِ ثوابٍ أوْ زيادةِ عقاب، والعطفُ أيضًا من عطف المُسبَّب على السَّبب؛ إذ يلزمُ من كون الكتاب ناطقًا بالحقِّ والصِّدق أنَّه لا يُظلَمُ فيه المحاسبُ شيئًا، كما أنَّ عطفَ الجملة الاسميّة الّتي خبرُها فعليٌّ على الجملة الاسميَّة المَحضَة ﴿وَلَدَيۡنَا كِتَٰبٌ﴾ الموصوف مبتدؤها بالجملة الفعليّة ﴿يَنطِقُ بِٱلۡحَقِّ﴾ أفادَ أنَّ عدمَ الظُّلم مستمرٌّ ومُتجدِّدٌ ما كان هنالك كتابٌ لدى اللّه تعالى ينطقُ باستمرار وتجدُّد بالحقِّ.

نكتةُ مجيءِ المُسنَد إليه ضميرًا:

شمولُ جميع المكلّفين في دائرة الكتابِ المبينِ

استعملَ النظمُ الكريم ضميرَ الجمع (هم)؛ ليشملَ كلا الفريقيْن الصّالحين وغيرَ الصّالحين؛ لأنَّهم جميعًا داخلونَ في كلمة ﴿نَفۡسًا﴾، ولذلك جيء به جمعًا مع أنَّ العائد إليه وهو ﴿نَفۡسًا﴾ مُفرد لفظًا، غير أنَّه هنا لفظٌ عامٌّ معنًى لكونه نكرةً في سياق النَّفي فيدخل فيه كلُّ أفراده، وللدّلالة على أنَّ سلبَ الظُّلم ليس خاصًّا بالمؤمنين فقط؛ بل حتّى الكافرون لا يُظلَمون في ذلك اليوم.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليه على المُسنَدِ الفعليِّ المَنفيِّ:

قُدِّم المُسنَد إليه ﴿وَهُمۡ﴾ على المُسنَد الفعليِّ المَنفيِّ ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ تقويةً للحُكم، وإزالةً للشَّكِّ من قلوبهم، وتأكيدًا لكونهم لنْ يظلموا، ولأجل هذا سُجِّلت عليهم أعمالهم في كتابٍ لا يضلُّ ولا ينسى.

دلالةُ بناءِ فعلِ ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ للمفعول:

التّركيزُ على حدثِ الظّلم دلالةٌ على كمالِ العدلِ

في بناءِ فعلِ ﴿يُظۡلَمُونَ﴾ للمفعول تحقيقٌ لأكثر من غرضٍ؛ منها الاختصار بعدم ذِكْر الفاعل للعلْم به، ومنها تحقُّق معنى الفعل، وتأكيد أنّه لن يقع عليهم ظلمٌ، كما أُسند الفعل للمفعول للدّلالة

على أنَّ الجميع لا يمسُّهم ظلمٌ؛ لأنَّ الكتاب حقٌّ ثابتٌ لا انحرافَ فيه ولا ظُلامة.

نكتةُ استعمالِ مُفرَدَةِ الظُّلم دون البخسِ:

شمولُ الظُّلمِ للبَخْسِ وزيادة مع التَّعريضِ بالظالمين في الدُّنيا

في قوله تعالى: ﴿لَا يُظۡلَمُونَ﴾ استعملَ السّياقُ الحكيمُ مُفرَدَةَ (الظُّلم) دون مُفرَدَة (البخس)؛ لأنَّ البخس معناه: نقصُ الشّيء على سبيل الظُّلم[1]، في حين أنّ المُراد هنا نفيُ أصلِ الظُّلم وليس مجرد النّقص منه؛ أيْ: هم لا يظلمون في قليلٍ ولا كثير، لا على سبيل النَّقص ولا على سبيل الزّيادة، فالكتابُ النّاطقُ بالحقِّ لا يتحقّقُ فيه بخسٌ في عمل أهل الإيمان، ولا زيادةٌ على عمل أهل الطُّغيان؛ بل هي أعمالُهم مُسجّلة عليها، ويوفّيهم اللّه حقوقَهم عادلةً، وفي اختيار هذه اللَّفظة دون البخس تعريضٌ بمَن وقع منه ظُلمٌ في الدُّنيا سواء على نفسه أو على غيره، إذ قد حرَّم اللّه تعالى الظُّلمَ على نفسِه، فيكون هنالك تعريضٌ بالظّالمين.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

النُّطق والكلام:

لفظُ النُّطقِ أعمُّ من لفظِ الكلامِ، فكلُّ كلامٍ نطقٌ؛ وليس كلُّ نطقٍ كلامًا

الكلامُ معروفٌ وهو الأصواتُ الخارجة من الإنسان المُعبّرة بواسطة اللّسان عن المطلوب والمقصود، وأمّا كلمة النُّطق؛ فهي أوسع مدًى ودلالةً، فقد تُطلق على هذه الأصوات، وقد تُطلق على القوَّة الإنسانيَّة الّتي يكون بها الكلام؛ فالنُّطق لفظٌ مشتركٌ - عند المنطقيّين - بين القوّة الإنسانيّة العاقلة الّتي يكون بها الكلام، وبين الكلام المُبرَز بالصَّوت، كما أنّ كلمة النُّطق تأتي بمعنى الدّلالة، فيُقال: (النّاطق) لما يدلُّ على شيءٍ، وعلى هذا قيل لحكيم: ما النّاطق الصّامت؟ فقال: الدّلائلُ المُخبرة والعِبَر الواعظة[2]، فالنُّطق

(1) الرّاغب، المُفردات: (بخس)، والفيروزاباديّ، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 228.

(2) الرّاغب، المُفردات: (نطق).

أعمُّ من الكلام، وكلُّ كلامٍ نطقٌ وليس كلُّ نطقٍ كلامًا؛ بل إنَّ النُّطق قد يُسندُ للمُحاكي فنقول: (نطقتِ البَبَّغاء) ولا نقول: تكلّمت؛ لأنَّ الكلام يكون عن وعي، وهذا يدلُّ على مدى الدِّقَّة القرآنيَّة في استعمال فعل النُّطق مع الكتاب؛ لأنّه مجرّد دالٍّ ومسجِّل للأعمال دون وعيٍ منه بما يقوله ويصدر عنه من أصواتٍ أوْ دلالة، فالجماداتُ والحيواناتُ إنْ صدرت منها أصوات فهي ناطقةٌ لا متكلّمة، وبناءً عليه تكون العلاقة بينهما العموم والخصوص المُطلق؛ إذ يجتمعان في الإنسان، وينفرد النُّطق في الحيوان والجماد، فيكون النُّطق أعمَّ من الكلام أيضًا بهذا الوجه.

﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ ٦٣﴾ [المؤمنون: 63]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قَبْلَها:

الانتقالُ من بيانِ يقظةِ المؤمنين إلى غفلةِ الكافرين

بعد أنْ ذكرتِ الآياتُ السّابقة أعمالَ المؤمنين المُسارعين في الخيرات، وأنَّ اللّه تعالى لم يكلّف النّاس فوق طاقتهم ووُسعِهم، وأنَّ دين اللّه تعالى يتّصفُ بما فيه مصالح العباد في الدُّنيا والآخرة، وأنَّ كلَّ أعمالِ النّاس مسجّلٌ في صحائف أعمالهم، ولا يُظلمون شيئًا، ناسبَ أنْ يُردَف هذا ببيانِ حالِ المُشركين، وأنَّهم في غفلةٍ عن هذا الّذي بُيّن في القرآن، ولهم أعمالُ سوءٍ أُخرى من فنون الكُفر والمعاصي والطُّغيان، كطَعْنِهم في القرآن واستهزائِهم بالنبيِّ ﷺ، وإيذائِهم للمؤمنين[1]، وغير ذلك ممّا هو واقعٌ منهم من سوءِ أعمالهم الّتي أُغرِقوا فيها.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غَمۡرَةٖ﴾: (غمر) أصلٌ يَدُلُّ على تَغطيةٍ وسَتْرٍ في بعض الشِّدَّة، من ذلك الغَمْرُ: الماءُ الكثيرُ؛ وسُمّيَ بذلك لأنَّهُ يَغْمُرُ ما تحتَهُ[2]، ويُقال: هذا رجل غُمْرٌ - بضم الغين وإسكان الميم - إذا غطّاه الجهلُ وجعلَه لا تجربةَ له بالأمور، ويُقال: هذا رجلٌ غِمْر - بكسر الغين - إذا غطَّى الحقدُ قلبَه[3]، والمُرادُ بالغَمْرة هنا: الجهالةُ والضَّلالةُ[4].

2) ﴿أَعۡمَٰلٞ﴾: (عمل) عامٌّ في كلِّ فِعْلٍ يُفْعَلُ[5]، فالعَمَلُ: المِهْنَةُ

(1) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 18/ 37.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (غمر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللُّغة، والرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (غمر).
(4) طنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 42.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (عمل).

والصَّنْعَةُ والحِرْفَةُ، يُقال: عَمَلُهُ البِناءُ والحَفْرُ؛ أيْ: مِهنتُهُ، والعامِلُ: مَن يعْمَلُ في مهنةٍ أوْ صَنْعَةٍ، ورَجُلٌ عَمِلٌ؛ أيْ: ذو عَمَلٍ، وهو يَعُمُّ أفْعالَ القُلوبِ والجَوارِحِ[1]، ويأْتي بِمعنى إحْداثِ الشَّيْءِ وإيجادِهِ[2]، ومِن مَعانيه أيضًا: دَوامُ الشَّيْءِ، والكَسْبُ والتَّصَرُّفُ[3]، وحقيقة العَمَلِ في الآية: كلُّ فِعلٍ يكونُ بقَصْد، أمّا المُراد بقوله: ﴿وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾: فأعمالُهمُ الّتي يعملونَها غيرُ ذلكَ[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

غفلةُ الكفّارِ عن نهجِ الكتابِ أغرقتهم في عملِ السّوءِ بلا حسابٍ

في هذه الآية انتقالٌ من بيان حال المؤمنين إلى بيان حال الكفّار، إذ يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن الكافِرينَ أنَّ قُلوبَهم في جَهالةٍ وغَفلةٍ عن القُرآنِ الكريم، وعمّا تقدَّم من أحوال المؤمنين وحبِّهم للخير، وأنَّ لدينا كتابًا يُسجِّل أعمالَهم عليهم، وللمُشرِكينَ أعمالٌ سَيِّئةٌ رَديئةٌ دونَ أعمالِ المُؤمِنينَ الصّالحةِ الّتي ذَكَرَها اللّه تعالى من كون قلوبِهم في غَمرةٍ وجهالةٍ عن الحقِّ، هم مستمرّون عليها، ومُعتادونَ لفعلها، مُندفعون في ارتكابها بلا وعيٍ أوْ تدبُّر[5]، وهنالك مَن يُرجِعُ الضَّميرَ في قوله تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى المؤمنين، وكذلك سائر الضَّمائر التّابعة، ويؤول معنى الآية بما يتّفق وهذا، فقيل: الضَّمير في ﴿قُلُوبُهُمْ﴾ للمؤمنين، وقوله: ﴿فِى غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا﴾؛ أيْ: هي مغمورةٌ بالإشفاقِ مع هذه الأفعال الحسنة، ﴿وَلَهُمْ﴾؛ أيْ: وللمؤمنين ﴿أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أيْ: أعمال صالحة وهي النّوافل دون الفرائض، ﴿هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ ثابتونَ عليها مُقيمون[6]، وهذا وإن كان مُحتملًا،

(1) ابن سِيدَه، المُخصَّص: 3/ 435.

(2) ابن الأثير، النّهاية، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عمل).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (عمل).

(4) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 17/ 74، ومجمع البحوث، التَّفسير الوسيط: 6/ 1307، وطنطاويّ، التَّفسير الوسيط: 10/ 46.

(6) الهمذانيّ، الكتاب الفريد: 4/ 612.

لكن يبقى إرجاعُه إلى الكفرة أظهرَ، فحملُه على مقام الذَّمِّ والتّهديد والوعيد هو الأقوى، وهو الّذي سيُفسَّر به الكلامُ لاحقًا.

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوع ﴿بَلۡ﴾ ودلالتها:

الانتقالُ إلى ذِكْرِ جهالةٍ أخرى من جهالاتِ المشركين

﴿بَلۡ﴾ هنا للإضراب الانتقاليّ، حيثُ انتقلَ بها إلى ما هو أغربُ ممّا سبقَ من أوصاف المشركين، وهو وصفُ غَمرةٍ أخرى انغمسوا فيها، فغمَرتْ قلوبَهم وأبعدَتْها عن أن تتخلَّق بخُلُق الَّذين هم من خشيةِ ربِّهم مُشفقون، كيف وأعمالهم على الضِّدِّ من أعمال المؤمنين تُناسِبُ كُفرَهم، فكلٌّ يعملُ على شاكلته[1]، وكلمة ﴿بَلۡ﴾ المُفيدةُ للانتقال تُرجّح إرادةَ الكفّار والمشركين؛ لأنَّ الغالب فيها أن تنقلَ الأسلوبَ من مدحٍ إلى ذمٍّ، ومن حالةٍ إلى حالةٍ مُغايرةٍ لها.

دلالةُ إضافةِ القلوبِ إلى الضَّمير:

الغفلةُ محيطةٌ بالقلوبِ المنغمسةِ في الضّلالةِ

أضيف لفظ (قلوب) إلى ضمير المشركين في قوله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ﴾؛ لإفادةِ التَّخصيص، فقلوبهم - أيْ: قلوب الكفرة - وحدَهم دون قلوب المؤمنين في غفلةٍ وجهالةٍ، وأمّا قلوب المؤمنين فهي في يقظةٍ وحياةٍ بالإيمان، وهذا المعنى مُستفادٌ من سياق الكلام، فهو مُستقًى من الإضراب الانتقاليِّ، ومن المقابلة بين طرفَي الإيمان والكفر، فإذا كانت قلوبُ المؤمنين وجلةً أنَّهم إلى ربِّهم راجعون؛ لأنَّها منتبهةٌ واعيةٌ، فإنَّ قلوب الكفار مُغطّاةٌ بأغطية تمنعُهم من الانتباه إلى ما يوعَدون، فلا يتصوّرُ منها الوَجَلُ والقَلَق؛ بل هي في غَمْرة وضَلالةٍ وجَهالة.

غرضُ جمعِ القلوبِ:

تنوُّعُ طرقِ الضَّلالةِ وتعدُّدُ الأباطيلِ

جُمعت (القلوب) في قوله تعالى: ﴿قُلُوبُهُمۡ﴾ إشارةً إلى كثرة

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

الغافلين عن هَدْيِ القرآن الحكيم المُناهضين لكلِّ خلقٍ قويمٍ، وإيماءً إلى كثرةِ طُرُق الضَّلالةِ، وتعدُّدِ أنواعِ الباطلِ، فالقلبُ هو وعاءُ العقائدِ والأفكارِ، فلمّا جُمِع دلَّ على كثرةِ الضَّلالات وامتداد الأباطيل وتنوُّعها بتنوُّعِ مِلَلِ الكفرِ وأباطيله.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّةِ باستعمالِ مُفرَدَةِ ﴿غَمۡرَةٖ﴾:

أهلُ الباطلِ مُنهمكون فيه غارقون في بحارِه بحيثِ لا يرون سِواه

أصل (غمر) يدلُّ على التّغطية الشَّديدة والسِّتر الكامل حتّى لا يبقى للشّيء المُغطَّى أثرٌ، ولذلك يُقالُ للماء الكثير: (غَمْر)؛ لأنّه يغمرُ ما تحته ويُغطّيه، والغَمْرَةُ الانهماكُ في الباطل واللهو، وسُمّيت غمرةً؛ لأنّها تستر الحقَّ عن عين صاحبها، وغَمَرات الموت: شدائدُه الّتي تغشى، وكلُّ شدَّةٍ غمرةٌ[1]، فمُفرَدَة ﴿غَمۡرَةٖ﴾ تدلُّ على كامل الانغماس في الباطل والسّوء، بما لا يسمحُ بوجود شيءٍ من الخير معهُ ولو كان يسيرًا، فقد غمَرها الضّلال غَمرًا، كما يُغرقُ الماء الكثير ما تحته فيُخفيه فلا يُبْقي له أثرًا، وعليه ففي مُفرَدَة الغَمرة استعارةٌ تصريحيّةٌ عن الغفلة، حيث شبِّهَت الغفلة بالغمرة بجامع السّتر[2] والتّغطية، وفي هذا التّشبيه تشخيصٌ للغفلة المعنويَّة، وكأنّها مكانٌ مغمورٌ بالماء لا يصلُه نداءٌ ولا يَعي شيئًا، ولا ينتفعُ بموعظةٍ؛ فهي غفلةٌ مُستحكمةٌ وظلالة قويّةٌ قد أخذت بمجامع قلوبهم، فكانوا لا يخشَون حِسابًا ولا يَرجون نشورًا، وبهذه الاستعارة أدركنا سرَّ كونِ قلوبهم لا توجَلُ من سماع الآيات، بأنّها قد غُمرت وغُطّيت بوابل الضَّلالات، وبذلك تحقَّق الطِّباق بين قلوب المؤمنين الوجِلة وقلوب الكافرين الغافلة والضّالَّة.

غرض تنكير ﴿غَمۡرَةٖ﴾:

تفخيمُ غفلةِ الكافرين بيانٌ لسرِّ ضلالهم

نُكِّرت مُفرَدَة ﴿غَمۡرَةٖ﴾؛ لتؤكّد المعنى الّذي دلّت عليه مادَّتُها، وهو

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المُفردات: (غمر).
(2) ابن التَّمجيد، حاشية ابن التَّمجيد مع حاشية القُونويّ: 13/ 196.

عمومُ تغطيتها لأمرِ مَن وقع فيها، ولبيانِ أنَّ كلَّ مَسلكٍ وطريقٍ سوى الحقِّ المبين هو ضلالةٌ مُضلَّةٌ، وعمًى مُفلج، وأفاد التنكيرُ تفخيمَ شأنِ تلك الغفلة وتعظيمَ أثرها على تلك القلوب الماكثة فيها، وعلى أنَّها غمرةٌ من نوعٍ عجيبٍ بحيث يرون الآيات ولا ينتفعونَ بدلالاتها، ويسمعونَ الحقَّ ولا يفقهون منه شيئًا.

غمرُ القلوبِ بالضَّلالةِ وتَدُ خيمةِ الجهالةِ

بلاغةُ الجملةِ الاسميّة:

دلَّت الجملة الاسميّة ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ على ثبات المشركين في باطلِهم، فلا يتزحزحون عنه قيدَ أنملة، ولا ينفكّون عنه لحظةً، فحياتُهم في الباطل مستغرِقةٌ كلَّ أحوالهم وأوقاتهم، ويُرشّح هذا الثَّبات ما ذُكِر في شأن الاستعارة من الغرقِ في بئرِ الضَّلالة، وتشبيهِ الغفلة بالغَمرة الّتي تغمرُ العقول والقلوب، فلا يبقى لها شأنٌ في النّظَر الموصِل إلى الحقِّ، كما أنَّ الجملة الاسميّة بيّنَتْ مَنشأ عدم كونِ قلوبهم لا توجَل من آيات القرآن وبراهينه؛ فهي بمثابة السَّببيَّة المُعلِّةِ عدمَ انتفاعِهم بالآيات.

حرفُ (من) محمولٌ على المجاوَزَة أو السّببيَّة أوِ الابتداءِ

نوعُ حرف ﴿مِّنۡ﴾ ودلالتُه:

حرفُ ﴿مِّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِّنۡ هَٰذَا﴾ يحتملُ البدليَّة؛ أيّ: ﴿قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ وغفلةٍ شديدةٍ تُباعدهم عن هذا[1]، فهي بمعنى (عن) المفيدةِ للمُجاوزة، فتكونُ الغفلةُ مؤثّرةً في حركتِهم حتّى إنَّها تُباعدُهم عن طريق الهدايةِ والرُّجوع إلى الحقِّ المبين، أو تكون دالةً على السَّببيّة؛ أي قلوبهم في غفلة بسببِ ما رأوه من أحوال المؤمنين وإقبالِهم على اللّه تعالى حَسَدًا وحِقْدًا وتجبُّرًا؛ أيّ: قلوبُهم في غَمرةٍ بسببِ رُؤية حالِ المُؤمنين بتقديمِ الآخرةِ على الدُّنيا، وتحتملُ ابتداءَ الغاية أيضًا؛ أيّ: قلوبهم في غفلة تبتدئ من رؤية حال المؤمنين، أوْ من رجوعهم إلى ربِّهم.

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

فائدةُ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للقريبِ:

الدَّعوةُ إلى التَّأملِ في حالِ الفريقيْن المُتناقضيْن

استعمل النَّظمُ الكريم اسمَ الإشارة ﴿هَٰذَا﴾ الموضوع للقريب في قوله تعالى: ﴿بَلۡ قُلُوبُهُمۡ فِي غَمۡرَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾ لقُرب ذِكْرِ المُشار إليه، وهو صفاتُ المؤمنين ﴿ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ
٥٧ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ ٥٨ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ
٥٩ وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ ٦٠
أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَهُمۡ لَهَا سَٰبِقُونَ﴾ [المؤمنون: 57 - 61]، وفيه بيانُ المفاصلة بين المتيقِّظين والغافلين، وبين الذين هم من خشية ربهم مُشفقون، وبين الَّذين هم عن خشية ربِّهم غافلون؛ فالإشارة تُقوّي عنصر التَّأمل والتَّفكُّر في حال الفريقيْن المُتناقضيْن، كما تحتملُ الإشارةُ بقرينة ذِكْر القلوب الغافلةِ عن هذا مقابلَ القلوب الوجلة للمؤمنين أنْ يكونَ المرجع هو ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾، فهم غافلونَ عن الرّجوع والحشر والحِساب والوقوفِ بين يدي اللّه.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الدّلالةُ على التّشريك والجمع بين هذه الأعمالِ المُشار إليها وما سبقها

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٞ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ للعطف، عطفتْ ما بعدها على ما قبلَها، وهي دالّةٌ على التّشريك والجمع بين هذه الأعمالِ المُشار إليها، وما سبق ذِكْره من غفلة القلوب وضلالها، وبذلك يجتمعُ وصْفا الكُفر القائم بالقلوب معَ أعمالِ الجوارح المُنحرفة عمّا أمر اللّه به أوْ نهى عنه، فهم لم يكتفوا بالضَّلال القلبيِّ عن الإيمان؛ بل عملوا بمقتضى ضلالاتهم أعمالًا مُنافيةً لأعمال الخير والصَّلاح، وبذلك يحسُنُ العطف للاقتران الخياليِّ الجامع بين الكفر مُعتقدًا والمعاصي عَمَلًا.

نكتةُ تقديم ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المُسنَد إليه:

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿وَلَهُمۡ﴾ على المُسنَد إليه ﴿أَعۡمَٰلٞ﴾ تعريضٌ بحقارة أعمالِهم الّتي هي دونَ الإيمان والعمل الصّالح؛ فهي

أعمالٌ صادرةٌ عن الغفلة، وناشئةٌ من مَعين الضّلالة، وهذه الأعمال الذّميمةُ مخصوصةٌ بهم، ومقصورةٌ عليهم لا تتجاوزُهم إلى غيرهم، وإنْ قُصرت الأعمال الذّميمة عليهم فلا أعمال لهم إلّا الغفلةَ والدّناءةَ والشّرور، قال ابن عاشور: "وَلامُ ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٌ﴾ لِلاخْتِصاصِ، وتَقْديمُ المَجْرورِ بِها عَلَى المُبْتَدَأ لِقَصْرِ المُسْنَدِ إلَيْهِ عَلَى المُسْنَدِ؛ أيْ: لَهُمْ أعْمالٌ لا يَعْمَلونَ غَيْرَها مِنْ أعْمالِ الإيمانِ والخَيْراتِ"[1].

الأعمال الذّميمة مقصورةٌ على المشركين ولا يَنشَطون لغيرها

فائدةُ الجمعِ والتّنكير:

جُمِعت الأعمال في قوله تعالى: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٌ﴾ للتّكثير؛ أيْ: أعمال كثيرةٌ تصبُّ في بئر الضّلالة والهوى، وأمّا التّنكير فغرضه التّهويلُ؛ والمعنى: لهم أعمالٌ كثيرةٌ من أعمال الباطل، هي أردأُ ممّا ذُكِر، ولكثرتِها لا يتّسع المقام لتفصيلها، ولجسامتِها وهولِها لا يحسنُ ذِكْرُها ولا يجمُلُ الإفصاحُ عنها.

أعمالُ الباطلِ إذا تكاثَرَتْ تساقَطَتْ

نكتةُ استعمال مُفرَدَة ﴿أَعۡمَٰلٌ﴾:

استعمل النّظمُ الكريم مُفرَدَةَ ﴿أَعۡمَٰلٌ﴾ دون (أفعال)؛ لأنَّ العمل هو ما يكونُ عن قصدٍ وإدراكٍ، بخلاف الفعل فقد يكون بغير قصد، ولذلك فإنَّ ما يُنسَبُ إلى الحيوانات هو فعلٌ وليس عملًا[2]، والفعل يُطلقُ على ما يمرّ سريعًا وينقضي ولا يكون له أثرٌ، أمّا العملُ فيُقال لما يكون له أثرٌ باقٍ[3]، ومن ثَمَّ فالتّعبير بالعمل أوْلى من التّعبير بالفعل، لما ذُكِر من تعيُّن القصد، وعُمْقِ الأثر الّذي تخلّفه أعمالُهم القبيحة.

أعمالُ المُشركين صادرةٌ عن آثمٍ، وأثرُها في الحياةِ جاثمٌ

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها:

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿مِّن دُونِ﴾ للبيان[4]، أوْ على بابها من الدّلالة على الابتداء؛ أيْ: ﴿وَلَهُمۡ أَعۡمَٰلٌ﴾ مُبتدِئة من أدنى رتبةِ التّكذيب

(من) بيانيّة أو ابتدائيّة دالّةٌ على تفاوت أعمالِ الضّلال

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 18/ 81.
(2) الرّاغب، المُفردات: (عمل - فعل).
(3) أبو حيّان التّوحيديّ، المُقابسات، ص: 280، والرّاغب، المُفردات: (عمل).
(4) أبو زهرة، زهرة التَّفاسير: 10/ 5090.

من سائر المعاصي لأجل تكذيبهم بالكتاب المُستلزم تكذيبَهم بالبعثِ المُستلزم عدمَ الخوف المُستلزم الإقدامَ على كلِّ مُعضلة[1]، وأفادت (من) أنَّ الأعمال تتفاوتُ، وأعلاها الكفرُ والشّركُ والغفلةُ عن الله ولقائه، وأدناها سائر المعاصي والمُنكَرات.

أعمالُ الباطلِ في سُفْلٍ ودون، وأعمال المؤمنين في رفعةٍ وسُموٍّ

لطيفةُ استعمالِ ﴿دُونِ﴾:

كلمة ﴿دُونِ﴾ مع دلالتها على ما تدلُّ عليه (غير) من حيث المعنى، فإنَّها تضيفُ دلالةً أُخرى يستدعيها السّياق أحيانًا، وهو دلالتها على الدّونيَّة والسُّفْل في المنزلة، ولذلك أوثر التَّعبير بـ ﴿دُونِ﴾، وقُدِّم على التَّعبير بكلمة (غير)؛ أيْ: لهم أعمالٌ تبدأ من دون ذلك، فهم من سُفْلٍ إلى آخر، وتدلُّ كلمة ﴿دُونِ﴾ هنا على المخالفة الكاملة لأحوال المؤمنين؛ أيْ: هم ليسوا أهلًا للتَّحلّي بمثل تلك المكارم السّامية الرّفيعة[2]؛ بل هم أهلٌ للدّون والسُّفْل والأردأ من الأخلاق، واختيرت كلمة ﴿دُونِ﴾ على كلمة (غير)؛ لأنّ المغايرة لا تفيدُ تفاوت أعمالِ الضَّلال، بخلاف ﴿دُونِ﴾ الدالّة على أنَّ هنالك أعمالًا ضالّةً بالغةً في الضَّخامة؛ وهي الكُفْر بالله ولقائه والرُّجوع إليه، ثمَّ يعملونَ أعمالًا دونَها في الضَّلال والخطيئة، ونلحظُ في صورة أعمالِ المؤمنين السّابقة أنّهم ﴿يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ﴾؛ أيْ: أعمالها، فعرّفها وبيَّنها ووصفَها، وهنا عبّر عن الأعمال المنحرفة بأنّ لهم أعمالًا ولم يقدِّم لها نعتًا، فندركُ بقرينة المقابلة أنَّها أعمالٌ شرّيرةٌ ومُنكرةٌ.

المشركون في بُعْدٍ شديدٍ وغفلةٍ عميقةٍ

سرُّ استعمالِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ بعد استعمالِ القريبِ:

استُعملَ اسم الإشارة للبعيد في قوله: ﴿مِّن دُونِ ذَٰلِكَ﴾ بعد الإشارة إلى أعمال المؤمنين باسم الإشارة للقريب، وسِرُّ استعماله بيانُ بُعد منزلة المُشار إليه في القُبْح، وهو شركُهم وكفرهم المدلول

(1) البقاعيّ، نَظْم الدُّرر: 13/ 163.
(2) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 80.

عليه بكلمة ﴿غَمۡرَةٖ﴾؛ فهي المُشار إليه من حيث اللَّفظ، ثم هي دالّةٌ على انغماسهم في الباطل وغمْره إيّاهم، وأبطلُ باطلهم هو كفرهم وشركهم، ففيها مقابلةٌ حسنة بين الفريقَيْن، فريقُ المؤمنين المُشار إليه بالقرب، وفريق المشركين المُشارُ إلى غفلته بالبُعد الدّالِّ على القُبْح والتهاوي في الباطل، وتحتملُ الإشارة الأولى بـ (هذا) أنَّ قلوبهم في غمرةٍ من الرّجوع إلى اللّه تعالى لكفرهم به، ولذا استعمل اسمَ الإشارة للقريب؛ لأنَّ المُشار إليه قريبٌ لفظًا، وهو قوله ﴿أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾ فكانوا في غمرةٍ من هذا الأمر القريب ذِكرًا، ولمّا تكلَّم عن أعمالهم ذَكَرَ أنَّ لهم أعمالًا ومعاصيَ هي دون ذلك العملِ المُنكَر العظيم، وهو إنكارُهم الرّجوعَ إلى ربِّهم للحساب والجزاء.

بلاغةُ الجملةِ الاسميّةِ:

دوامُ المُشرِكِ على أعمالِهِ قبيحٌ لثباتِ حالِهِ

جملة ﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ في مَحلِّ رفعٍ صفةٌ لـ ﴿أَعۡمَٰلٞ﴾، وجيء بها جملةً اسميّة؛ لإفادة مُداومتهم وثباتهم عليها؛ فهم مُستمرّون عليها لا يُقلعون عنها، لكثرة انغماسهم فيها[1]، والتَّعبير بهذه الجملة دالٌّ على أنّهم عاملون لها على سبيل الحقيقة، كي لا يُفهم غير ذلك، جاء في تفسير ابن عرفة: فإن قلتَ: ما أفاد قوله تعالى: ﴿لَهَا عَٰمِلُونَ﴾؟ قلنا: أفادَ نفيَ احتمالِ كونهم مأمورينَ بها، أوْ أنّهم تسبَّبوا في فعل غيرهم لها فنُسِب إليهم، لما أنَّ فاعل السَّبب فاعلٌ للمسبَّب، فنفى هذا الاحتمال ببيان أنّهم بأنفسهم عاملونَ لها حقيقةً[2].

نكتةُ مجيء المُسنَد إليه ضميرًا:

صدورُ تلك الأعمال الذَّميمة على سبيل المُباشرة والرّغبة والتَّعمُّد

جاء المُسنَد إليه ضميرًا في قوله تعالى: ﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ تحقيرًا لهم؛ فهم لسوء أعمالهم أقلُّ شأنًا من أن ينالوا شرفَ التّصريح بذِكْرهم، كما أفاد ذِكْرُ المُسنَد إليه بيانَ صدور تلك الأعمال منهم

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 18/ 81.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 3/ 210.

على سبيل المُباشَرة دون التسبُّب؛ فيكون توكيدًا على تعمُّدهم تلك الأعمال، ورغبتِهم في عملها ومسارعتِهم من أجلها، وبذلك تتحقَّقُ المقابلةُ بين فريق المؤمنين المُسارعين في الخيرات بأنفسهم وفريقِ الجاحدين بلقاء ربّهم الذين يُباشِرون أعمالهم الذّميمة بأنفسهم راغبينَ فيها مُتعمِّدين لفعلها.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهَا﴾:

التّعريضُ بالأعمالِ الخبيثة المُضادَّة للأعمال المَرضيَّة

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهَا﴾ على المُسنَد ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ إمّا لإفادة الاختصاص لقصر القلب؛ أيْ: لا يعملون غيرها من الأعمال الصّالحة الّتي دُعوا إليها؛ وإمّا لرعاية الفاصلة؛ لأنَّ القصر قد أُفيد بتقديم المُسنَدِ إليه[1]؛ أيْ: هم لها لا لغيرها عاملون، ففيه تعريضٌ بأنَّ أعمالهم على الضِّدِّ من الأعمال الفاضلة، والأخلاق الفاضلة الّتي ارتضاها الحقُّ سبحانه للمؤمنين، وفيه إيماءٌ بمدح المؤمنين.

معنى اللّامِ ودلالتُها:

المقابلةُ بين الفريقيْن على مستوى المُعتقَد والعمل

(اللّام) في قوله: ﴿هُمۡ لَهَا عَٰمِلُونَ﴾ لتقوية العمل[2] شأنُها شأنُ اللّام في قوله آنفًا: ﴿لَهَا سَٰبِقُونَ﴾، وقيل: هي لام الاختصاص[3] وكلاهما مُحتمَلٌ، وبهذا تتمُّ المقابلةُ بينَ كونِ المؤمنين مُختصّينَ بالسَّبق والإحراز للأعمال الفاضلة والخيِّرة، وكونِ الكافرين مُختصّين بالأعمال الضّارَّة والشّرّيرة.

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الفاعلِ:

التّقابلُ بين (سابقون) و(عاملون) يُفيدُ اختلافَ الهدفِ والنّتيجةِ

عبَّر الذِّكر الحكيم باسم الفاعل ﴿عَٰمِلُونَ﴾ دون الفعل، فلم يَقُلْ: (يعملون) للدّلالة على أنّهم راسخونَ وثابتون ومُستمرّون على عمل تلك القبائح وما هو أقبحُ، وفي لوحة المؤمنين اختارَ النَّظمُ اسمَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 81.
(2) القونوي، حاشيته على تفسير البيضاوي: 13/ 197.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 18/ 81.

الفاعل ﴿سَٰبِقُونَ﴾ وهنا اختار ﴿عَٰمِلُونَ﴾؛ لأنَّ المؤمن بعمله ينوي التّنافسَ لإحراز الثَّواب والأجرِ النّاجم عن التّسابُق والحصول على الخيرات، وهؤلاء يعملون ولا ينتظرونَ ثوابًا أَوْ سَبْقًا أَوْ إحرازًا لهدفٍ، فهي مجرّدُ أعمالٍ لا تُنتج ثمرةً مقصودةً، ولذا قال المولى تعالى في حقّهم: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ [الفرقان: 23].

المحتويات